Mngool.com

ظهر الإسلام

الجزء الأول

يبحث فى الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية
من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجرى

تأليف
أحمد أمين

الطبعة الثالثة

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الخامسة بـيروت

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

وهذه هى المرحلة الثالثة بعد « فجر الإسلام وضحاه » .

ومعذرة إلى القارئ الكريم من طول الفترة بين ظهور هذا الجزء وآخر جزء من ضحى الإسلام ، فإن ما كُلِّفته من عمادة كلية الآداب لم يترك لى زمناً صالحا للسير فى هذه السلسلة ؛ فلما تخليت عنها احتجت إلى زمن آخر أروض فيه عقلى ونفسى على العودة إلى معاناة البحث ، والصبر على الدرس .

واليوم فرغت من إعداد هذا الجزء ، وقد قصدت به أن يكون مقدمة لدراسة واسعة للحركة العقلية فى النصف الأخير من القرن الثالث ، وفى القرن الرابع ، وهى أوسع حركة وأخصبها وأعمقها فى تاريخ المسلمين إلى اليوم . وقد حزرت أن يستغرق وصفها خمسة أجزاء ، أحدها للأندلس .

عنيت فى هذا الجزء بناحيتين :

(١) وصف للحياة الاجتماعية فى هذا العصر ، فليس يمكن فهم الحياة العقلية إلا بفهم بيئتها التى نشأت فيها ، والعوامل التى ساعدت عليها ، وطبيعة الناس الذين أنتجوها ونحو ذلك .

(٢) ووصف لمراكز الحياة العقلية ، ونوع الحركات العلمية والأدبية التى ظهرت فى كل إقليم وخصائصها ، وأشهر رجالها ، وهو وصف موجز ونظرة شاملة

خاطفة ، أردت منها أن تكون نقطة ارتكاز يتبعها تفصيلها والتوسع فيها فيما يأتى بعدُ من أجزاء إن شاء الله .

وفى سبيل الله ما لقيت من عناء ، وخاصة فى القسم الأخير ؛ فقد تجاهل مؤلفو تاريخ العلوم ومؤلفو كتب التراجم — غالباً — الناحية الإقليمية والزمنية ، فأرخوا الحركة العلمية على أنها وحدة ، وترجموا للمؤلفين من غير مراعاة لأزمنتهم ولا أمكنتهم ، وكل ما راعوا هو ترتيب أسمائهم على حروف الهجاء ، فأحمد فى القرن الثانى فى العراق بجانب « أحمد » فى القرن السادس أو السابع فى مصر ، وهكذا ؛ فمن أراد أن يفرز علماء كل عصر وحدهم ، وفى كل قطر على حدة تحمل من العناء ما لا يقدر . ولم يحملنى على سلوك هذا الملك فى التأليف مجرد الرغبة فى إيضاح الحركة العلمية والأدبية وزمانها ومكانها ؛ بل إن تحديد زمانها ومكانها يعين على تفهم أسباب وجودها وطبيعة تكوينها ، فالموشحات والأزجال لم توجد فى الأندلس دون غيرها اعتباطا ، ولا المقامات نشأت فى إقليم خراسان مصادفة ، ولا الحركة الفلسفية أزهرت فى العراق أول الأمر اتفاقا . وإنما ذلك كله يرجع إلى أسباب طبيعية حتمية ، وما كان يمكن أن يكون غير ذلك ، فتعيين زمن الحركة ومكانها معين على فهمها فهماً علمياً صحيحاً ، وهذا ما قصدت إليه .

والله أسأل أن ينفع به كما نفع بسابقه ، وأن يعين على إتمامه .

أحمد أمين

مصر الجديدة — الجمعة { ١٦ ربيع الثانى سنة ١٣٦٤
٣٠ مارس سنة ١٩٤٥ }

فهرس

الصفحة

الكتاب الأول

الكتاب الثانى

الصفحة

الكتاب الأول

فى الحياة الاجتماعيــة

من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجرى



الباب الاول

سكان المملكة الإسلامية

عنصر الأتراك — فى هذا العصر الذى نؤرخه ، ظهر فى المملكة الإسلامية عنصر كبير بجانب العنصرين العظيمين — الفرس والعرب — وهو عنصر الأتراك ، وكان له أثر كبير فى تاريخ الأمة الإسلامية وحياتها السياسية والاجتماعية .

ذلك أن المعتصم الذى تولى الخلافة سنة ٢١٨ استقدم سنة ٢٢٠ قوماً من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من البلاد التى نسميها « تركستان » وما وراء النهر ، « اشتراهم و بذل فيهم الأموال ، وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب ، وأمعن فى شرائهم حتى بلغت عِدَّتهم ثمانية آلاف مملوك ، وقيل ثمانية عشر ألفاً » وهو الأشهر[1] .

وسبب اتجاه المعتصم إلى الأتراك يرجع إلى أمور :

١ — أن أهم عنصر فى الجند كانوا إلى عهد المعتصم هم الخراسانيين ، وهم فُرس من خراسان ، وكانوا عماد الدولة العباسية نحو قرن ، من عهد إنشاء الدولة إلى المعتصم ، كما كانوا حرس الخلفاء ؛ وكان بجانب هؤلاء الجنود من الفرس جنود من العرب ، من مضر واليمن وربيعة ، ولكن هؤلاء العرب كانوا أقل شأناً وأقل حظوة ، وأقل عدداً من الفرس .

ضعفت ثقة الخلفاء بالعرب على ممر الأيام ، إذ رأوهم لا يتحمسون للقتال لهم تحمس الفرس . وقد تقدم أن رجلا تعرض للمأمون بالشام وقال له :

---

(١) النجوم الزاهرة ، ٢/٢٣٢ .

« يا أمير المؤمنين ، انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم أهل خراسان » ! ولكن المعتصم بدأ يشعر أيضاً بضعف ثقته بالفرس ، وذلك أن كثيراً من الجند لما مات المأمون كان هواهم مع ابنه العباس ، لأن أم المأمون فارسية ، فدعتهم عصبيتهم للمأمون — نصف الفارسي — أن يتعصبوا لابنه العباس أيضاً .

وذكر « الطبرى » أن الجند شغبوا لما بويع لأبى إسحاق (المعتصم) بالخلافة ، فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة ، فأرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره فبايعه (العباس) ثم خرج العباس إلى الجند فقال : ما هذا الحب البارد ! قد بايعت عمى ، وسلمت الخلافة إليه . فسكن الجند[٢] .

لم تمر هذه الحادثة على المعتصم من غير أن تدعوه إلى التفكير العميق حتى لا يتكرر مثل هذا الحادث ، ففكر أن يستعين بقوم غير الفرس وغير العرب ، فهداه تفكيره إلى الترك ، وظل لا يصفو للعباس ولا العباس يصفو له حتى اتهم العباس بأنه يدبر مؤامرة لاغتيال المعتصم ، فقبض على العباس وسجن ومنع عنه الماء حتى مات .

٢ — وسبب آخر لاستدعاء المعتصم للترك ، وهو أن أم المعتصم أصلها من هذه الأصقاع التركية ، فقد كانت من السُّغد ، واسمها ماردة ، وكان فى طباعه كثير من طباع هؤلاء الأتراك ، من القوة والشجاعة والاعتداد بقوة الجسم ؛ « كان يجعل زند الرجل بين أصبعيه فيكسره » . ويقول أحمد بن أبى دُواد : « كان المعتصم يخرج ساعده إلىّ ويقول عض ساعدى بأكثر قوتك ، فأمتنع ، فيقول : إنه لا يضرنى ! فأروم ذلك فإذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلا عن الأسنان »[٢] ! فدعته العصبية التركية والتشابه الخلقى أن يفكر فى استدعاء الأتراك ففعل .

---

(١) طبرى : ١٠/٣٠٤ .　　(٢) تاريخ الخلفاء : ١٣٣ .

استكثر المعتصم من الأتراك حتى ملئوا بغداد وضايقوا أهلها ، قال المسعودى : « كانت الأتراك تؤذى العوام بمدينة السلام بجريها بالخيول فى الأسواق وما ينال الضعفاء والصبيان من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمه لامرأة أو شيخ كبير ، أو صبى أو ضرير ؛ فعزم المعتصم على النقلة معهم ... فانتهى إلى موضع سامرّا ، فأحضر الفعلة والصناع وأهل المهن من سائر الأمصار ، ونقل إليها من سائر البقاع أنواع الغروس والأشجار ، فجعل للأتراك مواضع متميزة ، وجاورهم بالفراغنة والأشروسنية . . . وأقطع أشْناس التركى وأصحابه من الأتراك الموضع المعروف بكرخ سامرّا الخ »[1] . كان من هؤلاء الأتراك مسلمون أسلموا على أثر فتح المسلمين لبلادهم فى العصر الأموى ، ومنهم مجوس وثنيون أخذوا يسلمون عند استقدام المعتصم لهم ، وكانوا يتكلمون التركية فأخذوا يتعلمون العربية ، وقد عرفوا بالشجاعة والصبر على القتال كما عرفوا بخشونة البداوة وقسوة الطبيعة ؛ وحافظ المعتصم على دمائهم أن تبقى متميزة فجلب لهم نساء من جنسهم زوّجهن لهم ، ومنعهم أن يتزوجوا من غيرهم .

مكن المعتصم للأتراك فى الأرض ، وكانوا فى أول أمرهم قوة للدولة ، و بسببهم — على الأكثر — يرجع انتصارهم على الروم فى وقعة عمورية سنة ٢٢٣ ، فكانت القيادة العليا فى يد الأتراك وعلى رأسهم أشْناس .

☆ ☆ ☆

من ذلك التاريخ دخل فى نزاع العصبية عنصر قوى جديد ، فقد كان النزاع قبلُ بين الفرس والعرب فأصبح بين العرب والفرس والترك ؛ وكان العرب قد ضعف أمرهم فى نزاعهم مع الفرس ، فجاءت قوة الترك ضغثاً على إبّالة ، وتوجهت

---

(١) مروج الذهب : ٢٧٢/١ وما بعدها .

قوة الترك — أولا — لإضعاف شأن هؤلاء الفرس المستبدين بالسلطان . وأخذ التاريخ الإسلامى يصطبغ بالصبغة التركية ، وبعد أن كانت الأحداث تتصل بأعلام الفرس ، كأبى مسلم الخراسانى والبرامكة والحسن بن سهل والفضل بن سهل ، وعبد الله بن طاهر وأمثالهم ، ظهر التاريخ مرتبطة أحداثه بأشناس ، وإيتاخ ، وبُغَا الكبير ، وبغا الصغير ، وابن طولون وأمثالهم من الأتراك ، إذ كانوا القابضين على زمام الدولة والمتصرفين فى شؤونها .

وبدأت العصبية ضد الأتراك من عهد دخولهم بغداد ، فقد شكا أهل بغداد للمعتصم وقالوا له : تحول عنا وإلا قاتلنا ! قال : وكيف تقاتلوننى وفى عسكرى ثمانون ألف دارع ؟ ! قالوا : نقاتلك بسهام الليل — يعنون الدعاء — فقال المعتصم : والله مالى بها طاقة ! فبنى لذلك سر من رأى وسكنها[1] .

وهجا دِعْبِلُ الخُزاعى المعتصم لتعصبه للأتراك وحمايته إياهم فقال :

لقد ضاع أمرُ الناسِ حيث يسوسهم ... وصِيفٌ وأشْنَاسٌ وقد عظم الخطبُ
وإنى لأرجو أن ترَى من مغيبها ... مطالعُ شمس قد يَغَصُّ بها الشَّرْبُ
وهمُّك تُرْكى عليه مَهانةٌ ... فأنت له أمٌّ وأنتَ له أبُ

بل يظهر أن المعتصم نفسه — وهو جالب الأتراك — قارن بين خدمة الفرس للخلفاء قبله وخدمة الترك له ، فحمد الأولى وذم الثانية ؛ فقد روى الطبرى أن المعتصم ، دعا أبا الحسين إسحاق بن إبراهيم[2] ، وبعد حديث طويل — قال المعتصم : يا إسحاق ! فى قلبى شىء أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة . فقال إسحاق : قل يا سيدى فأنا عبدك وابن عبدك . قال المعتصم : نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة أنجبوا ، واصطنعت أنا أربعة لم يفلح أحد منهم ! قال

---

(١) النجوم الزاهرة : ٢٣٣/٢ .
(٢) هو والى بغداد للمأمون .

إسحاق : ومَن الذى اصطنعهم أخوك ؟ قال : طاهر بن الحسين ، فقد رأيتَ وسمعتَ ؛ وعبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذى لم يُر مثله ؛ وأنت ، فأنت والله الذى لا يعتاض السلطان منك أبداً ؛ وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد ؟ وأنا فاصطنعت الأفشين ، فقد رأيتَ إلى ما صار أمره ؛ وأشناس ، ففشلْ أيُّه ؟ و إيتاخ ؛ فلا شيء ؛ ووصيف ، فلا مغنى فيه ! فقال إسحاق : أجيب يا أمير المؤمنين على أمان من غضبك ؟ قال : قل . قال إسحاق : يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت فروعها ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً لم تنجب ، إذ لا أصول لها ! قال : يا إسحق ، لَمقاساة ما مر بى فى طول هذه المدة أسهل علىّ من هذا الجواب[1] .

وكره أهل بغداد مجيئهم إذ كانوا شؤماً عليهم فى حلهم وترحالهم ، فلما أقاموا بينهم كانت خيولهم تصيب الضعفاء والمرضى ، ولما رحلوا عنهم إلى القاطول[2] ثم سامرا أثر ذلك أثراً سيئاً فى بغداد من حيث تجارتها وحضارتها ، فقال بعضهم فى ذلك يعيِّر المعتصم :

أيا ساكن القاطول بين الجرامِقة   تركتَ ببغداد الكِباشَ البطارِقة

وأخذ المحدّثون يضعون الأحاديث فى ذم الترك تعبيراً عن شعورهم وشعور الناس ، فرووا أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الترك أول من يسلُب أمتى ما خُوِّلوا » وعن ابن عباس أنه قال : « ليكونن الملك — أو قال الخلافة — فى ولدى حتى يغلب على عزهم الحمر الوجوه ، الذين كأن وجوههم المجانّ المطرّقة » ، وعن أبى هريرة أنه قال : « لا تقوم الساعة حتى يجىء قوم عراض الوجوه صغار

(١) طبرى : ١١/٨ .

(٢) القاطول نهر كان فى موضع سامرا قبل أن تعمر .

الأعين ، فطس الأنوف ، حتى يربطوا خيولهم بشاطئ دجلة »[١] .

زاد نفوذ الأتراك شيئاً فشيئاً بكثرة ما كان يرد على عاصمة الخلافة من بلادهم ، و بما أبدوا من بسالة فى حروبهم ، و بما تزاوجوا وتناسلوا ، و بتأييد الخلفاء لهم ؛ فالواثق بعد المعتصم « استخلف سنة ٢٢٨ على السلطنة أشناس التركى وألبسه وشاحين مجوهرين وتاجا مجوهراً . وأظنه أول خليفة استخلف سلطاناً ، فإن الترك إنما كثروا فى أيام أبيه »[٢] .

وفى أيامه نـكل قواد الأتراك بكثير من الأعراب فى مواضع مختلفة من جزيرة العرب ، فمرة حول « المدينة » ، ومرة باليمامة ، وكان على رأس الجيش بُغَا الـكبير التركى . واحتقر الأعرابُ أول أمرهم هؤلاء الترك وقالوا لمن استنجد بهم : « ما هؤلاء العبيد والعلوج تقاتلنا بهم والله لنرينَّك العبر » ! ولـكن هؤلاء العبيد والعلوج انتصروا عليهم ، وكان بغا يُحضر الواحد تلو الواحد من أسرى بنى نمير و يضرب به ما بين الأربعمائة إلى الخمسمائة وأقل من ذلك وأكثر . وعاد بغا ومعه الأسرى من قبائل مختلفة من العرب[٣] ، ولهـذه الحادثة وأمثالها أثر فى ضعف نفسية العرب أمام الترك .

وكان مما فعله المعتصم متمما لاعتماده على الأتراك أن كتب إلى واليه على مصر كَيْدُر ، واسمه نصر بن عبد الله ، يأمره بإسقاط من فى الديوان من العرب[٤] وقطع أعطياتهم . فلما قطع العطاء عنهم خرج يحيى بن الوزير الجَرَوِى فى جمع

---

(١) وردت هذه الأحاديث فى معجم ياقوت مادة تركستان .

(٢) الخلفاء : ١٣٥ .

(٣) انظر هذه الأحداث بطولها فى تاريخ الطبرى : ١٢/١١ وما بعدها .

(٤) يراد بإسقاطهم من الديوان حذف أسمائهم من الدفاتر التى يقيد فيها أسماء الجنود الرسميين الذين يأخذون مرتبا .

لَخْم وجذام وقال : « هذا أمر لا نقوم فى أفضل منه[1] لأنه منعنا حقنا وفيئنا » ؛ واجتمع إليه نحو من خمسمائة رجل . فتوجه إليهم مُظَفَّر بن كيدُر فى بحيرة تِنيس ، فأسر يحيى بن الوزير وتفرق عنه أصحابه ، فانقرضت دولة العرب من مصر وصار جندها العجم والموالى من عهد المعتصم ، إلى أن ولى أحمد بن طولون (التركى) فاستكثر من العبيد و بلغت عدتهم زيادة على أر بعة وعشرين ألف غلام تركى ، وأر بعين ألف أسود ، وسبعة آلف حر مرتزق[2] .

ولا شك أن هذه الحادثة أيضاً أضعفت من شأن العرب وخاصة فى مصر .

وتولى المتوكل سنة ٢٣٢ هـ ، فكان قد مضى على مجىء الأتراك اثنتا عشرة سنة تمكنوا فيها من الأرض وعرفوا الناس والبلاد ، وخدمتهم الحوادث فى إعلاء سلطانهم ؛ فرأينا إيتاخ التركى هو الذى بيده معظم الأمور . و إيتاخ هذا غلام تركى كان طباخاً فاشتراه المعتصم ، وكان ذا رجولة و بأس « فرفعه المعتصم ومن بعده الواثق حتى ضم إليه من أعمال السلطان أعمالا كثيرة — وكان من أراد المعتصم أو الواثق قَتْله فعند إيتاخ يُقْتل و بيده يحبس ، منهم محمد بن عبد الملك الزيات ، وأولاد المأمون » . فلما ولى المتوكل كان إيتاخ فى أعلى مرتبته ، إليه الجيش والمغاربة والأتراك والموالى والبربر والحجابة ودار الخلافة[3] ، حتى لقد خرج المتوكل مرة متنزها إلى ناحية القاطول وشرب وعربد على إيتاخ ، فهمّ إيتاخ بقتله ، فلما أصبح أُخبر المتوكل بذلك فاعتذر إلى إيتاخ وقال له : « أنت أبى ور بيتنى »[4] ، نعم إن المتوكل دبر له مكيدة فقتله ، ولكن هذا لم

---

(١) أى لا يوجد سبب يدعو إلى الثورة أفضل منه .

(٢) الولاة للكندى : ١٩٤ والخطط للمقريزى : ١/٩٤ .

(٣) الطبرى : ١١/٣٣ .   (٤) المصدر نفسه .

يضعف شأن الأتراك فى شىء . بل أوغر صدرهم على المتوكل .

أصبحت أمور الدولة فى يد الأتراك ، وأصبحوا مصدر قلق واضطراب ، فهم يكرهون الفرس والعرب ، وهم أنفسهم ليسوا فى وفاق بعضهم مع بعض ، وهم لا ينقطعون عن المؤامرات والدسائس ، وتعصب كل فريق لقائد منهم ، وهم كثيرو الطمع فى الأموال لا يشبعون ، وعلى الجملة فقد أصبحت « دار السلام » وما حولها ليست دار سلام .

« لا بد أن يكون المتوكل قد شعر بهذا الجو الخانق بما يثيره الأتراك من شرور ، ولا بد أن يكون قد أحس الخطر على حياته منهم ، ففكر أن ينقل عاصمة الخلافة من العراق إلى دمشق ، وأن يعود إلى عاصمة الأمويين لعله يجد فيها من العنصر العربى من يغنيه عن العنصر التركى ، فى سنة ٢٤٣ أى بعد خلافته بإحدى عشرة سنة رحل إلى دمشق ، ولكنه لم يطل مقامه بها ، فلم يستطب جوها كما قالوا . وهو مع هذا لم يسلم من شغب جنود الشام عليه ، « فاجتمعوا وضجوا يطلبون الأعطية ، ثم خرجوا إلى تجريد السلاح والرمى بالنشاب »[١] ، فعاد إلى سامرا . وكان بين خروجه منها وعودته إليها ثلاثة أشهر وسبعة أيام ، وبعد أربع سنوات من عودته قتله الأتراك .

لقد رأى المتوكل أن يتخلص من الأتراك ويعيد الدولة سيرتها الأولى ، ولكن كان ابنه المنتصر يشايعهم ، «فعزم (المتوكل) أن يفتك بالمنتصر ، ويقتل وصيفا وبغا وغيرهما من قواد الأتراك ووجوههم »[٢] ، وعزموا هم على الفتك به . فكان ذلك مفترق الطرق ، فإن نجح زالت دولة الأتراك وعادت غلبة الفرس ، ورجعت الأمور إلى ما كانت عليه . ولكن شاء القدر أن ينجحوا هم ، فتقدم

---

(١) المسعودى : ٢/٢٠٤ .　　(٢) الطبرى : ١١/٦٣ .

باغر التركى حارس المتوكل ينفذ مؤامرة من القواد الأتراك على رأسهم بغا الصغير، ومعه عشرة غلمان من الأتراك وهم متلثمون والسيوف فى أيديهم ، وصعدوا على سرير الملك : وضرب باغر « المتوكلَ » بالسيف فقدّه إلى خاصرته ، ثم ثناه على جانبه الأيسر ففعل مثل ذلك . وأقبل الفتح (بن خاقان) يمانعهم فبعجه واحد منهم بالسيف فى بطنه فأخرجه من متنه ، فلفا فى البساط الذى قتلا فيه ، وطرحا ناحية ، فلم يزالا على حالتهما فى ليلتهما وعامة نهارها ، حتى استقرت الخلافة للمنتصر فأَمر بهما فدفنا .

كان قتل المتوكل أول حادثة اعتداء على الخلفاء العباسيين ، فكل من كان قبله مات حتف أنفه (إلا الأمين فقد قتل بعد هزيمته فى الحرب) . ولم يكن قتل المتوكل اعتداء على المتوكل وحده بل هو قتل لسلطان كل خليفة بعده ، ولم يكن قتله بيد باغر وحده بل بيد الأتراك . وكان فى قتله حياة الأتراك وسلطانهم ، و إنذار عام للبيت المالك أن من أراد أن يلى الخلافة فليذعن إذعاناً تاماً للأتراك ، ومن حدثته نفسه — من الخليفة فمن دونه — أن يناوئهم فايوطن نفسه على القتل .

وهكذا كانت هذه الحادثة مصرعَ الخلافة ، ومجد الأتراك ، فكان الخليفة بعده خاتماً فى أصبعهم أو أقل من ذلك ، حتى قنع بالسكة والخطبة ، « وصار يُضرب ذلك مَثلا لمن له ظاهر الأمر ، وليس له من باطنه شىء ، فيقال قنع فلان من الأمر الفلانى بالسكة والخطبة ، يعنى قنع منه بالاسم دون الحقيقة »[1] ، وفى هذا المعنى يقول بعضهم فى الخليفة المستعين :

خَليفــــــةٌ فى قفَص بين وَصِيفٍ وبُغَا

(١) الفخرى : ٣٨ .

يقـــولُ ما قالا له كما يقـــول البَبَّغا

لقد شهد البحترى مقتل المتوكل وكان نديمه وجليسه ، وفزع لذلك ، ووصف مقتله فى قصيدته الرائية المشهورة ، يقول فيها :

ولم أنس وحشَ القصر إذ ريع سِرْبُهُ وإذ ذُعرت أطلاؤه وجآذِرُه
و إذ صِيح فيه بالرحيل فهُتِّكتْ على عجل أستارُه وستائرُه

وفيها :

حُلومٌ أضلَّتها الأمانى ومدة تناهت وحتف أوشكته مقادِرُه
ومغتصَبٍ للقتل لم يُخش رَهطُه ولم تُحتشم أسبابُه وأواصرُه
صريع تقاضاه السيوفُ حشاشةً يجود بها والموت حُمْرٌ أظافرُه
أدافع عنه باليدين ولم يكن لِيَثْنِي الأعادى أعزلُ الليل حاسره
ولو كان سيفى ساعة الفتك فى يدى درى الفاتك العجلان كيف أُساوره
حرامٌ علىّ الراح بعدكَ أو أرى دماً بدم يجرى على الأرض مائره
وهل أرتجى أن يطلب الدم واترٌ يَدَ الدهر والموتور بالدم واتره ؟ الخ

بل يخيل إلىّ أن البحترى هاله ما فعله الأتراك بسيده المتوكل وهو الذى مجده فى كثير من قصائده ، وأسبغ عليه فيها نوعاً من التقديس :

وشبيه النبى خَلْقًا وخُلقًا ونسيب النبىّ جَدًّا فجَدًّا

يا ابن عم النبى حقاً ويا أز كى قريش دِيناً ونفسا وعِرْضا
بِنْتَ بالفضل والعلو فأصبحت سماء وأصبح الناس أرضا

ولم يستطع أن يهجو الأتراك فى صراحة و إقذاع ، وهم الذين بيدهم السلطان ؛ وآلمه ما آل إليه أمر الدولة وقد غلب عليها الأتراك ، وما كانت عليه الدولة أيام

كان السلطان سلطان الفرس ، فحنق على الأولى ، وحمد الأخرى . فيخيل إلىّ أنه قال « بمظاهرة » طريفة يرضى بها شعوره ، وهى أنه حج إلى إيوان كسرى رمز سلطان الفرس ، ووقف أمامه شاكياً باكياً ، وقال سينيته البديعة المشهورة يندب حظه ويبكى أمسه :

حَضرتْ رَحلى الهُموم فوجَّهـــتُ إلى أبيضِ المدائن عَنْسى
أتسلَّى عن الحظوظ وآسَى لمحلٍّ من آل ساسان دَرْس
ذكَّرتْنِيهُمُ الخطوب التوالى ولقد تُذكر الخطوبُ وتُنسى
وهو ينْبيك عن عجائبِ قومٍ لا يُشابُ البيانُ فيهم بلَبْسِ
ليس يُدْرَى أصنعُ إنسٍ لجنٍّ سَكَنُوهُ أم صُنعُ جنٍّ لإنس
غير أنى أراه يشهد أنْ لم يك بانيه فى الملوك بنِكْسِ

بل هو يصرح بعد ذلك أن الفرس ليسوا قومه ، ولكن لهم فضل على العرب بما أيدوا من ملكهم ، وما خدموا فى دولتهم (أى وليس كذلك الترك) . وفضلا عن ذلك فإنه يألف الأشراف من كل جنس ، ويحب الأصول من كل قوم :

ذاك عندى وليست الدار دارى باقتراب منها ولا الجِنس جِنْسى
غير نُعْمَى لأهلها عند أهـــلى غرسوا من ذكائها خير غرس
أيَّدُوا مُلكنا وشـــدُّوا قواه بكماة تحت السَّــنورَ حُمْسِ
وأرانى من بعدُ أكلف بالأشرا ف طُرًّا من كل سِنْخٍ وأسٍّ

فهذه القصيدة ليست نزعة شعوبية من البحترى كما يرى بعضهم ، ولكنها — فيما أرى — حسرة على عهد الفرس بعد أن رأى عهد الأتراك ، وبكاء على عصر كان الفرس فيه يحتفظون بأبهة الخليفة وعظمته ، ويعملون ما عملوا فى

خدمته ، وألمّ من عصر الأتراك الذى محوا فيه سلطة الخليفة وسلبوه سلطانه ، وأخضعوه لإشارتهم ، وجعلوه تابعاً لأمرهم ونهيهم ، وأخيراً فعلوا فعلتهم الشنعاء فقتلوه أشنع قتلة ، ولم يرعوا له ولا للخلافة أية حرمة .

* * *

وقد خلف لنا الجاحظ رسالة فى موضوع العصبية عند مجىء الترك ، وهى رسالة كتبها للفتح بن خاقان التركى فى مناقب الترك ، تمثل لنا أصدق تصوير العصبية بين الجنود المختلفة لمّا جُند الأتراك ، وما يقال عن الجنود يصح أن يقال عن غيرهم . وقد ذكر فى هذه الرسالة أنه ألفها أيام المعتصم جالب الأتراك ، وأنه أراد أن يوصلها إليه فلم تصل ، لأسباب يطول ذكرها ، ولم يبين لنا شيئاً من هذه الأسباب ؛ والظاهر أنها لم تصل إليه لأن من كان فى قصر المعتصم من الفرس والعرب عملوا على ألا تقع فى يده فتعظم عصبيته للترك .

ويظهر أنه أعاد كتابتها من جديد على ضوء ما كان من عظمة الترك ، وقدّمها للفتح بن خاقان وزير المتوكل — وكل قوم من الجند فى ذلك العصر كان لهم أدباء وعلماء ومتحدثون ، يتكلمون فى مناقب قومهم وميزتهم عن غيرهم . أما الأتراك فلم يكن لهم شىء من ذلك ، فتعاون الفتح بن خاقان والجاحظ على أن يسدا هذا النقص ، ويبينا مناقب الترك ؛ فكتب الجاحظ رسالته فى ذلك وحكى فيها بعض أقوال الفتح . وقد استعمل الجاحظ عقله وقلمه وفلسفته فى إعلاء شأن الترك تقرباً لذوى النفوذ ، وإظهاراً لمزيته البلاغية ، بقطع النظر عن كونه يعتقد ما يقول أو لا يعتقد .

والرسالة قيمة جدا من ناحية حكاية ما كان يجول بخاطر الجند على اختلاف أنواعهم ونوع عصبيتهم . ويقول فيها إنه لا يريد أن يذكر مناقب الأتراك ويتبعه

بمعايب غيرهم ، بل يكتفى بذكر المناقب قصدا إلى الألفة وتوحيد القلوب . ولكنه بسط مناقب الترك و بالغ فى إعلاء شأنهم ، وأسبغ عليهم — بقلمه السيال وأسلوبه الواسع — عظمة وأبهة تكفيان فى إشعار القارئ أن الترك أعظم جند ، وأشجع قوم ؛ فهو بهذا الأسلوب الماكر رفع من شأن الترك ، ووضع من غيرهم تحت ستار الدعوة إلى الألفة .

حكى فى صدر الرسالة حكاية الفتح بن خاقان من أنه سمع رجلا يَقسم الجند فى عهد المتوكل إلى أقسام : خراسانى ، وتركى ، ومولى ، وعربى ، وبَنَوى [(١)] . فاعترض عليه الفتح وأبى هذا التقسيم ، ودعا إلى أن ينظر إلى الجند كوحدة لا كأجناس ، وأن هذا الجند مع اختلاف أجناسه متقارب الأنساب ؛ فالخراسانى والتركى متقاربان فى الشبه والصقع ، وأن القرب بينهما أكثر مما بين العدنانيين والقحطانيين مع أن كلهم عرب — وأن البنويين خراسانيون لأن نسب الأبناء نسب الآباء ، وأن الموالى أشبه بالعرب وأقرب إليهم ، وهم عرب فى المدَعى وفى العاقلة وفى الراية وقد جاء : « مولى القوم منهم » و « الولاء كلحمة النسب » وأن الأتراك صاروا من العرب لهذا المعنى ، لأن الأتراك موالى الخلفاء ، فهم موالى لباب قريش . وحكى عن الفتح ، أن هذه الأجناس بهذا المعنى يجب أن يكونوا متوازرين متكاتفين مطيعين محبين للخلفاء الخ الخ .

وهو كلام جيد نظريا ، ولم يكن واقعاً عملياً ، فالدعوة الجنسية كانت بالغة أشدها ، والعداوة بينهم متغلغلة فى أعماق صدورهم .

---

(١) فى الأصل بنونى ولكن فى أثناء الرسالة تأتى نبوى ، والظاهر أن صحتها بنوى والبنوى نسبة إلى الأبناء ، وهو لفظ كان يطلق فى العصر العباسى على ذرية دعاة الدولة العباسية فى أول نشأتها .

ثم حكى الجاحظ عن « الفتح » أن هذا القائل ذكر مناقب كل جنس من الجنود وألغى ذكر الأتراك ، فذكر أن الخراسانيين يفخرون و يقولون إنا دعاة الدولة العباسية ونحن النقباء والنجباء ، وأبناء النجباء ، وبنا زال ملك بنى أمية ، ونحن الذين تحملوا العذاب وُبضعوا بالسيوف الحداد ، ندين بالطاعة ونقتل فيها ، ونموت عليها ؛ ونحن قوم لنا أجسام وأجرام ، وشعور وهام ، ومناكب عظام ، وجباه عراض ، وسواعد طوال ، وأبداننا أحمل للسلاح ، ونحن أكثر مادة ونحن أكثر عدداً وعدة ، ومتى رأيت مواكبنا وفرساننا و بنودنا التى لا يحملها غيرنا علمت أنا لم نخلق إلا لقلب الدول وطاعة الخلفاء وتأييد السلطان ؛ ونحن أرباب النهى وأهل الحلم والحجى ، وأهل النجابة فى الرأى ، والبعد من الطيش ، وليس فى الأرض صناعة عراقية ولا حجازية ، من أدب وحكمة ، وحساب وهندسة وارتفاع بناء ، وفقه ورواية ، نظرت فيها الخراسانية إلا فرعت فيها الرؤساء وبذّت فيها العلماء الخ الخ .

والعرب يفخرون بالأنساب وبالشعر الموزون الذى يبقى بقاء الدهر ، و يلوح ما لاح نجم ، وبالكلام المنثور والقول المأثور وتقييد المآثر ، إذ لم يكن ذلك من عادة العجم — قالوا — ونحن أصحاب التفاخر والتنافر ، والتنازع فى الشرف والتحاكم إلى كل حَكَم مقنع ، وكاهن شجاع ؛ ونحن أصحاب التعاير بالمثالب والتفاخر بالمناقب ، نقاتل رغبة لا رهبة . ثم ردوا على الخراسانيين بأن أكثر النقباء فى الدعوة العباسية كانوا من العرب الخ .

ونخر الموالى بأنهم موضع الثقة عند الشدة ، وأن شرف السادة راجع إليهم ، إذ هم منهم ، ثم لهم الطاعة والخدمة والإخلاص وحسن النية — قالوا — ونحن أشكل بالرعية ، وأقرب إلى طباع الدهم ، وهم بنا آنس ، و إلينا أسكن ، و إلى

لقائدنا أحنّ ، ونحن بهم أرحم ، وعليهم أعطف الخ .

وقال البنوى ، إن أصلنا خراسانى وهو مخرج الدولة ، ومطلع الدعوة ، ولنا بعدُ فى أنفسنا ما لا ينكر ، من الصبر تحت ظلال السيوف القصار ، والرماح الطوال ، ولنا معانقة الأبطال عند تحطم القنا وانقطاع الصفائح ؛ ونحن أهل الثبات عند الجولة ، والمعرفة عند الخبرة ، مع حسن القد ، وجودة الخرط ، ثم لنا الخط والكتابة ، والفقه والرواية ، ولنا بغداد بأسرها تسكن ما سكنا وتتحرك ما تحركنا ؛ ونحن تربية الخلفاء وجيرانِ الوزراء ، وُلِدْنا فى أفنية ملوكنا ، ونحن أجنحة خلفائنا ، أخذنا بآدابهم ، واحتذينا على مثالهم .

فأخذ الجاحظ بعدُ يشيد بفضل الترك ، فيزعم أن كل الأجناد يرجعون إلى شىء واحد كما قال « الفتح » ؛ فالبنوى خراسانى ، والخراسانى مولى ، والمولى عربى بالولاء ، والأتراك خراسانية (أى بحكم القرب والجوار) ، فصار البنوى والخراسانى والمولى والعربى والتركى شيئاً واحدا ، فصار فضل التركى إلى الجميع راجعاً ، وصار شرفهم زائدا فى شرفهم ، ورجا أنه إذا عرف سائر الأجناد ذلك تسامحت النفوس ، ومات الضغن وانقطع سبب الاستثقال .

بدأ الجاحظ دفاعه عن الأتراك بحكاية قصها عن قوم أيام المأمون تذاكروا أى الاثنين أشجع : الخارجى أم التركى ؟ (وكان الخوارج معروفين بين الناس إذ ذاك بأنهم أشجع جند وأصبر الناس على قتال) ، وانتهى من هذه القصة بنتيجة هى أن التركى أشجع من الخارجى ، لأن الخوارج عرفوا بعشر مزايا فى القتال ، والتركى يفضلهم فيها جميعاً ، لأنه أثبت عزما حتى لقد عوّد برذونه ألا ينثنى ، وهو أصدق رماية ؛ فالتركى يرمى الوحش والطير والناس فى سرعة و إصابة ؛ والخوارج إذا ولوا فقد ولوا ، ولكن التركى إذا ولى فهو السم الناقع ، لأنه يصيب بسهمه وهو

مدبر كما يصيب بسهمه وهو مقبل ؛ والتركى فى حال شدته معه كل شىء يحتاج إليه لنفسه ولسلاحه ولدابته ، والتركى هو الراعى وهو السائس ، وهو الرائض وهو النخاس وهو البيطار ، وهو الفارس ، وهو أصبر على السير وعلى الصعود فى ذرى الجبال ؛ والتركى فى بلاده لا يقاتل على دين ، ولا على تأويل ، ولا على ملك ، ولا على خراج ، ولا على عداوة ، ولا على وطن ، وإنما يقاتل على السلب ، فكيف إذا انضم إلى ذلك غضب أو تدين ، أو عرض له بعض ما يصحب القاتل من العلل والأسباب ؛ والأتراك قوم وُضع أصل بنيتهم على الحركة وليس للسكون فيهم نصيب ، وهم أصحاب توقد واشتعال وفطنة ، وهم يرون الاكتفاء بالقليل عجزاً ، وطول المقام بلادة ، والراحة غفلة ، والقناعة من قصر الهمة .

ويقول بعد : إن كل أمة امتازت بشىء ، فأهل الصين فى الصناعات واليونان فى الحكم والآداب ؛ والفرس فى المُلْك والسياسية ؛ والعرب لم يكونوا تجاراً ولا صناعاً ولا أطباء ولا حُسَّابا ، ولا طلبوا المعاش من ألسنة المكاييل والموازين ، ولم يحتملوا ذلاًّ قط فيميت قلوبهم ، ويصغّر عندهم أنفسهم ، وكانوا سكان فياف ، وتربية عراء ، فوجهوا قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وتثقيف اللغة ، وتصريف الكلام ، وحفظ النسب ، والاهتداء بالنجوم ، والاستدلال بالآثار ، والبصر بالخيل والسلاح ، والحفظ لكل مسموع ، والاعتبار بكل محسوس ، وإحكام شأن المناقب والمثالب — ومزية الأتراك فى الحروب ، وهم كذلك أصحاب عمد ، وسكان فياف ، وأرباب مواش ، وهم أعراب العجم كما أن هذيلا أكراد العرب ، لم تشغلهم الصناعات ولا التجارات ، ولا الطب والفلاحة والهندسة ، ولا غراس ولا بنيان ، ولا شق أنهار ، ولا جباية غلات ، ولم يكن همهم غير الغزو والغارة والصيد ، وركوب الخيل ، ومقارعة الأبطال ،

وطلب الغنائم ، وتدويخ البلاد ، لذتهم فى الحرب ، وهى فخرهم وحديثهم وسمرهم ، وقد اتصفوا بالصفات التى تستتبع النجدة والفروسية ، من الكرم وبعد الهمة وطلب الغاية ، والحزم والعزم والصبر .

وبذلك انتهت رسالته الطويلة التى أوجزناها إيجازاً تاماً .

ومنها نستدل على أن العصبية فى هذا العصر كانت شديدة قوية ، كل عنصر يعدّد مزاياه ، ويُدل بها على من سواه ؛ فعربى يفخر بلسانه وسيفه ، وفارسى يفخر بسياسته ومُلكه الخ ؛ وأن الأتراك كانت مزيتهم حسن القتال وما يستتبعه من صفات ، فلم يفخروا بعلم ولا بسياسة ولا بسابقة دين ولا شىء من ذلك ، فلما كان هذا شأنهم فى قوة القتال ، غلبوا على كل سلطان .

أراد الفتح بن خاقان والجاحظ أن ينشرا عقيدة الوحدة بين الجنود وتناسى الأجناس ، ولكن أنَّى لهما ذلك ، والدين نفسه لم يستطع أن يمحو هذه العصبية ، وعمل الأتراك أنفسهم باستبدادهم وطغيانهم يحيى العصبية ويجعلها وسيلة للدفاع عن النفس ، بل وطريقة الجاحظ التى سلكها فى مناقب الأتراك من شأنها أن تقوى العصبية لا أن تضعفها !

* * *

كان طبيعياً أن يزداد نفوذ الأتراك بقتلهم المتوكل وتنصيبهم المنتصر . وقد حكى الطبرى (أن المنتصر عزم على أن يُغْزِى وصيفا (التركى) الثغر الشامى ، فقال أحمد بن الخصيب للمنتصر : « ومن يجترئ على الموالى (الأتراك) حتى تأمر وصيفا بالشخوص »)[1] — وأمر الأتراك المنتصر أن يخلع أخويه المعتز والمؤيد

(١) الطبرى : ١١/٧٣ .

من الخلافة خوفاً أن ينتقما — إذ وليا — من قتلة المتوكل ، وكان لذلك كارهاً ، فدعاهما المنتصر والأتراك وقوف وقال : « أترياني خلعتكما طمعاً في أن أعيش حتى يكبر ولدي وأبايع له ؟ والله ما طمعت في ذلك ساعة قط ، وإذا لم يكن في ذلك طمع فوالله لأن يليها بنو أبي أحب إلى من أنْ يليها بنو عمي ، ولكن هؤلاء — وأومأ إلى سائر الموالي (يريد الأتراك) — ألحوا عليّ في خلعكما ، نخفت إن لم أفعل أن يعترضكما بعضهم بحديدة فيأتي عليكما »[1] .

فلما مات المنتصر بعد خلافته بستة أشهر ، وقبل أن يستخلف خليفة بعده ، استُحلف القواد الأتراك والمغاربة والأشروسنية على أن يرضوا بمن يرضى به بغا الكبير وبغا الصغير وأتامش ، وجميعهم أتراك ؛ وهؤلاء قد اختاروا أحمد بن محمد المعتصم ، ولقبوه المستعين فبايعه سائر الناس .

ضايق الأتراك المستعين بعد ذلك ، وضايقوا الناس حتى ضج وضجوا ، ودبّروا المؤامرات لاغتياله ، فهرب من سامرا إلى بغداد ، فذهبوا إليه يعتذرون ، فقال لهم : « أنتم أهل بغي وفساد واستقلال للنعم ، ألم ترفعوا إليّ في أولادكم فألحقتهم بكم ، وهم نحو من ألفي غلام ؟ ! وفي بناتكم ، فأمرت بتصييرهن في عداد المتزوجات ، وهن نحو من أربعة آلاف امرأة ؟ ! وفي المدركين والمولودين ، وكل هذا قد أجبتكم إليه ، وأدررت لكم الأرزاق حتى سبكت لكم آنية الذهب والفضة ؛ ومنعت نفسي لذتها وشهوتها ، كل ذلك إرادة لصلاحكم ورضاكم ، وأنتم تزدادون بغياً وفساداً ، وتهدداً وإبعاداً[2] » .

وهاج أهل بغداد « لما بلغهم مقتل عمر بن عبيد الله الأقطع ، وعلي بن يحيي الأرمني ، وكانا نابين من أنياب المسلمين ، شديداً بأسهما ، عظيما غناؤهما عنهم ، في

---

(١) طبري : ١١/٧٦ .   (٢) طبري : ١١/٩٨ .

الثغور التي هما بها ، وقرب مقتل أحدهما من مقتل الآخر ، مع ما لحقهم من استفظاعهم من الأتراك قتل المتوكل واستيلائهم على أمور المسلمين ، وقتلهم من أرادوا قتله من الخلفاء ، واستخلافهم من أحبوا استخلافه ، من غير رجوع منهم إلى ديانة ، ولا نظر للمسلمين ، فاجتمعت العامة ببغداد بالصراخ والنداء بالنفير »[1].

هذا إلى أن الأتراك أنفسهم انشق بعضهم على بعضهم ، وتكونوا أحزاباً : هذا حزب داغر ، وهذا حزب بغا ووصيف الخ ، وقتلوا داغرا ، وحارب بعضهم بعضا .

فلما لم يذعن لهم المستعين ، بايعوا المعتز بالله ، وانضم إليه أغلب الأتراك ، وكان مركزه سامرا ؛ وظل أهل بغداد على ولائهم للمستعين و بيعتهم له ، ومعه ابن طاهر الفارسي الأصل وقليل من الأتراك ، وكانت سنة شديدة على الناس عذبوا فيها عذاباً شديداً من السلب والنهب والقتال .

وكان من حسن حظ الترك أن غَلبوا أخيراً ، ودخلوا بغداد منتصرين ، وخلعوا المستعين ثم قتلوه ، فكانت هذه خطوة أخرى في سبيل سيادة الأتراك ؛ وفي ذلك يقول رجل من أهل سامرا وقيل إنها للبحتري :

لله دَرُّ عصابة تُركية ... رَدُّوا نوائبَ دهرهم بالسَّيف

قتلوا الخليفة أحمد بن محمد ... وكسوا جميع الناس ثوب الخوف

وطَغَوْا فأصبح مُلكنا متقسَّما ... وإمامُنا فيه شبيهَ الضيف

ومع هذا سرعان ما ضيقوا على المعتز ، وشعر منهم بالشر ، فكان لا يلتذ بالنوم ، ولا يخلع سلاحه لا في ليل ولا في نهار خوفاً من بغا ، وقال : لا أزال على هذه الحالة حتى أعلم لبغا رأسي أو رأسه لي ؟ وكان يقول : « إني لأخاف أن

(١) طبري : ١١/٨٥ .

ينزل عليّ بغا من السماء أو يخرج عليّ من الأرض »[1] . ومن ناحية أخرى عزم المعتز على قتل رؤسائهم ، وأعمل الحيلة فى فنائهم ، نخلعوه وقتلوه .

وقد أكثر الشعراء فى ذلك العصر من وصف ما أصاب البلاد من سوء الحال وتحكم الأتراك فى الخلفاء ، وما عم الناس من الفوضى والاضطراب ، فقال فى ذلك بعض شعراء العصر فى مقتل المعتز :

بكرَ التركُ ناقمين عليه خَلَعَتْهُ ، أَفْدِيه من مخلوع
قتلوه ظلماً وجَوراً فألفَو ه كريم الأخلاق غير جزوع
لم يَهابوا جيشاً ولا رَهبوا السيف فَلَهْفِي على القتيل الخليع
أصبح الترك مالكى الأمر ، والعا لَمُ ما بين سامع ومطيع
ونرى الله فيهمُ مالك الأمر سيجزيهمُ بقتلٍ ذريع

وقال آخر :

قتلوه ظلماً وجَوراً وغَدْرا حين أهدَوْا إليه حتفاً مُريحا
نَضَّر اللهُ ذلك الوجه وجها وسَقَى الله ذلك الرُّوح رَوْحا
أيها الترك تُتَلقَّون للدهر سيوفا لا تَستبِلّ الجريحا
فاستعدُّوا للسيف عاقبةَ الأمر فقد جئتمُ فَعالاً قبيحا

وقال آخر :

ألزموه ذنباً على غير جُرْمٍ فثوى فيهمُ قتيلاً صريعا
وبنو عمه وعم أبيه أظهروا ذلة وأبدوا خضوعا
ما بهذا يصحُّ مُلكٌ ولا يُغْزَى عدو ولا يكون جميعا

ويقول عبد الله بن المعتز فى أرجوزته التاريخية المشهورة :

---

(١) المسعودى : ٢/٣٣٦ .

وكلَّ يوم مَلك مقتول   أو خائف مُرَوَّعٌ ذليل
أو خالع للعَقد كيما يَغْنَى   وذاك أدنَى للردى وأدنى
وكم أمير كان رأس جيش   قد نغَّصوا عليه كل عيش
وكل يوم شَغَبٌ وغصب   وأنفس مقتولة وحَـرب
وكم فتاةٍ خرجت من منزلِ   فغصبوها نفسَها فى المحفِل
ويطلبون كلَّ يوم رِزْقا   يرونه دَيْناً لهم وحَقا
كذاك حتى أفقروا الخلافه   وعَوَّدُوها الرعب والمخافه الخ

* * *

شعر الناس بسوء الحالة العامة من سلطة الأتراك ، وحاولوا التخلص من سلطانهم ، وقويت هذه الفكرة عند الخليفة المهتدى ، وقد كان شجاعا قوياً ، مثله الأعلى عمر بن الخطاب ؛ فظن أنه يستطيع القضاء على سلطة الأتراك ، وأن الشعب يؤيده ، ولـكنه لم ينجح .

لقد أكثر الترك من مصادرة الناس فى أموالهم ، وكان من مصائب الرجل أن يكون غنياً ؛ صادروا الـكتّاب وصادروا الأمراء الـكبار ، وأخيراً صادروا زوجة المتوكل وهى أم المعتز بعد أن قتلوا ابنها ، وكان المتوكل سماها قبيحة لحسنها وجمالها كما يسمى الأسود كافوراً ، وكان لها أموال كثيرة ، وهربت إلى مكة ، وسُمعت وهى تدعو بصوت عال تقول : اللهم اخز صالحا[1] كما هتك سترى ، وقتل ولدى ، وشتت شملى ، وأخذ مالى ، وغرّبنى عن بلدى وركب الفاحشة منى[2] .

دبّر الأتراك مؤامرة لقتل المهتدى لأنه لم يعجبهم فى نزعته . وانتشر الخبر فى العامة أنهم قد اتفقوا على خلع المهتدى والفتك به ، وأنهم قد أرهقوه ،

(١) هو صالح بن وصيف التركى .   (٢) ابن الأثير : ٧/٧٠ .

فكتب العامة الرقاع ورموها فى الطرق والمساجد مكتوبا فيها : « يا معشر المسلمين ادعوا الله لخليفتكم العدل الرضا المضاهى لعمر بن الخطاب أن ينصره الله على عدوه ، ويكفيه مؤنة ظالمه ، ويتم النعمة عليه وعلى هذه الأمة ببقائه ، فإن الأتراك قد أخذوه بأن يخلع نفسه » .

ولما وصل خبر المؤامرة إلى المهتدى تحول من مجلسه متقلداً سيفاً ، وقد لبس ثياباً نظافا وتطيب ، ثم أمر بإدخال هؤلاء الأتراك المتآمرين عليه ، فقال لهم : « بلغنى ما أنتم عليه ولست كمن تقدمنى مثل المستعين والمعتز ، والله ما خرجت إليكم إلا وأنا متحنط ، وقد أوصيت إلى أخى بولدى . وهذا سيفى . والله لأضربن به ما استمسك قائمه بيدى ، والله لئن سقطت منى شعرة ليهلكن وليذهبن أكثركم . أما دين ! أما حياء ! أما رِعْيَة ! كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء والإقدام والجرأة على الله ، سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ، ومن كان إذا بلغه هذا عنكم دعا بأرطال الشراب فشربها مسروراً بمكروهكم وحباً لبواركم ، خبرونى عنكم هل تعلمون أنه وصل إلىّ من دنياكم هذه شيء ؟ أما أنك تعلم يا بايكباك أن بعض المتصلين بك أيسر من جماعة إخوتى وولدى ؟ ! تَعَرَّف ذلك — فانظر هل ترى فى منازلهم فرشا ، أو وصائف أو خدما أو جوارى أو لهم ضياع أو غلات ؟ سوأة لكم ! »[1] ولكن ماذا يغنى إشهار سيفه ، والتهديد بخطبته ، وقد أراد أن يضرب الأتراك بعضهم ببعض حتى يخلص منهم جميعاً ؛ ولكنه لم ينجح فى هذا أيضاً ، ودارت الدائرة عليه فقتلوه .

ومع هذا فقد كان لحركة المهتدى أثر فى استرداد البيت العباسى بعض سلطانه ، وكان من أسباب ذلك أيضاً انتقال الخليفة من سامرا ، وهى حصن

---

(١) الطبرى : ١١/١٩٤ .

الأتراك ، إلى بغداد ، وفيها عناصر كثيرة تريد أن تحمى الخلافة من شرورهم . ولذلك رأينا سلسلة من الخلفاء بعده يقبضون على كثير من السلطان ، ويموتون حتف أنوفهم . فقد تولى بعد المهتدى المعتمد ؛ نعم إنه كان مسلوب السلطان محجوراً عليه . وقال فى ذلك أبياته المشهورة :

أليس من العجائب أنّ مِثْلِي يرى ما قَلَّ ممتنِعاً عليه

وتُوكَلُ باسمه الدنيا جميعاً وما من ذاك شىء فى يديه

إليه تُحمل الأموال طرًّا ويُمنع بعضَ ما يُجْبَى إليه

ولكن الذى كان يحجر عليه هذه المرة هو أخوه الموفق ، لانصراف المعتمد إلى لهوه وملذاته ؛ والموفق فى أيامه كان بطلا ، ترك لأخيه المعتمد الخطة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ، وأمسك هو بزمام الأمر والنهى ، وقود العساكر ، ومحاربة الأعداء ؛ ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء ، وكبح غير قليل من جماح الاتراك .

فلما جاء المعتضد بن الموفق سار سيرة أبيه ، وزاد فى رفع شأن الخلافة ، والأخذ على يد الأتراك بقدر ما يستطيع ؛ قال الفخرى : «كان المعتضد شهما عاقلا فاضلا ، حُمدت سيرته ، ولِىَ والدنيا خراب ، والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته ، وكثرت الأموال ، وضبطت الثغور ؛ وكان قوى السياسة شديداً على أهل الفساد ، حاسما لمواد أطماع عساكره عن أذى رعيته ، محسناً إلى بنى عمه من آل أبى طالب »[١] . وقد كثرت الفتن والأحداث فى أيامه نتيجة للفساد الذى كان قبل أيامه ، فجاهد فيها ما استطاع .

وقد نظم فيه « ابن المعتز » ابن عمه قصيدة طويلة هى صورة مصغرة لنمط

---

(١) ص ٣٦٢ .

الملاحم كالإلياذة والشاهنامه ، سدت بعض النقص فى الشعر العربى من هـذا النوع ؛ بدأها بذم الأتراك وما جنوا على البلاد ، ذكرنا طرفا منه فيما سبق ، ثم عدّد أعمال المعتضد ، وما قام به من حروب وما أتى به من إصلاح . وهى تعدّ بجانب مزيتها الأدبية وثيقة تاريخية هامة للأحداث فى عهد المعتضد .

واستبشر الشعراء بهمته ، فقال ابن الرومى :

هنيئاً بنى العباس إنَّ إمامَـكم إمامُ الهُدَى والناسِ والجودِ أحمدُ
كما بأبى العباس أنشئ مُلـكـكم كذا بأبى العباسِ أيضاً يُجدّد

وقال ابن المعتز .

أما ترى مُلك بنى هاشم عاد عزيزاً بعـــد ما ذلَّلا
يا طالباً الملك كن مِثْله تســـتوجب المُلك و إلاَّ فلا

وعلى الجملة ، فقد مات بعد نحو عشر سنوات من حكمه ، خاف فيها الخلافة على حال أحسن بكثير مما كانت منذ وفاة الواثق .

وسار ابنه المـكتفى بسيرة أبيه ، ولـكن الفتن التى بدأت فى عهد أسلافه استفحلت ، وعظم أمرها ، من إسماعيلية ، وقرامطة ، وفاطمية ؛ وانتهى القرن الثالث الهجرى والفتن قائمة ، والثورات مشتعلة ، وعلى الخلافة المقتدر بن المعتضد ، فعادت الخلافة إلى ضعفها الأول ، وعاد الأتراك إلى قوتهم .

و يظهر أن الأتراك والوزراء سئموا من اختيار الخلفاء القادرين الأكفاء ، أمثال المهتدى ، والمعتضد ، والمـكتفى ، فأرادوا أن يعدلوا عن هذه السنّة و يولوا عديم الـكفاية ، ولذلك طال اجتماعهم وتفـكيرهم بعد موت المـكتفى ؛ وكان من أول المرشحين للخلافة عبد الله بن المعتز ، وهو كفء عالم أديب قادر ، فانصرفوا عنه إلى المقتدر ، وهو طفل عاجز ، فولوه حتى تتم لهم الرياسة . حكى مسكويه

أن وزير المكتفى العباس بن الحسن استشار ابن الفرات فيمن يلى الخلافة ، فقال له : « اتق الله ولا تنصّب فى هذا الأمر من قد عرف دار هذا ، ونعمة هذا ، وبستان هذا ، وجارية هذا ، وفرس هذا ، ومن لقى الناس ولقوه ، وعرف الأمور ، وتحنّك وحسب حساب نعم الناس[1] . قال الوزير : فبمن تشير ؟ قال ابن الفرات بجعفر بن المعتضد (هو المقتدر) . فقال الوزير : جعفر صبى ! قال ابن الفرات : إلا أنه ابن المعتضد : ولِمَ تجىء برجل يأمر وينهى ، ويعرف مالنا ، وبمن يباشر التدبير بنفسه ويرى أنه مستقل ، ولم لا تسلم هذا الأمر إلى من يدعك تدبره أنت ؟ » .

وحكى الصُّولى « أنه عُهد إليه بتربية الراضى بالله وأخيه هارون ، فكان يلقاهما مرتين فى الأسبوع وقد رآهما فطنين عاقلين ، إلا أنهما خاليان من العلوم . قال الصولى : « فحبّبت العلم إليهما ، واشتريت لهما من كتب الفقه والشعر واللغة والأخبار قطعة حسنة ، فتنافسا فى ذلك ، وعمل كل واحد منهما خزانة لكتبه ، وقرآ علىّ الأخبار والأشعار » . فكان مما قرأه لهما الصولى كتاب « خلق الإنسان » للأصمعى ، فوشى الخدم . وقالوا : « إن الصولى يعلّمهما أسماء الفرج والذكر » ، فاجتهد الصولى فى نفى هذه التهمة ، وأراهم الكتاب .

ثم لما تقدم الصولى فى تعليمهما ، وتطلع إلى مكافأته على ما عمل ، قيل له على لسان أهل القصر : « ما نريد أن يكون أولادنا أدباء ولا علماء . وهذا أبوهما قد رأينا كل ما نحب فيه ، وليس بعالم » ؛ فلما سمع الصولى أتى نصراً الحاجب وأخبره بما قيل ، فبكى ، وقال : كيف نفلح مع قوم هذه نياتهم[2] ؟ !

---

(١) يشير بهذا القول إلى ابن المعتز .

(٢) انظر الأوراق فى أخبار الراضى والمعتز ص ٢٦

وحكى فى موضع آخر ، أن الراضى بالله ، قبل أن يلى الخلافة ، كان يقرأ عليه (على الصولى) شيئاً من شعر بشار ، و بين يديه كتب لغة ، فجاء خدم من خدم جدته فأخذوا جميع ما بين يديه من الكتب ، فجعلوه فى منديل ؛ فغضب الراضى ، فسكنت غضبه وقلت : ليس ينبغى أن ينكر الأمير هذا ، فإنه يقال لهم إن الأمير ينظر فى كتب لا ينبغى أن ينظر فى مثلها ، فقال لهم الراضى : قولوا لمن أمركم ، إن هذه الكتب إنما هى حديث وفقه وشعر ولغة وأخبار ، وليست من كتبكم التى تبالغون فيها مثل عجائب البحر ، وحديث سندباد ، والسنور والفار[١] .

فترى من هذا كيف كانوا يريدون الحجر على من يرشح للخلافة لينشأ جاهلا غراً ، فينصرف إلى لهوه ولذته ، و يترك لهم زمام الأمور والتصرف فى شؤون الدولة .

وكان من المؤيدين لتولية هذا الطفل مؤنس الخادم ، ومؤنس الخازن ، وغيرهما من الأتراك .

نعم كان مع ابن المعتز بعض الأتراك ، ولكن الغلبة والقوة كانتا فى جانب الذين مع المقتدر ، فتم الأمر للمقتدر ، وقتل ابن المعتز[٢] .

روى أنه لما اختلف أمر الناس ، و بايع بعضهم لابن المعتز ، سأل ابنُ جرير المؤرخ الكبير ، وكان فى آخر أيامه ، ما الخبر ؟ قالوا : بو يع ابن المعتز ، قال : فمن رشح للوزارة ، قالوا : محمد بن داود ، قال : فمن ذُكِر للقضاء ، قالوا : أبو المثنّى ، فأطرق ؛ ثم قال : هذا الأمر لايتم ، قيل له وكيف ؟ قال : كل واحد

(١) المصدر نفسه ص ٦ .

(٢) تجارب الأمم : ٢/٥ ، ٣ طبعة مصر .

ممن سميتموهم متقدم فى معناه ، عالى الرتبة ، والزمان مدبر ، والدنيا مولية ، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال ، وما أرى لمدته طولا[١] .

كان المقتدر صبياً فى الثالثة عشرة من عمره لا يعرف من أمور الدنيا شيئاً ، ومع ذلك لقبوه بالمقتدر ! ولما شب عكف على لذائذه ، وتوفر على المغنين والنساء ، وترك أمور الدولة لغيره وعلى رأسهم مؤنس التركى ، فبلغت الحال من بله الخليفة وسوء رجاله أقصى حد .

وأخيراً بعد حكم فاسد دام نحو خمس وعشرين سنة ، قتل المقتَدرَ رجل من أصحاب مؤنس ، أضجعه فذبحه وسلب ثيابه حتى سراويله ، وتركه مكشوف العورة ، إلى أن مر به رجل من الأكرة فستر عورته بحشيش ، ثم حفر له فى الموضع ، ودفن حتى عفا أثره[٢] .

قال المسعودى فى المقتدر : « أفضت الخلافة إليه وهو صغير غِرّ تَرِف ، لم يعان الأمور ولا وقف على أحوال الملك ، فكان الأمراء والوزراء والكتّاب يدبرون الأمور ليس له فى ذلك حل ولا عقد ، ولا يوصف بتدبير ولا سياسة ، وغلب على الأمر النساء والخدم وغيرهم ، فذهب ما كان فى خزائن الخلافة من الأموال والعدد بسوء التدبير الواقع فى المملكة فأداه ذلك إلى سفك دمه ؛ واضطربت الأمور بعده ، وزال كثير من رسوم الخلافة[٣] ... وكانت فى أيامه أمور لم يكن مثلها فى الإسلام ، منها : أنه ولى الخلافة ولم يل أحد قبله من الخلفاء وملوك الإسلام فى مثل سنه ، لأن الأمر أفضى إليه وله ثلاث عشرة سنة وشهران وثلاثة أيام ؛ ومنها أنه ملك خمساً وعشرين سنة إلا خمسة عشر

(١) تاريخ الخلفاء : ١٥٢ . (٢) تجارب الأمم : ٥/٢٣٧ .

(٣) التنبيه والإشراف ٣٧٧ .

يوماً ، ولم يملك هذا أحد من الخلفاء وملوك الإسلام قبله ؛ ومنها أنه استوزر اثنى عشر وزيراً ، فيهم من وزر له المرتين والثلاث ، ولم يعرف فيما قبله أحد استوزر هذه العدة ؛ ومنها غلبة النساء على الملك والتدبير ، حتى إن جارية لأمه تعرف بثَمِل القهرمانة كانت تجلس للنظر فى مظالم الخاصة والعامة ، ويحضرها الوزير والكاتب والقضاة وأهل العلم[١] .

ولم تكن خلافة القاهر خيراً من خلافة المقتدر . وأخيراً اجتمع بعض قواد الجند وقبضوا على القاهر وهو سكران ، واستحضروا بختيشوع بن يحيى المتطبب وسألوه أن يدلهم على من يُحسن أن يَسمُل ، فذكر لهم رجلا ، فأحضر وسَمَل[٢] عينى القاهر ؛ ولم يسمل قبله أحد من الخلفاء ، وقد سملوا بعده الخليفة المتقى واسمه إبراهيم ، فقال القاهر :

صرت وإبراهيمُ شيخَىْ عَمًى ‏ ‏ لا بد للشيخين من مُصْدرِ

ما دام تُوزُونُ له إمرة ‏ ‏ مُطاعة فالميـــلُ فى المِجْمَرِ

وقد وقف القاهر يوماً — بعد أن سُمل وحبس وبويع غيره ثم أطلق — فى جامع المنصور بين الصفوف وعليه مبطنة بيضاء ، وقال : تصدّقوا علىَّ فأنا من قد عرفتم[٣] .

وحدّث أبو الحسن العروضى مؤدب الخليفة الراضى ، قال : اجتزت فى يوم مهرجان بدجلة بدار بَجْكم[٤] التركى ، فرأيت من الهرج والملاهى واللعب والفرح والسرور ما لم أر مثله ؛ ثم دخلت إلى الراضى بالله ، فوجدته خالياً بنفسه

---

(١) التنبيه والإشراف : ٢٧٨ .

(٢) سمل العين : فقؤها بحديدة محماة وقلعها . وقد نقلوا هذه العادة عن البيزنطيين .

(٣) كان ذلك فى أيام المستكفى ليشنع عليه . (٤) فى الأصل يحكم وهو خطأ

قد اعتراه همّ ، فوقفت بين يديه ، فقال لى : ادْنُ ، فدنوت ، فإذا بيده دينار ودرهم ؛ فى الدينار نحو من مثاقيل ، وفى الدرهم كذلك ، عليه صورة « بجكم » شاك فى سلاحه ، وحوله مكتوب :

إنما العز فاعلم ، للأمير المعظَّمْ ، سيد الناس بَجْكَمْ

ومن الجانب الآخر الصورة بعينها ، جالس فى مجلسه كالمفكر المطرِق .
فقال الراضى : أما ترى صنع هذا الإنسان وما تسمو إليه همته ، وما تحدِّثه به نفسه ؟ ! فلم أجبه بشىء ، وأخذت به فى أخبار من مضى من ملوك الفرس وغيرها ، وما كانت تلقى من أتباعها ، وصبرهم عليهم ، وحسن سياستهم لذلك حتى تصلح أمورهم ، وتستقيم أحوالهم ، فسلا عما عرض لنفسه . ثم قلت : يمتع الله أمير المؤمنين أن يكون كالمأمون فى هذا الوقت حيث يقول :

صِلِ النُّدمان يومَ المِهْرَجان ... بصافٍ من مُعَتَّقَه الدِّنان
بكاسٍ خُسْرُوانِيٍّ عتيق ... فإن العيد عيد خُسْرُوانى
وجنِّبنى الزَّبِيبِيِّين طرًّا ... فشأنُ ذوى الزبيب خلاف شانى
فأشربها وأزعمها حراما ... وأرجو عفو ربٍّ ذى امتنان
ويشربها ويزعمها حلالا ... وتلك على الشقىِّ خطيئتان

فطرب وأخذته أريحية وقال لى : صدقت ، ترك الفرح فى مثل هذا اليوم عجز ! وأمر بإحضار الجلساء ، وقعد فى مجلس التاج على دجلة ، فلم أر يوماً كان أحسن منه فى الفرح والسرور[1] .

✡ ✡ ✡

هذا فى إيجاز تام — حال الأتراك من حيث علاقتهم بالخليفة والخلافة وشؤونها .

---

(١) مروج الذهب : ٢/٤١١ .

وللأتراك فى هذا العصر ناحية أخرى اجتماعية لها أثر كبير فى حياة المسلمين ، فقد كان لقبض الأتراك على زمام الحكم أثر فى دخول كثير منهم فى الإسلام وانتشارهم فى المملكة الإسلامية . فمسكويه يذكر فى حوادث سنة ٣٤٩ أنه فى هذه السنة أسلم من الأتراك نحو مائتى ألف خِرْكَاه[1] ، والخركاه هى الخيمة التى تسكنها الأسرة ، أى أن من أسلم نحو مائتى ألف أسرة ، فإذا كان متوسط الأسرة خمسة أشخاص كان مجموع ذلك نحو ألف ألف شخص ، ولا شك أن هذا العدد ، ومن أسلم قبله ، ومن أسلم بعده ، فى اندماجهم فى المسلمين يؤثر أثراً كبيراً .

كان هؤلاء الأتراك أقوياء أشداء أصحاء كما تستلزمه طبيعة بلادهم ، وبداوة معيشتهم . وقد ذكر لنا الجاحظ فيما سبق أنه أطلق على الأتراك « أعراب العجم » ، ويعنى بالأعرابية البداوة ، وهذه البداوة تكسبهم قوة فى البدن وخشونة فى الطبع ؛ وقد تجلى هذا فى معاملتهم الناس ، فضج منهم أهل بغداد فى عصر المعتصم . ولكن مرور الأزمان عليهم ، واستيلاءهم على البلاد المنعمة المترفة ، وكثرة الأموال فى أيديهم ، حضّرهم ، وعلمهم النعيم والبذخ ، وحمل بعضهم على العبث بالأخلاق . حكى التنوخى أن شيخاً من التجار كان له على بعض القواد مال جليل يماطله به ، ولم يستطع الظلامة إلى الخليفة المعتضد ، لأنه كان إذا جاء حجبه القائد واستخف به غلمانه ، فدلّوه على خياط فى سوق الثلاثاء ، فأمر الخياطُ القائد بدفع ما عليه للتاجر ففعل ؛ فعجب التاجر من هذا الذى رأى ، وألح عليه فى السؤال عن سبب خضوع القائد ! فقص عليه أنه مر مرة فى الطريق فرأى تركيا على داره ، وقد اجتازت امرأة جميلة عليه فتعلق بها وهو سكران

---

(١) تجارب الأمم : ١٨١/٦ .

ليدخلها داره ، وهى ممتنعة تستغيث ، وليس أحد يغيثها ، وتقول إن زوجى قد حلف بالطلاق ألا أبيت خارج بيته ، فإن بيَّتَنى هذا أخرب بيتى مع ما يرتكبه منى من المعصية ، ويلحقه بى من العار .

قال الخياط : فجئت إلى التركى ورفقت به وسألته تركها ، فضرب رأسى بدبوس كان فى يده فشجنى وآلمنى ، وأدخل المرأة داره ، فجمعت جمعاً وجئنا فضججنا على بابه ، فخرج إلينا فى عدة من غلمانه فأوقع بنا الضرب ، وذهبت إلى بيتى ولم أزل أفكر فى هذه المرأة حتى انتصف الليل ، فقلت هذا التركى قد شرب طول ليلته ولا يعرف الأوقات ، فإن أذّنت لوقع له أن الفجر قد طلع ، فيُطْلِق المرأة فتلحق بيتها قبل الفجر فتسلم من أحد المكروهَين ، ولا يخرب بيتها مع ما قد جرى عليها . فخرجْتُ إلى المسجد وصعدت المنارة فأذّنت ، وجعلت أتطلع منها إلى الطريق أترقب خروج المرأة فلم تخرج ، وإذا الشارع امتلأ خيلا ورجالا ومشاعل ، وهم يقولون من هذا الذى أذّن الساعة ؟ ! ففزعت ، ثم صحت من المنارة أنا أذنت . فقالوا لى انزل ، فأجب أمير المؤمنين . ثم ذهب بى إلى المعتضد ، وقص عليه القصة ، فأحضر التركى والمرأة ؛ فلما تحقق من صحة قولى أمر برد المرأة إلى زوجها وأن يتمسك بها ويحسن إليها ، وقال للتركى : كم عطاؤك ؟ قال كذا وكذا . قال : وكم وظائفك ؟ قال كذا وكذا ، وجعل المعتضد يعدد ما يصل إليه ، والتركى يقر بشىء عظيم ، ثم قال له : فكم جارية لك ؟ قال كذا وكذا . قال أفما كان فيهن وفى هذه النعمة العريضة كفاية عن ارتكاب معاصى الله ، وخرق هيبة السلطان ! ثم أمر به فقتل . قال الخياط : وأمرنى المعتضد إذ رأيت مثل هذا العمل أن أؤذن . وانتشر الخبر فما سألنا أحداً منهم بعدها إنصافاً إلا فعل[1] .

---

(١) الحكاية بطولها فى نشوار المحاضرة : ١/١٥٢ ، وما بعدها .

ورأينا كثيراً من قواد الأتراك — عند استيلائهم على الدولة — شرهين ، وكان مظهر شرههم كثرة مطالبتهم للخلفاء بالأموال من حين لحين ؛ فإذا نصبوا خليفة فسرعان ما ينقلبون عليه يطالبونه بالأموال ، فإن أعطاهم سكتوا قليلا ثم عادوا إلى المطالبة وإلا قتلوه ؛ ومن أجل ذلك كثر إخفاء المال فى سرداب أو حفرة فى الأرض ، أو بناء حوائط عليه أو نحو ذلك خوفاً من إلحاحهم . نسوق مثلا لذلك ما فعلوه مع المعتز ، « فقد هجم قوادهم عليه وقالوا أعطنا أرزاقنا ، فطلب من أمه مالا فأبت عليه ، ولم يكن فى بيوت المال شىء ، فاجتمع الأتراك حينئذ على خلعه » .

ومظهر آخر من إفراطهم فى حب المال ، وهو ما نقرأ فى تاريخ ذلك العصر من كثرة المصادرة للأموال — نعم كان قبل ذلك فى العصر العباسى الأول شىء من هذا القبيل ، ولكنه قليل ؛ أما فى هذا العصر فأصبح العادةَ المتبعة . وكان أول مظهر لهذه الكثرة فى عهد المتوكل ، وهو أول عهد استيلاء الأتراك ؛ فقد صادر محمدَ بن عبد الملك الزيات ، وأخذ ما فى منزله من متاع ودواب وجوار وغلمان ، وكذلك فعل مع أهل بيته ؛ وقبض على عمر بن فرج الرُّخَّجى ، وكتب فى قبض ضياعه وأمواله ؛ وغضب على أبى الوزير وأخذ منه ستين ألف دينار ؛ وضرب إبراهيم بن الجنيد النصرانى حتى أقر بسبعين ألف دينار فأخذها منه ؛ وعزل يحيى بن أكثم وقبض منه ما كان له ببغداد ، ومبلغه خمسة وسبعون ألف دينار ؛ وغضب على بختيشوع وقبض ماله . وصادر أموال أحمد بن أبى دواد ، مع أنه سبب خلافته ، واستصفى أمواله وأموال أبنائه ، فحمل إليه من ذلك مائة ألف درهم ، وعشرون ألف دينار ، وجواهر بقيمة عشرين ألف دينار[١] . وهكذا افتُتح عهد الأتراك بكثرة المصادرات ، واستمرت طوال

---

(١) انظر هذه الأحداث كلها فى تاريخ الطبرى فى خلافة المتوكل .

هذا العصر ، حتى لم يرحموا قبيحة أم المعتز فسلبوها كل مالها ، وكانت خبأته . وكان الخليفة أحياناً يضطر إلى كثرة المصادرات لتلبية مطالب القواد .

وكان كثير من أمراء البلدان فى هذا العصر من الأتراك ، كما هو الشأن فى مصر ؛ فمن سنة ٢٤٢ هجرية وحكام مصر أتراك ، وذلك منذ ولّى على مصر يزيد ابن عبد الله بن دينار التركى . وقبل ذلك بنحو عشرين عاماً كانت مصر تُمنح لحاكم تركى فى الغالب يقيم فى بغداد ، ويستخلف عنه أميراً يقيم فى مصر ويدبرها نيابة عنه كأشناس وإيتاخ . واستمرت سيادة الأتراك فى مصر طول مدة الطولونيين الأتراك والإخشيديين الأتراك أيضاً ، فكان بيد هؤلاء الولاة الأتراك السلطان والقوة والمال .

وهناك لون آخر مما لونوا به الحياة الاجتماعية ، وهو ما عرف عنهم من جمال ونظافة ، فكان ذلك سبباً فى كثرة الجوارى المماليك الأتراك فى قصور الخلفاء والعظماء والأغنياء ، حتى إن بعض الخلفاء أنفسهم فى هذا العصر كانت أمه جارية تركية ؛ فالمعتصم أمه تركية ، والمتوكل كذلك أمه خوارزمية ، والمكتفى بالله أمه تركية اسمها چيچك ، والمقتدر بالله أمه أم ولد قيل تركية وقيل رومية الخ .

كما اشتهر فى بيوت الأمراء جوار تركيات ، واشتهرت سمرقند بأنها مركز هام لتجارة الرقيق الأبيض . وقد وصف ابن بطلان فى رسالته فى الرقيق الجوارى التركيات فقال : إن « التركيات قد جمعن الحسن والبياض ، ووجوهن مائلة إلى الجهامة ، وعيونهن مع صغرها ذات حلاوة ، وقد يوجد فيهن السمراء الأسيلة ، وقدودهن ما بين الربع والقصر ، والطول فيهن قليل ؛ ومليحتهن غاية ، وقبيحتهن آية ؛ وهن كنوز الأولاد ، ومعادن النسل ، فلما يتفق فى أولادهن وحش ولا ردىء التركيب ، فيهن نظافة ولباقة . . . لا يكاد يوجد فيهن نكهة

متغيرة . . . وفيهن أخلاق سمجة ، وقلة وفاء » .

وتغزل الشعراء فى ذلك بغلمان من الأتراك ، وكان منهم فى القصور ودور العظماء كثيرون . فرووا أنه فى وقعة بين عز الدولة وعضد الدولة البويهيَّيْن أسر غلام تركى لعز الدولة ، فجن عليه واشتد حزنه وامتنع من الأكل ، وأخذ فى البكاء واحتجب عن الناس ، وكتب إلى عضد الدولة يسأله أن يرد الغلام إليه ، فصار ضحكة بين الناس ، وعوتب فما ارعوى لذلك ، وبذل فى فداء الغلام جاريتين عُوديتين كان قد بذل له فى الواحدة مائة ألف ، وقال للرسول إن توقف عليك فى رده فزد ما رأيت ولا تفكر ، فقد رضيت أن آخذه وأذهب إلى أقصى الأرض ! فرده عضد الدولة عليه[1] .

وروى أبو إسحاق الصابى أنه كان لمعز الدولة غلام تركى يدعى تكيز الجامدار ، أمرد رومى الوجه ، منهمك فى الشرب لا يعرف الصحو ولا يفارق اللعب واللهو ، ولفرط ميل معز الدولة إليه وشدة إعجابه به ، جعله رئيس سَرِية جردها لحرب بنى حمدان ، وكان المهلبى يستظرفه ويستحسن صورته ، ويرى أنه من عُدَد الهوى لا من عُدد الوغى ، فقال فيه :

ظَبْىٌ يرقّ الماء فى وَجَناته ويروق عُوده
ويكاد من شبه العذارى فيه أن تبدو نهوده
ناطوا بمعقد خصره سيفاً ومِنْطَقَةً تؤوده
جعلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومَن يقوده

فما أسرع أن كانت الدائرة على هذا القائد[2] .

وكان لسيف الدولة الحمدانى مملوك تركى جندى اسمه يَمَاك ، مات بحلب

---

(١) تاريخ الخلفاء : ١٦٣ . (٢) نزهة الجليس : ٢/٥٦

سنة ٣٤٠ فحزن عليه حزناً شديداً ، وقال المتنبى قصيدة يعزيه فيها مطلعها :

لا يُحْزِنِ اللهُ الأمير فإننى سآخذ من حالاته بنصيب

وفيها :

لَأَبقَى يَمَاكٌ فى حشاى صبابة إلى كل تُرْكى النِّجار جَليب
وما كلُّ وجه أبيضٍ بمبارَك ولا كل جفن ضيّق بنَجيب

وفيها :

وإن الذى أمست نزارُ عبيدَه غنىٌّ عن استعباده لغريب

وقال أبو تمام — وقد أهدى له الحسن بن وهب — غلاماً خزرياً :

قد جاءنا الرَشأُ الذى أهديتَه خِرْقاً[1] ولو شئنا لقلنا المركبُ
لدْنُ البَنان له لسان أعجمٌ خُرْس معانيه ووجه مُعْرَبُ
يرنو فيثلمُ فى القلوب بطَرفه ويَعِنّ للنظر الحَرُون فيُصْحِب[2]
قد صرَّف الراءون خمرة خده وأظنها بالريق منه ستُقْطَب[3]

وأحب مهذب الدين الطرابلسى غلاماً مملوكا له اسمه « تتر » ، فبعث مرة هدايا إلى الشريف المرتضى نقيبِ الأشراف مع هذا الغلام ، فتوهم الشريف أنه من جملة الهدايا ، فأخذه ، فساءت حال مهذب الدين وكان شيعياً ، فقال قصيدته المشهورة التى مطلعها :

عذّبتَ طَرفى بالسهر وأذبت قلبى بالفِكَر
ومزجتَ صفْو مودّتى من بعد بُعدك بالكدر

وفيها :

نفسى الفداء لشادِنٍ أنا من هواه على خَطر

---

(١) الخرق : الفتى الحسن الخلقة .

(٢) النظر الحرون : الشارد . وأصحب انقاد بعد صعوبة . يريد أنه لو نظر إليه الخلى لوقع فى شراكه . (٣) صرف : شرب صرفا . وتقطب : تمزج .

عـــذل العذول وما رآ ه فحين عاينـــه عَذَر

وقد كان مهذب الدين هذا شيعياً ، فهدد الشريف بأنه إن لم يرسل الغلام يهجر التشيع ويدخل فى مذهب أهل السنة ، وفى ذلك يقول :

لئن الشريف الموسوى (م) ابن الشريف أبى مضر
أبدى الجحود ولم يَرُدَّ (م) إلىّ ممـــلوكى تتر
وَالَيْتُ آل أميـة الطهـــر الميامين الغُـــــرر
وجحدت بَيْعة حيدر وعَدَلت عنه إلى عمر[1]

وأخيراً قال الشاعر :

الله أكبر ليس الحُسن فى العرب كم تحت لِمَّةِ ذا التركى من عجب

* * *

أما من الناحيــة العقلية — وهى التى تهمنا هنا — فإنا نرى أن ابتداء سلطان الأتراك — وكان ذلك فى عهد المتوكل — مصحوب بمظاهر جديدة تخالف كل المخالفة ما كان من قبل ، أهمها ثلاث :

(١) إلغاء سلطان المعتزلة وإعلاء شأن المحدِّثين ، فنهى المتوكل عن القول بخلق القرآن والجدال فى الكلام ، «وأظهر الميل إلى السنة ونصر أهلها ، ورفع المحنة ، وكتب بذلك إلى الآفاق ، وذلك فى سنة ٢٣٤ ؛ واستقدم المحدّثين إلى سامَرّا ، وأجزل عطاياهم وأكرمهم ، وأمرهم بأن يحدثوا بأحاديث الصفات والرؤية »[2] .

وكتب كتابا إلى الأمصار يأمر بترك الجدال فى القرآن ، واضطهد رؤساء المعتزلة وضيّق عليهم ؛ فرئيس الاعتزال فى مصر وهو محمد بن أبى الليث ،

(١) القصيدة بطولها فى تزيين الأسواق لداود الأنطاكى : ٢/٢١ .
(٢) تاريخ الخلفاء : ١٣٨ .

جاء كتاب المتوكل بحلق رأسه ولحيته وضرب به بالسوط ، وحمله على حمار بإكاف وتطوافه الفسطاط ، ثم أخرج إلى العراق[1] ؛ وأحمد بن أبى دواد رأس الاعتزال فى العراق قد غضب عليه المتوكل وعلى ابنه محمد وصادر أموالهما — وما أظن أن الجاحظ المعتزلى نجا من النكبة إلا لأنه مَرِن ، وقد دفع عنه الشر بمرونته ، وبما قدم من رسالته فى إعلاء شأن الأتراك ، واتصاله بالفتح بن خاقان — وفى الوقت نفسه أعلى المتوكل شأن المحدّثين ، فكرّم أحمد بن حنبل . وفى عهده جلس أبو بكر بن أبى شيبة فى جامع الرصافة يحدث الناس ، فاجتمع إليه نحو من ثلاثين ألف نفس ؛ وجلس أخوه عثمان فى جامع المنصور ، فاجتمع إليه أيضاً نحو من ثلاثين ألف نفس[2] .

وتبلور عداء الناس للمعتزلة فى أبى الحسن الأشعرى ، فقد ولد بعد المتوكل بنحو اثنى عشر عاما ، وتثقف ثقافة المعتزلة ، ثم عاداهم وأعلن الحرب عليهم ، ودعا إلى مذهب كلامى اعتنقه جمهور كبير من المسلمين ، كما سيأتى . فالأشعرى يمثل لموجة الحديثة التى أتت فى عهد المتوكل تهاجم المعتزلة وتنصر المحدّثين وأهل السنة ، وهو ليس إلا معبّراً عن ميول عصره ، وصدى لصوت زمانه . رجع عن الاعتزال « ورقى كرسياً فى المسجد الجامع بالبصرة ، ونادى بأعلى صوته من عرفنى فقد عرفنى ، ومن لم يعرفنى فأنا أعرفه بنفسى ، أنا فلان بن فلان كنت أقول بخلق القرآن ، وأن الله لا تراه الأبصار ، وأن أفعال الشر أنا أفعلها ، وأنا تائب مقلع ، مقتعد للرد على المعتزلة ، مخرج لفضائحهم ومعايبهم »[3] . وقال أبو بكر الصيرفى : « كانت المعتزلة قد رفعوا رءوسهم حتى أظهر الله الأشعرى فجحرهم فى أقماع السمسم » . ولكن الحق أنه ما كان له هذا لولا ما كان من المتوكل

---

(١) تاريخ الولاة والقضاة : ٤٦٥ . (٢) الخلفاء : ١٣٨ .

(٣) ابن خلكان : ٤٦٤/١ .

من الحجر عليهم ، والتنكيل بهم ، وتأييد الجمهور — بتأثير المحدّثين — لهذه الحركة .

والواقع أن هذه الحركة ، وأعنى بها اضطهاد المعتزلة ونصرة المحدّثين ، كان لها أثر كبير فى حياة المسلمين من ذلك العهد إلى اليوم ؛ فقد لونت حياتهم بلون خاص ، ظلوا يحافظون عليه طوال العصور المختلفة .

كانت طبيعة الاعتزال تدعو إلى التفلسف واتجاه العقل فى مناح شتى من الحياة ، وتحريره من كثير من القيود بعد الإيمان بالله ورسوله ، والإيمان بالقرآن ، وحصر الحديث فى دائرة ضيقة — كما تقدم — وإشعار الإنسان بالمسئولية لأن أعماله صادرة عنه ، ولكنهم — مع الأسف — آمنوا بهذه الحرية وأرادوا أن ينفذوا الحرية بالقوة والسلطان ، فكانت حرية بالإكراه .

وطبيعة المحدّثين تدعو إلى الوقوف عند النصوص والتزامها ، وتضييق دائرة العقل ، واحترام الرواية إلى أقصى حد ، والبحث وراء ألفاظ الحديث ومعانيه وأسانيده ؛ وهذا — مع اعترافنا بما له من مزايا — يستتبع نمطاً فى التفكير خاصاً يسود فيه تقديس النقل أكثر من تقديس العقل ، والتقليد دون الاجتهاد ، والوقوف عند النصوص دون التعمق فى مغازيها ومراميها ، والنظر إلى الفلسفة والبحث العقلى فى الكليات نظر البغض والكراهة ، وعد المفكر على هذا النمط ملحداً أو زنديقاً الخ . وهذا هو الذى ساد عقول كثير من المسلمين منذ خنق الاعتزال ، فاحترمت نصوص الكتب أكثر مما احترم نقد العقل ، واحترم العالم واسع الاطلاع بالنصوص الدينية واللغوية ، أكثر مما احترم قليل الحفظ واسع أفق العقل ، وأكرم العالم المقلد أكثر مما أكرم العالم المجتهد ، ونظر إلى المحدث والفقيه بخير مما نظر إلى الفيلسوف والمفكر الناقد ، وضاقت دائرة

التفلسف إذا قيست بدوائر العلم فى الفروع الأخرى .

كل هذا وأكثر منه كان نتيجة لهذه الحركة . وأعتقد أن الأتراك فى ذلك العصر مسئولون لدرجة كبيرة عن هـذا ؛ فطبيعة عامتهم لا تقبل الجدل الـكلامى ، ولا كثرة المذاهب الدينية . فالأتراك فى جميع عصورهم قلّ أن نرى منهم من اعتنق مذهباً فى الأصول غير مذهب أهل السنة وفى الفروع غير مذهب أبى حنيفة ، وقل أن نرى بين علمائهم خصومة فى المذاهب كالتى كنا نراها فى العراق من خوارج وشيعة ومرجئة ومعتزلة ، ونحو ذلك ؛ إنما هو مذهب واحد يسود — غالباً — ويتوارث . ومع هذا فلسنا ننكر أن فيهم أفذاذاً فى سعة النظر وقوة التفكير — كما سيأتى بيانه — ولـكن هذا هو النظر العام .

(٢) الإيقاع بالشيعة إيقاعا بالغاً : ففى سنة ٢٣٦ « أمر المتوكل بهدم قبر الحسين بن على ، وهدم ما حوله من المنازل والدور ، وأن يُبْذَر ويسقى موضع قبره ، وأن يمنع الناس من إتيانه ؛ فنادى بالناس فى تلك الناحية من وجدناه عند قبره بعد ثلاثة حبسناه فى المطبق ، فهرب الناس وتركوا زيارته ، وخرب وزرع . وكان المتوكل شديد البغض لعلى بن أبى طالب ولأهل بيته ، وكان يقصد من يبْلغه عنه أنه يتولى علياً وأهله بأخذ المال والدم . وكان من جملة ندمائه عبادة المخنث ، وكان يشد على بطنه تحت ثيابه مخدة ، ويكشف رأسه وهو أصلح ، ويرقص بين يدى المتوكل والمغنّون يغنون : قد أقبـل الأصلع البطين ، خليفة المسلمين ، يحكى بذلك علياً عليه السـلام ، والمتوكل يشرب ويضحك »[١] ، « وقيل إن المتوكل كان يبغض من تقدمه من الخلفاء — المأمون والمعتصم والواثق — فى محبة علىّ وأهل بيته ، وإنما كان ينادمه ويجالسه

---

(١) ابن الأثير : ١٩/٧ .

جماعة قد اشتهروا بالنصب والبغض لعليّ ، منهم على بن الجهم الشاعر الشامى ... وعمرو بن فرج الرُّخَّجِى ، وأبو السمط من ولد مروان بن أبى حفصة ... وابن أترجة ، وكانوا يخوفونه من العلويين ، ويشيرون عليه بإبعادهم والإعراض عنهم والإساءة إليهم ، ثم حسنوا له الوقيعة فى أسلافهم الذين يعتقد الناس علو منزلتهم فى الدين ، ولم يبرحوا به حتى ظهر منه ما كان ، فغطت هذه السيئة جميع حسناته»[1]

ورووا أن المتوكل كان قد اتصل به يعقوب بن إسحاق النحوى المعروف بابن السكِّيت ، فسأله المتوكل أيما أحب إليك ، المعتز والمؤيد (ابنا المتوكل) ، أو الحسن والحسين ؟ فتنقّص ابنيه ، وذكر الحسن والحسين عليهما السلام بما هما أهل له ، فأمر الأتراك فداسوا بطنه ، فحمل إلى داره فمات[2] .

وهذه الحوادث وأمثالها فى التنكيل بالشيعة قد كان لها مثيل من قبل فى العهدين الأموى والعباسى الأول ، إلا أنا نريد أن نثبت هنا أن سلطان الأتراك لما ظهر صحبه عودة التنكيل بالشيعة ، وكان قد هدأ فى عهد المأمون والمتعصم والواثق . .

وهذه الظاهرة أيضاً لازمت الأتراك طول عهدهم ، فكل تاريخهم مملوء بكراهيتهم للتشيع والشيعة ، وبالحروب المتصلة بينهم — وهم سنيّون — وبين الفرس ، وهم شيعة .

وكان تصرف المتوكل مع الشيعة سبباً كبيراً من أسباب تدبير الشيعة للمؤامرات والدسائس والفتن للخروج على الدولة العباسية فى بغداد ، وإقامة حكومات شيعية مستقلة عن خلفاء العراق كما سيأتى .

(٣) المظهر الثالث : اضطهاد اليهود والنصارى . فقد « أمر المتوكل بأخذ

---

(١) ابن الأثير : ٢٠/٧ .　　(٢) ابن الأثير ٣١/٧ .

النصارى وأهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير ، وركوب السروج بركب الخشب ، و بتصيير زرّين على قلانس من لبس منهم قلنسوة مخالفة لون القلنسوة التى يلبسها المسلمون ، و بتصيير رقعتين على ما ظهر من لباس مماليكهم مخالفٍ لونهما لون الثوب الظاهر عليه ، وأن تكون إحدى الرقعتين بين يديه عند صدره ، والأخرى منهما خلف ظهره ، وتكون كل واحدة من الرقعتين قدر أربع أصابع ولونهما عسلياً ، ومن لبس منهم عمامة فكذلك يكون لونها لون العسل ، ومن خرج من نسائهم فبرزت فلا تبرز إلا فى إزار عسلى . . . وأمر بهدم بيعهم المحدثة ، و بأخذ العُشْر من منازلهم ، و إن كان الموضع واسعاً صير مسجداً ، و إن كان لا يصلح أن يكون مسجداً صير فضاء . وأمر بأن يجعل على أبواب دورهم صور شياطين من خشب مسمورة ، تفريقاً بين منازلهم و بين منازل المسلمين . ونهى أن يستعان بهم فى الدواوين وأعمال السلطان التى تجرى فيها أحكامهم على المسلمين ، ونهى أن يتعلم أولادهم فى مكاتب المسلمين ؛ ولا يعلّمهم مسلم . . . وأمر بتسوية قبورهم مع الأرض لئلا تشبه قبور المسلمين ؛ وكتب إلى عماله فى الآفاق بذلك »[1] . وقد علل عمله هذا فى كتابه بأنه يريد إعزاز الإسلام ، و إذلال الكفر ، وليجعل الله الفوز والعاقبة للمتقين ، والخزى فى الدنيا والآخرة على الكافرين . وقال على بن الجهم فى ذلك :

العَسَليات التى فرّقَتْ بين ذوى الرُّشْدَةِ والغَىْ

وما على العاقل إن يكثروا فإنه أكثر للفَىْء[2]

نعم ، ربما كان هذا نتيجة لسوء العلاقة بين المسلمين والروم ، ومهاجمة الروم لبلاد المسلمين من حين لحين ، ولكن مهما كان الأمر فهى حالة سيئة تدل على

---

(١) تاريخ الطبرى : ٣٦/١١ ، وفيه نص هذا الكتاب الذى أرسله المتوكل للأمصار .

(٢) يريد الفىء .

ضيق العقل ، ومخالفته للنظر الواسع الحكيم الذى أمر به الإسلام ، ونفذه خلفاء المسلمين الأولون ، وعلى رأسهم عمر بن الخطاب فى حكمة ورفق ! وكان هذا أيضاً مما أفسد قلوب عدد كبير من الرعية كان يُستخدم من قبل فى مصلحة الدولة ، وحرك عدداً منهم للثورة ، كثورة نصارى أرمينية على محمد بن يوسف عامل المتوكل على أرمينية وأذربيجان ، وقتلهم إياه[1] ونحو ذلك .

* * *

وقد أراد بعض من أتى بعد المتوكل من الخلفاء أن يزيلوا هذه المظاهر أو بعضها ، كالذى فعل المنتصر ، فقد أراد أن يعيد الاعتزال إلى سلطانه ، وأراد أن يحسن صلته بالبيت العلوى ، ولكن لم تطل مدته ، ولم يمكنه الزمان ولا حالة الناس من تنفيذ ما أراد .

* * *

لم يكن لهذا النوع من الأتراك مدنية وحضارة قديمة ، إذ كانوا بدواً أو أشبه بالبدو ، فلم يكن شأنهم عند ما اندمجوا فى المملكة الإسلامية شأن الفرس ؛ فالفرس عندما فتحت بلادهم ، وأسلم كثير منهم واندمجوا فى المملكة الإسلامية ، أعطوا وأخذوا ، وانتفع بهم المسلمون من ناحية الثقافة : بمثل الكتب التى نقلت من الفارسية إلى العربية ، ومثل الألفاظ الفارسية التى نقلت إلى العربية ، ومثل نظم الحكم التى أتقنوها فى مملكتهم ، إلى غير ذلك مما شرحناه قبل ؛ كما أخذوا هم عن العرب اللغة والدين . وكان من الفرس رجال مثقفون ثقافات واسعة كالبرامكة ، والفضل بن سهل ، والحسن بن سهل ، وابن المقفع ، فأثروا فى الثقافة الإسلامية أثراً كبيراً بما مزجوا من الثقافتين الفارسية والعربية . أما الأتراك

---

(١) انظرها فى تاريخ ابن العبرى ص ٢٤٧ .

فجاءوا بشجاعتهم وقوة أبدانهم ، و بعاداتهم وتقاليدهم لا بحضارتهم وثقافتهم ، فكانوا من ناحية الحضارة والثقافة قابلين لا فاعلين ؛ جاءا لا يعرفون اللغة العربية فتعلموها فى بطء ، ولم يتقنها بعضهم إلا بعد ذهاب الجيل الأول منهم ، فكانوا يتخاطبون بترجمان .

و يحدثنا الصُّولى أن «بجكم» أمير الأمراء فى عهد الراضى والمتقى ، كان يحسن العربية فهماً ولا يحسنها كلاماً ، « وكان يقول أخاف أن أتكلم بالعربية فأخطئ فى لفظى ، والخطأ من الرئيس قبيح ، فلذلك أدع الكلام »[1] .

ولم يتقنوها فى سرعة ومهارة كما فعل الفرس ، فما أتى الجيل الثانى والثالث على الفرس حتى رأيناهم قد أمسكوا بزمام الأدب شعراً وكتابة وتأليفاً علمياً ، وليس كذلك الأتراك ، فقلَّ أن نرى منهم شاعراً أو ناثراً بالعربية ، وعلى الأخص فى الأجيال الأولى من إسلامهم — وأسلم الأتراك الأولون فكان إسلامهم ذا لون خاص ، فيه نواحى قوة ونواحى ضعف ، فهو دين شديد لا يقبل جدالا ولا مناقشة ، ولا يقبل مذاهب مختلفة ؛ وعلى العكس من ذلك الفرس ، فكان إسلامهم فيه الجدل الشيعى وغير الشيعى ، وفيه المقارنة بينه و بين المانوية والزرادشتية والمزدكية ، وفيه التزندق أحياناً والتفلسف أحياناً ، وفيه المذاهب المختلفة التى ظهر أثرها فى العراق أيام سلطانهم . أما مؤرخ الإسلام عند هؤلاء الأتراك فلا يرى مجال القول فسيحاً كما يراه عند الفرس ، ولكل من هذين النوعين من التدين مزاياه ومضاره ، كالفرق بين إيمان العجائز و إيمان الفلاسفة .

أخذت طائفة من الأتراك يتعلمون اللغة العربية والدين ، ور بما كان خير مثل لتعلم الطبقة الممتازة من الأتراك ما كان من أحمد بن طولون ، فقد أخذ يتعلم

---

(١) الصولى ، أخبار الراضى والمتقى : ١٩٤ .

على حين أن كثيراً من أمثاله لا يعنون بالتعلم . قال المقريزى : « نشأ أحمد بن طولون نَشْأً جميلا غير نشء أولاد العجم (يريد الترك) ، فوصف بعلو الهمة ، وحسن الأدب ، والذهاب بنفسه عما كان يترامى إليه أهل طبقته »[١] ، فدرس العربية ، وحفظ القرآن ، وتفقه على مذهب أبى حنيفة ، وكان ذلك كله وهو فى بغداد ، ثم خرج إلى طرسوس مراراً ، وأخذ الحديث عن كبار المحدثين فيها ، « فظهر فضله واشتهر عند الأولياء ، وتميز عن الأتراك »[٢] . فكان فى هذا من خير الأتراك ، بل كان هو نفسه « شديد الإزراء على الأتراك وأولادهم لما يرتكبونه فى أمر الخلفاء ، غير راض بذلك ، ويستقل عقولهم ، ويقول حرمة الدين عندهم منهوكة »[٣] .

فإذا كانت ثقافة أحمد بن طولون هذه تعد ثقافة ممتازة بين الأتراك ، استطعنا أن نستنتج ضيق ثقافة الأتراك عامة فى هذا العصر .

ومع هذا فإنا نرى بعض الأتراك من أوائل هذا العصر وبعده نبغوا فى فنون مختلفة على قلة فيهم .

فنرى مثلا « الفتح بن خاقان » التركى قال فيه ابن النديم : « كان فى نهاية الذكاء والفطنة وحسن الأدب ، وكان من أولاد الملوك ، واتخذه المتوكل أخا ، وكان يقدمه على جميع أولاده ، قتل مع المتوكل ليلة قتل بالسيوف لأربع خلون من شوال سنة ٢٤٧ هـ » . وكانت له خزانة كتب لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضر داره فصحاء العرب وعلماء الكوفيين والبصريين ؛ وروى المبرد شيئاً من شعره — وكان يتعشق غلاما له اسمه شاهك ، وله فيه أشعار ، منها :

---

(١) الخطط : ٣١٣/١ .

(٢) المصدر نفسه . (٣) النجوم الزاهرة : ٤/٣ .

أشَاهِكُ ، ليلِي مذ هجرتَ طويل   وعيني دماً بعد الدموع تسيل
وبي منك — والرحمنِ — ما لا أُطيقه   وليس إلى شكوى إليك سبيل
أَشَاهِكُ لو يُجْزَى الحبُّ ، بودّه   جَزَيْتَ ولكن الوفاء قليل

ويروى له :

وإني وإيّاها لكالخمر ، والفتى   متى يستطع منها الزيادة يَزْدَدِ
إذا ازددتُ منها ازددت وَجداً بقربها   فكيف احتراسي من هوًى متجدِّد

وقد روى له فى كتب الأدب أبيات من هذا القبيل ، وجمل ظريفة وأجوبة سديدة تدل على منزلته فى الأدب[1] . وهو الذى قدم له الجاحظ رسالته فى مدح الأتراك التى تقدم وصفها .

ونبغ من الأتراك أبو نصر الفارابى الفيلسوف الإسلامى الكبير ، وأستاذ كل فيلسوف إسلامى بعده ، فإنه من فاراب ، وهى مدينة من مدن الترك نبغ منها جماعة كثيرة من العلماء . ونبوغ الفارابى من بين الأتراك مفخرة كبيرة لهم ، فقد عنى بفلسفة أرسطو ، وأخرجها للمسلمين فى شكل جديد ، وكان له فضل على كل من اشتغل بالفلسفة من المسلمين بعده ؛ فظهوره من الترك رجح من كفتهم وكانت شائلة ، وأثقل ميزانهم وكان خفيفاً . وسيأتى بسط لقيمته وفلسفته فى موضعه من هذا الكتاب إن شاء الله ، وقد مات بدمشق سنة ٣٣٩ هـ .

كما نبغ من الأتراك فى القرن الرابع إسماعيل بن حماد الجوهرى الفارابى أيضاً ، صاحب كتاب الصحاح من أهم كتب اللغة وأصولها ؛ كان إماماً فى علم اللغة والأدب ، كما كان يضرب به المثل فى جودة الخط .

أخذ علم العربية عن أشهر علماء العراق ، مثل أبى على الفارسى ، وأبى سعيد

---

(١) انظر معجم الأدباء : ٦/١١٦ وما بعدها

السيرافى ، ثم سافر إلى الحجاز يأخذ اللغة عن أهلها بالسماع والمشافهة ، وطوّف فى بلاد ربيعة ومضر ، وحقق ما يشك فيه مما يرويه العلماء ، فيقول — مثلا — سألت أعرابياً بنجد من بنى تميم ، وهو يستقى ، وبكرته نَخِيس ، فوضعت إصبعى على النِّخَاس[1] فقلت : ما هذا ؟ وأردت أن أتعرف منه الخاء من الحاء ، فقال : نِخَاس بخاء معجمة ، فقلت أليس قال الشاعر :

* وبَكْرة نِحاسُها نُحَاس *

فقال ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين .

فلما استكمل دراسته ومشافهته وضع فى اللغة كتابه الصحاح الذى يعد — بحق — من أسس كتب اللغة .

وكما اجتهد فى تصحيح الألفاظ وضبطها كان له الفضل فى اختراع الطريقة التى ألّف عليها كتابه ، وحذا حذوه فيها صاحب القاموس ولسان العرب وغيرهما من حصر الكلمات فى أبواب حسب أواخرها ، وتقسيم الأبواب إلى فصول حسب أوائلها ؛ وكانت كتب اللغة قبله ترتب ترتيباً مهوّشاً ، فتذكر الكلمة ثم يذكر مقلوبها ، كما فعل صاحب كتاب العين والجمهرة ، وقد مات نحو سنة ٤٠٠ هـ[2] .

وعلى الجملة ، فلئن كان أكثر العنصر التركى فى المملكة الإسلامية إنما يمتاز بالجندية والخشونة مع ضعف الثقافة ؛ فقد نبغ منهم علماء فى فروع مختلفة حصلوا ما كان من الثقافة فى عصرهم ، وابتكروا بعقولهم .

* * *

---

(١) النخاس : شىء يلقمه خرق البكرة إذا اتسعت وقلق محورها ، ويقال بكرة نخيس اتسع ثقب محورها فنخست بنخاس ، فيظهر أن بعض علماء اللغة رواها بالحاء المهملة ، فحققها الجوهرى بالخاء المعجمة .

(٢) انظر معجم الأدباء لياقوت : ٢/٢٦٦ .

العنصر الفارسي :

لم يهدأ الفرس منذ رأوا الأتراك تحتل مراكزهم فى الدولة العباسية وتستبد بالسلطان دونهم ، وتقصيهم عن أماكنهم . لقد كان الفرس فى العصر العباسى الأول هم عماد الدولة ، وبيدهم تصريف شؤونها ، وكان الخليفة يعتمد عليهم فى أهم الأمور ، وهم يحتفظون له بمظهر الأبهة والجلالة ، ثم ينشرون سلطانهم ؛ فإذا أحس الخليفة منهم استبداداً أوقع بهم ، كما فعل الرشيد بالبرامكة ، والمأمون بابن سهل ، ولكنهم سرعان ما يستردون نفوذهم . فلما جاء الأتراك أبعدوهم عن منزلتهم ، وغَلبوا على الخليفة دونهم ، فانكمش الفرس على حنق ، ولعبت بهم العصبية الفارسية ، وأخذوا يدسون الدسائس ويدبرون المؤامرات ، ويحصنون أنفسهم بالرجال والسلاح ، ويرمون إلى اقتطاع البلاد والاستيلاء عليها — وخصوصاً بلادهم الفارسية — والاستقلال بها عن خلفاء بغداد ، فإذا سنحت لهم فرصة بعد فليستولوا على العراق وعلى الخليفة ، وليتسلطوا هم عليه ، ويقضوا على سلطة الأتراك ، وكذلك كان .

كانت هذه العصبيات تلعب فى عقول الفرس والترك ، كل يريد الغلبة ويريد القضاء على صاحبه ؛ وكانت بغداد ساحة فى كثير من الأوقات للقتال بين الديالمة والأتراك . ولعل خير ما يمثل هذا ما روى الصُّولى فى حوادث سنة ٣٢٣ من أن « مَرْداويج الفارسى الأصل (أمير الرى وطبرستان ، ومؤسس الدولة الزِّيَارِيّة) جعل عسكره صنفين : صنف منهم جِيل وديلم[١] ، وهم خواصه ، وأهل بلده

(١) الجيل : سكان جيلان ، وهى اسم بلاد كثيرة من وراء بلاد طبرستان ، والنسبة إليها جيلى وجيلانى ، والعجم ينطقونها بالكاف . والديلم اسم يطلق على القسم الجبلى من جيلان وعلى سكان هذا القسم أيضا . ولم يكن بنو بويه من الديلم ، ولكن كان الديالمة أنصارهم ، ولهذا لقبت دولتهم بالديلمية والبويهية .

الذين فتح بهم الرى ونواحيها ؛ ومنهم صنف أتراك وأهل خراسان ؛ ثم استخص نفراً من الأتراك ، فوجد الديلم من ذلك ، وعاتبوه عليه . فقال : إنما اتخذت الأتراك لأقيكم بهم ، وأقدمهم يحاربون بين أيديكم ، وأنتم خاصتى وأنا بكم ولكم . فبلغ ذلك الأتراك ، فأجمع رأيهم على قتله ، فأوصوا الغلمان الصغار الذين فى خدمته ، ووكدوا عليهم بالتركية أن يفتكوا به ، فقتلوه فى حمام ؛ وجاءهم الذين واطؤوهم على ذلك وأخرجوهم من الدار . وركبوا دوابه وساروا فاضطربوا ، فقالوا : نجعل علينا رئيساً ، فرضوا ببَجْكَمْ ، وأخذوا من داره مالا عظيما ، وآنية فضة وذهب . وكان (أى مرداويج) قد تكبر وتجبر ، ووضع التاج على رأسه مكللا بأحسن الحب والياقوت ، وجلس على سرير فضة حواليه ذهب ، وكان مرصعاً بجوهر ، وقال : « أنا أرُدّ دولة العجم ، وأبطل دولة العرب »(١) .

☆ ☆ ☆

نجح الفرس إلى حد كبير فى اقتطاع أجزاء من الدولة والاستيلاء عليها ، واستبدادهم بها ، وقصر سلطة الخليفة على المظهر الاسمِىّ ؛ فمن قديم استولى الطاهرية على خراسان (٢٠٥ — ٢٥٩) ، والصَّفَّارية على فارس (٢٥٤ — ٢٩٠) ، والسامانية على فارس وما وراء النهر (٢٦١ — ٣٨٩) ، والزِّيَارية على جرجان (٣١٦ — ٤٣٤) ، ثم دولة بنى بويه الفارسية أيضاً (٣٢٠ — ٤٤٧) فقد استولوا على فارس ثم على العراق ، وأخضعوا الخليفة لأمرهم ، وأزالوا ولاية الترك عليه ، وأقاموا سلطانهم ، فكان شأن الخليفة منهم شأنه مع الترك قبلهم ، مظهر ولا عمل ، ولقب ولا أمر ولا نهى .

والواقع أن سلوك البويهيين الفرس مع الخلفاء لم يكن كسلوك آبائهم الفرس مع الخلفاء فى العصر العباسى الأول . لقد كان الأولون من الفرس يأتمرون بأمر

(١) أخبار الراضى والمتقى : ٦٢ .

الخليفة ، و يرعون ولاءهم له وطاعتهم إياه ، فلما جاء خلفهم من بنى بو يه لم يرعوا ولاء ولا قلدوا سلفهم ، إنما قلدوا الأتراك فى التنكيل بالخليفة والاستهانة به ، واستقلوا ضعفه فلم يعلوا شأنه بل زادوه ضعفاً .

فنى سـنة ٣٣٤ سار معز الدولة بن بو يه من الأهواز إلى بغداد فى خلافة المستكفى فملـكها ، ومنحه المستكفى إمرة الأمراء ، « وأعطاه الطوق والسوار وآلة السلطنة ، وعقد له لواء ، ولقبه معز الدولة ، ولقب أخاه ركن الدولة ، ولقب أخاه الآخر عماد الدولة ، وأمر أن تضرب ألقابهم على الدينار والدرهم »[1] .

فما أن استتب أمر معز الدولة ببغداد وقوى أمره حتى حجر على الخليفة المستكفى ، وقدر له كل يوم خمسة آلاف درهم لنفقته .

وأوجس معز الدولة خيفة من المستكفى ، فدخل معز الدولة عليـه فوقف والناس وقوف على مراتبهم ، فتقدم اثنان من الديلم إلى الخليفة فمد يده إليهما ظنا أنهما يريدان تقبيلها ، فجذباه من السرير حتى طرحاه إلى الأرض وجراه بعمامته ؛ وهجم الديلم على دار الخلافة إلى الحرم ونهبوها فلم يبق منها شىء . ومضى معز الدولة إلى منزله ، وساقوا المستكفى ماشياً إليه وخُلع وسملت عيناه ، وولوا المطيع لله خليفة ، وقرر له معز الدولة كل يوم مائة دينار فقط لنفقته .

وكان معز الدولة يخرج للقتال ومعه المطيع كأسير — ولما ماتت أخت معز الدولة نزل المطيع إلى داره يعزيه .

ومات معز الدولة فأقيم ابنه بختيار مكانه ، فكان مع المطيع كأبيه ، وزاد على ذلك أنه صادر المطيع ، فقال المطيع أنا ليس لى غير الخطبة ، فإن أحببتم اعتزلت ، فشدد عليه بختيار حتى باع قماشه ، وأخذ منه أربعمائة ألف درهم .

---

(١) الفخرى : ٣٣٤ .

وأخيراً خلع المطيع نفسه ، وولى ابنه الطائع .

فاستجمع الأتراك قوتهم ، وتجمعوا حول سُبُكْتِكين التركى ، وتجمع الديلم والفرس حول معز الدولة ؛ فقدم عضد الدولة البويهى بغداد لنصرة عز الدولة على سبكتكين فتم لعضد الدولة النصر ، وملك بغداد . وأخيراً خلع الطائعُ على عضد الدولة خلعة السلطنة ، وتوّجه بتاج مجوهر ، وطوقه وسوره وقلده سيفاً ، وعقد له لواءين بيده ، أحدهما مفضض على رسم الأمراء ، والآخر مذهب على رسم ولاة العهود ، ولم يعقد هذا اللواء الثانى لغيره قبله ، وكتب له عهداً وقرئ بحضرته .

وفى سنة ٣٦٨ أمر الطائع أن يضرب الدبادب[1] على باب عضد الدولة فى وقت الصبح والمغرب والعشاء ، وأن يخطب له على منابر الحضرة[2] وزاد فى ألقابه . وجمع الطائع رجال الدولة ودخل عضد الدولة على الطائع وقبل الأرض بين يديه ، ثم قبّل وجل الطائع ، ثم أعلن الطائع إسناد الأمور كلها إلى عضد الدولة ، فقال له : « قد رأيت أن أفوض إليك ما وكل الله إلىّ من أمور الرعية فى شرق الأرض وغربها ، وتدبيرها فى جميع جهاتها سوى خاصتى وأسبابى » ؛ فقال عضد الدولة : « يعيننى الله على طاعة مولانا أمير المؤمنين وخدمته » .

وفى سنة ٣٧٠ خرج عضد الدولة من همذان يريد بغداد ، فخرج الخليفة الطائع للقائه ولم تجر العادة بذلك .

بل قد جرى خلاف بين الطائع وعضد الدولة فقطع عضد الدولة الخطبة للطائع فى بغداد وغيرها ، واستمر ذلك نحو شهرين ، ثم سوى الخلاف وأعيدت الخطبة للطائع .

بل طمع عضد الدوله فى الخلافة لنسله ، فزوج الطائعَ ابنته وعقد العقد

---

(١) الدبادب : الطبلخانات .   (٢) تاريخ الخلفاء : ١٦٣ .

بحضرة الطائع لله و بمشهد من أعيان الدولة ؛ وكان الوكيل عن عضد الدولة أبا على الفارسى النحوى ، والذى خطب خطبة الزواج القاضى أبا على المحسِّن التنوخى ، وكان المهر مائة ألف دينار — ورمى عضد الدولة بذلك أن يرزق الطائع ولداً من ابنته فيولَّى العهد وتصير الخلافة فى بيت بنى بويه ، و يصير الملك والخلافة فى الدولة الديلمية[1] .

وأخيراً بعد كل هـذا لم يرض البويهيون عن الطائع ، فإن بهاء الدولة البويهى احتاج إلى مال فدبر خلع الطائع وأَخْذَ أمواله ، فأرسل إلى الطائع يسأله الإذن فى الحضور ليجدد العهد به ، فأذن له فى ذلك وجلس له كما جرت العادة ؛ فدخل بهاء الدولة ومعه جمع كثير ، فلما دخل قبل الأرض وأجلس على كرسى ، فدخل بعض الديلم كأنه يريد تقبيل يد الخليفة فجذبوه وأنزلوه عن سريره وهو يستغيث ولا يلتفت إليه أحد ، وأخذوا ما فى داره ، ونهب الناس بعضهم بعضاً . ثم أمروه أن يخلع نفسه ففعل بعد أن نزل للبويهيين عن كل شىء .

وقد كان الشريف الرضى حاضراً فى المجلس الذى قبض فيه على الطائع ، وقد خاف أن يعيد الفرس تمثيل دور الترك مع المتوكل فأسرع فى الخروج ، وكان أول خارج من الدار ، ومكث من مكث من القضاة والأشراف فسلبوا ثيابهم وامتهنوا ، وفى ذلك يقول قصيدته التى مطلعها :

لواعجُ الشوق تُخْطيهم وتُصميني ... واللوم فى الحب ينهاهم ويغريني

وفيها يقول :

اعجبْ لمُسْكة نفسى بعدما رُميتْ ... من النوائب بالأبكار والعُون

ومن نجائىَ يوم الدار حين هوى ... غيرى ولم أخلُ من حزم ينجِّيني

---

(١) انظر تجارب الأمم : ٦/٤١٤ .

مرقت منها مروق النجم منكدِرا وقد تلاقت مصاريع الردى دونى
وكنتُ أول طلّاع ثنيَّتهـــا ومن ورائى شرٌّ غير مأمون
من بعد ما كان رب الملك[1] مبتسما إلىَّ أدنوه فى النجوى ويدنينى
أمسيت أرحم من أصبحت أغبطه لقد تقارب بين العز والهُون
ومنظر كان بالسراء يضحكنى يا قرب ما عاد بالضراء يبكينى !
هيهات أغترّ بالسلطان ثانيـــة قد ضل ولّاج أبواب السلاطين

وجاء القادر بالله بعد الطائع فظل سلطان بنى بويه على الخليفة كما كان ، قال الذهبى : « فى سنة ولايته عقد مجلس عظيم حَلف فيه القادر وبهاء الدولة (البويهى) كل منهما لصاحبه بالوفاء ، وقلده القادر ما وراء بابه مما تقام فيه الدعوة » .

من كل هذا نرى أن البويهيين من الفرس سلكوا مع الخلفاء ما سلكه الأتراك من قبلهم ، بل زادوا عليه أحياناً ؛ ولكن أكبر التبعة تقع على الترك فإنهم هم البادئون بانتهاك حرمة الخلافة ، فلم يكن من اليسير بعدُ إعادة ما لها من جلال .

وزاد الأمرَ سوءاً فى عهد البويهيين النزاع بين الشيعة والسنِّية ؛ فقد كان الخليفة سنياً ، والبويهيون شيعيين ، فاختلفت المظاهر وكثر النزاع . فى سنة ٣٥١ فى عهد المطيع — مثلا — كتبت الشيعة ببغداد على أبواب المساجد بلعن معاوية ، ولعن من غصب فاطمة حقها من فَدَك ومن منع الحَسَن أن يدفن مع جده ، ولعن من نفى أبا ذر ، فمحاه أهل السنة بالليل ؛ فأراد معز الدولة أن يعيده فأشار عليه الوزير المهلبى أن يكتب مكان ما محى : لعن الله الظالمين لآل رسول الله (ص) . وصرحوا بلعن معاوية فقط .

---

(١) يعنى الخليفة الطائع .

وفى سنة ٣٥٢ ألزم معز الدولة النـاس يوم عاشوراء بغلق الأسواق ومنع الطباخين من الطبخ ، ونصبوا القباب فى الأسواق ، وعلقوا عليهـا المسوح ، وأخرجوا نساء منتشرات الشعور يلطمن فى الشوارع ويقمن المأتم على الحسين ؛ وهذه أول مرة نيح فيها على الحسين ببغداد ، واستمر هذا سنين . وفى ثانى عشر ذى الحجة من هذه السنة عمل عيد غدير خُمّ ، وضربت الدبادب .

وفى سنة ٣٩٨ ، وقعت فتنة بين الشيعة وأهل السنة فى بغداد ، فأرسل الخليفة القادر الفرسان الذين على بابه لمعاونة أهل السنة وهكذا .

وتعصَّب بعض شعراء الفرس فى ذلك العهد لفارسيتهم ، ومن أشهر هؤلاء مهيار الديلمى ، فنرى ديوانه قد ملئ بالتهنئة بيوم النيروز ، ويوم المهرجان ، وبمراسلة بعض البويهيين للقدوم إلى بغداد والاستيلاء عليها ، وبالعصبية الفارسية من مثل قوله :

أُعْجِبت بى بين نادى قومها «أمُّ سعد» فمضت تَسْأَل بى
سرَّها ما علمت من خُلقى فأرادت علمَهـا ما حسَبى
لا تخـالى نسباً يخفضنى أنا من يُرضيكِ عند النسب
قومىَ استولوا على الدهر فتى ومشَوْا فوق رءوس الحِقب
عمَّموا بالشمس هاماتِهمُ وبنـوا أبياتهم بالشهب
وأبِى كسرى على إيوانه أين فى الناس أبٌ مثل أبى ؟
قد قبست المجد من خير أبٍ وقبست الدين من خـير نبى
وضممت الفخـر من أطرافه سؤدد الفُرس ودين العرب

وقد شرحنا أثر الفرس الاجتماعى فى «ضحى الإسلام» ، غير أنا نذكر هنا أن هـذه الحروب بين الترك والبويهيين الفرس ، وبين البويهيين بعضهم

مع بعض ، أثرت كثيراً من الخراب فى العراق وما حولها ، حتى جاء عضد الدولة فاستقرت الأمور بعض الاستقرار ، ومكنه ذلك وحبه للعمران أن يصلح بعض ما خرب .

قال مسكويه : « وكان ببغداد أنهار كثيرة ... وكان منها مرافق للناس لسقى البساتين ولشرب الشَّفَة فى الأطراف البعيدة من دجلة ، فاندفنت مجاريها ، وعفت رسومها ، ونشأ قرن بعد قرن من الناس لا يعرفونها ، واضطر الضعفاء إلى أن يشربوا مياه الآبار الثقيلة ، أو يتكلفوا حمل الماء من دجلة فى المسافة الطويلة ، فأمر (عضد الدولة) بحفر عمدانها ورواضعها ، وقد كانت على عمدانها الكبار قناطر قد تهدمت وأهمل أمرها ، وقلّ الفكر فيها ، فربما انقطعت بها السبل ، وربما عمرتها الرعية عمارة ضعيفة على حسب أحوالهم ، فلم تكن تخلو من أن تجتاز عليها البهائم والنساء والأطفال والضعفاء فيسقطون ، فبنيت كلها جديدة وثيقة ، وعملت عملا محكماً . وكذلك جرى أمر الجسر ببغداد ، فإنه كان لا يجتاز عليه إلا المخاطر بنفسه ، لا سيما الراكب لشدة ضيقه وضعفه ، وتزاحم الناس عليه ، فاختيرت له السفن الكبار المتقنة ، وعرّض حتى صار كالشوارع الفسيحة ، وحصن بالدرابزينات ، ووكل به الحفظة والحراس »[1] !

كما أعاد الاطمئنان إلى أهل الذمة ، وأذن للوزير نصر بن هارون فى عمارة البِيَع والديرة ، وإطلاق الأموال لفقرائهم .

كما أنشأ فى بغداد سنة ٣٧١ ، بيمارستاناً للمرضى سمى بعده بالبيمارستان العضدى ، وأحضر له كل ما يلزم من الأدوية والآلات ، ورتب له أربعة وعشرين طبيباً ، منهم الجراحون والكحالون والمجبرون ، وكان فيه دراسة للطب

---

(١) تجارب الأمم : ٦/٤٠٦ .

أيضاً ، وممن كان يدرس فيه إبراهيم بن بكس[1] .

و بعد نحو مائتى سنة من بنائه زاره ابن جبير الرحالة ، وقال : « إنه على نهر دجلة ، وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ، و يطالعون أحوال المرضى به ، و يرتبون لهم أخذ ما يحتاجون إليه ، و بين أيديهم قوَمة يتناولون طبخ الأدوية والأغذية ، وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت ، وجميع مرافق المساكن الملوكية ، والماء يدخل إليه من « دجلة » ، وعلى الجملة فكان مستشفى كبيراً ومدرسة للطب ، ولكن عاد الأمر بعده إلى الفساد والخراب .

أما الحركة العقلية والأدبية فى دولة بنى بويه ، فبلغت الغاية فى التحصيل والإنتاج ، وسنتكلم فيها فى محلها من هذا الكتاب إن شاء الله .

* * *

عنصر العرب :

بجانب هذا النفوذ التركى والنفوذ الفارسى ، كان هناك النفوذ العربى ، وأظهر ما كان ذلك فى الشام والجزيرة ، فالعرب الذين هاجروا من جزيرة العرب إلى الشام والعراق كانوا — دائما — قوة سياسية تحسب الخلفاء حسابها . نعم إنهم كانوا كل شىء فى العهد الأموى وضعف سلطانهم فى العهد العباسى ، ولكنهم كانوا فى كل الأحوال قوة لا يستهان بها . ولما ضعفت القوة المركزية فى بغداد شرعت هذه القبائل الهائمة فى صحراء الشام ووادى الفرات تحت رحالها ، وتنشئ مستعمرات ثابتة ، وتحتل المدن والقلاع ، وتكوّن دويلات — فكونت قبيلة تَغْلِب دولة الحَمْدانيين فى الموصل وحلب (٣١٧ — ٣٩٤) ، وكونت قبيلة

---

(١) ترجم له طبقات الأطباء .

كِلَاب دولة المِرْداسيين فى حلب (٤١٤ — ٤٧٢) ، وكوّن بنو عُقَيل العقيليين فى ديار بكر والجزيرة (٣٨٦ — ٤٨٩) ، وكوّن بنو أسد دولة المَزْيَديين فى الحِلّة (٤٠٣ — ٥٤٥) .

وهؤلاء العرب مع استيلائهم على المدن والقلاع لم ينبذوا عاداتهم القومية من البداوة وما إليها ، واعتزازهم ببداوتهم واحتقارهم لأهل الحضر . ومن طريف ما يروى فى ذلك أن قرواشاً العقيلى صاحب الموصل (من الدولة العقيلية) . قال مرة : « ما فى رقبتى غير خمسة أو ستة من البادية قتلتهم ، وأما الحاضرة فلا يعبأ الله بهم » .

وأهم هـذه الدول العربية التى تجلت فيها العصبية العربية ، واشتبكت مع العصبية التركية والفارسية هى دولة بنى حمدان التغلبية ؛ فقد عظم نفوذها بالموصل وحلب ، وأرادت الاستيلاء على بغداد وطرد النفوذ التركى والفارسى ، واستخلاص الخليفة لهم ، وجرت فى ذلك سلسلة حروب طويلة .

فالخليفة المتقى بالله ، احتمى بناصر الدولة بن حمدان وقلده إمرة الأمراء ، وخلع عليـه وعلى أخيه سيف الدولة بن حمدان ، ودخل ناصر الدولة بغداد باحتفال عظيم . ولـكن ثورة الأتراك وعلى رأسهم « توزون » تغلبت على ابن حمدان ، وولى الخليفة إمرة الأمراء لتوزون ، واستمر العداء والقتال بين العرب وعلى رأسهم ابن حمدان ، و بين الترك وعلى رأسهم توزون .

فلمـا استولى البويهيون الفرس على بغداد لم ينقطع الخلاف والقتال بين الحمدانيين والبويهيين . ولما رأى ناصر الدولة بن حمدان استيلاء معز الدولة على بغداد وسلبهم جميع حقوق الخليفة ، جهز جيشاً لقتال البويهيين ، وساعده على ذلك فرق من الجيش التركى ، ودام القتال طويلا ؛ وتقدم الحمدانيون إلى بغداد

واستولوا على جانبها الشرقى ، وأخيراً انهزم ناصر الدولة الحمدانى وعاد إلى مقره .

وكذلك اشتبك الحمدانيون فى قتال مع البويهيين أيام عضد الدولة فهُزم الحمدانيون أيضاً .

وكانت حياة بنى حمدان ، مظهراً من مظاهر الحياة البدوية المتحضرة : حب للحرب ، واستبداد السادة بالرعية ، وكرم ومروءة ، وشهامة ونجدة ، وعصبية للعربية ضد الفرس والترك ، وعصبية للقبيلة ضد بنى كلاب و بنى عقيل ، وعصبية للإسلام ضد الروم . وصف الأزدى سيف الدولة الحمدانى فقال : « كان معجباً برأيه ، محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً فى السخاء والكرم ، شديد الاحتمال لمناظريه ، والعجب بآرائه ، سعيداً مظفراً فى حروبه ، جائراً على رعيته ، اشتد بكاء الناس عليه ومنه » .

ظهرت عصبية الحمدانيين لعربيتهم فى قتالهم المتواصل للترك وللفرس فى العراق ، وتغنّى شعرائهم كالمتنبى فى الاعتزاز بعربيته وعربيتهم ، فيقول وقد تساءلوا عن أيهم أفضل : آلعرب أم الأكراد ؟ :

إن كنتَ عن خير الأنام سائلا　　فخيرُهم أكثرهم فضائلا
مَن أنت منهم يا همامُ وائلا　　الطاعنين فى الوغى أوائلا
والعاذلين فى الندى العواذلا　　قد فضَلوا بفضلك القبائلا

ويقول ويأسف لحكم غير العرب العرب :

وإنما الناس بالملوك وما　　تفتح عُرْبٌ ملوكها عَجَم
لا أدبٌ عندهم ولا حسبٌ　　ولا عهودٌ لهم ولا ذمم
بكل أرض وَطَئتها أمم　　تُرعى بعبدٍ كأنها غنم

ويدل على عصبيتهم القبلية ما فعله سيف الدولة من إيقاعه ببنى كلاب و بنى

عقيل ، وقُشَير وبنى عجلان ، وبطشه ببنى حبيب حتى خرجوا بذراريهم إلى الروم فى اثنى عشر ألف فارس وتنصروا بأجمعهم ، ووقوف المتنبى بجانبه يشيد بذكره فى حروبه هـذه ، فيقول حينما أوقع ببنى كلاب قصيدته المشهورة التى مطلعها :

بغيرِكَ راعياً عَبِثَ الذئابُ   وغيرِكَ صارما ثَلَمَ الضِّراب

ويذكر إيقاعه ببنى عقيل وقشير ، وبنى العجلان فى قصيدته التى مطلعها :

تذكرت ما بين العُذَيب وبارق   مجرّ عوالينا ومجرَى السوابق

ويدل على عصبيتهم الإسلامية قتالهم للروم ، وصدهم عن بلاد الإسلام وحمايتهم للثغور ، حتى غزا سيف الدولة الروم أربعين غزوة ، ولولاه لاستولوا على الشام فى غفلة العباسيين . وقد رووا أنه جمع من الغبار الذى أصابه فى غزواته ما صنع منه لبنة بقدر الكف أوصى أن يوضع خده عليها فى لحده .

* * *

بين هذه العصبيات الثلاث التركية والفارسية والعربية تقسمت المملكة الإسلامية ، ولأجلها وقعت الحروب وسادت الفتن ، فلا تكاد تخلو سنة من حروب بين فرس وترك وعرب ، وأحياناً ينضم بعض إلى بعض ؛ فقد كان فى جيش بنى حمدان أحيانا فرق من الجيش التركى ، كما كان مع بعض بنى بويه بعض الأتراك ، والبلاد تخرب من القتال ، والروم ينتهزون فرصة اشتباك أمراء المسلمين بعضهم مع بعض للإغارة على الثغور الإسلامية والتنكيل بها .

وقد اتخذت العصبيات فى هذا العصر شكلا واضحاً غير الذى كان فى العصر العباسى الأول ، فقد كان قبلُ عصبية فارسية وعصبية عربية ، ولكنها كانت تعمل فى الخفاء غالباً ، وكانت قوة الخلفاء تحول دون الطغيان ، فإذا أحس الخليفة

طغياناً من الفرس نكل بهم ، وردّهم إلى حدودهم ؛ فلما ضعفت الخلافة ، وقتل المتوكل بيد الأتراك ، لم يكن للخليفة من النفوذ ما يستطيع أن يصد به هذا الطغيان ، فانكشفت العصبيات وأصبحت تعمل جهاراً ، ووسيلتها الحروب .

وكان من نتيجة هذه العصبيات الثلاث ، واستعمالها السيف فى بسط نفوذها ، وضعف الخلفاء عن كبح جماحها ، انقسام المملكة إلى مناطق نفوذ ، فلو نظرنا إلى المملكة الإسلامية فى النصف الثانى من القرن الثالث وفى القرن الرابع الهجرى ، رأينا الأندلس يحكمها الأمويون وهم عرب ، وبلاد المغرب يحكم بعضها الأدارسة وهم عرب ، وبعض قبائل البربر ، والفاطمية وهم عرب ، ومصر والشام يحكمها الطولونيون والإخشيدون ، وهم أتراك ، ثم الفاطميون وهم عرب ، والحمدانيون فى الموصل وحلب وهم عرب ، والعراق يحكمه الأتراك باسم الخليفة العباسى وينازعهم السلطان عليه الحمدانيون وهم عرب ، ثم يستولى عليه البويهيون وهم فرس — وفارس تتقسمها دول مختلفة : الدُّلَفِية فى كردستان وهم عرب ، والصَّفَّارية فى فارس كلها وهم فرس ، والسامانية فى فارس ، وما وراء النهر وهم فرس ، والزيارية فى جرجان وهم فرس ، والحسنوية فى كردستان وهم أكراد ، والبويهية فى جنوبى فارس وهم فرس ، والغزنوية بأفغانستان والهند وهم أتراك .

وكان كل جنس من هذه الأجناس يطبع البلاد التى يحكمها بطابعه الخاص ؛ فطابع التركية حب للجندية والفروسية ، والاستكثار من الجنود من جنسهم لتقوية حكمهم ، ثم كثرة الخلافة فيما بينهم ، وتعصب كل فريق لقائد كالبدو فى تعصبهم للقبائل واعتزازهم بقبيلهم ، ونظرهم فى شىء من الاحتقار إلى أهل البلاد المحكومة بهم ، وانتصارهم لمذهب أهل السنة ، وعدم ميلهم إلى الفلسفة والجدل فى الدين ، وتقريبهم علماء الدين وخاصة علماء التفسير والحديث ، وحبهم

للأموال يأخذونها من الرعية فى غير حكمة وأناة ونظر بعيد ، فبدل أن يعنوا بموارد المال من رى ، ونظام ضرائب ، و إصلاح أراض ، وتنظيم تجارة ، واستغلال منابع الثروة يجيلون أبصارهم فى الناس و يتعرفون ذوى الثروة ، فينتهزون الفرصة لمصادرتهم أو التنكيل بهم أو نحو ذلك ، ثم ينفقون ما تصل إليه أيديهم فى الترف والنعيم ، فإذا أسرفوا وخلت أيديهم من ثاروا على من لديه المال — ترى تاريخهم — فى العراق فى ذلك العهد سلسلة مطالبات للخليفة بالأموال ، فإذا لم يعطهم خلعوه ، و إن أعطاهم سكتوا عنه إلى أن يفرُغ مالهم ، ثم أعادوا الكرة ، وهكذا فعلوا فى الوزراء والكبراء والتجار ، وهم مع كل هذا لا ينظرون إلى وسائل المال ليصلحوها ، ولذلك سرعان ما ينضب معين الدولة — لقد كان لدى الخلفاء ثروة هائلة تقدر بالملايين ، فما زالوا يلحون عليهم فى طلب المال ، والخلفاء يفتدون أرواحهم بالعطاء حتى تركوهم ولا شىء فى أيديهم . ومن أجل هذا نقرأ كثيراً فى تاريخ هذه العصور دفن الأموال فى الأرض ، و بناء الحوائط عليها ، وتظاهر الأغنياء بالفقر ، ونحو ذلك .

وطابع الفرس حب الفخفخة والظهور ، قد ورثوا مدنية قديمة مملوءة بالتقاليد والأوضاع ، فطُبعوا عليها بمحاسنها ومساويها ؛ فلهم قدرة على تنظيم الحكم ، ومعرفة واسعة بما يزيد الثروة ويضعفها ، ولهم عقول مثقفة تتذوق الأدب والعلم وتهتز لها ، فهم يشجعون العلم لا بالمعنى الضيق الذى يشجعه التركى ، ولكن بمعناه الواسع الذى يشمل الفلسفة بفروعها المختلفة — قد كثرت المذاهب الدينية القديمة عندهم من مانوية وزرادشتية ومزدكية ، فكثرت فى الإسلام مذاهبهم من زيدية واثنى عشرية وسبعية وغير ذلك ، وورثوا ما يرثه أبناء كل أمة تحضرت وهرمت من ميل إلى الترف والنعيم ، وانهماك فى الملذائذ . وأورثهم ضغط الدولة

الأموية عليهم وتحقيرهم ميلا كامنا إلى الانتقام من العرب والأخذ بالثأر منهم في لين وهوادة ، وعلّمهم التشيعُ التقية ، فمكروا وعملوا في الخفاء وتستروا ، وأسسوا المؤامرات للقضاء على خصومهم بالثورات أحياناً ، وبالدعوة المقنعة بالعلم أحياناً ، إلى غير ذلك .

وطابع العرب ميل إلى البداوة ، وحكم بالقبيلة ، واعتزاز بدمهم ، واحتقار لغير جنسهم ، وزهوهم بسيفهم ولسانهم ، وقلقهم واضطرابهم ، فإذا أحسوا ضعف رئيسهم فما أسرع ثورتهم ؛ ثم هم أسرع ما يكون قبولا للتأقلم والتحضر ، فإذا تحضروا انغمسوا في النعيم ، ومالوا إلى خصب العيش ، وتأنقوا في المأكل والملبس والمشرب ، كما كان شأن الفاطميين بعد انتقالهم من المغرب إلى مصر ، وكما كان شأن من نزل من العرب في الأندلس ، وكما كان شأن العرب الفاتحين لبلاد فارس والروم ؛ وهم في أول أمرهم شجعان صرحاء بسطاء ، فإذا انغمسوا في النعيم ، وقعوا في سيئات الحضارة ففقدوا صراحتهم و بساطتهم ؛ أحب إليهم الأدب والشعر لا الفلسفة والعلم ، إلا أن يستعينوا بغيرهم من الموالي في تجميل دولتهم بالفلسفة والعلم .

وكثيراً ما كان يتعاقب على القطر الواحد هذه الأجناس الثلاثة أو جنسان منها ، فتعاقب على العراق العرب والفرس والترك ، وعلى مصر العرب والترك ، و إذ ذاك يسقيه كل جنس بكأسه ، و يتكوّن لكل قطر مزاج هو نتيجة طبع الأمة مع من تعاقب عليها من الأجناس .

☆ ☆ ☆

وهناك عنصران آخران كان لهما أثر في الحياة الاجتماعية في هذا العصر ، و إن كان هذا الأثر في المنزلة الثانية ، وأعنى بهما الروم والزنج .

الروم :

كان العرب يطلقون على المملكة البيزنطية « بلاد الروم ، ومن ثم أطلقوا على البحر الأبيض المتوسط « بحر الروم » . وعلى مر الزمان كان أكثر ما يطلق اسم الروم على بلاد النصارى المتاخمين للمملكة الإسلامية ، ولهذا كان أكثر ما يطلق على بلاد النصارى فى آسيا الصغرى ؛ وكانت تسمى الحدود التى بين الدولة الإسلامية والدولة البيزنطية « الثغور » ممتدة من ملطية إلى أعلى الفرات وإلى طرسوس ، وكانت هذه الثور محصنة من الجانبين ، ومنقسمة إلى قسمين : ثغور الجزيرة ، وثغور الشام ؛ فمن الأول مَلْطية ، وزِبَطْرة ، وحصن منصور ، والحَدَث ، ومرعش ، والهارونية ، والكنيسة ، وعين زَرْبَة ؛ ومن الثانى : المصيصة ؛ وأَذَنة ؛ وطرسوس .

ومنذ فُتح الشام ومصر فى عهد عمر بن الخطاب ، والحروب قائمة بين المسلمين والروم ، والذى نريد أن نعرض له الآن ما كان يين الروم والمسلمين فى العصر الذى نؤرخه ؛ فقد كثرت الحروب بين الفريقين ، وكانت هذه الثغور بين حركتى مد وجزر باستمرار . فمن ابتداء هذا العصر حدثت وقعة عمورية المشهورة فى عهد المعتصم ، واستمرت بعد ذلك واشتدت بين الروم والحمدانين ، وعلى الأخص أيام سيف الدولة الحمدانى .

وليس يهمنا هنا تاريخ هذه الحروب ، ولا جانبها السياسى ، وإنما يهمنا ما كان لها من أثر اجتماعى أو عقلى .

فقد كانت هذه الحروب سبباً فى أسر عدد كبير من الروم ؛ واسترقاق كثير منهم ، ففى وقعة عمورية « أقبل الناس بالأسرى والسبى من كل وجه فأمر المعتصم أن يعزل منهم أهل الشرف ، وقتل من سواهم ؛ وأمر ببيع المغانم فى عدة

مواضع . . . وكان لا ينادى على شىء أكثر من ثلاثة أصوات ثم يوجب بيعه طلباً للسرعة ، وكان ينادى على الرقيق خمسة خمسة ، عشرة عشرة ، طلباً للسرعة »[١] . وكانت حرب بين الروم والمسلمين فى صقلية سنة ٣٥٣ ، فتقدم المسلمون إلى « رَمْطة » « وملكوها عنوة وقتلوا من فيها ، وسَبَوْا الحرم والصغار وغنموا ما فيها وكان شيئاً كثيراً عظيما »[٢] . وفى سنة ٣٤٣ غزا سيف الدولة الروم « فقتل وأسر وسبى وغنم » ، فانهزم الروم وقتل منهم وممن معهم خلق عظيم ، وأسر صهر الدمستق وابن ابنته وكثير من بطارقته »[٣] ، ومثل هذا كثير فالحروب تكاد تكون متصلة ، والأسر من الجانبين متتابع . أنتجت هذه الوقائع نتائج كثيرة :

فمنها أنها خلفت لنا أدباً عربياً حربياً قويا ، كقصيدة أبى تمام فى فتح عمورية : « السيف أصدق أنباء من الكتب » ؛ وقصائد المتنبى فى حروب سيف الدولة للروم ، كقصيدته يذكر الوقعة التى نكب فيها المسلمون بالقرب من بحيرة الحَدَث : « غيرى بأكثر هذا الناس ينخدع » ، وقصيدته لما سار سيف الدولة يريد الدمستق : « نزور دياراً ما نحب لها مغنى » الخ الخ ؛ وكالقصائد الروميات لأبى فراس ، وهى قصائد من غرر شعره ، قالها — لما أسره الروم — فى الحنين إلى أهله وأصحابه ، والتبرم بحاله من أسر ومرض وغربة إلى غير ذلك .

ومنها ما كان من انتشار الروم من رجال ونساء وغلمان فى بيوت الناس والخلفاء والأغنياء كماليك ، حتى إن بعض الخلفاء فى هذا العصر كانت أمهم رومية ؛ فالمنتصر بالله ابن المتوكل أمه رومية ، والمعتز بالله أمه رومية اسمها

(١) ابن الأثير : ١٨٠/٦ (٢) ابن الأثير : ٢٠٠/٨ .
(٣) ابن الأثير : ١٨٣/٨

« قبيحة » ، وقد اشتهرت فى التاريخ بغناها وثروتها وتغلبها على عقل المتوكل ؛ والمعتمد على الله أمه رومية اسمها « فتيان » ؛ والمقتدر بالله أمه رومية على بعض الأقوال ، وكان لها فى أيام ابنها سلطان فى تدبير الأمور ، حتى أمرت قهرمانتها أن تجلس للمظالم وتنظر فى رقاع الناس ؛ وأم الراضى بالله رومية اسمها ظلوم الخ .

واستكثر الخليفة المقتدر من الخدم والمماليك من الروم والسودان ، حتى قالوا إنه بلغ عددهم أحد عشر ألفاً ، وكانوا فى أول عهده ألفاً ومائة .

وفى المقريزى أن أحمد بن طولون (لما ولى مصر) اشترى العبيد من الروم والسودان . . . وصار من كثرة العبيد والرجال والآلات بحال يضيق بها داره ولا يتسع له . . . فبنى القصر والميدان ، وتقدم إلى أصحابه وغلمانه وأتباعه أن يختطوا لأنفسهم حوله فاختطوا . . . ثم قطعت القطائع ، وكان للنوبة قطيعة مفردة تعرف بهم ، وللروم قطيعة مفردة تعرف بهم »[1] . « وكانت كل قطيعة لسكنى جماعات بمنزلة الحارات التى فى القاهرة »[2] .

ولما اختطت القاهرة اختطت الروم حارتين . « وفى سنة ٣٩٩ أمر الخليفة الحاكم بأمر الله بهدم حارة الروم فهدمت ونهبت »[3] .

كما كان فى بغداد دار تسمى دار الروم بالشماسية ، وكان لهم بهذا الحى كنيسة على مذهب النسطورية ، ودير يسمى دير الروم .

وانتشرت الجوارى الروميات فى القصور ، وكانت لهن ميزات . قال ابن بطلان : « الروميات بيض شقر ، سباط الشعور ، زرق العيون ، عبيد طاعة وموافقة وخدمة ، ومناصحة ووفاء وأمانة ومحافظة ، يصلحن للخَزْن لضبطهن وقلة سماحتهن ، لا يخلو أن يكون بأكفهن صنائع دقيقة » .

---

(١) خطط ١/٣١٥ . (٢) ١/٣١٣ . (٣) ٢/٨ .

وتعشق بعض الشعراء الغلمان الروم ، فكان للبحترى غلام رومى اسمه « نسيم » ، « كان قد جعله باباً من أبواب الحيل على الناس ، فكان يبيعه ويعتمد أن يصير إلى مِلْك بعض أهل المروءات ومن يَنفق عنده الأدب ، فإذا حصل فى ملكه شبّب به وتشوق ومدح مولاه ، حتى يهبه له ، فلم يزل ذلك دأبه حتى مات نسيم فكفى الناس أمره »[1] . وفى نسيم يقول البحترى :

دعا عَبرتى تجرى على الجور والقصد   أظن نسيما قارف الهجر من بعدى
خلا ناظرى من طَيفه بعد شخصه   فواعجبا للدهر فقداً على فقد

وقد أنجب هذا العنصر الرومى أدباء وعلماء ، كان لهم فى فنهم وعلمهم طابع خاص لم يكن مألوفا فى العقلية العربية والفارسية ، من أشهر هؤلاء ابن الرومى الشاعر ، وابن جنى النحوى .

فابن الرومى من أصل رومى كما يدل عليه اسمه ، فهو على بن العباس بن جريج ، وله فى الشعر ميزات قلما اجتمعت لغيره من شعراء العربية ، هى أشبه شىء بالروح الرومى ؛ فهو طويل النفس فى قصائده طولا قلما يجارى ، وهو يقع على المعنى فلا يزال يستقصى فيه حتى لا يدع فيه فضلة ولا بقية ؛ وهو كثير التعليل لما يقول كما يفعل بالنظرية الهندسية والبرهان عليها من مثل قوله :

لِمَـا تؤذن الدنيا به من صُروفها   يكون بكاء الطفل ساعةَ يولد
وإلا فما يبكيه منها وإنها   لأفسحُ مما كان فيه وأرغد
إذا أبصر الدنيا استهلّ كأنه   بما سوف يلقَى من أذاها يهدَّد

وقوله فى مليح رمدت عيناه :

قالوا اشتكت عينهُ فقلت لهم   من كثرة القتل مسّها الوصب

---

(١) معاهد التنصيص ١١٠ .

حُمْرتها من دماء من قَتَلَتْ والدم فى النَّصل شاهد عجب

ومثل ذلك كثير لا نطيل به .

وهو يصوّر المهجُوّ صورة فنية تستخرج عجبك وتستثير ضحكك ، كقوله فى بخيل :

يقتِّر عيسى على نفســه وليس بباقٍ ولا خالد
فلو يستطيع لتقتــيره تنفّس من مِنْخَرٍ واحد

وقوله فى ثقيل :

إذا بدا وجهـــه لقوم لاذت بأجفانها العيون
كأنه عنــــدهم غَريم حلّت عليهم له ديون

وقوله :

معشر فيهم نكول إن نوَوْا فعل خير ، وعلى الشر مرودْ
ليتهم كانوا قروداً فحكوا شيم الناس كما تحكى القرودْ

أما ابن جنى ، فهو كذلك رومى ، أبوه جِنِّى كان مملوكا روميًّا لسليمان بن فهد الأزدى ، ولعل أصل « جنى » Jonah [1] فعربها العرب إلى جنى . وكان ابن جنى هذا غريباً فى تصوره النحو والصرف ، فهو ماهر فى التصريف ماهر فى التعليل والقياس . قال الباخرزى فى دمية القصر : « ليس لأحد من أئمة الأدب فى فتح المقفلات وشرح المشكلات ما له وسيما فى علم الإعراب » ، وكان المتنبي يقول فيه : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » .

وقد قال هو نفسه فى خصائصه :

وحُــلْو شمائل الأدبِ منيفُ مراتب الحسب

* * *

(١) وفى بغية الوعاة أنها معرب كنى .

له كَلَفٌ بمـا كلِفتْ ... به العلمـــاء مِلْعَرب
يبيت يفاتش الأنقـا ... ب عن أسرارها الغَيَبِ[1]
فمن جَدَد إلى جَلَد ... إلى صعد إلى صَبَب
ويفرع فكره الأبكا ... رَ منها من حِمَى الحجب
فيُـــبردها كأن لهـا ... وإن خفيت سنى لهب

✲ ✲ ✲

يجـــدّ بها وتحسبه ... للطف الفكر فى لعب
سَبَاطة[2] مذهب سُبكت ... عليـــــه ماءة الذهب

✲ ✲ ✲

وطرداً للفروع على ... أصـــــول وُطَّدٍ رتب
إذا ما انحط غائرها ... سما فرعاً على الرتب
قياساً مثــل ما وقدت ... بليـــلٍ بَرزة الشهب

ومنها فى أصله الرومى :

فإن أصبح بلا نسب ... فعلمى فى الورى نسبى
على أنّى أؤول إلى ... فروم ســادة نُجُب
قيـاصرة إذا نطقوا ... أرمَّ[3] الدهر ذو الخطب

فابن الرومى وابن جنى وأمثالهما كانوا عرباً فى المنشأ والمَرْبَى ، وكانوا روما بعقلهم الموروث ، فجمعوا بين مزايا العقل المطبوع والعقل المصنوع ، وأنتجوا منهما نتاجا صالحا ذا طعم خاص .

✲ ✲ ✲

---

(١) الغيب بفتحتين يقال قوم غيب أى غائبون .
(٢) سباطة المطر : سعته وكثرته .   (٣) أرم : سكت .

السود :

ومن العناصر التى كثرت فى هذا العصر وكان لها أثر كبير الزنج الذين كانوا يجلبون فى الأكثر من سواحل إفريقا الشرقية ، ولا أدل على كثرتهم وخطرهم من ثورتهم التى قاموا بها قرب البصرة ، وهددوا بها الدولة العباسية ودوخوها أربعة عشر عاما وأربعة أشهر (من ٢٥٥ هـ إلى ٢٧٠) وكانت حربا بين الأجناس ، بين السود والبيض ، دعا إليها رجل ادعى نسبته إلى على بن أبى طالب ، فزعم أنه على بن محمد بن أحمد بن على بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب . وأكثر المؤرخين يرون أنه دعىّ وأن أصله عربى من عبد القيس ، وقد توجه هذا الرجل إلى البصرة وحرض الزنوج « الذين كانوا يكسحون السباخ » فى أراضيها ، فإن ملاك هذه الأراضى كانوا يملكون سوداً من السودان يعملون لهم فى أرضهم فيعزقونها ويرفعون عنها الطبقة المالحة ليصلوا إلى الأرض الخالية من الأملاح الصالحة للزراعة ، وهو عمل شاق جدا فى هذه المنطقة ؛ فاستطاع هذا الذى لقب بعد بصاحب الزنج أن يؤلب هؤلاء العمال الزنوج بعد أن درس حالتهم وبؤسهم وأجورهم ونفسيتهم فأتاهم من الناحية الدينية فهى أفعل فى نفوسهم ، فادعى أنه متصل بالله على نحو ما ، فاجتمع إليه خلق كثير ، فوصف لهم بؤسهم وظلم سادتهم لهم ، ورثى لعيشهم على السويق والتمر ، ودعاهم إلى الخروج على هؤلاء الظالمين ، « ومَنَّاهم ووعدهم أن يقوِّدهم ويرأسهم ويملكهم الأموال وحلف لهم الأيمان الغلاظ ألا يغدِرَ بهم ولا يخذلهم ولا يدع شيئاً من الإحسان إلا أتى إليهم » ومن وقع فى يده من هؤلاء السادة ما لكى العبيد كان يسلمه لغلمانه ويأمر بضربه . فكانت حركته الأولى حركة ضد الملاك ، ثم تطورت فصارت حركة ضد الدولة ، وأن الخلفاء والولاة ظالمون ينتهكون حرمة الله ، ودعا إلى مذهب

الخوارج . قال المسعودى : « إنه كان يرى رأى الأزارقة من الخوارج ؛ لأن أفعاله فى قتل النساء والأطفال وغيرهم من الشيخ الفانى وغيره ممن لا يستحق القتل يشهد بذلك عليه ؛ وله خطبة يقول فى أولها : الله أكبر الله أكبر لا إله إلا الله والله أكبر ، ألا لا حُكم إلا لله ؛ وكان يرى الذنوب كلها شركا »[1] . وكان عدد هؤلاء الزنوج كثيراً ، وفيهم شجاعة نادرة ومران على القتال . وفى بعض الوقائع الحربية انضمت الفرقة السودانية فى الجيش العباسى إلى إخوانهم الزنوج فزادوهم قوة . وقد تملكوا فى بعض الأحيان «الأبلة» و «عَبَّادَان» ، والأهواز ثم البصرة ، وواسط والنعمانة ، ورامهرمز ؛ وكانوا يهزمون الجيوش العباسية المرة بعد المرة ، واغتنوا ، وأصبح الزنوج يملكون البيض بل خير البيض . يقول المسعودى : « وقد بلغ من أمر عسكره (أى عسكر صاحب الزنج) أنه كان ينادَى فيه على المرأة من ولد الحسن والحسين والعباس من ولد هاشم وقريش وغيرهم عن سائر العرب ، وأبناء الناس ، تباع الجارية منهم بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها هذه ابنة فلان الفلانى ، لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون ، يطؤهن الزنج ويخدمن النساء الزنجيات كما تَخْدُم الوصائفُ . ولقد استغاثت إلى على بن محمد (صاحب الزنج) امرأة من ولد الحسن بن على بن أبى طالب كانت عند بض الزنج ، وسألته أن ينقلها منه إلى غيره من الزنج أو يعتقها مما هى فيه ، فقال : هو مولاكِ وأولى بك من غيره »[2] .

وأخيراً تغلب عليهم الموفق (أخو الخليفة المعتمد على الله) وابنه أبو العباس (الذى صار فيما بعد خليفة ولقب بالمعتضد) ، وقتل صاحب الزنج بعد أن خرب الزنج كثيراً من البلاد ، وأفنوا كثيراً من الناس . وقد قتلوا من أهل البصرة وحدها فى وقعة

---

(١) مروج الذهب ٢/٣٤٤ . (٢) مروج الذهب ٢/٣٥٠ .

واحدة ثلثمائة ألف . « وقد تكلم الناس فى قدر ما قتل (على يد الزنج) فى هذه السنين (الأربع عشرة) من الناس فمكثر ومقل ؛ فأما المكثر فإنه يقول أفنى من الناس ما لا يدركه العد ، ولا يقع عليه الإحصاء ، ولا يعلم ذلك إلا عالم الغيب . . . والمقلّ يقول أفنى من النـاس خمسمائة ألف ، وكلا الفريقين يقول فى ذلك ظناً وحدسا إذ كان شيئاً لا يدرك ولا يضبط[1] .

وقد سقنا هذا كله للدلالة على قوة هذا العنصر الزنجى وخطره فى ذلك العصر ؛ وبجانب هذا كانت لهم ناحية اجتماعية لها قيمتها . وكانوا يطلقون كلمة السودان على ما يشمل الأحباش ، وقديماً اتصل هؤلاء السودان بالعرب فكان منهم بلال الحبشى مؤذن رسول الله ؛ ومنهم سعيد بن جبير سيد التابعين الذى قتله الحجاج ؛ وكان من أشعر شعرائهم فى العصر الأموى الحَيْقُطَان ؛ وقد هجا جريراً ونخر عليه بالزَّنج ، فقال :

والزَّنج لو لاقيتهم فى صَفِّهم لاقَيْت ثَمَّ جَحَاجِحًا أبطالا

وكان الزنج يفخرون بطلاقة اللسان ، وكثرة الكلام ، وشدة الأبدان ، والسخاء ، وقلة الأذى ، وطيب النفَس ، وضحك السن ، وحسن الظن[2] . وقد عُيِّروا بصغر عقولهم ، وضعف ذكائهم ، وقلة علمهم ، فأجابوا بأنكم لم تروا الزنج الحقيقيين ، وإنما رأيتم السبى يجىء من السواحل ، وأهل السواحل هؤلاء ليس لهم جمال ولا عقول ، ولو رأيتم كرام الزنج لرأيتم الجمال والكمال والعقل ؛ قالوا : واعتبروا فى ذلك بمن تَسْبُونهم من أهل السند والهند ، فإنه لم يتفق لكم واحد ممن سبيتموهم له عقل وعلم مع ما اشتهر به أهل السند والهند من العلم

---

(١) المصدر نفسه ٢/٢٥٠ .

(٢) الجاحظ فى رسائله .

بالحساب والنجوم ، وأسرار الطب ، والتصاوير والصناعات العجيبة(١) .

وكانت طائفة من الجند من الزنج كما رأينا قبل ، وكان منهم الكثير فى خدمة القصر . وقد نبغ منهم كافور الإخشيدى الذى ملك مصر والشام ، وخطب له على المنابر بمكة والحجاز ، وكان عبداً أسود أتى به من بلاد السودان واشتراه الإخشيد بثمانية عشر ديناراً ؛ وقد مدح المتنبى سواده فقال :

فجاءت به إنسان عين زمانه   وخلَّت بياضاً خلفها ومآقيا

ثم ذمّ سواده حين هجاه فقال :

من علّم الأسود المخصىّ مكرمة   أقومُه البيض أم آباؤه الصيد
أم أذنه فى يد النخّاس دامية   أم قَدره وهو بالفَلسين مردود
وذاك أن الفحول البيض عاجزة   عن الجميل فكيف الخصية السود

ومن قديم كان للبيض نساء من السود ، فأعشى سليم كانت له دنانير بنت كعبويه الزنجى ، وكانت زنجية ؛ وقد رآها تكتحل فقال :

كأنها والكحل فى مِرْوَدها   تكحل عينيها ببعض جلدها

وقد تزوج الفرزدق أم مكية الزنجية ، وترك ما عنده من النساء من أجلها . وقال فيها :

* يا ربَّ خَوْدٍ من بنات الزَّنْجِ *(٢)

وكثر ذلك فى العصر العباسى ، فامتلأت بهن القصور و بيوت الأوساط والفقراء ؛ فقد كان الجوارى البيض أغلى ثمناً ، فكانت أكثر ما تكون فى بيوت الأغنياء ، أما السود فكثيرات ورخيصات .

---

(١) انظر الرسالة الثانية للجاحظ من الرسائل الثلاث التى نشرها ڤان ڤلوتن ص ٧٦،٧٧ .

(٢) انظرها فى الأغانى جزء ١٩ ص ٢١ .

وقد ذكر ابن بطلان خصائص السود فقال :

« الزنجيات مساويهن كثيرة ، وكلما زاد سوادهن قبحت صورهن ، وتحددت أسنانهن ، وقلّ الانتفاع بهن ؛ وخيفت المضرة منهن ، والغالب عليهن سوء الأخلاق ، وكثرة الهرب ، وليس فى خلقهن النغم ، والرقص والإيقاع فطرة لهن ، وطبع فيهن . . . ويقال لو وقع الزنجى من السماء إلى الأرض ما وقع إلا بالإيقاع . وهم أنقى الناس ثغوراً لكثرة الريق ، وكثرة الريق لفساد الهضوم ؛ وفيهن جَلَد على الكد ، فالزنجى إذا شبع فصب العذاب عليه صباً فإنه لا يتألم له . وليس فيهن متعة لصنانهن وخشونة أجسامهن . أما الحبشيات فالغالب عليهن نعومة الأجسام ولينها وضعفها ، يعتادهن السل ، ولا يصلحن للغناء ولا للرقص ، دقاق لا يوافقهن غير البلاد التى نشأن فيها ، وفيهن خيرية ، ومياسرة وسلاسة انقياد ، يصلحن للائتمان على النفوس . . . قصار الأعمار لسوء الهضم » .

* * *

وكما تقاسمت المملكة الإسلامية العناصر الجنسية المختلفة ، كذلك تقاسمتها المذاهب الإسلامية المختلفة والديانات المختلفة . ولنذكر فى ذلك كلمة مجملة تصور هذه الحال .

فقد كان الخلفاء سنيين ، والأتراك سنيين غالباً ، والفرس شيعيين غالباً ، والعرب بين سنى وشيعى ؛ فالفاطميون شيعة ، والحمدانيون يغلب عليهم التشيع ، فمن آثارهم التى وصلت إلينا درهم لناصر الدولة الحمدانى على أحد وجهيه :

لا إله إلا الله

المطيع لله

ناصر الدولة

وعلى الآخر : محمـــــد

رسول الله

علىّ ولى الله

و يروى المؤرخون أن سيف الدولة عثر فى حلب على قبر المحَسِّن بن الحسين فبنى عليه ، وكتب على حَجَره :

« عمّر هـذا المشهد المبارك — ابتغاء لوجه الله وقربة إليه على اسم مولانا المحسن بن الحسين بن على بن أبى طالب — الأمير الأجل سيف الدولة أبو الحسن على بن عبد الله بن حمدان .

ورووا أن سيف الدولة زوج ابنته ست الناس لأبى تغلب الحمدانى ، وضرب لهذا الحادث دنانير على أحد وجهيها :

محمد رسول الله ، أمير المؤمنين على بن أبى طالب — فاطمة الزهراء — الحسن والحسين — جبريل .

وعلى الآخر :

أمير المؤمنين المطيع لله — الأميران الفاضلان ناصر الدولة وسيف الدولة — الأميران أبو تغلب ، وأبو المـكارم .

فهذا يرجع أن دولة الحمدانيين كانت شيعية .

فـكانت المملـكة الإسلامية مسرحا للعصبيات الجنسـية والعصبيات المذهبية . وأوضح الأمثلة لذلك حالة العراق فى عهد الدولة البويهية ؛ فقد كان مملوءاً بالأتراك والديلم ، والأولون سنيون ، والآخرون فرس شيعيون ، والحروب والفتن والمصادرات وكبس البيوت لا تنقطع بينهما . وقد ذهب فى سبيل ذلك

ضحايا كثيرة من الوزراء والكتاب والعلماء ، حتى حكى مسكويه فى حوادث سنة ٣٦٠ أن بختيار البويهى « رأى لمعالجة (هذه الفتن) أن يعقد بين رؤساء الأتراك ورؤساء الديلم مصاهرات لتزول العداوات التى نشأت بينهم ، فابتدأ بعقد مصاهرة بين المرزبان بن عز الدولة (البويهى) ، و بين بختكين (التركى) ، وفعل مثل ذلك بجماعة ، وأصلح بين الديلم والأتراك ، واستحلف كل فريق منهما لصاحبه ، فحلفوا جميعاً . . . فزال الظاهر ولم يزل الباطن »[1] . وقال ابن الأثير فى حوادث سنة ٤٤٣ : « فى هذه السنة تجددت الفتنة بين السنة والشيعة ، وعظمت أضعاف ما كانت قديماً ، وسببها أن أهل الكرخ عملوا أبراجا كتبوا عليها بالذهب : «محمد وعلىّ خير البشر» ، وأنكر السنية ذلك ، وادعوا أن المكتوب محمد وعلىّ خير البشر ، فمن رضى فقد شكر ومن أبى فقد كفر ؛ وأنكر أهل الكرخ الزيادة ؛ فانتدب الخليفة القائم بأمر الله من حقق ، فكتبوا بتصديق أهل الكرخ . وحمل الحنابلة العامة على الإغراق فى الفتنة . وتشدد رئيس الرؤساء على الشيعة فمحوا « خير البشر » ، فقالت السنية لا نرضى إلا أن يقلع الآجر الذى عليه محمد وعلىّ ، وألا يؤذَّن « حى على خير العمل » ، وامتنع الشيعة عن ذلك . وقتل رجل هاشمى من السنية ، فحمله أهله على نعش وطافوا به فى الحربية وباب البصرة وسائر محلة السنية ، واستنفروا الناس للأخذ بثأره ، ثم دفنوه عند أحمد ابن حنبل ؛ فلما رجعوا من دفنه قصدوا المشهد فدخلوه ، ونهبوا ما فيه من قناديل ومحاريب من ذهب وفضة ؛ فلما كان الغد اجتمعوا وأضرموا حريقاً ، فاحترق كثير من قبور الأئمة وما يجاورها من قبور بنى بويه ؛ وقصد أهل الكرخ الشيعيون إلى خان الفقهاء الحنفيين فنهبوه ، وقتلوا مدرس الحنفية أبا سعد

---

(١) تجارب الأمم : ٦/٢٨٢ .

السرخسي وأحرقوا الخان ودور الفقهاء ، وامتدت الفتنة إلى الجانب الشرقي »[1] .
وقال في سنة ٤٤٤ : « في هذه السنة زادت الفتنة بين أهل الكرخ وغيرهم من السنية ، وكان ابتداؤها أواخر سنة ٤٤ ؛ فلما كان الآن عظم الشر واطرحت المراقبة للسلطان ، واختلط بالفريقين طائفة من الأتراك ؛ فلما اشتد الأمر اجتمع القواد ، واتفقوا على الركوب إلى المحال ، و إقامة السياسة بأهل الشر والفساد ، وأخذوا من الكرخ إنسانا علوياً وقتلوه ، فثار نساؤه ونشرن شعورهن واستغثن ، فتبعهن العامة من أهل الكرخ ، وجرى بينهم و بين القواد ومن معهم من العامة قتال شديد ، وطرح الأتراك النار في أسواق الكرخ فاحترق كثير منها وألحقتها بالأرض » .

* * *

وقد اشتهرت الكوفة بالتشيع والبصرة بالتسنن[2] ، فقال الجاحظ : إن الكوفة علوية ، والبصرة عثمانية ، ثم انتشر بعد الجاحظ التشيع في البصرة حتى كان فيها في القرن الخامس ما لا يقل عن ثلاثة عشر مشهداً للعلويين . أما الشام فمن قديم عرفت بالسنية ، ويقول النسائي المتوفى سنة ٣٠٣ : دخلت دمشق والمنحرف عن علي رضي الله عنه كثير ، فأردت أن يهديهم الله بهذا الكتاب » يعني كتاب « الخصائص » في فضل علي بن أبي طالب . وسئل وهو بدمشق عن معاوية وما روى من فضائله ، فقال : أما يرضى معاوية أن يخرج رأساً برأس حتى يفضل ؟ ! فما زال أهل دمشق يدفعون في حضنه حتى أخرجوه من المسجد ، ثم حمل إلى الرملة فمات بها[3] .

---

(١) ابن الأثير : ٢١٥/٩ باختصار .
(٢) هذه صيغة اصطنعناها نسبة إلى أهل السنة .
(٣) ابن خلكان : ٢٩/١ .

وتقسمت البلاد الشيعة والسنية ، بل تقسم البلد الواحد التشيع والتسنن ؛ فبلدة نابلس فى النصف الثانى من القرن الرابع كان نصفها سنيين ونصفها شيعيين ، قال المقدسى المتوفى سنة ٣٧٥ : « ونصف نابلس وأكثر عمان شيعة » .

وجزيرة العرب نفسها كذلك ، « فمذاهبهم فى مكة وتهامة وصنعاء وقَرْح سنّية ؛ وسواد صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شُرَاة غالية ؛ وبقية الحجاز وأهل الرى بعمان وهجر وصعدة شيعة »[1] ، « ونصف الأهواز شيعة »[2] « وأهل قُمْ شيعة غالية قد تركوا الجماعات وعطلوا الجامع إلى أن ألزمهم ركن الدولة عمارته ولزومه »[3] . وحكى ياقوت أنه ولّى عليهم رجل سنى متشدد ، فبلغه أن أهل « قم » لبغضهم الصحابة لا يوجد فيهم من اسمه أبو بكر أو عمر ، فجمع رؤساءهم وقال لهم : إن لم تأتونى برجل منكم اسمه أبو بكر أو عمر لأفعلن بكم ولأصنعن ، فاستمهلوه ثلاثة أيام ، وفتشوا فلم يجدوا إلا رجلا صعلوكا حافياً عارياً أحول أقبح خلق الله منظراً اسمه أبو بكر ، لأن أباه كان غريباً استوطنها فسماه بذلك ، فجاءوا به فشتمهم الخ[4] .

وهكذا سادت العالمَ الإسلامى هاتان النزعتان — السنية والشيعة — تتماديان وتتقاتلان . هـذا عدا ما قام به الشيعة من مؤامرات لقلب الدول والاستيلاء عليها ، وسيأتى الـكلام على ذلك فى حينه .

وهناك نزاع آخر ، وهو النزاع بين المذاهب الفقهية — قد كان الخلاف ، أيام أصحاب المذاهب ، كأبى حنيفة ومالك والشافعى وابن حنبل ، خلافا فى الرأى والبرهان ؛ غاية التعصب أن يعتقد أن مذهبه حق يحتمل الخطأ ، ومذهب غيره

---

(١) المقدسى : ٩٦ . (٢) ص : ٤١٥ .

(٣) ٣٩٥ . (٤) معجم ياقوت فى مادة « قم » .

خطأ يحتمل الصواب ، وقلّ أن نرى بين أئمة المذاهب عداء حادا إلا قرع الحجة بالحجة والبرهان بالبرهان ، وازداد بعض الشيء أيام أتباعهم ، ولكنه قلّ أن يتعدى ذلك إلى ضرب أو قتال . فلما انتهى هذا الطور أخذت العصبية تتزايد إلى أن بلغت القتال ؛ ففي القرن الثالث والرابع نرى أن الحنابلة من حين لآخر يقومون بالثورات الكبيرة ، من أمثلة ذلك ما رواه ابن الأثير في حوادث سنة ٣٢٣ إذ قال : « وفيها عظم أمر الحنابلة (ببغداد) وقويت شوكتهم ، وصاروا يكبسون دور القواد والعامة ، وإن وجدوا نبيذاً أراقوه ، وإن وجدوا مغنية ضربوها وكسروا آلة الغناء ، واعترضوا في البيع والشراء ومشْي الرجل مع النساء والصبيان ، فإذا رأوا ذلك سألوه عن الذي معه من هو ، فإن أخبرهم وإلا ضربوه وحملوه إلى صاحب الشرطة وشهدوا عليه بالفاحشة ، فأرهجوا بغداد[1] . وركب صاحب الشرطة ونادى في جانبي بغداد لا يجتمع من الحنابلة اثنان ، ولا يناظَرون في مذهبهم ، ولا يصلي منهم إمام إلا إذا جهر ببسم الله الرحمن الرحيم في صلاة الصبح والعشاءين ، فلم يفد فيهم ، وزاد شرهم وفتنتهم ، واستظهروا بالعميان الذين كانوا يأوون المساجد . وكانوا إذا مر بهم شافعي المذهب أغروا به العميان حتى يكاد يموت ؛ فخرج توقيع (الخليفة) الراضي بما يقرأ على الحنابلة ، ينكر عليهم فعلهم ويوبخهم باعتقاد التشبيه وغيره . [فما جاء في هذا التوقيع] : تارة تزعمون أن صورة وجوهكم القبيحة السمجة على مثال رب العالمين ، وهيئتكم الرذلة على هيئته ، وتذكرون الكف والأصابع والرجلين والنعلين المذهّبين ، والشعر القطط ، والصعود إلى السماء ، والنزول إلى الدنيا ، تعالى الله عما يقول الظالمون والجاحدون علواً كبيرا ؛ ثم طعنكم على خيار الأمة ونسبتكم شيعة آل محمد (ص) إلى الكفر

---

(١) أصل أرهج أثار الغبار ثم استعمل لإثارة الفتن .

والضلال ، ثم استدعاؤكم المسلمين إلى الدين بالبدع الظاهرة ، والمذاهب الفاجرة التى لا يشهد بها القرآن ، وإنكاركم زيارة قبور الأئمة وتشنيعكم على زوارها بالابتداع ، وأنتم مع ذلك تجتمعون على زيارة قبر رجل من العوام ليس بذى شرف ولا نسب ولا سبب برسول الله (ص) ، وتأمرون بزيارته وتدّعون له معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء ، فلعن الله شيطانا زيّن لكم هذه المنكرات وما أغواه ! وأمير المؤمنين يقسم بالله قسما جهراً يلزمه الوفاء به ، لئن لم تنتهوا عن مذموم مذهبكم ومعوجّ طريقتكم ليوسِعَنَّكم ضربا وتشديداً ، وقتلا وتبديداً ، وليستعملان السيف فى رقابكم ، والنار فى منازلكم ومحالكم »[1] .

وأمثال هذه الحادثة كثير فى كتب التاريخ .

ثم الخلاف الشديد بين الحنفية والشافعية ، حتى كان يؤول الأمر فى بعض الأحيان إلى خراب البلد من جراء هذا الخلاف . يقول « ياقوت » عند الكلام على « أصفهان » بعد أن ذكر مجدها القديم : « وقد فشا فيها الخراب فى هذا الوقت وقبله فى نواحيها لكثرة الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية ، والحروب المتصلة بين الحزبين ، فكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى وأحرقتها وخربتها ، لا يأخذهم فى ذلك إلّ ولا ذمة ؛ ومع ذلك فقلّ أن تدوم بها دولة سلطان أو يقيم بها فيصلح فاسدها ، وكذلك الأمر فى رساتيقها وقراها التى كل واحدة منها كالمدينة » .

ويقول عند الكلام على « الرّىّ » : كان أهل المدينة ثلاث طوائف : شافعية وهم الأقل ، وحنفية وهم الأكثر ، وشيعة وهم السواد الأعظم ، لأن أهل البلد كان نصفهم شيعة ، وأما أهل الرستاق فليس فيهم إلا شيعة وقليل من

---

(١) ابن الأثير : ٨/١٠٦ .

الحنفية ، ولم يكن فيهم من الشافعية أحد ، فوقعت العصبية بين السنة والشيعة فتظافر عليهم الحنفية والشافعية ، وتطاولت بينهم الحروب ، حتى لم يتركوا من الشيعة من يُعرف ؛ فلما أفنوهم وقعت العصبية بين الحنفية والشافعية ، ووقعت بينهم حروب كان الظفر في جميعها للشافعية ؛ هذا مع قلة عدد الشافعية ، إلا أن الله نصرهم عليهم . وكان أهل الرستاق — وهم حنفية — يجيئون إلى البلد بالسلاح الشاك و يساعدون أهل نحلتهم ، فلم يغنهم ذلك شيئاً حتى أفنوهم[1] إلى غير ذلك .

اليهود والنصارى :

وربما كانت الدولة الإسلامية فى هذا العصر أكثر الأمم تسامحاً مع المخالفين لها فى الأديان ، وخاصة أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، رغم ما كان يبدو بعض الأحيان من ظلم وعسف كالذى كان فى عصر المتوكل ، وقد سبق ذكره ؛ وربما وقع على المسلمين من هذا الظلم ما وقع على غيرهم .

وقديماً كان الامتزاج بين المسلمين واليهود والنصارى حتى فى الأسرة الواحدة بما أباح الله المسلمين أن يتزوجوا بالكتابيات .

ونرى فى هذا العصر حركة اليهود والنصارى قد اتسعت عما كانت بسبب كثرة الاتصال التجارى والحربى والعلمى — والمسلمون فى كثير من مواقفهم يعدلون بينهم ويقرّبون بعضهم ، حتى لقد عفوا عن المال الذى يتركه النصرانى من غير وارث وردّوه إلى أهل ملته ؛ فالخليفة المعتضد « أمر أن يرد تركة من مات من أهل الذمة — ولم يخلف وارثا — على أهل ملته » ، استناداً إلى ما أفتى به يوسف بن يعقوب وعبد الحميد بن عبد العزيز القاضيان كانا بمدينة السلام :

---

(١) معجم ياقوت : ٤/٣٥٦

من أن السنة جرت بأن أهل كل ملة يورِّثون من هو منهم إذا لم يكن له وارث من ذى رَحِمه[١] .

وانتشر اليهود والنصارى فى نواحى المملكة الإسلامية وأطرافها وداخلها ، فبلغ عدد اليهود فى العراق وحدها حول سنة ١١٨٥ م = سنة ٥٨١ ﻫ على حسب تعداد بعض المؤرخين ستمائة ألف ، وانتشروا فى دمشق وحلب ، وعلى شاطئ دِجلة والفرات ، وفى جزيرة ابن عُمَر والموصل والحلة والكوفة والبصرة وهمذان وأصفهان وشيراز وسمرقند . ويقول المقدسى : فى خراسان يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ؛ وكذلك يقول فى همذان .

ويقول الرحالة بنيامين الذى رحل سنة ١١٦٥م = سنة ٥٦١ ﻫ : إن فى القاهرة سبعة آلاف يهودى ، وفى الإسكندرية ثلاثة آلاف ، وفى الوجه البحرى ثلاثة آلاف ، وفى الوجه القبلى ستمائة[٢] .

وفى أوائل القرن الرابع كان فى بغداد وحدها نحو من خمسين ألفاً من النصارى . ويقول المقدسى فى الشام : « إن أكثر الجهابذة والصياغين والصيارفة والدباغين بهذا الإقليم يهود ، وأكثر الأطباء والكتبة نصارى »[٣] .

وانتشرت أديار النصارى فى أنحاء المملكة ، وكانت غنية ببساتينها وخمورها ، واتصل الأدباء بها وأكثروا من القول فيها .

وكان لليهود والنصارى نفوذ كبير فى بعض الدول فى هذا العصر . وكان المسلمون فى أول أمرهم لا يرضون باستخدامهم فى شؤون الدولة ؛ فقد روى أنه ذكر لعمر بن الخطاب غلام كاتب حافظ من الحِيرة ، وكان نصرانياً ، فقيل

---

(١) كتاب الوزراء للصابى : ص ٢٤٨ .

(٢) نقلا عن متز .

(٣) ص ١٨٣ .

له . لو اتخذته كاتباً » ؟ فقال : « لقد اتخذت إذاً بطانة من دون المؤمنين »[١] .

فعمر بن الخطاب كان يحسن معاملتهم ولا يستعين بهم فى الأعمال ، ولكن ذلك لم يدم طويلا ، فاستخدموا فى الأعمال من عهد معاوية . وفى عصرنا هذا الذى نؤرخه كثر استخدامهم ، وزاد سلطانهم ؛ فيقول المقدسى : « وقلما ترى به (بالشام) فقيها له بدعة ، أو مسلماً له كتابة ، إلا بطبرية فإنها ما زالت تخرج الكتّاب ، وإنما الكتبة به وبمصر نصارى »[٢] . وفى القرن الثالث وَلِىَ فى بعض الأحيان ديوان الجيش نصرانى ، وكان المسلمون يقبّلون يده ، قال الصابى فى كتابه الوزراء : « إن على بن عيسى قال لابن الفرات : ما اتقيت الله فى تقليدك ديوان جيش المسلمين رجلا نصرانياً ، وجعلت أنصار الدين وحماة البيضة يقبلون يده ويمتثلون أمره ؟ ! فقال له ابن الفرات : ما هذا شىء ابتدأته ولا ابتدعته ، وقد كان الناصر لدين الله قلّد الجيش إسرائيل النصرانى كاتبه ، وقلد المعتضد ملك بن الوليد النصرانى كاتب بدر ! ! فقال على بن عيسى ، ما فعلا صوابا ؛ فقال ابن الفرات : حسبى الأسوة بهما وإن أخطآ على زعمك »[٣]

وذكر « عريب » فى كتابه « صلة تاريخ الطبرى » فى حوادث سنة ٣٢٠ أن « أبا الجمال الحسين بن القاسم بن عبيد الله بن سليمان بن وهب كان يسعى دهرَه فى طلب الوزارة ، ويتقرب إلى مؤنس وحاشيته ويصانعهم حتى جاز عندهم وملأ عيونهم ، وكان يتقرّب إلى النصارى الكتّاب بأن يقول لهم إن أهلى منكم ، وأجدادى من كبارکم ، وإن صليباً سقط من يد عبيد الله بن سليمان جده فى أيام المعتضد ، فلما رآه الناس قال هذا شىء تتبرك به عجائزنا فتجعله فى ثيابنا

(١) عيون الأخبار : ١/٤٣ . (٢) ص ١٨٣ .

(٣) الوزراء : ٩٥ .

من حيث لا نعلم — تقرباً إليهم بهذا وشبهه — يعنى إلى مؤنس وأصحابه »[١] .

وكان لعضد الدولة البويهى فى بغداد وزير نصرانى اسمه نصر بن هارون ؛ وقد أذن له عضد الدولة فى عمارة البيع والديرة وإطلاق الأموال لفقراء النصارى[٢] .

وثارت لذلك مسألة فقهية ، وهى : هل يجوز أن يكون الوزير من أهل الذمة أم لا ؟ فقال صاحب « العقد الفريد للملك السعيد » : وهل يشترط فى هـذا الوزير (أى وزير التنفيذ لا وزير التفويض « الإسلام » ، حتى لو أقام السلطان وزير تنفيذ من أهل الذمة كان جائزاً أم لا ؟ اختلفت آراء الأئمة فى ذلك ؛ فذهب عالم العراق الإمام أبو الحسن على بن حبيب البصرى رحمه الله إلى جوازه ؛ وذهب عالم خراسان إمام الحرمين أبو المعالى الجُوَينى إلى منعه ، وعد تجويز ذلك من عالم العراق عثرة لن تقال ، وخطأ فيما قال ؛ وهذا بخلاف وزارة التفويض فإن هذه الشروط معتبرة من جملة ما تقدم بيانه من الأوصاف فى حق المباشر لها[٣] » . واتسعت سلطة اليهود والنصارى فى أيام الفاطميين بمصر ، فمن أشهرهم يعقوب بن كِلِّس . قال ابن عساكر : « إنه كان يهودياً من أهل بغداد خبيثاً ذا مكر ، وله حيل ودهاء ، وفيه فطنة وذكاء . ونزل مصر أيام كافور الإخشيدى فرأى منه فطنة وسياسة ومعرفة بأمر الضياع ؛ فقال : لو كان مسلما لصلح أن يكون وزيراً ! فطمع فى الوزارة فأسلم ... ثم هرب إلى المغرب واتصل بيهود كانوا مع المعز وخرج معه إلى مصر » ، « وولى الوزارة للعزيز نزار بن المعز وعظمت منزلته عنده ، وأقبلت عليه الدنيا ، وانثال الناس عليه ولازموا بابه ؛ ومهد قواعد

---

(١) عريب : ٨٥ . (٢) ابن الأثير : ٨/٢٥٥ .

(٣) ص ١٤٧ ، والفرق بين الوزارتين أن وزير التفويض هو أن يفوض السلطان إلى الوزير تدبير المملكة والدولة برأيه ، ويجعل إليه إمضاء أمورها بمقتضى نظره ؛ وأما وزير التنفيذ فسلطته تنفيذ ما يأمر به السلطان ، والأولى بالبداهة أهم .

الدولة وساس أمرها أحسن سياسة ، ولم يبق لأحد معه كلام »[1] .

وكان ابن كِلّس يأخذ من العزيز فى كل سنة مائة ألف دينار ، ووجد له من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ، ووجد له جوهر بأربعمائة ألف دينار ، وبزّ من كل صنف بخمسمائة دينار[2] . وأكثر الشعراء مدائحه ؛ قال ابن خلكان : ولقد نظرت فى ديوان أبى الرقَعْمَق الشاعر فوجدت أكثر مديحه فى الوزير المذكور ، وفيه يقول من قصيدة :

كل يوم له على نُوَبِ الدهـــر وكرّ الخطوب بالبذل غاره
ذو يدٍ شأنها الفرار من البخـــل وفى حومة الندى كرّاره
فاستجِرْه فليس يأمن إلا من تفيّا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأيته مطرقا يُعْـــمل فيما يُريده أفكاره
لم يَدَع بالذكاء والذهن شيئاً فى ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ولا موضعاً من الأرض إلا كان بالرأى مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكَفَاهُ خوفَه من زمانه وحِذاره

« وفى أيام العزيز نزار كان بمصر شاعر اسمه الحسن بن بشر الدمشقى ، وكان كثير الهجاء ، فهجا يعقوب بن كِلّس وزير العزيز وكاتب الإنشاء من جهته أبا نصر عبد الله الحسين القيروانى :

قل لأبى نصر صاحبِ القصر والمتأتى لنقض ذا الأمر
انقض عرا الملك للوزير تفز منــه بحسن الثناء والذِكر
وأعط وامنع ولا تَخَف أحداً فصاحب القصر ليس فى القصر

(١) ابن خلكان : ٢/٤٩١ وما بعدها
(٢) ابن خلكان : ٢/٤٤٩ .

وليس يدرى ماذا يُراد به　　وهو إذا ما درى فما يدرى

ثم قال أيضاً وعرّض بالفضل القائد :

تنصّر فالتنصُّرُ دين حقٍّ　　عليه زماننا هــذا يَدُلُّ

وقلْ بثلاثة عزّوا وجَلّوا　　وعَطِّل ما سواهم فهو عُطْل

فيعقوب الوزير أبٌ وهذا الـ　　عزيز ابنٌ وروح القدس فضل[1]

وقد وَلّى العزيز نزار أيضاً عيسى بن نسطورس النصرانى كتابته ، واستناب بالشام يهوديا اسمه مَنَشّا ، فاعتز بهما النصارى واليهود وآذوا المسلمين ، فعمد أهل مصر وكتبوا قصة وجعلوها فى صورة عملوها من قراطيس ، فيها : « بالذى أعز اليهود بمنشا ، والنصارى بعيسى بن نسطورس ، وأذل المسلمين بك إلا كشفت ظلامتى ؛ وأقعدوا تلك الصورة على طريق العزيز والرقعة بيدها ؛ فلما رآها أمر بأخذها ، فلما قرأ ما فيها ورأى الصورة من قراطيس علم ما أريد بذلك فقبض عليهما ، وأخذ من عيسى ثلثمائة ألف دينار ، ومن اليهود شيئاً كثيراً »[2] . ولكن الحاكم بأمر الله اضطهد النصارى واليهود فى بعض نزواته ، فأمرهم بشد الزنّار ولبس الغيار ، « وألبس اليهود العمائم السود ، وأمر ألا يركبوا مع المسلمين فى سفينة ، وألا يستخدموا غلاما مسلما ، ولا يركبوا حمار مسلم ، ولا يدخلوا مع المسلمين حمّاما ، وجعل لهم حمامات على حدة ؛ ولم يبق فى ولايته دوراً ولا كنيسة إلا هدمها »[3] ، « وأمر النصارى بأن تعلق فى أعناقهم الصلبان ، وأن يكون طول الصليب ذراعا وزنته خمسة أرطال بالمصرى ؛ وأمر اليهود أن يحملوا فى أعناقهم قَرَامِى الخشب فى زنة الصلبان »[4] ، « ومنع النصارى من ركوب الخيل ، وأن يكون ركوبهم

---

(١) ابن الأثير : ٤٣/٩ .　　(٢) ابن الأثير : ٤٢/٩ .

(٣) النجوم الزاهرة : ١٧٧/٤ .　　(٤) ١٧٨ .

البغال والحمير بسروج الخشب ، والسيور السود بغير حلية ، وأن يشدوا الزنانير ، ولا يستخدموا مسلماً ، ولا يشتروا عبداً ولا أمة ، وتُتُبِعت آثارهم فى ذلك فأسلم منهم عدة »[1] ؟ ومع هذا فكان الكتّاب والأطباء فى قصره من النصارى .

وتولى الوزارة سنة ٤٣٦ للمستنصر بمصر « صدقة بين يوسف » وكان يهودياً فأسلم ، وكان معه أبو سعد التسترى اليهودى يدبر الدولة ؛ فقال بعض الشعراء :

يهود هذا الزمان قد بلغوا   غاية آمالهم وقد مَلكوا

العزّ فيهم والمال عندهمُ   ومنهم المستشار والمَلِكُ

يا أهل مصر إنى نصحت لكم   تهوّدوا قد تهوّد الفلك[2]

* * *

هذه العناصر الجنسية من الأتراك وفرس وعرب وروم وزنج وغيرهم ، وما تستلزم من عصبيات ؛ وهذه العصبيات المذهبية والطائفية من تسنن وتشيع ، ومن حنابلة وشافعية وحنفية ، ومن مسلمين ويهود ونصارى ، وغير ذلك كانت كلها حركات تموج بها المملكة الإسلامية ، تتعاون حيناً ، وتتفاعل حيناً ، وتؤثر فى السياسة وفى الدين وفى العلم ، وتنشأ عنها المؤامرات السرية أحيانا ، والقتال الصريح أحيانا ؛ وكان لها كلها أثر واضح فى كل ناحية من النواحى الاجتماعية :

قد أثرت فى الحالة المالية إما مباشرة وإما من طريق الحكم والسياسة ، فعمّرت فى ناحية وخربت فى أخرى ، وعدلت فى ناحية وظلمت فى أخرى .

وأثرت فى اللغة والأدب بدخول الأعاجم يتكلمون بلغاتهم ، ويتعلمون اللغة العربية ويحمّلونها أفكارهم وآدابهم .

---

(١) خطط المقريزى : ٢٨٧/٢ .

(٢) حسن المحاضرة : ١١٧/٢ ؛ وقد استفدت من إشارات للأستاذ متز إلى كثير من هذه المصادر .

وأثرت فى المرأة بكثرة الأجناس المختلفة ذوات الخصائص المختلفة ، وقد حملَ النساء من هذه الأجناس خصائص الجمال والقبح فى المظهر وفى الأخلاق وفى العادات ، وغزون البيوت بما كان يعرضه النخاسون منهن فى سوق الرقيق ، وبما كان يحمله الغزاة معهم فى حروبهم مع الروم ومع الترك ومع الفرس ومع الزنج ، وما كانوا يوزعونه على الجنود وعلى الأهل والأقارب ، وما كانوا يتخلَّون عنه فيعرضونه فى الأسواق .

وأثرت فى الدين من كثرة الجدل بين الفقهاء ، ومن إثارة مسائل يدعو إليها هذا الجدل لم تكن معروفة من قبل ؛ ومن تدخل السياسة فى الأمور الدينية والالتجاء إلى الفقهاء يسألونهم الحلول الفقهية فيما يعرض لهم من مشاكل سياسية واجتماعية ؛ وبما أثاره النزاع الشديد بين السنية والشيعة ، وغلبة التشيع فى بعض الأماكن وتكوين دول شيعية لم تكن فى العصور الماضية ، فدعاها ذلك إلى أن تبلور التشيع وتستعمل عقولها فى إيجاد نظام الحكم والدعوة التى تتفق وأصول الشيعة كما حصل ذلك فى الدولة الفاطمية — وبما كان من الاحتكاك الشديد بين المسلمين واليهود والنصارى ، وما كان بينهم من تسامح أحياناً ، وخصومة أحياناً ، وما كان من جدل دينى بين هذه الطوائف ، وما أثارته هذه الظروف المختلفة من مسائل طائفية تعرض على الفقهاء فيبدون فيها آراءهم فى ضوء الحوادث الجديدة .

وأثرت فى العلم بما كان يحمله النصارى واليهود والفرس والهنود من علوم آبائهم ، وجدهم فى تقديم هذه الذخائر إلى الأمة الإسلامية باللغة العربية مما مكن الناطقين باللسان العربى أن يأخذ كل منهم حظه منها ، ويهضمه ما استطاع ويزيد عليه ما استطاع . وتتعاون على الاستفادة منها وترقيتها العقول العربية والتركية والفارسية والرومية والهندية ، ويؤلف بينها العلم بعد أن فرقت بينها

العصبيات الجنسية والمذهبية ؛ فيأخذ اليهودى والنصرانى من العالم المسلم ، ويأخذ المسلم من العالم اليهودى والنصرانى ، ويجلس الفارسى والتركى والهندى فى حلقة العربى ، ويتعاون الجميع فى بناة الدولة العلمية غير آبهين بما كان من الساسة فى تهديم الدولة من ناحيتها السياسية .

كل هذا وأمثاله كان من آثار هذه الحركات المختلفة ، وكل ما ذكرته إشارة خاطفة لما كان لها من أثر قوى فعّال سنحاول بعدُ شرح بعضه .

الباب الثانى

أهم المظاهر الاجتماعية والسياسية فى ذلك العصر

(۱) انقسام الدولة — أهم مظهر يأخذ بالأبصار فى ذلك العصر ما حصل للدولة الإسلامية من الانقسام ؛ فقد كانت المملكة الإسلامية كلها فى العصر العباسى الأول — إذا استثنينا الأندلس وبعض بلاد المغرب — تكوّن كتلة واحدة ، وتخضع خضوعا تاما للخليفة فى بغداد ؛ هو الذى يعين ولاتها ، وإليه يجبى خراجها ، وإليه ترجع فى إدارتها وقضائها وجندها وحل مشاكلها ، وتدعو له على المنابر وتضرب السكّة باسمه ، ونحو ذلك من مظاهر السلطان . ثم أخذ هذا السلطان يقل شيئاً فشيئاً بضعف الخلافة حتى تمزقت المملكة كل ممزق ، وأخذت الأقطار الإسلامية تستقل عن بغداد شيئاً فشيئاً ، وأخذ يخشى ولاتها وأمراؤها بعضهم بأس بعض ، ويضرب بعضهم بعضاً ؛ فصارت المملكة الإسلامية عبارة عن دول متعددة مستقلة ، علاقة بعضها مع بعض علاقة محالفة أحيانا وعداء غالباً ؛ وأصبح لكل دولة مالها وجندها وإدارتها وقضاؤها وسكّتها وأميرها ، إن اعترف بعضها بالخليفة فى بغداد حيناً من الزمن ، فاعتراف ظاهرى ليس له أثر فعلى ! وسوّدت صحف التاريخ بالقتال المستمر بين هذه الدول ، وشغلوا بقتال أنفسهم عن قتال عدوهم ؛ ومن أجل هذا طمع فيهم الروم يغزونهم كل حين ويستولون على بلادهم شيئاً فشيئاً ، حتى الزنج والحبشة كانوا يغيرون على الدولة الفينة بعد الفينة فينهبون ويسلبون ، ولم تعد المملكة الإسلامية مخشية الجانب كما كانت أيام وحدتها .

ففى سنة ٣٢٤ ﻫ كانت البصرة فى يد ابن رائق ؛ وفارس فى يد على بن بويه ؛ وأصبهان والرى والجيل فى يد أبى على الحسن بن بويه ؛ والموصل وديار بكر وربيعة فى أيدى بنى حمدان ؛ ومصر والشام فى يد الإخشيديين ؛ وإفريقية والمغرب فى يد الفاطميين ؛ وخراسان وما وراء النهر فى يد السامانيين ؛ وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ؛ وخوزستان بيد البريدى ؛ والبحرين واليمامة وهَجَر بيد القرامطة ، ولم يبق للخليفة إلا بغداد وما حولها ، وحتى هذه لم يكن له فيها إلا الاسم .

وقد أجاد المسعودى فى ملاحظته وجه الشبه بين حالة المملكة الإسلامية بعد هذا الانقسام ، ومملكة الإسكندر المقدونى بعد وفاته فقال : « ولم نعرض لوصف أخلاق المتقى والمستكفى والمطيع ومذاهبهم إذ كانوا كالمولَّى عليهم ، لا أمر ينفذ لهم ، أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلّب على أكثرها المتغلبون ، واستظهروا بكثرة الرجال والأموال ، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم ؛ وأما بالحضرة (بغداد) فتفرد بالأمور غيرُهم فصاروا مقهورين خائفين ، قد قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة . وما أشبّه أمور الناس فى الوقت إلا بما كانت عليه ملوك الطوائف بعد قتل الملك الإسكندر بن فيلبس دَارَا ملك بابل إلى ظهور أردشير بن بابك ، كلٌ قد غلب على صقعه يحامى عنه ، ويطلب الازدياد إليه مع قلة العمارة وانقطاع السبل ، وخراب كثير من البلاد ، وذهاب الأطراف ، وغلبة الروم وغيرهم من الممالك على كثير من ثغور الإسلام ومدنه »[1] .

كان كثير من الدول يعترف بالخلافة وسلطتها الدينية ، فهى إذا استقلت سياسياً ومدنياً رأت مما يزيدها سلطة وقوة اعترافها بالخليفة واعتراف الخليفة بها ،

---

(١) المسعودى فى كتابه التنبيه والإشراف ص ٤٠٠ .

كما فعل عضد الدولة بن بويه مثلا لما فتح كِرْمان ، فقد استرضى الخليفة فأنفذ إليه الخليفة عهده وخِلَعه من الطوق والسوارين[1] .

ومع مضى الزمن وضعف الخلافة قطعوا هـذه الصلة أيضاً وتلقبوا بإمرة المؤمنين أو بالخلفاء . وأول من فعل ذلك الفاطميون ، فبعد أن فتحوا القيروان سـنة ٢٩٧ تلقبوا بالخلفاء ، وشجعهم على ذلك أنهم شيعيون يقولون باغتصاب الأمويين والعباسيين حقهم فى الخلافة ، فلما تملـكوا حققوا نظريتهم فى أحقيتهم فتسمَّوا بالخلفاء — فلما رأى الأندلسيون ذلك قلدوهم مع أنهم سنيون ، فتلقب عبد الرحمن الناصر أمير الأندلس بأمير المؤمنين نحو سنة ٣٥٠ ، وكانوا يلقبون من قبله بالأمراء ، وبنى الخلفاء . قال المقّرى : « هو أول من تسمى منهم بالأندلس بأمير المؤمنين عندما التاث أمر الخلافة بالمشرق ، واستبد موالى الترك على بنى العباس ، وبلغه أن المقتدر قتله مؤنس المظفر مولاه سنة ٣١٧ ، فتلقب بألقاب الخلافة »[2]

وهنا يصح لنا أن نتساءل سؤالين : الأول : هل كان انقسام المملكة الإسلامية إلى أقسام على النحو الذى أبنّا فى مصلحة الأقطار الإسلامية أو فى غير مصلحتها ؟ قد يبدو هذا السؤال غريباً ، لأن الناس اعتادوا أن يقيسوا رقى المملـكة الإسلامية بوحدتها وضعفها بانقسامها ، وبعبارة أخرى ربطوا رقى المملـكة الإسلامية بحال الخليفة ؛ فإذا كان الخليفة قوياً باسطاً سلطانه على الأقطار كلها ، فالدولة قوية ، وإلا فهى ضعيفة .

وفى رأيى أن هذا مقياس غير صحيح ؛ فقد يضعف الخليفة وتصلح الأقطار

---

(١) تجارب الأمم : ٦/٢٥٣ .

(٢) نفح الطيب : ٢/١٦٦ ، ويلاحظ عليه أن قتل المقتدر كان سنة ٣٢٠ لا سنة ٣١٧ كما ذكره .

والعكس . وهذا ما حدث فعلا ، ففي رأيي أن كثيراً من الأقطار الإسلامية كانت بعد استقلالها عن الخلافة فى بغداد خيراً منها قبله ؛ فيظهر لى أن مصر تحت حكم الطولونيين والإخشيديين والفاطميين كانت حالتها أسعد منها أيام ولاة بغداد قبل الطولونيين ؛ وكذلك حكم السامانيين لفارس وما وراء النهر كان خيراً من حكم من سبقهم من ولاة العباسيين ، وربما كان شر أيام بغداد هو هذه الأيام التى كانت تخضع فيها للخلفاء ، وما حولها مستقل عنها .

فإذا قسنا الأمور بمصلحة المحكومين لا الخلفاء — وهو فى نظرى أصح مقياس — كان هذا الانقسام فى مصلحة الأقطار المستقلة فى أغلب الأحوال ، وعلى الأقل كان فى مصلحتهم نسبياً ، أعنى بالنسبة للحالة السيئة التى كانوا عليها قبل استقلالهم ، فالإدارة وانتفاع كل قطر بماله يصرفه فى مصالحه والعدالة النسبية فى توزيع الثروة ونحو ذلك ، كلها كانت خيراً منها أيام سلطة الخلفاء الضعفاء ومن يتولاهم من الأتراك الأقوياء .

والأندلس لما أتيح لها الاستقلال فى بدء العصر العباسى ، ومَنَعَتْها قوتها وبعدها من أن يخضعها العباسيون لحكمهم ، أزهرت وتمدنت وساهمت فى بناء المدنية ، فى العلم والأدب والحضارة ، وما أظن أنها كانت تبلغ هذا المبلغ لو عاشت فى أحضان الدولة العباسية .

نعم ! إنهم — وقد تفرقوا — أصبحوا أضعف أمام العدو الخارجي كالروم ، وصار يحمل العبء كله دويلة مستقلة كدولة الحمدانيين ، وكان يحمل العبء قبلُ المملكةُ الإسلامية كلها ، فمن هذه الناحية كان هذا مظهر ضعف للدولة ، خصوصاً والدول المستقلة لم تستطع أن تتفاهم ، وترتب بينها نظاما مشتركا يضمن دفع غارة الأعداء الخارجين ، لأن هذا النظام يتطلب رقياً فى الفكر ، وضبطا للعواطف ،

وتقديماً للمصلحة العامة على الخاصة ؛ وهى درجة لم يستطع المسلمون الوصول إليها حتى الآن ! إنما كانت علاقة كل دولة مسلمة بجارتها المسلمة علاقة عداء غالباً ، فلم يتمكنوا من التفاهم على مصالحهم الداخلية فضلا عن المصالح الخارجية ، ولو استطاعوا — مع استقلالهم — أن ينظموا شؤونهم مع من بجوارهم ، وينظموا صفوفهم أمام عدوهم الخارجي لبلغوا الغاية . ولكنى مع هذه الشرور كلها أرى أن حالة كثير من البلدان الإسلامية نالت باستقلالها من الطمأنينة والرخاء ما لم تنعم به فى الأيام الأخيرة لتبعتها بغداد .

والسؤال الثانى : ما موقف العلم والأدب بعد هذا الانقسام ، هل أثر فيهما أثراً حسناً أو سيئاً ؟ وهل انحط العلم والأدب بانحطاط خلفاء بغداد أو رَقِيا باستقلال الأقطار ؟

أرى أن العلم والأدب رقيا عما كانا عليه قبل ، وأنه لم يؤثر فيهما كثيراً ضعف خلفاء بغداد ؛ ذلك أن حركة الترجمة التى نقلت ذخائر الأمم المختلفة وخصوصاً الأمة اليونانية ، وضعت أمام أعين المسلمين ثروة علمية هائلة باللسان العربى ، فكانت الخطوة الثانية أن تتوجه إليها الأفكار العربية تفهمها وتشرحها وتهضمها وتبتكر فيها وتزيد عليها ؛ وهذا ما فعله عصرنا هذا كما سيأتى بيانه . ومن جهة أخرى كان وضع السلطة كلها فى يد الخليفة يجعل بغداد المركز العلمى الوحيد ، أو على الأقل المركز العلمى والأدبى الهام وما عداه فاتر ضعيف ، فكان من تفوّق فى علم أو أدب فلا أمل فى شهرته ونبوغه ، وذيوع صيته وثروته ، إلا إذا رحل إلى بغداد وتقرب بعلمه وأدبه إلى خلفائها وأمرائها ؛ فلما استقلت الأقطار أصبحت كل عاصمة قطر مركزاً هاما لحركة علمية وأدبية ، فأمراء القطر يعطون عطاء خلفاء بغداد ، ويُحَلّون عاصمتهم بالعلماء والأدباء ، ويفاخرون

أمراء الأقطار الأخرى فى الثروة العلمية والأدبية ، كما يتفاخرون بعظمة الجند وعظمة المبانى . فبدل أن كان للعلم والأدب مركز واحد هام أصبحت لهما مراكز هامة متعددة ، وأصبح علماء مصر — مثلا — يساجلون علماء بغداد ، وأدباء الشام يفخرون على أدباء العراق ، وهـذا من غير شك يشجع الحركة العلمية والأدبية ويقويها ويرقيها .

وحتى نرى الأمراء الأتراك الذين لا يحسنون العربية يحبون أن تزين قصورهم بالعلماء والأدباء .

ومن ظريف ما يحكى فى ذلك أن بجكم التركى كان بواسط ، وكان من المقربين إليه أبو بكر محمد بن يحيى الصُّولى ؛ وكان بجكم لا يحسن العربية ، فاستدعى يوماً الصولىّ وقال له : إن أصحاب الأخبار رفعوا إلىّ أنى لما طلبتك من المسجد (وكان الصولى يقرأ درساً فى المسجد) قال الناس : أعْجَلَه الأمير ولم يتم مجلسنا ، أفتراه يقرأ عليه شعراً أو نحواً أو يسمع من الحديث ؟ (يقولون ذلك تهكماً ببجكم لأنه لا يحسن العربية) ؛ ثم قال بجكم رداً على هـذا : « أنا إنسان ، وإن كنت لا أحسن العلوم والآداب أحب ألا يكون فى الأرض أديب ولا عالم ولا رأس فى صناعة إلا كان فى جنبتى وتحت اصطناعى وبين يدىّ لا يفارقنى »[1] .

ولعله بهذا القول يعبر عما فى نفس كل أمير فى كل إقليم .

ومن أجل هـذا كان مؤرخ العلم والأدب قبل الاستقلال يجد نفسه أمام ثروة كبيرة علمية وأدبية فى العراق ، ثم لا يجد إلا نتفاً قليلة منها فى تاريخ غيره ؛ أما بعد الانقسام فلكل إقليم شخصية متميزة فى علمها وأدبها ، وإن كانت على

---

(١) الأوراق : أخبار الراضى والمتقى للصولى ص ١٩٥ .

على أنا إن سلمنا فرضاً أن الحياة السياسية بعد الانقسام كانت شراً منها قبله ، فلا نسلم ذلك فى العلم والأدب . والتاريخ يرينا أن الحالة العلمية لا تتبع الحالة السياسية ضعفاً وقوة ؛ فقد تسوء الحالة السياسية إلى حد ما وتزهر بجانبها الحياة العلمية ؛ ذلك لأن الحياة السياسية إنما تحسن بتحقيق العدل ونشر الطمأنينة بين الناس ، ومع هذا فقد يحمل الظلم كثيراً من عظماء الرجال وذوى العقول الراجحة أن يفروا من العمل السياسى إلى العمل العلمى ، لأنهم يجدون العمل السياسى يعرضهم لمصادرة أموالهم ، وأحياناً إلى إزهاق أرواحهم ، على حين أن العمل العلمى يحيطهم بجو خاص هادئ مطمئن ، ولو كان الجو العام مائجاً مضطرباً . وكذلك كان الحال فى تاريخ كثير من علماء المسلمين ، جربوا الوزارة وولاية الأعمال فتعرضوا للخطر فهربوا إلى العلم فنجحوا — وأيضاً فقد وقر فى نفوس الخلفاء والأمراء حرمة العلماء ، متى لم يتعرضوا للسياسة من قريب ولا بعيد ، وهذا يمكنهم من بحثهم العلمى فى هدوء وطمأنينة على الرغم مما يحيط بهم من فوضى واضطراب . لقد كان الفارابى مثلا فى جو سياسى مضطرب سواء كان فى حلب بين الحمدانيين ، أو فى بغداد فى حكم الأتراك ، ومع ذلك خلق لنفسه ، ولمن حوله من تلاميذه حِمًى يُرَقّى فيه علمه وبحثه ، وإذا عصفت العواصف كانت حول حماه ، ولا تغشاه ، لا يهمه فى حياته إلا علمه ؛ أما ما عداه من أفانين السياسة وألاعيبها ، وشؤون الدنيا وشهواتها فلا يأبه بها ويقول :

أخى خَلِّ حَيِّزَ ذى باطل ... وكن للحقيقة فى حيّز

فما الدار دار مُقامٍ لنا ... وما المرء فى الأرض بالمعجز

ينافس هذا لهذا على ... أقل من الكلم الموجَز

محيط السماوات أولى بنا ... فماذا التنافس فى مركز ؟!

وأبو العلاء المعرى يترك الدنيا مضطربة فى المعرة وما حولها ، وفى بغداد وما حولها ، ويخلق لنفسه جواً علمياً فكريا هادئا لا نزاع فيه إلا على مسألة علمية أو مشكلة لغوية ؛ أو فكرة فلسفية ، لا علاقة له بأمير إلا أن يتشفّع عنده فى بلده فيشفع ، ولا علاقة له بوزير إلا أن يستفتيه فى مسألة علمية فيجيب — وهكذا سيرة كثير من العلماء ، فلم لا يرقى العلم فى هذه الأجواء الهادئة مهما أحاط بها من ظروف عاصفة ؟ !

وحتى الذين اكتووا بالسياسة من قرب أو بعد ، كالصُّولى والصابى وابن العميد ، قد أفادوا العلم والأدب بانغماسهم فى الحياة السياسية ، وإن احترقوا بنارها .

وما لنا نذهب بعيداً ، وهذا عصر النهضة العلمية والأدبية فى أوروبا كانت الأفكار فيه تبحث وتنتج وتبتكر ، والجو السياسى حولها أسوأ ما يكون نزاعا وفساداً وظلما ، فلما خطت الأفكار العلمية والأدبية خطواتها كانت هى التى تصلح الجو السياسى ، لا أن الجو السياسى يخنقها .

والخلاصة أن الحالة العلمية فى أواخر القرن الثالث وفى القرن الرابع ، كانت أنضج منها فى العصر الذى قبله : أخذ علماء هذا العصر ما نقله المترجمون قبلهم فشرحوه وهضموه ؛ وأخذوا النظريات المبعثرة فرتّبوها ؛ وورثوا ثروة من قبلهم فى كل فرع من فروع العلم فاستغلوها ، وسيأتى بيان ذلك إن شاء الله .

(٢) **الترف والبؤس ، واللهو والجد** — حيثما نظرنا إلى كل قطر من أقطار العالم الإسلامى فى ذلك العصر رأينا الثروة غير موزعة توزيعاً عادلا ولا متقاربا ، ورأينا الحدود بين الطبقات واضحة كل الوضوح ، فجنة ونار ، ونعيم مفرط ، وبؤس مفرط ، وإمعان فى الترف يقابله فقدان القوت .

وهذا الترف والنعيم حظ عدد قليل هم الخلفاء والأمراء ومن يلوذ بهم من

الأدباء والعلماء ، وبعض التجار ؛ ثم البؤس والشقاء والفقر لأكثر الناس . وحتى غنى الأغنياء فى كثير من الأحيان ليس محصَّناً بالأمان ، فهو عرضة لغضب الأقران أو غضب ذى السلطان الأعلى ، فيصادَرون فى أموالهم ، ويصبح حالهم أشد بؤساً من فقير نشأ فى الفقر ؛ وقد مرت بنا أمثلة من هذا القبيل .

والآن نصوّر بعض صور توضح الحالين .

فقصور الخلفاء والأمراء وأمثالهم واسعة كل السعة ، مترفة كل الترف ؛ فابن المعتز يصف فى ديوانه أبنية للخليفة المعضد اسمها الثريا فيقول :

حللْت « الثريا » خير دارٍ ومنزل ... فلا زال معموراً وبُورك من قصر
فليس له فيما بنى الناس مشبِهٌ ... ولا ما بناه الجن فى سالف الدهر

* * *

جِنانٌ وأشجار تلاقت غصونها ... فأورقن بالأثمار والورق الخضر
ترى الطيرَ فى أغصانهن هوانفاً ... تَنَقَّلُ من وَكرٍ لهن إلى وكر

* * *

وبنيان قصرٍ قد علت شُرُفاته ... كصفٍّ نساء قد تربّعن فى الأُزر
وأنهار ماء كالسلاسل فُجِّرَتْ ... لترضع أولاد الرياحين والزهر
وميدان وحشٍ تركض الخيل وسطه ... فيؤخذ منها ما يشاء على قَدْر
عطايا إلٰهٍ منعم كان عالما ... بأنك أوفى الناس فيهن بالشكر

واشتهر من الأبنية كذلك قصر « التاج » ، ابتدأ فى بنائه المعتضد أيضاً ، ثم عدل عنه وبنى « الثريا » ؛ فلما تولى ابنه المكتفى أتم بناء « التاج » ، واستعمل فى بنائه الآجرّ من قصر كسرى الذى بقى منه إلى الآن إيوانه . وكانت

وجهة التاج مبنية على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين ، وكانت غاية فى السعة والضخامة .

وكلا البناءين : التاج والثريا ، كانا فى الجانب الشرقى من بغداد[١] . وقبل ذلك عظم البناء فى سامرّا ، و بنى المتوكل فيها الأبنية الضخمة ، حتى ليذكر ياقوت ثبتاً ببيان ما بناه ونفقاته فيقول :

« ولم يبن أحد من الخلفاء بسر من رأى من الأبنية الجليلة مثل ما بناه المتوكل ، فمن ذلك القصر المعروف بالعَرُوس أنفق عليه ثلاثين ألف ألف درهم ؛ والجعفرى عشرة آلاف ألف درهم ؛ والغريب عشرة آلاف ألف درهم ؛ والشيدان عشرة آلاف ألف درهم ؛ والبرج عشرة آلاف ألف درهم ؛ والصبح خمسة آلاف ألف درهم ؛ والمليح خمسة آلاف ألف درهم ؛ وقصر بستان الإيتاخية عشرة آلاف ألف درهم ... » إلى آخر ما ذكر ، إلى أن قال : « فذلك الجميع مائتا ألف ألف وأربعة وتسعون ألف ألف درهم ؛ وقد قال علىّ بن الجهم فى وصف الجعفرى أحد قصور المتوكل :

وما زلت أسمع أن الملو ... ك تبنى على قدر أقدارها
وأعلم أنّ عقول الرجا ... ل تُقضَى عليها بآثارها
فلما رأينا بناء الإمام ... رأينا الخلافة فى دارها
بدائع لم ترها فارسٌ ... ولا الروم فى طول أعمارها
وللروم ما شيَّد الأولون ... وللفرس آثار أحرارها
وكنا نحس لها نخوة ... فطامنْتَ نخوة جبارها
وأنشأتَ تحتجّ للمسلمين ... على ملحديها وكفّارها

---

(١) انظر معجم ياقوت فى مادتى الثريا والتاج .

صُحُوْن تسافر فيها العيون إذا ما تجلّت لأبصارها
وقبّة ملك كأن النجوم تضىء إليها بأسرارها
نظمن الفَسافس نظم الحلىّ لِعُون النساء وأبكارها
لو أنَّ سليمان أدّت له شياطينه بعض أخبارها
لأيقن أن بنى هاشم تقدمها فصل أخطارها

وللبحترى قصائد فى وصف بركتها ومحاسنها .

و بلغت سامرّا فى الحضارة شأواً بعيداً حتى أفسدها وخربها الخلاف والعصبية بين أمراء الأتراك ، وتحول عنها الخلفاء إلى بغداد ؛ وكان أول من فعل ذلك المعتضد بالله ، فقد حول العُمران إلى بغداد و بنى بها الثريا والتاج .

وقد وصف الخطيب البغدادى قصر المقتدر بالله ، الذى تولى من (٢٩٥ — ٣٢٠) ، بمناسبة زيارة رسول من الروم له ، فقال : إنه كان للمقتدر أحد عشر ألف خادم خصى ، وكذا من صقلبي وروى وأسْوَد — وهذا جنس واحد ممن تضمه الدار ، فدع الآن الغلمان الحجرية وهم ألوف كثيرة والحواشى من الفحول . وقد أمر المقتدر أن يطاف بالرسول فى الدار . . . وفتحت الخزائن ، والآلات فيها مرتبة كما يفعل لخزائن العروس . وقد علقت الستور ، ونظم جوهر الخلافة فى قلاّيات على دُرُج غشيت بالديباج الأسود . ولما دخل الرسول إلى دار الشجرة ورآها كثرة تعجبه منها ؛ وكانت شجرة من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم ، عليها أطيار مصنوعة من الفضة تصفّر بحركات قد جعلت لها ، فكان تعجّب الرسول من ذلك أكثر من تعجبه من جميع ما شاهده ... وكان عدد ما علق فى القصور من الستور الديباج المذهبة بالطرز الذهبية الجليلة ، المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع والطرد ، والستور الكبار

البصنائية والأرمنية والواسطية والبهنسية السواذج والمنقوشة والديبقية المطرزة ثمانية وثلاثين ألف ستر . . . وأدخل رسل صاحب الروم إلى الدار المعروفة بخان الخيل ، وهى دار أكثرها أروقة بأساطين رخام ، وكان فيها من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة مركب ذهباً وفضة بغير أغشية ؛ ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها الجِلال الديباج بالبراقع الطوال ، وكل فرس فى يد شاكرى بالبزة الجميلة . ثم أدخلوا دار الوحش ، وكان فيها من أصناف الوحش التى أخرجت إليهم قطعان تقرب من الناس وتتشممهم وتأكل من أيديهم ؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشى ، على كل فيل ثمانية نفر من السند والزرافين بالنار ، فهال الرسل أمرها ؛ ثم أخرجوا إلى دار فيها مائة سبع : خمسون يمنة وخمسون يسرة . . . ثم أخرجوا إلى الجوسق المحْدَث ، وهى دار بين بساتين ، فى وسطها بركة رصاص قَلْعى[1] حواليها نهر رصاص قلعى أحسن من الفضة المجلوة ، طول البركة ثلاثون ذراعا فى عشرين ذراعا ، فيها أربع طيارات لطاف بمجالس مذهبة ... وحوالى هذه البركة بستان بميادين فيها نخل ، وعدده أربعمائة نخلة ، وطول كل واحدة خمسة أذرع ، قد لبس جميعها ساجا منقوشاً من أصلها إلى حد الجمّارة بحلق من شبه مذهبة . . . وفى جانب الدار يمنة البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على خمسة عشر فرساً ، قد ألبسوا الديباج وغيره ، وفى أيديهم مطارد على رماح يدورون على خط واحد فى الناورد جنباً وتقريبا ، فيظن أن كل واحد منهم إلى صاحبه قاصد ؛ وفى الجانب الأيسر مثل ذلك .

ثم أخرجوا — بعد أن طيف بهم ثلاثة وعشرين قصراً — إلى الصحن التسعينى ، وفيه الغلمان الحجرية بالسلاح الكامل .

---

(١) القلع نوع من المعدن ينسب إليه الرصاص .

ثم وصلوا إلى حضرة المقتدر بالله وهو جالس فى « التاج » مما يلى دجلة ، بعد أن لُبِّس بالثياب الديبقية المطرزة بالذهب ، على سرير آبنوس قد فرش بالديبقى المطرز بالذهب ، وعلى رأسه الطويلة ؛ ومن يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة ، ومن يسرته تسعة أخرى من أنفر الجواهر وأعظمها قيمة غالبة الضوء على ضوء النهار ؛ وبين يديه خمسة من ولده : ثلاثة يمنة ، واثنان يسرة[1] .

ولعل هذه الصورة خير وصف لقصور الخلفاء فى ذلك العصر .

والخلفاء من أول العصر العباسى يعلو كل خليفة ما قبله درجة أو درجات فى الترف والنعيم والإمعان فى فنون الحضارة ، والأغنياء يتبعونهم فى ذلك على قدر مواردهم ، سائرين على حكم الزمان .

ولذلك لما جاء المهتدى بالله (٢٥٥ — ٢٥٦) ، ونزع نزعته إلى الزهد استُغرب منه ذلك ، ولم يطاوعه الناس وسئموا سيرته ، وأدى الأمر إلى قتله .

ذلك أنه جعل مثله الذى يجب أن يحتذى عمر بن عبد العزيز ، فحرّم الشراب ونهى عن القِيان ، وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر وقرّب العلماء ورفع من منازل الفقهاء ، وأحسن معاملة الطالبيين ، وقلل من اللباس والفرش والمطعم والمشرب ، وأخرج آنية الذهب والفضة من خزائن الخلفاء فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت ، وذبح الكباش التى كان يناطَح بها بين يدى الخلفاء ، وكذلك فعل فى الديوك ؛ وكانت الخلفاء قبله تنفق على موائدها كل يوم عشرة آلاف درهم ، فأزال ذلك ، وجعل لمائدته وسائر مؤنه فى كل يوم نحو مائة درهم .

وكان يتهجد فى الليل ويطيل الصلاة ، ويلبس جبة من شعر .

---

(١) انظر تاريخ الخطيب : ١/١٠٠ وما بعدها طبعة مصر .

قال المسعودى : « فثقلت وطأته على العامة والخاصة بحمله إياهم على الطريقة الواضحة ، فاستطالوا خلافته وسئموا أيامه ، وعملوا الحيلة عليه حتى قتلوه » .

ولما قبضوا عليه قالوا له أتريد أن تحمل الناس على سيرة عظيمة لم يعرفوها ؟ فقال : أريد أن أحملهم على سيرة الرسول (ص) وأهل بيته والخلفاء الراشدين ! فقيل له : إن الرسول كان مع قوم قد زهدوا فى الدنيا ورغبوا فى الآخرة كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وغيرهم ، وأنت إنما رجالك تركى وخَزَرى ومغربى وغير ذلك من أنواع الأعاجم لا يعلمون ما يجب عليهم من أمر آخرتهم ، وإنما غرضهم ما استعجلوه من الدنيا ، فكيف تحملهم على ما ذكرت من الواضحة ؟ ! »[١] .

ولم يدم فى خلافته إلا أحد عشر شهراً .

وهكذا كان تيار الترف شديداً جارفا حتى ليكتسح من وقف فى سبيله .

وقد أنشأ عضد الدولة البويهى بستانا بلغت النفقة عليه وعلى سَوْق الماء إليه خمسة آلاف ألف درهم[٢] .

والوزير ابن مقلة يربى الحيوانات فى قصره ويعنى بها أكثر عناية ، « فكان له بستان عظيم عدة أجربة ، شجر بلا نخل ، عمل له شبكة إبريسم ، وكان يفرخ فيه الطيور التى لا تفرخ إلا فى الشجر ، كالقمارى والدّبَاس والهَزَار والببغ والبلابل والقَبَج ؛ وكان فيه من الغزلان والنعام والأيّل وحمر الوحش . وبُشر مرة بأن طائراً بحرياً وقع على طائر برى ، فباض وفقس ، فأعطى من بشره بذلك مائة دينار »[٣] .

« والوزير ابن الفرات كان يملك أموالا كثيرة تزيد على عشرة آلاف ألف

---

(١) مروج الذهب : ٣٣٨/٢ وما بعدها .   (٢) المصدر نفسه .

(٣) ابن الجوزى فى المنتظم .

دينار ، وكان يستغل من ضياعه فى كل سنة ألفى ألف دينار وينفقها . وكانت فى داره حجرة شراب يوجه الناس على اختلاف طبقاتهم إليها غلمانهم يأخذون الأشربة والفقّاع والجُلّاب إلى دورهم »[1] ؛ وكان ابن الفرات لا يأكل إلا بملاعق البلور ، وما كان يأكل بالملعقة إلا لقمة واحدة ، فكان يوضع له على المائدة أكثر من ثلاثين ملعقة .

وكان راتب أبى طاهر وزير عز الدولة من الثلج فى كل يوم ألف رطل . وكانت أم المقتدر يشترى لها ثياب ديبقية يسمونها ثياب النعال ، وذلك أنها كانت صفاقا تقطع على مقدار النعال المحذوّة ، وتطلى بالمسك والعنبر المذاب وتجمد ، ويجعل بين كل طبقتين من الثياب من ذلك المطيب ما له قوام . . . وكانت نعال السيدة من هذا المتاع ، لا تلبس النعل إلا عشرة أيام أو حواليها حتى تخلق وتتفتق وترمى ، فتأخذها الخزّان وغيرهم ، فيستخرجون من ذلك العنبر والمسك »[2] .

« وكان الوزير المُهلّبى كثير الشغف بالورد ؛ روى من شاهده قال : « شاهدت أبا محمد المهلبى قد ابتيع له فى ثلاثة أيام وردٌ بألف دينار ، فرش به مجالسه وطرحه فى بركة عظيمة كانت فى داره ، ولها فوارات عجيبة ، يُطرح الورد فى مائها فتنفضه على المجلس فيقع على رءوس الجالسين ؛ وبعد شربه عليه ، وبلوغه ما أراده منه ، أنهبه »[3] .

وانتشرت مجالس الشراب ، ووضعت لها القواعد والقوانين والآداب ، كالذى فعله « كشاجم » فى تأليف كتابه « أدب النديم » ، وتفننوا فيما يكتب من الشعر

---

(١) ابن خلكان : ١/٥٣٠ .   (٢) نشوار المحاضرة .
(٣) ياقوت .

على القنانى والـكاسات[1] . واعتاد الخلفاء والوزراء والأمراء مجالس الشراب وبالغوا فى الإسراف فيها ؛ « يحكى أنه كان للوزير المهلبى ندماء يجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة ، وهم : ابن قريعة ، وابن معروف ، والقاضى التنوخى ، وغيرهم ، وما منهم إلا أبيض اللحية طويلها ؛ وكذلك كان الوزير المهلبى . فإذا تكامل الأنس وطاب المجلس ، ولذ السماع وأخذ الطرب منهم مأخذه ، وهَبُوا ثوب الوقار للعُقار ، وتقلبوا فى أعطاف العيش ، بين الخفة والطيش ، ووضع فى يد كل واحد منهم كأس ذهب من ألف مثقال إلى ما دونها مملوء شراباً قطربليا أو عكبريا ، فيغمس لحيته فيها بل ينقعها حتى تتشرب أكثره ، ويرش بها بعضهم على بعض ، ويرقصون أجمعهم ، . . . فإذا أصبحوا عادوا لعادتهم فى التزمّت والوقار »[2] .

ونذكر هنا ثروة أحد الولاة لدلالتها على مقدار الثروة ونوعها ؛ فقد مات فى سنة ٣٠١ أبو الحسين على بن أحمد الراسبى عن سن كبيرة ، وكان يتقلد جنديسابور والسوس وماذاريا ، ومات أولاده قبله ، وكان له حفدة ، فخلف :

٤٤٥٥٤٧	ديناراً ذهباً عينا .
٣٢٠٢٣٧	درهما عيناً .
٤٣٩٧٠	مثقالا وزن الأوانى الذهبية .
١٩٧٥	رطلا وزن الأوانى الفضية .
٤٤٢٠	مثقالا من العود الْمُطَرَّى .
٥٠٢٠	« من العنبر .
٨٦٠	نافجة من نوافج المسك .

---

(١) كتب طرفا من ذلك الموشى .　　(٢) يتيمة الدهر : ٢/١٠٦ .

١٦٠٠	مثقال من المسك المنثور .
١٣٩٩	مثالا من البرمكية (نوع من الطيب) .
٣٦٦	مثقالا من الغالية (نوع من الطيب) .
٨٨	ثوبا من الثياب المنسوجة من الذهب .
١٣	سرجا .
٢	حجران عظيمان من الياقوت .
٧٠	حبة من اللؤلؤ .
١٣٥	رأساً من الخيل .
١١٤	من خدم السودان .
١٢٨	من الغلمان البيض .
١٩	خادماً من الصقالبة والروم .
٤٠	غلاماً بآلاتهم وسلاحهم ودوابهم .
٢٠٠٠٠	دينار قيمة أصناف من الكسوة .
١٢٨	رأساً من المهارى والبغال .
١٢٥	خيمة من الخيام الكبار .
١٤	هودجا .
١٤	صندوقا من الغضائر الصينى والزجاج المحكم الفاخر .

وخلف عضد الدولة البويهى ٢٫٨٧٥٫٢٨٤ ديناراً ، ومن الورق والنقد والفضة ١٠٠٫٨٦٠٫٧٩٠ درهما ، ومن الجواهر واليواقيت واللؤلؤ والماس والبلور والسلاح والمتاع شيئاً كثيراً[1] .

---

(١) الصابى .

وتفننوا فى الصناعات الجميلة من أنواع الحلى والدقة فى النسج وزركشة الثيـاب وأنواع العطور ، والنقش والتصوير ، وأصناف الأزياء والمأكول والمشروب ، والحدائق والبساتين ، والغناء والموسيقى مما يطول شرحه ، وكلها يستمتع بها طبقة الأشراف والموسرين .

وبلغوا من الأناقة فى المعيشة أن جعلوا للظرف والظرفاء قوانين متعارفة من خرج عليها كان غير ظريف ، وألفوا فى ذلك الكتب كالموشّى للوشاء ، و « حدود الظرف » له أيضاً ؛ و « ما يقدم من الأطعمة وما يؤخر » للرازى ، و « ترتيب أكل الفواكه » له أيضاً ، و «آداب الحمام» له أيضاً ، و «الزينة» لحنين بن إسحاق ، و « الهدايا والسنة فيها » لإبراهيم الحربى ، و « النبيذ وشربه فى الولائم » لقسطا بن لوقا الخ ؛ فقال الموشى : « اعلم أن من كمال أدب الأدباء ، وحسن تظرف الظرفاء ، صبرهم على ما تولدت به المكارم ، واجتنابهم لخسيس المآثم ، فهم لا يداخلون أحداً فى حديثه ، ولا يتطلعون على قارئ فى كتابه ، ولا يقطعون على متكلم كلامه ، ولا يستمعون على مُسِرٍّ سره ، ولا يسألون عما وُرى عنهم علمه ، ولا يتكلمون فيما حجب عنهم فهمه » الخ . ووضعوا قوانين الظرف تفصيلا كما وضعوها إجمالا ، فقوانين الظرف فى الزى ، وفى التعطر ، وفى الشراب ، وما هو ظرف فى الرجال لا فى النساء ، وما هو ظرف فى النساء لا فى الرجال ، وهكذا .

فإذا نحن جاوزنا العراق إلى غيره من الأقطار رأينا فى الشام مثلا آل حمدان ، وعلى رأسهم سيف الدولة مترفين ممعنين فى الترف .

« فيحكى أن سيف الدولة لما ورد إلى بغداد وقت توزون ؛ اجتاز وهو راكب فرسه وبيده رمحه ، وبين يديه عبد له صغير ، وقصد الفرجة وألا يُعرف ؛ فاجتاز

بشارع دار الرقيق على دور بنى خاقان وفيها فتيان ، فدخل وسمع وشرب معهم وهم لا يعرفونه وخدموه ؛ ثم استدعى عند خروجه الدواة فكتب رقعة وتركها فيها ، ثم انصرف ؛ ففتحوا الدواة فإذا فى الرقعة ألف دينار على بعض الصيارف ، فتعجبوا ، وحملوا الرقعة وهم يظنونها ساذجة ، فأعطاهم الصيرفى الدنانير فى الحال والوقت[١] (وهذا هو نظام الحوالات) ؛ فسألوه عن الرجل ، فقال : ذلك سيف الدولة بن حمدان »[٢] .

وضرب للصلات خاصة دنانير فى كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه اسمه وصورته[٣] .

ودخل عليه شاعر وطرح من كمه كيساً فارغا ودرجا فيه شعر استأذنه فى إنشاده فأذن له ، فأنشده قصيدة أولها :

جِبَاؤكَ معتاد وأمرك نافذ   وعبدك محتاج إلى ألف درهم

فلما فرغ من إنشاده ضحك سيف الدولة ضحكا شديداً ، وأمر له بألف دينار ، فجعلت فى الكيس الفارغ الذى كان معه[٤] .

وقصوره كانت ملأى بالجوارى وخاصة من أسرى الروم . « وكانت له جارية من بنات ملوك الروم لا يرى الدنيا إلا بها ، ويشفق من الريح الهابة عليها ، فحسدتها سائر حظاياه على لطف محلها منه » الخ[٥] . وكان يركب فى خمسة آلاف من الجند ، وألفين من غلمانه ليزور قبر والدته[٦] .

---

(١) فى هذا دليل على استعمال الصك أو الشيك فى ذلك الوقت .

(٢) الهمدانى : مخطوط بباريس .
(٣) اليتيمة : ١/٢٨٢ .

(٤) ابن خلكان : ١/٤٦٢ .
(٥) يتيمة : ١/١٩ — ٢١ .

(٦) الواحدى على المتنبى .

وكان الملوك والأمراء فى مصر فى منتهى الترف والنعيم . فنى العهد الطولونى كان الحى الذى فيه الآن جامع ابن طولون وما حوله من القلعة إلى «زين العابدين» يزخر بالمبانى الضخمة ، وفيها هذا المسجد الفخم والمستشفى الكبير ، والقصور الشامخة ، والميادين الفسيحة ، وآيات الفن ؛ فقد كان بجوار جامع ابن طولون ميدان فسيح ، فجعله خمارويه بن أحمد بن طولون كله بستانا بديعاً ، زرع فيه أنواع الرياحين وأصناف الشجر ، وحمل إليه من البلدان المختلفة كل صنف من الشجر المطعم وأنواعِ الورد ؛ وكان من بِدْعه أنه كسا أجسام النخل نحاسا مذهبا ، وجعل بين النحاس والنخل مواسير من الرصاص يجرى فيها الماء فكان الماء يخرج من النحاس اللابس فى النخل فينحدر إلى فساق ، ويفيض الماء من الفساق إلى مجار تسقى سائر البستان ؛ وهندس البستان هندسة بديعة ، فعمل من الرياحين كتابة مكتوبة فى البستان يتعاهدها البستانى بالمقاريض حتى لا تزيد ورقة على ورقة ؛ وعمل فى البستان برجا من خشب الساج منقوشا ومطعما ، وسرّح فيه أصناف الحمام وأصناف الطيور المغردة ، وجعل فى البرج أوكاراً لأفراخها ، وعيدانا مثبتة فى جوانبه لتقف عليها إذا تطايرت ، حتى يجاوب بعضها بعضا بالمناغاة ؛ وسرح فى البستان الطواويس والدجاج الحبشى ونحو ذلك ؛ وعمل فيه مجلسا سماه دار الذهب ، طلى حيطانه كلها بالذهب واللازورد ، وجعل فى حيطانه مقدار قامة و نصف من خشب صورت فيه صورته ، والمغنيات التى تغنيه فى أحسن تصوير وأبهج تزويق ، ولونت أجسامها بألوان تشبه ألوان الثياب من الأصباغ العجيبة . فكان هذا القصر من أعجب ما بنى فى الدنيا .

وعمل فيه فسقية ملئت من الزئبق ، وطُرح عليه فرش ملئ بالهواء وشد بزنانير من حرير فى حلق من الفضة ؛ فينام أحيانا عليه فيرتج ارتجاجا ناعماً ؛

وكان يرى لها فى الليالى المقمرة منظر عجيب إذا ائتلف نور القمر بنور الزئبق .

وجعل فى ناحية من نواحى القصر داراً للسباع ، لكل سبع بيت ، ولكل بيت باب يفتح من أعلاه ، ولكل بيت طاقة صغيرة يدخل منها الرجل الموكل به ؛ وفرش بيوت السباع وما حولها بالرمل يجدد من حين إلى حين .

وأكثر من الخدم ، ودرّب كثيراً منهم على التفنن فى الطهى وتنويعه . واشتهر عبيد مصر إذ ذاك بحسن الطهى كما عودهم خمارويه ؛ فكان الناس يأتون من مختلف الأقطار لشرائهم لحسن سمعتهم فى هذا الباب .

ولعل أكبر ما يوضح هذا الترف والنعيم زواج « قَطْر الندى » بنت خمارويه . وقد خطبها خليفة المسلمين فى بغداد المعتضد بالله العباسى . فتفنن خمارويه وأنفق خزائن الدولة فى جهازها يحمله من مصر إلى بغداد ، حتى تضعضعت حالة مصر المالية بعد ذلك الإسراف .

فكان من بين هذا الجهاز دَكّة تتألف من أربع قطع من الذهب ، عليها قبة من ذهب مشبك ، فى كل عين من التشبيك قرط معلق فيه حبة من جوهر لا يعرف لها قيمة . وكان فى الجهاز مائة هاون من ذهب . وقد عمل حساب نفقات الجهاز ، فكانت دفعة من نفقاته أربعمائة ألف دينار .

وانتقلت العروس من مصر إلى بغداد ، والشقة بينهما بعيدة . فأمر خمارويه فبنى على رأس كل مرحلة من مصر إلى بغداد قصراً تنزل فيه قطر الندى . وكانوا يسيرون بها سير الطفل فى المهد ، فإذا أتمت مرحلة وجدت قصراً قد فرش ، وأعدّ بكل أنواع المعدات ، فكأنها فى هذه الرحلة الطويلة فى قصر أبيها حتى قدمت بغداد فى أول المحرم سنة ٢٨٢[١] .

---

(١) انظر تفصيل ذلك فى خطط المقريزى والنجوم الزاهرة .

وثروة آل الجصاص فى العهد الطولونى كانت تقدر بملايين الدنانير ويحكى أحدهم وهو الحسن بن عبد الله الجَصّاص — وكان من أعيان التجار فى الجواهر — سبب ثروته فيقول : « كان بدء يسارى أنى كنت فى دهليز أبى الجيش خمارويه بن أحمد بن طولون ، وكنت وكيله فى ابتياع الجوهر وغيره مما يحتاجون إليه ، وما كنت أفارق الدهليز لاختصاصى به ، فخرجت إلىّ قهرمانة لهم فى بعض الأيام ومعها عقد جوهر فيه مائة حبة لم أر قبله ولا بعده أفخر ولا أحسن منه ، كل حبة تساوى مائة ألف دينار عندى ؛ قالت نحتاج أن تخرط هذه حتى تصغر فنجعلها فى آذان اللعب وفى قلائدها . فكدت أطير ، وأخذتها وقد قلت السمع والطاعة ؛ وخرجت فى الحال وجمعت التجار ، واشتريت مائة حبة من النوع الذى طلبَتْه . . وقامت علىّ المائة حبة بدون المائة ألف درهم ، وأخذت منهم جوهراً بمائتى ألف دينار[1] .

وفى العهد الفاطمى كان الترف أنعم وأضخم وأفخم . تقرأ فى خطط المقريزى وصف خزائن الفاطميين وحياتهم فى القصور ، وتفننهم فى أدوات الترف والنعيم فيأخذك العجب العاجب ، فيقول : « إنه كان للخليفة خزانتان : ظاهرة وفيها الملابس التى ينعم بها على الناس ؛ وباطنة وهى الخاصة بلباس الخليفة ، ويتولاها امرأة تنعت بزين الخُزّان وبين يديها ثلاثون جارية ، فلا يغير الخليفة أبداً ثيابه إلا عندها ... وكان برسم هذه الخزانة بستان من أملاك الخليفة على شاطئ الخليج يعنى أبداً فيه بالنسرين والياسمين ، فيحمل فى كل يوم منه شىء فى الصيف والشتاء لا ينقطع أبداً برسم الثياب والصناديق .

---

(١) فوات الوفيات : ١٣٨/١ .

ولما كشف حاصل الخزائن الخاصة للعاضد بالقصر كان الموجود فيها مائة صندوق كسوة فاخرة من موشى ومرصع ، وعقود ثمينة وجواهر نفيسة وغير ذلك من ذخائر عظيمة الخطر [١] .

وفى أيام شدة المستنصر أخرج من بعض خزائن القصر صندوق كيل منه سبعة أمداد زمرد ؛ فسأل بعض من حضر من الوزراء الجوهريين كم قيمة هذا الزمرد ، فقالوا إنما نعرف قيمة الشيء إذا كان مثله موجوداً ، ومثل هذا لا قيمة له ! ... وأخرج عقد جوهر قيمته على الأقل من ثمانية ألف دينار فصاعداً ؛ وأخرج ألف ومائتا خاتم ذهبا وفضة من سائر أنواع الجواهر المختلف الألوان والقيم والأثمان ... وأحضرت خريطة فيها نحو ويبة جواهر ، وأحضر الخبراء من الجوهريين فذكروا أن لا قيمة لها ولا يشترى مثلها إلا الملوك ، فقومت بعشرين ألف دينار . وأخرج طاووس ذهب مرصع بنفس الجواهر ، عيناه من ياقوت أحمر ، وريشه من الزجاج المينا المجرى بالذهب ، على ألوان ريش الطاووس ؛ وديك من الذهب له عرف مفروق كأكبر ما يكون من أعراف الديوك من الياقوت الأحمر ، مرصع بسائر الدرر والجوهر ، وعيناه ياقوت ؛ وغزال مرصع بنفيس الدر والجوهر ، وبطنه أبيض قد نظم من در رائع الخ الخ [٢] . ونحو هذا ذكر المقريزى فى خزائن الفرش والأمتعة ، وخزائن السلاح والسروج والخيم والشراب والتوابل والبنود .

ورووا أن المعز لدين الله فاتح مصر لما خرج من بلاد المغرب أخرج معه أموالا كانت له بها ، وأمر بسبكها أرحية كأرحية الطواحين . وكان معه مائة جمل عليها هذه الطواحين من الذهب . وأمر المعز بها حين دخل إلى مصر فألقيت

---

(١) المقريزى : ٤١٣/١ .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى المقريزى : ٤١٤/١ وما بعدها .

على باب قصره ، ولم تزل على باب القصر إلى أن كان زمن الغلاء فى أيام المستنصر فلما ضاق الناس بالأمر أذن لهم أن يبردوا منها بمبارد ، وغرهم الطمع حتى ذهبوا بأكثرها ، فأمر بحمل الباقى إلى القصر ، فلم تُر بعد ذلك .

وقد عمل المعز عضادتى باب من أبواب قصره من تلك الأرحية ، واحدة فوق أخرى فسمى باب الذهب ، وسميت القاعة التى يدخل إليها من هذا الباب قاعة الذهب(١) .

ولما دخل صلاح الدين القصر الكبير للخلفاء الفاطميين ، وجد فيه اثنى عشر ألف نسمة ليس فيهم فحل إلا الخليفة وأهله وولده(٢) .

ومهما بالغ المقريزى ومن نقل عنهم فى وصف غناهم فإن الأساس صحيح وهو غنى القوم ، وإمعانهم فى الترف إمعانا يزيد عما وصل إليه العباسيون أيام الرشيد .

« وكان إقطاع الوزير ابن كلّس (وزير العزيز بالله) مائة ألف دينار فى السنة ، ووجد للوزير المذكور من العبيد والمماليك أربعة آلاف غلام ، ووجد له جوهر بأر بعمائة ألف دينار ، وبزّ من كل صنف بخمسمائة دينار »(٣) .

ويصف لنا عمارة اليمنى داراً بناها ابن رُزِّيك الوزير الفاطمى فيقول :

فتَمَلَّ داراً شيَّدتها همة يغدو العسير ببابها متيسِّرا
جَمَّلتها وتجملت مصرٌ بها لما علت بك عزة وتكبُّرا
وسقيتَ من ذَوْب النُّضار سقوفها حتى لكاد نضارها أن يقطرا
لم يبد فيها الروض إلا مزهرا والنخل والرمان إلا مثمرا

(١) المقريزى : ١/٤٣٢ ، ٣٨٥ . (٢) ١/٣٨٤ .
(٣) ابن خلكان : ٢/٤٩٩ .

وبها من الحيوان كل مشهّر لبس الوشيج العبقرى مشهّرا
وكأن صولتك المخوفة أمّنت أسرابها ألاّ تراع وتذعرا
أنشأت فيها للعيون بدائعا زفّت فأذهل حسنها من أبصرا
فمن الرخام مسيّرا ومسهّما ومنمنما ومدرها ومدنّرا
والعاج بين الآبنوس كأنه أرض من الكافور تنبت عنبرا

قد كان منظرها بهيًّا رائقا فجعلتها بالوشى أبهى منظرا
ألبستها بيض الستور وحمرها فأتت كزهر الورد أبيض أحمرا
فمجالس كسيت رقيما أبيضا ومجالس كسيت طميا أصفرا
لم يبق نوع صامتٌ أو ناطق إلا غدا فيها الجميع مصوّرا الخ

* * *

وبعد؛ فقد كان المال وفيراً كثيراً ، والترف والنعيم بالغاً أقصاه فى بلاط الخلفاء وقصور الأمراء والخاصة ؛ أما الشعب فأكثره بائس فقير .

قد كان هناك طبقتان متميزتان كل التميز ، فالخليفة ورجال دولته وأهلوهم وأتباعهم طبقة الخاصة ، وهم عدد قليل بالنسبة لمجموع الأمة ، وبقية الناس — وهم الأكثر — طبقة العامة من علماء وتجار وصناع ومزارعين ورعاع ، وأغلب هؤلاء فقراء إلا من اتصل منهم بالخلفاء والأمراء .

ذلك أن أكبر مصدر للمال هو الجزية والخراج ، وهذه تدخل فى بيت المال تحت سلطة الخلفاء ومن إليهم ، وينفق منها على مصالح الدولة ؛ وما بقى — وهو كبير — يصرف فى رغبات الخلفاء والأمراء : من هبات للشعراء والمدّاح ، وشراء ما يعرضه تجار الجواهر ، وتجار الجوارى والتحف ، وجوائز للمضحكين . والكريم

منهم يمد الموائد لفقراء الشعب ويطعمهم ويكسوهم ، فألوف الناس تأكل على الموائد وتنال صدقاتهم ؛ فلؤلؤ الحاجب فى أيام الفاطميين يفرق فى اليوم اثنى عشر ألف رغيف مع قِدَر الطعام ، فإذا دخل رمضان أضعف ذلك ، ووقف هو بنفسه ليفرقه[١] ؛ وكان على بن عيسى وزير المقتدر يعطى الطالبيين والعباسيين وأبناء الأنصار[٢] ؛ وكان ابن الفرات يعطى الفقهاء والعلماء والفقراء وأهل البيوتات أكثرهم مائة دينار فى الشهر ، وأقلهم خمسة دراهم وما بين ذلك[٣] .

لهذا كله كانت كل أنظار الناس موجهة إلى الخلفاء والأمراء ؛ فالعلماء إن أرادوا الغنى لم يجدوه إلا فى خدمتهم ؛ والشعراء إن أرادوا العيش لم يجدوه إلا فى مديحهم ؛ والتجار إن وقع شىء ثمين فى يدهم من جوهر أو جوار لا يجدون نفاقا لها إلا فى قصورهم ؛ والصناع إذا أحسنوا صناعة شىء فهم مقصدهم — أما سائر الشعب ففقير بائس قلّ أن يجد الكفاف ! فالعلماء إذا بعدوا عن القصور عزّ قوتهم ، والشعراء لا يشعرون لأنفسهم ولا لعواطفهم وإنما يشعرون للمال يَنْشدونه من يد الخلفاء والأمراء ؛ ولهذا كان أكثر شعرهم مديحاً ، والفنانون والتجار كذلك . وكان أكثر مديح الخلفاء والأمراء بالكرم والسخاء لا بالعدل والحزم وضبط الأمور .

فإذا نفد مال الخلفاء والأمراء صادروا الأغنياء ليسلبوهم مالهم ، ثم يوزعونه على شهواتهم وأتباعهم . فنشأ عن هذا إخفاء الأموال والتظاهر بالفقر ، وهربُ بعيدى النظر من التقرب من الخلفاء وذويهم ، ونشأ فى الأدب العربى كثير من الشعر والنثر يحمد الفقر والبعد عن البلاط[٤] كما نشأ شيوع التصوف والميل إليه .

* * *

(١) المقريزى : ١/٨٥ . (٢) تاريخ الوزراء : ٣٢٣ .

(٣) ابن خلكان : ١/٣٧٢ .

(٤) انظر العقد الفريد الجزء الأول فى باب السلطان .

كان بجانب هذا الغنى المفرط ، والإمعان فى اللذائذ ، فقر مدقع يقع فيه العلماء وعامة الشعب ممن لم يتصلوا بالخلفاء والأمراء ومن إليهم .

هذا « عبد الوهاب البغدادى المالكى » فقيه أديب شاعر له المصنفات الرائعة فى الفقه ، لم يكن فى المالكيين أفقه منه فى زمنه ؛ ولما نزل معرة النعمان فى رحلته أضافه أبو العلاء وقال فيه :

والمالكىّ ابن نصرٍ زارَ فى سفر بلادنا فَحمِدْنا النَّأْى والسفرا
إذا تفقّه أحيا مالكاً جَدَلا وينشُرُ المَلِكَ الضِّلّيلَ إنْ شعرا

هذا كله تضيق به المعيشة فى بغداد حتى لا يجد قوت يومه ، ويخرج عنها طالباً للرزق ؛ ولما شيّعه أكابرها قال لهم : « لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة ما عدلت عن بلدكم » ؛ ثم أنشأ يقول :

سلامٌ على بغداد فى كل موطنٍ وحق لها منى سلامٌ مضاعَفُ
فوالله ما فارقتُها عن قِلًى لها وإنى بشطَّىْ جانبيها لعارف
ولكنها ضاقت علىّ بأسْرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف
وكانت كخِلٍ كنت أهوى دُنُوَّه وأخلاقُه تنأى به وتخالف

فلما وصل إلى مصر ، مات لأول ما وصلها من أكلة اشتهاها فأكلها ، فزعموا أنه قال وهو يتقلب : « لا إله إلا الله ، إذا عشنا متنا »[1] .

وهذا أبو حيان التوحيدى البغدادى ، وهو ما هو فى علمه الواسع وأدبه الفياض ، وفلسفته ، وبلاغته ، وتصوفه ، واتصاله بالوزراء والعلماء ، وكده فى الحياة بالوراقة ونسخ الكتاب ، وتآليفه الكثيرة ؛ كل هذا ويقول محدثاً عن نفسه : « ولقد اضطررت بينهم بعد العشرة والمعرفة فى أوقات كثيرة إلى

(١) ابن خلكان : ١/٤٣١ .

أ كل الخضر فى الصحراء ، و إلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، و إلى بيع الدِّين والمروءة ، و إلى تعاطى الرياء بالسمعة والنفاق ، و إلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، و يطرح فى قلب صاحبه الألم »[1] .

ولما أعيته الحيل تحوّل طلبه وملقه ورياؤه ونفاقه إلى غيظ من الناس وحقد عليهم ، فأحرق فى آخر أيامه كتبه ، وقال : « إنى جمعت أكثرها للناس ولطلب المثالة منهم ، ولعقد الرياسة عندهم ، ولمد الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله » .

وقد ملأ كتابه الإمتاع والمؤانسة شكوى من الفقر ومن سوء الحال ، ورفع صوته إلى الوزراء والأغنياء ، فعاد من ذلك كله صفر اليدين .

وهذا أبو سليمان المنطقى ، أعقل عقلاء بغداد وأوسعهم نظراً ، وأعمقهم فكراً ، ومن اطلع على الفلسفة اليونانية ، فأدرك أسرارها ، وعرف مراميها وأغراضها ، مع استقلال فى الفكر ، وشخصية ممتازة فى الحكم ، وكان أعور ، وكان به برص منعه من الاتصال بالناس ، وحمله على لزومه منزله ، فلم يتصل به إلا تلاميذه الذين عرفوا قدره ، ولم يجدوا بغيتهم عند غيره — كان فقيراً ، وقال فيه أبو حيان ، وهو من تلاميذه : « إن حاجته ماسة إلى رغيف ، وحوله وقوّته قد عجزا عن أجرة مسكن ، وعن وجبة غدائه وعشائه » ، فلما منّ عليه الوزير ابن سعدان بمائة دينار ، سره ذلك غاية السرور ، وترفّل وتحنك .

وهذا أبو على القالى البغدادى ، ضاقت به الحال قبل أن يرحل إلى الأندلس ، حتى اضطر أن يبيع بعض كتبه ، وهى أعز شىء عنده ، فباع نسخته

---

(١) الإمتاع والمؤانسة : ١/٣١ .

من كتاب الجمهرة ، وكان كلفاً بها ، فاشتراها الشريف المرتضى ، فوجد عليها بخط أبى على :

أَنِست بها عشرين حَوْلا و بعتها ... فقد طال وَجدى بعدها وحنينى
وما كان ظنّى أننى سأبيعها ... ولو خلّدتنى فى السجون ديونى
ولكنْ لضعف وافتقار وصبية ... صغار عليهم تستهلُّ جفونى
فقلت ولم أملك سوابق عَبْرَةٍ ... مقالة مكوىّ الفؤاد حزين
(وقد تُخرج الحاجات يا أم مالك ... ودائعَ من ربٍّ بهن ضنين)

وهذا أبو العباس المعروف بابن الخباز الموصلى ، كان من كبار النحويين والأدباء ، قال فى خطبة كتابه المسمى « بالفريدة فى شرح القصيدة » : « ومن علم حقيقة حالى عذرنى إذا قصّرت ، فإن عندى من الهموم ما يزع الجنان عن حفظه ، ويكف اللسان عن لفظه :

ولو أن ما بى بالجبال لهدّها ... وبالنار أطفاها وبالماء لم يَجْرِ
وبالناس لم يحيوا وبالدهر لم يكن ... وبالشمس لم تطلع وبالنجم لم يَسْرِ

وأنا أسأل الله العظيم أن يكفينى شر شكواى ، وألا يزيدنى على بلواى ، فإنى كلما أردت خفض العيش صار مرفوعا ، وعاد بالحزن سبب المسرة مقطوعا ، والله المستعان فى كل حال ، ومنه المبدأ وإليه المآل » .

وهذا الزمخشرى يقول :

ومما شجانى أنَّ غُرّ مناقبى ... يغنّى بها الركبان بين القوافل
وطارت إلى أقصى البلاد قصائدى ... وسارت مسير النيِّرات رسائلى
وكم من أمالٍ لى وكم من مصنَّف ... أصاب بها ذهنى مَحزّ المفاصل
غنىٌّ من الآداب لكننى إذا ... نظرتُ فما فى الكف غير الأنامل

فيا ليتنى أصبحت مستغنياً ولم أكن فى خوارزمٍ رئيس الأفاضل
ويا ليتنى مُرْضٍ صديقى ومُسْخِطٌ عدوى وأنى فى فهاهة باقل
وما حق مثلى أن يكون مضيَّقا وقد عظمت عند الوزير وسائلى
فلا تجعلونى مثل همزة واصل فيسقطنى حذف ولا راء واصل
فكل امرئ أمثاله عدد الحصا وهاتِ نظيرى فى جميع المحافل

وهذا الأبيوردى الشاعر الفقيه ، حكى الخطيب البغدادى عنه ، أنه مكث سنتين لا يقدر على جبة يلبسها فى الشتاء ، ويقول لأصحابه : « بى علة تمنعنى لبس المحشو » ؛ يريد بالعلة علة الفقر .

وهذا الخطيب التبريزى كان له نسخة من كتاب التهذيب فى اللغة للأزهرى فى عدة مجلدات أراد تحقيق ما فيها وسماعها على عالم باللغة ، فدُل على أبى العلاء المعرى ، فجعل الكتاب فى مخلاة وحملها على كتفه من تبريز إلى معرة النعمان ، ولم يكن له من المال ما يستأجر به ما يركبه ، فنفذ العرق من ظهره إليها فأثر فيها البلل ، ومن شعره :

فمن يسأمْ من الأسفار يوما فإنى قد سئمت من المُقَام
أقمنا بالعراق على رجالٍ لئام ينتمون إلى لئام

وحكى لنا أبو حيان التوحيدى حادثة انتحار فظيعة فقال : « شاهدنا فى هذه الأيام شيخا من أهل العلم ساءت حاله ، وضاق رزقه ، واشتد نفور الناس عنه ، ومقت معارفه له ، فلما توالى عليه هذا دخل يوما منزله ، ومد حبلا إلى سقف البيت واختنق به ؛ فلما عرفنا حاله جزعنا وتوجعنا وتناقلنا حديثه وتصرفنا فيه كل متصرف » .

وأخذ أبو حيان وأصحابه يتجادلون فى أن له الحق فى الانتحار أو لا[1] .
هذا شأن العلماء ؛ وعامة الشعب كانوا أسوأ حالا .

ذلك لأن النظام المالى للدولة كان نظاما سيئاً : فنفقات البلاط قد بلغت حداً لا يطاق من الإسراف والبذخ وصنوف الترف ؛ وجباية الخراج وسائر الضرائب تباع لأشخاص على سبيل الالتزام ، فيعسفون بالناس حتى يبتزوا منهم أضعاف ما دفعوا ؛ والقضاء قد اختل بتدخل الحكام وانتشار الرشوة ؛ والجيش قد انقسم إلى شعَب مختلفة من ترك وديلم ومغاربة وغيرهم ، وكل فرقة تتعصب لجنسها ، وتضمر العداء لغيرها ، والسلطة مضطرة لإنفاق المال الكثير لاسترضاء هؤلاء وهؤلاء ؛ والمناصب الحكومية ليست فى استقرار ، فاليوم يولى وزير ، وغداً يُصادَر ، ولكل وزير أعوانه يحظون بتوليته ويُعْسَف بهم بعزله ؛ وغير الوزراء شأنهم أهون .

كل هذا سبَّب فساد النظام المالى ، واستتبع فقر الشعب واضطرابه وكثرة ثوراته .

وظاهرة أخرى نراها فى الفنون ، وهى أنها كانت لا تنمو إلا فى بلاط الخلفاء والأمراء ، فلم يكن الشاعر يشعر لنفسه إلا قليلا ، ولا الفنان يتفنن لنفسه إلا نادراً ، فكلهم يقصد خليفة أو أميراً يعرض عليه سلعته من شعر أو فن ؛ ولذلك تلوّن الشعر والنثر والفن بلون الاستجداء كثيراً ، لأن العصر لم يكن عصراً ديمقراطياً يستطيع فيه أن يعيش الفنان لنفسه أو للشعب ، كما هو الشأن فى العصور الحديثة ، بل كان عصراً أرستقراطياً لا ينعم فيه إلا الأرستقراطيون ومن شاء أن يعيش على موائدهم ، بل من شاءوا هم أن يؤكلوه من موائدهم ؛ ولذلك إذا أحصيت الأدب

---

(١) المقابسات ص ٢١٩ .

الذى قيل فى المديح ، رجحت كفته جداً على الأدب الذى قيل لباعث نفسانى .

وكذلك العلماء كانوا قسمين : قسما يتصل بالخلفاء والأمراء أو يشتغلون فى مناصب الدولة كالخطابة والقضاء ، وهؤلاء ميسورون نسبياً ؛ ولذلك نرى كثيراً من تآليف العلماء فى هذا العصر إنما ألفت بأمر وزير أو أمير أو نحوه ، وصدّره باسمه ، ونوّه فيه بذكره ؛ وأما من بعدوا عن القصور فكانوا فقراء غالباً لا يكادون يجدون ما يسد رمقهم كما رأينا .

نشأ عن هذه الحالة الاجتماعية مظاهر متعددة — ترف لا حد له فى بيوت الخلفاء والأمراء وذوى المناصب ، وفقر لا حد له فى عامة الشعب والعلماء والأدباء الذين لم يتصلوا بالأغنياء ؛ ثم المظاهر التى تنتج عادة من الإفراط فى الترف كالتفنن فى اللذائذ والاستهتار والنعومة وفساد النفس ، وكل المظاهر التى تنشأ عن الفقر كالحقد والحسد والكذب والخبث والخديعة . وكان من أثر هذا الفقر أيضاً انتشار نزعة التصوف ، فالفشل فى الحياة قد يسلم صاحبه إلى الزهد ، وإقناع النفس بأن نعيم الدنيا زائل ، وإذا حرم الدنيا فليطلب الآخرة . كما كان من آثاره انتشار الدجل والتخريف وتعلق الناس بالأسباب الموهومة فى الحصول على الغنى لعجزهم عن تحصيله بالوسائل المعقولة ؛ فتنجيم واعتقاد فى الطوالع التى تسعد وتشقى ، وانصراف إلى الكيميا التى تقلب النحاس والقصدير ذهباً ، والالتجاء إلى دعوات الأوليا لعل دعوتهم تتحقق فينقلب فقرهم غنى ، وهذا إلى الاعتقاد فى السحر والطِّلسمات والبحث عن الكنوز المخبوءة ؛ ونحو ذلك .

وعلى الجملة فالحياة المالية مضطربة أشد الاضطراب ، فمع سوء التوزيع والاختلاف الشديد بين درجة الغنى والفقر ، والبذخ وشدة الحاجة ، نرى عدم الطمأنينة على المال من عدم احترام المِلْكية ، وذلك بسبب شهوات الحكام

وطمعهم فيما فى أيدى الناس ؛ فالوزير إذا عزل صادر أمواله من يخلفه ، والتاجر الكبير الثّرى عرضة لمصادرة الوالى له طمعاً فى ماله ، والغنى إذا مات كانت أمواله عرضة للسلب والنهب ، إما بادعاء أن ليس له ورثة معروفون ووضع العقبات فى سبيل إثبات الوراثة ، أو المجابهة بالمصادرة من غير ذكر أسباب . فالإخشيد فى مصر كان إذا توفى قائد من قواده أو كاتب من كتابه تعرض لورثته ، وأخذ منهم وصادرهم ؛ وكذلك كان يفعل مع التجار المياسير .

والوزير المهلبى لما مات قبض معز الدولة تركته وصادر عياله ، وكذلك فُعل بابن العميد ؛ وهكذا . ثم إن اضطراب الحالة المالية وعدم أمن الناس على أموالهم يُنتج حتما عدم انتظام الدخل والخرج فتسوء حالة الدولة ، فيعالجونها بفرض الضرائب القاسية ، والإمعان فى المصادرات والنهب لكثرة ما يُطالب من نفقات الجيوش وأمثالها ، فيكون ذلك علاجاً يضاعف المرض . وهو ما حدث فعلا ، وكلما ساءت الحال كثر العزل والتولية ، وقُرّب إلى الخلفاء والسلاطين مَن ضَمن تعادل الميزانية ، و إنما يضمن ذلك بالعسف الذى يؤول إلى الخراب .

كان الناس طبقات مختلفة ، طبقة تعتز بشرفها ونسبها ودمها ، من ذلك العلويون والعباسيون ، وكلاهما معتز بالقرابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فالأولون يعتزون بالنسبة لأولاد على من فاطمة ؛ والآخرون للعباس ، و بينهما حزازات غالباً . و يفخر الأولون بأنهم أقرب نسباً ، و يعتز الآخرون بالخلافة فى أيديهم ؛ وكان ذلك كله — على كل حال — مصدراً للاعتزاز ومبعثاً لتقدير الناس ، وكانت تُجَرى عليهم أرزاق خاصة ، وتسند إليهم بعض المناصب الرفيعة كنقابة الأشراف .

ومن المعتزين بالنسب من كان يعتز بأصله من أنه من البيوتات القديمة ، كأولاد المهلب بن أبى صفرة الأمير الأموى الكبير ، وكانت لهم فى هذا العصر

العباسى دُور بالبصرة ؛ وتولى الوزارة منهم لعضد الدولة البويهى الوزير المهلبى ، وسيأتى ذكره ؛ وكأولاد البَنَويّين وهم أبناء الخراسانيين الذين حاربوا لإسناد الدولة إلى بنى العباس — ومنهم من كان يعتز بنسبه الفارسى إلى بيت من بيوت الملك أو البيوتات العظيمة فى الفرس كآل بويه ؛ وقد يكون من هذه الطبقة الأغنياء ؛ وقد يكون منهم من أخنى عليه الدهر بعد العز ، فكان فقيراً يكتفى بالاعتزاز بالنسب .

وهناك طبقة تعتز بمناصب الدولة كالوزراء ورؤساء الدواوين ونحو ذلك . ويعتز بذلك أسرهم وأقاربهم ؛ وهؤلاء فى هذا العهد كان اعتزازهم وقتياً ، فيكونون فى القمة حيناً ، ثم لا يلبثون أن يكونوا فى الحضيض حيناً آخر لكثرة ما يعرض لهم من عزل ومصادرة أموال وقتل وتشريد ؛ ثم طبقة الأغنياء من الإرث والتجارة والأعمال ، وقد كانوا نسبياً عدداً محدوداً .

وهؤلاء المعتزون بالمنصب يعيشون فى ترف مفرط ، وهم الذين نعثر فى كتب الأدب والتاريخ على وصف بذخهم وترفهم وإسرافهم ، ولكنهم لا يمثلون الشعب ، ويتبعهم الأوساط يقلدونهم على قدر استطاعتهم ، ويطمحون إلى أن يحذوا حذوهم ما أمكنهم دخلهم .

وبجانب ذلك اعتزاز بالعلم أو الدين ، ولكنه اعتزاز فى أوساط خاصة ؛ فالعلماء يعتز بهم أمثالهم وتلاميذهم ووسطهم المحدود ، وهم يتعزون عن فقرهم بهذا الاعتزاز الأدبى ؛ ورجال الدين من الصوفية والوعاظ والفقهاء كذلك يعتزون فى أوساطهم الخاصة ، وعند العامة الذين يلتمسون منهم البركة . ثم سائر الشعب بعد ذلك فقير لا يعتز بمال ولا نسب ولا جاه ، ويصفهم ابن الفقيه بأنهم «زَبَد جُفاء ، وسيل غثاء ، لُكَع ولُكَاع ، ورَبيطة اتضاع ، همّ أحدهم طعامه ونومه» .

وليسوا كما قال ؛ بل هم عماد الأمة وسوادها الأعظم ، ومقياس الرقى الحقيقى لها ، وما ذنبهم أن همهم طعامهم ونومهم وهم يجدّون ثم لا يَجِدون ! لقد كان التوازن الاجتماعى فى هذا العصر مختلا فى الناحية المالية ، فلا تقارب ، وما نجده من وصف الإمعان فى الحضارة والإسراف فى الترف والتفنن فى النعيم ، إنما هو وصف فئة قليلة العدد وهى قد أسرفت فى الترف على حساب إمعان السواد الأعظم فى البؤس . وفى الناحية الخلقية انحلال بين الأغنياء ، وتكبر وتجبر من الساسة وأولى الأمر ، وذلة وضعة فى الفقراء البائسين ؛ وما يروى لنا من عزة وإباء ، وتمسك بالحق وبالفضيلة ، فصفات الأقلين النادرين .

الرقيق :

كثر الرقيق فى هذا العصر كثرة بالغة ، وامتلأت القصور به ، وكان له أثر كبير فى الحياة الاجتماعية ، فكثر نسل الجوارى واختلطت الدماء حتى الخلفاء أنفسهم كانوا فى هذا العصر من نسل السرارى ؛ قال ابن حزم فى نقط العروس : « لم يل الخلافة فى الصدر الأول مَن أمه أَمَة حاشا يزيد وإبراهيم ابنى الوليد ، ولا وليها من بنى العباس من أمه حرة حاشا السفاح والمهدى والأمين — ولم يلها من بنى أمية بالأندلس من أمه حرة أصلا » .

وكثر تعليم الجوارى الغناء ، واتخذ أصحابهن لهن بيوتا معدة للسماع فى الأحياء المختلفة ، وكثرت هذه البيوت فى بغداد فى هذا العصر ، حتى قال أبو حيان التوحيدى : «وقد أحصينا — ونحن جماعة فى الكرخ — أربعمائة وستين جارية فى الجانبين (جانبى بغداد) ، ومائة وعشرين حرة ، وخمسة وتسعين من الصبيان البدور ، يجمعون بين الحذق والحسن والظرف والعشرة — هذا سوى

من كنا لا نظفر به ولا نصل إليه لعزته وحرسه ورقبائه ، وسوى ما كنا نسمعه ممن لا يتظاهر بالغناء و بالضرب إلا إذا نشط فى وقت ، أو ثمل فى حال ، أو خلع العذار فى هوى قد حالفه وأضناه »[١] .

وهذه المحال العامة للمغنيات كان يتردد عليها الناس للسماع ، ولم يتحرج منها حتى العلماء والأدباء والقضاة والأعيان والصوفية ؛ فابن فهم الصوفى يسمع مغنية اسمها « نهاية » جارية ابن المغنى ، وابن غيلان التاجر يسمع غناء « بلور » جارية ابن اليزيدى ، وأبو الحسن الجراحى القاضى يسمع غناء « شعلة » ، وأبو سليمان المنطقى الفيلسوف الكبير وشيخ أبى حيان يسمع غناء صبى موصلى فتن الناس فى عصره ؛ وهكذا .

والظاهر من قولهم أن محال الغناء كان منها المتهتك الذى يناسب المعربدين ، ومنها المتحفظة بعض الشىء الذى يناسب المتحفظين .

وما روى لنا يدل على أن الغناء فى هذا العصر كان بالشعر العربى السهل القريب المعنى السائغ اللفظ والوزن ؛ فقد روى أن قِنْوَة البصرية كانت تغنى مثلا :

يا ليتنى أحيا بقُرْبهمو فإذا فقدتهم انقضى عمرى

و « سندس » تغنّى :

مجلس صَبَّيْن عَمِيدَين ليسا من الحب بخِلْوَين
قد صيَّرا روحيهما واحداً واقتسماه بين جسمين
تنازعا كأساً على لذة قد مزجاها بين دمعين
الكأس لا تحسن إلا إذا أدَرْتَها بين محبَّيْن

(١) الإمتاع والمؤانسة ١٨٣/٢ .

و « درة » تغنّى :

لست أنسى تلك الزيادة لمّا طرقَتْنا وأقبلت تتثنّى

طرقت « ظَبيةُ » الرصافة ليلا فهي أحلى مَنْ جَسّ عوداً وغنّى

كم ليال بتنا نلذ ونلهو ونُسَقّى شرابنا ونُغَنَّى

هجرتنا فما إليها سبيل غير أنا نقول : كانت وكنّا

وإذا بلغت « كانت وكنا » زلزلت الأرض «فرأيت الجيب مشقوقا والدمع منهملا ، ومكتوم السر بادياً » .

و « عَلْوة » تغنى فى « درب السِّلْق » ببغداد :

بالورد فى وجنتيك ! مَنْ لطمك ومن سقاك المدام ، لِمْ ظلمك

خَلّاكَ لا تستفيق مِن سُكُر توسع شتما وجفوةً خَدَمك

معقربَ الصدغ ! قد ثَمِلْتَ فما يمنع من لثم عاشقيك فمَك

أظلُّ من حَيْرة ومن دهش أقول لما رأيت مبتَسمك

بالله يا أقحوان مضحكه على قضيب العقيق مَنْ نظمك ؟

و « روعة » جارية ابن الرضى تغنى فى الرصافة :

وحقٍّ محل ذكرِك من لسانى وقلبى حين أخلو بالأمانى

لقد أصبحت أغبط كل عين تعانيها فتسعد بالعِيان

وهكذا شعر سهل ومعان قريبة كلها تدور حول العشق والغرام والهجر والوصال .

وكانوا فى هذه المجالس يطربون طربا صاخباً ، فمنهم من يشق إزاره ، ومن يضرب بنفسه الأرض ، ومن يحملق عينيه ، ومن يستغيث ، ومن يحوقل[1] الخ ،

---

(١) انظر المصدر نفسه .

وكانت هذه البيوت تسمى « بيوت القيان » ؛ والقينة فى اللغة الأمة مغنية كانت أو غير مغنية ، ولكنها فى العرف لا تطلق إلا على الأمة المغنية .

ومن هؤلاء القيان من كن يتاجرن بالعشق والغناء ، فيوقعن فى أحبالهن الشبان الموسرين حتى يستنزفن مالهم ثم يلفظنهم . وقد وصف واصف هذه الحالة أدق وصف فقال : « إن القينة منهن إذا رأت فى مجلسٍ فتى له غنى وكثرة مال ويسار وحسن حال مالت إليه لتخدعه . . . ومنحته نظرها وأشارت إليه بكفها ، وغمزته بطرفها ، وغنّت على كاساته ، ومالت إلى مرضاته ، حتى توقع المسكين فى حبالها ، وتحويه بلطف تملقها ، وتستعين بالمكر والخداع ، ثم ترسل إليه من يخبره عن سهرها وقلقها ، وتبعث إليه بخاتمها ، وخصلة من شعرها ، وكتاب قد نمقته بظرفها ، ونقطت عليه قطرات من دمعها ، وختمته بالغالية والعنبر . . . حتى إذا حوت عقله ، وسلبت قلبه : أخذت فى طلب الهدايا من ثياب وحلى ، وشكت من غير ألم ، لتتوالى عليها هداياه ؛ حتى إذا نفد اليسار ، وتلف المال ، وأحست بالإفلاس أظهرت الملل ، وأعلنت البدل ، وتبرمت بكلامه ، وضجرت بسلامه ، وأخذت فى الجفاء والعتاب ، وصرفت عنها هواه ، ومالت إلى سواه » .

وقد قال أحد الشعراء فى مثل هذا الوصف :

صحوت فأبصرت الغواية من رُشدى ... وأيقنت أنى كنت جُرت عن القصد
فلا يعشقنْ من كان يعشق قينة ... فما هو منها فى سعيد ولا سعد
تودُّك ما دامت هداياك جمة ... وترفدْك عشقاً ما بقيت أخا رفد
إذا ما رأت فى مجلس من تخاله ... غنياً حبته بالتحية والود
فذا دأبها حتى يعود من الهوى ... سقيم فؤاد ما يُعيد ولا يبدى
فتَفْصد لا من حاجة لفِصادِها ... ولكن لتكليف الهدية فى الفصْد

فمن بين خلخال يُصاغ وخاتم ومن دملج يُهدَى على أثر العقد
فذا فعلها حتى إذا عاد مفلساً تجنّت وأبدت جانب الهجر والصد
فقولا لمن يهوى القيان تفهَّموا مقالى فإنى قد نصحت لكم جهدى[1]

ونشأ عن هذا جدل فى أيهما خير : عشق القيان أو عشق الحرائر ؟ فيقول بعض الظرفاء :

ليس عشق الإماء من شكل مِثْلى إنما يعشق الإماءَ العبيدُ
صِلْ إذا ما وصلت حرة قوم قد حماها آباؤها والجدودُ

ويقول غيره : « عليك بالقيان فإن لهن فطناً وعقولا ليست لكثير من النساء » .

وقد كان من أثر الطابع العلمى الذى طبع هذا العصر أن تعرض العلم لهؤلاء الإماء يؤلف فيهن الكتب ، فألف ابن بطلان كتابه العلمى فى تجارة الرقيق[2] . وتبعه غيره ، فذكروا أجناس العالم وأوصاف الرقيق من كل جنس ، وما يمتزن به ، وما يعاب عليهن ، والأعضاء وأوصاف الحسن فيها وأوصاف عيوبها ، ودلائل الفراسة على حال الغلام أو الجارية ، وحيل النخاسين ، وكيف يسترون العيوب الخ .

كما فلسفوا الكلام فى الُحسن ، وحاولوا وضع قواعد للجمال ، ووجد من يسمى « جهابذة النقد » وهم الخبراء فى الجمال ؛ قال أبو الفرج : « أكثر البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة النقد ، يقدمون المجدولة التى تكون بين السمينة

---

(١) الموشى ص ٩٣ وما بعدها باختصار .

(٢) عنوانه رسالة جامعة لفنون نافعة فى شراء الرقيق وتقليب العبيد لابن بطلان الرقيق النصرانى ، عاش فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، والكتاب مخطوط منه صورة فوتوغرافية فى مكتبة الجامعة .

والممشوقة ، ولا بد أن تكون كاسية العظام » الخ .

وتكلموا فى الألوان وحسنها ، وقال أبو الفرج الأصفهانى[١] : « يمازج البياض لونان يزيدانه حسناً ، الحمرة والصفرة ؛ فأما الحمرة فتعترى البياض من رقة اللون وصحة الدم ؛ وأما الصفرة فتعترى البيض لاستقرارهن وملازمتهن الكنّ والنعمة والخفض والدعة ، وتعتريهن أيضاً لملازمتهن التضمخ بالطيب — ويقال إن المرأة إذا كانت عتيقة الحسن ناعمة البدن فإن لونها يكون من أول النهار إلى ابتداء العشية يضرب إلى الحمرة ، ومن ابتداء العشية إلى آخر النهار يضرب إلى الصفرة» . وأفاضوا فى ذكر محاسن كل عضو وعيوبه من الشَّعر والجبين والحواجب والعيون والأنوف والخدود والشفاه والثغور والأعناق والمعاصم والأعضاء ، والأنامل وتطريفها بالحمرة والسواد ، والنحور والصدور والثدى ، واختلاف الأذواق فى كبرها أو صغرها ، والخصور والسوق والأقدام ، ومزجوا ما قيل فى كل ذلك من التعبير الدقيق فى اللغة بما قيل من عيون الأدب بما قاله جهابذة النقد .

كما تفننوا فى دقة الفروق بين المغنيات ، وفلسفة الغناء ، « فعلوة » أحسن ما تكون إذا رفعت عقيرتها ، و «نهاية» إذا اندفعت فى شدوها ، و « بلّور » إذا رجّعت ، و « قلَم » إذا تناوأت فى استهلالها ، وتضاجرت على ضجْرتها ، وتذكرت شجوها الذى قد أضناها وأنضاها ، و « سندس » إذا تشاجَت وتدللت وتفَتّلت وتقَتّلت وتكسرت .

وتفلسفوا هل الغناء لذة الحس أو لذة العقل ، ولم يكون الغناء ألذ وأطيب إذا سند المغنى آخر ؟ وهكذا[٢] .

☆ ☆ ☆

---

(١) فى كتابه النساء .
(٢) الإمتاع والمؤانسة : ٢/٨٢ وما بعدها .

وكان الرقيق صنفين متميزين ، صنف أبيض ، وصنف أسود ويشمل الحبشان . فالصنف الأبيض كان من الترك والصقالبة ، والأرمن واليونان ، وكانت أكثر أسواقه سوق سمرقند ويأتى إليها رقيق تركستان وما وراء النهر والبلغار ، وسوق شرق أوروبا وهو يخترق ألمانيا إلى الأندلس ، وإلى موانى إيطاليا وفرنسا إلى الشرق ؛ والصنف الأسود كان يجلب من السودان والحبشة وما إليهما .

وكان الرقيق الأبيض أغلى ثمناً وأكثر قابلية لتعلم الفن والموسيقى ، وكلما مهرت فى فنها بولغ فى ثمنها ، وكانت هناك أسواق فى كل مدينة كبيرة للرقيق ، سوق كبيرة فيها حُجَر يسكنها الرقيق المعرض للبيع ، وهذا شأن الرقيق الشعبى ؛ أما الرقيق الخاص الممتاز فيعرضه التجار على الأمراء والأغنياء ، أو يعرضونه فى بيوتهم الخاصة ؛ كما كان أصنافا من نساء وفتيان ورجال .

وقد قام هذا الرقيق على اختلاف أنواعه بأعمال كثيرة ، وتغلغل فى الحياة الاجتماعية . فمنهم من كانوا جنوداً وقواداً تستعين بهم الدولة فى حروبها ، حتى لقد بلغ بعضهم أرقى المناصب ، مثل مؤنس فى العراق ، وجوهر الصقلى فى المغرب ومصر ، وكافور الإخشيدى بمصر ، وسبكتكين فى الأفغان .

ومنهن القيان فى محال الغناء العامة ، ومنهن أمهات الأولاد ؛ وملك اليمين ، يتغلغلن فى بيوت الخلفاء والأمراء ، والأغنياء والأوساط ، ومنهن من يقمن فى الخدمة فى البيت ، وقد يبلغن منزلة عالية .

ومن الرجال الأرقاء من يقوم بالأعمال الصناعية والتجارية لسادتهم ، ومنهم طبقة الخصيان ، وقد انتشرت فى هذا العصر انتشاراً كبيراً .

وقد كثر الخصاء فى عهد الأمين ؛ فقد قالوا إنه بلغ من كلفه بالخصيان أنه

« طلبهم وابتاعهم ، وغالى بهم ، وصيرهم لخلوته فى ليله ونهاره ، وقوام طعامه وشرابه ، وأمره ونهيه »[١] .

وقد عقد الجاحظ فصلا ممتعاً فى كتابه الحيوان للخصاء وتأثيره فى الجسم والصوت والشعر والأعصاب ، وفى الذكاء ، كما عرض لأصناف الخصيان من السند والحبشة والنوبة والسودان . ويقول إن الروم أول من ابتدع الخصاء . . . الخ[٢] .

وكان الخصاء فى البيض والسود ، وقل أن كان المسلمون يقومون بالخصاء ، ولكنهم يشترونهم بعد أن يُخْصَوا ، وقد ارتفعت أثمانهم لتعرضهم للموت من هذا العمل .

وكثر فى عصرنا الذى نؤرخه استخدامهم فى بيوت الخلفاء والأغنياء ، حرصاً على النساء ؛ ومنهم من نبغ فى القيادة الحربية ، كمؤنس القائد ، وفائق قائد السامانيين ؛ وبلغ بعضهم منزلة عالية فى الإشراف على القصور والحظوة عند الأمراء ، كشكر غلام عضد الدولة .

ثم الغلمان فى الأوساط المستهترة ، حتى وعند بعض الأدباء والعلماء ، ونلاحظ ندرة هذا أيام سلطة العنصر العربى فى صدر الإسلام . ويحكى الجاحظ أن هذا الولع بالغلمان نشأ فى الخراسانيين ، إذ كانوا يخرجون فى البعوث مع الغلمان ، وذلك حين سن أبو مسلم الخراسانى ألا يخرج النساء مع الجند خلافاً لبنى أمية الذين كانوا يسمحون بخروج النساء مع العسكر[٣] .

فلما جاء هذا العصر نجد الكثير من أحاديث الغلمان فى كتب الأدب ،

---

(١) الطبرى فى سيرة الأمين .   الحيوان جزء أول .

(٢) انظر حضارة الإسلام فى القرن الرابع : ٢/١٣٥ .

وتراجم الرجال والأدباء . ويحدثنا أبو حيان التوحيدى ، أنه كان فى بغداد خمسة وتسعون غلاما جميلا يغنون للناس ، وأنه كان بها صبى موصلى مغن ، ملأ الدنيا عيارةً وخسارة ، وافتضح أصحاب النسك والوقار ، وأصناف الناس من الصغار والكبار ، بوجهه الحسن ، وثغره المبتسم ، وحديثه الساحر ، وطرفه الفاتر ، وقده المديد ، ولفظه الحلو ، ودله الخلوب . . . يسرقك منك ، ويردك عليك . . . فحاله حالات ، وهدايته ضلالات ، وهو فتنة الحاضر والبادى[1] ؛ كما يحدثنا عن عَلوان غلام ابن عُرس ، فإنه إذا حضر وألقى إزاره ، وحل أزراره ، وقال لأهل المجلس : اقترحوا واستفتحوا فإنى ولدكم ، بل عبدكم لأخدمكم بغنائى وأتقرب إليكم بولائى ... لا يبقى أحد من الجماعة إلا وينبض عرقه ، ويهش فؤاده ويذكو طبعه ، ويفكه قلبه ، ويتحرك ساكنه ، ويتدغدغ روحه الخ[2]

وتفننوا فى أسماء الغلمان بما يدل على مقصدهم ، فسموا بـ « فاتن » ، و « رائق » ، و « نسيم » ، و « وصيف » ، و « ريحان » ، و « جميلة » ، (هكذا بأداة التأنيث) ، و بشرى .

ومن هذا نرى كيف أثَّر الرقيق أثراً كبيراً من الناحية الاجتماعية والحربية والمالية والأخلاقية .

الأدب وتصوير الحياة الاجتماعية :

كان النتاج الأدبى فى هـذا العصر من نظم ونثر صورة صحيحة للحياة الاجتماعية فى غناها وترفها من جانب ، وفقرها و بؤسها من جانب ، وفى اضطراب الشؤون السياسية والحياة الاجتماعية ، وفى حياة اللهو وحياة الجد ، وفى انحلال

---

(١) الإمتاع : ٢/١٧٤ .   (٢) المصدر نفسه ص ١٧٨ .

الأخلاق ، وانغماس الأدباء فيها ، ونعى بعضهم عليها ، إلى غير ذلك من المظاهر ؛ ولعل خير ما يمثل أدب هذا العصر كتاب يتيمة الدهر للثعالبى .

وربما كان أكبر من يمثل كتّاب النثر ابن العميد ، وابن عبّاد ، والخوارزمى وبديع الزمان الهمذانى ، وأبو حيان التوحيدى ؛ كما كان أكبر من يمثل الشعر ، المتنبى ، وابن حجاج ، والشريف الرضى ، وأبو العلاء المعرى ، والصنوبرى .

لقد كان من أعلام الكتاب من هم من الطبقة العليا فى المجتمع ، كابن العميد ، وابن عبّاد ، والوزير المهلبى ، والخصيبى ، والإسكافى وزير السامانيين ، ويلحق بهم أمثال إبراهيم بن هلال الصابى الذى كاد يكون وزيراً .

فهؤلاء بحكم جاههم وعزهم وترفهم ، كان نتاجهم الأدبى مترفا يتأنق فى فنه ؛ فأناقة الملبس والمأكل والمعيشة جديرة بأن تحمل أصحابها على التأنق فى الأدب . فأدب هذا العصر تقدم خطوات فى السجع والمحسنات اللفظية ، والمبالغة البلاغية . فالصابى وابن عباد أفرطا فى السجع ، وكادا يلتزمانه ، وغيرهما يسجع وإن كان لا يلتزم ؛ هذا إلى الإمعان فى الاستعارات والمجازات والتشبيهات ، وتفننوا فى تزيين الكتابة تفنن أصحاب الطُّرف فيما يصنعون من حلىٍّ وأدوات زينة . وإذ كانوا فى مركز رئيسى فى الحياة الاجتماعية كان طبيعياً أن يكون نتاجهم هو المثل يقلَّد ويحتذى ، فمن كان أديباً فقيراً تشبه بهم وحذا حذوهم ، وهم بذلك قد خلقوا ذوقا عاما فى الأدب يَستحسن طريقتهم ، فجارى الأدباء هذا الذوق ، كما تراه عند الثعالبى فى كتبه فيما يُنْشِئ وفيما يَرْوى .

وأبو حيان يصف الصاحب بن عبّاد بقوله : « كان كلفه بالسجع فى والقلم ، عند الجد والهزل ، يزيد على كلف كل من رأيناه فى هذه البا

لابن المسيبى أين يبلغ ابن عبّاد فى عشقه للسجع ؟ قال يبلغ به ذلك لو أنه رأى سجعة ينحل بموقعها عروة الملك ؛ و يضطرب لها حبل الدولة ، و يحتاج من أجلها إلى غرم ثقيل ، وكلفة صعبة ، وتجشم أمور ، وركوب أهوال ، لما كان يخف عليه أن يفرج عنها و يخليها ، بل يأتى بها و يستعملها ، ولا يعبأ بجميع ما وصفت من عاقبتها .

هذا إلى الإمعان فى المبالغة كقول الصابى : « وصل كتاب قاضى القضاة بالألفاظ التى لو مازجت البحر لأعذبته ، والمعانى التى لو واجهت دجى الليل لأزاحته وأذهبته » .

و يقول بديع الزمان الهمذانى لرجل طلب إليه نسخة من رسائله : « ولو قدرت جعلت الورق من جلدى ، بل من صحن خدى ، والقلم من بنانى ، والمداد من أجفانى » .

و إلى السجع والمبالغة ضروب من التزاويق ، ككثرة التشبيه والاستعارة من مثل قول الصاحب فى وصف مجلس : « قد تفتحت فيه عيون النرجس ، وتوردت فيه خدود البنفسج ، وفاحت مجامر الأترج ، وفتقت فارات النارنج ، وانطلقت ألسنة العيدان ، وهبت رياح الأقداح ، ونفقت سوق الأنس ، وامتدت سماء الند » .

هذا إلى مثل عمل قطع أدبية خالية من بعض حروف الهجاء ، أو تقرأ طرداً وعكساً الخ .

فهذه التزاويق اللفظية صدى للتزاويق فى الحياة الاجتماعية ، ونرى كثيراً من الأدب فى هذا العصر شكلا تنقصه الروح ، كما كانت الحياة الاجتماعية المترفة كذلك شكلا بلا روح .

ويتصل بهذا شيوع المقطوعات الشعرية القصيرة بجانب القصائد الطويلة ، ويقابله فى الموسيقى الميل إلى ما نسميه « الطقاطيق » بجانب « الأدوار » .

ولعل هـذا نشأ من كثرة المجالس الأدبية غير الرسمية فى منازل الأصدقاء والأغنياء والأدباء ، وحبهم الملح والتنادر ووصف ما يعرض ، فأبيات قصيرة فى الغزل تحوى معنى واحداً رشيقاً ، وأبيات فيما يعرض من النوادر : كأبيات فى إنسان ساقط يلبس عمامة سَرِية[1] ، وفى إنسان شريف الأصل وضيع النفس[2] ، وإنسان تولى أقطاعا فوجدها خربة ، وفى المهاداة بالنبيذ ، وفى وصف مجلس أنس ، وفى شكر على هدية ، وفى هجاء بخيل أو ثقيل ، وفى وصف زهر أو تمر[3] ، وفى

---

(١) مثل

يا من تعمم فوق راس فارغ ... بعمامة مَرَوية بيضاء
حسنت وقُبح كل شىء تحتها ... فكأنها نور على ظلماء
لما بدا فيها أطلت تعجبى ... من شر شىء فى أجلّ إناء
لو أننى مُكنت مما أشتهى ... وأرى ، من الشهوات والآراء
لجعلت موضعك الثرى وجعلتها ... فى رأس حر من ذوى العلياء

(٢) مثل

قل للشريف المنتمى ... للغر من سرواته
آبائه وجدوده ... والزهر من أمّاته
وهو الوضيع بنفسه ... وعيوبه وهناته
لا تجرين من الفخا ... ر إلى مدى لم تأته
شاد الألى لك منصبا ... قوضت من شرفاته
إن الشريف النفس ليـ ... ـست تلك من فعلاته
والعود ليس بأصله ... لكنه بنباته
وأحق من نكسته ... بالصفع من دوجاته
من مجده من غيره ... وسفاله من ذاته الخ

(٣) كقوله فى وصف تمر :

أما ترى التمر يحكى ... فى الحسن للنظّار
مخازنا من عقيق ... قد قمعت بنضار
كأنما زعفران ... فيه مع الشهد جارى
يشف مثل كؤوس ... مملوءة من عقار

معنًى عرَض ، أو حادث حدث[1] ؛ ونحو ذلك — وقد أكثروا من هذه المقطوعات حتى زاحمت القصائد[2] .

هذه ناحية ، وناحية أخرى وهى قوة أثر الرقيق فى الناحية الاجتماعية ، وانعكاس صورتها فى الأدب ؛ فقد ملئ أدب ذلك العصر بوصف القيان والجوارى البيض والسود والغلمان ، حتى لا نكاد نجد شاعراً إلا وله شعر فى هذا الباب .

فقيل الكثير فى وصف الجوارى البيض وحسنهن ، وكان هذا شيئاً مألوفا ، وسموا النساء البيض الحسان الحُمْر ؛ وقال شاعرهم :

هِجَانٌ عليها حمرة فى بياضها   يروق بها العينين ، والحسن أحمر

وشبهوهن بالنار من أجل ذلك — ولكن هام بعض الشعراء بالجوارى السود ودافعوا عن حبهن ، فأكثر من ذلك الشريف الرضى ؛ فقال من قصيدة :

أحبكِ يا لون الشباب فإننى   رأيتكما فى العين والقلب توأما

سواد يودّ البدر لو كان رقعةً   بجبهته أو شقّ فى وجهه فما

سكنتِ سواد القلب إذ كنتِ مثله   فلم أدر من عِزٍّ مَنْ القلبُ منكما

وما كان سهم العين لولا سواده   ليبلغ حبّات القلوب إذا رمى

إذا كنت تهوى الظبى أَلْمَى فلا تلم   جنونى عن الظبى الذى كله لَمى

وله قصيدة أخرى فى هذا المعنى منها :

لاموا ولو وجدوا وجدى لقد عَذروا   وذنب من لام ذنبٌ غير مغتفر

---

(١) كالذى يشكو من الزمان حظه ؛ فيقول :

فى كل يوم لنا فى الدهر معركة   هامُ الحوادث فى أرجائها قلق

حظى من العيش أكل كله غصص   مر المذاق وشرب كله شرق

(٢) انظر نماذج منها كثيرة فى كتب الثعالبى .

لما تمادَوْا على عذلى أجبتهمو … بعز معترف لا ذل معتـــذر
أهوى السواد برأسى ثم أمقته ؟ ! … فـكيف يختلف اللونان فى نظرى
إنى علقت سواد اللون بعدكمو … علاقة تشمت الظلماء بالقمر
لو لم يكن فوق لون البيض ما رقمت … صِبْغ الغوالى على الأجياد والعُذُر
والليـــل أستر للخالى بلذته … والصبح أفضح للسارى على غَرر
وللفتى فى ضلال الليـــل معذرة … وما له فى الضحى إن ضل من عذر
وكيف يذهب عن قلبى وعن بصرى … من كان مثل سواد القلب والبصر

وقبله استوفى هذه المعانى ابن الرومى فى قصيدة طويلة منها :

أكسبها الحسنَ أنها صُبغت … صِبغة حَبّ القلوب والحدق
يفترّ ذاك السواد عن يقق … من ثغرها كاللآلئ النسق
كأنهـــا والمزاح يضحكها … ليل تفرّى دجاه عن فَلَق

وقال السَّلامى :

يا رُبَّ غانية بيضاء[1] تصحبنى … من العتاب كؤوساً ليس تنساغ
أشتاق طرتها أم صدغها ومعى … من كلها طرر سود وأصداغ

وقد قالوا إن ابن سكّرة الشاعر قال فى قينة ســوداء اسمها « خمرة » عشرة آلاف بيت الخ الخ .

كما تفننوا فى وصف القيان وغنائهن وأكثروا ، وزعيمهم فى ذلك ابن الرومى كقصيدته فى « وحيد » المغنية :

ظبية تسكن القـــلوب وترعا … ها وقُمرية لهــــــا تغريد

---

(١) يريد بالبيضاء السوداء بدليل ما بعدها ، كما ننادى نحن الأسود بيا أبيض .

حسنها فى العيون حسن جديد فلها فى القلوب حُب جديد

تتغنى كأنهـــــا لا تُغنّى من سكون الأوصال وهى تجيد

مدَّ فى شأو صوتها نَفَسٌ كا فٍ كأنفاس عاشقيها مديد الخ

ويقول فى وصف قينة مغنية وراقصة :

فتاة من الأتراك ترمى بأسْهُم يُصبن الحشا فى السلم لا فى المعارك

ظللنا لهـا نُصْبا تشكّ قلوبنا بذاك الشجا الفتّان لا بالنيازك

تطامن عن قدّ الطوال قوامُها وأربى على قد القصار الحواتك

إذا هى قامت فى الشفوف أضاءها سناها فشفّت عن سبيكة سابك

وتبعه الشعراء فى هـذا العصر الذى نؤرخه ، وتفننوا فى وصف القينات ، فقال ابن زُرَيْق الـكوفى فى قينة تسمى « دبسية » حسنة الغناء قبيحة المنظر :

أبا سعيد أصخ لى يا سـيدى ونديمى

مُنيت أمس بأمرٍ من الأمور عظيم

حصلت عند صديق حر ظريف كريم

أُسقى على شدو « دبْسـيةٍ » فتنفى همومى

فـكنت حين تغنّى لدى جِنان النعيم

وإن نظرتُ إليها ففى العذاب الأليم

وإن شربت بصوت فالراح بالتسـنيم

وإن شربت بلحظ فالمهـل بالزّقوم

فـكان سمعى بخير ومقلتى فى الجحيم

الخ الخ .

والطامة الـكبرى ما غشى المجتمع من حب للغلمان ظهر صداه فى الأدب .

لقد كان أبو نواس يغنِّى فى هذا الباب وحده أو مع فئة قليلة ؛ فلما جاء هذا العصر كان أكثر الشعراء يطرقون هذا الباب ، ويفيضون فيه فى تحفّظ حيناً ، وفى استهتار أحياناً ، كأبى تمام والبحترى والصنوبرى ، وكشاجم وأبى الفتح البستى وابن حجاج ، وابن سكّرة ، والقاضى التنوخى ، والثعالبى ، وأبى فراس ، والصابى كلهم له أشعار كثيرة فى هذا الباب تفننوا فيها ، حتى الوزير المهلبى لم يمنعه منصبه أن يقول فى مملوك تركى جميل قاد جيشاً لمحاربة بنى حمدان :

ظبى يَرِقّ الماء فى وَجناته ويروق عُوده
ويكاد من شِبْه العذا رى فيه أن تبدو نُهوده
ناطوا بمعقـــد خصره سيفاً ومِنطقة تؤوده
جعـــلوه قائد عسكر ضاع الرعيل ومَن يقوده

وكان هؤلاء الغلمان مملوكين كما تملك الجوارى ، يقومون بالخدمة فى البيوت وفى الأعمال التجارية ، وهؤلاء الشعراء يتغزلون فيمن يملكون أو يملكه غيرهم . ومن أشهر قصائد ذلك العصر قصيدة سعيد الخالدى التى يصف فيها غلامه بأنه معشوقه ، وخازن داره ، ومدبر ماله ، وناقد شعره ، وطاهيه ونديمه ، وغدت القصيدة مضرب المثل فى هذا الباب :

ما هو عبدٌ لـكنه ولد خوّلنيه المهيمن الصمد
شد أزرى بحسن خدمته فهو يدى والذراع والعضد
صغير سن كبير منفعة تمازج الضعف فيه والجلَد

* * *

أُنسِى ولهوى وكل مأربتى مجتمع له فيه ومنفرد

* * *

خازن ما فى دارى وحافظه فليس شىء لديه يفتقد

ومنفق مشفق إذا أنا أسـرفت وبذّرت مقتصد

ويعرف الشعر مثل معرفتى وهو على أن يزيد مجتهد

وصيرفىّ القريض وزان دنانـير المعانى الرّقاق منتقد

يصون كتبى فكلها حسن يطوى ثيابى فكلها جدد

وأبصر الناس بالطبيخ فكالمسـك القلايا والعنبر الثّرد الخ

بل نرى من هذا ظاهرة غريبة ، وهى عدم تحرج ذوى المناصب الكبيرة كالوزراء والقضاة من كثرة القول فى هذا الباب ، مما يدل على أن الرأى العام قد فتر استنكاره له ، وعده من باب الظرافة والمجون إلا فى الأوساط المتشددة ؛ كالذى ذكر أبو حيان التوحيدى من أن أبا عبد الله البصرى كان يسمع غلاما يغنى:

أنسيتَ الوصـل إذ بتـنا على مرقد وَرْد

واعتنقنا كوشاح وانتظمنا نظم عِقد

وتعطفنا كغصنـين فقدّانا كقد

فطرب أبو عبد الله طربا شديداً ، فعابوه على ذلك ، وقدحوا فى دينه وألصقوا به الريبة[١] .

* * *

وظاهرة أخرى وهى أن كثرة المجون ، والخلاعة ، واللهو واللعب فى هذه الأوساط الاجتماعية أنتجت شاعرين يمثلان هذا أشنع تمثيل ، وهما : ابن حجاج وابن سكّرة ؛ فابن حجاج قال فيه الثعالبى : « إنه فى شعره لا يستتر من العقل بسجف ، ولا يبنى جل قوله إلا على سخف . . . يمد يد المجون فيعرك بها أذن

(١) الإمتاع والمؤانسة : ١٧٥/٢ .

الحزم ، و يفتح جراب السخف فيصفع بها قفا العقل » . وقد استعمل فى شعره بعض ألفاظ العوام ، وشبّه أفظع التشبيهات وأشنعها ، ومع هذا كله راج شعره رواجاً كثيراً ، فكان يباع ديوان شعره من خمسين ديناراً إلى سبعين ، ونفق شعره عند العامة والخاصة « فكانت تتفكه الفضلاء بثمار شِعره ، وتستملح الكبراء ببنات طبعه ، وتستخف الأدباء أرواح نظمه ، ويحتمل المحتشمون فرط رفثه وقذعه . . . ولقد مدح الملوك والأمراء والوزراء والرؤساء ، فلم يُخل قصيدة فيهم من سفاتج هزله ، ونتائج فحشه ، وهو عندهم مقبول الجملة ، غالى مهر الكلام ، موفور الحظ من الإكرام والإنعام » .

ومثله ابن سكّرة ؛ قال فيه الثعالبى أيضاً : « فائق فى قول المَلح والظرف ، أحد الفحول الأفراد ، جار فى ميدان المجون والسخف ما أراد » .

ولم يتحرجا من أن يقولا أقبح المعانى فى أصرح لفظ ، ومع ذلك جرى شعرهما فى الناس ، واختار الثعالبى منه أخفه ، وهذا الأخف مقذع شنيع ؛ فرواج هذا الشعر أكبر دليل على ما وصل إليه الانحلال الخلقى فى هذا المجتمع .

☆ ☆ ☆

هذه الصورة للأدب تصور الحياة الاجتماعية فى نعيمها وترفها ، ولهوها ومجونها . وثم وجه آخر هو الفقر والبؤس والتحايل على كسب العيش انعكست صورته على الأدب أيضاً .

من ذلك أن جماعة رأوا حياة الأغنياء والتجار والأدباء والعلماء فى حرج وشدة ، فالأغنياء يصادَرون ، والتجار ترهقهم الضرائب ، والأدباء والعلماء لا يجدون ما يأكلون إلا إذا اتصلوا بأمير ، فاتخذوا وسيلتهم فى كسب العيش التسول عن طريق الأدب الشعبى أحيانا ، والنصْب والاحتيال أحيانا ؛ ووجدت طائفة كبيرة

من هذا القبيل سموا الساسانيين أو بنى ساسان ، أو أهل الـكُدية .

وساسان هذا قد رووا فيه أقوالا مختلفة ، فمن قائل إنه ساسان بن اسفنديار كان من حديثه أنه لما حضر أباه الوفاة فوض أمر الحكم إلى ابنته ، فأنف ساسان من ذلك ، واشترى غنما وجعل يرعاها وعُيِّر بأنه راعى الغنم ، فقيل ساسان الراعى ، وساسان الـكردى ؛ ثم نسب إليه كل من تكدَّى (تسوّل) ، فيقال فلان من بنى ساسان . وقيل كان ساسان ملكا من ملوك العجم حاربه دارا ملك الفرس ، ونهب كل ما كان له ، واستولى على ملكه فصار رجلا فقيراً يتردد فى الأحياء و يستعطى ، فضرب به المثل . وقيل إنه كان رجلا فقيراً بصيراً فى استعطاء الناس والاحتيال ، فنسبوا إليه .

وكانت طائفة يتجول أفرادها فى البلاد يستجدون ويحتالون ، وكان عند بعضهم مقدرة أدبية يحتالون بها على الناس كشأن ما نسميهم فى مصر «الأدباتية» ، وعند بعضهم دهاء وحيل لابتزاز المال .

هذه الطائفة كان من صداها فى هـذا العصر ظهور نوع من الأدب جديد هو مقامات بديع الزمان الهمذانى ، ثم الحريرى ، وكلها حكايات قصيرة تدور كل منها حول حيلة يحتالها رجل لـكسب شىء من المال عن طريق التكدى صيغت فى أسلوب أدبى . وكل مقامات البديع بطلها أبو الفتح الإسكندرى ، وكل مقامات الحريرى بطلها أبو زيد السروجي ، والبطل يحتال لقنص المال فى كل مقامة .

وقد ورد ذكر الساسانيين فى مقامات بديع الزمان ، وأوضح لنا الحريرى فى مقامته المسماة بالمقامة الساسانية كثيراً من البواعث الدافعة على التسول فقال : « سمعت أن المعايش إمارة ، وتجارة ، وزراعة ، وصناعة ، فمارست هذه الأربع .

لأنظر أيها أوفق وأنفع ، فما أحمدت منها معيشة ، ولا استرغدت عيشة ، أما فُرَص الولايات ، وخُلَس الإمارات ، فكأضغاث الأحلام ، والفيء المنتسخ بالظلام ، وناهيك غصة بمرارة الفِطام ؛ وأما بضائع التجارات فعرضة للمخاطرات ، وطُعمة للغارات ، وما أشبهها بالطيور الطائرات ؛ وأما اتخاذ الضياع ، والتصدى للازدراع ، فمهكة للأعراض ، وقيود عائقة عن الارتكاض ، وقلما خلا ربها عن إذلال ، أو رُزق رَوْح بال ؛ وأما حِرَف أولى الصناعات فغير فاضلة عن الأقوات ، ولا نافقة فى جميع الأوقات ... ولم أر ما هو بارد المغنم ، لذيذ المطعم ، وافى المكسب ، صافى المشرب ، إلا الحرفة التى وضع ساسان أساسها ، ونوّعَ أجناسها ، وأضرم فى الخافقين نارها ، وأوضح لبنى غبراء منارها . . . إذ كانت المتجر الذى لا يبور ، والمنهل الذى لا يغور ... وكان أهلها أعز قبيل ، وأسعد جيل ، لا يرهقهم مس حيف ، ولا يقلقهم سل سيف . . . ولا يرهبون ممن بَرَق ورعد ، ولا يحفلون بمن قام وقعد ... أينما سقطوا لقطوا ، وحيثما انخرطوا خرطوا ، لا يتخذون أوطانا ، ولا يتقون سلطانا » . ثم بين شروط النجاح فيها ، وقال إنها تحتاج إلى النشاط والحركة ، وإلى الفطنة ، وإلى القحة ، وإلى المكر والحيلة ، وروى أنه كان مكتوبا على عصا شيخنا ساسان : «من طَلَب ، جَلَب ، ومن جال نال» ، كما أنها تحتاج إلى الخَلْب بصوغ اللسان ، وسحر البيان ، والصبر ، وعدم اليأس ، وتفضيل الذّرّة المنقودة على الدرة الموعودة الخ .

واشتهر من شعراء بنى ساسان فى القرن الرابع شاعران كبيران يعاصران البديع ، ويسبقان الحريرى ، وهما الأحنف العكبرى ، وأبو دلف الخزرجى . فالأحنف كان آدب بنى ساسان ببغداد ، وقد اشتهر بالظرف والشعر الرقيق فى الحرفة الساسانية كقوله :

قد قسم الله رزقى فى البلاد فما يكاد يُدْرَكُ إلا بالتفاريق
ولست مكتسباً رزقا بفلسفة ولا بشعر ولكن بالمخاريق
والناس قد علموا أنى أخو حِيَلٍ فلست أنفق إلا فى الرساتيق

ووضع قصيدة دالية فى هذه الحرفة يقول فيها :

على أنى بحمد الله فى بيت من المجْد
بإخوانى بنى ساسا ن أهل الجِد والجَدّ
لهم أرض خراسا ن فقاشان إلى الهند
إلى الروم إلى الزنج إلى البلغار والسند
إذا ما أعوز الطرقُ على الطرّاق والجند
حذارا من أعاديهم من الأعراب والكرد
قطعنا ذلك النهج بلا سيفٍ ولا غِمد
ومن خاف أعاديه بنا فى الروع يستعدى(١)

وأبو دلف كان من الواردين على الصاحب بن عبّاد فى الرى ؛ وقد طوف البلاد مكديا ، وحاكى الأحنف العكبرى فى داليته الساسانية برائية مثلها مطلعها :

جفون دمعها يجرى لطول الصد والهجر

ومنها :

على أنى من القوم البهاليل بنى الغر
بنى ساسان والحامى الحمى فى سالف العصر

* * *

(١) يقول — فى البيت الأخير — إن ذوى الثروة إذا وقع أحدهم فى يد قطاع الطريق وأحب التخلص ؛ قال : إنى من بنى ساسان .

فنحن الناس كل النا   س فى البر وفى البحر
أخذنا جِزية الخلق   من الصين إلى مصر
إلى طنجة بل فى كـــل أرض خيلنا تسرى
لنـا الدنيا بمـا فيها   من الإسلام والـكفر
فنصطاف على الثلج   ونشتو بلد التمر الخ

وقد استعمل فى هـذه القصيدة الألفاظ الاصطلاحية لبنى ساسان ، وأبان كثيراً من أنواع حيلهم ، وطريقة ابتزازهم أموال الناس ، فمن باب استعمال الألفاظ — مثلا — استعماله دَوّر إذا دار على السكك والدروب وسخر بالنساء ؛ ورَعّس بمعنى طاف على حوانيت الباعة فأخذ من هنا جوزة ومن هنا لوزة ؛ و «الـكَذّابات» بمعنى العصبات يشدونها على جباههم يوهمون بها أنهم مرضى الخ .

واستعمال الحيل مثل إيهام الناس أنه يجمع الصدقة للخروج إلى الغزو ، أو يحتال على من أصيب بوجع الضرس فيجعل دود الجبن فيما بين أسنانه ثم يخرجه ويوهم أنه أخرجه بالرقية ، أو يتعامى وهو بصـير ، أو ينظر فى الفال والزجر والنجوم ، أو يعطى قوماً دراهم حتى يأتوا ويسألوا عن نجمهم تحميساً للناس أن يحذوا حذوهم الخ .

وله لغة خاصة وأدب خاص واصطلاحات لا يكاد يفهمها غيرهم ، وتسمى « مُنَاكاة بنى ساسان » .

قال الثعالبى فى وصف الصاحب بن عباد : « وكان الصاحب يحفظ مناكاة بنى ساسان حفظاً عجيباً ، ويعجبه من أبى دلف وفور حظه منها ، وكانا يتجاذبان أهدابها ، ويجريان فيما لا يفطن له حاضرها »[1] .

---

(١) يتيمة : ٣/١٧٥ .

ولعل المناكاة مفاعلة من نكى بمعنى أتى عملا لإغضاب الغير وقهره ، ومنه « ضعيف النكاية أعداءه » ، فيظهر أنه كان من حيلهم أنهم يتهاجون ويتسابون ويتخاصمون تصنعاً حتى يستلبوا مال الناس ؛ ولعل المقامة الديناريه فى مقامات البديع — التى تمثل رجلين يتسابّان بأقبح السباب من هذا الضرب. وقد جمع فيها كل سبّ كان فى عصره من مثل : يا برد العجوز ، يا وسخ الكوز ، يا درهما لا يجوز ، يا سَنَة البوس ، يا كوكب النحوس الخ ؛ فرد عليه الآخر بقوله : يا قَرّاد القرود ، ياَلبود اليهود ، يا عدماً فى وجود الخ ؛ وقد ذكر البديع فى هذه المقامة أنهما كانا من بنى ساسان .

فترى من هذا أن الضرب من الحفاة الذى جر إليه سوء الحالة الاقتصادية وعدم التوازن الاجتماعى ، والإفراط فى البؤس بجانب الإفراط فى الترف ، قد انعكست صورته على الأدب ، فأخرج المقامات وغيرها من أدب التكدى ، كما أخرج شعراً كثيرا فى شكوى الزمان وسوء الحال ، من مثل ما نراه فى شعر ابن لَنْككَ البصرى كقوله :

يا زماناً ألبس الأحرار ذُلاًّ ومهانهْ
لستَ عندى بزمان إنما أنت زمانه
كيف نرجو منك خيراً والعلا فيك مهانه
أجنونٌ ما نراه منك يبدو أم مجانهْ

وقوله :

جار الزمان علينا فى تصرُّفه وأى دهر على الأحرار لم يَجُرِ
عندى من الدهر ما لو أنّ أيسره يُلقى على الفَلَك الدوّار لم يَدُر

وقوله :

نحن والله فى زمان غشوم لو رأيناه فى المنام فزِعنا

يصبح الناس فيه من سوء حال   حقٌّ من مات منهمُ أن يُهَنَّا

الخ الخ .

وله فى ذلك الشىء الكثير بين جد وهزل .

✡ ✡ ✡

وكانت فى هذا العصر مجموعة من الشعراء تمثل صور الحياة الاجتماعية المختلفة ؛ فالصَّنَوْبرى الحلبي يمثل الترف والنعيم والعيش الرغد ، ينعم بالقصر الفخم والحديقة الغناء ، و يتغنى بجمال الأزهار وجمال الطبيعة ، فله شعر فى الورد ، وشعر فى حديقة يعتز بها و يقول فيها :

لو كنت أملك للرياض صيانة . يوما لما وطئ اللئام ترابها

وقطع فى وصف الورد والنرجس والأقحوان والنمام والسوسن والشقيق والبنفسج والياسمين الخ ؛ ثم غزل قليل .

و يقيم مناظرة بين الورد والنرجس فيقول :

زعم الورد أنه هو أبهى   من جميع الأنوار والريحان

فأجابته أعين النرجس الغــــض بذلٍّ من فوقها وهوان

أيُّمَا أَحْسَنُ التورّد أم مقـــلة ريم من فضة الأجفان ؟

أم فماذا يرجو بحمرته الخـــد إذا لم يكن له عينان ؟!

فزها الورد ثم قال مجيباً   بقياس مستحسَنٍ و بيان

إن ورد الخدود أحسن من عيـــن بها صفرة من اليرَقان

والذى مكّن له فى هذا غناه ؛ فقد كان له بمدينة حلب قصر فخم حوله الغروس والرياحين وشجر النارنج ، إلى ذوق فنى يغنى فى جمال الأزهار .

يقابله الشاعر ابن لنكك الذى كان يصور البؤس والفقر وعبث الأقدار ؛

وقد قال فيه الثعالبى : « كانت حرفة الأدب تمسّه وتجمشه ، ومحنة الفضل تدركه فتخدشه ، ونفسه ترفعه ، ودهره يضعه » ، فأفاض فى شكوى الزمان ، وجوده ، وعجائبه :

نحن من الدهر فى أعاجيبِ   فنسأل الله صبر أيوبِ
أقفرت الأرض من محاسنها   فابك عليها بكاء يعقوبِ

وقد سبق أن ذكرنا بعض شعره فى هذا الباب .

وإذ كانت الحياة الاجتماعية بين بائس ومجدود ، غنى ذلك نغمةً مرحة فى ترفه ونعيمه وزهوره ، وغنى هذا نغمة حزينة فى بؤسه وفقره وخذلان زمانه له .

والمتنبى يمثل فى مجتمعه ما كان من أحداث فى الحروب بين الحمدانيين والروم ؛ فقد كان شاعر سيف الدولة ، وكان شاعراً فارساً يغشى الحروب مع سيف الدولة ، ويسجل حوادثها تسجيلا أدبياً فى النصر والهزيمة ، والضرب والطعان ، والأسر والسبى ، فشعره فى هذا وصف لمعمعة القتال والمعيشة الحربية .

ثم هو يمثل الأدب الأرستقراطى ، فهو يمثل الأدب الذى يعيش على موائد الملوك ، فلم يكن يمدح إلا ملكا أو شبه ملك ؛ وقد ترفّع عن مدح الصاحب بن عبّاد وهو ما هو فى منزلته وجاهه . فشعره ينقسم إلى سيفيات فى سيف الدولة ، وكافوريات فى كافور ، وعضديات فى عضد الدولة ؛ ولكنه فى مديحه هذا يرفع نفسه إلى مرتبة من يمدحه ، فيكون صديقاً أو حبيباً لا عبداً مستجديا : فيقول فى كافور :

وما أنا بالباغى على الحبّ رشوة   ضَعِيفٌ هوى يُبْغَى عليه ثَوَابُ
وما شئتُ إلا أن أدلّ عواذلى   على أن رأيى فى هواك صَوابُ

☆ ☆ ☆

إذا نلت منك الْودَّ فالمال هيِّن   وكل الذى فوق التراب تراب

ويقول فى ابن العميد .

تفضَّلت الأيام بالجمع بيننا   فلما حمدنا لم تُدمْنا على الحمد
فجد لى بقلب إن رحلت فإننى   مخلّف قلبى عند من فَضْلُه عندى

وفى سيف الدولة :

يا أعدلَ الناس إلا فى معاملتى   فيك الخصام وأنت الخَصم والحَكم

٭ ٭ ٭

سيعلم الجمع ممن ضَمَّ مجلسُنا   بأننى خيرُ من تسعى به قدَم
أنا الذى نظر الأعمى إلى أدبى   وأسمعت كلماتى من به صَمَم
أنام ملء جفونى عن شواردها   ويسهر الخلق جرّاها ويختصم

ونَقَد المجتمع نقداً مراً ، ولكن لا من ناحية أنه لم يجد ما يأكل كابن لنكك ، ولا من ناحية أن مجتمعه فى نفسه فاسد كأبى العلاء ، ولكن من ناحية أنه وازن بين نفسه وكفايتها فى الحرب والأدب وطلب المجد ، وبين ملوك زمانه وأمرائه ، فرأى أنه أحق بالملك أو بالإمارة منهم ، فهجا المكان والزمان والدنيا :

لحا الله ذى الدنيا مناخا لراكب   فكل بعيد الهم فيها معذّب

ودهر ناسه ناس صغار   وإن كانت لهم جُثث ضِخام
وما أنا منهمو بالعيش فيهم   ولكن معدن الذهب الرّغام
فشبه الشىء منجذب إليه   وأَشْبَهُنا بدنيانا الطَّغام

إذا ما الناس جرّبهم لبيب   فإنى قد أكلتهم وذاقا

فلم أر ودّهم إلا خـــداعا ولم أر دِينهم إلا نِفـــاقا

يقولون لى ما أنت فى كل بلدة وما تبتغى ؟ ما أبتغى جَلَّ أن يُسْمَى [(١)]

كأن بنيـــه عالمون بأننى جلوبٌ إليهم من معادِنه اليتما

وما الجمع بين الماء والنار فى يدى بأصعب من أن أجمع الجَدّ والفهما

* * *

وإنى لمن قوم كأنّ نفوسهم بها أَنَف أن تسكن اللحم والعظما

ويرى علة فساد المجتمع فساد ملوكه ، ولا يصلح للعرب إلا ملوك من العرب وهو يرشح بذلك لنفسه :

سادات كل أناس من نفوسهم وسادة المسلمين الأعبد القَزَمُ

أغاية الدين أن تحفوا شواربكم يا أمةً ضحكت من جهلها الأمم

ألا فتًى يورد الهندىَّ هامتـــه كيما تزول شكوك الناس والتهم

* * *

ردِى حياض الردى يا نفس واترّكى حياض خوف الردى للشاء والنّعَم

إن لم أذرك على الأرماح سائلة فلا دعيت ابن أم المجد والـكرَم

أيملك الملكَ والأسياف ظامئة والطير جائعة لحم على وضم ؟

* * *

ميعاد كل رقيق الشفرتين غـداً ومن عصى من ملوك العرب والعجم

فهو بذلك كله ينقد المجتمع ويذم الدهر من ناحيته الشخصية ، وهو أنه لم يُنله مقصده .

كما أنه يمثل مجتمعه من ناحية أخرى دقيقة ؛ فقـد كان فى الشام والعراق

(١) يريد قتل الولاة والاستيلاء على ملكهم .

ومصر بدو وحضر ، وتثقف المتنبى ثقافة بدوية وحضرية ؛ وأقام فى البدو حيناً وعاش عيشتهم واستفاد من ألفاظهم وأساليبهم ؛ ثم خالط سيف الدولة وكافوراً وعضد الدولة ، وأكل على موائدهم ، ورأى ترفهم ونعيمهم ، فكان لذلك صدى فى شعره ؛ فهو بدوى حضرى : بدوى فى لفظه وأسلوبه وقوته وجزالته ، وفى كثير من معانيه وأوصافه كوصف الخيل والسلاح ؛ حضرى فى بعض معانيه كوصف الفَازَة من الديباج عليها صورة ملك الروم وصور وحش وحيوان ، ويصف بطيخة من الندِّ فى غشاء من خيزران عليها قلادة لؤلؤ وعلى رأسها عنبر قد أدير حولها الخ .

ويحن إلى الأعرابيات ، ويتشبب بهن ، ويفضلهن على الحضريات :

مَن الجآذِرُ فى زى الأعاريب   حُمْرَ الحلى والمطايا والجلابيب

* * *

ما أوجه الحضر المستحسناتُ به   كأوجه البدويات الرعابيب

حسن الحضارة مجلوب بتطرِية   وفى البداوة حسن غير مجلوب

أين المعيز من الآرام ناظرة   وغير ناظرة فى الحسن والطيب

أفدى ظباء فلاة ما عَرفْن بها   مضغ الكلام ولا صبغ الحواجيب

ولا برزن من الحمّام مائلة   أوراكهن صقيلات العراقيب

ومِنْ هوَى كل من ليست مموهة   تركت لون مشيبى غير مخضوب

ومن هوى الصدق فى قولى وعادته   رغبت عن شَعَر فى الرأس مكذوب

فهو يمثل أيضاً ما كان فى عصره من بداوة وحضارة ، وبساطة فى العيش وتركيب .

وابن حجاج ، وابن سكّرة يمثلان الأدب الشعبى ، وحالة العصر فى مجونه

وهزله ، وفساده وانحطاطه ، وأدبه المكشوف الذى لا يرعى خُلقاً ولا ذوقا ، فكل لفظة مهما تعرّت وسقطت صالحة لأن تكون فى الشعر ، وأن تقال فى حضرة الملوك والوزراء والقضاة ، وتختار فيما يختار للمتأدبين ، كما فعل الثعالبى فى اليتيمة ؛ وقد سبق بعض القول فيهما .

والشريف الرضى يمثل طبقة الأشراف المثقفة الواسعة العلم ، المعتزة بجاهها ونسبها ومنصبها ، تعيش عيشة الترف ، وتجالس الخلفاء والوزراء من ناحية ، وتتصل بحكم منصبها بالشعب — إذ كان نقيب الأشراف — من ناحية أخرى .

فيقول الشعر اعتزازاً بالجاه والنسب ، ويخاطب الخليفة القادر :

عطفاً أمير المؤمنين فإننا ... فى دوحة العلياء لا نتفرق

ما بيننا يوم الفخار تفاوُت ... أبداً كلانا فى العلاء معرّق

إلا الخلافة ميّزتك فإننى ... أنا عاطل منها وأنت مطوّق

وهو لمركزه يقيد كثيراً من أحداث التاريخ العظمى التى شاهدها ؛ وقد شاء القدر أن يكون فى مجلس الخليفة الطائع يوم فتك الفرس به ، كما كان البحترى فى مجلس المتوكل يوم فتك الترك به ، وخرج هـذا — كما خرج ذاك — هائماً ، وقال (الشريف) فى ذلك قصيدته التى مطلعها :

« لواعج الشوق تخطيهم وتصمينى » . وقد تقدمت نبذة منها .

وله فى ذلك قصيدة أخرى منها :

إن كان ذاك الطود خَـرَّ فبعد ما استعلى طويلا

* * *

لهفى على ماض قَضَى ... ألاَّ ترى منـه بديلا

وزوال مُلْكٍ لم يكن ... يوما يقـدَّر أن يزولا

وقال قصيدته الأخرى :

أى طودٍ دُكّ من أى جبالِ   لقحت أرض بِهِ بعد حِيَال
ما رأى حىّ نزارٍ قبلهـــــا   جَبَلا سار على أيدى رجال

* * *

عقروا ليثاً ولو هَاهَوا به   كان بعد العَقْر أرجى للصِّيالِ

* * *

وكأنى خَلَل الغيب أرى   نَغْرة من جرحها بعد اندمالِ
وإذا الأعداء عَدُّوكَ لهـا   سلموا فضلك من غير جدال
لا أضاعوا رابئاً فى قُـــلة   كلأ المجد وقد نام الكوالِى[1]
يوم للشعب دهان من دم   والمواضى للمقاديم[2] فوالى

* * *

فاتنى منك انتصار بيمينى   فتلافيت انتصاراً بمقالى الخ

وقد كانت ثورة البحترى أقوى وأصرح وأعنف ، إذ لم تكن النفوس اعتادت « التقية » من كثرة ما أصابها من ظلم .

هذا إلى ما يسجله من أحداث كثيرة من رجال الدولة البويهية .

كما أنه كان شاعر الشيعة يشكو الزمان لعدم إنصافهم ، ويعدد مزاياهم واستحقاقهم ، ويرثى لما أصابهم ، ويرثى الحسين الخ ، فهو لسان العلويين

---

(١) الرابئ : الناشئ . الكوالى : الحراس .

(٢) مقاديم جمع مقدام .

والطالبيين ، وباعث الأمل فيهم فى استرداد حقوقهم ، ونيل ما فاتهم .

ثم له الناحية الخاصة فى حياته ، التى يمثل فى شعره فيها حياة الأدباء والظرفاء الموسرين من غزل فى الحرائر والإماء ، من مثل قوله :

وتميس بين مزعفر ومعصفر ومعنبر وممسَّك ومصندل

وإذا سألتُ الوصل قال جمالها جودى ، وقال دلالها لا تفعلى

وفى الغلمان على عادة عصره ، مثل قوله فى غلام لا يحسن التكلم بالعربية :

حبيبىَ ما أزرى بحبِّك فى الحشا ولا غضَّ عندى منك أنك أعجم

بنفسىَ من يستدرج اللفظ عجمة كما يمضغ الظبيُ الأراكَ ويبغم

وله الأبيات الكثيرة فى وصف الزهور ، والسماء والنجوم ، وحمامة وفرخيها ، والبرق والفجر الخ .

ويظهر أنه كان ضعيف الصحة ، مصاباً بالأمراض ، معرضاً للأخطار ، فارتاع من الشيب وأكثر من وصفه ، وأجاد فى مراثى أصدقائه وأقربائه إجادة فائقة ؛ وقد كان صديقاً لكثير من علماء عصره وأدبائهم سبقوه إلى الموت ، فخلد عواطفه نحوهم فى شعر رقيق .

* * *

وأبو العلاء المعرى فى لزومياته ناقد للمجتمع لا لما جناه المجتمع على شخصه كما فعل المتنبى ، ولكن لما جناه المجتمع على نفسه .

فالملوك فى وضعهم الحقيقى خدّام الرعية ، ولكنهم بالفعل ظالموها ومستغلوها :

مُلّ المُقام فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمراؤها

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وعَدَوْا مصالحها وهم أجراؤها

وهؤلاء الولاة المسيطرون على الناس لا عقل لهم ، ولا عدل عندهم ، شياطين

فى ثياب ولاة ، لا يهمهم جوع الناس إذا ملئت بطونهم ، وخَمِرت رءوسهم :

ساس الأنامَ شياطين مسلّطة فى كل مصرٍ من الوالين شيطان
من ليس يحفِلُ خَمص الناس كلِّهمُ إن بات يشرب خمراً وهو مِبْطان

وحول هؤلاء الولاة بطانة قد جمدت عواطفهم كأنها الحجارة أو أشد قسوة ، لا يرحمون دمعة مظلوم ، ولا يجيبون صرخة مستغيث :

يجور فينفى المِلْك عن مستحِقه فتُسْكَبُ أسراب العيون الدوامع
ومِن حوله قومٌ كأن وجوههم صَفًا لم يُلَيّن بالغيوث الهوامع

والقضاة لا عقل ولا عدل :

وأى امرئ فى الناس أُلْفِىَ قاضياً فلم يُمض أحكاماً كحكم سَدوم ؟

وفقهاء ، صناعتهم الكلام ولا روح ولا أحلام :

كأن نفوس الناس والله شاهد نفوسُ فَرَاشٍ ما لهن حُلوم
وقالوا فقيه والفقيه مموِّهٌ وحِلْفُ جِدَال والكلامُ كُلُومُ

ووعّاظ ، يقولون ما لا يفعلون ، و يأتون ما ينكرون :

رويدك قد غُرِرْتَ وأنت حرٌّ بصاحب حيلة يعظ النساءَ
يحرِّمُ فيكم الصهباء صبحا و يشربها على عَمْدٍ مساء

وشعراء ، ليسوا إلا لصوصاً يعدُون على من قبلهم فى سرقة أقوالهم ، و يعدون على الأغنياء بمديحهم لسلب أموالهم :

وما شعراؤكم إلا ذئاب تَلَصَّصُ فى المدائح والسِّباب
أَضَرُّ — لمن تَوَدُّ — من الأعادى وأسرق للمقال من الزَّبّاب[1]

وقوم تسودهم الخرافة فيلجئون إلى المنجمين والعرّافين والمعزِّمين ، وما لهؤلاء

(١) الزباب : الفأر العظيم .

من علم ، ولكنها شباك تنصب لاستدرار الأموال من المغفلين والمغفلات :

متكهّن ومنجّم ومُعزِّم وجميع ذاك تحيُّلٌ لمعاش

* * *

لقد بكَرَت فى خُفها و إزارها لتسأل بالأمر الضرير المنَجِّما
وما عنده علم فيخبرها به ولا هو من أهل الحِجَا فيرجِّما
ويوهم جُهّال المحَلة أنه يظل لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذى فوق صدره لجاء بمَيْن أو أَرَمَّ وجمجما

* * *

سألَتْ منجّمها عن الطفل الذى فى المهدِ كم هو عائش من دهره
فأجابها مائةً ليأخذ درهما وأتى الِحمامُ وليدَها فى شهره

و بعد أن نقدهم طبقاتٍ ، من الملوك إلى القضاة إلى الوعاظ إلى التجار إلى النساء ، نقدهم جملة ، فكل الناس فى كل زمان ومكان لا يصلحون إلا للفناء :

وهكذا كان أهل الأرض مذ فُطِروا فلا يَظُن جهول أنهم فسدوا

* * *

لو غربل الناس كيما يُعدَموا سَقَطًا لما تحصل شىء فى الغرابيل
أو قيل للنار خُصِّى مَن جَنى ، أكلت أجسادهم وأبت أكل السرابيل

* * *

يحسُنُ مرأًى لبنى آدم وكلهمْ فى الذوق لا يَعْذُب
ما فيهمُ بَرٌّ ولا ناسك إلا إلى نفع له يَجْذِب
أفضل من أفضلهم صخرةٌ لا تظلم الناس ولا تكذب

وسبب فسادهم أنهم منحوا العقل فلم يُصغوا إليه ولم يلتفتوا له ، وتجاذبَهم

عقلٌ يُرْشد وطبعٌ يُغوِى ، فجروا وراء طبعهم وأهملوا عقلهم :

فأوسِعْ بنى حواء هُجْراً فإنهم ... يسيرون فى نهج من الغدر لاحِبِ

وإن غيّر الإثمُ الوجوهَ فما ترى ... لدى الحشر إلاّ كلَّ أسودَ شاحِبِ

إذا ما أشار العقل بالرشد جرّهم ... إلى الغىّ طبعٌ أخذهُ أخذ ساحِبِ

* * *

واللب حاول أن يهذب أهلَه ... فإذا البرية ما لها تهذيب

من رام إنقاء الغراب لكى يرَى ... وَضَح الجناح أصابه تعذيب

* * *

إلى الله أشكو مهجةً لا تطيعنى ... وعالَمَ سوء ليس فيه رشيد

حِجًى مثلُ مهجور المنازل داثِرٌ ... وجهلٌ كمسكون الديار مَشيد

* * *

العقل إن يضعُفْ يكن مع هذه الـ ... ـدنيا كعاشقِ مومِسٍ تُغويه

أو يَقْوَ فهى له كحرةِ عاقلٍ ... حسناء يهواها ولا تُهْوِيه

* * *

فطبعُك سلطان لعقلك غالبٌ ... تَدَاولُه أهواؤه بالتَشَصُّص

سُقِيتَ شرابا لم تهنأ ببَرْده ... فغُنِّيتَ من بعد الصدى بالتغصص

* * *

وهكذا أفاض فى نقد المجتمع ومظاهره ونظمه وأخلاقه ، وكان فى كل ذلك موفقاً كل التوفيق ، ومظهر توفيقه أنه استطاع فى مهارة أن يدرك عيوب المجتمع فى جملتها وتفصيلها ، ويعالج ظواهرها ، ويعمق فى النفس الإنسانية فى دقة وتحليل ؛ فيصل إلى دخائلها .

وأبو حيان التوحيدى يمثل فى أدبه وكتابته علاقة الأدباء والعلماء بالولاة والوزراء والأغنياء ، فإن أُعطوا حسنت حالهم ، وإلا ساء عيشهم ؛ إذ لا مورداً آخر لهم . وقد كان أبو حيان غير موفق فى استجدائه ، ولعل سبب ذلك أنه لم يكن لبقاً ولا ماكراً — إلى طول لسان ، وإقذاع فى الهجو لمن لا يعطيه ، فعاش بائساً فقيراً ؛ ومثَّل ذلك فى أدبه فيقول : « فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومُرفق ومشفق ، ووالله لربما صلّيت فى المسجد ، فلا أرى إلى جنبى من يصلى معى ، فإن اتفق فبقال أو عصار أو نداف أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى جانبى أسدرنى بصنانه ، وأسكرنى بنتنه ؛ فقد أمسيت غريب الحال ، غريب النحلة ، غريب الخلق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملا للأذى ، بائساً من جميع ما ترى ، متوقعاً ما لا بد من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول » .

وقد خاب ظنه فيمن أملهم من مثل ابن العميد ، وابن عباد ، وابن سعدان ، وأبى الوفاء البوزنجانى ، فملأ كتبه : الصداقة والصديق ، والإمتاع والمؤانسة ، والمقابسات ، بالشكوى منهم ، ثم لم يحظ بطائل .

* * *

هذا هو الأدب فى ذلك العصر يصور المجتمع فى شتى نواحيه .

الكتاب الثاني

مراكز الحياة العقلية فى ذلك العصر

الباب الاول

مصر والشام

توالى على مصر والشام فى هذا العهد الدولة الطولونية (٢٤٥ — ٢٩٢) . ثم الإخشيدية (٣٢٣ — ٣٥٨) ، والدولة الحمدانية فى حلب والموصل (٣١٧ — ٣٩٤) ، والفاطمية من (سنة ٣٦٢ — سنة ٥٦٧) .

وكانت الحركة العلمية فيها تنمو تبعاً لسنة النشوء والارتقاء .

وأظهر الحركات العلمية فيهما الحركة الدينية من تفسير وحديث وفقه وقراءات ؛ إذ كانت هى الحركة العلمية الغالبة فى المملكة الإسلامية ، وكان رجالها أنشط العلماء ، وأميلهم إلى الرحلة للإفادة والاستفادة ، للوازع الدينى القوى عندهم . فكان يرد على مصر والشام كثيرون من العلماء الدينيين من العراق وفارس والحجاز والمغرب ، فينشرون علمهم ويأخذون ما ليس عندهم ؛ فكان مسجد عمرو بن العاص فى الفسطاط ، ومسجد أحمد بن طولون ، والأزهر فيما بعد مصدراً لثقافة دينية واسعة . كما كان المصريون والشاميون يرحلون إلى الأقطار الأخرى لأخذ العلم من علمائها .

فكان من أشهر المحدّثين والفقهاء فى العهد الطولونى وقبله الربيع بن سليمان المرادىّ بالولاء ؛ وقد امتاز بسعة الحفظ وجمع الرواية ، وإن لم يمتز بالذكاء . له الفضل الأكبر فى حفظ مذهب الشافعى وروايته ؛ فقد كان تلميذه ، وكان مقرباً إليه ؛ وقد نفعته قلة ذكائه فى اعتماده على الضبط والتثبت أكثر مما يعتمد على الذكاء والاستنتاج ؛ وأدرك الشافعى هذه الميزة فيه فقربه إليه ، وعنى بتحميله

علمه . وأفاد مصر كثيراً فإنه عُمِّر طويلا ، إذ عاش نحو ست وتسعين سنة (١٧٤ — ٢٧٠) ، فيكون قد عمّر فى العهد الطولونى نحو ستة عشر عاما . وكان يدرس فى جامع الفسطاط ؛ ثم استدعاه أحمد بن طولون إلى التدريس فى مسجده لما بناه ، وقد نشر فى مصر أحاديث الشافعى وفقهه ، كما روى أحاديث كثيرة رواها عن غير الشافعى كعبد الله بن وهب ، ويحيى بن حسان ، وأسد بن موسى . وكان قبلة أنظار المحدّثين من الأقطار المختلفة ، فيرحلون إلى مصر يأخذون عنه وعن أمثاله ، فروى عنه من جامعى الكتب الصحيحة أبو داود ، والنّسائى ، وابن ماجَه ، وغيرهم ؛ وعلى الجملة فكان الربيع بن سليمان مصدر حركة علمية دينية كبيرة .

وكما كان الربيع بن سليمان إمام الشافعية فى مصر ، كان أبو جعفر الطحاوى إمام الحنفية فيها ، وكان من طحا وهى بلدة قديمة كانت فى الوجه القبلى من أعمال « المنيا » . كان الطحاوى من عرب الأزد الذين نزلوا بها ، وتفقه على خاله المُزَنى صاحب الشافعى ، ثم تحول إلى مذهب أبى حنيفة ، وتعلم على من كان بمصر من العلماء ، ومن دخلها من الغرباء ؛ وكان مجتهداً فى المذهب يضارع أبا يوسف ومحمداً ، استفاد من جمعه بين فقه الشافعية والحنفية ، فكان يجتهد ، ويخالف أبا حنيفة عند قيام الدليل ، وينقد الحديث نقد معنى وإن صح السند فى نظر المحدّثين ؛ فكانت شخصيته غير شخصية الربيع بن سليمان ، إذ كان هذا عمدة فى الرواية ، وذاك عمدة فى الدراية . وكان من أسبق المؤلفين المصريين فى فنون مختلفة : ألّف « معانى القرآن » ، ومشكل الآثار ، وشرح بعض كتب محمد بن الحسن ، وألّف فى التاريخ والنوادر الفقهية . عاش من سنة ٢٢٩ — سنة ٣٢١ ، فعاصر الدولة الطولونية كلها ، وترك فى مصر حركة حنفية تساير حركة الربيع الشافعية ، وتمتاز بإعمال العقل فى التشريع بجانب النقل .

كما اشتهر من المالكية روح بن الفرج أبو الزّنباع الزبيرى المتوفى سنة ٢٨٢ ، وأحمد بن الحارث بن مسكين المتوفى سنة ٣١١ . وأمثال هؤلاء كثيرون لا نطيل بذكرهم .

وهذه الدراسة كانت تعتمد على تفهم معانى القرآن ورواية الحديث ، وأقوال الأئمة ، واستنباط الأحكام ، كلّ على أصول مذهبه ؛ وكانت على نمط الدراسة فى العراق موضوعا ومنهجاً ، إذ كانت رحلة العلماء فى حركة مستمرة كأن المملكة الإسلامية كلها على اتساع رقعتها بقعة واحدة .

وكان النابغون فى مصر من علماء الدين إما من أصل عربى يرجع نسبه إلى القبائل العربية الفاتحة أو الوافدة ، أو من أصل مصرى أصله قبطى وأسلم هو أو أسلم أجداده ، كما نرى فى عثمان بن سعيد الملقب بوَرْش أحد القراء المشهورين ، فأصله قبطى ، وانتهت إليه رياسة الإقراء بالديار المصرية ؛ وقد مات بمصر سنة ١٩٧ ، وخلّف من حمل عَلَم القراءة بعده ، واستمرت حركته إلى هذا العصر الذى نؤرخه .

وربما كان أكبر من يمثل الثقافة الدينية فى هذا العصر أيضاً أبو بكر بن الحداد ؛ فقد وصفوه بأنه عالم بالقرآن والحديث ، والأسماء والكنى ، والنحو واللغة ، وسِيَر الجاهلية ، والشعر والنسب ، واختلاف الفقهاء ، وكان أعلم أهل وقته ، وولى القضاء للإخشيد ، وعاش تسعاً وسبعين سنة ، ومات سنة ٣٤٤ ، وكان يلقب بفقيه مصر وفصيحها وعابدها ؛ وكان يدرّس فى جامع عمرو ، وأخذ عنه أعلام الجيل الذى بعده .

ويصف ابن زولاق سيبويه المصرى ، فيقول : « كانت فيه صفات تشبه المتصدرين : يحفظ القرآن ، ويعلم كثيراً من معانيه وقراءاته ، وغريبه وإعرابه

وأحكامه ، عالما بالحديث وبغريبه ومعانيه وبالرُّواة ، ويعرف من النحو ، والغريب ما لقب بسببه سيبويه ، ويعرف صدراً من أيام الناس ، والنوادر والأشعار ، وتفقه على قول الشافعى » .

فيكاد يكون هذا برنامجاً عاما لهذا النوع من الثقافة الدينية .

ولم تكن هناك مدارس فى العهد الطولونى والإخشيدى ، إنما تلقى الدروس فى المساجد كمسجد عمرو ، وابن طولون ، وفى بيوت الأمراء والوزراء والعلماء ، وكانت هناك سوق تسمى « سوق الورّاقين » تباع فيها الكتب ، وأحيانا تدور فى دكاكينها المناظرات[١] .

وكان بجانب الحركة الدينية حركة تعنى بتدوين أحداث مصر وتاريخها ، وتسلك فى منهجها مسلك المحدّثين ، غاية الفرق أن المحدّثين يجمعون ما روى عن رسول الله والصحابة والتابعين فيما يتعلق بالأحكام الدينية ونحوها ، وهؤلاء يروون ما قيل فى أحداث التاريخ ؛ إنما الأسلوب واحد فى الرواية رجلا عن رجل « حدثنا فلان عن فلان قال » ؛ وقد لا يدققون فى هذا الباب دقتهم فى باب الأحاديث الدينية ، ولذلك نرى من تخصص فى التاريخ أيضاً ممن كانت دراستهم أساسها الحديث والفقه ، ولنسق مثلا لذلك — حدثنا أبو الأسود النضر بن عبد الجبار ؛ قال : حدثنا ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب قال : « كان عمر بن الخطاب قد أشفق على عمرو (بن العاص عند فتحه لمصر) فأرسل الزبيرَ فى أثره فى اثنى عشر ألفاً ، فشهد معه الفتح[٢] — والمؤرخون من هذا النوع أوثق فيما نقلوه عن الفتح الإسلامى وبَعده منهم فيما نقلوه عن تاريخ قبل الفتح ، فهذا مملوء

(١) انظر أخبار سيبويه المصرى لابن زولاق ص ١٨ .

(٢) من كتاب فتوح مصر لابن عبد الحكم .

بالخرافات لجهلهم بالمصادر الصحيحة فى تاريخ اليونان والرومان ومَن قبلهم إلى قدماء المصريين .

وقد اشتهر من هؤلاء ثلاثة مؤرخين فى هذا العصر .

(١) ابن يونس : وهو أبو سعيد عبد الرحمن بن أحمد بن يونس بن عبد الأعلى من بيتٍ عرف بالحديث والفقه ، عربى الأصل من قبيلة الصَّدِف ؛ كان جده من أصحاب الشافعى ، وقد قال فيه (الشافعى) : « ما رأيت بمصر أعقل من يونس » . وانتهت إليه رياسة العلم بمصر — فجاء حفيده هذا يعنى بتاريخ مصر بعد أن تثقف بالفقه والحديث ، وقرأ ما كتبه مؤرخو مصر قبله كابن عبد الحكم وغيره ؛ وقد عاش فى العهد الطولونى والإخشيدى ، عاش من (٢٨١ — ٣٤٧) ، ووُجدت عنده العصبية لمصر يؤرخها ويعنى بحوادثها ورجالها ؛ وقد جمع لها تاريخين : أحدهما وهو الأكبر يختص بالمصريين منشأ ، والآخر صغير فيمن ورد على مصر من الغرباء ؛ وقد عنى بجمع أحوال الناس ، مطلعاً على ما ألف فيها لعصره ، واشتهر بين المصريين بذلك ، فقد قال أحد شعرائهم فى رثائه :

ما زلت تلهج بالتاريخ تكتبه	حتى رأيناك فى التاريخ مكتوبا
نشرتَ عن مصر من سكانها عَلَمًا	مبجلا بجمال القوم منصوبا
كشفت عن فخرهم للناس ما سجعت	وُرْق الحمام على الأغصان تطريبا
أعربت عن عرَب، نقّبت عن نجب	سارت مناقبهم فى الناس تنقيبا
أنشرت ميتهم حيًّا بنسبته	حتى كأن لم يمت إذ كان منسوبا

ومهما كان هذا الشعر ضعيفا ففيه دلالة على تقدير هذا المؤرخ واتجاهه فى نشر مفاخر مصر ورجالها .

(٢) الكِنْدى : محمد بن يوسف من كندة ، كان من أعلم الناس بتاريخ

مصر، وأهلها وأعمالها وثغورها، وهو مصرى نشأ بمصر ومات بها (٢٨٣ - ٣٥٠).

وقد ثقف ثقافة محدّثين، وكان أشهر أساتذته ابن قُدَيد، والنَّسائى أحد مؤلفى الصحاح؛ وقد زار النسائى مصر إذ كان عُمْر الكندى سبعة عشر عاما، وأقام بها زمناً فأخذ عنه الكندى؛ ثم عنى بتاريخ مصر، وألف فى ذلك كتباً كثيرة، فألف فى ولاة مصر وقضاتها (وقد وصل إلينا هذا الكتاب)، وألف فى خطط مصر، وكتابا فى موالى مصر؛ وقد كانت هذه الكتب مما اعتمد عليها المقريزى فى خِطَطه. وكتابه الذى وصل إلينا عن قضاة مصر وولاتها يلقى لنا ضوءاً كبيراً على حالة مصر السياسية والاجتماعية والأدبية؛ إذ يعرض للأحداث التى حدثت فى عهد كل وال، وكيف تصرف فيها، وما قيل فيها من الشعر.

(٣) ابن زُولاق: وهو الحسن بن إبراهيم الليثى بالولاء. عنى كذلك بتاريخ مصر، فأكمل أخبار قضاة مصر للكندى إلى سنة ٣٨٦، أى قبل وفاته بسنة، فقد مات سنة ٣٨٧؛ وعُنى بخطط مصر فألف فيها، وكانت خططه أساساً لمن أتى بعده من مؤلفى الخطط كالقضاعى، وابن بركات، ثم المقريزى.

كما ألف لنا كتابا فى أخبار سيبويه المصرى أحد عقلاء المجانين، فروى لنا طرفا من جيد أقواله، وغريب أحداثه، وأفادنا به فوائد كثيرة عن الحالة الاجتماعية فى العهد الإخشيدى.

وجاء مصر فى العصر الإخشيدى المؤرخ المشهور «المسعودى» بعد أن رحل إلى فارس والهند، وسيلان والصين، وطاف المحيط الهندى، ورحل رحلة أخرى إلى ما وراء أذربيجان وجرجان، ثم إلى الشام، ثم إلى مصر، ونزل الفسطاط وأقام بمصر نحو سنتين إلى أن توفى سنة ٣٤٦ — وكان مؤرخا ممتازاً على من

سبقه بكثرة تجار به من رحلاته ومشاهداته ، ودقة نظره ، وسعة اطلاعه ، والتفاته إلى آفاق واسعة فى التاريخ ، كالحياة الاجتماعية والاقتصادية ، والمذاهب الدينية ، وأصول الحضارة ، وغير ذلك ؛ وقد بعُد فى التاريخ عن أسلوب المحدّثين ، فانتقل به خطوة أخرى . ولا شك أن وجوده بمصر ونشر كتبه فيها كان له أثر كبير فى الثقافة التاريخية .

* * *

وانتقلت من العراق إلى مصر صورة من خلافات المتكلمين ، وذلك على أثر أمر المأمون بأخذ العلماء والقضاة بالقول بخلق القرآن ، وإرسال منشور لولاة الأمصار بتنفيذ ذلك ، فجاء المنشور مصر فى جمادى الثانية سنة ٢١٨ ، فامتَحن والى مصر قاضيَها ، فقال : بخلق القرآن ، وامتحن الشهود والمحدِّثين ، وكانت الحركة عنيفة عذب فيها خلق كثير ، وخاصة فى عهد الواثق . قال الكندى : «إن أمر المحنة (محنة خلق القرآن فى مصر) كان سهلا فى ولاية المعتصم ، لم يكن الناس يؤاخذون بها شاءوا أو أبوا حتى مات المعتصم ؛ وقام الواثق سنة ٢٢٧ فأمر أن يؤخذ الناس بها ، وورد كتابه على محمد بن أبى الليث (قاضى مصر) بذلك ، وكأنها نار أضرمت . . . فلم يبق أحد من فقيه ولا محدث ، ولا مؤذن ولا معلم ، حتى أخذ بالمحنة ، فهرب كثير من الناس ، وملئت السجون ممن أنكر المحنة . وأمر ابن أبى الليث بأن يكتب على المساجد : «لا إله إلا الله رب القرآن المخلوق» ، فكتب ذلك على المساجد بفسطاط مصر ، ومنع الفقهاء من أصحاب مالك والشافعى من الجلوس فى المسجد ، وأمرهم ألا يقربوه» .

وكان طبيعياً أن تثير هذه المسألة فى الجو المصرى الجدل فى الاعتزال وأصوله ، واعتنقه قوم ورفضه آخرون . ولما جاء المتوكل وأغلق هذا الباب ظل

قوم يعتنقون مذهب الاعتزال ، و يدعون إليه فى العصر الطولونى والإخشيدى ، ولكن فى شيء من الخفية ، فيذكر ابن زولاق أن أبا على محمد بن موسى القاضى الواسطى كان وجه المتكلمين بمصر ، وكان يعلّم الاعتزال ، وأنه كان بها أبو عمران موسى بن رباح الفارسى أحد شيوخ المعتزلة[١] ، وأن سيبويه المصرى كان معتزلياً ، وكان يتكلم على أصول المعتزلة ، ويقول بخلق القرآن ، والناس يحتملون منه ما لا يحتملونه من سواه للوثة كانت فيه .

وكل ذلك فى العهد الإخشيدى .

* * *

ثم ظهر فى جو مصر مظهر دينى من نوع جديد على يد ذى النون المصرى أحد مؤسسى التصوف ، والذى أحدث ضرباً من الكلام لم يعرف قبل فى مصر ؛ أصله من إخميم من صعيد مصر من أبوين نوبيين ، وأخذ العلم المعروف فى مصر من حديث وفقه ؛ ووصف بأنه كان يعرف الكيمياء ، ويقرأ الخط الهيروغليفى على البرابى ، ورحل إلى بلاد كثيرة كتاهرت بالمغرب ، و بيت المقدس وأنطاكية ، واليمن و بغداد ، ومكة والمدينة ، وقابل الرهبان وتحدث إليهم — ثم طلع على الناس فى مصر بكلام لم يألفوه ، من الكلام فى الأحوال والمقامات والحب الإلهى ، وأن مصادر المعرفة النقل والعقل ، وشيء آخر زاده هو وهو الكشف ، وأن هناك علما ظاهراً ، وعلما باطناً ، ويعرض هذه الأقوال فى أسلوب شعرى جذاب .

وطبيعى أن تلاقى هذه التعاليم معارضة من الفقهاء الذين لا يؤمنون إلا بالنقل فإن تجاوزوه فبالعقل ؛ أما الكشف وعلم الباطن والحب والفناء فشيء

---

(١) سيبويه المصرى : ١٨ .

لم يسمعوا به فعارضوه . وكان على رأس المعارضين عبد الله بن الحكم شيخ المالكية ، وابن أبي الليث قاضى مصر الحنفى القوى الجبار ؛ فكلاهما لم يرض عن ذى النون وتعاليمه ، فاضطهد واتهم بالزندقة ، وأخيراً أرسل إلى دار الخلافة ببغداد فسجن فى المطبق ، ولكن مساعى الصوفية ببغداد واتصالهم برجال المتوكل جعلت المتوكل يستدعيه و يسمع منه و يتأثر بمواعظه ، فيرسله إلى مصر مكرّماً ، و يعيش بعد ذلك تسع سنوات ينشر فيها تعاليمه آمناً مطمئناً حتى يموت سنة ٢٤٥ .

ومن ذلك الحين وجدت بمصر الحركة الصوفية ، وقويت حتى كان لها دخل فى عزل بعض الولاة . وتتابع فى مصر بعد ذى النون أقطاب الصوفية ، مثل أبى الحسن بنان بن محمد بن حمدان بن سعيد الجمال ، أصله من واسط ، وصحب الجنيد ووفد على مصر ، ورأس الحركة الصوفية ، وأنكر على ابن طولون تصرفاته وأَمَره بالمعروف ونهاه عن المنكر فى غير مبالاة ؛ فرووا أنه قدمه لأسد فلم يؤذه فشاع ذكره فى مصر ، ولما مات خرج فى تشييع جنازته أكثر أهلها . ومن كلامه : « أجَلُّ أحوال الصوفية الثقة بالمضمون ، والقيام بالأمر ، والمراعاة للسر ، والتخلى من الكونين ، والتعلق بالحق » ؛ مات بمصر سنة ٣١٦ .

☆ ☆ ☆

هذه هى الحركة الدينية فى مظاهرها المختلفة ، و بجانبها كانت حركة لغوية ونحوية عُنى بها لأنها مفتاح لفهم القرآن والسنة ، وأداة لفهم الأحكام ؛ وقد نبغ فى هذا العصر ابن وَلّاد ، وأبو جعفر النحاس .

فأما ابن ولّاد أحمد بن محمد بن الوليد فمصرى أصله من تميم ، وكان من أسرة عرفت بالنحو هو وأبوه وجده ، وقال عنه المبرد إنه شيخ الديار المصرية فى العربية ؛ وقد درس النحو ببغداد على الزجّاج ، ثم أتى مصر ينشر النحو

على طريقة العراق ، وألّف كتاب « الانتصار لسيبويه » ، وكتاب « المقصور والممدود » ، وهو يذكر فيه ما ورد من الكلام مقصوراً وممدوداً ، فيقول — مثلا — الأُنَى : واحد ساعات الليل ، مقصور يكتب بالياء . . . وإِنَى الشيء : بلوغه وإدراكه ، كذلك مقصور ، قال تعالى : « إلى طعام غير ناظرين إناه » أى بلوغه وإدراكه ... وأما الأَناء بفتح اوله فممدود ، وهو الانتظار والتأخير؛ قال الحطيئة :

وآنيت العشــاء إلى سُهيل   أو الشِّعرَى فطــال بى الأَناء

والأَناء : واحد الآنية — والأَناة : من قولهم رجل ذو أناة وهى التؤدة ؛ قال : النابغة : — الرفق يُمْن والأناة سعادة — .

ويقال : امرأة أناة ، وهى التى فيها فتور عند القيام ، والأصل وناة لأنها من ونَى يَنِى ؛ قال تعالى : « ولا تنيا فى ذكرى » .

وهكذا يأتى بكل الكلمات اللغوية التى ورد فيها القصر والمد ويشرحها ويستشهد لها ويصرّفها — وهو اتجاه لغوى طريف .

مات سنة ٣٣٢ فى الدولة الإخشيدية .

وأما أبو جعفر النحاس فمصرى عربى الأصل من مُرَاد ؛ وقد تعلم النحو كذلك فى العراق ، وأخذ عن الأخفش الصغير والمبرد والزجاج ؛ وكان هو وابن ولاد متعاصرين ، زميلين فى التعلم ببغداد وفى التعليم بمصر . وقد ألّف « إعراب القرآن » ، و « معانى القرآن » ، و « المبهج فى اختلاف البصريين والكوفيين » ، وشرح المعلقات ، وشرح المفضليات ، وشرح أبيات الكتاب (كتاب سيبويه) ، والاشتقاق ، وأدب الكُتّاب الخ .

فكانا بعلمهما مصدراً لحركة قوية لغوية ونحوية فى مصر ، وتعلم عليهما

كثيرون . وقد مات النحاس سنة ٣٣٨ بعد ابن ولاد بست سنوات .

وقد ذكر لنا المتنبي فى شعره فى كافور أنه كان يدرَّس بمصر فن «الأنساب» ، وعدّ من مضحكات مصر أن الذى كان يدرِّس أنساب العرب نبطى من أهل العراق فقال :

بها نبطىٌّ منَ اهل السواد يدرِّس أنساب أهل الفـــلا

وقد ذكروا أنه يريد ابن حِنْزَابه ، وهو متحامل عليه ؛ فابن حنزابه هذا من أفضل الناس وعلمائهم ، وهو ابن وزير العراق الخطير ابن الفرات . وكان ابن حنزابه وزيراً للدولة الإخشيدية ، وكان عالما محباً للعلماء يقربهم و يشجعهم و يصلهم بماله ، حتى قصده من علماء الأقطار الأخرى كثيرون . وكان يملى الحديث بمصر وهو وزير ، و يقصد إليه المحدّثون يسمعون روايته ، وله تآليف فى أسماء الرجال والأنساب . وقد أراد المتنبي أن يمدحه فعمل فيه قصيدته : « بادٍ هوَاكَ صبرت أم لم تصبرا » ، ولكنه لم ينشدها ، فلما غضب على كافور ، وغضب على وزيره وخرج من مصر حوّلها فى مدح ابن العميد ، وعرّض بابن حنزابه .

* * *

أما الحركة الأدبية فقد كان الشعر فيها هزيلا . ومنذ الفتح الإسلامى إلى هذا العهد الطولونى والإخشيدى لم تُخرج مصر شاعراً كبيراً يضاهى شعراء العراق أمثال أبى تمام والبحترى وابن الرومى ، وهى ظاهرة تستحق النظر ؛ فقد كانت الفنون راقية ، كما يتجلى ذلك فى عمارة الفسطاط ومسجد ابن طولون ؛ وكما كان فن الغناء لا بأس به ، كما يتجلى فى وصف القيان فى العهد الطولونى ؛ وكانت هناك العناية بالبساتين والأزهار ، ولكن مع هذا كله لم تنبغ الشاعرية لا فى العرب الذين وفدوا إلى مصر وأبنائهم ، ولا فى المصريين الصميمين ممن

تعلموا العربية ؛ فنجد الفقيه المصرى الذى يضاهى أئمة العراق كالليث بن سعد ، ونجد المحدث الذى يشابه أكبر محدثى العراق كابن لَهيعة ، والنحوى الذى يضاهى نحويى البصرة والكوفة كابن ولاد ، ونجد أتباع الأئمة فى هذه العلوم يشبهون الأتباع فى العراق ، ولكن لا نجد الشاعر النابغ هنا الذى يساوى الشاعر النابغ هناك ، فهل هذا لأن الشعر كان لا يرقى إلا فى بلاط الخلفاء ؟ أو أن نبوغ الشعراء كنبوغ العظماء والزعماء خاضع لقوانين لم تستكشف بعد ، أو لغير ذلك من أسباب ؟

على كل حال كان أشهر شعراء مصر فى العهد الطولونى الحسين بن عبد السلام المعروف بالجمل ، لم يصلنا شعره كاملا ، وإنما هى نتف هنا وهناك ؛ قال فى مديح أحمد بن طولون :

له يدٌ كم خَلّدت من يدٍ سحابة عمت بأنوائها
وهو لدى الهيجاء ليثٌ إذا ما ثقلت قامت بأعبائها
انظر إلى مصر بسلطانه تر الهدى فاضَ بأرجائها

وربما تظهر مصريته فى ميله إلى الفكاهة ، كقوله فى ابن المدبِّر صاحب خراج مصر ، وكان الشاعر إذا مدحه ولم يرتض شعره أمر من يحمله إلى المسجد ، ويفرض عليه أن يصلّى عدداً معلوما من الصلاة ، فقال الجمل :

قصدنا فى أبى حسن مديحاً كما بالمدح تُنْتَجَع الولاة
فقالوا يقبل المَدَحات لكن جوائزه عليهن الصَّلاة
فقلت لهم وما تغنى صلاتى عيالى ؟ إنما الشأن الزكاة
فيأمر لى بكسر الصاد منها فتصبح لى الصِّلاة هى الصِّلاتُ

وله شعر رواه الكندى فى أخبار القضاة ، كان يقوله فى المناسبات عندما يحدث فى مصر بعض الأحداث .

كما كان هناك شعراء آخرون فى العهد الطولونى والإخشيدى فى مثل منزلة الجمل ؛ ولذلك لما جاء المتنبى مصر فى عهد كافور ابتلعهم كما يبتلع الحوت الكبير السمك الصغير ، ولم يستطع أن يجاريه منهم أحد .

وربما كان حظ النثر الفنى أكبر من حظ الشعر ، كما يتجلى ذلك فيما بقى لنا من رسائل « ابن عبد كان » ككتابه الذى كتبه على لسان أحمد بن طولون لابنه لما خرج عليه ؛ ففيه المسحة العراقية ، جمعت بين طول نَفَس الجاحظ ، وجزالة عمرو بن مسعدة ، مع ميل إلى السجع كثيراً ، والمزاوجة دائماً ، وإطناب فى اللفظ ، وتكرار للمعنى من مثل قوله : « واعلم أن البلاء بإذن الله قد أظلك ، والمكروه إن شاء الله قد أحاط بك ، والعساكر بحمد الله قد أتتك كالسيل فى الليل ، تؤذن بحرب وويل ، فإننا نُقسم ، ونرجو ألا نجور ونظلم ، ألاّ نثنى عنك عنانا ، ولا نؤثر على شأنك شانا ، ... منفقين كل مال خطير ، ومستصغرين بسببك كل خطب جليل ، حتى تستمرّ من طعم العيش ما استحليت ، وتستدفع من البلايا ما استدعيت الخ »[1] .

وكما يتجلى فى كتاب المكافأة لأحمد بن يوسف المعروف بابن الداية ؛ فقد ألفه فى العهد الطولونى ، وبناه على قصص لمن عملوا الجميل فكوفئوا عليه بالجميل ؛ فموضوعه طريف ، وعَرْضه فى أسلوب قوى جزل متين .

* * *

إلى جانب هاتين الحركتين الدينية والأدبية ، كانت حركة العلوم الفلسفية التى تشمل الطب والنجوم والإلهيات وما إليها ، وهى بقية من بقايا مدرسة الإسكندرية ؛ وقد كانت لا تزال باقية فى مصر ، وإن ضعفت بالفتح الإسلامى ،

---

(١) الكتاب بطوله فى صبح الأعشى : ٥/٧ وما بعدها .

و إقبال الناس على الثقافة العربية يتعلمون لغتها ، و يبحثون فيما أتت به من دين . فاتجهت أكثر الثقافة إلى الاشتغال بالدين الإسلامى وعلومه ، واللغة العربية وعلومها ، و بقيت بقية قليلة للفلسفة وما إليها ، كان أكثرها من رجال الدين النصرانى لامتزاج النصرانية بالأفلاطونية الحديثة ، عند ما اختلف النصارى فى عقائدهم ، وتجادلوا فى مذاهبهم ، والتجأ كل مذهب إلى الاستعانة بالفلسفة اليونانية فى تأييد رأيه .

وكان أمراء مصر وولاتها يحتاجون إلى الأطباء والمنجمين ، وقل أن يجدوهم إلا فى النصارى . والطب والتنجيم فرعان من فروع الفلسفة اليونانية ، كان من اشتغل بهما مضطرا أن يقرأ الفلسفة اليونانية فى إلهياتها وطبيعتها وكيميائها .

فاشتهر من هؤلاء : سعيد بن نوفل النصرانى طبيب ابن طولون ؛ كما اشتهر سعيد بن البطريق ، « وكان طبيباً نصرانيا من أطباء فسطاط مصر ، وكانت له دراية بعلوم النصارى ومذاهبهم . . وقد عين بطريركا على الإسكندرية ومات سنة ٣٢٨ ، وله كتب فى الطب ، والجدل بين المخالف والنصرانى الخ »(١) .

وقد ترجم كتاب الحيوان لأرسطو ، وكتاب السماء والعالم لأرسطو أيضاً .

على أن بعض علماء المسلمين المصريين كان يتصل بهذه الحركة و يتصل برجالها و يقرأ كتبها ؛ فابن الداية الذى سبق ذكره كان — كما يقول ياقوت — أحد وجوه الكتاب الفصحاء والحسَّاب والمنجمين ، مجسطى ، إقليدسى ، حسن المجالسة ، حسن الشعر » ، ونجده ينقل فى كتابه المكافأة عن أفلاطون ؛ ونجد ذا النون المصرى الصوفى المشهور يتحدث عن الرهبان ، ويروون

---

(١) انظر طبقات الأطباء : ٢/٨٦ .

فى ترجمته أنه كان يعرف : السحر ، والطلسمات ، والكيمياء . ويعقد الأستاذ نيكلسون ما فى بعض أقواله من شبه بينها و بين أقوال « الأفلاطونية الحديثة » .

من هذا نفهم أنه كانت هناك حركة فلسفية فى مصر من أثر مدرسة الإسكندرية ، ومن أثر الوافدين من العراق ، بما ترجموا من كتب ، وأن بعض العلماء المصريين اشتغل بها وتأثر وتثقف ، و إن كان ذلك فى دائرة ضيقة إذا قيست بدائرة علوم الدين واللغة .

* * *

وكانت الحركة العلمية فى الشام فى العهد الطولونى والإخشيدى صورة للحركة فى مصر ، وربما كانت أصغر منها ، لأن مركز الولاة الطولونيين والإخشيديين فى مصر ، ولأن مصر كانت أغنى ؛ وكثيراً ما كان يزدهر العلم فى ظل البلاط وتشجيع الأمراء وكثرة المال ؛ إلا فن الشعر فقد كان فى الشام أرقى منه فى مصر ، كما سيأتى .

فكان فى الشام طائفة كبيرة من المحدثين والفقهاء والصوفية والقراء — أمثال إخوانهم فى مصر ؛ فالإمام الأوزاعى البيروتى المتوفى سنة ١٥٧ كان له من الأثر فى الشام فى الحديث والفقه ما لليث بن سعد والشافعى بمصر . واشتهر بها كثير من المحدثين والفقهاء فى هذا العصر كزكريا بن يحيى السِّجْزِى المتوفى سنة ٢٨٩ ، وكان يعرف بخياط السنّة ؛ ومحمد بن عوف الطائى الحمصى المتوفى سنة ٢٦٩ ، وكان أعرف الناس بالأحاديث التى رويت فى الشام ؛ وأبى بكر محمد بن بركة الحميرى اليحصبى القنسرينى وأمثالهم كثير .

وانتشرت حركة التصوف من مصر إلى الشام عن طريق ذى النون المصرى وأصحابه ؛ فظهر فى الشام طاهر المقدسى ، أخذ التصوف عن ذى النون المصرى وغيره

وسماه الشبلى « حبر الشام » ، ورويت عنه أقوال كثيرة فى التصوف كقوله : « المفاوز إليه منقطعة ، والطرق إليه مطمسة ، والعاقل من وقف حيث وقف العوام » . كما ظهر أبو عمرو الدمشقى ، أخذ التصوف عن أصحاب ذى النون وغيرهم ، مات سنة ٣٢٠ ، وكان يقول : التصوف غض الطرف عن كل ناقص ، ليشاهد من هو منزّه عن كل نقص . وأبو إسحاق الرقّى كان من أكبر مشايخ الشام ومتصوفيها ، مات سنة ٣٢٦ الخ .

ويكاد يكون الطابع لحركة الحديث والفقه والتصوف فى مصر والشام ، طابعاً واحداً لقرب القطرين ، وتبادل العلماء الزيارة والرحلة ، حتى كان كثير منهم يصعب عده مصريا أو شاميا لتوزع عمره وحياته العلمية بين القطرين .

* * *

وكما كان لمصر فضل فى اتجاه بعض العلماء لتدوين تاريخها وخططها على يد ابن عبد الحكم ثم ابن يونس ثم الكندى ثم ابن زولاق ، كان للشام فضل من نوع آخر على يد أبى عبد الله محمد بن أحمد المقدسى (٣٣٦ إلى نحو سنة ٣٨٠) ، فقد رأى أن المملكة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى لم توصف وصفا كافيا لا من ناحيتها الجغرافية ، كوصف المفاوز والبحار والبحيرات والأنهار والمدن والأمصار والنبات والحيوان ، ولا من الناحية الاجتماعية كاللغات والألوان والمذاهب والنقود والمزايا والعيوب ، والسعة والخصب والضيق والجدب — ولم يعجبه ما كتبه مَن قبله ، وشعر بقصور المؤلفات فى ذلك فجرد نفسه لهذا وطاف أكثر البلاد الإسلامية ، وكتب كتابه : « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، وكان فيه من أصدق الرحالين ملاحظة ، وأدقهم نظراً ، وأحسنهم لموضوعه ترتيبا ؛ وقد عمل كل حيلة والتحق بكل صناعة ، وتحمل كل مشقة ، وأنفق فوق

عشرة آلاف درهم ، وعرّض نفسه لكل خطر فى سبيل الحصول على المعرفة ، وجاءته فكرة « الخرائط » فعملها فى كتابه هذا . بل جاءته فكرة الخرائط الملونة ، واختيار الألوان المناسبة ؛ فالحدود والطرق بالحمرة ، والرمال بالصفرة ، والبحار بالخضرة ، والأنهار بالزرقة ، والجبال بالغبرة .

وقد ساح فى جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب ، ثم بلاد فارس والسند والهند . وألف كتابه هذا بعد هذه الرحلة سنة ٣٧٥ ، فكان له الفضل الأكبر فى هذا الباب .

* * *

ولكن لعل أكبر حركة فى الشام وأعظمها فى الأدب واللغة وعلومها ، كانت فى ذلك العصر فى بلاط الأمراء الحمدانيين فى حلب ، وخاصة أيام سيف الدولة — فقد فاقت حركة الشعر واللغة والنحو وما إليه نظيرتها فى مصر ، وربما فى العراق أيضاً ؛ قال الثعالبى : « لم يزل شعراء عرب الشام وما يقاربها أشعر من شعراء عرب العراق وما يجاورها — فى الجاهلية والإسلام — والكلام يطول فى ذكر المتقدمين منهم ؛ فأما المحْدَثون نخذ إليك منهم : العَتّابى ، ومنصور النَّمَرى ، والأشجع السُّلَمى ، ومحمد بن زرعة الدمشقى ، وربيعة الرَّقِّى — على أن فى الطائيَّيْن (يعنى أبا تمام والبحترى) اللذين انتهت إليهما الرياسة فى هذه الصناعة كفاية ، وهما هما ، . . . فأما العصريون ففيما أسوقه من غرر أشعارهم أعدل الشهادات على تقدم أقدامهم والسبب فى تبريز القوم قديماً وحديثاً — فى الشعر قربُهم من خطط العرب ، ولا سيما أهل الحجاز ، و بعدهم عن بلاد العجم ، وسلامة ألسنتهم من الفساد العارض لألسنة أهل العراق بمجاورة الفرس والنبط ومداخلتهم إياهم ؛ ولما جمع شعراء العصر من أهل الشام بين

فصاحة البداوة ، وحلاوة الحضارة ، ورزقوا ملوكا وأمراء من آل حَمْدان و بنى ورقاء ، هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين آداب السيف والقلم ، وما منهم إلا أديب جواد يحب الشعر وينقد ، و يثيب على الجيد منه فيجزل و يفضل ، انبعثت قرائحهم فى الإجادة فقادوا محاسن الكلام بألين زمام ، وأحسنوا وأبدعوا ما شاءوا . وأخبرنى جماعة من أصحاب الصاحب ابن عَبّاد أنه كان يُعجَب بطريقتهم المثلَى التى هى طريقة البحترى فى الجزالة والعذوبة ، والفصاحة والسلاسة ، ويحرص على تحصيل الجديد من أشعارهم ، و يستملى الطارئين عليه من تلك البلاد ما يحفظونه من تلك البدائع واللطائف حتى كتب دفتراً ضخم الحجم عليها ، وكان لا يفارق مجلسه ولا يملأ أحد منه عينه غيره ، وصار ما جمعه فيه على طرف لسانه ، وفى سن قلمه ، فطوراً يحاضر به فى مخاطباته ومحاوراته ، وتارة يحله أو يورده كما هو فى رسائله[1] . وقد ذكر أنه تخرج فى هذه المدرسة الحلبية الحمدانية أبو بكر الخوارزمى ، والقاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى مؤلف « الوساطة بين المتنبي وخصومه » .

كانت ميزات سيف الدولة — وإن شئت فقل وعيوبه أيضاً — مشجعة على النهوض بالشعر والأدب والعلم إلى غاية بعيدة ؛ فهو عربى من تَغْلِب يعتز بنسبه ومجد بيته ، وفيه الطباع العربية التى فى البيوتات الكبيرة ، يطمح كل الطموح لحسن الأحدوثة ، ولذلك كان يهمه أن يكون حوله أعاظم الشعراء يشيدون بذكره ويسير شعرهم فى الآفاق مدحا فيه ؛ ثم هو فارس فيه صفات الفروسية من إباء ونخر ونصرة للضعيف ، ومعونة للبائس والفقير ، يرى المجد والمروءة فى الزهادة فى المال للاعتزاز بالمجد ، والإغداق على الأصدقاء والشعراء وسيلةً

---

(١) يتيمة الدهر : ١/٦ وما بعدها .

للمطمح ؛ يهمه جانب الإنفاق كيف يغدق أكثر مما يهمه جانب العدل فى تحصيل المال كيف يجمع ، ولهذا يوم مات كثر البكاء منه والبكاء عليه ، كما وصفه بعضهم — الصفتان البارزتان فيه هما مجد العرب : الشجاعة والكرم ، وهما عنصرا المروءة التى كثر تمدح العرب بها ، إلى ملكة جيدة فى تقدير الشعر وتذوقه ، والإعجاب بجيده إعجابا لا قيمة المال بجانبه .

عرف الشعراء والأدباء والعلماء ذلك كله منه فقصدوه من كل جانب ، و بالغوا فى تحسين بضاعتهم وتجويد فنهم ، و إحسان عَرْضهم ، فنالوا منه ما تمنوا ، وكان ذلك نعمة على الفنون والعلوم ، وثروة بقيت على الزمان ، وإن ضاعت به ثروة آل حَمْدان .

فهو يصوغ دنانير خاصة للصِّلات وزن كل دينار عشرة مثاقيل ، عليها اسمه وصورته ، و يعطى منها البَبَّغاء الشاعر فيقول :

نحن بجود الأمير فى حَرَمٍ   نرتع بين السعود والنِّعمِ
أبدعُ من هـــذه الدنانر لم   يَجْرِ قديماً فى خاطر الكرم
فقد غدت باسمه وصـــورته   فى دهرنا عُوذة من العَدَمِ

فيعطيه سيف الدولة عشرة أخرى .

ولما عزم أبو إسحاق الصابى على الرحيل من حلب طُلب إليه أن يقول شيئاً فى سيف الدولة ، فقال ثلاثة أبيات ، فأعطاه كيساً مختوما بختم سيف الدولة فيه ثلثمائة دينار(١) — وجاء إليه القاضى أبو نصر محمد النيسابورى ، فطرح من كمه كيساً فارغاً ودُرْجا فيه شعر استأذنه فى إنشاده فأذن له ، فأنشد قصيدة أولها :

حَبَاؤك معتاد وأمرك نافذٌ   وعبدك محتاج إلى ألف درهم

---

(١) اليتيمة : ١/١٤ .

فأمر له بألف دينار فجملت فى الـكيس الفارغ الذى كان معه[١] .

ولما أنشده المتنبى قصيدته التى يقول فيها :

يا أيها المحسن المشكورُ من جهتى والشكر من قِبَل الإحسان لا قِبَلى

أقِلْ أنِلْ أَقْطِـع احملْ عَلِّ سَلِّ أَعِدْ زِدْ هَشّ بَشّ تفضَّلْ أَدْنِ سُرَّ صِلِ

وقّع سيف الدولة تحت كل كلمة من هذه ، فوقع تحت أنِلْ : نحمل إليك من الدراهم ما تحب ؛ وتحت «أقطع» : أقطعناك ضيعة كذا بباب حلب ؛ وتحت سر : قد سررناك . فقال المتنبى : إنما أردت من التسرى ، فأمر له بجارية[٢] الخ .

وذاع صيته بالعطاء والجود فى سائر الأقطار الإسلامية ، فقصده الفقراء والمُعْوِزون ، فكان يُكتب إليه فى حوائج المحتاجين من العلماء ومن نكبهم الدهر بعد عزة . ووضع بديع الزمان الهمذانى مقامة من مقاماته سماها المقامة الحمدانية ، أسسها على أن سيف الدولة قد حضر مجلسه جماعة من الأدباء . وقد عُرض عليه فرس جميل ، فقال سيف الدولة للأدباء : « أيكم أحسنَ صفته جعلته صلته » ، فوصفه أبو الفتح الإسكندرى (بطل مقامات البديع) فأعطاه له ، والقصة بالضرورة خيالية ، ولكنها تمثل صورة سيف الدولة فى أذهان الأدباء .

ثم كان مجلسه مجلساً ممتازاً ؛ فقد منح ذوقا وقدرة على فهم الأدب و إدارة الحديث فى المجالس ، واستخراج أفضل ما عند العلماء والأدباء بالعطاء والتنافس ، فأحياناً يقول البيت و يطلب من الشعراء أن يجيزوه ، فيقول مرة من يجيز هذا البيت :

لك جسمى تُعِـــلّهُ فدمى لِمْ تُحِـــلُّه ؟

---

(١) ابن خلكان : ٥٢١/١ . (٢) العكبرى : ٧٩/٢ .

فيجيزه أبو فراس :

أنا إن كنت مالـكا فَلِيَ الأمر كلّه

و ينقد المتنبي مرة في قوله :

وقفتَ وما في الموت شكٌّ لواقفٍ كأنك في جَفن الردى وهو نائم

تمر بك الأبطال كَلْمَى هزيمة ووجهــك وضّاح وثغرك باسم

و يفضل سيف الدولة أن يكون نظام البيتين هكذا :

وقفت وما في الموت شك لواقف ووجهك وضــاح وثغرك باسم

تمر بك الأبطال كلمى هزيمة كأنك في جفن الردى وهو نائم

ثم يتجادلان في ذلك ، كلٌّ يؤيد وجهة نظره[١] .

وسأل جماعة من العلماء بحضرته يوماً ، هل تعرفون اسما ممدوداً وجمعه مقصور ؟ فقال ابن خالويه : إني أعرف اسمين لا أقولهما إلا بألف درهم ، لئلا يؤخذا بلا شكر ، وهما : صحراء وصحارى ، وعذراء وعذارى .

وكتب الأدب فيها الـكثير مما دار في مجلس سيف الدولة بين المتنبي وخصومه مما سبب رحيله .

فلا عجب أن يكون بلاطه أزهى بلاط في عصره . يقول الخوارزمي ، حنينا لأيام قضاها فيه : « وقد رأيت في هذه الحضرة (حضرة أبي محمد العلوى بأصبهان) أقواما كنت شاهدتهم على باب سيف الدولة ومنهل الصفا عذب ، وعود الشباب رطب ، وذكرت بهم مآرب هنالك ، وأياما سُلبتها سلبا ، ونزعت من يدى غصبا ، ودهرا كأني كنت أقطعه وثباً »[٢] .

---

(١) انظر اليتيمة : ١/١٣ . (٢) رسائل الخوارزمي : ١٧١ .

فالمتنبى قال فيه أحسن شعره وأقواه وأصدقه عاطفة ، لأن سيف الدولة كريم يغدق على الشعراء كما قال الشاعر :

لئن جاد شعر ابن الحسين فإنما لأجل العطايا ، واللُّها تفتح اللَّها

ولأن أبا الطيب وجد فى سيف الدولة إلى جانب كرمه فروسية واعتزازا بالعربية وحياة حربية ، وطموحا إلى المجد ، وكلها صفات ينزع إليها المتنبى ويراها مَثَله ؛ فكان المتنبى يتغنى بمَثَله محققاً فى سيف الدولة ، ولو لم يكن سيف الدولة لكان المتنبى شيئاً آخر . وشعره بعد أن فارقه شعر صناعة إلا ما كان من عتبه على الزمان وحديثه عن نفسه . وقد صدق إذ قال بعد أن مدح سيف الدولة :

لا تطلبنَّ كريماً بعد رؤيته إن الكرام بأسخاهم يداً خُتموا

وهذا أبو فراس ابن عم سيف الدولة ، والذى يصغره بنحو عشرين عاما ، قد نشأ فى حضانة سيف الدولة ورعايته بعد أن قتل أبوه ، وتعلم فى ساحته وغزا معه بعض غزواته ؛ فقد قال أبو فراس : « غزونا مع سيف الدولة وفتحنا حصن العيون فى سنة ٣٣٩ ، وسنى إذ ذاك تسعة عشر عاما » . وقد أخذ أسيراً فى إحدى غزواته للروم وأرسل إلى القسطنطينية ، وبقى فيها أربع سنوات قال فيها أحسن شعره ؛ وقد أرسل أكثره إلى سيف الدولة طالباً منه أن يفديه ، عاتباً أحياناً ، شاكياً أحيانا . وإنما كان أحسن شعره لأن وقوعه فى الأسر وبعده عن وطنه أهاج شاعريته ورقق عاطفته ، فامتلأ شعره برقة الحنين ، وحلاوة الحب ، وذل الأسر :

دعوتك للجفن القريح المسهّد لدىّ وللنوم القليل المشرّد
وما ذاك بُخلا بالحياة وإنها لَأَولُ مبذول لأول مُجتدى
ولكننى أختار موت بنى أبى علَى سروات الخيل غير موسَّد

وآبَى وتأبى أنــ أموت موسداً   بأيدى النصارى موت أكمد أكبد

* * *

فلا تقعدن عنى وقد سيم فديتى   فلستَ عن الفعل الـكريم بمُقعد
فـكم لك عندى من أيادٍ وأنعم   رفعت بها قدرى وأكثرت حُسَّدى

* * *

أقلنى أقلنى عثرة الدهر إنه   رمانى بنَصل صائب النحر مُقصد
ولو لم تنل نفسى ولاءك لم أكن   لأوردها فى نصره كل مورد
ولا كنت ألقى الأَلف زُرقا عيونها   بسبعين ، فيها كل أشأم أنـكد

* * *

وإنك لَلمولى الذى بك أقتدى   وإنك لَلنجم الذى بك أهتدى
وأنت الذى عرّفتنى طرق العلا   وأنت الذى أهديتنى كل مَقصد الخ

ويرثى لحال أمه فى قصيدته :

مصابى جليل والعزاء جليل   وظنى بأن الله سوف يُزيل

ويبكى وطنه :

ومن مذهبى حب الديار وأهلها   وللناس فيما يعشقون مذاهب

الخ . . . الخ .

فإن استخرج سيف الدولة من المتنبى مديحاً رائعاً ، فقد استخرج من أبى فراس أسى رائعاً .

وكان فى بلاط سيف الدولة أبو العباس النامى ، وكان من خير الشعراء ، وكانت منزلته عند سيف الدولة تلو منزلة المتنبى ، يقول فى سيف الدولة :

إذا ما علىٌّ أمطرتك سماؤه   رأيت العلا ، أنواؤها تتحلّب

يرجّى ويخشى ضره وهو نافع   كذا البحر فى أزّانه متهيّب
يروع و يبدو الأنس منه كأنه الـــهوى لذعه بين الجوانح يَعْذُب
وأزهر يبيضُّ الندى منه فى الرضا   وتحمرّ أطراف القنا حين يغضب

ثم كذلك أبو الفرج البَبّغاء أمضى شبابه وزهرة عمره فى بلاط سيف الدولة ، ثم آخر عمره فى بغداد .

كذلك كان من شعرائه الوأواء الدمشقى ، وهو شاعر مطبوع ، عذب العبارة حسن الاستعارة ، جيد التشبيه .

ومن شعره فى سيف الدولة :

من قاس جدواك بالغمام فما   أنصف فى الحـكم بين الاثنين
أنت إذا جُدت ضاحك أبدا   وهو إذا جاد باكىَ العين

ومن شعرائه « الخالديان »[١] أبو بكر محمد بن هاشم ، وأبو عثمان سعيد بن هاشم ، وهما أخوان . وقد كانا قيّمين على مكتبة سيف الدولة ، قال ابن النديم : قال أبو بكر (وهو أحد الخالديين) — وقد تعجبت من كثرة حفظه وسرعة بديهته ومذاكراته — إنى أحفظ ألف سَمَر ، كل سمر فى نحو مائة ورقة . وكانا مع ذلك إذا استحسنا شيئاً غصباه صاحبه حياً أو ميتاً ، لا عجزاً منهما عن قول الشعر ، ولـكن كذا كانت طباعهما »[٢] — وقد ألفا فى اختيار شعر بشار ، وابن الرومى ، والبحترى ، ومسلم بن الوليد .

كما كان من شعرائه ابن نُباتة السّعدى ، وله فيه مدائح كثيرة .

و يطول بنا القول لو عددنا كل ما كان فى بلاطه من شعراء ، وحسبنا أن نقول إن هذا الجو الذى خلقه سيف الدولة حث كل من كان عنده شاعرية

(١) النسبة إلى الخالدية بلدة بالموصل .   (٢) فهرست ابن النديم : ١٦٩ .

على قول الشعر والإجادة فيه ؛ فقيّما المكتبة وهما الخالديان صارا شاعرين ، و بائع البطيخ وهو الوأواء الدمشقى صار شاعراً كبيراً ، وكشاجم (وهى كلمة مركبة من الكاف من كاتب ، والشين من شاعر ، والألف من أديب ، والجيم من جواد ، والميم من منجّم) قالوا إنه كان طباخ سيف الدولة ، ومع هذا كان شاعراً ظريفاً ، له ديوان ، وله كتاب «أدب النديم» ، و «خصائص الطرب» ، و «المصايد والمطارد» .

ثم كان من أشهر خطباء سيف الدولة ابن نُبَاتة الفارقى صاحب الخطب المشهورة — وهو غير ابن نباتة السعدى الذى تقدم ذكره — وامتلأت خطبه بالدعوة إلى الجهاد ليحث الناس على نصرة سيف الدولة فى غزواته للروم .

* * *

ثم كان فى بلاطه من يعدّ من أشهر اللغويين والنحويين فى زمانه ، أبو على الفارسى ، وابن خالويه ، وابن جنى ؛ فأما أبو على الفارسى فكان أكبر نحوى عالم بالعربية فى زمنه ، عاش فى حلب مدة وفى العراق مدة ، و يعد هو وتلميذه ابن جنى مؤسسى مدرسة فى النحو والصرف تستخدم القياس إلى أقصى حد ولا تقف عند النص ، فالفرق بينها و بين غيرها كالفرق بين الحنفية فى اعتمادهم الكبير على القياس ، والمالكية فى الاعتماد على الحديث .

لقد رحل أبو على إلى حلب سنة ٣٤١ ، ونزل فى ساحة سيف الدولة وشارك فى اجتماعاته الأدبية ، وكان بينه و بين المتنبى مناظرات فى مسائل نحوية ولغوية .

وابن جنى تلميذ أبى على الفارسى ، وموسّع مبادئه النحوية والصرفية ؛ و إذا عبرنا فى النحو والصرف تعبيرنا فى الفقه ، قلنا إنه مجتهد فيهما له آراء مبتكرة واتجاهات انفرد بها[١] .

---

(١) انظر ما كتب عنه فى هذا الجزء قبل .

وقد توثقت الصلة بين ابن جنى والمتنبى فى بلاط سيف الدولة ، فكان يناظره فيما يرد فى شعره (المتنبى) مما يشبه أن يكون خروجا على النحو أو اللغة ، حتى قال فيه المتنبى : « هذا رجل لا يعرف قدره كثير من الناس » . وقد شرح ديوان المتنبى شرحا استفاد منه كل من شرح الديوان بعده ، لاتصاله بالمتنبى ومعرفته بظروف شعره التى كثيراً ما تحدد المعنى ، وتمنع التأويلات .

وابن خالويه من أكبر الأئمة فى زمنه فى اللغة والنحو والأدب وعلوم القرآن . وقد دخل حلب فى أيام سيف الدولة ، وكان إمام مجلسه . وله مع المتنبى مناظرات كانت فى بعضها حادة ، ولم تكن العلاقة بينهما حسنة ؛ فالمتنبى لم يقدر علمه التقدير الجليل ، وابن خالويه لم يقدر شعره التقدير الواجب ، ثم كانا يتحاسدان ويتغايران على قرب المنزلة من سيف الدولة ، فكان فى القصر حزبان : حزب للمتنبى منه ابن جنى النحوى وأبو الفرج الببغاء الشاعر ، وحزب عليه منه ابن خالويه اللغوى وأبو فراس الشاعر .

* * *

ثم كان فى بلاط سيف الدولة الفيلسوف الكبير الفارابى ، درس فى بغداد ؛ ثم جذبته شهرة بلاط سيف الدولة فى حلب ، فرحل إليه وأقام فى كنفه لا يأخذ منه من المال إلا ما يسد رمقه (أربعة دراهم فى اليوم) ، ويعيش عيشة التصوف ، ويعلّم طلابه فى الحدائق التى حول حلب ، ويكتب كتبه فى المنطق والإلهيات والسياسة والرياضة والكيمياء والموسيقى — وقد بقى فى الشام إلى أن مات سنة ٣٣٩ .

وكان حوله أطباء يعنون بالطب وبالفلسفة ، إذ كان الطب فرعا من فروعها . ويذكر ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء أن سيف الدولة كان له أربعة وعشرون

طبيباً منهم عيسى الرَّقِّى . وكان سيف الدولة يعطى عطاء لـكل عمل ، وكان عيسى الرقى يأخذ أربعة أرزاق ، رزقا بسبب الطب ، ورزقا بسبب ترجمة الـكتب من السريانى إلى العربى ، ورزقين بسبب علمين آخرين(١) .

* * *

هذا بلاط سيف الدولة يزخر بالشعر والمناظرات اللغوية والنحوية ، ويزينه الفارابى بفلسفته ، ويشعّ هذا النتاج فى المملـكة الإسلامية كلها وخاصة الشام .

ومنه يستنشق أبو العلاء المعرى أول عهده بالدراسة ؛ فقد ولد بالمعرة سنة ٣٦٣ وهى بلدة تابعة لحلب . ولئن كان سيف الدولة قد مات قبل ولادة أبى العلاء بثمان سنين ، فإن الحركة العلمية والأدبية بها لم تكن ماتت ، فشعر الشعراء يُروى ، وتلاميذ ابن خالويه وابن جنى يروون علمهما باللغة والأدب والنحو والصرف ، وتلاميذ الفارابى يروون فلسفته . فلما انتقل أبو العلاء من المعرة إلى حلب للدرس وجد كل ذلك مهيأ فاستفاد منه ؛ وجد الناس يروون شعر أبى الطيب ويعجبون به فسمع منهم ، وسمع محمد بن عبد الله بن سعد النحوى راوية أبى الطيب ، وسمع من تلاميذ ابن خالويه ، فيقول فى بعض رسائله « حدثنى أبو القاسم المبارك عن ابن خالويه » ؛ ولا بد أن يكون لقى بعض تلاميذ الفارابى وأخذ عنهم . وقد أقام أبو العلاء فى حلب نحو عشر سنوات ينهل من موارد العلم ؛ فحركة الأدب واللغة والفلسفة التى أحياها سيف الدولة لها فضل على أبى العلاء وغيره من العلماء والأدباء .

* * *

(١) طبقات الأطباء : ٢/١٤٠ .

ثم جاءت الدولة الفاطمية فبسطت سلطانها على مصر والشام ، والحق أنها أتت بحركة علمية عظيمة نشيطة . وقدّمت العلم والأدب والفن فى مصر والشام خطوات ، حتى لا يعد شيئاً بجانبها ما كان فى العهد الطولونى والإخشيدى ، و يصح أن تقارن وتساوَى بما كان فى العراق وخاصة العلوم العقلية والفلسفية فإنها نبغت فيها . و يرجع ذلك إلى أمور :

أولها : أن الفاطميين جاءوا بمذهب شيعى له أسس ودعائم تخالف ما كان عليه أهل السنة فى مصر والعراق ، كعصمة الأئمة ونحو ذلك ، وتأتى بشعائر ظاهرة مخالفة لشعائر السنيين كذلك ، كالأذان بحى على خير العمل ، والاحتفاء بعاشوراء وعيد الغدير ؛ فإتيان الفاطميين بهذا أوجد حركة عنيفة للتأييد من جهة والتفنيد من جهة ، فهبّ علماء من مصر يفندون هذه الآراء ، وكان العراقيون أجرأ لأنهم غير خاضعين لسلطانهم كالمصريين والشاميين . ولجأ الخليفة العباسى إلى العلماء يستحثهم على القول بفساد النسب الباطنى ، كما لجأ إلى الغزالى يستدعيه لتأليف كتاب « فضائح الباطنية » ؛ وهكذا كل هـذه العقول تتحرك وتجتهد وتؤلف وتجادل وتناضل ، فـكان من هذا النشاطُ العقلى الـكبير ، واستتبع ذلك نشاط الفاطميين فى إيجاد المـكاتب ومجالس الدعاة فى القصر والمساجد و بيوت العظماء ، وتأليف الـكتب ، وتنظيم الدعوة وغير ذلك .

وكان أن التجأ الفاطميون إلى الفلسفة اليونانية يستعينون بها على تأييد الدعوة الشيعية ، و يستمدون الآراء من أقوال أفلاطون وأرسطو ، وسائر حكماء اليونان ، كما فعلت الأديان الأخرى عند اشتداد الجدل ، كالنصارى واليهود عند افتراقهم فرقا ، وكما فعل المعتزلة عند جدالهم مع اليهود والنصارى ، وهذا سبب من أسباب تشجيع الفاطميين للفلسفة .

ثم كان أن رأينا عهد الفاطميين فى مصر والشام مصحوباً بتسامح شديد مع اليهود والنصارى ، واستخدامهم فى أدق شؤون الدولة وتسلطهم على كثير من أمورها ؛ ولعل أس دعوتهم كان توحيد العالم الإسلامى تحت سلطانهم من غير مراعاة عصبية دينية ولا جنسية ، فكانوا يخاطبون كل قوم بما يقربهم إلى الدعوة ، وكان من ذلك تسامحهم مع اليهود والنصارى واستخدامهم ، وإطلاق الحرية لهم إلا إذا أحسوا ثورة من الشعب لهذا التسامح فيتراجعون ، كل هذا لأن أغراضهم السياسية والاجتماعية كانت أقوى من أغراضهم الدينية . فيعقوب بن كِلِّس يهودى الأصل ماهر ماكر مثقف ثقافة واسعة ، حسن التدبير واسع الحيلة ، باذل المال ، راغب فى الجاه ، لمع اسمه فى العهد الإخشيدى ، وأسلم وتعلم القرآن والحديث والأدب العربى ، وسافر إلى المغرب واتصل بجوهر القائد مولى المعز لدين الله ، وبذل له علمه عن مصر ، وأعانه بآرائه فى وسائل فتحها ، ورجع بصحبة الجيش الفاتح ، وخدم المعز وارتقى حتى كان وزيراً للعزيز بن المعز ، وهو الذى وضع قواعد الدولة ونظمها ؛ وكان له إلى هذا الجانب السياسى الإدارى جانب علمى ، فشجع العلماء ، ورتب المجالس ، وبذل العطاء لكل فروع العلم ، وربط بين العلم والتشيع ، وبين التشيع والفلسفة ، وله مجالس لعامة العلماء ، ومجالس لخاصة من العلماء ، وهؤلاء هم الذين يفلسفون هذه الأمور ؛ ووضع كتابا فى فقه الشيعة يقول إنه مما سمعه من المعز والعزيز ، كان يقرؤه فى المسجد ، ويقرؤه العلماء ويفتون منه ؛ وكاد يكون كل شىء فى الدولة ، يوجه سياستها وإدارتها . ولما مات صلى عليه العزيز بنفسه ، وألحده بيده ، وأمر بغلق الدواوين أياما بعده[1] .

فيظهر لى أنه كان له دخل كبير فى تأسيس الحركة العلمية على هذا النمط وإدماج

---

(١) انظر ابن خلكان : ٢/٤٩٥ .

الفلسفة فيها وتوجيهها الجهة التي توجهتها ، وتشجيعه اليهود والنصارى على الاشتغال العلمي والمشاركة في الإدارة ، وفلسفة الدعوة .

وكانت زوجة «العزيز» نصرانية على مذهب الملكية ، وكان لها أخوان أحدهما اسمه « أرميس » صيره بطركا على بيت المقدس ، والآخر « أرسانيس » صيره بطركا للملكية على القاهرة ومصر ، وكان لهما من العزيز جانب لأنهما أخولة ابنته[1] .

وكان لهذه السيدة نفوذ عظيم على العزيز في تسامحه مع النصارى والسماح بإعادة بعض الكنائس .

وقد ولدت هذه الزوجة النصرانية من العزيز بنتاً هي المسماة بست الملك ، وكانت — كما يصفها النويرى — قوية العزم بصيرة بالأمور — وكان لها أثر كبير في أبيها ، وفي توجيهه نحو سياسة التسامح مع النصارى ، كما كانت في عهد أخيها الحاكم بأمر الله ذات أثر فعال فيما وقع من أحداث .

وقد سمح العزيز هذا لبطريرك الأشمونين أن يناظر رجال الدين مثل القاضي ابن النعمان في العقائد الدينية .

وفي السنتين الأخيرتين لحكم العزيز تولى الوزارة بعد يعقوب بن كلس عيسى بن نسطورس النصراني .

ثم مما شجع على اشتغال الفاطميين بالفلسفة ما كان لهم من رأى في أن للدين ظاهراً وباطناً ومعنى صريحاً ومعنى مؤولا ، فهذا يترك للخيال المجال ، ويجعل الفكر يسبح في الفلسفة يأخذ منها ويلصقها بالدين ، كما نرى ذلك بوضوح في رسائل إخوان الصفا وهم شيعيون باطنيون — ولذلك كانت الفلسفة ألصق بالتشيع منها بالتسنن — نرى ذلك في العهد الفاطمي ، والعهد البويهي ؛ وحتى

---

(١) المكين ابن العميد .

فى العصور الأخيرة كانت فارس أكثر الأقطار عناية بدراسة الفلسفة الإسلامية ونشر كتبها . ولما جاء جمال الدين الأفغانى مصر فى عصرنا الحديث — وكان فيه نزعة تشيع ، وقد تعلم الفلسفة الإسلامية بهذه الأقطار الفارسية — كان هو الذى نشر هذه الحركة فى مصر .

ثم إن المقريزى يقول : كان الفاطميون يتدرجون فى دعوتهم ؛ فإذا تمكن المدعو من التعاليم الأولى « أحالوه على ما تقرر فى كتب الفلاسفة من علم الطبيعيات وما بعد الطبيعة والعلم الإلهى وغير ذلك من أقسام العلوم الفلسفية ؛ حتى إذا تمكن المدعو من معرفة ذلك كشف الداعى قناعه ، وقال إن ما ذكر من الحدوث والأصول رموز إلى معانى المبادئ ، وتقلب الجواهر . وإن الوحى إنما هو صفاء النفس ، فيجد النبى فى فهمه ما يُلقَى إليه ويتنزل عليه فيبرزه إلى الناس ، ويعبر عنه بكلام الله الذى ينظم به النبى شريعته بحسب ما يراه من المصلحة فى سياسة الكافة ، ولا يجب حينئذ العمل بها إلا بحسب الحاجة من رعاية مصالح الدهماء . . . ثم قال : ومن جملة المعرفة عندهم أن الأنبياء النطقاء أصحاب الشرائع إنما هم لسياسة العامة ، وأن الفلاسفة أنبياء حكمة الخاصة . . . ثم يقول إن لهم فى هذا مصنفات كثيرة اختصرت منها ما تقدم ذكره »[1] .

ويروى صاحب الفرق بين الفرق ، أن عبيد الله بن الحسن القيروانى أحد زعماء الإسماعيلية ، كتب إلى أحد دعاة المذهب : سليمان بن الحسن أبى سعيد الجنابى يقول : « وإذا ظفرت بالفلسفى فاحتفظ به ، فعلى الفلاسفة معولنا » ، ويقول الشهرستانى : « إن الباطنية القديمة قد خلطوا كلامهم ببعض كلام الفلاسفة ، وصنفوا كتبهم على هذا المنهاج » ، ويفيض فى بيان ذلك . ويقول دوزى : «إن

(١) خطط المقريزى ١/٣٩٥ .

ابن ميمون (وهو واضع الأساس للتعاليم الباطنية والإسماعيلية) لم يكن يبحث في أنصاره المخلصين بين الشيعة الخلّص ، إنما كان يبحث عنهم بين الثنوية والوثنيين ، وتلاميذ الفلسفة اليونانية ، وخاصة الأخيرين ، فإليهم وحدهم أفضى بسره ، وكنه عقيدته ، وهو أن الأئمة والأديان والأخلاق ليست إلا ضلالا وهزؤاً ، وأن العامة ليسوا أهلا لفهم هذه المبادئ ، إلا أنه كان يستعين بهم ، ولا يصدمهم . وكان دعاته يظهرون في أثواب مختلفة ، ويحادثون كل طبقة باللغة التي يفهمونها » .

والواجب ألا يلصق هـذا بكل الشيعة ، ولا كل الفاطمية ، ولا كل قواد الحركة ، وإنما يصح أن يلصق بفئة من زعمائهم استغلت التشيع لأغراض في أنفسهم — وعلى كل حال كان هـذا سببا آخر لاشتغال الخاصة بالفلسفة وتعليل انتشارها في العهد الفاطمي مع ضعف الاشتغال بها قبلهم في العهد الطولوني والإخشيدي ، وبَعْدهم في العهد الأيوبي .

* * *

ثم كثرة المال في العهد الفاطمي ؛ وميل الخلفاء إلى الإمعان في الترف والنعيم ، شجعت الفنون على الرقيّ ، فما خلفه الفاطميون من صناعة راقية ، وفن دقيق ، قل أن يبارى .

على كل حال نشطت الحركة العقلية في العصر الفاطمي في مصر والشام نشاطا كبيراً ، وكان أهم الحركات الحركة الدينية ، إذ أراد الفاطميون تشييع المصريين والشاميين ، وكان هؤلاء يريدون أن يتمسكوا بالسنية فجد الفاطميون في دعوتهم جداً كبيراً .

لقد حرص المصريون أول الأمر على البقاء على سنيتهم ، واشترطوا عنـد المفاوضة في تسليم القطر المصري هذا الشرط ، وكتب لهم جوهر بأمر المعز كتابا

يتضمن التزام حرية العقيدة ، فلا يجبرون على التشيع . وجاء فيه : « ثم إنكم ذكرتم وجوهاً التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم ، فذكرتها إجابة لكم وتطميناً لأنفسكم ، — فلم يكن لذكرها معنى ، ولا فى نشرها فائدة ، إذ كان الإسلام سنة واحدة ، وشريعة متينة — وهى إقامتكم على مذهبكم ، وأن تُترَكوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم ، والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم ، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة ، رضى الله عنهم والتابعين بعدهم ، وفقهاء الأمصار الذين جرت الأحكام بمذاهبهم وفتواهم ، وأن يجرى الأذان والصلاة ، وصيام شهر رمضان وفطره وقيام لياليه ، والزكاة والحج والجهاد ، على ما أمر الله فى كتابه ، ونَصَّه نبيه فى سننه » الخ[١] .

ولكن لما دخل الجيش وتمكن من مصر ، وانتقل المعز إلى القاهرة ، لم يعمل بهذا العهد ، وجدَّ الفاطميون فى تشييع المصريين ، فزيد فى خطبة الجمعة : « اللهم صل على محمد النبى المصطفى ، وعلى علىّ المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سِبْطى الرسول ، الذين أذهبت عنهم الرجس وطهرتهم تطهيراً ، اللهم صل على الأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين الهادين المهديين »[٢] .

« وفى يوم الجمعة لثمان خلون من جمادى الأولى سنة ٣٥٩ صلى جوهر الجمعة فى جامع ابن طولون ، وأذن المؤذنون ، حى على خير العمل ، وهو أول ما أذن به فى مصر »[٣] .

« ولما وصل المعز إلى القصر خر ساجداً ، ثم صلى ركعتين ، وصلى بصلاته كل من دخل معه (وكان ذلك سنة ٣٦٢) . وفى غد هذا اليوم خرج

---

(١) اتعاظ الحنفاء : ٦٩ .

(٢) المصدر نفسه : ٧٧ . (٣) ص ٧٩ .

جماعة الأشراف والقضاة والعلماء والشهود ووجوه أهل البلد وسائر الرعية ، لتهنئة المعز . . وأمر المعز بالكتاب على المشايخ فى سائر مدينة مصر : خير الناس بعد رسول الله (ص) أمير المؤمنين على بن أبى طالب عليه السلام »[١] .

« ولثمان عشرة من ذى الحجة من هذه السنة وهو يوم « غدير خُم »[٢] تجمع خلق من أهل مصر والمغاربة للدعاء ، فأعجب المعز ذلك ، وكان هذا أول ما عمل عيد الغدير بمصر »[٣] .

ثم اتخذوا يوم عاشوراء يوم بكاء على الحسين ، وكانوا يجتمعون عند قبر كلثم بنت محمد بن جعفر بن محمد الصادق ، وقبر نفيسة .

وضربت الدنانير فى أيام المعز ، وعلى أحد وجهيها « لا إله إلا الله محمد رسول الله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون . علىّ أفضل الوصيين ، وزير خير المرسلين » .

وفى أيام العزيز أبطل سنة ٣٦٣ صلاة التراويح من جميع مساجد مصر .

وكانت تحدث فتن ومصادمات بين المصريين السنيين والشيعة فى المناسبات المختلفة .

فقد روى أنهم قطعوا لسان من احتج على منع صلاة التراويح . وفى

---

(١) ص ٩٠ .

(٢) غدير خم ، موضع على ثلاثة أميال من الجحفة ، وهو مجتمع ماء تصب فيه عين وحوله شجر كثير . وسبب الاحتفال به ما يرويه الشيعة عن البراء بن عازب قال : « كنا مع رسول الله فى سفر لنا بغدير خم ، ونودى الصلاة جامعة فصلى الظهر ، وأخذ بيد على بن أبى طالب ، فقال : ألستم تعلمون أنى أولى بكل مؤمن من نفسه ؟ قالوا بلى ، فقال : من كنت مولاه فعلى مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » ، وأول من اتخذه عيداً معز الدولة البويهى سنة ٣٥٢ ، ثم فى مصر سنة ٣٦٢ .

(٣) ص ٩٤ . (٤) ٧٦ .

سنة ٣٨١ ضرب رجل من أهل مصر ، وطيف به فى المدينة لأنهم وجدوا عنده كتاب الموطأ لمالك بن أنس[١] .

وفى سنة ٣٩٣ عوقب رجل بدمشق وطيف به فى المدينة ، ونادوا عليه « هذا جزاء من يحب أبا بكر وعمر »[٢] .

ولكن هذه السياسة لم تكن ثابتة مطردة ، بل كانت قلقة مضطربة كاضطراب سياسة الفاطميين ، فأحياناً يبالغون فى اضطهاد أهل السنة ، وأحيانا يسمحون لهم بحريتهم ، كما كانوا أحيانا يضطهدون اليهود والنصارى إلى أقصى حد ، وأحياناً يبالغون فى إكرامهم إلى أقصى حد .

وقد رتب الفاطميون الدعوة ، وقووها وأحكموها ، وجعلوا عليها رئيساً سموه « داعى الدعاة » ، ومنزلته تلى قاضى القضاة ، ويتزيا بزيه ، واشترطوا فيه أن يكون عالماً بجميع مذاهب أهل البيت ، وتحته اثنا عشر نقيباً ، وله نواب كنواب الحكم فى سائر البلاد ؛ ويحضَّر ما يقال فى الدعوة ويقره داعى الدعاة ثم يقره الخليفة ، ويتلى ما يحضّر يوم الاثنين والخميس على الرجال فى مكان ، وعلى النساء فى مكان — وهناك مجالس للعامة ، ومجالس للخاصة ، وكانت تسمى مجالس الدعوة مجالس الحكمة[٣] .

واتخذت المساجد الكبيرة مركزاً لهذه الدعاية كمسجد عمرو فى الفسطاط ، ومسجد ابن طولون ، والأزهر ، والمساجد الكبرى فى البلدان .

وبجانب هذه الدعوات الظاهرة دعوات سرية لا تقال إلا لخاصة المخلصين ، يقول الخليفة لداعى الدعاة فى كتاب له : « واتل مجالس الحكم التى تخرج إليك

---

(١) خطط المقريزى : ٢/٣٤١ . (٢) النجوم الزاهرة : ٢/٩١ .

(٣) انظر خطط المقريزى : ١/٣٩١ .

فى الحضرة على المؤمنين والمؤمنات ، والمستجيبين والمستجيبات فى قصور الخلافة الزاهرة ، والمسجد الجامع بالمعزية القاهرة ، وصن أسرار الحكم إلا عن أهلها ، ولا تبذلها إلا لمستحقها ، ولا تكشف للمستضعفين ما يعجزون عن تحمله ، ولا تستقلّه أفهامهم بتقبله » ، ويقول : « ولا تُلْقِ الوديعة إلا لحفاظ الودائع ، ولا تلق الحب إلا فى مزرعة لا تُكْدِى على الزارع ، وتوخّ لغرسك أجل المغارس » الخ[١] .

وجاء قوم من العلماء المغاربة فى ركب المعز ، وهم ماهرون فى الدعوة ، واقفون على أسرار تعاليم أهل البيت — لعل من أشهرهم النعمان بن محمد بن حَيُّون الذى تولى القضاء فى مصر على مذهب أهل البيت هو وأولاده وأسرته عهداً طويلا فى الحكم الفاطمى ؛ وكانت هذه الأسرة تقوم بالقضاء وبالدعوة وبالتأليف فى المذهب الشيعى . وكان النعمان هذا مالكى المذهب ، ثم انتقل إلى مذهب الإمامية ، وألف فيه تصانيف كثيرة ، قال ابن زولاق : إنه ألف لأهل البيت من الكتب آلاف أوراق بأحسن تأليف وأملح سجع ، وكان فى غاية الفضل ، من أهل القرآن والعلم بمعانيه ، وعالماً بوجوه الفقه ، وعلم اختلاف الفقهاء ، واللغة والشعر والمعرفة بأيام الناس ، مع عقل وإنصاف ، وله ردود على المخالفين له ، رد على أبى حنيفة ومالك والشافعى وابن سريج[٢] ؛ ثم ابنه محمد ابن النعمان قاضى المعز والعزيز ، وكان واسع العلم فى الفقه والتاريخ والنجوم ، يقضى بين الناس ، ويقرأ فى القصر علوم آل البيت ، ويزدحم الناس على سماعه حتى يموت بعضهم من الزحام ؛ كما كان من أشهرهم عبد العزيز بن محمد بن النعمان ، كان من أعلم الناس بفقه الإمامية . قال ابن كثير : إنه ألف فى العقائد الشيعية

---

(١) صبح الأعشى : ١٠/٤٣٦ . (٢) وفيات الأعيان : ٢/٢٤٦ .

الكتاب المسمى البلاغ الأكبر والناموس الأعظم . وقد رد على هذا الكتاب أبو بكر بن الباقلانى .

كان فى مصر والشام كثير من الفقهاء الشافعية والمالكية والحنفية ، وكانوا لا يرون التشيع ، فكانوا يستنكرون تعاليمهم ، ولكن فى تحفظ لأن الدولة للتشيع .

ولهذا نرى قلة الفقهاء المالكية والشافعية والحنفية فى مصر والشام فى هذا العصر ، وخاصة فى أول عهد الفاطميين أيام قوتهم — ومع هذا نرى أمثال أبى بكر محمد النِّعالى المالكى إمام المالكيين فى عهده ، كانت حلقته فى جامع الفسطاط تدور على سبعة عشر عموداً لكثرة من يحضرها ، توفى سنة ٣٨٠ . ولا بد أن يكون ذلك فى فترة فترت فيها حدة التشيع .

ولكن على كل حال أنتجت هذه الحركة حياة فكرية نشيطة . وكما ذكرنا كانت الحركة الفلسفية تشايع التشيع ، فامتزجت الفلسفة بالدعوة الشيعية .

واستتبعت الدعوة للتشيع تنظيم وسائل الدعاية من إنشاء المساجد ودور الكتب .

فالمساجد كانت لهذا العهد هى المدارس وهى المحاريب ، وهى أمكنة العبادة ، وهى مكان الخطب السياسية فيما يجدّ من الأحداث ، فكانت تقوم بوظائف اجتماعية أكثر جداً مما تقوم به الآن .

فلما كان المسجدان الكبيران فى مصر ، مسجد الفسطاط ومسجد ابن طولون ، وكانا مركزى التعليم السنى من قَبْل الفاطميين ، دعا الأمر عند إنشاء القاهرة إلى إنشاء مساجد تقام فيها الصلوات ، وتنشر منها الدعوة الشيعية بجانب تلوين مسجدى مصر بالتشيع أيضاً ، وتكُونُ أيضاً مركزاً لنشر المبادئ

السياسية والاجتماعية التى يراد نشرها ، فأسس الأزهر لهـذا الغرض ، بناه جوهر قائد المعز ، وأقيمت فيه أول جمعة فى شهر رمضان سنة ٣٦١ ، وكان الخليفة الفاطمى يخطب فيه بنفسه كل جمعة إلى أن أنشأ الحاكم جامعه سنة ٣٨٠ ، فوزعت الخطبة على المساجد الأربعة ؛ وكان الخليفة يخطب فى الجامع الحاكمى خطبة ، وفى الأزهر خطبة ، وفى جامع ابن طولون خطبة ، وفى جامع عمرو بن العاص خطبة ، محفوفا بالوزير والقاضى وداعى الدعاة .

واتخذ الأزهر كغيره مدرسة لدراسة المذهب الشيعى ، قال المقريزى : « إن أول ما درس بالأزهر الفقه الفاطمى على مذهب الشيعة ، فإنه فى شهر صفر سنة ٣٦٥ جلس على بن النعمان القاضى بجامع القاهرة المعروف بالجامع الأزهر وأملى مختصر أبيه فى الفقه عن أهل البيت ، ويعرف هذا المختصر « بالاقتصار » وكان جمعاً عظيما ، وأثبت أسماء الحاضرين » — وألف يعقوب بن كلس الوزير السابق الذكر كتابا فى الفقه يتضمن ما سمعه من المعز ، وهو مبوّب على أبواب الفقه يشتمل على فقه الطائفة الإسماعيلية ، وكان له مجلس فى يوم الثلاثاء يجتمع فيه الفقهاء وجماعة من المتكلمين وأهل الجدل ، وكان يجلس أيضاً فى يوم الجمعة فيقرأ مصنفاته على الناس بنفسه . وأجرى العزيز بالله الأرزاق لجماعة من الفقهاء يحضرون مجلس الوزير ، وأمر العزيز أيضاً لهؤلاء الفقهاء ببناء دار إلى جانب الجامع الأزهر ؛ فإذا كان يوم الجمعة تحلقوا فيه بعد الصلاة إلى أن تصلى صلاة العصر ، وكان عدتهم خمسة وثلاثين رجلا .

وبقى الأزهر مركز الفقه الفاطمى إلى أن بنى الحاكم جامعه ، فتحلّق فيـه الفقهاء الذين يتحلقون فى الجامع الأزهر .

ووقف الحاكم الأوقاف على الأزهر ، وعلى جامع راشـدة ، وجامع

المقس ، وعلى دار الحكمة ، من عقار وكتب .

ثم عنيت الدولة الفاطمية بالكتب عناية كبيرة ، فكان من أشهر خزائن القصور الفاطمية خزانة الكتب . وقد نقل المقريزى عن المسبِّحى مؤرخ الدولة الفاطمية ، والذى عاش فى كنفها ، أنه كان بخزانة العزيز نيف وثلاثون نسخة من كتاب العين للخليل بن أحمد ، وما ينيف على عشرين نسخة من تاريخ الطبرى ، ومائة نسخة من الجمهرة لابن دريد — ثم قال : إنه كان فى سائر العلوم بالقصر أربعون خزانة من جملتها خزانة فيها ثمانية عشر ألف كتاب من العلوم القديمة (يعنى الفلسفة والطب والإلٰهيات وما إليها) ، هذا إلى العناية بالناحية الأثرية من اقتناء الكتب بخطوط المؤلفين ، وما عنى فيها بحسن الخط والتجليد . وينقل المقريزى أيضاً عن ابن الطوير أن كل خزانة تحتوى على عدة رفوف ، والرفوف مقطعة بحواجز ، وعلى كل حاجز باب مقفل بمفصلات وقفل ، وفيها من أصناف الكتب ما يزيد على مائتى ألف كتاب من المجلدات ويسير من المجردات ، فمنها الفقه على سائر المذاهب ، والنحو واللغة ، وكتب الحديث ، والتواريخ وسير الملوك ، والنجامة والروحانية والكيمياء — من كل صنف النسخ — ومنها النواقص التى ما تممت — كل ذلك بورقة مترجمة ملصقة على كل باب خزانة[١] .

وقد ذكر المقريزى أيضاً أنه دخل هذه المكتبة (مكتبة الفاطميين) أحد السياح ، فرأى فيها مقطعاً من الحرير الأزرق غريب الصنعة فيها صورة أقاليم الأرض وجبالها وبحارها ومدنها وأنهارها ومساكنها ، وجميعُ المواطن المقدسة مبينة للناظر ، مكتوبة أسماء طرائقها ومدنها وجبالها وبلادها وأنهارها وبحارها بالذهب ، وغيرها بالفضة والحرير .

---

(١) خطط المقريزى : ٤٠٨/١ وما بعدها .

ثم أسس الحاكم بأمر الله دار الحكمة سنة ٣٩٥ . وقد اختار هذا الاسم رمزاً إلى الدعوة الشيعية ، لأن مجالس الدعوة كانت تسمى مجالس الحكمة[1] .
وكانت تسمى هذه الدار أيضاً دار العلم ، وصفها المسبّحى فقال : « فتحت الدار الملقبة بدار الحكمة بالقاهرة ، وجلس فيها الفقهاء ، وحملت إليها الكتب من خزائن القصور المعمورة ، ودخل الناس إليها . ونسخ كل من التمس نسخ شيء مما فيها ما التمسه ، وكذلك من رأى قراءة شيء مما فيها ، وجلس فيها القراء والمنجمون وأصحاب النحو واللغة والأطباء ، بعد أن فرشت هذه الدار وزخرفت ، وعلقت على جميع أبوابها الستور ، وأقيم قوّام وخدام وفراشون وغيرهم وُسموا بخدمتها . وحصل فى هذه الدار من خزائن أمير المؤمنين الحاكم بأمر الله من الكتب التى أمر بحملها إليها من سائر العلوم والآداب والخطوط المنسوبة ما لم ير مثله مجتمعاً لأحد قط من الملوك ، وأباح ذلك كله لسائر الناس على طبقاتهم ممن يؤثر قراءة الكتب والنظر فيها . . . وحضرها الناس على طبقاتهم ، فمنهم من يحضر لقراءة الكتب ، ومنهم من يحضر للنسخ ، ومنهم من يحضر للتعلم . وجعل فيها ما يحتاج الناس إليه من الحبر والأقلام والورق والمحابر . . . وفى سنة ٤٠٣ أحضر (الحاكم) جماعة من دار العلم من أهل الحساب والمنطق وجماعة من الأطباء إلى حضرته ، وكانت كل طائفة تحضر على انفراد للمناظرة بين يديه ؛ ثم خلع على الجمع وصرفهم . . . ووقف الحاكم بأمر الله أماكن فى فسطاط مصر عليها . وقد استمرت على هذا الوضع إلى سنة ٥١٦ ، حيث كثرت فيها المناقشات الدينية التى سببت فتناً ، فأغلقت ثم أعيد فتحها[2] .

---

(١) الخطط : ١/٣٩١ .
(٢) الخطط : ١/٤٥٨ .

فهى بهـذا الوصف مكتبة قيمة ، ومدرسة تدرس فيها العلوم المختلفة . وقاعة مناظرات .

٭ ٭ ٭

كان بجانب الحركة الدينية من سنية وشيعة حركات أخرى مدنية ، من ذلك حركة تاريخية ؛ فقد نبغ من مؤرخى هذا العصر الشابُشْتِي وهو أبو الحسن على بن محمد ، وكان فى عهد العزيز بن المعز ، وكان نديمه وجليسه ، والقيّم على خزانة كتبه ، اشتهر بكتابه الديارات ، ذكر فيه كل دير بالعراق والموصل والشام والجزيرة ومصر وجميع الأشعار التى قيلت فى كل دير وما جرى فيه ، وكان من حسن الحظ بقاء هذا الـكتاب إلى عصرنا هذا مخطوطاً ينتظر من ينشره ، توفى سنة ٣٨٨ .

كما نبغ من المؤرخين فى العصر الفاطمى « المسبِّحى » ، وهو عز الملك محمد بن عبد الله بن أحمد بن إسماعيل بن عبد العزيز الحرانى الأصل المصرى المولد ، وكان من أقطاب مصر فى العلم والسياسة والإدارة ؛ تولى للحاكم بأمر الله بعض ولايات الصعيد ، ثم تولى ديوان الترتيب ، وعنى بتاريخ مصر ، وألف فيها تاريخه الـكبير ، قال هو فيه : « إنه التاريخ الجليل قدره ، الذى يُستغنى بمضمونه عن غيره من الـكتب الواردة فى معانيه ، وهو أخبار مصر ومن حلها من الولاة والأمراء والأئمة والخلفاء ، وما بها من العجائب والأبنية ، واختلاف أصناف الأطعمة ، وذكر نيلها ، وأحوال من حل بها إلى الوقت الذى كتبنا فيه تعليق هذه الترجمة ، وأشعار الشعراء ، وأخبار المغنين ، ومجالس القضاة والحـكام والمعدّلين (الشهود) ، والأدباء والمتغزلين وغيرهم ، وهو ثلاثة عشر ألف ورقة »[1] . فـكان ينظر إلى التاريخ نظرة اجتماعية . ومن الأسف

---

(١) ابن خلكان : ١/٧٣٦ .

أن لم يصلنا من هذا الكتاب لا قطعة مخطوطة ، وفقد مع ما فقد من آثار الفاطميين الجليلة . ويدلنا ما نقله المقريزى والنجوم الزاهرة عن هذا الكتاب أنه جليل القدر ، دقيق النظر ، مفيض فى الوصف ، جميل التعبير .

وله كتب أخرى كثيرة ، منها : كتاب درك البغية فى وصف الأديان والعبادات ٣٥٠٠ ورقة ، وكتاب الأمثلة للدول المقبلة (يتعلق بالنجوم والحساب) فى ٥٠٠ ورقة .

إلى كثير من الكتب الأدبية فى النوادر والغزل ، والأغانى ومعانيها وغير ذلك ، عاش المسبحى من (٣٦٦ — ٤٢٠) .

ثم القُضَاعى أبو عبد الله محمد بن سلامة تولى القضاء بمصر ؛ وقد اشتهر بوضعه كتابا فى خطط مصر سماه المختار فى ذكر الخطط والآثار ، كان عونا للمقريزى على خططه ؛ وقد أوفده المستنصر الخليفة الفاطمى إلى تيودورا إمبراطورة القسطنطينية سنة ٤٤٧ ليتحدث فى الصلح بينهما ؛ وقد مات سنة ٤٥٤ .

ثم كانت حركة أخرى طبية فلسفية رياضية علمية ، اشتهر فيها محمد بن أحمد ابن سعيد التميمى ؛ أصله من بيت المقدس ، ودخل مصر فى العهد الفاطمى واشتهر بالطب وخاصة فى خواص العقاقير وتركيب الأدوية ؛ وصحب يعقوب بن كلس والخليفة العزيز ، وصنف له كتابا كبيراً فى عدة مجلدات سماه « مادة البقاء بإصلاح فساد الهواء ، والتحرز من ضرر الأوباء » ، ولقى الأطباء بمصر وحاضرهم وناظرهم ، واختلط بأطباء الخاص القادمين من أرض المغرب فى صحبة المعز عند قدومه ، والمقيمين بمصر من أهلها ، وكان منصفاً فى مذاكرته ، غير راد على أحد إلا بطريق الحقيقة . وكان التميمى هذا موجوداً بمصر فى حدود سنة ٣٧٠[1] .

---

(١) التفطى ص ١٠٦ .

ثم أبو الفتح منصور بن سهلان بن مقشر كان نصرانيا ، وكان طبيب الحاكم بأمر الله ، ومن الخواص عنده ، وكان متقدما فى الدولة ، وتوفى فى أيام الحاكم ، فاستطب بعده إسحاق بن إبراهيم بن نسطاس[1] .

وعلى بن سليمان ، وكان طبيباً للعزيز بالله وولده الحاكم ؛ وقد نقل بعض الكتب فى الطب لأبقراط وجالينوس ، ، كما ألف فيما بعد الطبيعة .

وأبو على بن الهيثم وأصله من البصرة ، ثم انتقل إلى مصر فى أيام الحاكم بأمر الله وأقام بها إلى آخر عمره . برع فى الرياضيات والطبيعيات ، وله مشاركة فى الطب . وقد أتى مصر باستدعاء الحاكم لما بلغه أن له نظرية هامة فى توزيع مياه النيل ، ولكنه لما حضر وسافر إلى الشلال وخبر النيل هناك ودرسه أدرك خطأ نظريته ، واعتذر للحاكم . ولكنه كان مصدر حركة فلسفية كبيرة وخاصة فى الطبيعيات والرياضيات ، وكان لا يهمه المال والجاه بجانب ما يهمه العلم والوقوف على الحقيقة ، قال فى كتبه : « إنى لم أزل منذ عهد الصبا مُرَوِّيا فى اعتقادات هذا الناس المختلفة ، وتمسك كل فرقة منهم بما تعتقده من الرأى ، فكنت متشككا فى جميعه ، موقناً بأن الحق واحد ، وأن الاختلاف فيه إنما هو من جهة السلوك إليه ، فلما كملت لإدراك الأمور العقلية انقطعت إلى طلب معدن الحق ، ووجهت رغبتى وحرصى إلى إدراك ما به تنكشف تمويهات الظنون ، وتنقشع غيابات المتشكك المفتون » الخ .

وقد ألف نحو مائتى كتاب فى الرياضيات والطبيعة والفلسفة ظلت عماد الناس فى الشرق والغرب ، وخاصة كتاب « المناظر » — وما زال يؤلف ويلخص ويشرح فى حركة دائبة مستمرة ، وفى كل مرحلة من عمره يقيد أسماء ما ألف ،

---

(١) طبقات الأطباء : ٨٩/٢ .

ويقول : « وإن أطال الله لى فى مدة الحياة ، وفسح فى العمر ، صنفت وشرحت ولخصت من هذه العلوم أشياء كثيرة تتردد فى نفسى ، ويبعثنى ويحثنى على إخراجها إلى الوجود فكرى » . وظل وفياً لهذا العهد حتى مات حول سنة ٤٣٠ بعد ما ملأ الدنيا تآليف فى الهندسة والحساب والفلك والمساحة ، ومنطق أرسطو ، وكتابه فى الشعر والنفس ، وفى الطب ، وفى البصر ، ووقوع الإبصار به ، والضوء ، والبصريات ، والمرايا المحرقة الخ ، يعكف على عمله هذا فى قبة على باب الجامع الأزهر[1] .

وكان للمبشِّر بن فاتك ، وهو أمير من أمراء مصر فى العهد الفاطمى ، ولع بالعلوم الفلسفية يقتنى كثيراً من كتبها ، ويتبحر فيها ؛ ويستفيد ابن الهيثم من علمه فى الهيئة والرياضة .

واشتهر من هذه الطائفة على بن رضوان رئيس أطباء الحاكم ، وهو مصرى الأصل من الجيزة ، وكان أبوه فرانا ، ولاقى فى تعلمه أهوالا حتى برع فى الطب ، وصار له الذكر والسمعة العظيمة ، والثراء الواسع — وقد قامت بسببه حركة فكرية نافعة تحركت بها الأفكار فى مصر وبغداد ؛ إذ دخل ابن رضوان المصرى فى مناظرة حادة مع ابن بطلان الطبيب النصرانى البغدادى ، وتبودلت بينهما الرسائل ، « ولم يكن أحد منهما يؤلف كتابا ، ولا يبتدع رأياً إلا ويرد الآخر عليه » — وكان ابن رضوان طويل اللسان يكثر التشنيع على من يخالفه ، وتعدت المناظرة من المسائل العلمية إلى التعيير بقبح الشكل . وكان ابن رضوان قبيح الشكل ، فتناظرا أيضاً فى أيهما خير أن يكون الطبيب جميلا أوْ لا . ولما طالت المناظرات سافر ابن بطلان من بغداد إلى مصر ليرى مناظره ، وأقام بها ثلاث

---

(١) انظر طبقات الأطباء : ٢/٩٠ وما بعدها .

سنين ، واستمرت بينهما المناظرات . ويقول ابن أبي أصيبعة فى المقارنة بينهما : كان ابن بطلان أعذب ألفاظا ، وأكثر ظرفا ، وأميز فى الأدب وما يتعلق به ، وكان ابن رضوان أطب وأعلم بالعلوم الحكمية وما يتعلق بها — وقد ألف ابن رضوان كتباً كثيرة فى الطب والفلسفة .

* * *

وكانت فى مصر أيضاً حركة فى النحو ، من أشهر رجالها أبو بكر الأدفوى تلميذ أبي جعفر النحاس الذى تقدم ذكره ، برع فى علوم القرآن والنحو ؛ له كتاب فى علوم القرآن فى مائة وعشرين مجلداً مات سنة ٣٨٨ .

ثم ابن بابشاذ أحد أئمة النحو والأعلام فى فنون العربية وفصاحة اللسان . ورد العراق تاجراً فى اللؤلؤ ، وأخذ عن علمائها ورجع مصر ، واستخدم فى ديوان الإنشاء والرسائل مراجعاً يراجع ما يخرج من الديوان من الإنشاء ، ويصلح ما يراه من الخطأ فى الهجاء والنحو واللغة ، ثم تزهد . وقد ألف شرحا على كتاب الجُمل للزجاجي ، والمحتسب فى النحو ، وتعليق فى النحو يقارب خمسة عشر مجلداً . مات سنة ٤٦٩ .

* * *

ثم كانت الحركة الأدبية . وفى الحق أن الشعر فى العهد الفاطمى فى مصر كان أول شعر مصرى قيم من عهد فتح العرب لمصر ؛ إذ كان قبل ذلك ليس له من قيمة إلا للوافدين على مصر من الخارج ، أما شعر المصريين أنفسهم فكان محاولات أولية ، حتى إذا جاء الفاطميون جاء الشعر وجاد ، ويرجع ذلك إلى أمور :

(الأول) : أن العصر الأول لفتح مصر كان عصر دهشة أعقبت الفتح

فلما استقرت الأمور وبدأ الشعر ينهض ، تولى الحكم أتراك من مثل الطولونيين والإخشيديين ، وليس لهم من الذوق العربى الراقى ما يستسيغون به الشعر ؛ والشعر العربى بطبيعة موضوعاته التى كانت من مديح ونحوه لم يكن يزهر إلا على باب قصور الخلفاء والأمراء ، فإن تذوقوه وشجعوه نما وازدهر ، وإلا ضعف وانحدر ؛ فلما جاء الفاطميون وهم عرب لهم الذوق العربى ، والثقافة العربية ، وخاصة فى أول عهدهم ، إذ كان فيهم أيضاً الذوق البدوى ، نما الشعر على بابهم ، ولما جاءوا مصر جاءوا بذوقهم وشعرائهم ، وتتابعت الموجات .

(والثانى) : أن الدولة الفاطمية كان أساسها الدعوة والدعاية بأوسع ما تدل عليه هذه الكلمة ، حتى قلّ أن نرى لها مثيلا فى تنظيم دعوتها سراً وجهراً ، والدقة فى اختيار الأساليب المختلفة التى تناسب العامة والخاصة ، والجاهل والعالم ، والمتدين والملحد ، والغبى والفيلسوف ؛ فرأت بصائب نظرها أن الشعراء من أصلح الدعاة لمذهبهم ، إذ هم يقومون فى زمنهم مقام الجرائد السيارة فى عصرنا ، فاحتضن الخلفاء الفاطميون ووزراؤهم وأمراؤهم الشعراء ينفحونهم بالمال الكثير ، والعطاء الوفير ، ليطلقوا ألسنتهم بالقول فى مدحهم ومدح مذهبهم . وقد وضع ابن هانئ الأندلسى أول خطة لذلك وهو بالمغرب عندما اتصل بالمعز فاتح مصر ومؤسس القاهرة ، فمدحه بغرر المدائح وعيون الشعر ، وبالغ المعز فى الإنعام عليه ، ولم يكن هناك ممدوح أعز شاعره كما أعز المعز ابن هانئ ؛ فلما أنشده بالقيروان قصيدته التى أولها :

هـل من أعقَّة عالجٍ يَبْرِينُ أم منهما بقرُ الحدوجِ العِينُ

أمر له بدست قيمتــه ستة آلاف دينار ، فقال له : يا أمير المؤمنين ! ما لى موضع يسع الدست إذا بسط . فأمر له ببناء قصر غرم عليه ستة آلاف دينار ،

وحمل إليه آلة تشاكل القصر والدست قيمتها ثلاثة آلاف دينار . ولما بلغه خبر وفاته وهو بمصر تأسف عليه كثيراً ؛ وقال : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء المشرق فلم يقدَّر لنا ذلك »[1] .

وقد أسس ابن هانئ في شعره عقائد الإسماعيلية ، وصاغها صياغة شعرية ، وعلّم الشعراء كيف يمدحون الخلفاء الفاطميين من ناحية عقائدهم ، كما يمدحونهم من ناحية خلائقهم ؛ فيقول مثلا :

أنت الوَرَى فاعْمُر حياة الورى ... باسم من الدعوة مشتقٍ[2]

ويقول :

قد كان يُنذر بالوعيد لطول ما ... أصْغَى إليك ويَعْلَمَ التأويلا[3]

أهل النبوة والرسالةِ والهُدى ... فى البينات وسادةٌ أطهار

والوحى والتأويل والتحليل والتحـ ... ـريم لا خلف ولا إنكار

ويقول :

ماذا تريد من الكتاب نواصبٌ ... وله ظهور دونها وبطون

وهو بذلك يؤكد عقيدة الشيعة فى أن للشريعة ظاهراً وباطناً ، وأن التأويل لا يعلمه إلا الله ورسوله وخلفاؤه المنصوبون من قبله ، إماماً بعد إمام إلى آخر الأئمة المعصومين ، يعلّم الماضى منهم من يأتى بعده ، وسائر الناس يستفيدون علم التأويل منهم بقدر استعدادهم .

---

(١) ابن خلكان فى ترجمة ابن هانئ .

(٢) أى أنت الناس فاعمر أعمارهم مجموعة ، وأنت داع إلى الله يدعوهم إلى سبيل الهداية فيؤسس بذلك نظرية الدعوة .

(٣) الضمير فى كان يعود على السيف يقول : كاد سيفك ينذر بالوعيد ، ويعلم التأويل لطول مصاحبته إياك واستماعه لبيانك .

ويقول مؤيداً لهذه التعاليم :

إذا كان أمنٌ يشمل الأرض كلَّها　　فلا بد فيها من دليل مقدّم

ويقول :

لولاك لم يكن التفكر واعظا　　والعقل رُشداً والقياس دليلا

لو لم تكن سَكَنَ البلاد تضعضعت　　وتزايلت أركانها تزييلا

وهكذا يؤسس فى شعره الدعوة ، ونظرية الإمامة وعصمة الأئمة ، وعلم الإمام بالحقائق ، وأنه مظهر نور الله . فعلّم الشعراء كيف يمدحون ، وكيف يقولون[1] .

فلحاجة الفاطميين للدعوة قربوا الشعراء ، فكثر الشعر وحسن وجاد ، فرأينا شعراء ممتازين فى هذا العصر لم يكن مثلهم فى مصر ؛ شعراء أتوا من المغرب مع المعز و بعده ، وشعراء وافدون من العراق والشام واليمن ، وشعراء من المصريين أنفسهم ؛ وراج الشعر لكثرة الدوافع وقوتها ، فنوع الشعر الغالب على الأدب العربى — وهو شعر المديح — إنما يكثر و يزدهر على باب القصور السخية . والفاطميون كانوا من أسخى الناس فى هذا الباب . ثم هم أكثروا من الحفلات العامة . مما لم يكن له نظير فى مصر لا قبلهم ولا بعدهم ، وهذه الحفلات والأعياد كانت فى غاية من الفخامة والضخامة ؛ قد أقروا الأعياد التى كانت قبلهم ، وزادوا عليها : فموسم رأس السنة ، و يوم عاشوراء . ومولد النبى ، ومولد علىّ ، ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد فاطمة ، ومولد الخليفة

---

(١) انظر ديوان ابن هانئ الذى نشره الدكتور زاهد على .

الحاضر ، وليلة أول رجب ، وأول شعبان ونصفه ، وغرة رمضان ، وسماط رمضان وليلة الختم ، وعيد الفطر ، وعيد النحر ، وعيد الغدير ، وكسوة الشتاء ، وكسوة الصيف ، وفتح الخليج ، ويوم النيروز ، ويوم الغطاس ، ويوم الميلاد ، وخميس العدس الخ . مما بقى أثر بعضه عند المصريين إلى اليوم .

وكان فى كثير من هذه الأعياد ، يركب الخليفة بزيه المفخم ، وهيئته المعظمة ، وتوزع الخلع والجوائز ، وتمد الأسمطة ، فتكون كل هذه المظاهر حافزة للشعراء على أن يقولوا ويكثروا ويجيدوا فى هذا الباب من القول الذى يعده الفاطميون دعاية لهم لا بد منها .

روى المقريزى عن الشريف أبى عبد الله الجوانى ، أن الخليفة الآمر بأحكام الله بنى منظرة من خشب مدهونة ، فيها طاقات تشرف على خضرة بركة الحَبَش ، وصوّر فيها الشعراء كل شاعر وبلده ، واستدعى من كل واحد منهم قطعة من الشعر فى المدح ... وكتب ذلك عند رأس كل شاعر ، وبجانب صورة كل منهم رف لطيف مذهَّب . فلما دخل الآمر وقرأ الأشعار ، أمر أن يحط على كل رف صُرة مختومة فيها خمسون ديناراً ، وأن يدخل كل شاعر ويأخذ صرته بيده ، ففعلوا ذلك ، وأخذوا صررهم ، وكانوا عدة شعراء[1] .

وقد أسس هذه الخطة ، (خطة الاحتفاء بسماع الشعر ورعايته والمكافأة العظيمة عليه) الخليفة المعز ووزيره يعقوب بن كلِّس ، ثم صارت تقليدا فاطميا متبعا — بالمعز أسس له ابن هانئ منهج الشعراء فى المديح ؛ ويعقوب بن كلس قرّب الشعراء وشجعهم وأغناهم ، وكان من أولهم فى ذلك الشاعر أبو حامد الأنطاكى المعروف بأبى الرَّقَعْمَق ، وأكثر شعره وقف على مدح المعز والعزيز

(١) خطط المقريزى : ٤٨٦/١ .

والحاكم بأمر الله ، وجوهر القائد ، وخاصةً الوزير ابن كلس من مثل قوله فيه :

كل يوم له على نُوَب الدهـــر وكرّ الخطوب بالبذل غاره
ذو يد شأنها الفرار من البخـــل وفى حومة الندى كَرّاره
هى فَلّت عن العزيز عداه بالعطايا وكثّرت أنصاره
هكذا كل فاضل يده تمـــسى وتضحى نفّاعة ضرّاره
فاستجرْهُ فليس يأمن إلا من تفيّا ظلاله واستجاره
وإذا ما رأيته مطرقا يُعمـــل فيما يريدُه أفكاره
لم يدع بالذكاء والذهن شيئاً فى ضمير الغيوب إلا أثاره
لا ولا موضعا من الأرض إلا كان بالرأى مدركا أقطاره
زاده الله بسطة وكفاه خوفَه من زمانه وحذاره

وقد أفرد العماد الأصفهانى فى كتابه « خريدة القصر وجريدة العصر » جزءاً خاصا لشعراء مصر ، بلغ عددهم نحو المائة ، ترجم لكل منهم وذكر شيئاً من شعره [1] .

ويمكننا أن نقسم الشعر المصرى الفاطمى أقساما ثلاثة : قسم فى المديح وهو أكبر الأقسام كعادة الشعر العربى ، وكما رأيت فى شعر أبى الرقعمق ، ويمتاز عما قبله من شعر مصر بالجزالة والقوة للأسباب التى ذكرناها . ومن أشهر هؤلاء المهذب بن الزبير ، وكان أكثر مديحه فى الصالح بن رُزِّيك ، ومن أشهر قصائده فيه قصيدة نونية يمدحه بها بعد انتصار أسطول مصر على أسطول الروم ، مطلعها :

أعلمت حين تجاور الحيّان أن القلوب مواقد النيران

ومثل المهذّب المَوْصِلى ، وعُمارة اليمنى .

---

(١) وهذا الجزء هو الجزء الثانى ، ومنه نسخة فوتوغرافية فى دار الكتب .

ويصح أن نلاحظ أن هذا الشعر الذى قيل فى مديح الفاطميين شعرٌ فرِح مغتبط ، إذ كان الشيعة لأول أمرهم قد نجحوا فى تأسيس دولة ضخمة ، وتبوءوا فيها كرسى الخلافة بعد أن طال أمدهم فى اضطهاد وتعذيب على يد الأمويين والعباسيين ، فكان شعر شعرائهم حزينا آسفا كشعر السيد الحِمْيرى ، والكميت ودِعْبل الخزاعى .

ثم شعر تعليمى فى الدعوة ، وقد بدأه ابن هانئ الأندلسى فى بعض شعره ، وقد عرضنا قبل نماذج منه ، و بلغ قمته المؤيد الشيرازى داعى الدعاة ، فأكثر من الشعر فى هذا الباب وأفاض ، وله ديوان فى ذلك ؛ منه فى تأييد علم الباطن :

ورب معنى ضمّه كلام ... كمثل نور ضمّه ظلام

باق بقاء الحَبّ فى السنابلِ ... فى معقل من أحرز المعاقل

و إنما باب المعانى مُقْفل ... وأكثر الأنام عنه غُفَّل

مفتاحه أضحى بأيدى حزنه ... بهم إلهى علمه قد خزنه

كما يلوذ الخلقُ طرًّا بهمُ ... خصوا لهذا العلم من ربهمُو

فما أبو حنيفةٍ والشافعى ... — حيث هُمُ قد نفقوا — بنافع

أولئك الأبرار آل المصطفى ... ومن بهم مَرْوَةُ عزّت والصفا

هم البدور والنجوم اللُّمَّعُ ... وللهدى وللعلوم المنبع

هم الثقاتُ والنفاة للشُّبَه ... والمنقذون الناس من كل عَمَه

لهم سمعنا ولهم أطعنا ... فبدّلونا بعد خوفٍ أمنا

فما علينا مشكلٌ بمشكل ... بهم كُفِينا كل خط معضِل

وأرشدونا سبل الصواب ... وعلمونا علم ذا الكتاب

مبرًّأً من هجنة التناقض ... مسلّماً من خوض كل خائض

وهكذا كل ديوانه فى الدعوة وما إليها[1] .

ثم شعر هو أرقى أنواع الشعر وأصدقه ، ينبع من مشاعر الشاعر ، ويتدفق فى رقة وسلاسة ، وكان على رأس الشعراء من هذا النوع شاعران فاطميان : تميم بن المعز ، والعَقِيلى .

فأما تميم ، فهو ابن الخليفة المعز فاتح مصر ، ولم يل الخلافة لأن المعز جعل ولاية عهده لابنه العزيز نزار دون تميم ، فحرم الخلافة ، ولـكنه تبوأ عرش الأدب فـكان شاعراً ماهراً لطيفاً ظريفاً ، يشعر بخلجات نفسه ، ونبضات قلبه ، ولم تر مصر شاعراً من هذا القبيل قبله مثله ، يصف حياته اللاهية من حبه وعشقه وليالى غرامه ونحو ذلك فى قول عذب ؛ وفى أعماقه شعور بالحزن ، إما لطبيعة مزاجه ورقة جسمه ، أو لخروج الخلافة من يده وهو يرى أنه أولى بالفضل ، أو لأنه عذبه الحب فأضناه ، أو لـكل ذلك مجتمعا . فمن قوله :

أما والذى لا يملك الأمرَ غيرهُ   ومن هو بالسر المـكتَّم أعلم

لئن كان كتمان المصائب مؤلما   لَإعلانها عندى أشـد وآلم

وبى كل ما يُبـكى العيونَ أقلُّه   وإن كنت منه دائماً أتبسم

وتميم ابن المعز أشبه شىء بابن المعتز فى قرابة الـكنية ، والنشأة فى بيت الملك ، وقوة الشاعرية ، وسوء الحظ فى دنيا المناصب ، وإن تخالفا فى أن ابن المعتز سنى عباسى يدعو للعباسيين ويردّ على الشيعة . فيرد عليـه ابن المعز فى مثل قوله وعلى رويّ قصيدته . يقول ابن المعتز فى الإشادة بالعباسيين ورد دعوة الشيعة قصيدة مطلعها :

أى رسم لآل هنـد ودار   دَرَسا غير ملعب ومنار

---

(١) انظر ديوانه مخطوطا فى مكتبة جامعة فؤاد .

يقول فيها :

هاشمى إذا نسبت ومخصو　　ص ببيت من هاشم ، غير عار

أخزن الغيظ فى قلوب الأعادى　　وأُحِلّ الجَبّار دار الصّغار

أنا جيش إذا غدوت وحيدا　　ووحيد فى الجحفل الجرّار الخ

فيرد تميم بن المعز بقصيدته :

يا بنى هاشم ولسنا سواء　　فى صِغار من العلا وكبار

إن نكن ننتمى لجَدّ فإنا　　قد سبقنا كمو لكل فخَار

ليس عباسكم كمثل علىّ　　هل تقاس النجوم بالأقمار الخ

ولكن دعنا من هذا ، فمزية تميم الكبرى فى رقة شعره ، وصدق شعوره وسلاسته ، فكان فى ذلك أستاذ البهاء زهير بعدَه ، كقوله :

يا دهر ما أقساك من متلوِّن　　فى حالتيك وما أقلّك منصفا

أتروح للنكس الجهول ممهِّدا　　وعلى اللبيب الحر سيفا مرهفَا

فإذا صفوت كدرتَ ، شيمة باخل　　وإذا وفيت نقضت أسباب الوفا

لا أرتضيك وإن صفوت لأننى　　أدرى بأنك لا تدوم على الصفا

زمن إذا أعطى استرد عطاءه　　وإذا استقر بدا له فتحرّفا

ما قام خيرك يا زمان بشرّه　　أولى بنا ما قلّ منك وما كفى

وقوله :

قالت وقد نالها للبين أوجعُه　　والبين صعب على الأحباب موقعه

اجعل يديك على قلبى فقد ضعفت　　قواه عن حمل ما فيه وأضْلُعه

كأننى يوم ولّت حسرة وأسى　　غريق بحر يرى الشاطى ويُمنَعه

وله الأوزان الشعرية الظريفة كقوله :

دم العشاق مطلول ودَين الحب ممطول
وسيف اللحظ مسلول ومُبْدى الحب معذول
وإن لم يُصغ لِلّائمْ

* * *

وأحورَ ساحر الطرْفِ يفوق جوامع الوصف
مليح الدَّل والظرف جنت ألحاظه حتفى
فمن يُعدى على الظالم

* * *

يعنفنى على حبى ويهجرنى بلا ذنب
كأنى لست بالصب لقهوة ريقه العذب
أما فى الحب من راحم ؟ الخ

وقد مات سنة ٣٧٤ فى خلافة أخيه ، ولم يعمر طويلا ؛ إذ كان عمره يوم وفاته نحواً من سبع وثلاثين سنة ، وهذه سُنّة القلب المحترق[١] .

وأما العقيلى ، فهو أبو الحسن على بن الحسين بن حَيْدرة العقيلى ، كان فى المائة الخامسة ، وكان من الأشراف ، وكان له متنزهات بجزيرة الفسطاط ، ولم يغنِّ لخليفة أو أمير ، بل غنى لنفسه فى حبه ومتنزهاته ؛ وكان يعد من أئمة المدرسة التى تعنى بالتشبيه وتجيده ، أمثال ذى الرمة أولا ، وابن المعتز أخيراً ؛ ثم سلك مسلك أبى نواس فى الخمر وتوليد المغانى منها ، وأولع بالطبيعة الجميلة يستجليها و يستمتع بها ، كقوله :

الروض فى ديباجة خضراء والجو فى فَرَجيّة دكناء

---

(١) له ديوان شعر مخطوط بمكتبة الجامعة .

والأرض قد نظم الربيع لجيدها عِقْــدار من الصفراء والحمراء
والراح ينثر فى مُذاب عقيقها دُرَرَ الفواقع جوهرىُّ الماء
فاقصد رضا رضوانها بالشرب إن أحببت سكنى جنــة السراء

وقوله فى وصف صديق :

ظلّلنى بظله الظّليلِ أخ نَداه واضح السبيلِ
يسير فى المجد بلا دليل مهذب الجملة والتفصيل
أخلاقه تَنضح بالجميل كأنه عافية العليــل

لَأَحْسنُ من مصافحة الصِّفاح ومن وقع الرماح على الرماح
بقاعٌ ترقص الأمواج فيها على النغمات من رمى الرماح
وأغصانٌ يذهِّبهـــــا بَهَار وغيطـــان يفضضها أقاح

* * *

وإن جنح الشباب إلى التصابى نخلِّ عنانه طوعَ الجمـــاح
فصبح العيش سوف يعود ليلا إذا ما الليل نغص بالصباح[1]
أتطمع بعد شيبك فى سرور محالٌ أن تطير بلا جناح[2]

ثم ما بقى لنا من النثر الفنى الفاطمى ولو كان قليلا ، كبعض الكتب الرسمية التى ذكرها القلقشندى فى صبح الأعشى ، ورسالة ابن القارح لأبى العلاء (وقد عاش ابن القارح فى زمن الحاكم) ، ورد عليها أبو العلاء برسالة الغفران ، وكرسالة داعى الدعاة إلى أبى العلاء ، وجداله معه فى ذبح الحيوان ، إلى غير ذلك من رسائل منثورة هنا وهناك ؛ كل هذا على قلته يدل على تقدم النثر الفنى ، وميله إلى الزينة من سجع وبديع واقتباس ، مما هو ظل لحياة الترف فى قصور الخلفاء ، كما يدل على تأثر بسعة الثقافة التى عظمت فى هذا العصر .

---

(١) يريد إذا نزل الشيب بالرأس .
(٢) انظر مجموعة من شعره فى كتاب المغرب ص ٥٢ وما بعدها .

الباب الثانى

العراق وجنوبى فارس

ظلت هذه البلاد محكومة بالخلفاء اسماً ، وبساطة الأتراك فعلا ، من عهد المتوكل إلى أن جاءت الدولة البويهية الفارسية فبسطت نفوذها على جنوبى فارس والعراق من سنة ٣٢١ إلى سنة ٤٤٧ ؛ ولما تغلبوا على بغداد لم يكن للخليفة العباسى معهم إلا الاسم ، والدعاء له على المنابر ، وكتابة اسمه على سكة الدراهم والدنانير . وأما جباية الأموال وتجييش الجيوش وأمور الدولة كلها ففى أيديهم ، قد جعلوا للخليفة مرتباً ثم تصرفوا فى كل مالية الدولة ، وكان لقبهم « أمير الأمراء » لقبهم به الخلفاء . وقد كان البويهيون شيعة ؛ وقد فكر معز الدولة البويهى عند ما فتح بغداد أن يعزل الخليفة وهو سنى ويقيم مكانه أحد الأئمة العلويين ، كما فعل الفاطميون ، وكان ذلك هيناً عليه ، ولكن نصحه بعض خاصته ألا يفعل ؛ وقال : « ليس هذا برأى فإنك اليوم مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ، ولو أمرتهم بقتله قتلوه مستحلين دمه ، ومتى أجلست بعض العلويين خليفة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته ، فلو أمرهم بقتلك لفعلوه ، فأعرض عن رأيه ، وأقام المطيع لله خليفة بدل المستكفى المخلوع » .

وقد كانوا فرساً متشيعين يقولون إنهم من نسل ملوك فارس — وقد تقسموا العراق وجنوبى فارس فيما بينهم ، وامتد نفوذ بعضهم أحياناً ، وانكمش نفوذ بعضهم ، فمنهم من حكم العراق والأهواز وكِرْمَان ، ومنهم من حكم كِرْمَان

وحدها ، ومنهم من حكم فارس وحدها ، ومنهم من حكم الرّى وهَمَذان وأصفهان ، ومنهم من مد سلطانه على ذلك جميعاً كعضد الدولة ، وكان بين بعضهم و بعض خصومات ومنازعات ليس هنا موضع شرحها .

إنما نستطيع أن نقول إنهم مع فارسيتهم شجعوا الأدب العربى ، واللسان العربى ، والعلوم العربية ، وكان ممن نبغ من العلماء والأدباء والفلاسفة فى عهدهم من يُعَد بحق فخر المملكة الإسلامية فى العصور المختلفة .

وقد كانت هناك مدن كثيرة فى هذا الإقليم أثناء هذا العهد وقبله تميزت بقوة الحركات العلمية والأدبية مثل بغداد والبصرة والكوفة فى العراق ، والرى وأصبهان فى فارس . وقد زار المقدسى هذه البلاد كلها فى العهد البويهى ، وملخص ما قال من الناحية العلمية : « إن إقليم العراق إقليم الظرفاء ، ومنبع العلماء ، لطيف الماء ، عجيب الهواء ، مختار الخلفاء ، أخرج أبا حنيفة فقيه الفقهاء ، وسفيان سيد القراء ، ومنه كان أبو عبيدة والفراء ، وحمزة والكسائى ، وكل فقيه ومقرئ وأديب ، وسرىّ وحكيم وداه وزاهد ونجيب ، وظريف ولبيب — أليس به البصرة التى قو بلت بالدنيا ، و بغداد الممدوحة فى الورى ، والكوفة الجليلة وسامَرّا[1] .

« والكوفة قصبة جليلة حسنة البناء جليلة الأسواق كثيرة الخيرات . . . وهو بلد مختل قد خرب أطرافه ، وكان نظير بغداد[2] .

« والبصرة قصبة سَرِية . . . والبلد أعجب إلىّ من بغداد لرفعتها ، وكثرة الصالحين بها . وكنت بمجلس جمع فقهاء بغداد ومشايخها ، فتذاكروا بغداد

---

(١) أحسن التقاسيم : ١١٣ . (٢) ص ١١٧ .

والبصرة فتفرقوا على أنه إذا جمعت عمارات بغداد وأُنْدِر خرابها لم تكن أكبر من البصرة[١] .

« و بغداد (لأهلها) الخصائص والظرافة ، والقرائح واللطافة ، هواء رقيق ، وعلم دقيق ، كل جيد بها ، وكل حسن فيها ، وكل حاذق منها ، وكل قلب إليها ، وكل حرب عليها ، وهى أشهر من أن توصف ، وأحسن من أن تنعت ، وأعلى من أن تمدح[٢] .

ولكنه فى موضع آخر قال : « واعلم أن بغداد كانت جليلة فى القديم ؛ وقد تداعت الآن للخراب ، واختلت وذهب بهاؤها ، ولم أستطبها ، ولا أعجبت بها ، وإن مدحناها فللمتعارف ؛ وفسطاط مصر اليوم كبغداد ، ولا أعلم فى الإسلام بلداً أجل منه »[٣] .

« (والعراق) كثيرة الفقهاء والقراء والأدباء والأئمة والملوك ، بخاصة بغداد والبصرة . . . وبه مجوس كثيرة ، وذمته نصارى ويهود . . . وقد حصل به عدة من المذاهب ، والغلبة ببغداد للحنابلة والشيعة ، وبه مالكية وأشعرية ومعتزلة ونَجّارية ، وبالكوفة الشيعة إلا الكُنَاسة فإنها سنة . . . وبالبصرة مجالس وعوام السّالمية ، وهم قوم يدّعون الكلام والزهد (وسالم كان غلام سهل ابن عبد الله التسترى الصوفى) . . . وأكثر أهل البصرة قَدَرية وشيعة ، وثم حنابلة ، وببغداد غالية يفرطون فى حب معاوية ، ومشبِّهة . . . والقراءات السبع مستعملة فى العراق . . . ولغاتهم مختلفة أصحها الكوفية لقربهم من البادية ، وبعدهم عن النبط ، ثم هى بعد ذلك خشنة وفاسدة بخاصة فى بغداد . وأما البطائح فنبط لا لسان ولا عقل[٤] .

(١) ص ١١٨ . (٢) ص ١١٩ . (٣) ص ٣٦ . (٤) ص ١١٨ .

« وتقع عصبيات وحشة بالبصرة بين الرَّبعيين وهم شيعة ، و بين السعديين وهم سنة ، و يدخل فيها أهل الرسانيق ، وقلّ بلد إلاّ و به عصبيات على غير المذاهب » .

« وأما القسم من إيران الذى كان يحكمه البويهيون فقسمه الشمالى كان يسمى بلاد الجبال ، وأهم مدنه أربع : كرمنشاه (وكانت تسمى فى ذلك العهد قِرْمَسِين) ، والرى ، وهمذان ، وأصفهان — وسمى هذا الإقليم فى العهد السلجوقى بالعراق العجمى — وكانت عاصمة هذا الإقليم فى العهد البويهى هى « الرى » ؛ قال الإصطخرى : « و « الرى » مدينة ليس بعد بغداد فى المشرق أعمر منها » . وقال الأصمعى : « الرى عروس الدنيا و إليه متجر الناس ، وهو أحد بلدان الأرض » ، والنسبة إليها رازى . وقد خرّجت كثيراً من العلماء المعروفين بهذه النسبة كما سيجىء ، وموقعها على بعد أميال من طهران ، ومحلها الآن خرائب ، ولما وصف المقدسى هذا الإقليم فى العهد البويهى قال : « إن به الرَّى الجليلة ، وهمذان ، والكورة النفيسة أصبهان »[1] .

« فأما الرى فإنها كورة نزيهة كثيرة المياه ، جليلة القرى ، حسنة الفواكه واسعة الأرض ، خطيرة الرساتيق[2] . . . علماء سراة ، وعوام دهاة ، ونسوان مدبرات ، لهم جمال وعقل وآيين . و به مجالس ومدارس ، وقرائح وصنائع وخصائص ، لا يخلو المذكِّر من فقه ، ولا الرئيس من علم ، ولا المحتسب من صيت ، ولا الخطيب من أدب ، هو أحد مفاخر الإسلام ، وأمهات البلدان ، به مشايخ وأجلة ، وقراء وأئمة ، وزهاد وغزاة ... وأئمة الجوامع فيها مختلفة ، يوم للحنفيين ، و يوم للشفعويين[3] .

« وأما همذان فهى إقليم كبير حسن قديم . . . والرى أطيب وآهل وأعمر

---

(١) ٣٨٤ . (٢) ٣٨٥ . (٣) ٣٩١ .

منها ، قد انجلى أهلها ، وقلّ العلماء بها ، وأذهبت الرى دولتها .

وأما أصفهان ، فأخذت بحظ من فارس ، وحظ من الجبال ، وقصبتها « اليهودية » وهى كبيرة عامرة آهلة كثيرة الخيرات ، أهل سنة وجماعة ، وأدب و بلاغة ، كم أخرجت من مقرئ وأديب ، وفقيه ولبيب[١] .

« ومذاهب هذا الإقليم مختلفة ؛ أما بالرى فالغلبة للحنفيين ، و بها حنابلة كثيرون لهم جلبة ، والعوام قد تابعوا الفقهاء فى خلق القرآن ؛ وأهل « قُم » شيعة غالية . . . وهمذان وأجنادها أصحاب حديث إلا الدينَوَر ، فإن بها جلبة لمذهب سفيان الثورى ، والإمامة فى الجامع مثنى (يوم لمذهب و يوم لمذهب) ، وعلى ذلك كان أهل أصفهان فى القديم[٢] .

ويقع بالرى عصبيات فى خلق القرآن[٣] ، وفى أهل أصفهان بله وغلو فى معاو ية[٤] .

وقد اشتهر من بلاد الجبل فى العلم والأدب « دينَور » التى ينسب إليها ابن قتيبة الدينورى ، وأبو حنيفة الدينورى ، وغيرهما من فحول العلماء والأدباء .

* * *

و إلى الجنوب من إقليم الجبال كان إقليم « فارس » ، وكان اسماً لإقليم خاص ، ثم أطلق على إيران كلها . وقد اشتهر من هذا الإقليم فى العلم والأدب إصْطخر ، وسِيراف ، وشيراز ، وأرّجان ، وشِعب بَوّان ، وشهرستان ؛ وقد حازت شيراز مركزاً ممتازاً فى العهد البويهى ، وخاصة فى عهد عضد الدولة ، وكانت هى قصبة إقليم فارس ينزل بها ملوك البويهيين . قال المقدسى : « وهذا

---

(١) ٣٨٩ . (٢) ٣٩٥ .

(٣) ٣٩٦ . (٤) ٣٩٩ .

الإقليم (إقليم فارس) العمل فيه على مذهب أصحاب الحديث ، وأصحاب أبى حنيفة كثيرون ، وللداوودية (أهل الظاهر) دروس ومجالس وغلبة ، و يتقلدون القضاء والأعمال[1] . والصوفية بشيراز كثيرون — وكما يُرفع بالمشرق العلماء تُرفع هنا الكتبة[2] » .

* * *

نعود إلى وصف الحركة العلمية فى العراق ، ثم فى الجزء الجنوبى من بلاد الفرس .

فالعراق من عهد المتوكل إلى آخر الدولة البويهية لم تزل لها الصدارة فى العلم والأدب والفلسفة .

ويدل ما جمعه الخطيب البغدادى من تراجم علماء بغداد على ثروة واسعة فى العلم والعلماء من جميع الفروع كالتفسير والحديث والفقه والشعر والأدب .

نعم إن المتوكل نصر أهل الحديث على المعتزلة واضطهدهم ، وكان فى هذا خسارة كبيرة على الحركة الفكرية ؛ ولكن مع ذلك ظل الجدل فى علم الكلام قوياً .

فقد نبغ أبو علىّ الجُبّائى (٢٣٥ — ٣٠٣) ، وكان إمام المعتزلة فى بغداد ، وتتلمذ له أبو الحسن الأشعرى (٢٧٠ — ٣٣٠) ، وكان مولده بالبصرة ، وانتقل إلى بغداد ، وأخذ مذهب الاعتزال على الجبائى ، ثم خرج على الاعتزال وحار به وألف فى ذلك الكتب الكثيرة ، وخالف المعتزلة فى كثير من أصولهم لقولهم بالاختيار المطلق ووجوب العدل على الله ، وأن القرآن مخلوق ، وكوّن مذهباً له دعا إليه ، وناصر مذهبه جماعةٌ من أكبر العلماء من أشهرهم الباقلانى ، وابن

---

(١) ٤٣٩ . (٢) ٤٤٠ .

فورَك ، والإسفرائيني ، والقشيري ، و إمام الحرمين الجُوَيني ، ثم الغزالي — فأبو حامد الإسفرائيني كان يحضر إليه أكثر من ثلثمائة فقيه ، وانتهت إليه الرياسة في بغداد ، وكان شافعياً كأبي الحسن الأشعري ، وما زال يدرّس ببغداد من سنة ٣٧٠ إلى وفاته سنة ٤٠٦ .

والباقلاني كذلك كان من أنصار الأشعري في بغداد ، وصنف التصانيف الكثيرة في علم الكلام ، وكان موصوفا بالإطناب وقوة الجدل ، مات سنة ٤٠٣ الخ الخ .

واشتد الجدل بين الأشعرية والمعتزلة ، وإن خَفَتَ بعض الشيء صوت المعتزلة لقوة المحدّثين ، ونصرة ذوى السلطان لهم .

واستمر المعتزلة في العراق يعلّمون ويدرسون ويدعون ؛ وقد اشتهر منهم أئمة عظماء كأبي على الجبائي الذى مر ذكره ، ثم تلميذه في الاعتزال محمد بن عمر الصَّيْمري ، ثم قاضي القضاة عبد الجبار ، كان أشعريا ثم تحول إلى الاعتزال ونبغ فيه ؛ قالوا : « وهو أول من فتق علم الكلام ونشر بروده ، ووضع فيه الكتب الجليلة التى بلغت المشرق والمغرب ، وضمنها من دقيق الكلام وجليله ما لم يتفق لأحد مثله ؛ وطال عمره مواظباً على التدريس والإملاء (ببغداد) حتى طبق الأرض بكتبه وأصحابه ، وبَعُد صوته ؛ وإليه انتهت الرياسة في المعتزلة حتى صار شيخها وعالمها غير مدافَع ، وصار الاعتماد على كتبه ومسائله ؛ واستدعاه الصاحب بن عباد إلى الرى سنة ٣٦٠ فبقى فيها مواظباً على التدريس إلى أن توفى سنة ٤١٥ أو سنة ٤١٦ »[١] . وهو الذى يلقبه المعتزلة بقاضي القضاة .

وهكذا ظلت حركة الاعتزال في العراق يناهضها الأشاعرة وغيرهم ، ويؤسسون بذلك علم الكلام ويوسعونه .

* * *

---

(١) المنية والأمل .

كما نمت الحركة الفقهية فى العراق نمواً كبيراً ، وظهر كثير من المجتهدين وكبار أتباع المذاهب المختلفة .

فكان من المجتهدين داود الظاهرى الأصفهانى الأصل البغدادى الدار . وقد أسس مذهباً عماده إنكار القياس ، وأن فى الكتاب والسنة من العمومات ما يفى بمعرفة الواجبات والمحرمات ، وتقديم ظواهر آيات القرآن والحديث على التعليل العقلى للأحكام . وقد كثر أتباع هذا المذهب فى العراق وفارس والأندلس . وقد انقرضوا بعد المائة الخامسة ؛ وقد مات داود صاحب المذهب سنة ٢٧٠ ببغداد ، ونشر مذهبه بعده ابنه محمد المتوفى سنة ٢٩٧ .

ثم من أشهر الأئمة المجتهدين محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير والتاريخ ، ومن أعلم الناس بفقه المذاهب المختلفة ، وألّف فى اختلاف الفقهاء ، وكان من أكثر العلماء تأليفاً ، وكان مجتهداً فى مذهبه لم يقلد أحداً ، توفى سنة ٣١٠ ببغداد . وكان له أتباع على مذهبه انقطعوا بعد المائة الرابعة .

وقد نبغ فى هذا العصر كثير من علماء المذاهب المختلفة كذلك .

فاشتهر من الحنفية فى العراق أبو الحسن عبيد الله الكرخى رئيس الحنفية فى العراق فى عصره ، توفى سنة ٣٤٠ . وقد أصابه الفالج ، فكتب أصحابه إلى سيف الدولة الحمدانى يستمنحونه ما ينفق عليه ؛ فلما علم الكرخى بذلك بكى ، وقال : اللهم لا تجعل رزقى إلا من حيث عودتنى ، ومات قبل أن تصل إليه صلة سيف الدولة .

وكان من أكبر تلاميذ الكرخى هذا أبو بكر الجَصّاص البغدادى رأس المذهب بعد الكرخى ، وألّف الكتب الكثيرة على مذهب أبى حنيفة ، مات سنة ٣٧٠ . وقد وصل إلينا من تآليفه كتابه العظيم المطبوع ، أحكام القرآن .

ثم أبو الحسين أحمد القُدُورى رئيس الحنفية فى العراق فى زمنه ؛ وقد ألف كتباً وصل إلينا بعضها منها المختصر ، وكان يناظر الإسفرائينى الفقيه الشافعى المشهور ، مات سنة ٤٢٨ .

واشتهر من فقهاء المالكية العراقيين أبو إسحاق إسماعيل بن إسحاق بن حماد ، تفقه عليه أهل العراق من المالكية ، وألّف الكتب الكثيرة فى الفقه المالكى وعلوم القرآن ، وكان من نظراء المبرد فى النحو ، وولى قضاء بغداد ، وعنه انتشر مذهب مالك فى العراق ، وأقام على القضاء نيفاً وخمسين سنة ، « وكان بيت آل حماد أشهر بيت فى العراق لكثرة رجاله المشهورين بالعلم والثراء ، أئمة الفقه ومشيخة الحديث ، رؤساء نبهاء أصحاب سنة وهدى ودين ، روى عنهم علماء انتشروا فى أقطار الأرض ، فانتشر ذكرهم فى المشرق والمغرب ، و بقى العلم فى بيتهم نحو مائة عام » ، مات إسماعيل بن حماد هذا سنة ٢٨٢ .

ثم أبو الحسن على بن أحمد البغدادى المشهور بابن القصار ، كتب كتاب مسائل الخلاف المشهور عند المالكية ، وقد تولى أيضاً قضاء بغداد ، ومات سنة ٣٩٨ .

واشتهر من رجال الشافعية ، أبو على الكرابيسى البغدادى ، رئيس الشافعية ببغداد ، المتوفى سنة ٢٤٥ ؛ وأبو على الزعفرانى البغدادى المتوفى سنة ٢٦٠ ؛ وأبو على الحسن بن القاسم الطبرى البغدادى ، له كتاب المحرّر فى النظر ، وهو من أوائل الكتب فى الخلاف بين الفقهاء ، وله كتاب الإفصاح فى الفقه ، وكتاب فى الأصول ، وكتاب فى الجدل ، توفى سنة ٣٠٥ .

ثم أحمد بن عمر بن سريج القاضى بشيراز ثم ببغداد ، أحد عظماء الشافعية

ألف نحو أربعمائة كتاب ، توفى سنة ٣٠٦ .

وأبو إسحاق المروزى إمام عصره فى العراق بعد ابن سريج ، أقام بالعراق دهراً طويلا ينشر مذهب الشافعى ، توفى سنة ٣٤٠ .

وأبو الحسن على بن عمر البغدادى الدارقطنى ، المحدِّث الكبير ، وكان فقيهاً شافعياً ، عارفاً باختلاف الفقهاء ، رحل إلى مصر ، ونزل ضيفاً على ابن حِنْزابة وزير كافور الإخشيدى ، ثم عاد إلى بغداد ، وألف كتباً كثيرة ، ومات ببغداد سنة ٣٨٥ ، ونسبته إلى دار قطن محلة ببغداد .

ثم أبو الحسن الماوردى على بن محمد بن حبيب البصرى من أكبر فقهاء الشافعية ، تولى القضاء فى بلدان كثيرة ، واستوطن بغداد ؛ وألف الحاوى وهو من أهم الكتب فى الفقه الشافعى ، وله الكتاب المشهور المفيد كتاب « الأحكام السلطانية » شرح فيه مناصب الدولة من الناحية الدينية كالإمامة وشروطها ، والوزارة وأقسامها ، والقضاء والحسبة وولاية الخراج ، إلى آخره ؛ وكان عمدة كل من تعرض لهذا الموضوع من بعده ، وله كتاب آخر فى قانون الوزارة وسياسة الملك .

وله كتاب أدب الدنيا والدين فى الأخلاق على الأصول الدينية لا كتهذيب الأخلاق لمسكويه ، فإنه كتاب أخلاق على الأصول الفلسفية .

مات ببغداد سنة ٤٥٠ .

وكان للحنابلة سلطان كبير فى العراق ، واشتهر من علمائهم عبد الله بن الإمام أحمد بن حنبل ، روى عن أبيه المسند والتفسير توفى سنة ٢٩٠ .

وأبو بكر أحمد بن هانئ الطائى البغدادى أحد الأعلام فى الفقه على مذهب ابن حنبل ، مات بعد السبعين ومائتين .

وأبو إسحاق إبراهيم الحربى إمام كبير فى الحديث مات سنة ٢٨٥ .

وأبو بكر عبد الله بن داود الأزدى السجستانى من أكابر حفّاظ الحديث ببغداد ، وانتهت إليه رياسة الحنابلة بها ، مات سنة ٣١٦ .

وأبو القاسم عمر بن الحسين الخِرَقى صاحب المختصر فى فقه الحنابلة ، خرج من بغداد لما ظهر بها سب السلف ، وتوفى سنة ٣٣٤ .

وقد أتعب الحنابلة الحكومات المتعاقبة أكثر من غيرهم من أهل المذاهب الأخرى لشدة عصبيتهم والميل إلى تنفيذ آرائهم بالقوة ، من إراقة الخمور ومحاربة المنكرات ، والتعدى على خصومهم من أهل المذاهب ، وصبرهم على ما يلقون من محن تقليداً لأستاذهم الأكبر أحمد بن حنبل .

٭ ٭ ٭

وفى هذا العصر نما فى العراق التصوف ، والدعوة إلى الاهتمام بباطن النفس لا بالظواهر ، وحقيقة الشريعة لا مجرد أعمال الجوارح ، ورياضة النفس عن طريق الزهد والعبادة ، والوصول إلى المعرفة عن طريق الوحى والإلهام ، وإدراك العالم العلوى بالذوق والشعور ، لا بما يدركه العقل بالمنطق والتجارب والقياس . وقد ظهر التصوف فى العراق فى القرن الثانى ، واشتهر من أعلامه رابعة العدوية المتوفاة سنة ١٣٥ ، وهى القائلة : استغفارنا يحتاج إلى استغفار ، والقائلة : إلهى أتحرق بالنار قلباً يحبك ؟ !

ثم إبراهيم بن أدهم (١٦٢) ؛ وشقيق البلخى (١٩٥) ؛ ومعروف الكرخى (٢٠٠) ، وهو القائل : التصوف الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الناس ؛ ثم بشر الحافى (٢٢٦) ، وهو القائل للمحدّثين : أدوا زكاة هذا الحديث ، قالوا : وما زكاته ؟ قال : أن تعملوا بخمسة أحاديث من كل مائتين .

وفى أواسط القرن الثالث تفلسف التصوف ، واستمد من الفلسفة اليونانية والفلسفة الهندية ، فظهر بالعراق الحارث المحاسبى وهو بصرى الأصل ، وأستاذ أكثر البغداديين ، ومفلسف التصوف ، ألف كتباً كثيرة ؛ وكان يقول : خيار هذه الأمة هم الذين لا تشغلهم آخرتهم عن دنياهم ، ولا دنياهم عن آخرتهم . وكانت تآليفه من الأصول التى اعتمد عليها الغزالى فى كتبه ، توفى سنة ٢٤٣ .

ثم سهل بن عبد الله التسترى البصرى المتوفى سنة ٢٨٣ .

ثم أبو سعيد أحمد بن عيسى البغدادى الخرّاز المتوفى سنة ٢٨٦ ، وهو أول من تكلم فى الفناء والبقاء .

ثم ظهر إمام الصوفية الجنيد ، أصله من نهاوند ، ومولده ومنشؤه بالعراق ، توفى سنة ٢٩٧ ببغداد ؛ ومن قوله : التصوف صفاء المعاملة مع الله — إن الله يُخلص إلى القلوب مِنْ بِرِّه على حسب ما تُخلص إليه القلوب من ذِكره ، فانظر ماذا خالط قلبك — المريد الصادق غنى عن علم العلماء — التصوف أن تكون مع الله بلا علاقة .

ومن تلاميذ الجنيد أبو منصور الحلاج الذى نقلت عنه مقالات فى الحلول أفتى فيها العلماء بإباحة دمه ، فقتل ببغداد سنة ٣٠٩ .

وأخذ المتصوفة يضعون الكتب فى التصوف محاذاة لكتب الفقهاء ، ومن أشهر هذه الكتب قوت القلوب لأبى طالب المكى ، أصله من إقليم الجبل وسكن مكة فنسب إليها ، وأقام ببغداد مدة وبالبصرة مدة ، وشطح فى كلامه ؛ وقد مات ببغداد سنة ٣٨٦ .

* * *

وكان طبيعياً أن يثور الخلاف بين الفقهاء والمتصوفة لاختلاف النزعتين .

فالمتصوف يعتمد على القلب وعلى الذوق وعلى المعرفة من طريق الإلهام وعلى الباطن ؛ والفقهاء يعتمدون على ظاهر القرآن والسنة ، وعلى الاستنباط منهما من طريق المنطق والعقل ، وليس عندهم باطن ولا حقيقة وراء ظاهر النصوص وفهم معانيها . والصوفى يعنى بالروح والنفس ؛ والفقيه يعنى بالجانب الظاهرى والعملى . والصوفى روحانى نفسانى ؛ والفقيه قانونى . والصوفى يعنى بالحب الإلٰهى ، ولا يعنيه كثيراً أمر الثواب والعقاب ؛ والفقيه يعنى بأداء العبادات ، ويعتمد كثيراً على الثواب والعقاب الخ . فلا عجب إذن إذا اصطدمت الطائفتان ، ولا عجب إن كان أكبر اصطدام لهما فى العراق إذ كانت الموطن الأكبر للمتصوفة ، وخصوصاً فى البصرة حيث كانت منزل الهنود القادمين إلى العراق ، وبغداد حيث تلتقى الثقافات .

وكانت الخصومة أشد ما يكون بين الحنابلة والصوفية لشدة تمسك الحنابلة بظاهر النصوص ، ولأثر أحمد بن حنبل نفسه فى ذلك ، فقد أنكر أحمد بن حنبل على الحارث المحاسبى الصوفى كلامه فى التصوف حتى اختفى المحاسبى ، ولما مات لم يحضر جنازته إلا أربعة ؛ وعاب عليه ابن حنبل وتلاميذه كلامه فى الخواطر والوساوس ، وقال إن هذه بدعة . ورمى الحنابلة الصوفية بالزندقة وأثاروا الناس عليهم ، وكان من أشهر الحوادث فى ذلك المحنة المعروفة بمحنة « غلام الخليل » ، وكان ذلك سنة ٢٦٢ ، إذ جاء « غلام الخليل » . وكان حنبلياً معروفاً بالحديث والفقه والوعظ ، وقد وصفه أبو داود السجستانى بأنه دجّال بغداد — واتهم الصوفية بالزندقة ، وشَغّب عليهم العامة ، وسعى عند الخليفة ، وعند والدة الموفق ، فأمر بالقبض على عدد كبير من الصوفية بلغوا نيفا وسبعين . وانتهت المحنة بقتل بعضهم ، وهرب بعضهم وتبرئة بعضهم .

ثم كانت فتنة الحلاّج الكبرى فاتهم بالكفر ودعوى الألوهية ، ورصدت فتوى من محمد بن داود الظاهرى بتكفيره سنة ٢٩٧ ، ثم قبض عليه وحوكم ؛ وصدرت الفتوى بإباحة دمه من أبى عمر بن يوسف الأزدى وأبى الحسين بن الأشنانى ، ووقّع الخليفة بموته ، فقتل الحلاج وصلب وقطعت أطرافه ، وأحرق سنة ٣٠٩ .

فنرى من هذا شدة ما كان بين الصوفية والفقهاء فى العراق من نزاع .

* * *

ونشطت حركة الفلسفة والنقل فى العراق فى العهد البويهى نشاطا كبيراً ، فكان من أكبر فلاسفة بغداد أبو سليمان المنطقى محمد بن طاهر بن بهرام السجستانى ، شيخ رجال الفكر فى بغداد ، وقد وصفه تلميذه أبو حيان بأنه « أدق (العلماء) نظرا ، وأقعرهم غوصا ، وأصفاهم فكراً ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز »[1] .

وكان مجلسه فى بيته مدرسة فكرية تثار فيها أدق المسائل ، ويدلى فيها كبار العلماء بآرائهم ، ولأبى سليمان الكلمة الأخيرة فيما يعرضون .

فيجتمع عنده أمثال أبى زكريا الصيمرى ، وأبى حيان التوحيدى ، والنُّوشَجَانى والقُومَسى ، وغلام زحل ، ويتجادلون — مثلا — فى هل هناك تأثير للنجوم فى الحوادث الأرضية ؛ وفى أفعال الله هل هى ضرورة أو اختيار ؛ وفى السماع والغناء . ولمَ يؤثران فى النفس ؛ والعلاقة بين المنطق والنحو ؛ ونعيم أهل الجنة وكيف يكون ؛ والفرق بين طريقة المتكلمين والفلاسفة ؛ والحظوظ والأرزاق ، والدهر وحقيقته .

(١) الإمتاع : ١/٣٣ .

فكان بيته مدرسة تنشط فيها الحركات الفكرية ، وتثار فيه أعقد المسائل أحياناً ارتجالا وأحيانا بقراءة رتيبة ؛ فقد درّس فى بيته — مثلا — كتاب النفس لأرسطو وحضره عليه أبو حيان التوحيدى .

ويطلعنا أبو حيان التوحيدى فى كتابه « المقابسات » والإمتاع والمؤانسة على محاضر لهذه الجلسات وغيرها مما كان يدور بين العلماء فى بغداد ، فيدلنا على نشاط ذهنى فلسفى عجيب ، وحرية فى التفكير عظيمة ، وثروة فى رجال الفكر والنشاط العقلى كبيرة ؛ فيروى لنا — مثلا — مناظرة كبرى بين أبى سعيد السيرافى النحوى وبين متَّى بن يونس القُنَّائى فى المنطق اليونانى والنحو العربى سنة ٣٢٠ ، وكانت فى بغداد ، واحتشد لهذه المناظرة كثير من العلماء ورسول للإخشيديين بمصر ورسول للسامانيين . وكان أساس المناظرة أن متّى يقول لا سبيل إلى معرفة الحق من الباطل والصدق من الكذب ، والخير من الشر ، والحجة من الشبهة ، والشك من اليقين إلا بالمنطق حسبما رسمه أرسطو ؛ وكان أبو سعيد يرى أن هذه الأمور تعرف بالعقل الفطرى من غير حاجة إلى المنطق ، وليس علم المنطق إلا أشكالا ؛ فهب أن الأشكال صحيحة فبم تعرف جوهر الأشياء وحقيقتها ؟ أليس من طريق العقل ؟ ! وتحورت المناقشة بعد ذلك إلى مسائل فرعية لا نطيل بها ، كدعوى أنه لا حاجة بالمنطقى إلى النحو وبالنحوى حاجة إلى المنطق الخ .

ويحكى مجلسا عند الوزير ابن سعدان حضره جماعة من متفلسفة النصارى جرى فيه البحث فى الإصلاح الخلقى وتقسيمه إلى سهل وعسير كالإصلاح البدنى .

ومحضر جلسة أخرى عند عيسى بن على بن عيسى الوزير فى السبب الذى من أجله يولع كل ذى علم بعلمه .

ومناظرة بين مانى المجوسى وأبى الحسن محمد بن يوسف العامرى فى النفس بعد الموت هل تبقى أو لا تبقى .

ومناقشة فى أن معرفة الله هل هى ضرورية أم استدلالية ، إلى كثير من أمثال ذلك مما يدل على جو مملوء بالأفكار الفلسفية ، وميل عقلى إلى فلسفة الأشياء ، والعمق فى التفكير فيها .

واشتهر بالطب والفلسفة فى بغداد ابن بطلان وهو أبو الحسن المختار بن الحسن بن عبدون النصرانى ، وهو الذى كان له المساجلات الطويلة المفيدة مع ابن رضوان المصرى ، فلما طالت سافر إلى مصر لزيارة منافسه سنة ٤٣٩ وعرج على حلب ، ثم وصل مصر سنة ٤٤١ وأقام بها ثلاث سنين ، ثم عاد إلى بغداد . وقد تقدم طرف مما كانت تدور حوله المناظرة عند ترجمة ابن رضوان . وقد وصل إلينا من كتبه كتاب شراء العبيد وكتاب دعوة الأطباء — وقد صنّف أيضاً فى تقويم الصحة ، وكيفية دخول الغذاء فى البدن وهضمه ، والمدخل إلى الطب الخ .

وكان من أشهر المشتغلين بالفلسفة فى بغداد يحيى بن عَدِىّ النصرانى ، وكان رئيس المناطقة فى زمانه ، أخذ العلم عن بشر بن متى وعن الفارابى ، وكان كثير الإنتاج بما ينقل من السريانية إلى العربية وبما يؤلف وبما ينسخ ؛ وقد عمّر إحدى وثمانين سنة كان فيها حركة دائبة ألف مقالات كثيرة فى المنطق وفى الإلٰهيات ، ومات ببغداد سنة ٣٦٤ ؛ وصفه أبو حيان التوحيدى بأنه « كان شيخاً لين العريكة ، مشوه الترجمة ردىء العبارة ، وكان مبارك المجلس ، وكان ينبهر فى الإلٰهيات ويضل فيها » .

وممن اشتهر بالفلسفة أيضاً أبو على بن زُرعة النصرانى ، اشتهر بالمنطق وعلوم الفلسفة ، والنقل إلى العربية ، اختصر كتاب أرسطو فى المعمور من الأرض

وألف كتاب أغراض كتب أرسطو المنطقية ، ومقالة فى العقل الخ . مات ببغداد سنة ٣٩٨ . وقد فضله أبو حيان على يحيى بن عدى فقال : « إنه كان حسن الترجمة صحيح النقل ، كثير الرجوع إلى الكتب ، محمود النقل إلى العربية ... ولولا توزع فكره فى التجارة ومحبته فى الربح وحرصه على الجمع لكانت قريحته تستجيب له » . وهو يشير إلى أنه كان مفتونا بالتجارة مع القسطنطينية فاغتنى ولكن صودرت أمواله ووقع فى محن حتى أصيب بالفالج .

كما اشتهر نظيف القسى الرومى ، وكان خبيراً باللغات ، ينقل من اليونانى إلى العربى ، واستخدمه عضد الدولة البويهى فى البيمارستان الذى أنشأه ببغداد ؛ قال أبو حيان : إن نظيفاً كانت يده فى الطب أطول ، ولسانه فى المجالس أجول ، ومعه وفق وحذق فى الجدل .

وغير هؤلاء كثيرون عنوا بالفلسفة فى بغداد كابن السمح ، وأبى بكر القُوَسى ، وابن الخمار ، وأبى الوفاء البوزجانى الرياضى المشهور ؛ قال فيه ابن خلكان : إنه أحد الأئمة المشاهير فى علم الهندسة ، وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق بها ، قدم العراق سنة ٣٤٨ ، ومات به سنة ٣٨٧ .

ومن هذه الطبقة أبو علىّ أحمد بن محمد مسكويه ، كان خازنا لكتب عضد الدولة ، واختص من الفلسفة بالناحية الخلقية ، فألف تهذيب الأخلاق ، كما ألف فى التاريخ كتابه تجارب الأمم جرى فيه على نسق خاص ، وهو الاهتمام بمواضع العبرة فى الأحداث التاريخية ، والتعليق عليها تعليق الحكيم المجرب .

وظهر بالبصرة فى القرن الرابع للهجرة جماعة إخوان الصفاء ، وكان منهم — كما حدّث أبو حيان التوحيدى — زيد بن رفاعة ، وأبو سليمان محمد بن معشر البُسْتى المعروف بالمقدسى ، وأبو الحسن على بن هارون الزنجانى ، وأبو أحمد

المهرجانى ، والعوفى ؛ وغيرهم ، « وكانت هذه الجماعة قد تألفت بالعِشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ؛ وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ، فقد حصل الكمال — وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها — وأفردوا لها فهرستاً وسموها رسائل إخوان الصفا ، وكتموا فيها أسماءهم ، و بثوها فى الوراقين ووهبوها للناس »[1] .

وعلى الجملة فقد كانت الحركة الفلسفية فى العراق من أرقى الحركات الفلسفية فى المملكة الإسلامية .

* * *

وقد نبغ فى العراق فى ذلك العصر كثير من الشعراء والأدباء ، من أشهرهم فى بغداد ابن نباتة السَّعْدِى مداح الملوك والرؤساء والوزراء ، مدح سيف الدولة فى حلب كما تقدم ، ومدح عضد الدولة والوزير المهلبى فى العراق ، وابن العميد فى الرى ؛ وله مقطوعات كثيرة فى الغزل وشكوى الزمان ، وأكثر من الوصف وأجاد ، فوصف كماة الحرب وأسرى الروم ، والفرَس ، والمغنّى ، والسكين ، وطيب الهواء ، وخوالج نفسه الخ . وقد جمع شعره بين الرقة والسهولة وحسن السبك ، ومات سنة ٤٠٥ ببغداد .

ثم أبو الحسن السَّلاَمى نسبة إلى دار السلام ، شاعر عربى الأصل من

(١) الإمتاع والمؤانسة .

بنى مخزوم ، ولد فى كرخ بغداد ، مدح الصاحب بن عباد بأصفهان ، وابن العميد فى الرى ، وعضد الدولة بشيراز ، وسلك مسلك أبى نواس فى التشبيب بالغلمان ، وجرى على سنة عصره فى الإكثار من المقطوعات ، ووصف ما يعرض من الأشياء . وقد وصف شِعب بَوّان وصفاً لم يستطع الوصول فيه إلى ما وصل له المتنبى فى وصفه ، ويفحش أحيانا فيفرط فى الفحش ، ويهجو فيقذع فى الهجاء ، على عادة كثير من شعراء هذا العصر .

ثم ابن سكّرة ، وابن حجاج ؛ وقد سبق طرف من الكلام عليهما .

وقد وصف أبو حيان التوحيدى بعض المشهورين من الشعراء فى وقته ببغداد ، فكان مما قال : «إن ابن نباتة شاعر الوقت ، لا يدفع ما أقول إلا حاسد أو جاهل أو معاند ، قد لحق عِصابة سيف الدولة وعدا معهم ووراءهم ، حسن الحذو على مثال سكان البادية ، لطيف الائتمام بهم ، خفى المغاص فى واديهم ، ظاهر الإطلال على ناديهم ، هذا مع شعبة من الجنون ، وطائف من الوسواس .

وأما ابن حجاج فسخيف الطريقة ، بعيد من الجد ، قريع فى الهزل ، ليس للعقل من شعره منال ، ولا له فى قرضه مثال ، على أنه قويم اللفظ ، سهل الكلام . . . وهو شريك ابن سُكّرة فى هذه الغرامة (الخسارة) ، وإذا جد أفعى ، وإذا هزل حكى الأفعى .

وأما السلامى فهو حلو الكلام ، متسق النظام ، كأنما يبسم عن ثغر الغمام ، خفى السرقة ، لطيف الأخذ ، واسع المذهب ، لطيف المغارس ، جميل الملابس ، لكلامه لَيْطة بالقلب ، وعبث بالروح ، وبرد على الكبد .

وأما الحاتمى[1] ، فغليظ اللفظ ، كثير العُقَد ، يحب أن يكون بدويا قُحّا ،

---

(١) هو محمد بن الحسين الحاتمى ، صاحب الرسالة الحاتمية فيما جرى بينه وبين المتنبى مات سنة ٣٨٨ .

وهو لم يَتم حضريا ، غزير المحفوظ ، جامع بين النظم والنثر على تشابه بينهما فى الجفوة ، وقلة السلاسة .

وأما ابن جَلَبَات[1] فمجنون الشعر ، متفاوت اللفظ ، قليل البديع ، واسع الحيلة ، كثير الزَّوَق (التزويق) ، قصير الرشاء ، كثير الغثاء .

وأما الخالع[2] فأديب الشعر ، صحيح النحت ، كثير البديع ، مستوى الطريقة ، متشابه الصناعة ، بعيد من طفرة المتحيِّر ، قريب من فرصة المتخيِّر .

وأما مسكويه[3] فلطيف اللفظ ، رطب الأطراف ، رقيق الحواشى ، سهل المأخذ ، قليل السكب ، بطىء السبك ، مشهور المعانى ، كثير التوانى ، شديد التوق ، ضعيف الترقى ، يرد أكثر مما يَصْدُر ، ويتطاول جهده ثم يقصر »[4] .

كما كان من أكبر شعراء هذا العصر فى بغداد الشريف الرضى ؛ وقد تقدم القول فيه .

* * *

واشتهر من شعراء البصرة فى هذا العصر البويهى ابن لَنْكَك البصرى . وقد رأى غيره من الشعراء ينفق سوقه وهو خامل ، مع أدبه وظرفه ، فأكثر من ذم الدهر ، وشكوى الزمان ، وهجاء من نجح من الشعراء ، وهو فى المقطوعات القصيرة أجود منه فى القصائد الطويلة .

* * *

---

(١) هو أبو القاسم على بن جلبات ، شاعر عراقى مدح الخليفة القادر بالله والوزير سابور بن أردشير .

(٢) هو أبو على الحسن بن على الخالع من شعراء الوزير سابور بن أردشير .

(٣) عده أبو حيان من الشعراء أيضاً كما هو من الفلاسفة والمؤرخين .

(٤) انظر الإمتاع : ١/١٣٤ وما بعدها ، وتجد نماذج لهؤلاء الشعراء ما عدا مسكويه فى الجزء الثانى من اليتيمة للثعالبى .

ونبغ فى العهد البويهى أربعة من كبار الكتاب ، اثنان فى الجزء الفارسى الجنوبى ، وهما : ابن العميد ، والصاحب بن عبّاد ، وسيأتى الكلام فيهما ، واثنان فى العراق ، وهما : أبو إسحاق الصابى ، وأبو القاسم عبد العزيز ابن يوسف .

فأما الصابى فهو إبراهيم بن هلال الحرّانى الصابى ، صاحب الرسائل المشهورة المطبوعة ، كان كاتب الإنشاء ببغداد عن الخليفة وعن عز الدولة البويهى ، وتقلد ديوان الرسائل سنة ٣٤٩ ، وقد ظل محافظاً على دينه الوثنى ، رغم ما خوطب ومنّى ووعد بالوزارة إذا هو أسلم ، فى ملاطفة للمسلمين ومجاراتهم والاحتفال بشعائرهم ، فكان يصوم رمضان ، ويحفظ القرآن — كان مع صابئيته محبوباً من عظماء المسلمين ، مقرباً إليهم ، مبجلا موقّراً ، كالصاحب ابن عباد ، والوزير المهلبى . وقد حكى ياقوت عنه أنه قال : « راسلت المتنبى فى أن يمدحنى بقصيدتين وأعطيه خمسة آلاف درهم ، ووسطت بينى وبينه رجلا من وجوه التجار ، فقال المتنبى للوسيط : قل له والله ما رأيت بالعراق من يستحق المدح غيرك ، ولكن إن مدحتك تنكر لك الوزير (يعنى الوزير المهلبى) وتغير عليك ، لأنى لم أمدحه ، فإن كنت لا تبالى هذه الحال فأنا أجيبك إلى ما التمست وما أريد عن شعرى عوضاً » .

وقد كان الصابى يناصر عز الدولة على عضد الدولة ، فلما انتصر عضد الدولة وقتل عز الدولة قبض على الصابى وحبسه وأراد إلقاءه تحت أرجل الفيلة ، فتشفعوا له فشفع ، ولكن لم يزل فى نفسه منه ، وأمره عضد الدولة أن يؤلف له كتابا فى أخبار الدولة البويهية ، فعمل له الكتاب « التاجى » . وقد وشى بعض الناس إلى عضد الدولة أن الصابى سئل وهو يكتب هذا التاريخ ماذا

تصنع ، فقال : « أباطيل أنمقها وأكاذيب ألفقها » ؛ فقبض عليه ، وحبس أربع سنين ، ثم خرج وقد ساء حاله ، ومات ببغداد سنة ٣٨٤ عن إحدى وسبعين سنة .

وقد كان يعد من أعظم كتاب عصره ، وأسلوبه — كما تدل عليه رسائله — فقرات متساوية ، مسجوعة أحياناً ، مزدوجة أحياناً . وقد وصفه ابن الأثير بأنه إمام الكتّاب فى عصره ، وأنه يجيد فى الكتابة الرسمية (السلطانيات) ، ويقصر فى الإخوانيات ، وأخذ عليه تكراره الفقرات فى معنى واحد كقوله : « لا تخلقه العصور بمرورها ، ولا تهرمه الدهور بكرورها » .

ولما مات رثاه الشعراء ، ومنهم الشريف الرضى فى قصيدته المشهورة :

أرأيت من حملوا على الأعواد ... أرأيت كيف خبا ضياء النادى

يقول فيها :

ثكلتك أرض لم تلد لك ثانيا ... أنّى ومثلك مُعْوِز الميلاد

مَن للممالك لا يزال يلمها ... بسداد أمر ضائع وسداد

من للجحافل يستزل رماحها ... ويرد رَعْلتها[1] بغير جِلاد

وصحائف فيها الأراقم كُمَّنٌ ... مرهوبة الإصدار والإيراد

حمر على نظر العدو كأنما ... بدم يخط بهن لا بمداد

يُقدمن إقدام الجيوش وباطل ... أن ينهزمن هزائم الأجناد

إن الدموع عليك غير بخيلة ... والقلب بالسلوان غير جواد

وأما أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف ، فكان يعد من أكبر كتاب عصره ، تقلد ديوان الرسائل لعضد الدولة ، وتقلد الوزارة بعده عدة مرات

(١) الرعلة : القطعة من الفرسان .

لأولاده ، وهو فى أسلوبه أقل التزاماً للسجع وإن كان يزاوج ، وفى إخوانياته يمزج شعره بنثره[1] .

ومن أشهر الكتاب البويهيين أبو حيان التوحيدى ، وقد كان من نوع آخر ، فكتابته يعنى فيها بالموضوع كما يعنى بالشكل ؛ وهو غزير العقل واسع العلم حسن الصياغة ، جيد السبك وبحق لقبوه بالجاحظ الثانى ، وقد وصل إلينا من كتبه الإمتاع والمؤانسة ، والمقابسات ، والبصائر ، ورسالة فى الصداقة ، وأسلوبه فيها أسلوب أدبى راق يحب الازدواج ويطيل البيان ، ويولد المعانى حتى لا يدع لقائل بعده قولا ، كثير المحفوظ ، واسع المعرفة ، له اتصال تام بالفلسفة ، والتصوف والأدب من شعر ونثر ، والتاريخ والسير ، خبير بأحوال الزمان . حمله البؤس على أن يتنقل فى الأمصار ، ويتصل بالعامة ، ومكنه أدبه أن يتصل بالوزراء كابن العميد ، وابن عباد ، وابن سعدان ، فعرف من أخلاق الناس على اختلاف طبقاتهم الشىء الكثير ، ودوّن ذلك فى كتبه — وفى أسلوبه بعض الغموض إذا تعرض للمسائل الفلسفية لطبيعية الموضوع وعمقه ، واضح كل الوضوح إذا تعرض للمسائل الأدبية والاجتماعية . وقد اتجه اتجاها لطيفا فى تدوينه فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ما دار فى المجالس بينه وبين الوزير ابن سعدان وزير صمصام الدولة البويهى ، كما دون فى كتابه المقابسات محاضر جلسات لكثير من العلماء وخاصة أبا سليمان المنطقى .

* * *

ونبع فى الأدب واللغة أبو بكر محمد بن دريد الأزدى ، ولد بالبصرة سنة ٢٢٣ ثم مكث بعُمَان اثنتى عشرة سنة ، ثم عاد إلى البصرة ، ثم ذهب إلى فارس

---

(١) انظر نماذج من كتاباته فى الجزء الثانى من اليتيمة .

وصحب ابنى ميكال وكانا واليين على فارس ، ثم عاد إلى بغداد سنة ٣٠٨ ، وظل بها إلى أن مات سنة ٣٢١ وهى السنة التى تسلط فيها البويهيون على العراق .

وكان من أكبر علماء العربية ، مقدما فى اللغة والأدب ، ونبغ من تلاميذه كثيرون أشهرهم أبو على القالى وأبو سعيد السيرافى .

وعنه يروى أبو على القالى فى أماليه قصصاً أدبية رائعة ، هى أشبه أن تكون من وضع ابن دريد ، ويعدها « الحُصْرى » أساساً لمقامات بديع الزمان .

وله كتاب الجمهرة فى اللغة ، والمقصورة ، وكتاب الاشتقاق الخ ، وتفوق فى نواح كثيرة فى الأدب — فهو شاعر قصاص — وفى اللغة ، وفى النحو والصرف والأنساب .

وقد انطبعت صورته العلمية فى مؤلفَين كبيرين تتلمذا له ، وهما أبو على القالى صاحب الأمالى ناشر علم اللغة والأدب فى الأندلس ، وأبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى ، وكان من خاصة تلاميذه .

ثم أبو بكر بن الأنبارى كان من أعلم البغداديين لغة وأدباً ، وأكثر الناس حفظا للشعر والشواهد ، كما يعد من علماء القرآن والسنة ، وألف فى ذلك كله الكتب الكثيرة فى علوم القرآن ، وغريب الحديث ، والوقف والابتداء ، وفى اللغة كتاب الأضداد . وقد وصل إلينا من كتبه الدالة على غزارة علمه بالأدب واللغة شرحه للمفضليات ؛ مات سنة ٣٢٨ ، وكان كذلك شيخاً من أكبر الشيوخ الذين استفاد منهم أبو الفرج الأصفهانى .

* * *

وقد نبغ من مؤلفى الأدب فى العصر البويهى فى العراق أبو الفرج الأصفهانى مؤلف كتاب الأغانى ، متعة الأدباء على اختلاف العصور . ينتهى نسبه إلى آخر

خلفاء الأمويين مروان بن محمد . وقد ولد بأصبهان سنة ٢٨٤ ، ونشأ ببغداد ، وأخذ العلم والأدب والتاريخ عن ابن دريد ، وابن الأنبارى ، وابن جرير الطبرى وغيرهم ، وامتاز باطلاعه الواسع على الشعر والأغانى ، والأخبار والنسب ، كما كان ملماً بآلات الطرب ، وطرف من الطب والنجوم والأشربة ، ويقرأ الكتب المخطوطة ، ويأخذ عنها فيقول : نقلت من كتاب كذا .

وقد اتصل بالوزير المهلبى ، وحظى عنده . وألف كتباً كثيرة منها كتاب الأغانى وهو أمتعها . وقد قال : إنه ألفه فى خمسين سنة ، وكتاب القيان ، ومقاتل الطالبيين ، والإماء الشواعر والديارات الخ ، ومات فى بغداد سنة ٣٥٦ أو بعد ذلك .

وقد حظى كتابه الأغانى فى عصره وبعده إلى اليوم ؛ فقد أهدى أول نسخة منه إلى سيف الدولة فأجازه بألف دينار ، وأعجب به الصاحب بن عباد ، وكان يستصحبه فى أسفاره ، وقال أبو القاسم عبد العزيز بن يوسف : « لم يكن كتاب الأغانى يفارق عضد الدولة فى سفره ولا حضره » .

كما كان من كبار رجال الأدب القاضى التنوخى ، وهو أبو القاسم علىّ ابن محمد التنوخى من أعيان أهل العلم والأدب ، تولى قضاء البصرة والأهواز بضع سنين ، وكان إلى فقهه أديباً وشاعراً ظريفاً ، وكان من ندماء الوزير المهلبى وسماره ، « وكان الوزير المهلبى وغيره من رؤساء العراق يميلون إليه ، ويتعصبون له ، ويعدونه ريحانة الندماء ، وتاريخ الظرفاء ، وكان فى جملة الفقهاء والقضاة الذين ينادمون الوزير المهلبى ، ويجتمعون عنده فى الأسبوع ليلتين على اطراح الحشمة والتبسط فى القصف والخلاعة » الخ[1] ، وكان فقيها على مذهب أبى حنيفة

---

(١) ابن خلكان : ١/٥٠٣ .

معتزلياً له شعر كثير، ومنه مقصورة عارض بها مقصورة ابن دريد ، ومات بالبصرة سنة ٣٤٢ .

وقد أنجب ابنَه أبا علىّ المُحسّن التنوخى ، وكان أديباً شاعراً أخبارياً ؛ وهو صاحب كتاب «نِشْوار المحاضرة» ، أراد به أن يحقق فكرة لطيفة وهى أن يدون تاريخ الأحداث التى تَدور فى المجالس وعلى ألسنة الرواة ولم تدوّن فى الكتب ، كما أنه ألف كتاب الفرج بعد الشدة ، وكتاب المستجاد من فعلات الأجواد ؛ وقد مات ببغداد سنة ٣٨٤ .

وقد أنجب هذا أيضاً أبا القاسم علىّ بن المحسِّن التنوخى ، وكان مثل أبيه وجده فقيهاً شاعراً أديباً ؛ وكان هو والخطيب التبريزى يصحبان أبا العلاء المعرى ويأخذان عنه . تولى على بن المحسن القضاء فى عدة نواح ، وإليه كتب أبو العلاء قصيدته التى أولها :

☆ هات الحديث عن الزوراء أوهيتا ☆

مات سنة ٤٤٧ .

فأسرة التنوخى من خير الأسر العراقية علماً وأدبا وتأليفا .

ثم الشريف المرتضى على بن الطاهر ، كان نقيب الطالبيين فى بغداد ، وهو أخو الشريف الرضى ؛ وكان إماما فى علم الكلام والأدب والشعر . وقد وصل إلينا من أهم تآليفه كتاب « أمالى المرتضى » ، وهو ستة وخمسون مجلساً ، مملوء بالفوائد القيمة فى التفسير والحديث وعلم الكلام والأدب ممزوج بعضها ببعض ، ناحٍ فيه منحى الاعتزال والتشيع معاً ، ويستطرد لذكر تراجم لرجال المعتزلة وبعض الشعراء والأدباء ؛ ويظهر أنها دروس أملاها على بعض تلاميذه ، وهى تفيدنا فائدة كبرى فى مناهج الدروس فى ذلك العصر .

وقد توفى ببغداد سنة ٤٣٦ .

ثم أبو سعيد السيرافى ، وكان من أوسع العلماء ثقافة فى علوم القرآن والحديث والنحو واللغة والفقه والفرائض والحساب والكلام والشعر .

كان أبوه مجوسياً فأسلم — وكان أبو سعيد هذا من أعلم الناس بالعربية مع زهد وصلاح وعفة ؛ صنف تصانيف كثيرة أكبرها شرح كتاب سيبويه ، وكثر تلاميذه والأخذ منه ، والانتفاع به فى فروع العلم المختلفة — وكان يميل إلى مذهب الاعتزال ، « وكان بينه وبين أبى الفرج الأصفهانى ما جرت العادة بمثله بين الفضلاء من التنافس »(١) ، ومات ببغداد سنة ٣٦٨ — وتتلمذ له أبو حيان التوحيدى ، وهو يحكى عنه فى كتابه الإمتاع والمؤانسة بعض علمه فى اللغة والنحو ، ويروى ما يرويه عنه فى إجلال وتوثيق .

وقد كان أبو سعيد وهو فى بغداد مقصد الأمراء والعظماء فى الأمصار المختلفة يبعثون إليه يسألونه عما أشكل عليهم ؛ فكتب إليه نوح بن نصر السامانى سنة ٣٤٠ كتابا خاطبه فيه بالأمام ، وسأله عن مسائل تزيد على أربعمائة أغلبها ألفاظ لغوية ، وأمثال يسأله فيها عن صحة نسبتها إلى العرب — وكتب إليه الوزير البلعمى كتابا خاطبه فيها بإمام المسلمين سأله فيه عن مسائل فى القرآن — وكتب إليه المرزبان بن محمد ملك الديلم من أذربيجان كتابا خاطبه فيه بشيخ الإسلام سأله فيه عن مائة وعشرين مسألة أكثرها فى القرآن والحديث .

وكتب إليه ابن حنزابة الوزير المصرى كتابا خاطبه فيه بالشيخ الجليل ، سأله فيه عن ثلثمائة كلمة من فنون الحديث .

وكتب إليه أبو جعفر ملك سجستان كتابا يخاطبه فيه بالشيخ الفرد ، سأله

(١) وفيات الأعيان

عن سبعين مسألة فى القرآن ، ومائة كلمة فى العربية ، وثلثمائة بيت من الشعر ، وأربعين مسألة فى الأحكام ، وثلاثين مسألة فى الأصول على طريق المتكلمين — فأجاب عنها كلها ؛ وتقع الأسئلة والأجوبة فى نحو ألف وخمسمائة ورقة .

ثم هو صاحب المناظرة الكبرى التى جرت بينه و بين أبى بشر متَّى فى المفاضلة بين النحو والمنطق . وقد حكاها كلها أبو حيان التوحيدى فى الجزء الأول من الإمتاع . وقد وصل إلينا من كتبه كتاب أخبار النحويين البصريين .

وكان نظير أبى سعيد السيرافى وقرينه فى النحو والصرف أبو على الفارسى وهو من أعلام الدولة البويهية ، ولد بفارس وأتى بغداد سنة ٣٠٧ ، وأقام بها يشتغل بالعلم ؛ ثم رحل إلى حلب وأقام عند سيف الدولة فى حلبته ، وله مع المتنبى مناظرات ، ثم انتقل إلى فارس وصحب عضد الدولة وعلت منزلته عنده ، وألف أبو على له كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو . وله كتاب الحجة فى القراءات ، ومنه نسخة مخطوطة فى دار الكتب ، وله كتب أخرى كثيرة . وقد رحل إلى بلاد كثيرة ، وكان يدوّن فى كتاب ما يجرى له من مناظرات فى كل بلد ، فكتاب المسائل الحلبيات ، والبغداديات ، والشيرازيات الخ .

وقد وازن أبو حيان التوحيدى بينه و بين أستاذه أبى سعيد السيرافى ، ففضل السيرافى لسعة علمه ودينه وتقواه ، وقال إن أبا على كان يشرب و يتخالع و يفارق هَدْى أهل العلم .

وفى الحق أن السيرافى كان أشبه بالمحافظين ، يروى ما يسمع ، و يحفظ ما يروى على كثرة ما يروى وما يحفظ فى ثقة وأمانة ، وأن أبا على كان حراً مبتكراً قيّاساً ، فتح للناس هو وتلميذه ابن جنى أبواباً جديدة فى النحو والتصريف لم يُسبقا إليها كما تقدم ؛ وقد توفى أبو على الفارسى فى بغداد سنة ٣٧٧ .

وثالث الثلاثة المشهورين فى هذا الباب أبو الحسن الرُّمَّانى جمع بين النبوغ فى النحو وعلم الكلام ، وهو تلميذ ابن دريد أيضاً فى الأدب . وقد قال فيه أبو حيان عند الموازنة إنه عالى الرتبة فى النحو واللغة والكلام والعروض والمنطق ، وعِيبَ به ، إلا أنه لم يسلك طريق واضع المنطق ، بل أفرد صناعة وأظهر براعة . وقد عمل فى القرآن كتاباً نفيساً ، هذا مع الدين والعقل الرزين ؛ توفى سنة ٣٨٤ .

ومن خير ما أخرجته بغداد فى هذا العصر ابن النديم ، وهو محمد بن إسحاق النديم — كان وراقا ، وكان عالماً ، فاستخدم علمه وصناعته فى ناحية لم نعرف أن التفت إليها أحد قبله ، وهى أن يحصى جميع الكتب العربية المنقولة من الأمم المختلفة ، والمؤلفة فى جميع أنواع العلوم ، ويصفها ويبين مترجميها أو مؤلفيها ، ويذكر طرفا من تاريخ حياتهم ، ويعين تاريخ وفاتهم ؛ فكان الكتاب على هذا النمط أجمع كتاب لإحصاء ما ألّف الناس إلى قريب من نهاية القرن الرابع ، وأشمل وثيقة تبين ما وصل إليه المسلمون فى حياتهم العقلية والعلمية فى ذلك العصر ، وأكثر هذه الكتب التى وصفها قد ضاعت بتوالى النكبات المختلفة على المملكة الإسلامية ، ولا سيما فى غزو التتار لبغداد ، ولولا كتاب الفهرست لضاعت أسماؤها وأوصافها أيضاً كما ضاعت معالمها .

والناظر فى كتاب الفهرست يعجب لهذا النشاط العلمى الذى قام به المسلمون فى هذه العصور ، وكثرة المؤلفين والمترجمين فى جميع نواحى العلم ، كما يعجب بسعة اطلاع ابن النديم وحبه للوقوف على كل شىء حتى فى أدق مسائل الأديان المختلفة ، والمذاهب المتنوعة ، ويستقصى البحث عن أحوال الصين والهند ، كما يستقصى البحث عن الشام والعراق ، وهو فى كل ذلك يقابل أصحاب النحل المختلفة ويسائلهم ويدقق فى أخبارهم ، ثم يدوّن ما يصل إليه علمه .

وأسلوبه فى كتابته أسلوب موجز يكره اللغو والمقدمات ، ويحب أن يهجم على موضوعه من غير مواربة ولا تمهيد ، حتى لا تستطيع أن تحذف جملة لأن معناها مكرر أو عبارتها مترادفة . ثم هو يتحرى الصدق ، ويميز بين ما رأى وما لم ير ، وينقل ذلك إلى القارئ فى أمانة .

وقد نص المؤلف على أنه ألف كتابه هذا سنة ٣٧٧ ، وفى الكتاب ذكر لعلماء ماتوا بعد الأربعمائة كابن نباتة التميمى — فلا بد أن بعض العلماء زادوا فى نسخته ، لأنه مات سنة ٣٨٥ كما ذكر ابن النجار ، أو سنة ٣٧٨ كما ذكر المرزبانى[١] .

* * *

فإذا نحن انتقلنا من العراق إلى الجزء الجنوبى من فارس ، وهو الجزء الذى حكمه البويهيون أيضاً ، وجدنا ثروة كبيرة فى العلم فى جميع فروعه ، وفى الأدب والشعر ؛ فشيراز فى الجنوب والرى فى الشمال ، كانا من أهم العواصم السياسية والعلمية والأدبية ؛ واشتهر من بلاد الجنوب سيراف ، وفيروزاباد ، وأرزنجان ، واصطخر ، وعاصمتها شيراز ؛ كما اشتهر من بلاد الشمال وهى بلاد الجبل أصبهان ونهاوند ، وهمذان ، ودِينَوَر ، وقومس ، وبسطام وعاصمتها الرى ، وأخرجت هذه البلاد من المحدثين والفقهاء والنحاة والفلاسفة والصوفية والأدباء ما لا يحصى كثرة .

فاشتهر من المحدثين والفقهاء أبو بشر محمد بن أحمد بن حماد الدولابى الرازى (نسبة إلى دولاب قرية بالرى) ، له تآلف فى الحديث والتاريخ اعتمد عليها المحدثون ؛ وتوفى سنة ٣٢٠ .

وأبو محمد عبد الله بن حَيَّان الأصفهانى محدّث أصفهان ، وهو إمام فى الحديث ، له كتاب السنة وفضائل الأعمال ، توفى سنة ٣٦٧ .

---

(١) انظر ما كتبته عنه فى مقدمة فهرست ابن النديم الطبعة المصرية .

وأبو عبد الله محمد بن إسحاق بن محمد بن يحيى بن مَنْدَه الأصفهانى ، كان يلقب بمحدث الشرق ؛ توفى سنة ٣٩٥ .

وأبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم بن إدريس الحنظلى حافظ الرى له المصنفات الكثيرة فى الحديث والفقه ؛ توفى سنة ٣٢٧ .

والقاضى يوسف بن أحمد بن كَجّ الدينَوَرى أحد أئمة الشافعية ، قدم إليه أبو على السنجى بعد أن رأى أبا حامد الإسفرائينى فى بغداد ؛ فقال له أبو على : إن الاسم لأبى حامد ، والعلم لك ؛ فقال له : ذاك رفعته بغداد وحطتنى الدينور ، قتل بها سنة ٤٠٥ .

ويطول بنا القول لو عددنا مشاهير المحدِّثين والفقهاء فى هذا الإقليم ؛ ثم كان لعضد الدولة قبل انتقاله إلى بغداد ، وابن العميد فى إقامته بالرى وزيراً ، وابن عباد كاتباً ووزيراً فى أصفهان والرى ، أثر كبير فى نشاط الحركة الأدبية والعلمية نشاطاً عجيبا .

لقد تقسم الأمراء الثلاثة البويهيون مملكتهم ، فكان عماد الدولة صاحب بلاد فارس والأهواز ، وركن الدولة صاحب بلاد الرى والجبل ، ومعز الدولة صاحب العراق ؛ وجاء عضد الدولة بن ركن الدولة فضم العراق إلى ملكه ، كما ضم إليه ملك البويهيين جميعاً تقريباً ، وضم إليه الموصل وبلاد الجزيرة وسمى بالملك ، وهو أول من سمى بذلك فى الإسلام ، وكان يقيم أحيانا فى الرى ، وأحيانا فى شيراز ؛ فلما فتح العراق كانت عاصمة ملكه بغداد .

وابن العميد كان وزيراً لركن الدولة صاحب بلاد الرى والجبل ، وكان ابن العميد مركزه الرى ، واستمر وزيراً نحو اثنتين وثلاثين سنة حتى مات سنة ٣٦٠ .
وابن عباد كان كاتباً عند ابن العميد ، ولأجل تلمذته لابن العميد وصحبته

له سمى الصاحب ، وظل الصاحب يكتب لابن العميد فى الرى ؛ ثم اختاره ابن العميد ليكون مربياً لمؤيد الدولة ابن ركن الدولة وولى عهده ، وكانت إقامته فى أصفهان ؛ ثم أصبح وزيراً لمؤيد الدولة إلى سنة ٣٧٣ ، ثم وزيراً لأخيه فخر الدولة إلى أن توفى سنة ٣٨٥ ، وخَلَف ابن العميد فى مركزه فى الوزارة وفى إقامته فى الرى .

فهؤلاء الأعلام الثلاثة : عضد الدولة البويهى ، والوزيران ابن العميد ، وابن عباد ، جعلوا هذا القسم من فارس فى منتهى الخصب العلمى والأدبى ؛ إذ كان كل منهم على إمارته أو وزارته عالماً أديباً ، يرى أول ما يجب عليه أن يزين بلاطه ومجالسه بالعلماء والأدباء .

فعضد الدولة كان إلى ملكه الواسع مثقفاً ثقافة واسعة ، يأخذ علم النحو واللغة عن أبى على الفارسى ، وهذا يؤلف له كتاب الإيضاح والتكملة فى النحو ، وله معه مناقشات طريفة ؛ ويقصده الشعراء فيجيدون الشعر لمعرفتهم بتذوقه له ، فقصده المتنبى أيام كان عضد الدولة بشيراز ، وقال فيه :

وقد رأيت الملوك قاطبـــة ... وسرت حتى رأيت مولاها
ومَن مناياهم براحتـــه ... يأمرها فيهم وينهـــاها
أبا شجاع بفارس عضد ... الدولة فنّاخسرو شهنشاها
أســـاميا لم تزده معرفة ... وإنمـــا لذة ذكرناها

ثم أنشده قصيدة نونية ذكر فيها شِعْب بَوّان ، وهو موضعٌ نزه قرب شيراز :

يقول بشعب بوان حصانى ... أعن هذا يسار إلى الطعان
أبوكم آدم سن المعاصى ... وعلمكم مفارقة الجِنان
فقلت إذا رأيت أبا شجاع ... سلوت عن العباد وذا المكان
فإن الناس والدنيا طريق ... إلى من ما لَه فى الناس ثان

ثم مدحه بقصائد أخرى . وآخر شعره أيضاً كافيته التى يقول فيها :

أروح وقد ختمت على فؤادى بحبك أن يحل به سواكا

ومدحه غير المتنبى كثير من الشعراء .

وعضد الدولة هو الذى بنى البيمارستان العضدى ببغداد ، وغرم عليه المال الكثير ، وأعدّ له من الآلات ما يقصر الشرح عن وصفه[1] .

وابن العميد تفوّق فى علوم كثيرة منها الهندسة والمنطق ، وعلوم الفلسفة والإلٰهيّات والطبيعة والتصوير ، وكان أديباً واسع الرواية لأشعار العرب .

قال مسكويه فى كتابه تجارب الأمم ، وكان قيم دار كتب ابن العميد فى بعض وقته : كان هذا الرجل (ابن العميد) ... أكتب أهل عصره ، وأجمعهم لآلات الكتابة حفظا للغة والغريب ، وتوسعاً فى النحو والعروض ، واهتداء إلى الاشتقاق والاستعارات ، وحفظا للدواوين من شعراء الجاهلية والإسلام . . . فأما تأويل القرآن ، وحفظ مشكله وتشابهه ، والمعرفة باختلاف فقهاء الأمصار ، فكان منه فى أرفع درجة ، وأعلى رتبة ؛ ثم إذا ترك هذه العلوم ، وأخذ فى الهندسة والتعاليم لم يكن يدانيه فيها أحد ؛ فأما المنطق ، وعلوم الفلسفة والإلٰهيّات منها خاصة ، فما جسر أحد فى زمانه أن يدعيها بحضرته . . . ثم كان يختص بغرائب من العلوم الغامضة كعلوم الحيل (الميكانيكا) التى يحتاج إليها فى أواخر علوم الهندسة والطبيعة ، والحركات الغريبة ، وجر الأثقال ، وعمل آلات غريبة لفتح القلاع ، والحيل على الحصون . . . ثم معرفته بدقائق علم التصاوير ؛ ولقد رأيته يتناول من مجالسه — الذى يخلو فيه بثقاته وأهل أنسه — التفاحة وما يجرى مجراها فيعبث بها ساعة ، ثم يدحرجها ، وعليها صورة وجه قد خطها بظفره لو تعمد لها غيره بالآلات المعدة ،

---

(١) وفيات الأعيان فى ترجمته .

وفى الأيام الـكثيرة ما استوفى دقائقها ، ولا تأتَّى له مثلها » .

وقد قصده المتنبي أيضاً ، ومدحه وقال فيه :

مَن مُبلغ الأعراب أنى بعدهم شاهدت رسطاليس والإسكندرا

وسمعت بطليموس دارس كتبه متملـكا متبـديا متحضرا

ولقيت كل الفاضلين كأنما رد الإله نفوسهم والأعصرا

نسقوا لنا نسق الحساب مقدما وأتى فذلك إذا أتيت مؤخرا

بأبي وأمي ناطق فى لفظه ثمن تباع به القلوب وتشترى

قطف الرجال القول وقت نباته وقطفت أنت القول لما نوّرا

والصاحب بن عباد كان يعتقد مذهب الاعتزال و ينصره ، و بذلك اعتنق كثير من أهل هذه البلاد الاعتزال ، ولم يكن كأستاذه ابن العميد فى حبه للفلسفة وأهلها ، إنما كان متبحرا فى العلوم الشرعية واللسانية والأدبية ؛ تعلم الحديث كأهل الحديث ؛ وكان عالما بالتوحيد والأصول وألف فيهما ؛ وكان علمه باللغة واسعا ، قالوا إنه ألف فيها كتاب المحيط فى عشرة مجلدات .

وكان له المنزلة العظمى فى الوجاهة والصدارة ، فاجتمع له من الأدباء ما قل أن يجتمع لغيره ، قال الثعالبي : « احتف به من نجوم الأرض وأفراد العصر وأبناء الفضل وفرسان الشعر من يربى عددهم على شعراء الرشيد ، ولا يقصرون عنه فى الأخذ برقاب القوافى وملك رق المعانى » .

أنجبت هذه البلاد بتشجيع هؤلاء وأمثالهم نوابغ من العلماء والأدباء .

ففى الفلسفة كان على رأس الفلاسفة أبو بكر محمد بن زكريا الرازى (نسبة إلى الرى) مولده ومنشؤه بالرى ولذلك عددناه منها ، و إن تنقل فى بلاد كثيرة ،

وهو من أكبر فلاسفة المسلمين ومتفوقيهم فى الطب النظرى والعملى والإلهيات والكمياء والأخلاق .

وقد ألف فى كل ذلك كتبا كثيرة أوصلها بعضهم إلى ما يقرب من مائتين . وله فضل اكتشاف الكحول وزيت الزاج (حامض الكبريتيك) أثناء بحثه فى إمكان تحويل المعادن إلى ذهب ؛ كما ألف فى الطب كتاب الحاوى والطب المنصورى[1] الخ . وكانت كتبه عمدة من تعلم بعده — وكانت أكثر إقامته فى الرى وأقام زمنا عند السلمانيين ، كما عهد إليه فى الإشراف على البيمارستانات وتنظيمها ، وقد اشتهر بين أهل زمانه بالإتيان بالعجائب فى الطب .

وقد بقى لنا من كتبه نحو سبعة عشر كتابا ؛ وأخيراً نشر الأستاذ كراوس مجموعة رسائل فلسفية تدل على جانب آخر من جوانبه العلمية ، فمنها رسالة فى الطب الروحانى ، ويعنى به تهذيب الأخلاق ، وهو لا شك كان من أكبر ما اعتمد عليه مسكويه فى كتابه تهذيب الأخلاق ، وقد قال فى صدره إنه سماه بالطب الروحانى ليكون قرينا للكتاب المنصورى الذى غرضه فى الطب الجسمانى ؛ وقد قسمه إلى عشرين فصلا منها فصل فى فضل العقل وقمع الهوى وردعه ، وتحليل لبعض الرذائل : كالحسد والغضب والبخل ، وختمه بفصل فى رسم السيرة الفاضلة ، ثم فى الخوف من الموت .

ومن رسائله هذه القيمة رسالة فى اللذة وتحليلها معتمدا فى ذلك على ما كتبه فلاسفة اليونان فيها .

ومن هذه الرسائل رسالة فى مناظرة بين الرازيين وهما : أبو بكر الرازى هذا وأبو حاتم الرازى ، وكلاهما من الرى ، ولكن كانت طبيعة أبى بكر الرازى

---

(١) ألفه لمنصور بن إسحاق بن أحمد بن أسد حاكم الرى من سنة ٢٩٠ إلى سنة ٢٩٦ .

طبيعة فلسفية حرة التفكير مؤمنة بسلطان العقل ، وكان أبو حاتم الرازى من كبار دعاة فرقة الإسماعيلية الشيعية ، «واشتهر بدعوته إلى المذهب الفاطمى ، ولعب دورا عظيما فى الشؤون السياسية فى طبرستان وأذربيجان وفى الديلم ، ولا سيما فى أصفهان والرى حتى استجاب له جماعة من كبار الدولة » .

وقد ألف أبو حاتم الرازى كتابا أسماه « أعلام النبوة » للرد على أبى بكر الرازى ، وقد رماه فيه بالإلحاد ؛ وكانت المناظرة تدور حول النبوة ، وهل هى ضرورية — هذا فى أحد المجالس — وفى مجلس آخر كانت المناظرة تدور حول ما ذهب إليه أبو بكر الرازى من قِدم الأشياء الخمسة : البارى ، والنفس ، والهيولى والمكان والزمان ، فرد عليه أبو حاتم فى ذلك الخ الخ .

وقد كانت هذه المناظرات فى مجالس بالرى .

وعلى الجملة فقد كان أبو بكر الرازى شخصية ممتازة قل نظراؤها ؛ وقد اختلف فى سنة وفاته على أقوال متباينة أقربها سنة ٣٢٠ ، وقال ابن خلكان إنه مات سنة ٣١١ .

كما اشتهر من الفلاسفة فى هذه البلاد أبو الخير الحسن بن سوار المعروف بابن الخمّار ، وكان نصرانياً ؛ وقد نقل كتباً كثيرة من السريانية إلى العربية ، واشتهر بالطب ، كما ألف فى المنطق والطب والإلٰهيات .

ثم الفيلسوف الأديب أبو الفرج على بن الحسين بن هِنْدُو ، كان من تلاميذ ابن الخمار ، ألف فى الطب ، وألف المدخل فى علم الفلسفة ، ووصل إلينا من كتبه « الكلم الروحانية » ، وهى مجموعة لطيفة من الحكم اليونانية ، كما كان شاعراً معدوداً من رجال البلاغة الممتازين .

☆ ☆ ☆

ثم إن ابن العميد وابن عباد أوجدا فى هذا الإقليم حركة أدبية رائعة ؛ فقد جمعا بين وجاهة المنصب ووجاهة الأدب ، فهما وزيران خطيران وسياسيان كبيران ، وأديبان عظيمان ، فاستخدما كل ذلك فى إعلاء شأن الأدب .

فكان ابن العميد مولعاً بالأدب ، وله مذهب فى الكتابة أُخذ عنه وقُلد فيه ، عماده التأنق فى اختيار الألفاظ ، والتكلف فى البديع ، ومحاربة التطبع بالتصنع ؛ وهذا النوع من الأسلوب قد يحسن فى الجمل القصار ، والقول الموجز ، ولكن ابن العميد كان يطنب ، والإطناب مع التصنع يستوجب الملل ، فالإسهاب فى الجاحظ حلو سائغ لأنه يجرى مع النفس ، ولكنه عند ابن العميد يُتَجرع لأنه يتصنع ؛ ومع هذا فالناس فى زمنه و بعد زمنه كانوا يعدون هذا الأسلوب هو المثل الأعلى ، لأن حياتهم الاجتماعية كما أسلفنا حياة مصطنعة متكلفة ، ولأن الرياسة والعظمة السياسية والمنصب الكبير يسبغ على الأدب الذى يصدر من رجالها ثوبا من الأبهة والعظمة ، فلا يستطيعون التمييز فى دقة بين قيمة الأدب الذاتية ، وقيمته المستمدة من وجاهة صاحبها ؛ وهذا يصدق على ابن العميد ، والصاحب بن عباد ، ثم من بعد على القاضى الفاضل ، ولهذه العظمة المزدوجة قالوا : « بدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » ، والناس بعدُ قد قلدوا هذا الأسلوب ، وعدوه المثل الذى يحتذى .

ومهما يكن ؛ فقد كان ابن العميد مصدر خير على الحركة الأدبية ، فكان كريماً يغدق على الأدباء والشعراء ، و يقترح موضوعات الأدب عليهم ، و ينافس بينهم ، و يجزل العطاء لمن أحسن منهم ، فيجتمع فى مجلسه بالرى أبو الحسين بن فارس ، وأبو عبد الله الطبرى ، وأبو الحسن البديهى ، و يعرض فى المجلس أترجة حسنة ، فيعرض عليهم ابن العميد أن يتباروا فى وصفها ، و يشترك معهم فى ذلك ، وهكذا .

ويقصد المتنبى ، وابن نباتة السعدى ، وغيرهما من الشعراء بمدائحهم .

وينشئ مكتبة عظيمة كانت أعز شيء عليه ، يجعل عليها قيّمًا عالمًا كبيراً هو مسكويه .

كذلك كان الصاحب بن عباد ، نصر الاعتزال ، وقرّب إليه المعتزلة ؛ إذ كان معتزلياً ، ومن شعره :

تعرفت بالعدل فى مذهبى   ودان بحسن جدالى العراق

فكُلّفت فى الحب ما لم أُطق   فقلت بتكليف ما لا يطاق

وكان يكتب إلى البلاد التابعة له يدعو فيها إلى الاعتزال .

هذه ناحية ؛ وناحيته الأخرى الناحية الأدبية ، وكان على طريقة أستاذه ابن العميد فى أسلوبه ، وفى كرمه وإغداقه على الأدباء ، فاجتمع له من الشعراء أبو الحسن السَّلَامى ، والبديهى ، وأبو سعيد الرستمى . وأبى حسن الجوهرى ، وابن القاشانى الخ ؛ وكذلك يقترح عليهم ما يعرض من موضوعات ؛ فيغنم فى موقعة حربية فيلا ، فيجمع الشعراء ويطلب إليهم أن يقولوا القصائد فى وصفه على وزن وقافية عمرو بن معديكرب :

أعددت للحَدَثان سـا   بغة وعَـدّاء عَلَندى

فيكون من ذلك شعر كثير فى الفيل ، كما يقترح بعض الموضوعات الهزلية ؛ فقد مات برذون أبى عيسى بن المنجم ، فاقترح على الشعراء القول فيها ، فكان من ذلك مجموعة سميت البرذونيات [1]

☆ ☆ ☆

(١) انظر البرذونيات والفيليات فى يتيمة الدهر : ٣/٥٥ ، وانظر كتابى ابن العميد ، وابن عباد لخليل بك مردم .

واشتهر فى هـذه البلاد من علماء اللغة والنحو أبو الحسين أحمد بن فارس الرازى ، كان إماماً فى اللغة ، وله كتاب المجمل ، وكتاب حلية الفقهاء ، وله مسائل فى اللغة تعايى بها الفقهاء (كألغاز) ، ومنها اقتبس الحريرى أسلوبه فيما وضع من المسائل الفقهية فى المقامة الطيبية[1] ، وأقام مدة بالرى ، ومدة بهمذان ، وهو أستاذ بديع الزمان ، ومات بالرى سنة ٣٩٠ ، وكان من رجالات ابن العميد . وقد وصل إلينا من كتبه كتاب الصاحبى ، نسبة إلى الصاحب بن عباد ، وهو كتاب يحتوى بحوثا قيمة فى أصل اللغة العربية وخصائصها ، واختلاف لغاتها باختلاف القبائل إلى غير ذلك .

كما كان من رجال البلاغة والأدب فى هذا الإقليم أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى ، أصله من جرجان ، وطوف فى صباه فى كثير من البلاد ، واقتبس العلوم والآداب ؛ قال فيـه الثعالبى : « هو حسنة جُرجان ، وفرد الزمان . . . يجمع خط ابن مقلة إلى نثر الجاحظ ونظم البحترى » . وبعـد أن طوف فى بلاد العراق والشام وغيرهما يأخذ من علوم أهلها نزل فى ساحة الصاحب ابن عباد ، فقلده قضاء جرجان ، ثم قضاء الرى ، فلم يزل قاضى الرى حتى مات .

ولما أعرض الصاحب بن عباد عن المتنبى لأنه أبى أن يمدحه كما مدح عضد الدولة وابن العميد ، وعمل الصاحب رسالته فى إظهار مساوى المتنبى ، ألف أبو الحسن الجرجانى هذا كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه ، كان فيه قاضياً عادلا ، وأديباً فاضلا ، وناقداً بارعا .

ومن أكبر حسنات على بن عبد العزيز هذا تلميذه ومواطنه عبد القاهر الجرجانى صاحب كتاب دلائل الإعجاز ، وأسرار البلاغة ، وهو مؤسس علم البلاغة فى هذين الـكتابين على نمط لم يعرف قبله . وقد استفاد من أستاذه على

---

(١) وفيات الأعيان : ٤٩/١ .

ابن عبد العزيز قوة الأسلوب وجزالته ، و بصره بضروب النقد ؛ قال ياقوت : « وكان (عبد القاهر) إذا ذَكر أستاذه فى كتبه تبخبخ به ، وشمخ بأنفه بالانتماء إليه » .

وكذلك كان من هذا الإقليم أبو هلال العسكرى (نسبة إلى عسكر مُكْرَم) وهى بلد من بلاد (خوزستان) قريبة من أصفهان . وقد أُخذ عنه العلم فى الرى حيناً وفى الأهواز حيناً وفى العسكر حيناً ؛ وله التآليف القيمة : ككتاب الصناعتين ، وديوان المعانى ، وجمهرة الأمثال ، والأوائل ، والتفضيل بين بلاغة العرب والعجم الخ ، مات نحو سنة ٣٩٥ .

* * *

وعلى الجملة فقد خدمت الدولة البويهية العلم والأدب خدمة كبرى ، ومع أنهم فرس الأصل وأكثر وزرائهم كابن العميد وابن عباد من الفرس ، فقد كانوا يتعصبون فى العلم والأدب للسان العربى .

وكان كثير من البويهيين أدباء متقفين ثقافة واسعة ، أشهرهم فى ذلك عضد الدولة ؛ فكان يشارك فى عدة فنون منها الأدب ، وكذلك عز الدولة أبو منصور بختيار ، وتاج الدولة ابن عضد الدولة ، ولهم أشعار أورد بعضها الثعالبى فى اليتيمة . ثم نجد ظاهرة فى هذه الدولة واضحة ، وهى أن أساس الاختيار للوزارة كان عماده شيئين : القدرة الإدارية ، والقدرة البلاغية ؛ فكان الوزراء فحول أدب أيضاً ، فكان من أشهر وزراء هذه الدولة ابن العميد ، وابن عباد ، والوزير المهلبى ، وسابور بن أردشير ، وابن سعدان ، وكل من هؤلاء كان عمادا عظيما للأدب والأدباء والعلماء ؛ وكانت لهم مجالس تموج بالعلم والأدب ؛ فابن العميد وابن عباد قد رأينا أدبهما ومجالسهما ومن كان يحتف بهما من العلماء والأدباء .

والوزير المهلبي كان وزيراً لمعز الدولة وهو من نسل المهلب بن أبى صفرة ، « وكان من ارتفاع القدر واتساع الصدر وعلو الهمة وفيض الكف على ما هو مشهور به ، وكان غاية فى الأدب والمحبة لأهله »[1] ، وله مجالس تروى فى كتب الأدب فيها الشراب وفيها الشعر وفيها التفنن فى الأناقة والترف ، وحسبه فخرا أن كان من رجاله أبو الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى ، والقاضى التنوخى .

وابن سعدان وزير صمصام الدولة ، كان له مجلس يجمع ابن زرعة الفيلسوف ومسكويه صاحب تهذيب الأخلاق ، وأبا الوفاء المهندس الرياضى الكبير ، وابن حجاج الشاعر الماجن ، وأبا حيان التوحيدى ، الذى كان له من السمر مع هذا الوزير ما جمعه فى كتابه الإمتاع والمؤانسة ، وله ألف رسالة الصداقة والصديق — وكان ابن سعدان يباهى بمجلسه هذا ويفخر به على مجالس الكبراء الآخرين ، أمثال المهلبى وابن العميد وابن عباد ، فيقول فى أصحابه هؤلاء : « ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير . . . وإن جميع ندماء المهلبى لا يفون بواحد منهم ، وإن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل مَن فيهم ، وإن ابن عباد ليس عنده إلا أصحاب الجدل » ؛ ومن هذا ترى أن هؤلاء الوزراء كانوا يتنافسون فى اختيار خيرة العلماء والأدباء ليكونوا حولهم — وحسبنا ما فى كتاب الإمتاع والمؤانسة ، لنعرف منه مقدار ثقافة الوزراء وما يشغلهم من مسائل العلم والأدب .

وسابور بن أردشير كان وزيراً لبهاء الدولة بن عضد الدولة ، فكان هو نفسه أديباً شاعراً ، وقصده الشعراء أمثال أبى الفرج الببغاء ، وأبى إسحاق الصابى ؛ وقد أنشأ ببغداد دار كتب قيمة ، قال فيها ياقوت : « لم يكن فى الدنيا

---

(١) ابن خلكان : ١/٢٠٠ .

أحسن كتبا منها ، كانت كلها بخطوط الأئمة المعتبرة وأصولها المحررة ؛ وهذه الدار هى التى أشار إليها أبو العلاء المعرى بقوله فى قصيدته :

وغنّت لنا فى دار سابور قينة من الورق مطراب الأصائل مهياب

ففضْل البويهيين ملوكهم ووزرائهم على الحركة العلمية والأدبية لا يقدر ، لولا أن ما كان بين بعضهم و بعض من خصومات وحروب قسم العلماء والأدباء كذلك ، والتجأ كل فريق إلى رئيس ، فكان إذا انهزم نكل الغالب بأتباع المغلوب ، فلقى كثير من أهل الفضل والأدب من المصادرة والتعذيب والقتل ما يطول ذكره .

* * *

وكان على حدود الدولة البويهية فى فارس الدولة الزيارية ، أول ملوكها مرداويج بن زِيَار ، ملكت جرجان وطبرستان ، وكانت فى خصومة مع البويهيين . واشتهر من رجالها فى خدمة الأدب أمير كان كابن العميد وابن عباد فى أنه أديب كبير ، ومثقف واسع الثقافة ، ومشجع بمنصبه وجاهه للعلماء والأدباء ، وهو الأمير قابوس بن وَشْمَـكِير ؛ وكان أميراً كبيراً أبوه وشمكير ، وعمه مرداويج كانا ملوك الرى وأصبهان قبل بنى بويه ، ثم كان قابوس والياً على جرجان وطبرستان ، وأنفذ إليه الخليفة الطائع العهد ، ولقّبه شمس المعالى ، وكان جباراً قويا يسرف فى القتل ويتجاوز الحد ، سفاكا للدماء وخاصة فى حاشيته وجنوده ، فكان لا يسمع شكوى فى أحد منهم إلا قتله . فملوه وعزلوه ، ومع هذا كان يحب العلماء والأدباء ويشجعهم ، وكان فيه فضيلة لم نسمع مثلها من ملوك عصره وأمرائه ، وهو أنه لم يكن يجيز إنشاد المدائح فى وجهه و بين يديه ؛ فكان يجتمع الشعراء على بابه فى النيروز والمهرجان ، فكان يقول لأبى الليث الطبرى : « ورع

عليهم الهدايا بحسب رتبهم ، لـكنى لا أستطيع سماع أكاذيبهم التى أعرف من نفسى خلافها »[1] .

وقد طبع فى مصر « كمال البلاغة » وهى جملة رسائل أدبية له ، وهو فيها متأنق كل كلمة فيها توزن قبل أن توضع ، وكل جملة تقاس بالقياس الدقيق لتكون لفق أختها ، وروحه عندى أقرب إلى روح بديع الزمان منها إلى ابن العميد وابن عباد ، وله المقطعات الشعرية الرقيقة كقوله :

خطرات ذكرك تستثير صبابتى   فأحس منها فى الفؤاد دبيبا
لا عضو لى إلا وفيـــه صبابة   فـكأن أعضائى خلقن قلوبا

وألف رسالة فى الإصطراب .

وقد مات محصوراً فى قلعة ، وحمل تابوته إلى جرجان ، ودفن فى مشهد عظيم كان بناه لنفسه ، وذلك سنة ٤٠٣ .

---

(١) معجم الأدباء : ١٤٩/٦ .

الباب الثالث

خراسان وما وراء النهر

ازدهرت هذه البلاد فى عهد الدولة السامانية التى حكمت من سنة ٢٦١ إلى ٣٨٩ ، فمدة ملكهم ١٢٨ سنة .

والملوك السامانيون أصلهم فرس من بلخ من أسرة نبيلة تنتسب إلى بهرام جور . وقد عرف المأمون منزلتهم ونبلهم فاصطنعهم ، وكان رأسهم أسد بن سامان . وقد خلّف أسد هذا أربعة أبناء كلهم كانوا فى خدمة المأمون وحكامه فى هذه البلاد ؛ فكان نوح على سمرقند ، وأحمد على فرغانة ، ويحيى على بلاد الشاش ، وإسماعيل على هراة ؛ ثم عظم ملكهم حتى امتد من الصحراء الكبرى إلى الخليج الفارسى ، ومن حدود الهند إلى العراق ، وأهم ملكهم خراسان وما وراء النهر — وقد اشتهرت دولتهم بالعدل والصلاح وتشجيع العلم .

وخراسان كانت تطلق على الإقليم الواسع الذى ينقسم إلى أربعة أرباع : ربع عاصمته نيسابور ، وربع عاصمته مرو ، وثالث عاصمته هراة ، ورابع بلخ .

ومن أشهر مدن خراسان نيسابور ، وبُوشَنج ، وبُسْت ، وسجستان ، وهراة ، ومرو ، وسَرَخس ، ونسا ، وطوس ، وأبيورد الخ .

والقسم الثانى من ملك السامانيين ما وراء النهر ، أى ما وراء نهر جيحون ، وكان هذا الإقليم ينقسم إلى خمسة أقسام : (١) الصُّغد ، وله عاصمتان : بخارى وسمرقند . (٢) وإلى الغرب من الصغد خوارزم المسماة اليوم خيوه أو كيوه . (٣) صغانيان . (٤) فرغانة . (٥) الشاش المسماة اليوم تشقند .

ومن أشهر بلاد ما وراء النهر فرغانة ، وأسبيجان ، والشاش ، وأشروسنة ، وسمرقند ، وبخارى ، وفاراب ، وترمذ ، وصغانيان وقاشان ؛ ثم خوارزم ، وفيها زمخشر والجرجانية .

والمقدسى يسمى إقليم خراسان وما وراء النهر « إقليم المشرق » . وقد رحل إلى هذه البلاد فى هذا العهد السامانى ، ونحن ننقل بعض ما يهمنا الآن منه . قال : إنه أجل الأقاليم وأكثرها أجلة وعلماء ، وهو معدن الخير ومستقر العلم وركن الإسلام المحكم وحصنه الأعظم ، ملكه خير الملوك ، وجنده خير الجنود ، فيه يبلغ الفقهاء درجة الملوك . وقد قال محمد بن عبد الله لدعاته : « عليكم بخراسان فإن هناك العَدَدَ الكثير والجَلَد الظاهر ، وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النِّحَل ولم يقدح فيها فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ، ومناكب وكواهل ، وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ، ولغات فخمة » ؛ وهم كانوا عدة الانقلاب والثورة على الأمويين ، ونقل الخلافة إلى العباسيين .

ويقول المقدسى : قرأت فى كتاب بخزانة عضد الدولة « خراسان فى غذاء الهواء ، وطيب الماء ، وصحة التربة ، وإحكام الصنعة ، وتمام الخِلقة ، وجودة السلاح والتجارة والعلم والعفة والدراية ترس فى وجه الترك » ؛ وأهل خراسان أشد الناس تفقها ، وبالحق تمسكا — وهم بالخير والشر أعلم ، وإلى إقليم العرب ورسومهم أقرب . وإقليمهم أكثر أجلة وعقلاء ، مع العلم الكثير ، والحفظ العجيب ، والمال المديد ، والرأى الرشيد — به مرو التى قامت بها الدنيا ، وبلخ وإليها المنتهى ، ونيسابور فلا تُنْسى[1] .

(١) أحسن التقاسيم : ٢٩٤ ، وما بعدها .

ثم قال : وهو أكثر الأقاليم علما وفقها ، وللمذكِّرين به صيت عجيب ، ولهم أموال جمة ؛ و به يهود كثيرة ، ونصارى قليلة ، وأولاد على رضى الله عنه فيه على غاية الرفعة ، ولا ترى به هاشمياً إلا غريباً ، ومذاهبهم مستقيمة ؛ غير أن الخوارج بسجستان ونواحى هراة كثيرة ؛ وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلا غلبة . وللشيعة والكرّامية بها جلبة ، والغلبة فى الإقليم لأصحاب أبى حنيفة إلا فى كورة الشاش ، وطوس ، ونسا ، وأبيورد . . . فإنهم شفعوية ، ولهم جلبة بهراة وسجستان وسرخس .

ورسومهم تخالف رسوم أقاليم العرب فى أكثر الأشياء ، فللمؤذنين سرير قدام المنبر يؤذنون عليه بتطريب وألحان ، ويذكّرون بلا دفاتر[1] ... و بنيسابور رسوم حسنة ، منها مجالس المظالم فى كل يوم أحد وأربعاء بحضرة صاحب الجيش أو وزيره ، فكل من رفع قصة قُدّم إليه فأنصفه ، وحوله القاضى والرئيس والعلماء والأشراف ؛ ومجلس الحكم كل اثنين وخميس فى مسجد « رجاء » لا ترى فى الإسلام مثله .

وألسنتهم مختلفة ؛ أما لسان نيسابور ففصيح مفهوم غير أنهم يكسرون أوائل الكلم ، وفيه رخاوة ؛ وأهل طوس ونسا أحسن لسانا ؛ وفى كلام سجستان تحامل وخصومة يخرجونه من صدورهم ، ويجهرون فيه ؛ ولسان بست أحسن ؛ ولسان هراة وحش ، تراهم يتكلفون و يتحاملون ؛ ولسان بلخ أحسن الألسن إلا أن لهم فيه كلمات تستقبح الخ .

و بهذا الإقليم عصبيات بين الشيعة والكرّامية ، و بين الشافعية والحنفية . وقد يهراق فى هذه العصبيات الدماء ، ويدخل بينهم السلطان .

(١) أى يعظون من غير قراءة فى كتاب .

والولايات والخطبة فى هذا الإقليم كله لآل سامان ... وهم من أحسن الملوك سيرة ونظراً وإجلالا للعلم وأهله ؛ ومن أمثال الناس : « لو أن شجرة خرجت على آل سامان ليبست » ، ألا ترى إلى عضد الدولة وتجبره وتمكنه ، وكمال دولته وفتوة أمره ، وخطب له باليمن وبالسند ، وفتح عمان ، وملك ما ملك ، فلما تعرض لآل سامان ، وطلب خراسان أهلكه الله ، وشتت جمعه ، وفرّق جيوشه ... وهم لا يكلفون تقبيل الأرض لهم ، ولهم مجالس عشياتِ جُمَع شهر رمضان للمناظرة بين يدى السلطان ، فيبدأ هو فيسأل مسألة ثم يتكلمون عليها ... وميلهم إلى مذهب أبى حنيفة ، وليس من رسمهم الانبساط إلى الرعية » اه .

* * *

وقد أخرجت هذه البلاد ما لا يحصى من رجال الحديث والفقه ، خدموا العلم خدمة كبرى بجدهم وصبرهم على البحث ورحلتهم إلى أقاصى البلدان ، يأخذون العلم من أهله حيث كان ؛ فعلى رأس المحدّثين الإمام البخارى ، وهو من بخارى ، كما تدل عليه نسبته ، ورحل إلى الجبال ومدن العراق ، والحجاز والشام ومصر يجمع الأحاديث بالأسانيد ، ويعنى بالمتن وبالسند ، وبرجال الحديث وتاريخهم ، ومعرفة درجة الثقة بكل منهم مع الحفظ التام ، والدقة العجيبة . . . يحكى عن نفسه أنه عنى بحفظ الحديث وهو فى العاشرة ؛ فلما بلغ السادسة عشرة أخذ يحفظ كتب الحديث ، ويتعرف رجاله ، ثم خرج مع أمه وأخيه إلى مكة ورجعا هما وبقى هو يطلب الحديث من محدثى مكة والمدينة ، ثم طوّف فى سائر البلدان ، واستخلص من كل ما سمع ما صح عنده ، فاستخرج صحيحه من زهاء ستمائة ألف حديث ، وظل يعمل فى تأليف صحيحه هذا ست عشرة سنة . وقد نشر الحديث فى بقاع الأرض ، فعقد مجالسه فى البصرة وبغداد ، والرى وخراسان ، وما وراء

النهر ونيسابور ، وأخذ عنه الألوف . وقد أصابته محنة خلق القرآن فـكان يقول إن القرآن غير مخلوق ولـكن لفظى به مخلوق ، وشنعوا عليه بذلك بعد أن عاد إلى بلاده ، فأخرج من بخارى إلى خَرْتَنْك (وهى قرية من قرى سمرقند) فمات بها سنة ٢٥٦ .

كما أخرجت نيسابور مسلم بن الحَجّاج النيسابورى مؤلف الصحيح المنسوب إليه « صحيح مسلم » ، وهو كذلك رحل إلى الحجاز والعراق والشام ومصر ، وروى عن أهلها ، وجمع الحديث واستخرج صحيحه من ثلثمائة ألف حديث ، « وبعض المحدّثين يفضل صحيحه على صحيح البخارى لما اختص به من جمع الطرق ، وجودة السياق ، والمحافظة على أداء الألفاظ كما هى من غير تقطيع ولا رواية بمعنى »[١] . وكان كتابه مصدراً لحركة كبيرة فى الحديث بين النيسابوريين ، وانتفع به خلق كثير . ومات سنة ٢٦١ بنيسابور . وقد ناصر البخارى فى قوله فى القرآن ، وخاصمهما فى ذلك شيخهما المحدث الـكبير أيضاً أبو عبد الله محمد بن يحيى الذهلى النيسابورى ؛ فـكان يقول بأن القرآن حتى لفظنا له غير مخلوق .

ويطول بنا القول لو عددنا أسماء كبار المحدثين الذين أنجبتهم هـذه البلاد ؛ فالبخارى ومسلم كانا سبباً فى حركة حديث قوية ظلت تعمل فى هذه البلاد أجيالا ، وحسبنا دلالة على كثرة من خرجتهم هذه البلاد أننا نقرأ أسماء المحدثين ، فنجد الـكثيرين المنسوبين إلى بلاد هذا الإقليم ، وخصوصاً نيسابور .

كما أخرجت البلاد كثيراً ممن بلغوا مبلغ الاجتهاد فى الفقه مثـل أبى حاتم محمد بن حبان التميمى السمرقندى ، إمام كبير له تصانيف كثيرة فى الحديث والجرح

---

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر .

والتعديل ، وطوف فى البلاد وقال : « لعلنا أخذنا عن ألف شيخ بين الشاش والإسكندرية . وقد ولى قضاء سمرقند ، ورحل إليه الناس لأخذ العلم عنه ، وإليه مرجع كثير من المحدّثين فى حكمه على رجال الحديث بالجرح والتعديل ؛ مات سنة ٣٥٤ .

وأبو بكر محمد بن المنذر النيسابورى ، وكان إماما مجتهداً ؛ قال الذهبى : كان على نهاية من معرفة الحديث والأخلاق ، وكان مجتهداً لا يقلد أحداً ؛ توفى سنة ٣١٦ .

ثم كان بهذه الأقاليم كثير من عظماء الشافعية والحنفية .

فمن أكبر رجال الشافعية محمد بن على القفّال الشاشى ، كان يعد إمام عصره فيما وراء النهر ، وناشر مذهب الشافعية فيه ، وكان يقول بالاعتزال ، وله كتب فى الفقه والأصول ، وخرج غازياً فى الحروب بين المسلمين والروم ، وأخذ أسيراً إلى القسطنطينية ؛ ثم عاد إلى بلاده ، ومات بالشاش سنة ٣٦٥ .

وأبو بكر بن فُورك الأصفهانى الأصل ، الأصولى المتكلم ، ناصر الأشعرى ، اضطهد بالرى لكثرة الاعتزال بها ، فطلبه أهل نيسابور ، وبنوا له مدرسة يعلم فيها ، وألف مصنفات كثيرة نحو المائة ، ومات سنة ٤٠٦ بنيسابور .

وأبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى الحافظ الشافعى ، رحل إلى كثير من البلاد ، ثم عاد إلى بلده ، وأخذ فى التصنيف ، وأكثر منها حتى قالوا إنها تبلغ نحو ألف جزء ، وهو أول من جمع نصوص الإمام الشافعى فى عشرة مجلدات . ومن تأليفه السنن الكبير والسنن الصغير ، ودلائل النبوة ، ومناقب الشافعى ، ومناقب ابن حنبل ، وطلب إلى نيسابور لنشر العلم بها فأجاب ، وتوفى بها سنة ٤٥٨ ، ونسبته إلى بيهق بالقرب من نيسابور .

كما اشتهر من الحنفية الإمام أبو منصور الماتريدى ، وهو للحنفية فى علم الكلام كالأشعرى للشافعية ، كتب كتاب التوحيد ، وأوهام المعتزلة ، ومآخذ الشرائع فى الفقه ، والجدل فى أصول الفقه وغير ذلك ؛ مات سنة ٣٣٣ ، والنسبة إلى ماتريد أو ماتوريد محلة بسمرقند .

ثم أبو الليث نصر بن محمد السمرقندى الملقب بإمام الهدى توفى سنة ٣٧٣ .

وهذا نموذج صغير جداً مما أخرجته هذه البلاد من المحدّثين والفقهاء ، فحيثما قرأت فى كتب المحدثين والفقهاء راعتك كثرة ما ترى منهم ، ودلالة نسبتهم عليهم كالبلخى ، والسرخسى ، والخوارزمى ، والسمرقندى ، والفارابى ، والبخارى والترمذى ، والصاغانى ، والأبيوردى ، والقاشانى ، والشاشى ، والنيسابورى ، والمَرْوَزِىّ (نسبته إلى مرو والزاى زائدة كالرازى نسبة إلى الرى ، وبعضهم ينسبها مروروزى نسبة إلى مرو الروز) ، والهَرَوى نسبة إلى هراة ، والفرغانى ، والزمخشرى ، والصُّغدى ، والبيهقى ، والبُسْتى الخ .

وظهر التصوف فى هذه البلاد كما ظهر فى مصر ، وفى العراق ؛ فكان من أولهم فى هذا الإقليم شقيق البلخى ، قيل إنه أول من تكلم فى علم الأحوال بخراسان كان يقول : قرأت القرآن عشرين سنة حتى ميزت الدنيا من الآخرة ، فأصبته فى حرفين ، وهو قوله تعالى : « وما أوتيتم من شىء فمتاع الحياة الدنيا وزينتها ، وما عند الله خير وأبقى » ، ومات سنة ١٥٣ .

ثم تتابع التصوف من بعده فى هذه البلاد كأبى حفص عمر بن سالم الحداد النيسابورى المتوفى سنة ٢٧٠ ؛ وأبو تراب النخشبى من متصوفة خراسان المشهورين بالعلم والفتوة والزهد ؛ وأبو على الجوزجانى له التصانيف فى الرياضة النفسية والمجاهدات والمعارف ؛ وأبو بكر محمد بن عمر الحكيم الوراق أصله من

ترمذ وأقام ببلخ ؛ وأبو عبد الله محمد بن منازل النيسابورى شيخ طريقة الملامتية مات بنيسابور سنة ٣٢٩ ؛ وأبو العباس بن القاسم بن مهدى من أهل مرو ، وهو أول من تكلم عندهم فى حقائق الأحوال ، مات سنة ٣٤٢ .

* * *

وكانت فى هذه البلاد حركة فلسفية قوية يرجع الفضل فيها أولا إلى شخصيتين من أقوى الشخصيات ، وهما أبو زيد البلخى ، وأبو القاسم الكعبى .

فأما أبو زيد فهو أحمد بن سهل البلخى ، جمع بين الفلسفة والعلوم الشرعية والأدب ؛ قال أبو حيان التوحيدى : « الذى أقوله وأعتقده أنى لم أجد فى جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم فى أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم مدى الدنيا لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد ، منهم أحدهم أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . . . والثانى أبو حنيفة الدينورى ، فإنه من نوادر الرجال ، جمع بين حكمة الفلاسفة و بيان العرب ، له فى كل فن ساق وقدم ، ورواء وحكم . . . والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخى ، فإنه لم يتقدم له شبيه فى الأعصر الأول ، ولا يظن أنه يوجد له نظير فى مستأنف الدهر ، ومن تصفح كلامه فى كتاب أقسام العلوم ، وفى كتاب أخلاق الأمم ، وفى كتاب نظم القرآن ، كتاب اختيار السيرة ، وفى رسائله إلى إخوانه ، وجوابه عما يُسأل عنه ويُبْدَهُ به عَلِمَ أنه بحر البحور ، وأنه عالم العلماء ، وما رؤى فى الناس من جمع بين الحكمة والشريعة سواه ، وإن القول فيه لكثير »(١) .

ولد ببلخ ، ورحل إلى العراق ، وأقام به ثمان سنين يأخذ علمه وفلسفته ؛

(١) معجم الأدباء : ١٢٥/١ .

ثم عاد إلى بلاده ينشر فيها علمه ، وكان يقال له : « جاحظ خراسان » - وألف نحو ستين كتاباً فى علوم مختلفة منها كتاب فى نظم القرآن ؛ قال أبو حيان : « لم أر كتاباً فى القرآن أحسن منه — تكلم فيه بكلام لطيف دقيق ، وأخرج أسراره ، ولم يأت على جميع المعانى فيه » . وكان يتنزه عن الجدل فى القرآن ، و يتحرج عن تفضيل بعض الصحابة على بعض ، وعن المفاخرة بين العرب والعجم ، و يقول : ليس فى هذه المناظرات الثلاث ما يجدى طائلا . ومن تآليفه كتاب أقسام العلوم ، وشرائع الأديان ، وكتاب السياسة الكبير والصغير ، وحدود الفلسفة ، وما يصح من أحكام النجوم ، وكتاب الرد على عبدة الأوثان ، وكتاب أخلاق الأمم الخ . و يعد أيضاً من أكبر جغرافيي العرب ، وقد ألف « صور الأقاليم » ، وهو خرائط ملوّنة موضحة ببعض الشروح . و ينسب إليه كتاب البدء والتاريخ المطبوع وليس له — مات ببلخ سنة ٣٢٢ .

والثانى أبو القاسم عبد الله بن أحمد الكعبى كان من بلخ أيضاً ، وكان معاصراً لأبى زيد وصديقاً له ، واشتهر بتبحره فى علم الكلام ، وأنه رأس من رءوس المعتزلة ، له مذهب خاص وأتباع يقال لهم الكعبية ، مات سنة ٣١٧ .

هذان العَلَمَان نشرا فى هذا الإقليم حركة فلسفية وعقلية كبيرة تُوجت بالفيلسوف الكبير ابن سينا درة الدولة السامانية .

وهو أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا ، ولعل خير ما يمثل الحركة الفلسفية فى العهد السامانى ما حكاه ابن سينا نفسه فى ترجمة حياته ، كما رواه عنه تلميذه أبو عبيد الجوزجانى ؛ قال ابن سينا : « إن أبى كان رجلا من أهل بلخ ، وانتقل منها إلى بخارى فى أيام نوح بن منصور (السامانى) ، واشتغل بالتصرف وتولى العمل بقرية هناك . . . ثم انتقلنا إلى بخارى ، وأُحضرت معلم

القرآن ، ومعلم الأدب . . . وكان أبى ممن أجاب داعى المصريين (الفاطميين) ، ويُعد من الإسماعيلية ، وقد سمع منهم ذكر النفس والعقل على الوجه الذى يقولونه ، وكذلك أخى ، وكانوا ربما تذاكروا بينهم وأنا أسمعهم وأدرك ما يقولونه ، ولا تقبله نفسى ، وابتدءوا يدعوننى إليه أيضاً ، ويجرون على ألسنتهم ذكر الفلسفة والهندسة وحساب الهيئة ، وقبل قدومه كنت أشتغل بالفقه . . . ثم جاء إلى بخارى أبو عبد الله الناتلى ، وكان يدعى المتفلسف ، وأنزله أبى دارنا رجاء تعلمى منه . . . فابتدأت بكتاث إيساغوجى على الناتلى . . . وكان أى مسألة قالها لى أتصورها خيراً منه . . . ثم أخذت أقرأ الكتب على نفسى ، وأطالع الشروح حتى أحكمت علم المنطق ، وكذلك كتاب أقليدس ، فقرأت من أوله خمسة أشكال أو ستة عليه ، ثم توليت بنفسى حل بقية الكتاب بأسره ؛ ثم انتقلت إلى المجسطى . . . ثم فارقنى الناتلى ، واشتغلت أنا بتحصيل الكتب من النصوص والشروح من الطبيعى والإلهى ، وصارت أبواب العلم تتفتح علىّ . ثم رغبت فى علم الطب . . . وتعهدت المرضى ، فانفتح علىّ من أبواب المعالجات المقتبسة من التجربة ما لا يوصف ، وأنا مع ذلك أختلف إلى الفقه وأناظر فيه . . . وقرأت كتاب ما بعد الطبيعة (لأرسطو) ، فما كنت أفهم ما فيه ، وأيست من نفسى حتى أعدت قراءته أربعين مرة ، وصار لى محفوظا ، وقلت هذا كتاب لا سبيل إلى فهمه ، وإذا أنا فى يوم من الأيام فى الوارقين ، وبيد دلاّل مجلد ، فقال لى اشتر منى هذا فإنه رخيص . . . فاشتريته بثلاثة دراهم ، فإذا هو كتاب لأبى نصر الفارابى فى أغراض كتاب ما بعد الطبيعة ، ورجعت إلى بيتى ، وأسرعت قراءته فانفتح علىّ فى الوقت أغراض ذلك الكتاب بسبب أنه كان محفوظا على ظهر القلب . . . وكان سلطان بخارى فى ذلك الوقت نوح بن منصور (السامانى) ،

واتفق له مرض ، فاستدعيت لمشاركة الأطباء فى معالجته ، وتوسمت بخدمته ، فسألته يوما الإذن لى فى دخول دار كتبهم ومطالعتها وقراءة ما فيها من كتب الطب ، فأذن لى ؛ فدخلت داراً ذات بيوت كثيرة فى كل بيت صناديق كتب ، منضدة بعضها على بعض ، فى بيت منها كتب العربية والشعر ، وفى آخر الفقه ، وكذلك فى كل بيت كتب علم مفرد ، فطالعت فهرست كتب الأوائل ، وطلبت ما احتجت إليه منها ، ورأيت من الكتب ما لم يقع اسمه إلى كثير من الناس قط ، وما كنت رأيته من قبل ، ولا رأيته أيضاً من بعد ، فقرأت تلك الكتب ، وظفرت بفوائدها ، وعرفت مرتبة كل رجل فى علمه » الخ الخ[١] .

وقد شاهد ابن سينا سقوط بخارى فى يد أمير غزنة محمود بن سبكتكين ، وسافر إلى الرى وهمذان .

واتصل بكثير من علماء وقته كالبيرونى ، وأبى الخير بن الخمار ، وأبى القاسم الكرمانى ، وأخذ اسمه وتآليفه شهرة ومكانة لم ينلها أحد غيره من فلاسفة الشرق ؛ وظل كتابه القانون فى الطب يدرس فى الشرق وفى الغرب إلى عهد قريب ؛ وكتبه الشفاء والإشارات والنجاة مرجع كل من درس الفلسفة الإسلامية — عاش ابن سينا من سنة ٣٧٠ إلى سنة ٤٣٨ .

* * *

وكان فى هذا الإقليم حركة أدبية قوية من شعر ونثر فنى .

ففى الشعر جروا على أساليب العراق وفارس من إكثارهم من المقطوعات فى المناسبات ، والتفنن فى التخيل ، والإغراق فى المبالغة ، والإمعان فى التشبيه ؛ وشجع الملوك السامانيون الحركة الأدبية ، كما شجعها وزيران كبيران لهذه الدولة ،

---

(١) طبقات الأطباء : ٢/٢ .

فكانا صورة مصغرة لابن العميد ، وابن عباد ، وهما : الوزير البلعمى ، وأبو عبد الله الجَيْهانى .

فالوزير البلعمى هو أبو الفضل محمد بن عبيد الله البلعمى ، أصل أجداده عرب من تميم استوطن فرعهم فى بخارى ، وكان وزيراً لنصر بن أحمد السامانى ؛ قال السمعانى : « وكان واحد عصره فى العقل والرأى وإجلال العلم وأهله — ولقبه ابن حوقل بالشيخ الجليل . وقد قام بترجمة تاريخ الطبرى إلى اللغة الفارسية .

والجيهانى هو أبو عبد الله محمد بن أحمد الجيهانى ؛ قال فيه ياقوت : « وكان أديباً فاضلا شهماً جسوراً ، وكان حسن النظر لمن أمله وقصده — معيناً لمن أمله واعتمده ؛ وله تآليف ؛ وقد استوزر أيضاً لنصر بن أحمد .

فكلاهما شجع الحركة العلمية والأدبية فى بخارى ، كما شجعها ابن العميد وابن عباد فى الرى .

وقد نبغ فى الدولة السامانية من الشعراء كثيرون عدهم الثعالبى فى اليتيمة ، ونقل طرفا من أشعارهم ؛ ولعل من أحقهم بالذكر محمد بن موسى الحدادى البلخى ، وكان يقال : « أخرجت بلخ أربعة : أبا القاسم الكعبى فى علم الكلام ؛ وأبا زيد البلخى فى البلاغة والتأليف ؛ وسهل بن الحسن فى شعر الفارسية ؛ ومحمد بن موسى فى شعر العربية »[1] ، ومما امتاز به أنه كان مولعاً بنقل الأمثال الفارسية إلى العربية نظما ، وله فى ذلك مزدوجة طويلة كقوله :

من مُثُل الفرس ذوى الأبصار ... الثوب رهن فى يد القَصّار

نال الحمار بالسقوط فى الوَحَل ... ما كان يهوى ونجا من العمل

(١) اليتيمة : ٣/٢١ .

البحر غمر المـــاء فى العِيَان والـكلب يَرْوَى منه باللسان الخ

وسار فى ذلك على منهجه أبو عبد الله الضرير الأبيوردى . وقد وضع قصيدة فى أمثال الفرس كذلك أولها :

صيامى إذا أفطرت بالسحت ضَلّةٌ وعلمى إذا لم يُجْد ضرب من الجهل

وتزكيتى مالاً جمعت من الرِّبا رياء ، و بعض الجود أخزى من البخل

كسارقة الرمان من كَرْم جارها تعود به المرضى وتطمع فى الفضل

وقد قال الثعالبي : « كانت بخارى فى الدولة السامانية مثابة المجد ، وكعبة الملك ، ومجمع أفراد الزمان ، ومطلع نجوم أدباء الأرض ، وموسم فضلاء الدهر»(١) .

وأنتج هذا الإقليم من أعلام النثر الأديبين الـكبيرين الشهيرين أبا بكر الخوارزمى ، و بديع الزمان الهمذانى .

فالخوارزمى محمد بن العباس أصله من خوارزم ، وطوف فى الشام ، ونزل ضيفاً على سيف الدولة فى حلب ، وعلى الصاحب بن عباد فى الرى ؛ ثم عاد إلى نيسابور .

وكان يتعصب لبنى بو يه ، و يغض من سلطان خراسان ، ونـكل به مرة من أجل ذلك ، ثم علت منزلته ثانية ، ونظر إليه أهل نيسابور بعين الإكرام والإعظام ، وعُدَّ إمام الأدباء حتى رُمى ببديع الزمان الهمذانى ، وبُلى بمساجلته ، وأعان البديع شبابه ولباقته ، ومساعدة خصوم الخوارزمى السياسيين للبديع ، « فانخزل الخوارزمى انخزالا شديداً ، وكسف باله ، وانخفض طرفه ، ولم يحل عليه الحول حتى خانه عمره ، ومات سنة ٣٨٣ »(٢) .

وقد خلّف لنا رسائله الأدبية القيمة ، على ما فيها من تـكلف أحيانا جرّ إليه الغرام بالسجع والبديع .

---

(١) يتيمة : ٣٣/٣ . (٢) اليتيمة : ١٢٧ .

ثم أتى بديع الزمان الهمذانى ، وهو أبو الفضل أحمد بن الحسن ، ولد بهمذان ، وتوفى بهراة سنة ٣٩٨ ، وقد أربى على الأربعين . وقد اتصل بالأمير محمد بن منصور فأكرمه ، ونزل نيسابور سنة ٣٨٢ ، فأملى بها مقاماته المشهورة ، وكانت الخصومة بينه وبين أبى بكر الخوارزمى أيام إقامتهما فى نيسابور . وقد قص البديع هذه الخصومة فى رسائله ، ولا بد أن يكون قد بالغ فيها تحيزاً لنفسه ، ومع هذا فهى تدل على ما عرف عن البديع من جودة حفظ ، وحضور بديهة ، وقوة بيان .

وله الفضل الكبير فى مقاماته التى حذا حذوها الحريرى فيما بعد ، وله رسائله ، وهذه وتلك تدل على خفة روح وحسن خيال ، وقدرة على الابتكار ، ووقوف على أحوال الزمان مما يجعلها مصدراً كبيراً لدراسة الحياة الاجتماعية فى زمنه .

* * *

ونبغ فى هذا العصر ، وفى هـذا الإقليم من الأدباء والمؤلفين فى الأدب أبو منصور عبد الملك الثعالبى النيسابورى ، كان أديباً بليغاً على أسلوب أهل زمانه فى السجع والاستعارة والتشبيه ، وكان واسع العلم باللغة والأدب والأدباء وتاريخهم ، وألف فى ذلك كله ؛ فله فقه اللغة أراد فيه أن يجعله معجما على نمط جديد ، وهو جمع الكلمات فى الموضوع الواحد فى موضع واحد ، وأتت هـذه الفكرة للثعالبى فى نيسابور ، وابن سيده فى الأندلس فى وقت واحد تقريباً ؛ فقد مات الثعالبى سنة ٤٢٩ ، ومات ابن سيده سـنة ٤٥٨ ، وألف الأول فقه اللغة ، والثانى المخصص . كما ألف الثعالبى يتيمة الدهر فى محاسن أهل العصر ، ذكر فيه تراجم الأدباء فى المائة الرابعة ، ومختاراً من أدبهم مقسما إلى الدول المختلفة ، والأمصار المتباينة ؛ وقد عنى بالمختارات أكثر مما عنى بتراجم الحياة .

وله كتب أخرى كثيرة قيمة وصلت إلينا كالإعجاز والإيجاز ، وخاص

الخاص ، وثمار القلوب فى المضاف والمنسوب ، ومن غاب عنه المطرب ، ونثر النظم ، وحل العقد الخ ، وله كتاب غرر أخبار ملوك الفرس ، وكلها كتب قيمة مفيدة .

كما كان من هذه البلاد من أئمة اللغة الأزهرى أبو منصور محمد بن أحمد ابن الأزهر ، أصله من هراة ، ولد بها ومات بها ، ورحل إلى العراق وأخذ عنه أئمة علمائه كابن دريد وطاف فى أرض العرب يجمع اللغة منهم ، فوقع أسيراً فى يد القرامطة ، قال : « وكان القوم الذين وقعت فى سهمهم عرباً نشئوا فى البادية يتتبعون مساقط الغيث أيام النجع ، ويرجعون إلى إعداد المياه فى محاضرهم زمان القيظ ، ويرعون ويعيشون بألبانها ، ويتكلمون بطباعهم البدوية ، ولا يكاد يوجد فى منطقهم لحن أو خطأ فاحش ، فبقيت فى أسرهم دهراً طويلا ... واستفدت من مجاورتهم ومخاطبة بعضهم بعضاً ألفاظاً جمة ونوادر كثيرة أودعت أكثرها فى كتابى » .

وقد صنف فى اللغة كتاب التهذيب فى عشر مجلدات ، وهو من الكتب التى فرّغها ابن منظور فى كتابه لسان العرب ؛ وقال فى مقدمته : « ولم أجد فى كتب اللغة أجمل من تهذيب اللغة لأبى منصور الأزهرى ، ولا أكمل من المحكم لابن سيده ، وهما من أمهات كتب اللغة على التحقيق ، وما عداهما بالنسبة إليهما ثنيّات للطريق » .

وقد توفى الأزهرى سنة ٣٧٠ .

وكذلك الجوهرى صاحب الصحاح ، ومبتكر طريقة المعاجم جرى عليها صاحب القاموس ولسان العرب وغيرها — وهو إسماعيل بن حماد ، أصله من فاراب ، سافر إلى بلاد العرب ، ودخل ديار ربيعة ومضر ، وجمع ما استطاع من اللغة ، وعاد إلى نيسابور فدرس فيها ؛ ثم وضع كتاب الصحاح ، وهو يعد من

أمهات كتب اللغة اهتم به علماء اللغة اهتماماً كبيراً استفادة ونقداً ؛ وقد تقدم ذكره مات سنة ٣٩٨ .

ومن هذا الإقليم من علماء اللغة والأدب الزُّوزَنى[1] أبو عمرو أحمد بن محمد ابن إبراهيم نسبة إلى زُوزَن ، وهى بلدة واسعة بين نيسابور وهَرَاة ، وكانت زوزن تسمى بالبصرة الصغرى لكثرة من أخرجت من الفضلاء والأدباء وأهل العلم ، وإليها ينتسب كثير من أهل الأدب والعلم منهم صاحبنا هذا .

وقد خلف لنا شرحا على المعلقات السبع ، وهو شرح مختصر مفيد يدل على سعة علم باللغة والنحو والتصريف وحسن الذوق والفهم ، مات بزوزن سنة ٣٧٤ .

* * *

وكان فى هذا الإقليم أمراء جمعوا إلى الإمارة وجاهة الأدب ، ورعاية أهله ، فأحاطوا أنفسهم بجو أدبى رائع ، كان ينتج أكثر مما أنتج لولا ما انغمسوا فيه من السياسة وفتنها وألاعيبها .

فكان فيه طائفة كبيرة من نسل الخلفاء العباسيين أتوا إليه من العراق لما كان يعرفون من الرابطة القوية بين آبائهم العباسيين والخراسانيين ؛ إذ كان الخراسانيون عماد الدولة العباسية . فلما ذهب إلى خراسان أبناء هؤلاء الخلفاء أكرمهم الخراسانيون وأغدقوا عليهم النعم ، وأحلوهم محل الإجلال ، ولعبت ببعض هؤلاء الذين من نسل الخلفاء فكرة أن يعيدوا الأمر جذعة ، فيبثوا الدعوة لأنفسهم ، ويكونوا جيشاً من الخراسانيين يفتحون به العراق من جديد ويؤسسون ملكا جديداً ، وأصاب بعضهم بعض النجاح أولا وفشلوا أخيراً .

---

(١) قال ياقوت إنها بضم الأول وقد يفتح ، واعتمدنا فى نسب هذا المؤلف وتاريخ وفاته على الأنساب للسمعانى وهو يخالف ما فى ترجمته فى صدر شرحه للمعلقات .

وكان من أشهر هؤلاء أبو طالب عبد السلام بن الحسين المأمونى من نسل المأمون ، قال الثعالبي : « وقد رأيت المأمونى ببخارى سنة ٣٨٢ ، وعاشرت منه فاضلا ملء ثوبه ، وذاكرت أديباً شاعراً بحقه وصدقه ، وسمعت منه قطعة من شعره ، ونقلت أكثره من خطه ، وكان يسمو بهمته إلى الخلافة ، ويمنى نفسه قصد بغداد فى جيوش تنضم إليه من خراسان لفتحها فاقتطعته المنية دون الأمنية ، ولم يكن بلغ الأربعين ، وذلك سنة ٣٨٣[١] » .

وكذلك كان أبو محمد عبد الله بن عثمان الواثقى من أولاد الخليفة الواثق ، ذهب كذلك بأهله إلى خراسان ، ودبر أن يستعين بالأتراك لإزالة دولة بنى سامان حتى هاجموا بخارى وأزالوا السامانى عنها ، ثم فشلت الحركة ، وكان كالمأمونى شاعراً أديباً .

ومن الأمراء غير العباسيين الذين كانوا من الأدباء آل ميكال الذين اشتهر من بينهم أبو الفضل عبيد الله بن أحمد الميكالى ، وأبو محمد عبد الله بن إسماعيل الميكالى . وآل ميكال أسرة كبيرة من سادة خراسان ، وأولى الفضل والنبل والرياسة فيها ، جمعوا إلى إنشاء الأدب حماية الأدب .

هؤلاء الأمراء الأدباء من نسل العباسيين وغيرهم بهذا الإقليم شجعوا حركة أدبية عظيمة بما بذلوا من مال ، وما وجهوا من رأى ، وما ضربوا المثل بما أنشئوا من أدب ، فقصدهم المؤلفون يهدون إليهم تآليفهم وقصائدهم ؛ فيقصد ابن دريد — مثلا — أبا الفضل الميكالى فى نيسابور ، ويؤلف له كتاب الجمهرة ، وينشئ له قصيدته المقصورة — يا ظبية أشبه شىء بالمها — والتى يقول فيها فى مدح آل ميكال :

إن ابن ميكال الأميرَ انتاشنى   من بعد ما قد كنت كالشىء اللّقَا

(١) اليتيمة : ٣ / ٩٤ .

ويقول فى ابنى ميكال بعد أن ذكر العراق وأهله ، وأنه لا يدانيهم فى فضلهم أحد :

حاشا الأميرين اللذين أوفدا — علىّ ظلا من نعيم قد ضفا
هما اللذان أثبتا لى أملا — قد وقف اليأس به على شَفا
تلافيا العيش الذى رنَّقه — صرف الزمان فاستساغ وصَفا
وأجريا ماء الحيا لى رغدا — فاهتز غصنى بعد ما كان ذَوى
هما اللذان سموا بناظرى — من بعد إغضائى على لذع القذى
هما اللذان عمرا لى جانبا — من الرجاء كان قدما قد عفا
وقلّدانى منه لو قرنت — بشكر أهل الأرض عنى ما وفى

ونرى مثلا أبا منصور الثعالبى يؤلف كتابه لطائف المعارف للصاحب بن عباد ، والمبهج لشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، وفقه اللغة ، وسحر البلاغة لأبى الفضل الميكالى ، والنهاية فى الكناية لمأمون بن مأمون صاحب خوارزم الخ .

* * *

وعلى الجملة فهاتان الدولتان البويهية والسامانية مع فارسية ملوكهما وأعجمية لغاتهما الأصلية قد خدمتا اللغة العربية ، والأدب العربى ، والعلوم الإسلامية العربية ، والفلسفة الإسلامية العربية خدمة لا تقدر .

الباب الرابع

السند وأفغانستان

تولى هـذا الإقليم الدولة الغزنوية ، وتسمى أيضاً دولة بنى سُبَكْتِكِين . وقد قامت هذه الدولة من سنة ٣٥١ إلى سنة ٥٨٢ .

وهى دولة تركية — والنزاع بين الأتراك والفرس قديم ، والحرب بينهم سجال ؛ فقد ساد الفرس فى الدولة العباسية الأولى إلى أن جاء المعتصم فقوِىَ سلطان الترك ، وضعف سلطان الفرس ، وظل الحال كذلك حتى أتى بنو بويه ، وهم فرس ، فاستردوا سلطانهم ، وأضعفوا سلطان الترك .

وكذلك الأمر هنا ؛ فقد ساد السامانيون الفرس فى خراسان وما وراء النهر حتى جاء آل سبكتكين الأتراك ، فأنزلوهم عن مكانتهم ، وحلوا محلهم فى السيادة .

نشأ الأمراء الأولون من الدولة الغزنوية فى أحضان الدولة السامانية ؛ فقد كان أَلْبْتَكِين مملوكا تركياً حاكما لهراة من قِبل السامانيين . وقد فتح غزنة سنة ٣٥٢ ؛ وقد خلفه ابنه إسحاق ، وهذا لم يعقب فآل أمر ما بيده إلى غلامه سبكتكين ، وإليه تنسب الدولة . وقد وسّع سبكتكين ملكه فى ناحيتين : فى ناحية الهند ، وأنشأ بها حكومة فى « بشاور » ؛ وفى ناحية فارس باستيلائه على خراسان وما إليها . ومن أشهر رجال هذه الدولة بل من أشهر أعلام الإسلام محمود ابن سبكتكين الذى وطد ملكه ووسعه ، فوسع فتوحه فى الهند إلى ما وراء كشمير وبنجاب ، واستولى من ناحية أخرى على بخارى وما وراء النهر ، وأخذ إقليم الرى وأصفهان من البويهيين إلى العراق ، فامتدت مملكته من

لاهور إلى سمرقند إلى أصفهان إلى العراق ، واستمر المُلك فى عقبه إلى أن خلفتها الدولة الغورية .

والذى يهمنا هنا الناحية العقلية ؛ فقد كانت هذه البلاد فى هذه الدولة مركزاً عقلياً نبغ فيه كثير من رجال العلم والأدب والفلسفة .

وكان من أهم بلاد هذه الدولة ولاية سِجِسْتان « وعاصمتها زَرَنْج — وفى أهل سجستان عِظَم خَلْق وجَلادة ، وأغلب أهلها على مذهب الحنفية لا ترى من غيرهم إلا القليل ، وكان فيها كثير من الخوارج يظهرون مذهبهم ، ولا يتحاشون منه ، ويفتخرون به عند المعاملة ؛ يقول الرجل عند مما كسته : « أنا من الخوارج لا تجد عندى إلا الحق » ، واشتهر أهل سجستان — على العموم بصحة المعاملة ، وقلة المخاتلة ، ومسارعتهم إلى إغاثة الملهوف ومداركة الضعيف ؛ ثم أمرهم بالمعروف »(١) .

وقد ينسب إليها فيقال السجستانى ، وقد تختصر النسبة فيقال السِّجْزِىّ .

وكثير من العلماء ينسب إليها ، منهم أبو سعيد السِّجْزى القاضى الحنفى رحل إلى الشام والعراق وخراسان ، ثم عاد إلى بلاده وولى القضاء بعدة نواح ، ومات بفرغانة سنة ٣٨٣ — وأبو أحمد خلف بن أحمد السجزى كان ملكا بسجستان ، وكان من أهل العلم والفضل والسياسة والملك ، سمع الحديث بخراسان والعراق . وقد سلَبَ ملكه سنة ٣٩٩ محمود بن سبكتكين ، وتوفى فى الهند محبوساً .

وكان من أعماله العظيمة أن جمع العلماء بسجستان وحملهم على تصنيف كتاب فى التفسير لا يغادرون فيه حرفا من أقاويل المفسرين وتأويل المتأولين ، ونكت المذكِّرين ، ويتبعون ذلك بوجوه القراءات وعلل النحو والتصريف ، ويوشحونه بما رواه الثقات الأثبات من الحديث . وقد أنفق على العلماء مدة اشتغالهم فيه عشرين ألف دينار ، وتم هذا العمل الضخم فى مائة مجلد

---

(١) المقدسى .

تستغرق عمر الكاتب ، وتستنفد حبر الناسخ[1] .

ومن مدن سجستان المشهورة الرُّخَّج ، وإليها ينسب كثير من العلماء والأدباء .

ثم من أهم مدن هذه الدولة غزنة وكانت عاصمة ملكها ، قد ملأها محمود ابن سبكتكين بأجمل ما وصلت إليه يده عند فتحه للهند . وقد دفن بها السلطان محمود هذا ، ولا يزال بها قبره عليه قبة عظيمة ، وأبواب المدفن من خشب الصندل قيل إنه أتى بها من أحد هياكل الهند .

وقد وصف العُتْبى بعض ما عمله السلطان محمود فى غزنة ، فذكر — مثلا — أنه بنى فيها مسجداً ، وقال : « لما عاد السلطان يمين الدولة إلى دار الملك بغزنة أحب أن ينفق ما أفاء الله عليه فى عمل بر يشيع جدواه — وكان قد أوعز باختطاط صعيد من ساحة غزنة للمسجد الجامع ، إذ كان ما إختط قديماً على قدر أهلها ، فوافق عَوده حصول المراد من تقطيعه وتوسيعه ، وإقامة الجدران على ترابيعه ، فصبّ بدر المال على الصُّنّاع ، كما صب دماء الأبطال يوم القِراع . . . ونُقل إليه من أقطار الهند والسند جذوع توافقت قدوداً ورصانة ، وتناسبت تدويراً وثخانة . وقد فرشت ساحتها بالمرمر منقولا من كل فج عميق ، ومضرب سحيق . . . أشد ملاسة من راحة الفتاة وصفحة المرآة — فأما الأصباغ فروضة الربيع ضاحكة الثغور تستوقف الأبصار ، وتقيّد النظّار . وأما التذهيب فهو صبات الذهب الأحمر أفرغت عن صور الأصنام المجذوذة ، والبِدَدَة المأخوذة[2] ، فطفقت تعرض على النار بعد أن كانت آلهة للكفار الخ .

وقد أفرد السلطان لخاصته بيتاً فى المسجد مشرفا عليه ، فرْشه وإزاره من الرخام ، قد أحيط بكل رخامة مربعة محراب من الذهب الأحمر مكلّلا

---

(١) انظر تاريخ العتبى .   (٢) البددة : جمع بد وهو الصنم .

باللازورد ، فى تعاريج من ألوان المنثور والورد .

وأمام هذا البيت مقصورة بتعاريج عليها منصوبة[١] تسع ثلاثة آلاف غلام ، متى شهدوا للفرض أخذوا أماكنهم منها صفوفا ، وأقبلوا على انتظار الأذان عكوفا .

وأضيف إلى المسجد مدرسة فيحاء ، تشتمل بيوتها من مناط الأرض إلى مناط السقوف على تصانيف الأئمة الماضين ، من علوم الأولين والآخرين ، منقولة من خزائن الملوك ، نقّروا عن ديار العراق ، ورباع الآفاق ، حتى اقتنوها بخطوط كفرائد سموط ، مصححة بشهادات التقييد ، وعلامات التخفيف والتشديد ، ينتابها فقهاء دار الملك وعلماؤها للتدريس ، والنظر فى علوم الدين ، على كفاية ذوى الحاجة منهم ما يهمهم ، جراية وافرة ، ومعيشة حاضرة .

وناهيك من بلد يحتوى على مرابض ألف فيل ، يَشغل كل منها بساسته ومارَته[٢] داراً كبيرة ، وخطة وسيعة — إن الله تعالى إذا أراد عَمّر البلاد وكثر العباد[٣] ؛ وقال ياقوت : « وقد نسب إلى هذه المدينة من لا يعد ولا يحصى من العلماء » ؛ وقال السمعانى : « الغزنوى نسبة إلى غزنة ، وهى بلدة من بلاد الهند ، خرج منها جماعة من العلماء فى كل فن » .

ثم أفغانستان ، ومن أشهر مدنها قُنْدُهار ، وكابُل ، وقد نسب إليها جمع من المحدّثين .

ثم السند ، وكانوا يطلقونها على البلاد الواقعة بين الهند ومكران وسجستان .

---

(١) يريد بالتعاريج الدرابزين .

(٢) ساسة الفيل : خدامه ومن يقومون بأمره ؛ ومارته : جمع مائر ، وهو الذى يقوم على طعامه .

(٣) نقلت هذه من تاريخ العتبى باختصار .

وكانت عاصمتها « المنصورة » ؛ وقد قال المقدسى فى وصف السند عند ما زارها : « إنه إقليم الذهب والتجارات والعقاقير والآلات والفانيذ والخيرات . . . به عدل وإنصاف وسياسات . . . العلماء به قليلون — والمنصورة قصبتها وهى مثل دمشق لأهلها مروءة ، وللإسلام عندهم طراوة ، والعلم وأهله كثير ، ولهم ذكاء وفطنة ... ومن مدن السند دَيْبُـل ، وكل أهلها تجار ، وكلامهم سندى وعربى — والمُلْتان ، وهى مثل المنصورة ، وأهلها لا يكذبون فى بيع ، ولا يبخسون فى كيل ، يحبون الغرباء ، وأكثرهم عرب[1] .

ثم قال : إن إقليم السند أكثر أهله مذاهبهم أصحاب حديث ، ورأيت القاضى أبا محمد المنصورى داوديا إماماً فى مذهبه ، وله تدريس وتصانيف ، قد صنف كتباً عدة حسنة . وأهل الملتان شيعة ، ولا تخلو القصبات من فقهاء على مذهب أبى حنيفة ، وليس به مالـكية ولا معتزلة ، ولا عمل للحنابلة ؛ قد أراحهم الله من الغلو والعصبية والهرج والفتنة » الخ .

☆ ☆ ☆

ونعود إلى وصف الحركة العلمية والأدبية فى هذه البلاد .

كان طبيعياً أن تكون الحركة العلمية والأدبية فى البلاد الجديدة التى فتحتها الدولة الغزنوية فى الهند ضعيفة ؛ فقد بدأت تنتشر فيها الإسلام والعربية ، فليس من الطبيعى أن تخرج علماء — أما القسم الذى استولت عليه من الدولة السامانية وغيرها مما تأصل فيه الإسلام من عهد بعيد ، فقد استمرت فيه الحركة فى العهد الغزنوى كما كان فى العهد السامانى .

وكان من الغزنويين من شجع الحركة الدينية والعلمية والأدبية تشجيعاً

---

(١) أحسن التقاسيم : ٤٧٩ وما بعدها

عظيما ، وخاصة محمود بن سبكتكين ؛ فقد سار على أسلوب العصر فى أن يزين مملكته بالعلماء والأدباء ، كما يزين تاجه باللآلئ .

وقد احتاط به كثير من علماء الدين ، وجدّ أهل المذاهب الدينية والفقهية فى كسبه ، علماً منهم بأنه إذا اعتنق مذهباً ساد فى الأقاليم الواسعة التى فتحها ؛ فالفاطمية فى مصر وجهوا إليه « التاهرتى » الداعى ليدعوه إلى مذهب الفاطمية ، فوقف السلطان محمود على سر ما دعا إليه ، وعلم بطلان ما ندب إليه ، وأمر بقتل التاهرتى ، وأهدى بغلته التى كان يركبها إلى القاضى أبى منصور محمد بن محمد الأزدى شيخ هراة ، وقال كان يركبها رأس الملحدين فليركبها رأس الموحدين[١] .

« وذكر إمام الحرمين أبو المعالى الجُوَيْنى أن السلطان المذكور كان على مذهب أبى حنيفة ، وكان مولعاً بعلم الحديث ، وكانوا يسمعون الحديث من الشيوخ بين يديه وهو يسمع ، وكان يستفسر الأحاديث ، فوجد أكثرها موافقاً لمذهب الشافعى ، فوقع فى خلده حكه ، فجمع الفقهاء من الفريقين فى مرو والتمس منهم الكلام فى ترجيح أحد المذهبين على الآخر ، فوقع الاتفاق على أن يصلوا بين يديه ركعتين على مذهب الإمام الشافعى ، وركعتين على مذهب الإمام أبى حنيفة لينظر فيه السلطان ويتفكر ويختار ما هو أحسنهما ، وتولى الإمام القفال المروزى الشافعى ذلك ، فتحول السلطان من المذهب الحنفى إلى المذهب الشافعى »[٢] .

ولما فتح إقليم خراسان ، وسائر إيران وما وراء النهر وسجستان ، وجه أدباؤها مديحهم إليه كما كانوا يوجهونه إلى السامانيين — فبديع الزمان الهمذانى

---

(١) طبقات الشافعية : ٤/ ١٦ .

(٢) انظر الحكاية بطولها فى ابن خلكان : ٢/ ١١٦ .

ينشئ القصائد فى مدح محمود بن سبكتكين ، كالتى يقول فيها :

تعالى الله ما شاءَ وزاد الله إيمانى
أأفريدون فى التاج أم الإسكندر الثانى
أم الرجعة قد عادت إلينا بسليمان
أظلّت شمس محمودٍ على أنجم سامان
وأمسى آل بهرام عبيداً لابن خاقان[1]
إذا ما ركب الفيلَ لحرب أو لميدان
رأت عيناك سلطانا على منكب شيطان[2]
فمن واسطة الهند إلى ساحة جرجان
ومن قاصية السند إلى أقصى خراسان
على مقتَبل العمر وفى مفتتح الشان
فيوما رسل الشاهِ ويوما رسل الخان[3]
فما يعزب بالغرب عن طاعتك اثنان
أيا والى بغدادٍ ويا صاحب هَمْدان
تأمل مائتى فيلٍ على سبعة أركان[4]
يقلبن أساطين ويلعبن بثعبان[5]
ويأجوجُ ومأجوجِ من الجند تموجان

---

(١) يريد بآل بهرام السامانيين لأنهم يقولون إنهم من نسل بهرام جور كما تقدم ؛ ويريد بابن خاقان السلطان محوداً لأنه تركى ، وخاقان لقب لملك الترك .

(٢) يريد بالشيطان الفيل لشكله الهائل .

(٣) أى يوما عنده رسل ملوك العجم ، ويوما عنده رسل الترك .

(٤) يريد أركان الجيش ، وهى القلب والميمنة والميسرة والجناحان والساقة والمقدمة .

(٥) الضمير للفيلة أى يتنقلن على قوائم كالعمد ، ويلعبن بخرطوم كالثعبان .

وكذلك أنشأ أبو منصور الثعالبى القصائد فى مدحه كقوله :

يا خاتم الملك ويا قاهرِ الـ ـأملاك بين الأخذ والصفح

عليك عين الله من فاتح للأرض مستَوْلٍ على النُجح

راياته تنطق بالنصر بل تكاد تملأ كتب الفتح

فاسعد بأيامك واستغرق الـ ـأعداء بالكبح وبالذبح

إلى كثير غيرهما من الشعراء .

واختص به أديبان كبيران ناثر وشاعر ، أولهما أبو القاسم أحمد بن حسن الميمندى ، وثانيهما كاتبه أبو الفتح البستى .

فالأول (الميمندى) : كان وزير محمود بن سبكتكين ، واشتهر بفصاحة العلم ، وعلو الهمم ، وسعة النظر ، وحسن السياسة . « وكان الوزير الذى قبله «أبو العباس» قليل البضاعة فى الصناعة ، فانتقلت المخاطبات مدة أيامه من العربية إلى الفارسية حتى كسدت سوق البيان ، وبارت بضاعة الإجادة والإحسان ، ولما سعدت الوزارة بأبى القاسم رفع ألويه الكتاب ، وعمر أفنية الآداب ، فأمر الكتاب أن يتحاشوا الفارسية إلا عن ضرورة من جهل من يُكتب إليه ، وعجزه عن فهم ما يتعرّب به إليه[1] — فطارت توقيعاته فى البلاد ولا شوارد الأمثال ، وأبيات المعانى من القصائد الطوال ، ففى كل ناد نداء بألحانها ، وفى كل مشهر شهادة باستحسانها الخ »[2]

وأما أبو الفتح البستى ، فكان كاتب محمود بن سبكتكين وموضع سره ، ومستشاره فى أمره — وهو أديب كبير له شعر جيد ، ونثر جيد ؛ فأما شعره فأكثره مقطوعات يعمد فيها إلى المعنى الدقيق ، فيصوغه فى لفظ رشيق ، وأما نثره

---

(١) أى فهم ما يكتب إليه بالعربية . (٢) العتبى ٣ / ١٧٠ .

فواضح جميل فيه السجع والازدواج على طريقة عصره ، وهو فى نثره يكثر من الأمثال ، وفى نظمه يكثر من الحكم . وقد قال الثعالبى : إن له طريقة خاصة به ، فهو « صاحب الطريقة الأنيقة فى التجنيس الأنيس ، البديع التأسيس ، وكان يسميه المتشابه ، ويأتى فيه بكل طريقة لطيفة » تتجلى هذه الطريقة فى أمثاله من مثل قوله : « عادات السادات ، سادات العادات — الخيبة تهتك الهيبة — من كان عبد الحق فهو حرّ ، المنية تضحك من الأمنية — معنى المعاشرة ترك المعاسرة الخ ، وله فى هذا الباب الشىء الكثير .

كذلك تظهر طريقته فى شعره من دقة المعنى وأناقة اللفظ ، مثل قوله :

لا يغرنك أننى ليِّن المسّ فغربى إذا انتضيت حسام
أنا كالورد فيه راحة قوم ثم فيهِ لآخرين زكام

وقوله :

وقد يلبس المرء خز الثيا ب ومن دونها حالة مُضنيهْ
كمن يكتسى خدُّه حمرة وعلّتها وَرَمٌ فى الريَهْ

وقوله :

تحمّل أخاك على مابه فما فى استقامته مطمع
وأنَّى له خُلُق واحد وفيه طبائعه الأربع

ويظهر أن له ثقافة واسعة فى علم النجوم استخدمها كثيراً فى شعره .

وعلى الجملة فشعره ونثره يدلان على رقة ذوقه ، وسعة ثقافته فى فروع من العلم مختلفة ، إلى استفادة كبيرة من مزاولته الكتابة للسلاطين والأمراء ، واحتكاكه بالأحداث السياسية ، والمشاكل الاجتماعية ، وأكثر ما يتجلى ذلك فى أمثاله وحكمه .

وقد غضب عليه ابن سبكتكين أخيراً فنفاه إلى بلاد الترك ، ومات بها سنة ٤٠٠ .

ثم كان مؤرخ الدولة الغزنوية الكبير ، وهو أبو النصر محمد بن عبد الجبار العتبي . وقد سمى كتابه « اليميني » نسبة إلى لقب محمود بن سبكتكين ؛ فقد لقبه الخليفة القادر بالله « يمين الدولة وأمين الملة » . وقد ألف العتبي كتابه هذا في تاريخ الدولة الغزنوية ترجم فيه لسبكتكين ، وكيف أسس مملكته ، ثم تاريخ ابنه محمود ، والوقائع التي حدثت في أيامه الخ .

ولا يزال الكتاب يعد أكبر مصدر لتاريخ هذه الدولة — وقد صاغه في أسلوب أدبي مسجوع على نحو ما فعله معاصره أبو منصور الثعالبي ؛ ولذلك وقع بين الكتب الأدبية والتاريخية ، ولو كان نثراً مرسلا لكان أجدى على التاريخ . ومع هذا فقد حاز شهرة كبيرة في عالم الأدب ، وخاصة في الأقاليم الفارسية ؛ قال السبكي : « وكان أهل خوارزم وما والاها يعتنون بهذا الكتاب ، ويضبطون ألفاظه أشد من اعتناء أهل بلادنا بمقامات الحريري »[١] ، وعني بشرحه كثير من الأدباء ، وطبع له في مصر شرح للمنيني الدمشقي .

* * *

وقد حكى الأستاذ براون في كتابه التاريخ الأدبي للفرس أن السلطان محمودا علم أن في مجلس مأمون بن مأمون جماعة من رجال العلم والفلسفة منهم ابن سينا والبيروني ، وأبو سهل المسيحي ، وابن الخمار ، وأبو نصر العَرّاق ، فكتب إليه أن أرسلهم ليشرفوا بمجلسي ونستفيد من علمهم ، فجمعهم مأمون بن مأمون ، وقرأ عليهم كتاب السلطان ، فأبى ابن سينا وفرّ ، وقبل البيروني ، وابن الخمار ، والعَرّاق»[٢] .

---

(١) طبقات الشافعية : ١٣/٤ . (٢) ٩٦/٢ .

وكان ذهاب البيرونى إليه نعمة لا تقدر ، فهو الذى استغل فتوح السلطان محمود فى الهند أحسن استغلال علمى ، وجعل ثروة الهند فى الرياضة والفلسفة والإلهيات فى يد العرب والفرنج ، ولا تزال كتبه التى ألفها العمدة الصادقة لكل من كتب عن الهند من شرقيين وغربيين ؛ وكان البيرونى هذا درة فى تاج الدولة الغزنوية كابن سينا فى الدولة السامانية .

وهو أبو الريحان محمد بن أحمد البيرونى (نسبة إلى بيرون مدينة فى السند) ولد سنة ٣٦٢ ، ونبغ فى كثير من العلوم ، وخاصة الرياضة والفلك ، وأزهر فى الأوساط العلمية ، وكانت — إذ ذاك — قصور الخلفاء والأمراء ومجالسهم تقوم مقام الجامعات اليوم . وقد عدد فى إحدى قصائده الذين أكرموه لعلمه ، فقال :

مضى أكثر الأيام فى ظل نعمة ... على رتب فيها علوت كراسيا
فآل عراقٍ قد غذونى بدَرِّهم ... ومنصور منهم قد تولّى غِراسيا
وشمس المعالى كان يرتاد خدمتى ... على نفرة منى وقد كان قاسيا[1]
وأولاد مأمون ومنهم عليُّهم ... تبدى بصنع صار للحال آسيا
وآخرهم مأمون رفّه حالتى ... ونوّه باسمى ثم رأّس راسيا[2]
ولم ينقبض محمود عنى بنعمة ... فأغنى وأقنى مُغْضِيا عن مكاسِيَا[3]

* * *

أبو الفتح فى دنياى مالِكُ ربقتى ... فهات بذكراه الحميدة كاسيا[4]
فلا زال للدنيا وللدين عامرا ... ولا زال فيها للغواة مواسيا

---

(١) هو شمس المعالى قابوص بن وشمكير أمير طبرسان ؛ وقد تقدم ذكره .

(٢) مأمون وأولاده مأمون أمراء خوارزم .

(٣) محمود هو محمود بن سبكتكين .

(٤) أبو الفتح هو أبو الفتح البستى ، وقد تقدم .

ويعده « سخاو » المستشرق الكبير — ناشر كتبه — أكبر عقلية علمية ظهرت ، وكذلك رأى محمد بن محمود النيسابورى ، إذ قال : « إن له فى الرياضيات السبق الذى لم يشق المحضرون غباره ، ولم يلحق المضمرون الجيدون مضماره » .

وفى الحق أنه كان من خير المثل العليا للعالم المخلص للعلم ، الواهب له حياته ، يزهد فى المال إلا ما يكفيه حاجته ، صنف القانون المسعودى للسلطان مسعود فوصله السلطان بأموال طائلة فردها بعذر الاستغناء عنها[1] .

« ولا يكاد يفارق يده القلم ، وعينه النظر ، وقلبه الفكر إلا فى يومى النيروز والمهرجان من السنة لإعداد ما تمس إليه الحاجة فى المعاش » ، لا يمل الاستزادة من العلم حتى حين يجود بنفسه — دخل عليه الفقيه أبو الحسن الولوالجى ، وهو يجود بنفسه فسأله عن مسألة فى توريث ذوى الأرحام ؛ فقال له الفقيه — إشفاقا عليه : أفى هذه الحالة ؟ قال البيرونى : أودع الدنيا وأنا عالم بها خير من أن أخليها وأنا جاهل بها ! قال الفقيه : فلما خرجت من عنده سمعت الصراخ عليه[2] .
ويقول عن نفسه : « خصصت فى غريزتى منذ حداثتى بفرط الحرص على اقتناء المعارف بحسب السن والحال » . ويتعلم لغات مختلفة ؛ ففى كتبه عن العقاقير والجواهر يذكر اسم الشىء بالعربية واليونانية والسريانية والفارسية والتركية ؛ ويقارن بين اللغات مقارنة دقيقة ، فيمدح اللغة العربية بحسن أدائها للمعانى ، ويفضلها على الفارسية ، وينقد الكتابة العربية ، كما ينقدها مفكرو اليوم نقداً دقيقاً فيقول : « إن كل أمة تستحلى لغتها التى ألفتها واعتادتها ، واستعملتها فى مآربها . . . وأنا نفسى قد طبعت على لغة (يريد بها لغته الأصلية الخوارزمية) لو خلد بها علم لاستغرب استغراب البعير على الميزاب ، والزرافة فى الأكواب ؛

---

(١) ياقوت : ٦ /٣٠٨ . (٢) المصدر نفسه .

ثم انتقلْتُ إلى العربية والفارسية ، وأنا فى كل واحدة دخيل ولها متكلف ، والهجو بالعربية أحب إلىّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولى من تأمل كتابَ عِلْمٍ نُقِلَ إلى الفارسى كيف ذهب رونقه ، وكسف باله واسودّ وجهه ، وزال الانتفاع به ؛ إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية ، والأسمار الليلية» ...

ثم ينقد الكتابة العربية فيقول : « وقد حل بأرضنا رومى ، فكنت أجىء بالحبوب والبذور والثمار وغيرها ، وأسأله عن أسمائها بلغته وأحررها ، لأن للكتابة العربية آفة عظيمة ، وهى تشابُهُ صور الحروف المزدوجة فيها ، واضطرارها فى التمايز إلى نقط المعجم ، وعلامات الإعراب التى إذا تركت استبهم المفهوم منها ؛ فإذا انضاف إليها إغفال المعارضة ، و إهمال التصحيح بالمقابلة — وذلك بالفعل عامٌّ فى قومنا — تساوى وجود الكتاب وعدمه ، بل علْمُ ما فيه وجهله ؛ ولولا هذه الآفة لكفى نقل ما فى كتاب ديسقوريدس المنقولة إلى العربى من الأسامى اليونانية إلا أنا لا نثق بها الخ[1]

لقد اتصل البيرونى بشمس المعالى قابوس بن وشمكير ، وألف له « الآثار الباقية » ، وهو يبحث فى التواريخ التى كانت تستعملها الأمم ، والاختلاف فى الشهور والسنين ، والتقاويم عند الأمم وأسسها ، إلى غير ذلك مما يسميه الفرنج الآن علم الكرونولوجيا .

فلما اتصل بمحمود بن سبكتكين فاتح الهند ، وقف من الفتوح موقفاً عجيباً يذكرنا بالجمعية العلمية الفرنسية فى حملة نابليون على مصر ، ولكن البيرونى كان جمعية وحده ، فعكف على الهند يدرسها من جميع نواحيها : جغرافيتها وعلومها

---

(١) قطعة نقلها الأستاذ كرنكو عن كتاب الجماهر فى معرفة الجواهر للبيرونى — فى مجلة Islamic Culture : ٦/٥٣٠ .

ودينها بل وجواهرها ، وألف فى ذلك الكتب الكثيرة مثل تاريخ الهند ، والجماهر فى الجواهر الخ ، وتعلم اللغة السنسكريتية ، وأخذ ينقل منها إلى العربية ، ومن العربية إليها ، فنقل إلى السنسكريتية نظريات أقليدس ، والمجسطى فى الفلك ، ونقل إلى العربية من السنسكريتية « باتا نجالى » .

وربما كان أعظم كتبه القانون المسعودى الذى ألفه للسلطان مسعود بن محمود بن سبكتكين . وهذا الكتاب يبحث فى الرياضة والفلك وفلسفة الهند ، ولما ينشر بعد .

وقد عمّر « البيرونى » عمراً طويلا مباركا ألف فيه كتباً كثيرة نشرت فى رسالة له فى أول كتاب الآثار الباقية تدل على سعة آفاقه العلمية وعمقه فيها ؛ وقد مات بغزنة نحو سنة ٤٤٠ عن خمسة وسبعين عاماً .

كما كان من رجال الفلاسفة فى بلاط السلطان محمود ، ابنُ الخمار ، وكان نصرانياً ؛ وقد تقدم طرف من خبره .

كما كان فى بلاط من أدباء الفرس : الفردوسى ، والعنصرى ، والعسجدى ، والفرخى ؛ وقد نظم له الفردوسى قسما من الشاهنامة ، كما نظم له الآخرون ، وموضع ذلك الأدب الفارسى[1] .

---

(١) انظر ذلك فى مقدمة الشاهنامه للدكتور عبد الوهاب عزام .

الباب الخامس

بلاد المغرب

لما فتح المسلمون بلاد المغرب كلها كانوا يقسمونها إلى ثلاثة أقسام : مملكة إفريقية ، وهى المغرب الأدنى ، وقاعدتها القيروان ، وسمى أدنى لأنه أدنى إلى بلاد العرب ومركز الخلافة ، والمغرب الأوسط ، وقاعدته تلمسان والجزائر ، والمغرب الأقصى ، وقاعدته فاس فى مراكش .

وكان العرب يطلقون على سكان كل هذه البلاد البربر .

وقد افتتحها المسلمون من أوائل عهد الفتح ، ولقوا فى فتحها عناء كبيراً ، وبذلوا فى ذلك ضحايا كثيرة من سنة ٢٦ إلى سنة ٨١ .

وكان أهل هذه البلاد لسذاجتهم مرتعاً خصيباً للدعاة الخارجين على الدولة ، ولكل داع بمذهب دينى جديد . قال ياقوت : «البربر أجفى خلق الله ، وأكثرهم طيشاً ، وأسرعهم إلى الفتنة ، وأطوعهم لداعية الضلالة ، وأصغاهم لنمق الجهالة ، ولم تخل أجيالهم من الفتن وسفك الدماء قط ... وكم من ادعى فيهم النبوة فقبلوا ، وكم زاعم فيهم أنه المهدىّ الموعود به فأجابوا دعوته ، ولمذهبه انتحلوا ، وكم ادُّعى فيهم مذهب الخوارج فإلى مذهبه بعد الإسلام انتقلوا » ، وقامت به دول مختلفة متعاقبة ؛ فقد خرج إلى المغرب الأقصى إدريس بن عبد الله بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب سنة ١٦٩ ، ونشر الدعوة به وأسلم على يده خلق كثير ، فبويع له بالخلافة سنة ١٧٢ ، وأسس دولة تسمت دولة الأدارسة استمرت إلى سنة ٣٧٥ فاكتسحتها دولة العبيديين (الدولة الفاطمية) .

وقام بنو الأغلب بتونس ودولتهم تنسب إلى إبراهيم بن الأغلب التميمى حكمت من سنة ١٨٤ . وقد عظمت دولتهم وأنشئوا أسطولا قوياً فى البحر الأبيض فتحوا به صقلية ومالطة وسردينيا ، وكان عهدهم عصر سيطرة قوية على البحر ، واستمروا فى الحكم إلى ٢٩٦ حيث استولى عليهم العبيديون أيضاً .

ثم جاءت الدولة الفاطمية ، وكان منشؤها بالمغرب ، فبسطت سلطانها على جميع بلاد المغرب من حدود مصر إلى المحيط الأطلنطى مضافا إليها صقلية وسردينيا ؛ وقد بدأ ملكهم على يد أبى محمد عبيد الله المهدى سنة ٢٩٦ ، واستمر الملك فى أولاده حتى تولى منهم المعز ؛ فلما انتقل إلى مصر سنة ٣٦٢ ، وتتابعت فتوحهم فى الشام والحجاز واليمن ، وقوى سلطانهم فيها ، ضعف سلطانهم فى المغرب .

فجاء بنو زِيرِى الصنهاجيين بتونس والجزائر ، وأصلهم من البربر ، وكانوا عمالا للفاطميين ؛ ولما سار المعز إلى مصر استعمل على تونس يوسف بن بُلُكِّين ، ثم استفحل أمر يوسف واستقل بمملكته ، وأسس دولة نسبت إليه استمرت من سنة ٣٦١ — سنة ٥٤٢ ، واشتهر من رجالها باديس بن يوسف ، وابنه المعز ، وهو أول من حمل الناس بإفريقية على مذهب مالك ، وكانوا قبلُ على مذهب أبى حنيفة ، ثم ابنه تميم بن المعز الشاعر الكبير ، وسيأتى ذلك .

* * *

ومن أول الفتح والمسلمون يعملون أقصى ما فى وسعهم لإدخال البربر فى الإسلام ، وتفقيههم وتحضيرهم ، وتوالى على بلاد المغرب أمراء عظام عملوا فى هذه السبيل أعمالا جليلة ، فحسان بن النعمان الغسانى عامل عبد الملك بن مروان على إفريقية هو الذى دوّن الدواوين بها باللغة العربية ، وغزا موسى بن نصير المغرب ،

وكان معه سبعة وعشرون ألفاً من العرب ، واثنا عشر ألفاً من البربر ، وأمر موسى العرب أن يعلموا البربر القرآن والفقه . . . ثم أسلم بقية البربر على يد إسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر سنة ١٠١ أيام عمر بن عبد العزيز[١] . . . وقد أرسل عمر بن عبد العزيز عشرة من التابعين يفقهون أهل المغرب فى الدين .

وفى أيام هشام بن عبد الملك فرّ قوم من خوارج العراق إلى المغرب ، وبثوا فيه مبادئهم ، فسرت دعوتهم فى البربر ، وأعجبهم من تعاليمهم أن الخليفة ليس يجب أن يكون قرشياً ، فانتقض البربر على العرب يريدون أن تكون لهم دولة من أنفسهم ، وساعد على ذلك ما لقيه البربر أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب من الظلم والفساد ، وكان خوارج المغرب على مذهب الإباضية والصفرية ، وكان لدعوة الخوارج أثر كبير فى المغرب فى إيجاد عصبية بربرية ضد العصبية العربية ، وكثر عدد الخوارج من البربر حتى بلغوا فى الثورة أيام عمر بن حفص عامل الخليفة المنصور أكثر من أربعين ألفاً من الصفرية ، وخمسة وعشرين ألفاً من الإباضية[٢] .

وفى أيام هارون الرشيد ولى على المغرب يزيد بن حاتم بن المهلب بن أبى صفرة . قال ابن خلدون : « وفى أيامه انخضدت شوكة البربر ، واستكانوا للغلب وطاعوا للدين ، فضرب الإسلام بجرانه ، وألقت الدولة المضرية على البربر بكلكلها » .

وفى عهد العباسيين أخذ أهل المغرب بمذهب أهل العراق (مذهب أبى حنيفة) فى الأصول والفروع لأن ذلك المذهب يومئذ هو مذهب الخلفاء بالمشرق ، والناس على دين ملوكهم ، قال القاضى عياض : « ظهر مذهب أبى حنيفة بإفريقية ظهوراً كبيراً إلى قرب سنة أربعمائة ثم انقطع منها » ، وللمعز بن باديس الصنهاجى المتوفى فى أواسط المائة الخامسة أثر كبير فى ذلك ، فقد كان هو وأصحابه على مذهب الشيعة

---

(١) تاريخ ابن خلدون . (٢) انظر « الاستقصاء » : ١/٨٥ .

أخذاً من أسلافهم الفاطميين أيام استيلائهم على المغرب ؛ ثم قطع المعز دعوة الشيعة ، ودعا لبني العباس وحمل الناس على التمسك بمذهب مالك ، وكان مذهب مالك معروفا فى هذه البلاد من قبل ، ولكن أهله كانوا فى محنة حتى نصرهم المعز هذا[1] .

وانتشر مذهب أهل السنة يزاحم الشيعة والخوارج .

هذه الأحداث العظمى من دخول العدد الكبير من العرب ، وفتح البلاد ، ونشر الإسلام واللغة العربية فيها ، وتثقيف الناس بالدين الإسلامى والأدب العربى ، وجعل البلاد جزءاً من المملكة الإسلامية يدخلها التجار من جميع الأجناس ، ويتبادلون مع أهلها المعاملات والسلع ، واختلاط العرب وغيرهم من المسلمين بأهل البلاد بالتزاوج والتوالد ، ووقوعها بين البلاد المتحضرة ، وخاصة بين مصر والأندلس ، وكثرة العلاقات والرحلات بين هذه البلاد بعضها و بعض ، كل هذا نقل بلاد المغرب من برابرة جفاة — كما يعبر ياقوت — إلى أمة لها مدنية ولها حضارة ولها ثقافة ، فلا عجب بعدُ إذا رأينا فى البلاد حركة عقلية تؤرخ . ويكون لها شأن يذكر .

وقد اشتهرت بلدان فى المغرب بتقدمها فى الحضارة والعمران والعلم والأدب كالقيروان والمهدية وتاهرت وسجلماسة وفاس .

فأما « القيروان » ؛ فقد أسسها عُقْبة بن نافع سنة خمسين ؛ قال ابن خلدون : « اختط عُقْبة القيروان ، وبنى بها المسجد الجامع ، وبنى الناس مساكنهم ومساجدهم ، وكان دورها ثلاثة آلاف وستمائة باع ، وكملت فى خمس سنين ، وكان يغزو ويبعث السرايا للإغارة والنهب ، ودخل أكثر البربر فى الإسلام ، واتسعت خطة المسلمين ، ورسخ الدين » ، وهى عاصمة إفريقية[2] ، وفى القرن

(١) انظر الاستقصاء : ١/٦١ .

(٢) إفريقية كان يستعملها العرب فيما يشمل المغرب الأدنى والأوسط فيشمل طرابلس وتونس والجزائر .

الرابع كانت « مصراً بهياً عظيما قد جمع أضداد الفواكه ، والسهل والجبل — مع علم كثير — لا ترى أرفق من أهلها — ليس بينهم غير حنفى ومالكى مع ألفة عجيبة ، لا شغب بينهم ولا عصبية — فهى مفخرة المغرب ، ومركز السلطان ، وأحد الأركان ، أرفق من نيسابور ، وأكبر من دمشق ، وأجل من أصبهان . . . جامعها بموضع يسمى السماط الكبير . . . وهو أكبر من جامع ابن طولون بأعمدة من الرخام ، ومفروش بالرخام[1] .

والمهدية وهى مدينة من أعمال تونس اختطها المهدى رأس الفاطميين ، بينها و بين القيروان مرحلتان ، أسسها سنة ٣٠٠ ، وفرغ منها سنة ٣٠٥ ، وهى على ساحل البحر الأبيض داخلة فيه كهيئة كف متصلة بزند ، وسوَّرها سوراً محكما بأبواب من الحديد المصمت ، وجلب إليها الماء من قرية على مقربة من المهدية ، وجعل لها مرسى يسع ثلاثين مركباً .

وبنى على المرسى برجين بينهما سلسلة من حديد ؛ فإذا أريد إدخال سفينة أرسل الحراس أحد طرفى السلسلة حتى تدخل ثم يمدونها كما كانت ، ولما أتم ذلك قال المهدى : « اليوم أمِنت على الفاطميات يعنى بناته ، وارتحل إليها وأقام بها ، ثم عمّر فيها الدكاكين ، ورتب فيها أرباب المهن ، كل طائفة فى سوق ، فنقلوا إليها أموالهم . . . و ينسب إلى المهدية جماعة وافرة من العلماء فى كل فن[2] ، وكان من إحدى قرى المهدية هانئ أبو ابن هانئ الأندلسى ، وفى المهدية هذه ولد المعز فاتح مصر ، ومؤسس القاهرة .

وتاهرت بلد كبير من أعمال الجزائر قد أحدقت بها الأنهار ، والتفت بها الأشجار ، ينتعش فيها الغريب ، و يستطيبها اللبيب ، رشيق الأسواق ، جيد

---

(١) المقدسى ٢٢٦ وما بعدها .
(٢) انظر معجم ياقوت فى مادة المهدية .

الأهل ، قديم الوضع ، محكم الرصف ، عجيب الوصف[١] . . . وكانت قديماً عش الإباضية ؛ وقد أخرجت كثيراً من حفاظ الحديث ، وثقات المحدثين[٢] .

وسجلماسة قصبة جليلة على نهر بمعزل عنها ، شديدة الحر والبرد جميعاً ، صحيحة الهواء ، كثيرة التمور والأعناب والفواكه والحبوب ، كثيرة الغرباء . . . وهم أهل سنة . . . بها علماء وعقلاء[٣] . . . ولنسائهم يد صنَاع فى غزل الصوف ، فهن يعملن منه كل حسن عجيب من الأُزُر تفوق القصب الذى بمصر . . . وأهلها من أغنى الناس وأكثرهم مالاً لأنها على طريق من يريد « غابة » التى هى معدن الذهب ، ولأهلها جرأة على دخولها[٤] .

وفاس بلدان جليلان كبيران ، كل واحد منهما محصّن ، بينهما واد جرار عليه بساتين وأرحية قد استولى على أحدهما الفاطمى ، وعلى الآخر الأموى ، وكم ثم من حروب وقتال وغلبة ، كثير الخيرات ، قليل العلماء ، كثير الغوغاء[٥] ، وقال أبو عبيد البكرى : « مدينة فاس مدينتان : عَدْوة القَرَويين ، وعدوة الأندلسيين ، وعلى باب دار الرجل ، رحاه و بستانه بأنواع الثمر . . . وهى أكثر بلاد المغرب يهوداً يختلفون منها إلى جميع الآفاق »[٦] .

ولما وصف المقدسى إقليم المغرب جملة عند زيارته فيما يهمنا من الناحية العلمية ، قال : « إنه إقليم كبير طويل ... أهله لا يعرفون مذهب الشافعى إنما هو أبو حنيفة ومالك ، وكنت يوما أذاكر بعضهم فى مسألة ، فذكرت قول الشافعى فقال : اسكت من هو الشافعى ، إنما كانا بحرين أبو حنيفة لأهل المشرق ، ومالك لأهل المغرب أفنتركهما ونشتغل بالساقية ؟ . . . وما رأيت فريقين أحسن اتفاقا وأقل

---

(١) المصدر نفسه ص ٢٢٨ .
(٢) معجم ياقوت فى مادة تاهرت .
(٣) المقدسى : ٢٣١ .
(٤) ياقوت فى مادة سجلماسة .
(٥) المقدسى : ٢٢٩ .
(٦) ياقوت فى مادة فاس .

تعصباً منهم ... وسألت بعضهم : كيف وقع مذهب أبى حنيفة إليكم ، ولم يكن على سابلتكم ؟ قالوا : لما قدم وهب بن وهب من عند مالك ، وقد حاز من الفقه والعلوم ما حاز ، استنكف أسد بن عبد الله أن يدرُس عليه ، لجلالته وكبر نفسه ، فرحل إلى المدينة ليدرس على مالك فوجده عليلا ؛ فلما طال مقامه عنده قال له : ارجع إلى ابن وهب فقد أودعته علمى ، وكفيتكم به الرحلة فصعب ذلك على أسد ، ثم سأل : هل يعرف لمالك نظير ؟ فدُل على محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة ، فرحل إليه ، وأقبل محمد عليه إقبالا لم يقبله على أحد لما رأى منه من فهم وحرص ؛ فلما رأى محمد أنه قد بلغ مراده سيّبه إلى المغرب ، فلما دخلها اختلف إليه الفتيان ورأوا فروعا حيرتهم ، ودقائق عجبتهم ، ومسائل ما طنت على أذن ابن وهب ، ففشا مذهب أبى حنيفة بالمغرب . . . وهناك القسم الثالث المذهب الفاطمى ... ولهم تصانيف يدرسونها ، ونظرت فى كتاب الدعائم ، فإذا هم يوافقون المعتزلة فى أكثر الأصول ، ويقولون بمذهب الإسماعيلية ، ولهم فيه سرّ لا يعلّمونه لكل أحد إلا من وثقوا به بعد أن يحلفوه ويعاهدوه ، وإنما سموا باطنية لأنهم يصرفون ظاهر القرآن إلى بواطن وتفاسير غريبة ، ومعان دقيقة ، وهذه الأصول مذاهب الإدريسية وغلبتهم بكورة السوس الأقصى[1] .

* * *

وقد اشتهرت بلاد المغرب بالعناية بالحديث والفقه ، وتقصيرها فى العلوم النظرية من الفلسفة وفروعها ؛ قال المقَّرى التلمسانى : « وأما ملكة العلوم النظرية فهى قاصرة على البلاد المشرقية ، ولا عناية لحذاق القَرَويين والإفريقيين إلا بتحقيق الفقه فقط ، ولم يزل الحال كذلك إلى أن رحل الفقيه ابن زيتون[2]

(١) المقدسى : ص ٢٣٦ وما بعدها .

(٢) هو أبو القاسم بن أبى بكر الشهير بابن زيتون عاش من (٦٦٦ — ٧٣٠) .

إلى المشرق ، فلقى تلاميذ الفخر بن الخطيب ، ولازمهم زمانا حتى تمكن من ملكة التعليم ، وقدم إلى تونس فانتفع به أهلها »[١] .

وقد اشتهر من المغرب كثير من الفقهاء وخاصة فى الفقه المالكى من أشهرهم وأولهم أسد بن الفرات ، وهو نيسابورى الأصل قيروانى الدار ، أخذ عن مالك موطأه فى المدينة ، ورحل إلى العراق فأخذ من أبى يوسف ومحمد صاحبى أبى حنيفة ، وأخذ عن أبى يوسف الأسئلة التى كان يثيرها الحنفية ، ويضعون لها الأحكام على مقتضى مذهبهم ، فجردها أسد بن الفرات من أحكامها ، وعرضها على ابن القاسم ، وتلقى منه أحكامها على مذهب مالك ، أو اجتهاد ابن القاسم نفسه ، أو اجتهاد أشهب ، ودوّن ذلك كله فى الكتاب المشهور المسمى بالمدوّنة ، فالمسائل المجردة مسائل الحنفية ، والأحكام أحكام مالك وصحبه ، وتشتمل على نحو ستة وثلاثين ألف مسألة .

وقد حمل أسد بن الفرات ذلك كله إلى القيروان ونشره بالمغرب ، وتولى القضاء بها زمناً ، كما تولى قيادة الجيش الذى فتح صقلية لبنى الأغلب ، وقد قتل وهو محاصر لسرقوسة سنة ٢١٣ .

ثم سُحْنون وهو عبد السلام بن سعيد ، عربى من تنوخ ، كان أبوه من العرب الذين نزلوا القيروان ، تعلم على علماء القيروان ، ورحل فأخذ العلم عن ابن القاسم وأشهب وابن وهب وغيرهم .

وقد أخذ مدونة أسد بن الفرات التى ذكرنا ، وأعاد قراءتها على ابن القاسم وصححها عليه ، وعاد بها إلى القيروان ، فأقبل عليها الناس فى المغرب والأندلس

---

(١) أزهار الرياض : ٣/٢٦ .

وتولى قضاء إفريقية ، وجدّ فى نشر مذهب مالك ، وتعلّم عليه كثيرون حتى عد العلماء الذين تخرجوا عليه بنحو سبعمائة .

قال ابن حارث : « قدم سُحنون (إفريقية) بمذهب مالك ، واجتمع له مع ذلك فضل الدين والورع والعفاف والانقباض ، فبارك الله فيه للمسلمين ، ومالت إليه الوجوه ، وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدأ قد انمحى ما قبله ، فكان أصحابه سُرُج أهل القيروان ... ابنه عالمها وأكثرهم تأليفاً ، وابن عبدوس فقيهها ، وابن غافق عاقلها ، وابن عمر حافظها ، وابن جبلة زاهدها ، وحمديس أصلبهم فى السنة وأعداهم للبدعة ، وسعيد بن الحداد لسانها وفصيحها ، وابن مسكين أرواهم للكتب والحديث ، وأشدهم وقاراً وتصاونا — كل هذه الصفات مقصورة على وقتهم »(١) .

وتوفى سنة ٢٤٠ عن ثمانين عاما ، ولما مات رجت القيروان لموته . واشتهر ابنه محمد بن سحنون بالتآليف الكثيرة فى الحديث والفقه ، ومات سنة ٢٥٦ .

ثم أبو بكر محمد بن محمد المعروف بابن اللّبّاد اشتهر بالحفظ والإتقان وسعة العلم ، وسعيه لنشر المذهب المالكى فى المغرب ، وتكوين علماء حملوا علمه ، وأفادوا به الناس . وقد اضطهده الفاطميون أيام سطوتهم لأنه لم يتابعهم فى آرائهم ، فسجنوه ومات سنة ٣٣٣ .

ثم أبو ميمونة دراس بن إسماعيل الحراوى الفاسى ، وهو الذى أدخل فقه مالك فى المغرب الأقصى بعد أن كان أهله على مذهب أبى حنيفة ، وكان من الحفاظ المعدودين ، والفقهاء المشهورين مات بفاس سنة ٣٥٧ .

ثم أبو محمد عبد الله بن أبى زيد النفزى القيروانى ، إمام المالكية فى زمنه

---

(١) الديباج ص ١٦٢ .

كثير التأليف واسع الفقه حتى سمى « مالك الصغير » . رحل إليه العلماء للرواية عنه والتفقه به ، له كتاب الزيادات على المدونة ، وله مختصر المدونة توفى سنة ٣٨٦ .

وأبو عبد الله بن محمد بن محمود الهَوّارى قاضى فاس و إمامها يضرب به المثل فى عدله وورعه ، له تعليقات على المدونة مات سنة ٤٠١ الخ .

والقابسى على بن محمد المعروف بابن القابسى ، كان واسع الرواية عالما بالحديث ورجاله ، فقيهاً مالكياً أصولياً متكلما مؤلفاً مجيداً ، له كتاب الممهد فى الفقه ، والمنقذ من شُبه التأويل ، وكتاب المعلمين والمتعلمين ، وكتاب رتب العلم وأحوال أهله الخ ؛ مات بالقيروان سنة ٤٠٣ .

واشتهر من فقهاء الحنفية محمد بن عبدون ، ولى القيروان بعد سحنون ، فاضطهد المالكية الخ .

ولما تغلبت الدولة الفاطمية نشرت فقهها الشيعى ودعوتها الشيعية فى المغرب ، كما نشرتهما بعد فى مصر ، واضطهدت الفقهاء السنيين ؛ وقد عرضوا التشيع على كثيرين منهم فأبوا فعذبوهم « وقد قتلوا فى وقعة أبى يزيد مُخَلَّد بن كيداد خمسة وثمانين من نخبة علماء القيروان »[1] .

على الجملة فقد كانت الحركة الدينية الفقهية فى المغرب حركة قوية نشيطة . أكثر ما خدمت فقه الإمام مالك .

* * *

والعلم النظرى أو الفلسفة — و إن لم ينم كثيراً فى بلاد المغرب — لم يخل ممن عكف عليه ، فيذكر ابن أبى أصيبعة أن إسحاق بن عمران ، كان بغدادى

---

(١) انظر الحجوى فى تاريخ الفقه الإسلامى ، ومخلد هذا ثائر بربرى هاجم إفريقية سنة ٣٣٣ ، وأخذها من يد الفاطميين ؛ ثم ظفر به المنصور بن القائم العبيدى سنة ٣٣٦ .

الأصل مسلم النحلة ، ودخل إفريقية فى دولة زيادة الله بن الأغلب ، وكان قد استجلبه (وإنما دعاه لحاجته إلى الطب ، والطب كان دائماً مقرونا بالفلسفة) ، وبه ظهر الطب بالمغرب ، وعرفت الفلسفة ، وكان طبيباً حاذقا متميزاً بتأليف الأدوية بصيراً بتفرقة العلل ، أشبه الأوائل فى علمه ، وجودة قريحته ، استوطن القيروان حيناً ؛ وقد ألف كتباً كثيرة كلها فى الطب .

وقد تتلمذ له فى القيروان إسحاق بن سليمان الإسرائيلى ، وأصله من مصر . ثم سكن القيروان ، ولازم إسحاق بن عمران ، وكان إسحاق بن سليمان مع فضله فى صناعة الطب بصيراً بالمنطق . متصرفاً فى ضروب المعارف ، وعمر عمرا طويلا إلى أن نيف على مائة سنة ، وقد ألف فى الطب والحكمة والمنطق ، وقد خدم الأغالبة والفاطميين ومات نحو سنة ٣٢٠ .

وأنجب هؤلاء الوافدون من الأطباء أطباء من أهل البلاد نفسها ، مثل أحمد بن إبراهيم المعروف بابن الجزار من أهل القيروان ، وقد اشتهر بالطب وخدمة العامة به . قالوا وكان عنده نحو خمسة وعشرين قنطاراً من كتب طبية وغيرها ، وكان إلى اشتغاله بالطب وتآليفه فيه مؤلفاً فى التاريخ ، فألف فى علماء زمانه ، وفى أخبار الدولة الفاطمية الخ .

* * *

ثم كان حظهم من الأدب كبيراً ، وقد مر المغرب بالدور الذى مرت به مصر عند اختلاط العرب بسكان البلاد . من وقوف الشعر إلا القليل الضعيف حتى إذا زالت روعة الفتح وكثر دخول العرب واتصالهم بالبربر ، وانتشرت اللغة العربية ، ووجد جيل نشأ فى المَرْبَى العربى أخذ الشعر يجود وربما كان خير موطن له دولة الأغالبة ، ودولة الفاطميين ، ودولة الصنهاجيين (بنى

زيرى) . ففى دولة الأغالبة كان كثير من أمرائهم أدباء ، فإبراهيم بن الأغلب نفسه كان شاعراً ، فمن شعره يفخر بانتصاره :

ما سار عزمى إلى قوم وإن كثروا ... إلا رمى شعبهم بالحزم فانصدعا
ولا أقول إذا ما الأمر نازلنى ... يا ليته كان مصروفا وقد وقعا
حتى أجلّيه قهراً بمعتزمٍ[1] ... كما يجلّى الدجى بدرٌ إذا طلعا
قوما قتلتُ وقوماً قد نفيتهمُ ... ساموا الخلاف بأرض الغرب والبدعا
كلاًّ جزيتهمُ صَدْعا بصدعهمُ ... وكل ذى عمل يجزَى بما صنعا

وكذلك حفيده أبو العباس بن أبى عِقال بن إبراهيم ، وهو الذى ولّى سحنونا الفقيه قيادة الجيش الذى فتح صقلية ، ومن شعره يقول فى الفخر أيضاً :

أنا الملك الذى أسمو بنفسى ... فأبلغ بالسمو بها السحابا

* * *

أُظل عشيرتى بجناح عزى ... وأمنحها الكرامة والثوابا
وأصطنع الرجال وأطّبيهم ... وأغفر للمسىء إذا أنابا

* * *

أنا ابن الحرب ربتنى وليداً ... إلى أن صرت ممتلئاً شبابا
لعمر أبيك ما إن عبت قومى ... وما أخشى بقومى أن أُعابا
بنيت لهم مكارم باقيات ... إذا ما صارت الدنيا خرابا

وقد اشتهر من شعراء هذه الدولة بكر بن حماد الزناتى؛ وقد رحل إلى المشرق فدخل البصرة والكوفة وبغداد ، ولقى بعض كبار شعرائها كدعبل الخزاعى وأبى تمام ، وعاد إلى القيروان ، وغلب على شعره الوعظ والزهد كقوله :

---

(١) يريد بالمعتزم الفرس الجامح .

قف بالقبور فناد الهامدين بها   من أعظمٍ بليت فيها وأجساد

* * *

أين البقاء وهذا الموت يطلبنا   هيهات هيهات يا بكر بن حمّاد
بينا ترى المرء فى لهو وفى لعب   حتى تراه على نعش وأعواد

* * *

فكلنا واقف منها على سفر   وكلنا ظاعن يحدو به الحادى
فى كل يوم ترى نعشاً نشيعه   فرائحٌ فارقَ الأحباب أو غاد(١)

* * *

أما الدولة العبيدية فكان فيها الشعر أرقى وأضخم للأسباب التى ذكرناها عند الكلام فى الأدب الفاطمى فى مصر ، وحسبها أن أنجبت فى الشعر ابن هانئ الأندلسى ؛ وقد نسب إلى الأندلس لإقامته هناك بعض الوقف وإلا فهو إفريقى من قرية من قرى المهدية ، وكان فى شعره للمعز ، كما كان أبو الطيب لسيف الدولة يصف حروبه وأسطوله ، ويدون وقائعه ، وينشر دعوته ، ويمجد خلاله ؛ وقد تقدم ذكر طرف عنه ، وكان كذلك حوله شعراء ابتلعهم كما ابتلع المتنبى من حوله ، فكان فى بلاط المعز بالمهدية من الشعراء أبو الحسن على بن محمد بن الأيادى التونسى ، وقد كان شاعراً كبيراً اتصل بالفاطميين أيام القائم والمنصور والمعز . وكذلك على بن عبد الله التونسى ، ومقداد بن الحسن الكتامى ، وابن هانئ نفسه يفخر على هؤلاء الشعراء وأمثالهم ، ويستصغر منزلتهم منه فيقول :

أرى شعراء الملك تنحت جانبى   وتنبو عن الليث المخاضُ الأوارك(٢)

---

(١) انظر المنتخب المدرسى من الأدب التونسى للأستاذ حسن حسنى عبد الوهاب .

(٢) تنحت جانبى : تطعن فى ، والمخاض : الحوامل من النوق ، والأوارك التى ترعى الأراك ، ورعى الأراك من دلائل الضعف ، يقول إن الشعراء يطعنون فى ، وهم أمامى كالنوق الضعيفة أمام الأسد .

تخب إلى مَيْدان سَبْقٍ بطاؤُها　　وتلك الظنون الـكاذبات الأوافك
رأتنى حماما فاقشعرت جلودها　　وإنى زعيم أن تلين العرائك
تسىء قوافيها وجودك محسن　　وتنشد إرْنانا ومجدك ضاحك[1]
وتُجدَى وأُكدى والمناديح جمة　　فما لى غنىّ البال وهى الصعالك[2]
أبت لى سبيل القوم فى الشعر همة　　طموح ونفس للدنية فارِك[3]

وفى الدولة الصنهاجية كان العمران قد استحكم ، والصلة بين المغرب وبين الأندلس ومصر والعالم الإسلامى كله قد تمكنت ، والحضارة قد ازدهرت .

قال ابن خلدون : « كان ملكهم أضخم ملك عرف للبربر بأفريقية وأترفه وأبذخه » ، فرقيت العلوم والفنون ، ومنها الأدب .

ومن أشهر ملوكهم المعز بن باديس قالوا : « إنه اجتمع بحضرته من أفاضل الشعراء ما لم يجتمع إلا بباب الصاحب بن عباد » وذكر أكثرهم ابن رشيق فى كتابه « أنموذج الزمان فى شعراء قيروان » .

وكان من الأمراء الصنهاجيين شعراء مجيدون من أشهرهم تميم بن المعز بن باديس — وهو غير تميم بن المعز المصرى — مَلَك إفريقية وما والاها ، وكان محباً للعلماء والشعراء مقرباً لهم ، ومن شعره :

إن نظرت مقلتى لمقلتها　　تعى مما أريد نجواه
كأنها فى الفؤاد ناظرة　　تكشف أسراره وفحواه

وكان من شعرائه الحسن بن رشيق وغيره .

وقد نبغ فى هذه الدولة كثير من الشعراء والأدباء مثل عبد الكريم النهشلى ،

---

(١) الإرنان : رفع الصوت بالبكاء ، وهذا علامة الضعف .
(٢) يقول : يعطون الكثير وأعطى القليل ، ومع ذاك أنا غنى القلب ، وهم صعاليك .
(٣) فارك : كارهة .

وكان شاعراً أديباً ناقداً ، عارفا باللغة خبيراً بأيام العرب وأشعارها . مات سنة ٤٠٥ ؛ وقد أكثر ابن رشيق من النقل عنه فى العمدة ، وذكر أن له كتابا فى الشعر .

ومثل علىّ بن أبى الرِّجال رئيس ديوان الإنشاء فى الدولة الصنهاجية ، واشتهر بالكرم وتشجيع الأدب ، وهو الذى ربّى المعز بن باديس وحبب إليه الأدب ، وهو الذى ألف له ابن رشيق كتاب « العمدة » ، وألف له ابن شرف « رسائل الانتقاد » . مات سنة ٤٢٥ .

ومثل أبى عبد الله محمد بن جعفر القزاز القيروانى كان إماماً فى اللغة ، ألف كتاب « الجامع » فى اللغة ، وهو يقارب التهذيب للأزهرى — وهو شيخ ابن رشيق ، وهو ينقل فى كتابه العمدة أقواله وما جرى له فى مجلسه من أدب ، وكان يطرح على تلاميذه عويصات المسائل ويكلفهم حلها . مات سنة ٤١٢[1] .

وأبو عبد الله عبد العزيز بن أبى سهل الخشنى الضرير ، وهو كذلك من شيوخ ابن رشيق فى الأدب . قال عنه : « كان مشهوراً بالنحو واللغة جداً ، مفتقَراً إليه فيهما ، بصيراً بغيرهما من العلوم . وكان شاعراً مطبوعا سلك طريقة أبى العتاهية فى سهولة الطبع ولطف التركيب ، ولا غناء لأحد من الشعراء الحذاق عن العرض عليه والجلوس بين يديه . مات سنة ٤٠٦ ، وقد زاد على السبعين »[2] .

ومن كبار المؤلفين فى الأدب إبراهيم بن على الحُصْرى القيروانى ، وهو صاحب كتاب زهر الآداب ، وكتاب المصون فى سر الهوى المكنون ؛ قال فيه ابن رشيق : « كان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه ، ورؤس عندهم ، وشرف لديهم ، وسارت تأليفاته ، وانثالت عليه الصلات من الجهات وله ديوان شعر[3] . مات سنة ٤١٣ .

---

(١) ترجم له ياقوت وابن خلكان . (٢) انظر ابن رشيق للميمنى .
(٣) ابن خلكان .

وكتابه زهر الآداب يدل على ذوق فى الأدب رقيق ، واطلاع واسع على ما أنتجه الأدباء من الجمل الروائع ، والرسائل البليغة .

وله ابن خالة هو أبو الحسن علىّ بن عبد الغنى الحصْرى القيروانى ، كان عالما بالقراءات ، وشاعراً ظريفاً ، وهو صاحب القصيدة المشهورة :

يا ليل الصب متى غده   أقيام الساعة موعده
رقــد السمّار فأرقه   أسف للبيـن يردده

وقد حازت شهرة كبيرة ، وعارضها كثير من الشعراء فى مختلف الأمصار إلى عصرنا هذا .

وظهرت فى المغرب حركة جيدة فى النقد الأدبى ، ووردت أول الأمر نتفاً فى كتب الأدب عندهم كقول عبد الكريم النهشلى : « قد تختلف المقامات والأزمنة والبلاد ، فيحسن فى وقت ما لا يحسن فى آخر ، ويستحسن عند أهل بلد ما لا يستحسن عند أهل غيره ، ونجد الشعراء الحذاق تقابل كل زمان بما استجيد فيه وكثر استعماله عند أهله ، بعد ألا تخرج من حسن الاستواء وحد الاعتدال وجودة الصنعة ، وربما استعملت فى بلد ألفاظ لا تستعمل كثيراً فى غيره ، كاستعمال أهل البصرة بعض كلام أهل فارس فى أشعارهم ونوادر حكاياتهم الخ » .

ومثل قول إبراهيم الحصرى : « الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع الجيد الطبع مقبول فى السمع ، قريب المثال ، بعيد المنال ، أنيق الديباجة ، رقيق الزجاجة ... يطرد ماء البديع على جنباته ، ويجول رونق الحسن فى صفحاته ... وحمل الصانع شعره على الإكراه فى التعمل بتنقيح المبانى دون إصلاح المعانى ، يعفى آثار الصنعة ، ويطفى أنوار الصبغة ، ويخرجه إلى فساد التعسف ، وقبح

التكلف . . . وأحسن ما أجرى إليه ، وأعول عليه هو التوسط بين الحالين ، والمنزلة بين المنزلتين من الطبع والصنعة » .

ثم ارتقى هذا حتى صار موضوعاً قائماً بنفسه ، وتوجت هذه الحركة بكتاب العمدة لابن رشيق ، وأعلام الكلام لابن شرف[١] ، وهما من خير الكتب فى النقد الأدبى .

وقد نقل ابن رشيق فى كتابه العمدة فن النقد من نقد شاعر خاص أو شعراء معينين — كما فعل صاحب الموازنة والوساطة — إلى نقد للشعر عامة ؛ وقد قال فيه ابن خلدون : « وهو الكتاب الذى انفرد بهذه الصناعة وأعطاها حقها ، ولم يكتب فيها أحد قبله ولا بعده مثله » .

و بعد العمدة ألف ابن رشيق كتابه « قراضة الذهب » ، وأكثر ما يتعرض فيه للسرقات الشعرية ، ومتى تجوز ، ومتى لا تجوز ، وأين تحسن وأين لا تحسن[٢] ، كما وضع ابن شرف كتابه « أعلام الكلام » ، وموضوعه مقامة طويلة كمقامات الحريرى ، تعرض بطلها لمشهورى الشعراء من المتقدمين والمحدثين يصفه فى قول قصير ، ويبين مزاياه وعيوبه فى إيجاز[٣] .

وقد كان كلاهما من القيروان ، وكانا من ندماء المعز بن باديس وشعرائه وجلسائه ؛ ولما أغار الهلالية القادمين من مصر على القيروان فرا وقالا القصائد فى رثاء القيروان . وذهب ابن رشيق إلى صقلية حيث مات بها سنة ٤٥٣ ، وذهب ابن شرف إلى الأندلس ومات بها سنة ٤٦٠ .

وقد كانا صديقين ثم دبت بينهما الخصومة فتساجلا فى الأدب كتلك

---

(١) نشر الأستاذ عبد العزيز الميمنى كتاب النتف من شعر ابن رشيق وابن شرف ، كما وضع رسالة قيمة فى ابن رشيق ، وابن شرف فانظرهما .

(٢) وقد طبع فى مصر . (٣) طبع كذلك فى مصر .

المساجلة التى كانت بين الخوارزمى ، و بديع الزمان الهمذانى .

* * *

وعجيب أمر المسلمين فى هذه العصور ، فما استقر قرارهم فى المغرب حتى أنشئوا أسطولا قويا فى البحر الأبيض فتحوا به صقلية وسائر الجزائر حولها ، وكان فتح صقلية على يد الأغالبة ؛ وقد كان بها ثلثمائة ونيف وعشرون قلعة ، ولكنها لم تثبت أمام قوة المسلمين .

قال ابن خلدون : « كان فتح صقلية أيام زيادة الله الأول بن إبراهيم بن الأغلب على يد أسد بن الفرات شيخ الفتيا . . . ثم قال : وكان المسلمون لعهد الدولة الإسلامية قد غلبوا على بحر الروم (البحر الأبيض) من جميع جوانبه وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانية قِبَلٌ بأساطيلهم بشىء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ؛ فكانت لهم المقامات المعلومات من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل مثل : ميورقة ومنورقة وسردانية وصقلية ومالطة وأقريطش وقبرص . . . والمسلمون خلال ذلك قد تغلبوا على الأكثر من لجة هذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيه جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر فى أساطيلهم من صقلية إلى البر الكبير المقابل لها . . . وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشمالى الشرقى منه من سواحل الإفرنجة والصقالبة لا يعدونها — وأساطيل المسلمين قد ضريت عليهم ضراء الأسد بفريسته » .

ولما فتحوا صقلية فسرعان ما نشروا دينهم وعلمهم ولغتهم ؛ بل إن قائد الجيش فى الفتح كان هو أسد بن الفرات العالم المالكى المشهور ومعه جماعة من وجوه أهل العلم فى تسعمائة فارس وعشرة آلاف راجل ، وما زال يفتتح فى قلاعها

حتى أصيب بجروح بالغة مات متأثراً بها ، فأتم خلفاؤه الفتح . ثم « صار أكثر أهلها مسلمين ، و بنوا بها الجوامع والمساجد »[1] ، وانتشر بها العلم ، وأصبحنا نسمع عن كثيرمن العلماء ينسبون إليها ؛ فيقولون : فلان الصقلى ، يرحل إليها علماء المسلمون يعلمون الدين واللغة ، والأدباء يشعرون ، والخليعون يقولون فى الخمر ورهبان الأديار و بناتها . فنجد المقريزى — مثلا — يقول : محمد بن الحسن بن على الكَرْكنتى الفقيه المالكى تفقه بصقلية و إفريقية ؛ وقدم الإسكندرية — وكركنت مدينة بصقلية .

والعماد الأصفهانى يعقد باباً طويلا فى القسم الثانى من الجزء الحادى عشر فى ذكر محاسن فضلاء جزيرة صقلية ، ويروى فيه شعراً صقلياً بعضه على أوزان جديدة ، كقول أبى الحسن بن أبى البِشْر فى راقصة :

وغزالٍ مشـــنَّفِ قد رثى لى بعد بُعْدى

لمّـا رأى ما لقيت

مثل روض مفوّفِ لا أبالى وهو عندى

فى حبـــه إذ ضنيت

وجهه البدر طالعاً تاه لمـــا حاز ودى

فإننى قد ســـقيت الخ

ولا ننسى القائد الكبير جوهراً الصقلى فاتح مصر ، و بانى الأزهر ، ومدوخ المغرب كله لمولاه المعز ، وهو غلام رومى الأصل من مواليد صقلية ، صار مولى للمنصور ثم للمعز ، وكان من أكفأ القواد الذين عرفهم التاريخ . بل نجد من النحاة محمد بن خراسان الصقلى ، كان مولى لبنى الأغلب ، ورحل إلى مصر ،

(١) معجم ياقوت فى صقلية .

وتعلم النحو على أبى جعفر النحاس ، وروى عنه مصنفاته ، وعاد إلى صقلية يدرس النحو ، ومات بها سنة ٣٨٦ عن ست وسبعين سنة[١] .

ومحمد بن على بن الحسن بن عبد البر الصقلى التميمى اللغوى ، ولد بصقلية ، ورحل عنها فى طلب العلم ثم عاد إليها ، وكان موجوداً سنة ٤٥٠ ، وهو أستاذ ابن القطاع الصقلى .

وفى العصر المتأخر عن عصرنا هذا أخرجت صقلية ابن حمديس الصقلى الشاعر المشهور والإمام المازرى المحدث الكبير صاحب كتاب المعلم بفوائد كتاب مسلم ، وهو منسوب إلى مازَر Mazzard بلدة بصقلية ، والإدريسى الجغرافى الشهير ، وابن ظفر الأديب مؤلف كتاب سلوان المطاع ، وابن القطاع أحد أئمة الأدب واللغة والنحو والعروض ، ومؤلف « الدرة الخطيرة ، والمختار من شعراء الجزيرة » الخ .

---

(١) انظر بغية الوعاة للسيوطى .

الباب السادس

جزيرة العرب

أسلفنا فى « فجر الإسلام » ما كان فى الحجاز من علم وفن وأسباب ذلك .

والحجاز قطر قلما يعتمد على نفسه فى العيش لقلة زرعه ونتاجه . فلما كان موطنَ الخلافة أيام الخلفاء الراشدين كانت تأتيه الأرزاق من البلاد المفتوحة كمصر والعراق ، ولما انتقلت الخلافة إلى دمشق فى العهد الأموى ظلت الخيرات تنهال على الحجاز لكثرة الفتوح وكثرة الغنائم ، وكانت عصبية الأمويين عصبية عربية تقر بالسيادة للعرب ، فكانت ترعى جزيرة العرب وسكانها ، وكان الفاتحون من العرب ، وكثير من غنائمهم يتسرب إلى بلادهم ، ولهم ديوان تقيد فيه أسماؤهم وعطاياهم . لذلك سعدت الجزيرة وأنتجت علماً وفنا .

فلما جاءت الدولة العباسية تغير الوضع فأصبح زمام الأمور أكثره فى يد الفرس ، والعمال أكثرهم من الفرس .

وزاد الأمر سوءا فى الحجاز خروج العلويين به والتفاف الناس حولهم و إرسال الخلفاء العباسيين من ينكل بهم ؛ ففى عهد المنصور خرج محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب ومعه أشراف بنى هاشم وأعيان «المدينة» فعزَل عاملها من قبل المنصور وولى عليها عاملا من قبله ، فبعث إليه المنصور جيشا كبيراً قاتله وقتله ، وقتل كثيراً ممن معه .

وفى أيام الهادى خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب واجتمع حوله آل أبى طالب وكثير غيرهم ، وأرسل الهادى جيشاً فكانت

وقعة « وجّ » بين مكة والمدينة ، ثم قتل الحسين وكثير ممن معه . وهكذا تتابعت حوادث خروج العلويين ، وثورات الحجاز ، وفى كل مرة ينكل العباسيون بهم وتزيد كراهيتهم وقبض يدهم عنهم .

فأخذت جزيرة العرب يقل شأنها شيئاً فشيئاً بغلبة العنصر الفارسى ، وإبعاد العنصر العربى وقلة المدد الذى يرسل إلى الجزيرة .

ولما جاء المعتصم وتغلب العنصر التركى كان الأمر أسوأ ، فقد « كتب إلى عماله فى الأطراف بإسقاط من فى دواوينهم من العرب وقطع العطاء عنهم ففعلوا وانحط شأن العرب من ذلك الحين .

واستمر هذا العبث بالجزيرة ، ففى خلافة المستعين أحمد بن المعتصم تغلب إسماعيل بن يوسف من أولاد على بن أبى طالب على مكة فهرب عاملها من قبل الخليفة ، وقتل إسماعيل هذا الجند وجماعة من أهل مكة ونهب منزل العامل ، ومنازل أصحاب السلطان ، وأخذ من الناس نحو مائتى ألف دينار وأخذ كسوة الكعبة وما فى الكعبة وخزائنها من الأموال ، ونهبت مكة وأحرق بعضها ، ثم خرج منها إلى المدينة فتوارى عنه عاملها ثم رجع إلى مكة فحصرها حتى مات أهلها جوعا وعطشا ، وبلغ الخبز ثلاث أواق بدرهم ، ولقى أهل مكة منه كل بلاء . ثم سار إلى جدة فحبس عن الناس الطعام ، وأخذ الأموال التى للتجار وأصحاب المراكب ، ثم وافى الموقف بعرفة فأفسد فيه كثيراً ، وكان ذلك سنة ٢٥١[٢] .

وجاء القرامطة فأفسدوا فى البلاد ، وزحفوا على مكة واستولوا عليها وارتكبوا أشنع الفظائع ، ونهبوا الحُجاج ومنعوهم من زيارة البيت الحرام ، وفى سنة ٣١٢ نكلوا بالحجاج أعظم تنكيل ونكبوا العرب أعظم نكبة شهدتها الجزيرة ،

---

(١) خطط المقريزى .　　(٢) المنتقى فى أخبار أم القرى ص ١٩٥ .

وكان عدد الذين قتلهم القرامطة فى تلك السنة من الحجاج وفى بيت الله وشوارع مكة وضواحيها ثلاثة آلاف غير الذين ماتوا جوعا ، ونهبوا من الأموال آلاف الآلاف .

وفى سنة ٣١٤ وسنة ٣١٥ وسنة ٣١٦ لم يحج إلى مكة من العراق أحد للخوف من القرامطة[1] ، وكان أبو طاهر القرمطى يقول :

أنا بالله و بالله أنا يخلق الخلق وأُفنيهم أنا

ونزعوا الحجر الأسود ، و بقى فى إحدى زوايا « الاحساء » إلى سنة ٣٣٩ حيث رده القرامطة بأمر المنصور الفاطمى — والخلافة فى بغـداد عاجزة عن إخضاعهم .

كل هذه الأحداث وأمثالها أضعفت شأن جزيرة العرب وجعلتها فى شبه عزلة وأخرتها ماديا وعلميا ، حتى إن المقدسى لما زارها فى القرن الرابع وصفها بالفقر وقلة العلم .

ووصف مذاهبهم الدينية فقال : « إن مذاهبهم بمكة وتهامة وصنعاء سنة ، ونواحى صنعاء ونواحيها مع سواد عمان شراة (خوارج) غالبة ، وهَجَرَ وصعدة شيعة . . وشيعة عمان وصعدة وأهل السروات وسواحل الحرمين معتزلة . . . والغالب على صنعاء وصعدة أصحاب أبى حنيفة ، والجوامع فى أيديهم ، وفى نواحى نجد اليمن مذهب سفيان . . والعمل بهجر على مذهب القرامطة ، و بعُمان داودية (على مذهب أهل الظاهر) لهم مجالس .

ووصف لغتهم فقال : وأهل هذا الإقليم لغتهم العربية إلا بصحار فإن نداءهم وكلامهم بالفارسية ، وأكثر أهل عدن وجدة فرس . . وأهل عدن يقولون

(١) أخبار مكة طبعة وستنفيلد : ٢/٢٤٥ .

لرجليه رجلينه ويديه يدينه وقس عليه . . . وجميع لغات العرب موجودة فى بوادى هذه الجزيرة ، إلا أن أصح لغة بها لغة هذيل ، ثم النجديين ، ثم بقية الحجاز إلا الأحقاف فإن لسانهم وحش »[1] .

ومع هذا فقد كان فى الحجاز حركة دينية فى الفقه والحديث لا بأس بها بفضل تتابع المحدّثين الذين كانوا يروون أقوال النبى وأعماله محدثا عن محدث ، وقد كان هذا الإقليم أخصب الأقاليم فى هذا الموضوع فظل علمه يتوارث ، ثم كانت هذه البلاد المقدسة تأوى إليها أفئدة كثير من العلماء يحصّلون العلم ويفيدونه ويعتزون بجوار الحرم المكى أو قبر الرسول ، ويفضلون الإقامة فيهما فيكونون مصدر علم . وقد رأينا فى تراجم كثير من المحدثين أن كان فى برنامجهم الرحلة إلى الحجاز ورواية الحديث عن ساكنيه ، وإطالتهم الإقامة فيه ، وكان للإمام مالك وتلاميذه من بعده فضل كبير فى الحركة الفقهية .

فكان فى مكة أمثال أبى بكر عبد الله بن الزبير الحميدى الأسدى المكى أحد شيوخ البخارى الذين أخذ عنهم فى مكة . قال يعقوب بن سفيان فيه : ما لقيت أنصح للإسلام وأهله منه . مات بمكة سنة ٢١٩ وكثر تلاميذه فى مكة ممن رووا عنه وأخذوا علمه .

كما نبغ بالمدينة أبو إسحاق إبراهيم بن المنذر بن عبد الله الأسدى ، أحد كبار علماء المدينة ومجتهديها مات سنة ٢٣٦ . وتتابع بعده تلاميذه . ويطول بنا القول لو عددنا المحدثين المكيين والمدنيين فى القرن الثالث والرابع الهجرى فهم كثير ، منهم من كان من الحجاز نفسه ومنهم الراحل إليه المتوطن فيه .

ثم انتشر فى اليمن فقه الزيدية ، وهم أتباع زيد بن على زين العابدين

---

(١) أحسن التقاسيم : ٩٤ وما بعدها ، والعبارة فى بعض المواضع مضطربة .

ابن الحسين بن على بن أبى طالب ، ومذهبهم فى الأصول قريب من مذهب الاعتزال ، فهم يقولون بالعدل والتوحيد كالمعتزلة ، و بوجوب الخروج على الظلمة كالخوارج ولهم فى الفقه اجتهاد يخالفون فى بعض الأحكام المذاهب الأر بعة ، وقد اشتهر منهم أئمة فى اليمن ، اجتهدوا على أصول مذهبهم كالإمام يحيى بن الحسين الزاهد الرسى المتوفى سنة ٢٩٨ ، والإمام الناصر للحق ، ألف كتبا على مذهب الز يدية والقاسم بن إبراهيم العلوى صاحب صعدة المتوفى سنة ٢٨٠ ، وأبو الحسن الصليحى ملك اليمن سنة ٤٥٥ ، وكان فقيها ز يديا كبيراً ، وقتل سنة ٤٧٣ . وعلى الجملة فهم من قديم كان كثيراً ما يجمع ملكهم بين تولى أمور الدولة والاجتهاد الدينى على المذهب الز يدى .

* * *

وقد بقيت الأندلس وسنفرد لها جزءاً خاصا بها إن شاء الله .

* * *

وقد كان من أهم مظاهر الحركة العلمية التى تدعو إلى الإعجاب فى هذا العصر الرحلات ، فقد أصبح تقليدا للعالم أن يرحل و يلاقى العلماء و يأخذ منهم و يروى عنهم مع عناء الأسفار وفقر العلماء غالبا .

وقد بلغ الغاية فى ذلك المحدّثون ، فقد كانوا حركة دائمة يرحلون من أقصى الأرض إلى أقصاها لطلب الحديث وجمعه . وما يشتهر عالم فى بلدة بالحديث وضبطه وجمعه حتى يرحل إليه العلماء من كل صوب . خذ لذلك — مثلا — محمد بن إسماعيل البخارى يرحل من بخارى إلى مدن خراسان إلى الجبال إلى العراق ومدنه كلها إلى الحجاز إلى الشام إلى مصر ، وفى كل مدينة يتحرى حالة علمائها ، و يأخذ عمن وثق بهم ، وليس البخارى إلاّ مثلا واحداً من أمثلة كثيرة لا تحصى ،

فقلَّ أن تجد محدثاً كبيراً إلا رحل هذه الرحلات وأمثالها حتى قد يقطع المحدّث المسافات الواسعة لرواية حديث واحد وضبطه . وتقرأ تراجم العلماء فى كتاب كتاريخ بغداد ، فيأخذك العجب من نشاط العلماء ورحلاتهم واحتقارهم لمشاق السفر ومتاعب الفقر فى سبيل العلم ومعرفتهم كل مصر وكل بلدة ومن فيها من العلماء وما فيها من حديث .

وليس الأمر مقصوراً على المحدّثين ؛ فهكذا كان الشأن فى كل علم وكل فن . فأبو جعفر النحاس يذهب من مصر إلى العراق ليأخذ النحو عن أهلها ، وابن بابشاذ المصرى يذهب إلى بغداد فى تجارة الجواهر ، ويأخذ النحو عن رجالها ، ومن بالقيروان يذهب إلى المدينة ليأخذ عن تلاميذ مالك وإلى العراق ليأخذ عن تلاميذ محمد بن الحسن ، ويسمع الأدباء والشعراء بسيف الدولة فيكون فى بلاطه الخوارزمى وأبو على الفارسى وابن جنى الموصلى ؛ والمتنبى يوما بحلب ويوما بمصر ويوما بالعراق ويوما بشيراز ؛ وابن بطلان الطبيب البغدادى يناظر ابن رضوان المصرى فإذا طالت المناظرة رحل إليه من بغداد إلى مصر .
وإذا فتحت بلدة فسرعان ما يذهب إليها العلماء فى الفقه والأدب يعلمون أهلها الدين واللغة والأدب ، حتى تصبح بعد قليل مركزاً من مراكز الإنتاج العلمى كالذى رأينا فى صقلية ، تُفْتح فيرحل إليها العلماء وتدوّى فيها حركة العلم وبعد قليل نراها مركز إنتاج علمى وأدبى عجيب .

والحكومات من جانبها تنشئ الطرق ، وتقيم الرباطات والمخافر لحاجتها الشديدة إلى تنظيم البريد ، وتسهيل التجارة ؛ فكان العلماء فى رحلاتهم ينتفعون بهذه المزايا ، كما ينتهزون الفرص لخروج القوافل إلى الحج ، فينتظمون فى سلك الحجاج ، ويرحلون إلى البلدان التى يريدونها .

وكانت الرباطات كثيرة فى مراحل المسافرين ، ويذكر الأصطخرى أنه كان فى بلاد ما وراء النهر ما يزيد على عشرة آلاف رباط ، فى كثير منها إذا نزل النازل قدم له طعامه ، وعلف دابته إن احتاج لذلك .

وقد زودت هذه الرباطات بالماء لحاجة المسافر إليه ، وعُدَّت إقامة الرباطات وتزويدها من الأعمال الخيرية التى يقف عليها المسلمون بعض أوقافهم .

وفى بعض المراحل تقوم الأديار مقام الرباطات ، فينزلها بعض الراحلين ، ويجدون فيها راحتهم ومطالبهم ، وأكثر ما استغلها الأدباء لمرحهم وشغفهم بخمورها المعتقة ، وولوعهم بالجمال .

كل هذا جعل المملكة الإسلامية من مشرقها إلى مغربها كأنها وحدة مهما تعدد ملوكها وحكوماتها ، فالعالم والأديب والفنان والتاجر لا يعبئون بالحدود التى ترسمها السياسة ، ويرون أن اللغة والدين تكسر حواجز السياسة .

وكان لهذا أثره الكبير فى العلم والأدب ، ومن أوضح هذه الآثار ضعف الشخصية الإقليمية ، فليس علم مصر وأدبها متميزاً كثيراً عن علم العراق وأدبه ولا عن علم خراسان وما وراء النهر والسند وأدبها ، كلها متقاربة لأن رحلة العلماء وشدة الاتصال قربت بين الفروق ، وما يظهر امتياز فى ناحية إلا استمدته الناحية الأخرى وحذقته واستغلته ، فالفقه المالكى فى المدينة ، والفقه الحنفى فى العراق يؤلف بينهما أمثال محمد بن إدريس الشافعى ، وأسد بن الفرات المالكى ، والنحو العراقى يحمله إلى مصر وإلى المغرب الراحلون إلى العراق والمتعلمون على أساتذته ، والعائدون بعد ذلك منه ، والشعراء على أبواب الملوك والأمراء يتنقلون من بلاط إلى بلاط فيوحدون مناهج النَّظْم ، والوراقون وتجار الكتب يحملون كتاب الأغانى ورسائل إخوان الصفا من العراق إلى الأندلس ، ومكاتب مصر ومكاتب

الأندلس ، والقيروان ، والمهدية ، وفاس ، وخراسان ، وغزنة تضم لى خزائنها أهم ما أنتجه العالم الإسلامى بقطع النظر عن إقليمه .

بل والعلماء أنفسهم نرى شطرا من عمرهم قضوه فى بلد وشطرا فى بلد آخر ، شطر فى مصر وشطر فى الشام ، أو شطر فى الشام وشطر فى العراق ، أو شطر فى العراق وشطر فى فارس ، وهكذا حتى ليصعب فى كثير من الأحيان عدّ العالم مصريا أو شاميا ، وعراقيا أم فارسيا . ومؤلفو التراجم أدركوا هذا المعنى فجمع أكثرهم علماء العالم الإسلامى على اعتبار أنهم نتاج مملكة واحدة كقطر واحد .

نعم توجد شخصية لنتاج كل إقليم كالأدب المصرى والشامى والعراقى والفارسى ، والطب المصرى والشامى والعراقى والفارسى وهكذا ، ولكنها شخصية غامضة خفية لا ترى إلا بالمنظار الدقيق والبحث الطويل . وأكثر ما يظهر هذا فى منبع الظاهرة العلمية والأدبية حين تظهر ، فظهورها فى إقليم خاضع ولا بد لمؤثرات اجتماعية فى هذا الإقليم كظهور المقامات فى إقليم فارس والموشحات بالأندلس ، والأسلوب المسجوع المحلى بالبديع فى الرى وما حولها ، والرسائل الشاملة لفروع الفلسفة — كرسائل إخوان الصفا — فى البصرة ؛ كل ذلك له علل اجتماعية وتاريخية وإقليمية مرتبطة بهذه الظواهر ارتباط السبب بالمسبب ، ولكن لا تلبث بعد ظهورها أن تقلَّد فى سائر الأمصار ، ولو لم تكن العلة الأصلية موجودة ، وتقوم علة التقليد مقام علة الابتكار ، وتختفى الشخصية الأولى وراء المظهر العام للوحدة المشتركة .

وبعد — فهذا عرض سريع للحركة العلمية والأدبية ، يتلوه إن شاء الله البحث التفصيلى فى تاريخ كل علم ومدى تقدمه ، ومركز هذا التقدم ، وهذا هو موضوع الجزء الثانى من « ظهر الإسلام » أعاننا الله على إتمامه .

فهرس الأعلام

(باب الألف)

(باب الباء)

(باب التاء)

(باب الثاء)

(باب الجيم)

(باب الحاء)

(باب الخاء)

(باب الشين)

(باب الصاد)

(باب الطاء)

(باب الظاء)

(باب العين)

(باب الغين)

(باب الفاء)

(باب القاف)

(باب الكاف)

(باب اللام)

(باب الميم)

(باب النون)

(باب الهاء)

(باب الواو)

(باب الياء)

فهرس أسماء الأمكنة والبقاع والبلدان

(باب التاء)

(باب الجيم)

(باب الحاء)

(باب الخاء)

(باب الدال)

(باب الراء)

(باب الزاى)

(باب السين)

(باب الشين)

(باب الصاد)

(باب الطاء)

(باب العين)

(باب الغين)

(باب الفاء)

(باب القاف)

(باب النون)

(باب الهاء)

(باب الواو)

(باب الياء)



ظهر الإسلام

الجزء الثاني

بحث فى تاريخ العلوم والآداب والفنون
فى القرن الرابع الهجرى

تأليف

أحمد أمين

الطبعة الثالثة

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الخامسة بـيروت

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ، والصلاة والسلام على رسول الله .

هذا هو الجزء الثانى من ظهر الإسلام . وهو على نمط ضحى الإسلام . يبحث فى تاريخ العلوم والآداب والفنون فى القرن الرابع الهجرى . وإذا كان فى الأجل متسع : ألّفت الجزء الثالث فى الأندلس ، ثم الجزء الرابع فى العقائد . ففى هذا العصر ، نضجت الحياة العلمية فى الأندلس ، وحق لها أن تسجل . ولعل القارئ يأخذ علينا أننا لم نستخدم النصوص كما استخدمناها فى فجر الإسلام وضحاه ، فقد اعتدنا أن ننقل النص بحروفه ، ثم نستنتج منه ما أمكننا الاستنتاج . أما فى هذا الجزء ، فقد هضمنا ما قرأنا ، ثم حكينا ما خلص لنا من غير ذكر نص ، إلا فى القليل النادر ، واكتفينا بذكر المراجع عقب كل باب .

وعذرنا فى ذلك ضعف الصحة ، وعدم قدرتنا على إثبات النصوص كما قرأناها أو سمعناها . على أن هذه الطريقة إنما اتبعت لكى يصدق القارئ المؤلف فى تأليفه . فإذا كان قراؤنا لم يصدقونا مما سبق ، فعلينا العفاء . وإذا صدقونا اكتفوا منا بمسلكنا فى هذا الجزء . وربما كررت بعض أشياء فى هذا الجزء والذى قبله ، فعذرنا فى ذلك أن الإنسان موضع النسيان .

ولا يدرى إلا الله ماذا لقينا من عناء فى بعض الأبواب ، كالكلام على إخوان الصفاء ، فبعضهم يرى أنهم شيعة ، و بعضهم يرى أنهم ليسوا بشيعة ، فاضطررنا إلى مراجعة أربعة أجزاء كبار ، لنقف على موضوعات الكتاب أولا ، ومعرفة منحى المؤلفين هل هم شيعة أو غير شيعة ثانياً ، حتى استخلصنا الرأى فى ذلك . وكالخلاف بين الصوفية والفقهاء . فقد كانت مسألة دقيقة تحتاج إلى دراسة عميقة ، إلى غير ذلك .

هذا مع نهْى الأطباء لنا عن النظر فى الكتب ، ولكننا اعتدنا أن نعتمد فى الحياة على القراءة والتأليف . وما قيمة الحياة من غير ذلك ؟

ولسنا نطالب جزاء على ما بذلنا من جهد إلا من الله . والله يوفقنا فى هذا الجزء وما بعده كالذى وفقنا فيما قبله .

القاهرة فى ١٩٥٢/١١/٣ أحمد أمين

محتويات الكتاب

صفحة



البيئـــة الاجتماعية

فى القرن الرابع الهجرى

البيئة الاجتماعية فى القرن الرابع الهجرى

فى نحو سنة ٣٢٤ هـ (٩٣٥ م) ، أصيب العالم الإسلامى بانقسام كبير ، حتى كأنه عقد انفرط ، أو صخرة تفتتت .

نعم ، كان قد انفصل قبل ذلك عن العالم الإسلامى خراسان والمغرب ، ولكن لم يتمزق هذا التمزق إلا فى نحو هذا العام ، فكأن الممالك قد لاحظت هذه الفرقة فقلدتها . وربما دعاهم إلى ذلك أيضاً أنهم رأوا بغداد قد صارت فى يد الأتراك الظالمين ، يظلمون ويعسفون ، فكيف يخضعون لهم ، ويسلمون أنفسهم لظلمهم ، فاستقلوا . فصارت فارس والرّين وأصبهان والجبل فى أيدى بنى بُوَيْه ، وكِرْمان فى يد محمد بن إلياس ، والموصل وديار بنى ربيعة وديار بكر وديار مضر فى أيدى بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن محمد بن طُغْج الإخشيد ، والمغرب وأفريقيا فى يد الفاطميين ، والأندلس فى يد عبد الرحمن الناصر . وخراسان فى يد نصر بن أحمد السامانى ، والأهواز وواسط والبصرة فى يد البريديّين ، واليمامة والبحرين فى يد القرامطة ، وطبرستان وجرجان فى يد الديلم ، ولم يبق للخلافة العباسية إلا بغداد . ولكن ما أسسه أبو جعفر المنصور والمهدى من خلق وسائل تحمل الناس على تقديس الخلافة العباسية جعل كثيراً من ولاة هذه الأقطار المستقلة يطلبون مسالمة الخليفة العباسى ، والطاعة الاسمية له — مع أنهم أقدر منه .

ولكن ، والحق يقال ، كانت المملكة الإسلامية كلها وطنا للمسلمين

جميعاً ، يرحّب بهم حيثما رحلوا . وكان العالم ينقسم عندهم إلى قسمين : دار إسلام ، ودار حرب . فالعلماء والمحدّثون والجغرافيون يرحلون فى البلاد الإسلامية بسهولة كما يشاؤون ، كالذى نرى فى رحلة ابن بطوطة وابن جبير فى القرون الوسطى ، و بين الأقطار الإسلامية المختلفة من صلة وثيقة . وكلها وطن للمسلم .

ولئن عدّ هذا ضعفاً من الناحية السياسية ، فإنه لا يعد ضعفاً من الناحية العلمية . فالمملكة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى كانت أعلى شأناً فى العلم من القرون التى كانت قبلها . ولئن كانت الثمار السياسية قد تساقطت فى القرن الرابع ، فالثمار العلمية قد نضجت فيه . والسبب فى ذلك أن الإمارات الإسلامية المختلفة كانت تتبارى فى تجميل موطنها بالعلماء والأدباء ، وتتفاخر بهم . وهذا أكسبهم التحبب إلى العلماء والإغداق عليهم . وسبب آخر ، وهو أن انفصال هذه الإمارات عن الدولة العباسية جعلها مستقلة فى مالها لا ترسله إلى بغداد ، بل تغدقه على أهلها . والعلم دائما متأثر بالمال . فهذا جعل كثيراً من العلماء ينعمون فى ظل هذا الاستقلال أكثر مما كانوا ينعمون فى ظل الوحدة . فقد كان الشاعر مثلا لا يظهر اسمه إلا إذا رحل إلى بغداد ، فصار يلمع اسمه فى بلده ، أو على العموم خارج بغداد ، كالمتنبى ونحوه . بل كان علماء بغداد أنفسهم يرحلون إلى مصر وغيرها كما فعل عبد الوهاب المالكى ، وكما فعل أبو نواس وأبو تمام .

وفى هذا العصر نبتت فكرة جديدة ظل المسلمون يعتنقونها قروناً طويلة ، وهى أنه : مَن ملك مكة والمدينة أو بعبارة أخرى الحرمين الشريفين ، فهذا أحق الناس بالخلافة .

فنحن نستنتج من هذا أن العلم والسياسة لا يتمشيان جنباً إلى جنب ، حتى إذا ارتقى هذا ارتقى ذاك ، بل قد يكون الأمر على العكس . قد يكون

الضعف السياسى متمشيا مع زهو العلم ؛ وهذا يسلمنا إلى أن القول بتقسيم تاريخ المملكة الإسلامية إلى عصور ، يجعل لكل عصر مميزات من قوة أو ضعف ، لا ينطبق تمام الانطباق على الحياة العلمية . فقد تنتهى دولة مّا سياسيا ، وتبدأ دولة جديدة ، على حين أن الحياة العلمية مستمرة ، لم تنته ولم تذبل . فالتقسيم التاريخى إلى دولة أموية ودولة عباسية أولى ، ودولة عباسية ثانية لا ينطبق إلا على السياسة ؛ وهذا الانقسام كان له أثر حسن فى إمكان المسلمين صدّ غارات الصليبيين . ولو أتى الصليبيون والبلاد كلها فى يد العباسيين الضعفاء ما استطاعوا ردّهم ، ولكنهم أتوا والدولة الحمدانية فى قوّتها والدولة الصلاحية فى ذروتها ، فاستطاعوا ردّهم .

* * *

أما بغداد فكانت فى يد الخلفاء العباسيين اسماً ، وفى يد جبابرة الأتراك فعلا . فكان هؤلاء الأتراك يختارون من بنى العباس من أنسوا منه صغر السنّ أو ضعف الشخصية ، فيجعلونه خليفة حتى لا يشاركهم فى سلطانهم . وأحياناً يخيب ظنهم فيشاركهم فى سلطانهم ، أو يتمرد عليهم ، فينكلون به وينتقمون منه .

وعلى الجملة فقد كان الخلفاء العباسيون آخر الأمر بالنسبة لأبى جعفر المنصور مثلا وعبد الملك بن مروان ومعاوية كأقزام بجوار عمالقة . وفى هذا العهد مثلا قد تولى الخلافة المقتدر ، وكانت أمه رومية ، وفيها المهارة الرومية ، فوضعت يدها على الدولة ، ودبرت أمور البلاد بقوة وحزم ، تولى وتعزل ، وتربى ابنها تربية طيبة ، وتمنع مؤنساً التركى من التدخل . فلما ضاق ذرعا بذلك دبَّر مؤامرة لقتل المقتدر فذبح بالسيف ، ونزعت عنه ثيابه حتى سراويله ، حتى مرّ عليه رجل من العامة فستر عورته بالحشيش . ثم تولى أخوه من أبيه القادرُ ، وتحروا أن يختاروه

ممن ليس له أم قوية كأم المقتدر . ومع ذلك قامت ثورة أريد بها خَلْع القادر ، فلم تنجح ، فقضَى القادر على مؤنس ، فطلب أصحاب مؤنس منه أن يخلع نفسه فأبى ، نخلع ، وسملت عينه لأول مرة فى تاريخ الإسلام . وشوهد بعد ذلك يسأل الصدقة على باب الجامع ، ثم عين الراضى ابن أخى القادر ، وكان أديباً معروفا .

ثم ارتقى عرش الخلافة بعده أخوه المتقى . فغدر به توزون التركى ، وسمل عينه أيضاً . ثم خلفه المستكفى وكانت أمه رومية أيضاً ، فأراد البُوَيْهيُّون أن يخلعوه ، نخلع نفسه ، ولكنه اشترط عليهم أن لا يقطعوا شيئاً من أعضائه . ولكن أخاه المطيع أبى إلا أن تُسْمَل عينه أيضاً . وانتهى الأمر أخيراً إلى أن يتخلى الخلفاء عن السلطة الفعلية و يكتفوا بالمظهر .

* * *

ومن مظاهر هذا العصر الخلاف الشديد بين الفقهاء بعضهم مع بعض ، و بين السنية والشيعة ، حتى جرّوا البلاد إلى الخراب . فكل مملكة تقسمتها المذاهب المختلفة ، وكان النزاع شديداً بين بعضهم و بعض . وكان الشافعية مشهورين بالشغب والتألب على خصومهم ؛ ومن مثل ذلك ما حكى بعض المؤرخين من أن الحنابلة قد بنوا مسجداً ببغداد ، واستعانوا بالعميان الذين كانوا يأوون فى هذا المسجد . فإذا مرّ بهم شافعى ضربوه بعصيهم حتى يكاد يموت .

وانتشر مذهب الشافعى فى مكة والمدينة ، واشتهر مذهب أبى حنيفة فى العراق . وكان أكثر الفقهاء فى مصر من أتباع مالك ، وكذلك انتشر مذهب مالك فى المغرب والأندلس . و يحكون أنه لما توفى ابن جرير الطبرى المؤرخ الكبير ، دفن بداره ليلا سرا لأن العامة اجتمعت ومنعت دفنه نهاراً ، لتألب الحنابلة عليه ، إذ ألف كتاباً فى اختلاف الفقهاء مالك والشافعى وأبى حنيفة ، ولم يذكر فيه خلاف الحنابلة ، فلما سئل عن أحمد بن حنبل قال إنه محدث

لا فقيه . ويحكى لنا ياقوت فى معجم البلدان أن بلاداً كثيرة خربت بسبب الخلاف فى المذاهب ، وتعصب كل لمذهبه . هذا من جهة . ومن جهة أخرى كان الخلاف شديداً بين الشيعة والسنية ، فالخلفاء العباسيون ومن تبعهم سنيون يتعصبون للسنية . والفاطميون فى مصر والشام والمغرب ، والحمدانيون فى ديار ربيعة وبكر ومضر ، وبنو بُوَيه فى العراق وغيرهم يتشيعون . وكانت الكوفة وبها قبر علىّ أكبر مركز للشيعة . حتى قال بعضهم : « من أراد الشهادة فليدخل دار البِطّيخ بالكوفة ، وليقل رحم الله عثمان » وروى أن أبا بكر الثورى المتوفى سنة ٣٣٠ هـ روى خبراً يمس الإمام عليًا ، فطلب ليقتل فاستتر . واشتهرت « قُمْ » فى إيران بالغلوّ فى التشيع ، حتى ليحكون أن والياً سنيًا ولّى عليهم ، فعجب من أنه لا يسمى فيهم أحد أبا بكر أو عمر . وكان يناهضهم أهل أصبهان إذ يتعصبون للسنية . فثارت مرة فتنة بين أهل أصبهان وأهل قُمْ ، لأن رجلا من أهل قُمْ سبّ الصحابة الخ .

وعلى العموم فقد كان الخلاف بين السنية والشيعة خلافا شديداً . والسبب فيه اختلافهم فى النظر إلى الخلافة ، وهى مسألة سياسية صبغت باللون الدينى . فالشيعة يرون أن عليا ونسله لهم الحق فى الخلافة دون غيرهم ، فخلافة الأمويين والعباسيين خلافة باطلة . والخليفة رئيس المسلمين ، وله وظيفة أخرى ، وهى أنه معلم المسلمين ، لأنه معصوم ، ويتلقى العلم بطريق الوراثة ، وما أودع فيه من الروحانية . وقد خصهم الله بمزايا غير مزايا الإنسان ، وأن الخلافة لهم وراثة . تنقلت من آدم إلى أن وصلت إليهم ، وأن النور انقسم إلى قسمين : قسم نزل على عبد الله والد النبى ، وقسم نزل على عبد المطلب ، ثم انتقل إلى أبى طالب ثم إلى علىّ ، ومن علىّ إلى ذريته . وهذا النور الموروث يجعل إمام كل عصر معصوما

فتجعل له قوة روحانية لا نظير لها فى البشر . ومن أجل ذلك أنكروا الخلافة لغير هؤلاء .

فهذا الخلاف بين أتباع المذاهب من جهة ، و بين الشيعة والسنة جعل البلاد الإسلامية ناراً مشتعلة ، فكل يوم نسمع هياجا من السنيين لأن شيعيا سب صحابة ، ونسمع هياجا من الشيعه لأن أحداً مسّ عليا أو أحد الأئمة . حتى إن بعض العلماء الكبار من علماء بغداد حرّم على نفسه المشى بالكَرْخ ، لأنه كان يسمع فيها سبّ الصحابة . وعاقب أحد الفاطميين رجلا أشد عقوبة لأنه وجد عنده كتاب الموطأ للإمام مالك ، وهذا مما كان سببه ضيق العقل .

وأراد الفاطميون أن يمدوا ملكهم إلى العراق وما حولها ، فكان القتال الشديد ، والخصومة الشديدة ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وليس بعجيب أن يكون الخلاف بين الشيعة والسنية والمذاهب المختلفة فى تلك العصور المظلمة . إنما العجيب أن يبقى هذا الخلاف على مدى التاريخ إلى اليوم .

* * *

وكان من أكبر مظاهر هذا العصر القول بسدّ باب الاجتهاد ، ولم يكن سدّه بناء على مجلس اجتمع فيه الفقهاء وقرروا فيه إقفال باب الاجتهاد ، وعمل بذلك محضر وزع على الأمصار . إنما كان شعوراً عاما بالضعف والنقص ، ونوعا من التقديس للفقهاء السابقين . ومن ذلك الحين ، أعنى القرن الرابع الهجرى ، وقف سير التشريع الإسلامى ، ومضى عصر الابتكار ، و بدأ عصر التحجّر ، وأصبح أصحاب المذاهب الأوّلون كأنهم معصومون ، وأصبح الفقيه لا يستطيع الحكم فى مسألة إلا إذا كانت مسألة جزئية تطبيقاً على قاعدة كلية ، قالها إمامه من قبله . وهذا

هو الذى يسمى اجتهاد مذهب . أما قبل ذلك فكان الاجتهاد مباحا ، ولم يكن مقصوراً على المذاهب الأربعة : فكان هناك مذهب أبى سفيان الثورى ، ومذهب الأوزاعى ، ومذهب الظاهرية ، وغيرها من عشرات المذاهب . بل حكى أن بعض العلماء كان لا يرضى أن يتبع مذهباً من المذاهب ، بل يجتهد لنفسه . فنى أوائل القرن الرابع تجمدت المذاهب ، واقتصر فيها على المذاهب الأربعة وأبطل كما قيل نحو خمسمائة مذهب . ولذلك وقف التشريع تقريباً من هذا التاريخ ، ورمى الإسلام بالجمود .

بل إن ذلك أعدى العلوم والفنون الأخرى ؛ حتى كأن الاجتهاد الذى مُنع هو الاجتهاد فى كل علم وفن . فلم يكن أدب غير الأدب القديم ، ولا لغة غير الألفاظ القديمة . حتى كأن العالم الإسلامى كله أصيب بالعقم .

وعدّ من ينتقل من مذهب إلى مذهب مرتكباً لجريمة ، ومن يرى رأياً غير رأى إمامه خارجا عن المألوف . حتى طُلب أخيراً مرّة من العلماء أن يتخيروا مذهباً من المذاهب المختلفة للقضاء بمقتضاه ، فرفضوا . فكانت النتيجة اللجوء إلى القانون الفرنسى .

* * *

ثم كانت الحالة الاقتصادية على أسوأ ما يكون . فثروة الأمة ليست موزعة توزيعاً عادلا ، ولا شبه عادل . أموال تتدفق على الملوك والأمراء ومن يلوذ بهم ، وفقر مدقع لباقى أفراد الشعب .

وكل دَخل الدولة هو الجزية تؤخذ على رؤوس أهل الذمة ومن الزكاة ، ومما يؤخذ على الأراضى الزراعية ، ومما يفرض من ضرائب جديدة غير هذه . وكثرت المصادرات عند احتياج الخلفاء والأمراء للأموال . ولذلك شاعت عادة

خزن الأموال وإخفائها فى غير مظانها ، كالدفن فى الأرض ونحو ذلك . حتى حكوا أنه من حسن حظ أمير من بُوَيه أن احتاج إلى مال كثير يصرفه على الجند ، وإلا شغبوا ، فصادف أن رأى ثعباناً يختبئ فى السقف ، فأمر بالبحث عنه ، فوجدت غرفة فوق السقف وفوقها دور آخر علوى ووجدت هذه الغرفة مملوءة بالذهب المخزون فى الخفاء ففرّج ذلك كربه ، وأزال شدته . وكم وجد فى الحيطان وتحت الأرض من أموال مخزونة فى القدور !

وقد ألف أحد الظرفاء كتاباً سماه « الفلاكة والمفلوكين » أى الفقر والفقراء . حكى فيه أمثلة لكثير من العلماء الذين أصيبوا بالفقر . من ذلك ما حكاه عن التبريزى الأديب المشهور من أنه أراد عالما يشرح له كتاباً معجما فوُصف له أبو العلاء المعرى وكان بعيداً عنه ، فحمل الكتاب فى خُرْج على ظهره ، ومشى طويلا ، حتى بلّل العرق الكتاب وأتلفه . وكان يظن بعد ذلك أنه أصابه مطر . ووجدت أشعار كثيرة فى هذا العصر من جراء هذا يذكرون فيها أن الفقر يلازم العقل والغنى يلازم الجهل ، مثل الذى يقول :

أنّى رأيت الدهر فى حكمه يمنح حظّ العاقِل الجاهلاَ
وما أرانى نائلا ثروَةً كأنّه يحسبنى عاقلا

ومثل قوله :

وقائِلَةٍ ما بالُ مثلك خاملاً أأنت ضعيفُ الرأى أم أنت عَاجِزُ
فقلت لها : ذنبِى إلَى القوم أنّنِى لِمَا لَمْ يَحُوزُوهُ مِن المجْدِ حائز
وما فاتنى شىءٌ سِوَى الحظ وحده وأما المعالى فهْى عِندى غَرائِزُ

إلى كثير من أمثال ذلك .

وشاع بين الناس فى ذلك العصر مصادرة المواريث ، فقال ابن المعتز فى أرجوزته :

وويلُ من مات أبوه مُوسرا ... أليس هـذا مُحكما مشهَّرا
وطال فى دار البـلاء سَجْنُه ... وقيل من يدرى بأنك ابنـه
فقال جيرانى ومَن يَعْرِفُني ... فَنَتَفُوا سبَالَه حَتَّى فَنِي
وأسرفوا فى لَكْمِهِ ودفعه ... وانطلقت أكفهُم فى صَفْعِه
ولم يَزَلْ فى أضيَقِ الحُبُوسِ ... حتى رَمَى لهمْ بالكِيسِ

وعُيِّن أبو حُسَيْن الرَّقِّى قاضيا على حلب فكان يصادر التركات ويقول التركة لسيف الدولة ، وليس لأبى الحسين إلا أخذ الجُعَالة .

وشاع بين الناس : « مَنْ هَلَكْ ، فلسيف الدولة ما ملك » . ولذلك اجتهد الحكام أن ينكروا الوراثة ويجعلوا من مات مات عن غير وارث ، ليستولى على تركته .

وكثيراً ما كان يدّعى على التجار الكبار أن عندهم ودائع للسلطان حتى قال ابن المعتز فى هذه الأرجوزة :

وتاجرٍ ذى جواهر ومالِ ... كان من الله بأحْسَنَ حالِ
قيل له عنـدك للسلطان ... ودائعٌ غالية الأثمان
فقال لا والله ما عنـدى له ... صغيرةٌ من ذا ولا جليلَه
وإنما ربحتُ فى التجارَة ... ولم أكُنْ فى المال ذا خسارَة
فدخَّنوه بِدُخَان التِّبْن ... وأوقدوه بِثِفَالِ اللَّبْن[1]
حتى إذا مَلّ الحياةَ وَضَجَرْ ... وقال ليت المال جَمْعًا فى سَقَرْ
أعطاهُم ما طلبوا فأطْلِقَا ... يستعملُ المَشْىَ ويمشِى العَنَقَا[2]

* * *

(١) الثفال : جلد يبسط تحت الطاحون ليسقط عليه الدقيق
(٢) العنق : الإسراع فى السير .

ويحكون أن الإخشيد صاحب مصر كان يصادر خاصته وعماله وأصحابه فى هدوء وبرود . وكان يأخذ غلمانهم بسلاحهم ودوابّهم وثيابهم . فإذا سَلِمَ أحد من مصادرته حيّا أخذ ماله بعد وفاته .

وقد توفّى عفّان بن سليمان أكبر تاجر فى مصر فى زمانه ، فأخذ الإخشيد من تركته نحو مائة ألف دينار . ولما مات الصاحب بن عبّاد بعد أن خدم فخر الدولة البُوَيهى أرسل الأمير من أحاط بتركته ، ومن ذلك كان كثير من الأغنياء يودعون أموالهم خفية عند الفقراء ، حتى يجدوا ما يعيشون به إذا صودروا . وبعضهم كان يدفن المال فى الصحراء وبعضهم كان يستعمل حيلة لطيفة ، فكان يضع الرجال فى صناديق على البغال ، ويخرج إلى الصحراء ثم يفتح الصناديق ، ويخرج مَن فيها ، ويأمرهم بالحفر ويضع فى الحفر الذهب ، ثم يدخلهم فى الصناديق ويعود بهم لئلا يعلموا موضع الذهب فيسرقوه . وبعض الحكام كان يستعمل العسف فى الجمارك وفى مال الخراج إلى غير ذلك من وسائل ظالمة . حتى إن صمصام الدولة سنة ٣٧٥ أراد أن يفرض ضريبة قدرها عُشر الثمن على الثياب الحريرية ، فاجتمع الناس فى جامع المنصور وعزموا على قطع الصلاة ، وكاد البلد يفتتن ، فأُعْفوا من ذلك . ولم يقتصروا فى الضرائب على الكماليات ، بل أرادوا أن يفرضوها على الضروريات كالملح .

ومن سوء هذه الحالة الاقتصادية فشا فى الناس أمران متناقضان : الأمر الأول التصوف ، فإن كثيراً من الناس لما عزّ عليهم أن ينالوا ما يطلبون قللوا مطالبهم فتصوفوا ، وعلّموا أنفسهم الزهد والورع والكبت . فكثر التصوف من هذا الباب جرياً على قولهم « إذا لم يكن ما تريد ، فأرد ما يكون » . والأمر الثانى ما شاع فى هذا العصر من لصوص سمّوا « الشطار » كانوا يقطعون الطريق على

الناس و يفرضون ضرائب معينة على البيوت ، من لم يدفعها هوجم وأخذ ماله . وحكى لنا الطبرى كثيراً من ذلك ، وأن فرقة سميت « المتطوعة » ندبت نفسها للقضاء على هؤلاء الشطار .

* * *

أما من الناحية العقلية وانتشار الثقافة ، فقد كان العصر متقدماً حقاً ، تمّ فيه امتزاج الثقافات . هؤلاء الفرس والهنود يتثقفون الثقافة العربية ، و ينتجون فيها . وهؤلاء وثنيُّو حرّان والسور يانيون يغرقون البلاد بالثقافة اليونانية . وهؤلاء الخلفاء يشجعون الطبّ والتنجيم أولا لحاجتهم إليهما ، ثم ينفُذُ العلماء منهما إلى أبواب الفلسفة الأخرى ، من طبيعيات ور ياضيات و إلهيات . و يعكُفُ العالم الإسلامى على دراستها فى صدق و إخلاص . و يقتبس علماء كل علم من الفلسفة اليونانية ليفلسفوه من دين ونحو وصرف و بلاغة ، وغير ذلك . هذا عدا الفلسفة نفسها ، ونشطت حركة الترجمة من اليونانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية نشاطاً غريباً . حتى إن ثبْتَ الكتب المترجمة عن اللغات المختلفة ، وعن اليونانية خصوصاً ، وهو الذى قدمه لنا ابن النديم فى الفهرس ، وصاحب كتاب التمدّن الإسلامى ، ليأخذ بجبنا . هذا ابن المقفع وأمثاله يقدم لنا بلغة عربية فصيحة الثروة الفارسية ، وهذا حنين بن إسحاق مثلا يقدم لنا الثروة اليونانية ، وهذه كلها كانت بدائية فى العصر الأموى والعباسى الأول . ثم نضجت فى القرن الرابع ، وأخذ العلماء يقتبسون منها ما حلا لهم . ومما زاد الحاجة إلى الفلسفة اليونانية أن النصارى فى تلك البقاع كانوا ينقسمون إلى جملة طوائف : يعاقبة ، ونساطرة ، ومَلْكانية . وكان هناك جدل فى هذه المذاهب حول طبيعة المسيح ، وحول القضاء والقدر ، وهل الإنسان مجبور أو مختار ، وكل طائفة تسلحت بالفلسفة اليونانية لدعم

مذهبها . وكان هذا سبباً فى انتشار الفلسفة اليونانية . ثم كان من طبيعة بعض الأفراد أن تفلسفوا أولا لغرض من الأغراض ، ثم أبوا إلا أن يتفلسفوا للفلسفة ذاتها ، كما قال الغزالى «طلبنا العلم لغير الله ، فأبى إلا أن يكون لله» . ولما جاءت الدولة الشيعية نصرت الفلسفة ، والحق يقال ، نصراً مؤزراً ، أكثر من أهل السنة ، لأنها أعانتهم على فكرتهم فى مسألة الظاهر والباطن ، ولأن المتفلسف عادة أطوعُ للاقتناع بالحجة الفلسفية ، ولأن الفلسفة تُلينُ الجمود ، وتُفتّح الذهن لقبول الجديد . ولذلك كثيراً ما نرى فلاسفة هذا العصر يحتضنهم الشيعة : كالفارابى ، وإخوان الصفاء ، وابن سينا ، وغيرهم . فإذا قلنا إن الفلسفة لم تُزهر فى عصر ، ولم تُستثمر فى عصر كهذا العصر ، لم نكن بعيدين عن الصواب .

وكان الناس فى هذا القرن ثلاث طبقات متميزة : الطبقة الأولى طبقة الأرستقراطيين من خلفاء ووزراء وتجار كبار وأشراف ، والطبقة الوسطى من تجار متوسطين وملاّك متوسطين ونحوهم ، وطبقة فقيرة وهى عامة الشعب من صغار الفلاحين وصغار العمال والعلماء الذين بعدوا عن الخلفاء والأمراء . فأما الطبقة الأولى ، فكان المال يتدفق عليهم ، وهم ينفقونه فى إسراف ، هم ونساؤهم وأتباعهم . هذه ميزانية الدولة فى هذا العصر بلغت حداً كبيراً . فالخليفة مع ضعفه كان يعدّ الرئيس الدينى حتى للبلاد المفصولة . فكان يجبى خراجاً من هذه البلاد ثم يسرف فيه هو ونساؤه . يحكون أنه كان بين رياش أم الخليفة المستعين بساط اتفقت على صنعه ١٣٠ مليون درهم فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور ، أجسامها من الذهب ، وعيونها من الأحجار الكريمة . ومدح شاعر امرأة من البيت المالك فحشت فمه درّا باعه بعشرين ألف دينار . وامتلأت بيوت هذه الطبقة بالجوارى والغلمان من سود وبيض ، حتى قالوا : إنه بلغ عدد خدم المقتدر

أحد عشر ألف خصى من الروم والسودان . إلى غير ذلك من القصوز الفسيحة ، والغرف العديدة . حتى إن المعز بنى دارا فى بغداد أنفق عليها ثلاثة عشر مليون درهم . ثم كان هذا الترف يستتبع عدداً كثيراً من المغنين والمغنيات ، تصرف عليهم الأموال الكثيرة ؛ ومع ما كان يجبى إليهم من الأموال الكثيرة ، كانوا يضطرون أحياناً إلى الصرف على الجند ، فلا يجدون ما ينفقون ، فيضطرون إلى مصادرة الأموال بكل طريق . وأكثر ما يصادِرون كان الأغنياء . وقد حكوا أن ابن الجَصّاص كان تاجراً للجواهر كبيراً فى مصر فصودرت أمواله كلها ، حتى إنه وجدت عنده الدراهم بالكيلة . وهذا مثل من أمثلة التجار الكبار الذين يعدون من الأغنياء .

زد على ذلك كثرة النفقة على العمال وعلى القضاة والكتاب . فقد حكوا أن راتب أحد الكبار فى هذا العهد كان ثلاثة وثلاثين ديناراً وثلثاً فى اليوم ، أى ما يقرب من ألف دينار فى السنة ، وهو ما يساوى خمسة آلاف جنيه اليوم .

وحكوا أن الحسين بن على المادرّانى العامل على مصر فى أوائل القرن الرابع الهجرى كان مرتبه ثلاثة آلاف دينار فى الشهر . وحكوا أن كاتباً من كتاب مصر فى عهد الدولة الفاطمية كان يقدم له فى اليوم الواحد من البقول والحلوى والأثمار والفاكهة والعطريات ومن الألبسة والأفرشة ما يستغرق تعداده صفحتين أو ثلاثا من القطع الكبير . وكان الوزراء يتقاضون أكثر من ذلك . فقد حكوا أن راتب الوزير فى العهد الفاطمى كان خمسة آلاف دينار فى الشهر ، عدا ما يجرى عليه وعلى أهله من مأكولات وملبوسات . فأين يأتون بهذه الأموال كلها من غير المظالم التى ذكرناها ؟ وكان الاعتقاد السائد أن الغنى والفقر من السماء ، عكس ما نعتقد ، الآن أنه نتيجة للنظام الاجتماعى ، وعلى هذا الاعتقاد وضع قانون تحديد

الملكية ، ونظام الضرائب التصاعدية . ولذلك نجد فى هذا العصر الأتراك فى بغداد والبو يهيين يعسفون بالناس ويظلمون . ورأينا سيف الدولة ابن حمدان ينهب كثيراً ، ويهب كثيراً . فيهب المال الكثير للمتنبي لأنه يمدحه ، ويبخل على ابن عمه أبي فراس بفدائه من الأسر إذ كان أسيراً فى القسطنطينية . ونرى خمارويه بن أحمد بن طولون يخرب مصر عند ما زوّج بنته قطر الندى للخليفة العباسى ، ويصنع الهواوين من الذهب الخالص ، ويبنى لها داراً من مصر إلى بغداد فى كل مرحلة . ويأتى بعد الحاكم بأمر الله ، فينفق المال بالهيل والهيلمان على من يريد ، ويمنع من يريد . فالفرق بين الطبقة العليا والدنيا فرق كبير . هـذا أبو حيان التوحيدى على علمه وفضله يضطر إلى أن يأكل الحشائش من الصحراء . وهـذا أستاذه أبو سليمان المنطقى لا يجد أجرة مسكنه ، حتى يعطيه عضد الدولة البو يهى مائة دينار ، وهذا الميدانى صاحب كتاب الأمثال مع علمه وفضله ونبله مقتّر عليه فى رزقه بسبب عفته . ومن أجل هـذه المظالم اضطر الفلاحون إلى أن يسلكوا سبيلا اسمه «الالتجاء» وهو أن يكتبوا أملاكهم صوريا للأمراء والأعيان ، حتى يخفف عنهم الخراج بمقدار النصف أو الربع ، لأن الضريبة لم تكن عادلة . وكثيراً ما ضاعت أملاكهم من هـذا الطريق ، فادعى الأغنياء ملكيتها ، أو ادعاها ورثتهم من بعدهم . ومثل هـذا ما يحدث اليوم من بيع الشركات بعض الأراضى لأصحاب الجاه بثمن بخس حتى يمدّ إليها الماء والكهرباء بسبب جاههم فترتفع الأثمان أضعافاً مضاعفة . وسميت هذه الطريقة بالالتجاء ، لالتجاء الفلاحين إلى الأغنياء .

* * *

من أجل هذا كله انحلّت الأخلاق ، فقل أن تجد رجلا نبيلا فاضلا ، لأن الذى يكوّن الأخلاق البيئة الخارجية والبيئة الداخلية ، وكلتاهما كانت فاسدة .

فقد رأيت البيئة الخارجية وأعنى بها الحكّام وما كان يجرى على أيديهم من المظالم عن طريق المصادرات والرُّشا .

فقد حكوا أن والياً عيّن فى يوم واحد سبعة عشر عاملا على بلد واحد فى يوم واحد ، لأنه كان يأخذ من العامل الجديد كل مرة أكثر مما يأخذه من العامل المعزول . فاجتمع هؤلاء العمال السبعة عشر وتشاوروا فيما بينهم ماذا يفعلون . و بعد التفكير استقر رأيهم على أن العامل الأخير لم يعزل بعامل غيره ، وله السلطان الشرعى ، فطلب الآخرون منه أن يعين كل واحد منهم والياً على ناحية من نواحيه ، ففعل وحلت المشكلة .

فلما رأى الناس هـذه المفاسد ، فسدوا هم أيضاً . لأنهم رأوا المثل من رؤسائهم . والسبب الأهم من ذلك البيئة الداخلية وأعنى بها البيت وما يجرى فيه . فقد كان فى البيت الواحد عدد من النساء الحرائر ، ومئات من الجوارى ملك اليمين ، والرجل يحق له أن يصل إلى هؤلاء وهؤلاء ، ويُنسل من هؤلاء وهؤلاء ، وقد كان هذا معقولا يوم كثرة حروب المسلمين مع غيرهم . ولـكن لم يعد معقولا ، وقد قلت الحروب فتفرغ الرجال للشهوات الجنسية وأنسلوا من هؤلاء وهؤلاء . ولا يخفى أن بيتاً كهذا يكون مملوءاً بالدسائس والمؤامرات ، وينسل أولادا يعادى بعضهم بعضا ، لأن أمهاتهم أرضعنهم الغيرة والـكراهية ، فـكثيرا ما كانت خصومة بعضهم مع بعض . فإذا كانت المفاسد داخلية وخارجية ، فـكيف يصلح الشعب ؟

وقد سببت الحروب الصليبية من عهدها الأول كثرة الجوارى البيض المأسورات فى الحروب ، فـكانت توزّع على البيوت . ومن أجل هـذا كثر

العنصر الفرنجى فيها . وهن عادة يثرن على تعدد الزوجات وعلى ملك اليمين ولذلك يجعلن البيت جحيما .

* * *

وإذ كانت الصناعات الجيدة لا تروج إلا عند هؤلاء الأغنياء ، ولا يدفع ثمنها العالى إلا منهم ، كانت الصناعات قسمين فقط : قسما فاخراً لبيوت الأغنياء ، وقسما وضيعاً للشعب . وانصرف العمال عن الصناعات الوسطى ، فكنتَ تجد العمال الماهرين يصنعون الملابس الجميلة جداً المزركشة فى مصانع تنّيس وما إليها ، والخزف الجيد والصدف والطُّرَفَ الباهرة . وصنَّاع الشعب يصنعون الأشياء العادية . وربما كان أثر ذلك متسلسلا إلى اليوم .

وشجع على هذه الفكرة أنه كان يرسل إلى الخلفاء والأمراء مع أموال الخراج بعض الهدايا الثمينة المصنوعة صناعة فائقة تسترعى النظر . وربما كانت المدن أحسن حالا من القرى فإن المدن بما يصبّ فيها من مال الأمراء والولاة كانت أكثر ترفا ونعيما . فهذا جوهرى بالكرخ يساومه أحد البرامكة على سَقَطٍ من الجوهر بمبلغ سبعة ملايين من الدراهم فيأبى . وهاك ابن الجصاص تاجر الجواهر فى مصر يصادر على مال تزيد قيمته على عشرين مليوناً من الدنانير كما ذكرنا . وكان فى بغداد شريف يسمى محمد بن عمر ، بلغت غلّة أملاكه مليونين ونصفاً من الدراهم ، وكان فى إصْطَخر بيت ينتسب إلى آل حنظلة ابتاع بمبلغ مليونى درهم مصاحف فرّقها على الفقراء . أما القرى فيعملون فى الأرض ، ويبتز أموالهم الملّاك ، ويقتنعون بالحصول على ما يسد أودهم . وربما كان إذا عثر أحدهم على مال كثير مات من الفرح ، كالذى يحكى أن صياداً وُهب مالا فى أيام أحمد بن طولون ، فلما عاد ابن طولون بعد ما مرّ عليه وجده ميّتاً ، وابنه يبكيه ، فقال

له : خذ مال أبيك . فقال : إن أخذتُه مِتّ موتته . فأشار بأن يشترى له بيت بخمسمائة دينار ، وقال : إن الغنى يحتاج إلى تدريج ، وإلا قتل صاحبه . وكان يجب أن يدفع إلى مثل هذا دينار إلى دينار .

* * *

وقد اشتهر من هذه الطبقة العليا جماعة كانوا أرستقراطيّى النسب كانتسابهم إلى على وفاطمة أو كالبكريّين والعمريّين أو انتسابهم إلى بيوت اشتهرت بالمجد كانتسابهم إلى الأبناء ، ويعنون بالأبناء من كانوا من أبناء الجند الذين أسسوا الدولة العباسية وهكذا . فهؤلاء كانوا أرستقراطيين فى نسبهم ، وإن لم يكونوا أرستقراطيين فى أموالهم .

* * *

وقد اشتهر فى هذا القرن الرابع عدد كبير من الأرستقراطيين نذكر من بينهم على اختلاف أنواع أرستقراطيتهم إبراهيم بن هلال الصابى ، معز الدولة بن بويه ، جحظَةَ البرمكى ، المتنبى ، بديع الزمان الهمزانى ، أحمد بن طباطبة ، الصاحب ابن عباد ، أبا على القالى ، عز الدولة بن بويه ، جوهرا الصِّقلىّ ، أبا على الفارسى ، ابن خالويه ، ابن الحجاج ، ابن نباتة ، عبيد الله المهدى الفاطمى ، الأشعرى ، عماد الدولة بن بويه ، سيف الدولة ، فاتكا الرومى ، عضد الدولة ، كافورا الإخشيدى الوزير ابن بقيّة ، ابن جرير الطبرى ، ابن دريد ، ابن العميد ، ابن سكرة ، الجُبَّائى ، الصولى ، ابن الأنبارى ، العزيز بالله بن المعز ، ابن جنى ، وغيرهم . ولكن إن أكثرنا من الكلام فى ظلم الحكام وعسفهم ، فلن يفوتنا أن قليلا منهم كان عادلا كعلى بن عيسى وقليل غيره .

وشاعت كثرة المجالس ، فكان بعض الأمراء والوزراء يعقدون مجالس يجرى

فيها الأدب والعلم . وأحياناً الشراب ، وأحياناً هما معاً . ويروى لنا التاريخ مجالس كثيرة من هذا القبيل . وربما تنافس الأمراء فى ذلك بعد استقلالهم ، فخراً بسلطتهم ومن يتصلون بهم . فكم روى لنا عن الوزير المهلبى من مجالس عظيمة فيها شعر وفيها قصص أدبية ، كان من نتيجتها كتاب الأغانى . ويحكى لنا أن سيف الدولة كان له من الشعراء وغيرهم مثل ما كان للرشيد . ومن خرّيج مجالسه المتنبي وأبو فراس والفيلسوف الفارابى ، وابن خالويه النحوى وغيرهم . وكذلك فى مصر كان يعقوب بن كلّس وغيره .

هذا عدا مجالس العلماء أنفسهم ، كمجلس أبى سليمان المنطقى ، وابن أبى عامر ، وغيرها . كل هذه كانت مَرَادَ الناس ، يستنشقون منها العلم والأدب ، ويتسامرون فيها السمر اللذيذ . وإذا راجعنا الكتب المؤلفة التى كانت نتيجة هذه المجالس استكثرناها .

ومن مظاهر هذا العصر فشو اللحن وخصوصاً فى البيوت والشوارع ، وذلك لكثرة الجوارى الأعجميات وغلبة الأتراك حتى على القصور ، فانتشرت الياء فى آخر الكلمات وأبدلوا جمع فعاليل بفعالل وقالوا أخير وأشر بدل خير وشر ، ولم يفرقوا بين فَعلة للمرة وفِعلة للهيئة ، ولم يفرقوا تفرقة تامة بين الفعل المتعدى والفعل اللازم ، وقالوا إن لغة البحترى أحط من لغة أستاذه أبى تمام . وقد قال عنه أحد معاصريه إنه لاحن جاهل فقال مثلا :

يا مادح الفتح ويا آملَهْ　　　لست امرأً خاب ولا مثنِ كذبْ

بدل مثنيا . وعابوه فى قوله :

ولو أنصف الحساد يوماً أمّلوا　　　مساعيك هل كانت بغيرك أليقا

بدل مساعيَك .

فإذا وصلنا إلى عصرنا كان اللحن أفشى حتى بين العلماء وحتى عدّوا من يتكلم باللغة الفصحى متكلماً على النمط البدوى القديم . وقالوا إن ثعلباً النحوى الشهير كان يتكلم فى مجالسه فيلحن . ويقول قدامة بن جعفر إن الفصاحة الكاملة وصحة الإعراب لا تتم إلا لأعرابى بدوى نشأ حيث لا يسمع إلا الفصاحة؛ بل يرى أنه يجب استعمال اللحن وأن يُتَعَمَّد له عند الرؤساء والملوك الذين يلحنون ، فإن الرئيس أو الملك لا يحب أن يرى أحداً من أتباعه فوقه .

ومتى رأى أن أحداً منهم قد فَضَلَه فى حالٍ من الأحوال نافسه وعاداه؛ كالذى رُوِىَ أن رجلاً تكلم فى مجلس بعض الخلفاء الذين كانوا يلحنون فَلَحَن ، فعوتب على ذلك ، فقال : لو كان الإعراب فضيلةً لكان أمير المؤمنين إليها أسبق وقال إن اللحن قد يُستَملَح من الجوارى والإماء ، وذوات الحداثة من النساء ، لأنه يجرى مجرى الغرارة منهن وقِلة التجربة .

وربما كان هذا هو السبب الذى دعا بعض العلماء المتزمتين إلى وضع كتب فى ألحان العوام كما فعل الحريرى وغيره . ومثل كتاب (فعلتُ وأفعلتُ) الذى حوى كثيراً من أغلاط العامة . وبهذا أيضاً تكوَّنت اللهجات العامية فى الأقطار المختلفة وأصبح لكل قطر لغةٌ عامّيةٌ . ومن أجل هذا أيضاً نشأ الخلافُ بين الأحرار الدين لا يتبعون قواعو النحو بدقّة ، وبين المتزمتين من النحويين . وفى ذلك يقول الشاعر :

ماذا لقيتُ من المستعمرين ومن ... قياسِ نَحْوِهِمُ هـذا الذى ابتدعوا
إنْ قلتُ قافية بِكْراً يكونُ بها ... بَيْتٌ خِلَافَ الذى قاسوه أو ذَرَعوا
قالوا لحَنْتَ ، وهذا لَيْسَ مُنتصباً ... وذاك خفضٌ ، وهذا ليس يَرْتَفِعُ
وَحَرَّضوا بين عبد اللهِ من حُمق ... وبين زيدٍ ، فطالَ الضربُ والوَجَعُ

وطعن الصاحبُ بن عبّاد على المتنبى لتَفَاصحِهِ واستعمالِه الألفاظَ النادرة الشاذة فَيجمع مثلا رُكبَ الإِبل على صيغة رُكبَاتٍ .

ولا ننكر أن هؤلاء المتزمتين كان لهم فضلٌ كبيرٌ فى المحافظة على اللغة الفصحى على مدى الأزمان .

وجاء ابن حجّاج وابن سُكّرَة فاستعملا كثيراً من الألفاظ العامية والأساليب العامية والعادات العامية ، فكثيراً ما تَجِدُ ابن حجّاج يستعمل كلمات فارسية مثل كلمة «همّ» الفارسية بمعنى «أيضاً» ، وكان يستعمل «شوّشَ» بمعنى «أزعج» ، و « رأسمال » ، إلى غير ذلك .

ولا يَقِلُّ ابن سُكّرَة شيئاً عنه فى ذلك . وظلت اللغة العامية تنفصل عن اللغة الفصحى وتتسع بينهما هوة الخلف على مر الأزمان وفى كل الأقطار حتى كونت اللغة العامية لها أدبا خاصا من موشحات وأزجال وأمثال ، وجرؤت فيما بعد حتى هزأت النحو على النحو الذى ذكره الشربينى فى كتابه « هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف » وتبعه فى ذلك غيره .

وفى العصر الحاضر رقيت اللغة العامية وقربت من الفصحى بفضل الإذاعات والجرائد والمجلات ، ولم يعقهما عن الاتصال ثانية إلا ما فى اللغة العامية أحياناً من الحرفشة على حد تعبير ابن خلدون وما فى اللغة العامية من وقف وعدم إعراب(١) .

وكانت المعيشة فى الأوساط الفقيرة تتطلّب نحواً من ثلاثمائة درهم ، أى نحو مائة وعشرين جنيهاً فى السنة لرجل متزوج وله ولد . أما المعيشة العالية فلا حدّ

(١) انظر كتاب العربية للأستاذ بوهان فك ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار .

لنهايتها . ويحدثنا كتاب «الفرج بعد الشدة» أن رجلا كان يغنّى لسيّدة فأورث ابنا له أربعين ألف دينار . ولما بلغ رشده صرف منها ألف دينار ، اشترى بها بيته القديم ، وسبعة آلاف أصلح بها أثاثاً فخما للبيت ، من سجاجيد وملابس ، وإماء ، وعبيد ، وغير ذلك . وخصّص ألفين لتكون رأس مال للتجارة ، ودفن عشرة آلاف ليوم الحاجة . وخصّص عشرين ألفاً لشراء ضيعة يستعين بها على الأيام .

وكان من مظاهر نعمة الأغنياء السكنى فى السراديب صيفاً ، والثلج لشرب الماء البارد يستحضرونه حتى من الأماكن البعيدة ، كما استعملوا فى البيوت المراوح المبلولة بالماء من الخيش يحركها بعض الخدم . وكان هذا هو النظام المتبع للتبريد فى ذلك العصر .

واتخذوا فى بيوتهم الأماكن الواسعة توضع فيها الأرائك يجلسون عليها ليلاً لسماع الغناء وللشراب وللحديث اللذيذ .

وبعضهم يُعنى بالأزهار يشتريها بالمال الوفير ، ويستحضرها فى المجالس ، كل زهور فى مواسمها . وإذا قرأنا ما خلّفته الدولة الفاطمية فى القاهرة ، رأينا مقدار الترف الذى كانوا يعيشون فيه .

وقد عُنى الأغنياء بالبرك وبالأشجار فى قصورهم وبالصناعة الخشبية ، كالمشربيات وتزيين الأبواب والحمامات ، كما عُنوا بإنشاء الحمامات العامة للشعب ، أخذاً من العادات الفارسية . وعرفوا « الإسْفَلْتَ » وأخذوه من مكانٍ بين الكوفة والبصرة ، وقالوا إنهم مهروا فى صناعته ، فكانوا يجعلونه كأنه مرمر أسود ، ويغطّون به بعض الحيطان .

وبالغ المترفون فى كل شىء فى الحياة وفى الممات ، حتى إن قريباً من أقرباء سيف الدولة الحمدانى مات فغُسّل تسع مرّات ، بأنواع مختلفة من العطور السائلة .

وبهذه المناسبة نذكر أنه كان من المعتاد فى هذا العصر المبالغة فى مظاهر الحزن على الميت وكان بعض العلماء يُسمح لأهلهم أن يدفنوا فى بيوتهم .

وانتشرت مجالس الشراب ، وأسرف أهلها فى الاستعداد لها ، من أزهار وفاكهة وصِحاف وأنوار ، حتى كان بعضهم من إسرافهم يأكل بملعقة ويغيّرها فى كل لعقة كما يحكى عن الوزير المهلبى . واعتادوا غسل أيديهم قبل الأكل وبعد الأكل .

ووجدت بيوت النخّاسين يبيعون فيها القِيَان . وأحياناً تقام فيها حفلات الرقص والغناء ، ويصب فيها أولاد الأغنياء أموالهم . ويبتز فيها الشابات المغنيات أموال الأغنياء ، كالحال اليوم ، كما يحكى صاحب الظرف والظرفاء .

وانتشر للتسلية لعب النَّرْد والشطرنج ، ولابن الرومى وصف بديع للاعب شطرنج ماهر . وكثرت الضرائب وتنوّعت لمّا احتاج الخلفاء إلى المال ، فضرَبوا الضرائب على المغنيات وعلى الحوانيت ، وعلى السفن وغير ذلك .

واختلفت المدن وتنوّع نَمَطُها إلى أربعة أنواع : مُدُنٍ يغلب عليها الطابع اليونانى ، كمدن البحر الأبيض المتوسط ؛ ومدن يغلب عليها الطابع العربى كمدن الحجاز ، ومدن اليمن ؛ ومدن يغلب عليها الطابع الفارسى كمدن العراق ؛ ومدن يغلب عليها الطابع الرومانى كبعض مدن الشام .

وكل مدينة لا بد أن يشوبها بعض من الأنماط الأخرى .

* * *

وقد حلى الشعب عيشته بالأعياد الكثيرة تقام من حين إلى حين ، وانتهزوا هذه الفرص ليتمتعوا بملاذّ الحياة ، لا يمنعهم عن ذلك ما إذا كانت الأعياد

نصرانية الأصل ، أو فارسية الأصل ، فيكاد كل دَيْر يُقام لِقدّيسه عيد ميلاد يستمتعُون فيه بشرب النبيذ المعتّق والنساء والعزْف ونحو ذلك .

ويحدثنا الشابشتى فى كتابه عن الأديار وابن المعتز فى بعض قصائده عن كثير من هذه الأعياد ، كما ورد كثير من ذكر « عيد الشَّعَانين » . وقد اتخذوه عيداً عاماً ، وكانوا يسمونه فى مصر « عيد الزيتون » ويحمل كلٌّ من الشبان والأطفال خوص النخل ، ويسيرون به فى الشوارع . كذلك كانوا يحتفلون كما نفعل اليوم بيوم السبت الذى قبل شمّ النسيم بأكل البيض ، وصبغه ألواناً ، وكانوا يحتفلون فى بغداد مسلمُهم ونصرانيّهم بآخر سبت فى سبتمبر عند دَيْر يسمونه دَيْر الثعالب . وفى الثالث من أكتوبر كانوا يحتفلون فى دير يسمى ، دير أشْمُونة ، وكان عيداً كبيراً من أعياد البغداديين ، وهكذا وهكذا مما يطول شرحه .

وفى هذه الأعياد كانوا يحتفلون فى البحر ، كما يحتفلون فى البر ، فيركبون مراكب تسمّى السّمَرِيات تحمل فتيات ونبيذاً ، ويفرحون ويصيحون . فترى من هذا كثرة الأعياد التى ينتهزونها فرصة للأفراح . ومن الأعياد الفارسية المشهورة كان عيد النيروز وهو عيد السنة الجديدة ، فكانت تهدى فيه الهدايا ويُخرج إلى المتنزهات هذا عدا الأعياد الإسلامية كاحتفالهم فى رمضان وإطعامهم الفقراء ، والتصدق على المساكين ، وعيد الفطر وعيد الأضحى . وعلى الجملة فكانت هذه الأعياد النصرانية والفارسية والإسلامية والطبيعية التى يشترك فيها الكافة متنفساً للشعب يجدون فيها راحتهم ، وينسون فيها غمومهم وهمومهم من ظلم الحكام ، ومصائب الزمان .

ولدينا وثيقتان تدلان على فساد هذا العصر وحواشيه . إحداها أرجوزة

الخليفة عبد الله بن المعتز نظمها فى وصف دهره . وقد ذكرنا منها وصف اغتيال المواريث ، ومنها :

والعَاوِىّ قائدُ الفُسّـاق ... وبائعُ الأحرار فى الأسواق

ويقول فى الشيعة :

يدعون للإمام كل جُمعَهْ ... ولا يردُّون إليه قِطعَهْ

وهم يجورون على الرَّعِيَّهْ ... فسادَ دِينٍ وفسادَ نِيَّهْ

ويأخذون مالهم صُرَاحَا ... ويخضبون(١) منهم السلاحا

ويقول فى نبيل عُذّب :

فكَمْ وكم من رجلٍ نبيل ... ذى هيبة ومَرْكبٍ جليلِ

رأيتَهُ يُعتَلُ بالأعوانِ ... إلى الحُبوسِ وإلى الديوان

وجعلوا فى يدهِ حِبَالا ... مِن قِنّبٍ يُقطِّع الأوْصالا

وعلّقُوه فى عُرى الجدارِ ... كأنه بَرَّادَةٌ فى الدَّارِ

وصفقوا قفاه صفق الطَّبْل ... نصباً بعين شامتٍ وخِلّ

وحمَّروا نقرته بين النُّقَرْ ... كأنها قد خجلت مِمَّنْ نظر

إذا استغاث من سعير الشمسِ ... أجابَه مستخرجٌ برَفسِ

وصَبَّ سَجّانٌ عليه الزيتا ... فصارَ بعد بزّةٍ كُمَيْتا

حتى إذا طال عليه الجَهْدُ ... ولم يكن مما أراد بُدُّ

قال ائذَنوا لى أسأل التجّارا ... قَرْضاً وإلا بعتهم عَقَارا

وأجِّلونِى خمسةً أيّامَا ... وطوِّقونى منكُم إنعاما

فضايقوا وجعلوها أربعَهْ ... ولم يُؤَمِّلْ فى الكلام منفَعَهْ

وجاءه المعيَّنون الفَجَرَه ... وأقرَضُوه واحداً بعشرَةْ

(١) أى يصبغون بالدم .

وكتبوا صَكًّا ببيع الضَّيْعَهْ وحلَّفُوه بيمين البَيْعَهْ

ثم تأدَّى ما عليه وخَرَجْ ولم يكن يطمعُ فى قرب الفَرَج

* * *

ويصف نهب الأعراب فى الطرقات فيقول :

وتاجرٍ مع حجّه وعمرته يطلبُ رِبْحَ ماله فى سَفْرَتِهِ

مقدِّرٍ فى الربح أضعاف الثَّمَنْ مِن قاصدٍ صَنْعَا إلى أرضِ عَدَن

فهم كذاك سائرون ظُهْرَا أو تحت ليلٍ أو ضُحًى أو عَصْرا

إذْ قال قد جاءَكُم الأعرابُ وكثُر الطِّعَانُ والضِّرابُ

وصار فى حجِّهِمُ جهادُ واحمرَّتِ السيوفُ والصِّعَادُ[1]

ويقول فى وصف الكوفة :

واستمع الآن حديث الكوفَهْ مدينة بعينها معروفَهْ

كثيرةُ الأديانِ والأئمَّهْ وهَمُّها تشتيتُ أمر الأمَّهْ

وهمُ بنَوْا للجَوْر صرحًا محكمَا فاتخذوا إلى السماء سلّما

أخَذُوا وقتَلوا عَلِيّا العادلَ البرَّ التَّقِى الزَّكِيّا

وقتلوا الحُسَيْن عنْد ذاكا فأهلكوا أنفُسهم إهلاكا

وجَحَدوا كتابهم إليه وحَرَّفوا قرآنهم عليه

ثم بكَوْا مِن بعده وناحُوا جَهْلاً كذاك يفعلُ التمساحُ

* * *

ويصف بعض الناس يتفلسف ولا يتعرّبُ فيقول :

ثم إذا ما قام عن غذائِهِ .وفُرِّغَت قهوتُه بمائِهِ

(١) الصعاد : للرماح .

تناول الريشةَ والطُّنْبُورا فأضحكَ الصغيرَ والكبيرا

وضاعتِ الأمورُ عند ذاكا وأظهر التعطيلَ والإشْرَاكا

ومَدْحَ أفلاطونَ والفلاسفهْ وساعدَتْهُ فى هواهُ طائفهْ

وذِكْرِ السُّعودَ والنحوسا والجوهرَ المعقولَ والمحسوسا

وذَرْعَ طولِ الأرضِ والأفلاكِ وكم بلادُ الصينِ والأتراكِ

واستثقلوا مَن قامَ للصَّلاةِ فكيف من طوّل فى القِرَاءةِ

وطعَنُوا فى الفِقْهِ والحديثِ وعجِبُوا من ميِّت مبعُوثِ

ويقول فى المشاغبين من الجند :

وكلَّ يومٍ ملكٌ مقتُولُ أو خائفٌ مروَّعٌ ذليلُ

أو خالع للعَقْدِ كيما يغْنَى وذاكَ أدْنى للرَّدَى وأدنى

وكم أميرٍ كان رأسَ جَيْشِ قد نغَّصُوا عليه كلَّ عيشِ

وكل يوم شَغَبٌ وغَضْبُ وأنفسٌ مقتولةٌ وحَرْبُ

وكم فتًى قد راح نهباً رَاكباً إمَّا جليسَ مَلْكٍ أو كاتِباً

فوَضَعُوا فى رَأسِهِ السِّيَاطَاَ وجَعَلُوا يُرْدُونه شَطَاطَا

وكم فتاة خرجَت من منزلِ فغصبوها نفسها فى المَحْفِلِ

وفضحُوها عندَ من يعرفُها وصَدَّقُوا العشيقَ كى يقرفها

وحصَل الزَّوْجُ لضعف صِلَتِهْ على نُوَاحِهِ وَنَتْفِ لحيَتِهْ

ويطلبون كل يومٍ رزقَاَ يروْنه دِينًا لهمْ وحَقَّا

كذاك حتى أفقروا الخلافهْ وعوّدُوها الرعب والمخافهْ

* * *

وهذه أرجوزة طويلة مملوءة بالفضائح ووسائل الفساد . وهى مثبتة فى ديوان ابن المعتز :

والثانية لزوميات أبي العلاء . وفيها العجب العجاب من وصف فساد ذاك الزمان . فأمراء :

ظلموا الرعية واستجازوا كيدها   فعدَوْا مصالحها ، وهم أجراؤها

* * *

يسوسون الأنام بغير عقلٍ   فينفذ أمرهم ويقال ساسَهْ

فأفٍّ من الحياةِ وأفٍّ مِنّى   ومن زمَنٍ رئاسته خسَاسَهْ

* * *

وَاخْشَ الملوكَ وياسِرْها بطاعَتها   فالمَلْكُ للأرض مثل المَاطِرِ السّانى

إن يظلموا فلهمْ نَفْعٌ يُعَاش به   وكم حَمَوْكَ برجْلٍ أو بِفُرسانِ

وهل خَلَتْ قبلُ من جور ومظلمةٍ   أرْبابُ فارسَ أو أربابُ غَسّانِ

* * *

يكفيكَ حُزْناً ذهابُ الصالحين مَعًا   ونحن بعدهُم فى الأرض قُطّانُ

إن العراق وإن الشّام مُذْ زَمَنٍ   صِفْرَانِ ما بهما للمَلْكِ سلطانُ

ساسَ الأنامَ شياطِينٌ مسلَّطَةٌ   فى كلِّ مِصْرٍ من الوالين شيطانُ

مَنْ يحفِل خُمْصَ الناسِ كلّهمُ   إن بات يشربُ خمراً وهو مِبْطَانُ

* * *

لعمرُكَ ما فى عالَمِ الأرض زاهدٌ   يقينًا ، ولا الرهْبَانُ أهْلُ الصَّوَامِعِ

أرى أمراء الناس يُمْسُون شَرَّهم   إذا خطفوا خَطْفَ البُزاةِ اللّوامع

وفى كل مصر حاكمٌ فموفّقٌ   وطاغٍ يحابى ، فى أخسّ المطامع

يَجُورُ فينْفِى المِلْكَ عن مستحقّه فتُسكَبُ أَسْرَابُ العيون الدوامع
ومن حوله قومٌ كأنّ وجوهَهُمْ صفًا لمْ يلَيّن بالغُيوثِ الهَوَامِـعِ

* * *

وسواء فى ذلك ملوك أهل السنة ، والإمام الذى يدعى معصوما عند الشيعة :

يَرْتَجِى الناسُ أن يقومَ إمامٌ ناطقٌ فى الـكتيبة الخرساء
كذَبَ الظنُّ لا إمام سوى العقـــلِ مشيراً فى صبْحهِ والمساء

* * *

وما صَحَّ للمرء المحَصِّل أنَّه بكوفانَ قــبرٌ للإمامِ يزار
أخو الدِّين من عادَى القبيح وأصبَحَتْ لهُ حُجْزَةٌ من عِفَّةٍ وإزارُ

والشعراء لا ينصحون الأمراء ، ولـكن يتملقون :

وما شعراؤكُمْ إلاَّ ذئابٌ تلصَّصُ فى المدائح والشَّباب
أضرُّ لمن تودّ من الأعادى وأسرقُ للمقال من الزَّبابِ

والوعاظ ينافقون ، فيقولون ما لا يفعلون :

رويدكَ قد غُررتَ وأنت حُرٌّ بصاحبِ حيــلة يعظُ النساءَا
يحرِّم فيـكم الصهباءَ صبْحًا ويشربُها على عمْــدٍ مساءَا

* * *

لعل أناسا فى المحاريبِ خوّفُوا بآى كنَاسٍ فى المشارب أطربُوا
إذا رَامَ كيدًا بالصلاةِ مُقيمها فتاركها عمداً إلى الله أقربُ

* * *

طَلَبَ الخسائسَ وارْتَقَى فى منبرٍ يَصفُ الحساب لأُمَّةٍ ليَهُولَهَا
ويكونُ غير مصَدِّقٍ بقيامَةٍ أمْسَى يمثِّل فى النفوسِ ذهولها

والمنجمون يضحكون على عقول النساء :

سألَتْ منجمَها عن الطِّفل الذى ۝ فى المَهْدِ كم هو عائشٌ من دهره
فأجابها مائة ليأخذ درهما ۝ وأتى الحِمامُ وليدَها فى شهره

* * *

لقد بَكَرَتْ فى خُفِّهَا وإزارِهَا ۝ لتسأل بالأمر الضّرير المنجِّما
وما عنده علمٌ فيخبرها بهِ ۝ ولا هو من أهل الحِجَا فيُرَجِّمَا
ويومُ جهّال المحلَّةِ أنّما ۝ يظلُّ لأسرار الغيوب مترجما
ولو سألوه بالذى فوق صَدْرِهِ ۝ لجاءَ بِمَيْنٍ أو أرمّ وجمجما

* * *

وقد ذكر فى اللزوميات أيضاً النساء وتبرُّجهن ، وغشيانهن الحمامات للهو والفساد .

وعلى الجملة فالناس كلهم أجناس ، وهم كلهم أنجاس :

لو غُرْبِلَ الناسُ كيما يعدموا سقَطا ۝ لما تحصَّل شىءٌ فى الغرابيل
أو قيلَ للنّار خُصى من جَنَى أكلَتْ ۝ أجسادهم وَأَبتْ أكل السَّرَابيلِ

* * *

أغنى الأنام تقىٌّ من ذرى جَبل ۝ يرضَى القليلَ ويأبى الوشْىَ والتّاجَا
وأفقرُ الناسِ فى دنياهمُ مَلِكٌ ۝ يُضحِى إلى اللَّجبِ الجرّار مُحتَاجا

* * *

وهكذا وهكذا من فساد جعله يصبّ جام غضبه على أهل زمنه ، ويصرخ فيقول :

الناس صنفان ذو دِينٍ بلا عَقلٍ ، وآخرُ دَيِّنٌ لا عقْلَ لهْ

* * *

وقد صوّر لنا أبو حيّان التوحيدى مجالس العلماء ، وموضوعات أبحاثهم فى كتبه ، فحكى لنا المجلس الذى كان يعقد فى بيت أبى سليمان المنطقى من بحث كل يوم فى مسألة تارة لغوية ، وتارة أدبية ، وكثيراً ما تكون فلسفية .

وكان يحضر المجلس أبو الحسن العامرى ، وغلامُ زُحل وغيرهما . ودوّن محاضر الجلسات فى كتابه المسمى بالمقابسات ، كما حكى لنا نوع المشاكل التى كانت تجرى فى زمنه ، فى كتابه الهوامل والشوامل . وصوّر لنا أيضاً ما كان يدور بينه وبين الوزير ابن سعدان من مسائل كثيرة ، ألّف له من أجلها رسائل كثيرة . ووصف لنا وصفاً شنيعاً قبيحاً الوزيرين ابن العميد ، وابن عباد فى كتابه مثالب الوزيرين ، الذى ذكر منه نبذة ياقوت الحموى فى معجم الأدباء .

ومما يؤسف له أن علماء الدين والأدباء لم يرفعوا صوتاً لاستنكار هذه الأحداث . بل كانوا يؤيدونهم فى ظلمهم ؛ فهذا قاضى سيف الدولة يجمع له مال الرعية ظلماً وعدواناً . وهذا أبو الطيب المتنبي يمدحه حتى تقرأ ، فكأن سيف الدولة ملك كريم ، وعادِل رحيم ، عكسَ تاريخه . ويأتى المتنبي إلى كافور ، فيُعلى شأنه ، ويرفع من مقامه ، ولا يغضب عليه ، ولا ينقده ، إلا لأنه لم يمنحه ضيعة أو ولاية ، فإن كان قد مُنِحَها ، كان قد أضفى عليه من الألقاب والصفات ما لا قولَ بعده لقائل .

نعم : إن بعض الطوائف أرادت أن تمحو الظلم كالفدائية ، وهم المسمون بالإسماعيلية أو الحشيشية وعلى رأسهم كان الحسن الصبّاغ ، فهؤلاء تعاقدوا على قتل الظلمة . وتحت تأثير هذه الدعوة قد شنّعوا على الخلفاء والحكام وكبّروا مظالمهم واغتالوا نظام الملك الوزير السلجوقى المشهور مؤسس المدرسة النظاميّة .

ألفوا مؤامرات دقيقة لوضع نظم القتل . ولـكن مع الأسف كانت طائفة فاطمية حزبية ، تقتل السنيين ولا تقتل العلويين ، وحتى فى قتلها السنيين لم تكن موفقة ، فنظام الملك هذا من أحسن الرجال عدلا وعطفاً على العلماء وتشجيعاً للعلم . ولم يقتلوا أحداً ظاهراً من الفاطميين ، بينما كان فيهم من لايقلّ فساداً عن السنيين . و إنما كان المسلمون فى حاجة إلى فدائيين ليسوا متعصبين لمذهب دون مذهب ، على أن الفدائيين أنفسهم لم يكونوا حَسَنِي السيرة ولا طاهرى الأخلاق .

يضاف إلى هذا الفســاد نوع آخر منشؤه ضعف العقلية وانتشار الخرافات والأوهام . فكم من الناس من أضاعوا ثرواتهم فى قاب المعادن ذهباً ، حتى مسكويه العالم المشهور ووقع فى هذا الخطأ والإيمان بالمغيبات والاعتقاد فى النجوم والمنجمين ، وتدجيل بعض الصوفية ، وغير ذلك مما أشــار إليه أبو العلاء فى اللزوميات . هذا إلى انقســام الناس إلى عصبيات كثيرة كفيلة بأن تتلف أىّ أمة . فعصبيات الدم كالفرس والأتراك والعرب والأكراد ، وعصبيات للبلاد كبصريين وكوفيين ودمشقيين ومصريين الخ . هذا عدا عصبيات دينية كشافعية ومالـكية وحنفية وسنية وشيعة . وكل منها يتفرع إلى جملة مذاهب، إلى إسراف فى الشهوات بسبب ما أغدق على السكان من رقيق مختلف الأنواع ، سودٍ وبيض . وقد كان النّخّاسون يجعلون بيوتهم مواخير يقصدها الشبان . فقد حكى لنا الوَشّاء فى كتابه الظرفاء صفة هذه المواخير وكيف أن الشبان تتحبب الفتيات إليهم استنزافاً لأموالهم ، حتى إذا أتلفوها أعرضن عنهم ، وكيف كان تتدفق فيها الخمور ، و يلعب القوّاد دور الوسيط ، إلى كثير من أمثال ذلك . و يصف لنا أبو المطهّر الأزدى منافقاً كان يجلس بين أديبين ، فيلتفت إلى اليمين ليستمع من صاحبه شعراً ، ويقسم الأقسام المغلظة أنه شعر بديع لم يقل قائل مثله فى بلاغته وروعته

وألفاظه ومعانيه . ويلتفت إلى من بيساره فيذمّ له هذا الشعر الذى سمعه ، ويسمع منه شعره هو فيُطريه أيما إطراء ، ويقسم على ذلك أيما قسم . ثم يلتفت إلى من باليمين ثانية فيذم له من باليسار ، وهكذا دواليك . ولعل هذا المنافق لم يكن إلا واحداً من المنافقين الكثيرين . وهل مُدّاح الخلفاء والأمراء مع علمهم بظلمهم إلا من هذا القبيل ؟

فليس عجيباً أن تتدهور البلاد وتنحط الأخلاق . إنما قد يكون عجيباً أن تبقى بعد ذلك وهذه حالها .

* * *

نتعرض بعد ذلك إلى بعض أشياء أخرى كانت فى المملكة الإسلامية فى هذا العصر . من هذا العيّارون ، فهم قوم من اللصوص كانوا يتخذون لهم لبساً خاصّا ، ويقول فيهم الشاعر :

خرّجَتْ هذه الحروبُ رجالاً لا لقحطانٍ ولا لنِزارِ
معشرٌ فى جَوَاشنِ الصُّمّ يعدُو نَ إلى الحرْبِ كالُّيوثِ الضَّوَارِى
ليس يدرون ما الفِرَارُ إذ الأبطالُ عارُوا فى القنا للفرار
واحدٌ منهم يَشُدُّ على ألْفَيْنِ ، عُرْيانُ مَا لَهُ مِن إزَارِ
ويقولُ الفتى إذا طعنَ الطَّعْنَةَ خُذْها منَ الفتى العَيَّارِ

* * *

ويقول ابن الأثير : إن العيّارين ظهروا فى سائر المدن الإسلامية ، وعظم شأنهم . وكثيراً ما كان الوزراء وغيرهم من أرباب الحل والعقد يقاسمونهم ويسكتون عنهم . وقد يسمّون أحياناً شطّاراً . وكانوا يمتازون أيضاً بملابس

خاصة . وسمّاهم ابن بطوطة فى أيامه بالفتّاك ، و بعضهم كان يزعم أن الأغنياء لما امتنعوا عن دفع الزكاة أخذوها هم قسراً .

وكان من محاسنهم ولا شك الكرم ، وخصوصاً تحبب الخلفاء والأمراء للعامة بأساليب السخاء كالضيافة ، ونصبهم الموائد للطعام ، يتجمع عليها الألوف من الناس . ثم إنهم تفننوا فى الأثاث والرياش والمجوهرات . وشاعت بينهم المسكرات ، وزادت بعد أبى نواس من طول ما تغزل بها ، وكانوا يشربون النبيذ بالأرطال . وانتشر الشراب فى العامة . وقد حكى عن الحاكم بأمر الله الفاطمى ، أنه أمر بإراقة الخمور ، و بإراقة العسل حتى لا تصنع منه .

وكان من عادة الخلفاء والأمراء اهتمامهم بالخروج للصيد وعده من الرياضة البدنية .

و يحكى عن السلطان مسعود السلجوقى أنه بالغ فى ترفيه كلاب الصيد حتى ألبسها الجلال الموشاة وسوّرها بالأساور من الذهب . وكان من عادة الخلفاء جمع السباع ، وتربية الحيوانات الداجنة ، وتأنيس الغزلان . وقالوا إنه اجتمع عند العزيز الفاطمى صاحب مصر من غرائب الحيوان ما لم يجتمع عند غيره .

* * *

هذه صورة حاولنا بها توضيح هذا العصر بقدر الإمكان اعتقاداً منا بأنها ذات أثر كبير فى حالة العلوم والآداب والفنون فى ذلك العصر .

وقد كان صحيحاً ما ذهب إليه تين الفرنسى من أن كل هذه الأشياء متأثرة لدرجة كبيرة بالبيئة . وقد عنى بالبيئة ما يشمل البيئة الاجتماعية .

ونعتقد أنه لولا هذه البيئة ما كان التصوف بهذا الشكل ، ولا نبعت المقامات فى الأدب ، ولا غرق الأدب العربى فى المديح . ولولا انتشار الشيعة

فى هذا الزمان ما كانت رسائل إخوان الصفاء على هذا النحو ، ولا كان ما يحكى لنا من تحف نفيسة رائعة ولا مبان ضخمة ، ولا عمارات فخمة . ولولا هذه البيئة التى وصفنا ما كان إخفاء الكنوز ولا كثرة الصعالكة فى جانب ، والترف والنعيم الكبيران فى جانب آخر . ولا كان أبو العلاء يصرخ صرخته المعروفة فى اللزوميات .

و إذ قد فهمنا هذه البيئة كما وصفنا وتكلمنا فى الجزء الأول من ظهر الإسلام عن حركة العلوم إجمالا ، أمكننا الآن أن نبدأ فى الكلام عنها فى هذا العصر تفصيلا والله الموفق .

المراجع

المكتبة الجغرافية .

الطبرى .

ابن الأثير : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع عشر . التمدن الإسلامى لجورج زيدان . الظرف والظرفاء للوشاء .

ديوان ابن المعتز .

اللزوميات .

وفيات الأعيان لابن خلكان .

معجم البلدان لياقوت .

هذا عدا ما ذكرناه أثناء الباب .

حركة العلوم تفصيلا

الباب الاول

التفسير والحديث وعلم الكلام

التفسير

رأينا فيما مضى أن التفسير كان تفسيراً بالمأثور ، ونعنى بالمأثور ما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين فى التفسير من مثل الأحاديث التى فى صحيح البخارى ومسلم .

وكان كثير من الصحابة يتحرّجون جداً أن يفسروا شيئاً من القرآن خوف الزلل وخوف الهجوم على تفسير قد يكون خطأ ؛ كالذى روى أن أحد أصحاب ابن مسعود سئل عن سبب نزول آية من القرآن ، فقال : عليك باتقاء الله والسداد ، فقد ذهب الذين كانوا يعلمون فيم أنزل القرآن . وسئل سعيد بن جُبَير عن تفسير آية ، فقال : لأن تقع جوانبى خيرٌ لى من ذلك .

ولكن كان من أجرأ الناس فى التفسير عبد الله بن عباس ابن عم النبى صلى الله عليه وسلم ، وجدّ الخلفاء العباسيين ، فقد رويت عنه تفسيرات كثيرة لآيات كثيرة حتى روى عنه تفسير شامل .

نعم إن بعضها موضوع ، ولكن ما صحّ بعدذلك كثير . وقد اعتمد فى التفسير على مصادر ثلاثة : أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم فى التفسير ، والشعر الجاهلى والإسلام ، وما كان يرويه اليهود الذين أسلموا ، وخصوصاً كعب الأحبار وعبد الله بن سلاّم . ويكثر منه ذلك فى قصص الأنبياء ، وما يتصل بالتوراة .

وكان له تلاميذ كثيرون يأخذون عنه ، من أشهرهم مولاه عكرمة . ولم يكن عكرمة هذا صادقاً كل الصدق . وقد روى عنه بعض المتناقضات ، كالذبيح ؛ فقد روى عنه عن ابن عباس مرة أنه إسماعيل ومرة أنه إسحاق . وقد لاحظ بعض النقاد أن ابن عباس نفسه يروى أحداثاً حدثت وهو طفل . وأحياناً يروى أحداثاً عن عهد لم يكن وُلد فيه بعد ، فقد كان اتصاله بالنبي صلى الله عليه وسلم وهو دون سنّ البلوغ ، ومع ذلك عظم تعظيما جليلا . وربما كان من أسباب ذلك وجود الخلفاء العباسيين من ولده ، وتملُّق الناس لهم . وكان فى العصور الأولى من يتثقف ثقافة يهودية واسعة ، تسرّب منها الكثير إلى المفسرين ، كالذى يحكى عن رجل يقال له أبو الجلْد كان يقرأ القرآن فى كل سبعة أيام ، ويختم التوراة فى ستة أيام ، ورأى الناس فى اليهود علماً بمسائل كثيرة تتصل بالقرآن . ثم كان ابن عباس ذا علم بالشعر القديم والحديث ؛ كل ذلك مكنه من تفسير كثير من الآيات .

والناس من طبيعتهم حب السؤال عما يجهلون . يقول القرآن : اضربوه ببعضها . فيسألون ما هو البعض الذى ضرب به ، ويقول الله تعالى : واضرب لهم مثلاً أصحاب القرية . فيسألون : أى قرية ؟ ومَن أصحابها ؟ وهكذا .

فكان ابن عباس يجيب عن هذه الأسئلة . وقد روى الكثير عن ابن عباس عكرمة هذا ومجاهد ومقاتل بن سليمان ، فلما جاء عصرنا الذى نؤرخه بلغ هذا النوع من التفسير أوجَهُ فى تفسير ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠ هـ ، وهو صاحب الكتاب العظيم فى التاريخ ، وكتابه العظيم الآخر فى التفسير . وكان مجتهداً أيضاً فى الفقه ، ولكن طوى اجتهاده . وكان رحمه الله ذا عقل جبار فى كل ناحية بحث فيها . ومنهجه فى التفسير أن يجمع فى كل آية التفسير بالمأثور ،

وفى الغالب يفضل أحد الأقوال . ولا يروى من الإسرائيليات والنصرانيات إلاّ بقدر . وينص فى كثير من الأحيان على أن هذه أشياء لا قيمة لها ، والجهل بها ليس ضاراً ، كالسؤال عن المائدة التى نزلت من السماء على عيسى ، هل كان عليها طعام أم لا ، وإذا كان عليها طعام فما هو . وهكذا ، فيقول العلم بذلك غير نافع .

وكذلك يقول مثلا فى إخوة يوسف الذين باعوه بدراهم معدودة بكم باعوه ، فيقول : إن الله لم يحدّد لنا مبلغ ذلك ، ولا ورد لنا خبر من رسول الله ، وليس للعلم بذلك فائدة تقع فى دين ، ولا فى الجهل به ضرر . والإيمان بظاهر التنزيل فرض ، وما عداه ، فموضوع عنا تكلف علمه ، كثير من أمثال ذلك مما يدل على حسن عقله . وكان ذا علم كبير باللغة ، فيفضل شرح معنى لفظ على شرح معنى آخر ، بفضل علمه الواسع باللغة . كذلك كوّن له عقيدة مثل الاختيار لا الجبر ، ثم رجح التفسير الذى يؤيد هذا الاعتقاد . وجادل المعتزلة فى بعض أقوالهم من غير أن يسميهم . وقد كانوا فى هذا الوقت ظاهرين . فمثلا يقول فى قوله تعالى : « وقالت اليهود يد الله مغلولة » إن بعضهم يفسر اليد بالنعمة ، ولو كان كذلك لم يقل تعالى : « بل يداه مبسوطتان » لأن نعمة الله لا تحصى ، ولو كانتا نعمتين كانتا محصاتين . وهكذا وهكذا .

تعرّض للنزاع الذى وقع بين الفرق وأدلى فيه برأيه . ومع هذا الفضل الكبير له ، فقد هوجم من المحدّثين وخصوصاً من الحنابلة ، وناله الضرر منهم وهو فى درسه . فلما احتجب فى بيته رمَوْه بالحجارة حتى صارت أمام بيته أكواما . وذهب آلافٌ من الجند ليحموه . فلما مات لم يحتفل بجنازته . والله تعالى لا يعبأ

بكل ذلك . فقد أكرمه الله بخير من هذه المظاهر جزاء جدّه وفضله .

* * *

ومع هذا فقد كان فى العصور الأولى قوم يستعملون العقل أيضاً فى التفسير . وربما كان من أشهرهم مجاهد ؛ فقد كان مطلعا يميل إلى الآراء العقلية ، فيقول مثلا فى قصة مسخ أهل السبت قردة : إن الله لم يمسخهم فى أجسامهم بل فى قلوبهم . ويفسر بعض الأحاديث التى ورد فيها اهتزاز عرش الرحمن بالرضا . ثم ظهر على توالى الأزمان نواة التفسير العقلى على يد المعتزلة ، ونجد مصداق ذلك فى مثل الآيات التى فسرها الجاحظ فى كتابه الحيوان ، والآيات والأحاديث التى روى تفسيرها عن النظام . وبلغت هذه الحركة أيضاً ذروتها فى عصرنا هذا الذى نؤرخه على يد الزمخشرى فى الكشاف .

* * *

فقد ألّف كثير من المعتزلة كتب تفسير كثيرة ، تبلغ المئات ولكن لم يصلنا منها شىء . إنما وصلنا منها كتاب مجالس الشريف المرتضى ، فقد كان يعقد مجالس يفسر فيها القرآن والحديث واللغة على طريقة المعتزلة إذ كان هو نفسه شيعياً معتزلياً . وقد وصلت إلينا هذه المجموعة وطبعت فى مصر باسم أمالى المرتضى . فالآيات التى ذكرها فسرها تفسيراً يوافق الأصول الخمسة للمعتزلة التى ذكرناها عند الكلام على المعتزلة ، كقوله تعالى : « واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه » فظاهر هذه الآية يخالف ما يذهب إليه المعتزلة من حرية إرادة الإنسان ، فأولها حتى لا يخرج عن مذهبهم . ومثل قوله تعالى « خلق الإنسان من عجل » لأن العجلة فعل من أفعال الإنسان ، فكيف تكون مخلوقة فيه لغيره ؟ ولو كان كذلك ما جاز أن ينهاهم عن الاستعجال فى قوله تعالى « سأريكم آياتى ، فلا تستعجلون » فكيف

ينهاهم عما خلقه فيهم ؟ وأفاض فى اللغة لعلمه الواسع بها ، فأوّل مثلا « واتخذ الله إبراهيم خليلا » بأن الخليل معناه الفقير إلى رحمة الله من الخلة ، استيحاشاً من أن الله يكون خليلا لأحد من خلقه ، مستدلا بقول زهير :

وإن أتاه خليـلٌ يومَ مسغَبةٍ يقول لا غائب مالى ولا حَرِنُ

أى إن أتاه فقير .

ولـكن على كل حال تعطينا هذه المدارس تفسيراً لبعض الآيات لا كلها على مذهب المعتزلة .

أما الذى يعطينا صورة كاملة ، فهو تفسـير الزمخشرى المسمى بالـكشاف ، فإن بلغ تفسير ابن جرير الذروة فى التفسير بالمـأثور ، فقد بلغ الزمخشرى الذروة فى التفسير بالرأى .

ويمتاز تفسير الزمخشرى ببيان أساليب القرآن وبلاغته ودلالة إعجازه . وقد استطاع الزمخشرى أن يفعل ذلك لتمـكنه العظيم من اللغة والأسـاليب العربية .

كما يدل عليه فى كتابه الأساس ، وتفرقته فيه بين الحقيقة والمجاز . وساعده على ذلك مكثه مدة فى الحجاز وسمـاعه بعض الأساليب العربية التى أثبتهـا فى التفسـير وطال مكثه فيه ، لقّب « بِجَـارِ الله » . وكما كان متمكناً من اللغة كان متمكناً أيضاً من مذهب الاعتزال . فأوّل كل الآيات التى تتصـل بالأصول الخمسة كحرية إرادة الإنسان ، ووجوب العدل ، وتحقيق الوعد والوعيد ، ووحدة الذات والصفات ، إلى آخر ما يذهب إليه المعتزلة .

فمثلا يفسر قوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » بأن الرؤية بالفؤاد لا بالأبصار . وإذا قال القرآن « وإذا أردنا أن نُهلك قريةً أمرنا مُترفيها ففسقوا فيها فحقّ عليها القول فدمّرناها تدميراً » فظاهر الآية يدل على أن الإنسان

مجبر أن يفعل المعصية ، وهذا مخالف لمذهبهم ، فهو يؤول الآية حتى تلتئم مع مذهبهم . ومفتاح الكشاف قوله تعالى «هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أمّ الكتاب وأُخَر متشابهات» فالمحكمة هى آيات الأصول الواضحة المعنى ، مثل قوله تعالى « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » فإذا أتت آية أو آيات تدل على خلاف ذلك وجب أن تؤول ، فقوله تعالى « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » يفسر برضا الله ، وتوقع العبد للنعمة جرياً مع الآية الأولى . وقوله تعالى : « إن الله لا يأمر بالفحشاء » محكمة ، فيجب أن يفسر مثل قوله تعالى : « أمرنا مُتْرفيها ففسقوا فيها » بما ينطبق معها ، حتى لا تكون هناك مناقضة . وعلى هذا النحو سار فى كل تفسير ، من مثل قوله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبى عدواً شياطين الإنس والجن » فيقول إن جعل بمعنى بيّن لا بمعنى فعل كقول الشاعر :

جَعَلْنَا لهم نَهْجَ الطريق فأصْبَحُوا
على ثَبَتٍ من أمرهمْ حيثُ يَمّموا

* * *

ويذهب الزمخشرى فى كثير من الآيات إلى اللجوء إلى اعتبار الآيات من قبيل المجاز أو الاستعارة أو التشبيه كقوله تعالى « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال ، فأبين أن يحملنها الخ » . فيذهب إلى أن عرض الأمانة من قبيل المجاز ، والأمانة هى الطاعة . وكقوله تعالى « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله » . فهو يقول هذا تمثيل وتخييل .

وكذلك سلك هذا المسلك فى قوله تعالى : « ثم استوى إلى السماء وهى دخان ، فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها » فيقول : إن أمر السماء والأرض

بالإتيان وامتثالها أنه تعالى أراد تكوينهما فلم يمتنعا عليه ، ووجدتا كما أرادهما ، وكانتا فى ذلك كالمأمور المطيع إذا ورد عليه أمر الآمر المطاع الخ الخ .

وكذلك فعل فى كل ما يدل على تجسيم الله كاليد والوجه والعرش والاستواء ونحو ذلك ، فكلها عنده مجاز أو استعارة لا حقيقة ؛ لأن الله منزه عنها .

وكان رحمه الله فى طبيعته قاسياً ، فلم يكتف بالتفسير الذى يريده ، بل قسا على مخالفيه ، ورماهم بالجهل ، وأحياناً بالفسق ، مما ألّبهم عليه . حتى لم يسلم من لسانه أحياناً أصحابه من الرد عليهم والتسفيه لبعض آرائهم .

ومن ألطف ما فيه أنه كان لا يؤمن بالسحر والخرافات كرؤية الجن . فلما أتت الآيات يدل ظاهرها على السحر والعين مثل قوله تعالى : « يا بنىّ لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » وسورة الفلق ، أوّل النفّاثات فى العُقَد ، بمن يطعِمُ شيئاً ضارا ، أو يُسقيه ، أو يُشمّه ، أو يجوز أن يراد بهن النساء الكيّادات ، أو اللاتى يفتنّ الرجال بتعرضهن لهم ، وعرضهن محاسنهن كأنهن يسحرنهم بذلك . ونفى نفياً باتاً ما يزعمه العوام من رؤية الجن مستنداً على قوله تعالى : « إنه يراكم هو وقبيلُه من حيث لا ترونهم » الخ الخ .

فالحق أنه بذل فى هذا التفسير مجهوداً جباراً يدل على عقل كبير ، ومقدرة هائلة .

ولذلك كان موضع تقدير المعتزلة والشيعة والسنية على السواء . غاية الأمر أن غير المعتزلة كانوا يتحرجون فقط من موضع الاعتزال التى لا تتفق ومذهبهم .

ولذلك كان ابن جرير الطبرى والزمخشرى عمادَىْ كلٍّ من أتى بعدهما من المفسرين كالبيضاوى وأبى السعود والفخر الرازى وغيرهم .

ولئن شنّع عليه قوم فإنهم مع تشنيعهم يقرّون بفضله اللغوى والبلاغى وتبيين وجوه الإعجاز .

كان بجانب هؤلاء المفسرين بالمأثور ، والمفسرين بالرأى على مذهب الاعتزال قوم يفسرون بالرأى على مذهب الشيعة ، من تمجيد علىّ ونسله ، وتحقير أبى بكر وعمر وأمثالهما . ويؤولون التأويلات البعيدة فى ذلك ، كقولهم إن البقرة التى أمر قوم موسى بذبحها هى عائشة ، وأن الجبت والطاغوت هما معاوية وعمرو بن العاص ، إلى آخر أقوالهم من ترهات .

وذهب قوم آخرون إلى تفسير القرآن بالتفسير الذى يتفق مع العقل المطلق ؛ فكل ما ورد فى القرآن مما قد يخالف العقل أولوه . حتى ذهبوا فى ذلك مذاهب غريبة . فلما رأوا مثلا أن الأطفال الذين غرقوا فى الطوفان مع آبائهم لم يكونوا مذنبين قالوا : إن الله أعقم النساء قبل الطوفان ، فلم تحمل منهن واحدة خمس عشرة سنة . ولما استبعدوا أن يلبث نوح فى قومه ألف سنة إلا خمسين عاما قالوا : إن المراد بذلك شريعته لا شخصه . وفسروا خروج ناقة صالح بالحجّة الدامغة ، وشربها ماء العين بإبطال تلك الحجة جميع ما خالفها . وقالوا فى معجزة إبراهيم عليه السلام : إن إبراهيم سحر أعين الناس الذين أوقدوا له النار وطرحوه فيها ، وطلا جسمه ببعض الأدوية التى يبطل معها عمل النار .

وقالوا فى أصحاب الفيل الذين أهلكهم الله بحجارة من سجِّيل : إنه أصابهم الوباء من الماء والهواء ، فحصّبوا وجدّروا وأهلكوا . وقالوا فى الهدهد الذى لم يره سليمان : إنه رجل . والنمل الذى جاء فى «أتوا على وادى النمل» قوم ضعاف خافوا من عسكر سليمان ، والجن والشياطين الذين سخروا لسليمان هم عتاة الناس وأشداؤهم ، وحذّاقهم ، وعرفاؤهم بالأمور الغامضة . وكذلك فى جميع معجزات الأنبياء . ولم يقروا لمحمد صلى الله عليه وسلم إلا بمعجزة القرآن .

وربما دعاهم إلى ذلك ما ذهب إليه القصاص من ولعهم بالغرائب ، كالذين

قال فيهم القائل : « الحديثُ لهم عن جملٍ طَارَ أشهى إليهم من الحديث عن جمل سمار . ورؤيا مُرَّية ، آثر عندهم من رواية مروية » فى المعجزات وفى قصص الأنبياء ، ونحو ذلك ، كالذى نراه فى كتاب الثعلبى النيسابورى وتفسيره المسمى « العرائس فى قصص الأنبياء » والذى نرى مثله فيما بين أيدينا فى تفسير الخازن .

☆ ☆ ☆

وفى هذا العصر ذهب قوم إلى القول فى التفسير بالوقف . قالوا إنا رأينا فى القرآن آيات تدل على الجبر ، وآيات تدل على الاختيار ، ولا ندرى كيف يؤوّل بعضها إلى الآخر . فلنقف عند حدود ذلك ، وندع علمها لله تعالى . وكثير من الآيات دلت على وجهين مختلفين ، واحتملت معنيين متضادّين . وكان من أشهر القائلين بهذا الرأى عبيدُ الله بن الحسن الأنبارى ، وقد سئل عن أهل القدر وأهل الجبر ، فقال ، كلٌّ مصيب : هؤلاء قوم عظموا الله ، وهؤلاء قوم نزّهوا الله . وكذلك القول فى الأسماء ، فمن سمّى الزانى مؤمنا فقد أصاب ، ومن سماه كافراً فقد أصاب . ومن سماه فاسقا فقد أصاب ، ومن قال منافقاً فقد أصاب ، لأن القرآن دلّ على كل هذه المعانى . وسميت هذه الطائفة بالوقوف ، جمع واقف ، كالقعود والجلوس ، جمع قاعد وجالس . وذهب قوم إلى تفسير القرآن تفسيراً صوفياً ، فهم يفسرون الآيات التى تدل على مظاهر الأشياء تفسيراً يدل على النفس أو الشيطان أو الملائكة أو نحو ذلك من مثل ما يذهب إليه الجنيد والسفيان الثورى . وهكذا تشعبت الآراء ، واختلفت المذاهب ، وأصبحوا يخضعون القرآن للمذهب ، بعد أن كانت تخضع المذاهب للقرآن .

الحـــــديث

تضخم الحديث حين بلغ عصرنا هذا الذى نؤرخه ، ودونت كتب كبيرة كالبخارى ومسلم . وأكثر منهما مسند ابن حنبل . و بلغ مجموع أحاديثه نحو ٦٠٠٠٠ ألفا . وهذا التضخم يرجع فيه إلى سببين : الأول كثرة الوضع ، فقد دخل فى الحديث كثير من حكم الأمم المختلفة ، واندسّ فيه بعض عقائد الأمم القديمة ؛ والثانى اجتهاد العلماء فى الجمع . فقد كان علماء الحديث يرحلون إلى الجهات المختلفة ، و يزاحمون التجار فى الخانات .

و بجانب جمع الحديث نشأ حوله كثير من العلوم مثل علم الناسخ والمنسوخ من الأحاديث ، فإذا رأوا حديثاً يناقض حديثاً آخر ، وعرف المتأخر منهما ، دل ذلك على أن المتأخر ناسخ للمتقدم . ومثل علم الجرح والتعديل يذكرون فيه الصفات التى تلزم المحدث حتى يكون عدلا ، فإذا نقصها أو نقصِ صفة منها لم يحز صفة العدل ، إلى غير ذلك من العلوم .

وفى هذا القرن الرابع ظهرت فكرة أنه يجوز الاكتفاء فى رواية الحديث بما فى الكتب . وقد ذكروا أن ابن مَنْدَهْ كان خاتمة الرحّالين . وعدّوا ابن يونس الصَّفَدى المتوفى سنة ٣٤٧ إماما حافظا للحديث و إن لم يرحل . وكان المحدثون يعدون أكبر العلماء شأنا ، فيبجلون و يعظمون و يغدق المال عليهم أكثر من الفقهاء والنحاة وغيرهم .

وكان لرواية الحديث مزيّة ، وهى تقوية ذاكرة المحدثين . فكان بعضهم يحفظ الآلاف من الأحاديث بسندها مع صعوبة السند ، وتشابهه . فيروون أن ابن ميسِّر المتوفى سنة ٤٠١ كان عنده درج طويل طوله سبعة وثمانون ذراعاً مملوء

الوجهين ، فيه أوائل ما يحفظه من الأحاديث . وكان قاضى الموصل المتوفى سنة ٣٥٥ يحفظ مائتى ألف حديث عن ظهر قلب . وكان بعضهم يتعبد بقراءة الحديث ، فيروون أن الخطيب البغدادى قرأ صحيح البخارى على كريمة بنت أحمد المروزى فى خمسة أيام ، وكان أكبر محدثى القرن الرابع أبا الحسن الدارقطنى ، والحاكم النيسابورى . وربما كان الحاكم هذا أعظمهما . فقد وضع مصطلحات الحديث من صحيح وحسن وضعيف ، وجعل لها أصولا ، ووضع لذلك أساسا بقى معمولا به إلى اليوم . وقسم الرواة إلى أنواع ، وجعل الجرح والتعديل أنواعاً ، ولكل نوع لفظا : فأعلاها ثقة ، أو متقن ، أو ثبت أو حجة ، أو عدل ، أو حافظ ، أو ضابط ؛ والثانية صدوق ، أو محله الصدق أو لا بأس به . ويقال إنه سبقه إلى ذلك ابن أبى حاتم المتوفى سنة ٣٢٧ . وقام العلماء بنقد الحديث ، ونقد السند ، وتأريخ المحدثين ، والحكم عليهم أو لهم . وأصبح الجرح والتعديل مبنيين على أصول من مثل كتاب التاريخ للبخارى . ووصلوا فى ذلك إلى غاية بعيدة . فالخطيب البغدادى المتوفى فى القرن الذى بعد قرننا يحكون عنه أنه كان عالماً بالرجال علماً واسعاً ، حتى إنه ألَّف كتاباً فى رواية الآباء عن الأبناء ، وآخر فى رواية الصحابة عن التابعين . وربما كانت كتاب السير والعناية بالتاريخ منشؤها عناية المحدثين برجال الحديث ، حتى إن الأدباء والمؤرخين قلدوا المحدثين فى ذكر السند ، كما فعل أبو الفرج الأصفهانى فى الأغانى ، والطبرى فى تاريخه ، فإنهما يذكران السند مع أن السند فى الأدب ليست له قيمة كبرى . فإن الخبر الأدبى ، أو القطعة الأدبية لها قيمة ذاتية ، ولو لم يصح سندها .

وقد قالوا : إن الخطيب البغدادى أبان دقة فائقة على نقد الوثائق المكتوبة ؛ وإثباته تزويرها ، ومعرفته تواريخ حياة الرجال الذين يذكرون فيها .

ولئن كان للمحدثين محامد من ناحية الجدّ فى الجمع والنقد ، وعدم الاكتراث بالمتاعب ، والصبر على الفقر ، ونحو ذلك ، فقد كان لهم والحق يقال بعض الأثر السيئ فى المبالغة فى الاعتماد على المنقول دون المعقول ، خصوصا بعد ما مات المعتزلة : فقد كان المعتزلة هؤلاء حاملى لواء العقل ، والمحدثون حاملى لواء النقل . وكان عقل المعتزلة يلطف من نقل المحدثين . فلما نكل بالمعتزلة على يد المتوكل ، عَلاَ منهجُ المحدثين ، وكاد العلم كله يصبح رواية . وكان نتيجة هذا ، ما نرى من قلة الابتكار ، وتقديس عبارات المؤلفين ، وإصابة المسلمين غالباً بالعقم ، حتى لا تجد كتاباً جديداً ، أو رأيا جديداً بمعنى الكلمة . بل تكاد العقول كلها تصب فى قالب واحد جامد .

واتخذت التراجم شكل تراجم المحدثين من ذكر وقائع وأحداث من غير تجديد ، كالذى تراه فى الأغانى . ومن الأسف أن منهجهم ساد منهج المعتزلة وغلبهم . وكان منهج المعتزلة منهجاً متيناً دقيقاً حتى لم يستطع أن يفرّ منه إلا القليل .

كما يؤخذ عليهم أنهم عُنُوا بالسند أكثر من عنايتهم بالمتن . فقد يكون السند مدلّساً تدليساً متقناً فيقبلونه ، مع أن العقل والواقع يأبيانه . مثل « من أكل سبع بلحات عجوة ، لم يصبه فى ذلك اليوم سم » ، ومثل « لا يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة الخ » .

بل قد يعدّه بعض المحدثين صحيحاً ، لأنهم لم يجدوا فيه جرحاً ، ولم يسلم البخارى ولا مسلم من ذلك . وربما لو امتحن الحديث بمحكّ أصول الإسلام ، لم يتفق معها ، وإن صح سنده .

وقد كان من بعض المحدثين من تدخل عليهم أساليب الدهاة المكرة

الوضاعين . ولذلك قال بعضهم فى بعض المحدثين « إننا نطلب دعوته ، ولا نقبل حديثه » . وقد جنى منهج الحديث على كل علم آخر ، فقل الابتكار فى اللغة والأدب ، والنحو والصرف . فكانت عبارة عن حكاية أقوال المتقدمين . وإن اختلفت فى شىء فيما بينها ، ففى التعبير الصعب أو السهل فقط . وفى الاختصار أو التطويل فقط .

وإذ كانت للمحدثين سلطة كبرى كان من خرج على منهجهم قِيدَ شعرة ، شُغّب عليه ، ورمى بالزندقة .

وفى التاريخ أمثلة كثيرة من هذا القبيل ، من أولها ما ذكرنا قبلُ من اضطهاد المحدثين لابن جرير الطبرى . وأسوأ ما فى هذا أن الأمر لم يقتصر على العداء بين العلماء بعضهم مع بعض ، بل اجتهد كل فريق أن يدخل العامة فى الموضوع ، ليستعين بهم فى التنكيل بخصومه .

ولكن مع هذا كله لا ننسى أنه بفضلهم نقدت الوثائق الدينية والدنيوية نقد دقيقاً يشبه ما يضعه علماء التاريخ اليوم .

علم الكلام

نشأ علم الكلام من الحاجة إلى الدفاع عن الإسلام أولاً دفاعا مسلحاً بالفلسفة ، كما كان المهاجمون مسلحين بها . وثانياً لأن المسائل كلها حتى الدين تحولت إلى علوم بعد أن كانت سائرة على الفطرة .

ولم يعدم بعض العقول ، أن يثيروا مسائل كانت تثار فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين فتكبت . ثم نجمَتْ فيما بعد ولم تكبت ، مثل هل صفات الله غير ذاته أو هى هى ، وهل الإنسان مجبور أم مختار ، وهل مرتكب الذنوب فاسق أو مؤمن أو كافر ونحو ذلك .

وقد دعت إثارة هذه المسائل والتبحر فيها إلى إثارة مسائل أخرى عويصة ، كالطفرة ، والذرّة ، ونحوها . وقد ساعد على هذا التوسع أن أمثال هذه المباحث كانت أثيرت عند اليونان ثم نقلت إلى العربية .

وكان للمعتزلة الفضل الأكبر فى علم الكلام ، لأنهم كانوا أكبر المدافعين عن الإسلام لما كان يثيره اليهود والنصارى الوثنيون من هبوب . حتى لقد كانوا فيما روى يرسلون أتباعهم الكثيرين إلى البلدان الأخرى لرد هذا الهجوم ردًّا عقليا .

وذاع صيتهم ، وعلا شأنهم بوجود طائفة ممتازة منهم ، مثل واصل بن عطاء وأبى هذيل العلّاف ، والنظام والجاحظ ، وغيرهم ، بسبب ما أثير من مسألة خلق القرآن . فقد نشأت عنه مسألة كلامية ، وهى أن أهل السنة يقولون : إن لله صفات غير ذاته . و يقول المعتزلة : إن صفات الله عين ذاته ؛ ونشأ عن ذلك أن أهل السنة يقولون : إن لله صفة الكلام غير ذاته ، وهى صفة متصلة به ، والقرآن قديم بمعنى أنه كلام الله القديم ، الذى كان من أثره القرآن المقروء الذى أنزل

على محمد . ولم يقولوا فى الأصل إن القرآن الذى هو فى المصحف قديم ، و إنما القديم هو كلام الله . و إذ كان المعتزلة ينكرون أن لله كلاماً غير ذاته نتج عن ذلك قولهم بخلق القرآن . ودار الجدل الطويل فى ذلك على النحو الذى ذكرناه من قبل فى ضحى الإسلام .

وكانت المسائل الكلامية تدور بين الفرق الخمس التى شاعت فى هذا الوقت ، وهى أهل السنة ، والمعتزلة ، والمرجئة ، والخوارج ، والشيعة . وكانت كل فرقة من هذه الفرق ، تنقسم إلى طوائف قد تختلف فيما بينها كثيراً أو قليلا . فإذا كان الخلاف على العقائد وما يتصل بها فذلك علم الكلام ، و إذا كان الخلاف على الفروع وما يتصل بها ، فذلك علم الفقه .

ونلاحظ أن علم الكلام أولا كان مختلطاً بالفقه ، وكانت هناك مسائل فقهيه فى ثنايا علم الكلام . ثم تحرر علم الكلام عن الفقه بفضل المعتزلة .

وأضافوا إلى المسائل الأولى التى كانت تثار مسألة الإمامة . وربما كان للشيعة أكبر دخل فى ذلك ، لأنهم كان لهم منهج مخصوص يخالف مذهب أهل السنة . ومن أهم مسائلهم مسألة القدر ، وهى مأخوذة عن مذهب زرادشت . ولذلك يقال لهم الثنوية . ويقول ابن حَزْم : « إن المعتزلة هم الذين اخترعوا لفظ الصفات » ثم تُـكُلم بها فيما بعد . و يصف المعتزلة بأنهم يمتازون بخصال أربع : وهى اللطافة ، والدِّراية ، والفسق ، والسخرية » وكانوا مولعين بالجدل ، كما اشتهر بذلك الجاحظ ، ومن أجل هذا سمّى هذا العلم علم الكلام .

و يظهر منهجهم فى الوصف الذى وصفناه للمنهج الذى اتبعه فى التفسير الزمخشرى كما بينا .

وكان عدوهم اللدود أهل السنة .

وكان أبو الحسن الأشعرى معتزلياً أولا ، ثم خرج عليهم ، وحاربهم بمثل سلاحهم ، وأخذ من مذهبهم بعض الأشياء ، ومن مذهب خصومهم بعض الأشياء ، فكان مذهباً مختاراً ، حاول فيه أن يوفق بين العقل والنقل .

ويقول فى بعض كتبه » قولنا الذى نقول به ، وديانتنا التى ندين بها ، التمسك بكتاب الله ، وسنة نبيه ، وما روى عن الصحابة والتابعين ، وأئمة الحديث . وبما عليه أحمد بن حنبل . ونحن بأقواله قائلون ، ولمن خالف قولُه قولَه مجانبون » ولكن بعض كبار أهل السنة لم يرضوا عنه كل الرضا ، ورأوا أن فى بعض تعاليمه دسائس من أصول المعتزلة .

وقد شنع عليه فى الأندلس الإمام ابن حزم ، وسلقه بلسان حادّ فى كتابه « الملل والنحل »

المراجع

فى التفسير :

ابن جرير الطبرى . الزمخشرى مقدمة ابن خلدون . المذاهب الإسلامية ، وتأثيرها فى التفسير لِجُولْد زيهر ، تعريب الأستاذ حسن عبد القادر . متز .

وفى الحديث :

مقدمة ابن خلدون . متز ، تعريب أبى ريدة . أبْجَد العلوم .

وعلم الكلام :

مقدمة ابن خلدون أحسن التفاسير للمقدسى . متز . أبو بكر الباقلانى . وفيات الأعيان ، لابن خلكان .

الباب الثانى

الفقه والتصوف

ذكرنا فى فجر الإسلام وضحاه تاريخ الفقه فى العصور المتقدمة ، حتى إذا جاء عصرنا هذا تحول الفقه تحوّلا جديداً ، وأكبر مظاهر هذا التحوّل سدّ باب الاجتهاد . فقد وصل الفقه إلى ذروة مجده فى القرون السابقة . فلما جاء هذا القرن أقفل العلماء باب الاجتهاد ، وكان ذلك طبيعيا لحالة العصر . قال سعيد بن الحدّاد الفقيه القيروانى : « إن الذى أدخل كثيراً من الناس فى التقليد نقص العقول ، ودناءة الهمم » وكانت وفاته سنة ٣٣٠ . وكان من نتيجة ذلك :

(أولا) اقتصارهم على النقل عمن تقدم ، وانصرافهم لشرح كتب المتقدمين ، وتفهمها ، ثم اختصارها .

(ثانياً) جمع الفروع الكثيرة فى اللفظ القليل مما جنى على الفقه وسائر العلوم .

(ثالثاً) اقتصارهم على التحشية والقشور .

(رابعاً) كثرة الفروض فى المسائل .

وكانت هذه الحال نتيجة طبيعية للتاريخ السياسى والاجتماعى ، فالخلفاء كانوا تحت سيطرة الأتراك حيناً ، وتحت سيطرة الديلم من بنى بويه حيناً آخر . وهؤلاء الديلم والأتراك لم يكونوا يحسنون اللغة العربية إحسان من قبلهم . وأتت بعد ذلك غارة التتار فقضت على البقية الباقية من المدنية والحضارة ، وعلوّ الهمة .

وقد كان نشاط الفقهاء من قبل نشاطا غير محدود ، فلما أغلقوا باب الاجتهاد

توجّه نشاطهم إلى المسائل التي ذكرناها ، من اختصار لما مضى ، ووقوف على أقوال الأئمة السابقين ، وفرض الفروض ، وخصوصاً في بابي العتق والطلاق .

والسبب في ذلك أن الرقيق كان قد كثر في البيوت من نساء ورجال وأطفال . وحدثت حوادث للرقيق كثيرة ، من إباق ومكاتبة وغير ذلك ، فتوسع الفقهاء في هذا الباب كثيراً . وأما الطلاق فيظهر أنه قد كثر في ذلك العصر بسبب تعدد الزوجات ، وكثرة الإماء ، وغَيْرَة الحرائر من الإماء ، والإماء بعضهن من بعض ، فكثرت الفروض والأحكام في هذا الباب .

وكان اللغويون أيضاً يفرضون الفروض الكثيرة للتعليم ، فيقولون كيف تشتق من كذا على وزن كذا ، فقلدهم الفقهاء في ذلك لفراغ ذهنهم من المسائل الكلية ، مثل أن يقولوا : ما حكم من قال : أنت طالق واحدة قبلها واحدة ، بعدها واحدة ، وما حكم من قال : أنتِ طالق نصف تطليقة أو ربع تطليقة ، وهكذا من الفروض السخيفة .

ومن مظاهر الفقه في هذا العصر أيضاً شيوع التعصبات المذهبية ، فقد كان الأئمة أنفسهم متسامحين ، وكانوا لا يعيبون اجتهاد زملائهم . وقد فهموا تمام الفهم حرية الرأي كالذي نراه في رسالة الليث ابن سعد إلى مالك بن أنس ، ومع ما كان ما يبديه الشافعي من نقد أبي حنيفة كان يقول « الناس في الفقه عيال على أبي حنيفة » ، ويقول : « مذهبنا صواب يحتمل الخطأ ، ومذهب غيرنا خطأ يحتمل الصواب » ، ويجتهدون في التدليل عليه ، ونقد أقوال خصومهم . وكل ما فعلوه أن اجتهدوا النوع الاجتهاديّ الوضيع الذي يسمى اجتهاد مذهب . وذلك يقضي فقط بأنه إذا روى عن الإمام روايتان ، رجَّح الفقيه رواية أو رأيا .

ولنقصّ طرفاً من أمثال هؤلاء . فمن أمثال ذلك أن أبا الحسن الكرخي

رئيس الحنفية بالعراق ، والمتوفى سنة ٣٤٠ ، صنَّف المختصر ، وشروح الجامع الصغير والجامع الكبير لمحمد بن الحسن   أما أن يكون له رأى فى مسائل جديدة يجتهد فيها ، فلا . ومثل أبى الحسن القدورى ، ألّف المختصر المشهور ، وشرح مختصر الكَرْخى ، وصنَّف كتاب التجريد ، وهو يشتمل على الخلاف بين أبى حنيفة والشافعى .

ومن شدة خلافاتهم وتعصبهم لمذهبهم وكثرة جدالهم ، نشأ علم يسمى آداب البحث والمناظرة ، يقصدون منه الشروط التى يتبعها المجادل فى جدله ، إذا أصبح فوضى . وقد جعل الغزالى المثل الأعلى لها فى شروط ثمانية .

(١) أن لا يمعن فى البحث ، ولا يشتغل به ما أمكن .

(٢) أن الجدل فرض كفاية ، فإذا رأى فرض كفاية آخر أهمّ منه اتجه إليه .

(٣) أن يكون المناظر مجتهداً يفتى برأيه ، إلا بمذهب معين حتى إذا ظهر له الحق من مذهب أيا كان ذهب إليه .

(٤) ألا يناظر إلا فى مسائل واقعية أو قريبة الوقوع .

(٥) أن تكون المناظرة إليه فى الخلوة أحب إليه من المحافل ، وبين الأكابر والسلاطين .

(٦) أن يكون فى طلب الحق ، كناشد ضالة ، لا يفرق بين أن تظهر الضالة على يده أو على يد غيره .

(٧) ألا يمنع خصمه من الانتقال من دليل إلى دليل ، فلا يقول إن هذا يناقض كلامك الأول ، فلا يقبل منك . فإن الرجوع إلى الحق يجب قبوله .

(٨) أن يناقش من يتوقع الاستفادة منه ، ولا يقصد الضعيف ليتغلب عليه .

وقال « إن من آفة المناظرة فى عصره الحسد والتكبر والترفع على الناس والغيبة والتجسس ، والنفاق ، والإصرار على الرأى مهما ظهر بطلانه » الخ .

وربما كانت كثرة المناظرات ، وتظاهر العلماء بالغلبة وحبهم للتقرب من العظماء من الأمور التى أوجبت على الغزالى تركه لمنصبه كمدرس فى المدرسة النّظامية ، وتزهّده فى دمشق .

وكان من مظاهر هذا العصر التزام مذهب بأكمله كالشافعى والحنفى فى كل المسائل وتحريم انتقاله من مذهب إلى مذهب كأنه انتقال من دين إلى دين . كذلك من مظاهر هذا العصر ظهور مذهب الشيعة فى المغرب ومصر والشام ، ومحاربته للمذاهب السنية كمالك والشافعى فى قسوة وجبروت ، وفرض المذهب الشيعى على الناس بالقوة . وقد عاقبوا بالقتل رجلا رأوا عنده كتاب الموطأ لمالك . وهكذا فعلوا فى المغرب ، فيحكى لنا القاضى عياض فى المدارك ، كيف أسرف الفاطميون فى فرض المذهب الشيعى ، وقَتْل من أباه ، فيقول فى ترجمة أبى بكر بن هذيل وأبى إسحاق بن البرذَوْن كيف سجنا وربطا فى أذناب الدواب حتى ماتا لعدم إفتائهما بمذهب أهل البيت . وكذلك فعل أهل السنة فيما بعد لما تمكنوا من الشيعة ، فقد قضوا على مذهبهم . وكل هذا سببه السياسة مغطاةً بغطاء الدين .

ونكبة النكبات والمصيبة العظمى ما كان من الخلاف بين الفقهاء والصوفية فالإسلام فى جوهره لم يكن يفرق بين الاثنين ، بل يأمر بالأعمال الظاهرة ، ويطلب إصلاح الباطن ، ومراقبة الله فى أدائها . يدل على ذلك قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون » فهو يطلب الصلاة ، ويطلب خشوع النفس فيها . وكذلك كان يفعل الصحابة والتابعون ، يؤدون الشعائر ،

ويحسنون النية . فلما كثر الفقهاء ، وتغلغلوا فى الفقه ، رأيناهم يغالون فى مراعاة الشمائر الظاهرة من وضوء وصلاة وزكاة ، ومتى تصح ومتى لا تصح ، من غير تعرض كثير للنية ومحاسبة الروح ونحو ذلك من الأعمال الباطنية النفسية . ومن ناحية أخرى تغالى الصوفية فى الأعمال النفسية الروحية ، ولم يضغطوا ضغطا كافيا على الأعمال الظاهرة . فكان هناك فقهاء وصوفية وعداء بين الفقه والتصوف الصوفية يرمون الفقهاء بأنهم لا يعبأون إلا بالقشور من مظاهر الأمور ، والفقاء يرمون الصوفية بأنهم غلوا فى أحوال الروح أكثر مما كان يعرفه الإسلام ، وسموهم أهل الباطن .

هذه ناحية . ومن ناحية أخرى ، فقد كان هناك فى مبدأ الإسلام بعض الناس يميلون إلى الزهد إما لأنهم فشلوا فى الحياة فتزهدوا ، وإما لأنهم لم يجدوا ما يغتنون به فتزهدوا ، وإما لأن لهم مزاجاً خاصاً يكره الدنيا ونعيمها ، والحياة وزخرفها ، فتزهدوا ، وإما لأن إحساسهم رقيق ، ملأ الخوف من النار نفوسهم وخافوا أن يحاسبوا يوم القيامة حساباً عسيراً على مالهم ونعيمهم ، وسمعوا قوله تعالى « إن الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » ، فتزهدوا .

وقد حكى لنا التاريخ أمثلة كثيرة من المتزهدين فى صدر الإسلام ، فمنهم من كان يأبى على نفسه أى نعيم ، ويتمسك بقوله تعالى : « قل متاع الدنيا قليل ، والآخرة خير لمن اتقى » فكانوا يزهدون فى الأكل والنوم والاختلاط بالناس ، وسائر اللذات البدنية . كما قال القشيرى : « من كان له رداء واحد ، خير عند الله ممن له رداءان » . وكانوا يتبتلون ويكثرون من الصبر ، ويتناظرون فى أيهما خير عند الله : الغنى أم الفقير . ومنهم من تزهدوا

بأشكال أخرى حتى فيما أحلَّ الله . وقد فسر بعضهم قوله تعالى : « ثم لتسألن يومئذ عن النعيم » بشرب الماء البارد ، فامتنعوا عنه خوف السؤال ... فلما جاء المتصوفة فلسفوا الزهد ، وجعلوه مقامات وأقساماً . وكان من زهدهم لبس الصوف الخشن كما يفعل رهبان النصارى ، فسموا من أجل ذلك بالصوفية . وهذه النسبة هى الصحيحة ، وهى التى تتفق مع اللغة . ثم إن التصوف لما كان مختلطا مع الفقه فى العصر الأول كان إسلامياً بحتاً ، وكان الزهد طوعا للأوامر الإسلامية ، وظلَّ كذلك طول العهد الأموى . وفاتحة هذا النوع الحسن البصرى . فلما دخل فى الإسلام كثير من الأمم الأخرى وأهل الديانات الأخرى كالنصارى واليهود والفرس والهنود ، وانتشرت الفلسفة اليونانية والأفلاطونية الحديثة استمد التصوف من كل هذه المنابع ، فلوّن عند بعض الناس بالزرادشتية الفارسية ، وبالمذاهب الهندية . ولوّن عند بعض الناس بالنصرانية وعند بعضهم بالأفلاطونية الحديثة ، ثم اختلطت هذه العناصر كلها بعضها ببعض فكانت نزعات مختلفة ، وطرق مختلفة على مدى العصور . فنرى مثلا أن أبا يزيد البسطامى ، وكان فارسى الأصل يدخل على التصوف فكرة الفناء فى الله ، وأفكاراً أخرى لم تكن معروفة عند المسلمين من قبل . ومعروفاً الكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ كان من أصل مسيحى فارسى ، وعاش فى بغداد فى حىّ كرخ الذى ينسب إليه يقول مثلا أقوالا لم تكن مألوفة من قبل مثل : « إن محبة الله شىء لا يكتسب بالتعلم ، وإنما هى هبة من الله وفضل » وقوله : « يعرف أولياء الله بأمور ثلاثة : أن يكون فكرهم فى الله ، وأن يقوموا بالله ، وأن يكون شغلهم بالله » ومما ينسب إليه أنه قال يوما لتلميذه سَرِىّ السَّقَطى : « إذا كانت لك حاجة إلى الله فأقسم عليه بى » . ورابعة العدوية التى يدل اسمها على أنها عربية

ملأت التصوف بحب الله . وأبا سليمان الداراني المتوفى سنة ٢١٥ يقول : « لو تمثلت المعرفة رجلا لهلك كل من نظر إليها لفرط جمالها وحسنها ولطفها ، ولَبَدَا كل نور ظلاما إلى بهائها » وهكذا كان كلّ كبير من كبراء التصوف يدخل عليه لوناً جديداً ، ويصبغه صبغة جديدة ، حتى لتشعبت العناصر التي تكونت منها الصوفية الإسلامية ، وغمضت حتى على كبار الباحثين .

وناحية أخرى وهي أن الفقه وسائر العلوم تعتمد أكثر ما تعتمد على العقل وقضايا المنطق والبراهين العقلية . أما التصوف فيعتمد على الذوق والكشف ولا يخضع للمنطق ، ولا للعقل . شأنه شأن الحب كالذي قال :

ليس يُسْتَحْسَنُ في شَرْعِ الهوى عاشق يُحْسِنُ تأليفَ الحُجَجْ
بُنِيَ الحبُّ على الجَوْرِ فلو أنصف المحبوبُ فيه لَسَمُجْ

* * *

ونرى في الطبيعة أصنافاً ثلاثة من الناس : قوم قويت عقولهم ، وهم أميل إلى بحث النظريات العقلية ، وهؤلاء إلى العلم أقرب ، والتعلم في الجامعات أنسب وقوم اعتمادهم على قلبهم ، وإن شئت فقل على عاطفتهم أو ذوقهم ، وهؤلاء للفنون الجميلة من أدب وشعر وموسيقى وتصوير أنسب . وقوم مزيتهم في أيديهم وهؤلاء للصناعات أنسب . والأمة الحكيمة من تتخذ وسائل لمعرفة أبنائها ، لأي شيء هم أكثر استعداداً ، فتوجههم إلى ما خلقوا له .

والصوفية من النوع الثاني يعتمدون على الذوق وعلى الكشف والإلهام ، ولا يصح أن تسألهم عن الحجة العقلية فيما يقولون ، بل قد تغمرهم العاطفة فيشطحون ويتكلمون بما لا يفهمون . حتى كأنهم شعور بلا جسم ولا عقل ، وعاطفة بلا تفكير ، وهيَاج بلا رزانة . فمن عندهم هذا الاستعداد يصلحون للتصوف ،

وينبغون فيه بمقدار استعدادهم . أما من كبر عقله ، وسار فى حياته على القضايا المنطقية ، فقد يكون فيلسوفاً ، وقد يكون طبيعياً ، وقد يكون فقيهاً ، وقد يكون كل شىء إلا أن يكون متصوفاً .

ومن أجل ذلك لم أفهم إلى الآن أن يكون ابن سينا فيلسوفاً ومتصوفاً . فالفلسفة تعاند التصوف ، وهو يعاندها . وقد قرأت رسالة لابن خلدون العاقل فى التصوف وهى رسالة مخطوطة فلم أستحسنها ، إلا لأن كاتبها ابن خلدون . ورأيت أحسن ما فيها البحث فى أن سالك سبيل التصوف هل لا بد له من شيخ يأخذ عنه التصوف أو لا . وهو بحث عقلى لا صوفى . ومن أجل ذلك يسمّى الفقهاء إدراكاتهم معرفة . ويقولون : إن ما يعلمه الفقيه والفيلسوف بالعقل نراه نحن بالكشف .

وناحية أخرى وهى أن هناك فكرتين فكرة يصح أن نسميها بالاثنينيّة ، وهى تعتقد فى الله أنه مستقل عن الخلق يشرف عليه من فوق ، ويمد كل مخلوق بإمداداته ، ويدبر نظام الكون من أصغره إلى أكبره ، وهو فوق الأرض ، وفوق السماء ، وفوق كل شىء . وأن فى الكون موجودَيْن متميزين عن بعضهما كل التمييز ، مخلوق وخالق ومدبَّر ومدبِّر ، ومحكوم وحاكم .

أما الفكرة الثانية ، فترى الواحدية ، أو بعبارة أخرى ، وحدة الوجود ، وأن الله والخلق واحد ، والحاكم والمحكوم شىء واحد ، كما قال الحلاج :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا ❊ نحن روحان حللنا بدنا

فإذا أبصرتَه أبصرتنى ❊ وإذا أبصرتنى أبصرتنا

وكقوله : « ما فى الجبة إلا الله » أى أن الله فى كل شىء ، وهو كل شىء .

يظهر فى المخلوقات حسب تدرجها فى الرقى ، فالله فى الإنسان أرقى منه فى الحيوان ، وهو فى الحيوان أرقى منه فى النبات وهكذا . وعند الأولين أن الإنسان يدرك الله بالعلم ؛ وقضايا المنطق ، وغاية الرقى فى ذلك الفلسفة . أما عند أهل الفكرة الثانية فإدراك الله بالمعرفة ، والمعرفة تحصل بالتروض ، فإذا تم التروض صفت النفس ، وانطبع فيها الله . و يروى أن أبا سعيد بن أبى الخير الصوفى المشهور اجتمع بابن سينا ، فلما فرغا سئل أبو سعيد عن ابن سينا فقال : ما أراه يعلمه ، وسئل ابن سينا عن أبى سعيد ، فقال : ما أعلمه يراه . والحكاية وإن كانت موضوعة ، فإنها تدل على معنى صحيح . والناظر فى القرآن يرى فيه طرفا من هذا وطرفا من ذاك . وفى كثير منه تفرقة بين الخالق والمخلوق ، وفى بعضه توحيد لهما ، مثل « وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى » والذى عنى بالفكرة الأولى الفقهاء ، والذى اعتقد الثانية أغلب المتصوفة وعلى رأسهم محيى الدين بن العربى . وسموا اجتهاد الأولين شريعة ، واجتهاد الآخرين حقيقة . وسمى الفقهاء أهل شريعة ، وسمى المتصوفة أهل حقيقة . والمسلمون الأولون كانوا كالقرآن على وفاق وامتزاج بين الفكرة الأولى والثانية ، ولكنهم فيما بعدُ غالى كل منهم فى فكرة ، فكان العداء بين الفقهاء والمتصوفة . غالى الفقهاء فى أعمال الظاهر ، وغالى المتصوفة فى أعمال الباطن فالفقهاء ينظرون إلى المتصوفة نظرة شذوذ وانحراف عن الدين الحق ، وكذلك نظر المتصوفة إلى الفقهاء .

ونرى فى التاريخ أن الأمراء كانوا ينصرون عادة الفقهاء على المتصوفة لسببين : الأول أن التعاليم الصوفية تدعو إلى الزهد ، وعدم الاهتمام بالدنيا ، ولو عمت الفكرة الناس ما صلح ملك ، ولا وجد من يعمل . والثانى أن الصوفية الحقيقيين إنما يخضعون لله وحده ، و يؤمنون تمام الإيمان بأن لا إله إلا الله ، فلا خضوع

لملك أو أمير ، وهذا يغضب ذوى السلطان عادة ، ففى كل موقعة ثارت بين الفقهاء والمتصوفين كان الأمراء بجانب الفقهاء ، لا الصوفية . إلا من تسمَّوُا الصوفية فى هذا العصر ، فإنهم كانوا كالفقهاء ألعوبة فى أيدى الأمراء .

وعلى العموم فقد كانت الفكرتان متميزتين ، وحاول الغزالى فى أواخر القرن الخامس أن يجمع بينهما . وعلى هذا الأساس ألّف كتاب إحياء العلوم ، فدعا فيه إلى المحافظة على الشريعة الظاهرة ، من صوم وصلاة وزكاة وحج ، كما دعا إلى أنها لا قيمة لها ما لم تدعم بالنية الحسنة . وواجب تطهير الظاهر كما يجب تطهير الباطن . وكان له فضل كبير فى إزالة العداء بين الفقهاء والصوفية . وطريقة أهل العقيدة الأولى أنهم يصلون إلى الله عن طريق الاتساع فى العلم من فقه وتفسير وحديث وأصول وغير ذلك . وطريقة أهل العقيدة الثانية أنهم يصلون إلى الله عن طريقة الرياضة من جوع وأعمال شاقة ونحو ذلك .

فإذا فعلوا هذا حدث لهم ما يسمونه الكشف ، وهذا الكشف يرون به الحق ، ويحدث لهم من اللذة ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر . تفنى نفوسهم فى الله ، ويتحدون بالله ، وفى أول أمرهم يكون هذا الكشف عبارة عن لحظات لذيذة على فترات . ثم إنهم بالمران يسهل عليهم هذا الفناء . ومع ذلك لا يستطيعون أن يفنوا فناء تاماً ، ولا دائماً ، ما داموا على قيد الحياة . إنما يحدث ذلك لهم بالموت . وهنا نتساءل : أى الطائفتين كان أقرب إلى الدين الحق ، وأيهما كان أنفع فى الحياة الاجتماعية ؟ وهو سؤال يعسر الجواب عنه . ففى الفقهاء من بلغوا الذروة فى الصدق والإخلاص ، والتشريع الذى ينفع الناس كمالك والشافعى ، وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل والطبرى وداوود الظاهرى وغيرهم . ومن المتصوفة من كانوا كذلك مخلصين كالقشيرى وأبى يزيد البسطامى

ومحيي الدين بن العربى . وقد نفعوا النـاس من ناحية أنهم قللوا تـكالبهم على الدنيا ، وضبطوا نفوسهم وكبتوا شهواتهم . ولـكن مع الأسف وجد بين هؤلاء وهؤلاء دجالون ، فقهاء حرصوا على المظاهر وقلوبهم هواء ، إذا وضع الفقهاء المخلصون تشريعهم الجميل ، وضع هؤلاء كتب الحيل للتخلص من الواجبات ، كما وجد من تعمقوا فى المظاهر حتى تفهوا . و بين الصوفية أيضاً من كانوا دجالين ، همهم اللعب بالمظاهر ، وانغماسهم فى الذكر ومظاهره ، والخرافات والأوهام . وفى الحق أن الدجل فى التصوف كان أكثر من الدجل فى الفقه . وذلك لأن طبيعة الحياة الصوفية تفتح المجال كثيراً للتخريف ، فدخلوا من هذا الباب إلى التعاويذ والأحجبة والخرافات واللعب بالنار ، والدوسة وغير ذلك من أوهام . وكان فى دجل هؤلاء وهؤلاء شر عظيم على المسلمين ، و بعد كبير عن الدين .

وقد آن الأوان لأن يتنبه المسلمون فيقضوا على الدجالين من الصنفين ، ويؤيدوا المخلصين من الفريقين . إن المجتمع فى حاجة إلى تشريع يواجه مشاكل الجيل الحاضر ، وهذا عمل الفقهاء ، و إلى ملطِّفين من الشر والطمع والتكالب على الدنيا ، وهذا عمل المتصوفين . و بدون ذلك لا تقوم للمسلمين قائمة لا قدر الله .

على كل حال كان هناك خلاف شديد بين الفقهاء والصوفية ظل يتسع قروناً ، نلخصه للقارئ فيما يلى :

١ — تغلغل الفقهاء فى الشعائر الظاهرة ، وتغلغل الصوفية فى الأعمال الباطنة .

٢ — اختيار الصوفية كل حين ضرباً من القول يضايق الفقهاء ، فأبو يزيد البسطامى اخترع الفناء فى الله ، مما لم يدركه الفقهاء وأنكروه ، ورابعة العدوية اخترعت حب الله ، والفقهاء لم يرضوا عنه . وقالوا إن الحب إنما يكون من إنسان

لإنسان لا من إنسان لله . إنما الإنسان يطيع ولا يحب . وذو النون المصرى اخترع المقامات والأحوال مما كان غريباً على الفقهاء .

٣ — بعض الصوفية لم يلتزموا تماما الشعائر الدينية بل قالوا : إن مَن بلغ درجة الولاية تحرّر من المظاهر — قد كان الصوفية الأوّلون يلتزمون الشريعة ويحضون على العمل بها ، ولكن أتى بعضهم أخيراً وأراد التحرر منها ، بل أشاعوا أن المعصية لا تمنع الولاية . حتى رأينا الحلاّج يُتّهم بأنه دعا إلى عدم الحج والاكتفاء بالحج إلى غرفة فى بيته ، ورأينا أبا حيّان التوحيدى يؤلف رسالة يسميها الحج العقلى وإن لم نرها ، مع تعبنا فى الحصول عليها .

وكثر من ذلك أن بعض الصوفية كانت لهم آراء غريبة ، مثل العطف على إبليس ، والاعتذار عنه بأنه أبى السجود لآدم ، لأنه كان يعلم أن السجود لغير الله لا يجوز ، وأن فرعون معذور ، لأن الله لو أراد إيمانه لآمَن ، فهو إذاً منفذ لما أراد الله .

٤ — ادعاء الصوفية أن مَن اتصل بالله وبلغ الغاية فى الفناء ، خضع له الكون وقوانينه ، وجرى على يديه خرق العادة بما يسمَّى « الكرامات » مقابل ما كان للأنبياء من معجزات . والفقهاء ينكرون عليهم ذلك ، ويعتقدون أن قوانين الله لا تتخلف إلا لنبىّ .

والذى نلاحظه أن بعض كبار الصوفية كان يأتى من الأعمال بما يعد عجائب ، خصوصاً فى تلك الأزمان ، فكان بعضهم ، لرياضتهم وحدّة عواطفهم ، يأتى بما نسميه نحن الآن « التنويم المغناطيسى » وتحضير الأرواح ، والتيليباتى وغير ذلك مما سيكشف عنه العلم الحديث ، ويأتى بما يأتى به بعض الناس ، من

إحضار الذهب من الخزائن ، وفاكهة الصيف فى الشتاء ، وفاكهة الشتاء فى الصيف إلى غير ذلك من الأشياء الخارقة للعادة .

وكانت فى تلك الأيام أعجب الأعاجيب ، خصوصاً وأن كثيراً منهم كانوا يشتغلون بعلم الكيمياء ، فيدلّهم هذا العلم على أشياء تعتبر فى نظر الناس إذ ذاك كرامات ، مثل دهن الجسم بمادة تمنع تأثير النار ، وابتلاع النار بعد ذلك ، فلا يمسهم أذى ؛ ومثل مخلوطات كياوية كانوا يخلطونها فتأتى بالعجائب ، كالذى يحكى عن جابر بن حيان الملقّب بجابر الصوفى ، وكالذى يحكى عن ذى النون المصرى ، وعن الحلاّج بل ما يُدرينا لعل بعض الكياويين القدماء ومنهم هؤلاء استطاعوا أن يحوّلوا المعادن إلى ذهب ، فكانوا ينفقون على أتباعهم من غير حساب ، وربما كان العلم الحديث يؤيد هذه النظرية ، بعد أن ثبت أن الفرق بين ذرّات الحديد وذرّات الرصاص ، وذرّات الذهب ليس إلا خلافاً فى الشحنة الكهربائية التى فى كل منها ، أما جوهر الشحنة فواحد . فإذا استطعنا أن نزيد ذرّات الرصاص بما يسوّى بينها و بين ذرّات الذهب صار ذهباً .

والفقهاء ينكرون على الصوفية كل ذلك ، ويعتقدون أن الصوفية يسيرون وراء الأوهام ، ويأتون بالمخاريق . والصوفية يعتقدون فى الفقهاء أنهم أهل ظاهر فقط ، ويسمونهم أهل الدنيا . فاحتدّ الخلاف بينهم . بل من أسباب الخلاف أيضاً أن الصوفية كانوا بحكم صوفيتهم متسامحين واسعى الصدر ، يرون أن النصارى واليهود وأهل كل دين ، سواء أكانوا كتابيين أو وثنيين ، إنما يعبدون الله مهما اتجهوا . والمتديّن منهم محب لله . وكل الأديان ليست إلا طُرُقاً توصّل إلى غاية واحدة . والخلاف بينها خلاف فى الأسماء . وقد عبّر عن ذلك أجمل تعبير ابن العربى فى قوله :

لقد صار قلبى قابلا كل صورةٍ ... فمَرْعًى لغُزلان وديرٌ لرُهْبانِ

وبيتٌ لأوثانٍ وكعبةُ طائفٍ وألواحُ توراةٍ ومصحفُ قرآنِ
أدينُ بدينِ الحُبِّ أنَّى توجَّهتْ ركائبُهُ ، فالحبُّ دِينى وإيمانى

* * *

ويعبّر عنه جلال الدين الرومى فى شعر صوفى فارسى ترجمته بالعربية :

نَفْسِى : أيها النور المشرق .

لا تَنْأَ عنِّى ، لا تنأ عنى .

حبّى : أيها المنظر اللامع .

لا تنأ عنى ، لا تنأ عنى .

انظر إلى العمامة أحكمتها فوق رأسى ، بل انظر إلى زنّار زرادشت

حول خصرى . أحملُ الزّنّار وأحمل المخْلاَةَ ، بل أحمل النورَ .

فلا تنأ عنى ، لا تنأ عنى .

مُسْلِمٌ أنا ، ولكنى نصرانى وبَرَهْمِىٌّ وزرادشتى ، توكلتُ عليك .

أيها الحق الأعلى .

فلا تنأى عنى ، لا تنأ عنى .

ليس لى سوى معبدٍ واحد ، مسجداً أو كنيسة أو بيت أصنام .

ووجهك الكريم فيه غاية نعمتى .

فلا تنأ عنى ، لا تنأ عنى ، الخ الخ .

وللصوفية شعر جميل مملوء بالحب والغناء ، وحدّة العاطفة ، وقوّة الوجدان . ومن الأسف أنه لم يستغله الأدباء فى مختاراتهم . وقد استعملوا فيه التعبيرات الدنيوية على سبيل الرمز من خمر ونساء وبكاء أطلال ، وحبّ وهيام ، وقطيعة ووصال الخ . يعنون بذلك أحوالهم مع ربهم ، كالذى نراه فى ديوان ابن العربى « ترجمان الأشواق » وديوان ابن الفارض .

على كل حال اتسعت مسافة الخلف بين الفقهاء والصوفية فى كل مصر ، وشنّع هؤلاء على هؤلاء ، وهؤلاء على هؤلاء . وربما ظهرت حدّة الخلاف فى ثلاثة مواقف : فى ذى النون المصرى ، وغلام الخليل ، والحلاج . وسنلخص لك حالة كل موقف من هذه المواقف . فأما ذو النون فمصرى من أخميم ، عرف بالزهد والورع والعزلة عن الناس فى البرابى . وكان فى أخميم برابى من بناء قدماء المصريين ، عليها نقوش وكتابات هيروغليفية . فكان يتجول فى هذه البرابى ، ويمعن فى هذه الكتابه ، ويزعم أنه يقرؤها ، وأنه يستطيع أن يترجمها . وقد روى عنه ترجمات فعلا لبعض هذه الكتابات . ولكن لم يترجمها بناء على استكشاف حجر رشيد ، ولا معرفة بالحروف الهيروغليفية . وإنما هى ترجمة ظن أو إلهام . ولذلك خرجت الترجمة لا تنطبق على الأصل فى قليل أو كثير . ونطق بكلمات غريبة على أهل أخميم ، لعلها مستمدة هى أو بعضها من آراء بلديِّه الصعيدى الأسيوطى أفلوطين ، فمن قارنوا بعض تعاليمه بأقوال أفلوطين وجدوا بينها شبهاً ، فاتهمه أهل أخميم بالزندقة . وسافر قوم إلى الفسطاط يشكونه إلى الوالى . وكان سيّد فقهاء المالكية إذ ذاك محمد بن عبد الحكم ، فاستحضره وسأله عما يقول ، فتبينت له زندقته . ورووا عنه أنه استطاع بكيميائه أن يحوّل الحصى إلى أحجار كريمة ، وأن يأتى بكثير من الخاريق . وكان يزعم أن ملوك مصر خافوا ذهاب العلم بالطوفان ، فبنوا البرابى وصوروا فيها كل الصناعات وصانعيها وصوّروا جميع آلات الصناعات ، وأنهم أودعوا فيها كل أسرارهم ، وأنه استطاع أن يعرف تلك الأسرار ، ومما تعلّمه ما كان عند المصريين من سحر .

على كل حال إن ابن عبد الحكم اعتبر ذا النون زنديقاً ، فلما رأى ذو النون أنه قد أسىء إلى سمعته رحل إلى بلاد عديدة ، ثم عاد وقد مات ابن الحكم وحل

محله غيره . وعاد الناس يتهمونه بالزندقة ، وساعدهم على ذلك أن أصله قبطى نصرانى ، فعاد القاضى الجديد الذى حل محل ابن الحكم وهو ابن أبى الليث يتهمه بالزندقة من جديد ، ويرسله إلى الخليفة فى بغداد ، مكبّلا بالحديد . ولكن كان هناك طائفة من المتصوفة فى مصر تجمعها رابطة التصوف . وطائفة من المتصوفة فى بغداد بينهم بعض موظفى بلاط الخليفة البغدادى المتوكل على الله ، فاستدعاه وسمع قوله ، فأعجب به ، وأعاده إلى مصر معززاً مكرماً . فلم يلبث بعد ذلك أن مات . وكل هذه المتاعب كانت بسبب أعمال الفقهاء . ولو قلنا إنه رأس كبير من رؤوس المتصوفة ، وأن الصوفية فى بعض نواحيها مدينة كلها فى مصر لتعاليم ذى النون المصرى لم نبعد ، فهو كما قلنا مبتدع المقامات والأحوال . وله أقوال كثيرة فى المعرفة . وكان له تعبيرات أُخذت فى التعبيرات الصوفية ، ككأس المحبة . وهو أول من عرّف التوحيد بالمعنى الصوفى ، وملأ التصوف حكما من نوع خاص ذكرها القشيرى فى رسالته ، وفريد الدين العطّار فى تذكرة الأولياء . ومن أقواله « إن المعرفة ثلاثة أقسام : الأول حظ مشترك بين عامة المسلمين ، والثانى معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء ، والثالث وهو العلم بصفات التوحيد خاص بالأولياء الذين يرون الله فى قلوبهم » . ولما سئل كيف عرفت ربك ، قال « عرفت ربى بربىّ . ولولا ربى ما عرفتُ ربى » .

وعلى الجملة فذو النون المصرى شخصية كبيرة ، لم تزل غامضة حتى اليوم .

وأما غلام الخليل فكان محنة أخرى ، ومظهرا آخر من مظاهر الخلاف بين الفقهاء والصوفية .

وكانت محنة عامة للصوفية قتل فيها عدد كبير منهم ، اتهم فيها الصوفية بالزندقة وثارت العامة عليهم . والكلام على غلام الخليل وشخصيته غامض لم نجد فيه ما يشبع .

وقد نشأ غلام الخليل هذا ببغداد ، وتعلم الحديث . وكان من المتشددين فيه . يرى الوقوف فى التشريع عند النقل ، ولا يبيح القياس . يعظ فى المساجد ، ويعرف بالورع والزهد . ولم يرو عنه من الأقوال القيمة مثل ما روى عن ذى النون وأمثاله . وكل ما عرف عنه أنه كان فصيح اللسان فى الوعظ ، وقد يرميه بعضهم بالرياء .

وقد حرّك العامة على الصوفية . فكان من أمره وأمرهم ما ذكرنا ، وقتل منهم نحو نيّف وسبعين صوفيا ، وسيق كثير منهم إلى السجون كالجنيد ، وسَحْنون . ويظن أن غلام الخليل نفسه هو الذى حرّك العامة والسلطة عليهم . ويتهمه الصوفية بأنه حسدهم ، وخاف على منزلته منهم ، بل يتهمونه بأنه حرّض امرأة على سحنون ، وادعت أنه راودها عن نفسها . وساعد غلام الخليل فى ذلك ما كان له من اتصالات شخصية برجال البلاط ، وأنه كان مهرّجا .

وأما الحلاج ، فله قصة طويلة ومحنة كبيرة نلخصها فيما يلى :

كان الحلاج فارسىّ الأصل من بلدة فى فارس تسمى البيضاء ، نسب إليها البيضاوى المشهور صاحب التفسير ، واسمه الحسين بن منصور الحلاج . وقد ولد سنة ٢٤٤ ، ونشأ بواسط فى العراق ، ويظهر أنه كان حادّ المزاج ، غريب الأطوار ، يشبه الناس الذين عندهم « هسْتِيريَا » .

بدأ فى التصوف وعمره ستة عشر عاما ، وتتلمذ على سهل التَّسْتُرِى . ثم رحل إلى بغداد ، وأقام بها ثمانية عشر شهراً . ثم تتلمذ على الجنيد الصوفىّ المشهور ، ثم حجّ ، وأقام بمكة نحو سنة .

وهناك اتهمه عمرو المكى بأنه يعارض القرآن ، فلعنه وودّ قتله . ففر من مكة ، وتجرد من لباس الصوفية ، ولبس المرقّعة والقباء ، ورحل إلى خراسان ، وما وراء النهر ، وظلّ فى رحلته هذه نحو خمس سنين . ثم حج مرة ثانية ،

وعاد إلى بغداد ، و بنى له فيها داراً . ثم رحل إلى الهند وقال إنه يقصد من رحلته هذه دعوة أهل الشرك إلى التوحيد ، وتعلم السِّحْر الهندى ، ثم حج للمرة الثالثة ، وأقام سنتين ، ثم عاد إلى بغداد ، ثم زار فارس وزار بها « قُمْ » مركز الإمامية وادعى أنه وكيل الإمام .

وفى سنة ٢٩٧ أفتى ابن أبى داود الظاهرى بكفره لـكلامه فى الحب . ففر إلى الأهواز واختفى بها ، واتهم فيها بدعوى الألوهية ، ثم تنقل بين السجون المختلفة سبع سنوات . ومع ذلك استمر فى الدعوة حتى آمن به بعض شخصيات البلاط . وأخيراً استجوب وحكم عليه بالإعدام والتمثيل به ، وإحراقه ، وإلقاء ما بقى من جسده من رماد فى نهر الفرات .

هذا ملخص حياته . ومنها نعلم أنه كان حيث حلّ يتهم بالزندقة ، وكان شيعيًّا إماميًّا ، ورجل رحلات كثيرة لبث الدعوة ، وتبعه كثيرون يؤمنون به وبمذهبه ، حتى وصلت دعوته إلى بلاط الخليفة . ولنصور للقارئ طريقة محاكمته ، كما وصلت إلينا .

لقد قُبض عليه أخيراً وحُبس ، ولـكن لم يكن مضيّقاً عليه فى الحبس ، فيسمح له بأن يزار ، وأن يرسل الخطابات إلى من يشاء .

وكانت محاكمته أيام الوزير حامد بن العباس وهو الذى أوعز بمحاكمته . وكانت الدولة فى أيامه مقسمة الإدارة والصبغة بين سلطات ثلاث : فالدواوين ، والـكتابة فى يد الفرس . والخلافة والقضاء فى يد العرب . والجند وما إليها فى يد الترك . وهذه السلطات الثلاث تتعارض وتتآمر ، وكل فرقة تدس لغيرها الدسائس .

على كل حال عَهد حامد بن العباس الوزير إلى أبى عمر القاضى وأبى جعفر ابن البهلول وغيرهما من وجوه الفقهاء بمحاكمته . فانعقدت الجلسة برياسة أبى عمر

القاضى ، ونودى على المتهم : وسئل الحلاّج عما اتهم به من أنه إلٰه وأنه يحيي الموتى ، وأن الجن يخدمونه ، وأنه يعمل ما أحب عن طريق المعجزات ، فأنكر التهم ، وقال : أعوذ بالله أن أدّعى الربوبية أو النبوّة . وإنما أنا رجل أعبد الله وأكثر الصلاة والصوم وفعل الخير ، ولا غير . فاستحضرت الشهود .

الشاهد الأول : هل تعرف الحلاّج ؟ نعم وأعرف أصحابه ، وأنهم متفرقون فى البلاد يدعون إليه ، وإنى شخصيا كنت ممن استجاب له ، ثم تبين لى مخرقته ففارقته ، وخرجت عن جماعته ، وتقربت إلى الله بكشف أمره ، وانتهت هذه الشهادة .

الشاهد الثانى امرأة يقال لها بنت السُّمَّرى ، نودى عليها فظهرت امرأة حسنة العبارة ، عذبة الألفاظ ، جميلة الصورة . سئلت :

هل تعرفين الحلاج ؟

قالت : نعم !

— ماذا تعرفين عنه ؟

— قابلتُه فقال لى : قد زوجتُك من سليمان ابنى وهو أعز أولادى ، وهو بنيسابور . وليس يخلو أن يقع بين المرأة والرجل كلام ، فقد وصيتُه بكِ . فإن حدث منه شىء تنكرينه ، فصومى يومك ، واصعدى آخر النهار إلى السطح ، وقومى على الرماد والملح الجريش ، واجعلى فطركِ عليهما ، واستقبلينى بوجهك ، واذكرى ما تنكرينه منه ، فإنى أسمع وأرى .

رئيس الجلسة : هل شىء آخر ؟

هى : نعم كنت نائمة ليلة وهو قريب منى ، فما أحسست إلا وقد غشينى ، فانتبهت فزعة فقلت : ما هذا ؟ قال : إنما جئت لأوقظك للصلاة .

رئيس الجلسة : هل شيء آخر ؟

قالت : نعم . أصبحت يوما وأنا أنزل من السطح إلى الدار ، ومعى ابنته ، فلما نزلنا إلى تحت حيث يرانا ونراه ، قالت لى ابنته : اسجدى له : فقلت لها : أوَ يسجد أحد لغير الله ؟ فسمع كلامى لها فقال نعم : إله فى السماء ، وإله فى الأرض ، ودعانى إليه ، وأدخل يده فى كمه ، وأخرجها مملوءة مسكا ، فدفعه إلىَّ وفعل ذلك مرات ؛ ثم قال : اجعلى هذا فى طيبك ، فإن المرأة إذا حصلت عند الرجل ، احتاجت إلى الطيب . ثم أمرنى أن أخلع بلاطة فى زاوية الدار ، فوجدت تحتها دنانير كثيرة ملء البيت ، فأخذت منه شيئاً .

رئيس الجلسة : هل عندك شيء آخر ؟

هى : لا : هذا كل ما عندى . وخرجت .

أبو جعفر بن البهلول : قاض آخر ، يأمر الجنود بكبس بيته و بيوت أصحابه ، فيجدون ورقا كثيراً من تعليمات ودعوات لمذهبه لأصحابه ، ورد من أصحابه عليه ، وكتابات بالشفرة لا يفهمها إلا هو ومن أرسلها إليه ، وكتابات تثبت أنه يدعو إلى نوع من الحج آخر ، فيكفى الرجل أن يخصص غرفة فى بيته لا تلحقها النجاسات ، ولا يتطرقها أحد ، فإذا حضرت أيام الحج طاف حولها ، وقضى من المناسك ما يقضى بمكة ، وجمع ثلاثين يتيما . وأطعمهم أفخم الطعام ، وتولى خدمتهم بنفسه ، ثم غسل أيديهم ، وكسى كل واحد قميصاً ؛ ودفع لكل واحد منهم سبعة دراهم ، فذلك يقوم مقام الحج .

تليت هذه الورقة على الحلاّج ، فقال له رئيس الجلسة : من أين لك هذا ؟ قال : من كتاب الإخلاص للحسن البصرى . قال له القاضى : كذبت ياحلال الدم . قد سمعنا كتاب الإخلاص ، وليس فيه شيء مما ذكرت . فلما سمع الوزير

من القاضي ياحلال الدم ، قال : اكتبها ، فتلكأ ، فألحّ عليه . فكتب بإحلال دمه . ومرّت الورقة على سائر القضاة . فأخذوا يوقعونها . فلما رأى الحلاج ذلك قال : « ظهري حِمًى ودمي حرام ، وما يحل لكم أن تتهموني بما يخالف عقيدتي ومذهبي السنة ، ولي كتب في الورّاقين تدل على سنتي ، فالله الله في دمي » . ولم يزل يردّد هذا القول والقضاة يوقعون ، حتى كمل الكتاب . فأرسله الوزير حامد إلى الخليفة المقتدر مع رسول ، وأمره بالسرعة ، وعاد الجواب ، وعليه توقيع من الخليفة : « إذا كانت فتوى القضاة فيه بما عرضت ، فأحضره مجلس الشرطة ، واضرب به ألف سوط ، فإن لم يمت فاقطع يديه ورجليه ، ثم اضرب رقبته وانصب رأسه ، وحرق جثته » .

فلما أصبح الصباح ، نفّذ في الحلاج كل ذلك وحضر كثير من العامة ينظرون هذا المنظر . والحق أن الحلاّج قابل هذا التعذيب كله بكل شجاعة ، فلم يتأوّه ، ودعا بالسجادة فصلى ، ورُئي باشًّا مبتسما ، لأنه سيقابل ربه .

وادعى بعض أصحابه أن الحلاج لم يقتل ، وإنما شبّه لهم . وادعى آخرون — وقد زاد الفرات هذا العام — أنه إنما زاد لإلقاء رماد الحلاج فيه .

وقد قال الحلواني : حضرت يوم قُتل وقد أخرج من السجن مقيداً مسلسلا ، وهو يضحك وينشد :

نديمي غير منسوب ... إلى شيء من الحيف
سقاني مثل ما يشرب ... كفعل الضيف بالضيف
فلما دارت الكأس ... دعا بالنِّطع والسَّيفِ
كذا من يشرب الراح ... مع التِّنِّينِ في الصيف

* * *

ومن أقوال الحلاج :

« اللهم إنك المتجلِّى عن كل جهة ، المتخلِّى من كل جهة ، بحق قيامك بحقّى ، وبحق قيامى بحقك ، وقيامى بحقك يخالف قيامك بحقى ، فإن قيامى بحقك ناسوتية ، وقيامك بحقى لاهوتية ، وكما أن ناسوتيتى مستهلكة فى لاهوتيتك ، فلاهوتيتك مستولية على ناسوتيّتى ، غير مماسّة لها ؛ وبحق قِدَمك على حَدَثِى ، وحق حَدَثى تحت قِدَمك أن ترزقنى شكر هذه النعمة ، التى أنعمت بها علىَّ ، حيث غيَّبْتَ أغيابى ، عمـا كشفتَ لى من مطالع وجهك ، وحرَّمتَ على غيرى ما أبحت لى من النظر فى مكنونات سرك . وهؤلاء عبادك قد اجتمعوا لقتلى تعصباً لدينك ، وتقرباً إليك ، فاغفر لهم ، فإنك لو كشفت لهم ما كشفت لى لمـا فعلوا ما فعلوا ، ولو سترت عنى ما سترتَ عنهم ، لما ابتليتُ بما ابتليتُ ، فلك الحمد فيما تفعل ولك الحمد فيما تريد » ومن قوله « اللهم أنت الواحد الذى لا يتم به عدد ناقص ، والأحد الذى لا تدركه فطنة غائب ، أنت فى السماء إله ، وفى الأرض إله . أسألك بنور وجهك الذى أضات به قلوب العارفين ، وأظلمتَ منه أرواح المتمردين ، وأسألك بقدسك الذى تخصصت به عن غيرك ، وتفردت به عمَّن سواك ، أن لا تسَرِّحَنِى فى ميادين الحيرة ، وتنجينى من غمرات التفـكر ، وتوحشنى عن العالم ، وتؤنسنى بمناجاتك ، يا أرحم الراحمين ، يا من استهلك المحبون فيه ، واغترّ الظالمون بأياديه ، لا تبلغ كُنْه ذاتك أوهام العباد ، ولا يصل إلى غاية معرفتك أهل البلاد . ولا فرق بينى و بينك إلا الإلٰهية والربوبية » .

ووجد مرة فى سوق القطيعة ببغداد باكياً يقول « أغيثونى من الله ، فإنه اختطفنى منى ، وليس يردّنى عليه ، ولا أطيق مراعاة تلك الحضرة ، وأخاف الهجران ، والويل لمن يغيب بعد الحضور ، ويهجر بعد الوصل » .

وهو وإن قتل ، فلم تقتل آراؤه وأفكاره ، بل زادت انتشاراً ، وزاد هو تعظيما .

واختلف الناس فيه اختلافاً كبيراً بين مصدق ومكذب .

وكان مقتله سنة ٣٠٩ هـ .

وترك لنا كتاباً غريب الاسم ، غريب الموضوع اسمه « الطواسينُ » اقتبسنا منه بعض الشيء فيما مضى . والظاهر من كل هذا أن الرجل والمرأة اللذين شهدا عليه كان موعزاً إليهما بالشهادة ، وأن القضاة تلكأوا فى الحكم عليه ، فاستعجلهم الوزير حامد ، ويظهر أن أكبر تهمة وجهت إليه وسبّبت قتله هى تهمة « القرمطية » فقد ثبت من أنه كان وكيلا للإمام وغير ذلك أنه قرمطى . والقرمطية قوم كانوا من شيعة أهل البيت ، يريدون أن ينحّوا الخلفاء العباسيين ومن إليهم ، ويوسعوا دائرة خلافة أهل البيت ، فانتشرت دعوتهم فى العراق وخراسان وجزيرة العرب ، وغير ذلك . وكم سفكوا الدماء ، وخربوا البلاد من أجل ذلك وأنشأوا لهم عاصمة فى هَجَرْ . وحملوا إليها الحجر الأسود ، فظلّ فيها نحو ثلاثين عاماً ، وكان مذهبهم الاقتصادى اشتراكية متطرفة ، بل شيوعية . يوزّعون ما حصلوا عليه من الأموال بينهم بالسويّة ، ومذهبهم السياسى الدعوة إلى المهدى والإمام المنتظر . ولا يؤمنون بخلفاء بنى العباس ودولتهم ويستحلون دم المخالفين . فنعتقد أن هذا هو سرّ قتله لا غير ذلك . فدعوة كهذه تقضّ مضجع خلفاء بنى العباس ووزرائهم ، فلا يبعد أن يكون الخليفة العباسى ووزيره حامد قد رتبا هذه المؤامرة ضده ، وزوّرا الشهود ، واستحثا القضاة على قتله . وإلا فما بالهم قد تركوا الصوفية الآخرين ، كالجنيد وأبى يزيد البسطامى ، وذى النون المصرى من غير قتل . فهى مسألة سياسية بحتة ، اتخذت شكلا دينياً لعلمهم أن الدين أفعل فى الشعوب من السياسة . فكم من

صوفية ادّعوا وحدة الوجود فلم يلتفت إليهم ، وتركوا وشأنهم ، ومما لفت عامة المسلمين إليه ما تواتر عن الحلاج من إتيانه بالأعاجيب ، فيظهر أنه كان له قدرة كبعض الأشخاص اليوم على استحضار ما يريد من الأشياء من أما كنها ، كالذهب والمسك والفاكهة ، وأنه كان له قدرة على التنويم المغناطيسى ، وقدرة أخرى كيماوية بهر الناس بها لجهلهم بالكيمياء .

وعلى العموم فهو شخصية قوية ، كشخصية ذى النون أو أشدّ منها ، كان له أثر كبير فى المسلمين .

وعلى الجملة كانت هذه الحادثة مظهراً كبيراً من مظاهر الخلاف بين الفقهاء والصوفية . لقد أراد الفقهاء وخصوصاً الحنابلة أن يقضوا على الصوفية ، كما قضوا على المعتزلة من قبل . ولكن لم ينجحوا فى هذه كما نجحوا فى تلك لسببين : الأول أن العامة انقسموا إلى قسمين : قسم يشايع الصوفية ، وقسم يشغّب عليهم . فلما لم يكن إجماع من العامة سلمت الصوفية . والسبب الثانى أن المعتزلة أصحاب دعوة شعوبية ، والعامة أبعد ما يكونون عن العقل ، فناصروا أضداده . ولكن لهم مشاعر فياضة ، فعطف بعضهم على الصوفية فسلموا . وأخيراً جاء الغزالى فأراد أن يوفق بين الفقهاء والصوفية ، ويفهم الناس أن كلا منهم ضرورىّ فى الدولة . وكان هو نفسه فقيهاً وصوفياً ، وألف فى ذلك كتابه الإحياء كما ذكرنا ، فاستطاع أن يؤلف بين القلوب ، ويعطف الناس على التصوف . وهو نفسه صرّح فى بعض كتبه بأن الحلاّج مؤمن صوفى ، ولكن غلب عليه حال المتصوفة فشطح وتكلم بكلام لم يفهمه الفقهاء المتزمتون . والله بالأسرار عليم .

وظل الصوفية يشغلون الناس بأعمالهم ، وزهدهم ، وذكرهم ، ورقصهم ، واصطلاحاتهم ، من فناء فى الله وحب له ، وادعاء للولاية ، والتوسع فيها كل

عصورهم . وكان منهم المخلصون والدجالون . واستفادت الأمة منهم ، و بُليت بهم .

وقد اعتزوا بشعورهم ، كما اعتز الفقهاء بعلمهم . وهم لم يأنفوا من هذا الجهل . بل كان بعضهم ينصح أتباعه ومريديه بألا يقرؤوا فى صحيفة . وقال بعضهم :

فلو طالبونى بعـــلم الوَرَقْ برزتُ عليهم بعلم الخِرَقْ

و يقصدون بعلم الورق العلم الذى فى الـكتب ، و بعلم الخرق الشعور الذى يرمز إليه بلبس الصوف .

نعم إن قليلا منهم كانوا علماء متبحرين فى العلم ، ولـكنهم قليلون إذا قيسوا بغيرهم من الصوفية . واعتقدوا أن تصوفهم خير من فقه الفقهاء . فما هذا الفقه الذى يفرض الفروض غير الواقعية ، و يستعمل الحيل للخروج من الأحكام ؟ أليس النبي صلى الله عليه وسلم كان أمياً ؟ لم يتعلم من صحيفة ولا كتاب ، و إنما تعلم بانفتاح قلبه ، ونور بصيرته .

وكذلك كان كثير من الصحابة والتابعين ، حتى كان كثير من الصوفية يكره تأليف الـكتب فى التصوف ، لأن الـكتابة أداة العقل لا أداة الشعور . ومع ذلك ألّف بعض المتصوفة كتباً قيمة ، بقى لنا منها كتاب قوت القلوب ، لأبى طالب المـكى سنة ٣٨٦ ، نوه فيه بمذهب التصوف وفضله . ووصل إلينا أيضاً من الـكتب التى ألفت فى القرن الرابع كتاب السُّلَمِي المسمى كتاب السنن ، الذى ذهب فيه كما ذهب أبو طالب المـكى إلى تأييد التصوف وفضله .

والحق أنه حول تأليف التصوف توجد عقدة لا تحلّ . فمن بلغ مبلغاً كبيراً فى التصوف صعب عليه أن يتقيد بكتابة أو كتاب ، ومن تعلم واحترف الـكتب لم تقو مشاعره . ونحن محتاجون إلى ذى مشاعر قوية ، يصف لنا مشاعره فى كتابه . ولذلك نرى أن كثيراً من الباحثين فى التصوف والمؤلفين فيه ينقصهم

التصوف العملى . والمتصوفين البارعين فى التصوف تنقصهم الكتابة فيه والله أعلم .

و بعد : فأركان التصوف كما رأينا ثلاثة : وحدة الوجود ، والفناء فى الله ، وحب الله . فأما وحدة الوجود فحامل لوائها الحلاج ثم محيي الدين ابن العربى ، ثم السهروردى وابن الفارض ، وأما الفناء فى الله ، فحامل لوائه أبو يزيد البسطامى ، وأما حب الله ، فحامل لوائه رابعة العدوية . فأما وحدة الوجود فتتضح من قول الحلاج فى الطَّوَاسين :

« تجلّى الحقُّ لنفسه فى الأزل ، قبل أن يخلق الخلق ، وقبل أن يعلم الخلق . وجرى له فى حضرة أحدّيته مع نفسه حديث لا كلام فيه ، ولا حروف . وشاهد سبوحات ذاته فى ذاته . وفى الأزل حيث كان الحق ولا شيء معه نظر إلى ذاته فأحبها ، وأثنى على نفسه ، فكان هذا تجلياً لذاته فى ذاته ، فى صورة المحبة المنزهة عن كل وصف وكل حد . وكانت هذه المحبة علة الوجود ، والسبب فى الكثرة الوجودية . ثم شاء الحق سبحانه أن يرى ذلك الحب الذاتى ماثلا فى صورة خارجية ، يشاهدها ويخاطبها ، فنظر فى الأزل ، وأخرج من العدم صورة من نفسه لها كل صفاته وأسمائه . وهى آدم الذى جعله الله على صورته أبد الدهر . ولما خلق الله آدم على هذا النحو ، عظمه ومجده ، واختاره لنفسه . وكان من حيث ظهور الحق فى صورته فيه و به ، هو هو .

سبحان من أظهرَ ناسُوتَهُ　　سِرّ سَنَا لاهُوتِهِ الثّاقب
ثُمَّ بدا لخلقــه ظاهِراً　　فِي صورةِ الآكِل والشارب
حتىّ لقــد عايَنَه خَلْقُهُ　　كَلَحْظَةِ الحاجبِ بالحاجِبِ

وأما الفناء فيقصدون به الحال التى تتجرد فيها النفس عن رغباتها وميولها و بواعثها بحيث تتعطل إرادتها وتموت ، فإذا ماتت الإرادة الإنسانية ، أصبحت

النفس طوع الإرادة الإلهية ، تحركها كيف تشاء وهذا هو حب الله لها ، ولكن المحب والمحبوب شيء واحد ، هو جوهر النفس وباطنها ، وهكذا نجد العابد والمعبود ، والعاشق والمعشوق ، متحدين فى شخصية واحدة . يقول ابن الفارض :

كلانا مصلٍّ واحدٌ ساجدٌ إلى حقيقته بالجمع فى كلّ سجْدةِ
وما كان لِي صلّى سِوَايَ ولم تكُنْ صلاتِي لغيرى فى أَدَى كلٍّ ركْعَةِ

قال السَّرَّاج : معنى الفناء فناء صفة النفس ، وأيضاً الفناء هو فناء رؤيا العبد فى أفعاله لأفعاله بقيام الله له فى ذلك . ويقول فى موضع آخر « هو ذهاب القلب عن حِسّ المحسوسات ، وهو يحصل تدريجا على مراحل خمس ، الأولى ذهاب حظه من الدنيا والآخرة بورود ذكر الله ، الثانية ذهاب حظه عن ذكر الله تعالى عند حظه بذكر الله تعالى له . الثالثة فناء رؤية ذكر الله تعالى له حتى يبقى حظه بالله . الرابعة ذهاب حظه من الله تعالى برؤية حظه ، أى حظ الله ، الخامسة ، ذهاب حظه برؤية حظّه لفناء الفناء ، وبقاء البقاء الخ الخ » .

وأما الحب فقد روى عن رابعة العدوية أنها كانت تتوسل إلى الله أن لا يحرمها مشاهدة وجهه الكريم ، وجماله الأزلى . ويقول معروف الكرخى : « إن الحب منحة إلٰهية لا تكتسب بالتعلم » . وكان ذو النون المصرى يرى أن المحبة الإلٰهية سر من أسرار الله ، يجب أن لا يذاع بين العامة . واستعملوا فى الحب والفناء عبارة الشكْر والوصال والهجر ونحو ذلك .

وقد وضع متصوّف هندى حديث مبادئ التصوف فى عشرة أصول :

(١) لا يوجد إلا إله واحد ، وهو أبدىّ أزلىّ لا إلٰه غيره ؛ ومهما تعدّدت الأسماء باختلاف اللغات فهو هو ، يراه الصوفيون فى الشمس والنار وفى الأصنام وفى كل ما يعبد ، بل يرونه فى أشكال العالم ، ومع ذلك فهم يرونه وراء هذه

الأشكال «الله فى كل شىء ، وكل شىء فى الله» ليس الله فى عقيدة تعبد ، بل هو المثل الأعلى لأكمل ما يتصوره العقل. والصوفى ينسى نفسه ويريد أن يتصل بهذا المثل.

(٢) لا يوجد إلا حاكم واحد للعالم وهو الله ، وهو الهادى لكل نفس ، وهو الذى يخرج أصحابه من الظلمات إلى النور . وهو منبع لكل المعارف .

(٣) ليس هناك إلا كتاب واحد وهو الكتاب المقدّس ، وهو الطبيعة المفتوحة ، وهو الكتاب الذى ينير قارئه ، وهو الكتاب المستغنى عن اللغة . وعقلاء كل أمة فى كل العصور يوقرون هذا الكتاب ويجلّونه ويعدّون أنفسهم للاستفادة منه . وكل الكتب المقدسة من إنجيل وتوراة وقرآن تدل عليه ، وتوجه إلى الاهتمام به .

والصوفىّ يرى فى كل ورقة من شجرةٍ صحيفةً من ذلك الكتاب ويراها تشتمل على نوعٍ من الوحْى إذا قرأها الإنسان وفهمها تفتح قلبه .

(٤) الأديان كلها طرق إلى الله ، بعضها أرقى من بعض حسب رقىّ الزمان ، وكلها تقود الإنسان إلى المثل الأعلى وهو الله . والأديان وإن اختلفت فى الشعائر فالغرض منها جميعها الوصول إلى الله . والصوفى كما قال ابن العربى : يرى الله فى الكعبة وفى المسجد وفى الدّيْر وفى الوثن .

(٥) لا يوجد إلا قانون واحد يراه الإنسان إذا أنكر ذاته ، وتطلّب الحق .

(٦) لا توجد إلا أخوّة واحدة تضمّ الإنسانية كلها ، فليس على الأرض إلا حياة واحدة مشتركة ، إن اختلفت فإنما تختلف فى النظر ، والإنسان متّحد بغيره ، فى علاقات الأسرة ثم فى الأمة ، ثم فى الإنسانية كلها والإنسان الكامل من تخطّى حدود الوطنية وارتقى إلى الإنسانية ، بل ربط نفسه بالإنسانية فى الماضى والإنسانية فى الحاضر والإنسانية فى المستقبل . والصوفىّ يحتقر من ينظر إلى أمة

غير أمته بنوع من الاحتقار ، لأنه شريك له فى الإنسانية .

(٧) لا يوجد إلا قانون أخلاقى واحد . هو قانون الحبّ العام الذى ينبع من إنكار الذات ، ويُزْهِر بالإحسان . قد تكون هناك مبادئ أخلاقية كثيرة ، ولكن أساسها واحد ، هو الحب ، وهذا الحب مبعث الأمل والصبر والاحتمال ، والتسامح وكل الفضائل . والكرمُ والسماحة والإحسان كلها صادرة من الحب . وكل الرذائل والجرائم تنشأ عن نقص فى الحب . يقولون إن الحب أعمى . وهذا خطأ ، فالحب ضوء النظر ، العين ترى ما على السطح ، ولكن الحب يرى العمق . إن النار التى لم تشتعل تماما لا ينشأ عنها إلا الدخان ، ولكنها إذا اشتعلت كان منها النار والضوء ، فكذلك القلب إذا أحبّ أو لم يحب .

(٨) لا يوجد إلا شىء واحد يستحق الثناء هو الجمال الذى يرفع القلب من الحضيض إلى أن يبلغ أعلى السماء . والإنسان من تحلّى بنفس جميلة تحبّ الجميل . وهو يبتدئ بحب المادة وينتهى بحب المعنى ، يبتدئ بحب المنظور ، وينتهى بحب غير المنظور .

(٩) ليس هناك إلا حقيقة واحدة هى : معرفتك نفسك ، كما قال الإمام علىّ « اعرف نفسك تعرف ربّك » .

(١٠) إذا كانت هناك طرق عديدة توصّل إلى الله ، فهناك طريق مستقيم واحد ، وهو الطريق الذى تمّحى فيه الأنانية والأثرة ، وتسكن فيه الفضيلة والكمال . وهو الطريق الذى تمّحى منه الرغبات الجسمية والأوهام العقلية .

هذه هى المبادئ العشرة الصوفية كما شرحها أحد المتصوفة المحدّثين ترجمناها عن الإنجليزية . وإن اختلف الصوفية فى شىء ، ففى إمعان بعضهم فى بعض

المبادئ دون بعضها . وهى تعبر عن روح التصوف الحقيقى فى العصور المختلفة .
ولكن يعرض لنا سؤال صعب ، وهو هل المتصوف برياضته وتمرّنه يرى حقائق خارجية ، أو يرى أوهاما داخلية جَلَبها إليه التعوّد وانحراف الذهن ؟ سؤال صعب . ومما يجعله أكثر صعوبة أن أغلب مَن تصوّف لم يستطع أن يكتب ، ومَن لم يتصوف لم يَذُق ، حتى يستطيع أن يصف . والذى يحملنا أقرب إلى أن نقول : إن الصوفىّ يرى أشياء خارجية ، أن المتصوفين فى جميع الأقطار والعصور يصفون مناظر متشابهة ، أو كالمتشابهة ، ولو كانت الأمور قاصرة على مجرّد خيالات وأوهام ، لرآها كل متصوف بعينه وحده ، ولم يشترك معه غيره كما هو الحال فى أصحاب الكيوف . ولذلك يفهم الصوفية بعضهم بعضاً ، فى المشرق أو المغرب . وكلهم يقول : إن اللغات تعجز عن الوصف بعد الوصول إلى حد من المعرفة . وهم يتداولون العبارة المأثورة وهى « وهناك ما لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

ومن الأدلة على ذلك أن هناك بعض الصوفية الصادقين أمثال الغزالى ومحيى الدين بن العربى — وكانوا فى حياتهم العادية صاحِين واعين — يؤلفون فى المسائل العلمية ، كما يؤلفون فى التصوف . فإذا ألَّفوا فى الحياة العلمية كانوا صاحِين متنبهين دقيقين ، وإذا ألَّفوا فى التصوف غلبهم العشق والهيام والرمز ؛ ولو كانوا قد جُنُّوا ما استطاعوا أن يؤلِّفوا فى العلم ، فالعقل لا يتجزأ .

على أنه والحق يقال ، قد بدأ علماء النفس فى العصور الحديثة يدرسون التصوف على أنه ظاهرة نفسية لها خصائصها ؛ ولكن بدءوا دراستهم من عهد قريب ، ولما يقطعوا أمداً بعيداً فى ذلك .

المراجع

الفكر السامى ، فى تاريخ الفقه الإسلامى .

تاريخ التشريع ، للخضرى .

الرسالة القشيرية .

تجارب الأمم لابن مسكويه فى حادثة الحلاّج .

كتاب نيكلسن فى التصوف الإسلامى وتاريخه ، ترجمة الدكتور أبو العلا عفيفى .

رسالة التصوف ، للدكتور عبد المحسن الحسينى .

مَسِّنْيُونْ — رسالة الدكتور عبد المحسن الحسينى

وفيات الأعيان ، لابن خلكان .

حجة الله البالغة للدهلوى .

بعض كتب الهند الإنجليزية .

الباب الثالث

اللغـــة والأدب

فى هذا العصر تحولت معاجم اللغة إلى جهة جديدة ، على يد الجوهرى صاحب الصحاح ، ذلك أن المعاجم التى قبله كانت صعبة التناول ، لأنها كانت مثلاً ككتاب العين ترتِّبُ الكلمات على حسب مخارج الحروف ، مبتدئة بالعين ، ولذلك سمّى الخليل كتابه العين . ثم يذكر الكلمة ويذكر مقلوباتها وينص على أن هذه الكلمة مهملةٌ لم تستعمل أو مستعملة .

وجرى ابن دريد هذا المجرى فى جمهرته ، فكان الكشف على الكلمات صعباً جداً . فأتى الجوهرى صاحب الصحاح فرتبه على حسب حروف الهجاء ، تاركا المهملات ، جاعلا الحرف الأخير بابا ، والحرف الأول فصلا ، فسهّل على الناس الكشف عن الكلمات . وجرى بعده كثيرٌ ممّن ألَّف فى معاجم اللغة مثل القاموس ولسان العرب ومختار الصحاح وغيرها ، وأكمل الجوهرى بعض ما فات بمشافهة العرب ، وسماعه منهم ؛ وبذلك فتح فى القرن الرابع الهجرى فتحاً جديداً ، وزاد على علماء اللغة السابقين فى تحديد معنى الكلمات والإمعان فى الاشتقاق .

وقد تضخمت معاجم اللغة فى هذا العصر وما بعده لأسباب كثيرة ؛ منها أن جامعى اللغة قيدوا فى معاجمهم اللهجات ، ولم يكتفوا بلهجة واحدة ، مثل : أن يؤلف عالم معجما للغة الشعبية المصرية ، فيقيد قال ، وجال ، وآل ، كل فى بابه وفصله ، وكلها فى الأصل كلمة واحدة ، اختلف النطق بها . فقد تنطق قبيلة بكلمة ، وتنطقها قبيلة أخرى بلهجة أخرى ، فيقيدون ذلك كله .

فمثلا قبيلة تقول أن ، وأخرى تقلب الهمزة عيناً ، فتقول فى أنْ ، عن ، وفى أنّ ، عنّ . و بعض القبائل يقول شجرة ، والبعض الآخر يقول : شَيَرَةَ . وهكذا . والمعاجم مملوءة بهذا الضرب .

ومنها أن بعض القبائل كان ينطق بالكلمة مقلوبة أو متغيرة حروفها ، فيقولون فى جذب ، جبذ ، ومنها أن الجامعين الأولين للغة كانوا يجمعون حيثما اتفق ، غير منبهين فى الغالب على أن هذه الكلمة تستعملها القبيلة الفلانية ، والكلمة الأخرى تستعملها القبيلة الفلانية ، وجرى من بعدهم على أثرهم . فبعض القبائل يستعمل كلمة البُر ، والبعض الآخر يستعمل كلمة القمح ، و بعضهم يستعمل كلمة بئر ، و بعضهم يستعمل كلمة قليب . ومن استعمل كلمةً منهما لم يستعمل الأخرى ، فأتى الجامعون ، فجمعوا كل ذلك ، مما كان نتيجته كثرة المترادفات .

ومن الأسباب توسع بعض الأعراب فى المجاز . فمثلا سمُّوا الثياب القصار مقطعات ، بل سموا كل ما يفصل و يُخاط من قميص وجباب وسراو يل مقطعات . ثم تجوّزوا فسمّوا الحديد المتخذ دروعا أو سلاحا مقطّعاً ، وقالوا : قطعتُ الحديد : أى صنعته دروعا وغيرها من السلاح ، كأنه ثياب ، ثم تجوزوا ، فسمّوا الأشعار القصيرة مقطعات وهكذا . ومنها أن بعض جامعى اللغة لم يكن يتحرى فى جمعه ؛ بل كان يدون كل ما سمع ، سواء سمع من ثقة أو غير ثقة . ولم يكونوا يتحرّون تحرّى المحدّثين . فكان بعضهم يسمع امرأة تقول قولا ، وقد تكون هازلة أو غير ثقة ، فيدون ما سمع ، ثم يثبت ذلك فى معجمه . كالذى يروى أن امرأة سئلت : كيف مطركم ؟ فقالت : غِثْنا ما شئنا : أى أنزل الله علينا من الغيث بقدر ما نشاء ، ولم يسمع من غيرها غثنا بهذا المعنى ، فدوّن ذلك فى المعجم . بل قد يسمعون من صبى يلعب ، أو من صبى يلثغ ، فيدونون ما سمعوا ، كما روى

أن بعض الصبيان كانوا يلعبون بالزحلوقة و ينشدون :

لمن زُحلوقة زلُّ　　بهـا العينان تنهلّ

ينادى الآخرَ الألُّ　　ألا حلوا ألا حلّوا

فكلمة الأَلُّ بمعنى الأول ، لم تسمع إلا من هؤلاء الصبيان ، ومع ذلك دوّنت فى المعاجم . بل قد عقد اللغويون بحثاً فى هل يأخذون اللغة عن المجانين أو لا ، فرووا أن مجنوناً كان يرقّص ابنته و يقول :

محكوكةُ العين مِعطاء القفا　　كأنما قُدّت على مَتن الصفا

تمشى على متن شراكٍ أعْجَفَا　　كأنما تنشر فيه مصحفا

وقد سئل فيهما الأصمعى فقال : أحسب أن ناظم البيتين نفسه لا يعرف معناها . وسئل أبو زيد الأنصارى عنهما ، فقال : إنهما لمجنون ، ولا يعرف كلام المجانين إلا مجنون . وزاد الطين بلة أن بعضهم كان يأخذ اللغة من الصحف ، فيصحفها . ومن أدلة ذلك مثلا : أننا نجد فى القاموس المحيط كلمة : بُجْدُق ، كعُصْفور : بزر قاطونا ، ونجدها فى لسان العرب بُخْدُق ، وفى المزهر بُحدق ، وفى أقرب الموارد بجذُف . وهكذا كلمات كثيرة من هذا الطريق .

ومن غريب الأمر أن بعض جامعى اللغة يدوّن الأصل والتصحيف معاً ، فكان هذا أيضاً سبباً من أسباب التضخيم . ومن الأسباب كذلك تعرّض المتأخرين من رجال اللغة لما ليس لهم به علم ، ثم يطيلون فى ذلك فيقول صاحب القاموس مثلا : إن الهرمين بناءان أزليان بمصر ، بناهما إدريس عليه السلام ، لحفظ العلوم فيهما من الطوفان ، أو بناء سنان بن المشلشل . وهكذا فى كثير من الأحيان يقفون موقف المؤرخ ، أو الفلكى ، أو النباتى ، أو عالم الحيوان ، أو غير ذلك ، كأنهم يدعون أنهم يعلمون كل شىء ، وليس هناك اختصاص .

ومما زاد تضخم معاجم اللغة انتقال اللغة من البداوة إلى الحضارة . فالحضارة غيرت معانى بعض الكلمات ، ومكنت علماء اللغة من زيادة الشرح ، ومن زيادة بعض الأوصاف على تعريف بعض الكلمات .

هذا إلى أن الحضارة واتساع المملكة الإسلامية جعلهم يقفون على أنواع من النبات والحيوان والطعوم وسائر مرافق العمران ، وأدخل اللغويون كل ذلك فى معاجمهم ؛ فالعرب فى الجزيرة لم يكونوا يعرفون الهرم ولا البرابى . ثم إن كل بلد مفتوح أدخل على اللغة كلمات استعملها العرب الفاتحون ، وأدخلوها فى لغاتهم ، بل واشتقوا منها . فمثلا لما فتح العرب مصر ، عرّبوا كثيراً من أسماء البلدان كبنها والفيوم ودمنهور والإسكندرية ، وغير ذلك ، وأدخلوا فى اللغة من مصر كلمة بطاقة وهى يونانية الأصل ، واستعملوا منها منشار وهى مصرية الأصل . واشتقوا منها نشر ينشر نشراً الخ . ثم كان العلماء القياسيون كأبى على الفارسى وابن جنى توسع فى الاشتقاق كبير أدخل كلمات كثيرة لم تكن ينطق بها إلى غير ذلك .

وكان من مظاهر هذا العصر انتشار اللغة العامية بجانب اللغة الفصحى ، فكان لكل إقليم إسلامى لغته ولهجته الدارجتان .

وتميزت اللغة العامية عن الفصحى ، وجرتا جنباً إلى جنب ، يتكلم أكثر الناس العامية ، وأقلهم اللغة الفصحى ، وكان هذا التميز واضحاً فى أشياء :

قَلْب أكثر الكلمات التى تحتوى على الصاد سيناً : كصراط وسراط ، وأهمها إسكان آخر الكلمات ، لأن الإعراب الصحيح لا يتقنه إلا سكان البوادى من الأعراب ، والمتمرنون على الإعراب تمرناً كبيراً ، ثم من مميزاتها عدم التفريق الدقيق بين المثنى وجمع المذكر وجمع المؤنث ، ومنها قلب الضاد ظاء أحياناً

ودالا نخينة أحياناً . وبلغ من غرابة اللغة الفصحى عندهم أنهم كانوا يدعون أمثال المتنبي متقعّراً ، وكان يعد فصيحاً مَن سلم من الخطأ فى مراعاة الإعراب والتصريف ، وتجنب العبارات الدارجة ؛ وحتى اللغة العامية ظهرت فى أشعار القرن الرابع الهجرى ، وخصوصاً لغة بغداد ، لكثرة لغتها الفارسية مثل كلمة لَقَلَقْ ، وصوابها لقلاق . ونرى كثيراً من ذلك فى شعر ابن حجاج . وساعد على انتشار اللحن عهد السلجوقيين ، فإنهم لم يكونوا يحسنون الثقافة العربية ، ولا الأدب العربى كما كان يحسنه الأمويون من قبل .

وظاهرة أخرى أشرنا إليها من قبل ، وهى : توسيع اللغة عن طريق القياس ، والتوسعُ فى الاشتقاق قياساً . وكان رافع علم هذه المدرسة أبا علىّ الفارسى وتلميذه ابن جنى ، فكان موقفهما من اللغة موقف أبى حنيفة ومدرسته فى الفقه . وقد كان كلٌّ منهما معتزلياً ، فمكنهما اعتزالهما — كما نعلم من مدرسة المعتزلة — من التحرر وإخضاع اللغة لحكم العقل .

خرج هذان العالمان الجليلان على الناس بطريقة جديدة تخالف طريقة الآخرين المحافظين : فقد كان المحافظون يميلون إلى السير على القديم من غير تفكير فى تغييره ولا الخروج عليه ؛ يدعوهم إلى ذلك إما خمودهم الذهنى وإما حب السلامة ، وما يستدعيه التجديد من التعرض للنقد ، وإما إخلاصهم للقديم وإجلالهم له عن عقيدة . وذلك شأن الحياة كلها : أحرارٌ ومحافظون ؛ وأهل نقل وأهل رأى . وهؤلاء أهل الرأى ، من طبيعتهم أن يردوا ما لم يرد فيه نص على ما ورد فيه نص ، كما فعل الفقهاء الحنفية تماماً . وكذلك فعل الشعراء ؛ فمنهم من لا يستعمل الكلمة إلا إذا ثبتت عنده فى اللغة ، ومنهم من يجرؤ فيبتكر الكلمة أو يقيسها على غيرها . هذا رؤبة يخلق بعض الكلمات ، كما حدثوا . وهذا بشار بن برد

يرى أن العرب تصوغ فَعَلَى من الفِعل للدلالة على السرعة ، فقالوا مثلا : حَجَلَى دلالة على سرعة السير . فقال هو :

والآن أقصرَ عن سميةَ باطلى وأشار بالوَجَلَى علىّ مشير

وقال :

على الغَزَلى منى السلام ، فربما لهوتُ بها فى ظلّ مُخْضَلَةٍ زُهر

فعابه المحافظون على ذلك ، وقالوا : لم يسمع من العرب لا وَجلى ولا غزلى ، فلم يعبأ بهما . وحكى ابن قتيبة قال : قال الخليل بن أحمد : أنشدنى رجل : ترافع العز بنا فارفنععا . فقلت ليس هذا شيئاً . فقال : كيف جاز للعجاج أن يقول : تقاعس العز بنا فاقعنسسا ، ولا يجوز لى ذلك ؟

على كل حال جدّ العلماء مشكورين فى جمع اللغة من أفواه العرب ؛ فوقف من بعدهم فريقين : قوم يقفون عند ما قال العرب ، وقوم يجتهدون ، فيقولون مثلا : إن العرب أحياناً كانت تخطىء فلا يصح أن نجاريهم فى خطئهم . فمثلا إنهم عدّوا بعض الحيوانات من صنف السمك لما رأوه يشبهه ، ولكن علماء الحيوان بفحصهم له رأوه من ذوات الثدى ، فعدوه من قبيل الخيل لا من قبيل السمك . فكيف نجارى العرب فى ذلك مع خطئهم ؟ وعدوا الأجرام السماوية أجساماً حية لها نفسٌ كنفس الإنسان لما رأوا من تحركها من غير محرك ؛ فلما اكتُشف قانون الجذب وتقدم العلم كشف أنها ليست بذات نفس ، وإنما هى مادة جامدة كالأرض . وكانوا يعتقدون فى بناء الأهرام عقائد خرافية ، فى من بناها ، الخ ... وأثبتوا ذلك فى معاجمهم ؛ حتى أتى العلم الحديث فأبان خطأهم . وأحياناً يخطئون فيصفون الناقة بصفات الجمل حتى نقدهم بعضهم فقال « استنوق الجمل » ، وهكذا . فلماذا نقدّس القديم لأنه قديم ، ولا نُعمل عقولنا فنصححه ؟

بل ذهبوا إلى أن اللغة توقيفية ، فاستنتجوا من ذلك عدم التعرض لها مهما كانت مخطئة ؛ ومن هذا القبيل ما حكى عن الأصمعى وابن الأعرابى وأبى زيد . فلم يكونوا يستبيحون لأنفسهم أن يقولوا كلمة أو يشتقوا اشتقاقاً إلا عن سماع به ؛ حتى جاء أبو على الفارسى فأعلن القياس والثورة على القديم ، ولعل ذلك لأنه فارسىّ الأدب والأم ، ولأنه معتزلى .

وعاصره فى ذلك أبو سعيد السيرافى ، وكان أبو سعيد زعيم المحافظين ، وأبو علىّ زعيم الأحرار فى اللغة ؛ فكان الناس يقولون : أبو سعيد أكثر رواية ، وأبو على أكثر دراية . ومن أقوال أبى على : لأن أخطئ فى خمسين مسألة ممّا بابه الرواية أحبّ إلىّ من أن أخطئ فى مسألة واحدة قياسية . وكان يقول : ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، فإذا عرِّبت كلمة أعجمية أجريت عليها أحكام الإعراب وعددتها من كلام العرب وأجزت الاشتقاق منها ، كما عرب العرب لفظة الدرهم ، واشتقوا منها دَرْهَمَتِ الخبَّازَى ، أى صارت كالدراهم ، وقالوا : رجل مدرهم : أى أكثرت دراهمه . وكان يقول : لو شاء شاعرٌ أو ساجعٌ أن يبنى من كلمة اسماً وفعلا وصفة لجاز له ولكان ذلك من كلام العرب . وذلك نحو قولك : خَرْجَجٌ أكثر من دَخْلَلٍ ، فقال له تلميذه ابن جنى : أفترتجل اللغة ارتجالا ؟ قال : ليس بارتجال ، لكنه مقيسٌ على كلامهم فهو إذن من كلامهم ثم قال : ألا ترى أنك تقول طاب الخشكنانُ ، فتجعله من كلام العرب وإن لم تكن العرب تكلمت به ؟ فرفُعك إياه دليلٌ على أنك أخضعته لكلام العرب .

وكان من رأيه أن الألف اللينة فى الكلمة الثلاثية تكتبُ ألفاً مُطلقاً ، سواء كان أصلُها واواً أو ياءً ، حملا للخط على اللفظ .

وجاء بعده تلميذه ابن جنى فرفع لواء هذا المذهب ، وكان أيضاً من نسب رومى ، وفاق أستاذه فى الاشتقاق وقال فيه المتنبي : هذا رجل لا يعرف قدره كثيرٌ من الناس . وكتابه الخصائص يدل على جرأته وقياسه كما يدل على تذوقه للّغة وفهم أسرارها ومحاولة فلسفتها ؛ وقد صحب أستاذه أبا على أربعين سنة واستوعب علمه وزاده تفصيلا وتعليلا وتذليلا . وقد رأى أن الفقهاء قبله وضعوا للفقه أصولا وأن المتكلمين وضعوا لكلامهم أصولا ؛ فأراد أن يضع للغة والنحو كذلك أصولا . ونجد بعض هذه الأصول فى كتابه الخصائص ؛ وكان مما وضعه أيضاً الاشتقاق الكبير ، وهو الذى سمّاه بهذا الاسم . وكان أصلُ الفكرة لأستاذه أبى علىّ ، فجاء ابن جنى فوسعها ، وقال : إن أبا علىّ رحمه الله كان يستعين بالاشتقاق الكبير ويخلد إليه وسماه ؛ وكان يعتاده عند الضرورة ويستريح إليه . ويعنى بالاشتقاق الكبير حصرَ أصول الكلم وتقليبها على وجوهها المختلفة ، واستخراج التباديل والتوافيق منها ، والمقارنة بينها فى المعانى ، مثل كلمة (كَلَّمَ) فتحولها إلى كمل ، مكل ، ملك ، لكم ؛ ونمعن النظر فيها لنعرف وجه الشبه بينهما . فنستخرج مثلا أن هذه الحروف إذا اجتمعت دلت على القوة ؛ ونستخرج معنى القوة من كل هذه الألفاظ .

ومما يؤسف له أن مدرسة القياس هذه لم تستمر تؤتى أكلها ، فذهبت مع ذهاب المعتزلة ، لأن مدرسة المعتزلة كانت تحث على البحث ، والتجربة والشك ، والاستدلال العقلى ، فلما ذهَبت ذهبت آثارها . ولذلك ذهبوا إلى أن اللغة ليست توقيفية ، وإنما هى اصطلاحية ليحرروا أنفسهم إذا قالوا إنها توقيفية . وربما كان لاعتزال الزمخشرى أيضاً أثر كبير فى قدرته الفائقة فى البلاغة ودراسة الأساليب والتحرر من المنقول .

وإذا نحن سرنا على أثر هذه المدرسة استطعنا أن نكمّل ما نجده من نقص فى اللغة ، فإذا وجدنا مصدراً لم يذكر فعله ذكرناه بالقياس ، وإذا وجدنا مذكراً لم يذكر مؤنثه فكذلك ؛ وإذا وجدنا فعلا لم يذكر بابه اجتهدنا فى ذكر ذلك قياساً ، كذلك إذا وجدناهم يشتقون وزناً خاصاً للدلالة على شىء ، أمكننا أن نقيس عليه . فإذا وجدناهم مثلا يصوغون « فَعّال » للدلالة على محترف الحرفة ، كنجّار ، وخبّاز ، وحدّاد ، وقفّال ؛ أمكننا أن نقيس عليه من أسماء أصحاب المهن التى لم يذكرها العرب . كذلك يمكننا إذا تذوّقنا الذوق العربى تذوُّقاً تاما ، وعرفنا كيف كانوا يضعون الألفاظ أمكننا أن يضع العلماء مثلهم فيما هم فى حاجة إليه ، الخ ...

وعلى كل حال فمدرسةُ القياس ترى أن اللغة ليست مقدسة ُوأنها مِلكٌ للناس لا أن الناس مِلكها . ويمكننا أن نصحح ما فيها من أخطاء ، ونبين ما حصل فيها من تصحيف ، ونصحح الأخطاء التى وردت فى معاجم اللغة ، مما ورد خطأً من تصحيف ، أو من لثغة ألثغ ، أو نحو ذلك .

ومن خير ما ألّف فى اللغة أيضاً فى ذلك العصر كتاب مقاييس اللغة لابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ ، وقد نحا فيه نحواً جديداً ، فقد استخلص من معانى الكلمة المختلفة معنى واحداً ، أو معنيين ، جعله أساساً للكلمة ، ونص عليه ، وبين أن الاشتقاقات المختلفة تدور حوله . مثال ذلك « وجب » قال : الواو والجيم والباء أصل واحد يدل على سقوط الشىء ووقوعه ، ثم يتفرع ، يقال وجب البيع وجوباً ، حق ووقع ، ووجب الميت سقط ، والقتيل واجب ؛ وفى الحديث : « إذا وجب فلا تبكيَنَّ باكية » ، أى إذا سقط .

وقال الله فى النسك « فإذا وجبت جنو بها » . قال قيس :

أطاعت بنو عوف أميراً نهاهُمُ عن السَّلْم حتى كان أول واجب

* * *

ووجب الحائط سقط .

« وَجْبة » : و يقولون الوجْب الجبان . قال الشاعر :

* طَلُوبُ الأعادى لا سلُومٌ ولا وجْبُ *

سمّى به لأنه كالساقط . ويقولون : الموجَب ، للناقة لا تنبعث من كثرة لحها . وأما وجيب القلب فمن الإبدال ، أصله وجيف وهكذا . فهو كما ترى يؤول المعانى كلها إلى معنى واحد .

ونلاحظ عليه الصفاء والإيجاز وعدم السفسطة ولم يكتفوا بجمع الألفاظ ، بل جمعوا أيضاً الأساليب ، كالذى نرى فى كتاب « كفاية المتحفظ » وكتاب « الألفاظ الكتابية » للهمدانى ، مثل الأساليب التى تقال فى لم الشعث ، والتى تقال فى الدلالة على الشجاعة أو الجبن أو نحو ذلك .

ومما فعلوه أيضاً جمع الأمثال وترتيبها حسب الحروف الأبجدية ، كما فعل الميدانى فى كتابه « مجمع الأمثال » ، وقد أخذ كل كتابه تقريباً من كتاب فى الأمثال لحمزة الأصفهانى ، لم يزد عليه فى كل باب إلا مثلا أو مثلين أو ثلاثة ، ولكن حظ كتابه كان أكبر من حظ حمزة .

الأدب

لو رجعنا إلى الفصل الذى كتبناه عن الحالة الاجتماعية فى العصر العباسى أول هذا الكتاب ، وجدنا الأدب كله بأنواعه صدًى لهذه الحياة الاجتماعية فلما أفرط الأمراء فى الظلم والاستبداد ومصادرة الأموال ، كان طبيعياً أن ينقسم الشعراء إلى قسمين : قسم يلهو معهم ، وينتفع بما لهم ، فيمدحهم ويقلب سيئاتهم حسنات . وهذا هو الكثير ، كالمتنبى وأبى فراس والناشئ والخالديَّين وغيرهم . وقسم تمنعه نفسه من الملق وطبعه من التقرب كأبى العلاء الكفيف ، فيتخذ خطة أخرى وهى الذم والقدح ؛ وكذلك انقسم الشعر والشعراء .

وإذ كانت الحالة الاجتماعية تنقسم إلى طبقات كالتى ذكرنا ، طبقة غنية كل الغنى ، وطبقة فقيرة كل الفقر ، وجد المستجدون الكثيرون ؛ وكان منهم أدباء ، ولهم لغة وطريقة ، كلغة الأدباتية اليوم ؛ حكاها لنا الثعالبى فى اليتيمة الذى له الفضل الأكبر فى تأريخ أدب المائة الرابعة ؛ ومن أظهرهم فى ذلك رجل يسمى أبا دُلَف ، كانت له طريقة خاصة فى الاستجداء ، وقد ذكره البديع فى مقاماته ؛ فكان هذا الضرب من الحياة الاجتماعية مبعثاً لوجود مقامات البديع ، ومقامات الحريرى ؛ ووجود الجوارى الجميلات ، وكثرة ملك اليمين ، وكثرة الغلمان الأرقاء فى يد الناس أوجد الغزل فى المذكر والمؤنث ؛ وكثرة الشراب كانت سبباً لكثرة القول فيه .

وإذ كانت بيوت الأغنياء يُعنى فيها بالأثاث الجميل ، والرياش الفاخرة ، عُنى الأدباء بتجميل أدبهم ، بالسجع والمزاوجة وغيرهما من أنواع البديع الخ الخ .

لقد زها الأدب فى هذا العصر . ولنقسم الأدب إلى قسمين : نثر ، وشعر

وقد قُسم النثر فى ذلك العصر إلى قسمين واضحين : سمّى أحدهما السلطانيات ، وهى المكاتبات الرسمية التى تصدر من عامل إلى عامل ، أو من وزير إلى عامل ، أو من خليفة إلى عمال وهكذا ؛ وقسم يسمى الإخوانيات ، وهو ما يصدر من صديق إلى صديق ، أو من أستاذ إلى تلميذ ، أو من تلميذ فى المسائل الخاصة . وقد نبغ فى النوعين أول الأمر رجلان كبيران : أحدهما أبو هلال الصابى ، والثانى أبو بكر الخوارزمى ، فكلاهما كان شيخاً لهذه الصناعة . وقد التزما السجع تقريباً ، لسببين : الأول دخول النصارى فى الإسلام ، وقد كانوا يستعملون السجع فى الكنائس ؛ والثانى حبهم للطريف من الأشياء . ولا شك أن السجع أطرف من الكلام المرسل . يضاف إلى ذلك ما حدث فى تاريخ كل أنواع البديع ، فقد بدأ العرب فى الجاهلية يستعملونه كالملح فى الطعام ، ثم زاد فى العصر العباسى شيئاً ما ، ثم عمّ فى الكتابات فى عصرنا هذا .

ومن حسن الحظ أن لدينا الآن مجموعة من رسائل الصابى والخوارزمى تقرؤها فكأنك تنظر إلى قطعة من الزجاج المموّه ، أو الخشب المخروط . فأما الصابى ، المتوفى سنة ٣٨٤ فكان صابئاً كلقبه . وعرضت عليه الوزارة إن أسلم فأبى ، وكان يفتخر بقدرته الفائقة على الكتابة ويقول :

وقد علم السلطان أنّى أمينُه   وكاتبهُ الكافى السديد الموفَّق

فيُمنَاى يمناهُ ، ولفظى لفظُه   وعينِى له عَيْنٌ بها الدهرَ يَرْمُقُ

ولى فِقَرٌ تُضْحِى الملوك فقيرةً   إليها لَدَى أحداثِهَا حين تَطرُقُ

* * *

وكل كتاباته مسجوعة . سواء كانت رسائل سلطانية أو إخوانية .

وأنا شخصياً أستسمج كتابته وكتابة الخوارزمى ومن نحا نحوهما . وأرى أنها جعجعة ولا طحْن ، وألفاظ جوفاء ولا معنى .

وأما الخوارزمى فقد رحل كثيراً إلى الأقطار ، وعدّ شيخ الأدباء . واعترفت له الأقطار المختلفة بالفضل والبلاغة ، حتى جاء بديع الزمان الهمذانى وكان شاباً حدثاً والخوارزمى شيخاً ، فنازل الشيخ نزولا عنيفاً ، فانقسم الناس فريقين ، فريق يحترم الخوارزمى وشيخوخته ، وفريق يناصر بديع الزمان وجدّته . وأخيراً مات الخوارزمى محزوناً . وقد استطاع البديع أن يطلع على الناس بأشياء جديدة لم يكن يحسنها الخوارزمى كالمقامات وكتابة الرسائل التى كل حروفها معجمة أو مهملة أو رسائل إذا قرئت من أولها إلى آخرها كانت سؤالا ، و إذا قرئت من آخرها إلى أولها كانت جوابا ، أو رسالة لا يوجد فيها حرف منفصل كالراء والدال ، أو رسالة كل سطورها مبدوءة بالميم ، أو أبيات إذا فسرت بطريقة خاصة كانت مدحا ، و إذا فسرت بطريقة أخرى كانت ذما . وهكذا مما تجده فى رسائله ومقاماته .

ولم يكن الشيخ الخوارزمى يعرف شيئاً من ذلك ، إنما كان يعرف الرسائل المألوفة المعتادة ، فهزمه البديع لشبو بيته ، وتفننه .

وأسوق إليك مثلا أو مثلين من الرسائل التى كانت تعجب هذا العصر وتملؤه فخراً ، مثل ما كتب الخوارزمى يصف بؤسه ، وتغير الناس عليه . « وأصابنى البؤس حتى لقد ركبت غير دابتى ، وأكلت غير نفقتى ، ونزلت بيتاً بالكرا ، وأكلت خبزاً بُسْراً . ولبست الصوف فى الصيف ، والبردىّ فى الخريف . وكوتبت مواجهة ، وخوطبت بالكاف مشافهة . وأُجلست فى صف النعال ، أعنى أخريات الرجال . وناظرنى من كان يدرس علىّ ، وخالفنى من كان يختلف إلىّ ، وحتى لقد نشزت علىّ جاريتى ، وحزنت علىّ دابتى ، وتقدمنى فى المسير رفيقى ،

الذى جمعنى و إياه طريق ، وحتى أنى أخذت الدرهم الجيد فصار فى يدى ستوقا وقطعت الثوب المشترى فصار على بدنى مسروقا ، وسافرت فى حزيران فعصفت الريح ، وسدّ الأفق الضباب ، وفقدت كل شىء ملكته غير عرضى ، الذى عهده الشيخ معى ، وصبرى الذى عرفه منى » ويقول الخوارزمى أيضاً وهو قول مملوء بالمبالغة والتكرار والحشو ، ويقصد إليها على أنها طريقة متينة فى الكتابة : فى إحدى رسائله : «فلان أبطأ علىّ ، فليت شعرى آلرِّيح قلعته ، أم الأرض ابتلعته ، أم الأفعى نهشته ، أم السباع افترسته ، أم الغول أغوته ، أم الشياطين استهوته . أم أصابته بائقة ، أم أحرقته صاعقة ، أم رفسته الجمال ، أم اغتاله الجمّال . أم انتكس من على ظهر جمل ، أم تدحرج من رأس جبل . أم وقع فى بير ، أم انهار عليه جُرف شفير . أم شلت يداه ، أم قعدت رجلاه . أم ضربه الجذام ، أم أصابه البرسام . أم تاه فى البر ، أم أغرق فى البحر ، أم مات من الحر . أم سال به سيل زاعب ، أم وقع فيه سهمٌ من سهام الآجال صائب . أم عمل عمل أهل لوط ، فأرسلت عليه حجارة من طين منضود ، مسومة عند ربك وما هى من الظالمين ببعيد » . فهذه عبارات جوفاء كلها مع طولها ، يريد منها أن يقول إنه غابت عنه رسائله ، وهذا خذلان من الله ، لا يكون إلا مع الفراغ فى الفؤاد

والصابى والخوارزمى أثقل من البديع ، وهو أخف منهما روحا . وهكذا أقرأ هذه الرسائل كلها فينقبض صدرى ، ولا ينطلق لسانى ، وأصرف فى الرسالة ساعة أو ساعتين ، ثم لا أخرج منها بشىء فى اليدين . وزاد الطين بلة الصاحب بن عباد المعاصر لهم ، فقد كان يعزل الوالى أو يوليه ، ليحصل من ذلك على سجعة ، فلما أتى بعد ذلك القاضى الفاضل والعماد الأصفهانى تمت هذه الكارثة ، كارثة التقييد بالسجع وأنواع البديع ، وأثرت هذه المدرسة فى كل كتاب القرون التى أتت بعد

إلى النهضة الحديثة . اتجاهٌ كليٌّ إلى السجع والبديع ، وفراغ كلى من معنى بديع .

وهـذا من غير شك أصاب العقول فلم تأت بمعنى جديد ، وقلما تأتى برأى سديد .

وربما كان أرقاهم فى ذلك أبا حيّان التوحيدى ، فقد كان يجمع إلى السجع المزاوجة . وكانت غزارة معانيه ، تلطّف من طريقة عصره . ولذلك هو فى نظرى آدب أهل زمانه ، بل ربمـا كان آدب من شيخه الجاحظ ، لأن علوم زمانه التى استوعبها كانت أكثر من علوم الجاحظ .

ولـكنه مع ذلك عاش هو وأستاذه أبو سليمان المنطقى فقيريْن . أما أبو سليمان فكان عَورُه وبرصُه ما نعين له من الاختلاط بالأمراء ، ومساعدتهم له ، إلا أعطيات قليلة كان يمنحها إياه عضد الدولة ابن بويه ، لمـا يستنجد به فى دفع أجر بيته ، وما استدانه لغذائه . وكذلك فعل الوزير ابن سعدان معه . وأما أبو حيان فيظهر أنه كان مع فضله ثقيل الروح فى محضره ، وإن لم يظهر ثقله فى كتابته . كان يعلم مقـدار فضله وعلمه ، ثم يرى نفسه بائساً ، ويرى تفاهة من حوله وغفلتهم ، وهم متبحبحون فى معيشتهم ، فيأبى إلا أن يشمخ عليهم . ويقدح بلسانه الحاد فى أعراضهم ، فحرم من أجل ذلك ، حتى كان يأكل الحشيش من الصحراء ، وحتى أنه كان إذا صلى فى المسجد ، ابتعد عنه الناس فلا يصلون بجانبه ، إلا بقالا أو زياتاً أو إسكافياً .

وفيما عداه قد عمت طريقة الخوارزمى والصابى وبديع الزمان ، فعمت بذلك البلوى .

* * *

ومما يلاحظ فى هذا العصر ما ذهب إليه الـكتاب مما يشبه الـكتابة اليونانية من تضمين كتبهم قصصاً كثيرة ، أو إشارات إلى أحداث تاريخية كإشارة البـديع إلى حكاية التاجر مع ولده ، وإشارته إلى قصص أخرى مشهورة فى زمنه .

ومما يلاحظ أيضاً أن اللغة العامية أصبح معترفاً بها ، يبحث فى ألفاظها وأساليبها ، وينتقى منها خيرها ، إلا بعض علماء ، كأبى العلاء المعرى ، فقد كان واسع الاطلاع على اللغة ، مولعاً بالغريب ، حتى إذا كان المعنى الواحد يمكن أداؤه بعبارات واضحة ، وبعبارات غامضة ذات ألفاظ غريبة اختار الثانية ، كما نرى فى رسالة الغفران ، كقوله : « وأسفى لفراق سيدى الشيخ ، أدام الله عزه ، أسف ساق حرّ ، ساقه الطرب إلى الحرّ . توارى بالوريقة من حرّ الوديقة ، كأنه قينة وراء ستر ، أو كبير حجب من الهتر ، فى عنقه طوق ، كربٌ يفصمه الشوق ، لو قدر لا نتزعه باليد ، من المقلّد ، أسفا على إلف ، غادره للـكمْدِ أىَّ حلف . أرسله فهلك نوح ، فالحمائم عليه تنوح . يُسمعك بالفنَاء ، أصناف الغناء ، ويظهر فى الغصون ، جنىّ الوجد المصون » وهكذا اعتادوا البدء بالـكلام عن الشوق للمرسل إليه وكتابته على هذا النوع سمجة أيضاً كالنوع الأول ؛ غير أنه إذا كانت سماجة أبى العلاء كلاسيكية ، فسماجة البديع سماجة رومانتيكية . ولا يعذر أبو العلاء فى ذلك ، إلا إن كان يرمى لتعليم اللغة .

كذلك انتشر فى هذا العصر كثير من القصص فزادت ألف ليلة قصصاً جديدة . ويحكون أن الجهشيارى قام بتأليف كتاب على نسق ألف ليلة وليلة ، اختار فيه ألف سمر من سمر العرب ، وغيرهم ، وكتب فيه أربعمائة وثمانين سَمَرَة ، وكان ينوى أن يجعلها ألفاً ، ولـكن المنيّة عاجلته .

ومسكويه ألف كتابا فى القصص اسمه أنس الفريد . وشاعت نوادر وحكايات كحكايات حجا ، وقصة عاشق البقرة الخ الخ .

ومن الأسف أن طابع السجع والبديع الذى ابتلى به الأدب فى ذلك العصر ظل هو طابع الأدب العربى فى العصور المتأخرة فى كل فرع من فروعه إلى أن جاءت النهضة الحديثة ، فقل أن نجد مبتكراً أو داعياً إلى جديد .

ومع أنه ظهر كتاب آخرون على غير هذه الطريقة مثل أحمد بن يوسف المعروف بابن الداية ألّفَ كتاب المكافأة ، وهو على نمط خير من هذا النمط ، راعى فيه جزالة التعبير ، وقوة التفكير ، أكثر مما راعى السجع ، فإن طريقته المصرية لم تقلّد ، و إنما قلدت الطريقة العراقية كابن العميد وابن عبّاد .

الشـــعر

كان للشعر فى هــذا العصر جولة عظيمة . ونلاحظ أنه كثرت عادة المقطوعات الصغيرة فى وصف طرفٍ صغيرة ، كالذى نلاحظه فى ديوان المتنبى ، ففيه القصائد الفخمة على النمط القديم ، وفيه المقطوعات الصغيرة فى وصف مزهر أو خيمة أو تفاحة من عنبر ، أو نحو ذلك . ونقرأ يتيمة الدهر للثعالبى المؤلفة فى هذا العصر فنجدها مملوءة بالمقطوعات . والكتاب مملوء بتراجم الشعراء فى كل مصر . ولكنه مع الأسف عُنى بالبديع اللفظى أكثر من عنايته بالتحليل النفسى ، فغلبت عليه طريقة ابن عباد والخوارزمى والصابى ، أكثر من طريقة أحمد بن يوسف ، وأبى حيان .

وهو مملوء بمثل هذه المقطعات من مثل الرجل الذى يرثى قطّته فى قوله :

يا هرُّ فارقْتَنا ولم تَعُـــد   وأنتَ عندى بمَنْزِلِ الوَلَدِ

* * *

وقد اختلفوا فى أنها قيلت فى القط حقيقة ، أو فى رثاء من يُخاف رثاؤه .

على كل حال عنى شعراء هذا العصر بالتشبيهات والاستعارات أكثر مما عُنُوا بجدّة المعنى .

وظاهرة أخرى ، وهى نبوغ الصَّنَوْبرى الشاعر فى وصف الطبيعة . وهو أيضاً من نتاج مجالس سيف الدولة ، وقد توفى سنة ٣٣٤ وتغنّى بذكر حلب والرقّة . وكانت له بمدينة حلب حديقة حول قصر نخم غرست فيها الأزهار ، فكثر تغزله فيها مثل قوله :

يا ريمُ قومى الآن ويْحكِ فانظُرى ما للرُّبَى قد أظهَـــرَتْ إعجابَها
كانت محاسِنُ وجهِهـــا مَحْجُوبَةً فالآنَ قد كشفَ الربيعُ حجابَهَا
وردٌ بَدَا يحكى الخدود ونرجِسٌ يحكى العيـــونَ إذا رأت أحبابَها
والسَّرْوُ تحسبه العيـــونُ غوانيا قَدْ شَمَّرَتْ عن ســـوقها أثوابَها
وكأنَّ إحـــداهن من نفح الصَّبا خُودٌ تلاعبُ موهِـــنًا أترابَها
لو كنتُ أملِكُ للرياضِ صيانَةً يومًا ، لَمَا وطِئَ اللئامُ ترابَها

* * *

وكان يعتبر النرجس ملِـكا للأزهار . فمن قوله :

أرأيتَ أحسَنَ من عيون النَّرجِسِ أمْ مِن تلاحظِهن وَسْطَ المَجْلِسِ

* * *

وله قصائد فى وصف معارك بين الأزهار .

وربما عُدَّ الصنوبرى نمطاً غريباً فى إكثاره من وصف الطبيعة من أزهار وسماء وضياء وهواء .

وثار بعض الشعراء ككُشاجم على طريقته ، وأتى بعده من قلّده .

وكان هناك قسمان من الشعر ، قسم كلاسيكى كالذى ذهب إليه المتنبى وأبو نواس والشريف الرضى ، وقسم شعبى ، وذلك مثل بعض الشعراء المُكْدِين الطّوّافين كالأحنف العُكْبُرى القائل :

علَى أنى بحمد اللّـــه فى بيتٍ من المجْدِ
بإخوانى بنى ساسا ن أهلِ الجِدِّ والجَدِّ
لهُمْ أرضُ خراسَا نَ فقاشَان إلى الهند

إلى الروم والزنـــج إلى البُلغارِ والسِّنْدِ
إذا ما أعْـــوَزَ الطرْ قُ على الطرّاق والجُنْدِ
حِـــذاراً من أعادِلهم من الأعراب والـكُرْدِ
قَطَعْنَا ذلِكَ النَّهـــجَ بِلاَ سيفٍ ولا غِمْدِ

ويقول :

العنكبوتُ بنت بيتاً على وهَن تأوى إليـــه ومالى مثلُه وطَنُ
والخُنْفُسَاء لها من جنسها سَـكَن وليس لى مثلها إلْفٌ ولا سَـكَنُ

* * *

ومثل الشاعرين الشهيرَيْن ابن الحجّاج وابن سُـكّرة ، فقد أكثرا من الأقوال الشعبية فى صراحة من غير كناية أو تورية فى العلاقات الجنسية ، والفضلات البدنية بأقبح لفظ وأسوأ تعبير . ولا نريد أن نمثل لها . وكان ميْلُ الناس فى ذلك العصر إلى السخافة والشهوات سبباً فى نتاج هذا النوع من الشعر والإقبال عليه .

ويطول بنا القول لو أننا عددنا الشعراء الذين نبغوا فى هـذا العصر مع تعدّد نواحيهم ونبوغهم . وربما كان أدلّهم على عصره أبو العلاء والصنوبرى والمتنبى وابن الحجاج والشريف الرضىّ . فأبو العلاء ميزته أنه متشائم مسجل لرذائل قومه وزمنه ، والصنوبرى مزيته إعجابه بالطبيعة ، والمتنبى قوىّ جبّار ، فارس فى حياته ، وفارس فى شعره ، معتد بنفسه ، طموح مسجل لأكثر أحداث زمانه ، وخاصة الحروب بين الصليبيين وبين سيف الدولة ، والشريف الرضىّ يمثل العظمة الأرستقراطية ، والاعتداد بالنفس ، والفخر بالنسب ، يقول الشعر ،

ويتجاهل فيه أنه عائش فى المدن ، فيشعر فى الفروسية والحرب والجمال وكرام الخيل من مثل قصيدته المشهورة التى مطلعها :

لِمَنْ الحُدُوبُ تهزُّهُنَّ الأَينُقُ   والرَّكْبُ يطْفُو فى الشراب ويَغْرِقُ

وابتكر فى هذا العصر الموشحات ، وخاصة فى الأندلس ، وهى تتكون من أدوار ، كل دور منها ، ذو أبيات مجزأة ، توحد صدورها قافية ، وتوحد أعجازها قافية أخرى ، مع استقلال كل دور عن الآخر فى قوافى صدوره وأعجازه ، ثم يختم كل دور بالقفل مثل :

رشيـــــقة المعاطف   كالغصن فى القوام
شهـــــدية المراشف   كالدر فى النظام
دعصـــــيّة الروادف   والخصر ذو انهضام
حسنهــــــا أبدعْ   من حسن ذياك الغزال
أكحل المـــــدمع   الخ الخ

والموشحات نتيجة لحب الأندلسيين للسمر والموسيقى . وقد ساعد على ذلك ما للطبيعة من جمال ، وقد تحرر فيها أصحابها من التزام القافيــة ؛ وللمستشرقين أبحاث كثيرة فى : هل أخذت من النوع المعروف عند الإسبان « بالطروبادور » أو إن الإسبان أخذوها عن العرب ؟

ولم يوصل إلى كلمة نهائية بعدُ فى هذا الموضوع . ويقول ابن خلدون : « إن أول من اخترع الموشحات رجل اسمه « مقــدم بن معافر الفريرى ، وكان من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المروانى ، الذى عاش من سنة ٥٠٧ إلى ٥٩٥ » ، ولـكن رويت موشحات قبل هذا التاريخ .

ولم توضع قواعد للموشحات دقيقة ، بل كان ناظموها ، يفهمون تقاليدها فهما عاما ، حتى أتى ابن سناء الملك المصرى ، المولود سنة ٥٥٠ فى القاهرة ، وألّف كتابه « دار الطراز فى عمل الموشحات » ، فوضّح خصائصها ، وعرّفها بقوله : « الموشَّح كلام موزون على وزن مخصوص ، وهو يتألف فى الأكثر من ستة أقفال وخمسة أبيات ، وفى الأقل من خمسة أقفال ، وخمسة أبيات ، والنوع الأول يقال له التام ، والثانى يقال له الأقرع » مثل :

ضاق عنه الزمانْ وحواه صدرى
ضاحك عن جُمانْ سافرٌ عن بدرِ
آه مما أجد شفنى ما أجد
قام بى وقعد باطش متئد
كلما قلت قد قال لى أين قد

ويلزم أن تكون الأقفال كلها متفقة فى وزنها وقوافيها وعدد أجزائها . وكل قافية فى الموشح تسمى فقرة ، وكل قفل مع البيت الذى يليه يسمى سِمْطاً ، وآخر قفل من الموشح يسمَّى «خَرْجة» . ويفضل الوشاحون أن تكون الخرجة عامية ، لأنها أظرف إلا فى المديح . والموشحات صنفان : منها ما جاء على أوزان أشعار العرب ، ومنها ما لم يكن على وزنها . فالأول كالموشحة التى مطلعها :

أيها الشاكى إليك المشتكى قد دعوناك وإن لم تسمع

فإنها من بحر الرمل . والقسم الثانى ما ليس على وزن أشعار العرب ، وهم يفضلون القسم الثانى على الأول . وتمتاز الموشحة باللطف وخفة الروح ، وبعضها عميق المعنى ، وعند ظهورها قوبلت باستحسان فى الأوساط المختلفة ، واعتمد عليها فى الغناء ، وتمتاز بالتحرر من الوزن والقافية .

فالشعر كالنثر ظلّ للبيئة الاجتماعية ، وإن اختلف الشعراء فيما بينهم ، فاختلاف يرجع إلى طبيعتهم ومزاجهم . ولكن كلاًّ يمثل عصره أصدق تمثيل .

وقد عنى بعض الأدباء بتأريخ الأدب عن طريق تراجم الأدباء فى الجاهلية والإسلام وجمعها فى كل العصور ، وأشهر من فعل ذلك أبو الفرج الأصفهانى فى كتاب الأغانى . وهو كتاب حافل ، لم يؤلف مثله قبله ولا بعده ، جمع فيه من الكلام على تراجم الشعراء الجاهليين والإسلاميين والعباسيين ما لم يجمع من قبل . ولذلك استغنى به بعضهم فى رحلاته وانتقالاته عن كثير من الكتب ، غير أنه لم يرتبه حسب تاريخ الزمن ، ولا حسب الحروف الأبجدية . وإنما رتبه حسب الأصوات فإذا جاء صوت ترجم لصاحبه ، وبين نغمته، وطريقة غنائه . وأصل الكتاب أن الأغانى كانت قد جمعت ، فأمر الرشيد باختيار مائة صوت منها ، أى مائة دور ، فجمعت له ، فلما جاء الواثق أمر أن يختار له منها خيرها ، وأن يبدل ما لم يستحسن بما هو أعلى منه وأولى بالاختيار . وجاء من بعده ففعلوا هذا الفعل ، فجمع أبو الفرج كل ذلك مبتدئاً بأصوات الرشيد . وقد استطرد فى الأخبار حسب عادة المؤلفين فى هذا العصر ، وكان عالماً بالغناء من بيت أدب وغناء ، عالماً بأيام العرب وأخبارهم ، مما روى عن كثير من الثقات ، ومما قرأ الكتب الموثوق بها وقد كان قرّاء للكتب . وأسند كل خبر لصاحبه ممن روى عنهم ، أو من الكتب التى أخذ منها . ويظهر أنه كان ثقة فيما ينقل ، يتحرى الأخبار ، ولا يأخذ إلا ما صح عنده . وفى الكتاب نقد لكثير من الروايات مما يدل على علمه بالنقد ، إما لأن الراوى ليس بثقة ، وإما لأن الأحداث التى رويت لا تتناسب مع الزمان والمكان والبيئة . وكان قوىّ النقد صحيحه ، فليس يضع من شأن الشاعر عنده أن يكون سيِّئ السيرة ، فاسد الخلق ، وضيع النسب ، بل يقيسه

بالمقياس الفنى وحده . وليس يُؤثّر عليه تشيعه . ولا أمويّته ، بل لا يمنعه ذلك من أن يقول الحق كل الحق ، سواء كان القائل سنياً أو شيعياً ؛ ولذلك كان الكتاب مصدراً تاريخياً يستدل منه على الأحوال الاجتماعية فى الجاهلية والإسلام . بل هو فى هذه الناحية أحسن من كتب التاريخ ، إذا هى تعتمد على أخبار الخلفاء والأمراء الرسمية فقط ، أما حالتهم الاجتماعية وحالة الشعب من لهو وترف وغناء وما إلى ذلك ، فنستنبطها من الأغانى وأخباره ، لا من كتب التاريخ .

وقد ذكر أنه ألفه لرئيس من رؤسائه . والظاهر أن هذا الرئيس هو الوزير المهلبى : فإنه كان يتصل به ويؤاكله ويحادثه ، ويسمر عنده ، ويروى الأخبار الأدبية له . وعلى كل حال فهذا الكتاب الذى ألّف فى القرن الرابع الهجرى كان مصدراً لكل المؤلفين الذين جاءوا بعده . وقد بذل المعاصرون جهوداً جبارة فى تعرّف النغمات التى ينص عليها فى كتابه ، ويحكى هيئاتها ليمكن أن ينتفع بالأصوات التى وردت فيها . واعتمد عليه المستشرقون والشرقيون على السواء . وعلى الإجمال فهو نعمة من نعم القرن الرابع على الأدب .

وهناك نوع من الأدب لا بد أن نشير إليه مما نما فى هذا العصر ، وهو النقد الأدبى .

وربما يمثله خير تمثيل أبو هلال العسكرى وقُدَامة وابن رشيق . فأما أبو هلال العسكرى فقد خلّف لنا كتاب الصناعتين ، ويعنى بالصناعتين صناعة النظم والنثر ، وقد سبقه إلى ذلك من غير شك بعض الكتّاب ، كابن سلاّم وابن قتيبة .

وربما عدّت كتابته فى نقده من أحسن الأساليب وأرقاها ، يسجع ولكن لايلتزم السجع ، ويمتاز بالوضوح ، ولكنه قد يجور فى أحكامه النقدية . فهو يتحامل على المتنبى ويفحص بإمعان عن مساويه ولا يعلن محامده

ومما ساعده على نقده معرفته الشعر ومعالجته له ؛ فهو كتاب أدب ونقد معاً . وربما عدّ من عيوبه جنوحه إلى أن البلاغة فى اللفظ دون المعنى ، متعباً فى ذلك نظرية الجاحظ ؛ وهم يعللون ذلك تعليلا سخيفاً بأن المعانى ملقاة فى الطريق ، كتشبيه الشجاع بالليث ، والكريم بالغيث ، أو نحو ذلك ، كأن هذه هى كل المعانى ، مع أن المشاهد أن المعانى يصعب العثور عليها ، ويختلف الناس فيها . وربما كان متأثراً فى ذلك بأساليب أهل زمانه ، ككلام الصابئ وابن عباد والخوارزمى .

وعلى العموم فقد تقدم النقد خطوة جديدة ، فقد كان له لفتات طيبة مثل التفاته إلى التفرقة بين السهولة والليونة ، فقد يكون الكلام جزلا ، وهو مع ذلك ساحر ، إلى كثير من مثل هذه النظرات ؛ وهو فى نظراته يطبقها بأمثلة عديدة تركز المعنى الذى يريده .

وأما قدامة فقد ألف كتاباً فى نقد الشعر ، وكتاباً آخر فى نقد النثر ؛ وهو يرينا فيهما مقدار تأثر علماء الأدب فى ذلك العصر بالفلسفة اليونانية والأدب اليونانى ، وكثيراً ما ينحو منحاهم ، فى التقسيم والتجويف والتحديد . ولكنه دون أبى هلال العسكرى فى حسن التعبير ، ورشاقة الأسلوب . وتغلب عليه عجمة الفلسفة ، وقد يكون أغزر علماً ، ولكنه أردأ تعبيراً .

وأما ابن رشيق فهو مغربى الأصل ، ألف كتابه « العمدة » يصف فيه

الشعر وأصول جودته ، ويخالف أبا الهلال والجاحظ فى أن عمدة البلاغة على اللفظ دون المعنى ، بل يجعل البلاغة فى إجادتهما معاً . ويجدّد فصولا ويشعّب البلاغة إلى نواح لا نعلم أن أحداً سبقه إليها من قبل .

وهناك كُتب أخرى فى النقد كالوساطة بين المتنبي وخصومه ، والآمدى والمرزُبانى لا نطيل فى وصفها .

على كل حال كان هذا العصر غنيا ، كما ترى ، بالأدب الخالص وبالنقد الأدبى ؛ وربما لم يساوه فى ذلك عصر من العصور .

ومما يلاحظ أن النقد كان يتبع الأدب ، ولم يفتح له أبوابا جديدة . فالأدب إن كان قد غرق فى المحسنات اللفظية فإنا نرى النقـد يشيد بهذه المحسنات ، ولم ينصحه بأن يقلل منها . والأدب اتجه إلى العناية بالألفاظ أكثر من العناية بالمعانى ، فوجدنا النقد يخدم هذه الفكرة . وكان على النقاد ألا يقيسوا الأدب بمقياس عصرهم ، بل يَسْمو عن عصرهم ، بتصوير المثل الأعلى للأدب .

وعلى الجملة فقد كان النقاد مسوقين بالأدب لا قادة له . وربما كان ذلك فى أكثر العصور شرقا وغربا . وكان من أحسن ما عملوه واتجهوا إليه الوقوف عند كل بيت أو قصيدة ، وذكر من قال هذا المعنى قبل الشعر ، ومن كان أجود ، ومن كان أردأ ، ومن أين أتت الجودة ، ومن أين أتت الرداءة . ولذلك كان من أكبر موضوعاتهم السرقات الشعرية ، وادعاء أن فلاناً سرق المعنى من فلان . وهو تهجم فظيع لأن ادعاء سرقة المعانى صعب إثباته ، فقد يكون هناك توارد فى الأفكار .

نعم : إذا كان لفظ البيت كلفظ البيت أو الشطر كالشطر سهل ادعاء السرقة ، أما إذا اختلفت الألفاظ فمن الصعب ادعاء ذلك . والذى يلاحظ أيضاً أن النقاد فى أكثر ما اتجهوا إليه نظروا إلى الجزئيات دون الكليات ، شأنهم فى الفقه . فهم بدل أن يقرروا قاعدة فى البيع مثلا ، يذكرون صفة بيع جزئى لتستنتج منه القاعدة ، وكذلك فى الأدب ، يذكرون بيتاً وأقرانه ، أما تعرضهم مثلا لأصول الأدب ، وبم يرقى أدب عن أدب ، وأنواع النثر وأنواع الشعر ، والشروط اللازمة فى كل نوع ، فقليل نادر فى كتبهم . وحتى إذا أرادوا أن يقارنوا بين شاعر وشاعر كما فعل الآمدى فى الموازنه بين أبى تمام والبحترى ، فالمنهج الصحيح أن يقوّم كل شاعر فى شعره ، ومزاياه على العموم وعيوبه ، أما أن يقارن بين بيت من هذا وبيت من ذاك فى معنى واحد ، أو قصيدة لهذا أو قصيدة لذاك كذلك ، فنظرة جزئية ، لا تسلم إلى الحكم الصحيح .

ونوع آخر من الأدب يقدمه لنا قابوس بن وَشْمكير . ذلك أنه كان ملكا لجرجان وطبرستان . ولئن كان سيف الدولة ملكا بدويا عربيا فقابوس هذا ملك فارسىّ متحضر ، وكما أن الملك تعجبه الطرف ، والأشياء الأنيقة ، فكذلك كان قابوس تعجبه الطرف الأدبية ، ويهديه الشعراء من طرفهم ، وينشد هو طرفاً .

كان كما ذكرنا ملكا ، فأزاله عضد الدولة عن ملكه ، فبكى ملكه كثيراً ، كما بكى ملكها بن عباد ، لما زال ملكه عن الأندلس . ومن قول قابوس :

لئن زال أملاكى وفات ذخائرى ... وأصبحَ جمعِى فِى ضمانِ التَّفرُّق

فقد بقيت لى هِمّة ما وراءها ... مَنَالٌ لراج أو بلوغٌ لمُرْتَقى

ولى نَفس حُرٍّ تكْرَهُ الضيْمَ مركباً وتكرَه وِرْدَ المنهلِ المُتَرَنّقِ
فإن تَلِفَتْ نفسى فلِلّهِ درُّها وإن بلغَتْ ما أرتَجيهِ فَأخْلِقِ

* * *

وكذلك له النثر البديع المصنوع صنعة دقيقة . وقد قال القول البديع بالفارسية والعربية ، وله نصائح غالية لابنه . ومن قوله : « أمِنْ صَخْرٍ تَدْمر قلبُه ، فليس يلينُه العتاب ، أم من الحديد جانبه ، فلا يُميِّله الإعتاب . أم من صفاقة الدّهر مجَنُّ نُبُوِّه ، فقد نبا عنه غرْبُ كل حجاج . أم من قساوته مِزَاج إبائه ، فقد أبى على كل علاج » ، وهو أسلوب مبالغ فى زينته على نمط كلام ابن عباد وابن العميد . فإن كان له شىء جديد ، فهو تقدمه فى البلاغة خطوة بالإمعان فى السجع والاستعارات والمجازات . وقد طبعت له رسائل فى مصر تدل على ما نقول .

وظهر فى هذا العصر ابن نباتة وكانت له الخطب الرنانة ، ولكن من المؤسف أنه كان متجهاً إلى الخطابة الدينية السياسية والاجتماعية ، ذلك لأن العصر ثارت فيه العواطف الدينية أكثر من غيره . فقد كانت الحروب الصليبية على أشدها بين سيف الدولة والصليبيين ، ورجال الدين من الجانبين يشعلون نيران العواطف ، فكان ابن نباتة من هذا القبيل .

لئن قال المتنبي وأبو فراس وغيرهما فى وصف هذه الحروب وصفا أدبياً ، فقد كان ابن نباتة يجعل وظيفته إثارة البواعث للقيام بهذه الحروب ، ودفع إغارة الصليبيين .

أما الخطابة السياسية والاجتماعية فلم تنثر الخطباء . إنما تبادل الأدباء الرسائل

أكثر مما تبادلوا الخطب . فنجد الرسائل المتبادلة بين المعرى وداعى الدعاة وبين كثير من رجال الشيعة والسنية . ولعلّ سبب ذلك أن النزاع بين هذه الطوائف من شيعة وسنية ومن فقهاء وصوفية ومن معتزلة كلها تحتاج إلى عقل كبير ؛ وهذه أنسب لها الرسائل . أما العاطفة الدينية وإثارتها فأنسب لها الخطب .

المراجع

المزهر

وفيات الأعيان لابن خلكان

الخصائص لابن جنى

متز

دار الطراز ، لابن سناء الملك



الباب الرابع

النحو والصرف والبلاغة

شهد القرن الثانى معركة كبيرة فى النحو والصرف بين مذهب البصريين والكوفيين . ويرجع أكثر الخلاف إلى البيئة التى كانت حول البصرة والكوفة . ثم شهد القرن الثالث الهجرى امتزاج المذهب البصرى بالمذهب الكوفى ، وظهور منتخب من المذهبين ، وشهد القرن الرابع تمام هذا الامتزاج .

والحق أن كتاب سيبويه فى النحو والصرف كان من القوة بحيث كان المرجع فى العالم الإسلامى من تاريخ تأليفه إلى اليوم . وكل ما فعله الناس أنهم شرحوا غامضاً أو اختصروا مطوّلا ، أو بسّطوا معضلا . أما الأسس التى بُنى عليها الكتاب فبقيت كما هى فى النحو والصرف إلى اليوم ، من عهد شَرْح الصِّيرافى لكتاب سيبويه ، إلى النحو الواضح للمرحوم الجارم بك . فمثلا ظلّ النحو طول حياته متأثراً بنظرية العامل . فالفاعل مرفوع بالفعل ، والمفعول به منصوب بالفعل . وإذا لم يكن هناك عامل ظاهر ، قدّر هناك عامل مستتر ، مثل إذا السماء انشقت . وألجأهم إلى ذلك ادعاؤهم أن الفاعل لا يتقدم الفعل ، فلا يمكن أن يكون السماء فاعلا لا نشقت الآتية ، وادعاؤهم أيضاً أن إذا لا تدخل إلا على جملة فعلية .

ولم يشذّ عن ذلك فيما نعلم إلا ابن مضاء الأندلسى الذى أنكر نظرية العامل .

وكان من أوائل النحويين الذين لهم أثر كبير فى النحو بمعنى الشرح والتفسير

الزجّاج . وكانت حياته صورة مصغرة لعصره . فمثلا كان يخرط الزجاج ، ومن أجل ذلك سمّى بالزّجاج .

وكان يكسب فى اليوم ديناراً ، وكسراً من دينار ، فحبب إليه النحو ، واتصل بالمبرّد : وكان المبرّد هذا لا يعلم النحو إلا بأجر ، ولا يعلم بالأجر إلا بمقداره ، فمن أعطاه درهما علمه بدرهم ، ومن أعطاه درهمين علمه بهما ، وهكذا .

فاتصل به الزّجاج ، وقاوله على أن يعلمه كل يوم بدرهم ، ووفّى له بذلك ، فكل يوم يعطيه درهما ، وكل يوم يتعلم منه بمقداره . فلما شدا فى ذلك ، طُلب هو أن يعلم أيضاً ، فأراد أن يحصل ما صرف . وكان المبرد نفسه يرشحه لذلك أيضاً . وشاء القدر أن يعلّم شابا اسمه القاسم بن عبيد الله : فرأى فيه مخايل الأرستقراطية فقال له : أتنذر إن أصبحت وزيراً أن تعطينى عشرين ألف دينار ؟ فوعده بذلك .

ثم شاء القدر أن يصبح وزيراً للمعتضد ، ولكن عزَّ عليه أن يعطيه المبلغ من جيبه ، فعينه آخذاً لعرائض الناس ، وعرضها عليه . ومعنى ذلك أن العرائض التى تقدم للوزير . يأخذها الزجاج ، وهو الذى يعرضها على الوزير ، وجعل له من الطالبين أو مقدّمى العرائض مبلغاً بنسبه ما يكسبه صاحب الشأن من كل عريضة . فهذا يدفع مائة ، وهذا يدفع ألفا . ومعنى ذلك أن القاسم بن عبيد الله أباح له الرشوة الرسمية ، وعرف من أجل ذلك بالجاه وقربه من الوزير ، فأخذ الناس يقبلون عليه لقضاء حوائجهم فى نظير « جُعْل » حتى حصل بذلك أكثر من العشرين ألفا . ولما امتنع بعد ذلك طُلب منه أن يستمرّ فى عمله ، ولا بأس أن

يكسب أكثر مما كسب . وهى حادثه تدل على فساد العصر .

و إلى ذلك العصر لم تكن العلوم وخصوصا اللغوية متميزة التميّز الدقيق على النحو الذى نراه فى كتاب الكامل للمبرّد . فنحو وصرف بجانب بلاغة بجانب كلام فى إعجاز القرآن الخ ؛ ولذلك نراهم يؤلفون فى معانى القرآن والاشتقاق ، ككتاب فَعَلْتُ وأفعلتُ ، وكتاب خلق الإنسان ، وخلق الفرس ، وشرح أبيات سيبويه ، وكتاب النوادر .

ومن أكبر حسنات الزجاج أنه أنجب العالم المشهور أبا على الفارسى ، وهو من علمت فى التوسع فى القياس ، والتوسّع فى الاشتقاق .

وأبو على الفارسى هو الذى أنجب ابن جنّى الذى سار على مذهب أستاذه وتوسع فيه . وكان له ولأستاذه الفضل الكبير فى علم الصرف وفيما يعرف بفقه اللغة .

ومن لفتات ابن جنى الجليلة فهمه أن النحو القديم مؤسس على العامل كما ذكرنا ، فإذا قلت ضرب زيد عمراً ، فالرفع فى زيد ، والنصب فى عمرو ، إنما أحدثه ضرب . وقد جرّهم ذلك إلى تأويلات كثيرة متكلفة ، فقالوا مثلا : فى إذا السماء انشقت إن تقديرها إذا انشقت السماء انشقت ، ونحو ذلك فى مواطن كثيرة تكلفوا فيها تكلفا سخيفا . فهدم ابن جنى هذه القضية ، وقال فى خصائصه : « وأما فى الحقيقة ومحصول الحديث ، فالحركات من الرفع والنصب والجر والجزم ، إنما هى للمتكلم نفسه ، لا لشىء غيره ، وعلّل ذلك تعليلا فلسفيا يشبه تعليل النحويين إذ يقول : إن ضرب انتهت بمجرد النطق بها فلا يمكن أن تكون عاملا فى زيد أو عمرو فليس الفعل عاملا فى الفاعل ، ولا المفعول ، وليست إنّ تنصب المبتدأ وترفع الخبر

ولا كان ترفع المبتدأ وتنصب الخبر . وليس المبتدأ مرفوعا بالابتداء ، فهذا كلام لا معنى له ، وليس الخبر مرفوعا بالمبتدأ كذلك » . والناظر فى نحو الخليل وسيبويه يرى أنه موضوع على أساس العامل . وظل كذلك إلى عصرنا الذى نؤرخه . وجاء ابن جنى يريد تأسيس نحو آخر ، ولكن مع الأسف لم يجد سميعا ، فظل النحو معتمدا عل العامل ، فإذا لم يجدوه تأولوه . واستمر النحاة لا يزيدون شيئاً إلا نادرا . وكان نحاة عصرنا الذى نؤرخه سائرين على هذا المنوال . وأخيرا جاء ابن مضاء كما أشرنا من قبل قاضى القضاة فى قرطبة فى عصر الموحدين ، فألّف كتابا سماه الرد على النحاة ، أسسه على الجملة التى رويناها عن ابن جنى فى الخصائص ، وقد نشر حديثاً

وكان ابن مضاء هذا ظاهرىّ المذهب ، لا يؤمن بالتأويل والقياس ، فجرى فى النحو مجراه فى الفقه ، فلا تأويل لعامل ، ولا عمل له .

ولكن ذهبت دعوته أدراج الرياح ، كما ذهبت دعوة ابن جنى من قبل وكما ذهبت دعوة أبى نواس فى الشعر إلى التجديد ، وظلّ النحاة فى القرون المختلفة إلى اليوم يؤمنون بالعامل .

ومن مظاهر هذا العصر أيضاً ما ابتدعه الثعالبى فى تأليفه كتاب فقه اللغة . جمع فيه الألفاظ المتقاربة فى موضوع واحد ، كالمائدة والخوان ، مع بيان الفرق بينهما ، كما تعمّد أن يؤلف كتابا فى أسرار اللغة يتعمق فيه فى معانى الأسلوب . وقد توسع فيه ابن سيده فى الخصائص ، فجعله فى سبعة عشر جزءا ، أسسه على المعانى لا على الألفاظ ، فكان هذا فتحا جديدا فى بابه .

وقد تركت هذه المدرسة وهى المدرسة المتسلسلة من المبرد إلى الزجاج إلى

أبى على الفارسى إلى ابن جنى أثرا كبيرا فى اللغة والنحو والصرف .

ومن قديم وعلماء اللغة والنحو والصرف ينقسمون إلى ثلاثة أقسام : محافظين لا يرون الخروج عن القديم بحال من الأحوال حتى فى الأدب لا يريدون أن ينشئوا أدباً إلا ما كان على نمط الشعر الجاهلى ؛ فإن تسامحوا فى شىء فإنهم يقلدون الشعر الأموى .

ومن هؤلاء كان ابن الأعرابى الذى لم يشأ أن يعترف بشعر أبى تمام لحداثته ، حتى كان يعرض عليه الشعر من غير أن يذكر قائله ، فيستحسنه ، فإذا قيل له : إنه لأبى تمام أو لأبى نواس استبرده .

وأحرار فى الأدب يرون أن القدماء والمحدّثين خاضعون لمقاييس واحدة ، فقد يسمج المتقدم ، ويأتى المحدث بالروائع ، والعكس . وقد رأى هذا الرأى قديما ابن قتيبة فى طبقات الشعراء ، وسار على هذا النمط كثيرون من أبرزهم أبو نواس إذ عاب العرب الأولين فى البكاء على الأطلال ، وبكاء الدمن ، ودعا إلى التجديد فى الغزَل فى المذكر والغزَل فى الخمر . ولكنه مع الأسف لم يستمر طويلا على مذهبه . وفى اللغة والنحو والصرف كان أبو على الفارسى ، وتلميذه ابن جنى من هذا الصنف . وربما عدّ ابن فارس من الذين وقفوا موقفاً وسطاً بين القديم والجديد .

يدلّ على ذلك كتابه المسمى بالصاحبى ، نسبة إلى الصاحب بن عبّاد : وكان الصاحب هذا تلميذاً لابن فارس ، فهو فى هذا الكتاب يعرض آراء متحفظة متزمتة حيناً . وآراء حرة حيناً . فمن تزمتاته جعله علم العروض أفضل من الفلسفة ، فيقول : « عِلم العروض الذى يرْبى بحسنه ودقته واستقامته ، على

كل ما يتبجح به الناسبون أنفسهم إلى التى يقال لها الفلسفة » .

ومعنى هذا التعبير ، كما ترى ، سخيف ؛ وهو يرى « أن الفلاسفة لا يستطيعون أن يؤلفوا فى النحو والصرف ، فإن ألفوا فيهما فشىء تافه » وما عيب الفيلسوف إذا لم يكن يحسن إلا الفلسفة ؟

ثم من مظاهر تزمته اعتقاده أن اللغة توقيفية لا وضعية . وقد كان المعتزلة الأحرار يرون أنها وضعية لا توقيفية . وعلى ذلك جرى أبو على الفارسى وابن جنى . و بينما كان ابن فارس رجعيا فى هـذه المسائل إذا هو تقدّمىّ فى مسائل أخرى ؛ من ذلك رسالتهُ إلى صاحب له هو محمد بن سعيد يعتب عليه تحريمه على بعض المعاصرين تأليف كتاب فى مختارات بعد كتاب أبى تمـام ، وهو «الحماسة» فيقول له : « لعله يستدرك من جيد الشعر ونقيه ومختاره ورضيّه كثيراً ممـا فات الأُوَل . فمـا هذا الإنكار ، ولم الاعتراض ؟ ومَن ذا حظر على المتأخر سبق المتقدم ؟ ولم تأخذ بقول من قال : ما ترك الأول للآخر شيئاً ، وتدع قول القائل : كم ترك الأول للآخر ؛ وهل الدنيا إلا أزمان ؟ فلـكل زمن رجال . وهل العلوم بعد الأصول المحفوظة إلا خطرات الأفهام ونتائجُ العقول ؟ ومَن قصر الآداب على زمان معلوم ، ووقفها على وقت محدود ؟ ! » فهذه نظرة تقدمية من غير شك .

ثم هو يفيدنا من ناحية أخرى ، وهى شـكواه من غلبة اللحن حتى على الفقهاء والمتعلمين ، و يقول : « أما الآن ، فنرى المحدث يحدث فيلحن ، والفقيه يؤلف فيلحن . فإذا نُبّها قالا : ما ندرى ما الإعراب و إنما نحن محدثون وفقهاء » . ونلاحظ فى هذا العصر ظاهرة أخرى وهى العناية بما يُسمَّى فقه اللغة . فنرى ابن فارس هـذا يملأ كتابه الصاحبي بمسائل يسميها فقه اللغة ، والثعالبى يؤلفُ

كتاباً فى فقه اللغة ، وهو يذكر فى صدر كتابه هذا أنه إنما سمّى هذا العلم بهذا الاسم وفقاً لاختيار الأمير الذى أهداه إليه ؛ وهذا يدلّ على أن هذا الاسم مخترعٌ فى هذا العصر ، ويقصدون به بيان الفروق الدقيقة بين الكلمات التى يُظن أنها مترادفة ، وليست فى الحقيقة مترادفة ؛ ومن اللغويين من سمى هذا النوع بالفروق كأبى هلال العسكرى .

وفى العصور الحديثة نراهم قد سَمَّوْا ما يسمى عند الإفرنج بالفيلولوجى « فقه اللغة » ، مع أن مدلوله عند الإفرنج ، فيما يظهر ، مخالف لمفهومه عندنا ؛ فمفهومه عندأكثر اللغويين من الإفرنج مقابلة الكلمات فى اللغات المختلفة وتاريخ اللغات وغير ذلك . ولعلهم أخذوا هذا الاسم مما كان شائعاً فى تسميتهم « عِلم الفقه » ، فربما رأوا أن ذلك الفقه فقه الأحكام ، فسموا هذا فقه اللغة ؛ والفيلولوجى عند الإفرنج أوسع مدلولا من فقه اللغة عند العرب .

وقد قال ابن فارس إن هذا الكتاب وهو « الصاحبى » فى فقه اللغة العربية وفى سنن العرب فى كلامهم ؛ ولا أدرى هل سبق الثعالبى وابن فارس فى هذا الاسم أحد أو هما واضعاه ! والغالب فى نظرنا هو الأول ، لأن الثعالبى يذكر أن هذا الاسم ابتكره مَن ألّف له الكتاب ؛ ولعله أبو الفضل الميكالى .

ومما يؤسف له أن ابن فارس فى كتابه هذا زعم أن اللغة العربية أغنى اللغات فى تعبيراتها وأساليبها وأمثالها ، وهى مسألة نرى العلماء فى هذا العصر يتباحثون فيها . وربما كان ذلك أثراً من آثار الشعوبية ، فنرى سائلا يسأل أبا سليمان المنطقى هذا السؤال ، ولكن أبا سليمان كان أعقل من ابن فارس ، فقد أجاب بأن الإجابة عنه تقتضى معرفة بلغات العالم ومقارنات عديدة بينها مما لا يتيسر الآن . وهى

إجابة تدل على سعة نظر و بعد تفكير وشعور بتبعة الجواب على مثل هذا السؤال وذلك خيرٌ مما قال ابن فارس .

فهاجمة الشعوبية للعرب جعلت العرب يتعصبون للعربية ويبالغون فى تقديس لغتهم .

على كل حال ، كان علماء اللغة والنحو والصرف فى ذلك العصر يحملون تبعات كثيرة . فيعتقدون أن فى عنقهم ردّ اللغات العامية إلى أوكارها ونزعات الشعوبية إلى مكامنها وإحياء اللغة الفصحى وتوسيعها فى أكثر ما يمكنهم من ميادين .

وكان من أكبر من خدم اللغة والأدب فى ذلك العصر الثعالبى . فقد ألّف كتباً كثيرة فى نواحٍ كثيرة : فى فقه اللغة ، وفى شعراء القرن الرابع عرض نماذج من شعرهم ، وقد سلك فى ذلك مسلكا لطيفاً ، وهو جعل باب معين لشعراء كل قطر ، كما ألّف فى طُرَفٍ لطيفة ككتاب من غاب عنه المُطرب ، ونحو ذلك من كتب لا عداد لها . وإن أخذ عليه شىء فى أعظم كتبه وهو اليتيمة ، فهو عنايته فى ترجمة الشعراء بالعبارات الرنانة أكثر من عنايته بالتحليل النفسى للشاعر ، وتحليل شعره ، حتى إن ترجمة الشاعر يمكن رفعُها من مكانها ووضعُها فى ترجمة شاعر آخر . ومع ذلك فله فضلُ التعريف بشعراء كثيرين لولاه ما عُرف عنهم شىء . وكانت العادة المتبعة أن ترسل البعثات من جميع الأقطار الإسلامية إلى العراق وخاصة إلى بغداد ، كما نرسلها اليوم إلى أوربا ، فحدث أن أرسلت مصر شابين مصريين ليتعلما النحو واللغة وما إليهما فى بغداد ، فلما وصلا وجدا أن ألمع اسم فى بغداد هو الزجاج الذى أشرنا إليه من قبل .

كان هذان الشابان هما ابن ولّاد ، وابن النّحّاس ، فدرسا عليه وعلى غيره

ما شاء الله أن يدرسا ، ثم عادا إلى مصر ، فملآها نحواً وصرفاً ، ولـكن من غير ابتكار ، و إنمـا علمهما اقتباس من علم البغداديين . وكان ابن ولاّد أحبّ إلى قلب الزجاج من ابن النحاس ، فـكان يسأل عنه من قدم بغداد من المصريين ، وكونا مدرسة فى القاهرة تشبه مدرسة الزجاج فى بغداد فيها تفسير ، وفيها نحو وصرف إلى غير ذلك . ولـكن كان بينهما من التنافس ما بين المتعاصرين عادة ، فـكل منهما يرمى صاحبه بالجهل ، فجمع بينهما بعض أمراء مصر ، وأمرهما أن يتناظرا أمامه ، فعلى طريقة البغداديين قال ابن النحاس : كيف تبنى مثال افْعَلَوْتُ من رمى ؛ قال له : أبو ولاّد ، ارمَيَيْتُ ، نخطّأهُ ابن النحاس فى ذلك ، وقال ليس فى كلام العرب افعلوت ، فقال ، إنى أجبت على السؤال . و إن لم يكن له أصل صحيح . ولم أقل ارمَوَيْتُ لأن الفعل يائى ، وهكذا كان التهريج من ابن النحاس على عادة البغداديين . ولا يقال إن ذلك شبيه بارْعَوَيت ، لأن ارعويت ، على وزن افعللت ، لا فعلوت وكان ابن ولاّد أحب إلى المصريين ، لأنه كان نبيلا كريماً سمحاً على العكس من ابن النحاس . وألّف ابن ولّاد كتاب الانتصار لسيبويه ، والمقصور والممدود ، ومعانى القرآن ، وألف ابن النحاس تفسير أبيات كتاب سيبويه ، أو كتاب الـكُتّاب ، والـكافى فى النحو الخ ، فـكلاهما ملأُ مصر علماً وتأليفاً على نمط علم العراق وتأليفه .

ويذكرون لنا أن الرمّانىّ فى هـذا العصر أول من مزج النحو بالمنطق ، يعنون بذلك أنه راعى فى النحو التقسيمات المنطقية ، وعلّل الأحكام تعليلا منطقيا . وسبب ذلك أن الفلسفة اليونانية كانت قد انتشرت فى هذه البقاع وعُرف حتى النحوُ اليونانى . وتناقش العلماء أيهما أفضل ؟ النحو العربى ، أو النحو اليونانىّ كما حكى لنا أبو حيان التوحيدى فى المقابسات .

علم البلاغة

فإذا نحن وصلنا إلى علم البلاغة وجدناه قد تكوّن حول البحث فى أسباب إعجاز القرآن . بدأ نُتَفاً قصيرة ، وما زال يزيد على توالى الأزمان ، حتى وصل إلى أبى هلال العسكرى المتوفى سنة ٣٩٥ ، فجعله أحق العلوم بالتعلم إذ بدونه لا تفهم أسباب إعجاز القرآن .

وملأ كتابه بمباحث تدور حول النواحى التى ترفع قدر الكلام ، وتكسوه جمالا وجلالا ، والعيوب التى تحط من قدر القول ، وتكسبه قبحاً وسخافة .

وكانت علوم البلاغة تسمى علم البيان ، حتى جاء عبد القاهر الجرجانى فى العصر الذى يلى عصرنا ، فأخرج للناس علماً دقيقاً ذا قواعد وأصول ، فى كتابين جليلين ، اسم أحدهما دلائل الإعجاز ، واسم الثانى أسرار البلاغة .

بحث الأول عن الوجوه التى تكسب القول شرفا ، وتكسوه جلالا من حيث اشتماله على استعارة مستحسنة ، أو كناية لطيفة ، أو تمثيل جليل ، أو تشبيه طريف . وتعرض فى كثير من المواضع إلى ما عدَّ بعدُ من علم المعانى ، وما عد من علم البيان .

وأما الذى قسم هذه المباحث إلى شطرين ، علمٌ يتعلق بالنظم ، وسماه علم المعانى ، وعلم يتعلق بالمجاز والتشبيه والاستعارة والكناية ، وسماه علم البيان ، فهو السكاكى المتوفى سنة ٦٢٦ .

وكان ممن له فضل كبير فى علم البلاغة الزمخشرى فى كتابه الكشاف

ولكنها كانت مباحث متفرقة هنا وهناك ، فلم يعدّ من ضمن مؤلفى البلاغة .

وحدث أن أفرد بعض الأدباء أنواع البديع بالتأليف ، وكان أول من فعل ذلك عبد الله بن المعتز فى كتاب له سماه علم البديع ، جمع فيه سبعة عشر نوعا من أنواع البديع ، فجاء بعده قدامة بن جعفر ، وأوصلها إلى عشرين . ثم جاء أبو هلال العسكرى الذى ذكرناه سابقا ، وأوصلها إلى سبعة وعشرين . ولا زال يزيد من يأتى بعد ، حتى أوصلها زكىّ الدين ابن أبى الإصبع فى كتاب له اسمه التحرير إلى تسعين .

ولم تزد البلاغة كثيراً ولا النحو ولا الصرف ولا اللغة عما تكوّن فى هذا العصر الذى نؤرخه . وكل ما فعله المتأخرون إنما هو جَمْعٌ لمتفرق ، أو تفريق لمجموع ، أو شرح لغامض ، أو تحديد لمتشتت . وفى آخر الأمر فقدت هذه العلوم روحها ، وأصبحت أدوات جافة . لا طعم لها .

وعلى الجملة ، فإن العلماء جدوا فى هذه الفروع كلها ، وتحمسوا لها ، بداعى خدمة القرآن ، وتبيين ما فيه . فالنحويون مثلا اجتهدوا فى إعراب القرآن ، ومن هؤلاء الكسائى والفراء والزجاج . وكان نحوهم مشتملا على أشياء بيانية ، كأسباب الذكر والحذف ، والتقديم والتأخير . وبعضهم اشتغل بمجاز القرآن ، ككتاب أبى عبيدة المسمى « مجاز القرآن » . وقد أخذ منه البخارى كثيراً فى صحيحه فى باب التفسير . والبيانيون جدّوا فى معرفة أساليبه التى سببت الإعجاز ، حتى إن عبد القاهر الجرجانى سمى كتابه « دلائل الإعجاز » . وألف أبو بكر الباقلانى كتابه المشهور فى أسباب الإعجاز . فإن قلنا إن هذه العلوم كلها ، كانت لخدمة القرآن ، ومن أجله نمت وترعرعت لم نكن بعيدين عن الصواب .

المراجع

بغية الوعاة .

أخبار البصريين والكوفيين .

الرد على النحاة لابن مضاء .

الخصائص لابن جنى .

المزهر للسيوطى .

مقدمة ابن خلدون .

متز . ترجمة أبى ريدة .

فقه اللغة .

المخصص .

اليتيمة .

الباب الخامس

الفلسفة

لم يكن العرب يعرفون الفلسفة ، لأنها ليست من طبيعتهم ، فقد اشتهروا بأنهم أهل لسن ، لا أهل فلسفة عميقة ، وهم أقرب إلى الحكمة منهم إلى الفلسفة . ولكل منهما ميزة . إنما عرفوا الفلسفة بعد أن اختلطوا باليونان والفرس والهند والروم ، ونقلوا إليهم كتبهم الفلسفية . وقد تنقلت الفلسفة الإسلامية فى أدوار ثلاثة : الدور الأول نقل نتف فلسفية من هنا ، ومن هنا ، كالذى يحكى عن خالد ابن يزيد الأموى ونحوه ، والثانى النقل المنظم من كتب فلسفية منسوبة إلى مؤلفيها ، كالذى كان فى عصر المأمون ومن بعده ، والدور الثالث هو الدور الذى توضحت فيه هذه العلوم ، وبدأ فلاسفة الإسلام يتفهمونها ، ويعلقون عليها ، ويزيدون فيها .

وقد جاء عصرنا هذا ، وقد تم النقل تقريباً . وبدأ المسلمون يستغلونها كما يظهر ذلك فى مؤلفات محمد بن أبى بكر الرازى ، ثم الفارابى ثم ابن سينا .

وقد كان موضوع الفلسفة إذ ذاك أوسع من موضوع الفلسفة اليوم ، فقد كانت تشمل المنطق ، والطبيعيات ، والكيميائيات ، والإلهيات ، والرياضيات ؛ والنفس والاجتماع الخ ، ولكن على توالى العصور ، بدأت علوم كثيرة تنفصل عن الفلسفة ، وتستقل عنها ، كالمنطق وعلم النفس وعلم الاجتماع ، وربما انفصلت علوم أخرى عنها واستقلت .

وأول ما بدأت الفلسفة فى الإسلام ، بدأت النواحى العملية منها ، كالطب والتنجيم لحاجة الملوك والشعوب إليها ، كالذى قال الغزالى : « أردنا العلم لغير الله ، فأبى إلا أن يكون لله » . وهكذا بدأت الفلسفة لسدّ الحاجة من طب وتنجيم ، وانتهت بحب البحث المجرد .

لقد بدأت الفلسفة شبه خرافية ، بدأ علم الفلك بالتنجيم ، و بدأ الطب بالوصفات الشائعة ، ثم تحول كل ذلك إلى بحث منظم ، لا يراد به إلا الحق . فعلم التنجيم صار فيما بعد علم النجوم ، وتحويل المعادن إلى ذهب ، أدى عندهم إلى علم الكيمياء وهكذا . وكلما تقدم الزمان ، كانت تتبلور الفلسفة . وصاروا يقصدون من علم الطبيعة معرفة العناصر التى تتألف منها المادة ، والكيمياء تدرس القوانين التى تتركب بموجبها عناصر المادة ، وتبين لنا مقدار العناصر الموجودة فى الكون ، وعلاقة بعضها ببعض ، ونحو ذلك .

وأهم من ذلك كله أن الفلسفة تتجاوز هذه الموضوعات المختلفة من مادة وتكوينها ، وتريد أن تجمع نتائج العلوم كلها ، وتنسق بينها كالذى يرى معارك مختلفة فينظر إليها من طائرة ، أو كجذور الشجرة بالنسبة إليها ، فكل طائفة من العلماء تبحث فى علمها ، وتأخذ الفلسفة نتائجهم وتؤلف بينها ؛ وتتعمق فيها .

والفيلسوف الحق من استطاع أن يضيف إلى ذلك تجربته الخاصة . وقد استفاد فلاسفة عصرنا هذا مما سبقهم ، ومن الثقافات المختلفة التى نقلت إليهم ، فعدّلوها ، ووفقوا بينها ، ووصلوا من ذلك كله إلى نتائج باهرة ، كانت معوّل الفلاسفة الأوربيين فى أول نهضتهم . وقد كان قائدهم ابن سينا فى طبه ، والرازى فى أبحاثه ، والغزالى فى إلهياته .

نعم : إن الأوربيين بعد أن اعتمدوا على أكتاف الفلاسفة الإسلاميين ،

طاروا من فوقهم ، ووصلوا إلى أشياء لم تصل إليها الفلسفة الإسلامية . ومن الأسف أن فلاسفتنا المسلمين ، لم يطيروا كما طار الغربيون ؛ بل ظلوا يكرر الخلف ما قاله السلف ، ولا يخرجون عما قالوه إلا فى القليل .

وأول ما ظهرت الفلسفة الإسلامية ظهرت فى علم الكلام ، ذلك أن الأمم غير الإسلامية من يهود أو نصارى أو وثنيين ، أثاروا مسائل لم تكن تثار من قبلُ كالجبر والاختيار ، وعدل الله .

ووجدوا فى الفلسفة منهلا عذبا لإرواء غليلهم ، فتسلحت كل أمة بها ، ولم يكتفوا ببحث المسائل ، بل هاجموا الإسلام فى بعض مسائله . فاضطرت طائفة من المسلمين أن تتسلح بسلاحها وتدفع عدوانها . فكان هذا سبباً فى وجود علم الكلام .

وكان المتكلمون أول من قام بهذه المهمة . وهؤلاء المتكلمون كان منهم بعض أهل السنة ، لكن كان أقواهم وأشدهم بأسا ، وأكثرهم دفاعا عن الإسلام المعتزلة . حتى إن المعتزلة جعلوا المناظرة والمجادلة وهذا النوع من الثقافة ركناً كبيراً من أركان الإسلام .

وهذا الموقف من المتكلمين وأهل الأديان أثار فى الجو مسائل كثيرة مثل : هل الشر يصدر عن الله ؟ وما فائدة الشر فى هذا العالم ، وهل الله يقدر على فعل الظلم ؟ الخ .

وكان علم الكلام هذا إرهاصاً للفلسفة . وأهم فرق بين علم الكلام والفلسفة أن المتكلم يؤمن أولا بدينه ، ثم يتلمس الدلائل والبراهين الفلسفية لتقويته والدفاع عنه ، والرد على مخالفيه .

أما الفيلسوف فيدخل فى هذه المسائل مجرداً عن كل اعتبار . وهو طوع

الدليل حيثما يكن . فكان طبيعيا أيضاً أن تكون الكراهية سائدة بين المتكلمين والفلاسفة كما فعل الجاحظ المعتزلى مع الكندى أول فيلسوف ، إذ هزّأه فى كتاب الحيوان ، وسخر منه ، وشهّر به .

ولا بد أن تكون هناك أمثلة كثيرة من هذا القبيل لم نقف عليها .

وكان من أشهر الفلاسفة فى عصرنا هذا الفارابى ، وإخوان الصفا ، والبيرونى وابن سينا ، فأما الفارابى فكان من أصل تركى . وكان فلاسفة الإسلام على العموم يسلكون مذهبين ؛ يعرف أحدهما عند المناطقة بمذهب الاستنتاج ، والآخر بمذهب الاستقراء . فالأولون يقررون القواعد الكلية ، ثم يستنتجون منها الجزئيات ، كما تقول الفاعل مرفوع ، والمفعول منصوب ، تطبق الأمثلة الجزئية على هذه القواعد ، والآخرون يستَقْرُون الجزئيات ، ثم يستنتجون منها القاعدة .

وكان المتكلمون أميل إلى طريق الاستقراء ، والفلاسفة الأولون أميل إلى طريق الاستنتاج .

وكان الفارابى من فلاسفة الاستنتاج ، ويسميهم (دِيبُور) الطبيعيين بهذا المعنى .

ولا يهمنا كثيراً تاريخ حياته الشخصى بالتفصيل ؛ وإنما يهمنا أمره الفلسفى ، فقد ذكروا أنه تعلم الفلسفة على معلم مسيحى هو يوحنا بن حَيْلان . وتعبيراته غامضة ، ككل علم فى أول أمره ، حتى إن ابن سينا على عظمته اضطر كما يقولون إلى قراءة كتابه « ما بعد الطبيعة » أربعين مرة ليفهمه . والتحق بمجلس سيف الدولة ، ولازمه حتى مات .

ومن الأسف أن فلسفة اليونان نقلت إلى العربية من غير تمحيص للمذاهب

ومعرفة نظريات كل فيلسوف على حدة ، بل نسب إلى أرسطو ما ليس على مذهبه ، وإلى أفلاطون ما ليس على مذهبه . حتى اضطر الفارابى أخيراً إلى تأليف كتاب للجمع بين نظريات أفلاطون وأرسطو مع أن الجمع بينهما غير ممكن ، كأنه يعتقد أن الفلاسفة الكبار ، منزهون عن الخلاف ؛ ولم يكن يعبأ بالجزئيات كما ذكرنا ، ولا يطيل الوقوف عندها .

وكان يعتقد أنه كل شيء ، فهو طبيب جسمانى ، وطبيب روحانى ، وموسيقى بارع ، وكان له فضل كبير فى تقسيم العلوم وحصرها .

والفارابى أول فيلسوف إسلامى نظر إلى الفلسفة نظرة شاملة كاملة — كان الكندى قبله فيلسوفا ، وتحدث المعتزلة كالنظّام والجاحظ وأبى هذيل العلاف فى مسائل من صميم الفلسفة ، ولكن أحداً منهم لم يعرض الفلسفة عرضاً وافياً قبل الفارابى . وأتى من بعده كابن سينا وابن رشد ، فحذا حذوه . وقد قلّد فى هذا الشمول والتنظيم أرسطو من قبل . فلئن قالوا عن الكندى : إنه المعلم الثانى ، فالأولى بهذا اللقب الفارابى .

ومن مزاياه نظرته الفلسفية الى المجتمع ، متأثراً بقول أرسطو المشهور « الإنسان مدنى بطبعه » ، فعنده أن المجتمع كالفرد ، إذا تألم منه عضو ، تأثر بهذا الألم سائر الأعضاء ، وكذلك إذا تلذذ عضو تلذذ سائر الأعضاء .

وقد كان للفارابى ثلاثة منابع يستمد منها فلسفته . فالفلسفة اليونانية ، وخاصة مذهب أفلاطون وأرسطو ، والديانة الإسلامية ، والعقل الذى يوفق بين الفلسفة اليونانية ، بعضها مع بعض من جهة ، وكلها مع الإسلام من جهة أخرى . وهذا التوفيق يحتاج إلى عقل قوى كبير ، لأن للفلسفة اليونانية مذاهب مختلفة جداً . يصعب التوفيق بينها ، ولأن عماد الفلسفة العقل المطلق ، وعماد الدين

القلب . ومن أظهر أمثلة ذلك من النوع الأول كتابه : « الجمع بين رأيي الحكيمين » ؛ يعنى أفلاطون وأرسطو ، ومن النوع الثانى أنه ألف كتابه : « آراء أهل المدينة الفاضلة » فحاكى فى أجزاء كثيرة منها أفلاطون فى جمهوريته ، وأبعد منها ما لا يتفق مع الإسلام اتفاقاً واضحاً ، وزاد عليه أشياء كثيرة من تعاليم الإسلام : مثال ذلك الشروط التى شرطها فى الإمام الذى يسيطر على مدينته الفاضلة فقال : « ينبغى أن يكون هذا الرئيس سليم البنية ، قوى الأعضاء ، تامها ، جيد الفهم والتصور ، قوى الذاكرة ، كبير الفطنة ، سريع البديهة ، حسن العبارة ، محبا للعلم والاستفادة ، متحليا بالصدق والأمانة ، نصيراً للعدالة ، عظيم الإرادة ، ماضى العزيمة ، قانعاً ، متجنباً للذات الجسمية » . وهذه كلها مأخوذة من جمهورية أفلاطون .

وزاد عليها شرطا استمده من الدين ، وهو أنه لا بد لرئيس المدينة ، أن يسمو إلى درجة العقل الفعال ، الذى يستمد منه الوحى والإلهام . والعقل الفعال هو الله تعالى .

وعند الفارابى أن الوجود ينقسم إلى واجب الوجود ، وممكن الوجود . وليس هناك غيرهما من الوجود . وطريق معرفتنا لله هو الموجودات التى تصدر عنه . فمن الله الواحد يصدر الكل . وعند الله منذ الأزل صور الأشياء ومُثُلها . ويفيض عنه الوجود الثانى ، أو العقل الأول . وهو الذى يحرك الفلك الأكبر .

وتأتى بعد هذا العقل عقول الأفلاك الثمانية تباعاً ، يصدر بعضها عن بعض . وهذه العقول هى التى تصدر عنها الأجرام السماوية . والعقول التسعة هى التى تسمى ملائكة السماء .

وفى المرتبة الثالثة يوجد العقل الفعال ، وهو المسمى أيضاً روح القدس ، وهو الذى يصل العالم العلوى بالعالم السفلى .

وفى المرتبة الرابعة النفس ، وكل من العقل والنفس لا تكون على حالة واحدة بل تتكثر بتكثر أفراد الإنسان . وفى المرتبة الخامسة توجد الصورة .

وفى السادسة المادى أو الهيولا . و بهاتين تنتهى سلسلة الموجودات .

والمراتب الثلاثة الأولى ، الله ، وعقول الأفلاك ، والعقل الفعال ، ليست أجساما . أما المراتب الثلاثة الأخيرة وهى النفس والصورة والمادة ، فهى تلابس الأجسام ، و إن لم تكن ذواتها أجساما[1] .

والفارابى لا يقر ما يقال من أحكام النجوم ، وأن الإنسان يتلقى المعرفة عن هذه العقول ، وهو لا يدرك ما يدركه إلا بمساعدتها ، والعقول يؤثر كل منها فى الذى يليه ، بمعنى أن كلا منها يقبل فعل ما فوقه ، و يؤثر فيما دونه . وقد سبق أنه قال : إن العقل الفعال فى الإنسان ؛ ولكنه فى موضع آخر يقول : إن العقل الفعال هو عقل الفلك الأدنى : وهو فعال فى العقل الإنسانى والعقل الإنسانى منفعل به . ومفارقة النفس للبدن تعطيها كل ما للعقل من حرية .

وعنده أنه لا تبلغ الأخلاق كمالها إلا فى مدينة فاضلة ، لأن الإنسان مدنى بطبعه كما ذكرنا . ونفوس أهل المدينة الجاهلة تكون خلواً من العقل . وهى تعود إلى العناصر لتتحد من جديد ، بكائنات أخرى من الناس أو الحيوانات الدنيا « وهذا القول أشبه ما يكون بالقول بالتناسخ » والنفوس الضالة تلقى ما تلقاه النفوس الجاهلة . أما النفوس الخيرة فهى وحدها التى تبقى بعد مفارقتها الجسد ، وتدخل العالم العقلى . وكلما زادت درجتها فى المعرفة ، علا مقامها بعد الموت بين النفوس ، وزاد حظها من السعادة الروحية .

---

(١) انظر المدينة الفاضلة والسياسات المدنية .

وأدى تعمق الفارابى فى التوفيق بين الفلسفة والدين أن يضع نظرية فى النبوّة ، ذلك أن الكلام فى النبوة كان شائعاً بين مثبت لها ومنكر . ولذلك ألّفوا كثيراً كتباً سموها : دلائل النبوة ، أو أعلام النبوة ، كما فعل الجاحظ ، والقاضى عبد الجبار ، وغيرهما . وألّف آخرون فى نفيها . كما فعل ابن الراوندى ، وأبو بكر الرازى وغيرهما . فجاء الفارابى يدّعى فى النبوة أمراً جديداً ، يثبته بالعقل الفلسفى ، ذلك أنه ربط النبوة بالأحلام ، ولذلك عقد فى بعض كتبه فصلين متتاليين ، أحدهما فى الأحلام ، والثانى فى النبوّة ، وجعلهما راجعين إلى القوة المخيِّلة فى الإنسان . وربما أوحى إليه بذلك الإسلام نفسه ، فقد جعل الإسلام الأحلام الصحيحة إرهاصاً للنبوة . وفى الحديث : « أول ما بدىء به من الوحى الرؤيا الصادقة ، فكان النبى إذا رأى الرؤيا جاءت مثل فلق الصبح واضحة صحيحة » . وهو يرى أن الأحلام تابعة لأحوال النائم العضوية والنفسية ، وإحساساته فى اليقظة ، فهى تختلف فيما بينهما ، لاختلاف العوامل المؤثرة فيها . فالجائع يحلم أنه يأكل ، والعطشان يحلم أنه يسبح فى الماء . « وقد يتحرك الإنسان أثناء نومه تلبية لنداء عاطفته الخاصة ، أو يجاوز مرقده ، ويضرب شخصاً لا يعرفه ، أو يجرى وراءه » .

فإذا ارتقى الإنسان وإحساساته وتخيلاته ، استطاعت مخيلته أن تشكل أحلامه بشكل العالم الروحانى ، فيرى النائم السموات وما فيها ، ويشعر بما فيها من لذة وبهجة ، وقد تصعد المخيلة إلى هذا العالم وتتصل بالعقل الفعال ، وتتقبل منه الأحكام المتعلقة بالأعمال الجزئية ، والحوادث الفردية . وبذا يكون التنبؤ ، وبه تفسر النبوة . . ويقول الفارابى أيضاً : « إن القوة المتخيلة إذا كانت فى إنسان مّا قوية كاملة جداً ، وكانت المحسوسات الواردة عليها من خارج ، لا تستولى عليها استيلاء يستغرقها بأسرها ، ولا يستخدمها للقوة الناطقة ،

بل كان فيها مع اشتغالها بهذين ، فضل كثير تفعل به أيضاً أفعالها التى تخصها . وكانت حالها عند اشتغالها بهذين فى وقت اليقظة مثل حالها عند تحللها منها فى وقت النوم ، اتصلت بالعقل الفعال ، وانعكست عليها منه صور فى نهاية الجمال والكمال . وقال الذى يرى ذلك : إن لله عظمة جليلة عجيبة . ورأى أشياء عجيبة لا يمكن وجود واحد منها فى سائر الموجودات أصلاً ، ولا يمتنع إذا بلغت قوة الإنسان المتخيلة نهاية الكمال ، أن يقبل فى يقظته عن العقل الفعال الجزئيات الحاضرة والمستقبلة ، وسائر الموجودات الشريفة ، فيكون له بما قَبِله من المعقولات نبوءة بالأشياء الإلهية . وهذا هو أكمل المراتب ، التى تنتهى إليها القوة المتخيلة ، والتى يبلغها الإنسان بهذه القوة » .

وعيب هذه النظرية ربط النبوة بالخيال ، كأن ما يراه النبى متخيل . وربما عُدّ أيضا من عيوبها وإن كان غير واضح عَدّ ما يراه النبى وما يدعو إليه من قبيل الخيال لا من قبيل رؤية الواقع . وهذا يضعف من شأن النبوة . ولكن من مزاياها ميلها إلى جعل النبوة مرتبطة بالمواهب التى لبعض الناس وهذا يوافق ما يقوله رجال الدين من أن النبوة منحة من الله لا مكتسبة .

ومع ذلك جرى على نظرية الفارابى هذه ابن سينا وابن رشد وبعض الشيعة فى رسائلهم ، وإخوان الصفا ، والمتصوفة . وقد نشأ من اعتقاد المتصوفة بهذه النظرية إعلاء شأن الأولياء حتى قاربوا الأنبياء . فلما لم يكن الغزالى فيلسوفا ، وكان سنيا لم يرض عن نظرية الفارابى ، وفنّدها فى كتابه « تهافت الفلاسفة » فقال : « إن النبى يستطيع الاتصال بالله مباشرة أو بواسطة ملك من الملائكة دون حاجة إلى قوة متخيلة خاصة ، أو أى فرض آخر من الفروض التى يفترضها الفلاسفة » .

وعلى كل حال ، كان لنظرية الفارابى هذه فى النبوة أثر كبير فى المسلمين ، قلّدوها وأعادوها وشرحوها ، أو ردّوا عليها وفنّدوها .

فنحن إن قلنا : إن الفلسفة الإسلامية وضعت أصولها على يد الفارابى فى القرن الرابع ، ولم يكن ما جاء بعدها فى القرن الخامس وما بعده إلا شرحا وتفسيراً وتعليقا لم نبعد .

وقد بحث الفارابى فيما بحث نظرية السعادة ، وهى نظرية اهتمّ بها أرسطو من قبل . وظل الفلاسفة يزيدونها شرحا وتوسيعاً إلى يومنا هذا . ما هى السعادة ؟ وما علاقتها باللذة ، وهل السعادة إلا اللذة ، حتى إن بنتام وچون استوارد مل ألّفا كتابين عظيمين فى السعادة وأنها هى اللذة ، وأن لا شىء يسبب السعادة إلا اللذة . وكل شىء تزيد لذائذه عن آلامه ، سمى فضيلة ، وكل شىء تزيد آلامه عن لذائذه سمى رذيلة . وما مقياس الأخلاق الفاضلة والرذائل والجرائم إلا ما يتبع العمل من لذة أو ألم .

وكان ممن أدلوا بدلوهم فى هذا الموضوع الفارابى فى كتبه . فبحث فى السعادة وشروطها ودرجاتها ، وأبان كما أبان بعده الفلاسفة المحدثون أن اللذة العقلية والروحانية خير من اللذات المادية الجسمية .

ونظرة الفارابى إلى السعادة نظرة صوفية متأثرة بطرق معيشته . فإذا كان العقل أرقى من الجسم ، كانت السعادة الناشئة عن العقل خيراً من السعادة التى تنشأ عن الجسم . يقول فى بعض كتبه : « والسعادة هى أن تصير نفس الإنسان من الكمال فى الوجود بحيث لا تحتاج فى قوامها إلى مادة . وذلك أن تصير فى جملة الأشياء البريئة عن الأجسام ، وفى جملة الجواهر المفارقة للموادّ . . .

والسعادة هى الخير المطلوب لذاته ، وليست تطلب أصلا ولا فى وقت من الأوقات لينال بها شىء آخر . وليس وراءها شىء آخر أعظم منها ، يمكن أن يناله الإنسان . والأفعال الإرادية التى تنفع فى بلوغ السعادة هى الأفعال الجميلة ، والهيئات والملكات التى تصدر عنها هذه الأفعال هى النقائص والرذائل والخسائس .

وعلى الجملة فلو جمعت كتب الفارابى ورتبت وبوّبت لكان منها دائرة معارف فلسفية واسعة ، فما وضعه الفارابى ، من أسس فلسفية أكثر مما وضعه ابن سينا وابن رشد وأمثالها .

ثم كان هناك عالم آخر من طراز آخر غير طراز الفارابى ، وهو أبو الريحان البيرونى . وهو وإن توفى فى القرن الخامس إلا أنه أزهر فى القرن الرابع . فقد كانت ولادته سنة ٣٦٢ . وهو ينسب إلى بيرون ، إحدى ضواحى مدينة قوارزم . وقلنا إنه من طراز آخر ، لأنه لم يشغل بالإلهيات والنظريات المنطقية كما شغل الفارابى . ولكنه شغل بالجغرافيا والفلك ، وأحوال الأمم . فهو عملى أكثر منه نظرياً . وميزته الكبرى أنه وجّه همه إلى دراسة الهند — ديانتها ورياضياتها وفلسفاتها وعقائدها وتقاليدها — ومكث فى هذه الدراسة أربعين عاما ، منذ صحب محمودا الغزناوى فاتح الهند . واضطرته الرغبة فى تعرف الهند إلى تعلم لغاتها السّنسكريتية . وألف فى ذلك كتباً لا يزال يعتمد عليها فى معرفة الهند إلى اليوم ، من أهمها كتاب « تحقيق ما للهند من مقولة ، مقبولة فى العقل أو مرزولة » قارن فيه بين رياضيات الهند ، ورياضيات اليونان . وفضّل الثانية على الأولى ، كما قارن بين فلسفة الهند وفلسفة اليونان . وبادل الهنود معرفة بمعرفة . وكان من مزاياه أيضاً عُمق نظره ، وسعة أفقه ، وكثرة علمه بأحوال

الأمم ، وعدم تعصبه . لا يمنعه اعتقاده عن إنصاف مخالفه ، فهو مثال للعالم الصحيح في الشرق والغرب .

وقد راسل ابن سينا وراسله ابن سينا رسائل تدل على قدرته وتمكنه من الفلسفة . أما رسائل ابن سينا إليه فهى بين أيدينا . وأما رسائل البيرونى إليه فموجودة فى فارس لم نطلع عليها .

وللبيرونى فى الفلك كتابه الهام وهو « القانون المسعودى فى الهيئة والتنجيم » يقول : إنه يشتمل على كل نواحى الفلك ، على نحو لم يسبق إليه . وفيه كثير من علم الجغرافيا . ولم يخلُ علم لم يؤلف فيه ، حتى المختارات من الأدب العربى . وقد صرح فى بعض كتبه أنه يفضل العربية على الفارسية ، لأن العربية أكثر طواعية للعلم ومصطلحاته من الفارسية . ويروى عنه أنه قال « لأن أُهْجَى بالعربية ، خير من أن أمدح بالفارسية » . وألّف أيضاً فى طبيعة الأحجار الكريمة كتاباً سماه « الجماهر فى الجواهر » . وهو يحكّم العقل فى التاريخ ، فلا يقبل منه إلا ما وافق العقل ، كما فعل ابن خلدون فيما بعد ، ويؤمن بأن للطبيعة قوانين ثابتة لا تتغير . ويحكى ابن خلكان أنه وهو يحتضر دخل عليه عالم فقيه يعوده ، فسأله البيرونى عن مسألة مشكلة عليه من ميراث ذوى الأرحام ، فقال له الفقيه : أفى مثل هذا الوقت ؟ فقال له البيرونى « لأن ألقى الله عالماً بها خير من أن ألقاه جاهلا بها » قال الفقيه ، فما وصلت إلى الباب حتى فاضت روحه . وهو يدل على عقل جبار ينفر من الجهل بأى شىء . ومنهجه فى البحث العلمى يشبه ما ذهب إليه مسكويه فيما بعد ، مع الفرق بينهما فى قوة العقل عند البيرونى أكثر من مسكويه .

وعلى الجملة ، فقد كان البيرونى علما من أعلام العلماء الذين جاد بهم القرن الرابع ، وقل أن يجود الزمان بمثله .

و بلغت الفلسفة الإسلامية ذروتها فى عهد ابن سينا ، وقد ولد ونشأ فى عصرنا هذا ، إذ قد ولد فى سنة ٣٧٠ هـ ، وكان له عدة اتجاهات ، فهو قصصى قصصاً فلسفية ، كقصة حى بن يقظان ، ورسالة الطير ، وقصة سلامان وأبسال ، وهو شاعر كما يتجلى فى أرجوزته الطبية :

للزَّنج حرٌّ غيَّرَ الأجسادا حتى كسى جلودها سـوادا

وكما يتجلى فى قصيدة النفس المنسوبة إليه : ومطلعها :

هبطت إليك من المحل الأرفع الخ ...

وهو متصوف فى بعض رسائله . ولكن قوة عقله وقوة مزاجه منعتاه من التقدم الكبير فى التصوف ، وإنما قيمته الحقيقية فى فلسفته . وقد بذل جهداً كبيراً فى التوفيق بين فلسفة أرسطو ، والأفلاطونية الحديثة ، والإسلام . وهو يدور فى فلسفته كثيراً على نظرية السعادة ، وهو يعتقد أن الخير يفيض على العالم من المبدع الأول ، وكل الموجودات سابحة فى بحر من الخير ، وكل منها ينال من الخير ما هو جدير به ، وما هو موافق له وهذا النظام الذى فى الكون هو أحسن نظام يمكن أن يكون عليه الوجود . وهذا العالم هو أحسن العوالم التى يمكن أن يتصورها العقل . وبحث فى : كيف وجد الشر فى هذا العالم ، وما هى حكمة الله من وجوده . وكيف فاض الشر عن المبدع الأول وهو خير مطلق ، وهل تتولد الظلمة من النور ، أم ينشأ النقص عن الكمال ؟ أليس من الشر أن يحرق بالنار ثوب الفقير المعدم ؟ أليس من الشر أن يموت الطفل وليس لأبويه ولد غيره ، أليس من الشر أن يحرم الإنسان ما يستطيع إدراكه من الكمال ؟ ألم يكن فى وسع المبدع الأول أن يوجد خيراً مطلقاً مبرأ من الشر ، وأن يبدع

اللذة ولا يخلق الألم ، وأن يبدع النور ولا يخلق الظلمة ؟ ! و بنى إجاباته على أن هذا العالم الذى نحن فيه عالم كون وفساد . وهو يقتضى وجود الخير مع الشر وعنده أن الخير من طبيعة الوجود ، والشر من طبيعة العدم . وهو يرى أن كل شىء جميل ، كالذى يقول ابن المعتز :

قَلْبيَ وَثّاب إلى ذا وذا   ليس يرى شيئاً فيأباه

يهيم بالحسن كما ينبغى   ويرحم القبح فيهواه

وعنده أن اللذات تنقسم إلى عالية وخسيسة ، فهو يقول : « لا يجب أن يتوهم العاقل أن كل لذة كلذة الحمار » نعم إن للبهائم حالة طيبة ولذيذة ، ولكن أيّة قيمة لهذه الحالات الطيبة الخسيسة إذا نسبت إلى اللذات العالية . فالجاهل الذى لا يدرك اللذات العالية ، ولا يشعر بها أشبه بالأصم الذى لا يدرك الألحان اللذيذة . فعنده أن اللذات المعنوية أفضل من اللذات المادية ، ولذلك كان فى قصصه الثلاثة المتقدمة يرى أن كمال الإنسان فى تحرره من الشهوات البهيمية ، لأن اشتغال النفس بالشهوات واتصالها بالمادة يمنعانها من الالتفات للملإ العالى ، وعنده أن النفوس تنقسم إلى مراتب ، وخيرها النفوس التى تترفع عن الأمور المحسوسة ، وتتطلع إلى المثل العليا ، فتدرك من السعادة ما لا يخطر على قلب من ينزع إلى المادة . وقد وصف الرجل الراقى بأنه « هشّ بشّ بسام ، يبجّل الصغير من تواضعه ، كما يبجل الكبير ، و ينبسط من الخامل كما ينبسط من النبيه . ولا فرق عنده بين الكبير والصغير ، لأنه يعرف الحق فى كل منهما ، ولا يعرف الطمع سبيلا إلى قلبه ، وهو لا يفرح لوجود الشىء ، ولا يحزن على فواته . وهو لا يعنيه التجسس ولا التحسس ، وهو لا يستهو يه الغضب عند مشاهدة المنكر ، و إذا أمر بالمعروف أمر برفق الناصح ، لا بعنف المعيّر . وهو شجاع ،

لا يخاف الموت ، جواد ، صفّاح للذنوب ، نفسه أكبر من أن تجرحها ذلّة بشر ، نسّاء للأحقاد ، يفضل التقشف على الترف » . فهو كأنه يصف بذلك الإنسان الكامل . « وإذا أمعن المريد في رياضة نفسه ، بلغ مبلغاً يصير فيه المخطوف مألوفاً والوميض شهاباً . وإذا ارتقى أكثر من ذلك قرب من الله ، فيتمثل فيه جمال المبدع ، وتفيض عليه اللذات الحقيقية ، ويغيب عن نفسه ، فلا يرى إلا المعبود المبدع ، ولا يلحظ إلا جمال الحق ، وينسى نفسه . وإن لحظ نفسه ، فمن حيث هي لا حظة ، لا من حيث هي ذات زينة . وهناك درجات يضيق عنها العقل ولا يحاول أن يعبر عنها ، بل الذى لا بسته تلك الحالة لا ينبغى أن يزيد على أن يقول :

وكان ما كان مما لستُ أذكره   فظُنَّ خيراً ولا تسأل عن الخبر »

وفى هذا كما ترى أسس من الأسس التى بنى عليها ابن طفيل قصته « حى بن يقظان » . وفلسفته ممزوجة بالتصوف والتقشف ، وبالحياة الروحية ، وهو متفائل مؤمن بالإنسان . ويكتب وصية فى كتابه « الإشارات » يقول فيها : « إنه يجب صون هذا العلم (أى الفلسفة) وحفظُه ، وعدم إذاعته بين الناس » . ويقول : « إنى قد مخّضت لك فى هذه الإشارات عن زبدة الحق ، وألقمتك الحكم فى لطائف الكلم ، فصنه عن الجاهلين والمتبذلين . فإن أذعت هذا العلم أو أضعته ، فالله بينى وبينك ، وكفى بالله وكيلا » .

وكان ابن سينا سياسياً عملياً ، وفيلسوفا نظرياً . وكان ناجحا فى الفلسفة ، فاشلا فى السياسة . وهو يؤمن بخلود النفوس الفردية . وقد ألمّ بكل معارف عصره . وكتبه إذا رتّبت كان منها دائرة معارف فلسفية . ولمع اسمه فى الطب بصفة خاصة . وكان كتابه « القانون فى الطب » معوّل الغربيين فى جامعتهم

إلى عهد قريب . حتى إنه طبع باللاتينية ست عشرة مرة فى القرن الخامس عشر ، وعشرين مرة فى القرن السادس عشر . وحلّت كتبه فى المشرق والمغرب محل كتب أرسطو . وقد اختلفت فلسفته عن فلسفة أرسطو فى مسائل كثيرة ، خصوصاً ما لا يتفق من فلسفة أرسطو مع الإسلام ، فإله أرسطو لا يعقل إلا ذاته ، أما إله ابن سينا فيعقل ذاته ، ويعقل الماهيات الكلية ، كما يدرك الجزئيات ، ولكن من حيث هى كلية . كذلك ألّف فى المنطق كتاب « منطق المشرقيين » وخالف فيه أحياناً منطق أرسطو وردّ عليه . وهو يتبع الفارابى فى المنطق ، وفى نظرية المعرفة ، وفى مسألة الكليات .

وعنده أن الأحداث الأرضية تتأثر بالأجرام السماوية ، لا عن طريق الحرارة المنبعثة منها ، وإنما عن طريق ما تشعه من الضوء . وهو فى ذلك يقول ما تقول به الأفلاطونية الحديثة . وظل ابن سينا مؤثراً فى الفلسفة فى القرون التى بعده فى الشرق والغرب على السواء والنابغة النابه هو من يفهم فلسفته . ولا يزال العلم ينتظر من يحقق لنا : أى النظريات أخذها عن اليونان أو الهنود ، وأيها خالصة له ، ومن مبتكراته . ومات ابن سينا سنة ٤٢٨ . فأغلب نتاجه كان فى عصرنا الذى نؤرخه . وقد شلّ العقول الإسلامية بفلسفته ، فلم تبتكر إلا القليل .

وقد أقيم قريباً مهرجان فى بغداد لابن سينا لمرور ألف سنة على ميلاده . وقبله أقيم مهرجان فى تركيا . وتزمع فارس على إقامة مهرجان له . وتدعيه روسيا لأنه من تركستان الداخلة فى نطاقها . والحق أن العالِم ينبغى أن لا تقتصر نسبته على قطر معيّن ، بل هو ملك شائع للأمم كلها ، كما هو شأن العلم والفلسفة نفسهما . وهو له نواح متشعبة . فولادته فى تركستان ، وثقافته عربية إسلامية . وقد ألّف بالعربية والفارسية ، فله جوانب متعددة ، فيجب أن لا تقتصر نسبته على أمة بعينها .

إخوان الصفاء

وأما إخوان الصفاء : فهى جمعية سرية نشأت فى البصرة ، وكان لها فروع فى أكثر البلاد كما جاء فى الرسائل . فالبصرة قديماً من عهد الحسن البصرى ، كانت منشأ لمذاهب متعددة ، فأول الصوفية تلاميذ الحسن البصرى الذى كان يقيم فى البصرة ، والمعتزلة نشأت من تلاميذ الحسن البصرى ، ونشأت فيها مدرسة كبيرة نحوية تسمى مذهب البصريين ، وهى تضارع مذهب الكوفيين . وهذه هى إخوان الصفاء ، تنشأ فى البصرة . والمصدر الوحيد الذى عرفنا منه مؤسسيها ، هو قول أبى حيان فى كتابيه ، الإمتاع والمؤانسة ، والمقابسات الذى نقله عنه القِفْطى : إذ سأل وزير صمصام الدولة أبا حيَّان فى حدود سنة ٣٧٣ فأجاب أبو حيَّان : إن زيد بن رفاعة أقام بالبصرة زمناً طويلا ، وصادف بها جماعة « جامعين لأصناف العلم ، وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان البُستى ، ويعرف بالمَقْدسى ، وأبو الحسن الزِّنجانى ، وأبو أحمد المهرَجانى ، والعَوْفى وغيرهم . وكانت هذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القدس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله . وذلك أنهم قالوا إن الشريعة قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية . وصنفوا خمسين رسالة فى جميع أجزاء الفلسفة علمها وعملها ، وسموها « رسائل إخوان الصفاء » ، وكتبوا فيها أسماءهم ، وبثّوها فى الورّاقين ، ووهبوها للناس .

قال الوزير : هل رأيت هذه الرسائل ؟ قال : قد رأيت جملة منها . وهى

مبثوثة من كل فن ، بلا إشباع ولا كفاية وهى خرافات ، وكنايات وتلفيقات ، حملتُ عدّة منها إلى شيخنا أبى سليمان المنطقى ، وعرضتها عليه ، فنظر فيها أياماً وتبحّرها طويلا ، ثم ردّها علىّ وقال : نَقّبوا وما أغنَوْا ، ونصَبوا وما أجرَوْا ، وحاموا وما وَرَدوا . ظنّوا أنه يمكنهم أن يدسّوا الفلسفة « التى هى علم النجوم والأفلاك والمقادير وآثار الطبيعة والموسيقى والمنطق فى الشريعة ، وأن يربطوا الشريعة بالفلسفة . وهذا مَرَام دونه سُدُد . وقد تورَّكَ على هذا قبل هؤلاء قوم كانوا أحدّ أنياباً ، وأحضر أسباباً ، وأعظم أقداراً ، وأرفع أقطاراً ، وأوسع قُوًى ، وأوثق عُرًى ، فلم يتم لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا ما أمّلوه . وحَصَلوا على لوثات قبيحة ، ولطخات موحشة ، وعواقب مخزية » . فيفهم من هذا النص :

(١) أن منهجهم ربط الفلسفة بالدين ، وهو منهج لم يرتضه أبو سليمان ، لأن للدين منطقه ، وللفلسفة منطقها .

(٢) « أن قوماً كانوا أحد منهم أنياباً وأوسع منهم عقلا حاموا حول هذه الطريقة ولم يفلحوا » . فلعله أراد بهم فحول المعتزلة ، أمثال أبى هذيل العلاّف ، والنظّام ، والجاحظ وأمثالهم .

(٣) « أنهم فشلوا كما فشل مَن قبلهم » .

فعنده أن للدين منهجاً ، وللفلسفة منهجاً آخر مخالفاً له ، فمنهج الدين مخاطبة المشاعر ، مثل قوله تعالى : « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، وإلى السماء كيف رفعت ، وإلى الجبال كيف نصبت ، وإلى الأرض كيف سطحت » أما منهج الفلاسفة فيعتمد على المقدمات والنتائج المنطقية ، من مثل قولهم : العالم حادث ، وكل حادث لا بد له من محدث ، فالعالم لا بد له من محدث . فما أبعد الفرق بين المنهجين ، والتوفيق بينهما هو الذى قصد إليه إخوان الصفاء .

ومن أكبر هذه الجماعة زيد بن رفاعة كما ذكرنا ، وقد سئل عنه أبو حيّان فقال « هناك ذكاء غالب ، وذهن وقّاد ومتّسَع فى قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة فى الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصّر فى الآراء والديانات وتصرّف فى كل فن » . وقد سئل أبو حيان عن مذهب زيد بن رفاعة هذا فقال « لا ينسب إلى شىء ، ولا يعرف برهط ، لجَيَشَانه بكل شىء ، وغليانه بكل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه ، وسطوته بلسانه . وقد أقام بالبصرة زماناً طويلا ، وصادف بها جماعة جامعة لأصناف العلم ، وأنواع الصناعة » . وهذا القول يبين مهارة إخوان الصفاء ، وتبحرهم فى علومهم ، وعدم اقتصارهم على مذهب معين .

* * *

وقد ظن قوم أن من بين إخوان الصفاء هؤلاء أبا العلاء المعرى ، وأبا حيّان التوحيدى ، وابن الراوندى .

أما أبو العلاء ، فلأنه لما ذهب إلى بغداد ، رأى هناك مجمعاً فلسفيا خاصا ، يجتمع يوم الجمعة من كل أسبوع بدار عبد السلام البصرى أمين مكتبة سابور بن أردشير . وهذا هو النظام الموضوع لإخوان الصفاء ، فإن أتباعهم مأمورون أن يجتمعوا كل أسبوع للمدارسة والمذاكرة . فالمعقول أن يكون المجتمعون هم أتباع إخوان الصفاء . وقد قال أبو العلاء نفسه :

تهيّجُ أشواقى عرُوبةُ[1] : إنها إليك زَوَتْنى عن حضورٍ بمجْمَعِ

* * *

(١) عروبة هى يوم الجمعة .

ويقول فى موضع آخر :

كم بلدةٍ فارقتُهـــا ومعاشِرٍ ... يُذْرُون من أَسَفٍ علىَّ دُموعَا

وإذا أضاعتْنى الخطوبُ فلن أرَى ... لوِدادِ إخوان الصفاء مُضِيعا

خاَلَلْتُ توديعَ الأصادقِ للنَّوَى ... فمتى أودِّع خِلِّىَ التوْديعا

* * *

غير أننا نرى كلمة إخوان الصفاء هنا فى أبيات أبى العلاء ، ليست تنطبق تماماً على هؤلاء الجماعة ، ولـكنه وصف عام لـكل أصدقائه وإخوانه . أما الجمع فلا نستبعدُ أنه هو مجمع فرْع إخوان الصفاء . غير أننا نرى أن أبا العلاء قد قطع صلته بالعالم وبالجمعيات منذ عاد إلى بغداد كسير النفس ، كاسف البال ، رهين المحبسين . وتدل عيشته بالمعرّة بعد ذلك على نوعٍ من المعيشة الانفرادية القاسية التى لا تسمح بأن يكون عضواً فى جماعة .

وأما أبو حيّان ، فقد كان الظن أنه من هذه الجماعة ، لأنه عرف بعض أسماء الجماعة الأصلية وعرّفنا بهم ، ولأنه كإخوان الصفاء ، يؤلّف فى الصداقة ، ويُشيد بذكرها ، شأن إخوان الصفاء ، لولا أنه ، كما رأينا ، يعيب رسائل إخوان الصفاء بالتقصير والتلفيق ، فهل هو يقول ذلك تقيّة ، أو بناء على اعتقاد ؟ . . لم نتأكد بعدُ من ذلك ، وأما ابن الراوندى فلشهرته بالجرأة والزندقة .

* * *

وهذه الجمعية السرية وضعت لنفسها منهجاً دقيقاً ، فكانت ترسل رسلها إلى من تتوسّم فيهم الخير من كل البلاد ، وتدعوهم إلى الدخول فى جماعتهم . وتوجِّه اهتماما كبيراً إلى الشبان ، لعلمهم أن الشبان أقرب إلى قبول الدعوة من الشيوخ ، وأنهم بجانب ذلك ، أشد سواعد ، وأقوى مُنّة .

وهم يطلبون من أتباعهم فى أى قطر أن يعينوا وقتا دورياً يجتمعون فيه ، ويتذاكرون العلم ، وشؤون الإخوان . يقولون « ينبغى لإخواننا ، أيدهم الله ، حيث كانوا من البلاد أن يكون لهم مجلس خاص يجتمعون فيه فى أوقات معلومة ، لا يداخلهم فيه غيرهم . يتذاكرون فيه علومهم ، ويتحاورون فيه أسرارهم . وينبغى أن تكون مذاكرتهم أكثرها فى علم النفس ، والحس والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والنظر والبحث عن أسرار الكتب الإلهية ، والتنزيلات النبوية ، ومعانى ما تضمنتها موضوعات الشريعة . وينبغى أيضاً أن يتذاكروا العلوم والرياضيات الأربع ، أعنى العدد ، والهندسة ، والتنجيم ، والتأليف « الموسيقى »[1] .

وكانوا يرتبون أعضاء الجماعة مراتب أربعاً حسب تفرقهم فى القُوى العقلية والسِّنّ . فالمرتبة الأولى هم الذين أتموا خمس عشرة سنة من العمر ، فتنبهت فيهم القوة العاقلة ، وهم يتميزون بصفاء جوهر النفس ، وجودة القبول ، وسرعة الميل إلى التصوف . والثانية الإخوان الأخيار الفضلاء ، وهم الذين بلغوا ثلاثين سنة ، وميزتهم مراعاة الإخوان ، وسخاء النفس ، وإعطاء الفيض ، والشفقة والرحمة والتحنّن على الإخوان ؛ والطبقة الثالثة الإخوان الفضلاء الكرام ، وهم الذين بلغوا أشدهم ، و بلغوا أربعين سنة ، فتنبهت فيهم القوة الناموسيّة ، الواردة بعد مولد الجسد بأربعين سنة . والطبقة الرابعة هم الذين بلغوا الخمسين ، والمقصود من هذه الدرجة هو المقصود من جميع رياضات النفس ، وفيها تبلغ النفس من القوة منزلة تشاهد فيها الحق عِيَاناً ، وتتصل بملكوت السموات ، وتدرك حقائق القيامة والبعث والحساب ، ومجاورة الرحمن .

وهم ينصحون الرسل بنصائح دقيقة فيقولون : « ينبغى لإخواننا ، أيدهم الله ،

---

(١) جزء ٤ من الرسائل ص ١٠٥ .

حيث كانوا فى البلاد إذا أراد أحدهم أن يتخذ صديقاً مجدداً أو أخاً مستأنفاً أن يعتبر أحواله ، ويتعرف أخباره ، ويجرب أخلاقه ، ويسأله عن مذهبه واعتقاده ، ليعلم هل يصلح للصداقة ، وصفاء المودّة ، وحقيقة الأخوة أم لا ... وأن ينتقده كما ينتقد الدراهم والدنانير ، والأرضين الطيبة التربة ، للزرع والغرس ، وكما ينتقد أبناء الدنيا فى أمر التزويج وشراء المماليك »[1] .

وكان أمامهم فى تأليف هذه الرسائل منهجان : الأول أن يكلفوا الإخصائيين بأن يجمع كل إخصائييهم مادة رسالته ومعلوماتها ، ثم يكون المحرّر واحداً ، ولكن عيب هذه الطريقة أن المحرر ما لم يكن إخصائيا فى العلم الذى يحرّره ، لا يحسنه ؛ فكيف يكتب فى النجوم من لم يكن فلكيا . والمنهج الثانى أن يكثر المحرّرون فيكتب كل محرّر رسالة أو أكثر فى اختصاصه . ونرجّح أن يكون المنهج الثانى هو الذى اتبعوه ، بدليل اختلاف الأساليب ، وبدليل تعدّد الحكايات ، والإشارات ، ولو كان المؤلف واحداً ، لأحال عليها ، ولم يعدّدها .

نقول هذا وإن كان الشَّهْرَزُورى فى كتابه نزهة الأرواح ، يقول : « إن ألفاظ رسائل إخوان الصفاء هى للمقدسى ، فلا نظن ذلك صحيحاً ، فلو كانت لمؤلف واحد لم يكن فيها هذا التكرار المعيب » .

ثم بنَوْا رسائلهم على الرموز ، فالصلاة والزكاة ، والصوم والحج ، والبعث ويوم القيامة ، ومحمد وعلى ، وغير ذلك ؛ كلها رموز إلى أشياء معنوية .

وحملهم على كتابة هذه الرسائل أن لهم أتباعا متفرقين فى البلاد يحتاجون إلى تعليمهم ، ولو كانوا كلهم بينهم ما احتاجوا إلى ذلك . وألفوا على هذا النمط إحدى وخمسين رسالة ، فى الرياضيات والإلهيات والأخلاق ، وغير ذلك . وكانوا

---

(١) ج ٤ ص ٢١٤ ، ٢٣٦ .

عادة يتعاطفون مع القارئ ، ويخاطبونه فى رفق ودعة ، ويخاطبونه دائماً : بيا أيها الأخ ، أو يا أيها الأخ الفاضل ويدعون له ، ويحبّبونه فى المطالعة .

وهم عادة عندما يختمون رسالة يبشرون بموضوع الرسالة التى تليها ، وفى أول كل رسالة ينوّهون بالرسالة التى قبلها .

وذكروا أنهم بعد أن يتمّوا هذه الرسائل ، سيذكرون رسالة ثانية وخمسين يضعون فيها خلاصة كل الرسائل ، ويحلّون فيها رموزها . ولكنها ليست مطبوعة فى هذه الرسائل ؛ إنما طبعت رسالة فى الشام اسمها « الرسالة الجامعة[1] » ؛ وقد نسبت إلى المَجْرِيطى الأندلسى . وقد وصلنى منها الجزء الأول ، ولما يصلنى الثانى وبقراءتى له تبينت أن هذه الرسالة الجامعة ، ليست للمجريطى هذا ، وإنما هى الرسالة التى يعِدُ بها إخوان الصفاء . فقد لخصوا فيها رسائلهم ، وحلّوا فيها رموزهم ؛ وربما يتضح ذلك أكثر إذا قرأت الجزء الثانى .

* * *

ما الغرض من هذه الرسائل ؟ أسياسى هو ، أم شيعىّ إمامىّ ، أم شيعى قرمطى ، أم غير ذلك ؟ احتار الباحثون عند إجابتهم على هذا السؤال — نعم : إن فى بعض مواضعها إشارات إلى التشيع ، ولذلك نسبها بعضهم إلى جعفر الصادق الإمام المعروف .

وقال الإمام ابن تيمية ، فى فتاويه عند الكلام على الباطنية الإسماعيلية : « إنهم يبنون قولهم على مذهب المتفلسفة ، كما فعل أصحاب رسائل إخوان الصفاء » . ونرى فيها شواهد على هذا التشيع ، مثل قولهم فى أهل البيت : « وهذه

---

(١) طبعها الأستاذ جميل صليبا فى دمشق من مجموعات المجمع العلمى بها .

الولاية المخصوصة لأهل بيت الرسالة ، لا يحتاجون فيها إلى مدبِّرين غيرهم ، وإلى علماء سواهم ، ولا يطّلع الناس على أسرارهم »[١] .

ويقولون فى موضع آخر : « واعلم يا أخى أن البيت الذى فيه سر الخلافة ، وعَلَمُ النبوة ، هو البيت الذى وسَمُوا أهله بالسحر العظيم ، لما يظهر منه من الآيات ، ويعلمونه من المعجزات . فلم يجد أعداؤهم حالاً يضعون بها من منازلهم ، لمّا عجزوا عن العمل بمثل ما يعملونه ، وجهلوا العلم الذى يعلمونه ، إلا أن قالوا : إنهم سحرة ، وإن لهم عواناً من الجنّ يمدونهم بذلك .

وهيهات ، حيل بينهم وبين ما يشتهون ، إن هو إلا عِلم إلهى ، وتأييد ربانى ، تنزل به ملائكة كرام كاتبون ، وحفظة حاسبون ، يلقونه بأمر الله ، على من اصطفاه من خلقه ، وارتضاه لخلافته فى أرضه »[٢] .

وفى موضع آخر أوردوا حديثاً فيه تشيع مثل « قيل يا رسول الله ، مَن قال لا إله إلا الله دخل الجنة ، فقال نعم : مَن قالها مخلصاً دخل الجنة . قيل له وما إخلاصها ؟ قال : معرفة حدودها ، وأداء حقوقها . فقيل : يارسول الله ، ما معرفة حدودها ، وأداء حقوقها ؟ فقال نعم ، أنا مدينة العِلم وعلىّ بابها ، فمن أراد ما فى المدينة ، فليأت الباب فيرشدهم إلى من يشرح لهم ذلك »[٣] .

إلى كثير من أمثال ذلك ، فكل من يقرأ مثل هذه النصوص ، يفهم أنهم من الشيعة . خصوصاً وأنهم قسموا أتباعهم طبقات كطبقات الشيعة ، وأمروا دعاتهم أن يتلطفوا مع المدعوّ ، وأن يخاطبوا كل مدعوّ بحسب ظروفه ، شأن دعاة الشيعة .

---

(١) جزء ٤ من الرسائل ص ١٠٣ .
(٢) جزء ٤ من الرسائل ص ١٠٥ .
(٣) » » » » » ٤٨٦ .

ولكن نراهم فى موضع آخر ، ينكرون نظرية المهدى المنتظر ، مع العلم بأنها أساس من أسس الشيعة . فكيف يكونون شيعة ، وهم ينكرون ذلك ؟ . وقد عدُّوا من الآراء الفاسدة مَن يعتقد أن إمامه مختفٍ خوف مخالفيه ، قالوا : « واعلم أن صاحب هذا الرأى يبقى طول عمره منتظراً لخروج إمامه ، متمنياً لمجيئه ، مستعجلا لظهوره ، ثم يفنى عمره ، ويموت بحسرة وغصّة ، لا يرى إمامه »[١] . فهذا يقضى أنهم ليسوا بشيعة صِرْف .

ويؤيد ذلك أن الأستاذ السيد محسن العامل صاحب أعيان الشيعة مع اجتهاده فى ترجمة من ينسب إلى التشيع ، قال عند الكلام عليهم : « وكيفما كان فلم يتحقق انتساب إخوان الصفا إلى التشيع ، ولا أنهم من موضوع كتابنا ، وإنما ذكرناهم لنسبة بعض الناس لهم إلى ذلك » .

ونستخلص من كل ذلك أنهم جماعة متخيِّرون ، يتخيّرون من كل دين ومذهب ، ما يناسب عقليتهم ، لا يتورّعون من اقتباس من النصرانية ، واليهودية ، ووثنيّي اليونان ، والفرس ، والهند ، وما يرون أنه معقول . فمن قال : إنهم سنيّون سنية تامة فقد أخطأ . ومن قال إنهم شيعة شيعة تامة فقد أخطأ . ولكنهم من غير شك أميالهم شيعية .

ثم هل لهم غاية سياسية ؟ الذى يظهر لى أنهم أومأوا إلى انحلال الدولة العباسية وعدم صلاحيتها ، إذ قالوا فى إحدى رسائلهم : « إن كل دولة لها وقت منه تبتدئ ، وغاية إليها ترتقى ، وحدّ إليه تنتهى . فإذا بلغت إلى أقصى غاياتها ، ومنتهى نهاياتها ، تسارع إليها الانحطاط والنقصان ، وبدا فى أهلها الشؤم والخذلان . واستأنف الآخرون « المعارضون » القوّة والنشاط ، والظهور

---

(١) ج ٤ ص ٥٨ .

والانبساط . . هكذا حكم الزمان فى دولة أهل الخير ، ودولة أهل الشر . تارة تكون الدولة والقوة ، وظهور الأفعال فى العالم لأهل الخير ، وتارة تكون لأهل الشر . وقد نرى أنه قد تناهت دولة أهل الشر ، وظهرت قوتهم ، وكثرت أفعالهم فى هذا الزمان .

وليس بعد الزيادة إلا الانحطاط والنقصان . واعلم يا أخى أن دولة أهل الخير يبدأ أولها من قوم علماء ، حكماء ، خيارٍ ، فضلاء ، يجتمعون على رأى واحد ، ويتفقون على مذهب واحد ودين واحد . ويعقدون بينهم عهداً وميثاقاً ، ألاّ يتجادلوا ، ولا يتقاعدوا عن نصرة بعضهم بعضاً ، بل يكونون كرجل واحد فى جميع أمورهم ، وكنفس واحدة فى جميع تدبيرهم ، فيما يقصدون من نصرة الدين ، وطلب الآخرة ، لا يبتغون سوى وجه الله . فهل لك فى أن ترغب فى صحبة إخوان لك نصحاء ، هذه صفتهم ؟ »[(١)] .

وقد حكوا مرة أنهم يؤملون « تجديد ملك فى المملكة ، وانتقال الدولة من أمة إلى أمة ، ويشيرون إلى أنه وقع اختيارهم على رجل تتحقق فيه الشروط ، ولكن لم يتم مرادهم »[(٢)] .

وأظن أنهم يشيرون بذلك إلى عضد الدولة ابن بُويه . فقد اتسع ملكه فى زمان إخوان الصفاء ، وارتقب الناس زيادة سلطانه ، فلا يبعد أن يكون هو أملهم ، وهو يحقق غرضهم ، من نواح متعددة ، فهو شيعى معتدل ، لا كالفاطميين فى مصر ، فإنهم شيعة متطرفون ، وهو واسع الاطلاع فى اللغة والأدب والفلك ، حتى كان يناقش أستاذه أبا على الفارسى فى النحو ، فيفحمه ، وهو يشارك فى العلوم

(١) ج ١ ص ١٣٠ من الرسائل .
(٢) ج ٤ ص ٣٣٧ » » .

الأخرى ، وهو رجل فيه جوانب خير كثيرة ، بنى مستشفى وأنفق عليه أموالا طائلة ، وهو الذى يقول فيه المتنبى لما قصده .

وقد رأيتُ الملوكَ قاطبةً وسِرْتُ حتى رأيتُ مولاها
ومَنْ مَنَاياهم براحتــه يأمُرُها فيهم ويَنْهــاها

* * *

وفيه يقول :

فقلتُ إذا رأيتُ أبا شجاعٍ سَلَوْتُ عن العبادِ وذا المكان
فإن النـاس والدنيا طريقٌ إلى مَن ما لُه فى الناس ثانى

* * *

ويقول فيه آخر :

لقيته فرأيت النــاس فى رجلٍ والدَّهرَ فى ساعةٍ والأرض فى دارِ الخ

* * *

ولكن مع هذا المجد كله كانت له هنوات ربما جعلته فى نظر إخوان الصفا أخيراً ليس المثل الأعلى للملوك .

من كل ذلك نستنتج :

(١) أنهم يعتقدون أن دولة زمانهم آخذة فى الانحطاط ، وأنها صائرة إلى الزوال ، وهى الدولة العباسية التى تسيطر فى زمنهم على البصرة وما حولها .

(٢) أنهم يرتقبون حكومة تشبه الحكومة التى دعا إليها أفلاطون فيما مضى ، من تولية الفلاسفة ، فهم عقلاء الأمة ، ويجب أن يكونوا حكامها .

(٣) يظهر أيضاً أنهم ليسوا راضين عن حكومة الشيعة الفاطميين ، لأن لهم

بعض عقائد فاسدة فى نظرهم ، كالإمام المختفى . والجور بعضهم ، كبعض الخلفاء العباسيين .

يستنتج من كل ذلك أنهم يريدون حكومة عادلة كل العدل ، يكون على رأسها علماء صلحاء ، أخيار ، يتخذون العدل فيها عليهم وعلى أتباعهم . وهم فى كل مناسبة يشيدون بذكر العلم والمعرفة ، « والنظر فى جميع الموجودات ، والبحث عن مبادئها ، وعلّة وجدانها ، ومراتب نظامها ، والكشف عن كيفية ارتباط معلولاتها »(١) ، « وأن عبادة الله ليس كلها صلاة وصوماً ، بل عمارة الدين والدنيا »(٢) ، « بل العبادة الشرعية ليست مقصودة لذاتها ، بل هى إشارات إلى غاية قصوى »(٣) ، « والنجاة لا تكون بالعبادة والأخلاق فقط ، بل بالإحاطة بالعلوم والمعارف أيضاً »(٤) .

فهم يتشددون فى كل مناسبة ، فى المطالبة بالعلم والمعرفة . فمذهبهم الأساسى العلم والمعرفة أولا ، لأنهم على مذهب سقراط فى أن الفضيلة هى المعرفة ، وهذه المعرفة ينشأ عنها جودة الأخلاق وصلاح الدين : والدنيا . الخ .

هذه على ما يظهر هى غايتهم ، نَشْرُ علم ومعرفة لا حدود لها ، والعمل على ذلك بكل الوسائل ، ثم إقامة حكومة على رأسها صفوة هؤلاء العلماء ، ثم تطبيق هذا العلم والمعرفة على الحياة الفردية والاجتماعية العملية .

ثم للوصول إلى ذلك لا بد من سرّية حتى يقوَوْا ، وتقيّة كتقية الشيعة ،

---

(١) ج ١ ص ١١٠ من الرسائل .

(٢) ج ٢ ص ١٠٦ .

(٣) ج ٢ ص ١٢٠ .

(٤) ج ٢ ص ١٥٦ .

حتى لا يضطهدوا ، إلى أن يكون لهم السلطان ، وفى يدهم الأمر .

وكان لهم الحق فى ذلك ، فمع سرّيتهم وتقيتهم ، نُقِم عليهم ، ورُموا بالزندقة من العلماء المتزمتين ، وأحرقت رسائلهم فى بغداد . ولكن علمنا الزمان أن اضطهاد الأفكار ، إرهاص للخلود .

ولنذكر الآن بعض آرائهم فى فروع مختلفة . لقد أرادوا أن يلفقوا مذهبهم من كل المذاهب ، إسلامية كانت أو نصرانية ، أو وثنية . ولذلك كان من أنبيائهم نوح وإبراهيم ، وسقراط وأفلاطون ، وزرادُشت وعيسى ، ومحمد وعلى إلخ . وهم يعتقدون أن الفلسفة أرقى من الدين . فقد حكى أبو حيان أنه ألحّ على المقدس أحد جماعة إخوان الصفاء فى مسألة ، فلما أحرج قال : « إن الشريعة طبّ المرضى ، والفلسفة طبّ الأصحاء »(١) . يريد بذلك أن الأنبياء يطبّون المرضى حتى لا يزيد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية . أما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها ، حتى لا يعتريهم مرض . ولا شك أن مدبّر الصحيح خير من مدبّر المريض . وبعبارة أخرى إن ظاهر الشريعة إنما يصلح للعامة ، أما الغذاء للنفوس القوية فيكون بالنظر الفلسفى العميق .

وقالوا « إن الجسم غايته الموت »(٢) ومعنى الموت عروج نفس الإنسان إلى الحياة الروحية الخالصة ، وهذا إنما يكون لمن تفلسف فى حياته الأرضية . أما من عاشوا فى الأساطير والخرافات ، فشأنهم شأن البهائم . . وقد أخذوا هذا المعنى عن متأخرى اليونان وعن اليهود والنصارى ، وعن مذاهب الفرس والهنود .

وهم يقسمون النشاط العقلى إلى علوم وصناعات ، والعلم هو صورة المعلوم فى

---

(١) جـ ٤ ص ٤٦ .

(٢) جـ ٣ ص ٥٩ .

نفس العالم . وأما الصناعة فهى إخراج الصانع الصورة التى فى فكره ، ووضعها فى الهيولى . وعندهم أن المعرفة تأتى من طرق ثلاث :

(١) طريق الحواس الخمس ، وهو أول الطرق . ومنه تنشأ جمهرة علوم الإنسان . وفى ذلك يشترك الناس كلهم .

(٢) طريق العقل ، وبه يتميز الإنسان عن سائر الحيوانات .

(٣) طريق البرهان الذى ينفرد به قوم من العلماء دون قوم[١]

وعندهم أن النفس عند ولادتها لم تكن تعرف شيئاً ألبتة لقوله تعالى « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً » ولا تعرف النفس شيئاً إلا بتوسط الجسد . وهى نظرية تخالف نظرية أفلاطون التى تقول : « إن النفس كانت تعرف كل الأشياء قبل حلولها فى الجسد ، وإنما معرفتها فى الدنيا تذكرها ، فإذا رأت شيئاً فى عالمنا ، تذكرت ما رأته فى عالمها الأعلى قبل هبوطها إلى الأرض ، واتصالها بالجسد » وعلى هذه النظرية جاءت عينية ابن سينا .

هبطت إليك من المحل الأرفع ورقاء ذات تدلل وتمنـــع

* * *

ويجب على الإنسان فى نظرهم أن لا يحصل المعارف مرة واحدة ، بل على دفعات ، لأن بعض المعارف أصعب من بعض . والنفس لا تستطيع الارتقاء فى مدارج معرفة الله ، معرفة صحيحة ، إلا بالزهد ، والانصراف عن الدنيا ، والقيام بالأعمال الصالحة .

وعندهم أن يبتدئ المعلم بعلوم اللغة واللسان والأدب فتلك أسهل ، ثم يتلقى

---

(١) ج ١ ص ٣٥٦ ، ج ٢ ص ٣٣٤ ، ج ٣ ص ٣٨٤

علوم الدين ، ومذاهب الكلام فإذا أتقن ذلك ، درس الفلسفة مبتدئا بالرياضيات .
وأصحاب إخوان الصفاء يعرضون للرياضيات على طريقة الهنود تارة ، وعلى مذهب فيثاغورس الجديد مرة أخرى ، مع الإمعان فى الرموز ، وتقديس بعض الأعداد ، كعدد ٧ ومن أجل ذلك كانت حروف الهجاء ثمانية وعشرين ، لأنها حاصل ضرب ٤ × ٧ .

واعتقدوا فى الكواكب أنها أجسام نورانية عاقلة كمذهب اليونانيين القدماء ، وأنها أرقى فى عقلها من الإنسان ، وأن للنجوم تأثيرات قوية فى العالم الأرضى ، وهذه النجوم تؤثر أحيانا بالسعد ، وأحيانا بالنحس . فالمشترى والزهرة والشمس تؤثر بالسعد ، وزحل والمريخ والقمر تؤثر بالنحس . وعطارد يؤثر بالنحس والسعد جميعا . وطول أعمار الناس أو قصرها خاضع لهذه التأثيرات إلخ إلخ وهذه هى عقائد القرون الوسطى . طال فيها الجدل إلى يومنا هذا .

وفى المنطق ساروا على مذهب فُورْ فُورْيوس مؤلف إيساغوجى . وقلما زادوا فيه شيئا من عندهم . فعندهم الألفاظ الخمسة التى وضعها ، وهى الجنس والنوع والفصل والخاصة والعرَضُ العام . غير أنهم زادوا عليها لفظا سادسا وهو الشخص . وقالوا : إن الجنس والنوع والشخص تدل على الأعيان . وأما الفصل والخاصة والعرض فتدل على المعانى . وعرضوا فى المنطق للمقولات العشر ، أولها الجوهر ، والتسعة الأخرى أعراض له . وقالوا : إن هناك مناهج منطقية . وهى التحليل والحد والبرهان ، فالتحليل منهج المبتدئين ، لأنه يوضح الأمور الجزئية المحسوسة ، أما الحد والبرهان ، فبهما تعرف الأشياء المعقولة . وقالوا : إن كل شىء فى هذا العالم إما أن يكون هيولى أو صورة ، وهيولى الأشياء كلها واحدة ، و إنما تختلف بالصورة . وهذا الكلام أشبه بما يقوله العلماء المحْدَثون من أن ذرّات الأشياء

كلها واحدة . وأنها عبارة عن كهربائية موجبة وسالبة ، وأن الخلاف بينها خلاف فى الكمية لا فى الكيفية . فذرّات النحاس مثل ذرات الحديد ، مثل ذرات الذهب . فلو أضفنا إلى ذرّات النحاس ما ينقصها عن ذرّات الذهب كانت ذهبا . ولذلك قال إخوان الصفاء بإمكان تحويل المعادن إلى الذهب . وهو الذى يسمونه كيمياء .

وأفاضوا طويلا فى النفس الإنسانية ، لأنهم كانوا يعتمدون عليها ، وقالوا إنها فيض صادر عن النفس الكلية . ونفس الطفل فى أول أمرها كصحيفة بيضاء ، تتناول المعلومات عن طريق الحواس الخمس ، وتجمعها ، فإذا كبر دفع هذه المعلومات إلى القُوَى المفكرة ، ثم إلى الحافظة . والقوة التى تعبر عن النفس بالألفاظ تسمى القوة الناطقة . وللإنسان قوًى خمس باطنة تساوى قوى الجسم الخمس الظاهرة ، وهى المتخيِّلة فى الأمام ، ثم المفكِّرة وسط الدماغ ، ثم الحافظة فى مؤخرة الدماغ ، ثم الذاكرة ، ثم القوة الناطقة .

وقد أكَّدوا أنهم متديّنون ، ولكن غايتهم فلسفة الدين ، وتحصيل كل المعانى . قالوا « وبالجملة ينبغى لإخواننا أيدهم الله ألا يعادوا علماً من العلوم ، أو يهجروا كتابا من الكتب ، ولا يتعصبوا على مذهب من المذاهب ، لأن رأينا ومذهبنا يستغرق المذاهب كلها ، ويجمع العلوم كلها »[١] .

ولذلك يصح أن تعدهم مسلمين . ولكنهم مسلمون متسامحون لا بأس أن يأخذوا من اليهودية والنصرانية والوثنية ، كما يصح أن يأخذوا من السنيّة والشيعة . وكلما قدَر الإنسان على مزْج العلم بالفلسفة بالدين ، كان أرقى ، فإذا بلغت النفس منتهاها ، كانت فى مصاف الملائكة المقرّبين ، وصار مقامها فوق دين العامة

---

(١) ج ٤ ص ١٠٥ .

الموروث ، وفوق الرسوم والصور الحسية . وهم يرون أن الصور الحسية التى صوّرها القرآن من نعيم فى الجنة ، وما فيها من حور عين ، وأنهار من عسل مصفى ، وأن أهلها على الأرائك متكئون ، وما فى النار من عذاب ، كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ، ونحو ذلك ، إنما هى صور رمزية . وأن هناك ديناً عقلياً فوق الأديان كلها . وأن الاعتقاد بأن الله يغضب ويعذب بالنار ، أمور لا يقبلها العقل . وأن النفس الجاهلة تلقى جهنمها فى هذه الدنيا ، وأن النفس العاقلة تلقى جنتها فى هذه الدنيا أيضاً ، وأن البعث هو مفارقة النفس للجسم ، والقيامة هى مفارقة النفس الكلية للعالم ورجوعها إلى الله[1] .

وهم فى الأخلاق يرون الدعوة إلى الروحانية والزهد ، والعمل يكون فاضلا إذا صدر عن الروية العقلية ، وهم كالمتصوفة يرون أن أرقى أنواع الفضائل ، هى المحبة ، وإذا بلغت غايتها ، فنيت فى الله المحبوب الأول .

وتظهر على صورة الصبر والرضا عن جميع الخلق . وهذا الحب يطمئن النفس ، ويحرّر القلب ، ويبعث على الرضا بكل ما فى هذه الدنيا .

وهم يقولون كأرسطو بنظرية الأوساط ، أى إن كل فضيلة وسط بين رذيلتين . فالشجاعة وسط بين الجبن والتهور ، والاقتصاد المالى وسط بين البخل والإسراف ، والعدل وسط بين الظلم والانظلام .

وهم يبخسون الجسم حقه ، ويقولون إن الإنسان فى الحقيقة هو النفس . أما الجسم فثوب ظاهرى . والمثل الأعلى للرجل الكامل أن يكون « فارسىّ النسب ، عربىّ الدين ، عراقىّ الأدب ، عبرانىّ المخبر ، مسيحىّ المنهج ، شامىّ النسك ، يونانىّ العلم ، هندىّ البصيرة ، صوفىّ السيرة ، مَلَكِىّ الأخلاق ، ربّانىّ

---

(١) انظر ج ٤ ص ١٦٠ .

الرأى إلهىّ المعرفة[١] » ورأوا أن البيئة الطبيعية والاجتماعية تؤثر فى الإنسان ، فاختلاف لغات الإنسان وألوانهم وأخلاقهم وصورهم متأثرة ببيئتهم . وأن الأجرام السماوية من ضمن البيئة ، فهى تؤثر فى الأقطار المختلفة ، تأثيراً مختلفا ، وخصوصاً الشمس . ومن أجل هذا كان بعض الأقاليم وهو الإقليم الرابع الأوسط هو إقليم الأنبياء والحكماء ، لأنه وسط بين الثلاثة الجنوبية ، والثلاثة الشمالية . وأهل الأقاليم الأخرى ناقصون عن طبيعة الأفضل .

ولهم فى المرأة رأى سيئ ، وأن لهن وظيفتين فقط ، الإنسال ، وأن يكن أزواجا للذين لا يستطيعون التعفف . وعلى الجملة وظيفة المرأة ، أن تطيع زوجها ، وتقر فى بيتها وتتعفف . وهى لا تصلح للنظر فى العلوم ، ولا للتفكير فى أمر الدين ، وقالو « اعلم يا أخى أن هذا الرأى والاعتقاد جيّد للنساء والصبيان والجهال والعوام ، ومن لا ينظر فى حقائق العلوم لا يعرفها[٢] » . ويقولون فى موضع آخر : « ولا يليق بالعقلاء أن يعتقدوا هذه العقائد فضلا عن الحكماء ، بل النساء والجهال والصبيان » . وربما كان ما نراه فى لزوميات أبى العلاء من الحملة على المرأة وفسادها ، وطلب قصرها على منزلها دون القراءة والكتابة ، ورميها بالاعتقاد فى الخرافات والأوهام ، نتيجة للقسم الأول من حياة أبى العلاء ، حينما كان على الأرجح يدين بتعاليم إخوان الصفاء .

ثم إنه من أروع رسائلهم رسالة « الحيوان والإنسان » فقد استغلّوا الرمزّية على نمط كتاب « كليلة ودمنة » وكالوا للإنسان الشتائم أشكالا وألوانا . وخلاصة هذه الرسالة أنه انعقدت محكمة لمحاكمة الإنسان أمام محكمة الجن اتهم فيها الإنسان

---

(١) انظر ج ٢ ص ٣١٦ .

(٢) ج ٣ ص ٢٩٣ .

ببطشه وظلمه ، فالإنسان أول أمره ، كان يأوى فى رؤوس الجبال والتلال ، وفى المغارات والكهوف ، خوفاً من كثرة السباع والوحوش . وكان يأكل من ثمر الأشجار ، و بقول الأرض ، وحبوب النبات ، و يستتر بأوراق الشجر من الحر والبرد ، ثم تحضّر فبنى المدن والقرى والقصور ، ثم أخذ يسخّر الأنعام من البقر والغنم والجمال ، ومن الخيل والبغال والحمير . وقيّدها وألجمها وصرّفها فى مآربها من الركوب والحمل ، وأتعبها فى استخدامها ، وكلفها أكثر من طاقتها ، ومنعها من التصرف فى مآربها ، بعد أن كانت حرة فى الجبال والآجام والغِيَاط ، تذهب وتجىء حيثما أرادت فى طلب مراعيها ومشاربها ومصالحها ...

وشمّر ابن آدم فى طلبها بأنواع من الحيل والقنص والشّبَاك والفخاخ ، واعتقد أنها عبيد له ؛ هربت منه وخلعت الطاعة وعصته .

واتفق أن ولى أمر المسلمين من الجن مِلِك يقال له بِيرَاشست الحكيم . وحدث أن طرحت العاصفة فى وقت من الأوقات مركباً من سفن البحر إلى ساحل الجزيرة التى يسكنها هذا الملك . وكان فى المركب قوم من التجار والصناع وأغنياء الناس ، فخرجوا إلى تلك الجزيرة ، وفُتنوا بما فيها من الفواكه والبقول والرياحين ، وصادقوا ما فيها من البهائم والطيور ، والسباع والوحوش ، والهوامّ والحشرات ، فى ألفة لا يشوبها تنافر ولا شقاق .

واستطاب الناس المُقام فى تلك الجزيرة ، وأخذوا يتمرضون لما فيها من الحيوانات ، ليسخّروها فيركبوها ، و يحملوا عليها أثقالهم ، فنفرت منهم وهربت ، فخرج الناس فى طلبها لاعتقادهم أنها عبيد خرجت عن طاعتهم . فلما رأت الحيوانات رغبة الإنسان فى استعبادها ، جمعت زعماءها وخطباءها ، وذهبت إلى مِلِك الجن ، وشكت إليه ما لقيت من جور بنى آدم ، فعقدت المحاكمة ، وتكلم

زعيم كل صنف من أصناف الحيوانات ، باتهام الإنسان بظلمه وعنَتِه . فدافع الإنسان أول الأمر بأن الله تعالى أباح له ذلك ، فقال : « والأنعام خلقها لكم فيها دِفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جَمال حين تريحون وحين تسرحون » ؛ وقال : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » ؛ وقال : « لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه » . فقال زعيم البغال : أيها الملك ، ليس فى شىء مما قرأ هذا الإنسىُّ دلالة على ما زعموا أنهم أرباب ونحن عبيد ، إنما هى آيات تذكار بنعمة الله عليهم ، فقال سخّرها لكم ، كما قال سخر الشمس والقمر ، والسحاب والرياح . ووقف الثعبان يتحدث عن الحشرات والهوام ، وقال إن أكثرها صم بكم عمى ، بلا يدين ولا رجلين ولا جناحين ولا منقار ولا مخلب ، ولا ريش على أبدانها ، ولا شعر ولا وبر ولا صوف ، وإن أكثرها عراة حفاة ، ضعفاء فقراء مساكين ، بلا حيلة ولا حول ولا قوة ؛ ومع ذلك فالإنسان هاجمها حيث كانت ، وقتّلها أينما وجدها ، ورق قلب الثعبان فدمعت عيناه من الحزن ... وهكذا أنطق مؤلف الرسالة قول زعيم كل صنف باتهام الإنسان بالظلم والعنت .

وكان قد حضر فى المحاكمة وفود من الأمم ، وتطرق من هذا بإنطاق زعيم كل أمة ، وبجعل الجنّىّ يعقِّب على قول زعيم الأمة بما فى تعداد مفاخرها ، بتعداد معايبها . ويندمج فى ثنايا هذه المحاكمة طُرَف لطيفة فى الفلسفة وطبائع الحيوان .

ومن الأسف أن المحاكمة لم تنته إلى حكم ، بل كانت مفاوضات لا نتيجة لها ، واتهامات لا غاية لها ... وهى تستحق القراءة لما فيها من المتعة الفنية والفكرية[1] .

---

(١) ج ٢ ، ص ٢٠٦ .

وقد ألف إخوان الصفاء رسائلهم كلها بالعربية ، وإن كان بعضهم فارسيًّا صنيماً ، شأنهم فى ذلك شأن ابن سينا الفارسى ، والفارابى التركى ، وعلى بن رَبَنْ من مازندران بطبرستان . وكما فعل محمد بن زكريا الرازى ، وهو من الرىّ قرب طهران . والسبب فى ذلك أن العربية أصبحت لغة العلم والفلسفة كاللاتينية ، بالنسبة للغات الأوربية الحديثة . ولأن اللغة العربية أطوع فى الصياغة ، وأكثر مرونة فى الاشتقاق ، وأقدر على الاصطلاحات . كما أوضح ذلك البيرونى فى بعض كتبه .

* * *

وهناك جماعة أخرى كانت فى بغداد أيضاً ، كان على رأسها الأستاذ الكبير أبو سليمان المنطق ، وكانت فى بغداد بجانب فرع إخوان الصفاء ، ولم يكن منهجها كنهج إخوان الصفاء ، فلم يكونوا رجال دعوة وتبشير ، ولا ذوى مطامع ومطامح ، وإن لم يكونوا يؤلفون رسائل أو كتباً إنما كل همهم أن يجتمعوا فى بيت رئيسهم للمتعة العقلية وكفى . ويجتمع فى بيت الرئيس كثير ممن ينتسب من أهل الحكمة والفلسفة من مسلمين ووثنيين ونصارى ويهود ، مثل ابن زرعة ، وابن الخمّار ، وابن السمح ، والقُومَسى ، ومسكويه ، ويحيى بن عدىّ ، وعيسى بن علىّ ، وأبى حيان التوحيدى وغيرهم .

وكان أبو سليمان هذا رئيسهم وجامع شملهم ، يثيرون المسائل فى مجلسه حيثما اتفق من سياسية واجتماعية ولغوية ودينية . وكلّ يبدى رأيه ، والكلمة الأخيرة لأبى سليمان .

وقد دوّن أبو حيَّان محاضر بعض هذه المجالس فى كتابه « المقابسات » . ويصف أبو حيان هذا الرئيس بقوله : « كان أبو سليمان أدقهم نظراً ، وأقعرهم

غوصاً ، وأصفاهم فكراً ، وأظفرهم بالدرر ، وأوقفهم على الغرر ، مع تقطع فى العبارة ، ولكنة ناشئة من العجمة ، وقلة نظر فى الكتب ، وفرط استبداد بالخاطر ، وحسن استنباط للعويص ، وجرأة على تفسير الرمز ، وبخل بما عنده من هذا الكنز » . وهذا تحليل دقيق من أبى حيان لشخصية أبى سليمان فهو قوى الفكر ، ألكَنُ العبارة ، وهو يعتمد على قوة عقله ، أكثر مما يعتمد على النقل من المؤلفات . وهو واثق بصدق رأيه ، أكثر مما يثق بما يقول غيره ، وهو بخيل بعلمه ، لا يذكر بعضه إلا للخاصة ، إذا دعت الدواعى . ولعل من بخله بعلمه قلة تأليفه . وقد دعته الدواعى أن يقيم رهين بيته ، فهو أعور العين ، مصاب بالبرص ، مشوّه الخلق ، يقول فيه الشاعر :

أبو سليمان عالمٌ فَطِن ... ما هو فى علمه بمُنْتَقِصِ

لكن تطيَّرْتُ عند رؤيته ... من عَوَرٍ موحِشٍ ومن بَرَصِ

وَبِأُبْنِه مثلُ ما بِوَالِدِهِ ... وهذه قصّة من القِصَصِ

* * *

وكان فقيراً يمدّه عضد الدولة من الحين بعد الحين بنفحة قليلة مالية يسدّ بها رمقه . وكان مما يثار فى مجلسه مثلا موقف الناس من الوحى ومن العقل ، فيقول : « إن أساس الأديان أن الله تعالى شاء أن يتصل بخلقه ، عن طريق رسله ، فأوحى إليهم بتعاليم الدين ، علماً منه بقصور العقل البشرى وضيق مجاله . فالعقل يستطيع إدراك المادة وقوانينها ، ولكن لا يستطيع إدراك ما وراء ذلك من عالَم الغيب ، وهذا هو ما بيّنه الأنبياء » .

وكان فى أيام أبى سليمان أربع نزعات ، حول هذا الموضوع ؛ نزعة تحكّم العقل فى الدين ، كما فعل زيد بن رفاعة ومحمد بن أبى بكر الرازى ، وإخوان

الصفاء . ونزعة تحكم الدّين فى العقل والفلسفة ، فيعرضون نظريات الفلسفة على الدين ، فما وافق منها الدين قُبل ، وإلا رُدّ ، وذلك شأن كبار المتكلمين . ونزعة ثالثة آمنت بالفلسفة وأرادت أن تؤمن بالدين ، فأوّلت الدين على وَفْق الفلسفة ، كالكندى والفارابى . ونزعة رابعة تفصل بين الدين والفلسفة فلكلٍّ منطق ونفوذ ، مثل أبى سليمان هذا . فقد قال : إن منهج الدين يخالف منهج الفلسفة إلى آخر ما قال . وكثيراً ما كانت تثار فى مجلس أبى سليمان مسائل نفسية ، كالبحث فى النفس ، وأن الإنسان جسم ونفس ، وهما عنصران متباينان ، فالجسم له أبعاد ثلاثة ، والنفس لا أبعاد لها . وهى جوهر بسيط لا يجزأ ، ولا يدرك بحاسة من الحواسّ الخمس ، ولا يعتريه فتور ولا ملال . وهى تخالف الجسم فى قبولها للصور المختلفة من جنس واحد فى وقت واحد . والإنسان يريد أن يعرف النفس ، ولكن لا يعرف النفس إلا بالنفس .

ويقول أبو حيان : إن أبا سليمان كان إذا تكلم فى النفس أفاض وأتى بالعجب العجاب . ويتكلم أحياناً فى الأخلاق بانياً تحديدها وموضوعاتها على معرفته الواسعة بالنفس . ويتكلم أحياناً فى السياسة ، ككلامه عند ما شكا ابن سعد أن الوزير البويهى شكا من كثرة كلام الناس فى السياسة ، ومحاولتهم معرفة كل صغيرة وكبيرة يضعها الوزراء والأمراء . فردَّ على ذلك رداً لطيفاً . ومن مثل ما حكى أمامه من أن كسرى لمّا تقلّد الملك عكف على الصَّبُوح والغَبُوق ، فكتب إليه وزيره رقعة يقول فيها « إن فى إدمان الملِك ضرراً على الرعية . ونرجو تخفيف ذلك ، والنظر فى أمر المملكة » فوقع كسرى على نفس الرقعة :

« إذا كانت سبُلنا آمنة ، وسيرتنا عادلة ، والدنيا باستقامتنا عامرة ، وعمّالنا بالحق عاملون ، فلِمَ نمنع فرحة عاجلة ؟ » فعلق أبو سليمان على هذا الخبر : لقد

أخطأ كسرى من وجوه أولا : أن الإدمان إفراط ، والإفراط مذموم ثانياً : أنه جهل أن أمْن السبل ، وعدْل السيرة ، وعمارة الدنيا ، والعمل بالحق ما لم يوَكّل بهـا الطرْف الساهر ، ولم تُحط بالعناية التامة ، ولم تحفظ بالاهتمام الجالب لدوام النظام ، دبّ إليها النقص ، وثالثاً : أن الزمان أعزّ من أن يبذل فى الأكل والشرب والتلذذ والتمتع ، فإن فى تـكميل النفس الناطقة باكتساب الرشد لها ، ما يستوعب أضعاف العمر ، فكيف إذا كان العمر قصيراً . ورابعاً : أن الخاصة والعامة إذا وقفت على استهتاره باللذات ، وانهماكه فى طلب الشهوات ، قلدته وقلت هيبتها ، وحشمتها منه . وارتفاع الحشمة باعث على الوثْبة ، والوثبة غير مأمونة من الهلـكة ، وما خلا المُلْكُ من طامع راصد قط » يقول أبو حيان : وكان أبو سليمان إذا تـكلم فى السياسة عجب سامعوه منه وسألوه أن يؤلف لهم فيها . وقد حلّل فى المقابسات أخلاق عضد الدولة تحليلا دقيقاً يدل على العلم والجرأة ، ويقول أيضاً : « إنه كان يأتيه أصحابه بالصفحة من كلام الصوفية أو كلام اليونان ثم يملِي من عنده خيراً منها . ومع هذا كله ، فـكان مشغوفا بسماع الغناء . وكان يخرج بعض أيام الربيع إلى البساتين مع بعض أصحابه ومعهم مطرب أو مطربة » .

على كل حال كان أبو سليمان شخصية ممتازة تركت دويّا كبيراً فى محيطه وفى زمنه . وكان بيته مقصد العلماء ليلا ونهاراً ، يقرأ عليه أبو حيان كتاب النفس لأرسطو ، ويعرض عليه علماء آخرون ما غمض عليهم . وفى ظنى أنه أقدر من ابن سينا والفارابى وابن رشد وأمثالهم . وأن له ميزة عليهم ، هى اعتماده على تفكيره ، أكثر من اعتماده على النقل . ولـكن كان ينقصه أمران (١) تأليفاته الـكثيرة التى تخلّد ذكره ، (٢) عنايته بتقعيد القواعد ، ووضع الـكليات التى

تبين مذهبه . ولعل بؤسه وفقره كانا يمنعانه من القدرة على العلم والتأليف . فهو لم يجد رواجا لبضاعته ، فأتلفها .

هذا عضد الدولة يحنّ عليه بمائة دينار ، وماذا تفعل المائة فى أكل وشرب وأجرة بيت تجمعت عليه منذ شهور . ويوسّط أبا حيّان عند ابن سعدان لعطفه عليه ، فيَعِد ثم يتلكأ . على أن الأمر شأنه كشأننا فى زماننا ، بعض الناس ليست له قدرة على التأليف ، ولكن له قدرة على تكوين الرجال بحسن أحاديثه ، و بعض الرجال يربّى الأجيال القادمة بحسن تآليفه. ولله فى خلقه شؤون .

يقول الأستاذ مدكور : « وقد عرض الباحثون فى القرن الرابع الهجرى ، وعدوه العصر الذهبى فى تاريخ الدراسات العقلية الإسلامية ، فاستقام لعلم الكلام أمره ، بعد محنة خلق القرآن . واسترد اعتباره على يدى الأشعرى ، وسما التصوف إلى القمة ، فانتقل من النسك والزهادة ، إلى شرح أحوال النفس ، ومقامات العارفين ، والقول بالاتحاد ونزول اللاهوت فى الناسوت ، كما كان يذهب الحلاج وأخذت الفلسفة الإسلامية تستكمل أسسها ومبادئها بما أضافه إليها الفارابى من عمق وتحديد ، وتوفيق وتنسيق . و بلغ الطب غايته فلم يقف عند ما دونه بقراط وجالينوس ، بل شاء الرازى أن يغذيه بتجاربه الشخصية ، ودرسه المستقل . وخطا الفلك والرياضة خطوات فسيحة ، ويكفى أن يذكر البيرونى ومؤلفاته للتدليل عليهما .

ويمكن أن يقال بوجه عام : إذا كان المسلمون فى القرنين الثانى والثالث للهجرة ، قد شغلوا بنقل العلوم الأجنبية وتفهمها ، فإنهم كانوا فى القرن الرابع يدرسون بأنفسهم لأنفسهم ، وانتقلوا من الجمع والتحصيل إلى الإنتاج الشخصى . وقد استوعبت ترجمتهم آثار الثقافات الأخرى ، الفلسفية والعلمية الهامة ، على

اختلافها ؛ من يونانية وفارسية وهندية . وإذا قصرنا حديثنا على الفلسفة ، أمكننا أن نلاحظ أن العرب إلى جانب ما وصلهم من شذرات عن الفلاسفة السابقين لسقراط ، ترجموا أهم المحاورات الأفلاطونية ، وهى الجمهورية والنواميس ، وطيماوس ، والسُّوفَيْسِط ، وبولوطيقى ، وفادن ، ودفاع سقراط . وكانت العناية بأرسطو بالغة . فبحثوا عن مؤلفاته ، وترجموها فى عناية تامة ، وتوفر لهم بها عدد غير قليل . وخُلط بها بعض مؤلفات موضوعة نسبت إليه خطأ .

ولكى يفهم المعلم الأول فهماً حقاً ، كان لا بد لهم أن يستعينوا بشراح من المشّائين الأُوَل ، كثاوفراسطس ، والإسكندر الإفروديسى . وقد ترجم لهما أكثر من شرح ، وخاصة الثانى الذى كان له أثر واضح فى بعض النظريات الفلسفية الإسلامية . وكان ابن سينا يعتد بآرائه اعتداداً كبيراً ، ويسميه « فاضل المتأخرين » . وإلى جانب الإسكندر هذا ينبغى أن نضع شراح مدرسة الإسكندرية . وفى مقدمتهم فورفوريوس وساميسفيوس ، وسمبليقيوس ، ويحيى النحوى . فترجم كثير من شروحهم ، وكان أثرهم فى العالم الإسلامى أشد عمقاً ، أحياناً من أثر المشائين الأُوَل .

نقلت هذه الكتب والشروح إلى العربية ، وتداولها مفكرو الإسلام فيما بينهم . وكثر تداولها ومناقشاتها والتعليق عليها فى القرن الرابع الهجرى » اهـ .

وأزيد على ذلك فأقول : إن عنايتهم فى القرن الرابع بالعلوم الدينية واللغوية كانت أقوى من عنايتهم بالعلوم الرياضية والفلسفية لسببين : الأول : أن الباعث على العلوم الدينية كان دينياً وهو أقوى من الباعث على الفلسفة ، وعنايتهم بالعلوم اللغوية لأنها تخدم الدين أولا ، ولأنها أثر من آثار أسلافهم ، ونتيجة لبيئاتهم . والثانى أن المستعدين للتفلسف والصبر على لغة الفلسفة وفهم غوامضها

والتفكير فى موضوعاتها أقل فى كل أمة من الباحثين فى اللغة والدين ، لأن الفلسفة لا تناسب إلا الخاصة .

* * *

وهنا يصح لنا أن نتساءل : هل الفلسفة الإسلامية أصيلة ، أم هى ترديد للفلسفة اليونانية ؟ لقد اختلف المستشرقون فى هذا اختلافاً كبيراً . فذهب بعضهم إلى الرأى الأول ، منهم الفيلسوف « تِنْمان » فقد قال : « يكاد يكون أرسطو مع شراحه هو الذى استرعى أنظار العرب ، وقد تلقَّوْا جملة ما ألفه أرسطو ، ولكنهم تلقوها على الحقيقة عن تراجم ناقصة جداً ، بواسطة خادعة هى المذهب الأفلاطونى الحديث ؛ ولكن وقفت فى سبيل تقدمهم فى الفلسفة عدة عقبات وهى :

(١) كتابهم المقدس الذى يعوق النظر الحر .

(٢) حزب أهل السنة ، وهو حزب قوى متمسك بالنصوص .

(٣) أنهم لم يلبثوا أن جعلوا لأرسطو سلطاناً مستبداً على عقولهم .

(٤) ما فى طبيعتهم القومية من ميل إلى التأثر بالأوهام .

من أجل ذلك لم يستطيعوا أن يصنعوا أكثر من شرحهم لمذهب أرسطو ، وتطبيقه على قواعد دينهم الذى يتطلب إيماناً أعمى ، وكثيراً ما أضعفوا مذهب أرسطو وشوّهوه ... على أن الآثار الفلسفية العربية لما تدرس إلا دراسة ضئيلة جداً ، لا تجعل علمنا بها مستكملا . بينما يرى بعضهم كَدِيبور أن الفلسفة الإسلامية أصيلة ، وإن كانت استمدت فيما استمدت من اليونان أو من الفلسفة اليونانية . ويرى رينان أن الفلسفة إنما يصلح لها العقل الآرىّ لا السامى .

وكل هذا خلْط ، فليس كتاب الله يقيد حرّية المسلمين فى التفكير ، كما أنه ليس هناك حدود فاصلة أثبتها العلم بين الآريين والساميين كما قال رينان .

ولئن كانت الفلسفة الإسلامية متأثرة بالفلسفة اليونانية قليلا أو كثيراً على اختلاف الأقوال ، فإن الأصالة ظاهرة عند المسلمين فى شيئين واضحين : فى أصول الفقه ، وفى علم الكلام . فأصول الفقه يحتوى على أفكار أصيلة فى اللغات ، ودلالة الكلام ، وفلسفة التشريع . وقد وضعه الشافعى ، وألّف فيه كتاباً سماه الرسالة ، تكلم فيه على منزلة القرآن من الدين . فالقرآن هوتبيان لكل شئون الدين . وقد أوضح فى الرسالة المراتب الخمس للبيان فى القرآن ، مع التطبيق عليها . ثم أبان أن السنة تخصص الكتاب ثم عقد عنوانا سماه « العلل فى الأحاديث » ، ذكر فيه ما يكون بين الأحاديث من خلاف بسبب أن بعضها ناسخ ومنسوخ ، و بسبب الغلط فى الأحاديث ، و بين منشأ الغلط . ثم تكلم عن الناسخ والمنسوخ من الأحاديث ، ثم تكلم عن النهى وأقسامه الخ .

وقد توسع الفقهاء فيما بعد فى علم الأصول هذا ، وأدخلوا عليه أبواباً لم تكن ، فكان بذلك فلسفة إسلامية أصيلة رائعة . وعلم الكلام مملوء بالإلهيات .

نعم : إنه أخذ بعض أصوله من الفلسفة اليونانية ، ولكن حوّرها بما يتفق والإسلام وزاد عليها كثيراً ، فيكاد يعد فلسفة أصيلة .

نعم : إن أصول الفقه وعلم الكلام لم تشتمل على الرياضيات والطبيعيات فهذه يصح أن تنسب فى جوهرها لا فى تفاصيلها إلى الفلسفة اليونانية .

ومهما اختلف الناس فى أصالة العرب فى الفلسفة الإسلامية ، ومقدار تجديدهم فى الفلسفة اليونانية ، فلن ينكر أحد أصالة العرب فى الحِكَم . فإن لهم حكما أصيلة منذ جاهليتهم . والفرق بين الحكم والفلسفة أن الحكم عبارة عن تركيز التجارب اليومية فى جملة أو جمل ، وهى أنسب لذوقهم . فقد شغف العرب بحب الإيجاز ، وصوغ التجارب فى « برشامة » . ونلاحظ أن الذى يقوله الأوربيون فى رواية طويلة فى مئات من الصفحات يقوله العربى فى حكمة وجيزة .

فقد قرأت لبرناردشو رواية طويلة مضمونها أن جماعة من قطاع الطريق خرجوا على سيارة ، فقال قطاع الطريق : من أنتم ؟ قالوا نحن سُرّاق الفقراء . فقال قطاع الطريق : ونحن سُرّاق الأغنياء . وقرأت لرجل عباسى شاهد حاكما يقطع يد سارق فقال : « سارق السرّ يقطع سارق العلانية » .

ومن قديم عرف العرب حكم لقمان ، وحكاها القرآن الكريم . واشتهر فى الجاهلية بالحكم أكثم بن صيفى وزهير بن أبى سلمى فى قوله : ومن ومن الخ . ورويت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الإسلام حِكَم كثيرة مثل : « اليد العليا خير من اليد السفلى — وما أملق تاجر صدوق — خير المال عين ساهرة لعين نائمة — رأس العقل بعد الإيمان مداراة الناس » الخ ... كما اشتهر فى الإسلام الأحنف بن قيس والحسن البصرى ، فلهما حِكم كثيرة مشهورة .

ولما نقلت الثقافات الأجنبية إلى العرب نقلوا الحكم أيضاً ، وعنوا بها ، واستساغوها أكثر مما استساغوا الفلسفة لأنها أقرب إلى عقول الأوساط ، وهى أشبه ما تكون بالأمثال التى اعتادوها ، كالذى نرى فى كتاب « جاويدان خرد » الذى نشر حديثاً باسم « الحكمة الخالدة » والذى عرّبه قديماً الحسن بن سهل ، وأبو على مسكويه . وقد اشتهر بعد الذين ذكرناهم بالحكم عبد الله بن المقفّع فى كتبه « الأدب الصغير ، والأدب الكبير والدرة اليتيمة » .

كما اشتهر بعد ذلك فى الحكم الجاحظ فى بعض كتبه ، مثل قوله « احذر كل الحذر أن يختدعك الشيطان عن الحزم ، فيمثل لك التوانى فى صورة التوكل ويسلبك الحذر ، بإحالتك على القدر ، فإن الله عز وجل إنما أمرنا بالتوكل عند انقطاع الحيل ، والتسليم للقضاء بعد الإعذار » . كما اشتهر بالحكم الفارابى ، فله وصايا كثيرة أوضح من فلسفته الغامضة مثل قوله : « كل واحد من الناس متى

رجع إلى نفسه ، وتأمّل أحواله وأحوالَ غيره من أفناء الناس ، وجد نفسه فى رتبة يشركه فيها طائفة منهم ، ووجد فوق رتبته طائفة هم أعلى منه منزلة ، ووجد طائفة دونها هم أوضع منه ، لأن الملك الأعظم ، وإن وجد نفسه فى محلٍّ لا يرى لأحد من الناس فى زمانه منزلة أعلى من منزلته ، فإنه إذا تأمل حاله ، وجد فيهم من يفضل عليه بنوع من الفضيلة ، إذ ليس فى أجزاء العالم ما هو كامل من جميع الجهات . وكذلك الوضيع الخامل الذكر ، يجد من هو دونه بنوع من الضعف » .

ويقول : « إن لكل شخص من أشخاص الناس قوّتين : إحداهما عاقلة ، والأخرى بهيمية ، ولكل واحدة منهما إرادة واختيار ، وهو كالواقف بينهما ولكل واحدة منهما نزاع غالب » الخ الخ .

وقد حكى له جاويدان خرد هذا نحو عشرين صفحة من الحِكم ، كما اشتهرت بالحكم مدرسة أبى سليمان المنطقى من مثل ما حكاه أبو حيان التوحيدى فى كتابه المقابسات ، وما حكاه أبو حيان لنفسه فى كتبه الكثيرة . ومن مثل ما كتبه جاويدان خرد أيضاً لأبى الحسن العامرى ، إذ روى له نحو خمس وعشرين صفحة ، من الحكم . والعامرى هذا هو أبو الحسن محمد بن يوسف العامرى ، فيلسوف مشهور ، حدثنا عنه كثيرا أبو حيان التوحيدى فى كتبه ، مثل قوله : « سل واهب العقل ، إضاءة العقل ، وابدأ بالأوّل فى إيثار الأولى ، واعرف الأولى بإيثار الأوّل — أشرف أبواب النظر ، ما أفاد تمييز الفناء من البقاء — من لم يعقل العقل ، ويستضئ بنوره ، فقد صيّره حجة عليه لا له — ليس الكمال فى اقتناء النعم ، بل الكمال فى إضافة النعم — الجهل مع العفة ، خير من العلم مع الفسوق — لن يسعد العبد بالعيش الفاضل ، إلا أن يكون مستنكفا من

أن يكون سكونه إلى المـال الممهّد ، والمجد المؤثل أقوى من سكونه إلى واهب المـال ومؤثل المجد » الخ .

وربما كان هذا النوع أعنى الحـكمة ظل ينمو على مر السنين . فقد زاد عن نتاج القرن الرابع . فكل عصر يزيد هـذه الثروة — يزيدها بعض الشعراء كالمتنبي وأبى فراس فى شعرهما . وحتى العوام كانوا قادرين على إنتاجه بأمثالهم العامية ، وقصصهم الحـكيمة . فلنا الحق فيما يظهر ، أن نستثنى هذا النوع من أنواع العلوم التى وقفت عند القرن الرابع الهجرى .

المراجـــع

تاريخ الفلسفة الإسلامية لديبور : ترجمة الدكتور أبى ريدة .

مِتْز : ترجمة الفارابى فى دائرة المعارف الإسلامية .

رسائل إخوان الصفاء .

أعيان الشيعة .

مقدمة الفلسفة للأستاذ مصطفى عبد الرازق .

جاويدان خرد .



الباب السادس

الأخـــلاق

كانت الأخلاق من أول عهد الإسلام مبنية على الدين ، فالصبر حميد ، لأن الله تعالى يقول : « إن الله مع الصابرين » « واصبروا وصابروا » . والعدل مطلوب لقوله تعالى « اعدلوا هو أقرب للتقوى ، ولا يجرمنكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا» . وكان بجانب ذلك حكم وأمثال وصلت إلى العرب من تجارب الزمان .

فلما دخل كثير من الفرس فى الإسلام وكانت لهم ثروة كبيرة من الحكم والأمثال فى جميع مرافق الحياة نقلوها إلى العربية . وكان على رأس هؤلاء ابن المقفع ، فقد نقل حكم الفرس وأمثالهم ، وقصصهم ، والقصص الرمزية التى تشير إلى الأخلاق ككليلة ودمنة ، وملأ اللغة العربية بهذه الجمل اللطيفة الرشيقة التى تدل على عقل واسع ، وتجربة ناضجة . هذه حِكَمٌ فى الأخلاق الفردية ، وهذه حكم فى الأخلاق الاجتماعية ، وهذه حكم فى السياسة وفى الملك وما يلزمهما ، وفى البلاط وما يتصل به كرسالة الصحابة التى يعنى بها صحابة الملك أو الخليفة ، أو بعبارة أخرى بلاطه .

ثم حدث بعد ذلك أن نقلت كتب اليونان إلى اللغة العربية ، فتدُوولت فيما بين المسلمين . وكان من هذه الكتب كتب فى الأخلاق ككتاب الأخلاق لأرسطو وغيره ، فهضمها المسلمون ، وأرادوا بعد ذلك أن ينقلوها أو يحذوا حذوها ، ويفلسفوا الأخلاق . ومنهم من كان يعمل فى الأخلاق ما عمل بعض الفلاسفة

فى الفلسفة إذ عرضوا علم الأخلاق هذا على الإسلام ، فما لم يقبله الإسلام رفضوه ، وما قبله تقبّلوه ، ومزجوا ذلك بالدين .

ولعلّ أشهر المؤلفين فى الأخلاق فى عصرنا هذا ابن مسكَوَيه ومحمد بن أبى بكر الرازى وإخوان الصفاء . فابن مسكويه أو مسكويه فقط كما يرجحه أكثرهم هو أحمد بن محمد بن يعقوب ، وهو من أصل مجوسى . وقد تبحّر فى الأخلاق الفارسية لفارسيته ، وفى الأخلاق اليونانية لثقافته بها ، صحب أولا الوزير المهلبى فى أيام شبابه ، ولازمه . وقد مكنته هذه الصحبة من معرفته بالطبقة الأرستقراطية ، وطبقة بعض الأدباء ، ومعرفته بالناس . ثم اتصل بخدمة الملك عضد الدولة ، وكان خازناً لمكتبته ، كاتماً لأسراره ، رسولا إلى نظرائه . ويظهر أنه عُنى من الفلسفة اليونانية بالناحية العملية من الأخلاق وما إليها ، وقصّر فى الإلٰهيّات . ومن أجل ذلك وصفه أبو حيان فى الإمتاع والمؤانسة بأنه « فقير بين أغنياء ، وعييّ بين أبيِنَاء لأنه شاذ . وإنما أعطيته فى هذه الأيام صَفْوَ الشرح لإيساغوجى ، وقاطيغورياسْ ، فلم يكن له فيهما حظ ، لأنه كان مشغولا بطلب الكيمياء ، مفتوناً بكتب أبى زكريا وجابر بن حيّان » وقد عاب عليه أنه كان فى الرىّ مع أبى الحسن العامرى وهو ما هو علماً وفلسفة ، فلم ينتفع منه . وعابه ابن سينا فى بعض كتبه بأنه شرح له مسألة فلسفية ، ثم أعادها عليه ، فلم يفهمها . ودفع إليه مرة جوزة كانت فى يده ، وقال له : امسح هذه ، أى أخرج مساحتها ، فألقى إليه مسكويه أوراقاً ، وقال له أصلح بهذه أخلاقك ، مما يدُلّ على أن مسكويه كان متجهاً إلى الناحية الخلقية لا الإلٰهية ، فعابوه على ذلك من غير حق .

وشاء الله أن ينبغ فى الأشياء التى هو مستعد لها . وقد ألَّف فى الأخلاق

كتبا كثيرة مثل تهذيب الأخلاق ، والفوز الأصغر ، وكتاب جَاوِيدَانْ خرد ، بمعنى العقل الخالد . إلى غير ذلك من كتب تدور كلها حول الأخلاق .

وكانت مصادره فى الأخلاق : (١) الفلسفة اليونانية ، (٢) الكتاب والسنة ، (٣) تعاليم الفرس وحكمهم ، (٤) تجاربه الشخصية ؛ فقد عُمِّر طويلا وكان فى شبابه منغمسا فى الحياة مستمتعا بها . ثم كان صديقا للوزير المهلبى ، ومن جلسائه ، والوزير للمهلبى هو ما هو فى ترفه ونعيمه ؛ ينفق ما يشاء على الثلج والورد والشراب . ثم كان من أتباع عضد الدولة ومصاحبا له فى سفره وإقامته ، ومشتغلا بالكيمياء يخالط المشتغلين بها من صادقين ودجالين . ثم عُمِّر طويلا حتى بلغ نحو المائة ؛ كل هذا مزجه مزجا غريبا وأخرج من هذا المزيج كتبه فى الأخلاق .

وكان أيضا قد اطلع على فلسفة الكندى والفارابى ، ففلسفَ الأخلاق بعد أن كانت حكما ؛ وعُنِيَ بمعرفة النفس وقرأ فيها كثيرا ، وحلَّلها كثيرا ، وبنى فلسفته الأخلاقية على العلم بالأمور النفسية أيضاً . واطّلع فى الأخلاق على آراء أفلاطون وأرسطو وجالينوس ، واتبع مذهب أرسطو فى نظرية (الأوساط) أيضا ، التى شرحناها فى إخوان الصفا .

وبدأ بالكلام فى ماهية النفس ؛ وعنده أن النفس جوهر بسيط غير محسوس لحاسة من الحواس ؛ تدرك وجود ذاتها بذاتها ، وتعلم أنها تعلم ، وأنها تعمل . وهى ليست جسما ، والدليل على ذلك أنها تقبل صُور الأشياء المتضادة ، فتقبل معنى الأبيض والأسود ، ومعنى الشجاعة والجبن ، مع أن الجسم لا يقبل فى وقت واحد إلا شيئا واحدا كالسواد أو البياض . والنفس بطبيعتها تواقة إلى المعرفة ، بل هى تكذب الحواس وتميز منها الصادق والكاذب . وهى وحدة يكون فيها العقل والعاقل والمعقول شيئاً واحداً . ويعرِّف الخيرَ بأنه ما به يبلغ الكائن المريدُ غاية

وجوده . والناس مختلفون فى الاستعداد للأخلاق ؛ فمن الناس من هم أخيار بطبعهم ، وهم قليل ، ولا يتقبّلون الشر بحال .

ومن الناس من هم أشرار بطبعهم ، وهم كثير ، ولا يستطيعون أن يصدر عنهم الخير البتة . وقوم لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، مستعدون لأن ينتقلوا إلى الخير أو إلى الشر بالتربية . وله نظرة صوفية : أن الله هو الخير المطلق ، والأخيار جميعا يسعون فى الوصول إليه . وهو يفرّق بين الخير والسعادة ، فالخير هو الذى يقصده الكل للشوق إليه ، وهو الخَير العام للناس من حيث هم ناس . أما السعادة فهى خيرٌ مّا لواحدٍ مّا . والإنسان يكون سعيدا إذا تحققت مقتضيات طبيعته .

ويرى أن أساس الفضائل هى محبة الإنسان للناس كافة . وبدون هذه المحبة لا تقوم جماعة قط . والإنسان لا يبلغ كماله إلا مع أبناء جنسه وبمعونتهم .

وهذه المحبة لا تظهر آثارها إلا فى جماعة أو مدينة ، فإذا كان الرجل معتزلا أو راهباً ناسكا لا نستطيع أن نحكم على أعماله بالخير أو الشر . وهو فى هذا يقول كما قال إخوان الصفاء . وله كلام طويل فى تحليل المحبة وتقسيمها إلى صداقة ومودة وعشق . ويبين أسبابها ودرجاتها ، ومدة بقائها ، وهى أنواع : أرقاها محبة العبد لخالقه ، ثم محبة الحكماء بعضهم لبعض ، ثم محبة عامة الناس . وكان الكلام فى المحبة شائعاً فى هذا العصر ، يتداوله الصوفية والفلاسفة والأدباء ، ويؤلف فيه أبو حيان « الصداقة والصديق » إلى غير ذلك .

واجتهد فى أن يوفق بين المذاهب اليونانية المختلفة ، ودين الإسلام . وهو من حين لآخر يعرّج على النفس ويزيدها إيضاحا ، مما يدل على تبحّره فى علم النفس . وله أحيانا كلام فى الأخلاق يشبه كلام ابن المقفع ؛ ولذلك عُنى بكتاب (جاويدان خرد) الذى ترجم بعضه الحسن بن سهل ، وترجم بعضه الآخر

مسكويه ، مثل قوله : « إذا آنستك السلامة فاستوحش من العطب ، وإذا فرحت للعافية فاحزن للبلاء ؛ وإذا بسطك الأمل فاقبض نفسك بقرب الأجل . الحيلة خير من الشدة ، والتأنى أفضل من العجلة . والجهل فى الحرب خير من العقل ، والتفكير هناك فى العاقبة مادة الجزع . الخ الخ ... » .

وله مع أبى حيان كتاب (الهوامل والشوامل) ؛ وهو عبارة عن أسئلة من أبى حيان وأجوبة من مسكويه . وهو إذا تعرض لمسألة خلقية أو نفسية أفاض فيها ؛ وكان شيعياً بحكم خدمته للوزراء والملوك الشيعيين ؛ ولذلك نرى فى ثنايا كلامه فى الكتاب آثاراً شيعية وإن كانت مختفية وراء المظاهر . ومما يدل على كثرة تجاربه الخاصة والعامة أو بعبارة أخرى الفردية والجماعية ، أنه فى الفردية ألّف كتاب تهذيب الأخلاق ، وفى الجماعية ألّف كتاب تجارب الأمم الذى سيأتى ذكره . وقد كان على ما يظهر رجلا فاضلا نبيلا خصوصاً فى آخر أيامه. وقد أُثرت عنه وصية أوصى بها من يأتى بعده ، تعد من خير الوصايا ؛ تدل على أنه كان حىّ الضمير يحاسب نفسه ويتمنى الخير والتهذيب لمن يأتى بعده . جرى فيها على وصية قس بن ساعدة ولقمان وغير ذلك مما أُثر عن الحكماء . ولا نطيل بذكرها فهى مبثوثة فى الكتب ؛ ورُوِى له شعرٌ كان فيه متأثراً بمبادئه الخلقية وكتابته فى الأخلاق ، مثل :

لا يعجبنك حسنُ القصر تنزلُه ... فضيلةُ الشمس ليست فى منازلها

لو زيدت الشمسُ فى أبراجها مئةً ... ما زاد ذلك شيئاً فى فضائلها

ويقول :

والناس فى العين أشباهٌ وبينهمُ ... ما بين عامرِ بيت الله والخربِ

فى العُودِ ما يُقرن المسكُ الذكىُّ به ... طيباً ، وفيه لَقىً مُلقّى مع الحطب

لا تطلبوا المال من خَول ومن حِيَلٍ ... فربّما جاء مطلوبٌ بلا طلبِ

ويقول :

ولقد نفضتُ بهذهِ الدنيـــا يدِى وحسمتُ دائى
ماذا يغـــــــرنىَ الزما ن وقد قضيتُ به قضائى

ويعتب على أبى العباس الغنى فيقول :

ما كان أغنى أبا العباس عن شَرَهٍ إلى لُحوم سباعٍ كُنّ فى الأجم
إنى وإن كنتُ لا أرضى الخنا لِفمى ولا أحُطّ لقولٍ فاحشٍ هِمَمى
لا يستريحُ إلىّ القولُ أحوجَهُ حَرُّ السكوتِ إلى الترويح بالنسم

الخ ...

وعلى الجملة فقد نقل الأخلاقَ نقلةً جديرة بفلسفتها ؛ وإن كان شاركه فى ذلك العمل غيرُه ، مثل محمد بن أبى بكر الرازى ، وإخوان الصفا — لقد بدأ قبله الجاحظ فى فلسفة الأخلاق ، كما فعل فى رسالة (الحاسد والمحسود) ، وكما فعل فى تحليل نفس أحمد بن عبد الوهاب ، وكالذى نجده من حين إلى حين فى بعض رسائله ، وفى كتاب الحيوان . ولـكن مزية مسكويه أنه وضع للأخلاق نظاما شاملاً وفلسفة كلية . أما الجاحظ وأمثاله فنتَفٌ هنا ونتف هناك من غير تبويب ولا ترتيب .

ولقد كان مسكويه على ما يظهر متديناً يحافظ على العقائد الإســلامية فى أثناء كتابته ولا يقبل من الفلسفة اليونانية والفلسفة الوثنية على العموم إلا ما يتفق والإسلام .

والرازى هذا من الرجال المعدودين فى قوة العقل ، وكِبَرِ الأثر ، ولد فى الرىّ ، ويقول الشهرزورى : « إنه اشتغل بالـكيمياء حتى أثرت العقاقير المستعملة فى

عينيه ، وذهب إلى طبيب ليعالجهما ، ففرض عليه خمسمائة دينار ، فدفعها إليه ، وأدرك ما فى الطب من مكسب ، فقال « هذا هو الكيمياء لا ما ذهبت إليه » .

ثم اشتغل بالطب حتى تقدم على من سبقه من الأطباء . و بلغ الغاية فى فحص البول ومرضى الجدَرِى والحصبة . قالوا : إنه كان شيخاً كبير الرأس مسقّط الوجه . وكان يجلس للتعليم بعظمة ودونه التلاميذ ، وكان كريما متفضلا بارًّا بالفقراء ، وكان يُجرى عليهم الجرايات الواسعة . وقد ألّف للمنصور كتاباً فى الطب الجسمانى ، ثم ألّف على نَمَطِه كتاباً فى الطب الروحانى ، و يعنى بالطب الروحانى ، الأخلاق . واعتمد الفرنج كثيراً على كتابه فى الطب المسمّى بالحاوى ، وتُرجم له بالفرنسية رسالة فى الحصوة فى المثانة والكُليتين ، وتُرجم له إلى الألمانية رسائل كثيرة . وله شعر عليه طابع الفلسفة ، كشعر أبى العلاء ، وابن الشبل البغدادى ، مثل قوله :

لعَمْرِىَ ما أدرِى وقد أَذِنَ البِلاَ … بعاجل تِرْحالى إلى أين تَرْحالِى
وأَيْنَ محلُّ الروح بعـــد خروجِهِ … من الهيكل المنحلِّ والجسَدِ البَالى

وكان يعتقد فى النشوء والارتقاء العلمى ، وأنه أرقى من أرسطو وجالينوس . وسيخلفه من يكون أرقى منه على مر الزمان .

وقد قالوا : إنه اعتقد بعض العقائد الشاذة من أستاذيه البَلْخى وعلىّ بن رَبَّنْ . وقالوا : إن الحلاّج قد اعتقد بعض آراء فلسفية له . وقد نقده الفارابى وابن الهيثم فى بعض آرائه . وقد ترجم له البَيرونى ترجمة وافية .

و يظهر أنه كان من العقليين الذين يؤمنون بالله ، و ينكرون النبوة . فقد رو يت لنا مناقشة حادة بينه و بين أبى حاتم الرازى ، يستفاد منها إنكاره للنبوّة ، وردُّ أبى حاتم عليه . ولذلك نرى أن مسكويه يدعم نظرياته فى الأخلاق ،

بالآيات القرآنية ، والأحاديث النبوية ، على حين أن الرازيّ هذا يعتمد فى كتابته فى الأخلاق على العقل البحت . وربما كان لهذا السبب بدأ مسكويه فى كتابه « تهذيب الأخلاق » فى بحث فى النفس وقيمتها ، بينما بدأ الرازى فى البحث فى العقل وقيمته .

وإذ كانت أبحاثه عقلية محضة ، وأبحاث المعتزلة عقلية دينية ، فقد نقدهم كثيراً ، كالم يرض عن إخوان الصفاء ، لأنهم فلاسفة دينيّون أيضاً ، وهو فيلسوف محض . وقد غذت أقواله المتطرفة فى النبوة ، القرامطة من المسلمين ، والملاحدة من النصارى . وقالوا : إنه ألّف كتاباً اسمه « نقض النبوّة » يذكر فيه أن النبوّات أضرّت الناس ، فى كسلهم وعاداتهم السيئة وضيق عقولهم ، وأنها هى السبب فى العداوة بين الناس ، وإثارة الحروب بينهم .

ومن أجل ذلك كان المتديّنون أعداء للفلسفة ، وأن أمثال أفلاطون وأرسطو وأقليدس ، أفادوا الإنسانية أكثر من الأنبياء . الخ الخ .

والذى يهمنا هنا نظراته الخلقية ، فقد أسّس الأخلاق على العلم كمسكوَيْه ، وزاد عليه أنه فى كتابه كما قلنا عقلى لا نقلى .

ومن أحسن ما فى كتابه بحث طويل عميق فى اللذة والألم ، وهو يرى أنهما أساس الفضائل والرذائل ، وقد سبق بمئات السنين فى ذلك بنْتَام وجون استِوارْت مِلْ ، فى تأسيس مذهب المنفعة على اللذة والألم .

فعندها وعنده أن الفضيلة إنما عدّت فضيلة لرجحان منافعها على مضارّها ، أو بعبارة أخرى رجحان ما ينتج عنها من اللذائذ ، على ما ينتج عنها من الآلام . والرذيلة بالعكس . وفضيلة تفْضُل فضيلة لكثرة لذائذها ، وعَمَلٌ يفضل عملا ، بما ينتج عنه من لذائذه .

وليست للفضيلة ولا للرذيلة قيمة ذاتية . وعند الرازى أنه ليس هناك لذة إيجابية ، وإنما اللذة عدم الألم . فالجوع مثلا مؤلم ، والأكل لذيذ ، لأنه يضيع آلم الجوع . وهكذا : إذا نحن حلّلنا كل لذة ، وجدناها عبارة عن دفع ألم .

وله فى العادات رأى لطيف أيضاً ، فيقول : « ينبغى أن يحتفظ بالعادات ، ويجرى مجاريها ، إلا أن تكون مفرطة فى الرداءة ، فإذا كانت كذلك ، فلينتقل عنها قليلا قليلا بالتدرج منها ، وليحذَرْ أن تجرى العادة وتتأكد بلزوم طعام أو شراب أو اجتنابهما ، أو بنوم ، أو بحركة ؛ فإنها إذا تأكدت هذا التأكد ، عظم الضرر من الإخلال بهما ، وليَمتَدِ الإنسان أن يمرّن نفسه على لقاء الحر والبرد ، والحركة والأغذية التى لا بد له منها ، وتبديل أوقات النوم واليقظة » الخ الخ .

وبعد أن ذكر مجمل الأخلاق ذكر تفاصيلها ، عاقداً فصلا لكل فضيلة أو رذيلة ، فمثلاً فصل فى قَمْع الهوى ، وفى تعرف الرجل عيوب نفسه ، وفى دفع العشق والإلف ، وفى دفع العُجْب والحسد والغضب ، وفى اطِّراح الكذب ، وفى اطراح البخل ، الخ . ولعلمه بالجسم وتشريحه استطاع أن يشرّح أثر الرذيلة فى الجسم ، فيقول مثلا فى قمع الهوى « إن أول فضل للناس على البهائم هو ملكة الإرادة ، وإطلاق الفعل بعد الروّية ؛ وذلك أن البهائم واقفة عند ما تدعوها إليه الطباع وذلك أنك لا تجد بهيمة تمسك عن أن تتناول ما تغتذى به مع حاجتها إليه ، وفضّل الإنسان فى زَمّ الطبع . فمن أراد أن يزيّن نفسه ، ويكمّل لها هذه الفضيلة ، فقد رام أمراً صعباً شديداً ، ويحتاج أن يوطّن نفسه على مجاهدة الهوى ومجادلته ومخالفته .

والهوى والطبَاع يدعوان أبدا إلى اتباع اللذات الحاضرة ، وإيثارها من

غير فكر ولا روّية فى عاقبة ، لأنهما لا يريان إلا حالتهما التى هما فيها لا غير » الخ .

ويقول مثلا فى تعرّف الإنسان عيوب نفسه : « إن كل واحد منّا لا يمكنه مع الهوى ومحبة نفسه أن ينظر بعين العقل الخالصة المحضة إلى خلائقه وسيرته ، وينبغى أن يسند الرجل أمره إلى رجل عاقل كثير اللزوم له ، والسكون معه ، ويسأله ويضرع إليه ، ويؤكد عليه أن يخبره بكل ما يعرف فيه من المعايب ، ويعلمه أن ذلك أحب الأشياء إليه ، فإذا أخذ الرجل المشرف يخبره ، لم يُظهر له اغتماما ، بل أظهر له سروراً بما يستمع ، وتشوقاً إلى ما لم يستمع . وينبغى أن يستخبر ويتجسس ما يقوله فيه جيرانه ومعاملوه وإخوانه وبماذا يمدحونه ، وبماذا يعيبونه » . وقد كتب فى هذا المعنى جا كينوس كتاباً عنوانه أن الأخيار ينتفعون بأعدائهم . ويعيب العشق والمبالغة فيه ، فإن العقلاء إذا رأوا آلام العشاق نفروا منه ، وأنه لا يغرق فيه إلا الخنِثُون من الرجال ، والرّذلون والفُرّارُ والمترفون . ولا سيما إن أكثروا النظر فى قصص العشاق ورواية الرفيق الغَزِل من الشعر ، وسماع الشجى من الغناء والألحان . واللذة التى يتصورها العشاق وسائر مَن كِلف بشىء وغُرم به ، كالعشاق للرياسة ، والتملك ، هى أن ينالوا المطلوب مع عظم ذلك فى أنفسهم ، ولو فكّروا فى وعورة هذا الطريق وخشونته ، ومهاويه ومهالكه ، لمَرّ عليهم ما حلا ، وصغُر عندهم ما يحتاجون فى جنب مقاساته ومكالحته .

والعشاق يجاوزون البهائم فى عدم ضبط النفس ، وزَمّ الهوى ، وهم لا ينالون من ملاذّهم شيئاً إلا بعد أن يمسّهم الهم والجهل ، ويأخذ منهم . وأما احتجاجهم بكثرة من عشق من الأدباء والشعراء ، فحجة واهية ، لأن الشعر والفصاحة والأدب ، ليست أشياء لا تكون إلا مع كمال العقل والحكمة ، بل قد تكون مع

نقصهما . فالعشاق قد يكونون من أهل النفس فى عقولهم وحكمتهم . وأما قولهم إن العشق يدعو إلى النظافة واللباقة والهيئة والزينة ، فما يُسْمح بجمال الجسد ، مع قبح النفس ، وهل يحتاج إلى الجمال الجسمانى و يجتهد فيه إلا النساء ، وذوُو الخنفِ من الرجال » . ويقول فى الحسد « إن الحسد يتولد من اجتماع البخل والشّره ، والحاسد هو مَن اغتمّ من خير يناله غيره ، من حيث لا مضرّة عليه منه البتة . ومن الغريب أنا نرى الرجل الغريب يملك أهل بلدٍ مّا ، ولا يكادون يجدون فى أنفسهم كراهة لذلك . ثم يملكهم رجل من بلدهم ، فلا يكاد أن يتخلص ولا واحد منهم من كراهته . وقد كان الرجل المالك القريب لهم أرأف بهم ، وأنظَر إليهم ، من المالك الغريب . و إنما يؤتَى الناسُ فى هذا الباب من فرط محبتهم لأنفسهم ، فمن أجل حبّ الرجل لنفسه يحب أن يكون سابقاً لا مسبوقاً ، فإذا هو رأى من كان بالأمس معه سابقاً له اليوم ، مقدّماً عليه ، اغتمّ لذلك ، واشتد عليه سبقه إياه . ولذلك يكثر التحاسد بين الأقرباء والمُعاشرين والمعارف » . ويعقد فصلا للاتصال الجنسى يرى فيه أنه يضعف البصر ، ويَهُدّ البدن ، ويقلقه ، ويُسرع بالشيخوخة والهرم ، ويضر بالدماغ والأعصاب ، ويسقط القوة ويوهنها « وهو كلام طبيب » وله ضراوة شديدة كضراوة سائر الملاذّ . بل أقوى وأشد منها . والإقلال منها يحفظ على الجسد رطوبته ، فتطول مدة النشوء والنماء ، وتبطئ الشيخوخة والجفاف ، فينبغى للعاقل أن يزمّ نفسه عنها ، ويمنعها منه ، ويجاهدها على ذلك ، لئلا تَغرَى به وتَضرَى عليه الخ .

ويختم الكتاب بالكلام على فلسفة الموت والخوف منه ، فيقول : إن علاج الخوف منه ، هى أن تقنع النفس أنها تصير بعد الموت إلى ما هو أصلح لها مما كانت فيه ، لأن الإنسان لا يناله بعد الموت شىء من الأذى البتّة ، لأن

الأذى حِسّى ، والحس ليس إلا للحىّ ، وهو فى حال حياته مغمور بالأذى . فالحالة التى لا أذى فيها ، أصلح من الحالة التى فيها الأذى . فالموت إذاً أصلح للإنسان من الحياة . فإن قيل « إن الإنسان و إن كان يصيبه الأذى فى الحياة ، فإنه ينال من اللذات ما ليس يناله فى حال موته ، فنقول له : إن الميت ليس يضره أن لا ينال اللذّات ، لأن الحى هو الذى يحتاج إلى اللذة ، دون الميت » . وقد أطال فى ذلك .

وقد سقنا هذه الأمثلة لنبين منها منهجه فى التأليف ، وأسلوبه فى التعبير ، ومنحاه فى الإدلاء بالحجج .

وقد وضع رسالة سماها « السيرة الفلسفية » رسم فيها المثل الأعلى لأخلاق الفيلسوف .

وأما إخوان الصفاء فتكاد الأخلاق عندهم تشبه الأخلاق عند مسكويه ، وعند الرازى . وعندهم أن الأخلاق نوعان : أخلاق فردية ، وأخلاق جماعية . فالأخلاق الفردية يقولون إنها تعرف بالعقل ، فما أمرنا الله به فهو خير ، وما نهانا عنه فهو شر . و يرون أن لبعض الناس عقولا يعرفون بها الخير و يأتونه ، والقبيح و يبعدون عنه . وهؤلاء هم الحكماء والفلاسفة ، أما غيرهم فقد يرى الخير ولا يفعله ، والشر ويأتى به . وأرقى أنواع الأخلاق عندهم فعل الخير للخير ، لا من أجل أى نفع عاجل أو آجل ، كما يقول الصوفية . قالوا أمّا الأخيار ، فهم الذين يعملون ما رسم لهم ، فى النواميس الإلهية ، و يفعلون ما أوجبته العقول السليمة ، ولا يطلبون على ذلك عوضا ، من جرّ منفعة إلى أجسادهم ، أو دفع مضرّة عنها ، فعند ذلك يقال لهم : أخيار على الإطلاق ، وأنهم من أبناء الآخرة . و يقولون فى العادة « يجب أن تعوّد نفسك عمل الخير لأنه خير لا تريد بفعلك

عوضاً ، ولا يحملك على فعله خوف : فمتى فعلت لطلب المكافأة ، لم يكن عملك خيراً ، وكذلك إذا أردت من عمل الخير ، الذكر والاسم ، كنت منافقاً . والمنافق لا يستأهل أن يكون فى جوار الروحانيين » .

ويقولون كما أشرنا قبل « إن الفضيلة وسط بين الإفراط والتفريط ، وإن الفضائل من مواهب ، هى من أخلاق الملائكة » . ويجعلون للإرادة والرياضة قسطاً كبيراً فى نيل الفضائل . أما الأخلاق الاجتماعية ، فعمادها البيئة ، والمجتمع ، وقد قالوا إن من البيئة الأجرام السماوية ، فلها تأثير كبير فى الإنسان وأعماله . وبعض هذه التأثيرات خير أو شر . وقد قسّموا الأقاليم إلى أقسام ، وجعلوا كل إقليم له أثر فى طباع الناس وأخلاقهم ، وخير الناس من كان إقليمه أعدل إقليم . والناس يختلفون من يوم الولادة ، فأولاد ملوك ، وأولاد تجار ، وأولاد الفقراء والمساكين وكل هؤلاء . يتأثرون تأثرا كبيراً بطبقتهم .

والناس محتاجون إلى التعاون . ولذلك شاع بين الناس : الإنسان مدنىّ بالطبع ، والإنسان مشتق من الأنس ، لا من النسيان . قالوا إن الإنسان الواحد لا يقدر أن يعيش وحده ، إلا عيشا نكدا ، لأنه محتاج إلى طيب العيش ، مع إحكام صنائع شتى ، ولا يمكن الإنسان الواحد ، أن يبلغها كلها ، لأن العمر قصير ، والصنائع كثيرة فمن أجل هذا ، اجتمع فى كل مدينة أو قرية أناس كثيرون لمعاونة بعضهم بعضاً . وقد أوجبت الحكمة الإلهية ، والعناية الربانية ، أن يشتغل جماعة منهم بإحكام الصناعات ، وجماعة فى التجارب ، وجماعة فى تدبير السياسات الخ .

ومما يؤثر فى الأخلاق الاجتماعية الدولة . وقد ذكرنا قبلُ رأيهم فى الدولة ، وأن لكل دولة عمرا محدوداً ، وأنها تنهار فى آخر أيامها ، وتؤثر فى أهلها أثراً سيئا ، وأنهم يؤملون قيام دولة رؤساؤها أهل خير ، حتى ينصلح الشعب بهم .

ويرون أن الدين والدولة لا يفترقان . والناس محتاجون فى صلاح أمرهم إلى ملك ، ولا بد لهم من سلطان يملكهم ، ويرأسهم ، ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه ويتنازعون ، ويمنع الظالم القوىّ من التعدّى على الضعيف المظلوم ، وتأمن من خوفه السبل[1] .

وقد يكون الملك نفسه جائرا ، ومع ذلك فلا مندوحة عن قبول حكمه ، ولكن عمره يكون عادة قصيراً ، لأن الله قاصم كل جبّار عنيد ، ومهلك كل مارد معتد . وهو ينصف المظلوم من الظالم[2] والسياسات أنواع ، سياسة خاصة ، وهى معرفة كل إنسان كيفية تدبير منزله أو أمر معيشته الخ ، وسياسة ذاتية وهى معرفة كل إنسان نفسه وأخلاقه وتفقد أفعاله وأقاويله ، فى حال شهوته وغضبه ورضاه ، والنظر فى جميع أموره . ثم تنقسم إلى قسمين : سياسة جسمانية ، وهى تدبير الجسم ، وحفظ العافية عليه ، وسياسة نفسانية ، وهى السياسة التى يحتاج إليها فى معاشرة الناس ومراقبة نفسه الخ الخ .

فنرى من هذا أنهم نقلوا الأخلاق أيضاً إلى علم ذى أبواب وفصول ، ونراهم فى الحقيقة أيضاً ، قد مزجوا بين العقل والدين ، وبين الأخلاق والنفس والاجتماع والاقتصاد ، شأنهم فى ذلك شأن أهل القرون الوسطى جميعا . وكانت كلها فروعا من فروع الفلسفة ، حتى الطب كان أحد فروعها . ثم أخذت العلوم تنفصل عن الفلسفة فعلم خاص بالنفس ، وعلم خاص بالاجتماع ، وعلم خاص بالأخلاق .

وعلى الجملة كان لمسكويه والرازى وإخوان الصفاء فضل فى نقل الأخلاق من نصائح أدبية ، إلى علم بأصول ، كما فعل الفرنج اليوم . ولكن الفروق بين

---

(١) ج ١ ص ١٩٥ .

(٢) ج ٣ ص ١٧٧ .

هؤلاء الثلاثة فروق دقيقة ، لا نرى فيها مذاهب ، كالذى نراه اليوم بين مذهب المنفعة ، ومذهب اللقانة ، ومذهب النشوء والارتقاء الخ . فقد كان مصدرهم كله الفلسفة اليونانية . غاية الأمر أن منهم من مزجها بالدين كإخوان الصفاء ومسكويه ، ومنهم من حكم فيها العقل فقط غير ناظر إلى الدين كالرازى .

* * *

وعلى الجملة فهناك منحيان للأخلاق : أحدهما الجمل الخلقية ، والأمثال والقصص كقصص كليلة ودمنة ، وقد مهر فى هذا النوع الأحنف بن قيس والحسن البصرى ، وابن المقفع وغيرهم . ونوع أسس على العلم خصوصاً بعد نقل الفلسفة اليونانية ، كتهذيب الأخلاق لمسكويه . وقد شاهدت فى حياتى هذين النوعين ، فكان يدرّس لنا الأخلاق أستاذ من دار العلوم يدرّس لنا أدب الدنيا والدين ، وهو على نمط الحكم والأمثال ، ثم درّس لنا أستاذ متشبع بالثقافة الإنجليزية ، فدرّس لنا كتاب الأخلاق لِمَا كنزِى ، وهو يعرض النظريات المختلفة فى الأخلاق وأسسها ، ثم يبنى عليها دراسة الفضائل مفصلة ، ودرّس لنا أيضاً كتاب « مذهب المنفعة ، لجون استوارت مل » ومذهب النشوء والارتقاء لسبنسر ، ونحو ذلك . فهذان المنحيان ظلاّ يعملان فى العصور المختلفة ، وربما كان الغزالى جامعا بين المذهبين فى كتابه الإحياء . فهو يبدأ الكلام فى كل فضيلة أو رذيلة بالآيات والأحاديث وما روى عن كبار الصحابة والتابعين ، ثم يتبع ذلك بالتحليل النفسى للفضائل والرذائل .

وقد جمع بين المذهبين ، كما حاول الجمع بين الفقه والتصوف ، و بين الفلسفة والدين . وكثير من الأخلاق من النوع الأول عبرت عنه أشعار ، كما فعل المتنبى وأبو نواس فى حكمهما ، وسايرهما من جاء بعدهما .

ومن الملاحظ أن المنحى الأول يسير إلى المنحى الثانى ، ومن ظواهر المنحى الأول اعتماده على الدين كثيراً ، وعلى الحكم الدينية ، وأما المنحى الثانى فيميل إلى الاعتماد على العقل كثيراً . ولكل فضل . فالمنحى الأول يستقبل من الجماهير استقبالا حسنا لا عتماده على الدين . . والدين فى أعماق كل نفس تقريبا . والمنحى الثانى يستقبل استقبالا حسنا من الفلاسفة وأمثالهم ، لأنهم يميلون إلى استناد كل شىء على المبرر العقلى ...

المراجع

تهذيب الأخلاق ، لمسكويه .

أعيان الشيعة .

ترجمة الرازى .

الشهرزورى فى دائرة المعارف الإسلامية .

رسائل فلسفية للرازى . نشرها كراوس .

رسالة الأخلاق ، من رسائل إخوان الصفاء .

الباب السابع

فى العـــلوم

ونعنى بالعلوم ما يسمى عنـد الفرنج Sciences كالرياضيات والطبيعيات والـكيمياء ونحوها . وقد عنيت طائفة بها ، وتقدمت تقدماً كبيراً فى هذا القرن الرابع ، وتفاخر الملوك والأمراء بها ، وزينوا أقطارهم بها . فجبريل بن بختيشوع فى العراق،وابن الهيثم فى العراق ومصر ، وعلى بن رضوان فى مصر ، وابن البيطار النباتى وغيرهم . وألفوا فى ذلك الـكتب الـكثيرة للأمراء ، كما فعل الرازى فى كتابه المنصورى ، باسم المنصور بن إسحاق ، والتاجى . وكما فعل سعيد بن هبة الله الذى ألّف كتابه المغنى فى الطب للمقتدى بأمر الله . وتقرأ كتاب الفهرست لابن النديم ، وكشف الظنون ، فترى فيهما مئات الـكتب فى العلوم . وكانت الرقعة الإسلامية مجالا للعلماء من كل جنس ودين ، من نصارى ويهود ووثنيين ، وكان بعض الأطباء مثـلا ذوى اختصاص كالـكحّالين والجرّاحين والفاصدين ، ومن يعالج النساء ، الخ . حتى كان بعضهم من النساء . وكانوا كاليوم يعنون بفحص البول وجسّ النبض ، والاستدلال منهما على نوع المرض . واستفاد الأطباء المسـلمون من اليونان والفرس والهنود والـكلدان ، واخترع بعضهم ما خالف به أطباء اليونان كمعالجتهم الفالج والاسترخاء بالأدوية الباردة ، بدل ما كان يستعمل عند اليونان من الأدوية الحـارة . واستخدم أطباء المسلمين المرقد « البنج » فى الطب . وتوسعوا فى الـكى ، واستعملوا صبّ المـاء البارد فى أحوال النزيف . وكانوا أوّل من نظم الصيدلة وتوسّع فيها . واستجلبوا العقاقير من مختلف البلاد ،

وأنشأوا الحوانيت لها ، وكان اشتغالهم بتحويل المعادن إلى ذهب سبباً فى وقوفهم على كثير من المواد الكيماوية ، فاستحضروا ماء الفضة المسمى « حامض النتريك » وزيت الزاج ، المسمى « حامض الكبريتيك » واكتشفوا البوتاسا ، وروح النوشادر وملحه ، وحجر جهنم المسمى « نترات الفضة » والسليمانى المسمى « كلوريد الزئبق » وغير ذلك من المركبات والعناصر . واكتشفوا مادة إذا طلى بها الخشب لم يحترق . وعرفوا الترشيح والتقطير والتصعيد والبلورة والتذويب ، واستخدم مثلا ابن الهيثم علمه بالكيمياء والطبيعة فى المخترعات الميكانيكية ، واشتغلوا بعلم الفلك ، و بدأوا فيه بالتنجيم ثم قلبوه إلى علم ، فصنع الخوارزمى مثلا زيجاً جمع فيه بين مذاهب الهند والفرس والروم ، وزاد فى ذلك أبواباً . وجاء البتّانى فصنع زيجاً آخر ، عرف بالزيج الصابى ، وجاء بعد ذلك فى القرن الرابع والخامس أبو الوفاء البوزجانى والبيرونى ، فاخترعا كثيراً من الآلات الفلكية استخدموها فى المراصد ، وفى مصر أنشئ مرصد على جبل المقطم عرف بالمرصد الحاكمى نسبة إلى الحاكم بأمر الله .

واشتغلوا بالحساب والجبر والهندسة ، بعد ما نقلوا عن اليونانية بعض كتبها ، واشتهرت كتب الخوارزمى فى الجبر ، والمقابلة ، حتى يظن بعضهم كلمة « اللوغارتم » محرفة عن الخوارزمى . وألف أبو حنيفة الدينورى كتاباً عظيما فى النباتات ، وصفها وصفاً دقيقاً . ولكن ، والحق يقال ، كان اشتغالهم بالعلوم أقلّ من اشتغالهم بالآداب ، كما سنفصل ذلك فى الخاتمة إن شاء الله .

فأما ابن الهيثم فهو نموذج للعالِم الإسلامى فى القرون الوسطى ، كما أنه نموذج لما زاد فلاسفة المسلمين على اليونانيين . وهو الحسن أبو على بن الحسن بن الهيثم . وُلد حوالى سنة ٣٥٤ هـ . وكان أول أمره بالبصرة . وعنى بتحصيل العلم

والفلسفة فى عصره من هندسة ومخروطات وجبر وحساب مثلّثات ، وأرتماطيقا وما يتصل بها من نظريات هندسية ، وميكانيكا ، ومراكز الأثقال ورفع الأثقال . وأخذ يدرس كل ما وقعت عليه يداه من كتب متقدمة . ولم يكتف بقراءة الكتب الفلسفية ، بل عنى بتلخيصها والتصنيف فيها ، ويقول : « أنا ما مدّت لى الحياة باذلا جهدى ، فستفرغا قوّتى ، إلا متوخياً أموراً ثلاثة : إفادة من يطلب الحق ويؤثره فى حياتى وبعد مماتى ، والارتياض بهذه الأمور ، وجعله ذخيرة وعدّة لزمان الشيخوخة وأوان الهرم » . وقد ألّف فى هذه المواضيع العلمية عشرات من الكتب بلغ ما يتعلق منها بموضوعات الفلسفة والعلم الطبيعى ثلاثة وأربعين كتاباً ، وما يتعلق منها بالرياضة والعلم التعليمى خمسة وعشرين ، أورد أسماءها ابن أبى أصيبعة فى كتابه طبقات الأطباء .

ولم يكتف بالتلخيص ، بل تحرر من التقيد بآراء السابقين ، فأدلى بآرائه الشخصية ، فألف مثلا كتاباً فى الرد على يحيى النحوى ، واستقل أيضاً فى الرياضة ، وزاد فى برهانها وتصحيحها وردّ الخطأ فيها . واستخدم علمه فى أمور إسلامية فى كتابه « فى سمت القبلة » .

وأهم ما امتاز به معرفة نظريات الرياضة . ومن أهم مميزاته تطبيق علمه الرياضى والهندسى على العمل . فيروى ابن القفطى أن الحاكم بأمر الله الفاطمى بلغه نبأ ابن الهيثم وعلوّ مقامه فى العلم التعليمى ، وما يقوله ابن الهيثم من أنه لو كان بمصر لعمل فى نيلها عملا يحصل به النفع فى كل حالة من حالاته . فقد بلغنى أنه ينحدر من موضع عال وهو فى طرف الإقليم المصرى ، فاستدعاه الحاكم ، وأرسل إليه أموالا وهدايا . وخرج الحاكم نفسه لاستقباله خارج مدينة القاهرة ، وأكرم وفادته ، وأمر بإكرام مثواه . فلما استراح طالبه بما قال فى أمر النيل ، وأرسله

إلى أعلى النيل مع جماعة من الصناع . فلما وصل إلى الشلال ، لم يجده ، كما بلغه من قبل ، موضعاً عالياً ينحدر منه الماء ، ولم يجد الأمر متفقاً وفكرته التى خطرت له . فعاد إلى القاهرة وهو فى أشد حالات الخجل والانخذال ، واعتذر إلى الحاكم . فقبل الحاكم عذره ، وولاه منصباً من مناصب الدولة . فتولاه وهو كاره له ، لأنه لم يكن يحب المناصب ، ثم ادعى الجنون ، حتى مات الحاكم . وتوفى بالقاهرة فى أواخر سنة ثلاثين وأربعمائة ، واستفاد الناس منه كثيراً . وكان رحمه الله ، متين الخُلُق ، جميل التواضع ، مع علمه وفضله . يقول ابن أبى أصيبعة : « إنه كان فاضل النفس ، وافر التزهد ، محبا للخير[1] » .

وابن الهيثم يبحث فى مسائل قد نظن أنها لم تبحث فى عصره ، مثل وصوله إلى نتائج باهرة فى علم الضوء ، وامتداد الضوء على السموات المستقيمة ، وفى الأضواء العرضية والمنعكسة ، وامتزاج الألوان . وانعكاس الضوء وانعطافه . الخ .

وأما البوزجانى فقد اشتهر بالرياضة ، وله فضل فى تقدم العلوم الرياضية . وهو محمد بن محمد بن يحيى بن إسماعيل ، وُلد فى بوزجان سنة ٣٢٨ هـ . وانتقل إلى بغداد فى سنّ العشرين ، وتوفى سنة ٣٧٦ هـ . وقد اشتهر كثيراً فى علمى الفلك والرياضيات ، وله فيهما مؤلفات . يقول بعض الإفرنج : « إن له فى الهندسة استخراجات غريبة ، لم يسبق إليها ، وله كذلك مبتكرات فى الأوتار » . وكتب فى الجبر ، وزاد على بحوث الخوارزمى ، وكتب فى العلاقة بين الهندسة والجبر . وله بحوث قيمة فى المثلثات . وأدخل تجديدات على القطاع . وعلى يده تقدمت نظريات المثلثات .

---

(١) انظر الكتاب القيم الذى وضعه الأستاذ مصطفى نظيف عن الحسن بن الهيثم .

ويظهر لى أنه هو الذى أورده أبو حيان التوحيدى فى كتابه الإمتاع والمؤانسة وأن أبا الوفاء طلب منه أن يؤلف له كتاباً يذكر له فيه ما دار بينه وبين ابن سعدون من أحاديث وسمر فألَّفه له .

واشتهر فى أوائل القرن الرابع أيضاً الخازن ، وهو محمد بن حسن أبو جعفر . ويقولون إنه أول من حول المعادلات التكعيبية بواسطة قطوع المخروط ، وله بحوث كثيرة فى المثلثات .

واشتهر فى هذا العصر أبو عبد الله البتّانى فى الفلك والرياضيات ، وكان من أقدر علماء الرصد . وُلد فى بتّان من ناحية حرّان سنة ٢٤٠ هـ ، وتوفى سنة ٣١٧ . وكان له باع طويل فى الهندسة وهيئة الأفلاك ، وحساب النجوم . وله مؤلفات عدة أهمها زيجه المسمى « زيج الصابى » وهو أصح الأزياج . وقد ترجم إلى اللاتينية وطبع بروما سنة ١٧٩٩ م . وفيه بعض صور قيمة[(١)]

وأما الخازن فقد غمر ، ولم يعرف كثيراً ، لأنه اختلط اسمه بابن الهيثم لقرب التشابه بين اسميهما بالحروف اللاتينية . فاسم الأول : الهـازم ، واسم الثانى الـكازن .

واشتهر أيضاً فى العلم أميّة بن أبى الصلت ، كما اشتهر بالشعر . وقد حكى عنه ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء شيئاً كنا نظنه من أفـكار العصر الحديث ، وهى فـكرة رفع المراكب الغارقة من قعر البحار . فقد حكى عنه أن مركباً مملوءاً بالنحاس غرق قريباً من الإسكندرية ، فعزم أبو الصلت على رفعه ، فاجتمع بالأفضل أمير الجيوش ، ملك الإسكندرية ، وباحثه بمـا جال

(١) انظر كتاب تراث العرب العلمى فى الرياضـيات والفلك ، للأستاذ قدرى حافظ طوقان .

فى خاطره ، وطلب منه أن يهيئ له ما أراد ، فأحضر الأفضل لأبى الصلت الآلات اللازمة ، ولما تهيأت وضعها فى مركب عظيم ، هى موازاة المركب الذى غرق ، وأرسى إليه حبالا مبرومة من الإبريسَم ، إذ لم تكن الحبال القوية المصنوعة من الأسلاك المعدنية معروفة ، فأمر قوماً لهم خبرة فى البحر ، أن يغوصوا ويوثقوا ربط الحبال بالمركب الغارق ، وكان قد صنع آلات بأشكال هندسية ، لرفع الأثقال فى المركب الذى هم فيه ، وأمر الجماعة بما يفعلونه فى تلك الآلات . ولم يزل شأنهم ذلك ، والحبال ترتفع إليهم أوّلاً فأوّلا ، وتنطوى على دواليب بين أيديهم ، حتى بان لهم المركب الذى كان قد غرق ، وارتفع إلى قريب من سطح الماء . ثم عند ذلك انقطعت الحبال ، وهبط راجعاً إلى قعر البحر . ولقد تلطف أبو الصلت جداً فيما صنعه ، وفى التحيُّل لرفع المركب ، إلا أن القدر لم يساعده . وحنق عليه الملك لما غرّقه من الآلات ، وأمر بحبسه ، وبقى فى الاعتقال إلى أن شفع فيه بعض الأعيان ، فأُطلق . وكان إلى علمه شاعراً رقيقاً . شعر فى الهيئة التى مهر فيها .

كذلك اشتهر فى الرياضيات عمر الخيَّام الأديب المعروف ، وقد انعزل عن الناس ، وانعكف على البحث بالدراسة ، وألّف فى الجبر والفلك ، واستعمل كثيراً من المعادلات التى لم تكن معروفة من قبل ، وربط بين الجبر والهندسة ، وقسّم المعادلات إلى أقسام متنوّعة ، وحصرها .

ووُجد فى كتب الخيَّام قانون لحلّ المعادلة ذات الدرجة الثانية ، وله براعة أيضاً فى الفلك ، حتى إن السلطان ملك شاه ، دعاه لمساعدته فى تعديل التقويم السنوى .

* * *

ومما ساعد العرب على التوسع فى العلوم أنهم حينما فتحوا بلاد فارس والشام ، رأوا فيها خزائن من العلوم اليونانية ، قد نقلت إلى اللغة السريانية ، فنقلوها إلى اللغة العربية ، وخاصة ما لم يكن نُقل من قبلُ . ثم أخذوا يدرسونها وساروا بها إلى الأمام . بل لم يكتفوا بالنقل عن السريانية ، فتعلم بعضهم اللغة اليونانية . والدليل على ذلك المعاجم للغة اليونانية والعربية .

وكانوا فى كل مدينة كبيرة يحلونها ينشئون فيها المكتبات والمختبرات والآلات . وزادوا على العلوم اليونانية تجاربهم الشخصية من استخراج المجهول من المعلوم ، والعلل من المعلول ، وعدم التسليم لما لا يثبت من غير تجربة ، كما نجد ذلك من قديم فى كتاب الحيوان للجاحظ ، فهو يخطئ أرسطو فى مسائل كثيرة ، وربما فضّل عليه عربيا بدويا .

وعرف العرب تركيب النار اليونانية واستخدموها ، وقذفوا بها فى شتى الطرق ، وألقوا بها الرعب فى قلوب الصليبيين . وربما كانوا هم مخترعى البارود ، كما قال ذلك كثير من المستشرقين .

فقد ذكر بعض المؤرخين أن أول معركة استُعمل فيها البارود كانت على يد الأمير يعقوب حين حاصر مدينة المهدية سنة ١٢٠٥ م . قالوا : « فضرب أسوارها بمختلف الآلات والقنابل ، وضربها بآلات لم يرها الناس من قبل ، فكانت كل واحدة منها ترمى قذائف كبيرة من الحجارة ، وقنابل من الحديد ، وتسقط فى وسط المدينة » . وقد روى أن بعض الإنجليز شاهد ذلك ، فنقل هذا الاختراع إلى بلادهم فوراً .

هذا إلى كتب العرب الكثيرة فى النباتات ، وفى المعادن ، واستخدموا النباتات فى الطب ، وزرعوا النباتات الطبية . وترجمت أكثر كتب الرازى إلى

اللغــة اللاتينية ، وكانت كتبه مع كتب ابن سينا أساساً للتدريس فى الجـامعات الأوربية . واشتهر أبو القاسم القرطبى بالجراحة ، ووصف عملية سحق الحصاة فى المثانة وإخراجها .

وأنشأ العرب فى ذلك العصر وقبله كثيراً من المـارستانات . واكتشف الأطبـاء كثيراً من النباتات التى فى بلادهم لم يكن يعرفهـا اليونان . وعرفوا الكاويات والفتائل ، والبنج الذى سموه « المرقد » وقالوا : « إن هنالك عمليات جراحية ، تحتاج لتنويم المريض ، حتى يفقد وعيه وحواسّه » .

وعلى الجملة ، فقد مهر العرب فى العلوم من حساب وجبر وهندسة ، وفلك ، وميكانيكا . وأخذوا علوم اليونان والهنود ، ودلتهم تجربة حياتهم الخـاصة على اكتشاف أشياء لم تكن معروفة عند اليونان ، وقد اعترف كثير من المستشرقين العدول بابتكاراتهم أشياء كثيرة ، لم يعرفها اليونان ولا الهنود . أما الذين غمطوهم حقهم فقد حملهم على ذلك تعصبهم ضدهم .

ثم أصاب العلماء من بعدُ ، ما أصاب الأدب ، فلم ينبغ بعـد هذا القرن إلا القليل النادر ، مثل الطوسى الذى مهر فى الفلك ، وشهر بالرصد ، وإدخاله بعض الأعمال الهندسية التى لم تعرف من قبـله . وأوضح الطوسى كثيراً من النظريات الفلـكية ، وأصلح كتاب المجسطى ، وحرّره ، وكتاب الأُكَر . ومثل ابن الهائم الذى اشتهر بالرياضـيات ، وشاع اسمه فى مصر ، والشام ، وألف فى الجبر وفى ضرب أعداد خاصـة فى أعداد أخرى ، من غير إجراء عمليات الضرب ، كقوله « إن كل عدد يضرب فى خمسة عشر أو مائة وخمسـين ، أو ألف وخمسمائة ، يضاف عليه مثل نصـفه ، ويضرب حاصل الجمع فى عشرة فى الأول ، ومائة فى الثانى ، وألف فى الثالث » . وقد بعثهم على المهارة فى الرياضة حلّ مسائل معقدة

فى الميراث ، ومهارتهم فى الفلك حاجة الأمراء إلى الرصد ، عدا ما يجد الرياضى والفلكى من اللذة الذاتية . فالقول بأن العرب لم يخرجوا عما رسمه لهم اليونان والهنود والفرس قول جائر . والله لم يُعقم العقل العربى ، ولم يقصر الإنتاج على العقل اليونانى أو الهندى . بل جعل الأمر مشتركا كخيرات البلاد ، وجمال أهلها ، وحسن مقدرتها .

غاية الأمر أن الخلف لم يحسن استخدام ما تركه السلف . إنما أحسنه الغربيون فكانوا ينقبون عن كتب العرب ، ويترجمها من أتقن العربية ، ويبنون عليها ، كما اعترف بذلك كثير ممن استفاد منهم . ولما جاءت النهضة الحديثة ، اقتبسنا منها على أنها من صنع الأوربيين وأن آباءنا لا دخل لهم فيها وهكذا الشأن فى كل نوع من الثقافة .

المراجـع

الأستاذ سارتن : فى تاريخ العلوم .

» مصطفى نظيف : فى ابن الهيثم .

» حافظ قدرى طوقان فى كتابه : « تراث العالم العربى » .

» جورجى زيدان : فى تاريخ التمدن الإسلامى .

ابن أبى أصيبعة : فى طبقات الأطباء .

القفطى : فى تاريخ الحكماء .

الباب الثامن

التـاريخ والجغرافيا

التـاريخ

من قديم والعرب تعنى بالتاريخ ، لا بتاريخها وحدها ، بل بتاريخ الأمم قبلها ، فيحدثوننا أنهم كانوا يقرأون أخبار الفرس . و بعد مجيء الإسلام شجّع ما فى القرآن من قصص على تتبع ما فى القرآن من قصص الأنبياء ، كآدم ونوح عليهما السلام ، كما أن القرآن روى أحاديث كثيرة تاريخية ، كقصة حرب الفرس مع الروم . فاشتاقت نفوسهم للتوسع فى فهم هذه الآيات . وقد اتجهوا فى التاريخ إلى جمع الأخبار ، فحققوا الأماكن والأحوال التى كتبت بها الآيات ، أو قيلت فيها الأحاديث . وحملتهم أيضاً مسألة ضرب الخراج على البـلاد واختلاف المؤرخين فى شأنها : هل فتحت عنوة أو صلحا ، كما فعل البلاذرى المتوفى سنة ٢٧٩ . وعنى الخلفاء برواية تواريخ الملوك فى الأمم المختلفة ، وعدّوا قراءتها عظة واكتساب تجربة . وشاع بين الناس « علم الملوك والنسب والخبر ، وعلم أصحاب الحروب وكتب الأيام والسير ، وعلم الكتاب والحساب » . وإذ كانوا يرون أن التاريخ يفيد الفطنة وحسن التجربة ، حكى صاحب كتاب « تجارب الأمم » أن الخليفة المكتفى طلب من وزيره ، كتباً يلهو بها ، ويقطع بمطالعتها زمانه ، فتقدم الوزير إلى النواب بتحصيل ذلك ، وعرضه عليه ، قبل حمله إلى الخليفـة ، فجاؤوه ببعض الكتب ، وفيها شىء مما جرى فى الأيام السالفة من

وقائع الملوك ، وأخبار الوزراء ، ومعرفة التحيّل فى استخراج الأموال ، فلما رآها الوزير غضب ، وقال لنوابه : « والله إنكم أشد الناس عداوة لى . أنا قلت لكم : حصّلوا له كتباً يلهو بها ، ويشتغل بها عنّى وعن غيرى ، فقد حصلتم له ما يعرّفه مصارع الوزراء ، ويوجد له الطريق إلى استخراج الأموال ، ويعرّفه خراب البلاد من عمارتها . ردّوها ، وحصلوا له كتباً فيها حكايات تلهيه ، وأشعار تطربه » .

ولا تخلو كتب التاريخ من تملّق للخلفاء المعاصرين ، ففى الدولة العباسية تملّق المؤرخون للعباسيين ، وبالغوا فى عظمة عبد الله بن عباس وهكذا . روى أبو إسحاق الصابى « أن عضد الدولة ابن بويه أمره أن يؤلف له كتاباً فى أخبار الدولة الديلمية ، فألف له تاريخاً سماه « التاجى » ، فاتفق وهو يؤلفه أن دخل عليه صديق له ، فسأله عما يعمله ، فقال : أباطيل أنمقها ، وأكاذيب ألفقها » .

وإذا كان المؤرخ ذا مذهب دينى معروف ظهر ذلك فى تاريخه ، كما فعل صاحب الفخرى فى كتابه ، إذ كان شيعيا . وإذا كان سنياً تحامل على الشيعة ، والعكس . اللهم إلا القليل النادر الذى يحكمه الدين والضمير ، كالبلاذرى والطبرى .

ثم كثير من هؤلاء المؤرخين يؤخذ عليهم عدم تحرجهم من الألفاظ البذيئة والأقوال الجارحة ، إلا القليل منهم كابن خلكان .

وفى هذا العصر تقدم التاريخ وأصبح له منهج مرسوم بعد أن كان خبراً هنا وخبراً هناك . والمؤرخون فى هذا العصر كثيرون نكتفى منهم بثلاثة عظام : محمد ابن جرير الطبرى ، والمسعودى ، ومسكويه . وكلهم كتبوا حسْب السنين ، لا حسب الموضوع . فإذا حدثت جملة حوادث مختلفة فى أماكن مختلفة ، كان الذى يجمع بينها سَنَة حدوثها ، لا موضوعها . وهو من غير شك نظر بدائىّ ، مرّت به الأمم المختلفة من شرقية وغربية . فأما ابن جرير ، فقد مضت ترجمته

كمفسر ، ونتعرض له الآن كمؤرخ . ولد فى آمل : إحدى قرى طَبَرِستان ، و بدأ دراسته مبكراً ، حتى قالوا إنه حفظ القرآن وهو ابن سبع . ثم بعد أن تعلم على أبيه رحل إلى الرىّ ، ثم إلى بغداد .

وكان ينوى الأخذ عن أحمد بن حنبل ، لولا أن ابن حنبل مات قبل وصوله إلى بغداد . وعزم على السفر إلى مصر ، ولـكن عرّج فى طريقه على إحدى بلاد الشام ، ودرس بها الحديث . ثم سافر بعد ذلك إلى مصر ، ثم رجع إلى بغداد .

والحق أنه كان مثقفا ثقافة واسعة وعميقة ، هو فى التفسير حجة ، وفى التاريخ حجة ، وفى الفقه حجة ، وهو مع علمه الواسع قوىّ الخلق ، لا يحيد عن قول ما يعتقده حقاً ، ولو رجم بالحجارة ، ولو تألّبَ الناس عليه جميعا .

والإنسان يعجب من برنامج تفسيره الذى يبلغ ثلاثين جزءاً ، وتاريخه الذى يبلغ ثلاثة عشر جزءاً : كيف وجد الزمن ، وكيف استطاع التأليف . ولـكن يفسر ذلك حبه الأصيل للعلم ، وعزوفه عن الدنيا ومباهجها . وهو يرفض وظيفة تعرض عليه ، ومالاً يقدَّم له . وحتى الشعر كان فيه أديباً كبيراً ، وكان كما قالوا نحوياً صرْفياً رياضياً ، دارساً للطب . ولم يقبل عقله الواسع أن يتبع مذهبا معيناً ، فاجتهد أن يكون له مذهب خاص ، ولو عادى فقهاء المذاهب الأخرى وخصوصاً الحنابلة .

جمع الطبرى مواده من الأحاديث وأقوال من قبله من المؤرخين ، مع التحرِّى الشديد لصدق ما يجمع ، وقد مكنته فارسيته الأصلية من أن يطلع اطلاعاً واسعاً على أخبار الأمم .

نعم : إن كثيراً من تاريخ الأمم القديمة ليس إلا خرافات وأوهاماً ، ولـكن

عذره فى ذلك أن هذا هو ما كان معدوداً فى وقته . وليس له من الوثائق ما يستطيع أن يذكر به التاريخ الصحيح . وقد وصل إلينا كتابه « تاريخ الرسل والملوك » فقد قالوا : إنه كان طويلا ، ولكنه رأى الناس لا يصبرون على قراءته ، فاختصره فى هذا الذى بين أيدينا ، وقد وصله إلى آخر حياته سنة ٣١٠ هـ . وهو أحسن ما يكون إذا تعرّض لتاريخ الفرس ، وتاريخ الإسلام ، لأن الموادّ عنده غزيرة . ثم أكمله بعض تلاميذه .

والطبرى يروى عن الحادثة الواحدة آراء كثيرة فيها ، متأثرا بمنهجه التفسيرى . فهو فى كل آية ينقل آراء الصحابة والتابعين فيها . ولكنه كان ذا رأى ناضج ، فهو يستطيع أن يرجح بعض الآراء على بعض . وقد عُنى الناس بتاريخه كثيراً ، حتى ليكاد يكون عماد كل مؤرخ بعده . ودليل العناية به أنه تُرجم من قديم إلى اللغة الفارسية ، ووضع له ذيول مختلفة . وله كتاب آخر فى تاريخ الرجال الذين ورد ذكرهم فى أحاديثه . وكما اعتمد على كتب من قبله ، اعتمد أيضاً على الأحاديث الشفوية من الناس الذين يوثق بهم كأبى مِخْنف ، وعمر بن شَبَّة وسيف بن عمر وابن طيفور وغيرهم . ويظهر أنه بعد جمعه هذه الوثائق والأخبار رتبها وألفها . وكتابه هذا مع أنه تاريخى فى أصله ، فالقارئ له يقف على ثروة كبيرة فى الأدب ، لأنه فى حكايته للروايات المختلفة يقصها فى لغة رصينة ، بليغة ، غايةٍ فى القوّة .

وهو جرىء فى قول الحق ، يتعرض لذكر أشياء قد لا يرضى عنها العباسيون أنفسهم . وهم الخلفاء ذوو السلطة . وإن أخذنا عليه شيئاً ، فهو أنه يكثر من ذكر الحروب والوقائع الحربية ، وسِيَر الخلفاء . ولا يعرض إلا لماماً لذكر الأحداث الاجتماعية ، والمسائل الاقتصادية .

وقد طمح كثير قبله إلى كتاب فى التاريخ العام ، ولـكن ذلك لم يتسنّ لأحد غير الطبرى فقد ألّف بعضهم كتباً فى التاريخ الخاص ، كما فعل وهب بن منبّه فى تاريخ اليمن ، وكما فعل حمزة الأصفهانى فى تاريخ الفرس ،وكما فعل بعضهم فى تاريخ السيرة النبوية ، وكما فعلوا فى تاريخ قبائل العرب فيما سموه « الأيام » .

أما التأليف فى التاريخ العام فلم يقدر أحد عليه . وجرّد الطبرى نفسه لذلك ، فنظر إلى التاريخ نظرة عامة منذ الخليقة إلى آخر حياته . وقدساعده على ذلك ما كتبه محمد بن إسحاق . فكان واسع العلم ، بالسيرة ، وبالمغازى ، واعتمد فى كثير من أقواله على كثير من العبرّيين كوهب بن منبه ، كما اعتمد على السيرة التى وضعها أبان بن عثمان بن عفان ، وعاصم بن عمر بن قتادة ، وابن شهاب الزهرى ، وغيرهم ، كما ساعده وجوده فى العراق ، وكانت الثقافة فيه واسعة ، وكان لعلماء الحديث فضل كبير فى تدوين الأحاديث المتعلقة بالمغازى والسيرة . وكان لابن شهاب الزهرى الفضل فى المقارنة والتوفيق بينهما ووضعها فى نسق واحد .

وقد غلبت على الطبرى طريقة المحدثين ، فهو يروى الحادثة عن جملة من الرواة ، ويترك للقارئ اختيار أحسن الآراء كما فعل فى التفسير . وكان ممن أخذ عنهم الإمام الشافعى ، نقل عنه كثيراً بواسطة تلاميذه كيونس بن عبد الأعلى المصرى المتوفى سنة ٢٦٤ هـ .

وهذه الطريقة التى اتبعها الطبرى فى التاريخ بالرواية عن مالك بن أنَس ، كما روى عن الأوزاعى هى نفس الطريقة التى اتبعها فى التفسير . وأخذ فقه الشافعى عن الربيع بن سليمان المرادى المصرى المتوفى سنة ٢٧٠ ، كما أخذ فقه الإمام أبى حنيفة وأصحابه من كبار رجال المذهب كالحسن ابن زياد اللؤلؤى . وكما اعتمد فى كتابة التاريخ على الصحف والمؤلفات قبله ، اعتمد أيضاً على الروايات التى

أخـذها عن شيوخه ، وخصوصاً فى السنين الأخيرة من كتابه ، فيقول مثلا ذكر لى بعض أصحابى ، أو ذكر لى جماعة من أصحابنا ، أو أخبرنى جماعة من أهل الخبرة ، أو ذكر هذه القصة بعض أصحابنا عمّن حدّثه أنه حضر .

و إذا ذكر روايات كثيرة عن حادثة أتبعها بمثل قوله : قال أبو جعفر « واختلف السلف من أهل العلم فيه — ذكر من قال ذلك — فقال بعضهم ... وقال آخرون ... وأحياناً يقول والصحيح عندنا ذلك ... أو وأنا أشك فى ذلك » . و إذ كان الطبرى محدّثاً وفقيهاً ، فقد أثر ذلك فى كتابه .

وأما المسعودى فكان ذا منحًى آخر يغاير منحى الطبرى . ولـكلّ فضل . فألف لنا المسعودى كتابى « مروج الذهب ، والتنبيه والإشراف » ، وضاعت له كتب كثيرة ، وهو ليس مؤرّخا فقط ، بل هو مؤرخ وجغرافىّ معاً ، فهو رحّالة سائح وُلد فى بغـداد من عائلة عربية ، ورحل وهو شاب ، إلى فارس ، ثم إلى الهند ، وزار « مُلْتان » والمنصورة . وصحب بعض التجار فى سفرهم فى بحر الصين ، ورجع إلى زنجبار ، ثم رجع إلى عمان ، ثم سافر إلى قَزْوِين ، وطَبَرِيّا ، وفلسطين ، ثم زار أنطاكيا ، وساح فى بعض بلاد سورية ، ثم عاد إلى البصرة . ثم عاد إلى سوريا . ورؤى بعد ذلك فى الفسطاط ، وهكذا كان لا يستريح من الأسفار .

ولم تكن أسفاره للنزهة ، بل كانت لمعرفة الأقطار وأخبارها . و إذا قارنّا بينه و بين المقدسى والبيرونى وجدناهما أدقّ وأعمق .

و يدل كتابه على معرفة واسعة باللغة والعادات والتقاليد والأدب والأخلاق والسـياسة . يقول فى أول كتابه مروج الذهب : « إننا صنّفنا كتابنا فى أخبار الزمان ، وقدّمنا القول فيه فى هيئة الأرض ومدنها وعجائبها ، وبحارها وأغوارها ، وجبالها وأنهارها ، و بدائع معادنها . . ثم أتبعنا ذلك بأخبار الملوك الغابرة ، والأمم

الدائرة ... ثم أتبعناه بكتابنا الأوسط فى الأخبار على التاريخ ومَن دَرَج فى السنين الماضية ... ونعتذر من تقصيرٍ إن كان ، ونتنصّل من إغفال ، أو عرْضٍ لما قد شاب خواطرنا ، وغمر قلوبنا ، من تقاذُفِ الأسفار ، وقَطْع القفار ، تارة على مَتْن البحر ، وتارة على ظَهْر البرّ ، مستعلمين بدائع الأمم بالمشاهدة ، عارفين خواصّ الأقاليم بالمعاينة ، فتارة بأقصى خراسان ، وتارة بأواسط أرمينيا ، وأذَرْبيجان ، وطوراً بالعراق ، وطوراً بالشام . فَسَيْرى فى الآفاق ، سُرَى الشمس فى الإشراق . كما قال بعضهم :

تيمَّمَ أقطارَ البلادِ فتـــارةً لدى شرقها الأقصى وطوراً إلى الغرب
سُرَى الشمس لا ينفكّ تقذفه النَّوَى إلى أُفُقٍ ناء يقصِّر بالرَّكْبِ

وفاوَضْنا أصنافَ الملوك على تغايُر أخلاقهم ، وتبايُنِ هممهم ، وتباعُد دارهم » .
وهكذا يصف متاعبه فى رحلاته ، ودقّته فى أخلاقه ، واطّلاعه الواسع على ما أُلّف من قبله ، وتعديد كتبه التاريخية والجغرافية .

ويمتاز المسعودى فى كتبه بالتفاته الكثير إلى الأمور الاجتماعية كبحثه فى ديانات العرب وآرائها فى الكيمياء والهواتف والقِيان والزجر والسانح والبارح ، ومقارنته بين العجم والعرب ، الخ الخ .

وعند كل مَلِكٍ يذكر طرفاً من أخباره الخاصة وسيرته الداخلية ، وملامحه وتقاطيع وجهه الخ ، مما لا نجد له نظيراً فى الكتب الأخرى . فهو مؤرّخ مسلّح بكثير من الوثائق التى تلزم المؤرخ .

وأن مسكويه أو ابن مسكويه ، فلم يُعْن بالرحلات ، كما عُنى الطبرى والمسعودى ، ولكن نوع معيشته وتقلباته فى حياته ، وفارسيته الأصيلة ، ودراسته للفلسفة اليونانية ، واشتغاله بالكيمياء ، ومعاشرته للوزير المهلبى ، ومخالطته

لعضد الدولة وابن العميد ، وما حصل له من أزمات سياسية ؛ كل ذلك جعل منه رجلا مجرّباً حقاً . وقد خلّف لنا من ذلك كتابه « تجارب الأمم » يقصد منه إلى أن ما جرى على الأمم التى قبلنا والملوك والناس ، عبارة عن دَرْس وعظ وإرشاد . ولذلك يلتفت إلى ما لا يلتفت إليه غيره . ويقف عند أمير صغير قد يكون منه درس كبير ؛ كالذى يحكى لنا أن الأتراك كانوا يتعمدون أن يتخيروا من الخلفاء العباسيين حَدِيثى السنّ ، أو مَن فيهم بَلَهٌ وغفلة ، أو من يعكفون على الملاهى ، ثم يتعمدون ألاّ يطلعوه على كتاب جدّىّ ، حتى لا يحاسبهم على أعمالهم ، ونحو ذلك ، من طُرَفٍ لطيفة .

ولذلك كان له منحًى خاص غير مُنحَى الطبرى والمسعودى . والقارئ له يستفيد منه فوائد كثيرة .

وكان ذا شغف بالأمور السياسية والاجتماعية ، ومن آثاره التى وصلت إلينا كتاب «جاويدان خُرْدْ» ومعناه العقل الأزلى . وهو كتاب ألّفه العلماء القدماء بالفارسية ، يشتمل على حكم وآداب . عُنى به مسكويه ، فأتم ترجمته التى بدأ بها الحسن بن سهل ، ولخصه . وقد أعجب به لأن فيه نظرات دقيقة فى السياسة والاجتماع ، كتوصية أحد ملوك الفرس لولده وللملوك من خَلْفه ، « أخرج الطمع عن قلبك ، تحلّ القيد من رجلك ، الظالم نادم وإن مدحه قومه ، والمظلوم سالم وإن ذمه ، والمقتنع غنىّ وإن جاع وعرى ، والحريص فقير وإن ملك الدنيا . من ظَلَم من الملوك فقد خرج من كرم المُلْك والحرية ، وصار إلى دناءة الشره والنقيصة ، والشّبه بالعبيد والرعيّة . استظهِرْ على مَن دونك بالفضل ، وعلى نظرائك بالإنصاف ، وعلى من فوقك بالإجلال . يقول المسيح عليه السلام : بماذا نَفَع امرؤ نفسه ؟ باعَها بجَمْع ما فى الدنيا ، ثم ترك ما باعها به ميراثا لغيره » .

وقد اختار فيه : حِكماً للفرس ، وحكما لليونان ، وحكما للعرب إلى غير ذلك .
فالظاهر أن مسكويه كان شغوفا بالفضائل ، شديد البحث عن خفايا السياسة ، يرى أنه محتاج إلى ذلك لمعونة من حوله من الملوك والوزراء ، وليكمل نفسه إذا كان يريد أن يحلى نفسه بكل فضيلة يعرفها ، ولا أظن ابن حيان وقد ذمّه إلا حاقداً عليه ، إذ كان يرى نفسه عالماً فاضلا وهو مع ذلك محروم حتى من الرزق الضرورى . فهو ينقم على كل من ناله خير ، وخصوصاً إذا كان من ينقم عليه دونه علما .

على كل حال إن التاريخ وإن تقدم فى هذا العصر ، فقد كان لا يزال فيه عيبان كبيران : الأول سيره فى الأكثر حسب السنين لا حسب الموضوع ، الثانى الاعتماد على الجزئيات لا على الكليات ؛ يضاف إلى ذلك أنه كان فى نظرهم سير الحروب والملوك والانتصارات ، أهم من سِيَر الشعوب والحياة الاجتماعية . ولذلك يتعب المؤرخ الحديث كثيراً إذا أراد أن يؤرخ مسألة اجتماعية . فهو مضطر أن يغربِلَ كثيراً ليعثر فى آخر أمره على درر .

الجغرافيـــا

فى هذا العصر حُبّب إلى الناس الهجرة من بلادهم ، والاطلاع على البلاد الأخرى ، شأن الأمم القوية فى أيام عزّها . أما الأمم الضعيفة ، فتحب مكانها ، وتلتصق بأرضها ، ولا تهتمّ بحياة غير حياتها . وكان يحمل على حبّ الهجرة شيئان : التجارة ، والعلم . أما التجارة ، فقد راجت فى هذا القرن ، وقام علماء الرحلات يضعون كُتُب الدليل لهذه الرحلات ، وقامت الحكومات لبناء رباطات ينزل فيها المسافرون و يتزوّدون منها . وكانت فى أصل وضعها نقطا عسكرية لحفظ الحدود ، من أن يتسرب إليها الأعداء ، أو نقطا بريدية . ثم أضافوا إليها غرضا آخر وهو معونة التجار . وكتب الدليل هذه ككتب الدليل اليوم ، تبين المسافات بين البلاد ، وأخلاق الأمم وعاداتهم ، واعتقاداتهم ، وما عندهم من أنواع السلع والمصنوعات ، والحاصلات الزراعية ، وما اعتادوه من مكاييل ومقاييس وأوزان ، وأسماء المشهورين من الناس فى كل قطر . ومن أحسن ما ألّف فى هذا العصر « كتاب أحسن التقاسيم ، فى معرفة أحوال الأقاليم » للبَشّارى المشهور بالمقدسى . فقد قطع كما يقول ألفى فرسخ ، وسافر إلى الصين وسرانديب . وككتاب « الأعلاق النفسية » لابن رُسْتَه ، والمسالك والممالك للإصطخرى ، والممالك للبكرى والمسالك والممالك لابن خُرْدَاذَبَة ، والبلدان لابن الفقيه إلى غير ذلك .

وأسّس المسلمون فى أيام عزّهم مراكز تجارية يحضر إليها التجار بسلعهم وأموالهم من مختلف الأقطار . وبها السماسرة ، يبيعون ويشترون فى مختلف الأقطار . وكان هناك صيارفة المال ولهم وكلاء ، يصرّفون الصّكوك ، ويحررون الحوالات ، لوكلائهم فى الأقطار الأخرى . وكان من أهم تلك المراكز جاوة .

وكانت مركزاً للبضائع الصينية ، وعَدَنْ ، وكازَرُون ، والعريش .

وذهبوا إلى بلاد روسيا ، و بلغوا كوتاهية ، وذهبوا إلى أقصى السودان ، وذهبوا إلى التتر لجلب جلود السَّمُّور ، ووصلوا إلى كانتون . وحيثما وصلوا إلى بلد ، تعلموا لغتها وعاداتها ، ونشروا لغتهم ودينهم واختلطوا مع أهلها بالزواج .

وحكى لنا المسعودى فى تاريخه قصصاً كثيرة عن حال هؤلاء الرحّالة ، كابن وهبان ، الذى كان غنياً كبيراً ، وتاجراً عظيما . وكان من أهل البصرة ، فرحل إلى سيراف ، ورحل منها إلى الهند ، ومنها إلى بلاد الصين . وأعمل الحيلة حتى قابل ملكها . وقد عاد لحدث أهلها بما رأى ، وحث أهله على الرحلات وتنظيم التجارات . وقد كانت لهم رحلات بحرية كالرحلات البرّية ، فأنشأوا المراكب الكبيرة للملاحة فى البحر الأبيض . وكانت مراكبهم شراعية . ويحدثوننا أن المركب كانت تحمل بضعة آلاف راكب ، وفيها حوانيت للبيع . وكانوا أحياناً يستحضرون أخشاب السفن من البندقية وفيها غوّاصون لسدّ الثقوب من الحبشة ، و بحارون لتنظيف السفن والمحافظة عليها وخدمتها ، وفيها حمام الزاجل لإرسال الأخبار .

وقال المسعودى : إنه قد ركب عدة من البحار ، كبحر الصين والروم . وأصابه فيها من الأهوال ما لا يحصى كثرة ، فلم يجد أهول من بحر الزّنج ، وكانت أقصى ما تصل إليه المراكب فى هذا البحر موزَنبِيق .

ومع أهوال البحار والبرّ تحملوا المشقات . حكى الإدريسى أنه فى القرن الرابع « خرج جماعة من مدينة لشبونة ، كلهم أبناء عم ، وأنشأوا مركباً ، وتزوّدوا فيه ، ثم ركبوا بحر الظلمات واقتحموه ، ليعرفوا ما فيه من الأخبار والعجائب ، وليعرفوا إلى أين انتهاؤه . وهم يسمّون المغرَّرين » .

ويظهر أنهم وصلوا إلى أمريكا ، لأنها نهاية بحر الظلمات هذا ، وهو المحيط الأطلنطى .

وأما العلم ، فلم تكن كتب الحديث قد تم تكوينها ، فكان العلماء يرحلون إلى الأقطار المختلفة يتلقون الحديث من أهلها . حتى ربما رحلوا المسافات البعيدة لرواية حديث واحد . وكان لا يُعتدّ بعالِم محدث أخذ حديثه من الكتب ، ويسمونه الصحفى ، أى أنه أخذ حديثه عن الصحف ، ويفتخر العالِم بكثرة مشايخه .

وهذا البيرونى أصله من خوارزم . وكان أهل بلده يسمونه الغريب ، لطول غربته ، بعد أن مهر فى علوم اليونان الرياضية والهندسية . ثم أكبّ على ما للهند من تلك العلوم ، وقارن ما عند الهنود بما عند اليونان ، وأبان عيوب هؤلاء وهؤلاء ، كما درس حالة الهند الاجتماعية وألّف فيها الخ .

وكان المقدسى أعجوبة الأعاجيب ، كما يحدثنا هو عن نفسه . دعاه إلى التأليف فى الجغرافيا أنه عزّ عليه أن يرى غيره قد اخترع فى العلوم وهو لم يخترع ، فاتجه إلى جهة لم يتجهها أحد من قبله . قال : « رأيتُ أن أقصد علماً أغفلوه وأتفرّد بفن لم يذكروه » . ويعنى بذلك أن ينص على اختلاف أهل البلدان فى كلامهم وأصواتهم وألسنتهم وألوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم وموازينهم ونقودهم وصفة طعامهم وشرابهم ، ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم ، ومراكز السعة والخِصْب ، ومواضع الضيق والجدب . وقال : « إن هذا علم لا بد منه للتاجر والمسافر ، والملوك والكبراء ، والقضاة والفقهاء » .

نعم إن بعضهم سبقه إلى ذلك ، ولكنهم قصّروا فكتبوا ما سمعوا ، ومنهم من اقتصر على المدن المشهورة ، ووضع لنفسه خطة : أن يرحل إلى الأقطار

الإسلامية و يشاهدها بنفسه ؛ فإذا دخل بلدة ، درسها أتم درس . وعلى حد تعبيره : ذاق هواءها ، ووَزَن ماءها ، ولقي علماءها ، وخدم ملوكها ، وجالَس القضاة والفقهاء واختلف إلى الأدباء والقرّاء ، وخالَط الزّهاد والمتصوّفين ، وحضر مجالس القصّاصين ، وتاجر فيها ، وعاشر أهلها ، ومسح إقليمها ، ودار على تخومها ، وفتّش عن مذاهب سكانها ، ودقّق النظر فى ألسنتهم وألوانهم » .

وعلى الجملة ، فلم يألُ الرجلُ جَهداً أن يحقق أغراضه النبيلة . قال : « ولم أترك شيئا مما يلحق المسافرين ، إلا وقد أخذت منه نصيبى ، فتفقّهْتُ وتأدَّبت ، وتزهدت وتعبدت ، وفقّهْت وأدَّبتُ ، وخطبتُ على المنابر وأذّنْتُ على المنائر ، وأمّمْتُ فى المساجد ، واختلفتُ إلى المدارس ، وتكلمتُ فى المجالس ، وأكلتُ مع الصوفية الهَرَائس ، ومع الخانقائيين الثَّرائد . ومع النّواتِىِّ العَصَائد ، وطردت فى الليالى من المساجد ، وتُهْتُ فى الصحارى . وسحتُ فى البرارى ، وصَدقت فى الورع زمانًا ، وأكلتُ الحرام عيانًا ، وصحبت عُبَّاد جبال لبنان ، وخالطت حيناً السلطان ، وملكتُ العبيد ، وحملت على رأسى بالزّنبيل ، وأشرفتُ مراراً على الغرق ، وقُطع على قوافلنا الطرق . وصاحبتُ فى الطرق الفُسَّاق ، و بعت البضائع فى الأسواق ، وسُجنت فى الحُبُوس ، وأخذت على أنى جاسوس . وكم نلتُ العزّ والرفعة ، ودبِّر فى قتلى غير مرة ، ورُميتُ بالبدع ، واتهمتُ بالطمع . وذَهَب لى فى هذه الأسفار فوق عشرة آلاف درهم . ولم تبق رخصة مذهب إلا وقد استعملتها ، وما سِرْتُ فى جادة ، و بينى و بين مدينة عشرة فراسخ ، إلا فارقتُ القافلة ، وانفلتّ إليها لأنظرها ، فكم بين من قاسى من الأسباب ، و بين من صنّف كتابه فى الرفاهية ووضعه على السماع ؟ » .

أما ما لم يشاهده ، فكان برنامجه فيه كما قال : « أن يسأل ذوى العقول من

الناس ، ومن لم يعرف بالغفلة والالتباس ، وأن يسأل عن الشيء الواحد جماعة مختلفة ، فما اتفقوا عليه أخذه ، وما اختلفوا فيه نبذه . وما حكوه ولم يقبله عقله أسنده إلى من رواه ، أو قال فيه زعموا . وحلاه بالخرائط الملونة . وقد ساح فى جزيرة العرب والعراق والشام ومصر والمغرب ، ثم فى بلاد فارس والسند والهند ولخص آراءه فى هذه البلاد كلها فقال : « أظرف الأقاليم العراق ، وهو أخف على القلب ، وأحد للذهن ، وبه تكون النفس أطيب ، والخاطر أدق ، وأغزرها فواكه . وأكثرها علماء ، وأجلة المشرق « الدولة السامانية » . وأكثرها صوفاً وقزًّا الديلَم ، « جُرجان وطبرستان » . وأجودها ألبانا وأعسالا وألذها أخبازاً وأمكنها زعفراناً الجبال « إقليم يشمل الرى وهمذان وأصفهان وقاشان » . وأسفلها قومًا وشرهم أصلا وفصلا خُوزستان . وأحلاها تُموراً ، وأوطؤها قومًا كِرْمان . وأكثرها فانيداً وأغزازاً ومِسْكا السند . وأكيسها قومًا وتجاراً فارس وأشدها حَرًّا وقحطا جزيرة العرب . وأكثرها بركات وصالحين وزهّاداً ومشاهد : الشام وأكثرها عُبّاداً وقرّاءاً وأموالا ومتجراً وحبوباً مصر . ولم أر أطمع من أهل مكة ، ولا أفقه من أهل يثرب ، ولا أعف من أهل بيت المقدس ، ولا آدب من أهل هراه ، ولا أذهن من أهل الرى ، ولا أصح موازين من أهل الكوفة ، ولا أحسن من أهل حمص ، ولا أشرب للخمور من أهل بعلبك ومصر » .

ولما جاء مصر أعجب بالفسطاط ، وقال إنه لم ير فى الأمصار آهَلَ منه ، وليس فى الإسلام أكبر مجالس من جامعه . وقد أعجب بأطعمتها وحلواها ، وكثرة بقولها وفواكهها ونغَمَةِ أهلها بالقرآن ، ودُهش من كثرة المراكب فى النيل ، ومن كثرة المصلين فى المساجد ، ولكن لم تعجبه كثرة البراغيث فيها ، وعدم عناية المسلمين بالنظافة ، وازدحام مساكنهم بالسكان ، وكثرة اختلافهم ،

وشرب الخمور ، وانتشار الفجور ، وكثرة السباب . وقال : « إن أهل الشام يعيبون على أهل مصر ثلاثة أشياء : أن مطرهم النَّدَا ، وطيرهم الحُدَا ، وكلامهم رِخْوٌ مثل النّسا » .

ومن أكثر ما امتاز به التفاته فى جميع ما دخله من البلاد إلى اللهجات واللغات والأساليب ، واختلاف الأقاليم فى استعمال بعض الكلمات فى قطر دون آخر :

وحكى عن قصة بعض ملوك خراسان إذ جمع رجالا من خمس كُورِ خراسان ، فلما حضروا تكلموا جميعاً ، فقال عن السِّجستانى ، هذا لسان يصلح للقتال . والنيسابورى يصلح للتقاضى . والمارُوزى يصلح للوزارة . والبلخى يصلح لكتابة الرسائل . أما لسان هراه ، فيصلح للكنيف .

ويحكى أن كل بلد تغير أسماء الأعلام على شكل خاص . ففى فارس يقولون بدلا من علىّ علكا ، ومن حَسن حَسَكا ، ومن أحمد حَمكا ، للتمليح . وفى همدان يقولون بدلا من أحمد أحمدْلا ، ومن محمد محمدْلا ، ومن عائشة عِشْلا . وفى ساوة يقولون فى أبى العباس أبو العباسان ، وفى حَسَن حسنان ، وفى جعفر جعفران . وهكذا .

وعلى الجملة ، فقد كان دقيق الوصف ، حَسَن الالتفات إلى دقائق الأمور . ومن أجل ذلك أفادنا فوائد كثيرة . ونكتفى به عن أمثاله فهو خيرهم .

والعرب منذ اتصلوا بالعالم الخارجي أثبتوا أنهم مرنون قابلون لمسايرة الحضارات المختلفة ، وأقلمتها ، وأنهم أذكياء ذوو حيوية وخيال فسيح . وقد كان العرب فى هذا العصر فى غاية من النشاط ، وحسن الرحلات . كوّنوا علائق تجارية فى أقصى الأرض ، فكوّنوا علائق بالصين و بعض البقاع الروسية و بعض

مجاهل أفريقيا . ولم تمنعهم صعوبة المواصلات وسوء الاستعدادات من الرحلات إلى أقصى البلاد . فسياحة التاجر سليمان لبلاد الصين ، ورحلته من سيراف الواقعة على الخليج الفارسى ، وقطعه المحيط الهندى ، حتى يبلغ شواطئ الصين معروفة مشهورة . وقد قضى المسعودى خمساً وعشرين سنة من حياته يطوف فى أرجاء الأرض وهو وصّاف للآفاق . يصف أحوال الأمم فى عهده ، ويذكر نِحَلَهم وعوائدهم ، ويصف البلدان والجبال والبحار والممالك والدول . وجاء ابن حوقل بعد أن تمت رحلات المسعودى ، فعمل رحلات أخرى وقال : « قد عملت كتابى هذا فى صفة أشكال الأرض ومقدارها فى الطول والعرض ، وأقاليم البلدان ، ومحل الغامر منها والعمران ، من جميع بلاد الإسلام ، بتفصيل مدنها ، وتقسيم ما تفرد بالأعمال المجموعة إليها . وقد جعلت لكل قطعة أفردتها تصويراً وشكلا يحكى موضع ذلك الإقليم ، ثم ذكرتُ ما يحيط به من الأماكن والبقاع ، وما فى أضعافها من المدن والأصقاع ، وما لها من القوانين والارتفاع ، وما فيها من الأنهار والبحار ، وما يشتمل عليه ذلك الإقليم من وجوه الأموال والجبايات والأعشار والخراجات والمسافات فى الطرقات الخ » . وقد رافق البيرونى الذى سبق ذكره السلطان محمود الغزنوى فى حملته على الهند ، فنشر ماشاهده فى بلاد السند . وشمالى الهند ، وحاول أن يصحح طريقة تلك البلاد ، مستنداً على حسابه الفلكى . وجاء بعده أبو الحسن . فجاب الأرض من شمال أفريقية إلى مصر . وعين مواضع واحد وأربعين مركزاً تعيينا فلكياً ، فهم وإن اتخذوا اليونان والرومان أدلاء لهم فى علم الجغرافيا ، فقد فاقوا أساتذتهم ، وزادوا عليهم . وصححوا لبطليموس مواضع المدن الكبيرة التى كان قد غلط فى تعيينها ، مع صعوبة التحديد إذ لم يكن عندهم

آلات كافية . فلم تزد أغلاطهم على درجتين ، بينما بطليموس كان يغلط أحياناً نحو ١٨ درجة .

وجاء الإصطخرى ، وكان معاصراً للمسعودى ، فألف كتاباً فى إحصاء ما فى الولايات من أنهار ومدن وجبال وغير ذلك . وغامر الإدريسى مغامرات خطيرة ، واشتهر بخريطته التى تحتوى على منابع النيل والبحيرات الاستوائية ، إلى كثير غيرهم . حتى إن أبا الفداء ذكر أسماء ستين عالما جغرافياً من الذين ظهروا قبله ، وأبدع ما كان لهم ربطهم الجغرافيا بالفلك . وهى نظرة كان يُظن أنها نظرة حديثة .

المراجع

المكتبة الجغرافية .

تاريخ الطبرى .

تاريخ المسعودى .

فتوح البلدان للبلاذرى .

تاريخ التمدن الإسلامى : لجورجي زيدان .

متز : ترجمة الأستاذ أبى ريدة .

حضارة العرب : لجوستاف لوبون : ترجمة الأستاذ عادل زعيتر .

مقال قيم : للأستاذ مصطفى جواد فى العدد الأول من مجلة المجمع العلمى ببغداد .

الباب التاسع

وسائل العلوم

نريد بوسائل العلوم الوساطات التى كانت تتخذ لنشر العلم وتعين عليه . وأهم ذلك المكتبات ومناهج الدراسة والرحلات والوراقة والخط . وسنتكلم كلمة عن كل منها :

فأما المكتبات فإن الدولة الإسلامية لما تقسمت أقساماً كثيرة ، واستقل كل قسم تنافس أمراء هذه الدول فى كل ما من شأنه تجميل دولهم ، من الحرف الدقيقة ، ونتائج الفنون الجميلة ، والشعراء والعلماء والفلاسفة وغير ذلك . حتى إذا ظهرت حرفة جميلة تسابق هؤلاء الأمراء فى اقتنائها . وتاريخ المتنبى مثلا يدلنا على هذه المسابقة . فسيف الدولة يحرص عليه ، لأنه له بمثابة جريدة اليوم تشيد بذكره ولما وصل إلى كافور بمصر حرص عليه ، ولما وصل إلى عضد الدولة اعتز به . وكان من موضوع هذه المسابقات المكتبات ، فكل أمير كان له مكتبة عظيمة يفتخر بها ، ويسعى فى تنميتها . ويحدثوننا أن الحكم صاحب الأندلس بعث رجالا إلى جميع بلاد الشرق ، ليشتروا له الكتب عند أول ظهورها ، فقالوا إن فهرس مكتبته كان يتألف من أربعة وعشرين كراسة ، كل كراسة عشرون ورقة ، ولم يكن فى تلك الكراسات إلا أسماء الكتب .

وفى الدولة الفاطمية كان الخليفة العزيز بالله ، المتوفى سنة ٣٨٦ يقتنى الكتب ، ويحفظها فى مكتبته . وذكر عنده كتاب العين للخليل بن أحمد ، فأمر خزّان دفاتره فأخرجوا من خزائنه نيِّفاً وثلاثين نسخة ؛ منها نسخة بخط

المؤلف . وحمل إليه رجل نسخة من تاريخ الطبرى اشتراها بمائة دينار ، فأمر العزيز الخزّان فأخرجوا ما ينيف على عشرين نسخة ، منها نسخة بخط الطبرى . وذكر عنده كتاب الجمهرة لابن دريد ، فأخرجوا من الخزانة مائة نسخة[1] .

ووصف المقدسى خزانة كتب عضد الدولة ، فقال : « إنها حجرة على حدة ، عليها وكيل وخازن ومشرف من عدول البلد ، ولم يبق كتاب صنّف إلى وقت عضد الدولة من أنواع العلوم إلا وحصّلة فيها . وهى أَزَجٌ طويل ، فى صُفّةٍ كبيرة ، فيه خزائن من كل وجه . وقد ألصق إلى جميع حيطان الأَزَج والخزائن بيوتا طولها قامة ، فى عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوّق ، عليها أبواب تنحدر من فوق ، والدفاتر منضدة على الرفوف ، لكل نوع بيوت ، وفهرستات . فيها أسامى الكتب ، لا يدخلها إلا كل وجيه[2] » .

ونحن نعلم أن خازن هذه الخزانة كان ابن مسكويه ، وهو ما هو فى العلم وسعة الاطلاع .

وكان لسيف الدولة خزانة كتب كبيرة ، عليها الخالِدِيّان ، وهما الشاعران المشهوران .

ويحدثنا المعرّى فى رسالة الغفران أنه وهو فى بغداد كان يزور مكتبة أَرْدَشير ، وكان على المكتبة فتاة سوداء تعير الكتب وتحضرها إلى كثير من أمثال ذلك . هذا إلى أن كثيراً من الأغنياء والوزراء كانت لهم مكتبات خاصة

---

(١) المقريزى ج ١ ص ٤٠٨ .

(٢) المقدسى ص ٤٤٩ .

كابن العميد وزير عضد الدولة ، كان له مكتبة ، فلما نكب حمد الله كثيراً على أنه بقيت له مكتبته لأنها أهم شيء عنده .

وكان ابن مسكويه فى بعض الأوقات خازناً لمكتبته . وكان فيها كل علم وكل نوع من أنواع الحكم والآداب ، يحمل على مائة وَقْر . وكان كذلك للصاحب بن عباد مكتبة ، حتى إنه لما استدعاه السلطان نوح بن منصور السامانى ليولّيه وزارته ، كان مما اعتذر به أن عنده من كتب العلم ما يحمل على أربعمائة جمل أو أكثر . وكان فهرس كتبه يقع فى عشرة مجلدات .

وحكوا أن علىّ بن يحيى المنجم كان ممن جالس الخلفاء ، وكانت له خزانة كتب عظيمة فى ضيعته . وسماها خزانة الحكمة . وكان يقصدها الناس من كل بلد ، فيقيمون فيها ويتعلمون . والكتب مبذولة لهم ، والصيانة مشتملة عليهم ، والنفقة فى ذلك من مال على بن يحيى . وحكوا أنّ أبا معشر المنجم المشهور قدم من خراسان يريد الحكة وهو لا يحسن كبير شىء من النجوم ؛ فلما وصفت له هذه الخزانة ورآها ، هاله أمرها ، وأقام بها ، وأضرب عن الحج ، وتعلم فيها علم النجوم . وقالوا إن القاضى أبا مطرّف الأندلسى جمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل عصره فى الأندلس ، وكان له ستّة ورّاقين ينسخون له دائماً . وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس ، طلبه ليشتريه منه ، وبالغ فى ثمنه . وكان لا يُعِير كتابا من أصوله ألبتّه . فإذا سأله أحد ذلك ، وألحف عليه ، أعطاه للناسخ فنسخه ، وقابله ودفعه إلى المستعير .

* * *

فيستفاد من هذا وأمثاله أنه كان هناك مكتبات كثيرة فى جميع الأقطار

يغشاها الناس و يتعلمون منها ، حتى كان من العادات المأثورة أن كل جامع كبير يكون من مكملاته مكتبة كبيرة .

و إذا نحن علمنا أنه لم يكن فى ذلك العصر مطابع ، و إنما هناك مؤلفون يؤلفون ، ونُسَّاخ ينسخون ، أدركنا ما يقتضيه عمل مكتبة من الجهد العظيم ، والمال الوفير .

ولم تكن المكتبة مقصورة على الكتب ، بل كانت أحياناً مجتمعا يجتمع فيه طلّاب العلم والعلماء ، ويتداولون فيما بينهم المسائل العلمية ... وهذا ما جعل هذا العصر يزخر بالعلم والعلماء .

وكان بجانب هذه المكتبات العامة مكتبات خاصة لكل عالم تشمل على الكتب التى يحتاج إليها ، فالغنىّ منهم يطلب من الناسخين أن ينسخوا له الكتب التى يريدها ؛ والفقير ينسخ بنفسه .

ورووا عن السِّجستانى المحدّث أنه كان له كُمٌّ واسع وكم ضيِّق ، فسئل عن ذلك ، فقال « الواسع للكُتب والآخر لا أحتاج إليه » .

وروى عن أحد علماء أصبهان الأغنياء ، أنه أنفق فى شراء كتبه ثلاثمائة ألف درهم . وقالوا إن أبا يوسف القزوينى المعتزلى دخل بغداد ، ومعه عشرة جمال عليها كتب . وتفنّن بعضهم فى تجليد الكتب وزخرفتها ، والعناية بخطها ، وأحيانا تحلّى بالذهب . ويتنافس رواة الكتب فيما كتبه كبار الخطّاطين كابن مقلة وابن البوّاب . ومن ذلك الحين ظهرت وقفيات على المكتبات ، وعلى من يغشاها من فقراء القراء ، كما فعل العزيز بالله الخليفة الفاطمى إذ أجرى ألف دينار كل شهر على جماعة من أهل العلم والورّاقين والمجلّدين . وكانت المكتبات على وجه العموم تزوّد بالحبر والورق ، و بعض الأغنياء يتبرع بذلك حسبة لوجه

الله ، حتى يحكى ابن خلكان أنه فى إحدى مدارس نيسابور ، كان يوجد خمسمائة دواة معدّة لمن يريد أن يكتب فى المكتبة . ووجدت وثيقة مما ينفق على مكتبة فى القاهرة ، وهى دار العلم التى أنشأها الحاكم بأمر الله ، فإذا فيها :

دينار	
٩٠	للورق
٤٨	للخازن
١٥	للفراشين
١٢	للناظر فى الورق والحبر والأقلام
١٢	لمرَمَّة الكتب
١٢	ثمن ماء
١٠	« حصر
٥	« لُبُود للفرش فى الشتاء
٤	« طنافس «
١	لمرمَّة الستارة

* * *

أما طرق التعليم فكانت مختلفة . منها مكاتب أو كتاتيب للتعليم الابتدائى . وقد عقد ابن خلدون فصلا فى تعليم الأطفال ، واختلاف مذاهب الأمصار الإسلامية فى طرقه ، يستفاد منه أن المشارقة كانوا يبدأون بتعليم القرآن ، حتى يرسخ فى قلوبهم أول ما يرسخ ، ويجعلون عماد تعليمهم القرآن والكتابة .

أما أهل الأندلس فمذهبهم تعليم القرآن والكتابة ثم يخلطون فى تعليمهم للولدان رواية الشعر فى الغالب ، والترسل ، وأخذهم بقوانين العربية وحفظها ،

وتجويد الخط والكتابة ، إلى أن يخرج الولد من عمر البلوغ إلى الشبيبة ، وقد شَدا بعض الشيء فى العربية والشعر والبَصَر بهما . فبعد ذلك يعيدون النظر فى القرآن و يتفهمونه .

وقد روى ابن خلدون عن أبى بكر بن العربى فى رحلته أنه يرى رأياً يذهب فيه إلى البدء فى تعليم الحساب واللغة والشعر . ثم بعد أن يتقدم فى ذلك يبدأ فى تعليم القرآن لتكون قراءته لهم على فهم ، ثم يقول : « و يا غفلة أهل بلادنا . فى أن يؤخذ الصغير بكتاب الله فى أول أمره ، ويتعب فى أمر غيره أهمّ منه » . ونهى أن يخلط فى التعليم عِلمان إلا أن يكون المتعلم قابلاً لذلك لجودة الفهم والنشاط ، ومنها مدارس ومجالس للتعليم العالى .

وقد ذكر المقدسى أنه أحصى فى المسجد الجامع بالقاهرة وقت العشاء مائة وعشرين مجلساً من مجالس العلم . وربما كانت هذه المجالس أشبه ما تكون بحلقات الدراسة فى الجامع الأزهر ، لكل شيخ عمود . وكان جامع المنصور ببغداد أشهر مركز للتعليم فى المملكة الإسلامية ، لا يمنع الناس حر ولا برد ، حتى حكوا فى سنة ٣١٤ أن الهواء برد بَردا شديداً ببغداد ، وتساقط الثلج ، فجلس أبو ذَكَرَةَ فى وسط دِجلة على الجليد ، وأملَى الحديث .

وكان من أكبر العلماء على مذهب داود الظاهرى إبراهيم بن محمد نفطويه وكان يجلس إلى اسطوانة بجامع المنصور ، خمسين سنة لم يغيّر محله منها . و بعض هذه الحلقات كان للفقه ، و بعضها للنحو والصرف ، و بعضها للغة ، و بعضها للتاريخ . قالوا : وكان الفقهاء أكثر العلماء تلاميذ ، لأن الفقه يؤهل أصحابه لتولى مناصب يتعيَّشُون منها . وكانت أشهر الطرق طريقة الإملاء ، ولذلك سمى بعض الكتب بالأمالى ، كأمالى القالى ، وأمالى الزجاج ، وأمالى المرتضى .

يجلس الأستاذ وحوله الطلبة فيملى عليهم من علمه . ورووا أن الجُبّائى المعتزلى أملى مائة ألف ورقة وخمسين ، ومارئى ينظر فى كتاب ، وكان للمشايخ طرق مختلفة ، فمنهم من يُملى من عقله ، وهو الذى يتحكم فيما يمليه ، ومالا يمليه ، كأمالى القالى ، ومنهم من وثق بنفسه لدرجة أنه يترك الدرس للظروف ، فالطلبة هم الذين يسألون ، وهو يجيب على أسئلتهم . وكان المستملى يكتب أول الدرس « مجلس أملاه شيخنا فلان ، فى جامع كذا يوم كذا » .

وشاعت هذه الطريقة فى مجالس المتكلمين . فلما جاء القرن الرابع غلبت طريقة ثالثة وهى قراءة الكتب القديمة وشرحها . فهذا يقرأ كتاب سيبويه ، وهذا يقرأ كتاباً فى تفسير القرآن للفراء ، وهذا يقرأ مجموعة من أشعار الهُذليين ، وهذا يقرأ كتابا فى الحديث وهكذا . ومن طريف ما يروى لنا أن أبا عمرو المطرّف ألّف كتابا فى اللغة اسمه « الياقوت » قال : إنه ابتدأه يوم الخميس لليلة بقيت من المحرم سنة ٣٢٦ ، أملاه على الطلبة فى جامع المنصور ببغداد ارتجالا من غير كتاب ولا دستور . ومضى فى الإملاء مجلساً مجلساً إلى أن انتهى إلى آخره . ثم رأى الزيادة فيه فزاد أضعاف ما أملى ، وكتب هذه الزيادة أحد تلاميذه ، ثم قرأه عليه أبو إسحاق الطبرى ، وسمعه الناس ، ثم زاد فيه بعد ذلك . وقرئ عليه بالزيادة ، يوم الثلاثاء لثلاث بقين من ذى القعدة سنة ٣٢٩ وفرغ منه فى ربيع الثانى سنة ٣٣١ . وأحضر جميع النسخ التى كتبت فقورنت . ثم زاد المؤلف بعد ذلك أشياء أخرى . كتبها محمد بن وهب ، ثم جمع الناس ووعدهم بعرض الكتاب وتقريره وأن لا تكون بعدها زيادة .

وعلى الجملة فقد كانت المساجد والمكتبات والمكاتب هى أمكنة الدراسة .

هـذا عدا المجالس الخاصة فى بيوت العلماء والوزراء ، كمجلس أبى سليمان

المنطق فى بيته ، والوزير المهلبى فى بيته ، والوزير ابن سعدان فى بيته . يجتمع العلماء أو الأدباء مع رئيسهم ويفتتح الرئيس المجلس بمسألة حيثما اتفق لغوية أو أدبية ، أو نفسية ، أو اجتماعية ، فيجيب من حضر من العلماء ثم يتركون الحديث على سجيّته يتشعب إلى أن ينتهى المجلس . ويعلمنا أبو حيّان فى ذلك العصر طريقة أخرى للاستفادة كالتى اتبعها أبو حيّان مع ابن مسكويه ، فقد بعث أبو حيّان إلى ابن مسكويه بكتاب يشتمل على جملة أسئلة ، مما احتار فيها : بعضها لغوى ، وبعضها دينىّ ، وبعضها أخلاقى ، وبعضها اجتماعى . ووضع هذه الأسئلة فى كتاب سماه الهوامل . والهوامل هى الإبل المهملة السائمة ، فردّ عليه ابن مسكويه بكتاب يجيب فيه على أسئلته سؤالا سؤالا ، وسماه الشوامل ، كأنه شمل الهوامل وضبطها . فهذه طريقة أيضاً فى التعليم ، تدلّ على اهتمام المعلمين بأسئلة طلبتهم ، وإعداد الأجوبة على أسئلتهم ، كالدروس التى تلقى فى المسجد ؛ كما يدلنا ابن مسكويه على أنه كان يهتم بهؤلاء الطلبة .

ويستطرد أحيانا بالتنبيه على ضعف خُلُق الطالب ، ومعالجته حسبما يراه . ويدلنا أبو حيان أيضاً فى كتابه المقابسات على ما كان يثار فى مجلس أبى سليمان من مناظرات ومجادلات فى أنواع المشاكل التى كانت تعرض لهم . وكان يغلب على كل أستاذ ناحيته الخاصة ، فتغلب على أبى سليمان الناحية الفلسفية . وتغلب على الوزير المهلبى الناحية الفنية والأدبية ، وتغلب على الفقهاء الناحية الفقهية ، وعلى المحدثين ناحية الحديث ، وعلى مجالس الصوفية ناحية التصوف ، وهكذا من ثروة زاخرة متنوعة ، يصورها لنا المقابسات ، وما رُوى فى ترجمة الوزير المهلّبى ، وما يروى من مجالس الصوفية الخ .

وأحيانا يكون العلم بطريق المراسلة ، فيشتهر عالم بفنّ أو فنون فى الأقطار

الإسلامية فتأتيه الرسائل من جميع الأقطار ، تسأله فى مسائل هامة ، فى التفسير أو النحو أو الفقه ، فيجيب الأستاذ بأجوبة مختلفة ، كالذى روى لنا عن أسئلة عديدة وردت على السِّيرافى من ملوك الأقطار ، يسأل فيها عن مسائل فى النحو والصرف والتفسير ، وكما روى لنا عن أسئلة وردت من داعى الدعاة من مصر على أبى العلاء المعرى تسأله لِمَ كان نباتياً وحرّم على نفسه أكل الحيوان وقد أحله الله الخ . فأسئلة وأجوبة ومجالس خاصة وحلقات العلماء فى المساجد ، وكتاتيب ومكتبات مفتوحة يتلاقى فيها العلماء والطلاّب ويتساءلون ويتجاوبون ؛ كل هذه كوّنت حركات شديدة عنيفة فى نشر العلم ، وإخراج عدد كبير من العلماء . وربما لم يساوهم عصر آخر من العصور . ويتصل بذلك ما شاع فى هذا العصر والذى قبله من نَمَط « الإجازة العلمية » . وربما كان أول من اتبع ذلك المحدثون للدلالة على ثقتهم ، وهى أن يجيز ثقة من الثقات لغيره بأن يروى عنه حديثا أو كتابا ، ثم يعطيه مستنداً كتابياً على ذلك . وتسابق علماء الحديث فى أخذ هذه الإجازات عن شيوخهم ، فكان الطلبة إذا سمعوا حديثاً استكتبوا الشيخ إجازة . وكان الناس ينتهزون فرصة اجتماعهم بالعلماء ليقرأوا عليهم تصانيفهم أو تصانيف غيرهم ، ويفتخرون بأخذ كتابة منه . وكان العلماء قسمين : قسما يتشدد فلا يعطى إجازة إلا من سمع عليه ، ووثق به . وقسما متساهلا يجيز كل من أراد الإجازة ، ولو لم يسمع منه ، حتى كان بعض العلماء قبل وفاته يجيز جميع مسلمى عصره فى رواية الأحاديث التى كان يعرفها . وتفننوا فى الإجازة حتى جعلوها شعراً ، كالذى ورد فى ديوان صفىّ الدين الحلّى . واستمرّ هذا إلى عهد قريب منا ، فقد روى أن السلطان عبد الحميد أخذ إجازات فى الحديث من المرتضى الزَّبيدى صاحب كتاب « تاج العروس » .

* * *

وكانت العلاقة بين الأستاذ وتلاميذه علاقة الأب بابنه ، فكان الطالب يخدم أستاذه . وقد سمعنا فى عهدنا ممن شاهدناهم أن الطالب يغسل يد أستاذه ، بل ويُعد له حماره عند ركوبه ، ويجرى وراء الحمار . فكذلك كانت العلاقة فى العصر الذى نؤرخه .

وكثيراً ما كانت تحدث علاقات مصاهرة بين الأستاذ وتلميذه . وربما زاد ذلك الصوفية ، فقد طلبوا من المريد أن يكون بين أستاذه كالريشة فى مهاب الريح . وفى كتاب وفيات الأعيان قصص كثيرة من هذا القبيل .

وقد رووا أن أبا الزّناد كان يذهب إلى مسجد المدينة محاطاً بتلاميذه كأنه ملك . ويؤخذ من مجموع ما روى أنه لم يكن هناك منهج خاص ، بل كان الأستاذ مطلق الحرية يتكلم كما يشاء فى أى موضوع شاء .

وكان أكثر المعلمين يعلمون بأجر ، وقد رأينا قبلُ أن المبرّد كان يتقاضى أجراً على تعليمه ، وأن الزجّاج كان يعطيه درهما كل يوم . وربما كان علماء اللغة والنحو أكثر الناس استحلالا للأجر . أما المحدثون فكثيراً ما كانو يحدثون لوجه الله . وكان الفلاّح الذى يعطى ابنه لمعلم يضمن لمعلمه قوته .

على كل حال انتشرت المجالس على اختلاف أنواعها ، فى البيوت وفى المساجد — فى الأدب ، وفى الفلسفة . وكان بعض الأمراء والوزراء ذا ولع شديد بالعلم ومدارسته ، فأحيوا هذه العادة وشجعوها ، وساعد على انتشارها الخلافُ الذى كان بين المذاهب المختلفة من شيعة وسنية ، فرأوا أن هذه المجالس تقوم مقام الجرائد اليوم فى نشر الدعوة . فما أكثر ما عقد الفاطميون مجالس للدعوة ، وما أكثر ما رد عليهم السنيون . مثال ذلك ما كان من الوزير الفاطمى يعقوب

ابن كلّس فقد عقد مجلساً للمناظرة فى الفقه والأدب والشعر وعلم الكلام . وكان أصلهُ يهوديًّا ، ومثقفا ثقافة واسعة كثير المال يصرفه فى خدمة العلم . ونشطت حركة المناظرة والجدل حتى وُضع لذلك علمٌ سُمِّى علم آداب البحث والمناظرة ؛ وكان يحضر هذه المجالس بعض أهل الأديان الأخرى ، فنرى فى مجلس أبى سليمان المنطقى يحيى بن عدى النصرانى وغيره من أهل الأديان . ورووا أن يوحنا بن ماسويه كان يعقد مجلساً فى بغداد ، فيحضره العلماء على اختلاف مذاهبهم من فلاسفة وأطباء وأدباء ومتكلمين . وكان لأبى حامد الإسفرائينى مجلسٌ قالوا إنه يحضره ثلثمائة فقيه ؛ هذا غير مجالس الطرب مما كانت تُتَدَاول فيها الخمور وتتناشد فيها الأشعار وتغمر بالأزهار ، و يستحضر فيها الثلج بكثرة للشراب ، كالذى رُوِى عن الوزير المهلبى ، إذ كان يحضر فيه مثلُ أبى الفرج الأصفهانى وابن مسكويه أيام استهتاره وشبابه ؛ وغيرها . وقد ذكرنا قبلُ ما كان من إخوان الصَّفاء ، وانتشارهم فى البلاد ، ونُصح الرؤساء لأتباعهم أن يعقدوا مجالس خاصة ، كل أسبوع مرة ، أو كل اثنى عشر يوما مرة يتذاكرون فيها شئون العلم و يتدارسون فيها مراحل الدعوة .

ويظهر لما كثرت المناظرات والجدل لم تخل المناظرة من نزاع وهجاء وسباب ، مما يجب أن تتنزه عنه المساجد ؛ ففكروا فى أبنية خاصة تقام فيها هذه المناظرات ، وتنتقل إليها حركة التعليم . فكانت المدارس .

نعم ، كانت الكتاتيب منتشرة فى المدن والقُرى حتى من عهد الرسالة ؛ ولكن الدراسة العالية هى التى لم يكن لها مدارس خاصة ؛ و إنما كانت تُقام فى الجوامع كما ذكرنا — إلى هذا العصر . وقد ذكر بعضهم أن أول من بنى مدرسة للعلماء هو نظام الملك فى النصف الثانى من القرن الخامس : ولكن ثبت أنه قبل

ذلك وجدت مدارس كان من أولها مدارس نيسابور . يقول الحاكم النيسابورى المؤرخ : إن أول مدرسة هى التى بنيت لمعاصرى أبى إسحاق الإسفرائينى المتوفى سنة ٤١٨ هـ فى نيسابور وبُنيت مدرسةٌ أخرى لابن فَوْرَك ؛ ويقولون إن أبا بكر البستى المتوفى سنة ٤٢٩ هـ بنى لأهل العلم مدرسة على باب داره ، ووقف عليها جملة من ماله الكثير ؛ وكان هذا الرجل من كبار المدرسين والمناظرين بنيسابور ، وكان فى المجالس الكبيرة يجلس الأستاذ على مقعد مرتفع ليُسمع الحاضرين ، ثم إن المعيد يُعيد كلام الأستاذ حتى يسمعه من كان بعيداً عنه ، كل هذا حدث قبل نظام الملك ؛ أما مدرسة نظام الملك قد ضمت الكثيرين من كبار العلماء ، كالغزالى وغيره ، ويحكى الغزالىّ أنّ من أسباب اعتزاله التدريس ما غلب على أهل عصره من حب الجدل والمناظرة ، وأنهم لا يقصدون من هذه المناظرة وجه الله والوصول إلى الحق ، وإنما يرومون التعاظم وحب الغلبة والسيطرة على نظرائهم مما بعثه على هجر المدرسة واللجوء إلى التصوف ... ثم تتابعت المدارس على هذا المنوال ...

* * *

ومن الخطأ أن نظن أن حالة العلماء فى ذلك العصر كحالة عصرنا اليوم ، فإن المطبعة فى عصرنا قد قلبت الأوضاع وجعلت العلم ديموقراطياً ، وجعلت الشعوب هى التى تكافئ العلماء ؛ أما فى ذلك العصر فلم تكن مطابع ، وإنما الكتاب العظيم ينسخ الورّاقون منه عشر نسخ أو خمسين أو مائة لا تسمن ولا تغنى من جوع . فلم يكن التأليف مصدر ثروة ، إنما مصدر ثروة العلماء والأدباء هو اتصالهم بالخلفاء والأمراء ؛ أما من لم يتصل بهم وبعدُ عنهم ، فمصيره الفقر ، إلا أن يكون ذا ثروة موروثة . هذا أبو العلاء المعرى يعيش طول السنة على ثلاثين ديناراً كانت وقفاً

عليه . ويُنتدبُ بعضهم للتعليم الخاص ولكن هذا لا يُجزىء ... فالذين اتصلوا بالخلفاء والأمراء سعدوا واطمأنوا على رزقهم ، كابن دريد المتوفى سنة ٣٢١ هـ ، إذ أجرى الخليفة المقتدر عليه خمسين ديناراً فى كل شهر ؛ وسيفُ الدولة ابن حمدان أجرى على الفارابى أربعة دراهم فى كل يوم لأنه فيلسوف ، أما المتنبى فمنح الآلاف ... ويحكون أن أبا بكر البصرى كان يبيعُ الصبغَ بنفسه أو يعمله فى الحانوت ليستطيع أن يتعيش ؛ وكان حانوتهُ مجمعَ الحُفّاظ والمحدثين ، وأنّ أبا العباس الخياط الفقيه الشافعى المصرى المتوفى سنة ٣٧٣ هـ كان واسع المعرفة بالفقه ، وكان قوتهُ وكسبهُ من خياطته ؛ فكان يخيط قميصاً فى جمعة بدرهم ودانقين ينفقها فى طعامه وكسوته . وكان هناك عالمٌ آخر فى مصر أيضاً يقتاتُ مما يبيع من الخِلَع . ويقول ابن فارس اللغوى المشهور :

إذا كلفت فى حاجة مُرسلاً وأنت بها كاف مغرم
فأرسل حكيما ولا توصه وذاك الحكيم هو الدرهم

وكان فقيراً فيقول :

يا ليت لى ألفَ دينار موجهةً وأن حظىَ منها فلْسُ فلاّسِ
قالوا : فما لكَ منها ؟ قلت يخدمنى لها ومن أجلها الحمقى من الناس

على كل حال ، فلم يكن من العلماء والأدباء من يستطيع العيش الرغد إلا من موائد الأغنياء ، وإلا من كان يتكسب من غير علمه وأدبه كتجارته أو صناعته ، ومن عدا ذلك ففقير مدقع ، خصوصاً إذا كان عزيز النفس أو لا يحسن الملق كأبى حيان التوحيدى .

* * *

وساعد على انتشار العلم ما أدخل على الخط من تحسينات ؛ فقد كان الناس

قبل هذا العصر يكتبون لخط الكوفى ، وهو خط صعب معقد مؤسس على زوايا قائمة ، وكان زيادة على ذلك غامضاً ، فالألف إذا جاءت حرف مدّ فى وسط الكلمة حذفت ولم تكتب ، كالكتاب ، تكتب هكذا « الكتب » حتى جاء ابن مقلة المتوفى سنة ٣٢٧ فنقل الخط نقلة جديدة ، وغيّر الخط الكوفى إلى الخط النسخى ، ووضع للخط النسخى قاعدة جميلة .

وربما كان هذا سبباً فى سهولة النسخ ، وكثرة كتبه .

وساعد أيضاً على انتشار الكتابة كثرة الورق ، ويسمونه « الكاغد » فقد كانوا يكتبون على الجلود والقراطيس ، والورق الصينى ، حتى جاء جعفر بن يحيى البرمكى ، فشجع صناعة الورق ، وكثر فى عصرنا هذا كثرة جعلته رخيصاً . فكان يستجلب الورق من مصر ومن سمرقند وغيرهما مما مكن العلماء والورّاقين من كثرة الكتابة . وحرفةُ الوراقة كانت منتشرة ، إذ كانت تقوم مقام المطابع اليوم . وأحياناً يكون بعض الورّاقين علماء ، دعاهم الفقر إلى احتراف الوراقة ، كياقوت الحموى ، وأبى حيّان التوحيدى . وكانت حرفة شاقة ، تذهب فيها الأعين ، وكان مما سبّب الخصومة بين الصاحب ابن عباد وأبى حيان التوحيدى ، أن الصاحب كلفه أن ينسخ له كتباً كثيرة ، استكثرها أبو حيان . ولِحفظ المحدثين صحة الأحاديث المنسوخة كانوا ينسخون كتب الأحاديث بأنفسهم .

وكان الفقر يضطر بعض الناس إلى احتراف الوراقة على كره منهم . وكان أبو بكر الدّقاق يعول والدته وزوجته وبنتا من الوراقة .

وحكى عن أبى زكريا يحيى بن عدى المتوفى سنة ٣٦٤ وهو نصرانى على المذهب اليعقوبى أنه نسخ بخطه نسختين من تفسير الطبرى ، وأنه كان يكتب

فى اليوم والليلة مائة ورقة . وكان بنيسابور وراق اسمه أبو حاتم ، ورّق بها خمسين سنة ، وهو القائل :

إنّ الوراقة حرفةٌ مذمومةٌ   محرومةٌ عيْشِى بهـــا زَمِنُ
إن عشتُ عشتُ وليس لى أكلٌ   أو متُّ متّ وليس لى كَفَنُ

ومن الطريف أن حكى ورّاق أنه نام ليلة فرأى فى المنام كأن القيامة قامت ، وحوسب وأدخل الجنة ، فلما دخل الباب استلقى على قفاه ، ووضع إحدى رجليه على الأخرى ، وقال :

« آه واللهِ استرحْتُ من النسخ » .

المراجـــع

خدابخش .

الأستاذ بيكر : فى الحضارة الإسلامية .

التمدن الإسلامى : لجورجي زيدان .

دائرة المعارف الإسلامية فى هذه المواد .

متز : ترجمة أبى ريدة .



الباب العاشر

الفن

إن فن كل أمة يتأثر بأمور :

(١) الذوق العـام للأمة ، (٢) التقليد للأمم المختلفة خصوصاً الأمم التى حكمتْها ، كفرس أو روم أو غـير ذلك ، (٣) الدين الذى تعتنقه الأمة ، فبعض الأديان تميل إلى شىء ، وتنصرف عن شىء .

وكان العرب فى جاهليتهم بدائيين فى ثقافتهم ، متنقلين فى حياتهم . وهـذا التنقل والبُدائيّة جعلاهم غير مترفين فى حياتهم وأدواتهم ، وغير ملتفتين إلى الجمال الفنّى . فـكانت حتى معبوداتهم من اللات والعزى وغيرهما معبودات بسيطة الشكل . بل قد يعبدون حجرا على طبيعته الأصليه . وما كان عندهم من فن فهو — حتى اسمه — مستعار من الأمم الأخرى . فكلمة نجار وأسلحة وصانع مأخوذة من اللغة الآرامية . وكلمة مصحف وشبّاك وسوَار وحدّاد مأخوذة من اللغة الحبشية ، وما ورد من الفن فى الشعر فبدائىّ أيضاً ، كتشبيه عمرو بن كلثوم فى معلقته أرْجُل امرأة جميلة بأعمدة من الرخام ، وصدرها بقطعة من العاج . وحتّى لمـا احتاجوا إلى إصلاح الـكعبة ، اعتمدوا على أناس من الأمم الأخرى . فقالوا : إنهم اعتمدوا فى إصلاحها على نجار رومىّ صادف أن كان على ظهر سفينة مارّة بجدّة ، ساعده صانع قبطى ، فلمـا جاء الإسلام وفتح المسلمون البلاد المتحضرة من فرس وروم رأوا ما عنـدهم من الفنون فتأثروا بها ، ودعاهم الترف إلى أن

يتذوقوها ، ويقلدوها ، حتى الشعر تأثر بهذا الفن ، كقول رجل فى العهد الأموى على ما أظن :

بيضاء باكرها النعيم فصاغها   بلباقة فأدقها وأجلها .

* * *

وكان من أثر هذه الفتوح وغِنَى الدولة الإسلامية ووضع المسلمين أيديهم على القصور الفخمة ، والمعابد العظيمة ، والتحف النادرة ، أن تحضّروا هم أيضاً ، وأخذوا ينشئون الفنون الجميلة ، كالمسجد الأموى ، وما فيه من زينة تدل على استعانة الأمويين بغيرهم ممّن سبقوهم إلى هذه الفنون . وكالقصور الجميلة التى بناها الخلفاء الأمويون فى صحراء الشام ، واكتُشفت حديثاً فدلت على تقدّم كبير فى الفنّ . حتى إذا جاءت الدولة العباسية عظُم غناها ، وعظم تأثرها بالفنّ ، فبنيت بغداد بناءً فنيّا ، و بنيت فيها القصور الفخمة للخلفاء والأمراء والأعيان .

وكان أثاثها من فراش ورياش جميلا فخما يناسب جمال القصور وفخامتها . ويحدثنا بشّار عن كأس صوّرت عليه تصاوير لكسرى ، يعلم من هذه التصاوير مقدار ما يوضع فى الكأس من الخمر ، وما يمزج بها من الماء . إلخ .

ومن الحق أن نقول : إن الإسلام حارب الأصنام والتمائيل ، وأمعن فى محاربتها ، وشنّع على عبّادها ، وكسّر ما كان منها فى الكعبة ، وكرّه فى التصوير والمصوِّرين ، فلم ينمُ التصوير والتمثيل فى الإسلام نموّا كافيا ، ولكن الطبيعة البشرية ، وحبها الشديد للفنّ ، حاولت دائما أن تجد لها منفذا ، فرأينا المسلمين يجوّدون ما شاؤوا فى الخط ، لما حُرموا التصوير ، وفى الزّار والذكر ، لما حرموا الرقص ، وفى الغناء بالقرآن لما حرموا الغناء . وهكذا .

ولذلك نراهم يصوّرون الأشجار والحيوانات ويتحرجون من رسم

الأشخاص . وبجانب ذلك اجتهدوا فى الفنون الأخرى ، كالصياغة والحرف الأخرى .

ولمّا دخل الإسلام كثير من المتحضرين من الفرس والروم ، وكان لهم ذوق نامٍ فى الفنون ، ابتدأوا يقلّدون ماضيهم القديم فى الإسلام الجديد . وفى القرن الرابع ظهرت الصورة المجسّمة للحيوانات ، ولكنها كانت بعيدة عن الطبيعة . وربما منع المسلمين من التقدم فى التصوير الشخصى نهى الإسلام عن التصوير ، محافظة على عقيدة الوحدانية المطلقة . والناس لا يزالون حديثى عهد بالوثنية ، خصوصا وقد كان منتشرا فيهم عبادة الأبطال والصالحين . وجاء فى الحديث عن عائشة « أن النبى صلى الله عليه وسلم لم يكن يترك فى بيته شيئاً فيه تصاليب إلا نقضه »[1] وروى البخارى « أن النبى صلى الله عليه وسلم لما رأى الصور التى فى البيت ، لم يدخل حتى أمر بها فمحيت . ورأى صورة إبراهيم وإسماعيل بأيديهما الأزلام فقال : قاتلهم الله . والله إن استقسما بالأزلام قط» وقال النووى . قال أصحابنا وغيرهم من العلماء : تصوير صورة الحيوان حرام شديد التحريم . وهو من الكبائر ، لأنه متوعَّد عليه بالوعيد الشديد ، سواء ما كان فى ثوب أو بساط أو درهم أو دينار ، أو إناء أو حائط . وأما تصوير صورة الشجر وجبال الأرض وغير ذلك مما ليس فيه صورة حيوان ، فليس بحرام . وقال بعضهم : إنما ينهى عن تصوير ما كان له ظل ، ولا بأس بالصورة التى ليس لها ظل . وعن عائشة « أنها نصبت سِتْرا وفيه تصاوير فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزعها ، قالت فقطعته وسادتين ، فكان يرتفق عليهما » كأنه كان يجيز ذلك إذا امتُهن الشىء الذى فيه تصاوير ، كأن استخدم فى سجادة أو نحوها . وقال رسول الله :

---

(١) روى هذا الحديث البخارى وأبو داود وأحمد والنسائى ، مع خلاف بسيط فى الألفاظ .

«أتانى جبريل فقال : إنى كنت أتيتك الليلة ، فلم يمنعنى أن أدخل البيت الذى أنت فيه ، إلا أنه كان فيه تمثال رجل » وعن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الذين يصنعون هذه الصور يعذبون يوم القيامة ، يقال لهم أحيوا ما خلقتم » وإنما كان يباح تصوير الشجر وما لا نفس له . وفى الحديث أيضاً « لا تدخل الملائكة بيتاً فيه كلب ولا تمثال » . والغرض من كل هذا الخوف من عبادة التصاوير ، والأوثان والتماثيل والأبطال والصالحين . خصوصاً والناس قريبو عهد بهذه العبادة . وقد اختلف العلماء فى ذلك ، فقالوا : إن التحريم تحريم على الإطلاق ، وقال آخرون ، إنه تحريم لعلة ، وإذا زالت العلة زال التحريم .

وعلى كل حال أثر هذا فى المسلمين ، فامتنعوا إلا قليلا عن تصوير الإنسان والحيوان ، وأباحوا تصوير الأشجار والمناظر الطبيعية . ولذلك نبغوا فى فن العمارة ، وتفننوا فى الجمادات كدواة وأبواب ، ومشربيات ونحو ذلك . ومع ذلك ، فقد مهر قوم من المسلمين فى تصوير الأشخاص والحيوان كما فعل بعض الفرس ، حتى لقد سمعتُ محاضرة ألقاها بعض المستشرقين عن مصحف فارسى مصور صورت فيه مثلا صورة يوسف وزليخا إلخ .

ونما فى هذا القرن تطعيم الأدوات والأوانى المختلفة مثل الخزَف والقاشانى والنحاس والخشب بموادّ ثمينة ، كالعاج والصدف ، وتزيينها برسوم مختلفة .

ورأى المسلمون أن يحوّروا الرسوم المحرّمة إلى نقوش غير محرّمة ، كرسوم هندسية ونباتية ، وكثر ذلك فى الدولة السلجوقية .

ووجدت عمائر كثيرة قد دخل فيها فنّ الزخرف ؛ وإذا كان القرآن مقدّساً مبجّلا معظّماً ، دار كثير من الفنّ حول المصاحف ، من كتابة جميلة للمصحف ، على ورق جميل ، وتجليده بالجلد الفاخر ، وتذهيبه وتحليته . كذلك

بعث الدّين على الإشادة بالحياة الأخرى ، فكان من أثر ذلك بناء المقابر ، وزخرفتها ، و بناء الأضرحة فوقها الخ .

وقد زيّن المسلمون المحاريب بالنقش بالجص ، وكلّما أمعنوا فى الترف ، أمعنوا فى الزينة الفنية ، بعد أن كانوا يعيشون فى الصدر الأول عيشة بسيطة ساذجة ، ووجدناهم يستخدمون الذهب المذاب فى طلاء الأوانى الخزفية ، وفى النحاس ؛ ولكن على العموم لم يبلغوا فى تزيين المساجد ما بلغه المسيحيون من الأرثوذكس والكاثوليك فى تزيين كنائسهم .

و بعد أن تحرر العرب من المؤثرات الأجنبية ، وهضموا فنونها ، صار لنقوشهم وعمارتهم طابع خاص ، حتى لا يمكن نسبتها لغيرهم . فابتدعوا فنا جديداً .

حتى فى التحف الصغيرة كالدواة والخنجر ونقوش الغمد وجلد القرآن ، وأصبح لها طابع خاص ، غير ما كان عند غيرهم . وليس يضرهم اقتباس فنها من الأمم الأخرى . إنما يضرهم وقوفهم عند تقليدهم المحض وهو ما لم يفعلوه . فالعرب أنشأوا فى سرعة حضارة جديدة ، وفناً جديداً ، مختلفين عن الحضارات والفنون التى قبلهما ، حتى إن الحكام الذين قهروا العرب وأرغموهم لحكمهم ، كالتتار وغيرهم ، اعتنقوا دينهم ، وأسسوا حضارتهم عليها . وكانت الحضارة الإسلامية والفنون الإسلامية ذات أثر عظيم فى العالم غربيه وشرقيه . ولا فرق بين أن يكون منشئوا الحضارة عرباً أو فرساً أو مغاربة فكلها حضارة إسلامية . فليس يعود فضل العرب إلى أنهم نقلوا الفنون والعلوم اليونانية ، بل إنهم زادوا عليها من مخترعاتهم ومبتكراتهم .

المراجـــع

حضارة العرب : لجوستاف لوبون .

نيــل الأوطار : للشوكانى .

ميراث العرب : للأستاذ نبيه فارس بالإنجليزية .

الباب الحادى عشر

التجارة والصناعة والزراعة

نشطت الحركة التجارية فى القرن الرابع الهجرى نشاطاً عجيباً ، سواء فى البر أو فى البحر ، وهذا ما وسّع أفق الناس الجغرافى . وحسنت سمعة التجار المسلمين فى المعاملات ، وضرب بهم المثل . حتى النساء اشتركن فى هذه الحركة التجارية ، فقد ذكروا أنه فى بلاد فارس الشمالية كانت حركة البيع فى المنازل ، وكان اللائى يبعن هن النساء .

وكانت بغداد والإسكندرية تتحكم فى الأسواق والأسعار ، وكان اليهود مشتهرين ببيع الرقيق ، وكانوا يستحضرونه من النواحى الشمالية ويتاجرون فيه . وكان التجار على العموم يركبون الجمال إلى السويس ، ويُعدُّون البحر الأحمر ، ثم يعبرون الصحراء ثانية إلى جُدّة ، أو يبحرون إلى الخليج الفارسى والهند والصين ، أو يرحلون إلى أنطاكية ، إلى الفرات ، إلى بغداد ، إلى فارس . واضطرتهم التجارة إلى معرفة لغات كثيرة من فارسية وإسبانية وصينية . وكانوا يستحضرون من كل بلد خير ما فيه ، ويبيعونه فى البلاد الفقيرة إليه . وبعض التجار الكبار كانوا يُعملون الحيل فى الاتصال بملوك الأقطار ، وإنشاء علاقات معهم لتسهيل الشؤون التجارية . فيحكى أن بعض التجار المسلمين اتصلوا بملوك الصين ، وأن بعض تجار اليونان والفرس اتصلوا بملك سيلان .

ولكثرة الأعمال التجارية وصعوبة نقل الأموال وخطورتها عرفوا الحوالات المالية ، وسمّوها « السُّوفْتَجة » وناصِرْ خسرو تسلّم صكاً من تاجر بأسوان

بخمسة آلاف درهم ، معنونا بوكيل تاجر فى عيذاب ليتسلمه منه . وكان فى الصك « أعط ناصرا كل ما يطلبه ، وقيّد الحساب عليه » ويحكى ابن حَوْقَل أنه رأى صكاً باثنين وأربعين ألف دينار لتاجر فى سِجِلْمَاسة مما يدلّ على اهتدائهم إلى المعاملات التجارية بطريق الصكوك . وكان الصرافون والوكلاء يقومون مقام البنوك .

وقد عدّت فى ذلك الوقت أسماء كثيرة من التجار المشهورين بالغِنَى . واشتهر كل قطر ببعض السلع ، وكان التجار الماهرون ينقلون السلع من مكان إلى مكان ، حسب المهارة التجارية . ومن أجل هذه الحركة وجدت أماكن للمبيت والاستراحة فى كل مرحلة تجارية ، وكانت هذه الأماكن تستخدم لمبيت التجار ، ورباطات للمجاهدين ، وأمكنة لعمال البريد ، وهكذا .

ولم يكن نشاطهم فى البحر بأقل من نشاطهم فى البرّ ، ومن هذه الحركات نشأت أسطورة « السندباد البحرى » وكان أهمّ بحار المسلمين فى التجارة هو البحر الأبيض المتوسط ، والمحيط الهندى فكانوا ينقلون التجارة على الجمال إلى السويس ، ثم إلى الحجاز ، ثم إلى المحيط الهندى : وكانوا يقطعون على الجمال الصحراء من الفَرَمَا ، إلى القُلْزُم أو البحر الأحمر فى سبعة أيام . واستخدموا لهذه الرحلات البحرية المراكب الشراعية الكبيرة . حتى حكوا أن بعض المراكب كانت تحمل آلافا من الناس ، ومعهم كثير من السلع التجارية . وقالوا إن سُفُن البحر الأبيض كانت أكبر من سفن المحيط . وكانت البصرة أهم ميناء يُبحر منه التجار إلى أنحاء العالم . وكان نجاح هؤلاء التجار مشجعاً لأمثالهم على أن يشتغلوا فى التجارة ويربحوا منها . وكتاب ألف ليلة وليلة مملوء بالقصص عن هؤلاء التجار ، وغيابهم ، وطول أسفارهم . وكانت الصين وروسيا ميداناً فسيحاً لهذه التجارات .

وقد أثرت حركة التجار الواسعة هذه فى الحياة العامة للشعب ، سواء فى الحركة الاقتصادية أو الاجتماعية . فمن الناحية الاقتصادية كانت التجارة مصدر ثروة لعدد كبير من الناس ، وأتباعهم ، وأتباع أتباعهم ؛ ومن الناحية الاجتماعية ملأت التجارة البيوت بالرقيق من مختلف الأصناف ، وتأثير الرقيق فى الحالة الاجتماعية لا يخفى . وربطت التجارة بين الأقطار الإسلامية ربطا محكما ، وقلّما كان يخلو ركب من التجار من أن يصحبهم بعض العلماء يطلبون العلم ، وخصوصاً الحديث . وحبّبت التجارة إلى الناس كثرة المغامرات ، واكتساب اللذائذ من المخاطرات . وكانوا كلما اجتازوا مخاطرة واطمأنّوا عَنَّ لهم أن يبدؤوا مخاطرة جديدة ، كالذى يصوره لنا «السندباد البحرى» بل إن هذه التجارة كانت تغذّى الفقهاء بالمسائل الكثيرة التى تعرض للتجّار ، ولم تكن معروفة من قبلُ ، كالذى نرى فى كتب الفقه من الكلام على السوفْتجة والسّلَم والمزارعة ونحو ذلك .

وكان بعض الأرقّاء يأبِقُون مع ركب التجارة ، فكثر قول الفقهاء فى إباق العبيد وهكذا . فأعمال التجار وما يصادفونه فى حياتهم كانت مبعث أسئلة توجَّه للفقهاء ليبحثوها ويجيبوا عنها . بل تعرضت رحلة التجار لإثارة مسائل تتعلق بالعبادات ، فإنهم لما رحلوا إلى الشمال البعيد ، ورأوا مدنا تستمر الشمس طالعة فيها أشهرا وتغيب أشهرا سألوا عن حكم الصيام فى هذه البلاد ، وأوقات الصلوات وهكذا . ولكن مع الأسف لم يتعرض الفقهاء لتاريخ الحوادث التى أثارت هذه الأبحاث . بل تكلموا عنها مجردة عن أى اعتبار آخر ، ومن غير ربطها بما كان يحدث : ولذلك كانت جافة . ولو ربطت بهذه الأحداث لكانت لطيفة مستساغة .

وهذه التجارة أشاعت فى الناس خُلُق الاستقلال ، وجعلتهم أفضل من

العلماء والأدباء الذين لا يجدون رزقهم ، إلا من فُتات الأمراء . فالتاجر كان ينشأ صغيراً ، ويغامر حتى يكسب الكثير . وبعضهم كان يكسب مائة وعشرين ألف دينار أو أكثر .

هذا هو الكسب المادى . أما الكسب المعنوى فاللذة الحادثة من رؤية بلاد قد يخالف دينها دينه ، وتخالف عوائدها عوائده . ولا بأس أن تغرق المركب يوماً ببضاعته ، فيحمد الله على السلامة ، ويبدأ من جديد ، وهكذا .

* * *

وأما الصناعة فقد ازدهرت فى هذا العصر ، وذلك بفضل تقدم العلوم كما شرحنا ، فاستخدموا ما اكتشفوا من العلوم ، وما عرفوه من علوم اليونان ، وما اقتبسوه من الأمم الأخرى فى ترقية صناعتهم . وكانت المدن الكبرى فى البلاد الإسلامية تتقسم الصناعات الكبرى . كصناعة المنسوجات والورق فى مصر ، وصناعة الورق أيضاً فى سمرقند ، والبسط والسجاجيد فى فارس الخ . واشتهرت صناعة النسيج فى مصر فى تنّيس . وكانت تصنع من الكتان والحرير ، وكانت الأقمشة التنّيسية بيضاء . أما اليمنية فمنقوشة كأزهار الربيع .

واشتهرت فى تنّيس مدينة تسمى « الدّبيق » وإليها ينسب القماش المسمى بالدبيقى . وربما بلغ الثوب الدبيقى مائة دينار . وفيها كانت تصنع المنسوجات للخليفة البغدادى . ولا يدخل فيه من الغزل غير أوقيتين ، وينسج باقيه بالذهب بصناعة محكمة ، لا تحوج إلى تفصيل ولا خياطة ، وتبلغ قيمته نحو ألف دينار . وكانت تنيس وحدها سنة ٣٦٠ تصدر إلى العراق من الأقمشة ما يبلغ ٢٠ ألف دينار إلى ٣٠ . وكانت تصدر تنيس أيضاً ثيابا رقيقة جيدة ، كأنها المنخل ، يسمى بالقصب ، وكان هذا القصب يلوّن ، ويعمل عمائم للرجال . وكان النساء فى مصر

يغزلن الكتان فى منزلهن ، كما يفعل أهل سويسرا فى صناعة الساعات وقلّدت فارس مصر فى صنع ثياب الكتان ، وخصوصاً مدينة كازارون ، فكانوا يبلّون الكتان فى البرك ، ويغسلون خيوطه فى نهر يسمى نهر الرّهبان . وكان من خصائص هذا النهر تبييض خيوط الكتان . ولا يغسل فيه إلا بتصريح من الأمير . ولم يشتهر القطن كثيراً فى هذا الزمان ، واشتهرت مرو بصناعة نسيج القطن ، فكانت تنتج ملابس ثقيلة ؛ حتى إن المتنبى يسميها « لباس القرود » . وانتشرت صناعة الحرير ، وأعظم مصانع الحرير فى ذلك العصر كانت بفارس أخذها الفرس عن الروم . واشتهرت خوزستان بذلك . وكانت الطنافس التى تفرش على الأرض تصنع بالعراق فى مدينة الحِيرة ، وقد استمدت صناعتها من الروم . واشتهرت صناعة الحُصر فى كل البلاد الإسلامية .

وكان المصريون يصنعونها من البرد ، كما اشتهرت صناعة ماء الورد . وأهم ما تصنع فيه مدينة « جور » لشهرتها بالورد الجورى . وينقل من جور إلى سائر البلدان كالمغرب ، والأندلس ، ومصر ، واليمن ، وبلاد الهند والصين ، ومما قدم الصناعة فى القرن الرابع اكتشافهم قوة المياه ، واستخدامهم لها فى إدارة الطواحين ؛ كما أن أهل البصرة استخدموا حركة المدّ والجزر ، فأنشأوا عليها الأرحية ، ذلك أن الجزر والمد يحدثان عندهم مرتين فى كل يوم وليلة . ففى أثناء المد يدخل الماء الأنهار ، وفى أثناء الجزر ينحسر الماء . فعمدوا إلى أرحية أقاموها على أفواه الأنهار . أما الجهات التى ليس بها أنهار ، فكانوا يستعملون الدواب فى إدارة الطواحين .

وقد اشتهرت مطاحن الموصل ، فكانت تصنع من الخشب والحديد ، وتسمى الواحدة منها عربة ، وبعض الطواحين يستخدم فيه شدة هبوب الريح ،

حتى كان من دقتهم تنظيم سرعتها بواسطة منافذ تغلق وتفتح . وقد نقل المصريون صناعة الورق عن الصين ، ولكن تقدموا فيها بواسطة تنقيته مما كان يعلق به من ورق التوت ونحوه . وانتشرت صناعته فى دمشق ، وطبرية ، وطرابلس ، وسمرقند . ولولا كثرته ما انتشرت العلوم انتشارها فى هذا العصر . واشتهرت حران بصناعة آلات الفلك ، كالإصطرلاب ، وبصناعة الموازين الصحيحة ؛ واشتهرت القدس بصناعة السبح ، لكثرة الزوّار .

* * *

وأما الزراعة فاشتهرت فى هذا العصر ، حتى ربما أمكن العالم الإسلامى أن يكفى نفسه . فكانت العراق تكثر من زراعة الحنطة ، والهند من الأرز ، وفلسطين ومصر من القلقاس . واشتهرت فى البلدان كلها زراعة الكروم . واشتهرت زراعة العنب فى اليمن . وهو كثير الأصناف ، يجود كل صنف منه فى بلد . واشتهرت فى هذا العصر فاكهتان ، وهما الأترجّ ، والنارنج . وكانت هاتان الفاكهتان نادرتين فى هذا العصر . وقد جلبتا من الهند إلى عمان والبصرة والعراق والشام . واشتهرت زراعة البطيخ ، واشتهر شمال فارس بجودة الفاكهة ، حتى بلغ أن كان البطيخ يقددّ ويحمل إلى العراق . وعلا شأن الرمان ؛ وكان أحسن التفاح فى ذلك العصر تفاح الشام ، حتى كان مضرب المثل فى الحسن . ويحدثنا الثعالبى فى لطائف المعارف بأنه كان يحمل إلى الخلفاء فى كل سنة منه ثلاثون ألف تفاحة . واشتهر فى العراق والحجاز ومصر ، تصدير مقادير كبيرة من التمر . وكان الناس فى مصر يستخدمون زيت المصابيح ، من جذور البنجر واللفت ، ويسمونه الزيت الحار . ولحاجتهم إلى السكر كان يزرع فى كثير من البلدان ، وعملوا المربّات والفواكه المحفوظة ، وملّحوا السمك ، وأكلوا نوعا

من الطين الأخضر كالسلق ، كانوا يستعملونه بعد الأكل . يجلب من نيسابور ، ويسمى بالنُّقل . وكان الرطل منه ربما يباع فى مصر بدينار .

وعلى الجملة كانت الزراعة والصناعة والتجارة متعاونة ، يُمد بعضها بعضا ، ولكثرة عدد الأهالى نمت هذه العناصر الثلاثة فى ذلك العصر . حتى ليحكى بعضهم أشياء عنها قد لا يصدقها العقل . وربما كانت الزراعة هى العنصر الوحيد الذى لم يتغير فى الشرق إلى اليوم . فلا يزالون يستعملون آلات الزرع العتيقة من ساقية وشادوف وطمبور ونحو ذلك مما كان يستعمله قدماء المصريين .

قد تغيرت التجارة والصناعة كثيراً عن قبل ، ولكن الزراعة لم تتغير كثيراً عما كانت ، إلا عند القليل الذين استعملوا الآلات الحديثة .

المراجع

متز . ترجمة الأستاذ أبى ريدة .

حضارة العرب .

جوستاف لوبون : ترجمة زعيتر .

التمدن الإسلامى : لجورجى زيدان .

أحسن التقاسيم للمقدسى .

المكتبة الجغرافية : نشرها ديجويه .

الباب الثاني عشر

القضاء والإدارة

من قديم وكبار الفقهاء يكرهون تولي القضاء ، كالذى روى عن مالك، وأبى حنيفة من كراهية تحمل المسئولية ، وخوفا من الحيد ولو قيد شعرة عن العدل . إنما يتولاها من أكره عليها ، أوكان شرها يحب المال ، ويقوى ضميره على تحمل المسئولية وكانت أكبر مشكلة فى زماننا وقبله اختلاط الاختصاص بين الوالى والقاضى ، فكلاهما يرجو توسيع الاختصاص . وكثيراً ما اصطدما . فمثلا تزوّجت امرأة رجلا ليس بكفء لها ، كحادثة الشيخ على مع بنت السادات ، وأنكر وليها الزواج ، وطلب من القاضى فسخه ، فامتنع ، فذهب أهلها إلى الأمير ، فأمر القاضى بالفسخ ، فامتنع أيضاً ، ثم فرّق الأمير بينهما ، وسبب ذلك الاختلاط بين سلطة القضاء ، وسلطة التنفيذ . وكان القاضى يتولى سلطانه من قبل الخليفة . وكان كثير من القضاة ذوى عظمة وجلال ، حتى يُحضروا الولاة فى مجالسهم إذا احتاج الأمر . ويحكون عن القاضى ابن حربويه الذى تولى سنة ٣٢٩ أنه كان آخر من ركب إليه الأمراء . وكان لا يقوم للأمير إذا حضر ، وكان عزيز النفس ، عدلا ، حتى إن مؤنسا الوالى الكبير مرض ، فأرسل إلى القاضى يطلب شهوداً ، يشعرهم أنه أوصى بوقفٍ على جهة من جهات الخير ، فقال القاضى : لا أفعل حتى يثبت عندى أنه حرّ . وكتب إلى الخليفة المقتدر يسأله إذا كان قد أعتقه . ولما وصل الكتاب أبى القاضى إلا أن يشهد عدلان أنه كتاب أمير المؤمنين وكان ابن حربويه هذا مثلا عالياً للقاضى ، فلا يفعل أمام الجمهور ما يحط من كرامته .

وكان لا يتقيد بمذهب من المذاهب . بل يجتهد ، ومن القضاة العظام فى هذا العصر أبو حامد الإسفرائينى قاضى بغداد المتوفى سنة ٤٠٦ هـ ، كتب إلى الخليفة يقول له : « اعلم أنك لست بقادر على عزلى عن ولايتى التى ولانيها الله تعالى ، وأنا أقدر أن أكتب إلى خراسان بكلمتين أو ثلاث ، أعزلك عن خلافتك » حتى لقد كان بعضهم من القوة ، بحيث يستطيع أن يأمر بسجن أمير أو وزير . وكان من أعظم القضاة فى ذلك العصر أبو الحسن ابن أبى الشوارب فكان قاضيا عادلا مهيباً ، وكان قاضى البصرة سنة ٣٩٩ هـ .

ولم تكن عرفت المحكمة ، ولكن عرفوا أن القضاء يجب أن يكون مباحاً للجمهور . فكان القضاة يجلسون فى المسجد ، أو على بابه ، أو فى دار القاضى ، ويتقدم المتقاضون برقاع فيها اسم المدعى والمدعى عليه ، وهى المسماة اليوم « عريضة الدعوى » ويعطونها للكاتب ؛ وإذا حضر القاضى دفعها إليه ، فيفصل فيها كلها أو بعضها . وإذا لم يستطع أجل ما لم يستطعه إلى الغد . ويحكون أن إبراهيم بن الجرّاح كان مكروهاً من المصريين ، فكان يقضى فى داره . ولما ولى هارون بن عبد الله قضاء مصر جعل مجلسه فى الشتاء فى مقدم المسجد ، واستدبر القبلة ، وأسند ظهره بالجدار . واتخذ مجلسه فى الصيف فى صحن المسجد ، واستمر الحال على ذلك إلى منتصف القرن الثالث الهجرى ، فمنع الخليفة المعتضد من جلوس القاضى فى المسجد ، ولكن هذا النهى لم ينفّذ . وكره أبو العلاء المعرى فى عصره سيرة القضاة ، والشهود المسمَّون بالعدول فقال :

فى البدو خرّاب أذواد مسوَّمةٍ ... وفى الجوامع والأسواق خرّاب
فهؤلاء تسمَّوا بالعدول أو التُّجَّار ... واسم أولاك القوم أعراب

* * *

ويعنى بمن فى الجوامع القضاة والشهود . ويقول فى موضع آخر :

عُدولٌ لهم ظُلْم الضعيف سجيةٌ   يسمَّون أعراب القرى والجوامعِ

* * *

وكان الفقهاء أولا يكرهون أن يأخذوا أجراً فى نظير قضائهم ، ثم عيّن لهم أجر قليل ، فكان ابن حجيرة فى مصر يتقاضى مائتى دينار فى السنة ، وكان عبد الرحمن بن سالم قاضى مصر أيضاً يتقاضى عشرين ديناراً فى الشهر . وكان بعض القضاة يتجر بجانب منصبه ليعيش عيشة محترمة . وقد رفع العباسيون ماهيّة القضاة ، فكان مرتّب عبد الله بن لهيعة ثلاثين ديناراً فى الشهر ، وفى عصر المأمون ، جعل للفضل بن غانم مائة وثمانية وستين ديناراً فى الشهر . ويقول الرحالة ناصر خسرو « إن مرتب قاضى القضاة فى مصر ألفا دينار فى الشهر » الخ .

وقد انحط القضاء على توالى الأزمان . فقلّ أن ترى قاضياً محترماً مهيباً وقوراً كالذى كنت تراه من قبل .

* * *

أما الإدارة ، فكان على رأسها الخلفاء . وقد رأيت من قبل كيف انحطت رتبهم ، واستبد بهم الوزراء ، كما انحطت ثقافتهم ، لأن الوزراء كانوا يكرهون خليفة مثقفاً . ويحكى صاحب كتاب العلوم أن الوزير أبا أحمد العباس بن الحسن كان راكباً ومعه أحد الكتاب الأربعة الذين يتولون الدواوين ، فشاوره فيمن يرشّح للخلافة بعد المعتضد . وكان الوزير يميل إلى ابن المعتز ، فأجابه الكاتب إنه يجب أن لا يولّى فى هذا الأمر من عرف دار هذا ونعمة هذا وبستان هذا ، ومن لقى الناس ولقوه ، وعرف الأمور وحنكته التجارب . قال له الوزير صدقت فمن نقلّد ؟ فأشار الكاتب عليه بجعفر بن المعتضد ، وقال إنه صغير لا يدرى أين

هو . وعامة سروره أن يصرف من المكتب ، فعمل الوزير على تقليده ، وكان صبياً فى الثالث عشرة من عمره . وهكذا . حتى كانوا يفتشون الكتب التى يقرؤها المرشح للخلافة ، لئلا تكون فيها منفعة ، بل تكون لهواً صرفاً ، كالسندباد البحرى ، وألف ليلة وليلة . فما أكره الوزراء للخلفاء المتعلمين . ولذلك ضعف شأن متولّى الإدارة . وكانت دواوين كثيرة ، لكل ولاية ديوان يدير شؤونها ، حتى وحّد المعتضد هذه الدواوين وجعل منها ديواناً واحداً أسماه « ديوان الدار » له ثلاثة فروع : ديوان المشرق ، وديوان المغرب ، وديوان السواد أى العراق . ولم تكن العدالة مرعية ، فكثرت المصادرات ، بل كثر التعدى على الأرواح . ولم يعد أحد يأمن على نفسه وعلى ماله حتى الخليفة ، فكم صودر ، وكم سلبت أمواله ، أو سملت عينه . وفشا فى هذا العصر أخذ المسائل الإدارية كالقضاء التزاماً يلتزمون المرفق العام للخليفة ، ثم يستبدون بمن يليهم . يقول ابن المعتز :

أفما ترى بلدا أقمتُ به　　أعلى مساكنِ أهله خُصٌّ

وولاتُه نَبَطٌ زنادقَةٌ　　ملأى البطون ، وأهله حُمُصُ

* * *

وتهافت أرباب الدواوين على الألقاب . وقد كانت العادة من قبلُ أن يكتب للناس من فلان إلى فلان ، ففى أول القرن الرابع كان يخاطب الوزراء والكبراء بيا سيدنا ويا مولانا ، وكان ابن سعدان يخاطب الوزير ابن عباد ، بالصاحب الجليل ، ويخاطب الصاحب ابن سعدان ، بالأستاذ مولاى ورئيسى ، ثم زادت الألقاب . حتى قال الخوارزمى :

مالى رأيتُ بنى العباس قد فتحوا　　من الكُنَى ومن الألقاب أبوابا

ولقّبوا رجالا ، لو عاش أولهم   ما كان يرضى به للحُشِّ بوّابا
قلّ الدّراهمُ فى كفّى خليفتنا   هذا ، فأنفق فى الأقوام ألقابا

* * *

ولقبوا الماوردى القاضى بلقب « أقضى القضاة » وزادت الألقاب فيما بعدُ زيادة كبيرة ، وتشكلت بالشكل التركى ، وزادت حتى فقدت قيمتها .

* * *

وكانت الإدارة المالية سيئة جداً ، لأنها شديدة الحساسية ، يُخلّها مليم ، ويعدّ لها مليم . وذلك لأنها كانت سيئة فى دخلها ، تعتمد كثيراً على المصادرات التى شرحناها من قبلُ ، وفى خرجها إذ كثرت النفقات للإسراف فى الترف ، كما بينا . وكانت جباية الأموال غير عادلة ولا دقيقة . ويروى لنا المؤرخون أن بعض الملّاك يبيعون أرضهم بيعا صوريا ، لأولاد الأمراء ليقلّ الخراج عليهم . وبدأت ميزانية الدولة تنحط ، ويزيد الخرج على الدخل ، فكان مقدار الميزانية ، حسب ما وصلنا فى عهد المقتدر على حسب تقدير الوزير المشهور على ابن عيسى نحو ١٤٥٠١٩٠٤ ديناراً ، أضاعها كلها الخليفة المقتدر ، كما أضاع ما تجمع عنده من الخلفاء قبله . وذلك بسبب كثرة الجند وشغبهم ومطالبتهم بالزيادة حتى اضطر أن يبيع دياره وفرشه وآنية الذهب التى عنده . وبلغ من فقر بيت المال فى أيام المطيع لله سنة ٣٦١ أن باع ثيابه ، وأنقاض داره ليدفع ٤٠٠ ألف درهم طلبت منه للجند فى أثناء الفتنة ببغداد . والسبب فى قلة الدخل أن كثيراً من الممالك انفصلت عن الدولة العباسية واستقلت ، كأفريقيا وخراسان ومصر وفارس وما وراء النهر ، وكلها كانت تدرّ مالا كثيراً على الدولة فى بغداد . وتململ الناس

فى عصرنا هذا من كثرة الضرائب ، فبدأ الخلفاء يخفضونها من عهد المأمون ، ونقصت الجزية ، وكانت مورداً كبيراً للمال . بسبب اندفاع الناس إلى الدخول فى الإسلام . وكان العهد عهد إقطاع ، وهو عهد ظالم ، كالذى شاهدناه فى عصرنا وزاد الطين بلة إفراط الخلفاء ومن إليهم فى أسباب الترف فانغمسوا فى اقتناء . الجوارى ، من كل الأصناف ، واتخذوا الفرش من الخز والديباج والحرير ، والمسامير من الفضة ، وأكثروا من المتنزهات والقصور والمدن ، ومجالس البيوت وتأنقوا فى الطعام واللباس تقليداً للفرس . وتحوّل الغِنَى من الخلفاء إلى النساء والخدم والقوّاد . حتى حكى صاحب المستطرف أنه كان بين رياش أم المستعين بساط أنفقت على صنعه ١٣٠ مليون دينار ، على ما يقولون ، فيه نقوش على أشكال الحيوانات والطيور ، أجساماً من الذهب ، وعيونها من الجواهر . حتى ليذكروا أن شاعراً مدح امرأة فأعطته دُرّا قوّم بعشرين ألف دينار . وكثر الإعطاء للمدّاح من الشعراء ، كما يحدثنا صاحب الأغانى حتى لا يكاد الإنسان يصدق ما يحكيه من العطاء لكثرته .

وكثر الإعطاء من المال للوزراء والقضاة والقواد ؛ حتى بلغت ماهية الحسين ابن على الماذرانى والى مصر فى أول القرن الرابع ٣٠٠٠ دينار فى الشهر ؛ هذا عدا ما يفرضه الخلفاء لأنفسهم وأهليهم ، خصوصاً وقد منعوا السلطة ، فصارت فى يد وزرائهم من الأتراك .

والحق أن الإدارة المالية إذا اختلّت اختلّ تبعاً لها كل شىء ، من علم وتجارة وزراعة وصناعة ، فعجيب أن يزهر العلم فى هذا العصر ، حتى يبلغ ذروته ، ويختلّ النظام المالىّ ، وهذا يدلنا على أنه قد تختل السياسة ، ويختل المال ،

و يزهر العلم ، لأن اختلال السياسة واختلال المال لا يظهران إلا بعد عهد طويل .

وكان من أهم المصالح الإدارية مصلحة البريد . وقد عنى بها المسلمون من العهد الأموى ، كما عُنى بها العباسيون . وكانت مصلحة البريد تقوم بوظائف أكثر مما تقوم به مصلحة البريد اليوم . فكانت تقوم بما تقوم به اليوم مصلحة المخابرات ؛ إذ كان رجال البريد مكلفين بإخبار الخلفاء بكل حركة يقوم بها كبار العمال ؛ حتى يتأهبوا لها . ولذلك يروى أن طاهراً أمير خراسان وأول من انفصل عن الدولة وأسس الدولة الطاهرية قطع الخطبة للمأمون على المنبر ؛ وكلمه فى ذلك صاحب البريد ، فاعتذر بأنه نسيان منه ، وتقدم إليه ألا يكتب للخليفة ، وتكرر منه ذلك ثلاث مرات ، فقال له صاحب البريد : إن كتب التجار لا تنقطع عن بغداد ؛ وإن اتصل هذا الخبر بأمير المؤمنين من غيرى لم آمن أن يكون سبب زوال نعمتى . فقال اكتب إليه . وكان الخلفاء لا يحجبون صاحب البريد ، ولو جاء فى نصف الليل ، علماً منهم بأن مبادرة الأمور فى أوائلها خير من الانتظار عليها . ولذلك قال المنصور : «ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر ، لا يكون على بابى أعف منهم . أما أحدهم فقاضٍ لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والثانى صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، والرابع صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة » . ولذلك كان العمال يخافون من صاحب البريد ، ويعتبرونه جاسوساً عليهم عند الخليفة . وأحياناً يجعل الخلفاء بينهم و بين أصحاب البريد رموزاً ، أشبه ما تكون بالشفرة اليوم ، حتى لا تقع فى يد العامل ، فيعرف محتوياتها . هذا ما يتعلق بالخلفاء يضاف إلى ذلك مكاتبات الناس . وأحياناً ينتهز بعض الناس فرصة البريد ،

فيركبون معه ، لأن ذلك آمن لهم . وفى بعض الأحيان كانت ميزانية البريد ١٥٩١٠٠ ديناراً فى السنة .

أما وسائل البريد ، فكانت أموراً كثيراً .

(١) الجمال والأفراس . وربما كان المقصود بالجمال هو ما يسمى الآن « الهجين » لسرعة سيره . وربما بلغت قافلة البريد أربعين أو خمسين جملا . وقد أعدت للبريد شبكة من الطرق ، تشبه شبكة القطارات اليوم .

(٢) السفن فى البحار . وقد يستعملان معاً .

(٣) الرجال العداؤون . وخاصة فى المدن الكبيرة كبغداد .

(٤) الحمام الزاجل . فيربطون ورقة ويعلقونها بعد تمرين الحمام على السير على مواقع يعلمونها .

(٥) أحياناً يستعلمون سهماً يضعون فيها قصبة فيها ورق ، ثم يطلقونها ، فيستلمها آخر ، ويفعل بها مثل ذلك .

(٦) وأحياناً يستعملون ماء النهر فيضعون فيه الخرائط من الجلد ، مكتوبا عليها اسم صاحبها .

وأحياناً يستعمل البريد لحمل بعض الناس الذين يأمر الخليفة بإحضارهم . وكانت توضع فى أعناق الدواب سلاسل وأجراس تسمعها المدينة ، فتعرف أن البريد حضر . ويسمونها عادة « قعقعة البريد » . وكانت تقسم الطرق إلى مراحل ، وفى كل مرحلة فندق كبير ينزل فيه عمال البريد ليرتبوا شؤونهم فيه . وهكذا إلى أقصى المملكة الإسلامية .

وقد أدت مصلحة البريد هذه خدمات كبيرة إلى المملكة الإسلامية من

مثل قمع الفتن ، ومنع المشاكل من الحدوث بسبب التأهب لها . وكثيراً ما حملت العلماء من مكان إلى مكان ليحصّلوا العلم . والتاريخ مملوء بذلك .

وهناك عمال آخرون لحفظ طرق البريد ، وإمدادها بالأفراس أو الإبل الملاح . وحماةٌ يحمونها من القطاع والسراق .

المراجـــع

الولاة والقضاة : للكندى .

ابن الأثير .

المنتظم : لابن الجوزى .

مقدمة ابن خلدون .

التمدن الإسلامى .

متز : ترجمة الأستاذ أبى ريدة .

خاتمـــة

من هذا نرى أن الحركة العلمية فى القرن الرابع كانت على أشد ما يكون ، وأنه لم يشهد مثلها القرن الذى قبلها ولا الذى بعدها . وأنه لم يخلُ فرع من فروع العلم المعروفة فى زمنهم من علماء يبحثون فيه ويوسعونه ، وأن الفقر كان نصيب العلماء ، إلا من اتصل بالقصور . وأنه رغم انحطاط السياسة لم يتأثر العلم بها ، فكان العلم والسياسة فى ذلك الزمان ككفّتىْ ميزان رجحت إحداهما وهى كفة العلم ، وشالت الأخرى وهى كفة السياسة . وربما كان السبب فى ذلك أن السياسة تحتاج إلى زمن طويل ، حتى يظهر أثر ضعفها فى الحياة العامة . وهذا ما كان لأنها أثرت فى العلم أثراً سيئاً فى القرون التى بعد هذا القرن . بل ربما كانت السياسة فى قرننا هذا سبباً غير مباشر لرقىّ العلم من جهتين : الأولى أن العلماء لما رأوا سوء السياسة وظلمها وعنتها واضطرابها ، كرهوها ، وانصرفوا إلى العلم وهو الملجأ الآمِن المطمئن ، حتى كان بعضهم يأنف كل الأنفة أن يتصل بأمير أو وزير ، ويتعفف عن زيارة السلطان وأعوانه ، ويفضل العيش النّكِد مع السلامة ، على العيش الرغِد مع الخوف ؛ والثانية اتخاذ الأمراء والوزراء العلماء زينة يزيّنون بها مملكتهم ، فلفت ذلك نظر بعض الناس أن يتعلموا ليتصلوا بهم وينتفعوا مما فى أيديهم ، فكان هذا السبب سبباً فى كثرة العلم ، سواء المعرِضون عن الولاة ، أو المقرّبون إليهم .

ونرى أنه فى هذا العصر زاد التصوف ونما وازدهر ، وذلك لجملة أسباب :

(١) الارتقاء الطبيعى مع مرور الزمن .

(٢) فساد الدنيا ، فحمل بعض الناس على أن يتركوها لأصحابها ، و يطلبوا الله والآخرة .

(٣) ما كان من قيام الفقهاء على الصوفية ، وتحريض الأمراء على التنكيل بهم ، كالذى رأينا من قصة غلام الخليل والحلّاج ، فدعا ذلك إلى اضطهاد الصوفية . والناس دائما أعطف ما يكونون على المضطهَد . والفكرة إذا اضطهدت كان اضطهادها علامة حياتها .

ورأينا فى هـذا العصر كثرة المذاهب ، وكثرة الاحتكاكات بينها ، كالاحتكاك بين المذاهب الفقهية المختلفة ، والاحتكاك بين الشيعة والسنية ، والاحتكاك بين الفقهاء والصوفية ، والاحتكاك بين المحدّثين والفلاسفة ، وهذه الاحتكاكات المختلفة سبّبت نشاطا عجيبا فى الحركة العلمية ، إذ كان كل فريق يرى أن يتسلح أمام الخصوم بكل الوسائل ليتغلب عليهم .

ولعل ذلك كان من الأسباب التى روّجت الفلسفة اليونانية بين المسلمين ، لأن منطقها أقوى سلاح يتسلح به .

ور بما كان هذا العصر خاتمة العلم الإسلامى . نعم كان بعده علم ، ولكن ليس إلا ترديداً لعلم القرن الرابع .

ور بما كان السبب فى ذلك إقفال باب الاجتهاد فى هـذا العصر ، فشمل الخمود والجمود كل علم وكل أدب . وانتشر فى العلماء قلة الثقة بأنفسهم وزعمهم أن ليس للآخرين ما كان للأولين — ور بما كان من الأسباب أيضاً السياسة الفاسدة بعد أن طال زمنها ، ووصل تأثيرها السيّئ إلى العلم . ثم جاءت نكبة التّتار ، فذهبت بالبقيّة الباقية من هذه الحركة العلمية .

ومما يؤسف له أن نرى العلماء فى ذلك العصر الزاهر انطووا على أنفسهم

وتركوا الظالمين من غير أن يقفوا فى سبيلهم ، ولم يستطيعوا أن يضحّوا ، فيجهروا بالحق أمام الظالمين . والأدباء الذين ارتفع صوتهم ارتفعوا بمدح الظالم لا بردعه ، وتحريضه لا قَمْعه . ولم يكن عندهم شعور بأنهم مسئولون عن ظلم الظالم . والصوفيَّة الذين كانوا مظنة الجهر بالحق انطووا أيضاً على أنفسهم ، وغسلوا أيديهم من هذا العالم . والوعاظ الذين كانوا يعظون ، كانوا يعظون الشعب بتحمل الظلم ، ولا يعظون الظالم بالارتداع عن الظلم ... !

وكان إحساس الناس بالظلم والعدل ليس إحساساً مرهفاً ، بل قد يعدّون الظلم فضيلة . فنحن نرى أن الزّجاج النحوى المشهور كان يفرض جُعلا على أصحاب المظالم ، ليرفع الرّقاع إلى الوزير ، والوزير هو الذى مكّنه من ذلك : والناس يصفونه بالصلاح والتقوى ، والشعراء يمدحون إذا أعطوا ، ويَهجون إذا لم يُعطَوا . وقلّ أن يمدحوا أميراً بالعدل ، أو يهجوه للظلم . والقصيدة فى المدح أو الهجاء يصلح أن تنطبق على كل أحد سواء من استحق المدح أو الذمّ . وليس فيها تحليل دقيق لنفسية الممدوح أو المهجوّ .

والناس يحترمون العالم ويوقّرونه لأنه زهد فيما فى أيديهم ، لا لأنه سعى فى خيرهم أو كشف الغمَّة عنهم .

على كل حال لو سار العلم على طول الخط ، كما سار فى القرن الرابع الهجرى ، لـكان شأننا غير شأننا اليوم ، ولـكان منا المخترعون المبتكرون ، ولـكن الجمود من جانب ، والظلم من جانب ؛ أماتا النفوس ، وجعلا اليقظة صعبة .

ثم من الأسف أيضاً أن أقبل الناس كثيراً على النظريات المجردة ، أكثر من إقبالهم على العمليَّات المجربة ، بما نرى فى مثل فلسفة الفارابى ، والإمعان

فيما وراء الطبيعة التى هى عبارة عن خيال فى خيال . فأما نَمَط أمثال ابن الهيثم فى ابتكاراته ، فقد مات تقريباً .

وانصبّ الأدب فى قوالب هى عبارة عن زينة لفظية ، لا معنًى غزير . ووقفوا عند المنهج الذى رسمه من قبلهم ، فلا وزنٌ يخترع ، ولا نوعٌ يبتكر ؛ إلا أنواعاً سخيفة كالغزل بالمذكر الذى اخترعه أبو نواس ، أو الفحش الفاجر الذى أفاض فيه ابن حجّاج وابن سكّرة ، أو استجداء وحيل لكسب ، كالذى اخترعه بديع الزمان والحريرى .

وغَلَب منهج المحدّثين فى كل شىء ، بما فيه من خير أو شر ، فما فيه من الخير ، هو الدقة فى الرواية ، ونَقْد الرواة ، والحرص على السند والإجازة . والشر فى الاعتماد على النقل دون العقل ، وتقديس ما فى الكتب ، وتخريج عبارات المؤلفين ، وإن كانت تصرخ بالخطأ إلى غير ذلك . وظلّ هذا المنهج يُعمل به فى الأوساط الشرقية . وأخيراً فقد ظلّ العالم الإسلامى طوال القرون العديدة يتغذى بعلم القرن الرابع وأدبه ومنهج علمائه إلى اليوم .

ونرى من كل هذا أن العلم العربى ، وإن شئت فقل الإسلامى ، بلغ فى هذا العصر ذروته ، وكان مظهره مصداقاً لما قلنا من قبل ، من أن العلم ليس بضرورى أن يلازم السياسة فى رقيها وانحطاطها ، فقد ترتقى السياسة وينحط العلم ، وقد يكون العكس كما ذكرنا . والسبب فى الارتقاء يعود إلى :

(١) أن امتزاج العلوم والثقافات لم يكن تم نضجه إلا فى عصرنا هذا .

(٢) أن العلماء المسلمين وجدوا أساساً صالحا ، فكان من نشاطهم أن بنوا عليه .

(٣) أن المعتزلة كانت فرقة جادّة مفكرة ، أثمرت ثمارها فى هذا العصر ،

ولـكن مع الأسف ، لم يمض هذا العصر حتى أخذ نجمهم فى الأفول وبحر العلوم فى الانحسار . ولذلك أيضاً أسباب عكسية ، أولا : غزوة التتار ، وما أعقبته من تخريب ودمار ، حتى أهلـكت الأنفس ، وأغرقت الـكتب ؛ وثانياً : سدّ باب الاجتهاد لما رأى العلماء أنهم عاجزون عن بلوغ شأو من قبلهم ، وكان كل ما يأملون أن يسيروا على منهجهم ، ويجروا على منوالهم ؛ وثالثاً : اضطهاد المعتزلة على يد المتوكل ومن بعده ، حتى خفت صوتهم ، وقد كانوا دعاة الحرية والتفـكير ، والتحذير من الخرافات والأوهام ، وغلبهم المحدثون ، وهم دعاة النقل والرواية والوقوف عند النص ؛ ورابعاً : غلبة الأتراك ، وهم والحق يقال ، عنصر لم يكن مثقفاً ثقافة تامة ، ولا مشجعاً للثقافة . وقد كانت العصور الماضية على العموم يعتمد علماؤها وأدباؤها على الولاة والأمراء الذين يفهمون علمهم وأدبهم ، فلمّا عزّ من يفهم ، لم يتشجع العلماء على أن يظهروا علمهم . فظللنا من آخر القرن الرابع تقريباً ونحن فى عماء . ومصداق ذلك ما نراه من الموسوعات ، كالمسالك والممالك وصبح الأعشى ونهاية الأدب ، فكلها تقريباً ليست إلى جمعاً لأشتات المتشابهات من غير تجديد .

ومن ملاحظاتنا أن الأدب قد نما وترعرع أكثر من العلم بالمعنى الدقيق ، فقد بلغ الأدب ذروته وكانت الفوضى السياسية التى بدأت من قديم تعمل عملها ، وتظهر نتائجها ؛ وكان الأدب فى الجاهلية أسلوبا أكثر منه موضوعا ، وكان فى العصر الأموى أدب أحزاب أكثر منه أدب أمة ، وجاء العصر العباسى الأول ثم الثانى ، فانتقلت معانى الفرس والهنود وفلسفة اليونان إلى اللغة العربية ، وكانت غذاء صالحاً للأدب . وجاء أمثال ابن المقفع والجاحظ وجعلوا للأدب موضوعاً ، وجعلوا له أسلوبا ، وجاء بشار وأبو نواس ، فعبرا التعبير الصادق عن الحياة الاجتماعية

الجميلة لا الحياة الجاهلية القديمة ، وجرى الشعراء على أثرهما . فلما جاء القرن الرابع ، كان قد نضج كل ذلك ، وأخذ الكتاب والشعراء يدخلون المعانى الجديدة فى الأدب الجديد ، فكان النثر والشعر يعبران تعبيراً صادقاً عنه فى الغالب . هذا إلى أن كثرة الأموال فى الدولة وعيشة الترف والنعيم عَدَتِ الأدب ، فأخذ هو الآخر ، يتزيّن ليعجب المترفين . وأخذ ما كان يُبنى على الذوق الفطرى من نقد يتحول إلى علم ذى قوانين . وكان القرن الرابع نهاية المطاف .

إنك لتقرأ تاريخ كثير من الأدباء فتراهم نكبوا ، لأنهم ناصروا بعض البويهيين ، فلما انتصر عليهم خصومهم ، أهينوا أشد أنواع الإهانة . وابن سينا الفيلسوف الكبير ، لعبت به السياسة لعباً كبيراً ، حتى فرّ أحياناً ، واختفى أحياناً . وإذا كان الخلفاء والأمراء يقتلون أحياناً وتُسْمَل أعينهم أحياناً ، ويستجدون الناس على أبواب المساجد أحياناً ، فما بالك بالعلماء والأدباء ؟ إن هؤلاء كلهم لو عاشوا فى جو هادئ لأنتجوا خيراً مما أنتجوا ، ولاستفاد الناس منهم أكثر مما استفادوا ، فسلسلة الاضطرابات السياسية قطعت سلسلة العلم والأدب . فقد ظلا نائمين خامدين ، إلى النهضة الحديثة . حتى لو أننا فقدنا نتاج القرون الماضية من القرن الخامس إلى عصر النهضة لم نكن فقدنا كثيراً .

والعلم والأدب عادة فى أشد الحاجة إلى هدوء بال ، وطمأنينة نفس ، وراحة فى الرزق . فما لم توجد هذه الثلاثة لا يستوى لهما طريق ، ولا يؤمل لهما نجاح ؛ شأنهما شأن الزهرة الناعمة ؛ إذا عصفت بها العواصف ، ولم تُرْوَ فى أوقاتها ذبلت ، أو ضعفت .

وقد أخرج هذا العصر كثيراً من الأمراء والوزراء الذين شجعوا الحركة

العلمية ، إما لرغبتهم فى العلم ، وإما لتزيين مجالسهم بالعلماء ، كما تزين بالتحف الطريفة . ذلك أنهم فيما مضى من العصور العباسية ، كانت بغداد وحدها هى مقصد العلماء والشعراء والأدباء ، لأنها عاصمة المملكة الإسلامية كلها ، فلم يك يبنغ نابغ فى أى قطر ، ويحب أن يشتهر إلا ويقصد بغداد لينال هذه الشهرة .

فلما انقسمت الدولة الإسلامية إلى دول ودويلات صغيرة ، تعددت العواصم ، وتعددت رحلات العلماء والأدباء . فمنهم من كان يقصد القاهرة ، ومنهم من كان يقصد حلب ، ومنهم من كان يقصد الرىّ أو شيراز أو بغداد أو غيرها من البلاد . وكانت هذه المدن تتنافس فى اجتذابها للعلماء . واشتهر فى هذا العصر من الأمراء البويهيون فى العراق ، والفاطميون فى القاهرة ، والحمدانيون فى حلب والجزيرة ، والسامانيون فيما وراء النهر . وكل هؤلاء قربوا العلماء والأدباء إليهم ، وأنفقوا على العلوم العربية ، والآداب العربية ، حتى إن بنى بويه مع فارسيتهم شجعوا اللغة العربية والأدب العربى أكثر مما شجعوا الأدب الفارسى واللغة الفارسية . ومن غريب أمرهم أنهم عدوا البلاغة وسيلة الوزارة . ذلك لأن الأدباء كانوا هم السياسيين ، يتثقفون فى السياسة ثقافة عامة مع الأدب . ولم تكن السياسة قد أصبحت علما كما هو اليوم . إنما كانت تدرك بالذوق الفطرى وتستفاد من التجارب ، ومن كتب التاريخ : لهذا رأينا من أشهر الوزراء ابن العميد والوزير المهلبى والصاحب ابن عباد ، وفى القاهرة يعقوب ابن كلس وغيرهم ، وكلهم علماء أدباء . ولذلك تجد فى كتبهم ورسائلهم كثيراً من المعلومات السياسية العامة . فابن العميد كان أديباً كبيراً ، وله مذهب فى الأدب معروف مؤسس على السجع والجناس وسائر أنواع البديع ، وله كذلك شهرة كبيرة فى السياسة . وقصده الناس والعلماء من كل ناحية . فهو يملى عليهم ويقترح على الأدباء موضوعات يقولون

فيها الشعر . وهذا الوزير المهلبى كان فقيراً و بائساً ، وكان من قوله :

ألا موتٌ يُباعُ فأشتريه فهذا العيش ما لا خَيْرَ فيهِ
ألا موتٌ لذيذُ الطَّعم يأتى يخلِّصنى من العيش الـكريهِ
إذا أبصرتُ قبراً من بعيدٍ وددت لو اننَّى مما يَليهِ
ألا رحم المهيْمِنُ نفس حُرٍّ تصدَّق بالوفاة على أخيه

* * *

فلما ظهر أدبه استوزر وعاش عيشة مترفة ناعمة ، وكان يُجْلس الأدباء والشعراء فى مجالسه . ومن جلسائه أبو الفرج الأصفهانى . وهذا الصاحب ابن عبّاد يقول الشعر وينقده ، ويقود حركة فكرية رائعة . ومن حبه للعلم والأدب أنه كان يرسل إلى بغداد كل عام خمسة آلاف دينار تفرّق فى الأدباء والفقهاء . وكان يطمح أن يتملّك العراق ، فيستكتب أبا إسحاق الصابى . وهذا ابن سعدان ، كان وزير صمصام الدولة ، وكان يأنس بالفلسفة أكثر مما يأنس بالأدب . وكان من جلسائه أبو حيان التوحيدى . وتدل أسئلته التى كان يسألها أبا حيان فى النفس وخلودها ونحو ذلك ، على أنه ذو عقلية فلسفية . وكان يعتز بجلسائه ، ويفتخر بأنهم خير من ندماء المهلبى . فكان من جلسائه عيسى بن زرعة النصرانى المتفلسف ، وابن عُبَيْد الـكاتب ، وابن الحجاج الشاعر ، وأبو الوفاء المهندس ، ومسكويه ، وأبو القاسم الأهوازى ، وبهرام بن أردشير ، وكان يقول : « ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل وسادة ذوى العقل . وإذا خلا العراق منهم ، خلا من الحـكمة المروية ، والأدب الغزير ، وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ؟ »[1] ، وهذا سابور بن أردشير ،

(١) انظر الإمتاع والمؤانسة ، والصداقة والصديق لأبى حيان .

وزير بهاء الدولة البويهى ، كان كاتباً سديداً ، جمع كثيراً من الشعراء ، كغيره من الوزراء كالسُّلاَمى والبَبّغاء والنامى والحاتمى .

* * *

ومن العجيب أن آل بويه هؤلاء شُهِروا بالظلم وكثرة المصادرة للأموال ، والنهب من الأغنياء ، حتى إنا نجد بعض الرسائل التى وصلت إلينا من هذا العهد البويهى مملوءة بالشكوى من الظلم ، فيقول الصابى مثلا فى بُخْتِيَار البويهى : « فما زال بختيار يسيء الاختيار ، ويتنكب الصواب ، ويتجنب الإصلاح ، ويمزّق الأموال ، ويعرض الدولة للزوال ، ويهرج الأولياء أشد الإهراج ، ويحملهم على أعوج المنهاج ، ويخرّب الأوطان ، ويشتّت الأقران ، ويقتل الكُفاة ، ويستكفى الغُواة ؛ إلى أن بلغ من فاسد سيرته ، وضالّ طريقته أن استكتب محمد بن بقيّة ، المحيط بكل خلّة دنية » ، وربما كان هذا الوصف ينطبق على أكثر البويهيين وعمالهم .

ويقول أبو بكر الخوارزمى فى وصف سيرة حاكم : « فما زال يفتح علينا أبواب المظالم ، ويحتلب فينا ضَرْع الدنانير والدراهم ، ويسير فى بلادنا سيرة لا يسيرها السِّنَّوْر فى الفار ، ولا يستجيزها المسلمون فى الكفّار ، حتى افتقر الأغنياء ، وانكشف الفقراء ، وحتى ترك الدِّهقان ضيعته ، وجحد صاحب الغَلّة غلّته ، وحتى نشَّف الزرع والضّرع ، وأهلك الحرث والنسل ، وحتى أخرب البلاد ، بل أخرب العباد ، وحتى شوّق إلى الآخرة أهل الدنيا ، وحبّب الفقر إلى أهل الغِنَى ... واللهِ ما الذئب فى الغنم بالقياس إليه إلا من المصلحين ، ولا السّوس فى الخزّ فى الصيف عنده إلا من المحسنين » ، ويصف بديع الزمان

الهمذانى أحد قضاتهم فيقول : « يا للرجال وأين الرجال ؟ وَلِىَ القضاء من لا يملك من آلاته غير السباب ، ولا يعرب من أدواته غير الاختذال ، وما رأيك فى سوسٍ لا يقع إلا فى صوف الأيتام ، وجرادٍ لا يسقط إلا على الزرع الحرام ، ولصٍّ لا ينتقب إلا على خزانة الأوقاف » ويقول بعض الشعراء :

إن شئت أن تبصر أعجوبَةً　　من جور أحكام أبى السَّائب

فاعمِدْ من الليل إلى صُرَّةٍ　　وقرر الأمر مع الحاجب

حتى ترى مروان يقضى له　　على علىِّ بن أبى طالب

وهكذا ، وهكذا .

ومع ذلك ، كانوا يغدقون على العلماء إغـداقاً كبيراً ، فهم على الجملة نهابون وهابون .

فإن نحن تجاوزنا بنى بويه فى العراق وما حوله وجدنا فى القاهرة الفاطميين الذين شجعوا العلم والأدب أكبر تشجيع . فهذا الحاكم بأمر الله ينشئ « دار الحكمة » ، وهؤلاء العلماء يجتهدون فى كل أنواع العلوم . وهذا وزيرهم مثلا يعقوب ابن كلّس الذى كان من أصل يهودى وأسلم ، قال فيه ابن خلكان « كان يحب أهل العلم ، ويجمع عنده العلماء ، ورتّب لنفسه مجلساً فى كل ليلة جمعة ، يقرأ فيه مصنفاته على الناس ، ويحضره القراء والفقهاء ، والنحاة وغيرهم من وجوه الدولة ، فإذا فرغ من مجلسه قام الشعراء ينشدونه المدائح ، وكان فى داره قوم يكتبون القرآن ، وآخرون يكتبون كتب الحديث والفقه والأدب ، حتى الطب . وكان يقيم كل يوم خواناً لخاصته من أهل العلم والكتابة ، وخاصة أتباعه » . ولعل خير ما يمثل ميلهم إلى العلم بناؤهم للأزهر الخالد إلى اليوم .

وهذا سيف الدولة فى حلب والجزيرة ، كان مجلسه مملوءاً بالشعراء والأدباء . وفيه بعض الفلاسفة كالفارابى ، و بعض النحو بين كابن خالو يه .

وكان أيضاً حا كما ظالماً كالبو يهيّين ستهل له قاضيه كل مظلمة، حتى قال القاضى يوماً : « من هلك فلسيف الدولة ما ملك » ، فكان سيف الدولة أيضاً نَهّاباً وهّاباً ، يصادر الناس فى أموالهم ، ليمنحها المتنبى وأمثاله ، فيصوغون له قلائد المدح ؛ و ينطبق عليه الحديث « ليتها ما زنت ولا تصدقت » .

لهذا كله أنتج القرن الرابع هذا كثيراً من العلماء فى كل علم ، مثل إبراهيم المروزى ، والقدورى ، والطحاوى ، وابن السريج فى الفقه ؛ والدراقطنى والنيسابورى وغيرهما فى الحديث ؛ وأبى على الفارسى ، وابن دريد ، والنحاس ، وابن فارس ، وابن جنى ، والزجاج ، وابن درستويه ، وابن السرّاج فى النحو واللغة ؛ والمتنبى ، وأبى فراس ، والناشىء ، والنامى ، وابن حجاج ، وابن سكّرة ، وابن طباطبا ، والخالديين فى الشعر ؛ وأبى هلال الصابى ، والخوارزمى ، وجحظة البرمكى ، و بديع الزمان الهمذانى ، وعلى بن عبد العزيز الجرجانى فى الأدب ؛ والطبرى وابن زولاق ، والشابشْتى ، والمسبِّحى فى التاريخ ، وابن جنزابة ، والإصطخرى وغيرهما فى الجغرافية ؛ وابن مقلة فى الخط ؛ والجبّائى الحسن الأشعرى ، والكعبى والبلخى فى علم الكلام ، وابن نباتة فى الخطابة . فكل هؤلاء نشطت حركتهم ، وكثر علمهم وأدبهم ، مما لا أظن أن عصراً من العصور أخرج مثلهم . حتى جاءت الحركة الحديثة التى نشأت من الاحتكاك بالأجانب والاقتباس من مدنية تغاير المدنية الإسلامية فى كل ناحية من نواحى العلم والفن والحضارة . فأخذنا عنهم ، وسرنا سيرهم ، وتفتحت عيوننا بعض الشىء ، فأخذنا نُغربل القديم وننقده ، بأعيننا الجديدة ، وصار أمامنا مدنيتان مختلفتان : لعل المدنية الغربية منهما أوفر

علما بمعنى العلم الحديث . وعلى أثر ذلك بدأت الحياة العلمية فى الشرق تدب من جديد ، وأمامها مادة وفيرة من المدنية الإسلامية ، ومادة وفيرة من المدنية الغربية .

والمتأمل فيما يجرى يرى أننا متجهون إلى اقتباس العلم والمخترعات بقدر كبير من المدنية الغربية ، ومقتبسون الروحانية والتصوف والأسلوب ونحو ذلك من المدنية الإسلامية ، فنحن نمثل فى الحقيقة الإسكندرية أيام كانت تقتبس من الشرق دينه وروحانيته و إلهامه ، ومن اليونانية طبيعتها ، وكيمياءها ، وطبها ونحو ذلك أو كما فعل المسلمون فى العصر العباسى الأول إذ أخذوا الثقافة الهندية والفارسية واليونانية والرومانية ومزجوها بعضها ببعض ، وكونوا ثقافة هى مزيج من كل ذلك . وصدق التعبير المشهور : «التاريخ يعيد نفسه» . ولكن قد يختلف شكل الإعادة حسب اختلاف الهيئات والظروف ، وحقيقة الجوهر لا تختلف .

ونحن نؤمل أن العالم يسير إلى الأمام على العموم . قد تتخلف بعض الأمم فتموت ، وقد تتخلف بعض الأمم فى بعض النواحى ، ولكن العالم فى جملته يسير إلى الأمام دائما ؛ فعالم اليوم خير من عالم الأمس . قد كان العالم محكوماً بحفنة من الملوك المستبدين ، لا يرعون للشعوب حقًّا ، وكانت تكفى الكلمة لقتل من شاءوا ، ومصادرة من شاءوا — كما رأينا — ثم أصبح للشعوب حقوق ، وللشعوب قوة ، تعزل بها وتولّى وتشرّع ، ولم يصل العالم إلى منتهاه بعدُ . فلا تزال فيه حفنة من قادة السياسة تقوم مقام الملوك ، تعلن الحرب ، وتخرّب الممالك ، ونحو ذلك ، من أفعال سيئة . ولكن العالم سيتقدم ، والعلم سيتقدم ، والنظريات الغامضة ستتضح ، ويفهم العالم فى المستقبل ، القوانين التى تحكم العالم ، والحقوق التى لهم على رؤسائهم . وستكون الشعوب هى التى تحكم

فى أمورها ، وترعى مصالحها ... قد يكون ذلك قريباً ، وقد يكون بعيداً ، ولكنه سيحدث على كل حال .

وهناك مسألة أخرى ، وهى النظر إلى نوع ما شاع بين المسلمين كما رأينا من عظمة الثقافه الأدبية ، دون العلمية ، ونعنى بالثقافة الأدبية ، الأدبية بالمعنى الواسع الذى استعملت فيه كلمة الآداب ، فتشمل الدراسة الأدبية ، الشعر والنثر ، والجغرافيا والتاريخ ، وآداب اللغات ؛ كما نعنى بالثقافة العلمية ، المعنى الذى استعملت فيه كلمة كلية العلوم ، من طبيعة وكيمياء ، ورياضة ، وجيولوجيا ، ونحوها . والناظر فى هذا العصر الذى نؤرخه والذى قبله وبعده ، يرى طغيان الثقافة الأدبية على الثقافة العلمية ، وعناية الشعوب بالآداب أكثر من العلوم . ومصداق ذلك أننا لو دخلنا مكتبة عربية رأينا ما يساوى واحداً فى المائة منها علما ، والباقى أدباً ، فلو حصرنا كتب التراجم مثل ابن خلكان ، وجدنا أن أكثره أدباء ، بالمعنى الواسع ، وأقله علماء ، خصوصاً إذا ضممنا المفسرين والمحدثين والفقهاء إلى باب الأدب ، فنجد مئات الأدباء ، بينهم قليل من أمثال ابن الهيثم وأبى الوفاء البوزجانى . نعم : إن لكل نوع من هذين النوعين مزايا وعيوبا ، فمن ميزات الثقافة الأدبية توسيع الذهن ، وتربية العواطف ، وفهم الحياة الاجتماعية على وجهها ، ومن أضرارها عمومها وعدم دقتها ، واستعداد من يتثقف بها للجدل ، وقدرته عليه ، واستطاعته إقامة البرهان على الشىء ونقيضه . ومزية الثقافة العلمية التحديد والدقة ، إذ كلها تقريباً مثل ١ + ١ = ٢ ، أو مضاعفات ذلك . ومن ميزاتها أن أصحابها لا يقبلون الجدل الكثير ، فالمسألة إما صحيحة ، وإما خطأ ، وليس هنالك وسط . ومن عيوبها خلوّها من العواطف واقتصار أصحابها على دائرة معينة لا يسبحون فى غيرها إلا إذا تثقفوا ثقافة أدبية . ولذلك

ترى أنه إذا تزحزحوا عنها قيد شعرة ، كانوا أشبه بالعوام .

والثقافتان معاً لازمتان لكل أمة ، إذ لا يمكن أن تخلو أمة حية من ثقافة أدبية تغذى العواطف ، وثقافة علمية تغذى العقل .

وقد حرصت كل الأمم تقريباً على أن يكون لها كلية آداب ، وكلية علوم ، كلية آداب تحيي النثر والشعر ، وتدرس التاريخ اتعاظاً بالماضى ، والجغرافيا لمعرفة شؤون العالم ؛ وكلية علوم تضبط الذهن وتقوّى العقل .

وربما كان السبب فى غلبة الميل إلى الأدب أكثر من العلم أن الأدباء بطبيعة أدبهم ، وبطبيعة طول لسانهم كانوا أقرب إلى قلوب الملوك والأمراء ، يمدحونهم ويتزلفون إليهم ، بينما رجال العلم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئاً من ذلك ، إذ هم قصيرو اللسان لا يتكلمون إلا بقدر ... هذا إلى أن الأدباء عادة أقدر على السمر اللطيف ، والحديث الممتع ، والنكت الطريفة ، على حين أن العلماء متزمتون ، غير قادرين على المرح والنكت . وكان ذلك تقريباً ظاهراً فى كل العصور الإسلامية ، من مبدأ عصر الإسلام إلى قرب عهدنا بقليل . فلما جاءت المدنية الحديثة ، وكانت قد أسست أكبر ما يكون على العلم ، وعلى الاختراعات والصناعات ، اقتبسنا منها ، ونحونا نحوها .

نعم : إن المدنية الحديثة لم تهمل الأدب ، ولكنها مع ذلك قوّمت العلوم تقويماً كبيراً ، فأخذنا نؤسس حياتنا على العلم أيضاً ، حتى لا يكون الشرقيون عالة على غيرهم ، وكان من نتيجة كثرة عنايتهم بالأدب كثرة كلامهم وكثرة جدلهم ، حتى لا يتناسب محصول فعلهم مع محصول كلامهم . ومجالسهم مملوءة بالجدل والمناقشة ، ومشروعاتهم مملوءة بالبحث النظرى من غير نتيجة .

بل نرى أن اتجاه الغربيين إلى العلوم وتوسعهم فيها جعلهم يلوّنون أدبهم بلون العلم ، وكان دائماً لأدبهم موضوع ، على عكس ما نرى عند الخوارزمى ، والعماد الأصفهانى والقاضى الفاضل من كلام كثير لا موضوع له .

بل أظن أن الثقافة الأدبية تجعل صاحبها أقدر على الميوعة فى الأخلاق ، والقدرة على التأويل . وكما قال البوصيرى فى إحدى قصائده :

وما أخشى على أموال مصرٍ سوى من معشرٍ يتأولونا

* * *

ونحن لو درسنا الشرق لرأينا فيه من الكفايات ما يكفى العلم والأدب جميعاً . فالجوّ الذى أخرج ابن الهيثم يستطيع أن يخرج أمثاله من العلماء ، لولا أن الشعب لظروفه وجَّه ناشئيه إلى الأدب . ولو وُجِّهوا إلى العلم ، لكانوا بحسن استعدادهم نابغين . فعلى الشرق الآن عبء ثقيل هو أن يعوّض عن القصور فى العلم فيما مضى ، النهوض بالعلم فى الحاضر . ونحن إن فعلنا ذلك ملئت كتب تراجمنا بالعلماء والأدباء على السواء . والله الموفّق .

فهرس الأعـــلام

(ب)

(ت)

(ث)

فهرس الأماكن والبلدان

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)



كتاب فى أربعة أجزاء يبحث فى الحياة الاجتماعية والحركات
العلمية والأدبية والفرق الدينيـــة فى العصر العباسى الثانى ؛

تأليف

أحمد أمين

الجزء الثالث

يبحث فى الحياة العقلية فى **الأندلس** ، من فتح العرب لها
إلى خروجهم منها ، ويتكلم فى الحركات الدينية واللغوية
والنحوية والأدبيـــة والفلسفية والتاريخية والفنية .

الناشر
دار الكتاب العربي
بيروت - لبنان

الطبعة الخامسة ـ بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

من أول ظهور الجزء الأول من « ضحى الإسلام » وعدت القرّاء بتخصيص جزء « للأندلس » ، وانتهى ضحى الإسلام من غير أن يكون فيه شيء عنها ، لأنها لم تكن ازدهرت فى عصر ضحى الإسلام . فلما جاء ظهر الإسلام يؤرخ القرن الرابع الهجرى ، رأيت الفرصة سانحة لتأريخ الحياة العقلية فى الأندلس . ولكن لم أكتف بتأريخها فى القرن الرابع وحده ، بل رأيت أن حضارتها وحياتها العقلية تكاد تكون وحدة ، ففضلت فى شأنها أن أنهج منهجاً جديداً ، فلا ألتزم القرن الرابع ؛ بل أؤرخ حياتها العقلية متسلسلة من وقت فتح المسلمين لها ، إلى وقت خروجهم منها ، أى نحو ثمانية قرون ، حتى تكون كلها مربوطة برباط واحد ، معروضة عرضاً واحداً .

وكان أمامى أن أؤرخها تأريخاً أفقيا ، أو تأريخاً رأسيا ، بمعنى أن أؤرخ الحياة العقلية فى كل عصر ، ثم أتبع ذلك بالعصر الذى بعده وهكذا . أو أن أؤرخ كل علم من مبدأ ظهوره فى الأندلس وكيف تدرّج ، حتى آخر أمره فيها ، ففضلت الطريق الثانى لأنه أنسب .

ولم يكن قصدى أن أؤرخ الحياة السياسية ، لأن مهمتى هى الحياة العقلية لا السياسية ، وذلك شأنى فى كل أجزاء السلسلة . فلم أتعرض لشرح الحياة السياسية والاجتماعية إلا بالقدر الذى يلقى ضوءاً على الحياة العقلية ، خصوصاً وأن أكثر ما رأيت من الكتب التى ألّفت فى الأندلس عربية أو إفرنجية كانت

تدور حول السياسة ، فإن زادت شيئاً ففصل أو فصلان فقط فى شرح الحياة الفكرية . فكانت الحاجة إلى شرح الحياة العقلية أمسّ ، والعناية بها أوجب .

فأقدّم الكتاب على هذا النحو للقراء راجياً منهم — لا كما كان يقول السابقون — أن يغضوا الطرف عما فيه عيوب ، بل أن يقيدوها و يشرحوها و يبينوها لى حتى أتدارك ما لا يخلو منه مؤلّف من خطأ . فالحياة العلمية فى كل فرع إنما تحيا بالنقد ، وتتقدم بتمحيص الآراء ، و إظهار العيوب ، وحسن التوجيه .

وهذا رجاء أرجوه فى كتابى هذا ، وفى كل كتبى . فما أردت إلا الحق . و يبقى علىّ من هذه السلسلة فى القرن الرابع الهجرى ، وهو الذى عنونته بـ « ظهر الإسلام » الجزء الرابع والأخير فى المذاهب الدينية وتطوّرها .

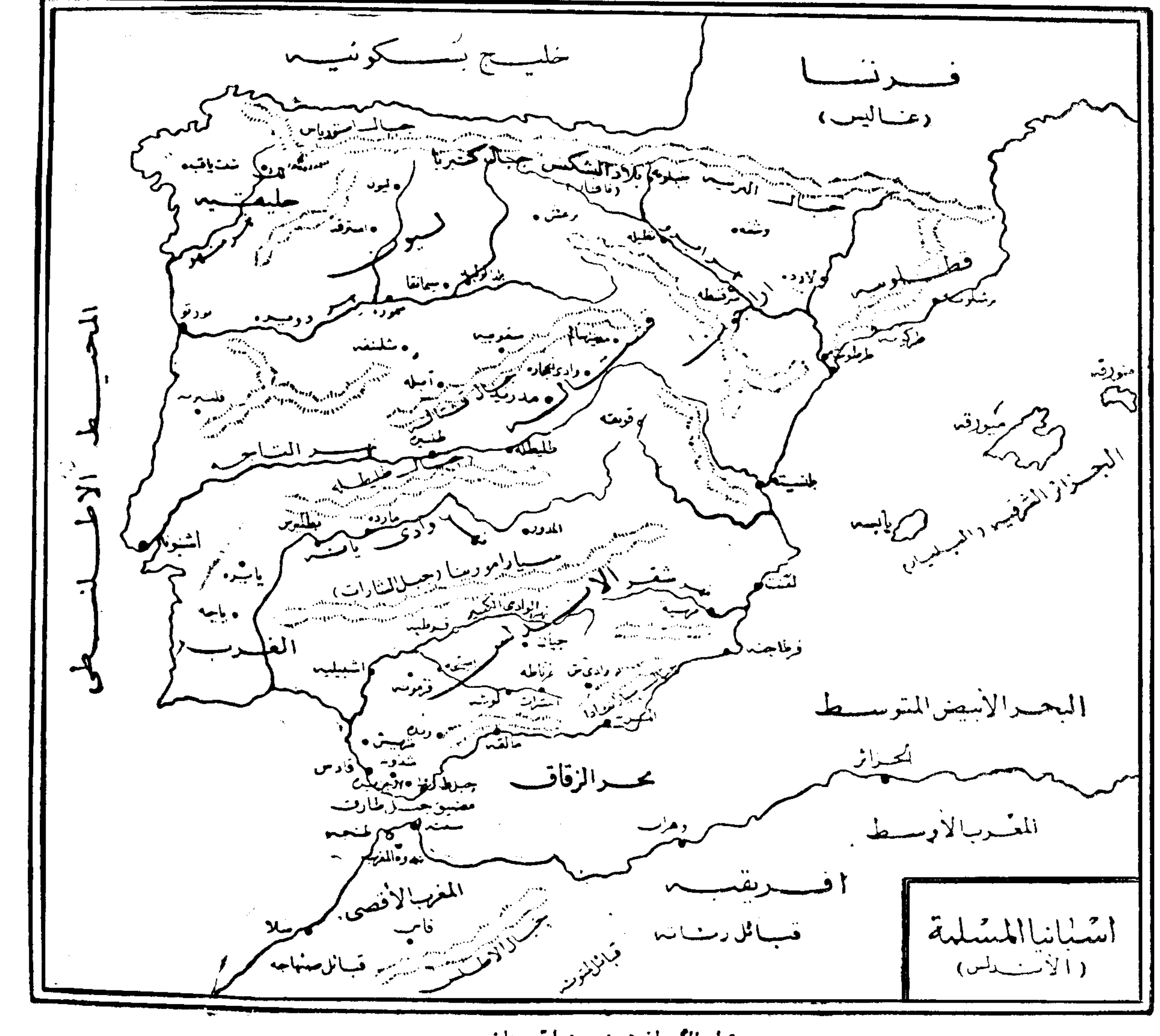
والله أسأل أن يعيننى عليه كما أعاننى على سوابقه .

القاهرة { ١٤ ربيع الثانى سنة ١٣٧٣ هـ
٢١ ديسمبر سنة ١٩٥٣ م }

أحمد أمين

فهرس الموضوعات

صفحة



من عمل الأستاذ محمد عبد الله عنان

الباب الاول

الحياة الاجتماعية فى الأندلس

فى سنة ٩١ أرسل موسى بن نصير عاملا على أفريقية فعزم على فتح الأندلس ، وأَرسل طارق بن زياد البربرى الأصل لمباشرة الفتح أول الأمر ، فعبر طارق البحر بقصد فتح الأندلس . وكان حسن سمعة العرب فى الفتح وشجاعتهم واستماتتهم فى نشر الدعوة سبباً فى انتصارهم . يضاف إلى ذلك سوء حكم الإسبانيين وما بين ولاتهم من ضغائن وإحن . وتمم موسى بن نصير ما بدأه طارق .

وقد كان الفاتحون من قبائل العرب المختلفة ، فمنهم العدنانيون من هاشميين وأمويين ، ومنهم اليمنيون كقبيلة كهلان والأزد ، وانضم إلى هؤلاء فى الفتح مصريون وشاميون وعراقيون وجمع كبير من البربر . وقد امتزج هؤلاء جميعاً ببعض أهل البلاد من قوط وإسبانيين وغيرهم إما بالمصادفة أو بالمصاهرة . ولكن مع الأسف أنه ما لبثت العصبية القديمة التى كانت ظاهرة فى المشرق أن عملت عملها فى المغرب ، فكان إذا ولى الأمر قيسىّ نكّل باليمنيين وقرّب المضريين ، وإذا ولى الأمر يمنىّ نكل بالقيسيين وأعلى شأن اليمنيين ، حتى سالت الدماء فى كل مقاطعة وحتى اصطلحوا أخيراً على أن تكون الولاية فى القيسية سنة ، وفى اليمنية سنة .

وكل يوم نسمع والياً هزم وواليا نصّب حتى بلغ عدد الولاة نحو أربعين والياً فى مدة وجيزة .

على كل حال كانت العناصر التى سادت الأندلس أربعة :

(١) العرب ، وكانوا يحسون إحساساً قوياً بأرستقراطيتهم لغلبتهم على الإسبانيين والبربر وإدخالهم فى الإسلام ، وبلغتهم التى تفوق غيرها .

(٢) البربر ، وهم يشاركون العرب فى البداوة والإسلام والعصبية القبلية والشجاعة ، ولذلك وَجد منهم العرب الأمرَّين عند فتحهم للمغرب .

(٣) الإسبان ، وهم مسيحيون كاثوليك ، يرون أن البربر والعرب دخلاء عليهم وأنهم أحق بملك بلادهم .

(٤) المسلمون المولدون من تزاوج العرب بالبربر ، أو العرب بالإسبانيات والصقالبة ، وكان لذلك سبب كبير ، وهو أن الجيش الفاتح كان من الرجال النازحين من الشرق الذين قطعوا مسافات بعيدة حتى وصلوا إلى الأندلس ، فكان طبيعيا ألا يرحل معهم عدد كبير من النساء ، فاضطرتهم الحاجة إلى أن يتزوجوا من الإسبانيات أو من البربر ويستولدوهن . وقد خرج من هذا الازدواج بين عربى وبربرية ، أو عربى وإسبانية جيل جديد مولّد ، يشبه ما كان فى الشرق من تزاوج بين عربى وفارسية . وقد عرف المولّدون من النساء الإسبانيات بالذكاء والشجاعة والجمال . وكان لهم فى تاريخ الأندلس تاريخ طويل .

وقد حبب العرب فى هذا الزواج ما عرف عن الإسبانيات والبربريات من جمال وبياض بشرة واصفرار شعر وزرقة عيون . وهى صفات يحبها العربى كثيراً ، لأنها جديدة عليه .

وقد دخل كثير من أهل البلاد فى الإسلام وتكلموا العربية وتعصبوا لها ضد لغتهم ودياناتهم . ولما رأى العرب والبرابرة الأندلس أعجبوا بها وافتتنوا بمحاسنها حتى قال قائلهم :

إن للجنة بالأندلسِ ... مُجْتَلَى مرأًى وريّا نَفَس

فَسَنَا صُبْحَتِها من شَنَبٍ ودجى ظلمتها من لَعَسِ
فإذا ما هبَّت الريح صَباً صِحْتُ وا شوقى إلى الأندلس

ويقول آخر :

وليس فى غيرها بالعيْش منتَفَع ولا تقوم بحقِّ الأنس صهباء
وكيف لا يُذهب الأبصارَ رؤيتُها وكلّ روضٍ بها فى الوشْيِ صنْعاء
أنهارها فضَّةٌ والمسك تربتُها والخزُّ روضتُها والدُّرّ حصباء
وللهواء بها لطفٌ يرقُّ به من لا يرقُّ ، وتبدو منه أهواء
فيها خلعت عِذارى ما بها عوضٌ فهى الرياض وكل الأرض صهباء

وقد وصف لسان الدين بن الخطيب عرب غرناطة و برابرها وصفاً ينطبق على جميع عرب الأندلس تقريباً و برابرتهم ، خصوصاً بعد مضى زمن من بدء الفتح ، فقال : « أحوال هذا القطر فى الدين وصلاح العقائد أحوال سُنّة . . . صورهم حسنة ، وأنوفهم معتدلة غير حادة ، وشعورهم سود مرسلة ، وقدودهم متوسطة معتدلة إلى القصر ، وألوانهم زُهر مُشْرَبة بحمرة ، وألسنتهم فصيحة عربية ، يتخللها إعراب كثير ، وتغلب عليهم الإمالة . . . ولباسهم الغالب على طرقاتهم الفاشى بينهم المِلَفُّ المصبوغ شتاء ... فتبصرهم فى المساجد أيام الجمع كأنهم الأزهار المفتحة فى البطاح الكريمة ، وأنسابهم العربية ظاهرة ، يكثر فيها القرشى ، والفهرى ، والأموى ، والأنصارى ، والأوسى ، والقحطانى ، والحميَرى ، والمخزومى ، والتَّنُوخى ، والغسَّانى ، والأزدى ، والقيسى الخ ... وجندهم صنفان : أندلسى و بربرى . والأندلسى منهم يقودهم رئيس من القرابة ، وحِصِىٌّ[1] من شيوخ الممالك ... وزيّهم فى القديم شبه زىّ أقيالهم وأضدادهم من جيرانهم

(١) رجل معروف بالعقل .

الفرنج ، إسباغ الدروع ، وتعليق التُّرُس ، واتخاذ عراض الأسنَّة الخ . . .
والبربرى يرجع إلى قبائله المَرِينيَّة ، والزَّناتية الخ ... والعمائم تقل فى زىّ هذه
الحضرة ، إلا ما شذَّ فى شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم . . . ومواسمهم متوسطة ،
وأعيادهم حسنة ، مائلة إلى الاقتصاد ، والغِنى بمدينتهم فاشٍ ، وقوتهم الغالب
البرّ الطيب عامة العام ، وربما اقتات فى فصل الشتاء الضعفة والبوادى والفعَلة فى
الفلاحة الذرة العربية . وفواكههم اليابسة متعددة ، يدخرون العنب سليما من
الفساد إلى شطر العام ، إلى غير ذلك من التين والزبيب والتفاح والرمان
والقَسْطل[1] والجوز واللوز إلى غير ذلك مما لا ينفد ولا ينقطع إلا مدة . وصرفهم
فِضَّة خالصة وذهب إبريز ... وعلى عهدنا فى شقٍّ : « يعنى من النقود الفضية »
لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، وفى شق : لا غالب إلا الله ... ودينارهم فى شق
منه : قل اللهم مالك المُلك ، إلى بيدك الخير ؛ ويستدير به قوله تعالى : وإلهكم
إلهٌ واحد ، لا إله إلا هو الرحمن الرحيم . وفى شق اسم الأمير ؛ ويستدير به :
لا غالب إلا الله . وعادة أهل المدينة البروز إلى الفُحُوص[2] بأولادهم وعيالهم ،
معوِّلين فى ذلك على شهامتهم وأسلحتهم . . . وحريمهم حريم جميلٌ ، موصوف
بالحسن ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور ، وطيب النشر ، وخفة
الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المجاورة ؛ إلا أن الطول يندر فيهن . وقد
يبلغن فى التفنن فى الزينة ، والمظاهرة بين المصبَّغات ، والتنافس بالذهبيات
والديباجيات ، والتماجن فى أشكال الحلىّ إلى غاية » .

لهذا اختلف أهل الأندلس عن أهل المشرق . فبيئة الأندلس الطبيعية
والاجتماعية مختلفة عن بيئة المشرق فى كثير من الشئون ، وبذلك اختلف النتاج
الأندلسىّ عن النتاج المشرقى ...

---

(١) أبو فروة . (٢) الفحوص : جمع فحص ، وهو المرعى يملكه فرد
أو جماعة ، ويستعمل فى الجزائر ومراكش بمعنى الضاحية .

على كل حال ظلت ولاية الأندلس ولاية تابعة للخلافة الأموية فى دمشق يرسل الخلفاء الأمويون الوالى على الأندلس من قِبَلهم ، أو يرسل والى أفريقية ، والياً تابعاً لهم إلى الأندلس ، وظل الحال كذلك حتى سقطت الدولة الأموية ، وتتبع الخليفة العباسى السفاح بنى أمية يقتّلهم و ينكّل بهم . ففرَّ حفيد لهشام بن عبد الملك ، وهو عبد الرحمن الملقَّب بالداخل و بصقر قريش ، إلى الأندلس ، وانتهز فرصة الخلافة بين القيسيَّة واليمنية فتغلب على الولاة ، و بايعه الناس بالإمارة وجعل قرطبة عاصمة إمارته ، ولم يسلم من ثورة عدد كبير عليه ، من عرب و بربر ، حتى شارلمان مؤسس الإمبراطورية الفرنجية الكبيرة ، أراد أن يتقرب إلى هارون الرشيد بالتنكيل بعبد الرحمن ، و بالفعل بعث بجنده غازيا الأندلس ولكنه لم ينجح ، فردَّ عبد الرحمن جنوده ، ونزلت بشارلمان هزيمة كبيرة فى عودته . وشاء الحظ أن تطول مدة عبد الرحمن الداخل فاستطاع أن يؤسس دولته على أسس متينة ثابتة الأركان ، كما فعل أبو جعفر المنصور فى الدولة العباسية ، وخدم بهذا أبناءه من بعده . فلما مات سلَّم لابنه هشام دولة قوية يؤيدها جيش قوىّ ، ولكن لم يستطع عبد الرحمن الداخل ، ولا أبناؤه من بعده ، أن يقضوا قضاء تاماً على الإسبانيين فى جزء من الشمال ، فظلوا شوكة فى جنب المسلمين ، يتحركون و يحاربون كلما سنحت لهم الفرصة ، ينهزمون مرة و ينتصرون مرة ، حتى تم لهم النصر أخيراً . وظلت الإمارة الأموية فى الأندلس حتى جاء عبد الرحمن الناصر ، فتجرأ ولقَّب نفسه أمير المؤمنين ، ونقل عبد الرحمن هذا مظاهر الترف والنعيم التى كانت فى الدولة العباسية إلى الأندلس وتبعه بعد ذلك فى تدعيم الترف أبناؤه خصوصاً على يد زرياب ، واستطاع عبد الرحمن الناصر أن يصبح أعظم الأمراء الأمويين فى إسبانيا ، وشاء له الحظ أن يحكم خمسين سنة ، أمكنه فيها أن ينشر السلام فى البلاد و يرضى الخاصة والعامة . وفى عهده حاول الفاطميون أن ينشروا تعاليمهم ، و يثيروا

البلاد لينشروا مذهبهم الفاطمىّ ، فلم يمكّنهم من ذلك ، وقضى على مؤامراتهم .

وقلد عبد الرحمن الناصر الخليفة العباسىّ المعتصم ، فإن المعتصم أنشأ جيشاً من الأتراك يعتمد عليه لما تعب من العرب ، فكذلك أنشأ عبد الرحمن الناصر جيشاً من المماليك ، يوطّد به سلطته ، ولكن المماليك هنا كانوا يسمّون الصقالبة ، وهو اسم كانوا يطلقونه على أسرى الحرب من جميع البلاد الأوربية ، وعلى من وقع فى أيدى المسلمين من الرقيق ، وذلك أن تجارة الرقيق كانت منتشرة ، وكان بعض البيزنطيين يقدمون للمسلمين فى الأندلس أنواعاً أخرى من الرقيق من غزواتهم لشواطئ البحر الأسود ، وكانت هناك إلى ذلك كله مراكب لقرصان إسبانيين يغزون السواحل ، ويصيدون بعض الناس ، ويبيعونهم فى سوق الرقيق بالأندلس ، وكان اليهود أهم من يقوم بتجارة الرقيق هذه .

وعظمت منزلة الصقالبة كثيراً ، كما عظم الأتراك فى عهد المعتصم ومن بعده ، حتى كان كثير منهم من الأرستقراطيين فى المال والجاه . وكان عبد الرحمن الناصر يثق بهم أكثر مما يثق بالعرب والبربر ، حتى لقد يعهد بقيادة جيش كبير إلى صقلّبىّ . ومن أجل هدوء البلاد وطمأنينتها وطول عهد عبد الرحمن استطاعت الحضارة الأندلسية أن تزهو وتزدهر ، حتى كانت قرطبة تفوق كثيراً من مدن أوربا . وازدهرت التجارة والزراعة ، حتى بلغ دَخْل الدولة السنوى من طريق الضرائب والمكوس فى عهد عبد الرحمن الناصر ٢٠ مليون دينار ، ويقول الأستاذ بروفنسال : إنها بلغت فيما بعد ٤٠ مليوناً ، والدينار لا يصح أن يقارن بالجنيه اليوم ، لأن قيمة كل منهما إنما هى فى قدرته على الشراء ، وكانت قدرة الدينار إذ ذاك أكبر ، وربما كان وصف العمارة التى أنشئت فى عهد عبد الرحمن من أكبر الدلائل على حضارته ؛ كالأوصاف البديعة التى وصفوا بها مدينة الزهراء التى بناها عبد الرحمن هذا ، وأسماها باسم جارية حَظِيّة عنده . قالوا إنه عمل

فى بنائها عشرة آلاف عامل فى خمس وعشرين سنة . وبُنى فيها قصر للخليفة ومنازل للموظفين ، إلى البساتين والقاعات من الذهب والرخام ذى الألوان المتعددة ، وبجانب هذه الحضارة المادية كانت الحضارة الفكرية من شعر وفلسفة وتصوف وحركات دينية وعلمية وسيأتى وصفها فيما بعد .

وبعد أن ضعفت الدولة الأموية فى الأندلس جاءت الدولة العامرية ، فزلزلت البيت الأموى . ولولا قوة شخصية ابن أبى عامر ، وطفولة الأموى المرشح للخلافة ، وألاعيب أمِّه ، لظل الناس متمسكين بالبيت الأموى مدة طويلة .

ثم تفتَّتَتْ الدولة الأندلسية وتغلب عليها ملوك الطوائف ، فكلٌّ ملك ثار فى بلد ، واستولى عليها ، فتعدَّدت الملوك ، وتفرق أهل البلاد ، وأصبح فى كل بلد أمير ومنبر ، حتى أهل البيت الواحد انقسموا فيما بينهم ، ولم يمكنوا الحاكم من الاستمرار . فبعضهم ينزل الأمير عن عرشه ، ويستولى هو ، وبعضهم يحالف ملوك إسبانيا ضد الأمراء من أهل بيته ، حتى انتهى كل هذا إلى خروجهم جميعاً من الأندلس وسقوطها فى يد الإسبانيين بعد حكم دام نحو ثمانية قرون . وقد حاول أمراء المغرب من مرابطين وموحِّدين أن يعيدوا الأندلس إلى الوحدة والترابط ، ولكن مع الأسف سرعان ما ضعفوا أيضاً . ولم يكونوا من سعة الأفق والعراقة فى المدنية والحضارة بحيث يستطيعون أن يحكموا الأندلس طويلا ، فزلزلت الأرض من تحتهم ، فسقطوا وزال ملكهم سريعا ، وخلفهم دويلات صغيرة كانت أعجز من أن تقاوم الإسبانيين وتقف أمامهم ، فانهزموا تباعاً إلى أن رحلوا أخيراً من غرناطة . وتركوا الديار تنعى من بناها .

نعود إلى ما كنا فيه فنقول :

إن العرب والبربر الفاتحين تغلبوا على الإسبانيين ولم يتغلبوا بالسيف وحده ، بل كذلك تغلبوا أيضا بروحهم ولغتهم ودينهم ، حتى دخل كثير من الإسبانيين

فى الإســلام ، وتقمصوا النفسيَّة العربية ، ونسوا لغتهم اللاتينية ، وتعاليمهم النصرانية ، وتعددت شكوى القسِّيسين من أن الإسبانيين ينسون دينهم ولغتهم ، ويقبلون على الإسلام ولغته . ولعل من أسباب ذلك أن اللغة العربية كانت فضلا عن أنها لغة الفاتحين تزخر بالعلوم والمعارف التى افتقرت إليها لغتهم .

وعرفت للأندلسيين صفات خاصة ، فمثلا اشتهروا بالنظافة ، حتى أن بعضهم ليفضل أن يكون نظيفا فى ملبسه ومأكله ولو بسيطا ، عن أن يأكل أكلا فخما قذرا ، وقد اعتادوا أن يسيروا فى الشوارع ورءوسهم عارية ، حتى لقد ترى القاضى ، أو المفتى وهو عارى الرأس ، ويندر أن يتعمم . واعتادوا أيضاً أن يلبسوا البياض عند الحداد ، وقال القائل :

يقولون البياضُ لباس حزن بأندلس فقلتُ من الصواب
ألم ترَنى لبِسْتُ بياض شَعرى لأنى قد حزنتُ على الشباب

وكان الأندلسيون شديدى التعصب لبلادهم . تلحظ ذلك فى تراجم علمائهم : فهذا يلقب بالمالقى ، وهذا بالبلنسى ، وهذا بالغرناطى ، أو بالشاطبى ، أو الجيَّانى ، أو نحو ذلك ؛ كما كان الحال فى الشرق مثل البغدادى والبخارى والهمذانى والبصرى والواسطى ، وكانوا يميلون فى كلامهم إلى الإمالة ، حتى ليقولون فى كتاب كِتيب تقريباً ، كلغة أهل حَمَاة وحلب .

ويحدثنا ابن خلدون وأبو بكر بن العربى أن للأندلسيين طريقة فى التعليم غير طريقة أهل الشرق ، فإنهم فى المَشرق يحفظون القرآن أولا قبل أن يستطيع الصَّبىُّ فهم معناه ، ثم يعلمون اللغة العربية . وعيب هذه الطريقة أن الحافظ للقرآن من غير معنًى عرضة لفهم المعانى الخاطئة التى قد تبقى فى ذهنه على مر الأيام ، أما فى الأندلس فيعلِّمون اللغة العربية أولا ، ثم يحفِّظون القرآن بعد القدرة على الفهم . وعيب هذه الطريقة التعرض لأن يتخلف بعض المتعلمين عن حفظ القرآن

أو يتعلمون العلوم العربية ثم ينقطعون عن التعلم ، ولذلك نصح بعضهم بأن يحفظ الطفل القرآن أول الأمر ولو من غير فهم ثم يتعلم العلوم العربية ، ثم يعود إلى القرآن ثانية وقد استطاع الفهم . .

وشُهروا بعلوّ الهمة حتى لقد يفرطون فى ذلك فيطمح كثير منهم أن يكونوا ملوكا فتنشب الفوضى فى البلاد ، كما اشتهروا بالرغبة فى العلم ، حتى لقد وضع ابن حزم رسالة فى فضل علماء الأندلس . وعاب على أهل الأندلس تقصيرهم فى تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضائلهم ، مع كثرتهم ، ووفور أدبائهم ، وجلالة ملوكهم . وقد تدورك هذا فألف بعده كثير من كتب تراجم علماء الأندلس وأدبائها ، وما أكثرهم . وقد عدَّ فى رسالته هذه الكتب المؤلفة فى الحديث وفى الناسخ والمنسوخ ، وكتب الفقه المؤلفة على مذهب الإمام مالك . وفى اللغة ككتاب البارع ، والمقصور والمهموز ، وكتاب الأفعال لابن القوطية ، وفضل كتاب « الآمالى » على كتاب الكامل للمبرد ، لأنه أكثر لغة وشعراً ، وكتاب الحدائق لأبى عمر أحمد ابن فرج على كتاب « الزهرة » لابن داود ، وكتاب التشبيهات ، وكتب أُلِّفت مقصورة على شعراء الأندلس ، كالكتب التى أُلفت مقصورة على شعراء المشرق ، كما ألفوا كتباً كثيرة فى التاريخ . وقال ابن حزم أيضاً : « إنه رأى كتباً فى الفلسفة ، لسعيد بن فتحون السَّرقُسْطِى ، ولأبى عبد الله المذحِجِى ، وفى الطب لابن الهيثم فى الخواصِّ والسموم والعقاقير ما لا يقل عن كتب المشرق » وقد اعترف بأن الأندلسيين فى الحساب والهندسة لم يجاروا المشرقيين . قال « وأما علم الكلام فإن بلادنا وإن كانت لم تتجاذب فيها الفِصَل ، ولا اختلفت فيها النِّحل ، لذلك قلَّ تصرُّفهم فى هذا الباب . وقد كان فيهم قوم يذهبون إلى الاعتزال ويؤلفون على أصوله » ، وقال « وبلدنا هذا على بعده من ينبوع العلم ونأيه من مَحِلة العلماء ، فإن له من تآليف أهله ، ما إن طُلب مثلها بفارس والأهواز وديار مضر ،

لم يوجد ، ولو لم يكن لنا من فحول الشعراء إلا ابن درّاج القَسْطَلِي ، لما تأخر عن شأو بشّار وحبيب والمتنبى ، وكيف ولنا معه فحول آخرون ؟ » ، وعلى كل حال فصاحب البيت أدرى بما فيه ، وابن حزم رجل واسع الاطلاع ، صادق الحكم

وخلاصة رأى ابن حزم أن الأندلسيين لا يقلّون عن المشرقيين فى سائر العلوم ، ما عدا علم الكلام ، لقصر نفَسهم فى الجدل ، و إلا فى الحساب والهندسة . والضعفُ فى علم الكلام لا يضيرهم لأنه فى المشرق ملأ العقول آراء لا طائل تحتها ، وعلّم الناس السفسطة ، ولعل سبب انتشاره فى المشرق دون الأندلس أن المشارقة من قديم ورثوا آراء قديمة عن زرادشت ، ومَزدك ، وغيرهما ، وعن فلاسفة الهند والصين والفرس ، حتى وصل بهم الجدل إلى آراء غريبة . أما الأندلسيون فلم يكن لديهم هذا الميراث الثقيل ، وأما قصورهم فى الحساب والهندسة ، فقلّة استعداد فى الغالب ، كالذى نراه عند أرسطو ، والجاحظ وابن سينا ، وأخيراً السيوطى ، فقد اعترف السيوطى بأنه لا يحسن حل المسائل الحسابية ولو كانت بسيطة .

وأما الشُّقُندى فله رسالة أخرى تعصب فيها للأندلسيين على طول الخط فى كل علم وفن فقال : « إن الإجماع حصل على فضل الأندلس ، وقد نشأ فيهم من الفضلاء والأدباء والشعراء ما اشتهر فى الآفاق إلى أن ذهبوا ، وذهبت أخبارهم ، ودرَسوا ودرست آثارهم .

جمالَ ذى الأرض كانوا فى الحياة وهم بعد الممات جمال الكُتْب والسِّيَر

وليس منهم إلا من بذل وسعه فى المكارم ، وكان من ملوكهم العلماء : المنصور بن أبى عامر ، و بنو عبّاد ، و بنو صُمادح ، و بنو الأفطس ، و بنو ذى النون ، و بنو هود . ومن أعظم ما يحكى عنهم أن أبا غالب اللغوى ألّف كتاباً فبُذِل له فيه ألف دينار فقال : « كتاب ألّفْتُه لينتفع به الناس ، لا يصح أن آخذ عليه أجراً » ... وكان لبنى عبّاد من الحنوّ على الأدب ما لم يقم به بنو حمدان فى حلب ،

وكانوا هم و بنوهم ووزراؤهم صدوراً فى بلاغتى النظم والنثر ، مشاركين فى فنون العلم ، ولم يكن لغيرهم فى الفقه مثل عبد الملك بن حبيب ، وأبى الوليد الباجى ، وأبى بكر بن العربى ، وأبى الوليد بن رشد ؛ وليس فى المشرق فى الحفظ مثل ابن حزم الذى زهد فى الوزارة ومال إلى رتبة العلم ، ورآها فوق كل رتبة ، ولا مثل ابن عبد البر ، وليس فى حفّاظ اللغة كابن سِيده ، صاحب كتاب المحكم ، ولا فى النحو مثل أبى محمد بن السِّيد ، وأبى على الشلوبينى ، ولا فى علم الفلسفة كابن باجة ، ولا فى علم النجوم كالمقتدر بن هود ، ولا فى الطب مثل ابن طفيل ، ومثل بنى زهر ، ولا فى الأدب كابن عبد ربه صاحب العِقد ، ولا فى تخليد مآثر قومه كابن بسّام صاحب الذخيرة ، ولا فى بلاغة النثر كالفتح بن عُبيد الله بن خاقان الذى إن مدح رفع ، و إن ذمّ وضع ؛ وقد ظهر له من ذلك كتاب القلائد ، ولا فى الشعر مثل المعتمد بن عبّاد ، وقد ألّف المظفر بن الأفطس ملك بَطَلْيوس كتاباً فى نحو مائة مجلد ، ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همّة الأدب . وليس فى الوزراء مثل ابن زيدون ، ولا فى الشعراء مثل ابن درّاج الذى قال فيه الثعالبى فى اليتيمة « إنه فى الأندلس كالمتنبى فى الشام » ثم عدّد المعانى اللطيفة التى وردت على لسان الشعراء ، ثم قال : « وهل فى النساء من برعن فى الأدب مثل ولّادة صاحبة ابن زيدون ، وزينب بنت زياد ؟ » ، ثم عدّد فضائل البلاد الأندلسية ، كإشبيلية ، وقد قارن بين نهرها و بين نيل مصر فقال : « هى غابة بلا أُسْد ، ونهرها نيل بلا تمساح ، وليس لمثلها ما لها من أدوات الطرب ، نعم فى البلاد الأخرى مثلها ، ولكن إشبيلية تفوقها ، وأما قرطبة فكرسىّ المملكة فى القديم ، ومركز العلم ، ومنار التقى ، ومحلّ التعظيم والتقدير . و بلاد جيّان أكثر البلاد زرعا ، وأصرمها أبطالا ، وأعظمها منعة ؛ وأما غرناطة ، فإنها دمشق بلاد الأندلس ، ومسرح الأبصار ، ومطمح الأنفس ، ولم تخل من أشراف أماثل ،

وعلماء أكابر ، وشعراء أفاضل . نبـغ فيهـا من الشواعر ما لا يحصى . وأما « مالَقَهْ » فقد جمعت بين منظر البرِّ والبحر ، وكثرة المراكب البحرية ، وقد خصَّت بطيب الشراب ، حتى قيل لأحد الخلفاء ، وقد أشرف على الموت ، اسأل ربك المغفرة ، فرفع يديه ، وقال : يارب ، أسألك من جميع ما فى الجنة ، خمر مالقة ، وزبيب إشبيلية .

واشتهر أهل « المرِيَّة » باعتدال المزاج ، ورقة البشرة ، وحسن الوجوه والأخلاق ، والحصى الملوّن العجيب الذى يتزيَّن به . واشتهر أهل « مُرْسِيَهْ » بالصرامة والإباء والنواعير المطربة الألحان ، والأطيار المغرّدة ، والأزهار المنضدة ، وكان أهل الأندلس يقصدونها لتجهيز العروس . واشتهرت « بلنْسِيهْ » بكثرة بساتينها ، وأن أهلها أصلح الناس مذهباً ، وأمتنُهم ديناً . . الخ الخ » . وعلى كل حال اشتهر أهل الأندلس بالعلم فى كل ميدان ، وكانوا يعجبون ببلادهم ، ويفتخرون بها ؛ كما اشتهرا بالجدِّ فى التحصيل ، والرغبة فى التفوق .

ومما لا شك فيه أن المنهج الذى سلـكه ابن حزم ، والشقندى ، ليس منهجاً علميا دقيقاً ، إنمـا هو كلام يقال : فمن الصعب جداً الحـكم بأن فرداً أذكى من فرد ، فـكيف الحـكم بأن أمَّة أذكى من أمَّة ، بل إنها أذكى من الأمم ، ومسلـكهما الذى سلـكاه هما وغيرهما أنهما يحكمان حكما كليًّا ، ثم يستدلان عليـه بمسألة جزئية ، فيقولون : إن أهل الأندلس عرفوا بعلوّ الهمة ، أو الاعتناء بالنظافة أو شدة الحفظ والذكاء ، ويستدلون على ذلك بحادثة حدثت لرجل أو من رجل ، فـكيف يصح هذا فى العقل ؟ إنما المنهج الصحيح هو مثلاً . فى توزيع مقياس الذكاء على الناشئين ، وعمل ذلك فى أمة أخرى ، والمقارنة بينهما ، ونحو ذلك وبذا تطمئن النفس بعض الشىء عند النتيجة . أما القول جزافاً بأن أمة أذكى والاستدلال بأن فلاناً ألَّف كتاباً قيِّما ، فبرهان قاصر ؛ ومحال أن تكون أمة

كبيرة العدد ، كالأمة الأندلسية لا ينتج منها علماء أعلام ، وأدباء فطاحل . كل ما فى الأمر أنهما لم يأتيا ببرهان واضح حازم ، وإنما أتيا بشيء يصح أن يستأنس به فقط .

وقد وصف المقدسىّ سيّد الجغرافيين الأندلس فى كتابه « أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم » ، ولكنه لم يذهب إليها ، وإنما اعتمد فى وصفه على السماع من أهلها . ويقول عن الأندلس : « إنه إقليم جليل ، كبير طويل ، كثير النخيل والزيتون ، به مواضع الحر ، ومعادن البرد ، كثير اليهود ، جيِّد الهواء والماء ... وأهل الأندلس على مذهب مالك ، وقراءة نافع . وهم يقولون : لا نعرف إلاّ كتاب الله ، وموطأ مالك ، . فإن ظهروا على حنفىّ أو شافعىّ نفوه ، وإن عثروا على معتزلى أو شيعى ربما قتلوه ... يدخلون الحمامات بلا مآزر إلا القليل ، وكل مصاحفهم ودفاترهم فى رقوق . . . وأهل الأندلس أحذق الناس فى الوراقة ، خطوطهم مدوَّرة ... وبه تجارات تُحْمل من برقة ومن صقلية ومن فاس .

وبالأندلس السَّفَن [1] يُتّخذ منه مقابض للسيوف ، ويقع إليهم من البحر المحيط عنبر كثير فى وقت من السنة » الخ الخ ... وقال الحِجَارى : « كانت قرطبة فى الدولة المروانية قبة الإسلام ، ومجتمع أعلام الأنام ، بها استقر سرير الخلافة المروانية ، وفيها تمخضت خلاصة القبائل المعدّية واليمانية ، وإليها كانت الرحلة فى الرواية ، إذ كانت مركز الكرماء ، ومعدن العلماء ، وهى من الأندلس بمكان الرأس من الجسد . ونهرها من أحسن الأنهار ، مكتنَف بديباج المروج ، مطرّز بالأزهار . تصدح فى جنباته الأطيار ، وتنعَرُ النّواعير ... وإن كان قد أخنى عليها الزمان ، وغير بهجة أوجهها الحسان ... وسل الخورنق والسدير وغمدان »

---

(١) السفن : جلد متين كجلد التماسيح .

ولما دخل الأندلس أمير الموحدين يوسف بن تاشفين وأمعن النظر فيها وتأمل وصفها وحالها قال : « إنها تشبه عقاباً مخالبه طليطلة ، وصدره قلعة رباح ، ورأسه جيان ، ومنقاره غرناطة ، وجناحه الأيمن باسط إلى المغرب ، وجناحه الأيسر باسط إلى المشرق » .

وقد وصف الشريف الإدريسى الأندلس وصفاً مطوّلا نختصره فيما يأتى : قال : « إن الأندلس فى ذاتها شكل مثلث بها يحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث ... والأندلس طولها ألف ومائة ميل ، وعرضها ستمائة ميل ، وجزيرة الأندلس مقسومة من وسطها فى الطول بجبل طويل . . . وفى جنوب هذا الجبل تأتى مدينة طليطلة ، وهى مركز لجميع بلاد الأندلس ، وكانت فى أيام الروم مدينة الملك ، ومداراً لولاتها ... وما خلف الجبل فى جهة الشمال يسمى قشتالة » . وقد عدّد هنا المدن ، وذكر مواقعها ، ومزايا كل مدينة ، والبعد بين كل مدينة وأخرى بالمراحل أو الأيام . وأبدع ما وصف وصفه لمسجد قرطبة إذ قال : « وفيها — أى قرطبة — المسجد الجامع الذى ليس بمساجد المسلمين مثله بِنْيَةً وتنميقاً ، وطولا وعرضاً ، وطول هذا الجامع مائة باع مرسلة ، وعرضه ثمانون باعاً[1] ، ونصفه مسقّف ، ونصفه صحن للهواء ، وعدد قسيّ مُسَقَّفِه تسعة عشر قوساً . وفيه من السوارى ألف سارية ، وفيه ١١٣ ثريّا للوقيد أكبرها واحدة تحمل ألف مصباح ، وأقلها تحمل ١٢ مصباحا ... وجميع خشب هذا المسجد من عيدان الصنوبر الطرطوشى ... و بين العمود والعمود ١٥ شبرا . ولكل عمود منها رأس رخام ، وقاعدة رخام ... ولهذا المسجد الجامع قبلة يُعجز الواصفين وصفُها ، وفيها إتقان يُبهر العقول تنميقها ، وكل ذلك من الفُسَيْفساء والمذهّب والملوّن ، مما بعث به صاحب القسطنطينية إلى عبد الرحمن الناصر

(١) يقول دوزى : إن طول مسجد قرطبة فى حالته الحاضرة ٦٢٠ قدما وعرضه ٤٤٠ قدما ، وكان فيه أيام العرب ١٤٠٠ سارية ، أما الآن فـ ٨٥٠ .

وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقش ، وفى عضادتى المحراب أربعة أعمدة ، اثنان أخضران ، واثنان لازَوَرْديَّان لا تقوّم بمال . وعلى رأس المحراب خُصَّة رخام قطعة واحدة مشبوكة محفورة ، منمقة بأبدع التنميق ، من الذهب واللازورد وسائر الألوان ، وعلى وجه المحراب مما استدار به حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريبة ، وعن يمين المحراب المنبر الذى ليس بمعمور الأرض مثله ... صنع فى تجارته ونقشه سبع سنين . وكان عدد صناعه ستة رجال غير من يخدمهم ، وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطشوت ذهب وفضة ، ومسك لوقيد الشمع ، فى ليلة سبع وعشرين من رمضان . وفى هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله فيه أربع أوراق من مصحف عثمان وفيه نقط من دمه . وهـذا المصحف يخرج فى صبيحة كل يوم جمعة ...

« وفضائل أهل قرطبة أشهر من أن تذكر ، ومناقبهم أظهر من أن تسطر ، وإليهم الانتهاء فى الثناء والبهاء . بل هم أعلام البلاد ، وأعيان العباد ، ذكروا بصحة المذهب ، وطيب المكسب ، وحسن الزى فى الملابس والمراكب ، وعلو الهمة فى المجالس والمراتب ، وجميل التخصص فى المطاعم والمشارب ... ولم تخل قرطبة قط من أعلام العلماء ، وسادات الفضلاء ، وتجارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة ، ولهم مراتب سنية ، وهمم علية ، وهى فى ذاتها مدن خمسة يتلو بعضها بعضاً . بين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفى كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق ، والحمامات ، وسائر الصناعات » . وكل هـذه الأخبار تعطينا صورة من صور الأندلس مما يدل على حضارتها وثروتها ، وجميل موقعها .

وإذا كانت البيئة الاجتماعيـة فى الأندلس تتفق مع المشرق من نواح غير النواحى التى تختلف فيها ، ظهرت الشعوبية هنا وهناك ، والسبب فيها واحـد

وهو أن العرب تخلقوا بالأخلاق الأرستقراطية وشمخوا بأنوفهم على من عداهم ، لأنهم ناشرو الدين وأصحاب اللَّسَن . وزعموا أنهم خير الأمم ، فاضطرت الأمم الأخرى أن تدافع عن نفسها بقولهم : إن لكل أمة مزايا وعيوباً ، وليست الفضائل كلها مقصورة على العرب ، بل فيهم بعضها ، وفى غيرهم بعضها . وكان من ذلك فى المشرق حركة جدال عنيف بين العلماء . ووجهت الأسئلة الكثيرة إليهم أى الأمم أفضل ؟ فوجهت مثلا إلى ابن المقفع ، و إلى أبى سليمان المنطقى وغيرهما . ووجد فى الأندلس من يقول بالشعوبية من أشهرهم ابن غرْسية ، واسمه يدل على أنه من أصل أجنبى .

وما لبث الأندلسيون بعد أن اختلط العرب بالإسبانيين وظهر نَشْءٌ مولّد بسبب التزواج أن وجدت لهم لغة عامية بحكم صعوبة الإعراب وأثر البيئة فى الألسنة والحناجر . فيحدثوننا أن أبا على الشلوبينى كان نحوياً كبيراً . طبقت شهرته الآفاق فى النحو ومع ذلك كان لحّاناً ، وكان لا يكاد يُبين .

واشتهرت بعض البلاد بأنواع من الفواكه والصناعات ، فقالوا : التين المالقى والزبيب المنكبىّ ، ونحو ذلك . وبالأندلس مقاطع للرخام الأبيض الناصع اللون والخمرى ، وفى البلدة المسمّاة (ناشرة) مقطع للعمد ، واشتهرت المرية بحصاها الذى يشبه الدرّ فى رونقه ؛ وله ألوان عجيبة . قال ابن سعيد : « اختصت المرية ومالقة ومرسيَه بالموشى المذهَّب الذى يتعجب من صنعته أهل المشرق . و ... وبالمرية ومالقة الزجاج الغريب العجيب ، ونخار مزجج مذهّب ، ويصنع بالأندلس نوع من المفضَّض المعروف بالمشرق بالفسيفساء . ونوع يبسط به فى قاعات ديارهم يعرف بالزليجى ، يشبه المفضض ، وهو ذو ألوان عديدة ، يقيمونه مقام الرخام الملون ، وفى أشبيلية من دقائق الصنائع ما يطول ذكره ، واشتهرت المرية أيضا بأنها كانت مرسى للأسطول الإسلامى فى الأندلس وفيها دار للصناعة . قالوا : وكان فى المرية ألف

إلا ثلاثين فندقاً مقيدة فى ديوان الخراج » . وذكر ابن سعيد أيضاً أن الأرض الشمالية الغربية فيها المعادن السبعة ، وأن أعظم معادن للذهب فى الأندلس فى جهة شنت ياقوب قاعدة الجلالقة على البحر المحيط . وفى جهة قرطبة الفضة والنحاس فى شمال الأندلس كثير ، والصفر الذى يكاد يشبه الذهب ، وغير ذلك من المعادن المتفرقة فى أماكنها . . الخ . . الخ .

وقد اعتاد الأندلسيون والشرق أيضاً ألّا يحكموا أنفسهم بأنفسهم ، ولا يعتمدوا على أنفسهم فى النظام وتدبير الشئون . وإنما اعتادوا الاعتماد على رجل قوى حازم يحكمهم ويقودهم . هذا فى الأندلس ، ومثله فى الشرق ، ولذلك نرى أن الأمور تستقيم ما دام على رأس المملكة رجل قوى حازم ، فإذا زال كان الاضطراب والفوضى ، وكان هذا فى الأندلس أقوى ، لأن سكانها ذوو عناصر مختلفة ، فهؤلاء العرب بقبائلها ، وهؤلاء البربر ، وهؤلاء الصقالبة ، وهؤلاء الإسبان ، فما لم يثبت الحاكم كفايته للضغط على هذه العناصر المتباينة أخرجت هذه الشعب كلها أنيابها للفتنة والاضطراب فضلا عن اختلاف بعضهم و بعض فى الدين بين نصرانى كاثوليكى فى الشمال ومسلم فى الجنوب ، ولهذا كان تاريخ الأندلس حوادث متعاقبة تختلف فى النظام والفوضى . فتستقر عند وجود الحاكم الحازم وتضطرب عند عدمه . والقارئ لتاريخهم يعجب من ازدهار الحضارة والعلم فى وسط هذا الاضطراب . و يفسر هذا شيئان : الأول أن بعض الأمراء الحازمين حكموا مدة طويلة كخمسين سنة ، أو نحو ذلك استقامت فيها الأمور وازدهرت فيها الحضارة والعلم كعبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، والمنصور ابن أبى عامر ونحو ذلك ، والثانى أنه يظهر أن العلماء أو بعضهم كانوا يكوّنون لأنفسهم جوًّا هادئاً يسود فيه العلم ، و يبتعدون فيه ما أمكن عن السياسة رغم الفتن والقلاقل التى حولهم ، وربما شهدت الأندلس أكثر من غيرها تحاسد الزعماء ، ووجود عدد كبير من العتاة

من البربر والعرب والصقالبة والإسبان ، وقليل من الأمراء من استطاع أن يصون وحدة المملكة مدة طويلة ، فإذا هدأت البلاد قليلا كانت ثورة إما من زعيم يريد أن يتغلب ، وإما من النصارى فى الشمال يريدون أن يسترجعوا بلادهم ، وإما من بربر يحز فى نفوسهم غلبة العرب ، إلى غير ذلك .

وكان للأندلسيين خطط لتنظيم أعمال الحكومة وهى التى نسميها التنظيم الإدارى ، فوظيفة القضاء عندهم أكبر الوظائف وأسماها لتعلقها بالدين ، ولأن القضاة كانت لهم سلطة كبيرة ، حتى ليستطيع القاضى إحضار الخليفة أو الأمير ليسمع كلامه ، وعلى رأس القضاة قاض كبير كان يسمى قاضى الجماعة . وله الحق أن يأمر بالقتل على من استحق القتل من غير رجوع إلى السلطان . وهو الذى يحدّ على الزنا وشرب الخمر ، وكان بجانب وظيفة القضاء وظيفة (الحسبة) يتولاها عالم وجيه فطن ، وكان صاحب هذه الوظيفة يمر على الأسواق راكباً ، ومعه موازينه وأعوانه ، فيزن الخبز ، ويمتحن الأسعار ، ويراقب البطاقات على السلع إذ كانت البطاقات توضع على الخبز واللحم ، وقد يرسل المحتسب إلى البائع من يمتحنه سرّا فإن عُهدت عليه خيانة ضرب أولا وجُرّس ، فإن لم يرتدع نفى من البلد ، وكان فى كل بلد محافظ يطوف بالليل ، وكان المحافظون يسمّون بالدَّرَّابين لأن بلاد الأندلس لها دروب بأقفال تقفل عليها ، ولكل زقاق خفير يخفره وسرَاج يعلق على باب الزقاق ، وكلب يحرسه وسلاح معدّ لوقت الحاجة ... وأهل الأندلس من أكثر الناس محافظة على الشعائر الدينية والاستنكار لمن يعطلها . وهم أكره ما يكونون للتسوّل ، فإذا رأوا شخصاً صحيح الجسم قادراً على العمل وهو يتسول ، سبوه ونصحوه بأن يبحث له عن صناعة يرتزق منها . . . الخ .

* * *

وكانت هناك وظائف كتابية ، والكتابة عندهم على ضربين : كاتب الرسائل وكاتب الزمام . فكاتب الرسائل كاتب أديب ، يتولى كتابة الرسائل الرسمية وغير الرسمية . وأما كاتب الزمام فهو كاتب حسابى . وكانوا يلاحظون ألا يكون كاتب الزمام يهوديا ولا نصرانيا ، لأن عظماء الناس ووجوههم يحتاجون إليهم ، وهم يأنفون أن يحتاج المسلم لمن ليس من دينه .

والشعر عندهم له حظ عظيم . وللشعراء من ملوكهم وجاهة ، والمجيدون منهم ينشدون فى مجالس عظماء ملوكهم ، ويوقّع لهم بالصلات على أقدارهم . . . وإذا كان الشخص بالأندلس نحويا أو شاعرا فإنه يعظم فى نفسه لا محالةَ ويسْخُف ، ويظهر العجب ، عادةٌ قد جبلوا عليها[1] » .

وكانت لهم عناية كبرى بالشرطة « البوليس » ورئيسهم يعرف بصاحب المدينة أو صاحب الليل . قالوا : وإذا كان عظيم القدر عند السلطان كان له القتل لمن وجب عليه دون استئذان كالذى للقاضى ولا يكون ذلك إلا نادراً .

* * *

ومن الصعب تحديد عدد سكان الأندلس فى العصور المختلفة . ويروى بعض المؤرخين أنهم كانوا فى أيام الرومان بين ثلاثين وأربعين مليونا ، ولكن ليس هناك وثائق تاريخية تؤكد ذلك . ولم نقف على عددهم فى أيام العرب . وقالوا : «إن السكة لدار ضربها ثلاثة آلاف ألف درهم وأربعمائة دينار » وأياً ما كان ، فإن عدد السكان قد قل لما انتصر الإسبانيون على المسلمين وتفرق كثير منهم ورحلوا إلى المغرب والمشرق ، وسبب آخر لهبوط العدد ، وهو اكتشاف أمريكا على يد الإسبان والبرتغال وهجرة كثير منهم إليها حتى أنه فى سنة ١٧٦٨ كان عدد السكان تسعة ملايين ومائة وستين ألفا . وفى أوائل القرن الثامن عشر كانوا نحو

---

(١) نفح الطيب جـ ١ ص ١٠٥ نقلا عن ابن سعيد .

عشرة ملايين و بلغوا الآن اثنين وعشرين مليونا وثلاثمائة وثلاثين ألفا . ومعدل كثافة السكان بالنسبة إلى مساحة الأرض هو أربعون نسمة فى الكيلو متر الواحد . وعلى الجملة فهذا يعطينا فكرة ولو ساذجة عن سكان العرب فى إسبانيا .

وتمتاز الأندلس بأنها كانت بدخول العرب والمغاربة فيها مسكن كثير من الأوربيين والأسيويين . فقد تجمّع فيها العرب والبربر ، كما تجمّع فيها الإسبانيون والفرنسيون ويهود وأمم مختلفة ؛ و بعبارة أخرى تجمّع فيها العنصر السامى والعنصر الآرى . و إسبانيا هى كذلك إلى الآن ، ولا عبرة بخروج العرب والبربر من بينهم فإن دم العرب سرى فى عروق الإسبان إلى الآن مما جعلهم أمة فيها العنصر الشرقى ، والعنصر الغربى ، و يظهر ذلك فى لغتهم وموسيقاهم وعاداتهم وتقاليدهم . وقد يعلل السائحون ذلك بأنها أمة منعزلة عن سائر الأمم ، ولكن التعليل الصحيح أن فى دمهم بقايا العرب والبربر ، حتى إن المقاطعات البعيدة كأهل قشتالة لا يزال فيهم أثر الدم العربى والعادات العربية .

وقد تلاقى فى الأندلس جملة أمم : الإيبيريون ، والسلتيون ، واللاتينيون ، واليونانيون من العنصر الأوربى ، والقرطاجِنيُّون ، والفينيقيون ، واليهود ، من العنصر الأسْيوى ؛ وطرأت على إسبانيا أمم جرمانيَّـة مثل الفندال ، والقُوط ، وهؤلاء القوط كانوا هم الطبقة السائدة عند ما فتحها العرب .

ولما جاء العرب دخلها آلاف منهم ومن البربر ، و بذلك اختلطت فيها أوربا ، وآسيا ، وأفريقيا ، وامتزجوا امتزاجاً غريباً ؛ وهـذا هو ما يمثِّلها حتى الآن . والعنصر الأوربى ، أو السلالة الآريَّة ، هو العنصر الغالب على القسم الشمالى الغربى من الأندلس ، وأجسامهم قوية وعضلاتهم صلِبة ؛ وكانوا هم الشوكة الكبرى فى جنب المسلمين أيام دولتهم ، ومن هؤلاء القشتاليون الذين

يعدون أنفسهم محررى البلاد ، وفيهم حمية شديدة ، وتعصب قوى ؛ ويشبههم فى هذه الحمية أهل أراغون ، ولذلك لما تزوج ملك قشتالة بملكة أراغون — أى تزوج فرديناند بإيزابلا — كان أهل المملكتين قوة كبيرة اجتاحت المسلمين ، أما سكان جنون الأندلس فيقول جوسه صاحب كتاب جغرافية إسبانيا والبرتغال : « إنهم أهل ذكاء وجمال ومرح وترف ، وبلاد الأندلس تتصل بأوربا ببرزخ ، وهو جبال البرانس ، وكثيراً ما ذكر هذا الاسم فى تاريخهم » .

* * *

ويظهر أن نشأة العلوم فى البيئات كلها كانت متشابهة ، أو متقاربة ، فتبدأ الأرض جرداء ، لا نبات فيها ، ثم تمهد الأرض ، ثم توضع البذرة ، وتسمَّد بالغذاء الصالح ، وتُتعاهد بالسقى حتى تنمو ، وبعد ذلك تثمر . هذا ما حدث للعلم فى المشرق ، وهذا بعينه ما حدث للعلم فى الأندلس .

لقد جاء الإسلام فى المشرق ، فمهد الأرض للنبات ، ثم وضعت بذور العلوم الدينية من تفسير ، وحديث ، وسيرة ، وتاريخ ، ومضى على ذلك زمن طويل ، تتطور فيه هذه العلوم ، ثم زادت الحضارة ، وأُتىَ بالكتب من كل مكان ، وترجم غير العربى إلى العربية ، فعكف أهلها عليها يتفهمونها ، ثم هضموها ، وأخرجوا نتاجا عظيما ، حتى فى العلوم التى لم يكن لهم بها عهد ، ومثل ذلك حدث فى الأندلس . فقد دخل المسلمون الأندلس ، واصطدموا بالإسبان ، وكانت صدمة عنيفة أذهلت العقول عن البحث فى العلوم ، وكثر بين المسلمين الخلاف بسبب العصبيات من يمنية ومضرية ، وانقسم اليمنيون أنفسهم إلى عصبيات ، وكذلك المصريون . وكان الخلاف بين العرب والبرابرة وبين العرب والإسبان مما لا يجعل لعلم مكاناً . حتى إذا بدأت الأمور تهدأ ، بدأوا يفكرون فى العلم . وأوّل

ما فكروا فيه الدين ، وتلا ذلك بعد زمان العلومُ الداخلية كالفلسفة والرياضيات .

ولما هدأوا وفكروا فى العلم كان لذلك وسائل كثيرة :

(١) أن يُدعى قوم من المشرق إلى الأندلس فيملأوها أدباً ولغة ، كما فعل أبو على القالى ، فقد كان مشرقيا ، ورحل إلى الأندلس بدعوة من أميرها ، وكان قد تثقف ثقافة واسعة فى المشرق ، وأخذ كثيراً عن شيوخه ، وخاصة ابن دريد ، وكانت لابن دريد أخبار طريفة بعضها صحيح ، وبعضها مصطنع ، مثل وصايا الأعراب لأبنائهم وبناتهم ، وما قيل فيها من كلام لطيف ، خلقه ابن دريد على الأرجح ، ولذلك ينسب إليه أنه واضع أصول المقامات قبل بديع الزمان ، وكان المشرقيون قد قطعوا شوطاً بعيداً فى جمع اللغة ، وجمع الأشعار ، وأخذوا ينتقون منها المختارات المختلفة ، كما فعل الأصمعى ، والمفضل الضَّبِّى ؛ فحوى ذلك كله أبو على القالى ، وسافر بعلمه إلى الأندلس ؛ وكان رجلا عالما ، وقوراً ، حافظاً ، فنشر ما شاء الله أن ينشر فى الأندلس ، وأخذ يروى مختارات حيثما اتفق ، ثم يشرح ما احتاج إلى الشرح نظما كان أو نثراً .

نعم : إنه روى عنه أنه أرتج عليه حينما حاول أن يخطب أول أمره ، كما أخذ عليه أنه روى أول أمره بيتاً غير مستقيم الوزن ، ولكن يظهر أن اختصاصه كان فى رواية ما تعلمه عن شيوخه فى المشرق ، ويكفى العالم نبوغه فى ناحية واحدة من النواحى لا فى كل النواحى ، كالذى روى عن صاعد وقد رحل من المشرق إلى الأندلس أيضاً أنه أخطأ فى وزن كلمة عويصة . وأخطأ فى فهم مسألة من كتاب سيبويه ، وقد يكون ذلك صحيحاً ، ولكن مهارته ونبوغه كانا فى حسن بديهته الأدبية ، ورواياته الشعرية .

وانتشر علم أبى على القالى وصاعد ، بين تلاميذهما ، ومن تلاميذهما إلى

تلاميذهم ، وهكذا ، وكانا من أول من وضعا أساس الثقافة المشرقية فى الأندلس فى اللغة والأدب .

ثم نشأت طائفة من أهل الأندلس نفسها تؤلف كما ألفا ، كابن عبد ربه المالقى فى العقد ، فقد اختار زبدة أدب المشرقيين واعتمد على كتبهم وخصوصا كتاب ابن قتيبة ، المسمى « عيون الأخبار » وبوّبه تبويبا أشبه بتبويبه ، إلا أنه سمى كل باب بنوع من الأحجار الكريمة وجعله كالقلادة . وكان قصده منه أن ينقل إلى الأندلسيين أدب المشرقيين . وقد قال الصاحب ابن عباد لما قرأه : « إن بضاعتنا ردت إلينا » لأنه رأى فيه علوم المشرق التى يعرفها ، وابن عبد ربه معذور ، والصاحب مخطئ ، فإنه لم يرد جمع مختارات أدباء الأندلسيين كما فعل ابن بسام فى الذخيرة ، وإنما أراد تعريف الأندلسيين بعلوم المشارقة .

(٢) أما الوسيلة الثانية : فقد رحل بعض الأندلسيين إلى المشرق ، وندبوا أنفسهم لتحصيل علم من علومه ، والتبحر فيه ، ثم الرجوع إلى الأندلس ، لنشر ذلك العلم بين أهله . ومن خير الأمثلة على ذلك : يحيى بن يحيى الليثى ، فقد رحل إلى المدينة ، وتتلمذ للإمام مالك ، وأخذ عنه الموطأ ، ولازمه ، وخدمه كما سافر إلى مصر ، وأخذ من الليث بن سعد ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن القاسم وكان يحيى معروفاً بالأمانة والدين ، معظما عند الأمراء ، مُتَعَفِّفًا عن الولايات ، ثم نشر علمه فى الأندلس ، ومع تعفّفه عن القضاء ، أسند إليه اختيار القضاة ، فكان يختار من كان على مذهب مالك ، وألّف حوله مجلساً يسمَّى مجلس الشورى ، عيَّن أعضاءه ، ووكل إليهم أمر الفتيا ، وإن كنا لم نعرف الكثير عن نظام مجلس الشورى ، لأنه لم يذكر فى كتب التاريخ إلا لماما . وكان عظيم الجاه ، حتى قال أحد مؤرخيهم : « إنه لم يعط أحد من أهل الأندلس منذ دخلها الإسلام ما أعطى

يحيي من الخطوة ، وعظم القدر ، وجلالة الذكر ، هذا إلى صراحة فى التزام الحق ، وفى تنفيذ الحقوق ، و إقامة الحدود » .

ومثل ذلك كثير . فمنهم من رحل لتعلم الفقه ، ومنهم من تعلم النحو ، والصرف ، والتفسير ، والحديث والقراءات . الخ . و يجد القارئ فى النفح ثبتاً طو يلا بأسماء من رحلوا من الأندلس إلى الشرق للتزود بالعلم — و بلغ من إقبالهم على ذلك أن كان الشخص يعاب بأنه لم يرحل إلى الشرق .

ومن هؤلاء جميعاً ظهرت بعد ذلك طبقة من الأندلسيين أنفسهم يتقنون العلم ، ويحملون عبء نشره ، حتى نرى فيهم مثل ابن القوطية ، وكنيته تدل على أنه قوطىّ الأصل ، وفى الحقيقة كانت جدته أميرة قوطية . وقد نبغ فى اللغة حتى فاق كثيراً من المشرقيين ، وألف لنا كتاب «الأفعال» وغيره من الكتب التى تدل على علمه وفضله ، وأمثاله كثيرون فى كل فرع من فروع العلم كما سيأتى بيانه .

(٣) جمع الكتب : ذلك أن الكتب أيضاً من أهم وسائل الحركة العلمية ، وقد روى عن الأندلسيين أنهم أدركوا ذلك كل الإدراك ، ومن أبرزهم فى ذلك الخليفة الْحَكم الثانى المعروف بالمستنصر من خلفاء بنى أمية فى الأندلس ، ملك من سنة ٣٥٠ إلى سنة ٣٦٦ هـ ؛ فقد انتدب نفسه للعناية بالعلوم (واستجلب من بغداد ومصر وغيرهما من ديار المشرق والمغرب عيون التآليف والمصنفات الغريبة فى العلوم القديمة والحديثة ، وجمع منها ما كاد يضاهى ما جمعته ملوك بنى العباس فى الأزمان الطويلة ، وتهيأ له ذلك لفرط محبته فى العلم ، و بعد همته فى اكتساب الفضائل ، وسمو نفسه إلى التشبه بأهل الحكمة من الملوك ، فكثر تحرك الناس فى زمانه إلى قراءة كتب الأوائل ، وتعلّم مذاهبهم ، حتى بلغت مكتبته الآلاف من الكتب) .

على كل حال ، كانت الأندلس والمشرق أشبه برقعة واحدة يسير فيها النمل

ذهاباً وجيئة ، وتتقابل الثمال فَتَتَسَارّ ، علماء يضيق بهم الشرق من الفاقة فيرحلون إلى الغرب ، وعلماء من الغرب يعوزهم العلم فيرحلون إلى الشرق ، منهم من تقصر رحلته ، فيكتنى بالرحلة إلى المغرب ، فإذا زاد شيئاً رحل إلى مصر ، ومنهم من له جرأة ومقدرة على الرحلة الطويلة ، فيرحلون إلى المغرب ، ومصر ، والشام ، والعراق وما إلى ذلك ، وهؤلاء الرحالون كانوا يتبحرون فى علوم مختلفة ، فمنهم من يقصد من رحلته الفقه ، والتفسير ، والحديث ، والقراءات ، وهم العدد الكثير ، أمثال عبد الملك بن حبيب السُّلَمى ، وقد كان فقيها مشهوراً ، رحل إلى المشرق وجمع من الأحاديث ما شاء الله أن يجمع ، وطوّف فى البلاد ما شاء الله أن يطوّف ، ثم عاد وألَّف نحو ألف كتاب ، وسمّى عالم الأندلس ، وكأن علمه بحر يزخر . وألَّف فى الفقه كتاباً مشهوراً اسمه « الواضحة » وربما قورن بيحيى بن يحيى الليثى الذى مر ذكره ؛ ومثل القاضى أبى عبد الله محمد بن عيسى ، ولّى القضاء بقرطبة بعد رحلة رحلها إلى المشرق ، وكان يتغنى بالعراق ، إذ حمد المقام به أيام طلبه للعلم ، ومنهم القاضى منذر بن سعيد البلُّوطى ، وكان لا يخاف فى الله لومة لائم ، وقد وقف وقفة مشهورة ، وهى وقفته أمام عبد الرحمن الناصر ، لما أراد أن يشترى بيتاً لأيتام ليوسع به قصره ، فما زال يمانعه ، حتى دفع فيه الناصر مبلغاً كبيراً ، وكالقاضى أبى بكر بن العربى ، و بقىّ بن مخلّد ، وقاسم بن أصبغ .

ومنهم من طلب الفقه والكلام ، كابن حزم العالم المشهور ، و يرجح بعض المستشرقين أن أصله من جهة الأم إسبانى ، وقد كان واسع العلم ، غلب عليه المذهب الظاهرى ، فكان يدعو إليه و يدافع عنه ، وله فى الكلام باع واسع ، ونَفَس طويل فى الجدل ، وكان أرستقراطى الأصل ، إذ كان أبوه وزيراً ، وكان هو نفسه وزيراً فلم يعبأ بذلك ، ولم يعبأ بالاضطهاد ممن اضطهده ، ولا بنفيه ، و يقولون : إنه خلف نحو أربعمائة مؤلف . ولما أحرق المعتضد بن عبّاد كتبه بإشبيلية قال :

فإن تحرقوا القرطاس لم تحرقوا الذى   تضمّنه القرطاس ، بل هو فى صدرى
يسير معى حيث استقلّت ركائبى   و ينزلُ إنْ أنزلْ و يُدفن فى قبرى

* * *

وكان إلى علمه فى الفقه والكلام أديبا ، قوىّ العاطفة ، حسن التعبير عما فى نفسه كالذى يدل عليه كتابه « طوق الحمامة » .

ومنهم من رحل يطلب الأخلاق ، وعلم السياسة ، كابن أبى رندقة الطرطوشى ، صاحب كتاب « سراج الملوك » ومنهم من رحل فى طلب الأدب كالشَّريشى وابن عبد ربه صاحب العقد ، ومنهم من رحل للتبحر فى النحو والصرف كابن مالك صاحب الألفية ، ومنهم من رحل للتصوف ، كمحيي الدين بن عربى ، وأبى العباس المرسى ، و ياقوت العرشى ، ومنهم من رحل لطلب الفلسفة والعلوم الدخيلة كابن زُهْر .

و بعض هؤلاء الرحّالين استقر فى البلد الذى رحل إليه ، فقد أعجبه فلم يعد إلى بلاده ، ولكن الأكثر عاد إلى بلاده ، وتحلّى بصفة المعلم ، ووضعوا أيديهم فى أيدى من رحل إليهم من المشرق ، وكوّنوا مدرسة واسعة ، حدودها حدود الأندلس ، فأخذوا يدرّسون ، و يؤلفون ، و يترجمون ، وكانت هذه هى النواة الأولى التى أنتجت العلماء فى الأندلس من كل صنف ، وكانت هذه الرحلات منها و إليها ، لها منفعة ومضرة ، فمنفعتها أنها نشرت العلم ما شاء أن ينتشر ، وكوّنت علماء نابغين ، ووسّعت الثقافة بين الشعب الأندلسى ، ولكن مضرّتها أنها صبت العلم الأندلسى فى قالب يشبه القالب الشرقى ، ولو نشأ بعيدا عن التأثر الشرقى لرأينا علما مبتكرا له منحًى خاص . وهذا مع الأسف لم نره ، فالجداول التى مرّ بها العلم فى المشرق ، هى بعينها الجداول التى مرّ بها العلم فى الأندلس ، ولا نعثر على ابتكار إلا قليلا ، وكانت هذه القوالب المشرقية أقوى من البيئة

الأندلسية ، فمع اختلاف بيئة الأندلس عن بيئة المشرق ، سواء كانت بيئة طبيعية أو اجتماعية ، كانت قوالب المشرق العلمية أقوى من البيئة الأندلسية . وكما قلّد علماء المشرق الأقدمين منهم ، فساروا فى نفس طريقهم ، قلّد الأندلسيون علماء المشرق ، فساروا فى نفس الطريق ، ولذلك تقرأ الكتب المؤلفة فى الأندلس فكأنك تقرأ كتب المشرق فى لغتها وأبوابها وفصولها .

وربما كان الأدب مع تأثره أيضا بالأدب المشرقى أميز من سائر العلوم فى الابتكار ، لأن الأدب يتأثر بالعواطف الشخصية ، والحوادث المحلية أكثر من تأثر العلم . ولكن حتى هذا مع الأسف كان الاختلاف فيه فى الشكل لا فى الجوهر ، مثل شكل الموشحات ، واللعب بالتشبيهات ، أما موضوعات شعرية أو نثرية لم تعرف عند المشرقيين ، فهذا ما لم نره . وشأن العلم الأندلسى فى ذلك شأن العلم والأدب فى مصر ، والمغرب ، والشام ، فكلها قلّدت العراق فى علمه ، وأدبه ، حتى أنه لما عهد إلينا تدريس الأدب المصرى فى الجامعة ، صرفنا زمنا طويلا فى تعرف الشخصية المصرية الأدبية ، وما تمتاز به عن غيرها من الآداب ، فلم نعثر إلا بعد جهد ، ولم نعثر بعد الجهد إلا على القليل . فإن قلت : إن العلم الإسلامى سار فى طريق واحدة ، وأهمل البيئات المختلفة ، لم تبعد عن الصواب . وربما كان السبب فى ذلك أن الحياة الدينية من فقه وتفسير وحديث اعتمدت على القرآن ، فكان طبيعيا ، وقد اتحد المصدر ، أن تتحد النتيجة أو تتقارب ، فإذا وصلنا إلى العلوم الدخيلة من فلسفة ، وطبّ ، وتنجيم ، وطبيعة ، وكيمياء ، وإلهيات ، رأينا أنها اعتمدت هى الأخرى فى الأندلس على الفلسفة اليونانية ، والتعاليم الهندية ، وما إلى ذلك ، إما عن الترجمات اليونانية إلى العربية مباشرة ، وإما عن طريق ما ترجمه المشارقة ، فاتحدت النتيجة فى العلوم الدخيلة أيضاً . ولو كانت الأصول التى اعتُمد عليها مختلفة لاختلفت النتائج .

ثم كان من أسباب هـــذا الاتحاد أن العالم الإسلامى كله كان معتبراً داراً واحدة ، فالعالم كله كما قال الفقهاء : « دار حرب ودار إسلام » ودار الإسلام كلها مشرقا ومغربا معتبرة وطناً واحداً للعلماء ، فإذا رحل الأندلسيون إلى المشرق ، أو رحل المشارقة إلى الأندلس فإنما يرحلون فى دراهم ، وتحت جو واحد مشبع بالروح الإسلامية . وسواء من دخل من الفرس والهند فى الإسلام ، ومن دخل من الإسبان فى الإسلام ، فهم إنمـا يستنشقون هواءً إسلاميا واحدا ، و يتكوّنون تحت تأثير لغة عربية واحدة .

إن العلماء المحدثين يجعلون أكبر المؤثرات فى تـكوين الأمم دينها ولغتها ، ونظامها الاجتماعى الاقتصادى . وكانت هذه كلها فى العالم الإسلامى متقاربة ، فلا بد أن تـكون الحياة العقلية والعلمية والنفسية متقاربة . وتعجبنى حكاية قرأتها أن الغزال الشاعر الأندلسى ، والسفير الأندلسى لدى بعض الأمم الأجنبية ، لمـا رحل إلى العراق ، وأسمع العراقيين شعره ، فضَّلوا عليه شاعرهم أبا نواس ، مع أنهم فهموه حق الفهم ، ولـكنهم قالوا : إنه وأمثاله من الأندلسيين لم يبلغوا فى الشعر مبلغ أبى نواس فردّ عليهم ، وفى يوم من الأيام أتاهم بقطعة من شعره ، وقد نسبها إلى أبى نواس ، فاستحسنوها ، فقال لهم : إنمـا هى لى[1] .

فهذه قصة تدل على تعصب كل من المشارقة والمغاربة لشعره ، كما تدل على أن ما يقوله الأندلسى يفهمه المشرقى و يتذوقه ، وما ينسب إلى المغربى قد ينسب إلى المشرقى فتجوز نسبته .

وما دام المؤذّنون يؤذنون فى المساجد بألفاظ واحدة ، فالصدى يكون واحداً ، وكذلك العلم والأدب .

---

(١) انظر القصيدة والقصة فى ترجمة الغزال .

وقد كان الأندلسيون يدينون بمذهب الأوزاعى ، متأثرين فى ذلك بالشاميين الذين كانوا فى الجند الذى فتح الأندلس ، إذ كان الأوزاعى بيروتيا ، وكان إماماً كبيراً ، وفقيها معدوداً ، ثم انتقلوا إلى مذهب الإمام مالك كما ذكرنا ، ويظهر أن السبب فى ذلك أمور :

(١) أن مذهب مالك أقرب لمزاجهم ، فهو يعتمد على الحديث ، وعلى إجماع أهل المدينة ، أكثر مما يعتمد على القياس والعقل . وهذا المنهج أكثر ملاءمة وأوفق لعقلية الأندلسيين .

(٢) أن رجالا عظاماً كيحيى بن يحيى الليثى الذى ذكرناه من قبل تتلمذ لمالك فى المدينة ، وأخذ عنه ، ومنحه الله من القوة والسلطان ما مكّنه من نشر مذهب مالك ، وعهد إليه فى اختيار القضاة فكان يخارهم على مذهبه .

وقد تأثر الأندلسيون بمذهب مالك فى الشدة والعصبية ، ووقاهم الله ما كان فى العراق وغيره من البلاد المشرقية من شدة فى الخلاف المذهبى ، كالذى كان بين الشافعية والحنفية ، والذى كان بين الشافعية والحنابلة . وربما كان هذا أيضاً سبباً فى قلّة الفِرق الدينية ، فلم يكن بين الأندلسيين ما كان لأهل العراق من مذاهب مختلفة فى العقائد كشيعة وخوارج ، وغير ذلك ، والسبب الأول فى هذا أن العراق كان حتى قبل الإسلام مملوءاً بالمذاهب المختلفة ، كالمزدكيّة ، والزرادشتية ، ومذاهب الهنود فى التناسخ ونحوه . فلما جاء الإسلام واستقر فى العراق ظهرت هذه المذاهب بلونها الأصلى أو بلون معدّل ، وتفرق من أجلها الناس إلى فرق كثيرة ، ولعل من أسباب عدم ظهورها أيضاً فى الأندلس اتحادهم فى اعتناق مذهب مالك ، وهو مذهب سنى يعتمد على الحديث ، فلا حاجة للأمة التى تعتنقه إلى اعتناق غيره . نعم : إنه ظهر فى الأندلس بعض الناس يعتنقون الاعتزال ، وبعضهم

يتشيعون ، و بعضهم يعتنق مذهب الظاهرية ؛ ولكن كان كل هؤلاء قليلين بالنسبة لمن يعتنق مذهب مالك .

* * *

وكانت نساؤهم على العموم أشبه شيء بنساء المشرق أكثرهن أميات ، وفيهن الجوارى اللائى يحسنَّ الغناء ، والموسيقى ، ويُبعن بعد أن يتعلمن بأثمان غالية .

وكان يغلب على الحرائر من النساء الحجاب ، كأهل المشرق ، بل ربما كان حجابهن أعنف ، ولكن يتسامح فى الحجاب مع الإماء والسرارى ، ولذلك لما سفرت ولاّدة بنت المستكفى وجلست فى مجلس الرجال ، وشاركت فى الشعر والأدب ، وكانت أرستقراطية من البيت المالك ، قُوبل سفورها بشىء من الاستغراب ، وما حدث فى المشرق حدث نظيره فى المغرب . فقد رحلت إلى الأندلس فرقة من الجوارى المشرقيات اللائى أخذن من إبراهيم الموصلى ، واتخذن إمامهن زريابا الذى سبقهن إلى الأندلس ، فكوّنَّ نواة لمجالس الغناء فى الأندلس. وعلّمن الفتيات الأندلسيات الغناء والموسيقى والرقص ، كما علّم أبو على القالى اللغة والنحو . ولذلك لم يخل عصر من عصور الأندلس فيما بعد من مغنيات أندلسيات وموسيقيات ، وراقصات ، وكان هذا يشبه أن يكون تقليداً فى البيوت الأرستقراطية وحتى فى بيوت الأوساط ، وتدل الحكايات الكثيرة الأندلسية على أن الأندلسيين كانوا شغوفين بالسماع ، حتى ليفضّلون الضّرورى من العيش مع السماع ، على العيش المترف مع الحرمان .

وكانت البيوت الأندلسية حتى القصور الملكية مملوءة بالحرائر والإماء من الإسبانيات وغيرهن . والبيت يتعدَّد فيه الأولاد من هؤلاء وهؤلاء ، والبيوت مملوءة بالحقد والنزاع بين الأحرار والإماء . ثم يسرى ذلك إلى أولادهن . بل كثيرا ما تدخلت النساء فى السياسة . فكان أهلهن إسبانيات مسيحات . وتظاهرن بحب العروبة والإسلام ، ولكنهن فى الحقيقة لم ينسين نصرانيتهن ولا إسبانيتهن .

فكان بعضهن جاسوسات على الخلفاء ، ينقلن لقومهن دقائق الأمور ، ويوقعن المسلمين فى أشد أنواع الحرج .

وهن كالمشرقيات نبغ منهن عـدد محصور فى الأدب ، مثل ولادة مع ابن زيدون ، وأم الكرام بنت المعتصم ، وحفصة بنت الحاج ، واعتماد جارية المعتمد ، ونحوهن . فكان يعد فى كل مدينة أندلسية أديبات مشهورات ، يُعْدَدْن شذوذاً فى الحياة الاجتماعية العامة .

وبلغ من تأثيرهن أن قال بعض مؤرخى الإفرنج : إن عبد العزيز بن موسى ابن نصير الذى استخلفه أبوه على الأندلس ، قد تنصر من أجل امرأة ، ولكن الذى ذكره مؤرخو العرب يدل على أن عبد العزيز لم يتنصر . وبعيد ذلك حقا ، لأن واليا كبيرا وابن فاتح عظيم يبعد أن يغير دينه من أجل امرأة . وقد اشتهر المسلمون بالأندلس بعصبيتهم لدينهم ، وصعوبة تحولهم إلى غيره ، وهذا فى العامة فضلاً عن الخاصة . والذى ذكره المسلمون أن عبد العزيز تزوج زوجة الملك لُذَريق ، وهو الذى فتح العرب فى أيامه بلاد الأندلس ، وقد صالحت على نفسها ، وأقامت على دينها إلى أن تزوجها عبد العزيز ، فتمكنت منه تمكناً كبيراً ، وتكَنَّتْ بأم عاصم . ويقال : إنه سكن معها فى كنيسة بإشبيلية ، وهذا بعيد أيضاً . ويقال إنها قالت له : لم لا يسجد لك أهل مملكتك ، كما كان يسجد للذريق أهل مملكته ؟ فقال لها : إن هذا حرام فى ديننا . فلم تقتنع منه بذلك ، وفهم أنه إن لم يفعل ذلك نزل قدره عندها ، مع أنه يحبها حبًّا جمًّا ، فاتخذ بابا صغيراً قبالة مجلسه ، فإذا دخل عليه الناس اضطروا إلى الانحناء ، وأفهمها أن ذلك كالسجود ، ويقال إنها قالت له : إن الملوك إذا لم يتوّجوا فلا مُلك لهم . فهل أعمل لك مما بقى عندى من الجواهر والذهب تاجاً ؟ فقال لها : ليس هذا فى ديننا . فقالت له : من أين يعرف أهل بيتك ما أنت عليه فى خلوتك ؟ فلم تزل به حتى فعل . فرآه خاسة

ومصادفة بعض الجند ، فقالوا تنصّر . ثم هجموا عليه فقتلوه .

وعلى كل حال ، فهذا يدل على تأثير الإسبانيات فى أزواجهن من الأمراء ، فكيف بمن دونهم ؟ ومن الأدلة على ذلك ما حُكى عن عبد الرحمن الناصر أنه بنى الزهراء على اسم حظيّة له ، وأنفق فيها أموالا لا تحصى ، وتفنن فيها ما شاء أن يتفنن ، وقالوا : إن المعتمد بن عباد تلقّب بهذا اللقب من أجل جارية له إسبانية الأصل كانت تسمى اعتماد .

وقد حكى عبد الواحد المراكشى فى كتابه « المعجب » أنه كان بمدينة قرطبة نحو ١٥٠ امرأة تكتب القرآن بالخط الكوفى فكيف بغيرها .

✡ ✡ ✡

وكما عنى الأندلسيون بالعلوم عنوا أيضاً بالفنون ، ولقربهم من الفنون الإيطالية ، والفنون الإسبانية والفرنسية ، طبعت عمارتهم بطابع خاص غير طابع الفنون المشرقية . وآثارهم الباقية فى جميع مدن الأندلس تدل على عظمة ذوقهم ، فى قرطبة ، وغرناطة ، وطليطلة ، وغيرها . وقد بنى عبد الرحمن الناصر لجاريته الزهراء مدينة سمّاها كما ذكرنا باسمها وجعلها متنزها ومسكنا له ولحاشيته . ونقش صورتها على الباب ، وكان الأندلسيون يجلبون الصور والتماثيل من البلاد الأخرى كالقسطنطينية ، وقلّدوا بعض النقوش التى رأوها فى كنائس إسبانيا وصقلّية ، وروى بعض المؤرخين أن ثلاثة أعمدة فى مسجد قرطبة كانت عليها نقوش وصور ، كان على أحدها صورة عصا موسى ، وعلى الثانى صورة أهل الكهف ، وعلى الثالث غراب نوح ؛ وأكثروا من عمل الآنية والأثاث ورسم الأشكال الهندسية العجيبة على الأبواب ، وفى السقوف ، مما لا تزال آثاره باقية حتى اليوم ، مع تفننهم العظيم فى الموسيقى ، والغناء . وربما كان الفضل الأول فى ذلك لزرياب الذى قدم من المشرق سنة ٢٠٦ ﻫ فأجزل الخليفة عبد الرحمن بن الحكم العطاء له ، وأسكنه ، وأجرى عليه فى كل

شهر مائة دينار ، وعلى من حضر معه عشرين ديناراً لكل شخص . وقد زاد زرياب فى العود وتراً خامساً ، وكان يحفظ الأصوات التى قبله ، فقالوا : إنه كان يحفظ عشرة آلاف صوت ، وكان له جارية اسمها متعة ، أدَّبها وعلمها ، فصارت تحسن أغانيه ، ومن رغبته الشديدة فى الغناء والأصوات أنه كان يحلم بالصوت ، وكيفية توقيعه ، فكان يقوم فى الليل بعد أحلامه يسمعها لجواريه ، حتى إذا حفظْنها نام ، ولم يكتف بتعليم الغناء ، بل كان له حظ عظيم من آداب اللياقة فى مأكله وملبسه وعوائده ، بثّها فى الأندلسيين ؛ وأعجبوا بها حتى قلّدوها ، وإلى الآن ينسب نوع من الحلوى إليه فى الشرق ، ويسمونه « زلابيا » ، والغالب أنه تحريف عن « زريابيا » . وقد عرف عنه أنه كان يقيم الولائم العظيمة يتفنن فى ترتيبها . وكان ذلك كله هو النواة الأولى فى فخامة قصور الأمراء الأندلسيين وبيوت الأغنياء وأناقتهم . وكان زرياب إلى ذلك كله مثقفاً ثقافة واسعة ، فهو عالم فى النجوم والجغرافيا والطبيعة والسياسة . وكان له خصوم أقوياء خصوصاً من الفقهاء . وكان من خصومه المقتدر بن يحيى الغزَال فقد هجاه هجاءً مقذعا ، فنفاه عبد الرحمن الأوسط إلى العراق . ولولا أن خلفاء زمانه أخذوا بيده ونصروه على خصومه لذهب ضحيتهم . ولرقة عواطف الأندلسيين أغرموا بالغزل ، واستعانوا عليه بالموسيقى ، والغناء ، والرقص ، فكنتَ تسمع فى كثير من الأحياء حين تمر بالليل صوت الغناء ، والموسيقى فى كثير من البيوت .

وكثر بجانب مجالس الغناء مجالس الأدب ، وربما حضرها النساء أيضاً . .

قال بعضهم يصف مجلسا :

وفِتْيَةٍ كالنجوم حُسْنًا ... كلُّهُمْ شاعرٌ نبيلُ

مُنَفَّذُ الجانبَيْنِ مَاضٍ ... كأنه الصّارم الثقيل

في مجلس زانه التَّصَابِي ... وطاردتْ وصــفَه العقول

* * *

ومن أعجب العجب ما رووه فى صنعة الأندلسيين وفنهم عن عباس بن فرناس ، فقد اخترع فن الطيران ، وقالوا إنه عمل آلة لها جناحان ، فطار بها مسافة لا بأس بها ، وسقط عند النزول لأنه لم يحسن تصميم الذّيل عند النزول

* * *

وقد أثرت الأندلس فى العالم الأوربى بعلومها وفنونها أكثر مما أثر المشرق ، لأنها قريبة من أوربا ، ولأنه كان يقصدها كثير من الأوربيين ، فيتثقفون على العرب ، ويتعلمون منهم ، ويشاهدون حركاتهم ، ويقلدونها فى بلادهم . وكان كثير من اليهود يتعلمون العربية والعلوم والآداب وينقلونها إلى أوساط أخرى ، ولأن الأندلسيين غزوا جنوب فرنسا ، وفتحوه إلى بلدة « بواتييه » ، والأفكار سريعة الانتقال سرعة البرق ، فلو قلنا إن الحضارة الأوربية طارت من على أكتاف الحضارة الإسلامية ، وخاصة الأندلس ، لم نكن بعيدين عن الصواب.

والتاريخ كل يوم يبين سلسلة من الأحداث يتشابه نتاجها مع نتاج العرب ، ولا يجعل مجالا للشك فى أن أصولها مستمدة من العرب ، فى اللاهوت وفى القصص ، وفى الطبيعة ، والكيمياء ، وفى الرياضة والهندسة ، وغير ذلك . والعصبية الأوربية تحول كثيراً بين الاعتراف بالحق ، ولكن التاريخ كفيل بكشف الحقيقة .

* * *

وكانت المدة الطويلة التى عاشتها الحضارة الأندلسية ، إذ بلغت ثمانية قرون كفيلة بقوة الاحتكاك بين الشرق والغرب ، واستفادة الغرب منها . هذا مع ما عرف عن الأندلسيين من نزاع شديد على الخلافة وغيرها ، وكثرة الثورات والثوّار ، ولو أنه أتيح لها الاستقرار ، وقل هجوم الإسبانيين عليها كل حين ،

وخروجهم هم على أنفسهم ، لأتت بأضعاف ما أتت ، واستفاد العالم من حضارتهم أضعاف ما استفاد . ولكن لله فى خلقه شئون .

وفى الحق أن الأندلسيين كالمشرقيين أنتجوا فى الأدب أكثر مما أنتجوا فى العلوم ، سواء النثر أو الشعر ، وأكثروا من وصف الحياة الاجتماعية وما تستدعيه مجالس اللهو والغناء والشراب ، والعلاقة بالنساء ، والحروب ، والقول فى ألم الفراق ، والرقص والراقصات ، والمناظر الطبيعية ، والملاحم فى تاريخ الأندلس ، وغير ذلك ؛ وكل هذا مع ما عرف من طبيعة العرب من كثرة القول وطواعية اللسان ، مما جعلهم ينتجون من الأدب أكثر مما ينتجون فى العلوم الرياضية والطبيعية ، وتقرأ تراجم علمائهم فترى كأن كل عالم شاعر ، حتى الفلاسفة والفقهاء . والطبيعة العربية فى الأندلس كالطبيعة العربية فى المشرق ، ما هو إلا أن يتجه الذهن إلى شيء ، حتى يدرّ القول ، وينساب الكلام .

ولقد كانت وقعة « شارل مارتل » وقعة فاصلة بين المسلمين فى الأندلس ، والنصارى فى أوربا ، إذ لولا هزيمة المسلمين لتقدموا حتى فتحوا أوربا كلها ، واستفاد الفاتحون مما يرون من أخلاق وعادات وفنون ، ولاستفاد الأوربيون من دين العرب ولغتهم وعلمهم . ولكان العالم أشبه ما يكون بوحدة ولكن شاء الله أن يقفوا عند هذا الحد ؛ ورأى النصارى تمجيد « شارل مارتل » لأنه حماهم من غزو العرب ، واعتقدوا أنه لو غلبهم المسلمون لما كانت نهضتهم ، ولا استقلالهم ، ولا علمهم ، ولا فنهم .

ومن يدرينا ؟ فالعالم كله ليس يتسع لسلطة واحدة ، ولا لجنس واحد ، واختلاف الناس إلى أجناس وشعوب وأديان يجعل الاحتكاك أتم ، والصراع أشد ، والتسابق إلى الفضائل أقوى . ومن كل ذلك يكسب العالم رقيًا وتقدما .

ألا ترى أن الحروب على شدتها وويلاتها وكوارثها تسفر آخر الأمر عن تقدم عظيم فى العلوم والفنون ، كما أسفرت الحرب الأخيرة عن تقدم فى الطيران ، والعقاقير الطبية ، والعمليات الجراحية ، والشؤون الاقتصادية ، بل وفى كل مرفق من مرافق الحياة . والتجارب علمتنا أن ليس هناك خير محض ، ولا شر محض ، وأن الشر الكثير قد يأتى بخير كثير . . .

* * *

ولما تقسّمت الدولة الأندلسية إلى طوائف ، كانت ملوك كل مدينة تُزهى بالعلماء ، وتقربهم ، وتعتقد أنهم أحسن دعاية لهم ؛ وقد ساعد على ذلك أن البلاغة ، وإتقان الأدب ، كانا أيضاً وسيلة للوزارة ؛ كذلك كان الخلفاء فى الأندلس فى حاجة شديدة إلى الطب والتنجيم . فقرّبوا الأطباء والمنجمين ، وكان الطب والتنجيم والمدخل إلى الفلسفة .

واشترك اليهود فى الحياة الثقافية مشاركة فعّالة ، وكانوا منبثين فى طول البلاد وعرضها ، ومنهم من اشتغل بالطب ، ومنهم من أمسك مالية الدولة مثل « حَسْدَاى بن شَبْروط » الذى كان يسيطر على مالية الدولة فى عهد عبد الرحمن الناصر ، ومنهم من ارتقى إلى منزلة الوزارة مثل « إسماعيل بن نَغْرِلّة » فى ظل الأمير البربرى « حَبّوس » فى غرناطة . وكان لليهود تأثير كبير فى مساعدة بعض الأمراء ، وخذل بعضهم

وأحياناً يضيق المسلمون ذرعاً بسوء تصرّفهم ، وتعسّفهم ، فيضطهدونهم ، وينكلون بهم .

وكانت المملكة الإسلامية بالنسبة للعلماء والرحّالين كرقعة شطرنج ، يذهبون

فيها ويجيئون ، من غير مراقبة أو تشديد ؛ لذلك سرعان ما رأينا علماء من المشرق يذهبون إلى الأندلس ، وعلماء من الأندلس يذهبون إلى المشرق ، وهم لا يستقرون على حال واحدة . وهم كلما حلّوا فى بلدة استفادوا وأفادوا . ولذلك تجد فى تراجم كثير من العلماء الرحْلة من هنا إلى هناك ، وبالعكس .

ولما ضعف شأن أمراء الأندلس بتفرقهم ، وكثرة حروبهم ، وغلبة النصارى عليهم ، استنجدوا بأهل المغرب ، فأولا : استنجدوا بالمرابطين فكان فى المغرب قبيلة اسمها « لَمْتونة » إحدى قبائل صِنْهاجة ، وهى قبيلة ضاربة فى الجنوب ، حتى بلاد السنغال ، ومسيطرة على الشعوب الزنجية المجاورة ، حتى آل أمر هذه القبيلة « ليوسف بن تاشْفِين » ، فلما استُدعى لمعاونة الأندلسيين عدَّى البحر بجنوده ، وسار إلى إشبيلية ، فحارب الإسبان وغلبهم ، وتغلب على أكثر بلاد الأندلس ، حتى لقد عزل الملوك المسلمين لضعفهم ، وعدم قدرتهم على الدفاع عن بلادهم . وكان يوسف بن تاشفين ذا نزعة دينية تخالف نزعة الغزالى ، وكره منه إفراطه فى الدعوة إلى محاسبة النفس ، فأصدر قاضى قرطبة وزملاؤه فتوى بأن الغزالى مبتدع زنديق ، وعلى ذلك أحرقوا كتابه « إحياء علوم الدين » فى قرطبة على مرأى من الشعب وفرضت عقوبة الإعدام على كل من يقرؤه . واضطهدوا اليهود حتى فرّ كثير منهم ، ودعوا إلى تفسير جميع الآيات المجسمة للذات العليّة ، كوجه ربك ، ويداه مبسوطتان ، تفسيراً حرفيًّا ، وسفّهوا رأى المعتزلة فى تأويل كل هذه الآيات .

ثم حدث أنْ رحل إلى بغداد رجل اسمه « محمد بن تومرت » من قبيلة (مصمودة) البربرية ، ومن أبناء جبل السوس فى الجنوب الغربى من مراكش ، بعد أن قضى مدة فى قرطبة ، شهد فيها إحراق كتب الغزالى ، وقرأ فيها كتب

ابن حزم ، وفى بغداد وقف على تعاليم الأشعرى واعتنقها ، فلما رجع إلى المغرب ، أعلن حربا شعواء على مذهب المرابطين فى التجسيم ، ودعا إلى التأويل والتنزيه ، وقد عرف أتباعه بالموحدين ، كما عرف أتباع يوسف بن تاشفين بالمرابطين . واستولى هو على الأندلس ، ونشر تعاليمه بين أفرادها .

قال فى المعجب : « وفى عهد المرابطين عظم أمر الفقهاء ، لأن أمراءهم لم يكونوا يقطعون أمراً ، ولا يبتّون فى صغير من الأمور ولا كبير ، إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فبلغ الفقهاء فى أيامهم مبلغاً عظيما لم يبلغوا مثله فى الصدر الأول من فتح الأندلس ... فكثرت لذلك أموالهم ، واتسعت مكاسبهم . وفى ذلك يقول بعض الشعراء :

أهلَ الرِّياء لبِسْتُمو نامُوسَكُمْ كالذِّئب أدْلَجَ فى الظلام العَاتِمِ
فَمَلَكْتُمُ الدنيا بمذهَبِ مالِكٍ وقسمتُمُ الأموال بابْنِ القاسِمِ
وركبتُمُ شهْبَ الدوابِ بأشهَبٍ وبأصْبَغٍ صُبِغَتْ لكمْ فى العالِمِ »[1]

وفيه أيضاً « أن الفقهاء قرروا فى مجالس أمراء الموحدين تقبيح علم الكلام ، وكراهة السلف له ، وهجرهم مَنْ ظَهَر عليه شىء منه ، وأنه بدعة فى الدين ، وربما أدى أكثره إلى اختلال فى العقائد ، وكتبوا إلى البلاد بالتشديد فى نبذ الخوض فى شىء منه ، وتوعُّد من وجد عنده شىء من كتبه . ولما دخلت كتب الغزالى المغرب ، أمر أمير المسلمين بإحراقها ، وتقدم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى من وجد عنده شىء منها »[2] . « ثم اختلّت أحوالهم ، اختلالا شديدا ، فظهرت فى البلاد مناكير كثيرة ، واستولى النساء على الأحوال

(١) انظر المعجب ص ١٧١ .
(٢) المصدر المذكور ص ١٧٥ .

وأسندت إليهن الأمور ، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة مشتملة على كل مفسد وشرير ، وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور . وأمير المسلمين فى ذلك يتزيَّدُ تغافله ، ويقوى ضعفه ، ويقنع باسم إمرة المسلمين »[١] . « ولما رأى أعيان بلاد الأندلس ما ذكرناه من ضعف أحوال المرابطين ، أخرجوا من كان عندهم من الولاة ، وكادت الأندلس تعود إلى سيرتها الأولى ، وقام بغرب الأندلس دعاة فتن واستفزوا عقول الجهال واستمالوا قلوب العامة »[٢] فكان ذلك سببا فى دخول الموحدين ، وحلولهم محل المرابطين وكان زعيم الموحدين محمد بن تومرت ، وفى أيامه انتشر الصالحون والمتبتِّلون وأهل علم الحديث ، فقامت لهم سوق . . . وفى أيامه انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء ، وأمر بإحراق كتب المذهب ... فأحرق منها جملة فى سائر البلاد . قال صاحب المعجب : « وقد شهدت ذلك وأنا بمدينة فاس ، يؤتى منها بالأحمال ، فتوضع ويطلق فيها النار . وتقدم إلى الناس فى ترك الأشغال بعلم الرأى ، والخوض فى شىء منه ، وأمر جماعة ممن كانوا عنده من علماء المدينة ، بجميع أحاديث من المصنفات المشهورة فى الأحاديث ، كالبخارى ومسلم . فجمعوا ما أمرهم بجمعه . فكان يمليه بنفسه على الناس ، ويأخذهم بحفظه[٣] » .

وفى عهد دولة الموحدين هذه ظهر ابن طفيل وابن رشد الفيلسوفان الكبيران ، ولكن دولة الموحدين التى انتظمت الأندلس والمغرب ، إلى تخوم مصر ، واتّسعت اتِّساعا لم يكن له نظير من قبل أصابها الانحلال ، وانغمس خلفاؤها فى الترف ، بينما كان الإسبان يقْوَون شيئا فشيئا ، ويتسلطون على البلاد شيئاً فشيئا . وأعقب المرابطين والموحدين فى السيادة على غرناطة (بنو نصر) ويسمون

(١) المعجب ص ١٧٧ .
(٢) المصدر المذكور ص ٢١٢ .
(٣) « « ص ٢٧٨ .

بنى الأحمر ، وكان أجداد بنى الأحمر هؤلاء من قبل ملوكا على سرقسطة ، فتصدروا بعد خروج الموحدين لجهاد الإسبانيين . ولم يكونوا يقاومون النصارى وحدهم ، بل كانوا يقاومون أيضاً بعض الملوك المسلمين الذين يهاجمونهم ، حتى اضطروا أخيراً إلى أن يكونوا فى حماية فرديننـد الثالث ملك قشتالة . وازدهرت العلوم والآداب فى عهد بنى الأحمر . ومن أشهر رجالهم ، وأكبر أدبائهم « لسان الدين بن الخطيب » الذى ألَّف فيه المقَّرى نفح الطيب ، وكان ابن الخطيب وزيراً لأحد ملوك بنى الأحمر ، وقد ألَّف كتباً كثيرة ، وهو الذى كانت بينه وبين ابن خلدون مكاتبات وصداقة . عكّرها التنافس بينهما ؛ إذ كان ابن خلدون قد سَفَر لبنى الأحمر إلى صاحب قشتالة ونجح فى سفارته ، فلما أحسَّ بتغير قلب ابن الخطيب هاجر ابن خلدون إلى أفريقية ثم مصر . هذا إلى غير ابن الخطيب من العلماء والخطباء .

ثم كان من مفاخر بنى الأحمر ظهور النابغتين المشهورين وهما : ابن بطوطة ، وابن جبير . فابن جبير أبحر من جزيرة طريف إلى الإسكندرية ، ومكة ، ولما فرغ من حجّه انقلب إلى العراق ، فالموصل ، فحلب ، فدمشق ، فعكّة ؛ ومن ثم ركب البحر إلى صقلية ، وكان فى القاهرة أيام صلاح الدين ، فوصف ما شاهده وصفاً دقيقاً ، وكان من توفيق الله له أن طاف هذه البلاد والحضارة الإسلامية فى أشد ازدهارها ، فوصفه بحق يعدّ وصفاً دقيقاً للحضارة الإسلامية فى عهدها . وابن بطوطة رحل ، واستغرقت رحلته نحواً من خمس وعشرين سنة . وطاف فى أمصار فارس ، وآسيا الصغرى ، وشبه جزيرة القرم ، ثم القسطنطينية ، ثم الهند ، وشغل سنين منصب قاض فى دلهى ، ووُفِّق بعدُ إلى رحلة أخرى إلى الصين ؛ فزار سوتُنْج وكانْتُون ، ثم قفل إلى جزيرة العرب من طريق سُومَطْرا ، حتى بلغ فارس ،

ثم رحل رحلة أخرى إلى بلاد الزنوج ، واستقر بعد فى مراكش ، وربما عُدَّ زعيم الرحالين إذ لم يبلغ أحد مبلغه .

و بعد أن ازدهر بنو الأحمر فى حروبهم وعلومهم ، وفنونهم ، عدا عليهم الزمان ، فأنزل أواخرهم من عروشهم ، وأفقدهم سلطانهم ، وماتوا فى حسرة على عزهم ، وسطوتهم ، وأبّهتهم ، وعظمتهم ، وكانوا آخر مَن ملك بالأندلس . ذلك أنه لما فتح المسلمون الأندلس ، تركوا جزءاً منها فى الشمال ، فى جبال البرانس ، وكان جزءاً وعراً ، يسكنه بعض النصارى البدو الأجلاف ، فتركهم المسلمون ، ولم يعبأوا بهم ، ولكن ظلوا يقوون شيئاً فشيئاً ، واستطاع هذا العدد القليل أن يضم حوله كثيراً من نصارى إسبانيا ، وفرنسا ، وغيرها ، وكانوا يحمسونهم بإثارة العاطفة الدينية . فكانوا شوكة دائماً فى جنب المسلمين ، يخرجون عليهم من حين لآخر ، وكانوا ينكمشون إذا أحسّوا من الأمير الأندلسى قوة ، كعبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، والمنصور بن أبى عامر . أما إذا شمُّوا أية رائحة ضعف ، فإنهم يعيثون فى الأرض فساداً ، وظلوا يَقوَون شيئاً فشيئاً ، والمسلمون يضعفون شيئاً فشيئاً بتخاذلهم ، وكل يوم تسقط فى أيديهم إحدى المدن ، حتى وقعت الأندلس كلها فى قبضة أيديهم . فهذا القسم الصغير الذى تركه المسلمون فى الشمال استصغاراً لشأنه ، ووعوة مسلكه ، جرَّ على المسلمين فيما بعد الوبال .

فالدولة الأندلسية كانت أشبه ما تكون بشجرة مقلوبة فروعها فى الأرض ، وجذورها فى السماء ؛ فجذورها أول ما عرفت الأندلس المسلمين هم الجنود والولاة الذين كان يرسلهم الخلفاء الأمويون من بعد الفتح إلى دخول عبد الرحمن ، وذلك من سنة ٩٢ إلى سنة ١٣٨هـ . وفى هذه الفترة لم يكن تقررت فى الأندلس قواعد الملك ، ولا ثبتت جذوره ، ولا وضع للثقافة منهج معروف . بل كانت نتفاً

تقال هنا أو هناك . وكانت تكثر الخلافات بين العرب أنفسهم من يمنية ومضرية ، وبين العرب والبربر من ناحية ، والمولّدين من ناحية أخرى ولذلك كانت الإمارة مقلقلة مضطربة .

وجذع الشجرة هو الخلافة الأموية من عهد عبد الرحمن الداخل إلى سقوط الأمويين ، ومجيء عصر الطوائف ؛ والأمويون هم الذين وضعوا دعائم الدولة ، ووضعوا لها نظما ثابتة ، ساروا عليها حياتهم ؛ من أهمها وحدة البلاد . فلا يصح لداخلىّ ولا خارجي أن يقتطع جزءاً منها إلا ما يضطرون إليه بحكم الانهزام فى الحرب . ولما استقلّوا عن العباسيين حافظوا على استقلال البلاد من أى تدخل داخلى أو أجنبي ؛ ثم كان أمامهم مطمح سعوا إليه ، وهى أن تكون البلاد كلها مسلمة أولا ، مالكية المذهب ثانياً . ثم لما كانوا من نسل الأمويين فى الشرق ، وكانت دعامة الأمويين فى الشام ، وعاصمتهم فى الشرق دمشق ، وكان عدد كبير من الفاتحين من الشاميين آثروا نقل التقاليد الشامية إلى الأندلس ، وهى تخالف التقاليد العراقية ، والتقاليد المصرية ، والمدينية ، وغيرها .

وقد مجّدوا هذه التقاليد ، حتى عرف أن من أراد الخروج عليهم خرج عليها ، كما كان يفعل الخارجون على بنى العباس بلبس البياض ، ولذلك رأينا خارجين عليهم يتخذون علامة خروجهم الخروج من مذهب مالك ، أو الانضمام إلى العباسيين ، أو محاولة الاستقلال ، أو نحو ذلك . وكان من أمجد أعمالهم اتجاههم نحو الثقافة ، فعبد الرحمن الناصر مثلا وضع فكرة انتداب العلماء من المشرق ، والحكم ابنه وضع فكرة إنشاء مكتبة عظيمة فى الأندلس ، وغيرها وضع فكرة تشجيع العلماء وتقديرهم ، وهكذا . ولذلك إذا أرّخْنا الحياة الفكرية فى الأندلس وجب أن نسند الفضل الأكبر إلى الأمويين . فالحق أن ازدهار العلم أيام ملوك الطوائف يرجع إلى سببين هامين :

(١) أن البذرة الأولى التي وضعها الأمويون نضجت فيما بعد فى عهد الطوائف .

(٢) أن انقسام الدولة فى عهد ملوك الطوائف جعل الأمراء يتنافسون على تزيين إماراتهم بالعلم والأدب ، كالذى حدث فى المشرق عند انقسام الدولة العباسية بين طولونية ، وفاطمية ، وحمدانية وغيرها . فهذان العاملان أكبر ما رأينا فى تنشيط الحركة العلمية فى الأندلس ، ولعل أصدق شاهد على ذلك نبوغ ابن حزم وابن شُهيد فى أواخر عهد الأمويين ، وأوائل الدولة العامرية ، فالذى يستحق فضل ظهورهما هم الأمويون ، وكلاهما معروف أنه كان له ميول أموية ، وإن ازدهر آخر وقته فى عهد العامريين .

أما فروع الشجرة فنجدها عند ملوك الطوائف ، فقد كان جذر الشجرة قد تأسس ولم يبق إلا عامل عرضى ، وهو تشجيع الملوك للحركة الثقافية . فهؤلاء أمراء يميلون للأدب ، كبنى الأفطس ، فتزدهر الآداب فى عهدهم ؛ وهؤلاء يميلون إلى الاجتهاد وحرية الفكر وحب الفلسفة فيزدهر ذلك عندهم ، وهؤلاء يميلون إلى الفقه فيزدهر الفقه ، كبنى جهور . وبذرة هذه الشجرة دخول الفاتحين ، وحكم الولاة من قِبَل الأمويين والعباسيين من سنة ٩٢ إلى سنة ١٣٨ هـ . ثم تولاها ملوك أمويون من سنة ١٣٨ إلى سنة ٤٢٤ هـ . ثم تولاها ملوك الطوائف ، ومن أشهرهم بنو عبادْ فى إشبيلية ، وبنو جَهْوَر فى قرطبة ، وبنو هود فى سرقسطة ، وبنو نصر فى غرناطة ، وبنو ذى النون فى طليطلة ، وظلت ملوك الطوائف هذه تسقط واحدة بعد أخرى ، وكان آخرها سقوط غرناطة ، وانتهاء الأندلس سنة ٨٩٨ .

وقد توقع بعض المؤرخين والفقهاء سقوط الأندلس ، لما رأى أن النصارى يزدادون قوة وتوحدا ، والمسلمين يزدادون ضعفاً وتفرقا ، حتى إن ابن حيان مؤرخ

الأندلس الكبير توقع سقوط الأندلس من عهد بعيد ، فإنه لما رأى سقوط بربشتر في يد النصارى في سنة ٤٥٦ قال : « وقد استشففنا[1] بشرح هذه الحالة الفادحة ، مصائب جمة ، مؤذنة بوشك القُلَعَة[2] ... » ولما سقطت طليطلة قال شاعرهم :

يا أهلَ أندلسٍ شدُّوا رواحلكم فما المُقام بها إلا من الغَلَطِ
السِّلك يُنْثَرُ من أطرافه وأرى سِلْكَ الجزيرة منْثُوراً من الوسَطِ
من جاور الشرّ لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيّاتِ في سَفَطِ

وقد ساعد الإسبان دعوتهم النصرانية الواسعة وحماستهم الدينية لطرد المسلمين أعدائهم في الدين ، واعتبارهم المسلمين دخلاء على البلاد يجب طردهم منها ، وإعادتها كما كانت . أما من ناحية المسلمين ، فكانوا على العكس من ذلك متخاذلين ، ينظر كل أمير إلى شخصه ، لا إلى المصلحة العامة . ولعلنا نستطيع أن نعرض على القارئ صفحة من مظاهر هذا .

فمثلا كان ابن هود أميراً على مرسية ، ودعا إلى تحرير الأندلس من الموحدين والنصارى على السواء ، وكان المأمون الموحّدى أميراً على بلنسية ، فوقع العداء بين ابن هود والمأمون واضطر ابن هود أن يتحالف مع ملك قشتالة النصرانى ، وأن يتنازل له فى نظير ذلك عن عدد من القواعد والحصون ، وأن يتعهد بمنح النصارى فى أرضه بعض الامتيازات . وكانت بلنسية فى يد الموحدين ، وتولّى إمارتها أبو عبد الله محمد أخو المأمون ، وتلقّب بالعادل ، فلما رأى لجوء ابن هود إلى ملك قشتالة لجأ هو أيضا إلى الاستغاثة بملك أراجون ، وتعهد له بأداء الجزية ، فلما رأى سخط شعبه عليه من أجل ذلك ، التجأ إلى ملك أراجون واعتنق النصرانية ،

---

(١) وردت هذه العبارة غامضة فى الأصل هكذا « وقد أشفينا » بدل « استشففنا » و « جليلة » بدل « جمة » ولم نفهم لها معنى . واستشف الشيء تبينه من بعد .

(٢) القلعة : الضعيف إذا بطش به ولم يثبت .

وكذلك فعل أبو جميل الزيّان أمير مرسية إذ طلب حماية ملك قشتالة ، ووقّع معه عقد مهادنة ، ولما ظهر بنو الأحمر فى غرناطة واستولوا عليها ، خاصم ابن الأحمر عتبة ابن يحيى المُغيلى ، وكان المغيلى هذا يأمر بسب ابن الأحمر على المنابر ، فوقع بين الخصمين قتال عنيد . ثم رأينا والى مرسية ، ووالى لقَنْتْ وأَرْيولة ، وغيرها يعقدون الصلح مع ملك قشتالة على أن يعترفوا بطاعته ، ويؤدوا له الجزية ، وأن يظلوا فى ظله ، يحكمون ويستأثرون بموارد بلادهم تحت حمايته . ولما كثرت المعارك بين ابن الأحمر ، وملوك النصارى ، وأمراء الولايات اضطر ابن الأحمر إلى لقاء ملك قشتالة فى معسكره وتقديم الطاعة له ، وتأدية جزية له قدرها مائة وخمسون ألف قطعة من الذهب ، واشترط ملك قشتالة على ابن الأحمر أن يعاونه فى حروبه ضد أعدائه ، وأن يحضر المجلس النيابى لقشتالة مثل سائر الأمراء التابعين للعرش .

هذه صفحة صغيرة ترينا كيف كان الأمراء يعبثون فى وقت الجد ، وكيف كان العداء بين بعض الأمراء المسلمين وبعض ، يجعلهم يهرعون إلى ملوك النصارى يعاهدونهم ، وينزلون لهم عن بعض أرضهم ، ويؤدون لهم الجزية ، والعدو يستخدم هذه المعاهدات والمحالفات فى ضرب بعض المسلمين بعضاً ، ولم تقتصر هذه المأساة على فعل أمير واحد ، بل قلّد بعضهم بعضاً ، وسار من العادات المألوفة أن الأمير المسلم إذا اضطر لجأ إلى ملك من ملوك النصارى .

وحدث مرة أن تولى غرناطة الأمير إسماعيل من بنى الأحمر ، وانتصر فى عدة مواقع ، وسقط فى يده كثير من المدن والقلاع . وكان من أكبر سبب نصرته استعمال الحديد والنار من آلات قاذفة ، تشبه المدافع كانت تدك الحصون ، وتوقع الناس فتوحات له متعاقبة ، فلما عاد مرة من انتصار رائع قتل بباب قصره غيلة بعد ثلاثة أيام من رجوعه ؛ قتله ابن عمه لأنه اختلف معه على فتاة رائعة الحسن ، كانت من السبايا فى إحدى المواقع .

ثم حدث أن كان بلاط بنى الأحمر فى آخر أيامهم فى أسوأحالة ، فمن ذلك أن أمير غرناطة وهو أبو الحسن تزوج بابنة عمه التى تسمى عائشة الحرة ، وكان من أشجع الناس وأذكاهم . وظل معها زمناً طويلا ، وولدت منه ولدين ، أكبرها أبو عبد الله وهو الذى سقطت الأندلس فى عهده ، والثانى أبو الحجاج يوسف ، ولكن تزوج أبوالحسن هذا فى آخر أيامه بفتاة جميلة نصرانية ، اسمها ثريا ، وكان اسمها النصرانى إيزابيلا ، كانت قد أسرت واتخذت مولاة فى دار أبى الحسن ثم تزوجها . وحظيت عنده ، وفضلها على السيدة العجوز عائشة ، وأولدها ولدين أيضاً . وتدخلت فى شؤون الدولة ، وعرفت بالدهاء وسعة الحيلة . ولا نستبعد أنها كانت جاسوسة على البيت الغرناطى المالك للنصارى المحاربين ، حناناً إلى أصلها ، وإن كنا لم نر نصاً فى ذلك . وأصبح البيت المالك بذلك قطعة من نار ، الزوجة تكره ضرتها ، وأولاد كل زوجة يعادون أولاد الزوجة الأخرى ، وما لبثت غرناطة نفسها أن انقسمت انقسام البيت المالك ، حتى أصبح أبو عبد الله يعادى أباه ، ويعمل لمناهضته ، وكذلك يفعل الأب ، وكل يستنصر بملوك النصارى ، ليعاونوه على خصمه ، فكيف بعد كل هذا الفساد تقوم مملكة ؟

وزاد الطين بلة أن المسلمين كانوا قد أجادوا استعمال النِّفَات وهى آلات تشبه المدفع فى أبسط أشكاله . واستخدموه فى حروب الصليبيين وأتقنه الأندلسيون وأخذه الإسبانيون عنهم وزادوا فى تحسينه ، واتخذوه وسيلة فعالة لدكّ الحصون ، فكان هذا قوة كبرى فى انتصار الإسبان إلى ضعف المسلمين وسوء تصرفهم ، وفساد علاقاتهم .

يضاف إلى ذلك أن المسلمين بالأندلس استنجدوا بملوك المسلمين فى أنحاء العالم من مغاربة ومصريين وأتراك ، فلم يغيثوهم ، ونظرت كل مملكة إلى نفسها ، والاقتصار على مشاكلها ، بينما كان النصارى فى إسبانيا وإيطاليا وفرنسا وغيرها

يتعاونون على طرد المستعمرين من الأندلس ، و إعادتها مملكة نصرانية كما كانت . فاجتمعت الألفة والقوة والحماسة على الضعف والتفرق والتخاذل ، فكانت النتيجة طبيعية ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

فمثل هذه الأمور هي التي جعلت بعيدي النظر من أهل الأندلس يرون الخاتمة محققة ، وهي طردهم من البلاد واستيلاء الإسبانيين عليها . وقد كان ...

هذه خلاصة وجيزة لحالة الأندلس الاجتماعية ، وحياتها الفكرية ، نفصلها فيما يأتي إن شاء الله .

الباب الثانى

الحركة الدينيـــة

بدأت العلوم الدينية فى الأندلس بانتقال بعض الصحابة والتابعين حينما همّ موسى بن نصير بغزو الأندلس وفتحها . فكان معه بعض الصحابة والتابعين ؛ نذكر منهم : المُنَيْذِر أو المنذر على اختلاف فيه ، وهو صحابى . وممن دخلها من التابعين موسى بن نصير الفاتح ، وعلى بن رباح ، وحَنَشُ بن عبد الله الصنْعانى . كانوا جنوداً فى الجيش الفاتح . وهم مع ذلك حملة علم . وربما كان حنش هذا علم التابعين ، وهو من أصل يمنى ؛ كان من أصحاب على بن أبى طالب . وخرج مع عبد الله بن الزبير ، على عبـد الملك بن مروان ؛ وكان أهل الأندلس يفخرون بوجوده بينهم . وأما على بن رباح فبصرى تابعى ، وكان له مكانة عند عبد العزيز ابن مروان فى المشرق ؛ هؤلاء وأمثالهم بذروا البذرة الأولى فى العلوم الدينية فى الأندلس ، وكانت أشبه ببذرة المشرق . فكانت عبارة عن قرآن كريم يُتلى ويحفظ ويقرأ بالقراءات وحديث يفسر عن النبى وعن الصحابة . والحديث يتضمن أحكاماً دينية ، وأخباراً عن سيرة الرسول وغزواته ، وأعماله ، وأخبار أصحابه وآرائهم ورواياتهم ... الخ ، والثقافة الأولى فى المشرق والمغرب فيها دين وفيها أخلاق ، وفيها تاريخ ، وفيها غير ذلك . وكانت هذه الأقوال تنتشر انتشاراً كبيراً ، حتى لتترجم إلى اللغة البربرية ، ويتثقف بها البرابرة والمولدون ؛ وكان هذا عملا جليلا قام به هؤلاء الصحابة والتابعون وكانوا يعدّون الرعيل الأول . وأما الطبقة الثانية فمن أشهرهم رجال ثلاثة : (١) عبد الملك بن حبيب السلمى .

(٢) يحيي بن يحيي الليثى . (٣) عيسى بن دينار . فأما عبد الملك بن حبيب ، فله فضل نشر مذهب مالك فى الأندلس ، إذ كان مالكيا . وفى بعض الأقوال أنه لقى الإمام مالكا وأخذ عنه . وكان فقيها عالما ، ومعلّما ممتازاً فى إلقائه وسعة اطلاعه . وكان يقال فى الأندلس : « فقيه الأندلس عيسى بن دينار ، وعالمها عبد الملك بن حبيب ، وراويها يحيي بن يحيي » . وقد كانت الثقافة العامة بين المتعلمين الفقه والأدب ، ثم التخصص . فترى أكثر علماء الأندلس ، فقهاء أدباء أوّلا ، ثم متخصصين . وهكذا كان عبد الملك هذا أديباً مؤرخا عالما باللغة والإعراب ؛ له الأشعار الكثيرة ، ثم متخصصاً فى الفقه .

نعم ؛ طَعَنَ بعضهم فى بعض أحاديثه ، وقالوا : إن له غرائب لم يعرفها المحدّثون ، ولكن الأكثرين على توثيقه . وأما يحيي بن يحيي الليثى ، فقد أتم نشر مذهب الإمام مالك إذ كان رجلا وقوراً مهيباً ذا سلطة ونفوذ ، فعهد إليه خلفاء الأندلس أن يختار هو القضاة . وإذ كان مالكياً كان لا يختار إلا المالكية ، وإذ ملأ الناس حب الدنيا رغبوا فى المذهب للمنصب . وأسّس يحيي لقضاة الأندلس أسساً متينة ، فقد وضع نظام القضاة ، وسمّى قاضى القضاة ، وقاضى الجماعة . ورتّب مجلساً للشورى ، وسمّى أعضاءه ، فكان إذا تُرجم لشخص منهم كان من شرفه أنه من رجال الشورى . ومن الأسف أننا لم نقف على النظام الدقيق لهذا المجلس إلا نتفاً هنا ونتفاً هناك . وكل ما نستطيع أن نقوله : إنه كان ينظر فى الفتيا وفى المشاكل الفقهية . ويبدى فيها رأيه . وكان عددهم فى بعض الأزمان كما روى بعض المؤرخين ستة عشر ، وأصل يحيي هذا من البربر ، خرج إلى مالك فى المدينة ، وتفقه عليه ، وروى الموطأ عنه ، وروايته مشهورة فى الشرق كله ، وسمع من غير مالك ، فسمع فى مصر من الليث بن سعد ، وفى مكة من سفيان بن عيينة ، وعبد الله بن وهب ، وعبد الرحمن بن قاسم العُتَقى ، وكان عفيفاً أمينا ، فكان

فى الأندلس كأبى يوسف فى المشرق ، إلا أن يحيى تعفف عن القضاء ، وعن المناصب الحكومية ، فزادت قيمته . ومما يدل على جلالته وجاهه أن الأمير عبد الرحمن الناصر ، اتصل بجارية يحبها فى رمضان ، ثم ندم على ما فعل ندماً كبيراً ، فسأل يحيى عن الكفارة ؛ فقال له : تصوم شهرين متتابعين . فلما خرج قيل له : لِمَ لم تُفْت بمذهب مالك فى التخيير بين الصوم وعتق رقبة ، فقال : « لو فتحنا له هذا الباب لسهل عليه أن يتصل كل يوم بجواريه ، ثم يعتق رقبة ، ولكن حملتُه على أصعب الأمرين لئلا يعود » ، وقد اتهم بإثارة الشغب فى وقعة الرَّبَض المشهورة ، ضد الأمير الحكم ، ثم عفى عنه ، وقد كان فى الأندلس ملكا غير متوج ، ومات سنة ٢٣٤ هـ . وأما عيسى بن دينار فقد كان فقيها بارعاً ، ومؤلفاً مكثراً ، ألّف كتاب الهداية . ويقول ابن حزم : « إنه أرفع كتب جمعت فى معناه على مذهب مالك ، وأجمعها للمعانى الفقهية على المذهب » . وقال بعض المؤرخين : « إنه لم يكن أحد فى وقته أعلم منه » . وقد جمع بين الفقه والزهد ، وتولى قضاء طليطلة ، ورأس الشورى بقرطبة ، وعدّوه أفقه من يحيى بن يحيى الليثى ؛ وقد توفى سنة ٢١٢ على أشهر الأقوال .

وعلى الجملة فقد كان هو وابن حبيب ويحيى أفراس رهان ، كل له ميزته .

هؤلاء كانوا ناشرى العلم الأولين فى بلاد الأندلس . وجاء بعدهم طبقة أخرى قدّمت العلم خطوة جديدة ؛ من أشهرهم : قاسم بن أصبغ من أهل قرطبة ، فقد ساح بالقيروان وبمصر وبالعراق ؛ ثم عاد إلى الأندلس بعلم كثير . وكان بصيراً بالحديث والرجال ؛ ألّف كتاباً طويلا ثم اختصره ، وسمّاه « المجتنى » وقدمه للحَكَم المستنصر ؛ وفيه من الحديث المسند ألفان وأربعمائة وتسعون حديثاً فى سبعة أجزاء . فهو كذلك أكثر من الحديث ، وصنّفه على أبواب الفقه . وكان له الفضل فى نشر العلم بالأندلس على هذه الطريقة . وله مصنّف جليل القدر ،

احتوى على بيان صحيح الحديث وغريبه ؛ كما ألّف فى أحكام القرآن ، وفى فضائل قريش ، وفى الناسخ والمنسوخ ؛ وقد ولد سنة ٢٤٧ . وبَقِيّ بن مخلد ، وقد ساعد أيضاً على تدعيم مذهب مالك ، وكان واسع الاطلاع . وإنما قلنا إنه نقل العلوم نقلة جديدة ، لأنه جمع أحاديث كثيرة كما فعل الإمام أحمد ، وصنّفها على حسب أبواب الفقه ، وبيّن الاستنباط منها ، فكانت كتبه كتب حديث وفقه معاً . هذا إلى سعة فى التحصيل ، فقد رووا أنه كان له مائتان وأربعة وثمانون شيخاً . ولما أراد ابن حزم أن يفخر بمن فى الأندلس من علماء ، كان بَقِيّ هذا أحد الذين افتخر بهم وعدّه من مفاخرها . وقد ألّف بقيّ هذا تفسيراً كبيراً اطلع عليه ابن حزم وقال : « أقطع أنه لم يؤلف فى الإسلام مثل تفسيره ، لا تفسير محمد ابن جرير الطبرى ولا غيره » . وله كتاب فى الحديث كبير ، رتّب فيه حديث كل صحابى على أبواب الفقه ، فهو مسند ومصنّف . قال ابن حزم : « وما أعلم هذه الرتبة لأحد قبله ، مع ثقته وضبطه وإتقانه ، واحتفاله فى الحديث » . وله مصنّف فى فتاوى الصحابة والتابعين . وعلى كل حال فقد كان دعامةً من دعائم العلم فى الأندلس .

وخطوة ثالثة : وهى التوسع فى استنباط الأحكام من القرآن والأحاديث الصحيحة ، وربما كان من خير من يمثل هذه الطبقة أبو عمر يوسف بن عبد البر . فقد ألّف كتابا سمّاه « التمهيد » وكان كتاباً واسعا ، ملأه بالكلام على فقه الحديث . وألّف كتاباً كبيراً سمّاه « الكافى فى الفقه ، على مذهب مالك » قصره على ما بالفتى حاجة إليه ؛ كما ألّف كتاباً فى الصحابة جليلا اسمه « الاستيعاب » يترجم فيه لكل صحابى ، ويورد أخباره . فكان أول كتاب من نوعه قبل أن يؤلف ابن حجر العسقلانى كتابه « التهذيب » .

☆ ☆ ☆

فإذا خطونا خطوة أخرى ، رأينا فى المشرق أن الخلافات بين الفقهاء تصارعت وألّفت الكتب المختلفة فيها . وجمع بعض الفقهاء المذاهب المختلفة فى كل مسألة . وألف فى اختلاف الرأى كتب كثيرة ، كما فعل الطبرى فى كتابه « اختلاف الفقهاء » ، فانتقل هذا إلى الأندلس . فرأينا مثلا حفيد ابن رشد الفيلسوف يؤلف كتاباً فى اختلاف المذاهب وعللها ، ويُسمِّيه « بداية المجتهد ، ونهاية المقتصد »[1] ومن محاسن هذا الكتاب أنه يذكر الخلاف فى كل مسألة حدث فيها الخلاف بين الفقهاء ، ويُرجع ذلك إلى سببه ، ويضع قاعدة عامة فيقول « إن أسباب الاختلاف ستّة : أحدها تردد الألفاظ بين أن يكون اللفظ عاماً يراد به الخاص ، أو خاصا يراد به العام ، أو عامًّا يراد به العام ، أو خاصاً يراد به الخاص ، وثانيها الاشتراك الذى فى الألفاظ كلفظ القرء الذى ينطلق على الطهر وعلى الحيض ، ولفظ الأمر، هل يحمل على اللزوم ، أو على الندب، والسبب الثالث اختلاف الإعراب ، والرابع تردد اللفظ بين حمله على الحقيقة ، أو حمله على نوع من أنواع المجاز ، والخامس عدّ اللفظ مطلقا تارة ومقيداً تارة أخرى ، كإطلاق الرقبة على كل عبد ، وقد يقيد بالعبد المؤمن ، والسادس : التعارض بين القياسات أو الإقرارات ، أو معارضة القياس للأفعال ، أو نحو ذلك » . وقد طبّق هذا المبدأ على كل أنواع الخلاف فى الفقه تطبيقاً بديعاً . فكان هذا خطوة جديدة .

ولنسق مثلا فى كيفية تطبيق هذا المبدأ . فهو مثلا يعرض لمسألة قصر الصلاة فى السفر ، فيرى أن بعض الفقهاء حدّد للسفر عدّة أميال معينة ، وبعضهم أطلق السفر على كل سفر ، فيقول : إن بعضهم راعى السبب العقلى فى القصر ، وهو المشقة الشديدة : وبعضهم وقف عند النص . فكان هذا سبب خلاف ، وهكذا فى كل موضوع .

---

(١) طبع فى مصر سنة ١٣٢٩ هـ .

ثم كان أن اخترع الشافعى علم أصول الفقه كالذى عليه أكثر المؤرخين ، فانتقل هذا إلى الأندلس ، فألّف فيه ابن حزم أصول الأحكام ، وتبعه الشاطبى فى كتابه « الموافقات » ؛ فنرى أن الشاطبى أخذ فكرة الأصول عن الشافعى وأمثاله ، ولكنه بحث موضوعات لم يبحثها المشارقة ، وعرضها فى أسلوب ألطف من الأسلوب الذى اتبعه المشارقة فى كتابة الأصول ، واستشهد أيضاً ببعض أحداث حدثت فى الأندلس ، وهكذا . وأما علوم القراءات فقد نَمَتْ أيضاً فى الأندلس ، فالشاطبى[1] الذى ألّف رسالته المسمّاة « حرز الأمانى » والتى تسمى بالشاطبية نسبة إليه قد اشتهرت فى الشرق والغرب جميعاً ، وأخذت عماداً للقراءات فى مختلف العصور والأقطار ؛ كما عُنوا بتفسير القرآن ، واشتهر عندهم تفسير القرطبى[2] ، وقد اتبع فى تفسيره ذكر الآية ، ثم يذكر ما فيها من اللغة ووجوه الإعراب ، والمعنى العام ، وما يُستنبط منها من أحكام . الخ . . . وقد جمع فيه بين المنهجين : منهج الرواية كالطبرى ، ومنهج الدراية كالزمخشرى . وشاع الانتفاع به فى العالم الإسلامى .

* * *

وكان عالم الأندلس الدينى غير مدافع ابن حزم : فقد كان واسع الاطلاع ، قوى النفَس فى الجدل ، متعدد نواحى النبوغ ، لَسِناً ، يهاجم من خالفه ، حتى يدخله فى قمقم . يظن من يقرأ له علماً أنه لا يحسن غير هذا العلم لمهارته فيه ، فإذا هو كذلك يحسن كل علم تقريباً ، فهو نابغة فى الحديث ، وفى علم الكلام ، وفى التاريخ ، وفى أصول الفقه ، وفى الأدب . وقد ألّف فى ذلك تأليفات كلها قيمة ؛ حتى فى المنطق والفلسفة . ولعله تعلم الجدل أول أمره ، إذ نشأ شافعياً يناضل

---

(١) وهو غير الشاطبى الذى ألف فى الأصول .

(٢) وهو الذى تطبعه دار الكتب الآن .

أهل المذاهب الأخرى . وقد اشتهر الشافعية بذلك . ثم انتقل إلى مذهب الظاهرية بتأثير أستاذه الظاهرى أبى الخيار ؛ ولعل ما يوضح ما هو مذهب الظاهرية ، ما كتبه هو نفسه ، فى كتابه أصول الفقه ، المسمَّى «الإحكام فى أصول الأحكام»[1] وقد سلك فيه مسلكا يدل على الابتكار ؛ وتكلم فى مسائل لم يتكلم فيها أهل المشرق من الظاهرية ؛ ومن خير ما فيه فصل فى الدفاع عن الحجج العقلية ، ووجوب الأخذ بها ، وفصل آخر فى معنى الصحابىّ ، وأنه ليس كل من رأى النبى عليه الصلاة والسلام ، وفصل فى كيفية ظهور اللغات ، وفصل فى معنى الظاهرية . وملخصه أن الظاهرىّ لا يعتمد فى استنباط الأحكام الشرعية على القياس ، بل على النص ، وإذا كان النص مطلقاً أخذ على إطلاقه ، إلا إذا قيّده نص آخر . واعتماد الظاهرية على النصوص فقط أسلمهم أحياناً إلى بعض المتناقضات ، مثل : أنهم يوجبون غسل الإناء من ولوغ الكلب لوجود النص ، ولا يغسلونه من ولوغ الخنزير لعدم نصٍّ فى ذلك ؛ وبينما يبيحون الرخص فى بعض المسائل ، يشددون فى بعضها الآخر . فهم مثلا يجيزون للجُنُب قراءة القرآن والجلوس بالمسجد ، وهم لم يشترطوا فى البيع صيغة خاصة كبعض المذاهب ؛ وهذا يُسْرٌ ظاهر ؛ ولكنهم أوجبوا غسل اليد ثلاثاً بعد النوم ، وحكموا بنجاسة الماء الذى مسَّته يد مستيقظ لم يغسل يده ... الخ[2] .

وقد دافع عن هذا المذهب إلى أن مات . وقد تأثر ابن حزم إلى درجة كبيرة أيضاً بأستاذه أبى على الفاسى ، وكان كما قال ابن حزم عاقلا عالما عاملا ، متقدما فى الصلاح والنسك . قال : « وما رأيت مثله علماً وعملا وديناً وورعاً فنفعنى الله به كثيراً . وقد علمت منه موقع الإساءة وقبح المعاصى » .

---

(١) نشرُ هذا الكتاب فى مصر سنة ١٩٤٥ م .

(١) ابن حزم للأستاذ سعيد الأفغانى .

وقد تعلم ابن حزم الحديث وتبحر فيه ؛ وقد اتبعه كثيرون على مذهبه الظاهرى ، وخرجوا من مذهب مالك إليه ، كما أن كثيرين ضاقوا به ذرعا ، وأنكروا عليه صراحته ، وأعلنوا الحرب على كتبه ، حتى بلغ بهم الغيظ أن أحرقوها علناً فى إشبيلية .

☆ ☆ ☆

وقد وصف هو حالته واضطهاده من الخلفاء العامريين الذين أتوا بعد الأمويين ، لميله السياسى إلى الأمويين ، قال : « ثم شُغلنا بعد قيام أمير المؤمنين هشام بالنكبات ، وباعتداء أرباب دولته ، وامتُحنّا بالاعتقال والتغريب ، والإغرام الفادح ، وأرذمت[1] الفتنة ، وعمَّت الناس وخصّتْنا ، إلى أن توفى أبى الوزير ، رحمه الله » .

وقال فى موضع آخر : « ثم ضرب الدهر ضرباته ، وأُجْلِينا عن منازلنا وتغلّب علينا جند البربر ، وخرجت عن قرطبة سنة ٤٠٤ ، وتقلبت فى الأمور ، الخ » . وظل يتلقى العذاب من خصومه السياسيين ، وخصومه العلماء ؛ والحق يقال : أن المذهب الظاهرىّ تغلغل فى نفس ابن حزم ، فلو قرأت مذهبه وكتبه وجدت أمثلة من نظرة الظاهرى ، ووقوفه عند حرفية النصوص .

ويظهر أنه كان ضيّق الصدر حسب مزاجه ، حادّ اللسان ، يصك به معارضه ، مما أثار عليه خصومه . ولم يخلفه فى الدفاع عن الظاهرية إلا ابن تيمية فيما بعد ؛ وقد اختلف الناس فى أصله ، فأكثر مؤرخى العرب يقولون : إن جدّه الأعلى كان نصرانيا وأسلم ، وأن جده هذا كان مولى فارسيًّا ليزيد بن أبى سفيان . وذهب ابن سعيد وتبعه بعض المستشرقين إلى أن جده الأعلى هذا كان من القوط الذين غزوا إسبانيا ، وأقاموا فيها . وأيًّا ما كان ، فقد كان أبوه وزيراً للحاجب المنصور

(١) اشتدت .

ابن أبي عامر . فعاش عيشة أرستقراطية ، وعنى بابنه علىّ بن حزم ، وعلّمه على يد كثير من المشايخ ، ولكن نكبه ابن أبي عامر ، ونكب معه أهل بيته فشُرِّدوا ، ونُفُوا ، وتحملوا العذاب بعد العز والترف . وتوفى والده سنة ٤٠٢ هـ ، وفارق ابن حزم قرطبة ، وذهب إلى المَرِيّة ، وعاش هناك فى هدوء ، مشتغلا بالعلم والتأليف . ثم عادت دولتهم ، واختير ابن حزم نفسه وزيراً ، ولكنه لم تطل وزارته ، إذ نكبه سيده . وعكف أكثر وقته على التأليف حتى ذكر ابنه أنه ألّف أربعمائة كتاب . قال صاعد : « كان ابن حزم أجمع أهل الأندلس قاطبة لعلوم الإسلام وأوسعهم معرفة ، مع توسعه فى علم اللسان والبلاغة ، والشعر ، والسيرة ، والأخبار » . وقال الذهبى : « وكان إليه المنتهى فى الذكاء وحدّة الذهن ، وسعة العلم بالكتاب والسنّة ، والمذاهب والملل والنحل ، والعربية والآداب ، والمنطق ، والشعر ، مع الصدق والديانة ، والحشمة ، والسؤدد ، والرياسة ، والثروة » .

وقد قارب ابن حزم فى عصره عبد الواحد المراكشى ، فقال عنه : « إنه بعد أن استوزر نبذ الوزارة ، واطّرحها اختياراً ، وأقبل على قراءة العلوم ، وتقييد الآثار والسنن ، فنال من ذلك ما لم ينل أحد قبله بالأندلس ومبلغ تصانيفه فى الفقه والحديث والأصول والنحل والملل وغير ذلك من التاريخ والمُثُل ، وكتب الأدب ، والرد على المخالفين له ، نحو من أربعمائة مجلد ، تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة . وهذا شىء ما علمناه لأحد ممن كان فى مدة الإسلام قبله ، إلاّ ابن جرير الطبرى ، فإنه أكثر أهل الإسلام تصنيفا . . . ومن أجود ما أحفظ له بيتان قالهما فى رجل نمّام :

أَنَمُّ من المرآة فى كل ما درى ... وأَقطَعُ بين الناس من قُضُب الهنْدِ
كأنَّ المنايا والزمانَ تَعلَّما ... تَحَيُّلَهُ فى القطع بين ذوى الوُدِّ

وهو أشهر علماء الأندلس اليوم ، وأكثرهم ذكراً فى مجالس الرؤساء ، وعلى ألسنة العلماء ، وذلك لمخالفته مذهب مالك بالمغرب ، واستبداده بعلم الظاهر ، ولم يشتهر به قبله عندنا أحد ممن علمنا ، وقد كثر أهل مذهبه وأتباعه عندنا بالأندلس اليوم . أقول وقد بقيت شهرته كبيرة بعد وفاته وقد ماتت العداوات بموته ، وظل موضع إجلال وتقدير من العلماء بعده »[1] .

واطلع الغزالى على كتاب له فى أسماء الله الحسنى ، فقال : « إنه يدل على عظم حفظه ، وسيلان ذهنه » ، وكل ما أخذوه عليه أنه طعن فى كثير من العظماء بلسان حاد لاذع . ومنحه الله طولا فى العمر فعاش اثنتين وسبعين سنة ، إذ توفى سنة ٤٥٦ . ومن أهم تآليفه « كتاب الفِصَل ، فى الملل والنحل »[2] فحكى المذاهب المختلفة فى أهم العقائد وأهلها ، وناقش كل فرقة من المخالفين له كالمعتزلة ، والأشعرية ، والشيعة ، وغيرهم . ومكّنه من ذلك أنه لم يقلّد طائفة معينة ، بل قال ما يوحيه إليه اجتهاده هو . ومن خالفه فى شيء هاجمه فى شدة وقسوة . ومع أن الأشعرى كاد يكون مقدَّساً فى المشرق والمغرب ، فابن حزم لم يعبأ به ، وهاجمه مهاجمة عنيفة ، كما هاجم الصوفية ، ومن يعتقد فى التنجيم ، وفى الأولياء .

ولم يكتف ابن حزم بمهاجمة أصحاب الفرق الإسلامية ، بل هاجم اليهودية والنصرانية ، واستغل العقيدة الإسلامية بأن التوراة والإنجيل حرّفا عن أصلهما استغلالا عظيما ، وحاول بكل إمكانه أن يجد تناقضاً فى كتبهم ، ليبرر اتهامهم فى تحريف النصوص .

ويظهر أنه ألّف فى ذلك رسالة خاصة ، ثم أدمجت فى الكتاب ؛ كما تضمن الكتاب رسائل أخرى ، وهذا ما سبّبَ أن هذا الكتاب لم يخضع للمنهج المنطقى

(١) المعجب ، ص ١٤٦ وما بعدها . ونشير هنا إلى أننا نرى بعض نصوصه غامضة أو مطولة مما يحملنا على أن نذكرها بشيء من التصرف .

(٢) نشر فى ليدن ثم فى مصر .

الدقيق . والقارئ له يدهش من طول نَفَسه ، وقوة حجته ، وسعة اطلاعه ، وبلاغته التى قد تفوق بلاغة الغزالى فى إحياء العلوم . ومن مبتكرات ابن حزم فى هذا الكتاب أنه أراد أن يستنبط من المذهب الظاهرى الذى ذكرناه عقائد خاصة ، مطبّقة على هذا المذهب . والإنسان يعجب : كيف استطاع ابن حزم — هذا الذى عاش عيشة مترفة فى القصور وبين الجوارى — أن يؤلف مثل هذه الكتب ، وربما ساعده على ذلك أنه كان ذا عقل لاقط يرى كل شىء ، فيفهم سرّه ، حتى دلال الجوارى ومغازلتهن . وهاجم فى كتابه القياس ، والرأى ، والاستحسان ، والتقليد ، والتعليل . وله رسالة بهذا الاسم لا تزال مخطوطة . وقد قال المنصور من الموحّدين عند وقوفه على قبره : « كل العلماء عيال على ابن حزم » وقد صدق ؛ فقلّما نجد له نظيراً . فقد شغل الناس فى المشرق والمغرب بين مؤيد ومعارض .

وعلى الجملة ، فقد قال فيه ابن حيان بحق : « إنه يصك معارضه صَكّ الجندل » فكان لا يأبه بمن يعارضه ، عظيماً أو غير عظيم ، مبجلا أو غير مبجل ، كالأشعرى ، وأبى حنيفة ، ومالك ، وغيرهم . ومن الأقوال الشائعة أن قلم ابن حزم كسيف الحجاج ؛ كلاهما ماضٍ حادّ . وقد اعتذر فى بعض كتبه عن حدّته بأنها كانت ترجع إلى مرض كان يلازمه ، ولذلك كان مُحَسَّداً من فقهاء عصره من سنّيين ، وشيعة ، ومعتزلة ، يدسّون له الدسائس عند الملوك ، حتى يُبْعد من القصور . وربما كان هذا نعمة ، لأنه أتاح له أن يتحفنا بتآليفه العظيمة القيمة .

وقد قال الذهبى فيه : « وقد امتحن هذا الرجل وشدّد عليه ، وشرّد عن وطنه ، وجرت عليه أمور لطول لسانه ، واستخفافه بالكبار ، ووقوعه فى أئمة الاجتهاد بأقبح عبارة ، وأفَظّ محاورة ، وأمنع ردّ » وظل صلباً فى مذهبه صلابة تَسْتَدعِى الإعجاب . قال ابن حيان : « وأكثر معايبه عند المنصف له جهله بسياسة

العلم » ويعنى بسياسة العلم الملاينة والرد فى هدوء ووقار . والحق عندنا أن ابن حزم كان موضع إعجاب فى حرية رأيه ووقوفه عند النصوص ، مهما خالفه الكبار . فليس يهمه رأى مالك أو أبى حنيفة فى المسائل الفقهية ، ولا الأشعرى ونحوه فى العقيدة ؛ أما ما يعاب عليه حقاً ، فهو طعنه فى العلماء والكبار ، بكل صراحة مع التجريح الشديد . وقد وصل إلينا أخيراً من تأليفاته رسالة فى « المفاضلة بين الصحابة »[1] وهى المسألة التى ثار فيها الخلاف الشديد بين الشيعة وأهل السنة . والمطلع عليها يعجب لمنطقه الدقيق فيها ، فهو يذكر أولا معنى الفضل ، وبم يتفاضل الصحابة كقاعدة للبحث ، مع الحجج المقنعة ، العقلية والنقلية ، ثم يفاضل على هذا الأساس بين الصحابة بالدليل . وهو يدل على سعة اطلاع وكبر عقل . على كل حال حرّك عقول الأندلسيين بتآليفه ودعوته إلى المذهب الظاهرىّ . وقد كان الأندلسيون مقلدين مذهب مالك من غير بحث . فكنتَ ترى فى أكثر مجالس العلماء من يؤيده ، ومن يهاجمه ، حتى اشترك فى ذلك الأمراء أنفسهم . وربما كان أقواهم فى الردّ عليه والوقوف أمامه الفقيه الأندلسىّ المشهور «أبو الوليد الباجى » وكان فقيهاً متكلماً ، ولِىَ القضاء مدّة ، وأكثر من التصانيف ، ورحل إلى الشرق ، ولقى كثيراً من علمائه ، وأخذ عنهم . وكان فقيراً يعمل بيده ليعيش ، وظلّ فى الشرق نحو ثلاثة عشر عاماً يتبحر فى العلوم . فلما قدم الأندلس ، وجد أن ابن حزم لطلاوة حديثه ، وقوة حجته ، وقد أمال إليه كثيراً من الناس ، وشكّك بعضهم ، ورأى أن أهل الأندلس ، ليس منهم من هو فى قوة جدله ، فكلّمه الأندلسيون فى ذلك ، وكانت له معه مجالس مشهورة ، فى بعضها ينتصر ابن حزم ، وفى بعضها ينتصر الباجى ، فإذا انتصر الباجى هلّل الناس وكبّروا . وربما كان أكثر ما يدل على قيمة هذه المناظرة وقوة كلٍّ ، وتفوق ابن حزم على

---

(١) طبعت فى دمشق .

الباجي حكاية صغيرة لطيفة ، إذ قال الباجي لابن حزم : « أنا أعظم منك همّة في طلب العلم ، لأنك طلبته وأنت معانٌ عليه ؛ تسهر بمشكاة الذهب ، وطلبته أنا وأنا أسهر بقنديل بائِتِ السُّوق ، فقال ابن حزم : هذا الكلام عليك لا لك ، لأنك إنما طلبت العلم ، وأنت في تلك الحال ، رجاء تبديلها بمثل حالي ، وإنما طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته ، فلم أَرْجُ به إلا علوّ القدر العلميّ في الدنيا والآخرة » فأفحمه . وقد قال عياض العالم المشهور : « قال لي أصحاب الباجيّ : كان يخرج إلينا للإقراء وفي يده أثر المطرقة يحصّل رزقه ، إلى أن فشا علمه ونوّهت الدنيا به ، وعظم جاهه ، وأجزلت صلاته ، حتى مات عن مال وافر » ومن مثل ما كانت تدور عليه المناظرة بين الباجي وابن حزم حديث روى ، وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم وقّع على صلح الحديبية ، فظاهر الحديث يدل على أن محمداً عليه الصلاة والسلام كتب اسمه ، والقرآن يقول : إنه نبيّ أميّ ، فكيف التوفيق بين ذلك ؟ . أما ابن حزم فقال إنه وقّع كالظاهر ، ولكن توقيعه لا ينفي أمّيته ككثير من الملوك يوقعون بإمضاءاتهم وهم أمّيون ، أما الباجي وغيره ، فيؤوّلون التوقيع . ولنسق لك صورة مما كان يجرى بين الظاهرية وخصومهم . فأصحاب المذاهب يقولون للظاهرية : إنكم جامدون عند اللفظ . لا تنظرون للمعاني المقصودة من روح التشريع ، وكان الله ينعى على الكفار اقتصارهم على فهم ظواهر الدنيا فقال : « يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا » فكيف بمن اقتصر على ظاهر الشريعة ؟ فيقول الظاهرية : إن القصد من الشريعة هو التعبد ، وظهور سر الامتثال . أما التعمق في القياس والعلل فيخرجها من حدِّ التشريع الإلهي إلى التشريع الوضعيّ البشريّ . نعم : إن هناك عللا للأحكام إذا نُصَّ عليها عملنا بها ، أما إذا لم ينص عليها لم نستطع العمل بها . فمن أين يستفاد أن العلة في تحريم الربا هي الاقْتيات والادخار ، أو الكيل

والوزن كما يقول أهل القياس ، ومن أين يستفاد من قوله عليه السلام « الولد للفراش » أنه لو قال له الولىّ بحضرة الحاكم : زوجتك ابنتى وهو بأقصى الشرق ، وهى بأقصى الغرب ، فقال قبلت هذا التزويج ، وهى طالق ثلاثا ، ثم جاءت بولد لأكثر من ستة أشهر : إنه ابنه ، لأنها صارت فراشه . فنحن ننكر هذا التمثيل وهذا التشبيه . والله تعالى يقول « وما اختلفتم فيه من شىء فحكمه إلى الله » ولم يقل إلى آرائكم وأقيستكم . ويرد عليهم القياسيون بأن قوله : فحكمه إلى الله : لا يمنع القياس ، لأن ما قيس على كلام الله فهو حكم الله أيضاً . فالنظر إلى المقاصد وهى اللّب واجب . وهكذا . واستمر الباجى يناظر ابن حزم عهداً طويلا ، والحرب بينهما سجال .

وكان ابن حزم كثير الاعتداد بنفسه ، وقد نعى نفسه قبل وفاته فقال :

كأنّك بالزُّوّار لى قد تبادروا وقيل لهم : أوْدى علىّ بن أحمدِ
فيارُبَّ محزونٍ هناك وضاحكٍ وكم أدْمُع تُذْرَى وخدٍّ مُقَدّدِ
عفا الله عنِّى يومَ أرحل ظاعِنًا عن الأهل محمولاً إلى ضيقِ ملحَدِى
وأتركُ ما قد كنتُ مرتبطا به وألْقَى الذى أُنسيتُ دهراً بمَرْصَدِ
فوَا رَاحَتِى إنْ كان زادى مقدَّمًا ويا نَصَبِى إن كنتُ لم أتزوَّدِ

☆ ☆ ☆

ومما يدل على اعتداده بنفسه قوله :

قالوا تحفَّظْ فإن النّاس قد كثُرتْ أقوالُهم ، وأقاويل العِدَا مِحَنُ
فقلتُ : هل عيبهم لى غير أنِّىَ لا أقول بالرأى إذ فى رأيهم فِتَنُ
وأننى مُولعٌ بالنصِّ لستُ إلى سواه أنْحُو ، ولا فى نصره أهِنُ

لا أنثنى نحو آراء يُقالُ بها فى الدِّين ، بل حسْبىَ القرآن والسُّنَنُ
يا بَرْدَ ذا القول فى قلبى وفى كبدى وياسرورى به لو أنهم فَطِنوا
دعهم يعضّوا على صُمّ الحصى كَمَداً من مات من قوله عندى له كَفَنُ
إنّى لأعجبُ من شأنى وشأنهمُ واحسرتا إننى بالنّاس مُمْتَحَنُ
ما إن قصدتُ لأمرٍ قطُّ أطلبُه إلا وطارت به الأظعانُ والسُّفُنُ
أما لهمْ شُغُلٌ عنّى فيشْغلُهمْ أو كلُّهم بىَ مشغولٌ ومرتَهَنَ
كأنَّ ذِكْرِىَ تسبيحٌ به أُمِرُوا فليس يَغفل عنى منهمُ لَسِنُ
إن غبتُ عن لحظهم ماجوا بغيظهمُ حتى إذا ما رأونى طالعاً سكنُوا
دَعوا الفضول وهُبُّوا للبيان لِكَىْ يدرى مُقيمٌ على الحُسْنَى ومُفْتَتِنُ
وحسبىَ الله فى بدءٍ وفى عَقِبٍ بذكره تُدْفَعُ الغمّاء والإحَنُ

وهى قصيدة تدل على مذهبه بالأخذ بالنص مع تصوير لطيف لحال أعدائه معه .

واستمرت هـذه الحركة طويلا ؛ منهم من يكفِّره ، ويحذّر منه العوامّ والسلاطين ؛ ومنهم من يدسُّ له الدسائس ويتهمه بالسياسة التى تغضب الأمير . ومنهم من يقوِّله ما لم يقل . وفى ذلك يقول مخاطباً لبعض أصحابه :

وخُذْنِى عصا موسى وهات جميعهم ولو أنَّهُمْ حيَّاتُ ضَالٍ نَضَانِدُ
يريغون فى عَينى عجائب جَمَّةً وقد يُتَمنَّى الليثُ ، والليثُ رابضُ
ويرجون ما لا يبلغون كمثل ما يُرَجِّى مُحالا فى الإمَام الروافضُ

حتى بعض أهله حسدوه على فضله ، وناصبوه العداء ، وذو الفضل دائماً محسود . وقد كان رحمه الله كما قال ابن حيان : « إذا حرِّك بالسؤال ينفجر معه بحر

علم لا تكدِّره الدلاء » . وقد روّض نفسه على ذلك ، فكان يكثر من قوله تعالى : « وأعرض عن الجاهلين » وقوله عليه الصلاة والسلام « صل من قطعك ، واعف عمن ظلمك » ، وقول بعض الحكماء : « كفاك انتصاراً لمن تعرض لأذاك ، إعراضك عنه » ويقول هو :

فإنّى أبيتُ طِلاَبَ السِّبابْ ونزَّهتُ عِرضىَ عمَّا يُعابْ
فقل ما بدا لك من بعدِ ذا وأكثرْ ، فإن سكوتى خطابْ

وقد نبغ فى تخريج المذهب الظاهرى نبوغا جعله إماما يقتدى به ، حتى عد صاحب مذهب ظاهرى ، وعرف أتباعه بالحزمية ، وكان له أتباع على هذا المذهب مثل ابن عبد البر المحدث ، والحميدى المؤرخ ، وقد مال إلى مذهبه ابن تومرت زعيم الموحدين . وقد انتصر مذهبه فى المشرق أيضا ، فاعتنق مذهبه ابن سيد الناس الإمام المصرى .

وقد أخذ بلون منه محيي الدين بن عربى الصوفى الكبير ، وابن رشد الفيلسوف الكبير .

وظلت الحركة بعده بين مؤيد ومهاجم ، حتى ظهر بعد قرن تقريبا العالم المشهور أبو بكر بن العربى ، وانتشر ذكره فى المشرق كما انتشر فى الأندلس ، وكان قد رحل إلى الشرق ، وتتلمذ للإمام الغزالى فى دمشق . فجاء إلى الأندلس موطِّناً نفسه على مهاجمة تعاليم ابن حزم . وكان لَسِناً قوىّ الحجة ، كشيخه الغزالى ، فخلف أثراً كبيراً فى الأندلس وغيرها .

وكان كابن الباجى يعمل على تفنيد مذهب الظاهرية ، وكان يوفق أحيانا ، ولا يوفق أحياناً ، وكان واسع العلم ، وقالوا إن كل من رحل لم يأت بمثل ما أتى به ابن العربى إلا الباجى . وكان متفننا فى المعارف كلها ، مع خلق متين ، وقضاء صائب ،

والتزم الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر ، حتى أوذى فى ذلك . قال فيه القاضى عياض : « إنه أقبل على نشر العلم و بثّه ، وكان فصيحاً حافظاً ، كثير المُلح ، مليح المجلس » . ولنذكر بعض كلامه فى الرد على ابن حزم قال : « وكان أول بدعة لقيت فى رحلتى القول بالباطن ، فلما عدت وجدت القول بالظاهر قد ملأ به المغرب سخيف كان من بادية إشبيلية ، يعرف بابن حزم نشأ وتعلق بمذهب الشافعى ، ثم انتسب إلى داود ، ثم خلع الكل ، واستقلّ بنفسه ، وزعم أنه إمام الأمة ، يضع و يرفع ، و يحكم و يشرّع ، ينسب إلى دين الله ما ليس فيه ، و يقول عن العلماء ما لم يقولوا ، تنفيراً للقلوب . وعضّدتْه الرياسة ... فحين عودْى من الرحلة ألفيتُ حضرتى منهم طافحة ، ونار ضلالتهم لافحة » فنازلهم . ورمْىُ ابن حزم بالسّخف قول فيه إجحاف . وقد أنصفه ابن حيان ، والذهبى ، وشكا ابن حزم نفسه من علماء وقته ، فقال : « إن المثل السائر « أزهد الناس فى عالم أهله » ، وقرأت فى الإنجيل أن عيسى عليه السلام قال : « لا يفقد النبى حرمته إلا فى بلده » وكان يعتقد أن من سوء حظه أنه أندلسى ، ولو كان مشرقياً لعرفوا فضله ، وشادوا بذكره ، وكان له شأن آخر غير شأنه . وقال ينعى أهل الأندلس : « إن الأندلس خصت بحسد أهلها للعالم الظاهر فيها ، الماهر منهم ، واستقلالهم كثيرَ ما يأتى به ، واستهجانهم حسناته ، وتتبعهم سقطاته — إن أجاد ، قالوا سارق مُغير ، ومنتحل مدّعٍ ، و إن توسّط : قالوا غثٌّ بارد ، وضعيف ساقط ، و إن باكر الحيازة لقصب السبق ، قالوا : متى كان هذا ، ومتى تعلم ، وفى أى زمن قرأ ، ولأمّه الهبل ، فإن تعرض لتأليف غُمِز ولُمِز ، واستُشنع هيّن سقطه ، وعظم يسير خطئه ، وذهبت محاسنه ، وسترت فضائله ، فتنكسر لذلك همته ، وتقلّ نفسه ، وتبرد حميته » .

وهكذا عودى كثيراً ، وخوصم كثيراً ، وتألم كثيراً ، و إن كان ذلك كله قد أورثه تجارب دوّنها فى كتابه « الأخلاق » .

وقد قرأت لابن العربى كتاب « العواصم من القواصم[1] » فإذا هو كتاب يدخل على شخصية كبيرة لصاحبه ، يروى لنا فيه مثلا أنه لقى الغزالى فى دمشق ، ويدوّن محضراً لجلساته معه ، وأحياناً يوافقه على ما يقوله ، وأحياناً يخالفه . ويذهب مثلا فيه إلى أن الحسين بن على رضى الله عنه خارجٌ على إمام الجماعة يزيد بن معاوية ، ثائر عليه ، وأنه إنما قتل بشرع جدّه . ويروى لنا كيف كان الفرس يُدخلونَ فى الإسلام شعائرهم الدينية القديمة ، فيذيعون التَّجمير فى المساجد للتبخير ، وهى عادة فارسية قديمة أدخلوها على الإسلام من أثر عبادتهم للنار . وحكى له ابن خلدون طرفاً لطيفة فى مقدمته .

على كل حال كان حربا على الظاهرية ، وخصوصاً ابن حزم ، ومع ذلك لم يستطع محو هذا المذهب . فظل بعده أيضا ، وعُدّ ابن العربى بحق خاتمة المحققين . وكل من أتى بعده مقلد صغير . وانحط شأن العلوم الدينية ، وضعف أمرها .

شأن الأندلسيين فى ذلك شأن المشارقة ، فالعالم الإسلامى كله وحدة ، وهو يخضع لقوانين واحدة ، فما حدث فى قطر من أقطاره ، يحدث مثله فى الأقطار الأخرى غالباً . فلما ضعف الفقه فى المشرق ضعف فى المغرب إلا أفراداً قلائل . وقد ضعف الفقه فى المشرق لعدم الاجتهاد ولغلبة الأتراك ، وغير ذلك من الأسباب التى ذكرناها فى الجزء الثانى من ظهر الإسلام ، وكتابنا يوم الإسلام ؛ إذ أغلقوا باب الاجتهاد ، أما فى الأندلس فقد داهمهم الإسبان ؛ كما داهم الترك الشرق ، فكانت العلل واحدة ، إلا أفراداً شواذ كانوا هنا وهناك ، أعادوا مجد الفقه الإسلامى فى الأندلس ، فلما أتى الموحدون بالأندلس أعادوا القول بالاجتهاد ، ورأوا أن المختصرات الفقهية جنت على الفقه ، فأرادوا إحياءه بالرجوع إلى

---

(١) طبع فى الجزائر .

الـكتاب والسنة ، واستنباط الأحكام منهما ، وعدم العمل بأى مذهب من المذاهب المعروفة ، وذلك فى حدود سنة ٥٥٠ ، وأمر عبد المؤمن بن على الموحّدى بإحراق كتب الفروع كلها ؛ لخافه الفقهاء ، وأمر جماعة ممن كانوا عنده من العلماء بجمع الأحاديث من المصنفات العشرة المشهورة ، ونشر هذا المجموع فى الأندلس والمغرب . قال بعضهم : « لما دخلت على أمير المؤمنين يعقوب وجدت بين يديه كتاب ابن يونس ، فقال لى يا أبا بكر : أنا أنظر فى هـذه الآراء المشعّبة التى أُحدثت فى دين الله ، فالمسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أو أكثر . فأىّ هـذه الأقوال هى الحق ، وأيها يجب أن يأخذ بها المقلّد . يا أبا بكر ! ليس إلا هذا ، وأشار إلى المصحف ؛ أو هذا ، وأشار إلى سنن أبى داود ؛ أو هذا ، وأشار إلى السيف » . وأمر الفقهاء ألاّ يفتوا إلا من الـكتاب أو السنة ، وألا يقلدوا أحداً ، بل تكون أحكامهم بالاجتهاد ، وسار الناس على هذه الطريقة ، والتزموا ظاهر الـكتاب والسنة ، وتحرروا فى الاجتهاد ، وكان من هؤلاء فقهاء على هذه الطريق مثل أبى الخطّاب ، ومحيى الدين بن عربى ، وغيرهما . وبذلك نصر الموحدون مذهب الظاهرية ومنهم ابن حزم . ومن الأسف أن بنى مَرِين لما جاءت دولتهم نقضت ذلك كله ، وجدّدت كل الفروع ، وأحيت كتب الفقه على مذهب مالك من جديد .

وتاريخ الأندلس فى ذلك التاريخ كتاريخ المشرق ، إذ المدنية كلها واحدة .

وقد رُويت حوادث كثيرة لفقهاء أندلسيين تدل على صدقهم وإخلاصهم وظرفهم . وقد روينا من قبل حكاية يحيى بن يحيى الليثى الذى وقف أمام عبد الرحمن الداخل ، وألزمه بالصيام شهرين متتابعين ، ومثل ممانعة القاضى الذى تقدم ذكره فى استيلاء عبد الرحمن الناصر على بيت أيتام حتى يدفع لهم أكثر من

ثمنه ، ومثل إضراب أبي عمر بن المكى الإشبيلي شهرين عن الفتوى لقتل ابن أبي عامر عبد الملك بن منذر البلّوطي ظلما . ومثل ما يروى أن قاضي قرطبة محمد ابن عبد الله بن يحيي كان مارًّا بمدينة إلبيرة أيام قضائه فيها فرأى فتى يتمايل سكراً ، فلما رأى القاضي أراد الفرار فخانته رجلاه . فاستند إلى الحائط ، فلما دنا منه القاضي رفع الشاب رأسه ، وأنشأ يقول :

ألا أيّها القاضي الذى عمَّ عدلُه ... فأضحى به فى العالمين فريدا
قرأت كتاب الله ألفين مرة ... فلم أر فيه للشَّروب حدودا
فإن شئت أن تجلدْ فدونك منكبا ... صبورا على ريب الزمان جليدا
و إن شئت أن تعفو تكن لك منَّةٌ ... تروح بها فى العالمين حَميدا
و إن أنت إخترت الحدود فإن لى ... لساناً على هجو الرجال حديدا

فلما سمع القاضي شعره ، أعرض عنه ومضى لشأنه .

ومثل أن أبا إبراهيم التميمى القرطبي تخلف عن الحضور فى وليمة دعاه إليها عبد الرحمن الناصر ، وكان صديقا لابنه الحكم ، فلما سئل فى ذلك ردَّ فقال : إن من قبلك من الأمراء والخلفاء كانوا يستبقون من هذه الطبقة بقية لا يمتهنونها بما يشينها و يرد منها ، يستعدّون بها لدينهم ، و يتزينون بها عند رعاياهم . ولهذا تخلفت . وأراد الناصر أن يدعوه هو وابنه الحكم فاعتذر أيضا ، وخاف أن الناس يقولون : إنه يستجلب الدراهم بدعوة الخليفة وابنه . وفى ترجمته ما يعطينا شيئا عن نظام الشورى عندهم ، فقد قالوا : إن مجلس الشورى كمل عدده به ستة عشر .

ومثل أن أحد القضاة لمح ما عليه ملوك الطوائف من تخاذل وافتراق رأْى ، فندب نفسه لجمع كلمتهم ، والتوفيق بينهم ، وجعلهم جبهة واحدة ضد العدو . وأخيراً لم يفلح فى ذلك ، فاستثقله الأمراء ، وأيقن بالفشل ، وكفّ عن

ســعيه ، الخ الخ . فهذا يعطينا بعض الفكرة عن مجلس الشورى وقوة رجاله وعددهم وأحياناً ظرفهم .

* * *

ولما كثرت المذاهب من ظاهرية ومالـكية ومن شيعة الخ ، كثر حبهم للجدل بعد أن كانوا منصرفين عنه ؛ حتى حكى بعضهم أنهم كانوا كثيرا ما يتجادلون فى مجلس العزاء . وسبب آخر لهذا الجدل وهو كثرته فى المشرق ، حتى ألّف المشارقة علما سمّوه علم المناظرة أو أدب البحث ، وألّفوا علماً سمّوه علم « الخِلَافِيَّات » وقد نقل ذلك إلى الأندلس فازداد نشاطهم فى البحث والمناظرة .

وقد رأينا أن تاريخ العلم كتاريخ الأفراد ، له صِباً وشباب وشيخوخة وهرم فلما انتهى هؤلاء الأعلام كابن حزم ، والباجى ، وابن العربى وصل العلم إلى دور الهرم ، فأصبح كالرجل الهرم ، لا يقوى على المسير ، حتى انتهى الفقه .

* * *

وهناك ناحية أخرى جديرة بالبحث فى الحركة الدينية وهى ناحية التصوف ، وكما نشأ التصوف فى المشرق فى القرن الثانى كذلك نشأ التصوف فى الأندلس فى القرن الثانى بعد الفتح العربى ؛ غير أن تصوف الشرق كان مزيجا من تعاليم الإسلام وتعاليم الفرس والهند واليونان ، وتصوف الأندلس كان مزيجا من تعاليم الإسلام وتعاليم الأفلاطونية الحديثة ، والتعاليم اليونانية والرومانية ، لا الفارسية ولا الهندية إلا ما جاء من قِبَل المشرق ؛ إذ كانت هذه التعاليم كلها هى التى تجاور الأندلس . يضاف إلى ذلك أن الأندلسيين كان كثير منهم برابرة ، وكثير منهم أولاد مسيحيين متصوفين ، وقد اشتهر البربر من قديم بأنهم أهل خيال واعتقاد بالمغيّبات ، وسرعة تصديق لمن يأتى لهم بدعاوى غيبية . ولسنا ننسى ما لقيه العرب

عند فتح المغرب من عناء وشدة قتال ، وانتقاض على يد من تُدعى « الكاهنة » إذ التفّوا حولها فآمنوا بها ، وأذاقوا العرب فى الفتح الأمرّين ، وهذا يدل على الطبيعة البربرية . وإلى الآن فى كثير من البلاد يأخذ البرابرة سمعة قوية فى فتح الكتاب ، وفتح الكنوز ، وقراءة الكفّ ، والادعاء بمعرفة المغيبات . وهى أشياء من قبيل التصوف بعد أن يتدلّى ، ولذلك كله كبرت عند الأندلسيين حركة التصوف .

ولنسلسلها كما سلسلنا الفقه . فأول مَن علمنا تصوفه ابن مسرّة ، وهو محمد ابن عبد الله بن مسرّة ، ولد سنة ٢٩٦ هـ ، وكان أبوه من قرطبة ، وعُرف أبوه بالاعتزال ، وكان الاعتزال فى الأندلس قليلا وغير مرغوب فيه ، فاضطر أن يخفى ذلك على الناس . ومعروف أن الاعتزال يثير بحث كثير من الإلهيات ، ويتسلح أصحابه بالفلسفة اليونانية للدفاع عن الإسلام ضد النصرانية واليهودية كما رأينا فى المشرق ، فأورث ذلك كله لابنه ، ورأى أباه يُسِرُّ الاعتزال وما إليه ، فأسرَّ هو أيضا مذهبه . ولهذا اعتزل ابن مسرّة الناس أيضا قبل أن يبلغ الثلاثين ، والتجأ إلى جبل فى قرطبة ، يتحنث فيه ، وجبال الأندلس عادةً خضراء ، تبهج النفس . وانضمّ إليه بعض أتباعه . وساعدته عزلته ، والمناظر الطبيعية التى أمام بصره على سعة الخيال ، وعمق التفكير . وظل أتباعه فى الأندلس قروناً طويلة . ومع ذلك لم يستطع هو وأتباعه الكثيرون أن يحافظوا على السرية محافظة تامة ، واتهم بالإلحاد ، ففرّ من البلاد مدّعياً أنه يريد الحجّ ، وظل خارج الأندلس ، حتى تولّى عبد الرحمن الثالث الذى اشتهر بالتسامح وتأييد العلماء . وزادت تلاميذه بعدُ ويظهر أنه كان يعتنق التقيّة ، فكان مظهره ورعاً تقيًّا ، وهو يبث التعاليم العميقة لأخص تلاميذه ومريديه . ولم نعرف له آثاراً نستدل منها على آرائه ومذهبه ، ولكن مستشرقا إسبانيا عثر على بعض آرائه ، وقال : إن كثيراً من تعاليمه تشبه

تعاليم أمبيدوقليس وهو فيلسوف يونانىّ مشهور ، عدّه المسلمون أول الحكماء السبعة اليونانيين ، ونسبت إليه كرامات كما تنسب إلى الصوفية . ولم يقتصر أثره على مسلمى الأندلس ، بل أثر أيضا فى يهودها ونصاراها . وهنا نتساءل : هل بلغ تصوف الشرق ابن مسرة فتصوّف ، فيكون تصوف الغرب من تصوف الشرق ، أو أن ميله الطبيعى ومزاجه ، وتعاليم النصارى الإسبانيين والفلاسفة اليونانيين أنتجت ابن مسرة هـذا ، فيكون التصوف الأندلسىّ مستقلاًّ عن التصرف الشرقى ؟ هذا سؤال صعب الجواب ، ليس بين أيدينا ما يكشف غموضه ، خصوصاً وقد كان فى الأندلس قبل الإسلام زهّاد انقطعوا للعبادة .

على كل حال كان ابن مسرّة أول من نعرف فى الأندلس من المتصوفة ، وكان من تلاميذه فيما يروُون الهاشمى ، وهو أبو بكر محمد . أخذ عن ابن مسرّة ، وأخذ عنه محيي الدين بن عربى ، وكان متقشفاً زاهداً ، وإن لم نعرف له كتبا ، وقد عاصره صوفىّ كبير آخر ، وهو أبو عبد الله القرشى الهاشمى أيضا ؛ نسبوا إليه أقوالا صوفية كثيرة مثل « من لم يدخل فى الأمور بلطف الأدب ، لم يدرك مطلوبه منها . من لم يراع حقوق الإخوان بترك حقوقه حُرم بركة الصحبة . الخ »

وقد مات سنة ٥٥٩ بعد أن رحل إلى بيت المقدس ودفن به — وكان الناس يتبركون به وبضريحه — والهاشمىّ هذا هو أحد أساتذة محيي الدين بن عربى .
وإذا وصلنا إلى محيي الدين ، وصلنا إلى إمام كبير من أئمة التصوف ، نثر تصوفه فى الشرق والغرب ، وهو محيي الدين أبو بكر محمد بن على بن عربى الحاتمىّ الطائىّ ، وهو عربى من نسل حاتم الطائى . ولد بمُرْسية بلد أبى العباس المرسى سنة ٥٦٠ : وقرأ القرآن وتعلّم فى إشبيلية . تعلم القرآن والحديث ، وأقام بإشبيلية ،

نحو ثلاثين عاماً ، ثم رحل إلى المشرق ، وأخذ الحديث عن ابن عساكر والجوزى وساح فى بغداد والموصل و بلاد الروم ، واتّسعت معارفه المتعددة . ومن الأسف أنه بعد أن رحل لم يعد إلى الأندلس ثانيا ، فقد توفى فى دمشق . وقد أعطى بلاغة فىالقول ، وعمقا فى التفكير ، وسعة فى الخيال ، وكلما نزل بلداً اتصل بمتصوفيها ، له النثر الكثير ، والشعر الكثير ، لا يعبأ بمال ، ولا جاه . وكان كثير الشَّطْح ، كثير التأويل ، ور بما كانت له قصص كثيرة تبين منحاه فى القول ، فقد قال :

يا من يرانى ولا أراه كم ذا أراهُ ولا يرانى

فاعترض عليه ، كيف لا يراه الله ؟ فقال :

يا من يرانى مجرما ولا أراه آخــــذا

كم ذا أراه منــــعما ولا يرانى لائذا

وله كلام كثير من هذا القبيل ، ظاهره الإلحاد ، وباطنه الإسلام مع التأويل . واشتهر شهرة واشعة ، وكانت شهرته تسبقه إلى كل مكان يحلّ فيه . وهو متوكل على الله ، ينتقل من بلد إلى بلد ، فقيراً زاهداً ، فيعطف عليه بعض الأغنياء ، فيوزع ما يأخذه هنا وهناك . حتى لقد أعطى مرة بيتاً يسكنه ، وجاءه سائل يسأله ، و يقول : شىء لله ، فأعطاه البيت .

وهو من أكبر الناشرين بين الصوفية لفكرة وحدة الوجود ، أى أن الله والعالم شىء واحد ، يختلفان فى الصورة فقط ، ولا يختلفان فى الحقيقة ، وأن رؤية الأشياء مختلفة ، كمنزل ورجل وشجرة ليس إلا أمراً قضت به الضرورة ، وليس إلا خداعاً من الحواس ، ومطاوعة للعقل الإنسانى القاصر . فهو يشبه ما يقول به الفلاسفة المحدثون من أن كل شىء أساسه الذرّة ، و إنما تختلف الأشياء باختلاف

النواة الذرّية وكمية شحناتها الكهربائية . وإلاّ ؛ فالحقيقة فى الكل واحدة ، وربما عبر عن هذا بقوله : « سبحان من خلق الأشياء وهو عينها » فهو يعيّن خالقاً ومخلوقاً فى الظاهر ، ولكنها فى الحقيقة شيء واحد . وهو شيء كما يقول لا يدرك بالعقل ، بل بالقلب . وليس هناك خالق ومخلوق إلا فى الظاهر . وفى ذلك يقول :

يا خالق الأشياء فى نفسه ... أنت لما تخلقه جامع
تخلق ما لا ينتهى كوْنُه ... فيك ، فأنت الضَّيق الواسع

☆ ☆ ☆

ومن ناحية الظاهر والحديث المألوف ، هناك خالق ومخلوق ، وحقّ وخلق ، وظاهر وباطن ، وأوّل وآخر . وعنده أن إقامة البرهان المنطقى لا يفيد فى هذا الباب ، إنما يدل عليه الشعور ، والرياضة ، والذوق ، ويرى أن كل المخلوقات من جماد ونبات ، وحيوان وإنسان ؛ خاضعة لهذا المعنى ، بمعنى أنها كلها تسير على مقتضى طبيعتها وحقيقتها ؛ فالجماد يسكن أو يؤدى طبيعته الطبيعية ، بحكم طبيعته ، أو بعبارة أخرى : بحكم القانون الإلهى ؛ وكذلك الإنسان والحيوان . ولذلك لا يعوّل كثيراً على تفرقة بين يهودية ونصرانية ، ووثنية وإسلام . ويقول فى ذلك :

لقد صار قلبى قابلا كل صورة ... فمرعًى لغزلان وديرٌ لرهبان
وبيت لأوثان وكعبة طائفٍ ... وألواح توراة ومصحف قرآن
أدين بدين الحب أنَّى توجَّهت ... ركائبه ، فالحب دينى وإيمانى

☆ ☆ ☆

ولأن كل إنسان ميسّر لما خُلق له ، وليس فى باطن الأمر إلا الله ، وهذا لا يمنع من أن الخلق يعشق الحق ، فهى كلها اعتبارات ، والشىء عادة يحنّ إلى جنسه ، ولولا ذلك ما كانت هذه الجاذبية المبعوثة فى عالم الأرض والسماء . وقد تأثر بتعاليم الأفلاطونية الحديثة فى قوله « بلحظات التّجلّى » فقد عرف عن أفلوطين زعيم هذا المذهب أن الحق تجلّى له مرة ، فكاد يُصْعق . والحقيقة عنده أن الأسماء المختلفة هى فى الواقع أسماء لمسمَّى واحد وهى الحقيقة الوجودية وضعت اصطلاحا للفهم والتفاهم : « وجعلنا كم شعوباً وقبائل لتعارفوا » ؛ والله خلق آدم على صورته . والذى يقرأ كتابه « الفتوحات المكّية » يعجب من سعة خياله ، وقدرته على التعبير والتأويل . وربما دلّ على مذهبه هذه القصيدة :

حقيقتى همت بها ... وما رآها بصرى

ولو رآها لغدا ... قتيل ذاك الحَوَر

فعند ما أبصرتها ... صِرْتُ بحكم النَّظرِ

أَبِيتُ مسحوراً بها ... أهيم حتى السَّحَر

يا حذرى من حذرى ... لو كان يُغنى حَذَرى

والله ما هيّمنى ... جمال ذاك الخَفَرِ

فى حسنها من ظبيةٍ ... ترى بذات الحُمُر

إذا رنتْ أو عطفَتْ ... تسبى عقول البشر

كأنما أنفاسُها ... أعراف مسكٍ عَطِرِ

كأنها شمس الضحى ... فى النور أو كالقمر

إن أسفرتْ أبرزَها ... نور صباح مسفر

أو سُـدِلَت غيّبها سوادُ ذاكَ الشَّـعَرِ
يا قمراً تحت دجًى خُذِى فؤادى وذَرِى
عينى لـكى أبْصِرَكِ إذ كان حظّى نظرى

☆ ☆ ☆

وقد عرف فى تاريخ ابن عربى أنه وهو فى مكّة أحبّ فتاة تسمى « نظام » ألّف فيها كتابه « ترجمان الأشواق » ظاهره عشق هذه الفتاة ، وباطنه الله والفناء فيه . ومثل ذلك ما رووه عن ابن الفارض فى مصر .

وقد أكثر محيي الدين بن عربى فى التأليف ، حتى ألّف فى الأدب والتاريخ . فله ديوان أشعار ، وتفسير قرآن ، وكتاب فى أسرار العلوم .

وإذ كان الناس عادة من طبيعتين مختلفتين ومزاجين متباينين ، حتى إن علماء النفس يقسمونهم إلى هذين القسمين ، كان النزاع دائما بين الحسّيين والمعنويّين ، بين أهل الظاهر والباطن ، بين مَن مزاجه ذوقى ، ومَن مزاجه عقلى ؛ بين مَن يأخذ بالظواهر ، ومن لا تقنعه الظواهر ، بين أهل الكشف وأهل العقل ؛ بين الفقهاء والمتصوفة ... اختلف الناس فى ابن عربى : هل هو مؤمن أشد الإيمان ، أو ملحد أشد الإلحاد ، فينعته بعضهم بالعارف بالله ، وقطب الله ، وولىّ الله ، وينعته آخرون بأنه زنديق وملحد ، وتؤلف فيه التآليف الكثيرة ، ويثور الخلاف حوله ، كما ثار فى المشرق مثلا بين الحلاّج والفقهاء[1] فكان ممن ناصره الفيروزابادى صاحب القاموس ، وكمال الدين الزَّمْلُكانى ، والبُلقينى وشهاب الدين السهروردى ، وفخر الدين الرازى ، وابن السبكى ؛ وغيرهم . وكان

(١) انظر ظهر الإسلام ، ج ٢ .

من الناقمين عليه ابن الخياط ، والحافظ الذهبى ، وابن تيمية ، وابن إياس ، والتفتازانى ؛ وغيرهم .

وتشهد مصر فى عهد الأيوبيين مشهداً كبيراً بين الفقهاء الذين ينكرون على الصوفيين نزعتهم ، وعلى رأسهم ابن تيمية الحنبلى ، و بين المتصوفة ؛ ويؤلّفون فى الخلاف بين الطائفتين الكتب ، وأخيراً ألف كتاب « جلاء العينين ، فى محاكمة الأحمدين » .

قال ابن النجار : « اجتمعت بابن عربى فى دمشق فى رحلتى إليها ، وكتبت عنه شيئاً من شعره ، ونعم الشيخ هو ، ذكر لى أنه دخل بغداد سنة ٦٠١ ، فأقام بها اثنى عشر يوما ، ثم دخلها ثانيا مع الحُجاج سنة ٦٠٨ ، وأنشدنى بنفسه :

أيا حائراً ما بين علم وشهوةٍ ليتّصل ، ما بين ضدَّين من وَصْلِ
ومن لم يكن يَستنشِقُ الريح لم يكن يرى الفَضل للمسك الفَتِيق على الزِّبْل

☆ ☆ ☆

وسألته عن مولده فقال : « ليلة الاثنين ١٧ رمضان سنة ٥٦٠ بمرسية » .
وقال ابن مُسْدِى : « إنه كان جميل الجملة والتفصيل ، محصّلا لفنون العلم أخَصّ تحصيل ؛ وله فى الأدب الشأو الذى لا يلحق . سمع ببلاده من ابن زرقون ، والحافظ بن الجد ، وأبى الوليد الحضرمى ؛ و بسبتة من أبى محمد بن عبد الله » .
وقال فى حقه الذهبىّ : «إن له توسُّطا فى الكلام ، وذكاء وقوة خاطر ، وحافظة وتدقيقا فى التصوف ، وتآليف جمة فى العرفان ، لولا شطحهُ فى كلامه وشعره ، ولعل ذلك وقع منه حال سكره وغيبته ، فيرجى له الخير » .

ومن نظم ابن عربى :

بين التذلل والتدلل نقطة فيها يتيه العالم النحرير

هى نقطة الأكوان إن جاوزتها　　كنت الحكيم وعلمك الإكسير

وقوله :

يا درّة بيضاء لاهوتية　　قد ركِّبت صدفاً من الناسوتِ

جَهِلَ البسيطة قَدْرَها لشقائهم　　وتنافسوا فى الدرِّ والياقوت

ولعلّه يخاطب بذلك الإنسان .

* * *

وجاء فى نفح الطيب أن المقريزى حكى فى ترجمة عمر بن الفارض أن الشيخ محيي الدين بن عربى بعث إلى ابن الفارض يستأذنه فى شرح التائية ، فأجابه : « كتابك المسمّى بالفتوحات المكية شرح لها » قالوا : « ولما صنف الفتوحات المكية كان يكتب كل يوم جيث كان ، وحصلت له بدمشق دنيا كثيرة ، فما ادَّخر منها شيئا » ، وقال صفيّ الدين حسين فى رسالته « رأيت بدمشق الشيخ الإمام العارف محيي الدين بن عربى . وكان من أكبر علماء الطريق . جمع بين سائر العلوم الكسبية ، وما وفر له من العلوم الوهبية ، ومنزلته شهيرة ، وتصانيفه كثيرة . وقد غلب عليه التوحيد علما وخلقا وحالا ، لا يكترث بالوجود ، مقبلا كان أو معرضا . وله علماء وأتباع ، أرباب مواجيد وتصانيف ، وكان بينه وبين سيدى الأستاذ الحرَّاز إخاء ورفقة فى السياحات » . ومن نظمه :

لما تَبَدَّى عارضاه فى نَمَطْ　　قيل ظلام بضياء اخْتَلَطْ

وقيل سَطْرُ الحسن فى خدَّيه خطّ　　وقيل نملٌ فوق عاجٍ انْبَسَطْ

وقيل مسكٌ فوق وردٍ قد نَقَطْ　　وقال قوم : إنها اللَّامُ فَقَطْ

وقوله :

لك والله منظرٌ　　قل فيه المشارِكُ

إن يوما ما نراكَ فيـــه ليوم مبـــاركُ

وقوله :

ساءلْتَنى عن لفظةٍ لغويةٍ فأجَبْتُ مبتدئاً بغـير تفـكر
خاطبتنى متبسِّما فرأيتُهــــا من نظم ثغركَ فى صحاح الجوهرى

و يقول :

وعلمتُ أنَّ مِنَ الحديد فؤادَهُ لمّـا انتضَى من مُقْلتيه مُهَنّدا
آنستُ من وَجْدى بجانب خَدِّه ناراً ، ولـكن ما وجدتُ بها هُدَى

إلى كثير من شعره الذى ملئ به ديوانه وكتابه « الفتوحات المكية » . وقد ألّف السيوطى فيه كتابا سماه « تنبيه الغبي على تنزيه ابن عربى » وقد روى أن بعضهم كفر ابن عربى فى مجلس شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام وقال فيه إنه زنديق . ولم يردّ عليه الشيخ ، فعُدَّ سكوته إقراراً . ولـكن فسَّر عز الدين موقفه هذا فيما بعد بأن مجلسه كان مجلس فقهاء ، والعقها أشد الناس على المتصوفة . وروى الشعرانى أن ابن عربى وصف السلطان الذى يفتح القسطنطينية ، وقال : إنها تفتح سنة كذا ، فكان الأمر كما قال ، و بينه و بين السلطان محمد الفاتح نحو مائتى سنة ، ولذلك بنى عليه قبّة عظيمة ، وتكية بالشام . وكانت وفاة ابن عربى سنة ٦٣٨ بالصالحية بدمشق . وقال بعضهم « إن من يتسامح فى كلام ابن عربى و يتأول ، يسهل عليه المراء . و إن كان ممن يلتزم الظاهر ، صعب عليه » . وقد نقده أهل الديار المصرية ، وسعوا فى إراقة دمه ، فخلَّصه الله على يد الشيخ البُجَائى . فإنه تأول كلامه . ولما سأل البجائى ابن عربى عن بعض ما ورد على لسانه قال له : « يا سيدى تلك شطحات فى محل سُكْر . ولا عتب على سكران » . ومما يدل على مذهبه قوله :

نَبِّهْ على السِّرِّ ولا تُفْشِـه فالبوح بالسرِّ له مَقْتُ
عَلَى الذى يُبْدِيه فاصبر له واكتمه حتى يَصِلِ الوقْتُ

وكان يقول ابن عربى : إن كل العالم مظاهر للألوهية ، وكان يعتقد أنه رأى محمداً صلى الله عليه وسلم ، وأنه يعرف اسم الله الأعظم ، ويعرف الكيمياء بالتنزيل لا بالتعليل . ومما طبع من كتبه « الفتوحات المكية » ، وديوان يسمَّى « ترجمان الأشواق » وكتاب « محاضرات الأبرار » وكتاب « فصوص الحكم » و « مجموع الرسائل الإلهية » .

وأيًّا ما كان ، فقد خلّف محيي الدين بن عربى تراثاً ظل يلعب بالأفكار والعقول إلى اليوم فى الشرق وفى الغرب .

ومن أشهر متصوفة الأندلس ابن سبعين وكان أديباً صوفياً متفلسفاً متزهداً متقشفاً . وهو من خريجى مرسية كمحيي الدين بن عربى وأبى العباس المرسى ، وقد كان تلاميذه يعتقدون أنه ليس له نظير فى العلم اللدنى ، وكان مشهوراً بحبه الإيثار وعطفه على الإنسانية كلها ومحبته لأعدائه ، وبيته كان بيت عز ومجد فى بلاد المغرب وهو بيت علوى ، وقد زهد فى رياسة أهل بيته وتركها لإخوته ؛ وقد قالوا : إنه ألف كتاباً اسمه « بدء العارف » وسنه خمس عشرة سنة . ولثقافته الأدبية كان يؤدى ما عنده من المعانى أداء حسناً ويروون أن ابن هود الأمير المشهور تعاقد مع طاغية النصارى ، فلم يف الطاغية بعهده فاضطر ابن هود إلى مخاطبة البابا وأرسل ابن سبعين سفيراً عنه إلى روما . وذكر ابن خلدون فى تاريخه أن السلطان المستنصر ملك إفريقية بايعه أهل مكة ، وخطبوا له بعرفة ، وأرسلوا له رسالة بتنصيبه ، قال : وهى من إنشاء ابن سبعين ، وقد ذكرها ابن خلدون بجملتها وهى طويلة بليغة . وهو يشير فى هذه الرسالة إلى أن المستنصر هو المهدى المنتظر .

وكان لابن سبعين أتباع كثيرون يتحمسون له ، وله تأليفات كثيرة ورسائل كثيرة ،

قالوا : ونشأ ترِفاً موقراً ، وكان وسيماً جميلا ، ملوكى البزة ، عزيز النفس ، قليل التصنع ، آية من الآيات فى الإيثار ، والجود بما فى يده .

وقد اشتهر ابن سبعين حتى وصلت أخباره كما يقولون البابا فى روما . وقد ذكروا أن الإمبراطور فردريك الثانى النرمانىّ ملك صقلية عرضت له بعض مسائل فلسفية عرضها على كثير من علماء المسيحيين والمسلمين فلم يتصدّ للردّ عليها ردًّا شافياً أعجب فردريك مثل ردّ ابن سبعين . وكانت الأسئلة هى :

١ — ما هو المقصود من العلم بالله ، وما مقدماته ؟

٢ — ما معنى المقولات ؟ وكيف تستخدم فى العلوم ؟ وما عددها ؟

٣ — ما الدليل على خلود النفس ؟

وإجابة ابن سبعين فى رسالة لا تزال محفوظة إلى اليوم . وهى تدل على اطلاع ابن سبعين على ما ترجم من الفلسفة اليونانية . وله شطحات ورموز على نحو طريقة ابن عربى فى نظرية وحدة الوجود . ونقل عبد الرءوف المناوى : أن ابن سبعين كان له سلوك عجيب على طريق أهل الوحدة ، وله فى علم الحروف والأسماء اليد الطولى . ومن أقواله التى تروى عنه فى تلاميذه : « عليكم بالاستقامة على الطريق ، وقدموا فرض الشريعة على الحقيقة ولا تفرقوا بينهما فإنهما من الأسماء المترادفة ، واكفروا بالحقيقة التى فى زمانكم هذا وقولوا عليها وعلى أهلها اللعنة » وقد ذكر المرحوم السيد محمد رشيد رضا عن ابن سبعين أنه قال : لقد حجّر ابن آمنة واسعاً بقوله : لا نبى بعدى ، وهو كالذى يقوله القاديانية اليوم ، وهو يشير من طرف خفى بهذا القول — إن صح — إلى أنه بلغ حد النبوة ، وهى نزعة موجودة عند كثير من الصوفية . بل منهم من اعتقد أن الولاية أرقى من النبوة وقد انقسم الناس فيه أقساماً شأنهم فى ذلك شأنهم مع كبار المتصوفة كابن عربى

وابن الفارض . فمن تمسك بظاهر الشرع أنكر كل هذه الشطحات وأنكر نزعة الصوفية ؛ كما فعل ابن تيمية مع محيي الدين بن عربى ؛ ومنهم من يضع الصوفية فوق الفقهاء والعلماء والفلاسفة ، فيؤمن بهم ويلتمس بركتهم ، كالسيوطى والمقّرى وأمثالهما . ومنهم من يذهب مذهب التحفظ كالذهبى فى تاريخه . فمثلا يقول فى ابن سبعين : « كان ابن سبعين من زهاد الفلاسفة ، ومن القائلين بوحدة الوجود ، له تصانيف وأتباع ، يقدمهم يوم القيامة » . وفى رأينا أن كتبه ورسائله لا تزال تحتاج إلى دراسة عميقة لمعرفة قيمته ومنحاه[1] .

وخلفه قوم كثيرون من الصوفيين فى الأندلس ، حتى لا يكاد يخلو عصر من عصور الأندلس من الصوفية ؛ من أشهرهم أبو العباس المرسى ، وهو صاحب المقام المشهور فى الإسكندرية . والمرسى نسبة إلى مُرسِيَة . وهى أيضاً بلد محيي الدين ابن عربى : قالوا إنه كان يكرم الناس على نحو رتبهم عند الله ؛ حتى أنه ربما دخل عليه مطيع فلا يحفل به ، وربما دخل عليه عاص فأكرمه ، لأن ذلك الطائع أتى وهو مُتكثر بعمله ناظر لفعله ، وذلك العاصى دخل متواضعاً لمعصيته ، ذليلا لمخالفته ؛ وكان شديد الكراهية للوسواس فى الصلاة . قالوا إن له كلاماً بديعاً فى تفسير القرآن كقوله فى « الحمد لله رب العالمين » : « علم الله عجز خلقه عن حمده ، فحمد نفسه بنفسه فى أزله . فلما خلق الخلق اقتضى منهم أن يحمدوه بحمده ، الخ » ويقول : « التقوى فى كتاب الله على أقسام : تقوى النار ، قال تعالى : واتقوا النار ؛ وتقوى اليوم الآخر ، قال : واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله ؛ وتقوى الربوبية ، قال : واتقوا ربكم ؛ وتقوى الألوهية ، وتقوى الله ، وتقوى الإِنِّيَّةِ ، قال : واتقونِ يا أولى الألباب » . وقال عند سماعه قول رسول الله

---

(١) لابن سبعين جملة رسائل مكتوبة بالخط المغربى الدقيق فى مكتبة تيمور باشا فى القاهرة فى جزأين كبيرين .

« أنا سيد ولد آدم ولا فخر » . « أى أنا لا أفتخر بالسيادة ، وإنما الفخر لى بالعبودية لله » . ولما سمع قول سمنون المحب :

وليس لى فى سواك حظٌّ فكيفما شئت فاختبرْنِى

قال : كان الأولى أن يقول « فكيفما شئت فاعف عنى » إذ طلب العفو أولى من طلب الاختبار . وقال : « الزاهد جاء من الدنيا إلى الآخرة ، والعارف جاء من الآخرة إلى الدنيا » وهكذا له كثير من الأقوال . وألّف فيه تلميذه ابن عطاء الله كتاباً يذكر فيه فضائله وكراماته .

وممن نعرفهم من المتأخرين أحمد بن قاس ، كان شيخاً من المتصوفة . ادَّعى أنه المهدى المنتظر ، واستولى على بعض البلاد ، وكان فى أيام الموحّدين . وقتله أحد أتباعه ، وألّف كتاباً سمّاه « خَلْع النعلين فى التصوف » .

والذى نلاحظه أن الحركات علمية كانت أو أدبية ، تتلون حسب ميول الأمراء ، فإذا كان البيت الحاكم متصوفاً ، ساد التصوف ، أو متفلسفاً انتشر التفلسف . وقد شاهدنا أن أسرة جاءت تميل إلى الغزالى ، فحييَتْ كتبه ، ومُجّد شخصه ، وجاءت أسرة أخرى ، تخالفه ، فأحرقت كتبه ، وأعلنت كراهيته .

على كل حال لم ينقطع التصوف فى أى زمان كان ، ولكن لم يبلغ شأنه كما بلغ على يد محيي الدين بن عربى . وانتقل أكثره إلى تخريف وتدجيل كما كان الحال فى الشرق .

ويطول القول لو عددنا أسماء المتصوفة كلها فى الأندلس وترجمنا لهم ، وأبنَّا عيوبهم ومزاياهم . فلنكتف بهذا القدر .

الباب الثالث

الحركة النحوية واللغوية والتأليف الادبى

نذكر فى هذا الفصل حركة اللغة والنحو والصرف فى الأندلس . وكلها علوم رواية ، أكثر منها علوم دراية . ولا بد أن العرب الفاتحين من عهد موسى بن نصير إلى عهد الخليفة الناصر ، كانوا ينقلون فى البلاد ما عرفوه فى الشام من لغة وأشعار ونحوها ، إذ كان بعضهم من غير شك مثقفين . يتناقلون الأشعار وأيام العرب والأخبار فى سمرهم . إنما لم يكن ذلك علما منظما ، حتى جاء عبد الرحمن الناصر فطمح أن يقوّى مملكته بما قوّى به العباسيون دولتهم . وكان من أسباب قوة العباسيين العلم والشعر والأدب ، وغير ذلك ، فأراد أن يقلدهم . ورأى أن ليس عنده معلمون كبار ينشرون الثقافة العربية بين أهل الأندلس ، فقرّر أن يندب لذلك بعض أهل المشرق . و بعد تفكير طويل رأى أن أصلحهم أبو على القالى ؛ إذ كان أبوه مولى لعبد الملك بن مروان الأموى ، فيكون أموىّ النزعة كعبد الرحمن الناصر فاستدعاه إلى قرطبة ، وأمر ابنه الحكم باستقباله مع طائفة من أعيان البلد ، فاستقبل أحسن استقبال . وكان أبو على هذا قد نشأ فى بغداد ، وتعلّم على شيوخها ، وجدَّ فى التحصيل ، فحصّل الحديث ، واللغة ، والأدب ، والنحو ، والصرف ، من مشايخ مشهورين كالهَرَوىّ فى الحديث ؛ وابن درَسْتويه أحد النحاة المشهورين والأدباء المعروفين ، والزجّاج أحد تلامذة المبرد[1] ،

---

(١) انظر الجزء الثانى من ظهر الإسلام .

والأخفش الصغير ، وهو أيضاً تلميذ المبرد ، ونَفْطويه ، وابن السرّاج ، وابن الأنبارى ، وابن أبى الأزهر ، وابن قتيبة وغيرهم ؛ ووعى أكثر علمهم ، وأقام فى بغداد خمسا وعشرين سنة يحصل مع الجد ، حتى أتقن هذه العلوم . وعرف بين الأندلسيين بسعة الاطلاع فى العلم والرواية ، وطول الباع فى اللغة وفنونها . قال ابن الفرضى « فسمع الناس منه ، وقرأوا عليه كتب اللغة ، والأخبار ، والأمالى ، وعظمت استفادتهم منه » .

ويكاد المؤرخون يجمعون على أنه كان أحفظ أهل زمانه ، وساعد على الانتفاع به ذكاء أهل الأندلس ، وقوة حفظهم . لقد كان أبو على القالى يروى أنه فى طريقه إلى الأندلس نزل المغرب ، فكان كلما أمعن فى المغرب من تونس إلى طنجة يرى أهله يقلون فى الذكاء تدريجيا ، فحزَر أن أهل الأندلس يكونون من أغبى الناس على هذا القياس ، فخاب ظنه ورآهم من أذكى الناس . وربما كان له فضل كبير فى حب الحكم بن عبد الرحمن الناصر للعلم ، إذ كان أبو على أستاذه ؛ ولذلك جمع الحكم فى الأندلس مكتبة عظيمة ذكرناها من قبل . ومن أشهر كتبه كتاب الأمالى ونوادره . قال ابن حزم : « كتاب نوادر أبى على وهو « ذيل الأمالى » مبارٍ لكتاب « الكامل » الذى جمعه المبرد .

ولئن كان كتاب المبرد أكثر نحواً وخبراً ، فإن كتاب أبى على أكثر لغة وشعراً . وله غير كتاب الأمالى « كتاب الممدود والمقصور » وكتاب « الإبل ونتاجها » وكتاب « حلى الإنسان » وكتاب « فعلت وأفعلت» وكتاب « تفسير المعلقات السبع » وكتاب « البارع فى اللغة » رتّبه على حروف المعجم . قالوا : إنه نحو ثلاثة آلاف ورقة . وقالوا : إنه لم يؤلّف مثله .

وقد ظل فى قرطبة يبث علمه إلى وفاته سنة ٣٥٨ ؛ وقد علمنا أنه رحل

إلى الأندلس سنة ٣٣٠ — فتكون مدة إقامته فى الأندلس ، ونشره علمه ٢٨ سنة ؛ وهى مدة لا يستهان بها . ويظهر أنه تأثر كثيراً بشيخه ابن دريد ، فإنه يروى عنه كثيراً بعض القطع الأدبية ، وكان ابن دريد هذا لا يتحرج من أن يخترع حديثاً لأعرابى وأعرابية ، أو حتى قصيدة من القصائد ؛ شأنه فى ذلك شأن الروائيين اليوم ، ولكنه يرويها على أنها حقيقة وقعت ؛ وقصده منها التعليم أكثر من أن يكون قصده التاريخ ، ولكن أبا علىّ القالى أخذها كما يأخذ الحديث على أنها حقائق تاريخية . وطريقته فى الأمالى أنه يذكر نصا من النصوص ، آية قرآنية ، أو حديثاً ، أو خبراً ، أو قصيدة ؛ ويراعى فى اختيار كل قطعة أن تكون مشتملة على لفظ غريب ، أو ألفاظ غريبة ، ثم بعد رواية النص يشرح الغريب شرحا دقيقاً ، فمثلا يسوق الآية : « وغَدَوْا عَلَى حَرْدٍ قادرين » ثم يأخذ فى شرح كلمة « حَرْد » وعلى هذا القياس . ويظهر أيضاً أنه كان يعدّ موضوعا خاصا فى ذهنه لكل درس ؛ درس فى ترتيب أسنان الإبل وأسمائها ، ودرس فى تفسير كلمة أَمَر ، وإيراد آية : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا الخ » ودرس فى قصيدة ذى الإصبع العدوانى ، التى منها :

يا عَمْرُو إلا تدع شتمى ومنقصتى ... الخ

وتفسير ما ورد فيها من الغريب ، وهكذا .

وقد فات ابن حزم أن يلاحظ أيضا أن كتاب الأمالى أخفّ روحا من كتاب الكامل ، وأن أبا على القالى حدّد مقصده من الكتاب أن يكون أدبا محتويا على غريب يشرحه ، ولم يخرج عن ذلك .

* * *

وكان يعاصره تقريبا ويؤدى نفس الغرض ، ابن عبد ربه ، فقد ألّف كتابه

العِقد ، لينقل إلى أهل الأندلس معارف المشارقة ؛ غاية الأمر أن ابن عبد ربه أندلسى صميم من مالَقَهْ ، وأبا على القالى ، مشرقى رحل إلى الأندلس ؛ وكتاب الأمالى أدب يُعنى بالغريب ؛ وكتاب العِقد يُعنى بالأخبار والسيَر ، والطرائف ، والظرائف من كل باب ؛ وإن شئت فقل إن كتاب الأمالى لفظى ، والعِقد معنوى . وربما كان هذا سببه أن ابن عبد ربه أديب يشرب ويحب ويسمع الغناء ، ويقول الشعر الظريف فى الغزل وفى الشراب وغير ذلك . أما أبو على فعالم فقط فى اللغة والأدب .

وقد كان ابن عبد ربه متعدد النواحى ، تعلم النحو والعروض والفقه والتاريخ والأدب ، وكان قد تعلم فى أهل بلده ، وكان قد نضج العلم فيه بعض الشىء ، ثم رحل إلى مصر وغيرها وأخذ علمها ؛ ثم وضع برنامجا أن ينقل ما علم إلى أهل بلده .

وقد اقتبس ابن عبد ربه كثيراً من أسلاف له ، وإن كان قد قصر فى نسبة كل قول إلى قائله ، شأن كثير من علماء المشرق ؛ حتى لقد ينقل الأصل من أصوله عن مصدر ، فيظن القارئ أنه أخذه منه مباشرة ، مع أنه يكون قد نقله عمن نقل عن الأصل من غير نسبة إلى من نقل عنه . فمثلا ينقل قطعة على أنها من كليلة ودمنة مباشرة ، مع أنه قد يكون نقلها بالواسطة عن ابن قتيبة عن كليلة ودمنة . وكذلك شأنه فيما ينقل عن التوراة والإنجيل ونحو ذلك .

وقد تخيل كتابه عِقداً منظوما يحتوى على خمس وعشرين حبة من جهة ، وخمس وعشرين حبة من جهة أخرى ، وفى وسطها كلها واسطة العقد ، وسمّى كل باب من الأبواب التى فى ناحية باسم حَجَرٍ كريم ؛ كأن يقول : اللؤلؤة فى السلطان ، الزبرجدة فى الأجواد ، الياقوتة فى العلم والأدب ؛ ثم يسمّى الباب الذى يقابلها بنفس التسمية مع إضافة كلمة « الثانية » فيقول : اللؤلؤة الثانية فى الفكاهات والملح ، الزبرجدة الثانية فى طبائع الإنسان ، الياقوتة الثانية فى الألحان ، وهكذا .

وجعل واسطة العِقد فى الخطب ، وبالضرورة لم يكن هناك واسطة عقد إلا واحدة ، والكتاب كان يسمَّى عند الأقدمين « العقد » فقط ، ويظهر أنه لما ألّف أديب كتابا سماه « العقد الفريد ، فى الملك السعيد » سرت إلى الناس كلمة الفريد ، فضموها إلى عقد ابن عبد ربه . ولذلك نرى اسمه عند قدماء المؤلفين كابن حزم ، وأمثاله « العقد » فقط .

وكان من أشهر مَن استقى منه العقد كتاب ابن قتيبة « عيون الأخبار » فهو ينقل عنه كثيراً ، ويقلده فى ترتيب الأبواب ؛ كما اقتبس من كتاب الجاحظ ، كاقتباسه منه « باب العتاب ، واستنجاز الوعد ، والاعتذار ، والموالى والعرب » ؛ واقتبس من المبرّد فى كتابيه «الكامل والروضة» ومع اقتباسه منهما واستفادته طعن المبرد فى الصميم إذ قال عنه : إنه لم يَخْتَر لكل شاعر إلا أبرد ما وجد له ، حتى انتهى إلى الحسن بن هانئ « أبى نواس » ، فأبو نواس قلّما يأتى ببيت ضعيف ، لدقة فطنته ، وعذوبة ألفاظه ، فيأتى المبرد فيروى له أبياتاً ، لا ندرى من أين وقع عليها ؛ كما اقتبس ابن عبد ربه من ابن المقفع فى كتابيه « كليلة ودمنة والدرّة اليتيمة » . وأخذ شيئاً من كتاب سيبويه ، ومن طبقات ابن سلام ، ومن بعض كتب أبى عبيدة ، ومن ابن هشام فى السيرة ، ومن ابن وحشية فى النبات إلى غير ذلك ، حتى لقد يأخذ من التوراة والإنجيل ، ومن دواوين الشعراء . وربما كان يعتقد أن رواية الأدب ليس ينبغى أن يتزمّت فيها ، كرواية الحديث . فنراه يروى أشياء لم تثبت تاريخيا ، ولم ينقلها الثقات ، كوفود العرب على كسرى ونحو ذلك . وأحيانا يعارض ما يختاره بشعره هو على أنه خير مما روَى . وقد كان مقربا إلى عبد الرحمن الناصر ، فنظم فيه ملحمة طويلة لطيفة على قلة الملاحم فى الأدب العربى ، تبلغ أكثر من أربعمائة بيت ، وإذ كانت الملحمة فى سيرة عبد الرحمن الناصر ، وهو بالضرورة أموى ، فقد سار فيها على مذهب الأمويين . فعدَّ الخلفاء

الراشدين مثلا أربعة : أبا بكر ، وعمر ، وعثمان ، ومعاوية . وحذف عليًّا من أرجوزته . ثم وصل الخلفاء الأمويين فى الشرق ، بالأمراء الأمويين فى الأندلس . ولذلك عابه بعض العلماء ، إذ كتب مثلا منذر بن سعيد البلّوطى الإمام المشهور على هامش الأرجوزة ، البيتين الآتيين :

أَوَمَا علىٌّ — لا بَرِحْتَ ملعّناً   يا أبن الخبيثة — عندكم بإمامِ ؟

رَبّ الكساء وخيرُ آلِ محمّدٍ   دانى الولاء مقدَّمُ الإسلام

* * *

ومن عدم تدقيقه فى الأخبار روايته شيئاً من الأوهام ، فيقول عن رجل مثلا : إنه عاش ثلاثمائة سنة أو مائة وتسعين سنة ، وبعد أن عاش هذه المدة اسودَّ شعره ، وقد نبتت له أضراس إلى غير ذلك . كما أن كثيراً مما رواه عن الحيوان لم يصح علميا . ومن مزايا العِقد أن مؤلفه ابن عبد ربه قوىّ فى النثر والشعر ، تظهر قوة نثره فى الفرش الذى يفرشه أمام كل باب ، فهو فرش لطيف بليغ . وتظهر قدرته الشعرية فى معارضته لما يختار أحيانا بشعر لطيف له . وقد روى عنه أنه كان يعيش أول أمره عيشة الأديب المستهتر . مرّ مرّة على قصر فيه غناء فطارت نفسه وهام بالغناء وقال فى ذلك قولا لطيفا . ومن أجل ذلك يبرّر فى الكتاب سماع الغناء ويردّ على من حرّمه ، كما يظهر أنه كان يشرب الخمر وخصوصاً النبيذ ، ولذلك يميل من طرف خفى فى كتابه إلى تأييد الرأى القائل بالحلّ . ويقولون : إنه فى آخر أيامه تاب ، وشعر فى الزهد والورع والتقوى ، على نحو ما شعر فى اللهو والغزل .

والكتاب يفيدنا تاريخيا أيضا ، كما يفيدنا أدبيا فى تعريفنا بأشياء كثيرة عن عادات الأندلس وتقاليدها ، ونظرة الأندلسيين إلى اليهود والنصارى ، كما يدلنا

على حروب الناصر واحدة بعد أخرى فى أى سنة ، ونحو ذلك .

وإذا قارنّا بين ما كتبه ابن قتيبة فى الشعوبية ، وما كتبه ابن عبد ربه ، رأينا ابن عبد ربه أعدل رأياً ، وأصدق حكما ؛ ومن ظرفه أنه أكثر فى كتابه هذا من الفكاهات والمُلَح ، والنوادر والقصص ؛ فيروى للأشعب وللممرورين . وفى الأجوبة المسكتة أشياء لطيفة ظريفة مسلّية ، فهو أقرب إلى الجد من ألف ليلة ، ولكنه مُسَلٍّ مثلها ، ولذلك ذاع بين الأدباء . وقد قلنا إنه لم يكن متزمتاً كالمحدثين ، وبعض الأدباء كصاحب الأغانى فلم يملأ كتابه بالأسانيد كما فعل هؤلاء . ولذلك انتشر كتابه انتشاراً كبيراً فى الشرق والغرب ، فهو يتنقل من شعر إلى نثر إلى قصة إلى فكاهة إلى مَثَل ، حتى لايملّ قارئه بحال . ويظهر أنه قد دُسَّ عليه بعد وفاته أشياء لم يقلها ، وإنما رأى القارئ أشياء حدثت بعد وفاته ، فأراد أن يكمّل بها الكتاب .

على كل حال انتفع الناس بهذا الكتاب أكثر مما انتفعوا بغيره لخفة روحه ، وسهولة مأخذه ، وكثرة تنقلاته من باب إلى باب . فكما انتفع الناس بالأمالى ، ومؤلفه شرقىّ رحل إلى الأندلس ، انتفعوا بالعقد ، ومؤلفه أندلسىّ رحل إلى المشرق .

☆ ☆ ☆

وقد قلنا من قبل : أنْ ليس أبو علىّ أوّل من بذر البذرة ، فقد بذرها العرب والبرابرة فاتحو الأندلس ، وإنما أبو على نمّاها ، ونظّم تعليمها ، وربما كانت هناك كتب من المشرق تتسرب إلى المغرب ، فيأخذ منها الأندلسيون أدبهم . والدليل على ذلك ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر ، وسمّى ابن القوطية نسبة إلى القُوط ، وهم الذين غزوا الإسبان من قبل ، لأن أحد أجداده تزوج من أميرة إسبانية

بنت ملك من ملوك القوط . كانت ذهبت إلى دمشق ، ووفدت على هشام بن عبد الملك متظلمة من عمها ، فتزوجت هناك من عربى كان جدًّا لابن القوطية ، وأرسل مع الحملة التى ذهبت لفتح الأندلس ،

وكان ابن القوطية هذا عالما كبيراً من علماء العربية ، وصحب أبا على القالى ، وقدمه أبو على إلى الحكم الثانى الخليفة قائلا : إنه أعلم أهل بلاده . وكان ابن القوطية لغويا كبيراً ، ونحويا كبيراً ، وشاعراً ومؤرخا ، يفد عليه الناس للاستفادة منه . مات سنة ٣٦٧ بعد أن ألّف كتاب الأفعال ، وكتاب «فعلت وأفعلت»[1] فهذا يدل على أن العلم باللغة والنحو أقدم من القالى . وبالفعل قد رُوى أن ابن القوطية أخذ العلم باللغة والنحو عن رجل يسمَّىٰ الزبيدى ، وآخر يسمَّى سعيد ابن جبير ، وهما لاشك معلمان بالأندلس قبل القالى .

وكان ممن تتلمذ لأبى على القالى أبو بكر الزبيدى ، وهو نحوى مشهور . ألّف كتاب مختصر العين ، وألّف « أخبار النحويين »[2] ، ورتَّب نحويّى الأندلس على طبقات .

على كل حال كان المؤلفون فى اللغة والأدب كثيرين ، ونعنى بالأدب هنا الأدب التأليفى ، أما الأدب الإنشائى فسنتكلم عليه فى الباب الآتى إن شاء الله .

فمن أشهر من ألّف فى الأدب من الأندلسيين « الشريشى » الذى شرح مقامات الحريرى شرحا لطيفا . وقد انتقلت المقامات من الشرق إلى الأندلس ، فأقبل الأندلسيون عليها ، وافتتنوا بها ، وأثرت فيهم أثراً كبيراً ، فمنهم من قلدها ووضع مقامات على نمطها ، كالأزدى المتوفى سنة ٥٧٥ .

---

(١) نشره الأستاذ جويدى .

(٢) منه نسخة خطية فى دار الكتب .

والحق أنه كان شرحا وافياً ، إذ كان مؤلفه جمّاعا للفوائد ، واسع الاطلاع ، وما شرح مقامات الحريرى أحد بعده إلا استفاد منه ، حتى دوزى فى شرحه اعتمد عليه ، وقد عرف هذا الكتاب بالدقة فى الشرح وامتلائه بالفوائد ، واتخاذ المقامات تكأة لرواية الأخبار .

وممن ألّف أيضا فى اللغة والأدب ابن السِّيد البَطَلْيَوْسى مؤلف كتاب « الاقتضاب فى شرح أدب الكتّاب » لابن قتيبة ، كما ألّف شروحا على كتب أدبية مختلفة ، ومثل البكرى الذى ألّف كتاب «التنبيه على أغلاط الرواة» وغيرهم . على كل حال نقل هؤلاء وأمثالهم الأدب القديم من دواوين وغير دواوين ، وشرَحوها وقدّموها لأمتهم ، حتى لم يكد يبقى شىء لم يطلعوا عليه .

كما كان من أهم مؤلفى اللغة من الأندلسيين ابن سِيده ، وهو أبو الحسن على ابن إسماعيل . وكان ضريراً . وكان أبوه على علم باللغة فأخذ عنه . وقد ألّف مؤلفات كثيرة لم يبق منها فيما نعلم إلا كتاب «المخصِّص»[1] فى سبعة عشر جزءاً ، ألّفه على حسب المعانى ، لا على حسب الألفاظ . فالألفاظ التى تتعلق بالمائدة وما يتصل بها وضعت فى مكان واحد ، وهى فكرة سبقه إليها الثعالبى فى فقه اللغة ؛ ولكن ابن سِيده وسعها وجعلها فى سبعة عشر جزءاً بدل جزء واحد للثعالبى . والظاهر أنه رتّب المخصّص حسب الإنسان وأعضائه وأجزائه ، ثم ما يتصل به ، الأقرب فالأقرب . ثم كتاب «المُحْكَم والمحيط الأعظم» وهو معجم كبير فى اللغة ، رتّبت فيه الكلمات حسب حروف الحلق ، كما فعل الخليل فى العَيْن ، وابن دريد فى الجمهرة ، وقد مات سنة ٤٥٨ .

---

(١) طبع فى مصر فى سبعة عشر جزءا ووقف على طبعه المرحوم الأستاذ الشنقيطى ، أما المحكم فلم يطبع إلى الآن .

وممن اشتهر فى اللغة أيضاً الأعلم الشنتمرى ، وكانت له ميزة أخرى غير جمع اللغة ، وهى حفظه لأشعار العرب ، وعنايته بضبطها ، وقد استفاد منه كثيرون من أهل الأندلس ، وكانوا يرحلون إليه ، وسُمِّى الأعلم ، لأنه كان مشقوق الشّفة العليا ، والشنتمرى نسبة إلى شَنْتِمَارِية مدينة فى غربىّ الأندلس . وقد شرح دواوين كثيرة . ويكاد يكون اختصاصه فى ذلك ، وتوفى سنة ٤٧٦ .

وممن اشتهر من الأندلسيين أبو الحجاج بن يوسف بن الشيخ البَلوى المالقى ، ألَّف كتاباً فى جزأين كبيرين وضعه لابنه وسماه ألف باء ، وهو موسوعة كبيرة ، تكلم فيها فى الحساب والطبيعة والنبات والحيوان والإنسان ، وعلم الاجتماع والشريعة والأديان وفقه اللغة ومخارج الحروف والنحو والصرف والشعر والحكايات والأساطير ؛ حتى لو رتب على حسب حروف الهجاء لكان دائرة معارف عجيبة . وقد رحل إلى الشرق ووصف فيه أشياء كثيرة كمنارة الإسكندرية وصفا دقيقا . وعاش من سنة ٥٢٦ إلى سنة ٦٠٣ .

أما النحو فقد بدأ فى الأندلس ، كما بدأ فى المشرق عبارة عن قطعة مختارة فيها لفظ غريب يشرح ، ومشكلة نحوية توضّح ، على النحو الذى نراه فى أمالى القالى ، والكامل للمبرد ، ثم ألَّفوا نحواً فى مسائل جزئية ، كما فعل أبو على القالى نفسه فى فعلت وافعلت والمقصور والممدود . وكما فعل ابن القوطية فى كتابه الأفعال . فلما انتقل إلى الأندلس كتاب الكسائى وسيبويه ، ألَّف الأندلسيون فى النحو من حيث هو كلّ يشمل جميع الأبواب ، وكان أشهر كتب النحو فى أيام ابن حزم تفسير الحوفى لكتاب الكسائى .

وكان من الأندلسيين أبو علىّ الشلوبينى (١) ، وكان إماما فى النحو ، يجلّه

(١) الشلوبينى كما فى المغرب لابن سعيد نسبة إلى شلوبين بلدة من أعمال قرطبة وهذا أصح مما ذهب إليه ابن خلكان من أن الشلوبين بمعنى الأشقر الأبيض بلسان أهل الأندلس .

تلاميذه ويغالون فى فضله . ألّف كتباً فى النحو مثل كتاب التوطئة . ولد بإشبيلية سنة ٥٦٢ ، وتوفى سنة ٦٤٥ .

ونبغ فى النحو بعد الشلوبينى نحويان شهيران هما ابن خروف وابن عصفور ولهما فى كتب النحو آراء ينفردان بها ، فأما ابن خروف فمن إشبيلية وكان إمام أهل زمانه فى العربية فى الأندلس ، له شرح على كتاب سيبويه وشرح لكتاب الجمل وغير ذلك من الكتب ، وكان إلى علمه أديبا لطيفا كثيراً ما تلاعب باسمه ، فكتب مرة لقاضى القضاة يستعفيه من الإشراف على عمل لأن بوابه اسمه السِّيد وهو الذئب فقال :

مولاى ، مولاى أجرنى فقد　　أصبحت فى دار الأسى والحتوفْ
وليس لى صبر على منزل　　بوابه السِّيد وجدى خروف

ومن شعره اللطيف فى صبى مليح :

أقاضى المسلمين حكمت حكما　　أتى وجه الزمان به عَبوسا
حبست على الدراهم[1] ذا جمال　　ولم تحبسه إذ سلب النفوسا

ولما رأى نيل مصر قال فيه :

ما أعجب النيل ، ما أحلى شمائله　　فى ضفتيه من الأشجار أدواح
من جنة الخلد فياض على ترع　　تهب فيها هبوب الريح أرواح[2]
ليست زيادته ماءً كما زعموا　　وإنما هى أرزاق وأرواح

ومات سنة ٦٠٩ .

---

(١) أى من أجل الدراهم .
(٢) هى الرياح .

وأما ابن عصفور فإشبيلى الأصل أيضا حمل لواء العربيـة بالأندلس بعد أستاذه أبى على الشلوبينى ودرَّس العربية فى بلاد أندلسية مختلفة ، فى إشبيلية وشريش ومالقة ولورقة ومرسية ، وألف كتباً كثيرة فى النحو والصرف وقد أخذ عليه ابنه أنه كان مستهتراً يغشى مجالس الشراب ويتهتك فيها ومات سنة ٦٦٩ .

وجاء بعد ذلك ابن مالك وهو جمال الدين محمد بن عبد الله ولد ببلدة جيَّان إحدى مدن الأندلس حوالى سنة ٦٠٠ هـ ، وأخذ عن نحويِّيها ، وأخذ عن أبى على الشلوبينى ، ثم رحل إلى مصر ودمشق ، وأخذ العلوم الشرعية وتبحَّر فيها وقد اشتهر شهرة سيبويه . وأهم ميزة ابن مالك أنه ربط قواعد النحو ربطا محكما ، وبسطها كما يتجلى ذلك بالنظر فى ألفيته وقواعده ، والقواعد التى ذكرها سيبويه فى كتابه . وقد ألَّف الألفية ، ونالت حظوة كبيرة ، حتى حفظها أكثر المتعلمين فى الشرق والغرب إلى اليوم ، ومن مؤلفاته الـكافية والشافعية ، والتسهيل ، ولامية الأفعال ، والمفتاح فى أبنية الأفعال ، وتحفة الموجود فى المقصور والممدود ، والأعلام فى مثلث الـكلام ، وإيجاز التعريف بعلم التصريف ، ورسـالة فى المترادفات ، والاعتداد ، فى الفرق بين الزاى والصاد ، ومنظومة فى ٤٩ بيتاً فى الأفعال الثلاثية المعتلّة بالواو أو الياء ، نقلها السيوطىّ فى كتابه « المزهر » . وقد تتلمذ له كثيرون فى الشرق والغرب ، كابن النحاس المصرى ، والفقيه المشهور النووى ، والمحـدث المشهور اليُونينِى ، وغيرهم . وقد رزق الحظوة فى تآليفه ، واستفاد منه كثيرون . ودوَّى اسمه فى الأندلس وفى المشرق ومات سنة ٦٧٢ .

فإن قلنا : إنه نظَّم نحو سيبويه ، ووضحه ، وفصَّله ، وقرَّبه إلى الناس ، وعمَّمه لم نكن بعيدين عن الصواب . وكان إماماً فى القراءات وعالما بها ، واسع العلم باللغة . قال الصَّفَدِى « أخبرنى أبو الثناء محمود قال : ذكر ابن مالك يوما ما انفرد به صاحب المحكم عن الأزهرى فى اللغة ، وهذا أمر معجز ، لأنه يحتاج إلى معرفة جميع ما فى الكتابين » وكان فى النحو والتصريف لا يُشق لُجُّه . وكان واسع الاطلاع على أشعار العرب التى يستشهد بها على النحو واللغة ، حاضر البديهة فى الاستشهاد وكان مذهبه أن يستشهد بالقرآن . فإن لم يكن فيه شاهد ، استشهد بالحديث ، فإن لم يكن استشهد بأشعار العرب . وكان نظم الشعر عليه سهلا ، رجزه وطويله ، وأكثر من التآليف فى أبواب مختلفة . وكان مشهوراً بنظم الضوابط التى تسهِّل الأمور الصَّعبة على المتعلمين ، فينظم مثلا فى المقصور والممدود ، وفيما ورد بالضاد والظاء ، وفى ترتيب خيل السباق ، ونحو ذلك . وكان رحمه الله كثير المطالعة ، سريع المراجعة ، لا يكتب شيئاً من محفوظه ، حتى يراجعه فى محله ، وقد أخذ عليه أبو حيان « أنه لم يلازم المشايخ ، ولم يصحبهم طويلا ، وإنما أخذ أكثر علمه من الكتب والاطلاع عليها ، ولذلك كان ينفر من المنازعة والمباحثة والمراجعة . وهذا شأن من يقرأ بنفسه ، ويأخذ العلم من الصحف بفهمه » ، مع أنه قرأ على جملة من المشايخ كأبى على الشلوبينى ، وثابت بن خيار .

وربما عُدَّ من أكبر علماء النحو فى الأندلس أبو حيان الغرناطى ، وهو لغوىّ عربى ، ولد من أصل بربرى سنة ٦٥٤ ، وتنقل فى البلاد بعد أن تعلم على علماء الأندلس ، وكان ظاهرياً على مذهب ابن حزم ، وكان نحوياً مفسرا محدثا شاعرا .

وبلغت مصنفاته فى العلوم المختلفة نحو ٦٥ كتابا لم يصلنا منها إلا نحو عشرة . وأهميته أنه كان لغويا بمعنى أنه يعرف لغات كثيرة ، فألّف كتاباً فى الفارسية وآخر فى اللغة التركية ، والمصنفان موجودان إلى اليوم . وهما عظيما القيمة ، كما ألّف كتاباً فى اللغة الحبشية . وتوفى بالقاهرة سنة ٧٤٥ ، ولكن كما قلنا من قبل : إن هؤلاء النحويين جميعهم كانوا يدورون فى فلك سيبويه . فإن اجتهد أحد كابن مالك وأبى حيان ، فكالذى نسميه فى الفقه اجتهاد مذهب لا اجتهاداً مطلقا . فقد وضع الخليل وتلميذه سيبويه بناء فى النحو قوى الدعائم لم يسهل هزّه ولا نقضه . إنما الذى خرج واجتهد اجتهاداً مطلقا هو ابن مضاء الأندلسى القرطبى وقد كان أيام الموحدين ، فقد كان الموحدون هؤلاء مجتهدين ، لم يرضوا عن مذاهب الفقه المختلفة . وقد كان عبد المؤمن بن على الذى يعد المؤسس الحقيقى لدولة الموحدين « مؤثرا لأهل العلم ، محبا لهم ، محسنا إليهم . يستدعيهم من البلاد إلى السكوْن عنده ، والجوار بحضرته ، ويجرى عليهم الأرزاق الواسعة ، ويظهر التنويه بهم والإعظام» ويقول فيه بعضهم : « إنه كان فقيها عالما بالأصول والجدل والحديث ، مشاركا فى كثير من العلوم الدينية والدنيوية » . وكان مَن بعده من أبنائه متعلمين تعلما واسعا ، وحسب هذه الدولة فخراً أنها أنجبت ابن طفيل ، وابن زُهر ، وابن رشد ، إذ أفسحت صدرها للفلسفة . يقول ابن خلكان فى أحد ملوك الموحدين : «إنه أمر برفض فروع الفقه ، كما أمر الفقهاء بألّا يُفْتوا إلا بالكتاب والسنَّة ، ولا يقلِّدوا أحداً من الأئمة المجتهدين . بل تكون أحكامهم بما يؤدى إليه اجتهادهم» ، وأمر بإحراق كتب المذاهب ، والآراء تُعدى ، فلما شُرِّع الاجتهاد فى الفقه ، ظهر مجتهد يريد هدم كتاب سيبويه ، كما اجتهد قوم فى هدم المذاهب الأربعة ، ووضع مذهب جديد فى النحو . فالفلسفة تحرر العقول ، والأخذ

بالـكتاب والسنة يعطل المذاهب ، وابن مضاء يريد أن يهدم مذهب سيبويه ، وألّف فى ذلك ثلاثة كتب : المشرق فى النحو ، وتنزيه القرآن عما لا يليق بالبيان والرد على النحاة . وفى هذه الـكتب الثلاثة على ما يظهر ردّ على نحو سيبويه وأنصاره ، والنظر إلى نحو جديد .

لقد كان نحو سيبويه مبنيا على نظرية العامل ، فلا يُرفع فاعل إلا بعامل ، ولا تنصب كلمة إلا بعامل ، ولا تجرّ إلا بعامل . فإن لم يكن العامل ظاهراً ، فهو عامل مؤوّل ؛ فنادى ابن مضاء بأن الذى يصنع الظواهر النحوية فى الـكلمات من رفع ونصب وجرّ ، إنما هو المتكلم نفسه ، لا ما يزعمه النحاة من الأفعال وما شاكلها ، وقد أشار ابن جنى فى الخصائص إلى هذه النظرية ، ولـكن ابن مضاء وسَّعها وأوضحها . وقد جرَّت النحويين نظرية العامل وتأويله إن كان محذوفا إلى علل وأقيسة ، أحيانا تكون مقبولة ، وأحيانا تكون غير مقبولة . وكان يريد ابن مضاء إنشاء نحو جديد على أساس جديد . ولـكن يكفيه فخراً أنه هدم وإن لم يبْن . فـكان النحو محتاجا إلى يد جديدة ، تبنى بناء جديداً بعد هدم القديم . وفى كتابه الذى نشر حديثاً ما يشير إلى أحجار قيمة توضع فى البناء الجديد . ولـكن مع الأسف كانت دعوته إلى نحو جديد ، كدعوة أبى نواس فى الشرق إلى شعر جديد ، فـكلتاهما كُتبت ولم تتحقق .

على كل حال كان ابن مضاء داعيا دعوة جديدة ، متأثراً فيها بالدعوة إلى اجتهاد الفقهاء ، كما أنه متأثر بمذهب الظاهرية ، فنظريات العوامل تحتاج إلى تأويل كبير ، والظاهرية أكثر ما يكرهون التأويل . وقد أسس كتابه هذا «الرَّد على النحاة»[1] بعد قراءة طويلة فى النحو ، فقد قرأ كتاب سيبويه ، وشرح

(١) نشره الدكتور شوقى ضيف .

السيرافى عليه . . وهو يرى أن الناس ضلوا بالنحو القديم ، باتباعهم نظرية العامل فيقول : « قصدى من هذا الكتاب أن أحذف من النحو ما يستغنى النحوى عنه ، وأنبّه على ما أجمع على الخطأ فيه ، فمن ذلك ادعاؤهم أن النصب والخفض والجزْم لا تكون إلا بعامل لفظى ... فقالوا فى ضرب زيد عَمْراً ، إن الرفع الذى فى زيد ، والنصب الذى فى عمرو ، إنما أحدثه ضرب ، وذلك بيّن الفساد . وقد صرح بخلاف ذلك ابن جِنِّى وغيره . . . وفى الحقيقة ومحصول الحديث أن العمل من الرفع والنصب والجر والجزم ، إنما هو للمتكلم نفسه لا لشىء غيره » .
وقال : « ربما ظن شخص أن معانى هذه العوامل هى العاملة ، ويردّ ذلك بأن العامل أو الفاعل إما أن يفعل بإرادة كالإنسان والحيوان ، وإما أن يفعل بالطبع كما تحرق النار ، ويبرد الماء . والعامل فى النحو ليس فاعلا بالإرادة ولا بالطبع . وإذاً ، فتصور النحاة له بأنه عامل أو فاعل تصوُّر واهمٌ » . ويبيّن سخف النحويين فى تأويل عامل إذا لم يوجد ، فيقول : « إن النحويين يقولون فى يا عبد الله : أدعو عبد الله ، مع أن المعنيين مختلفان ، فأدعو عبد الله جملة خبرية ، ويا عبد الله جملة إنشائية ، ويقولون فى إذا السماء انشقت ، إذا انشقت السماء انشقت ، وهو كلام واهم » . ويقول فى موضع آخر : « إن إجماع النحاة على ذلك ليس حجة علينا ، مهما اتفق البصريون والكوفيون على ذلك » .
ويهاجم فكرة الضمائر المستترة ، فإن النحاة يقولون فى مثل زيد ضارب عَمْراً ، إن فى ضارب ضميراً مستتراً تقديره هو فاعل . ويقول : إن ضارب تدل على الصفة وصاحبها ، فلا داعى للتأويل . كما هاجم العلل النحوية غير العلة الأولى ، فإذا قلت إن الفاعل مرفوع فهذه هى العلة الأولى وقد أقرّها ، أما أنه مرفوع لأنه عمدة فقد رفضه ابن مضاء . ومن الأسف أن الناس لم يأخذوا بقوله ، وعادوا سريعاً إلى نحو سيبويه .

وابن مضاء هذا رجل عظيم النسب ، عظيم المنصب ، فقد كان قاضى القضاة فى عهد الموحدين ، وكان عظيم الجاه عندهم ، فهو وحده الذى ثار على نحو المشرق كما ثار كثير غيره على فقه المشرق .

ويطول بنا القول لو ترجمنا لنحويِّى الأندلس واحداً فواحداً ، وأنت إذا قرأت كتاب « بغية الوعاة فى أخبار النحاة » وجدت فى كل صفحة تقريبا واحداً فأكثر من نحاة الأندلس . فلنكتف بما ذكرنا .

الباب الرابع

الحركة الأدبيـــة

الشعر والنـــثر

نريد بالحركة الأدبية مظاهر الأدب الإنشائى[1] من شعر ونثر ، وقصص ونحو ذلك . ونلاحظ فى الحركة الأدبية ما يأتى :

(١) أن الثقافة الأدبية فى الأندلس كانت تكاد تكون عامة بين المثقفين ، فلا نكاد نقرأ ترجمة لفقيه ، أو أمير ، أو متصوف ، إلا نجد له شـعراً ، البيتين أو المقطوعتين أو أكثر .

(٢) ما وضع العرب أرجلهم فى الأندلس حتى صبغوها بالصبغة العربية ، ونقلوا معيشتها إلى معيشة عربية فى عاداتها وتقاليدها ، ومن ذلك أدبها . فالعربى حيثما حلّ ذكر أوطانه ، وحنّ إليها . وكانت السنون الأولى بعد الفتح سِنِى دهشة وتحيّر . فالبلاد غريبة عن العرب ، والمناظر مختلفة عن مناظر الصحراء ، وعادات البلاد وتقاليدها تختلف عن عادات الصحراء وتقاليدها . فهم يحتاجون إلى زمن يتأقلمون فيه لمواجهة هذه الحالة الجديدة ، ولذلك نراهم لم يقولوا الشعر كثيراً كما كانوا يقولونه فى جزيرة العرب ، أو فى الشام . شأنهم فى ذلك شأن العرب الفاتحين لمصر ، فقد رأى الفاتحون من العرب النيل ، وهو يفوق ألف مرة غدرانهم ، والأهرام التى تفضل ألف مرة غمدان وغير غمدان ؛ وشاهدوا المساكن

---

(١) أما الأدب التأليفى فقد مر فى الباب الذى قبله .

الفخمة ، والأبنية الضخمة ، وهى تفوق ألف مرة خيامهم ومساكنهم ؛ وشاهدوا الوديان الخضراء ، والمراعى الخصبة ، والمياه المتدفقة . وكل ذلك كان حريًّا أن ينتج أدباً غزيراً ، وشعراً كثيراً ، ولكنهم لم يفعلوا ، وقلما نجد شعراً روى عنهم فى العصر الأول للفتح ، بل إن الشعر الذى روى كان يأتى على ألسنة الوفود الذين يأتون مصر من الخارج لعبد العزيز بن مروان وأمثاله ؛ وهو أمر غريب حقا فى الأندلس ومصر ، حتى ظننت أن العربى أول أمره لا يشعر إلا فى بيئته .

على كل حال نجد فى العصور الأولى فى الأندلس قبل عبد الرحمن الداخل شعراً قليلا ، وأدباً شحيحاً ، تقتضيه المناسبات ، أوالمسامرات ، أو تحرك العواطف تحركاً وقتيا لسبب من الأسباب .

مثل ذلك ما روى عن طارق بن زياد فاتح الأندلس أنه قال :

ركبنا سفيناً بالمجاز مُعبرًا ... عسى أن يكون الله منّا قد اشترى

نفوساً وأموالاً وأهلاً بجنّةٍ ... إذا ما اشتهينا الشىء فيها تيسَّرا

ولسنا نبالى كيف سالت نفوسنا ... إذا نحن أدركنا الذى كان أجدرا

ومثله ما روى عن عبد الرحمن الداخل ، وقد رأى نخلة وحيدة منفردة فقال :

تبدّت لنا وسْط الرُّصافةِ نخلةٌ ... تناءت بأرض الغَرْب عن بلد النّخْل

فقلت : شبيهى فى التغرّب والنوى ... وطول التنائى عن بَنِيَّ وعن أهلى

نشأْتِ بأرضٍ أنتِ فيها غريبةٌ ... فمثلكِ فى الإقصاء والمنتأَى مثلى

سقَتْكِ غوادى المزْن فى المنتأى الذى ... يسُحُّ ، ويستَمْرى السماكين بالوَبْل

وقول الحكم بن هِشَام بن عبد الرحمن الداخل :

رأيتُ صُدُوع الأرض بالسيْف راقِعاَ ... وقِدْماً لأَمْتُ الشّعب مُذ كنتُ يافِعَا

فسائل ثغورى هل بها اليوم ثُغرةٌ ... أبادرها مُسْتنضِيَ السيف دارِعَا

تُنبِّئْك أنى لم أكن فى قِرَاعِهم بوَانٍ ، وقِدْماً كنت بالسيف قارِعَا
وأَنِّىَ إذ حادوا جِزَاعاً من الرَّدَى فلم أَكُ ذا حيدٍ من الموت جازِعَا
حميتُ ذِمارى فانتهبْتُ ذِمارهم ومنْ لا يحامى ظلّ خَزْيان ضارِعَا
ولما تساقينا سِجَالَ حُرُوبنا سقيتُهُمُ سمًّا من الموت ناقِعَا
وهل زِدْتُ أن وفّيتهم صاع قرضِهم فوافَوا مَنايا قُدِّرَت ومصارعا
فهاك بلادى إننى قد تركتُها مِهاداً ، ولم أترُكْ عليها مُنازِعا

ومثل قول الأمير عبد الله بن عبد الرحمن بن الحكم :

وَيْلى على شادِنٍ كحيلٍ فى مثله يُخلع العِذارُ
كأنما وَجْنَتاه وَرْد خالطه النَّوْرُ والبَهار(١)
قضيبُ بانٍ إذا تَثَنَّى يديرُ طرْفاً به احورارُ
فصفْوُ ودِّى عليه وقْفٌ ما أُطَّرَدَ الليلُ والنهارُ

ومثل قول ذرياب :

عُلِّقْتُها ريحانةً هيْفَاء عاطرةً نضيرهْ
بين السمينة والهزيلة ، والطويلة والقصيرهْ
لله أيَّامٌ لنا سلفَت على دَيْر المَطيرَهْ
لا عَيْبَ فيها للمتيَّمِ غير أنْ كانت يَسيرهْ

وقول عبد الرحمن الناصر :

كيف وأنَّى لمن يناجي من لوعة الشوق ما أُناجي
يطمع أن يستريح وَقْتًا أو يقتلَ الرَّاحَ بالمزَاجِ

(١) النور زهر أبيض ، والبهار زهر أصفر .

كنتُ كما علمتَ أَلْهُو ... إذْ أنَا مما شكوتُ نَاجِي

فصرت للعَيْنِ فى عـــلاجٍ ... طَمَّ وأرْبَى على العِلاَجِ

ألوَرْدُ ممـا يزيدُ حُزْنى ... ويبعثُ السَّوسَنُ اهْتياجى

لا ترْجُ ممـا أردت شـيئاً ... أوْ يأذَنَ الهَمُّ بانفراجِ

الخ الخ ...

ولم نعثر فيما قرأنا على أديب يتخصص للأدب فى هذه الفترة ؛ خصوصا وأن هذه الأيام الأولى كانت أيام فتن واضطرابات ، بين العرب والبربر الفاتحين ، والإسبان المفتوحين ، بل و بين العرب أنفسهم ؛ فهذا عدنانى يتعصب لعدنانيته ، وهذا قحطانى يتعصب لقطانيته ، وهــذا بينه و بين الوالى عداوة شخصية فينتهز الفرصة فيقتله وهكذا ، وهؤلاء لا يمكن تأريخ أدبهم .

(٣) من الصعب أن نطبق ما ذهبنا إليه من قبل من تدرّج « الحركة الدينية واللغوية والنحوية » على الأدب وتطورها تطوراً منطقيا ، فإن الأدب فى ظاهره لا يخضع لهذا القانون ، فقد يأتى قرن ينبغ فيه أدباء وشعراء كثيرون بارزون لأسباب مختلفة ، ثم يعقبه قرن خمود يخلو من الأدب البارز ، ثم يعقبه أدب غزير ، ونبوغ عظيم ، تعمل فى ذلك عوامل كثيرة ، وعبقريات لا تعرف كيف نضجت ولا كيف نبغت ؛ فأولى بنا أن نخضع لهذا القانون ، ونــكتفى بذكر الأدباء من ناثرين وشاعرين ، ونبيّن قيمة أدب كل منهم مع عرض شىء من مختاراتهم نبرهن بها على ما نقول . ولنترك الأدباء الذين يتخذون أدبهم على هامش فقههم أو علمهم أو نحوهم ، ولنكتف بذكر من غلب عليه الأدب فــكان حرفته ووظيفته والظاهرة العظمى فى حياته .

الشــعر والشعراء

نلاحظ أن العالم الإسلامى كله من أندلس ومصر وشام وعراق الخ ، كان أشبه ما يكون بجسم موصل جيد للكهرباء ، فما تملأ جزءاً منه بشحنة كهربائية حتى تسرى فى الجسم كله ويتأثر بها .

كان الشعر الجاهلى يمتاز بصدق العاطفة وجزالة التعبير ، والاقتصار على مشاهدات ما عندهم من جمل وصحراء وجبال ووديان وغدران الخ ... وكانت لهم تقاليد مَرْعيَّة فى الشعر من البدء بالغزَل ، والبكاء على الأطلال ، ثم الانتقال منه إلى الغرض الذى يقصد إليه الشاعر من مديح ونحوه ، واستمر ذلك فى العصر الإسلامىّ الأول فكان هذا الوضع أكبر مؤثر للعرب الفاتحين للأندلس إذا قالوا الشعر ، لأن هذا كل ما وصل إليهم ، ثم تطور الشعر آخر الدولة الأموية لغزل عمر بن أبى ربيعة ، وخمريات الوليد بن يزيد ، فانتقل ذلك أيضاً إليهم ، فلما جاء العصر العباسى تطورت الحياة الاجتماعية وتطور معها الشعر . فهذا بشّار بن بُرد يعدّ مجدّداً ، وأهم معنى للتجديد أنه أقلَمَ الشعر بالبيئة الاجتماعية مثل قوله :

عسر النساء إلى مياسرة ... الخ

وقوله هو ، أو أبى نواس ، يصف الكأس ومقدار ما فيها من الخمر ، ومقدار ما يصب فيها من الماء إلى نحو ذلك ؛ وجاء أبو نواس فملأ الجو غزَلاً بالمذكر ، وتحليلا دقيقاً للخمر وتشبيهاتها ، وشاربيها وندمائها ، وغير ذلك . ثم جاء أبو تمام فأفرط فى البديع ، وجاء المتنبى فملأ شعره جزالة وقوة بدوية ، وتقييداً للحروب الصليبية ، وحلَّى شعره بالحكمة إلى غير ذلك . ثم جاء مثل أبى العلاء فقال فى معايب زمنه وأهله ، من ملوك وأمراء وقضاة ، ونساء ووعّاظ ومنجمين ، ونحو ذلك . وجاء مثل ابن حجاج وابن سكّرة فملأوا أشعارهم بالهزل والمجون والسخرية

إلى غير ذلك . كل هذا انتقل إلى الأندلس بسرعة الشرارة الكهربائية ، فكان مثلا لهم يحتذونه ويسيرون على منواله .

ونلاحظ أيضاً أن الشعر العربى جميعه كان أدبا رومانتيكيا ، أو كما يقولون شعراً غنائيا . ونعنى بالرومانتيكية أنها تعنى بالخيالات الواسعة والعواطف الهائجة ، والألفاظ الجميلة أكثر مما تعنى بالأفكار الذهنية العميقة ، والمعانى الدقيقة . والشعر العربى أيضا له تقاليد خاصة من التزام لبحور لا تتجاوز ستة عشر ، وقافية تلتزم فى كل القصيدة ، وموضوعات خاصة من مديح ونسيب ورثاء إلى غير ذلك مما يظهر من الأبواب التى وضعها أبو تمام ، واختار شعر العرب على وفقها فى كتابه الحماسة .

فانتقل كل ذلك إلى الأندلس وكان عمادهم فى شعرهم ، ولكن الأندلس بلاد الإسبان من قديم ، وهم كانوا يقولون الشعر متأثرين باللاتينية وبالآداب اليونانية والرومانية ، ولها منحى آخر غير منحى العرب . فلما امتزج العرب بالإسبان — إذ كان الأولون يتزوجون من الآخرين ، وأنتج هذا الامتزاج مولدين ، فيهم أثر من الدم العربى وأثر من الدم الإسبانى ؛ وخير مثل لذلك الوالى عبد العزيز بن موسى بن نصير ، فقد تزوج أميرة من الأمراء الإسبانيين ، وأيضاً لما امتزج العرب بالإسبان بالسكنى والمعاملة والاشتراك فى البيئة الطبيعية والاجتماعية — ظهر ذلك فى الشعر ، كما ظهر فى المولّدين . فكنت ترى شعراً أندلسيا شرقىّ النسيج ، ولكن فيه خيوط دقيقة إسبانية ، ويحتاج تحليل هذا وذاك إلى حسٍّ مرهف ، ونظر دقيق ، ومعلومات واسعة . وأيًّا ما كان ، فشعراء الأندلس فى نظرنا لم يفلحوا كثيراً فى استقلالهم عن الشرق ، وابتكارهم ، وتجديدهم ، كما لم يفلح فى ذلك اللغويون ، والنحويون والصرفيون .

ولذلك لو أغمضنا أعيننا وجهلنا قائل القصيدة : أهو شرقىّ أم أندلسىّ ،

لم نكد نحكم حكماً صحيحاً جازمًا على الشاعر أغربىٌّ هو أم شرقىّ . ولذلك كثيراً ما تنسب بعض الأبيات إلى أندلسىّ ، وينسبها بعينها بعضهم إلى مشرقى ، لعدم التميز الواضح ، حتى عند الخبراء . وربما كان مصداق ذلك ما حكى أن الشاعر الأندلسى الملقّب بالغزال ، وجد فى بغداد فى جماعة من المثقفين ، فأنشدهم شعراً لنفسه ، وادّعى أنه لأبى نواس لعظم قدر أبى نواس عندهم ، فصدّقوه ، ثم قال لهم : إنها لى . ولو كانت شخصية الأندلس واضحة فى شعر أهلها ، لصعب نسبة أبيات أندلسية إلى شاعر شرقى ؛ غاية ما عندهم من فروق :

(١) أن الطبيعة الأندلسية الجميلة مكنتهم من أن يقولوا كثيراً فى شعر الطبيعة . وهذا لم يكن معدوماً فى المشرق ، فإن الصنوبرى مثلا وهو الشاعر الحلبىّ خلّف لنا ديوانا كله تقريباً فى ذلك .

(٢) أن لهم أحياناً أخيلة ذهنية ولعباً بالمعانى يكاد يكون خاصا بهم ، وقد يفوقون فيها المشارقة . وهذا ما أولعوا به كل الولع ، حتى إنه لما وقفوا على شعر المتنبى لم يقلّدوه فى قوة معانيه ، وبديع حِكَمه ، وقوة شاعريته ، وثورة نفسه ، إنما أخذوا منه أسلوبه ، وفخامة تعبيراته ، وعمق خيالاته ، كما فعل ابن هانئ الأندلسى . فنحن نأسف إذ نرى الأندلسيين اقتصروا على أوزان الشرق ، وموضوعات الشعر فى الشرق ، واتخذوا أخيلة الشرق أساسا ، ومعانيه دعامة . فالمديح هو المديح ، والغزَل هو الغزَل ، وشعر الزهد هو شعر الزهد . وكان الأمل أن يبتكروا غير هذا ؛ خصوصاً وأن بيئتهم أغنى ، واتصالهم بالعالم الأوربىّ غير اتصال المشارقة بالعالم الفارسى أو الهندى أو التركى ، فما بالهم اتخذوا نفس القوالب ، وصبوا فيها عصارة ذهنهم ، وبديع خيالاتهم . وعندنا أنهم لو تحرروا من ذلك ، لأتوا بالعجب فى القصة ، فى القصائد غير الموحدة الأبيات ، فى ترتيب الأبيات ترتيباً منطقيا حسب المعانى ، فى الاعتماد على وحى النفس أكثر من الاعتماد على

العادات المألوفة ، والتقاليد الموروثة ، حتى لنرى مادح الناصر كمادح الرشيد ، وتشبيب ابن عبد ربه ، كتشبيب أبى نواس ، وحتى نرى فى الشرق والغرب شاعرا يعرف أن ممدوحه ظالم للرعية ، نهّاب لأموالها ، سفّاك لدمائها ، ثم يمدحه بالعدل والجود وأصالة الرأى نظير نفحة من المال ينفحه بها . والأمثلة على ذلك كثيرة هنا وهناك .

(٣) انفراد الأندلسيين فى ابتكار الموشّحات والأزجال ، خضوعا لحكم الظروف . وسيأتى توضيح ذلك عند الكلام فى الموشحات ، وأيضا استكثارهم من المقطّعات التى تصف أشياء كثيرة كوصف العاصفة ، وبركة فيها سلاحف ، وباذنجان ، وجمال الخال ، وفرس أصفر ، ورداء أحمر ، ووصف الليل ، وغلام خياط ، ووصف معركة ، وملابس حداد ، وقوس ، ونهر ، ومشهد حُب ، ومجلس شراب الخ ؛ مما يطول ذكره .

ونحن لا نستطيع أن نترجم لكل شاعر لأنهم كثيرون ، وقلما يخلو مترجم له من شعر ، سواء كان أميراً ، أو وزيراً ، أو قاضيا ، أو عيناً من الأعيان . فلنكتف بذكر من شُهر بالشعر ، وتخصص له ، وعرف به .

وربما كان من طليعة الشعراء الذين احترفوا الشعر يحيى الغَزَال ، ولقّب بالغزال لحسن شكله ، ولذلك ضبطناه بهذا الضبط . وكانوا يلقبونه بشاعر الأندلس ، وقد رأينا هذا اللقب مُنِح لكثير من الشعراء ؛ فابن شُهيد شاعر الأندلس ، والرّمادىُّ شاعر الأندلس ، ويحيى الغزَال شاعر الأندلس ؛ وتعليل ذلك ، إما أن أصحاب التراجم كانوا يُفْرطون فى منح هذا اللقب فيطلقونه على كثيرين ، ناسين فى كل واحد ما قالوه فى مواضع أخرى ، وإما أنهم أرادوا به شاعر الأندلس فى وقته . فالغزال شاعر الأندلس فى وقته ، وابن شهيد فى وقته ، وهكذا . أو أن كلمة شاعر الأندلس لا يراد بها شاعر الأندلس الأوحد ،

كما يتبادر إلى الذهن ، ولكن تدلّ على أن صاحبها شاعر أندلسى كبير . وكان يُعرف الغزال إلى جانب شعره بأنه حكيم ، ومعنى حكيم أنه يحسن التصرف فى الأمور ، وفى الكلام . وإذا فوجئ بكلام خطير ، عرف كيف يرد عليه ، ويخلص من المأزق . ولهذه الخصلة كان سفيراً لخلفاء الأندلس ، لدى بعض الدول الأجنبية . سَفَر لخمسة من الخلفاء الأمويين ، أولهم عبد الرحمن الثانى ، وآخرهم محمد بن عبد الرحمن بن الحكم . وفى ذلك يقول :

أدركتُ بالمِصْر مُلوكا أربعهْ وخامساً هـذا الذى نحن معهْ

ويظهر أنه وقع عليه الاختيار ليكون سفيراً لاتصافه بجملة صفات ، منها حسن الشكل ، ومنها حضور البديهة ، ومنها صواب الرأى . وأشهر سَفارته كانت فى أيام عبد الرحمن الأوسط وهو عبد الرحمن بن الحكم . ففى أيامه سَفَر لملك الروم ، ويظهر أنه ملك القسطنطينية . ونراه سفَر مرة أخرى عند ملك الدانمرك . ذلك أنه خرج فى عهد النرمانيين ، بعض أهل النرويج ، فى مراكب كثيرة على شكل قرصنة ، وغزوا شواطئ الأندلس ، حتى وصلوا جليقية ، فتصدّى لهم ملك أُشتوريش هو وقومه وأحرقوا لهم — كما يقول ابن عذارى فى تاريخه — سبعين سفينة ، فهربوا وساروا بحذاء الساحل الغربى للأندلس ، وظهروا أمام إشبونة ، فكتب عامل عبد الرحمن الأوسط إليه يقول له : إن أربعة وخمسين مركباً من مراكب المجوس ظهرت على الساحل . فكتب إليه عبد الرحمن بالتحفظ ، ولكن أهل إشبونة لم ينتظروا ، بل حاربوهم ، وهزموهم ، وأرغموهم على العودة بسفنهم .

وعلى العموم فقد أوقعوا الرعب فى غرب الأندلس بكثرة قتلهم ، ونهبهم ، وسلبهم ، وإحراقهم . وقد كانوا سبباً فى إنشاء عبد الرحمن أسطولا كبيراً ليدفع

أذاهم . وأخيراً و بعد حروب طويلة ، و بعد أن قتل منهم كثيرون طابوا الصلح ، فأجابهم عبد الرحمن إلى ذلك ، وأرسل الغزَال هذا سفيراً لهذا السبب إلى ملك الدانمرك . ويظهر أن الغزال وصحبه لاقوا عناء شديداً من البحر ، فقد هاج بهم . وقد وصف الغزال هذا الهياج بقوله :

قال لى صحبي وصِرْنا   بين مَوْجٍ كالجبالِ
وتولتْنَــــا رياح   من دَبُورٍ وشمالِ
شقَّت القَلْعَيْن وأُنبتَّــتْ عُرَى تلك الحبالِ
وتمَطَّى مَلَكُ المو   تِ إلينا عن حِيَال
فرأينا المُوت رأْىَ الْــعَيْنِ حالاً بعد حال
لم يكن للقوم فينا   يا رفيقى رأسُ مالِ

ولكنه على كل حال وصل سالما ، وقد تلقّاهم ملك الدانمارك لقاء حسناً ، وأنزلهم منزل كرامة ، وقابلهم بعد يومين ، واشترط الغزَال ألاّ يسجد له ، وأن لا يخرجه عن شيء من عاداته ، فأجابه إلى ذلك . وقد حمل معه كتابا من الأمير عبد الرحمن وهديّة . وتقول المصادر العربية : إنه أغرم بحب امرأة الملك وهى أغرمت بحبه ، وأنه قال فيها الأبيات التى نذكرها فيما يأتى ، وكان الغزال مع كهولته وسيما جميلا . « وقد سَمّى النرمانيين مجوساً لأنهم كانوا مجوساً قبل أن يتنصروا » . ويقولون : إنه لما أنشدها شعره سُرّت منه لما ترجم لها ، وأمرته بالخضاب ففعل . ثم عاد بعد أن نجح فى سفارته . ولم نعرف أحداً سفر إلى هذه الجهات إلا ما كان من يحيى الغزَال[1] .

---

(١) انظر كتاب الأستاذ عنان فى تاريخ الأندلس ، وكتاب تاريخ ابن عذارى ، ونفح الطيب ، وبحث الدكتور حسين مؤنس المنشور فى مجلة الجمعية الملكية للدراسات التاريخية — المجلد الثانى — مايو سنة ١٩٤٩ ، وعنوانه : « غارات النورمانيين على الأندلسيين » .

وعُمِّر ما شاء الله طويلا ، فعاش إلى أربع وتسعين سنة ، كان يقول فيها الشعر ، ويظهر أنه مع حكمته كان غزِلاً ، ولوعاً بالنساء والخمر ، يقول فيهما الشعر مع فكاهة لطيفة ، كقوله فى الهجاء :

سألتُ فى النوم أبى آدمًا فقلتُ والقلبُ به وامِقُ
أَبْنُك بالله أبو حازِمٍ صلَّى عليكَ المَلِكُ الخالق
فقال لى : إن كان منّى ومَن نَسْلى ، فحوَّا أمُّكُمْ طالق

وكقوله فى مقابر الأغنياء والفقراء مما فيه حكمة :

أَرى أهلَ اليسار إذا تُوُفُّوا بَنَوْا تلك المقابر بالصخور
أَبَوْا إلاّ مباهاةً وفخراً على الفقراء ، حتى فى القبور
فإن يكن التفاضُلُ فى ذرَاهَا فإنّ العدل فيها فى القعور
رضيتُ بمن تأنّقَ فى بِناء فبالَغَ فيه ، تصريفَ الدهور
ألَمَّا يبصروا ما خرَّبتْه الدهور من المدائن والقصور
لعَمْرُ أبيهمُ لو أَبصَرُوها لَمَا عرفوا الغنىّ من الفقير
ولا عرفوا العبيدَ من الموَالِى ولا عرفوا الإناثَ من الذكور
ولامَن كان يلبَسُ ثوبَ صُوفٍ من البَدَنِ المباشر للحرير
إذا أكل الثّرى هذا وهذا فما فضلُ الكبير على الحقير؟

* * *

لا ومَنْ أعْمَل المطايا إليه كلٌّ من يرْتَجِى إليه نصيبا
ما أرى هٰهُنا من الناس إلاّ ثعلبًا يَطْلُبُ الدّجاجَ وذِيبَا
أو شبيهاً بالقطّ ألْقَى بعينيه إلى فارَةٍ يريد الوثوبا

* * *

قالت أحبُّك قلتُ كاذبةٌ غرِّى بذا من ليس ينتقدُ
هـذا كلام لستُ أقبلُه ألشَّيخُ ليس يُحبُّه أحـدُ
سيَّان : قولك ذا وقولك إنّ م الريح نعقِـدُها فتنعَقِدُ
أو أن تقولى : النارُ باردةٌ أو أن تقولى : المـاء يتَّقِدُ

فهذا شعر يظهر فيه أثر ما اتصف به من الحكمة . أما ما يظهر فيـه أثر لهوِه فقوله :

ولمـا رأيتُ الشَّربَ أكْدَت سماؤهم تأبَّطْتُ زِقى واحتَسَبْتُ عَنَائى
فلمَّا أتيتُ الحانَ ناديتُ ربَّها فثابَ خفيفَ الروح نحو ندائى
قليـلُ هجوع العيْن إلاّ تَعِلّةً على وجَلٍ منّى ومن نُظَرائى
فقلتُ أذِقْنيها ، فلمَّا أذاقها طَرحْتُ عليـه ريطَتى وردائى
وقلتُ : أعرْنى بذلةً أستَتِرْ بها بذلتُ له فيهـا طلاقَ نسائى
فوالله ما برَّتْ يَمينِي ولا وفَتْ لهُ غيرَ أنى ضـامنٌ بوَفائى
فأبْتُ إلى صَحْبي ولم أكُ آيِبًا فـكلٌّ يُفَدّينى وحُقّ فدائى

ويروى أنه لمـا سافر إلى بغداد وجدهم يعجبون جداً بشعر أبى نواس ، ولا يعجبهم غيره من أهل الأندلس ، فنسب هذه القصيدة إلى أبى نواس ، وأسمعهم إياها ، فأعجبوا بها ثم عرّفهم أنها له ، وهى التى تقدمت فى قوله :

« ولمـا رأيت الشَّرب أكْدَت سماؤهمْ »

والحقّ أنهم خدعوا أنفسهم بالإعجاب بها ، إعجابهم بشعر أبى نواس ، لأنها أقل قيمة من شعره . وكم خدع الناس بالأسماء . ولمـا سفر إلى ملك الدانيمارك

كما ذكرنا استملح الملكة فأعجب بها وأعجبت به[١] . وكان اسمها : تودا .

وقال فى ذلك :

كُلِّفْتَ يا قلبي هَوًى متْعِبا غالَبتَ منه الضَيْغَمَ الأغْلَبا
إنى تعلّقتُ مجوسيَّةً تأبى لشمس الحسن أن تغرُبا[٢]
أقصى بلادِ اللهِ فى حيثُ لا يُلفِى إليه ذاهب مذْهبا
يا تُودُ يا رود الشباب التى تُطلع من أزْرارها الكوكبا
يا بِأبى الشخص الذى لا أرى أحْلى على قلبى ولا أعْذبا
إن قلتُ يوماً إن عينى رأت مُشْبِهَهُ لم أعْدُ أن أكذبا
قالت أرى فوْدَيْه قد نوَّرا دعابةٌ توجب أن أدْعَبا
قلتُ لها ما باله إنَّهُ قد يُنتج المُهْرُ كذا أشْهَبا
فاستضحكَتْ عُجْبًا بقولى لها وإنما قلتُ لكى تعجبا

ويريد بالمجوسية النصرانية .

وقال فيها :

بكَرتْ تُحسِّنُ لى سواد خِضَابى فكأن ذاك أعادنى لشبابى
ما الشَّيْبُ عندى والخضاب لواصِفٍ إلا كشمس جُلِّلَتْ بضَباب
تخفى قليلا ، ثم يُقشِعُها الصَّبا فيصير ما سُترت به لِذهاب
لا تنكرى وضَح المشيبِ فإنما هو زهرة الأفهامِ والألباب

---

(١) نسبت كتب العرب هذه الحادثة إلى إمبراطورة القسطنطينية ، ويظهر أنهم خلطوا بين إمبراطور القسطنطينية وملك الدانيمارك .

(٢) أى أنها لحسنها تقوم مقام الشمس فلا تغرب .

وله :

كم جفانى ، ورُمْتُ أدعو عليه فتوقَّفْتُ ثم ناديتُ قائِلْ
لا شفى الله لحظه من سقامٍ وأَرَانى عِذَاره وهو سائلْ

ويقول فى الخسوف :

شَانَ الخسوفُ البدرَ بعد جماله فكأنّه ماء عليه غُثاء
أو مثل مرآة لخوُدٍ قد قضَتْ نظرًا بها ، فعلا الجَلاَء غشاء

وله من قصيدة عتاب :

ولقد كسَبْتُ بكُمْ عُلاً لكنها صارتْ بأقوال الوُشاة هباءا
فغدوْتُ من بين الصحابة أجْرَباً كلٌّ يحاذر منِّىَ الأعداءا

☆ ☆ ☆

لو لمْ يكن قَيْدٌ لما فَتَكَتْ ظُبَاً أنت الذى سيَّرْتَهمْ أعداءا . الخ

أحبابنا عودوا علينا عودَةً ما منكمُ بعد التفرُّق مَرْغَبُ
كم ذا أداريكم بنفسِى جاهدًا وكأنما أرضيكمُ كىْ تَغْضَبُوا
وأَزِيدُ بعداً ما اقتربت إلَيْكُمُ كالسهم أبعد ما يُرى إذ يقربُ
وأجُوبُ نحوكم المنازل جاهداً ومع اجْتهادى فَاتَنِى ما أطْلُبُ
كالبدر أقطع منزلاً فى منزلٍ فإذا انتهيتُ إلى ذُرَا كُمْ أغرِبُ

أنا شاعرٌ أهوى التخلى دون ما زوْجٍ لكيما تخلصَ الأفكارُ
لو كنْتُ ذا زوج لكنتُ منغصًا فى كلّ حين رزقها أمتارُ
كم قائل قدْ ضاع شرخُ شبابه ما ضيّعَتْه بطالةٌ وعُقَارُ

إذ لم أزَل فى العلم أجهدُ دائمًا حتَّى تأتَّتْ هـــذه الأفْـــكارُ
مهما أرُمْ من دون زوجٍ لم أكُنْ كَلًّا ورزقى دائما مدرارُ
وإذا خرجتُ لنزهَةٍ هُنِّيتُها لا ضيعةٌ ضاعتْ ولا تذكارُ

وهى تدلّنا على أنه لم يكن متزوجا على الأقل إلى إنشاء هذه القصيدة ، وأنه صرف وقته فى تحصيل العلم وتحصيل اللذة :

ما كنت أحسب أن أضيع وأنت فى الدنيا وأن أمْسِى غريباً مُعْسِرَا
أنا مثل سهم سوف يرجعُ بَعْدَ مَا أقصاه راميـهِ المجيـدُ ليخبُرَا

. . . الخ .

وقوله :

يا واطِئَ النَّرْجس ما تَسْتَحِى أن تَطَأَ الأعْيُنَ بالأرْجُل ؟

* * *

هذا عرض صغير لشعره . ونرى فيه أنه يمتاز ببعد الخيال ، وحسن التشبيه ، وأنه صادق التعبير عن نفسه ، يلوّن كثيراً من شعره بالحكمة اللطيفة .

وعلى كل حال ، فليس شعره إعجازا ، بل إرهاصا لابن عبد ربه ، ومن بعده .

ابن عبد ربه

هو شاعر عبد الرحمن الناصر ، وقد ذكرنا ترجمته فيما سبق[1] . والذى يهمنا هنا هو أدبه الإنشائى . ومن الأسف أننا لم نعثر له على ديوان ، وكل ما نعرف له أبيات فى كتب الأدب هنا وهناك ، وأبيات فى عقده من نظمه عارض بها من حكى لهم ، فقال مثلا :

أنْتَ دائى وَفِى يديكَ دوائى يا شِفَائى من الجوَى وبَلائِى

(١) انظر ص ٨٤ وما بعدها من هذا الكتاب .

إنَّ قلبي بحبِّ مَن لا أُسمِّي ... في عَناء ، أَعْظِمْ به من عَناء
كيفَ لا ، كيف أن أَلَذّ بعيْشٍ ... ماتَ صبري به ، ومات عزائي
أيها اللائمون ماذا عليكمْ ... أن تعيشوا ، وأن أموت بدائي
ليس من مات فاستراح بميتٍ ... إنما الميْتُ ميِّتُ الأحياء

ويقول :

ما لِلَيالِي تبدّلَتْ ... بعدَنا وُدّ غيرنا
أرهقَتْنا ملامةً ... بعد إيضاح عُذْرِنا

وقال في فتاة أخرى :

ذاتُ دَلٍّ وشاحُها قَلِقُ ... من خُمورٍ وحَجْلها شَرِقَ
بزَّتِ الشمسَ نورَها وحَباها ... لحظَ عينيهِ شادِنٌ خَرِق
ذهَبٌ خدُّها يذوب حياءً ... وسِوَى ذاك كلُّه ورِقُ

ويقول :

ودَّعَتْني بزفرةٍ واعتناق ... ثم نادت : متى يكون التَّلاقي
وتصدَّتْ فأشرق الصُّبْح منها ... بين تلك الجُيُوب والأطواق
يا سَقِيم الجُفُون من غير سُقْمٍ ... بين عينيكِ مَصرَعُ العشّاق
إنّ يوم الفراق أَفظَعُ يوم ... ليتني مِتُّ قبل يوم الفراق

ويقول :

هيَّجَ العينَ دواعي سَقَمي ... وكَسَا جسمِيَ ثوب الألَمِ
أيها ألْبَيْن : أَقِلْني مرَّةً ... فإذا عُدْتُ فقد حلَّ دَمي
يا خَلِيَّ الذَّرْعِ نَمْ في غبطَةٍ ... إنّ مَن فارقْتَهُ لم يَنَمِ

ولقــــــد هاجَ لقلبى سَقَمًا   ذِكْرُ من لو شاء داوى سَقَمى

ويقول معارضاً قصيدة مسلم بن الوليد :

« أَدِيرَا علىَّ الرَّاحَ لا تَشْرَبا قبْلِي »

أَتَقْتلنى ظُلْمًا ، وتجحدنى قَتْلِي ؟   وقد قامَ من عينيك لى شاهدا عَدْلِ

أَطُلاَّب ذَحْلِي ليسَ بى غيرُ شادِنٍ   بعينيه سحرٌ فاطلبوا عنده ذَحْلِي [1]

أغارَ على قلبى ، فلما أتيتهُ   أطالبه فيـــــــه ، أغارَ على عقلى

بنفسى التى ضنّت بردّ سلامِها   ولو سأَلَت قَتْلى وهبتُ لها قَتْلى

إذا جئتها صــدَّت حياءً بوجهها   فيعجبنى هَجْرٌ ألذُّ من الوصْل

وإن حكَمت جارت علىَّ بحكمها   ولــكنَّ ذاك الجور أشهى من العَدْلِ

كتمت الهوى جَهْدِى ، فجرَّدَه الأسى   بماء البُكا ، هذا يخُطّ ، وذا يُمْلى

وأحبَبْتُ فيها العذْل حُبًّا لذكرها   فلا شىء أشهى فى فؤادى من العذل

أقول لقلبى كلما ضـــامه الأسى   إذا ما أتيْتَ العزَّ فاُصبِرْ على الذلِّ

برَأْيِك لا رَأْيِى تعرَّضْت للهوى   وأَمرِكَ لا أمرى ، وفعلك لا فعلى

وجدتَ الهوى نَصْلاً من الموت مُغْمَدًا   فجرَّدتَه ، ثم اتَّكَيْتَ على النَّصْل

فإن تكُ مقتولاً على غــير رِيبَةٍ   فأنت الذى عرَّضتَ نفسك للقتل

☆ ☆ ☆

وقد أعجب هو نفسه بهذه القصيدة فقال فى العِقد : « فمن نظر فى سهولة هذا الشعر ، مع بديع معناه ، ورقَّة طبعه ، لم يفْضُل شعر مسلم عنده ، إلا بفضل التقدم » .

---

(١) الذحل : الثأر .

ويقول :

أعطيتُه ما سألاَ حكّمته لو عدَلا
وهَبتُه روحى فما أدرى به ما فعَلا ؟
أسلمته فى يده عَيَّشَهُ أم قتلاَ ؟
قلبى به فى شُغُلٍ لا ملَّ ذاك الشُّغُلا
قيَّدهُ الحبُّ كما قيَّد راعٍ جَمَلا

وقال :

لَعَمْرِى : لقد باعدتُ غير مباعِدى كما أننى قرّبتُ غير مقرّبِى
بنفْسِيَ بدرٌ أخمَدَ البدرَ نورُهُ وشمسٌ متى تبدو إلى الشمس تَغرُبِ
لَوَ انَّ امرأ القيس ابن حُجرٍ بَدَتْ له لما قال : مُرَّا بى عَلَى أُمِّ جُنْدُبِ

وقال :

مُحِبٌّ طوَى كشحاً على الزفَرات وإنسانُ عَيْن خاض فى غمرَاتِ
فيَا مَن بعينيهِ سَقَامِى وصحَّتى ومَن فى يدَيْه ميْتَتى وحياتى
بحبّكِ عاشرت الهموم صبابَةَ كأنى لها تِرْبٌ وهنَّ لِدَاتى
فَخَدِّىَ أرض للدموع ومُقْلَتى سماءٌ لها تَنْهَلُّ بالعَبراتِ

أَدعو عليك فلا دعاءٌ يُسمع يا مَن يضرّ بناظِرَيْه وينفعُ
لِلْوَرْدِ حِينٌ ليْسَ يَطْلعُ دُونَه والورد عندكِ كل حينٍ يطلع
لم تَنْصَدِعْ كبدى عليكِ لضَعْفِها لكنّها ذابتْ فما تتصدَّعُ
مَنْ لى بأجْرَدَ ما يبين لسانُه خجلاً ، وسيفُ جُفُونه ما يُقلعُ

مَنَعَ الكلامَ سِوَى إشارةِ مقلةٍ   منها يكلّمنى وعنها يُسْمِعُ

بزِمامِ الهوى أَمُتُّ إليه   وبحكم العُقار أقضى عليهِ
بأبى من زها عَلَىَّ بوجهٍ   كاد يُدْمِى لما نظرتُ إليه
ناوَلَ الكاسَ واستمال بلحظٍ   فسَقَتْنى عيناه قبل يديه

وله فى أبواب الشعر التقليدية الأخرى الشىء الكثير من مديح وهجاء ووصف ورثاء ، فيقول فى الهجاء :

ما بالُ بابك محروساً ببوّاب   يحميه من طارقٍ يأتى ومُنْتَابِ
لا يحتجبْ وجهك الممقوت عن أحَدٍ   فالمَقتُ يحجُبُهُ من غير حجّابِ
فاعزلْ عن الباب مَن قد ظلَّ يحجبُه   فإن وجهك طِلَّسمٌ على الباب

وكان كثيراً ما يمزج الهجاء بالسخرية :

رجاءٌ دون أقْرَبِه السحابُ   ووعْدٌ مثلُ ما لَمَعَ السّرابُ
ودهرٌ سادت العُبْدانُ فيه   وعاثَتْ فى جوانِبه الذِّئاب
وأيام خَلَتْ من كلِّ خير   ودنيا قد تدرّعها الكلاب
كلابٌ لو سألْتَهُمُ تراباً   لقالوا : عندنا انقطع الترابُ

وفى الوصف يقول فى روضة :

ورَوْضةٍ عقَدَت أيدى الربيع بها   نوراً بنورٍ ، وتزويجاً بتزويج
بمُلْقِحٍ من سَوَاديها ومُلقحةٍ   وناتجٍ من غواديها ومَنْتُوجِ
توشحتْ بمُلاَةٍ غير مُلْحَمَةٍ   من نَوْرها ورداء غير منسوجِ

فألبسَت خُلَلَ الموْشىّ زهرتَها وجلَّلَتْها بأنماط الدبابيج

وقال يمدح القائد أبا العباس :

أَللهُ جرّدَ للندى وأَلبَاسِ سيفاً فقلَّدَه أَبا العبَّاس

ملك إذا استقبلْت غرّة وجهه قبض الرجاء إليك روح ألْيَاس

وبه عليك من الحياء سكينةٌ ومحبَّةٌ تجرى مع الأنفاس

وإذا أحبَّ الله يومًا عبده ألقى عليه محبةً للناس

ويمدح آخر بأنه سهْل اللفظ ، حسن الكلام ، وهو يدلّ على رأيه فى البلاغة :

قولٌ كأن فرِنده شحذٌ على ذهن اللبيبْ

لا يَشْمَئِزُّ على اللسان ولا يشذّ على القلوب

لم يَغْلُ فى شنَع اللُّغات ولا يوحّشُ بالغريبْ

سيفٌ تقلّد مثله عطْف القضيب على القضيب

هذا تُحَزُّ به الرقاب ، وذا تُحَزُّ به الخطوب

وله شعر كثير فى مدح عبد الرحمن الناصر ، إذ كان شاعره ، مثل :

يابن الخلائفِ إنّ المُزْنَ لو علمتْ نداك ما كان منها الماء ثجَّاجا

والحرب لو علمت بأساً تصولُ به ما هيَّجت من جبالِ الدِّينِ أَهْياجا

✲ ✲ ✲

فى نِصْفِ شهر تركتَ الأرض ساكنةً من بعد ما كان فيها الطيرُ قد ماجا

وجدتَ فى الخبر المأثور منصلِتاً من الخلائف خرّاجًا وولّاجا
تُملاَ بك الأرضُ عدلا مثلما ملئتْ جوراً ، وتُوضِحُ للمعروف مِنهاجا
يا بدرَ ظلمتها ، يا شمس صبْحتها يا ليْثَ حَوْمَتِها ، إنْ هائجٌ هاجا
إن الخلافة لن ترضَى ولا رضيَتْ حتى عقدْتَ لها فى رأسك التّاجا

ويقول فى مدحه أيضاً :

بَدَا الهلال جديداً والْمُلْكُ غَضٌّ جديدُ
يا نعمة الله زِيدِى إن كان فيه مزيدُ

يأبن الخلائفِ والْعُلَا للمعتلى والجودُ يعرِفُ فضله للمُفضِلِ
نوّهْتَ بالخلفاء بل أهملتَهُمْ حتى كأنّ نبيلَهُمْ لمْ يَنْبُل
أذْكَرْت ، بل أنْسَيْتَ ما ذكر الأُلَى من فِعلِهمْ ، فكأنه لم يُفعَل
وأَتيتَ آخِرهم ، وشَأْوُكَ فائتٌ للآخرين ، ومدرِكٌ للأوّلِ
ألآن سُمِّيَتِ الخلافة بأسمها كالبَدْر يقرن بالسماك الأعزَل
تأبى فعالكَ أن تُقِرّ لآخرِ منهمْ وجودُك أن يكون لأوّل

* * *

وله أرجوزة فى مدح الخليفة الناصر أيضاً وقعت فى نحو أربعمائة وخمسين بيتاً وصف فيها حروبه وغزواته ، وتاريخ كل غزوة ، وهى تخالف الملاحم القديمة كالإلياذة ، بأنها أشبه ما تكون بالتاريخ المنظوم ، ليس فيها خيال ولا افتخار ، ولا شىء من ذلك ، مثل قوله :

وبعدها غزَاةُ ثِنْتَىْ عَشْرَهْ وكَمْ بها من خبرةٍ وعِبْرهْ

غزا الإمامُ حوله كتائبْ كالبدر محفوفاً به الكواكبْ

وفى أولها يقول :

فالحمد لله على نعمائه حمداً كثيراً وعلى آلائهِ
يا مَلكاً ذلّت له الملوكُ ليس له فى مُلكه شريكُ
ثَبِّت لعبد الله حُسْنَ نِيَّتِهْ وأعطِفْهُ بالفضلِ على رعيَّتِهْ

* * *

وقد جاء بعده من الأندلسيين أيضاً أبو طالب عبد الجبار فنظم أرجوزة خيراً من أرجوزته ، إذ كانت أطول وأشمل ، وليست مجرد سرْدٍ لحوادث ، بل مزجت بمعلومات كثيرة . فيها مثلا الأدلة على وجود الله ، والحث على التفكر فى العالم ، والكلام على بدء الخليفة وسير الخلفاء الأربعة ، وبنى أميَّة ، وبنى أمية فى الأندلس ، وملوك الطوائف ، ودولة المرابطين ؛ بدأها بقوله :

أَبدأُ باسم الله فى التَّرْجيز ربِّ الأنام المَلِكِ العَزيز
ثم بذكر المصطفى محمَّدِ صلى عليه اللهُ طولَ الأبَدِ

وبعده :

والحمدُ لمبتَدِع السماءِ والأرضِ ذى الآلاء والنعماءِ
سبحانه من خالقٍ جبّارِ يعلم ما فى البرِّ والبحارِ

ويقول فى التفكر فى الملكوت :

يا مَنْ يُجيلُ فِكْرَهُ للعِبْرَهْ فى كلِّ موضوع له بالفِكْرَهْ
أُنظرْ إلى المواتِ والنباتِ والحيوان نَظَرَ اُستِثْبَاتِ
كيف ترى التكوين فيها ماثِلاَ يُنبيك أنّ لِقُواها فاعِلاَ

يؤلِّفُ الأربعــة العَنـاصِرَا يمنَعُ من أضـدادها التَّنافُرَا

فإذا وصل إلى أبى بكر مثلاً قال :

فاُستُخلِفَ الصِّدِّيق ثانى اُثنَيْنِ ذاك أبو بكر بِغَـير مَيْنِ

جَرَّد فى جهاد أهل الرِّدَّهْ ولم يكن يرضى بغير الشِّدَّهْ

ثم توفّاه الإلٰهُ راضِــــيَا وكان فى ذات الإلٰه ماضِـيَا

إلى أن يقول فى المرابطين :

فإذْ أرادَ الله نصْرَ الدِّين استصرخ النـاسُ ابْنَ تاشِفِين

فجاءهمْ كالصّبح فى إثْر غسَقْ مستدركاً لِمَا تبقَّى مِنْ رَمَقْ

وَافَى أبو يعقوبَ كالعُقَــاب فجرَّد السيفَ عَنِ القِرَاب

وَوَصــل السَّـيْر إلى الزَّلاَّقَهْ وسَاقه ليومِهــــا ما ساقَهْ

لِلهِ دَرُّ مِثْلِها مِنْ وَقْعَةِ قامَتْ بنَصْرِ الدِّينِ يوم الجمُعَـةِ

وهى أرجوزة طويلة أقرب إلى الملحمة من أرجوزة ابن عبد ربه . وقد أثبتهما كليهما ابن بسّام فى الذخيرة .

ومن شعر ابن عبد ربه أنه أحب فعزم محبُوبُه على الرحيل ، فأتت السماء بمطر جَوْدٍ حال بينه و بين السفر فقال :

هلَّا ابتكَرْتَ لبَيْن أنتَ مبتكِرُ هيْهاتَ : يأبَى عليكَ اللهُ والقدرُ

ما زلتُ أبكى حِذَارَ البَيْن مُلْتَهِفاً حتى رَثَا لىَ فيك الرِّيحُ والمطرُ

يا بَرْدَةً من حيا مُزْن على كبدٍ نيرانها بقليــل الشوق تَسْتَعِرُ

آليْتُ ألاّ أرى شمساً ولا قمراً حتى أراكَ ، فأنت الشمسُ والقَمرُ

وقد حكى أنه وقف تحت روشَنٍ لبعض الرؤساء ، وقد سمع غناء حسناً ، فرُشَّ بماء ، فمال إلى مسجد قريب وطلب بعض ألواح الصبيان فكتب فيها :

يا من يَضِنُّ بصوت الطائرِ الغَرِدِ ما كنتُ أحسِبُ هذا البُخْلَ فى أحدِ

لو أنَّ أسماعَ أهلِ الأرضِ قاطِبَةً أصْغَتْ إلى الصّوت لم يَنْقُصْ ولم يَزِدِ

فلا تَضِنَّ على سَمْعى تُقَلِّدُه صوتاً يَجُولُ مجال الروح فى الجَسَدِ

لو كان زِرْيابُ حيًّا ثم أُسْمِعَه لذَاب من حَسَدٍ أو مات من كَمَدِ

أما النَّبيذ فإنى لستُ أشْرَبُه ولست آتِيكَ إلاَّ كِسْرَتِى بيدى

وقد كان له أشعار كثيرة سماها المُمَحِّصَات ، لأنه نقض فيها كل قطعة قالها فى الصِّبا والغزل بقطعة فى المواعظ والزهد ، فقال إنه مَحَّصَها بها ؛ كالتوبة منها ، والندم عليها ، فمثلا محص القطعة الرائية التى مضت ومطلعها :

هل ابتكرت لبين أنت مُبْتكِرُ . . . الخ ، برائية أخرى قال فيها :

يا قادِراً ليس يعفو حين يقتدر ماذا الذى بعد شَيْبِ الرأس تنتظِرُ

عاين بقلبك إن العين غافلةٌ عن الحقيقة واعلم أنها سَقَرُ

سوداء تزفر من غيظٍ إذا زفرت للظالمين ، فلا تُبْقِى ولا تَذَرُ

لو لم يكن لك غيرَ الموت موعظةٌ لكان فيه عن اللذّاتِ مُزْدَجَرُ

إن الذين اشْتَرَوْا دنيا بآخرةٍ وشِقْوَةً بنعيمٍ ، ساء ما تَجَرُوا

أنتَ المَقُولُ له ما قلتُ مبتدِئاً «هَلاَّ ابتكرتَ لبَيْنٍ أنت مُبْتَكِرُ»؟

ومن شعره السائر قوله :

الجسم فى بلد والروح فى بلد يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد

إنْ تَبْكِ عيناكَ لى يامن كَلِفتُ به   من رحمة فهما سهمان فى كبدى

وقد عُمِّر حتى بلغ الثانية والثمانيين فقال :

كِلانى لما بى عاذِلَيَّ كفانى   طويتُ زمانى برهةً وطَوانى

بليتُ وأَبْلَتْنِي الليالى بِكَرِّها   وصَرْفانِ للأيام مُعْتَوِرانِ

وما لِيَ لا أَبْلَى لسبْعِين حِجَّةً   وعَشْرٍ أتتْ من بَعْدِها سَنَتَان

فلا تسألانى عن تباريح عِلَّتِي   ودونكما منّى الذى تَرَيانى

وإنى بحمد الله راجٍ لفضله   ولِى مِنْ ضمانِ الله خيرُ ضمانِ

ولستُ أبالى من تباريح عِلَّتِي   إذا كان عَقْلِي باقياً ولِسانى

هما ما هما فى كلِّ حالٍ تُلِمُّ بى   فذا صَارِمِي فيها وذاكَ سِنَانى

وقد ذكر المؤرخون أنه مات فى تلك السنة ، عن إحدى وثمانين سنة وثمانية أشهر وثمانية أيام . وقد حكى الحميدى أنه رأى شعره مجموعا فى نيِّفٍ وعشرين جزءا جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر .

ويظهر أنه كان فى شبابه ماجناً لاهياً شاربا غزلا ، فلما كبرت سنّه زهد ، وأصبح إمامُه فى الشعر ليس صريع الغوانى مسلم بن الوليد فى غزليَّاته ، ولا أبا نواس فى خمرياته ، إنما إمامه أبو العتاهية فى زهده وورعه ، وخوفه وتقواه ، فيقول مثلا :

بادِرْ إلى التَّوبة الخلْصاءِ مُبْتَدِئاً   والموت ويْحَكَ لم يَمْدُدْ إليْكَ يدَا

وَارْقُبْ من الله وعداً ليس يُخْلِفُه   لا بُدَّ لله من إنجاز ما وعَدَا

يا وَيلَنَا مِنْ موقفٍ ما بِهِ   أَخْوَفُ من أن يعْدِلَ الحاكِمُ

أُبارِزُ اللهَ بِعِصْيانِهِ وليس لى من دونه راحِمُ
يا رَبِّ غُفْرانك عن مذنبٍ أَسْرَفَ إلاَّ أنَّه نادِمُ

أتَلْهُو بَيْنَ باطيَةٍ وزير وأنتَ من الهلاك على شَفِيرِ
فيا مَنْ غَرَّهُ أملٌ طويلٌ يؤدِّيهِ إلى أجلٍ قصير
أتفرحُ والمنيَّة كلَّ يومٍ تُريك مكانَ قَبْرِكَ فى القبور
هى الدنيا فإنْ سَرَّتْكَ يَوْماً فإنَّ الحزنَ عاقبة السُّرُورِ
ستُسْلَبُ كلَّ ما جَمَّعْتَ منها كعاريةٍ تردّ إلى المُعيرِ
وتَعْتَاضُ اليقين من التَّظَنِّى ودارَ الحقِّ مِنْ دَار الغرور

وله جملة من الشعر فى العقد وفى يتيمة الدهر ، وفى تاريخ ابن الفرضى .
فنراه فى شعره مقيداً نفسه بموضوعات الشعر الشرقية ، لا يخرج عنها ، و ببحور الشعر المأثورة وقوافيه ، لا يخرج عنها أيضاً ، ونراه يعارض المشارقة و يسير فى ركابهم ، و يجتهد ما استطاع أن يأخذ معانيهم ، و يزيد عليها ، و يختار فى كل نوع من الشعر إمَاماً من المشارقة ، فطوراً إمامه صريع الغوانى ، وطوراً أبو نواس ، وطوراً أبو العتاهية وغيرهم . لم يتحرر تحرراً كافيا ، ولم يُصْغ إلى قلبه فقط ، وقد روى أن له شيئاً جديدا عن المشرق ، هى موشحاته ، ولكنه أيضاً يقلّد فيها من سبقه من الوشاحين الأندلسيين ، ولعل له شعرا يستقل فيه بنفسه لم يصل إلينا ، إذ كان له كما يقولون ديوان كبير يتألف من أجزاء . فحكمنا الذى نصدره على ما بين أيدينا حكم ناقص ، يحتاج إلى استقصاء أكثر ، أما ما بين أيدينا ، فشعره العاطفى من غزلٍ وزهدٍ وهجاء ، شعر جيد العاطفة ، قوىّ الخيال ،

رصين الأسلوب ، و إن كان يسقط أحياناً فى بعض أساليبه ، و بعض ألفاظه ، فكلمة مقلة بدل عين ليست كلمة شعرية ، وبعض الكلمات قُسرت قسراً على أن تكمل القافية ، ومعانيه لطيفة جيدة ؛ أما كلامه فى المديح ، فمتكلّف ليس فيه عاطفة ، إنما هو صادرٌ عن رغبة فى عرض من أعراض الدنيا ، وأرجوزته ليست بذات خطر شعرىّ . وأظن أننا لو عددناه من الطبقة الثانية فى الشعراء أجمعين ، لم نعْدُ الصواب ، ونعنى بالطبقات تقسيم الشعراء حسب الجودة ، لا حسب التواريخ ، وأجودهم أعلاهم . وأيًّا ما كان ، فقد أفسح المجال لمن يأتى بعده ، أن يحتذى ، أو يفوق عليه .

* * *

كان الغزال وابن عبد ربه من شعراء الدولة الأموية فى الأندلس ، وغيرهم من شعرائها كثير .

استمر حكم الأمويين فى الأندلس ، ما استقامت أمورهم ، وحكمها فى أول أمرها خلفاء عظاء ، مثل عبد الرحمن الداخل ، وعبد الرحمن الناصر ، والحكم ، وأمثالهم ، ولكن خلف من بعدهم خلف ضعيفو النفوس ، ينغمسون فى الشهوات ، فَفَسَد أمرهم . وأخذت الدولة الأموية فى الضعة ، وعمل على ذلك عوامل كثيرة ، منها ما كان يوقعه الخلفاء وعمّالهم على الناس من مظالم ، ومنها أن الدولة الأموية فى الأندلس عملت ما عمله الخلفاء فى بغداد ، هؤلاء اعتمدوا على الأتراك وملكوهم كل سلطة ، فكانوا وبالا عليهم ، وهؤلاء الأندلسيون اعتمدوا على الصقالبة ، وهى كلمة تجمع أسْرَى الحروب من الإفرنج ، وما كان يأخذه القراصنة من الأهالى الأوربيين ، فكان هؤلاء بعد حين قوة كبيرة فى الدولة تعيث فى الأرض فساداً ، ومنها أن عنصر البربر كان متعباً ، يتحيّن الفرصة دائما

للوثوب على الدولة ، والرغبة فى الاستقلال . . . يضاف إلى ذلك أن النصارى فى إسبانيا وفرنسا كانوا ينظرون إلى المسلمين من عرب و بربر على أنهم أعداء دين ، وغزاة فاتحون ، ودخلاء غاصبون ، فما يحسّ قوم منهم بقوة إلا ويهجمون على المسلمين حيثما استطاعوا ، فيقلقون راحتهم ؛ وكل ذلك أضعف الدولة من غير شك .

وزاد الطين بلّة أن ولّى آخِر الأمر هشام بن الحكم ، وكان طفلا فى نحو العاشرة من عمره ، بويع بالخلافة ، وعيّنت أمه « صُبْح » وصية عليه ، وهى نصرانية ناقارية ، ذات شخصية قوية . استطاعت أن تبسط سلطانها على زوجها الحكم ، وتتدخل فى شئون الدولة ، مع قوّته وعظمته ، فلما وجدت ابنها هشاماً طفلا صغيراً ، أعلى ذلك من شأن سلطانها ، بمعاونة صاحبها جعفر المُصْحفى ، ولكن سرعان ما ظهر فى الأفق رجل اسمه محمد بن عبد الله بن أبى عامر ، من أصل عربىّ قحّ ، كان جده من العرب الوافدين على الأندلس مع طارق ابن زياد . . .

درَس ابن أبى عامر هذا دراسة واسعة على نمط الدراسات فى الأندلس ، واتخذته « صُبح » هذه كاتباً لها أول الأمر ، قبل وفاة زوجها الحكم ، وعُيِّن فى بعض الأوقات رئيساً للزكاة والمواريث ، ثم توثقت الصلة بينه و بين « صُبح » وتمكّن فى قلبها ، وتمكنت فى قلبه ، فعيّنته حاجباً — أى رئيس وزارة — وأطلقت يده فى الحكم ، فتسلم كل أعمال الخلافة ، وحجر على هشام ، فلم يسمح له إلا باللهو واللعب ، ومغازلة النساء ، حتى ينهار ، ولكن لَغِطَ الناس كثيراً ، فهم قد ألِفوا البيت الأموى وأطاعوه قروناً ، والناس عبيد الإلْف لا يرضون أن يغيّروا من استعبدهم ، ولو ظلمهم . فعمل المنصور بن أبى عامر كثيراً فى إغداق الأموال ، وقتْل منافسيه أو تشريدهم ، وتنظيم الجيش ، عن عرب وبربر ، حتى جنّد فرقة

من النصارى ، وسيّرهم فى محاربة أهل دينهم ، ووضـع خطة جديدة ، وهى أنه لا ينتظر الإسبان ليهاجموا البـلاد ، بل يبدأ هو بالهجوم ، واتخذ سِمَـةَ المُلك ، وضُربت باسمه النقود ، ودُعى له على المنابر ، وأمر أن يحَيَّا تحية الملوك ، ووفقه الله فى الحروب ، فانتصر فى نحو خمسين غزوة . ومن غير شك إذا غَضَضنا النظر عن ألاعيبه مع « صبح » وحجره على الخليفة ، واختيار الخلافة لنفسه ، رأينا أنه كان رجلا عظيما ، استطاع أن يتغلب على كل العقبات ، وسَاسَ البلاد نحو عشرين سنة .

وقد سقنا هذه الأحداث التاريخية لأنها كانت ذات أثر فعّال فى الشعر . فالخلافة الأموية لما ضعفت ضعف الشعر ، كضعفه لما ضعفت الدولة العباسية . فلما جاءت الدولة العامرية ورأت أن تستعين بالشعراء فى تحويل أنظار الشعب عن الملوك الأمويين ، والاعتماد عليهم فى تحسين سمعتهم ، وتمجيد ذكرهم ؛ خصوصاً وقد أغدق عليهم ابن أبى عامر المال الجزيل — علا شأن الشعر بعد ضعفه . وقد روى أنه كان يستعين بالشـعراء فى إعلاء شأنه ، ويأخذ معه طائفة منهم فى غزواته . فعاد شأن الشعر رفيعاً كما كان فى عهـد الدولة الأموية أيام عزّها ، ورأينا أمثال ابن شُهَيْد ، وابن حزم ، وابن دراج — وحكى المقّرى أن الشعراء اجتمعوا مرة لمديح المنصور ، وكان فيهم الرمادى الشاعر الـكبير فأعطاه ، ثم سأله . كيف عطائى لك ؟ قال الرمادى : « أعطيتنى فوق قدرى ودون قدرك » . فغضب المنصور ، فلما خرج الرمادى ، كان فى المجلس من يحسده على مكانه ، فوقع فيه ، وعابه ، فنهره المنصور ، وأحقّه فيما قال ، وقال : والله لو حكّمته فى بيوت الأموال لرأيت أنها لا ترجع ما تكلّم به ذرّة ، وأنبّه على ذلك ، ثم أمر أن يردّ الرمادى وطلب منه أن يعيد ما قال ، وزاد فى عطـائه ، والتفت إلى العائبين عليه وقال : العجب من قوم يقولون : الابتعاد عن الشـعراء أولى من

الاقتراب . نعم : ذلك لمن ليس له مفاخر يريد تخليدها ، ولا أيادٍ يرغب فى نشرها ، فأين الذى قيل فيه :

إنما الدنيا أبو دُلَفٍ بين باديهِ ومُحتضرهْ
فإذا ولّى أبو دلَف وَلّتِ الدنيا على أثَرهْ

لقد كان فى الإسلام أكرم منه ، ولكن خلّدته الأمداح ، وخصّته بمفاخر عصره[1] .

قال فى المعجب : « إن المنصور بن أبى عامر كان يعقد طول أيام مملكته فى كل أسبوع مجلساً ، يجتمع فيه أهل العلم للمناظرة بحضرته ، ما كان مقيما بقرطبة ، وكان كثير الغزوات ، وملأ الأندلس غناء ، وسبياً من بنات الروم وأولادهم ونسائهم ، وفى أيامه غالى الناس بالأندلس فيما يجهزون به بناتهم من الثياب والحلى والدروع ، وذلك لرخص أثمان بنات الروم ، فكان الناس يرغّبون فى بناتهم بما يجهزونهن به مما ذكرنا ، ولولا ذلك لم يتزوج أحدٌ حرة ؛ بلغنى أنه نودى على ابنة عظيم من عظماء الروم بقرطبة ، وكانت ذات جمال رائع ، فلم تساو أكثر من عشرين ديناراً »[2] . وقد روى لنا فى موضع آخر مثلا من أمثلة هذه المناظرات ، فقال مثلاً : « إن أبا العلاء صاعداً سأل جماعة من أهل الأدب فى مجلس المنصور ابن أبى عامر عن قول الشماخ :

دارُ الفتاة التى كنّا نقول لها يا ظَبْيَةً عُطُلاً حسّانةَ الجيدِ
تُدْنِى الحمامة منها وهْى لاهيةٌ من يانع المرْدِ قِنْوَانَ العناقِيدِ

ما هى الحمامة ؟ قالوا : هى الحمامة تنزل على غصن الأراكة أو الكرمة ،

---

(١) انظر الحكاية بطولها فى الجزء الثانى من نفح الطيب الطبعة الأميرية .
(٢) ص ٣٨ من المعجب المطبوع فى القاهرة .

فتَنْفضه ، فتتمكن الظبية منه فترعاه . فأنكر ذلك عليهم صاعد وقال : إن الحمامة فى هذا البيت هى المرأة ، وهى اسم من أسمائها . فأراد أن هذه الجارية المشبهة بالظبية ، إذا نظرت فى المرآة أدْنَتِ المرآة من شعرها الذى هو كقنوان العناقيد من يانع الكرم أو المرد فرأته . وهذا يعطينا مثلا من أمثلة ما كان يجرى فى مجلس ابن أبى عامر من المناظرات .

ولما مات المنصور تولّى الإمارة من بعده ابنه إلى باقى أسرته ، وسمِّيت دولتهم الدولة العامرية .

ومع كل ما تقدم ظل قوم طول مدة دولتهم يدبرون المكائد لإسقاط العامريين وإعادة الأمويين ، ولذلك كانت أكبر تهمة يَتّهم بها الرجلُ أعداءه عند المنصور وأولاده ، أنه أموىّ ، أو أن له ميلا أمويا ، أو أنه يعمل مع المتآمرين لإرجاع الدوله الأموية ، وأخيراً رجعت الدولة الأموية إلى حين . ولكن لم تدم طويلا .

وإتماما لهذا نقول : إنه أثناء هذه الفتن فى قرطبة ، وإشبيلية كان هناك رجل اسمه « ابن جهور » لم يدخل فى فتن الناس ، فلفت أنظارهم فساروا إليه ، يطلبون توليته قرطبة ، فرفض أولا ، ثم قبل على شرط أن يكوّن حوله مجلساً شوريّا لا يقطع أمراً دونه . وسار سيراً عادلا ، وكسّر دِنَانَ الخمر ، وغسل يده من مال الدولة ، فوكّل عليه من يحفظه ، وظل فى مسكنه ، ولم يرض أن ينتقل إلى مساكن الخلفاء قبله ، ورفع المظالم عن الناس . وكلما ورد عليه طاب خاص حوّله على مجلس الشورى للنظر فيه ، وحسَّن العلاقة بينه وبين الممالك المجاورة ، وظل هو الآخر يخشى من الدسائس التى تريد عودة البيت الأموى . وفى هذا العهد تفرقت الأندلس بعد الخلافة الأموية والدوله العامرية ، وتفرق أهلها شيعاً ، وقام فى كل ناحية أمير ودولة ، وسمّى هذا العهد لأجل ذلك ، « عهد

ملوك الطوائف » . قال ابن حزم : « كانت طرطوشة ، وسرقُسطة ، ولارِدة في يد بني هود ، وبلنسية في يد عبد العزيز ، والثغر — أى ما فوق طليطلة من جهة الشمال — في يد بني رزين ، وطليطلة في يد ذى النون ، وقرطبة في أيدى أبناء جهور ، وإشبيلية في يد بني عباد ، ومالقة والجزيرة الخضراء في يد بني برزال من البربر ، ودانيَهْ والجزائر الشرقية في يد مجاهد العامرى ، و بطلْيَوس ولشبونة وشَنتَرِين في يد بني الأفطس » .

وكل هذه الأحداث والاضطرابات والفتن كان لها دخل كبير في سيرة الشعراء الذين سنتكلم عنهم ، كابن درّاج القسطلى ، وابن شُهيد ، وابن حَزم ، وابن زيدون . وسنلقى في سيرهم كلهم أحداثاً وأشعاراً ، لا نستطيع أن نفهمها إلا بفهمنا هذا الوضع السياسى .

ابن درّاج القسطلى

هو أبو عمر أحمد بن محمد ، ولد سنة ٣٤٧ ومات سنة ٤٢١ هـ ، يعدّ من كبار شعراء الأندلس ، أو أكبر شاعر في عصره . وقد قال تلميذه ابن حزم : « إنه في المغرب ، كالمتنبي في المشرق » . واشتهرت هذه الجملة ، فكانت على لسان كل من ترجم له . ووصل شعره إلى المشرق ، فمدحه الثعالبي في اليتيمة وقال هذا القول .

والحق أنه كان هناك بذور في الأندلس مشرقية مختلفة الأنواع . فأخذ كل شاعر أندلسى البذرة التى تناسبه ، وامتصت من نفسه كل ما يناسبها . هذا يألف شعر أبي نواس فيقلده ؛ وهذا يألف شعر المتنبي فيحاكيه ، وهذا يألف شعر العباس ابن الأحنف فيتشبه به . وكان ابن دراج هذا على رأس أربعين شاعراً تقريباً يمدحون المنصور بن أبي عامر ، ويأخذهم معه في غزواته ، فكان أيضاً ممن مدحه ، وكان في ديوان الإنشاء له ، وشعره تقريبا كله أو أكثره فيما وصل إلينا مديح أو وصف أثناء المديح . فكما مدح المتنبي سيف الدولة ، ثم

كافوراً ، ثم عضد الدولة ، مدح ابن درّاج المنصورَ ومن بعده . وهذا أيضاً وجه شبه آخر . وهو من أصل بربرى ، وُلد فى قسطلة من أعمال البرتغال .

وكان للمنصور بن أبى عامر مجلس تتبارى فيه الشعراء ، فكان هو من أعظمهم ، وإن شئت فقل أعظمهم . وكما حُسد المتنبى حُسد هو ، واتهموه بأنه سرّاق لمعانى غيره ، فردّ عليهم بقدرته على الارتجال فيما يقترح عليه . ومن أحسن قصائده قصيدة قالها عند فتح المنصور « شَنْتِيَاقُوب » ، وقد مدحها مدحاً كبيراً ابن حزم .

وبعد موت المنصور بن أبى عامر كان شاعر البلاط لابنه المظفّر ، وبسقوط الدولة العامرية اتصل ببقايا الدولة الأموية التى عادت من بعد . ثم رأيناه يذهب إلى بَلَنْسِية ، ثم سرَقُسطة ، ويمدح أميرها المنذر بن يحيى الذى آواه وأكرمه ، وبقى عنده حتى مات ؛ ومدحه أيضاً ابن خلدون فى مقدمته ، وعدّه من كبار أدباء الأندلس . والحق أن شعره كما سترى يشبه شعر المتنبى فى المظهر ، دون المخبر . فشعر المتنبى فى مظهره أسلوب فخم قوى ، تسمعه كأنه قعقعة سلاح ، ومكنته قدرته على أن يأتى بألفاظ جزلة ، وأساليب عربية يستطيع أن يرغمها على التقديم والتأخير ، والذكر والحذف . الخ . ولكن لم يكن لابن دراج قوة المتنبى فى المعانى الذهنية الدقيقة ، ولا فى حِكَمه الرفيعة ، إنما هو تلميذ المتنبى فى فخامة شكله . وهى مدرسة كان على رأسها ابن درّاج ؛ ومن تلاميذها ابن شُهيد ، وابن هانئ ؛ وقد قال المعرّى فى ابن هانئ : « إن شعر ابن هانئ يشبه رحًى تطحن قروناً » أى أنه قعقعة ولا طحن ، أو طحن من غير جدوى .

وفى الحقيقة أنك إذا قرأت شعر هؤلاء الثلاثة أدركت أن شعرهم من رأسهم . على حين أنك تشعر أن شعر الغزّال وابن زيدون الذى سيأتى بعد وأمثالها من قلبهم لا من رأسهم . وفرق بين الصوت القوى الأقرع الذى يخرج

من الرأس ، و بين الصـوت الحنون الذى يخرج من القلب . ومن السهل تقسيم الشعر الأندلسىّ ، بل والشعر العربى عامة إلى مدارس : فهؤلاء الثلاثة مدرسة ، وابن عبد ربه والغزال وابن زيدون مدرسة أخرى .

وقد رُوى أن لابن درَّاج ديوانا من جزأين ولـكن مع الأسف لم يصل إلينا ؛ وقد روى لنا صاحب نفح الطيب قطعتين فى المديح ، وشاد بذكرها ، أولاها :

ألم تعْلَمى أن الثّواء هو التّوَى[1] ... وأن بيوت العاجزين قُبُورُ
وأن خطـيرات المهالك ضُمَّنٌ ... لراكبها أنّ الجزاء خَطـيرُ
تُخَوِّفُنى طُول السِّفَار وإنّه ... بتَقْبيلِ كَفِّ العامرىّ جَدِيرُ
مُجِيرُ الهُدى والدِّين من كلّ مُلْحِدٍ ... ولَيْسَ عليه للضـلالِ مُجيرُ
تلاقت عليه من تميم ويَعْرُبٍ ... شُمُوسٌ تَلاَقَى فى العُلا وبدُورُ
همُ يستقلّون الحيـاة لراغبٍ ... ويستصغرون الخطْبَ وهو كبيرُ
ولَمَّا توَافَوْا للسـلام ورفِّعَتْ ... عن الشَّمْس فى أفق الشُّروق ستُورُ
وقد قام مِن زُرْقِ الأسنَّةِ دونها ... صفوفٌ ومن بيض السيوف سُطُورُ
رأوْا طاعةَ الرحمن كيف اعْتزازها ... وآيات صنع الله كيف تُنـيرُ
وكيف استوَى بالبرِّ والبحر مَجْلِسٌ ... وقام بعبءِ الراسياتِ سَرِيرُ
فجاءوا عِجَالاً والقلوبُ خوافِقٌ ... وَوَلَّوْا بِطَاءً ، والنَّواظِرُ صُورُ
يقولون والإجلالُ يُخرسُ ألْسُناً ... وحارت عيونٌ مِلْئَهَا وصُدُورُ
لقد حاط أعلامَ الهدى بكَ حائطٌ ... وقدَّرَ فيكَ المكرماتِ قَدِيرُ

---

(١) الثواء : الإقامة . والتوى : الهلاك : أى أن البقاء فى مكان واحد خمود وهلاك .

قالتْ وقَدْ مزجَ الفراقُ مدامعاً بمدامعٍ ، وترائباً بترائِبِ
أتفرقٌ ، حتى بمنزلِ غُربةٍ أمْ نحنُ للأيّام نُهْبَةُ ناهبِ
ولئن جنيتُ عليكِ نزْحَةَ راحلٍ فأنا الزّعيمُ لها بِفرْحَةِ آيبِ
هلْ أبصرتْ عيناكِ بدراً طالعاً فى الأفْقِ إلاّ من هلالٍ غاربِ

قال ابن شُهيد وهو من هو : « الفرق بين ابن درَّاج وغيره ، أن ابن درّاج مطبوع النظام ، شديد أسْر الكلام ، زاد فى أشعاره من الدليل على العلم بالخبر واللغة والمثل ، وما تراه من حَوْكه للكلام ، وملكه لأحرار الألفاظ ، وسعة صدره ، وجَيْشة بحره ، وصحة قدرته على البديع ، وطول طَلَقِهِ فى الوصف ، وبُغْيته للمعنى وترديده ، وتلاعبه به وتكريره ، وراحته بما يتعب الناس ، وسعة نفَسه فيما يُضيّق الأنفاس » . ومن شدة متابعته للمتنبى أنه رأى المتنبى يمدح ابن العميد فيقول :

مَنْ مُبْلِغُ الأَعْرابِ أنى بعدها جالَسْتُ رَسْطاليس والإسكندرا
ولقيتُ بَطليموسَ دارس كتبه متبدِّياً فى ملكه ، متحضِّرا
ولقيتُ كلَّ الفاضِلين كأنما ردّ الإلهُ نفوسهمْ والأعْصُرَا

فقال ابن درَّاج :

أبنىَّ لا تذهبْ بِنفسِك حسرةً عَنْ غَوْلِ رَحْلى منجِدًا أو مُغْورا
فلئنْ تركتُ اللّيل فوقَ دَاجياً فلقد لقيتُ الصبحَ بعدكَ أزْهَرَا
وحلَلْتُ أرضاً بدِّلتْ حَصْبَاؤُهَا ذهباً يرفُّ لناظرىَّ وجوهَرَا
ولتعلم الأمْلاكُ أنى بعدها ألفَيْتُ « كل الصَّيْدفى جوفِ الفرا »
ورَمى علىّ رداءه من دُونِهم ملك تُخُيِّرَ للعلا فتَخيَّرَا

كلَّا وقد آنستُ من هُودٍ هُدًى ... ولقيتُ يَعْربَ فى القُيُولِ وَحِمْيَرَا

وأصبْتُ فى سَبَأٍ مورِّث مُلكها ... يَسبِي الملوكَ ، ولا يَدُبُّ له الضَّرَا

فكأنما تابعْتُ تُبَّع رافعاً ... أعلامَه مَلِكاً يدين له الورَى

وحطَطْتُ رحْلِي بين نارى حَاتِمٍ ... أيام يَقْرى مُوسراً أو مُعْسِرَا

وأَتَيْتُ نَجْدَكَ وهْو يرفع مِنْبَرَاً ... للدّينِ والدنيا ، ويخفض منبرَا

تلك البدور تتابعتْ وخلفْتَها ... سعياً ، فكنتَ الجوهرَ المتَخيَّرا

فترى من هذا محاكاته للمتنبي فى الوزن والقافية ، وتقليده له فى أسلوبه ومعانيه . . وقد وصف الأسطول وصفاً لطيفاً إذ قال :

إليك شَحَنَّا الفلكَ تهوى كأنّها ... وقد ذُعِرَتْ من مغرب الشمس غِرْبانُ

على لجج ٍ خُضْرٍ إذا هَبَّتِ الصَّبا ... ترامَى بنا فيها ثَبيرٌ وثَهْلَانُ

مَوائِلَ تَرعَى فى ذراها مَوائِلاً ... كما عُبِدَتْ فى الجاهليَّةِ أوثانْ

يُرَدِّدْنَ فى الأحْشاء حرَّ مصائبٍ ... تَزيدُ ظلاماً ليلها وهْى نيرانُ

إذا غِيضَ ماءُ البحر منها مَدَدْنَهُ ... بدَمْعِ عيونٍ تَمْتريهنّ أشجانْ

وإنْ سكَنَتْ عنها الرّياح جَرَى بها ... زفيرٌ إلى ذكرى الأحبَّةِ حنّانْ

يَقُلْنَ ومَوْجُ البحر والْهمِّ والدُّجَى ... تموجُ بنا فيها عيُونٌ وآذانُ

ألاَ هلْ إلى الدنيا معادٌ وهلْ لنا ... سوى البحر قبرٌ أوسوى الماء أكفانُ ؟

. . . . الخ . . .

وحتى هذا الوصف الجميل للأسطول إنما ورد أثناء مدحه للأمير ، وكذلك وصفه لأشياء أخرى ، فهو قد جنى على نفسه بتوجيهها إلى المديح فقط ، والمديح

غالباً لا ينبع من القلب ، وإنما ينبع من غريزة الطمع ؛ وحتى الأسطول والإشادة به ، كان أولى أن يشاد بعظمته ، لا أنه من نتاج أمير ، بل لأنه دليل على عظمة الأمة وقوتها ، واعتزازها بأدوات القتال المتنوعة[1] .

ابن هانئ الأندلسى

يلقّب بابن هانئ الأندلسى ، تمييزاً له عن ابن هانئ المشرق وهو أبو نواس ، وقد ولد فى قرية من قرى إشبيلية بالأندلس نحو سنة ٣٢٠ ، وعدّه بعضهم أشعر شعراء الأندلس من المتقدمين والمتأخرين ، وقال عليه : إنه متنبى المغرب ، وهو من أصل أزدىّ يمنىّ ، حتى قالوا : إنه من نسل المهلّب ابن أبى صفرة ، وهو كذلك أزدىّ ، ولذلك توصف قصائده بأنها أزدية يمنية . اتصل بصاحب إشبيلية أول أمره فأكرمه ، وأقام معه زمانا ، ثم غضب الناس عليه لاتهامهم إياه بالفلسفة ، ويظهر ذلك من مزجه الدعوة الفاطمية فى شعره بشىء من التفلسف . وكانت الفلسفة فى جوّه مكروهة . والظاهر أنهم نقموا عليه دعوته الفاطمية ، وهم ذوو نزعة أموية ، وتعددت نقمتهم عليه إلى ملك إشبيلية فأشار عليه بالمغيب عن البلدة مدة ينسى فيها خبره . فخرج إلى المغرب ، ولقى القائد جوهرا ، ومدحه فأعطاه مائتى درهم ، فاستَقلّها . وأخيراً بلغت مقدرته الشعرية المعزّ لدين الله فاتح مصر ، فبالغ فى إكرامه ، ورأى أنه إن فتح مصر احتاج إليه كثيراً فى مدحه وإعلاء شأنه ، كما يحتاج الفاتحون عادة إلى الجرائد . فأكرمه إكراما عظيما ، وأهدى إليه تحفاً كثيرة ، وأقام له قصراً فى القيروان ، ودعاه إلى أن يسافر معه فى فتح مصر ، فطلب أن يتخلف قليلا حتى يعدِّل أمره ، ويصطحب أهله . فلما وصل إلى برقة أضافه شخص من أهلها ، ثم عربَدُوا عليه فقتلوه وهو سكران ،

(١) انظر جملة أخرى صالحة من شعره فى يتيمة الدهر للثعالبى والذخيرة لابن بسام .

وقيل إنه وُجِد فى ساقية من سواقى برقة مقتولا . ويظهر أن دعاة الأمويين خافوا من دعوته الشيعية الفاطمية ، وكرهوا ذلك منه فقتلوه ، وذلك سنة ٣٦٢ ، فيكون عمره إذ ذاك نحو اثنتين وأربعين سنة . وقد أجمع المؤرخون على أنه من فحول الشعراء . قال ابن الخطيب . . . « كان ابن هانئ من فحول الشعراء ، لا يدرك شأوه ، ولا يشق غباره ، مع المشاركة فى العلوم » وقال ابن شرف : « إنه نجدىّ الكلام ، سردىّ النظام ، وإذا ظهرت معانيه فى جزالة مبانيه ، رمى بها عن منجنيق لا يؤثر فى النفيق . وله غزل معَدّىّ[1] ، لا عُذْرى . . . كان فى دينه فى أسفل منزلة ، ولو عقل ما ضاقت عليه معانى الشعر ، حتى يستعين عليه بالكفر » . ويقول ابن رشيق فى تعداد أصناف الشعراء « وفرقةٌ أصحاب جلَبة وقعقعة بلا طائل معنى ، إلا القليل النادر ، كأبى القاسم ابن هانئ ومن جرى مجراه ، فإنه يقول أول مذهّبته :

أصاخَتْ فقالت : وقْعُ أَجْرَدَ شَيظَمِ ... وشامتْ فقالت : لَمْعُ أبيض مِخْذَمِ

وما ذعرت إلاَّ بِجَرْسِ حُلِيّها ... ولا رمقَتْ إلا بُرًى فى مُخَدَّمِ[2]

---

(١) نسبة إلى معد وهو اسم ممدوحه المعز لدين الله .

(٢) أصاخت : أصغت . والشيظم : الطويل الجسيم من الناس والخيل والإبل . والمخذم : القاطع من السيوف . والجرس الصوت الخفىّ ، والبُرى والبُرين ، جمع برة وهى كل حلقة من سوار وقرط وخلخال . وهى أيضا حلقة تجعل فى أنف البعير ، والمخَدّم موضع الخلخال من الرجل . والمعنى : أن العشيقة المتزوجة التى بجانب زوجها أو حارسها إذا أحست بأن عاشقها واصل إليها وعازم على قتال بعلها وهى تعلم أن عاشقها شجاع قوى ، عندما تسمع صوت حليها تتوهمه وقع أرجل فرس ، وإذا نظرت إلى خلخالها تخيلته لمع سيف ، فصوَّر الشاعر صورة فزعها تصويراً لطيفاً ، لأن الخائف يتخيل ما لا حقيقة له . أخذ ذلك من قول جرير :

ما زِلْتَ تحسِبُ كلّ شىء بعدهمْ ... خَيْلاً تكرُّ عليهِمُ ورجالا

وقول المتنبى :

يرون من الذعْرِ صَوْتَ الرِّياحْ ... صهيلَ الجيادِ وخَفْقَ البُنُودْ

وليس تحت هذا كله إلا الفساد وخلاف المراد . وما الذى يفيدنا أن تكون هـذه المنسوب بها لبست حليها فتوهّمته بعـد الإصاخة والرمق وقع فرس ، أو لمع سيف » .

والحق أن شعره فخم ضخم مملوء بالقعقعة ، جاهلىّ الأسـلوب ، يشبه فى ذلك المتنبى ، غير أن المتنبى أدق معنى ، وابن هانئ أطول نفساً . وسمّيت قصيدته هذه مذهّبة ، لأنه أنشأها على نحو معلقة عنترة ، وكانت المعلقات تسمّى المذهّبات . وقال فيه ڤون كريمر الألمانى « إنه قوى البيان ، كثير التمثيل ، جيد الألفاظ ، حسن الوصف ، لا يقدر على مسايرته فى هـذا الوصف إلا القليل » .

وأكثر شعره فى مدح الفاطميين ، وإشاعة محامدهم ، ومن قرأ شعره يرى أن فيه خصائص :

(١) أن من فهم كلامه بعد التعب ، تلذذ من شعره ، وأعجب بفنه .

(٢) طول نفسه . فهو يتعرض للمعنى حتى يصفّيه ، شأن ابن الرومى لولا كثرة غريبه .

(٣) عنايته بالمقابلة بين الشطر الأول ، والشطر الثانى فى كثير من أبياته مثل قوله :

فَفِى نَاظِرِى عَنْ سواكُمْ عَمًى ... وفى أُذُنِي عَنْ سواكُمْ صَمَمْ

ولا كلّ ما فى أكفّ نَدًى ... ولا كلُّ ما فى أنوفٍ شَمَمْ

فما فارَق البشْر لما اكْفهرّ ... ولا نَسِىَ العفو لمـا انتْقمْ

(٤) شَبَه شعره بالشعر الجاهلىّ فى القوة ، ومتانة السّبك ، وقدرة استخدام الألفاظ ، وبساطة المعانى عند فهمها .

(٥) اتصال شعره اتصالا كبيراً بالدّين ، إذ كانت دعوته فاطمية فكان

متأثرا بتعاليمهم ، متعمّدا نشرها بين قرائه . ويقع أحيانا على معان كثيرة عرض لها المتنبي ، فمثلا يقول المتنبي :

كل حِلْم أتى بغير اقتدارٍ ٠ حجّةٌ لاجِئٌ إليها اللّئام

ويقول ابن هانئ :

وكلُّ أناة فى المواطِنِ سؤددٌ ولا كأناةٍ من قدير محكَّمِ

ويقول المتنبي :

وإذا خامر الهوى قلبَ صَبٍّ فعليه لكل عَيْن دَلِيلُ

ويقول ابن هانئ .

ألَمْ يُبْدِ سرَّ الحبِّ أن من الضنا رقيبًا وإن لم يهتِكِ السِّرَّ هاتكُ ؟

ويقول المتنبي :

يكاد من صحّة العزيمةِ مَا يفعل قبل الفعال يَنْفَعِل

ويقول ابن هانئ :

عرفْتَ فى كلّ صنْعِ الله عارفةً فما تهمُّ بأمرٍ غير منفَعِلِ

والقارئ لديوانه يرى تعاليم الشيعة مبثوثة فيه ، فشروط الدعوة والإمام المعصوم ، وحقه فى الخلافة ، وبطلان الدعوة العباسية . وكل الاصطلاحات الإسماعيلية مبثوثة فى ديوانه ، فهو يضفى على الممدوحين من الخلفاء صفة التقديس تقريبا ، فيقول مثلا :

وما هو إلّا أنْ يُشير بِلَحْظِه فَتَمْخُرَ فُلْكٌ أو تهزَّ مقانيبُ[1]

هو علة الدنيا ومن خلقتْ له ولعــلّةٍ مّا كانت الأشياء

(١) انظر ديوان ابن هانئ . نشر الدكتور زاهد على .

من صَفْوِ ماء الوحْيِ وهْىَ مُجاجَةٌ من حَوْضِهِ اليَنبُوعُ وهو شفاء

واتبع تعاليم الشيعة فى القول بتقديس الإمام ، وأن فيه قبسًا من نور الله :

هـــذا أمين الله بين عباده وبلاده إن عُدّت الأمَنَاء

هو الوارث الأرض عن أبَوَيْنِ أبٍ مصطفًى وأب مُرْتَضَى

بالله من سبب بالله متّصـــلٍ وظلّ عدلٍ على الآفاق ممـدودِ

هذا الشـــفيع لأمّةٍ تأتى به وجدودُه لجدودها شـــفعاء

وهم يقولون بعصمة الإمام :

مَن كان سِيمَا القدس فوق جَبينِه فأنا الضَّمينُ بأنه لا يَجْهَـلُ

مُؤيَّدٌ باختيار الله يَصْحَبُه وليس فيما أراه الله من خَلَلِ

والإمام قد عصمه الله ، وهو مظهر من نور الله :

وما كُنْهُ هـذا النور نور جبينِه ولـكنَّ نور الله فيـه مشارِكُ

وبذا تلقَّى آدَمُ من ربِّه عفواً وفاء ليونُسَ اليَقْطِين

لو كان عامك بالإله مقسَّمًا فى الناس ما بعث الإله رســولا

لو كان لفظُك فيهـمُ ما أنـــزل القرآن والتَّـوراة والإنجيلا

هذا ضميرُ النّشْـأة الأولى التى بدأ الإله وغَيْبُها المـكْنُونُ

من أجل هذا قُدِّرَ المَقْدُورُ فى أمِّ الـكتاب وكُوِّن التـكوين

ويقول :

تالله لو كانت الأنواء تُشْبِهُهُ ما مَرَّ بُؤْسٌ على الدنيا ولا قَنَطُ

أَبْدَى الزمانُ لنا مِن نُورِ طَلْعَتِه عن دوْلةٍ ما بها وَهْنٌ ولا سَقَط

إمامُ عدل وفَى فى كلِّ ناحيةٍ كما قَضَوْا فى الإمام العدل واشترطوا

قد بانَ بالفضل عن ماضٍ ومؤتنَف كالعقْد عن طَرَفَيْهِ يفضُلُ الوَسَط

لا يغتدى فَرِحًا بالمال يَجمَعُه ولا يَبيتُ بدنيا وهْوَ مُغتبط

إن الملوك وإنْ قِيسَتْ إليكَ معاً فأنت من كَثْرةٍ بحْرٌ وهمْ نُقَطُ

ويقول :

ولم أجِدِ الإنسانَ إلا أبنَ سعْيِه ومَن كان أسمى كان بالمجد أجدرا

ويقول :

فليس لمن لا يرتقِى النجمَ هِمَّةً وليس لمن لا يستفيدُ الْغِنَى عُذْرُ

ويقول :

صَدَق الْفناء وكُذِّب الْعُمْرُ وجَلا الْعِظاتُ وبالَغَ النُّذْرُ

إنَّا وفى آمال أنفُسِنا طُولٌ وفى أعمارنا قِصَرُ

لنَرَى بأعيُنِنا مَصَارِعَنا لو كانتِ الألباب تعتَبِر

ويصوّر ابن هانئ مجلساً من مجالس الشراب أحسن تصوير فى قصيدته المعروفة بقصيدة النجوم فيقول :

أَلَيْلَتَنَا إذْ أرسَلَتْ وَارِداً وَحْفَا وبِتْنَا نرى الجوْزاء فى أُذْنِها شَنْفَا[1]

---

(١) الوارد من الشعر : الطويل المسترسل ، ووحف الشعر والنبات وحفا ، كثف واسودّ . والشنف : القرط الأعلى — والمعنى : جعل الليل امرأة وظلامه شعر رأسها الطويل ، وجعل الجوزاء شنفها فى أذنها .

وباتَ لنا ساقٍ يقومُ على الدُّجَى بشَمْعَةِ نجم لا تُقَطُّ ولا تُطفَا(١)

أغَنُّ غَضيضٌ خَفَّفَ اللّين قَدَّهُ وأثقَلَتِ الصهباء أجفانَهُ الوُطْفَا(٢)

ولم يُبْقِ إرعاشُ المُدَامِ له يَدًا ولم يُبْقِ إعناقُ التَّثَنِّى له عِطْفَا(٣)

يقولون حِقْفٌ فوقه خيزُرانَةٌ أمَا يعرفون الخيزرانة والحِقْفَا(٤)

جَعَلْنَا حشايانا ثيـــاب مُدامِنَا وقَدَّتْ لنا الظَّلْماء من جِلدها لُحْفَا(٥)

فمن كبِدٍ تُدْنِي إلى كبدٍ هَوًى ومن شَفَةٍ تُوحِي إلى شفَةٍ رشْفَا(٦)

بعيْشِك نَبِّه كأسَـــه وجُفونَهُ فقَدْ نُبِّهَ الإبريقُ من بَعْدِ ما أغْفَى(٧)

---

(١) قَطَّ القلم والفتيلة ، قطع رأسه عرضا . وعلى الدجى بمعنى فى الدجى . أى بات لنا ساق يسقينا الخمر فى الليل المظلم الذى لا ضوء فيه إلا ضوء نجم كأنه شمعة ، لا تحتاج إلى القط ولا الطفى . وكانوا يشربون الخمر فى أواخر الليل حين يختلط ظلامه بنور الصبح .

(٢) الأغن ، ذو الغنّة ، وهو صوت من اللّهاة والأنف ، والغضيض الطرف الفاتر المسترخى الأجفان . والصهباء الخمر . والوُطف جمع أوطف ، من الوطف وهو : كثرة شعر الحاجبين والعينين ، والمعنى أن الساقى ليس من العرب ، بل من قوم فى لسانهم غنة وقد اشتهر الفرس بتجارة الخمر .

(٣) المُدام : الخمر . وأعنت عليه ، أدخل عليه مشقة شديدة . والعطف الجنب والمعنى : يصف شدة ارتعاش يد الساقى وتمايل جنبه ، كأنه فقد توازنه .

(٤) الحقف : ما اعوجّ من الرمل واستطال . والجمع : أحقاف ، والمعنى : شبه ردف الساقى ، بكثيب رمل ، لكبره ، كما شبه قدّه الأعلى بخيزرانة ، لدقته واستوائه . والمراد أن هذا الكثيب والغصن أحسن من الكثيب والغصن المعروفين .

(٥) الحشايا : الفراش المحشو بالقطن ونحوه ، إذا ملئت ، وقدّ الشىء : قطعه مستأصلا . واللُّحف جمع لحاف ككتب وكتاب . والمعنى : لم يكن عند الشراب فراش نضطجع عليه ، ولا لحاف نلتحف به . فجعلنا الثوب الذى شربنا فيه الخمر فراشنا ، والظلام الذى قضينا فيه الليل لحافنا . أى أنا قضينا الليل فى شرب بلا فراش ولا لحاف .

(٦) الرشف : مصّ الماء بالشفتين . أى أن الخمر تقرّب حب كبد إلى كبد ، وتبلغ خبر رشف من شفة إلى شفة . يعنى أن شرّاب الخمر بعضهم أحباء بعض .

(٧) غفا الرجل : نام نوماً خفيفاً ، وهو يخاطب نديمه فيقول : بحقك نبه الساقى من سكرة الخمر ، واحمله على إدارة الكأس ، فقد انكشفت أفواه الأباريق عما كان عليها من فِدام .

وقدْ فَكّتِ الظَّلماء بعض قُيودها وقد قام جيش اللَّيل للفَجْرِ واصْطَفَّا(١)
وَوَلّتْ نجومٌ للثُّريَّا كأنَّها خواتيمُ تبدو فى بنَانِ يدٍ تخفَى(٢)

ومما استحسنوا له :

ولمّا التقَتْ ألحاظُنَا وَوُشاتُنَا وأعْلَنَ سِرٌّ الوشْيِ ما الوشْيُ كاتِمُ
تأوّه إنْسِيٌّ من القِدْر ناشِجٌ فأسْعَدَ وَحْشِيٌّ من السِّدْرِ باغِمُ(٣)

مُؤيّدُ العَزْمِ فى الجُلَّى إذا طرَقَتْ مُنَدَّدُ السَّمْعِ فى النّادى إذا نودِى(٤)
لكلِّ صَوْتٍ مجالٌ فى مسامِعِهِ غيْرِ العنيفَيْنِ من لوْمٍ وتفْنِيدِ(٥)
وعِنْدَذِىالتّاج بيضُ مكرُمات وما عندِى له غير تمجيدٍ وتحْمِيدِ
أتبَعتُه فِكَرِى ، حتى إذا بلغتْ غاياتِها بين تصْوِيبٍ وتَصْعيدِ(٦)
رأيتُ موْضِعَ بُرهانٍ يَبينُ وما رأيتُ موْضع تكييفٍ وتحديدِ(٧)

---

(١) جعل الفجر والليل جيشين يقاتل أحدهما الآخر ، هذا بضوئه وذاك بظلامه ، فانهزم الظلام وغلب الضوء .

(٢) أى غربت نجوم الثريا ، وكانت كخواتم فى بنان يد خفية ، أى كانت كخواتم بلا بنان يد .

(٣) الوشى : الحلية على الثياب ، وتأوّه ، شكى وتوجّع ، والناشجُ من غص بالبكاء فى حلقه من غير انتحاب ، ونشيج القدر غليانها ، والسدْر شجرة النبق ، وباغم أى لا ينطق بوضوح . والمعنى لما اجتمعنا نحن والوشاة معا ، واطلعوا على سر حبنا المكتوم تأوّه على حبنا ناشج من القدر ، وأعانه على تأوهه ظبى باغم من السدر .

(٤) الجلى : الخطب العظيم ، والتنديد رفع الصوت . والمعنى : عزمه مؤيد من الله فى كل خطب جليل . وسمعه حديد إلى صوت من ناداه ، ولو كان مشغولا بأهل مجلسه .

(٥) فنده : خطأه . والمعنى أنه يسمع كل صوت إلا صوتين : لوم اللائمين ، وتفنيد المفندين .

(٦) صعد فى الجبل : رقى ، وصعد فىّ النظر وصوّبه ، نظر إلى أعلاى وأسفلى .

(٧) كيفه ، فتكييف ، أى جعل له كيفية .

ومن محاسن قوله :

أَبَنِى الْعَوالِى السَّمْهَرِيةِ والسُّيُـــوفِ الْمَشْرَفِيَّةِ والعَدِيدِ الأَكْبرِ[١]

مَنْ مِنكمُ المَلِكُ المطَاعُ كأَنَّهُ ... تحتَ السَّوابغِ تُبَّعٌ فى حِمْيَرِ

كلُّ المُلوكِ من السُّرُوجِ سَوَاقِطٌ ... إلّا المَمَلَّكَ فوقَ ظَهْرِ الأشْقَرِ

ومما يتغنى به قوله :

فَتَكَاتُ طرْفِكِ أم سُيوفُ أبيكِ ... وكُؤُوسُ خَمْرٍ أم مَراشِفُ فِيكِ[٢]

أَجِلَادُ مُرْهَفَةٍ وفَتْكُ مَحَاجِرٍ ... ما أنتِ رَاحِمَـــةٌ ولا أهلوكِ

يا بِنْتَ ذِى السَّيفِ الطويلِ نجادُه ... أَكَذَا يجُوزُ الحُكْمُ فى ناديكِ[٣]

قد كان يدعونى خيالُكِ طارِقاً ... حتى دَعانى بالقَنا داعِيـــكِ

عَيْنَاكِ أَمْ مَغْنَاكِ مَوْعِدُنا وفى ... وَادى الكَرَى نلقاكِ أو واديكِ

مَنَعُوكِ من سِنَةِ الكَرى وسَرَوْا فَلَوْ ... عَثروا بطيْفٍ طارقٍ ظَنُّوكِ[٤]

ودَعَوْكِ نَشْوى ما سقَوْكِ مُدامةً ... فإذا تَثَنّى عِطْفُكِ اتَّهَمُوكِ

حَسِبُوا التَّكَحُّلَ فى جفونِكِ حِلْيَةً ... تاللهِ ما بأكُفِّهِم كَحَلُوكِ[٥]

---

(١) السمهرية الرماح .

(٢) المراشف جمع مرشف وهو الشفة ، ورشف الماء مصه بشفتيه ، والمحاجر العيون ، والمعنى أنه يشك فيما أصابه ، هل هو من سيوف أبيك الماضية ، أو نظرات عينيك الفاتكة ، وهل ما أصابه أيضا من كئوس خمر ، أم من مراشف فيها ، لقرب أثرهما بعضه من بعضه .

(٣) المعنى : أتجمعين علىّ إصابة بسهام عينيك وفتك محاجرك ، أما عندك رحمة .

(٤) السنة : الوسن وهو فتور يتقدم النوم ، يسأل الشاعر عن موعد لقاء معشوقته ويقول : إنهم منعوا طيفك أن يزورنا ليلا ، حتى إنهم لو عثروا فى سيرهم على طيف طارق لظنوه طيفك فمنعوه عنا .

(٥) المعنى أن حسنك طبيعى لا صناعى ، فتثنيك من رقة خصرك ، وقد أخطأوا فظنوه من أثر شرب الخمر ، وتكحلك طبيعى فى عينيك ، فظنوه من صنع صانع .

وقد عدّ له الأدباء مزايا وعيوبا ، فمن مزاياه :

١ — قوة بيانه وجودة كلامه وشدة تأثيره فى سامعيه ، إذا فهمت معانيه .

٢ — شعره جزل السبك ، مليح التأليف . حتى إنك لو سمعت المصراع الأول ، تكاد تجزر المصراع الثانى .

٣ — شعره مطبوع تلمح فيه الجزالة التى فى الشعر الجاهلى .

أما عيوبه :

١ — فكثرة استعماله للغريب من الألفاظ ، مثل اطلخمّ الأمر ، وارْجَحَنّ الشباب ، وتغشْمَرَتْ ، وتكَعْكَعَتْ .

٢ — أن شعره أحيانا كثير الجلبة ، قليل المعنى ، كما ذكر ابن رشيق .

ابن شُهَيْد وابن حزم

كانا متعاصرين ، وكانا صديقين ، وكانا وزيرين ، وكانا يعملان للدولة العامرية ، وكانا ذوَى ميول أموية ، مكّنتْ من الدسائس لهما . وكانا فى الشعر وسطا ، ولعب الحب بهما معاً . فأما ابن شهيد ، فقد قعد به عن الجودة فى الشعر تفوقه فى النثر ، فهو فى الشعر أضعف منه فى النثر ، وقلَّما نجد فى التاريخ من ملك ناصية النوعين ، وبرّز فى القولين ، فغاية الأديب أن يكون قويًّا فى أحدهما ، وسطاً فى الآخر ، وقد اشتهر ابن شهيد بفصوله ورسائله وروايته «التوابع والزوابع» وسيأتى الكلام عليها فى النثر . وقد شعر فى المديح والوصف والغزل ، حتى خافت جاريته منه مرة أن يتغزل فيها فيفضحها ، واشتهر بالنادرة اللطيفة الحلوة . ورووا أنه أصيب بالصمم فمنعه ذلك عن الاشتغال بالسياسة . قال فيه ابن حيان «كان ابن شهيد يبلغ المعنى ، ولا يطيل سفر الكلام ، . . والعجب منه أنه كان يدعو قريحته إلى ما شاء من نظمه ونثره فى بديهته ورويّته ، فيقول الكلام كما يريد ، من غير اقتناء لما كتب ، ولا اعتناء بالطلب ، ولا رسوخٍ فى الأدب ، فإنه لم يوجد

له فيما بلغنا بعد موته كتاب يستعين به على صناعته ، ويشحذ من طبعه ، إلا مالا قدر له ، فزاد ذلك فى عجائبه ، وإعجاز بدائعه . وكان فى تنميق الهزل والنادرة الحارّة أقدر منه على سائر ذلك ، وشعره حسن عند أهل النقد ، وله رسائل كثيرة فى فنون الفكاهة ، وأنواع التعريض ، والأهزال . وكان فى سرعة البديهة وحضور الجواب وحدّته آية من آيات الله ، وكان « مع هواه الشديد »(1) وعدم تقصيره فى ارتكاب أى قبيحة من أصحِّ الناس رأياً لمن استشاره ، وأضَلِّهم عنه فى ذاته ، وكان له فى الكرم والجود انهماك ، حتى شارف الإملاق » .

فمن شعره :

كَلِفْتُ بالحبِّ حتى لو دَنَا أجَلى ... لَمَا وجدتُ لطَعْم الموتِ من ألَمِ
وعاقنى كَرَمى عمّن وَلِهْتُ به ... وَيْلى من الحبِّ أو وَيْلى من الكَرَمِ (2)

وقوله :

أَصَبَاحٌ شِيمَ أمْ برْقٌ بَدَا ... أم سَنَا المحبوب أوْرَى زَنَدَا
هَبَّ مِن مَرْقدِه مُنكَسِراً ... مُسْبِلاً لِلكُمِّ مُرْخٍ لِلرِّدَا
يَمْسَحُ النَّعْسةَ من عَيْنَىْ رَشًا ... صائداً فى كلِّ يوم أَسَدَا
فهْوَ من دَلٍّ عَراهُ زُبْدَةٌ ... من صريحٍ لم يخالط زَبَدَا
قلتُ هبْ لِى يا حبيبى قُبْلةً ... تَشْفِ من عَمِّك تبريح الصَّدا
فانثنى يهتزّ من منكبِه ... مائلاً لُطْفاً وأعطانى اليَدَا
كلما كلمنى قَبَّلْتُهُ ... فهو إمّا قال قولاً رُدِّدَا

---

(1) هذه الزيادة مستفادة من النص .

(2) أو بمعنى الواو .

كاد أن يرجِعَ من لثْمِى له ... واكتشاف الثَّغْر منه أدرَدَا
شرِبَتْ أعطافه ماءَ الصِّبا ... وسَقاهُ الحسْنُ حتى عربَدَا

ويقول فى وصف عاصفة :

وقد فغرَتْ فاهَا دُجًى كلُّ زَهرةٍ ... إلى كل ضَرْعٍ للغمامةِ حافِلِ
ومرَّتْ جُيوشُ المُزْنِ رَهْوًا كأنَّها ... عَساكِرُ زَنْجٍ مُذْهَباتُ المَناصِلِ

وقد طلب منه أن يجيز قول الشاعر :

« مَرَضُ الجُفُونِ ولَثْغَةٌ فى المَنْطِقِ »

فقال بديهة :

مرَضُ الجفون ولَثْغَةٌ فى المنطق ... سيَّانِ جَرَّا عِشْقَ من لم يَعْشَقِ
مَن لى بألثَغَ لا يَزالُ حَديثُه ... يُذْكِى على الأكبادِ جَمْرَةَ مُحْرِقِ
يُنْبِى فيَنبُو فى الكلام لسانُه ... فكأنَّهُ مِن خَمْرِ عينيه سُقِى
لا يُنعِشُ الألفاظ من عَثَراتِها ... ولَوَ أنَّها كُتِبَتْ له فى مُهْرَقِ

وقال يتغزل :

مرَّ بى فى فَلَكٍ من رَبْرَبِ ... قَمَرٌ مُبتَسِمٌ عن شَنَبِ
زيَّنُوا أعلاه بالدُّرِّ كما ... ثَقّلوا أسفَلَهُ بالكُثُب
فازدَهتْنى أرْيَحِيَّاتُ الصِّبا ... واستَخَفَّتْنى دَواعى طَرَبى
فتعرَّضتُ لتَسْليمٍ لهُ ... فإذا التَّيّاهُ لا يَعْبأ بى
قال : هذا العبدُ مَن دَلَّلَهُ ... ما الذى أمَّنَهُ مِن غَضَبى ؟
يا ظِبا لحظِى خُذِى لى رأسَه ... فهو لا شكَّ من أهل الرِّيَبِ

فأَنبَرَتْ ألحاظُه تطلبُنى　　وأنَا قدَّامها فى الهَرَبِ
لو تَرانى وأنا أَلْطِفُــــهُ　　وأُدارِيهِ مُداراة الصَّــــبى
خِلْتهُ جَبّار قومٍ مَرَدُوا　　وأنا فى لطفِ الوعْظِ نَبى

ويقول فى وصف وقعة :

سَقْيًا لأُسْدٍ تَسَاقَى الموت أنفُسها　　وتَلبَسُ الصبر فى يومِ الوغَى حَلَقَا
قامت بنَصْرِكَ لمَّا قام مُرْتجِلاً　　خطيبُ جودِك فيها يَنْثُر الوَرِقا
سَرَيْتَ تقْدُمُ جيْش النَّصْرِ مُتَّخِذًا　　سُبْلَ المَجرَّةِ فى إثْرِ العُلا طُرُقا
فى ظِلِّ ليلٍ من الماذِىّ مُعتكِرٍ　　يجلو إلى الخيلِ منه وجْهُكَ الفَلَقَا
وصَفْح قِرْنٍ غَداةَ الرَّوْعِ يكْتُبُه　　من الظُّبا قَلَمٌ لا يَعرِف المَشَقَا
أَجْرَيْتَ للزّنْجِ فوق النهر نهر دَمٍ　　حتى استحال سماءً جُلّلتْ شَفَقَا
وســــاعَدَ الفَلَكُ الأعلى بقتاهمُ　　حتى غدا الفُلْكُ بالناجى به غَرِقا

الخ . الخ ...

وله من قصيدة :

فَرِيقُ العِدا من حَدّ عزمِك يَفْرَقُ　　وبالدهر مما خاف بَطْشَكَ أوْلَقُ
عجبتُ لمن يعتَدُّ دونك جُنَّــــةً　　وسَهْمُك سعدٌ والقَضــــاءُ مُفَوِّقُ
ومن يَبْتَنى بيتاً ليقطَــــعَ دونه　　ممرَّ رِياحِ النصرِ وهْو الخَوَرْنَقُ
توهَّم فيه الرَّعْنُ حِصناً فزُرْتَهُ　　بأَرْعَنَ فيه مُرعِدُ الموتِ مُبْرِقُ
وحوْلكَ أسيافٌ من السَّعد تُنْتَضَى　　وفوقَكَ أعلامٌ من النصرِ تَخْفُقُ
بِأَبيَضَ مســــوَدِّ الدِّلاَصِ كأنَّهُ　　شِهابٌ عليه من دُجَى الليلِ يَلْمَقُ

وخَيْلٍ تَمَشَّى للوَغَى بِجُفُونِهَا إذَا جَعَلَتْ بالمرْتَقَى الصَّعْبِ تَزْلَقُ

ويقول وقد أزمع على الخروج من قرطبة :

أرَى أعْيُناً تَرْنُو إلىّ كأنّما تُسَاوِرُ مِنْهَا جانِبَىَّ أرَاقِمُ
أَدُورُ فلا أعْتَامُ غَيْرَ محارِبٍ وأسْعَى فلا ألقى امْرءاً لِى يُسَالِمُ
ويَجْلِبُ لى فَهْمِى ضُرُوباً من الأذَى وأشْقَى امرىءٍ فى قَرْيَةِ الجَهْلِ عالِمُ
وَأَوْجَعُ مَظْلومٍ لقَلْبٍ وذى حِجًا فتًى عرَبىٌّ تَزْدَرِيه أعاجِمُ

☆ ☆ ☆

سلامٌ عليكُمْ لا تحيّة شاكِرٍ ولكنْ شَجًى تَنْسَدُّ مِنْهُ الْحَلاَقِمُ
وما قُرِعَتْ سِنِّى عَلَيْكُمْ ندامَةً وأوشِك غدًا أن يَقْرَعَ السِّنّ نادِمُ
عليكمْ بدارى فاهدِموها دَعائماً ففى الأرْضِ بنّاءون لى ودعائِمُ
لئنْ أخرَجَتْنِي عنكمُ شَرُّ عُصْبَةٍ فَفِى الأرضِ إخوَانٌ علىّ أكارِمُ

وفيها يقول :

ولمّا فشَا بالدّمع من سرِّ وجْدِنا إلى كاشِحِينا ما القُلُوبُ كواتِمُ
أمرْنَا بإمساكِ الدموع جُفُونَنَا لِيَشْجَى بما تطوِى عَذُولٌ ولائِمُ
فَظَلّتْ دُمُوعُ العَيْنِ حَيْرَى كأنّها خِلاَلَ مآقِينَا لآلٍ نَوَائِمُ
أَبَى دمْعُنَا يَجْرِى مَخَافَةَ شَامِتٍ فنَظَّمَهُ بين المحاجِرِ ناظِمُ
وَرَاقَ الهوَى مِنّا عُيُونٌ كريمةٌ تَبَسّمْنَ حَتّى ما تَرُوقُ المَبَاسِمُ

وقد مرض ابن شهيد فى آخر أيامه وأصيب بالفالج فى سنة ٤٢٥ ، فمنعه عن

الحركة والتقلب ، وكان أولا يمشى على عصا ، واعتماداً على إنسان ، إلى ما قبل وفاته بعشرين يوماً ، فإنه صار حجراً لا يبرح ولا يتقلب ، ولا يحتمل أن يحرك .

وفى ذلك يقول :

أَنُوحُ عَلَى نفْسِى وأَنْدُبُ نُبْلَهَا إذَا أنا فى الضّرّاء أزمَعْتُ قَتْلَهَا
رَضِيتُ قضاء الله فى كلّ حالَةٍ عَلَيَّ ، وأحْكَاماً تيقنْتُ عَدْلَهَا
أظَلُّ قَعيدَ الدّارِ تَجْنُبُنِي العَصَا عَلَى ضَعْفِ ساقٍ أوْهن السُّقْمُ رِجْلَهَا

* * *

أَلاَ رُبّ خَصْمٍ قَدْ كفيتُ وكُرْبَةٍ كَشَفْتُ ، وَدَارٍ كُنْتُ فى المَحْلِ وَبْلَهَا
وَرُبّ قَرِيضٍ كالجَرِيضِ بَعَثْتُهُ إلَى خُطْبَةٍ لا يُنكِرُ الجَمْعُ فَضْلَهَا
فَمَنْ مُبلغُ الفِتْيَانِ أنَّ أخَاهُمُ أخُو فَتْكَةٍ شَنْعَاءَ ما كان شكْلَهَا
عَلَيْكُمْ سلامٌ مِنْ فَتًى عضَّهُ الرَّدَى وَلَمْ يَنْسَ عَيْناً أثبتَتْ فِيهِ نَبْلَهَا
يبِينُ وكَفُّ المَوْتِ يَخْلَعُ نَفْسَهُ وداخِلها حبٌّ يُهَوِّنُ ثُكلها

وكتب للفقيه ابن حزم فى مرضه الذى مات به قال :

ولمّا رأيْتُ العَيْشَ وَلّى برأسِهِ وأيقَنْتُ أن الموت لا شَكَّ لاَحِقِى
تمَنَيْتُ أَنِّى ساكِنٌ فِى غَيَابَةٍ بأعْلَى مَهَبِّ الرِّيحِ فى رأْسِ شاهِقِ
خَلِيلَيَّ مَنْ ذَاق المنيَّة مرَّةً فقَدْ ذُقْتُهَا خَمْسِينَ : قَوْلَةَ صَادِقِ
كأنِّى وَقَدْ حَانَ ارْتِحَالِيَ لم أفُزْ قَدِيماً من الدُّنيَا بلَمْحَةِ بَارِقِ
فَمَنْ مُبْلغٌ عنِّى ابنَ حَزْمٍ وكانَ لِي يَدًا فى مُلِمّاتِى وعِنْدَ مَضَايِقِى
عَلَيْكَ سَلاَمُ اللهِ إنِّى مُفَارِقٌ وحسْبُكَ زادًا مِن حبيبٍ مُفَارِقِ

فَلاَ تَنْسَ تَأْتِينِي إذا ما فَقَدْتَنِي ... وتَذْكُر أيّامِي وفَضْلَ خَلاَئِقِي
فَلِي فى ادِّكَارِى بَعْدَ مَوْتِيَ رَاحَةٌ ... فَلاَ تَمْنَعُونِيهَا عُلاَلَةَ زَاهِقِ
وَإنِّى لأرجو الله فيما تقدمَتْ ... ذنُوبِى به مِمَّا دَرَى من حَقَائِقِي

وأما ابن حزم فقد عاقه عن بلوغ الغاية فى شعره كثرة علمه وفقهه ، فالأسلوب العلمى الفقهى غلب عليه فنجد له معانى لطيفة جداً ، ولكنها فى أسلوبها تتلون بألوان أساليب الفقهاء ، كالذى لاحظه ابن خلدون من أنه هو قعد به عن الشعر حفظه المتون ، وذكر أن فقيها شعر فقال :

لم أدْرِ حين وقَفْتُ بالأَطلال ... ما الْفَرْقُ بَيْنَ جديدها والْبَالِى

فقال : إن التعبير بـ « ما الفرق » بين كذا وكذا ، أشبه بتعبير الفقهاء ، وقد تربى ابن حزم تربية عالية ، فأبوه كان وزيراً عظيما ، تسرح فى داره الفتيات الجميلات من المغربيات ، ومن فتيات الحروب المأسورات . وكان يُحضر له المعلّمين والمعلمات ، حتى رَوى أنه أحفظته القرآن جاريةٌ فى القصر ، كما أحضر له بعض مشاهيرِ شيوخ العلم . فوقع بين رغبتين : رغبة فى العلم والدين والتقى ، ورغبة فى مغازلة الجوارى والسير مع الهوى ، والجمع بينهما كالجمع بين الماء والنار ، ولكن يظهر أنه استطاع الجمع بينهما ، فحمَّله ذلك من العذاب ألوانا . وأكثر شعره الذى بلغنا ما كان فى كتابه « طوق الحمامة » يصف فيه خلجات نفسه ، وضناه من حبه ، نثراً ونظما . والقارئ لشعره يرى أنه صادق العاطفة ، لطيف المعانى الذهنية ، بعيد الخيال ، ولكنه مقصر بعض الشىء فى الأسلوب ، وهو معذور فى ذلك ، فالذى يؤلف « الفصل فى الملل والنحل ، والإحكام فى أصول الأحكام » وما إلى ذلك من مئات الكتب الشرعية ، ليس من السهل عليه أن يبلغ

القمة فى الشعر . وقد عدّ عند كثير من الناس أعلم أهل الأندلس ، ولكن لم يعدّوه أشعرهم . وكان ابن حيان دقيقاً فى قوله « إن شعره حسن » من غير طنطنة ولا فَخْفَخة كعادته فى وصف الشعراء الكبار . وحدثت له حادثتان أثرتا فى حياته ، وفى شاعريته . الأولى : حُبُّه كالذى ذكرنا ، والثانية : ما كان من اتهامه فى عهد الدولة العامرية بأنه يعمل لإعادة الخلافة الأموية ، وقد كان العداء بين العامريين والأمويين فى الغرب ، كالعداء بين العلويين والعباسيين فى الشرق ، فعزل عن الوزارة من أجل ذلك ، وعذّب ، وأهين ، ونفى ، وخرّبت دياره ، وزال عنه النعيم الذى كان يعيش فيه ، فكان ذلك نقمة عليه ، ونعمة على العلم والأدب . ومن مزايا نشأته فى بيت العز ، وتمكنه من نفسه ، ونزعته إلى الزهد ، أنه لم يُهِنْ نفسه فى شعره بمديح مفرط ، أو غزل فاجر ، إنما قال الشعر استجابة لخلجات نفسه ، أو تفريجاً لهمِّه ، أو إرضاءً لفنه ، أو إرضاء لخاطرة خطرت له . وله قصيدة لطيفة قوية بلغت مائة وأربعين بيتاً ، أجاب بها ملك الروم عن رسالة أرسلها إلى المسلمين ، يهدِّدُهم ويتوعدهم[١] .

ونشأته العلمية حمته من اللعب بالألفاظ ، والإطالة فى القول ، وتفكيرُه الخلقى ، وتجاربه الاجتماعية ، أنطقاه بالحِكَم ، مثل :

أفعالُ كلّ أمرىءٍ تُنْبى بعُنْصُره ... والعيْنُ تُغْنِيكَ عن أن تطلُبَ الأثَرَا
وهل ترَى قَطُّ دِفْلَى أنبَتَت عنباً ... أو تُذْخِرُ النحْلُ فى أوكارها الصَّبِرا ؟

وقد امتلأ كتابه « طوق الحمامة » بالنثر والشعر الذى يمليه عليه حُبُّه ، مع دعابة أحياناً كقوله :

---

(١) انظرها فى الجزء الثانى من طبقات الشافعية للسبكى .

وذى عَذَلٍ فى مَن سَبَانِىَ حُسنُه يُطيلُ مَلاَمى فى الهوى ويقول
أمِن أجْلِ وَجْهٍ لاحَ لم تر غيره ولم تَدْرِ كيف الجسمُ أنتَ عَليلُ
فقلتُ له : أسْرَفتَ فى اللَّومِ فاتَّئِدْ فعنــدىَ ردٌّ لو أشاء طويلُ
ألَمْ تر أنى ظــاهرىٌّ وأنَّنِى على ما أرىْ حتى يقوم دليلُ ؟

وتجد فى هذه القطعة مصداق ماقلناه « فعندى ردٌّ طويل » تعبير علماء الكلام ، والبيت الأخير ينضح بذلك . ويقول :

لئن أصبحت مُرتحلاً بجسمى فَقلبى عنــدَكم أبداً مُقيمُ
ولكن لِلعِيَانِ لطيفُ معنًى له سأل المعاينــةَ الكليمُ

وهو أيضاً نضحٌ للثقافة الدينية ، وخصوصاً البيت الثانى . ويقول :

لا تَلُمْنى لأنَّ سَبْقَةَ حَظٍّ فاتَ إدراكُها ذوى الألبابِ
يَسْبِقُ الكلبُ وَثبَةَ اللَّيْثِ فى العَدْ وِ ويَعْلو النُّخالُ فوقَ اللُّبَابِ

فقوله « لأن » فى هذه الأبيات تعبير فقهى . ويقول :

لى خَلَّتان : أذَاقانى الأسَى جُرَعا ونَغَّصا عِيشَتى واستَهلَكا جَلَدِى
كِلتاهما تَطَّبِينى[1] نحو جَبْلَتِها كالصيدِ يَنْشَبُ بين الذّئبِ والأسد
وَفاء صِدقٍ فما فارَقتُ ذا مِقةٍ فزال حُزنى عليــه آخِرَ الأبَدِ
وعزَّةٌ لا يحلُّ الضيمُ ســاحتَها صرَّامةٌ منــهُ بالأموالِ والوَلَدِ

---

(١) اطبى : ادعى ، والجبلة : الطبيعة .

فترى فى هـذه القطعة التقسيم المنطقى الذى يتّبعه العالم ، وقلّ أن يسلكه الشاعر . . ويقول :

جعلتُ اليأسَ لى حصناً ودِرعا فلم أَلْبَسْ ثياب المُستَضامِ
وأكثر من جميع الناس عندى يَسيرٌ صانَنى دون الأنام
إذا ما صحَّ لى دِينى وعرضى فلَستُ لِمَا تولّى ذا اهتمام
تَولَّى الأمسُ ، والغد لستُ أدرِى أأُدْرِكه ففيماذا اهتمامى ؟

فالشطرة الأخيرة علمية أكثر منها شعرية . وكذلك قوله :

« فلست لما تولى ذا اهتمام »

وأحياناً يسمو بشعره فيما وراء الطبيعة كقوله :

أَمِن عالَمِ الأملاكِ أنتَ أَمِ اُنسِىٌّ أَبِنْ لى : فقد أَزرَى بتمييزِىَ العِىٌّ
أَرى هيئةً إنسيّةً غيرَ أنه إذا أُعمِلَ التفكيرُ فالجِرمُ عُلْوِىٌّ
تبارك مَن سوّى مذاهبَ خَلْقِه على أنّكَ النُّورُ الأنيقُ الطبيعى
ولا شك عندى أنك الروحُ ساقه إلينا مثالٌ فى النفوسِ اُتّصالىٌّ[1]
عَدِمْنا دليلاً فى حُدُوثِك شاهداً نَقِيسُ عليه غير أنك مَرْئىٌّ
ولولا وقوعُ العيْنِ فى الكون لم نَقُل سوى أنك العَقْلُ الرفيع الحقيقىٌّ

ومن قوله ، وهو يدلّ على عاطفة حارة مشبوبة أضناها الحب :

(١) فى هذا البيت يتبع نظرية أفلاطون فى المثال .

وددْتُ بأنّ القلبَ شُـقَّ بمديةٍ وأُدخِلْتِ فيه ثم يطبقُ فى صَدْرِى
فأصبحتِ فيــه لا تَحُلِّين غيره إلى مُقتضَى يوم القيامة والحشْرِ
تَعيشِين فيه ما حَيِيتُ ، فإن أَمُتْ سَـكَنْتِ شغاف القلْبِ فى ظُلَمِ القَبر

فهذا القول صادق العاطفة ، وهو ترجمة صحيحة لمشاعره ، ولـكن قوله « إلى مقتضى يوم القيامة والحشر » تعبير دينى .

وعلى الجملة فهو شاعر عالم ، طغى علمه على شعره .

انظر قوله :

ودادِى لك البـاقى على حسب كونه تناهى ، فلم ينقص بشىء ولم يَزِدْ
وليست له غـــير الإرادة علّةٌ ولا سببٌ حاشاه يَعلَمُه أَحــد
إذا ما وَجَــدنا الشىء علّة نَفْسِه فذاك وجودٌ ليسَ يَفنَى على الأَبد
وإمّا وجــــدناه لشىء خِلاَفَه فإعدامه فى عُـــدْمِنا ماله وُجِدْ

وقوله :

ما علّةُ النّصْرِ فى الأَعْـداء نَعرِفُها وعلةُ الفَرِّ منهـــم أن يفِرونا
إلاّ نِزاعُ نفوسِ الناسِ قاطبةً إليكَ يا لؤلؤاً فى الناسِ مكنُونا
من كنتَ قدّامَه لا ينْثِنِى أبداً فهُمْ إلى نُورِكَ الصَّعّادِ يعشُونا
ومن تـكُن خَلْقَه فالنفس تَصرفه إليكَ طوعاً فهم دَأْباً يَـكِرُّونا

وقوله :

أَرعَى النُّجومَ كأنني كُلِّفْتُ أنْ ... أرعَى جميعَ ثُبُوتِها[1] والخُنَّسِ
فكأنَّها والليلُ نيرانُ الجَوَى ... قد أُضرِمَتْ فى فِكرتى مِن حِندِسِ
وكأننى أمسيْتُ حارِسَ روضةٍ ... خضراء وُشِّح نبْتُها بالنَّرجسِ
لو عاشَ بطْليموسُ أيقَنَ أنَّنى ... أقوَى الورَى فى رَصْدِ جرْى[2] الكُنَّسِ

وقال على عادة الشعراء المتماجنين :

خَلوْتُ بها والرَّاحُ ثالِثَةٌ لنا ... وجُنحُ ظَلامِ الليلِ قد مَدَّ واتَّلَجْ
فتاةٌ عدمْتُ العيشَ إلا بقُرْبِها ... فهلْ فى ابتِغاءِ العيْشِ ويْحَك مِن حَرَجْ ؟
كأنِّى وهِى والكأسَ والخمرَ والدُّجى ... ثَرًى وحيًا والدُّرُّ والتِّبْرُ والثَّبَجْ[3]

وصفُوكِ لِى حتى إذا أبصَرْتُ ما ... وَصفوا ، علمتُ بأنَّه هَذَيانُ
فالطبْلُ جِلْدٌ فارغٌ وطَنينُهُ ... يرْتاعُ منه ويَفرَقُ الإنسانُ

يعيبُونها عندى بشُقْرةِ شعرِها ... فقُلتُ لهمْ هذا الذى زانَها عِنْدى
يَعيبُون لونَ النُّور والتِّبرِ ضَلَّةً ... لِرَأْى جهول فى الغَوايَةِ مُمْتدِّ
وهلْ عاب لوْن النرجِسِ الغض عائبٌ ... ولونَ النجوم الزَّاهراتِ على البُعْدِ
وأبعدُ خلْقِ الله من كل حكمةٍ ... مُفَضِّل جرْمٍ فاحِمِ اللّوْنِ مسْوَدِّ
به وُصِفتْ ألوانُ أهلِ جَهَنَّمٍ ... ولِبسة باكٍ مُثْكَلِ الأهل مُحتدِّ[4]

---

(١) الثبوت : النجوم الثوابت ، والخنس : الكواكب السيارة .
(٢) سير النجوم .
(٣) الثرى التراب ، والحيا المطر ، والدر اللؤلؤ ، والتبر الذهب ، والثبج الخرز الأسود .
(٤) أى حزين يلبس الحداد .

وَمُذْ لاحَتِ الرّايات سوداً تَيقّنَتْ نفوسُ الورى أن لاسبيل إلى الرُّشدِ[١]

فتعبيراته كلها مقتبسة من الفقه والكلام والمنطق ، وإلهيّات الفلسفة . فيصعب علينا أن نعدّه من الشعراء الخالصين ، وإن امتاز بصدق الشعور ، وصدق التعبير ، وجمال الخيال .

وسيأتى مقامه فى النثر ، عند الكلام على النثر .

* * *

إلى هنا كان الشعر قد بلغ حداً كبيراً من الرقىّ فى عهد الأمويين والعامريين ، وسبب ذلك أن الأمويين والعامريين كانوا يُجزلون العطاء ويقدرون قيمة الشعراء فى الدعوة لهم ، حتى كانوا يحملون الشعراء على السّفر معهم فى غزواتهم وسبب آخر ، وهو أن آخر عهد الأمويين ، ومدة العامريين كانت عهود فتن واضطرابات . والفتن والاضطرابات تحرك المشاعر . وأذكر أن ابن سلام فى طبقاته قال عن قبيلة من القبائل : إنها لم تقل شعراً ، لأنها لم تكن قبيلة محاربة . . هذا إلى طبيعة الأندلسيين الشعرية ، فيكاد يكون كل مثقف ، ولو ثقافة بسيطة شاعراً . وقد قال الأندلسيون فى كل فن وباب مقلدين فى ذلك المشرق من الزهد والوصف والرثاء والغزل الخ . . فإذا نحن وصلنا إلى عصر ملوك الطوائف رأينا الشعر قد نما وكثر أيضاً بسبب أن المملكة قد انقسمت إلى إمارات كثيرة ، يحكم كل قسم منها أمير ، وكان بين الأمراء تنافس على التعمير والعلم ، ومن ذلك الشعر ، ولذلك وجد شعراء لا يقلّون شأنا عن السابقين ، إن لم يفوقوهم أحياناً ، أمثال ابن زيدون وابن عباد وابن سهل الإسرائيلى وغيرهم . وربما عمل فى تكوينهم أكثر من الأولين أنهم انتفعوا بمن سبقهم ، فقد خلفوا ثروة كبيرة

(١) يشير إلى العباسيين عند محاربة الأمويين وقد اتخذ العباسيون شعارهم الراية السوداء .

من الأخيلة والأساليب والمعانى ؛ يضاف إلى ذلك أنه ما يكاد يظهر شاعر فى المشرق إلا وينقل شعره سريعاً إلى المغرب ثم يقلّد . ويدهش الإنسان لهذه السرعة ، فقد كانت حركات الرحلات شديدة قوية ، مع صعوبة المواصلات . وكان الحج موسماً تتلاقى فيه العلماء والأدباء ، فيتناقلون كتبهم ، فكان الشعر فى عهد الطوائف أرقى منه على ما يظهر فى العهود التى كانت قبلهم وإن كان الأندلسيون من الناحية السياسية والحربية أضعف .

وشاهد هذا العصر تغلّب النصارى الإسبان على بلاد الأندلس ، بلداً فبلداً ، فإذا حل النصارى بلداً ، هجرها أهلها ، ورثوها بشعرهم ، فوُجد عندنا فى الأندلس ما لا نجده فى الشرق إلا نادراً من رثاء البلاد رثاءً قويا يدل على عاطفة مشبوبة ؛ ولكن هناك ظاهرة أخرى ، وهى أن الحروب بين الإسبان والأوربيين عموما وبين المسلمين لم تنقطع . فيكاد يكون فى كل سنة حرب ووقائع ، تشيب لها النواصى ، ولكن مع الأسف كمية الشعر التى رويت فى هذا الباب أقل مما يلزم كشأن المسلمين فى الحروب الصليبية ، وفى حروب صلاح الدين وخلفائه ، فقلّ الشعر العربى فى هذا المعنى . ولعل السبب فى ذلك أن الأولين لم يشعروا كثيراً فى باب الحروب ، وشعرهم كان شعراً تقليديا ، فلما رأوا أن مَن قبلهم لم يشعروا كثيراً فى هذه المعانى ، لم يشعروا هم أيضاً كثيراً ؛ والواقع أن حروب الأندلس ، وحروب الصليبيين ، كان يجب أن تغذى الشعراء بما يصوغون من قصائد .

ابن زيدون

هو أحب شعراء الأندلس إلى نفسى ، وأقربهم إلى قلبى . ويظهر أنه استصفى غزل العباس بن الأحنف ، ومسلم بن الوليد ، وغيرهما ، وأخذ ديباجة

البحترى ، وحُسن سبكه ، ونصاعة أسلوبه ، وأخذ طول نفس ابن الرومى وتدفّقه حتى يأتى على آخر المعنى الذى يريده . وقد حدثت له حادثتان ألهبتا قلبه ، وجعلتاه يشعر من قلبه ، لا من رأسه ، أولاهما : حبُّه لولاّدة ، فقد هام فى حبها ، وجرب كل أنواع التجارب فى الحب من لذة وصال ، وألم فراق ، وأحاديث نفس ، وغَيْرة من عذول الخ ... وثانيتهما : كثرة حسّاده وتآمرهم عليه ، ووضع الدسائس له عند الأمير المقرّب إليه ، حتى سجنه ، فذاق ألواناً من العذاب فى سجنه . وكانت له قدرة على صياغة أدق المشاعر فى شعرٍ جميل ، وأسلوب جذّاب ، ومع هذا لم يخلُ من قول الشعر الرقيق فى الموضوع التقليدى الذى هو المديح .

وقد رويت له مدائح كثيرة لأمراء كثيرين ، وهو أبو الوليد أحمد بن عبد الله ابن أحمد بن غالب المخزومى ، من نسل أحد أفراد قبيلة مخزوم الذين رحلوا إلى الأندلس أيام الفتح ، وكان أبوه مشهوراً بأنه فقيه أديب ، فأورث ابنه حبه الأدب . وقد وُلد ابن زيدون فى قرطبة سنة ٣٩٤ ، ومات فى إشبيلية سنة ٤٦٣ ومع أنه تعلم الشعر ممن ذكرنا من الشعراء ، فهناكِ خيوط يظهر فيها أثر بيئته .

ويدلّ شعره على أنه واسع الاطّلاع على شعر المشرق ، وشِعر مَن قبله من الأندلسيين واستفادته من كل ذلك ، مع احتفاظه بشخصيته . وقد أخذ عن عالمْين كبيرين فى الأندلس ، هما أبو بكر مسلم بن أحمد بن اللَّبّانة ، وأبو بكر بن ذكوان ، وقد لَفَت نظر الناس إلى شعره منذ شبابه .

وشاء حظه أن يقع فى حب ولاّدة بنت الخليفة المستكفى ، وقد كان المستكفى هذا فاجراً ، مستهتراً ، سيئ الحكم ، قلّ ماله فأحب أن يرضى الناس بوعوده ، وبما يوزعه من ألقاب ، حتى زهد الناس فيها . وخلّف بنتا اسمها ولاّدة ، خلّفها من مولاة له إسبانية ، وكانت ولادة هذه بيضاء اللون ، حمراء الشَّعر ، زرقاء العينين ، لا تلتزم الحجاب المعتاد للنساء فاتخذت فى بيتها نادياً « صالونا » يجتمع

فيه الأدباء من شاعرين وناثرين ، وتسمع منهم ، ويسمعون منها . وكانت هي الأخرى قادرة على الشعر ، وكانت حادّة المزاج ، قاسية ، صريحة ، فما أن رآها ابن زيدون وجالسها ، حتى ملأت قلبه . وقد وصفها ابن بسّام في الذخيرة بقوله : « كانت في نساء أهل زمانها ، واحدة أقرانها ، حضورَ شاهد ، وحرارة أوابد ، وحسن منظر ومخبر ، وحلاوة مورد ومصدر ، وكان مجلسها بقرطبة منتدًى لأحرار المِصْر ، وفناؤها ملعبا لجياد النظم والنثر ، يعشو أهلُ الأدب إلى ضوء غرتها ، ويتهالك أفراد الشعراء والكتاب على حلاوة عشرتها ، إلى سهولة حجابها ، وكثرة منتابها ، تخلط ذلك بعلوّ نصاب ، وكرم أنساب ، وطهارة أثواب ، على أنها « سمَح الله لها وتَغَمَّد زَلَلَهَا » اطّرحت التحصيل ، وأوجدت إلى القول فيها السبيل ؛ لقلَّة مبالاتها ، ومجاهرتها بلذاتها ، كتبت — فيما زعموا — على أحد عاتِقَيْ ثوبها :

أنا والله أصلح للمعالي   وأمشي مشيتي وأتيه تيها

وكتبت على الآخر :

وأُمْكِنُ عاشِقِي من صحن خدِّي   وأعطي قُبْلَتِي من يشتهيها »

ولسنا نظن كما قال ابن بسّام أنها كانت على طهارة أثواب ، وقد وصف ابن زيدون ليلة معها من ليالي شبابه فقال : « وبِتْنَا بليلةٍ نجنى أقحوَان الثغور ، ونقطف رمَّان الصدور ، فلما انفصلت عنها صباحاً أنشدتها :

ودّعَ الصبرَ محبٌّ ودعكْ   ذائعٌ مِنْ سرهِ ما استَوْدَعَكْ

يقرع السنّ على أن لم يكن   زاد في تلك الخطا إذ شيعَكْ

يا أخا البدر سناءً وسنًى   حفظ الله زماناً أطلعَكْ

إن يَطُلْ بَعدكَ ليلِي فلكَمْ   بتُّ أشكو قصرَ الليلِ معكْ

فكانت ولّادة فى حياتها ومنتدياتها أشبه بعلية بنت المهدى فى المشرق

وقد بدأ حب ابن زيدون لها ، وعلاقته بها فى سنة ٤٢٢ أى وهو فى سن التاسعة والعشرين بعد سقوط الدولة الأموية ، وولاية أبى الحزم بن جهور على قرطبة ، وكان ابن زيدون مقرّباً من ابن جهور ، يشغل عنده منصباً عالياً ، ولكن سرعان ما تغير عليه قلب ابن جهور ، وأودعه فى السجن ، وأجرى عليه أنواعا من العذاب . ولكن ما تهمة ابن زيدون ؟

الغالب على الظن أنه طمح لأن يكون أميراً ، فليس هو أقل مِمَّن وثبوا على إمارات الأندلس ، واستولوا عليها . وهو شاب حسيب نسيب ، مملوء قوّة ، أديب كبير ، فما يمنعه أن يكون كابن جهور ، وابن عبّاد ، وابن الأفطس ، وأمثالهم ، فلما سجن اجتمع له فى سجنه الغرام بولادة ، وحزنه على نفسه فى السجن ، و بلوغه أن ابن عبدوس وزير ابن جهور الغنىّ الكبير يغازل ولّادة بدله ، ويريد أن يحل محلّه ، كما بلغه أن ولّادة من ناحيتها استجابت له ، أعرضتْ عن ابن زيدون ؛ كل هذا مع دقة مشاعره ، جعله يلتهب ناراً ، فهو يشعر فى كل هذه المعانى ، طورا بألمه من الفراق ، وطورا فى عتاب ابن جهور ، وغير ذلك . فلئن كان سَجنه نقمة عليه ، فقد كان نعمة على الأدب . ويظهر أنه فى هذه الآونة قال فى ولّادة :

متى أبُثُّكِ ما بى   يا راحتى وعذابى
متى ينوبُ لسانى   فى شرحه عن كتابى
الله يعلم أنّى   أصبت فيكِ لِمَا بى
فلا يطيبُ طعامى   ولا يَسُوغ شرابى
يا فتنة المتعزّى   وحجّة المتصابى

الشمسُ أنتِ توارَتْ عن ناظِرِى بالحجَاب
ما البدر شفّ سناه على رقيق السحاب
إلاّ كوجْهكِ لمّا أضاءَ تحت نقَاب

ويقول أيضاً :

ألاَ هَلْ لنا مِن بَعد هذا التفرُّق سبيلٌ ، فيشكو كلُّ حِبٍّ بما لَقِي
وقد كنتُ أوقاتَ التزوُّرِ فى الشِّتا أبِيتُ على جَمْرٍ من الشوق مُحْرِقِ
فكيف وقد أمسيْتُ فى حالِ قَطْعَةٍ لقد عجّلَ المقدورُ ما كنتُ أتّقِي
تمرُّ الليالى لا أَرَى البيْنَ يَنقَضِى ولا الصبر من رِقِّ التشوُّقِ مُعْتِقِى
سَقَى اللهُ أرضاً قد غدَتْ لكِ مَنزِلاً بكل سَكُوبٍ هاطلِ الوَبْلِ مُغْدِق

ويقول :

شَحَطْنا وما بالدار نأىٌ ولا شَحْطُ وشَطَّ بمن نهوَى المَزارُ وما شطُّوا
وأما الكرى مُذ لم أَزُرْكُم فهاجرٌ زيارتُه غِبٌّ ، وإلمامُه فرطُ
إذا ما كتابُ الوجْدِ أُشْكِلَ سَطْرُه فمن زَفرَتى شكلٌ ومن عَبرتى نَقْط
مِئُون من الأيّامِ خمسٌ قطَعتُها أسيراً ، وإن لم يَبْدُ شَدٌّ ولا قَمْط
بلغتُ المَدَى إذْ قصَّروا فقلوبهم مكامنُ أضغان أساودها رُقْط
فَرَرتُ فإن قالوا : الفرارُ إرابةٌ فقد فرَّ موسى حين همَّ به القِبْط

ويقول :

فدَيتُكِ ليس لى قلبٌ فأَسْلو ولا نفْسٌ فآنف إن جُفِيتُ

فإن يكُن الهوى داءً مُميتاً   لمن يهوَى فإنى مستَميت
أُسِرُّ عليكِ عَتْباً ليس يَلقَى   وأضمرُ فيكِ غيظاً لا يَبيت
وما رَدّى على الواشينَ إلاّ   رضِيتُ بحبِّ قاتلتى رَضِيت

أنّى أُضيِّعُ عهدَكْ   أم كيف أُخلفُ وعدَكْ
وقد رأتْكِ الأمانى   رِضاً فلم تتعَدّكْ
يا ليت ما لكِ عِندى   من الهوَى لىَ عندَكْ
وطال ليلكِ بَعدى   كطول ليلىَ بعدكْ
سَلِى حياتى أَهَبْها   فلستُ أملِك رَدَّكْ
الدهرُ عبْدِىَ لمّا   أصبحتُ فى الحبِّ عبدَكْ

ولما كان ابن زيدون مكلوم الفؤاد ، معذّب القلب بالحب ، أجاد فى الرثاء كما أجاد فى الغزَل ، ورأى الرثاء وسيلة من وسائل سيل دموعه ، فله فى ديوانه قصائد جيدة فى الرثاء ، منها رثاء فى أستاذه القاضى أبى بكر بن ذكوان وكان قاضياً عادلاً ، مطلعه :

أُنظر لحالِ السَّرْوِ كيف تحالُ   والدولة العَلْياءِ كيف تُدَالُ
مَن سُرَّ لمّا عاش ، قلَّ متاعُه   فالعيْشُ نومٌ ، والسرور خيَال

ويقول فيها :

نقَصَتْ حياتُك حين فضلك كاملٌ   هَلاّ اسْتُضيفَ إلى الكمالِ كمالُ
من للقضاء يعزُّ فى أثنائه   إيضاحُ مشكلةٍ لها إشكال
مَن لليتيمِ تتابعَتْ أرزاؤهُ   هَلَكَ الأبُ الجانى وضاعَ المالُ

هيهاتَ ، لا عهدٌ كعهدك عائدٌ   إذ أنت فى وجه الزمان جمال

ورثى أبا الحزم بن جهور بقصيدة مطلعها :

ألم تَرَ أن الشمسَ قد ضمها القبرُ   وأن قد كفَانا فقْدَها القمرُ البدرُ

وقال فى رثاء أُم أبى الوليد بن جهور قصيدة مطلعها :

هو الدهرُ فاصبر للذى أحدث الدهر   فمن شِيَمَ الأحرارِ فى مثلها الصبرُ

فإن أُنِّثتُ فالنفسُ أُنثَى نفيسةٌ   إذ الجسمُ لا يسمو بتذكيرِه ذِكْرْ

حَصَانٌ إذا التّقوَى استبَدَّت بذكرها   فمن صالِح الأعمالِ يُستوْضَحُ الدهرُ

الخ ... الخ

ومن مشهور قصائده التى عارضها كثير من الشعراء من بعده ، فلم يبلغوا مبلغه ، قوله :

أضحَى التّنائى بديلاً من تدَانينا   ونَابَ عن طِيبِ لُقْيانا تَجافينا

ألاّ[1] وقد حان صُبْحُ البيْنِ صَبَّحَنا   حيْنٌ ، فقام لنا للحَيْنِ ناعِينا

مَن مُبلِغُ المُلْبسِينا بانتزاحِهِمُ   حزْناً مع الدهر لا يَبْلَى ويُبْلينا

أنّ الزمانَ الذى ما زالَ يُضحِكُنا   أُنْساً بقربهمُ قد عاد يُبْكينا

غِيظَ العدا من تَساقِينا الهوى فدعَوْا   بأنْ نغصَّ فقال الدهرُ آمينا

فانحلَّ ما كان معقوداً بأنفُسنا   وانْبَتَّ ما كان موصولا بأيدينا

وقد نكون ، وما يُخشَى تفرُّقُنا   فاليوم نحن ، وما يُرجَى تلاقينا

يا ليتَ شعرى ولم نُعتب أعادِيَكم   هل نال حظًّا من العُتبَى أعادينا ؟

---

(١) بمعنى هلا .

بِنْتُمْ وبِنَّا ، فما ابتَلَّت جوانحنا شوقاً إليكم ، ولا جفَّت مآقينا
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسَى لولا تأسِّينا
حالَتْ لفقدِكُم أيَّامنا فغدَتْ سوداً ، وكانت بكم بيضاً ليالينا

... الخ

وكلها على هذا النمط من الجمال .

وله أشعار من نوع آخر غير النمط التقليدى كقوله :

سقى الله أطلال الأحبَّة بالحمى
وحاكَ عليها ثوب وشْيٍ مُنَمْنَما
وأطلع فيها للأزاهِرِ أنجُما
فكم رَفَلَتْ فيها الخرائدُ كالدُّمَى إذ العيشُ غَضٌّ والزَّمانُ غُلاَمُ
أهيم بجبّارٍ يَعِزُّ وأخْضَعُ
شذا المسك من أردانِه يتضوَّعُ
إذا جئتُ أشكوهُ الجوى ليس يَسْمَعُ
فما أنا فى شىء من الوصْل أطمع ولا أن يزورَ المُقْلَتَيْنِ منامُ
قضيبٌ من الريحان أثمرَ بالبَدْرِ
لواحظُ عَيْنَيْهِ مُلِئْنَ من السِّحْرِ
وَدِيباَجُ خدَّيْه حكى روْنَقَ الخمرِ
وألفاظه فى النطق كاللؤلؤ النَّثْرِ وريقَتُهُ فى الإرتشَافِ مُدامُ

ومن قوله أيضاً على النمط المأثور :

يجورُ على قلبى هوًى ويُجيرُ ويأمرنى : إن الحبيبَ أميرُ

أغارُ عليــه من لِحَاظِى صيانةً وأُكرِمُه : إن المحب غَيورُ
أخِفُّ إلى لُقْيَا الحبيب وإننى لعمرُكَ فى جُــلَّى الأمورِ وَقورُ

وقال :

رَعَى الله مَن يُصْلِي فؤادى بحبِّه سعيراً ، وعينى منه فى جَنَّةِ الخلْدِ
غزاليّةُ العينين شمسيَّة الســنا كثيبيةُ الرِّدْفَينِ غُصْنِيةُ القَــدِّ
شكوتُ إليهــا حُبَّها بمدامِعى وعلَّمتُها ما قد لقيتُ من الوَجْدِ
فجادتْ وما كادتْ علىّ بخدِّها وقد ينبُع الماءِ النَّميرُ من الصَّلْدِ
فقلتُ لهــا هاتى ثَنَاياكِ إنَّنى أُفَضِّلُ نوّارَ الأقَاحى على الورْدِ
ومِيلى على جِسْمى بجسْمِك فانثنَتْ تُعيدُ الذى أمَّلتُ مِنْها كما تُبْدِى
فيــا ساعَةً ما كان أقصرَ وقتَها لدىَّ تَقَضَّت غيرَ مذْمومَةِ العهدِ

وله يتغزل فى ولادة أيضاً :

يا نازِحاً وضَمِـيرُ القلب مثْواهُ أنستْك دنياكَ عبداً أنت مولاه
ألْهتْك عنه فُــكاهات تلَذُّ بها فليس يجرى ببَالِ منكِ ذكْراهُ
عَلَّ الليــالى تُبقِينِى إلى أَملٍ الدهر يعــلم والأيامُ معناهُ

ويقول :

غريبٌ بأقصَى الشرق يشكو معصّبا يحمِّلها منه السَّلامَ إلى الغَرْب
فما ضَرّ أنفاس الصَّبَا فى احتمالهـا سَلاَمُ فتًى يُهديه جسمٌ إلى قلب

وحدث أن كان لولاّدة جارية سوداء تغنى لها ، وربمــا كانت إرثا من قصر أبيها ، فغازل ابن زيدون هذه الجارية السوداء ، فاغتاظت ولاّدة غيظاً شديداً ،

وربما فعل ابن زيدون هذا ليثير فيها غريزة الغيرة ، فقالت :

لو كنتَ تُنصِفُ فى الهوى ما بيننا   لم تَهْوَ جارِيتى ولم تتخَيَّرِ

وتركت غصناً مُثمِراً بجماله   وَجنحْتَ للغصْنِ الذى لم يُثمرِ

ولقد علمتَ بأنَّنِى بدْرُ السما   لكن ولِعْتَ لشقوتى بالمشترى

وربما اتصلت ولّادة هى الأخرى بابن عبدوس انتقاماً منه ، وإثارة لغيرته ، جزاءً وفاقا .

ولما علم ابن زيدون أن ابن عبدوس اتصل بها ، قال فيه :

أكرِمْ بولّادةٍ ذخراً لمدَّخِرٍ   لو فرّقَتْ بين بيطارٍ وعطَّارِ

قالوا أبو عامرٍ أضحى يلمّ بها   قلتُ الفراشةُ قد تَدْنو من النار

عيَّرتمونا بأن قد صار يخلُفُنا   فيمن نحبُّ وَما فى ذَاكَ من عار

أَكْلٌ شهيٌّ أَصبْنَا من أطايبه   بعضاً ، وبعضاً صفَحْنَا عنه للفَار

والظاهر أنها لم تكن تحب ابن عبدوس كابن زيدون ، وإنما بَهَرها ابن عبدوس بماله ، أو حدث ما جعلها تغيظ ابن زيدون فى التظاهر بحب ابن عبدوس .

على كل حال بقى فى السجن على حسب قوله نحو خمسمائة يوم ، أى سنة ونصف تقريباً . وزارته أمه يوما فى السجن ، فبكت وأثارت شجونه ، فقال فى ذلك قصيدته الجميلة التى مطلعها :

ألم يأن أن يَبْكِى الغمامُ على مِثْلى   ويطلبَ ثأْرِى البرقُ مُنْصَلِتَ النَّصل

وهَلَّا أقامتْ أنجُمُ الليلِ مأتماً   لتَنْدُبَ فى الآفاق ما ضاعَ من ثَلى[1]

(١) الثل : ما جمعه الإنسان فى حياته من جاه ومال ومنصب الخ .

ومنها :

ولو أنني أسْتطيعُ كَيْ أُرْضىَ اليدا شريتُ ببعض الحِلْمِ حَظًّا من الجهلِ

وفيها يخاطب أمه فيقول :

أَقِلِّى بكاءًا لَسْتِ أول حرةٍ طوَتْبالأسى كشْحًاعلىمضضالثُّكْلِ

وفى أمٍّ موسى عبْرَةٌ أن رَمتْ به إلى اليَمِّ فى التابوت فاعتبرى واسْلِى

لعلَّ المليك المجملَ الصُّنْع قادراً له بعد يأسٍ سوف يُجمل صنْعاً لى(١)

ثم استرسل فى عتاب ابن جهور . ولكن يظهر أن التهمة التى اتهم بها كانت لم تحتمل الشك ، فقد تركه ابن جهور فى السجن ، وكان لا يفارقه حبُّ ولاّدة ، فبعث إليها بقصيدة طويلة يقول فيها :

إنِّى ذكرْتُكِ بالزَّهراء مشْتَاقَا والأفْقُ طَلْقٌ ومرأى الأرضِ قد راقَا

وللنَّسيم اعتلال فى أصائله كأنّهُ رَقَّ لى فاعتَلّ إشْفَاقا

والرَّوْضُ عن مائهِ الفِضِّىِّ مبْتَسمٌ كما شَقَقْت عن اللّبّات أَطوَاقا(٢)

* * *

كلٌّ يَهيجُ لنا ذِكْرَى تَشَوّقُنا إليكِ لم يعْدُ عنها الصدرُ أن ضاقا

لا سكَّنَ اللهُ قلباً عنَّ ذكرُكُمْ فلمْ يطرْ بجناح الشوق خفّاقا

* * *

فالآن أَحْمَدُ ما كنَّا لعهدكم سلَوْتُمُ وبقينا نحن عُشّاقا

وبعثها إليها فلم ترد عليه . واستشفع بأستاذه الذى ذكرناه قبل ، وهو أبو بكر مسلم بن أحمد ، ورجاه أن يتوسط له عند ابن جهور و بعث إليه بقصيدة مرَّ بعضها و يقول فيها :

---

(١) أى لعل الملك حال كونه قادراً على صنع جميل ، سوف يعمل على خلاصى .

(٢) اللبات : موضع القلادة من الصدر .

عليك أبا بكرٍ بكَرْتُ بهمَّة   لها الخطَرُ العالى وإن نالها الحطُّ
أبى بعدَ ما هِيلَ التُّرَابُ على أبى   وَرَهْطى َفذًّا حينَ لم يَبْقَ لى رهْط
ولولاك لم تُقْدحْ زِنادُ قريحتِي   فيلْتَهِبَ الظلماءَ من نارها سقْط

* * *

أَتدنو قطوفُ الجنّتَيْنِ لمعْشَرٍ   وغايتِيَ السِّدْرُ القليل أو الخمط

* * *

يُوَلُّونِني عُرْضَ الكراهةِ وَالْقِلَى   وما دَهرُهُمْ إلا النفاسةُ والغَمْط
وقد وَسَمُونى بالتى لست أهلها   ولم يُمْنَ أمثالى بأَمثالها قط

* * *

وإنى لراجٍ أن تعود كبدْئِها   لىَ الشِّيمةُ الزهراءِ والخلقُ السَّبْط
فما لكَ لا تختصُّنى بشفاعةٍ   يلوحُ على دهرى لمِيسَمِهَا علْط[1]

ويظهر أن تدخل أستاذه قد نجح ، فقد رأيناه عاد إلى البلاط ، ونراه بعد ذلك يمدح ابن جهور ، ولكن لم نر ولاّدة قد عادت إلى صداقتها القديمة لابن زيدون ، بل نرى أنها انسحبت بعد ذلك من الميدان الأدبى ، وعاشت سنين فى بيت ابن عبدوس . ورأينا بعد ذلك أن أبا الوليد ابن جهور بعد أن مات أبوه وتولى هو مكانه ، قد أشفق على ابن زيدون من ضناه فى الحب ، فأرسله سفيراً عنه إلى بعض أمراء الأندلس ، لعله ينسى حبّه .

ثم إن الزمان الذى يشيب كل شاب ، ويهرم كل فتًى وفتاة ، ويميت كل حىّ ، قد عدا على ولاّدة ، فأذهبها نضرة شبابها ، ونظرت فإذا هى فى الثمانين من عمرها من غير زواج ، ولكنها كانت خليلة هذا أو ذاك .

ونظرت أيضاً فرأت أن حرارتها فى الحب قد هدأت ، وأن من كانوا يحبونها

(١) العلط : الوشم عرضا فى العنق .

لم يعودوا يتشببون بها ، لأن الناس إنما كان يعجبهم فيها شبابها . فإذا ولّى الشباب ولّى الحب ، وسلا ابن زيدون ، وسلا ابن عبدوس ، وعاشت هى بذكريات أمسها لا بيومها .

وقد رووْا أن ولاّدة أخذت على ابن زيدون بعض معايب كانت تقصها على الوسطاء ، وتعتذر بها عن نبوتها عنه . ولسنا نبرئ ابن زيدون من كل عيب ، فلا بد له من عيوب فيه حالت بينه و بين استمرار ولادة فى حبه ، وكثرة الناقمين عليه من أصحابه . والناس يخلطون كثيراً فى الصفات فينسبون إلى النابغة فى ناحية كمالا فى النواحى الأخرى ، وهذا غير صحيح . فقد يكون زعيما كبيراً ، أو شاعراً عظيما فى نواحى خاصة ، على حين أنه ساقط كل السقوط فى نواحٍ أخرى . بل قد تكون نقطة قوته نامية على حساب ضعفه فى النواحى الأخرى ، كالأعمى ينمو سمعه على حساب بصره . ولعلّ مترجمى ابن زيدون قد وقعوا فى هذا الخطأ ، فجندوا أنفسهم للدفاع عنه فى كل منقصة تنسب إليه ، ولعل خصومه كانوا محقين فى توجيه اللوم له على بعض تصرفاته ، ولكن لعلنا لم نظفر بأشعار ابن زيدون الجميلة إلا لما فيه من مزايا وعيوب . وأى الناس تصفو مشاربه ؟ .

ولما استطال ابن زيدون مدة سجنه ، كتب إلى أبى الوليد بن جهور أن يستشفع له عند أبيه أبى الحزم ، فعفا عنه ، ثم لما مات أبو الحزم وتولى مكانه ابنه أبو الوليد قربه إليه ، ولكن سرعان ما سمع أبو الوليد لأقوال وشاة ابن زيدون ، وهمّ بإعادته إلى السجن ، فخاف ابن زيدون إذ كان قد ذاق مرارة السجن ، واعتزم أن يفرّ من قرطبة إلى إشبيلية ، حيث كان يحكمها المعتضد بن عباد . ولم يشأ أن يفرّ مفاجأة ، فراسل أصدقاءه هناك ، والمعتضد نفسه ، فوعدوه أن يستقبلوه استقبالا حسناً ، ففرّ إليها ، وصادف أن كان وقت نزوله عيد الأضحى ، فجاشت نفسه بالشعر فقال :

خَلِيلَيَّ لا فِطرٌ يسُرّ ولا أَضحى   فما حالُ من أَمسَى مشُوقاً كما أَضحى

وظل مدة المعتضد بن عباد ، مكرماً معززاً ، ولما مات المعتضد رثاه رثاء طويلا فى قصيدة مطلعها :

أعبّادُ يا أَوْفَى الملوكِ لقد عَدَا   عليك زمانٌ من سَجِيَّتِه الغَدْرُ

وكذلك كان شأنه مع ابنه المعتمد ابن عباد . ثم إن حسّاد ابن زيدون نشطوا من جديد ، كشأنهم معه فى كل بلد حلّ فيه ، فأرادوا أن يغيّروا عليه قلب المعتمد بن عباد ، فكانوا يرمون الرُّقَع ، ويقصِّدون القصائد فى تحذيره من ابن زيدون ، فلم يأبه لهم ، ولم يسمع لكلامهم ، فلما يئسوا من ذلك أوعزوا إلى ابن عباد أن يرسل ابن زيدون فى جيش لإخماد فتنةٍ حتى يستريحوا منه ، وقالوا لابن عباد : إن له من الشجاعة والفتوة ، وحب الناس له ما يجعله أهلا لذلك . فسمع لكلامهم ، فأمره بالسفر مع الجيش مع أنه كان مريضاً ، فخضع للأمر ، وسافر . وعاد فلم يلبث إلا قليلا حتى مات . رحمه الله ... ولابن زيدون ناحية نثرية بديعة سنتكلم عنها فى النثر .

ابن عَبَّاد

أسرة بنى عباد أسرة تنتمى إلى النعمان بن المنذر اللخمى ، آخر ملوك الحيرة ، الملقّب بماء السماء ، وكثيراً ما كان يمدحه الشعراء بماء السماء ، مستخدمين الاسم والمعنى ، وأفرادها يعتزّون بالانتساب إليها ، وقد كانوا أشهر ملوك الطوائف ، فملكوا إشبيلية وقرطبة ، وفيهم يقول القائل :

مِن بنى المُنْذِرِين وهو انتسابٌ   زادَ فى فخرهم بنو عَبَّادِ

فِتْيَةٌ لم تلد سواها المَعَالى والمعالى قليـــــلةُ الأوْلادِ

عرفوا بالفقه والأدب والشجاعة وعلو الهمة ، وكان المعتضد أبو المعتمد شاعراً ، ولـكنه دون ابنه المعتمد .

وقد تجمعت للمعتمد أسباب كثيرة ألهبت عواطفه ، على اختلاف أنواعها ، فهو محبٌّ شرّيب تلعب به عواطف الحب ، ثم تلهبها الخمر . ومن ناحية أخرى يعتز أحياناً فى ملـكه ، فتمدحه الشعراء ويُلهبون عنـده عواطف المجد والفخر ؛ ومن ناحية يفقد ولديه فى الحروب ، وكانا شابَّين ماجدين ، فتثور عنـده عاطفة الحزن ، وأخيراً يذهب عنه عزه وملـكه ، فيذلّ بعد العزّة ، ويهون بعد العلو ، ويفتقر بعد الغنى ، وينظر لحاله من جميع النواحى ، فيرثى لها ، ويبكى عليها بكاء مرًّا ؛ كل هذه الأسباب إذا اجتمعت فى شاعر ، أنطقته بخير الأقوال ، وهو فى شعره هذا لا يتملق بمديح ، ولا يتزلف لسلطان ، إنما يشعر لنفسه ، فحياته شعره ، وشعره حياته .

ويمكن تقسيم حياته إلى ثلاث فترات :

(١) حياته الأولى فى شبابه ، تغمرها مجالس الأنس : خمر ونساء ، ومجالس أنس وأدب ، وحرب أحياناً . وهذا قبل أن يتولى المُلك . وفى هذه الفترة كان يسير مرة مع صديقه الشاعر الـكبير ابن عمّـار على شاطئ نهر ، فَخَطر على بال ابن عباد شطر بيت وهو :

صَنَعَ الرِّيحُ مِن الماءِ زَرَدْ ...

ثم أُرْتِج عليه فلم يستطع إكماله ، فقال لابن عمّار : أَجِزْ . فأُرتج عليه أيضاً ، فسمع جارية وراءه تقول :

... يا لَهُ دِرْعاً منيعاً لو جَمَدْ

وفى رواية أخرى : . . . . أىّ دِرْعٍ لقتالٍ لو جَمَدْ

فالتفت وراءه ، فرأى فتاة أعجب بجمالها ، وبحسن بديهتها . وكانت مولاة يظهر أنها أُسرت فى الحروب ، أو مولَّدة ، فسأل عن اسمها ، فقيل إن اسمها « اعتماد » ، وكان سيدها يسمى « رُمَيْك بن الحجاج » فاشتراها منه ، وأحبها وملأت قلبه ، وشغلت جزءاً كبيراً من حياته ، وتسمى « اعتماد الرُّمَيْكِيَّة » . وقد أنجب منها بعض أبنائه ، فشاركته فى نعيمه وبؤسه . ويحكون أنها رغبت مرة أن تسير فى طين كعادتها قديماً ، فعمل لها ابن عباد وَحْلاً من مسك وعنبر وكافور ، تدليلاً لها ، فلما غضبت مرة كعادة النساء أيام بؤسه وقالت له : « لم أنَلْ منك يوم سرور » ، ردّ عليها وقال : « ولا يوم الطين ؟ » ، فخجلت وسكتت .

على كل حال كانت هذه فترة مرح وسرور وترف ونعيم .

(٢) ثم تولى المُلك ، فزاد ترفه ونعيمه وعظمته ومسئوليته ، وقصده الناس من كل فج ، واتسع ملكه اتساعاً كبيراً ، فضم قرطبة إلى إشبيلية ، وفى ذلك الحين قالوا : إنه لم يقف بباب أحد من الشعراء ما وقف ببابه . ثم عدا عليه الزمان الذى لا يرحم ، فجاءت فترة قوى فيها ملك الإسبان ، حتى وضع الجزية على ابن عباد . وأخيراً لمّا أحسّ ملك الإسبان بقوته رفض أن يأخذ الجزية ، وأرسل رسولا إليه ، فضرب ابن عباد الرسول ، وقتل من معه ، وقال كلمته المشهورة : « لأن أكون راعى جمل عند يوسف بن تاشفين[1]، خير من أكون قائداً كبيراً عند الأذْفونش » .

---

(١) كان ابن تاشفين ملك المغرب إذ ذاك .

أحسّ الناس فى ذلك الوقت الخطر الداهم عليهم من الإسبانيين ، حتى قال قائلهم :

حُثُّوا رَوَاحِلَكُمْ يا أهل أندَلُسٍ فما المُقامُ بها إلاّ من الغَلَطِ
السِّلْكُ يُنْثَرُ من أطرافه وأرى سِلْكَ الجزيرة منثوراً من الوَسَطِ
من جاوَر الشَّرَّ لم يأْمَنْ عَوَاقِبَهُ كيف الحياةُ مع الحيّاتِ فى سَفَطِ

فلما سمع رجال الأندلس ، أعيانها وفقهاؤها بذلك ، اجتمعوا وقالوا : هذه مدن الإسلام قد تغلّب عليها الفرنج ، وملوكنا يقاتل بعضهم بعضاً ، و إن استمر الحال على هذا المنوال ملك الفرنج جميع البلاد ، وجاءوا إلى القاضى عبد الله بن محمد بن أدهم ، وفاوضوه فيما نزل بالمسلمين ، وتشاوروا فيما يفعلون ، وآخر ما اجتمع عليه رأيهم أن يكتبوا إلى يوسف بن تاشفين ملك الملثمين « المرابطين » بالمغرب يستنجدونه ، فاجتمع القاضى بالمعتمد ، وأخبره بما جرى ، فوافق على أنه مصلحة ، وقال له : تمضى إليه بنفسك ، فكتب القاضى إليه ، فما لبث ابن تاشفين أن خرج مسرعاً إلى مدينة « سبتة » وعبَر هو وعسكره إلى الجزيرة الخضراء ، وهى مدينة فى برّ الأندلس ، وأرسل إلى جيوشه أن يلحقوا به ، وكتب إلى ابن عباد بذلك ، ووقعت وقعة كبيرة بين ابن تاشفين ومن تبعه من رجال الأندلس ، و بين الأذْفونش ، وهى الواقعة المشهورة بوقعة الزّلاّقة ، وفيها انهزم الإسبانيون ومن معهم بعد قتال شديد ، وكان ذلك فى سنة ٤٧٩ ، واتُّخذ هذا عاماً مشهوراً يؤرخون به ، فيقولون « عام الزّلاّقة » . وحارب مع ابن تاشفين ابن عباد ، وأبلى بلاء حسناً ، وجُرح مراراً ، وتعرض للموت مراراً [١] .

---

(١) انظر ابن خلكان .

وكان المظنون أن يرحل ابن تاشفين عن الأندلس نهائيا بعد انتصاره ويعود إلى بلاده ، ولكن أطمعه أصحابه فى البلاد فسمع لقولهم بعد أن رأى ثروتها ونضارتها ، وكثرة مالها . وربما فكّر أيضاً من ناحية صلاح المسلمين ، فرأى أن البلاد مُقَسَّمة إلى أمراء لا رابطة بينهم ، وأنهم بهذا الوضع لا يستطيعون أن يصدّوا الإسبانيين ، وأن القوة فى الوحدة ، فعزم أن يزيل ملوك الطوائف ، ويضع يده على البلاد . وأيا ما كان فقد رحل يوسف بن تاشفين ، ثم عاد إلى الأندلس ، ببَرْبَرِه الأجلاف ، وأزال ملوك الطوائف ، ومن بينهم المعتمد بن عباد .

(٣) قاتل ابن عباد أشد قتال ، دفاعاً عن بلاده ، حتى اضطربت إشبيلية اضطرابا خرج الناس معه من منازلهم ، وبعضهم ألقى نفسه فى البحر . وفى ذلك يقول :

لمّا تماسَكَتِ الدُّموعْ ... وتَنَهْنَهَ القلْبُ الصَّديعْ
قالوا الخضُوعُ سِيَاسةٌ ... فَلْيَبْدُ منكَ لهمْ خضوع
وألذُّ من طعم الخضو ... عِ على فمى السُّمُّ النَّقيع
إن تَسْتَلِبْ عنِّى الدُّنا ... مُلْكِى وتُسْلِمنى الدُّموع
فالقلبُ بينَ ضلوعِهِ ... لم تُسْلِمِ القلب الضُّلوع
لم أُسْتَلَبْ شرفَ الطِّبا ... عِ ، أَيُسْلَبُ الشرفُ الرفيع
قد رُمْتُ يومَ نِزَالهمْ ... ألاّ تُحَصِّنَنِي الدُّروع
وبَرَزْتُ لَيْسَ سِوى القميـ ... ـص عن الحشَا شىءٌ دَفُوع
وبذلْتُ نَفْسى كى تَسِيـ ... ـلَ إذا يسيلُ بها النَّجيع
أَجَلِى تأخّرَ لم يكنْ ... بِهَوَاىَ ذُلّى والخشوع

ما سِرْتُ قَطُّ إلى القتا ... لِ وكان من أملى الرجوع

شِيَمُ الأُلَى أَنا مِنْهُمُ ... والأصلُ تَتْبعهُ الفرُوع

وشنت الغارة فى البلد ، ولم يترك البربر لأحد من أهلها ثبدا ولا لبدا ، وانتُهِبتْ قصور المعتمد نهباً قبيحاً ، وأُخذ هو قبضاً باليد ، وأخذ هو وأهله ووضعوا فى السفن ، وكان له ولدان ، المعتدُّ بالله ، والراضى بالله ، وكانا بمعقلين من معاقل الأندلس المشهورة ، لو شاءا أن يمتنعا بهما ، لم يصل أحد إليهما ، فضُيق على المعتمد بن عباد ، وأُثقل بالحديد ، ليكتب لابنيه بأن يسلّما ، فلما أكثر أبوهما من ذلك استسلما ، ثم قتلا غيلة . وللمعتمد شعر كثير فى رثاء ولديه هذين ، كقوله :

يقولون صَبْرٌ لا سبيلَ إلى الصَّبْر ... سأبكى وأبكى ما تَطَاول من عُمْرى

هوى الكوكبان ، الفتحُ ثم شقيقُه ... يزيد ، فهل بعد الكواكب من صَبر

أفَتْحُ : لقد فَتَّحْت لى باب رَحْمَةٍ ... كما بيزيد اللهُ قدْ زَاد فى أجْرِى

هوَى بكما المقدار عنِّى ولم أمُت ... وأُدْعَى وَفِيًّا ! قد نكَصتُ إلى الغَدْرِ

تَوَلَّيْتُما والسِّنُّ بَعْدُ صغيرةٌ ... ولم تلبثِ الأيامُ أن صغُرتْ قَدْرِى

فلو عدتُما لاخْتَرْتما العَوْدَ فى الثَّرى ... إذا أنتُما أبْصَرْتُمانىَ فى الأسْر

يُعيدُ على سَمْعى الحديدُ نشيجَه ... ثقيلاً ، فتبكى العين بالحسِّ والنَّقْر

مَعِى الأخواتُ الهالكاتُ عَلَيْكما ... وأمُّكما الثَّكْلَى المضَرَّمةُ الصدْرِ

فتبكى بدمْعٍ لَيْسَ للقَطْر مثلُه ... وتَزْجُرُها التَّقْوى فَتُصْغِى إلى الزَّجْرِ

أبا خالدٍ : أَورَثْتنِي البثَّ خالدًا ... أبا النَّصْرِ : مُذْ ودَّعْت ودَّعَنِى نصْرى (١)

وقبلَكما ما أَوْدَعَ القلب حسرةً ... تجدَّدُ طولَ الدهر ، ثُكْلُ أبى عَمْرِو (٢)

---

(١) أبو خالد ، هو ابنه يزيد ، وأبو النصر : هو ابنه الآخر الفتح .

(٢) أبو عمرو هذا هو ابن ثالث له قتل فى قرطبة فى فتنة ابن عكاشة .

ولما انهزم ابن عباد ، وخرج بجواريه وأمواله ، أخذ الناس يبكون بدموع غزار عندما علموا بخروجه ، وقال فى ذلك الشاعر المشهور ابن اللَّبَّانة قصيدة مطلعها :

تبكى السماء بدمع رائحٍ غادِى على البهاليلِ من أبناء عبَّادِ

ومنها :

يا ضَيْفُ أقْفَرَ بيتُ المكْرُماتِ فخذْ فى ضَمِّ رَحْلِكَ واجْمَع فضلة الزادِ

وقال ابن حَمْدِيس :

ولمَّا رَحَلتُم بالنَّدى فى أَكُفِّكم وَقُلْقِل رَضْوَى منكُمُ وثَبيرُ
رفَعتُ لسانى بـ « القيامةُ قد دَنتْ » فهذى الجبال الراسياتُ تسيرُ

وأُخرج من ملكه ، ووضع فى بلدة تسمى « أغْمَاتْ » قرب مرَّاكش ، وقال فى ذلك أبو بكر الدانى وهو ابن اللبَّانة أيضاً :

لكلِّ شىء من الأشْيَاء ميقَاتُ وَلِلْمُنَى من مناياهن غاياتُ
والدهْرُ فى صِبْغَةِ الحِرْباء مُنْغَمسٌ أَلوانُ حالاته فيها استحالاتُ
ونحْنُ من لعب الشِّطْرَنجِ فى يده وربما قُمِرتْ بالبَيْذَق الشَّاةُ

* * *

انفض يديكَ من الدنيا وساكنها فالأرضُ قد أقفَرتْ والنَّاسُ قد ماتوا
وقل لعالَمِها الأرضىِّ قد كَتَمَتْ سريرةَ العالِم العلوىّ أغْمَاتُ

فكان فى أسره فقيراً معذباً ، وما زال حاله يسوء حتى أصبح فى عيشة ضنك . . . مرّ العيد عليه مرّة ، فذكر ما هو فيه من بؤس ، وما كان فيه من عز ، فقال :

فيما مضى كنتَ بالأعياد مسرورَا فساءَكَ العيد فى أغماتَ مأسُورَا

ترى بناتكَ فى الأطمارِ جائعــةً　　يَغزِلْنَ للناسِ لا يَملِكْنَ قطميرا
برزْن نحوكَ للتسليم خاشعةً　　أبصارُهنّ حسيراتٍ مكاسيرا
يَطَأْنَ فى الطِّينِ والأقدامُ حافيةٌ　　كأنّها لم تَطَأْ مِسْكاً وكافورَا
قد كان دهرُكَ إن تأمُرْهُ ممتثِلاً　　فردّكَ الدهرُ منْهِيًّا ومأمورا
من باتَ بعدَكَ فى مُلْكٍ يُسَرُّ به　　فإنما باتَ بالأحلامِ مغرُورَا

وثقلت عليه القيود مرة ، وعضت ساقيه ، فقال :

قيْدِى : أمَا تعلَمُنى مُسْلِماَ　　أَبيْتَ أن تُشْفق أو ترحَما
دَمِى شرابٌ لك واللّحْمُ قد　　أَكَلْتَهُ ! لا تَهشِمِ الأعظُما
يُبْصرنى فيكَ أبو هاشمٍ　　فينثنى والقلبُ قد هُشِّما
إرْحم طفيلاً طائشاً لُبُّهُ　　لم يَخشَ أن يأتيك مُسترْحِمَا
وأُرحَمْ أخيّاتٍ له مثلَه　　جرّعتَهنّ السمّ والْعَلقَما
منْهُنّ مَن يَفهمُ شيئاً فقد　　خِفْنا عليه للبكاءِ الْعَمَى
والغير لا يفهم شيئاً ، فما　　يَفْتَحُ إلاّ لرضاعٍ فما

والغريب أن الشعراء لم يخجلوا أن يسألوه وهو على تلك الحال فقال :

سألوا اليَسيرَ من الأسيرِ وإنه　　بسؤالهم لأحقّ منهم فأعجبِ
لولا الحياءُ وعزّةٌ لَخْمِيَّةٌ　　طَيَّ الحشا لحكاهمُ فى المَطْلَبِ

وهكذا كان كل شىء يذكره بماضيه ، فيشعُر فيه . وشعره كله صادق ؛ إن كان فى لهوه وعزّه فشعره عزّة ولهو ، وإن مات بعض أولاده فشعره رثاء

وحنين ، و إن وقف فارساً فى موقف البطولة فشعره بطولة ، و إن أُسر وسجن فشعره بكاء وحزن وذِكر لماضٍ . وكلها أدب صادق حى ، يستطيع القارئ أن يلحظ هذه الفترات كلها فى شعره ، فهو ظل له . فإن رأيت غزلاً هادئاً ، وحُبًّا صادقاً ، فذلك فى الفترة الأولى ، مثل قوله :

فتَـكَتْ مُقلتاه بالقلب منِّى   وبكَتْ مقْلتاىَ شـوقاً إليْـهِ
فحَـكَى لحظُهُ لنـا سيفَ عَبّا   دٍ ولَحْظِى له سَـحَابَ يَدَيه

وقوله :

كتبتُ وعندِى من فراقك ما عندى   وفى كبِدى ما فيه من لوْعَةِ الوَجْدِ
وما خطّتِ الأقلامُ إلا وأَدمُعِى   تَخُطّ سطور الشوق فى صفحة الخَدّ
ولولا طِلاَبُ المَجْدِ زرتُك طيّـهُ   عَميـداً كما زار النّدَا ورق الوَرْد

ومثل قوله :

ولقد شربتُ الراحَ يسطَعُ نورُها   والليـلُ قد مَدّ الظلام رِداءَ
حتى تبدَّى البـدرُ فى جوزائه   مَلِـكاً تناهى بهجةً وبَهاءَ
وتناهضَت زُهْر النجوم يحفـه   لَألاؤها فاْسـتكملَ اللألاءَ
لما أراد تنزُّها فى غَـرْبِهِ   جَعَـل المَظَلّةَ فوْقه الجوزاء
وترى الـكواكبَ كالمواكب حوله   رَفَعَتْ ثُرَيَّاها عليـه لواءَ
وحكيته فى الأرض بين مواكبٍ   وكواعبٍ جمعتْ سَنًا وسَـناءَ
إن نشَّرَتْ تلك الدُّروع حَنادِسًا   ملأتْ لنـا هٰذى الـكئوسَ ضيـاء
وإذا تغنّتْ هـذه فى مِزهرٍ   لمْ تألُ تلك على التَّريكِ غناء

وقوله :

يا صفوَتى من البَشَرْ　　يا كوكباً ، بل يا قَمَرْ
يا غُصنةً إذا مَشَت　　يا رَشَأً إذَا نَظَرْ
يا نفَس الروضة قد　　هبّتْ لها ريح سَحَرْ
يا رَبَّةَ اللحظِ الذى　　شَدَّ وِثاقًا إذْ فَتَر
مَتَى أداوِى بِندَا　　ىَ السَّمعَ منِّى والبَصَر
ما بفؤادى من جوًى　　بما بِفِيكِ مِن خَصَر

و إذا رأيت شعره فخراً وشمماً مملوءاً حماسة أو رثاء فذلك فى الفترة الثانية ، و إذا رأيت بكاء على الماضى ، ومقارنة بين ماض زاهر ، وحاضر بائس فاعلم أن هذا ظلّ للفترة الثالثة كقوله :

قُبِّح الدّهرُ فماذا صَنَعا　　كلما أَعْطى نفيساً نزعاَ
قد هوَى ظُلما بمن عادتُه　　أن ينادِى كلَّ مَن يهوى « لعاَ »
رَاحَ لا يملِكُ إلا دعْوَةً　　جَبرَ اللهُ العُفَاةَ الضُّيَّعا

وقوله :

بكَيْتُ إلى سِرْب القَطَا إذ مَرَرْن بى　　سَوارِح لا سِجْنٌ يعوقُ ولا كَبْلُ
ولم يَكُ واللهِ المعِيدِ حَسَادَةً　　ولكنْ حنيناً أنَّ شكْلى لها شَكْلُ

لِنَفْسى إلى لُقْيا الحِمام تَشَوُّقٌ　　سِوَاىَ يحبّ العيْشِ فى ساقِه حَجْلُ
ألا عَصَمَ اللهُ القطا فى فراخها　　فإنَّ فراخِى خانَها الماءُ والظِّلُّ

وقوله :

كُنْتُ حِلْفَ النَّدا وربَّ السّماحِ   وحبيب النفوس والأرواح

إذْ يمينِي للبَذْلِ يوْمَ العَطايا   ولقبْضِ الأرواح يوْم الكِفاح

وأنا اليوْم رَهْنُ أسْرٍ وفقْرٍ   مُسْتَباحُ الحِمَى مَهِيضُ الجنَاحِ

لا أجيبُ الصَّريخَ إن حَضَرَ النا   سُ ولا المُعْتَفِين يومَ السَّماح

عادَ بِشْرِي الذى عهدتُ عُبُوسا   شغَلَتْني الأشْجَانُ عن أفراحى

فالْتِمَاحى إلى العيون كريهٌ   ولقد كان نزهَةَ اللُّمّاح

الخ ...

وشعره من روح شعر ابن زيدون ، وقد كانا متعاصرين ، وكان ابن زيدون يمدح ابن عباد ، فلئن كان ابن عباد أرفع شأناً وأعلى نفساً فابن زيدون أغزر معنى ، وأطول نَفَسًا .

وتبعة ابن تاشفين قوية على كل حال . فمهما كانت الأسباب التى حملت على إزالة ملوك الطوائف ، سواء كانت أسباباً وضيعة كحبه لمال الأندلس وخيراتها ، أو كانت أسباباً شريفة كتوحيد المملكة ضد أعدائه ، فقد كان يستطيع أن يحبس ابن عباد فى قصر فخم يليق به ، من غير قيود وأغلال ، ويُجرى عليه من الرزق ما يكفيه عن سعة . وبذلك يضمن تحصيل رغبته ، ويخفف من وقع الألم على ابن عباد ، ولكنه بدوىّ جِلف ، لا يفهم كثيراً معنى الإنسانية .

وقد كان حول ابن عباد شعراء كثيرون يمدحون ويلهُون معه ، وهو فيهم كالبدر حوله الهالة ، من أشهرهم ابن عمّار ، وابن زيدون وابن اللبَّانة ، والحصرى ، وابن حمديس الصقلى ، وعلى بن حِصن وغيرهم . فابن عمار شاعر كبير ، ويظهر

أنه نشأ نشأة فقيرة فى شِلْب وقرطبة ، وأخذ يتجوّل فى بلاد الأندلس ، يمدحهم وينال منهم ، حتى حط رحاله عند المعتمد بن عباد . فوجد منه ابن عباد أنيساً لطيفاً ، وسميراً وأديباً ، يشعر فيما يشعر فيه ابن عباد ، غاية الأمر أن ابن عمار خضع لنشأته الفقيرة ، فكان لا يأمن الدهر ، ولا يطمئن إليه . ولكنه مع ذلك كان يشارك ابن عباد فى التهام المسرات ، فأخذ يمدحه ويقول فيه مثلاً :

أَدِرِ الزجاجةَ فالنسيمُ قد انبرَى والنجمُ قد صرَفَ العِنَانَ عن السُّرَى

والصبحُ قد أهدَى لنا كافورَهُ لمّا استردّ الليلُ منّا العنبرا

والرَّوضُ كالحَسْنا كساهُ زهرُهُ وشْيًا وقلَّدَه نَدَاه الجوْهَرَا

أو كالغلامِ زَهَا بورْدِ رياضِهِ خجَلاً وتاهَ بآسِهِنَّ معذَّرا

رَوْضٌ كأنّ النهر فيه مِعْصَمٌ صافٍ أطَلّ على رداءٍ أخضَرَا

وتهزُّهُ ريحُ الصَّبَا فتخالُهُ سيفَ ابن عَبّادٍ يبدِّدُ عَسْكَرا

ملِكٌ إذَا ازْدَحَمَ الملوكُ بمَوْرِدٍ ونَحاه ، لا يَرِدُونَ حتى يَصْدُرا

كان المعتمد بن عباد والياً أول الأمر على إشبيلية من قِبَل أبيه المعتضد ، فصاحبه ابن عمار ، وحضّه على الإسراف فى الترف والنعيم ، واللهو والمجون ، فلما علم المعتضد بذلك أراد أن يصرفه عن ابنه ، حتى يلتفت إلى أمور الولاية ، فنفاه عن إشبيلية ، فلما مات المعتضد وصار الأمر للمعتمد استقدمه إلى غرناطة وجعله شاعره كما كان ، وجعله وزيراً له . ولكن يظهر أنه كان طموحاً وكان شجاعاً غازيا ، ويظهر أنه قد حدثته نفسه أن يحلّ محل سيده ابن عباد ، فاتهموه بأنه يدبر الدسائس لذلك ، وكان له أعداء فى البلاط يدسُّون له ويدسّ لهم كابن زيدون . وأخيراً وبعد جملة حوادث غضب عليه الأمير ابن عباد وقتله . وله شعر كثير مبثوث فى كتب الأدب يدلّ على عظيم شاعريته وانتحائه منحى أميره .

ولم يكن ابن عباد فيما يظهر متجنياً ، فقد عثر على قصيدة لابن عمار عنيفة جداً ذمّ فيها المعتمد وآله وزوجه ، ويظهر أن بلاط الأمراء كعادته مملوء بالدسائس والأكاذيب والفتن ، وهذا الذى وقع لابن عمار وقع قريباً منه لابن زيدون كما ذكرنا ذلك من قبل . وأما ابن اللبّانة فكان شاعراً كبيراً ، وكان أستاذاً لابن زيدون . وأكبر ما يؤثر عنه فى هذه الكارثة أنه وصف وصفاً مؤثراً رحيل ابن عباد لمّا وقع أسيراً فى يد المرابطين ونفيت أسرته ، قال :

حَمَوْا حريمَهمُ حتى إذا غُلِبوا ... سِيقُوا على نسَقٍ فى حَبْلِ مرْتادِ
وأُنزِلوا عن مُتُون الشُّهْب واحتُملوا ... فُوَيْقَ دُهْمٍ لتلك الخيلِ أنداد
وعِيثَ فى كلّ طوْقٍ من دُروعِهمُ ... فَصِيغَ منهنَّ أغلالٌ لأجياد
والناسُ قد ملأوا العَبْرَيْن واعتبروا ... من لؤلؤٍ طافياتٍ فوق أزباد
حُطّ القِناعُ فلم تُستَرْ مُخَدَّرَةٌ ... ومُزِّقَت أوجُهٌ تمزيقَ أبراد
حانَ الوَداعُ فضَجَّت كلُّ صارخةٍ ... وصارخٍ من مُفَدَّاةٍ ومن فادى
سارَت سفائنُهم والنوحُ يصحبُها ... كأنها إبلٌ يحدُو بها الحادى
كم سالَ فى الماء مِن دَمْعٍ وكم حَمَلَت ... تلك القطائعُ من قِطْعاتِ أكباد
مَنْ لى بكُم يا بَنِى ماءِ السماءِ إذاَ ... ماءُ السماء أَبَى سَقْيًا حَشاَ الصادى

وأما الحصرى فهو صاحب « زهر الآداب » المشهور ، وقد أُخذ عليه أنه استجدى ابن عباد فى منفاه ، وكان فقيراً ، فأخذت ابن عباد أريحيته وبعث إليه بكل ما معه ، وبعث مع ذلك بقطعة يعتذر فيها عن قلة ما منحه . واستبشع مؤرخو الأدب فعلة الحصرى وقالوا : « إنه جرى مع المعتمد على سوء عادته ، من قُبح الكُدية ، وإفراط الإلحاف » .

وأما ابن حمديس فصقلىّ الأصل ، وُلد حوالى سنة ٤٤٧ فى سرقوسة بصقلية ،.واشتهر بالشعر من صغره ، ولما سقطت صقلية فى يد النورمانديين سنة ٤٧١ فرّ ابن حمديس إلى الأندلس ، وكان شاعراً فى بلاط المعتمد أيام كان أميراً على إشبيلية ، فلما أصيب ابن عباد بالمحنة وفَى له ابن حمديس ، وعاش معه . وله ديوان شعر كبير ، نشره « أمَارِى » وهو يمثل حياته حينما عاش فى صقلية وحينما كان فى بلاط ابن عباد فى إشبيلية وحين كان مع ابن عباد فى سجنه .

أما على ابن حصن فهو شاعر يمثل خاصة شعراء الأندلس فى التكلف فى الاستعارة والاصطناع فى التشبيه ، كقوله يصف فرخ حمام :

وما هاجَنى إلا ٱبنُ وَرْقاءَ هاتِفٍ ... على فَنَنٍ بينَ الجزيرةِ والنَّهْرِ
مُفَستَقُ طوْقٍ لازَوَرْدِىُّ كَلْكَلٍ ... مَوَشّى الطُّلاَ أحوَى القَوادِمِ والظَّهْرِ
أدارَ على الياقوت أجفانَ لؤلؤٍ ... وصاغَ من العِقيانِ طوْقاً على الثَّغْرِ
حَديدُ شَبَا المنقار داجٍ كأنه ... شَبَا قَلَمٍ من فضةٍ مُدَّ فى حِبْرِ
توسَّدَ من فرْعِ الأراكِ أريكَةً ... ونامَ على طىِّ الجَناحِ مع النَّحْرِ
ولمّا رأى دمعى مُراقاً أرابَهُ ... بكائىَ فاستولَى على الغُصُنِ النَّضْرِ
وحَثَّ جَناحيْه وصفَّق طائراً ... وطارَ بقلبى حيثُ طار ولا أدْرِى

وهو نوع من الشعر لا أحبه لأنه لا يدلّ على عاطفة صادقة ، وإنما يدل على لعب بهلوانية .

وعلى الجملة فقد كان ابن عباد أيام نعيمه وأيام بؤسه نعمة على الأدب بما قاله فى وصف مشاعره ، وبما قاله الأدباء فيه .

ابن سهل

هو إبراهيم بن سهل الإسرائيلى ، كان إسرائيلياً فأسلم وتعلم العلم عن رجال الأندلس ، وكانت حلقات العلم شائعة بين المسلمين والنصارى واليهود ، لا يحجب عنها من أراد . فمن أساتيذه مثلا أبو على الشلوبينى ، واشتهر ابن سهل بهوى يهودىّ اسمه موسى ، كاد يخصص فيه كل شعره . فأعاد لنا ذكرى أبى نواس فى شعره فى المذكّر ، غير أن ابن سهل كان أسهل لفظاً ، وأحسن معنى ، أما أبو نواس فكان أجزل لفظاً ، وأمرح فى غزله نفساً ، وكان أبو نواس متعدد النواحى ، يقول فى المديح وفى الرثاء وفى غزل المذكر والمؤنث ، وفى الزهد . أما هذا فشعره كله تقريباً فى غزله فى محبوبه موسى . وهو فى الرقّة كابن زيدون . وقد قالوا إنه أحب بعد ذلك فتى اسمه محمد ، وقال فى التورية فى ذلك :

تركت هَوَى مُوسَى لحبِّ محمَّدِ ولولا هُدَى الرَّحْمَنِ ما كنتُ أهْتَدِى
وَمَا عَنْ قِلى منِّى تركتُ وإنما شريعَةُ مُوسَى عُطِّلَتْ بمحمَّدِ

من شعره :

ردُّوا على طرْفِىَ النَّوْمَ الذى سَلَبَا وخبِّرونى بقلبى أيَّةً ذَهَبَا
علمتُ لمَّا رضيتُ الحبَّ منزلة أن المنامَ على عينىَّ قد غَضِبَا

* * *

إنِّى له عن دمى المسفوكِ معتذرٌ أقولُ حَمَّلْتُه فى سَفْكِه تَعَبَا
نفسى تلذّ الأسى فيه وتألَفُه هل تعلمون لنَفْسى فى الجوى نَسَبَا
قالوا عهدناك من أهل الرشاد فما أغواكَ ؟ قلتُ اطْلُبُوا فِى لحظِهِ السَّبَبَا
من صاغه الله من ماء الحياة وقدْ أجْرى بَقِيَّتَه فى ثغره شَنَبَا

كم ليلةٍ بِتُّها والنَّجمُ يشهدُ لى رهين شوق إذا غالبْته غَلَبا
مُرَدِّدًا فى الدُّجى لَهْفًا ولو نطقتْ نجومها ردّدَت من حالتى عجبا
ماذا ترى فى محب ما ذُكرتُ له إلا بكى أو شكا أو حنَّ أو طَرِبا ؟

وقوله :

كأنَّ الخالَ فى وَجنَاتِ موسى سوادُ العتْبِ فى نورِ الودَادِ
أخُطُّ لصدْغه فى الحسن واواً فنقطة خاله بعض المـــدادِ
لواحظُهُ مُحَـــيِّرَةٌ ولكن بها اهتدت الشُّجون إلى فؤادِى

وقوله :

بكيتُ على النّهر أخفى الدموع فعرّضها لونُهـــا للظّهورْ
وقفت سُحَيْراً وغالبت شوقى ونادى الأسى حُسْنَه : مَن مُجِير ؟
أنارٌ وقد نفحَتْ زفْرَتى فصار الغُدُوُّ كوقت الهجيرْ
أموسى : تَهَنَّ نعيمَ الكرى فلَيْلِيَ بعدكَ ليلٌ ضرير

وقوله :

سَلْ فى الظلام أخاكَ البدْرَ عن سهَرِى تدرى النجومُ كما تدرى الورَى خبَرِى
أبيتُ أسجَع بالشكْوى وأشربُ من بين الرِّياض و بين الكاسِ والوتَرِ
بعضُ المحاسنِ يهوَى بعضَها ، عجباً تأمّلوا كيف هَام الغُنْجُ بالخَفَرِ
إنْ تقصِنِى فنِفارٌ جاءَ من رَشأٍ أو تُضْنِنِى فمِحَاقٌ جاء من قمرِ

وقال :

وَإنّى لِثَوْبِ الحزْنِ أجْدَرُ لابِس ... ومُوسَى لثَوْبِ الحسْنِ أحْسنُ مرتدى
تأمّل لَظَى شوقى وموسى يَشُبُّها ... « تجدْ خير نارٍ عندها خَيْرُ موقدِ »
إذا ما رَنا شَزْرًا فقُلْ لَحْظُ أحوَرٍ ... وإن يَلْوِ إعراضاً فصفحةُ أغْيَدِ
وعَــــذّبَ بالى أنعمَ الله بالَهُ ... وسَهّدَنِى ، لا ذاق طَعم التَسَهُّدِ
شكَوْتُ فجاءوا بالطبيب وإنما ... طبيبُ سقامِى فى لواحِظِ مُسْعِدِ

إلى أن يقول :

وكان الهوَى ما بين عينيْك كامناً ... كُمونَ المنايا فى الحُسَام المُهنَّـد
أظَلُّ ويومى فيك هجْرٌ ووحشَةٌ ... ويومى بحمد الله أحسنُ من غدِى
وِصالُك أشهى من معاودةِ الصِّبَا ... وأطيبُ من عيش الزمان الممهّدِ
عليكَ فطمتُ العينَ من لذّةِ الـكرى ... وأخرَجتُ قلبى طيِّب النفس من يدى

ويقول :

يقولون لَوْ قَبَّلتَه لاشْتَفى الجوَى ... أَيَطْمع فى التّقبيل من يعشقُ البدرَا
ولو غَفَلَ الواشى لقبلتُ نعلَهُ ... أُنَزِّهُه أن أذْكر الجِيدَ والثَّغْرَا
وَما أنا مَن يستحملُ[1] الريح سرَّه ... أغارُ حِفاظاً أن أُذِيعَ له سرًّا
إذَا فِئَةُ العذّالِ جاءتْ بسحرها ... ففى وجْه موسى آيَةٌ تبطِلُ السِّحرا

وقال فيه موشحات أيضاً ربما نذكر بعضها بعد ، وقد مات غريقاً سنة ٦٤٩هـ قبل سقوط الأندلس بقليل ، وشعره يدل على أن الأندلس انهارت سياسياً بتفرق أهلها وأمرائها ، ولـكن لم تسقط أدبياً .

---

(١) يستحمل : بمعنى يحمّل .

ابن قُزْمان

هو شاعر من نوع آخر . لئن كان الذين سبقوا شعروا للخلفاء وأمراء ووزراء وعلماء ، أو شعروا لأنفسهم من غزل ونسيب ونحو ذلك فابن قزمان شعر للشعب . وقد رأى أن يطرب الناس بالزجل والموشحات ، فقال فى ذلك شعراً ، وجال به فى الآفاق ، فنراه فى إشبيلية وقرطبة و بلنسية وغير ذلك من البلاد ، و يظهر أنه كان من صميم الشعب ، و إن كان بعض المترجمين لقَّبه بالوزير ، فيظهر أن أكثر من واحد لُقب بابن قزمان . و إذ كان ديوانه باللهجة الشعبية ، ولهجة الأندلس تخالف بقية اللهجات ، كان فهم ديوانه عسيراً . يضاف إلى ذلك أن الأزجال والموشحات وأدب الشعب على العموم ليس كالأدب الكلاسيكى . وديوانه طرفة من الطرف الشعبية ، لولا أن لغته الدارجة صعبة الفهم علينا ، لأن فيها تعبيرات أندلسية تخالف ما لنا ، وهــذا عيب اللغة الدارجة . فلئن كانت اللغة الفصحى قدراً شائعاً بين المتكلمين باللغة العربية فى جميع الأقطار فاللغة الدارجة لهجة محلية قلّ أن يفهمها إلا أهلها . وهذا الديوان يخرج عن حدّ الوقار كديوان ابن حجاج وابن سكرة ، يشيع فيه الفحش والعبث ولا يخضع لأى نوع من أنواع المنطق . ولما استحسنها الشعب لانسجامها مع ذوقه شاعت بينهم ، وترفعت عنه الفئة المهذبة المثقفة .

والأدب الشعبي يُسمع أحسن مما يقرأ ، لذلك صعبت قطع كثيرة فى ديوانه عن أن تفهم . وقد عُنى بعض المستشرقين بشعره كثيراً ، لأن شعره أكثر دلالة على حالات الشعب من الشعر الكلاسيكى . والغالب أنه كتب باللهجة القرطبية وهو مجال دراسة طويلة لمن يريد أن يدرس الزجل والموشحات ، وتدل أشعاره على فقره وتعبه فى الحياة ، ومجاهدته فى تحصيل العيش ، ولا يزال ديوانه المنشور

موضع دراسات كثيرة من نواحٍ مختلفة مع التصحيح والتعليق . وعلى يده تقدم الزجل والموشحات . ويظهر من ديوانه أنه مثقف ثقافة أدبية ، فهو يذكر أسماء كثير من الشعراء وهو يذكرنا بزجّالى مصر الأدباء ، أمثال النجار ، والقوصى .

ومن قوله :

يمسكُ الفارسُ رمحاً بيدِ   وأنا أُمسكُ فيها قصَبَهْ
فكلانا بطلٌ فى حربِه   إن الأَقلامَ رِماحُ الكتبه

وطلب منه صديق أن يدعوه إلى مجلس مؤانسة فقال :

أتى من المجد أمرٌ لا مردّ لهُ   نمشى على الرأس فيه لا على قدمِ
رَقْزٌ[1] ورقصٌ وما أحبَبْتَ من مُلَحٍ   عِنْدِى وأكثرُ ما تدريه من شِيَمى
حتى يكونَ كلامُ الحاضرين بها   عند الصباح وما بالعهد من قِدَمِ
« يا لَيلةَ السَّفْحِ هلّا عدْتِ ثانيةً   سَقَى زمانكِ هَطّالٌ من الدِّيمِ »[2]

ويقول :

لا تطْمَئِنَّ إلى أحَدْ   واحذَرْ وشَمِّرْ واستَعِدْ
فالكلُّ كلبٌ مُؤسَدٌ   إلا إذا وجَدوا أسدْ

وهو عادة يخلط المديح بالغزل ، بالطلب ، بالفكاهة ، وهكذا . وستأتى أمثلة من زجله وموشحاته عند الكلام على الزجل والموشحات .

* * *

(١) الرقز : ضرب من الرقص .
(٢) هذا البيت للشريف الرضى .

هذا الذى ذكرنا لا يمثل إلا شعر الشعراء الذين تخصصوا للشعر ، مع أن جزءاً كبيراً من الشعر صدر عن جماعة غير متخصصين له ، لابد أن نضيف نموذجا منه ، فمثلا : يقول أحدهم فى ساقية :

لله دُولابٌ يُفيضُ بسلْسَلٍ فى جنَّةٍ قد أينَعَتْ أفنَانا
أَضْحَتْ تُطَارِحُه الحمائمُ شَجْوها فيجيبُها ويُرجِّعُ الألحانا
وكأنَّه دَنِفٌ أطاف بمعهَدٍ يَبْكى ويسألُ فيه عمَّنْ بانَا
ضَاقَتْ مجارِى جفنِه عن دمْعِه فتفتقت أضلاعُه أجْفَانا

ويقول آخر فى زجاجة سوداء :

سأشكو إلى النُدْمانِ أمر زجاجَةٍ تَرَدَّتْ بثوبٍ حالكِ اللَّونِ أسْحَمِ
صببْتُ بها شمس المدامة بيننا فتَغْربُ فى جُنْحٍ من اللَّيل مُظْلِمِ
وتجْحَدُ أنوارَ الحمَيَّا بلونِها كقلب حسودٍ جاحدٍ يد مُنْعِمِ

ويقول آخر فى الخال :

أُلوَّامى على كلَفِى بِيَحْيَى متى من حُبِّه أرجو سَرَاحا
وبين الخدِّ والشفتين خالٌ كزنجِىٍّ أتى رَوْضاً صَبَاحا
تحيّر فى جَناهُ فليس يدرِى أيجْنِى الورد أم يجنى الأقاحا

ويقول آخر فى مشهد حب :

يا حسْنَه والحسْنُ بعضُ صفاتِه والسِّحر مقصورٌ على حركاتِهِ
بدرٌ لو أن البدر قيل له اقترحْ أملاً ، لقال أكون من هالاته

وإذا هـلالُ الأفق قابل شخصه   أبصرته كالشـكل فى مرآتِه
والخالُ ينْقُط فى صحيفةِ خـدِّه   ما خطَّ فيها الصُّدْغ من نوناته
صاحبْتُه والليـل يُدنى تحتَـه   نارينِ من نفَسى ومن وجناته
وضممته ضَمَّ البخيل لمـاله   أحْنو عليه من جميع جهاته
أوثقته فى ساعـدَىّ لأنه   ظبْىٌ أخاف عليه من فلتاته
وأبى عَفَافى أن أُقبِّـل ثغرَهُ   والقلبُ مطوىٌّ على جمراته
فاعجَبْ لملتهب الجوانحِ غـلَّةً   يشكو الظَّما والمـاء فى لَهَواته

وقال آخر فى وصف الحبب :

وُضِعَتْ فى الزجاج فالتَهَبتْ   وكسَتْه ثوباً من اللَّهبِ
وعـلا فوقَهَا الُحبَابُ فلَمْ   تبصِرِ العيْنُ مثـل ذا العَجبِ
ضَرَمُ النـار فوقه بَرَدٌ   كائنٌ عَنْهُ منه فى النَّسَمِ

وقال آخر فى وصف زورق :

وَسابحٍ بان لا تُثْنَى قوائمه   كالصقر ينحطُّ مذعوراً لِثُعْبانِ
كأنه مقـلة للجوِّ شاخصـةٌ   ومن مجاذيفه أهـدابُ أجفان

الخ . . .

فكان غير الشعراء الرسميين يتظرّفون بذكر ما يعرض من مناظر وفى مجالس الأنس وفى الغزل ، لا فى المديح وأمثاله ، مما تركوه للشعراء الرسميين . وهذا الذى فعله غـير الرسميين أقرب إلى معنى الشعر . وعلى العموم فهو يكمل الصورة التى للشعر الأندلسى .

الموشحات والأزجال

بقى الشعر فى الأندلس مقلِّدًا للشعر الكلاسيكى فى المشرق ، ثم سبق الأندلسُ إلى نوع طريف من الشعر الشعبىّ ، هو الموشحات والأزجال ، لا يقصدون منهما إلى المثقفين وحدهم ، بل يقصدون بهما الشعب كله ، عالمه وعاميّه ، ولا يزال البحث مستمراً فى علّة ذلك ، وسبب ظهوره . وهل كان اختراعه عربياً بحتا ، أو متأثرا بآداب أخرى مجاورة . على كل حال تمتاز الموشحات بطابع مخصوص من الأوزان والتقاطيع ، غير الأنواع المألوفة فى الشعر القديم . وقد عقد ابن خلدون فصلا دقيقا فى مقدمته فى الشعر ، تعرض فيه للموشحات والأزجال ، ملخص ما قاله أنهم فى الموشحات « ينظمونها أسماطاً أسماطا ، وأغصاناً أغصانا ، ينْسُبون فيها و يمدحون ، كما يُفعل فى القصائد ، وقد استظرفها الناس وجملة الخاصة والكافة ، لسهولة تناولها ، وقرب طريقها ، وكان المخترع لها فى جزيرة الأندلس مقدَّم بن معافى القبْرى ، من شعراء الأمير عبد الله بن محمد ، وأخذ عنه ذلك ابن عبد ربه صاحب العقد ، ثم برع فى هذا الشأن بعدهما عبادة القزاز ، شاعر المعتصم بن صُمادح ، ثم جاءت الحلْبَة التى كانت فى أيام الملثمين « المرابطين » فظهرت لهم البدائع » .

ولنذكر بعض الأمثلة من هذه الموشحات :

موشحة منسوبة لابن زُهر :

أيها السّاقى إليكَ المُشْتَكَى   قد دعوناك وإن لم تَسْمَعِ

ونديمٍ هِمتُ فى غـــرّته

وبشرب الراح من راحتـــه

كلما استيقظ من ســكرته

جَذَبَ الزِّق إليه واتّكا وسقاني أربعاً في أربعِ

ما لعيني عَشِيَتْ بالنظرِ
أنكرَتْ بعدك ضوْء القمرِ
فإذا ما شئتَ فاسمعْ خَبَرى

عَشِيَت عيناى من طول البكا وبكَى بَعْضِى على بَعْضِى معى

غصنُ بانٍ مال من حيثُ ٱلْتَوى
باتَ من يهواهُ من فرْط الجوَى
خَفِق الأحشاء · موهون القُوَى

كلما فكَّر في البيْن بكَى ويْحَهُ يبكى لما لم يقعِ

ليس لى صبرٌ ولا لى جلَدٌ
يا لقومى عَذَلُوا واجتهدوا
أنكَرُوا دعوايَ مما أجدُ

مثْلُ حالى حَقُّه أن يشتكى كَمَدُ اليأسِ وذُلُّ الطمعِ

كبدٌ حرَّى · ودمْعٌ يَكِفُ
يَذْرِفُ الدمعَ ولا ينذرِفُ
أيها المعرضُ عمَّا أصِفُ

قد نَمَا حُبِّى بقلبى وَزَكَا لا تَخَلْ فى الحب أنى مُدَّعى

ولابن سهل الإسرائيلى الأندلسى :

هلْ دَرَى ظَبْىُ الحِمَا أن قد حَمَى قلبَ صبٍّ حلَّه من مَكْنَسِ
فهو فى حَرٍّ وخَفْقٍ مثلما لعبَتْ ريحُ الصَّبا بالقَبَسِ

يا بدوراً أشرقَت يوم النَّوَى غُرَراً تسلُكُ بى نَهْجَ الغرَرْ
ما لنَفْسى فى الهوى ذنبٌ سوَى منكُم الحسْنَى ومن عينى النَّظَرْ
أجْتَنِى اللذات مكلوم الجوَى والتدانِى من حبيبى بالفِكَر

كلما أشكُوه وجدى بَسَمَا كالرُّبا بالعارض المُنْبَجِسِ
إذْ يقيم القَطْرُ فيها مأتما وهى من بهجتها فى عُرسِ
. . . . . . الخ

وقال لسان الدين بن الخطيب :

جادكَ الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصْلُكَ إلاَّ حُلُمَا فى الكرى أو خِلْسَةَ المُخْتَلِسِ

* * *

إذ يقُودُ الدهر أشتاتَ المُنى يَنقُلُ الخَطْوَ على ما يَرْسُمُ
زُمراً بين فرادَى وثُنَى مثلما يدعو الوفودَ الموْسِمُ
والحيا قد جلَّل الروض سَنى فثغور الروض عنه تَبْسِمُ

وروَى النعمان عن ماء السَّمَا كيف يروى مالكٌ عن أَنَسِ
فكساه الحُسْنُ ثوباً مُعْلَمَا يَزْدَهى عنه بأَبْهَى مَلْبَسِ

ولأبى بكر الأبيض الوشّاح :

١

ما لذَّ لى شُرْبُ رَاحِ
على رياض الأقَاحِ
لولا هَضِيمُ الوشاحِ
إذَا أَسَا فى الصَّبَاحِ
أو فى الأَصِيلْ
أَضحى يقول
ما للشمولْ
لطمت خدِّى
وللشَّمَالْ
هبَّتْ فمال
غصن اعتدالْ
ضمّهُ بردِى

٢

مما أبادَ القلوبا
يمشى لنا مُستَرِيبا
يا لَحْظَه ردّ نُوبَا
ويا لَمَاهُ الشَّنِيبا
برِّدْ غَلِيلْ
صَبٍّ عَلِيل
لا يستحيل
فيه عن عهدِى
ولا يزال
فى كلِّ حالْ
يرجو الوصالْ
وهو فى الصَّدِّ

وقد انتقل فن الموشحات والأزجال من الأندلس إلى سائر البلاد الشرقية . وكلٌّ نظمه بلغته لاختلاف اللغات الدارجة فى الأمصار . فإن أزجال ابن قزمان وموشحات الأندلس كانت تروى فى جميع البلاد . قال ابن سعيد : ورأيت أزجال ابن قزمان مروية ببغداد أكثر مما رأيتها بحواضر المغرب ، فاشتهر فى تونس مثلا مَدْغَلِّيس ، فقال فى زجله :

وَرَذاذْ دِقْ يِنزِلْ وشُعَاعِ الشمسِ يِضْرَبْ
فترى الواحِـدْ يِفَضَّضْ وترى الآخَرْ يِذَهَّبْ
والنباتْ يشربْ ويِسْـكَرْ والغصونْ ترقُصْ وتِطْرَبْ
وتريدْ تِيجِى إلينـا ثم تِسْـتِحِيْى وتِهْرَبْ

ووضع ابن سنا الملك المصرى موشحة أولها :

حبيبى ارفعْ حجابَ النُّورْ عَنِ العِـذَارْ
ننظر المِسْكَ على الـكافورْ فى جُلّنَـارْ
كَـلِّلى يا سُحْبُ تيجانَ الربا بالْحُـلِى
واجعلى سوارها منعطف الجـدولِ

وقال أحد أهل فاس :

المـالْ زينةِ الدنيا وعزّ النفوسْ يبْهى وُجُوهاً ليسَ هِىْ باهِيَه
فما كلّ مَنْ هُوْ كثير الفلوسْ ولُّوه الـكلامْ والرتبَةَ العالِيَه
يكَبَّروا من كُثُرْ مالُه ولو كانْ صَغِيرْ ويِصَغّرُوا عزيزَ القُومْ إذا يَفْتَقِرْ
مِنْ ذا يِنْطَبِقْ صَدْرِى ومِن ذا يَغِيرْ وكادْ يِنْفِقِـعْ لولا الرُّجُوعْ للقَدَر
حتى يِلْتِجِى مَنْ هُوْ فى قَوْمُهْ كِبيرْ لمن لا أَصْـلَ عِنْدُو ولا لُو خَطَرْ

وعلى أساس الزجل هـذا اخترع عامة بغداد فنا من الشـعر سموه الموَاليا ، وتبعهم فى ذلك أهل مصر والقاهرة . قال :

نادَيتُها ومشِيبِى قد طوَانِى طَىّْ جُودِى عَلَىّ بِقُبْلَهْ فى الهوَى يا مَىّْ
قالَتْ وقد كَوَتْ داخِلْ فؤادى كَىّْ ما ظُنّْ ذا القُطْنْ يِغْشَى فَمّ مَنْ هُوْ حَىّْ

ومنها :

عينِي التى كُنْتُ أَرعاكمْ بها باتِتْ تِرعَى النُّجُومْ ، وبالتَّسهيدْ إقتاتِت

وأَسْهُمِ البينْ صابِتْني ولا فَاتِتْ وسَلْوتِي عَظَّمَ الله أجْركم ماتِتْ

. . . الخ

وهنا ملاحظات نذكرها على فن التوشيح والزجل :

(١) أن طبيعة التوشيح والزجل تجعلهما يُسمعان أحسن مما يقرآن . و بعبارة أخرى يقوّمان بالأذن أكثر مما يقوّمان بالعين ، وذلك لأنهما فى كثير من الأحيان يعوَّض فيهما نقص الوزن بمد الحرف أو قصره أو غنّته أو نحو ذلك . فهذه كلها تعوّض فى زيادة حرف أو نقصان حرف . فكانت تسمع خيراً مما تقرأ .

(٢) تخضع الموشحات والأزجال لخصائص كل بلدة ، لأن اللغة العربيـة الفصحى عامة فى جميع الشعوب العربيـة . أما اللغة الدارجة فخاصة بكل قطر ، ولذلك نرى أن الشـعر الـكلاسيكى قلّ أن يفرق بينه باختلاف الأقطار ، أما الموشحات والأزجال فخاضعة لألفاظ كل قطر وأساليبه . ولهذا كان من الصعب أن يفهم قطر زجل القطر الآخر أو موشحاته . ولهذا أيضاً صعب علينا مثلا أن نفهم ديوان ابن قزمان لأن اللغة الأندلسية الدارجة تختلف عن اللغة المصرية الدارجة .

(٣) أخطأ المألفون الأرستقراطيون فى احتقار الموشحات والأزجال ، لأنها شعبية . واعتذر المقّرى عن إيراد بعض ذلك فى كتبه ، فقال فى كتابه « أزهار الرياض » :

« كأنّ بمنتقد ليس له خبر ، يسدّد سهام الاعتراض و يتولى كبره ، و يقول : ما لنا و إدخالِ الهزْل فى معرض الجد الصُّراح ، وما الذى أحوجنا إلى ذكر هذا

المنحى ، والأليق طرحه كل الاطّراح ؟ » . وأجاب عن ذلك بأنه من باب ترويح القلب ، والعون على الجد . واستشهد بقول القائل :

قُلْ للأحبَّةِ والحديثُ شجونُ ماضَرَّ أن شاب الوقارَ مُجُونُ

معأنا نلاحظ أن الموشحات والأزجال فيها من البلاغة والاستعارات والمجازات ما لا يقل عما فى اللغة الفصحى . وليست كلها هزْلاً ومجوناً ، بل قد يكون فيها جِدّ ووعظ ودعوة إلى أخلاق عالية ، عدا ما فيها من بلاغة . فنحن لا ننقد المقّرى ولا ابن خلدون وأمثالها بروايتهم هذا الضرب من الأدب ، بل ننقد غيرهم لعدم روايته ، والسكوت عنه ، فإذا كان للأرستقراطيين متعة فى الأدب الأرستقراطى ، فللشعب حق فى أن يستمتع بأزجاله وموشحاته . ومؤرخ الأدب لا يصح أن يغفل هذا الضرب منه ، لأن فيه خيراً كثيراً . وقد اقتصر جامعو المختارات على الفنون الجميلة ، كأنها وحدها هى الأدب .

على أن الأدب بمعناه الواسع أشمل من ذلك ، فمقدمة ابن خلدون أدب ، وسراج الملوك للطرطوشى أدب ، والموشحات والأزجال أدب ، وشعر التصوف أدب ، فاقتصارهم فى الاختيار على الغزل والمديح ونحوهما باللغة الفصحى جعل كثيراً من الناس يرمون الأدب العربى بالقصور . ولو وسّعوا اختيارهم لأبانوا غِنى الأدب العربى وتعدّد مناحيه .

والواقع أن الأدب الشعبى يحتاج إلى تأريخ كأدب اللغة الفصحى ، كيف نشأ وكيف تطوّر ، وله مناح كثيرة تحتاج إلى التأريخ كالفكاهة والأمثال العامية ، وكيف نبعت وانتشرت ، والأزجال والموشحات وخصائص كل قطر فيها . ومع الأسف لم يؤرخ ذلك تأريخاً شاملا من مبدئه إلى منتهاه[1] .

---

(١) انظر مادة فكاهة وأدب شعبى وترجمة البهاء زهير وابن دانيال وما يتعلق بذلك فى كتابنا « قاموس العادات والتقاليد والتعبيرات المصرية » .

(٤) الفرق بين الموشحة والزجل أن الموشحة باللغة الفصحى إلا قليلا ، وأما الزجل فهو باللغة الدارجة . وكان للأندلسيين لغة خاصة هى خليط من اللغة العربية والبربرية والإسبانية ، وإن شئت فقل واللاتينية ، والأزجال فى أغلب الأحيان متبذّلة وخصوصاً أزجال ابن قزمان ، ليس فيها أى تحفظ أو احتشام . فيها ما يجرى بين الماجنين فى الملاهى ، وفيها فحش مخجل ، والغالب أنها كانت لشهرتها وملاءمتها لروح الشعب تقال جماعيا ، على العود والطنبور والدفّ ، فى الشوارع وفى الأندية الشعبية ، وفى دور الملاهى ؛ ولأن أزجاله وأزجال غيره على هذه الحال ، صعب فهمها ، حتى لنرى أحياناً فى ابن قزمان بعض عبارات عربية وبعض عبارات إسبانية ، فالإسبانية مثل قوله فى بعض زجله :

مَخْشَلْ دِشُولْ ، وهى مأخوذة من الإسبانية mijell des sol ، بمعنى : خَدّ كأنه الشمس[1] .

على كل حال ابتكر الأندلسيون فنّ الموشحات والأزجال فى أوربا ، وهذا يضاف إلى تأثير الأندلسيين فى الغرب ، وقد دعاهم إلى ذلك ما أحسُّوا من ثقل القيود فى الشعر الفصيح ، من أوزان ووحدة قافية وقيود إعراب ، فجاءت نوبة هاجوا فيها على هذه الأوضاع كما هاج أبو نواس على بكاء الأطلال ، وكما هاج الموحدون على التقليد فى الفقه والنحو وغير ذلك .

غاية الأمر أن دعوة كل هؤلاء ضاعت ، فعاد أبو نواس يبكى الأطلال كما بكوا ، ويشعر الشعر الجاهلىّ كما شعروا . وعاد النحو إلى تقدير العوامل ، وعاد الموحدون إلى اضطهاد الفلاسفة بعد أن قربوهم إليهم . أما الموشحات والأزجال فقد نجحت لأن الناس استجابوا إليها فى حماسة ، إذ رأوها تعفيهم من القيود ،

---

(١) انظر البحث الذى وضعه الدكتور عبد العزيز الإهوانى .

وتحررهم من التزام قافية واحدة ، وتسمح لهم باستعمال الـكلمات العامية ، والتعبيرات العامية الظريفة ، وتحرُّرُهُمْ من قيود الإعراب ، ، ولذلك كانت البدع الشائع . كما امتازت الموشحات والأزجال بأنها تتبع النغمات الموسيقية ، لا التفاعيل العروضية ، ولذلك تجدهم يزيدون كلمات لحفظ الوزن ، مثل يا لَلَّلي ، ونحو ذلك . وبذلك ربطوا بين الشعر والغناء والرقص ، كما هو العادة فى نشأة هذه الفنون .

قال ابن سنا الملك فى دار الطراز « ليس للموشحات عروض إلاّ التلحين ، ولا ضربٌ إلا الضرب ، ولا أوتار إلا الملاوى ، وأكثرها مبنىّ على الأرْغُن » وتحرَّرُوا أيضاً من التقيد بستة عشر بحراً ، فقالوا من الأوزان ما شاءوا أن يقولوا : فالأذن الموسيقية هى الحـكم ، لا أبْحُر الخليل . قال ابن سنا الملك أيضاً فى هذا الـكتاب : إنه حاول حصر أوزان الموشحات فأخفق ، « وكنت أردت أن أقيم للموشحات عروضاً يكون دفتراً لحسابها ، وميزاناً لأوتارها ، فعزَّ ذلك وأعوز لخروجها عن الحصر ، وانفلاتها من الـكف » .

وتعددت قوافى الموشّحة ، حتى بلغت العشرات ، لما رأوا أن التزام القافية لا يترك وراءه إلاَّ السآمة والملل ، كالنغمة الواحدة تـكرر مراراً ، وخرجوا عن أعاريض الشعر المعروفة ، حتى قال ابن بسَّام صاحب الذخيرة : « إن أكثر الموشحات على غير أعاريض الشعراء ، وعلى أشطار ، كما أنَّ أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة ، وقد أخذ واضع الموشّحة اللفظ العامىّ والعجمىّ ، وسماه المركز ، ووضع عليه موشَّحةً دون تضمين ولا أغصان » . وامتازت الموشحات والأزجال بالسهولة ، وهـذه هى التى أكسبتها الحياة ، فمن أراد فى الموشحة أو الزجل أن يتقعر كان سخيفاً قال ابن حردون « ما الموشح بالموشح ، حتى يكون عاريا عن التـكلف » ولم يتورَّع الخاصّة عن الاشتراك فى التأليف فى الموشحات والأزجال ،

فروى لنا موشحات عن الطبيب ابن زُهر ، والفيلسوف ابن باجة ، والوزير الخطير لسان الدين بن الخطيب . ومما قاله ابن خلدون فى بحثه « وأما أهل الأندلس فلما كثر الشعر فى قطرهم ، وتهذبت مناحيه وفنونه ، وبلغ التنسيق فيه الغاية ، استحدث المتأخرون منهم فنًّا منه ، وسمّوه بالموشح » ... إلى آخر ما ذكرناه من هذا البحث فى صدر الكلام عن الموشحات .

وكان أول من برع بعد (مقدَّم) و (ابن عبد ربه) فى هذا الشعر هو عبادة القزاز ، إذ قال :

بدْرُ تِمّْ   شَمْسُ ضُحَى   غُصْنُ نَقَا   مِسْكُ شَمْ
ما أتَمْ   ما أوْضَحا   ما أوْرَقَا   ما أنَمْ
لا جَرَمْ   مَنْ لَمَحَا   قَدْ عَشِقَا   قَدْ حُرِمْ

ثم جاءت حَلْبَةٌ فى مدة الملثمين فظهرت لهم البدائع ، وفرسان حلْبَتهم الأعمى التُّطِيلِى ، وله من الموشحات قوله :

كيف السبيل إلَى   صبرى وفى العالمْ   أشجانُ
والركب وسط الفَلاَ   بالُخرَّدِ النواعمْ   قد بانُوا

وذكروا أن جماعة من الموشّحين اجتمعوا فى مجلس بإشبيلية وكان كل واحد قد صنع موشحة وتأنق فيها ، فتقدم الأعمى التّطيلى للإنشاد ، فلما افتتح موشحته المشهورة بقوله :

ضاحكٌ عَنْ جُمَانْ   سافرٌ عن بدْرِ
ضاق عنه الزمانْ   وحواهُ صدرِى

مزّق الباقون موشحاتهم . ولابن بقىّ موشحة مطلعها :

أما ترى أحمدْ في مجده العالى لا يُلْحَقْ
أطلعه المغرب فأرنا مثله يا مشرِقْ

ولما شاع فن التوشيح فى أهل الأندلس ، وأخذ به الجمهور لسلاسته ، وتنميق كلامه ، وتصريع أجزائه ، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله ، ونظموا على طريقته بلغتهم الحضرية ، من غير أن يلتزموا فيه إعراباً ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل ، . . . وأول من أبدع فى هذه الطريقة الزجلية أبو بكر بن قزمان ، وهو إمام الزجالين على الإطلاق . ولقّبوه شيخ الصناعة . يقول وقد خرج إلى منتزه مع بعض أصحابه ، فجلسوا تحت عريش ، وأمامهم تمثال أسدٍ من رخام يخرج الماء من فيه على صفائح من حجر :

وعريشْ قد قامْ على دكّانْ بحال رواقْ
وأسدْ قد ابتلعْ ثعبانْ فى غِلَظ ساقْ
وفتَحْ فَمو بحالْ إنسان به الفُواقْ
وانْطَلَقْ يجرى عَلَى الصفاحْ وألقى الصّياحْ

الخ . . .

وتبعه بعده كثيرون من الزجالين[1] . وليست الأزجال إلا موشحات تقال بلغة عامية ، وإنما أكثرنا من نماذج الموشحات والأزجال لنبين كثرة أشكالها ، واختلاف أوزانها . . .

* * *

(١) لابن قزمان ديوان مطبوع يرجع إليه من شاء . وقد كتب فيه بعض المستشرقين أبحاثا مستفيضة .

من كل ما عرضنا من شعر الشعراء الرسميين والوَشّاحين والزجالين نرى مصداق ما قلنا من أن الشعر الأندلسى جرى مجرى الشعر المشرقىّ ، من مديح وهجاء ونسيب ورثاء الخ ، وأنه كما حذا المشرقيون حذو الجاهليين فى الموضوعات والأساليب ، حذا الأندلسيون حذو المشارقة . غاية الأمر أن شعراء الأندلس اختلفوا فيمن يقلدون من شعراء المشرق ؛ كل حسب مزاجه ، فمنهم من يقلد أبا نواس ، ومنهم من يقلد المتنبى ونحو ذلك . وكانت القصيدة ، سواء عند الأندلسيين والمشارقة على النمط الجاهلى ، من بدء بالنسيب ، وانتقال منه إلى وصف الشاعر لرحلته ، ثم الانتقال إلى المديح ، وقد يجعلون فى النسيب أيضاً أبياتا خمرية ؛ جرى على هذا المنوال شعراء الجاهلية ، ثم الشعراء الإسلاميون ، ثم الأندلسيون ، وكل قصدهم هو استجداء الممدوحين . ويمتاز شاعر عن شاعر ، بحسن تخلصه من الرحلة إلى المديح . ولذلك اشتهرت فى الأندلس النونية فى مدح إدريس بن يحيى بن حمود التى مطلعها :

قَدْ بَدَا لى وضَحُ الصُّبح المبين　　فَاسْقِنيها قبل تكبير الأذينْ

اسْقِنيها مزّةً مشمولة　　لبست فى دنّها بضع سنِينْ

وظل على هذا المنوال إلى أن وصل للمديح فقال :

وكأن الشَّمْسَ لَمّا أشْرَقَتْ　　فانْثَنَتْ عنها عيونُ الناظرينْ

وجه إدريسَ بن يحيى بن علىٍّ　　م بن حَمُّودَ أمير المؤمنينْ

. . . الخ . . . الخ

وربما كان من الإنصاف لأهل الأندلس أنهم فاقوا شعراء الشرق فى وصف الطبيعة خاصة ، وفى الوصف عامة ، وربما كان هذا أثراً من جمال بيئتهم الطبيعية . ونلاحظ أيضاً أن الأندلسيين قصّروا عن المشرقيين فى الحكم والزهد .

وهناك نوع آخر فاق فيه الأندلسيون المشارقة ، وهو البكاء على البلاد ، فما سقطت بلدة ، أو أشفت على السقوط حتى قالوا فيها شعراً قويا حزينا . وربما كان من خير الأمثلة على ذلك قصيدة ابن عبدون ، ومطلعها :

الدهرُ يَفجعُ بَعْد العَين بالأثر فمَا البُكَاء عَلَى الأشْبَاح والصُّوَرِ
أنهاكَ أنهاكَ لا آلُوكَ معذِرَةً عن نومة بيْن ناب الليْثِ والظفرِ
فالدَّهرُ حربٌ وإنْ أبْدَى مسالمَةً والسودُ والبيض مثل البِيضِ والسُّمُرِ

وقد استطاع أن يذكر فيها مصائب الزمان ، ونوائب الحدثان ، وكل ما جرى من مصائب للأمراء والأعيان ، مما جعلها سجلاً تاريخيًّا للمصائب ، وقلده فيها كثيرون ، وشرحها ابن بدرون .

ومثل قصيدة أبي البقاء الرُّندى فى رثاء الأندلس وغلبة النصارى على قواعدها . ومطلعها :

لكل شيء إذا ما تمّ نقصان فلا يُغرُّ بطيب العيش إنسان

وهى أقل من الأولى بلاغة وعظمة ، وفيها يطلب من المسلمين أن يسرعوا إلى إنجاد الأندلس التى كادت تسقط . ولكنها كانت صرخة فى واد ، فلم ينقذ الأندلس أحد ، كما لم ينقذ فيما بعد فلسطين أحد .

ثم لهم المقطعات اللطيفة فى موضوعات طريفة ، مثلنا ببعضها فيما سبق .

ومع تعداد كل هذه الميزات لا يزال التقليد عليهم غالباً . وربما كان خير مقياس للتقليد والابتكار ، أى أساس التشبيهات عند الشرقيين والأندلسيين يكاد يكون واحدا . غاية الأمر أن الأندلسيين قد يتفوقون فى إجادة التشبيه وتزويقه ، واللعب فيه ، ولكن أساس التشبيه واحد ، وهو التشبيه الشرقى . . .

النـــثر الفنى

تطوّر النثر العربى فى الشرق تطوراً كبيراً ، بحيث يمكننا أن نقسمه إلى خمس مراحل : المرحلة الأولى يمثلها أقوال الخلفاء الأربعة ، والخلفاء والأمراء الأمويين . والمرحلة الثانية يمثلها عبد الحميد الـكاتب ، والثالثة عبد الله بن المقفع والرابعة الجاحظ ، والخامسة ابن العميد ، ولـكل مرحلة من هـذه خصائص . وعلى العموم ، فالذوق العربىّ فى مراحله المختلفة يحب فى النثر الفنىّ السجع ، وخصوصاً ما وافق الطبع ، فإن لم يكن سجع ، فهو يحب المزاوجة ، مثل المؤمنينْ ، وعظيمْ ، لأن عنده الحاسة الموسيقية نامية ، فأذنه تَسْتَعِيض عن السجع بالمزاوجة ، وهذا فاشٍ فى كل العصور ، ولـكن حدث له ما حدث للشعر . فبعد أن كان الشعر الجاهلىّ مثلا يتزين ببعض أنواع البديع يأتى عفوا ، أغرقَه أبو تمام ومن بعده فى البديع المتصنّع . فـكذلك النثر ، بدأ فيه سَجع مطبوع ، أو مزاوجة مطبوعة من غير التزام ، وختمه ابن العميد بالسجع الملتزم ، والتـكلف المصطنع .

فأما المرحلة الأولى التى يمثلها أقوال الخلفاء والأمراء ، ففيها سجع أحياناً من غير تـكلف ، وأحياناً مزاوجة ، وأحياناً استرسال .

ومن خصائص هذا العصر الجمل المتقطعة من غير رابط يربطها ، وإلى ذلك إيجاز تام من غير إشباع للمعنى وتوليد للأفـكار . حتى ليصعب عليك إذا سئلت أن تحدّد موضوع الـكلام ، مع جمال فى المعنى واللفظ .

وقد نشأ هذا من الطبيعة العربية ، تحب الجمال وتأنس به ، وتلهج بذكره . ويدل على ذلك غَزَلُهم ، والبكاء حتى على أطلالهم ، وإلْفُهم لأوطانهم ، ونحو ذلك ، فهم يحبون البلاغة ويعتبرونها أقوى ملـكة ، ويفخرون بها ، ويُعجبون

بفنّها . ولأمر ما ، كان أهم معجزة للإسلام هى المعجزة التى تأتى من الناحية الفنّية أو من ناحية البلاغة (القرآن) . وقد تأثرت بلاغة هذا العصر به أثراً كبيرا ، واحتذوه وزينوا به كلامهم ، فنحن نرى أن أسلوب النثر كان أسلوباً يزينه السجع والمزاوجة ، ويعتمد على الجمل القصار ، وتوضع الجمل فى إطار محكم ، ويؤتى بالجملة ، ثم يوضع لِفْقٌ لها من جملة تشبهها أو تقاربها . حتى جاء عبد الحميد الكاتب وهو من أصل فارسىّ ، فأطنب فى موضوع الكتابة ، وفصله وجعل من الكتابة موضوعاً يشرحه ويولّده ، حتى يأتى على آخره ، ووضع أنماطاً للكتابة فى الشئون الخاصة بتدبير الملك ، ولم يلتزم السجع كذلك ، وإن أتى فى كتابته عرضاً ، ونظرته إلى الكتابة تستفاد بوضوح من رسالته إلى الكُتّاب ، وهذا يسلمنا إلى مرحلة ابن المقفع ، فقد عنى ببسط المعانى وتأكيدها ، وتكرير الجمل المتقاربة فى معناها ، وعنى بالتحليل النفسى ، والتجارب الأخلاقية ، ولم يعن بالسجع إلّا ما جاء عفواً . وله فضل كبير فى تطويع اللغة للمعانى المستحدثة ، والمدنية الواسعة . وجاء بعد ذلك الجاحظ ، فأسهب فى الكلام وأطنب ، ونوّع موضوعات الأدب ، وجعل كل شىء يصلح لأن يكون أدباً ، من معلّمين ، وجَوَارٍ ، ولصوصٍ ، وحَسَدة إلى غير ذلك ، وكان قلمه طيِّعاً . فوسّع معانى الأدب فى كل نواحيه . ولولا أنه كان مرحاً فكِهاً مستطرداً لَمُلَّ . ثم جاء بعده ابن العميد ومدرسته ، فالتزم السجع وأمعن فيه ، ولم يخرج عنه ، وقسر الجمل لتؤدّى مهمة السجع ، وملأ كتابته بأنواع البديع ، حتى أصبحت كتابته كقطعة من الفن المعمارىّ المملوءة بالتزاويق .

كل هذا الذى فى المشرق كان مثله فى الأندلس . وكان الانتقال من فن إلى فن ، يكاد يكون متبعاً نفس التطور الذى حدث فى المشرق ، فقد رأينا المكاتبات التى تصدر عن الأمراء الأولين وعن صدور الخلفاء الأمويين تشبه تلك التى كانت

تصدر عن الخلفاء الأمويين فى المشرق . ثم تحوّلت بعض الشىء إلى تحليلٍ نفسىّ ، وغزارة معنى كالذى عند ابن المقفع على يد ابن حزم الأندلسى ، ثم كان ما يشبه أسلوب الجاحظ عند العلماء الذين رحلوا من المشرق إلى الأندلس ؛ أمثال صاعد بن الحسن البغدادى ، فقد كانت كتابته أشبه ما تكون بكتابة الجاحظ من تلاعب بالمعانى ، وغزارة فيها ، من غير التزام سجع ، كقوله من رسالة له يستعطف فيها الوزير أبا جعفر ليشفع عنـد الخليفة للوزير عبد الله بن مسلمة لما نكب : « لمّا جمع الله طوائف الفضل عليك ، وأذْلَقَ بك الألْسُن ، وأرهف فيك الخواطر ، ورفرف عليك طيرُ الآمال ، ونُفِضَتْ إليك علائق الرجال ، لم أجد لابن مَسلمة ، حين عضّه الثِّقاف ، وضاق به الخناق ، وانقطع به الرجاء ، وكبا به الدهر ، ملجأً غيرك . فعَطْفك على والهٍ نبّهه النحس من سِنَةِ السَّعد ، وأيقظته الآفات من رقدة الغفلة ، ورشقته سهام الزمان بصنوف الامتهان ، حتى لقّب المنيّة أمنيّة ، وسمّى الموت فوْتة ... الخ » . ورأيناهم وقد طلع عليهم بديع الزمان والحريرى ، وأمثالهما يقلِّدُونهم ويجرون على منوالهم ، ويصنعون رسائل ومقامات تشبه رسائلهم ومقاماتهم كابن شهيد فى التوابع والزوابع . ثم لما بلغتهم صنعة ابن العميد ومدرسته رحبوا بها كل ترحيب لأنها وافقت أذواقهم ، حتى التزموها فى رسائلهم الخاصة ، وكتبهم المؤلفة . فإذا نحن قرأنا لابن بسّام فى الذخيرة أو لابن حيان فى تاريخه ، أو فى قلائد العقيان ومطمح الأنفس فى ملح الأندلس ، رأينا سجعاً ملتزماً قلّ أن يشـذ ، ورأيناهم يحتذون حذو « الفتْح القُسِّى ، فى الفتح القـدسى » للعماد الأصفهانى ونحو ذلك . غاية الأمر أنه كان لهم أنواع من الابتكار سبقوا بها المشرق كما سننبه عند الـكلام تفصيلا على بعض الناثرين .

وكثير من الأدباء ، كان يجمع بين النثر والشعر ، وكان عند الأدباء ملـكة لطيفة يميزون بها بين الموضوعات التى تصلح للشعر والتى تصلح للنثر ، فهم يشعرون

حين تهيم عواطفهم ، ويحسون أنهم فى حاجة إلى تعبيرٍ وجدانىّ يغذيها ، ويلجأون إلى النثر عندما يكون الموضوع أميل إلى العقل . وشاع عند الأندلسيين الوصف الدقيق لنفوس الكبراء والأمراء ، والقواد عند مديحهم ، كما نبغوا فى المناظرات الخيالية كالمناظرة بين السيف والقلم ، والمناظرة بين بلاد الأندلس ، كما كاتبوا فى الابتهالات ومناسك الحج . وكانوا أحياناً يخلعون على النثر من الأخيلة والسجع ما يجعله أقرب أن يكون شعراً منثوراً . وقد امتازوا بالإطناب كما امتاز المشارقة بالإيجاز . وسيظهر كثير من هذه الخصائص عند كلامنا على الكتّاب الناثرين تفصيلا .

ابن عبد ربه

ذكرنا قبل[1] ابن عبد ربه مؤلفاً لكتاب كبير فى الأدب وهو العقد ، وعرضنا لشىء من شعره[2] ، وهو أيضاً ناثر كبير تتجلى قوته فى النثر فى فرش الكتب التى قدمها بين يدى أبواب كتابه . فقد تصنع فيها ما شاءت له الصنعة ، وجوّد ما شاء له التجويد ، ونراه فيه قد يسجع ، ولكن لا يلتزم السجع ، فإذا فاته السّجع عمد إلى المزاوجة . فاستغنى به السجع ، وهو أشبه ما يكون برجل يلبس طقما خاصّاً عند المقابلات الرسمية ، فلا يترك الكلام على سجيته ، وإنما يتعمّل له ويتصنّع ، فمثلا يقول فى أول كتاب الياقوتة فى العلم والأدب : « قد مضى قولنا فى مخاطبة الملوك ومقاماتهم ، وما تفننوا فيه من بديع حكمهم ، والتزلّف إليهم بحسن التّوصّل ، ولطيف المعانى ، وبارع منطقهم ، واختلاف مذاهبهم . ونحن قائلون بحمد الله فى العلم والأدب ، فإنهما القطبان اللّذان عليهما مدار الدين والدنيا ،

(١) انظر الحركة التأليفيّة ص ٨٤ .

(٢) انظر ص ١١٣ وما بعدها .

وفرقُ ما بين الإنسان وسائر الحيوان ، وما بين الطبيعة الملكية والطبيعة البهيمية ، وهما مادة العقل ، وسراج البدن ، ونور القلب ، وعماد الروح ، وقد جعل الله بلطيف قدرته ، وعظيم سلطانه بعض الأشياء عَمَدًا لبعض ، ومتولداً من بعض ، فإجالة الوهم فيما تدركه الحواس ، تبعث خواطر الذكر ، وخواطر الذكر تنبه روية الفكر وروية الفكر تثير مكامن الإرادة ، والإرادة تحكم أسباب العمل ... والعلم علمان علم حُمِل ، وعلم استُعْمل . فما حُمِل منه ضر ، وما استعمل منه نفع . . . وقليل العلم يستعمله العقل ، خيرٌ من كثيره يحفظه القلب » . ويقول فى أول باب الأمثال :

« والأمثال وشْيُ الكلام وجوهر اللفظ ، وحَلْي المعانى ، والتى تخيرتْها العرب ، وقدمتها العجم ، ونطق بها فى كل زمان وعلى كل لسان ، فهى أبقى من الشعر ، وأشرف من الخطابة . لم يسرْ شىء مسيرها ، ولا عمّ عمومها ، حتى قيل : أَسْيَرُ مِنْ مَثَل ، وقال الشاعر :

ما أنت إلاَّ مثـــلٌ سائِرُ يعرفه الجـــاهِلُ والخابِرُ

وقد ضرب الله الأمثال فى كتابه ، وضربها رسول الله فى كلامه الخ . » فهو يذكرنا فى ذلك من حيث أسلوبه وغزارة معانيه ، واستعماله للمزاوجة أحياناً . والسجع أحياناً بالجاحظ فى كل ذلك .

ابن برد

من أشهر كتّاب الأندلس ، ويلقب بأبى حفص بن برد ، وكان هناك ابنا برد أحدهما يلقب بالأكبر ، والثانى بالأصغر ، لم يعرف من أخباره (أى الأصغر) إلا القليل ، والذين ترجموا لابن برد الأكبر وصفوه بأنه كاتب بليغ ، وأنه غُـذِّى بالأدب ، وعلا إلى أسمى الرتب ، وقد اعتز به حفيده فقال :

من شاء خُبْرى فأنا ابن بُرْدِ   حدُّ حُسَامى قطعة من حَدِّى
وأرفع النـاس بناءً جَدِّى   من نَظَم الألفَاظَ نظْمَ العقد
ونقد الـكلامَ حقَّ النَّقْدِ   وكفَّ بالأقْلَامِ أيدى الأسْدِ

وربمـا كان من أسباب شهرته أنه كان رئيس ديوان الإنشاء للمـكتفى ، ومن آثاره فى هذا المنصب ما قاله فيمن يجب أن يشغل هذه الوظيفة . ومن الأسف أننا لم نعثر على كتاباته الإخوانية . ولا بد أن يكون له منها الـكثير ، وإنما بقى لنا بعض كتبه الديوانية . ويظهر من أخلاقه أنه كان موظفاً مطيعا ، يؤمر فيأتمر ، ويكتب لأميره المعانى التى يريدها منـه ؛ كما كان يفعل القاضى الفاضل لصلاح الدين . وقد كتب أخيراً لابن أبى عامر وأولاده ، فمن أقواله على لسان المظفر بن أبى عامر : « ومن أعجب العجب ، ما يجترئ عليـه بعض خدمتنا من نبذ عهودنا ، ولا أحسب الذى غرّهم بنا ، إلا ما وهبه الله لنا مع القدرة من الحلم والـكظم ، وقد كانت سجية غالبة ، وخَليقة لازمة » .

وقد روى ابن بسَّام فى كتابه الذخيرة بعض كتبه ، وهو الذى وضع العهد الذى تنازل فيه هشام المؤيد لعبد الرحمن بن المنصور عن الملك ، ويقول فيه :

« بعد اطّراح الهوى ، والتحرّى للحق ... لم يجد أحداً أجدر أن يوليه عهده ، ويفوّض إليه الخلافة بعده ، لفضل نفسه ، وكرم خِيمه ، وشرف مرتبته وعلو منصبه ، مع تقاه وعفافه ومعرفته وحزمه ونقاوته ، من المأمون الغيب ، الناصح الجيب ، عبد الرحمن بن منصور » .

وقد توفى ابن بُرد هذا سنة ٤١٨ بعد أن عاش نحو ثمانين سنة .

ونرى من هذا أن كتابته التى وصلت إلينا أشبه بكتابة رؤساء دواوين الإنشاء فى مصر ، وهم الذين روى القلقشندى أمثلةً لهم فى صبح الأعشى وغيره .

ابن شهيْد وابن حزم

ذكرنا ابن حزم قبل عالما دينيا[1] وشاعراً وابن شُهَيْد شاعراً[2] ، ونذكرهما هنا ناثرين ، فابن شهيد كاتب كبير ، ويظهر أنه كان من بيت كبير ، ولـكن منعه صممه عن البقاء فى الوزارة . ومن مجموع رسائله نرى أنه كاتب قدير مبتكر ،قد رويت له رسائل كثيرة تدل على قدرته الـكتابية والخيالية ، وله رسائل أشبه بالمقامات . ومن أشهرها رسالة « التوابع والزوابع » وهى رسالة مشهورة ، ومعنى التوابع : الجن تصحب الإنسان ، كالقرين والقرينة والزوابع : العواصف ، وتستعمل الزوبعة أيضاً بمعنى رئيس الجن . وسمّاها بهـذا الاسم ، لأن الرسالة وضعت لبيان آراء ابن شهيد فى الـكتّاب والأدباء والمشكلات الأدبية ، على لسان الجن . وأشبه ما يكون بها رسالة الغفران لأبى العلاء .

وقد ظن قوم أن التوابع والزوابع وضعت تقليداً لرسالة الغفران ، ورأى بعض الباحثين من المستشرقين أن العكس هو الصحيح ، وأن أبا العلاء هو الذى قلّد ابن شهيد ، ورجّح أن التوابع والزوابع أُلّفت قبل رسالة الغفران بنحو عشرين سنة . وذلك لأن ابن شهيد ذكر فى رسالته ما يدل على أنه ألّفها فى عهد المستعين ، وهو سليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر . وكانت مدة حكم المستعين هذا من سنة ٤٠٠ إلى ٤٠٧ ، كما نعلم أن أبا العلاء ألّف وسالة الغفران ردًّا على ابن القارح . وكان أبو العلاء قد بلغ نحو السبعين ، كما تدل عليه فقرة فى الرسالة نفسها ، فيكون كتب رسالته حول سنة ٤٢٢ ، وعلى هذا تكون رسالة التوابع والزوابع كتبت قبلها بنحو ٢٠ سنة ، وقد أخذ أبو العلاء الفـكرة وطبّقها تطبيقاً

---

(١) انظر ص ٥٣ وما بعدها .   (٢) ص ١٤٤ وما بعدها .

لطيفاً ، ونحا بها نحواً يخالف بعض الشيء رسالة ابن شهيد ، وإن كان أساس الفكرة عند ابن شهيد ، وأبى العلاء ، ودانتى واحداً .

وقد روى ابن بسّام فى الذخيرة أكثر هذه الرسالة . وقد حشا ابن شهيد رسالته هذه بالمُلَح والتعبيرات اللطيفة ، فَجِنِّيُّه مثلا أطلعه على بركة فيها أوزّ ، فيقول فى وصفها : « أوزّة بيضاء شهلاء ، فى مثل جُثمان النعامة ، كأنما ذُرّ عليها الكافور ، أو لبست غلالة من دِمقْس الحرير ... فى ظهرها صفاء ، تُثني سالفتَها ، وتكسر حدقتَها ، وتُلَوْلِبُ فترَى الحسن مستعاراً منها ، والشكل مأخوذا عنها » .

وقد أنطق الجن فى هذه الرسالة بكل آرائه فى الأدباء والشعراء ، وأصدقائه وأعدائه ، وآرائه فى الأدب وفى السجع ، وغير ذلك ، فمثلا ينطقُ الجنِّىَّ بقوله فى أعدائه : « عدمت ببلدى فرسان الكلام ، ودُهيت بغباوة أهل الزمان . . . ويصيح الجنِّىُّ إنا لله : ذهبت العرب بكلامها . إرْمِهم بسجع الكُهّان ، فعسى أن ينفعك عندهم ، ويُطير لك ذكراً فيهم . وما أراك مع ذلك إلا ثقيل الوطأة عليهم ، كريه المجىء إليهم » . وأحياناً يمدح نفسه فيقول له الجنِّىُّ مثلا : « إنّ لسجعك موضعاً من القلب ، ومكاناً من النفس ، وقد أعرْته من طبعك ، وحلاوة لفظك ، وطلاوة سوقك ، ما أزال أفنَه ، ورفع غبنه ، وقد بلغنا أنك لا تُجارَى فى أبناء جنسك ، ولا يُملّ من الطعن عليك ، والاعتراض لك » .. الخ

ويظهر من مجموعة ما نقل عنه أنه كان واسع الاطلاع ، غزير المعانى والخيال ولكن إذا نحن قارنّاه ببديع الزمان وابتكاراته ، كان بديع الزمان أخف روحاً ، وأرشق لفظا ومعنى .

وقد أثرت عن ابن شهيد أقوال فى البلاغة والنقد تدل على ذوقه ومنهجه ،

نسوق هنا بعضاً منها : من ذلك أنه يرى أن البلاغة لا تكون إلا إذا وهب الأديب ملكة بيانية ، فإن لم يوهبها لم ينفعه نحو ولا صرف ولا بلاغة . وقد جرب ذلك فى شابين : أحدهما مسلم والآخر يهودى . فالتمرين على الأدب جعل اليهودى أقرب إلى أن يكون أديباً ، لما عنده من استعداد . فالمسلم لم يستطع ذلك لأنه ليس له استعداد موهوب . ويقول : إن للخطباء والكتّاب شياطين ، وأنه صادف فى أرض الجن شيطان الجاحظ ، وشيطان بديع الزمان ، وشيطان عبد الحميد ، وهو يعيب على لسان الجنى التزام السجع ، فالجنى يخاطب ابن شهيد بقوله : « إنك لخطيب ، وحائك للكلام مُجيد ، لولا أنك مُغرم بالسجع ، فكلامك لا نثر ولا نظم » . وقد روى عنه أنه خاف فى آخر حياته من الموت كثيراً ، واستودع إخوانه بقوله :

أستودع اللهَ إخوانى وعِشْرَتَهُمْ وكل خِرْقٍ إلى العلياء سبّاقِ

. . . الخ . . .

وأوصى أن يكتب على قبره « بسم الله الرحمن الرحيم ، قل هو نبأ عظيم ، أنتم عنه معرضون ؛ هذا قبر أحمد بن عبد الملك بن شهيد المذنب . مات وهو يشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمداً عبده ورسوله ؛ وأن الجنة حق ، والنار حق ، والبعث حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور » .

* * *

وأما ابن حزم الناثر ، فأكبر أثر أدبى له فى النثر كتابه « طوق الحمامة » فهو كتاب فذ ، ترجم فيه لنفسه ، ودوّن خلجاتها ، مما يدل على أنه

كان حيِيّ النفس ، دقيق الحسّ . وقد علمنا أن أباه كان وزيراً كبيراً ، وأنه هو نفسه كان وزيراً خطيراً ، حتى كنّ هنّ اللائى علّمنه القرآن . فلما شب أحب ، ولوّعه الحب وذاق ألم الضنى ، ودوّن كل ذلك فى كتابه « طوق الحمامة » وشرح لنا فيه حبه أول ما لقى ، فقال : « إنى أحببت فى صباى جارية لى شقراء الشَّعر ، فما استحسنت من ذلك الوقت سوداء الشعر ، ولو أنه على الشمس ، أو على الحسن نفسه ، وإنى لأحد هذا فى أصل تركيبى من ذلك الوقت ، ولا تواتينى نفسى على سواها ، ولا تحب غيره البتَّة ، وهذا العارض بعينه عرض لأبى رضى الله عنه » ويذكر لنا أن خلفاء بنى مروان كانوا يحبون الشقر من النساء ، حتى أتى أغلبهم أشقر أشهَلَ ، نزَّاعاً إلى أمّه . ويحدثنا عن فاجعة له بحبيبة حلّت من قلبه أسمى محل ، فظل ابن حزم بعدها لا يطيب له عيش ، ولا يجد عنها سلوى ، وقد أثرت فى نفسه أبلغ الأثر ، حتى ما كاد ينتفع بنفسه بعد ، وحتى فاضت قريحته بمقطوعة من أصدق الشعر . ويقول : « إن محبوبته ماتت فأقام بعدها سبعة أشهر لا يتجرد عن ثيابه ، ولا تجفّ له دمعة ، مع جمود عينه ، وأنه ما سلاها حتى مر عليه خمس عشرة سنة ، ولم يطب له عيش بعدها ، ولا نسى ذكرها » .

ويخبرنا عن محبوبة أخرى لم تستجب له ، وبقى متسعّراً عليها سنين طويلة ، ثم برد فجأة حين رأى محبوبته هذه بعد غياب وقد غاض جمالها ، وهو يصف غير الحب أيضاً النكبات التى نزلت به وبقومه ، فقد كان هو وأبوه مواليَيْن للأمويين ، فلما جاء المنصور بن أبى عامر وأراد محو آثار الأمويين ، اضطُهد وأُهين وعذّب . ويقول فى هذه الرسالة : « إننا امتُحِنَّا بالاعتقال والتغريب ، والإغرام الفادح والاستتار ، وأرزمت[1] الفتنة وألقتْ باعها ، وعمَّت الناس

(١) اشتدت .

وخَصَّتْنا ، وأُجلينا عن منازلنا ، وتقلّبت بى الأمور إلى الخروج عن قرطبة ، وسكنى مدينة المرية ، واعتُقلنا أشهراً . وأخبرنى بعض الواردين من قرطبة أنه رأى دورنا ، وقد انمحت رسومها ، وطمست أعلامها ، وخفيت معاهدها ، وغيَّرها البلى ، وصارت صحارى مجدبة بعد العمران ، وفيافى مُوحِشة بعد الأنس ، وخرائب متقطعة بعد الحسن ، وشعاباً مفزّعة بعد الأمن ، ومأوى للذئاب ، ومعازف للغيلان ، وملاعب للجان ، ومكامن للوحوش ... فكأن تلك المحاريب المنمقة ، والمقاصير المزينة ، التى كانت تشرق إشراق الشمس ، ويجلو الهموم حسن منظرها ، تؤذن بفناء الدنيا ، وتريك عواقب أهلها ، وتخبرك عما يصير إليه كل من تراه قائماً فيها ، وتزهد فى طلبها ، بعد أن طالما زهدت فى تركها » .

وعلى الجملة فقد ملأ طوق الحمامة بتجاربه فى حبه ، وأحاديث نفسه ، وما اعتراه من فتن ، وما أصيب به من محن ، وملأه شعراً ونثراً ، أما شعره فقد بينا قبل رأينا فى قيمته . وأما نثره فقيمته فى صراحة معناه وغزارته ، لا فى ناحيته الفنية . فهو من حيث تأليفه فى الحب من أول الناس وأسبقهم إلى قيد منازع الحب . نعم قد سبقه إلى التأليف فى ذلك محمد بن داود الظاهرى — أيضاً — فى كتابه الزهرة ، ولكن ابن حزم تفوق عليه فكان كتابه « طوق الحمامة » أبرع وأثمن وأوفى .

ومما يدل على لوعته فى الحب وتقديره للوصال قوله : « ولقد جرّبت اللذات على تصرّفها ، وأدركت الحظوظ على اختلافها ، فما للدنوّ من السلطان ولا المال المستفاد ولا الوجود بعد العدم ولا الأوبة بعد طول الغيبة ولا الأمن بعد الخوف من الموقع فى النفس ما للوصل ، لا سيما بعد طول الامتناع ، وطول الهجر . حتى يتأجج عليه الجوى ، ويتوقّد لهيب الشوق ، وتنصرم نار الرجاء ، وما ازدهار

النبات بعد غبّ القطر ، ولا إشراق الأزاهير بعد إقلاع السحاب ... ولا خرير المياه المتخللة لأفانين النوار ، ولا تألّق القصور البيض قد أحدقت بها الرياض الخضر ، بأحسن من وصل حبيب ، قد رُضيت أخلاقه ، وحمدت غرائزه ، وتقابلت فى الحسن أوصافه » .

ويؤخذ من كلامه أنه قد مضى عليه زمان أحب فيه حبا عذريا ، صوّره تصويراً لطيفاً ، ودل فيه على عاطفة نبيلة رفيعة ، حتى لقد يكفيه من محبوبه ، شعوره بسلامة الحبيب ، وتقبيله أثره ، والتراب الذى وطئه .

وروعة ابن حزم فى تعدد مناحيه من دين وفقه وأصول وشعر وتأليف فى الغرام ، وغير ذلك ، أكثر من روعته فى فن الأدب وحده .

ابن زيدون (١)

لابن زيدون ناحية نثرية بجانب ناحيته الشعرية . ومن أهم نثره رسالتان شهيرتان : إحداهما رسالته الهزلية كتبها يسخر من منافسه فى حب ولادة ، وهو ابن عبدوس ، فهو يؤنبه أحياناً ، وينسب إليه سخريةً كل حادث عظيم فى الدنيا أحياناً ، ويقول فيها : « أما بعد ، أيها المصاب بعقله ، المورّط بجهله ، البيّن سقطه ، الفاحش غلطه ، للعاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفراش فى الشهاب ! فإن العُجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ، وإنك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صَفِرَت منه أيدى أمثالك ، متصدّياً من خُلّتى لما قُرعت دونه أنوف أشكالك ،

---

(١) انظر ابن زيدون الشاعر ص ١٥٧ وما بعدها .

مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملاً عشيقتك قوَّادة ، كاذباً نفسك أنك ستنزل عنها إليه ، وتخلف بعدها عليه ... زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية أنت جسمه وهَيُولاه ، قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال . . . حتى خيّلت أن يوسف عليه السلام حاسنك فغَضَضْتَ منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسَلَتْ عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنَزْت ، والنَّطفَ عثر على فضل ما ركزْت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك . . . وأن مالك بن نويرة إنما أردف لك ، وعروة بن جعفر إنما رحل إليك . . . وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائك ، وسحبان إنما تكلم بلسانك ... وأن الحجاج تقلد ولاية العراق بجدّك ، وقتيبة فتح ما وراء النهر بسعدك ، والمهلّب أوهن شوكة الأزارقة بيدك ، وأن أفلاطون أورد على أرسطاليس ما نقل عنك ، وبطليموس سوّى الإصطرلاب بتدبيرك ، وصوّر الكرة على تقديرك » ... الخ .

وهو فى هذه الرسالة يذكّرنا برسالة التربيع والتدوير التى كتبها الجاحظ فى السخرية بأحد كتَّاب عصره ، وهو أحمد بن عبد الوهاب . فهو فيها يهزأ بجسمه وينسب إليه سخريةً عِلْم كل شيء ، إلا أن رسالة ابن زيدون أدق وأوفى وألذع ، وهى تدلّ على علم واسع بأحداث التاريخ ، وقدرة فائقة فى التهكم بها على غريمه .

وأما الرسالة الجدية فهى رسالة كتبها وهو فى السجن لابن جهور ، يعتب ويستعطف ويبرأ مما اتهم به ، وأسلوبها أيضاً فى غاية القوة ، يذكّرنا بعض معانيها بمعانى على بن الجهْم ، وقد سجن هو أيضاً فأرسل يستعتب ويتعزَّى ويعتذر . يقول ابن زيدون فيها : « يا مولاى وسيدى ، الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتدادى به ... ومن أبقاه الله ماضى حدّ العزم ، وارى زند الأمل ... إنْ سلبتنى

لباس نعمائك ، وعطّلتنى من حُلَى إيناسك . . . ونفضْت منى كف حياطتك ، وغضَضْت عنى طرف حمايتك ، بعض أن نظر الأعمى إلى تأميلى لك ، وسمع الأصم ثنائى عليك — فلا غرو ، قد يغص بالماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفِى به ، ويؤتى الحذِرُ من مأمنه ، وتكون منية المتمنى فى أمنيته ...

كلُّ المصائب قد تمرُّ على الفتَى وتهُونُ غيرَ شماتةِ الأعداء

* * *

هل أنا إلا يد أدماها سوارها ، وجبين غض به إكليله ... هذا العتبُ محمود عواقبه ، وهذه النبوة غمرة ثم تنجلى ، وهذه النكبة سحابة صيفٍ عن قليل تقشَّع . . . وأعود فأقول : ما هذا الذنب الذى لم يسعه عفوك ، والجهل الذى لم يأت من ورائه حلمك ...

إلاّ يكنْ ذنبٌ فعدلُك واسعٌ أو كان لى ذنبٌ ففضلك أوسَعُ

* * *

حنانيك ، قد بلغ السَّيل الزبى ، ونالنى ما حسبى به وكفى ، وما أرانى إلا أُمرت بالسجود لآدم فأبيت واستكبرت ، وقال لى نوح اركب معنا ، فقلت سآوى إلى جبل يعصمنى من الماء ، وأُمرت ببناء الصرح لعلّى أطّلع إلى إله موسى ، وعكفت على العجل ، واعتديت فى السَّبْت ، وتعاطيتُ فعقرت ، وشربت من النهر الذى ابتليَتْ به جيوش طالوت ، وقُدْتُ الفيل لأبرهة . . . ونفرت إلى العير ببدْر ، وانخذلت بثلث الناس يوم أُحُد » . . الخ .

وعلى الجملة ، فرسالتاه سواء الهزلية أو الجدية ، تدلاّن على باع طويل فى كتابة النثر ، ومقدرة فائقة فى تنويع الأساليب ، وغزارة المعانى . فإذا أضيفت

هذه الموهبة النثرية إلى موهبته الشـعرية ، عثرنا فيه على أديب بارع ، فى الشعر والنثر ، وقلّ أن يجتمعا فى أديب .

ابن أبى الخصال

لا يفوتنا هنا أن نذكر كلمة عن كاتب كبير من أواخر كتّاب الأندلس ، وهو ابن أبى الخصال : كان من قرية من قرى جيّان ، وكان يلقّب برئيس كتّاب الأندلس ، وكان صديقاً لابن عبدون وابن بسّام . قال فيه صاحب المعجب : «هو آخر الـكتّاب وأحد من انتهى إليه علم الآداب ، وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب ، واليد الطولى» . وقد روى لنا أنه ألّف كتاباً اسمه « سراج الأدب » لم يصل مع الأسف إلينا ، وقد روى له القلقشندى فى « صبح الأعشى » جملة كثيرة متفرقة من رسائله ومن شعره ، من أرادها فلينظرها هناك .

ابن الخطيب

هو لسان الدين ابن الخطيب ، وهو وزير مشهور ، من أجله ألّف المقّرى الـكتاب الـكبير « نفح الطيب وغصن الأندلس الرطيب فى ترجمة لسان الدين ابن الخطيب» فى أربعة أجزاء كبار ، ذكر فيها الأندلس وما جرى لها من مبتدئها ومنتهاها ، ولسان الدين وشيوخه ورسائله . . الخ . فكان الـكتاب نعمة من آثار بن الخطيب . وقد ولد لسان الدين بمدينة غرناطة فى سنة ٧١٣ ، وكان أبوه ذا شأن عظيم عند ملوك بنى الأحمر ، فربّاه تربية دقيقة واســعة ، علّمه الطب والفلسفة والأدب والفقه والتفسـير والحديث ، فكان عالما أديباً . وقد

ألّف فى ذلك ، وقالوا إنه أصيب بالأرق ، فاستعان بالتأليف عليه . وكان واسع العلم بالتاريخ ، وألّف فى علماء غرناطة كتابه « الإحاطة »[1] . وله رسائل أدبية وسياسية تتصف بالإطناب والتزام السجع حتى تملّ ، وابتُلى كما ابتلى غيره من علماء الأندلس بالحسد من خصومه ، ودسّ الدسائس له ، حتى اتهم فى دينه بالزندقة ، وقوله فى كتبه أشياء لا يقرها الدين . ولعب فى السياسة كثيراً حتى احترق بها ، واتخذت الزندقة ذريعة للنَّيل منه .

وأخيراً أفتى الفقهاء بقتله ، فخُنِق فى سجنه ، وألّف كتباً كثيرة ، وكان صديقاً لابن خلدون بعض الوقت ، ثم فسد ما بينهما . وتمتاز رسائله بدقة الوصف ، وغزارة المعنى ، مثال ذلك ما كتبه فى استدعاء إمداد ، وحضٍّ على الجهاد « أيها الناس : رحمكم الله تعالى ، إخوانكم المسلمون بالأندلس ، قد دهم العدوُّ ساحته ، ورام الكفر استباحته ، وزحفت أحزاب الطواغيت إليهم ، ومدّ الصليب ذراعيه عليهم ، وأيديكم بعزة الله أقوى ، وأنتم المؤمنون أهل البر والتقوى ، وهو دينكم فانصروه ، وجواركم القريب فلا تخفروه ، وسبيل الرشد قد وضح فلتبصروه . الجهادَ الجهاد فقد تعيَّن ؛ فالجارَ الجارَ ، فقد قرّر الشرع حقه وبيَّن ، اللهَ اللهَ فى الإسلام ، الله الله فى أمة محمد عليه السلام ، الله الله فى المساجد المعمورة بذكر الله ، الله الله فى وطن الجهاد فى سبيل الله . قد استغاث بكم الدين فأغيثوه ، وقد تأكّد عهد الله وحاشاكم أن تنكثوه . أعينوا إخوانكم بما أمكن من الإعانة ، أعانكم الله عند الشدائد . جدّدوا عوائد الخير ، يصل الله تعالى لكم جميل العوائد صلُوا رَحِمَ الكلمة ، واسُوا بأنفسكم وأموالكم تلك الطوائف المسلمة . كتاب

(١) طبع منه فى مصر جزآن ، ولم يطبع الثالث ، ومع ذلك فالجزآن لم يطبعا طبعة علمية دقيقة ولا مستوفية .

الله بين أيديكم ، وألسنة الآياتِ تناديكم ، وسنّة رسول الله قائمة فيكم . والله يقول : يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم . . .

ماذا يكون جوابكم لنبيّكم وطريقُ هذا العُذْرِ غيرُ ممهّدِ
إن قال لِمْ فرّطْتُمُ فى أُمّتى وتركتموهم للعدوّ المعتدِى
تالله لوْ أنّ العقوبة لم تُخَفْ لكفَا الحيا من وجْهِ ذاكَ السيّد

* * *

اللهم اعطف علينا قلوب العباد ، اللهم بُثَّ لنا الحمية فى البلاد ، اللهم دافع عن الحريم والضعيف والأولاد ، اللهم انصرنا على أعدائك بأحبابك وأوليائك ، يا خير الناصرين » . . الخ .

ويقول مثلا فى ترجمة ابن عبد ربه صاحب العقد : « عالمٌ ساد بالعلم ورأَس ، واقتبس به من الحظوة ما اقتبس ، وشهر بالأندلس حتى صار إلى المشرق ذكره ، واستطار شرَرَ الذكاء فكرُه . . وكانت له عناية بالعلم وثقة ، ورواية متّسِقة ، وأما الأدب فهو كان حجته ، وبه غمرت الأفهام لجته ؛ مع صيانة وورع ، وديانةٍ ورد ماءها فكَرَع ، وله التأليف المشهور الذى سماه بالعقد ، وحماه عن عثرات النقد ، لأنه أبرزه مثقّف القناة ، مرهف الشباة . تقصر عنه ثواقب الألباب ، وتبصر السحر منه فى كل باب ، وله شعر انتهى منتهاه ، وتجاوز سماكَ الإحسان وسماه . . الخ » .

وله مقامة فى السياسة على نحو مقامات الحريرى بناها على أن هارون الرشيد ضاق صدره يوماً ، فطلب أن يُحضَر إليه مَن يُعثر عليه ، فحُشر له بعض القوم . وكان منهم رجل غريب المنظر ؛ فسأله الرشيد عن أصله وفنّه ، فقال : إنه فارسىّ وفنُّه الحكمة ، فسأله عن السياسة فأبدع فيها حتى انتصف الليل ، ثم استدعى

عوداً وظل يغنّى عليه حتى أنام الحاضرين كلهم ، وخرج فلم يعثر له على خبر .

وقد تعرض فى هذه المقامة إلى الرعية والسلطان والوزير والجند والعمال والولد والخدم والحرَم ، فقال فى الرعية : « رعيّتك ودائع الله قِبَلَك ، ومرآة العدل الذى عليه جَبَلَك ، ولا تصل إلى ضبطهم إلا بإعانة الله التى وهب لك . وأفضل ما استدعيت به عونه فيهم ، وكفايته التى تكفيهم ، تقويم نفسك عند قصد تقويمهم ، ورضاك بالسهر لتنويمهم ، وحراسة كهلهم ورييعهم ، والترفع عن تضييعهم ، وأخذ كل طبقة بما عليها وما لها ، أخذا يحوط ما لها ، ويحفظ عليها كمالها ، حتى تستشعر عليتها رأفتك وحنانك ، وتعرف أوساطها فى النصَب امتنانك ، وتحذر سِفْلَتُها سنانك ... وامنع أغنياءها من البطر والبطالة ، والنظر فى شبهات الدين بالتشدق والإطالة ، وحدِّد البخل على أهل اليسار ، والسخاء على أولى الإعسار » .

وقال للسلطان : « واعلم يا أمير المؤمنين سدّد الله سهمك لأغراض خلافته ، وعصمك من الزمان وآفته ، أنك فى مجلس الفصل ، ومباشرة الفرع من ملكك والأصل . . . فلتكن قدرتك وقفاً على الاتصاف بالعدل والإنصاف ، واحكم بالسوية ، واجنح بتدبيرك إلى حسن الروية ، وخَفْ أن تقعد بك أناتك عن حزم تعيّن ، أو تستفزك العجلة فى أمر لم يتبيّن ، وأطع الحجة ما توجَّهتْ إليك ، ولا تحفل بها إذا كانت عليك ، فانقيادك إليها أحسن من ظفرك ، والحق أجدى من نَفَرِك ... واحرص على أن لا ينقضى مجلس جلسته ، أو زمن اختلسته ، إلا وقد أحرزت فضيلة زائدة ، أو وثقت منه فى معادك بفائدة ... والمال نعمة الله ، فلا تجعله ذريعة إلى خلافه ، وتجمع بالشهوات بين إتلافك وإتلافه » .

وقال فى الوزير : « والوزير الصالح أفضل عددك ، وأوصل مددك . . .

وليكن الوزير معروفاً بالإخلاص لدولتك ، معقود الرضا والغضب برضاك وصولتك ، زاهداً عما فى يديك ، مؤثراً لكل ما يَزْلف لديك ، بعيد الهمة ، راعياً للأذمة ، رحيب الصدر ، رفيع القدر ، معروف البيت ، نبيه الحىّ والميت ، مؤثراً للعدل والإصلاح ، دَرِيًّا بحمل السلاح ، جادًّا عند لهوك ، متيقظا فى حال سهوك . . الخ » .

وقد استقى هذه الأمور كلها من تجاربه ، إذ كان وزيراً ، وكان مطّلعاً على التواريخ ، وخصوصاً تاريخ بلاده . وقال فى الإحاطة فى ترجمة ابن خلدون إذ كان صديقاً له ، بعد أن ذكر نسبه : « رجل فاضل ، حسن الخُلُق ، جم الفضائل ، باهر الخِصَل ، رفيع القدر ، ظاهر الحياء ، أصيل المجد ، وقور المجلس ، خاصّىّ الزىّ ، عالى الهمة ، عزوف عن الضيم ، صعب المقادة ، قوىّ الجأش ، طامح لقُنَن الرياسة ، متقدم فى فنون عقلية ونقلية ، متعدد المزايا ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، صحيح التصور ، بارع الخطّ ، حسن العشرة ، مبذول المشاركة . . مُغْفِلٌ التحفظ مما يَريب ، وقع من أجل ذلك فى محنة فلم يخشع ولم يتوسل ، وأباد المكسوب فى سبيل النفقة[1] ... ولما استقر ابن خلدون فى الحضرة ، جرت بينى وبينه مكاتبات ، أقطعها الظرف جانبه ، وأوضح الأدب مذاهبه . . فمن ذلك ما خاطبته به وقد تسرَّى (أى ابن خلدون) جارية رومية اسمها هند صبيحة الابتناء بها ، وقد أطال فى هذا الكتاب فيما تخيّله من سرور ابن خلدون بالابتناء بها ، وقضاء ليلة سعيدة معها بالتفصيل والتصريح ، من غير إجمال ولا إيماء . « وقد شرح ابن خلدون البردة شرحاً بديعاً ، دلّ به على انفساح ذرعه ، وتفنن إدراكه ، وغزارة حفظه . ولخص كثيراً من كتب ابن رشد ، ولخص محصل

(١) تصرفنا هنا تصرفا قليلا فى بعض التعبيرات .

الإمام فخر الدين الرازى ، وألّف كتابا فى الحساب » .

ويظهر أنه كتب هذه الترجمة قبل أن يؤلف ابن خلدون كتابه التاريخى الذى اشتهر به . وقد ذكر ابن خلدون فى بعض كتبه «لسان الدين» وأثنى عليه ولكنه قال : « إنه لما كان بالأندلس ، وحظى عند السلطان أبى عبد الله ، شمّ من ابن الخطيب رائحة الانقباض ، فقوّض الرحال ، ولم يرض عن الإقامة بحال . ولعبت بكرته صوالجة الأقدار ، حتى حلّ بالقاهرة المعزّية ، واتخذها خير دار . . الخ » .

ومن نثر ابن الخطيب مثلاً قوله فى تقلب الأحوال بالعظماء مما رآه من أمرائه أو سمعه عن ابن حزم وأمثاله : « بينما ترى الدَّست عظيم الزحام ، والموكب شديد الالتحام ، والوزعة تشير والأبواب يقرعها البشير ، والسرور قد شمل الأهل والعشير والأطراف تلثُمها الأشراف ، والطاعة يشهرُها الاعتراف ، والرايات تعقد ، والأعطيات تنْقد ، إذ رأيت الأبواب مهجورة ، والدسوت لا مؤمَّلة ولا مزورة ، والحركات قد سكنت ، وأيدى الإدالة قد تمكنت ، فكأنما لم يسمُر سامر ، ولا نهى ناهٍ ولا أمر آمر ، ما أشبه الليلة بالبارحة ، والغادية بالرائحة ، إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح » .

وقال فى الحب على طريقة المتصوفة : « المحبة رقةٌ ، ثم فكرة مسترقة ، ثم ذوق يطير به شوق ، ثم وَجَل لا يبقى معه طوق ، ثم لا تحتُ ولا فوق :

أينما كنتُ لا أُخَلِّفُ رَحْلاً ... من رآنى فقد رآنى وَرَحْلِى

الهوى هوان ، وَحِمَامٌ له ألوان ، دمعٌ ساجم ، وَوَجْدٌ هاجم ، وهيامٌ لا يبرح ، ثم وراءه ما لا يُشرح .

قال بِمَنْ جُنَّ ؟ وهل فى الوَرَى ما يبعثُ الخَبَلَ سِوَى حُبِّهِ ؟

مَن اقتحم بحر الهوى هوى ، لا تدخل فى بحر الهوى حتى تشاور صبرك ، وتجاورَ قبْرك .. الهوى طريق ، ولسلوكه فريق ، الزاد سر مكتوم ، ووفاء معلوم .

وللميادين أبطالٌ لها خُلِقــوا وللدواوين حُسَّـابٌ وكُتَّاب

الحبّ حَجٌّ ثان ، لا يثنى نفس المريد عنـه ثان ، طريقه التجريد ، وزاده الذكر ، وطوافه المعرفة ، وإفاضته الفناء . « فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم » . الغرام صعب المرام ، والدخول فيه حرامٌ ، ما لم يكن فيـه شروط كرام . مَن عَرف ما أخـذ ، هان عليـه ما ترك . « وربك يخلق ما يشاء ويختار » . ظهر الهوى طريقاً سهلا ، فـكثر التائهون جهلا

إذ لم يكن عون من الله للفتى أتته الرزايا من وجوه الفوائد »

وله كتب كثيرة نحا فيها نحو المتصوفة ، فله مثلا كتاب اسمه « المحاضرات » وهو عبارة عن جُمل مختارة من أقوال مشاهير المتصوفة . وله المواعظ الصوفية اللطيفة ، ثم له إلى جانب ذلك كتب فى الأدب . قال المقّرى : « إن كتبه الآن فى المغرب قِبلة أرباب الإنشاء ، التى إليها يصلون ، وسوق دُرَرهم النفيسة التى يزينون بها صدور طروسهم ويحلّون ، وخصوصاً كتابه « ريحانة الـكُتَّاب ، ونجعة المنتاب . فإنه وإن تعددت مجلداته ، على فن الإنشاء والـكتابة مقصور »

وكما برّز ابن الخطيب فى النثر ، فقد برّز فى الشعر . فله الشعر الـكثير ، وله الموشحات اللطيفة ، والأزجال الظريفة . وهى لا تقل شأناً عن قيمته فى النثر .

فالذى يظهر لنا أن الثقافة الأندلسـية من أولها فى الأندلس إلى آخرها قد

صفيت وتقطرت فى لسان الدين بن الخطيب فى تعدّد مناحيه ، وسعة علمه ، وكثرة إنتاجه . ولعل هذا المعنى هو الذى شعر به المقّرى فألف فيه كتابه « نفح الطيب » وفيه كل ثقافة الأندلس ، وسماه باسمه كأنما هو هى .

ابن خلدون

وقد عددناه من كتّاب الأندلس ، وإن عاش أكثر حياته فى بلاد المغرب وفى مصر ، لأنه أندلسىّ الأصل ، فهو من إشبيلية ، من أصل عربى يمنى ، وهو وإن ولد فى تونس ، فقد درس على علماء أندلسيين وأقام فى الأندلس زمناً ، وهو مع ابن الخطيب يتوجان الحركة الثقافية الأندلسية . وهما يمتازان بسعة الاطلاع وكثرة العلم وتنوعه ، ولكن ابن خلدون يمتاز بالعمق فى التفكير السياسى الاجتماعى ، وابن الخطيب يمتاز بأدبه بالمعنى الواسع . وقد سفر ابن خلدون إلى الملك بِدْرُو فى إشبيلية سنة ٧٦٤ ، فأعجب بدرو بعقله ، وطلب منه أن يقيم فى بلده فى نظير أن يرد عليه أموال أسرته فاعتذر . وكما قلنا من قبل : إنه صحب ابن الخطيب نحو سنتين ، ثم تَعَكَّر الجو بينهما . وابن خلدون من العلماء القلائل بين المسلمين الذين ابتكروا ولم يقلدوا ، فهو واضع أساس علم الاجتماع بمقدمته ، وإن كان أكمله علماء الإفرنج لا العرب ؛ وقد تعرض لطبائع البشر وأسباب تغيرها ، وقيام الدول وأن لها عمرا كعمر الأفراد ، كل ذلك فى عمق . ومن أبدع نظراته نظرته إلى التاريخ وأنه يجب أن ينبنى على تعليل الحوادث ومعرفة أسرارها ومطابقاتها لقانون السبب والمسبب ، ولا يصح أن يبنى التاريخ على مجرد النقل إذا خالف العقل . والمؤرخ محتاج إلى معارف متنوعة وحسن نظر وتثبت تؤدى به إلى الحق ، وتنكب به عن المزلات والمغالط . وفى قسم من المقدمة

أرّخ العلوم الإسلامية كلها تأريخ خبير عالم . وأسلوبه فيها أسلوب رزين لم يعمد فيه إلى نخفخة السجع الكاذب ، ولا إلى الإطناب الممل . فإذا كان عند البلاغيين ثلاثة أنواع ، إيجاز وإطناب ومساواة ، فإن أسلوبه ينطبق على المساواة ، فاللفظ بقدر المعنى لا أكثر ولا أقل . وقد تقلب فى مناصب سياسية كثيرة من سفارة وقضاء ، ويظهر أنه كان حسن الحديث قوى التأثير فى النفوس ، فقد رأينا أنه لما سفر إلى بِدْرُو أعجبه وقرّبه إليه . ومرة ثانية لما سفر إلى تيمورلنك بدمشق ، وتيمورلنك هو القاسى الجبار الفاتك ، دخل ابن خلدون فى مزاجه ، ودعاه إلى أن يقيم معه . فرأى ابن خلدون من الحيلة أن لا يرفض ، ولكنه قال : إنه يذهب ليحضر أهله ويعود ، فذهب ولم يعد ، كما يظهر أنه خبير بنفسية من يخاطبه ولو كان من غير جنسه . فإذا حدثه استلب عقله ، وعرف من أين تؤكل الكتف . ولكن هنالك ظاهرة أخرى فى حياة ابن خلدون وهى النفور منه وتنحيته عن المنصب بعد أن يعيّن فيه ، وعداؤه بعد الصداقة . وقد رأينا أن ابن الخطيب عاداه بعد أن صادقه ، وأنه تولى مناصب خطيرة فى تونس ثم عزل ، وولى منصب قاضى القضاة فى القاهرة ست مرات ، يعزل ثم يولى ثم يعزل ثم يولّى . وقد يفسر هذا إما بصلابته فى رأيه فليس يلين ، وإما بأنه محسّد لفضله ، فإذا رُئى منه كثرة الصلابة فى الحق ، واعتداده بنفسه ، حرّض ذلك غيره ممن هم أقل منه على الدس له ، والنيل منه . كما يظهر أنه صريح ، يقول ما يعتقده من الحق ، ولو آلم الناس كقوله : إن العرب إذا نزلوا بلدة أسرع إليها الخراب ، وإن أكثر العلماء من الموالى لا من العرب ونحو ذلك ، كما أنه كان فى قضائه يحكم بين الناس بالعدل ولو أغضب فى ذلك ملوك زمانه وأمراءه . ولا نبرئه من حدة فى المزاج وسرعة فى الانفعال ، كما لا نبرئه من جمود فى العواطف ، فقد غرقت زوجته وأولاده فى البحر ،

ثم لا نراه يبكى لذلك ، ولا يتحسر عليهم ، بكاء أو تحسرا يتناسب مع الفجيعة .

ومقدمته كاملة مصقوله . أما تاريخه فمهوّش لم يصقل ، ولم يسر فيه على القواعد التى وضعها فى مقدمته . و يظهر أن الزمن لم يمهله حتى يحقق كل مطالبه . ومن الأمثلة على أسلو به وتفكيره قوله فى الفرق بين البدو والحضر مثلا « إن أهل الحضر ألقَوْا جنوبهم على مهاد الراحة والدّعة ، وانغمسوا فى النعيم والترف ، ووكلوا أمرهم فى المدافعة عن أموالهم وأنفسهم إلى واليهم والحاكم الذى يسوسهم ، والحامية التى تولت حراستهم ، واستناموا إلى الأسوار التى تحوطهم ، والحرز الذى يحول دونهم ، فلا تهيجهم هَيْعة ، ولا ينفر لهم صيد ، فهم قارّون آمنون ، قد ألقوا السلاح ، وتوالت على ذلك منهم الأجيال ، وتنزّلوا منزلة النساء والولدان ... حتى صار ذلك خلقا يتنزل منزلة الطبيعة .

« وأهل البدو لتفرّدهم عن المجتمع ، وتوحشهم فى الضواحى ، و بعدهم عن الحامية ، وانتباذهم عن الأسوار والأبواب قائمون بالمدافعة عن أنفسهم لا يكلونها إلى سواهم ، ولا يثقون فيها بغيرهم ، فهم دائما يحملون السلاح ، و يتلفتون عن كل جانب فى الطرق ، و يتجافون عن الهجوع إلا غرارا فى المجالس ، وعلى الرحال وفوق الأقتاب ، و يتوجسون للنبآت والهَيْعات . ويتفردون فى القفر والبيداء ، مُدِلّين ببأسهم ، واثقين بأنفسهم ، قد صار لهم البأس خلقا ، والشجاعة سجية ، يرجعون إليها متى دعاهم داع ، أو استنفرهم صارخ » .

نعم : إن المقدمة لها أصول من كتب عربية كسراج الملوك للطرطوشى ، وكتب مترجمة عن اليونانية ، ولكن إذا قارن الإنسان بينها و بين ما كتب ابن خلدون وجده ابتكر فيها وزاد عليها ، وأخرجها مُخرجا جديدا — قد يظهر بعض خطئه فى نظريات قالها إذا نحن نظرنا إليها على ضوء ما وصل إليه علم

الاجتماع الحديث ، ولكن مَن من الناس لا يخطئ ولا يصحح قوله ؟ خصوصا وقد مرت على أقواله أجيال . وكفاه فخرا أنه أدرك فى زمانه ما لم يدركوه إلا بعد قرون طويلة . وتعد مقدمته وتاريخه من غير شك تدوينا يكاد يكون تاما للحضارة الإسلامية .

وله كتب أخرى فى علم الكلام وفى التصوف ، ولكنها كلها لا تبلغ مبلغ مقدمته . وعلى الجملة ، فابن الخطيب وابن خلدون جمعا فى شخصهما ما وصل إليه العلم العربى فى الشرق قبلهما ، ثم هضماه وعرضاه عرضا وافيا ، كلٌّ حسب استعداده وميوله . ابن الخطيب فى الأدب والتصوف والتاريخ وابن خلدون فى التاريخ والاجتماع ، وقل أن يكون هناك علم عربى لم يتعرضا له إجمالا أو تفصيلا . ونكاد نقول : إن العلم والأدب والتاريخ تحجرت بعدهما إلى أن أتت النهضة الحديثة .

أثر النساء فى الأدب

كان للنساء فى الأندلس أثر كبير فى الأدب من ناحيتين :

١ — ناحية ما لهن من جمال وفتنة حركا نفوس الأدباء للغزل والنسيب .

٢ — أنه كان منهن الأديبات اللاتى ساهمن فى الحركة الأدبية بما أنتجن من أدب ، وكان هذا هو الشأن فى المشرق ، فكان كذلك فى المغرب ، غاية الأمر أن النساء الجميلات الأديبات كن فى المشرق فارسيات أو بربريات أو تركيات ، وكن فى الأندلس إسبانيات أو أوربيات من أسرى الحروب . فكنَّ يسكنَّ قصور الخلفاء والأمراء والأغنياء ، ويعلَّمن الأدب فيخرج منهن أديبات . وأول ما بلغنا من النساء الأديبات ما روى عن جملة من النساء القادمات من المشرق

على الأندلس ، وذلك أن الخطّة التى وضعها الخلفاء الأمويون بالأندلس كانت نقل ما تُزين به قصور الخلفاء من أمويين وعباسيين ، فرأوا أن قصور الخلفاء تزين بالشعراء واللغويين والفتيات المغنيات ، فأوفدوا لإحضار كل ذلك من المشرق ، حتى يوجدوا نواة فى الأندلس تثمر فيما بعد . فكما استوفدوا أبا على القالى اللغوى المشهور ، وصاعداً وغيرهما ، استوفدوا أيضاً جوارى من المشرق للغناء والأدب . فذهبت إليهم فرقة ممن نشأن فى المدينة أو فى بغداد ، كما تذهب الفرق المصرية اليوم إلى الشام أو العراق . وكان ممن ذهب إلى الأندلس فى أول العهد عايدة ، وكانت من خريجات المدينــة ، وكانت جارية سوداء حالــكة اللون ، وكذلك « فَضْل » المدنيّة ، وكانت حاذقة فى الغناء ، وأصلها من جوارى إحدى بنات هارون الرشيد ، واشتراها عبد الرحمن الداخل ، ومنهن « قمر » وكانت أديبة تعرف صوغ الألحان ، واشتهرت بالظرف والأدب والجمال ، ولا ننسى هنا ذكر الجوارى اللائى علمهن زرياب كما أسلفنا من قبل ؛ كل هؤلاء وأمثالهن علمن بعض نساء الأندلس الغناء والألحان والأدب ، فنشأ بعدهن جيــل جديد من نساء أهل الأندلس يغنين ويقلن الشعر ، كالذى رأينا من ولاّدة مع ابن زيدون ، وكان لولاّدة هــذه صاحبة اسمها « مهجة » القرطبية ، اشتهرت بجمالها وأحبتها ولاّدة ، ولازمت تأديبها ، وكانت من أخف النساء روحا ، ثم وقع بينها وبين ولاّدة ما يقع بين الفتيات الجميلات عادة ، كما اشتهر من النساء الأديبات «اعتماد» جارية المعتمد وقد تقدم ذكرها ، وبثينة بنت المعتمد ، وحفصة بنت حمدون ، و « غاية المنى » و « نزهون » والغرناطية وغيرهن ؛ كل أولئك ملأن كتب الأدب شعراً ونكتا وأحداثاً استوجبت غزلا كثيرا ، وعتابا كثيرا ، وملاحاة كثيرة ، وعلى الجملة فقد كنّ سبباً كبيراً فى الحياة الأدبية بجانب السبب الآخر ، وهو عطاء الأمراء ، ورغبتهم فى المديح والثناء ، وكانا هما السببين فى الحياة الأدبية

فى الشرق والغرب على السواء ، وعلى الجملة فنحن إذا نظرنا إلى الحياة الأدبية فى الأندلس رأينا خطوطها الرئيسية تشبه تماماً الخطوط الرئيسية فى المشرق سواء من حيث الموضوعات الأدبية ، أو من حيث الأوزان العروضية أو من حيث البواعث النفسية . ولم يكن شىء يظهر فى المشرق حتى يكون له صدى فى الأندلس . يؤلف الثعالبى يتيمة الدهر فى ترجمة الشعراء ترجمة مسجوعة ، فيقلده ابن بسّام فى الأندلس ، ونرى هذا الشاعر الأندلسى كالغزال يقلد أبا نواس ، وابن زيدون يقلد البحترى ، وابن هانئ يقلد المتنبى ، وصاعداً يقلد الجاحظ ، وابن الخطيب يقلد ابن العميد وجوارى الأندلس يقلدن جوارى المدينة وبغـداد وهكذا . ولهذا قلنا : إن الخطوط الرئيسية تكاد تكون واحدة فى الشرق والأندلس إلا خيوطاً ضعيفة قليلة يظهر فيها أثر الأندلس . فإن قلنا : إن الأدب العربى نهر جار ، فالأندلس رافد من روافده ؛ لا نهر مستقل موازٍ له . وبعبارة أخرى ، فالأندلسيون وسعوا النهر الأصلى ، ولم ينشئوا نهراً جديداً .

ولئن دمغ الأدب الجاهلى الأدب المشرقى ، فالأدب المشرقى مع الأدب الأندلسى ، وكان الظن أن يؤثر الأدب الإسبانى والفرنسى أثراً غير تأثير الأدب الفارسىّ واليونانى فى المشرق ؛ ولـكن : حدث أن تأثر الأندلسيون بالمشرق أكثر من تأثرهم بالإسبانيين ، لوحـدة اللغة ووحدة الدين . والخلاصـة أن الأندلسيين فى أدبهم وسعوا الإنتاج أكثر مما نوّعوه ، فبدل أن ينتجوا باءً بجانب الألف وهو الأدب المشرقى ، أنتجوا ألفاً أخرى تتشابه مع الأولى فى الموضوع والوزن والقافية والسجع ونحو ذلك . وكأنهم كانوا يحسُّون مركَّب النقص بالنسبة لأدباء المشرق ، فكملوه بمجاراتهم بدعوى التفوق عليهم ، ولـكنهم لم يتفوقوا . والظاهر أن تيار المشرق كان قوياً حتى استحوذ على أدب المغرب ، ولم يسمح له

بالخروج عنه ، وكان شأن الأدب فى ذلك شأن الفقه والتصوف واللغة والفلسفة وسائر فروع العلم . نذكر هذا بعد أن قرأنا كثيراً من آثار الأندلسيين ، وقد دخلنا فى بحث الموضوع ونحن نعتقد أننا قادمون على شىء جديد مبتكر ، فإذا نحن أمام ثروة كبيرة مقلدة ، وقد حدث لنا هذا مرة أخرى عندما درسنا الأدب المصرى ، وكنا نظن أن المصرية ستتضح فى فروع العلوم والآداب، وأن سنكون أمام شخصية تنتج من الأدب أنواعاً جديدة ، غير التى أنتجها العراق ، فلم نر بعد الدرس هـذا الرأى ، اللهم إلا مسحة خفيفة عارضة كالمسحة التى رأيناها فى الأندلس ، ولعل الزمن يظهر هذا لمن بعدنا أكثر مما ظهر لنا .

الباب الخامس

الحركة الفلسفية والعلمية

يظهر أن منشأ الفلسفة فى الأندلس كمنشئها فى المشرق ، فقد نشأت الفلسفة فى المشرق من الطبِّ والتنجيم لعناية الخلفاء بهما ، إذ كانوا يحتاجون إليهما كثيراً ، وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم ، و بما سيحدث فى الكون . وكان من الموظفين الرسميين أطباء ومنجمون . وكان الطب والتنجيم عند اليونان فرعين من فروع الفلسفة ، كالطبيعيات والإلهيات ، وكذلك كان الشأن فى الأندلس . فقد احتاج الخلفاء الأولون إلى أطباء يداوونهم ، خصوصاً أن الترف وكثرة الأكل أضعفا أجسامهم ، وكان بعضهم يؤمن بالتنجيم . والاشتغال بالطب والتنجيم يُسلم إلى الفلسفة ، لأن الطب كما هو معروف يحتاج إلى معرفة النباتات وخصائصها ، والعقاقير وما إليها ، وهو المسمَّى « بالأقرباذين » ومتى سار الطبيب فى ذلك ، احتاج إلى المنطق لمعرفة الأقْيِسَة والاستنتاجات الصحيحة فى معالجة الأمراض . ومتى اتصل بذلك ، اتصل بجالينوس وأفلاطون وأرسطاليس ، فاتصل بالفلسفة اليونانية . كذلك من اشتغل بالنجوم ، اتصل ببطليموس ، ورأى نفسه محتاجاً إلى رياضة دقيقة ، وهندسة عميقة ، فاتصل بأقليدس وفيثاغورس ، ثم اتصل بأفلاطون وأرسطو كذلك . ولذلك نرى الفلاسفة الأندلسيين الأولين أطباء فقط ، مثل الكرمانى ، وأبى جعفر أحمد بن خميس ، وحَمدِين بن أبان ، أو منجمين مثل ابن السمينة ، ومسلمة بن أحمد المجريطى والزهراوى وغيرهم . وقد أعانهم على التفلسف عوامل مختلفة :

الأولى : أنه رحل إلى الأندلس فى أول عهدها بعض البغداديين ، فعلّموا أهل الأندلس ما وصل إليه أهل بغداد فى الطب ، كالذى روى عن إسحاق بن عمران ، وأنه كان بغدادى الأصل ، وكان طبيباً مشهوراً ، إلى كثير غيره ، وأنه رحل إلى الأندلس .

والثانى : أن الحكَم كما قدمنا نقل كثيراً من الكتب ، ومنها الكتب الفلسفية التى ترجمت عن اليونانية ، ولم يظهر كتاب عظيم فى الفلسفة إلا وينقل فوراً إلى الأندلس ؛ كالذى حدثنا ابن أبى أصيبعة من أن الكرمانى من أهل قرطبة رحل إلى المشرق ، وجلب معه عند عودته إلى الأندلس رسائل إخوان الصفاء .

والثالث : أن العلاقات كانت تحسن فى بعض الأحيان بين خلفاء بنى أمية الأندلسيين و بين القسطنطينية ، فهؤلاء الأخيرون يهدون إلى خلفاء بنى أمية بعض الكتب الفلسفية والأدبية . ومن أظرف ما كتب فى ذلك ما ذكره ابن جُلجُل من أنّ « كتاب ديسقوريدس » فى النبات كان قد ترجم ببغداد أيام المتوكل ، ترجمه إسْطَفَنْ بن باسيل من اليونانية إلى العربية ، وصحح الترجمة حنين بن إسحاق . وقد وضع إسْطَفَن للكلمات اليونانية أسماء عربية للنباتات التى يعرف لها اسما عربيا ، وما لم يعرفه تركه . وورد هذا الكتاب إلى الأندلس أيام عبد الرحمن الناصر ، وانتفع الناس بالمعروف منه ، فلما اتصل عبدالرحمن بأرمانيوس ملك القسطنطينية نحو سنة ٣٣٨ أهداه أرمانيوس هدايا عظيمة ، منها كتاب ديسقوريدس مصوَّراً ، وكان الكتاب مكتوباً بالإغريقى الذى هو اليونانى ، كما أهدى إليه كتاب هيروسيس فى القصص والتاريخ ، وقال له أرمانيوس : «إن دسقوريدس لاتُجتنى فائدته إلّا برجل يحسن اللسان اليونانى ، و يعرف أشخاص

تلك الأدوية . وأما كتاب هيروسيس فعندك فى بلدك من اللاتينيين من يقرؤه باللسان اللاتينى ، وينقله إلى اللسان العربى . فقال عبد الرحمن الناصر : إنه ليس عنده من يقرأ اللسان الإغريقى ، وسأل الملك أن يبعث إليه رجلا يتكلم الإغريقية ليعلم عبيداً له . فبعث إليه أرمانيوس راهباً كان يسمى نيقولا ، فوصل إلى قرطبة سنة ٣٤٠ ، فعامهم ما جُهل من أسماء عقاقير دسقوريدس ، وحظى نيقولا الراهب عند عبد الرحمن الناصر ، وفسّر للناس العقاقير المجهولة ، وتتلمذ له كثير من الأطباء »

فهذه العوامل كلها عملت فى تكوين طبقة كانت تشتغل بالطب والتنجيم أولا ، ثم بمناسبة تغلغلهم فى كتب اليونانيين اتصلت الأجيال التى أتت بعد الفلسفة على عمومها ، والحق أن أهل الأندلس تلقّوا الطب والتنجيم قبولا حسنا ، ولكن لم يتلقّوا الإلهيات هذا القبول الحسن ، لميلهم إلى الفقه المتزمّت ، وتشددهم فى التفسير والحديث وما إلى ذلك فقط . ولذلك لم يسلم فيلسوف خرج عن الطب والتنجيم إلى الفلسفة من رُمى له بالزندقة والكفر والإلحاد ، وطلب توقيع العقوبات الشديدة عليه كالإعدام . ويكاد تاريخ الفلاسفة الأندلسيين يكون سلسلة اتهامات من هذا القبيل إلى آخرهم ، كالذى حدث لابن باجة وابن رشد ، وأخيراً لابن الخطيب .

وقد أخذ الطب والتنجيم يتبلوران إلى فلسفة مدة سنين ، حتى ظفرنا بالفلاسفة الحقيقيين ، وسنقتصر على ذكر أشهرهم على التتابع .

ويظهر أن الاشتغال بالفلسفة كان منوّعاً إلى نوعين : نوع أميل إلى التصوف منه إلى الفلسفة البحتة ، وهؤلاء اتبعوا من الفلاسفة أفلوطين ، وربما عددنا من أوائلهم ابن مسرة ، وقد ذكرنا المشتغلين بالتصوف متسلسلين فى الحركة الدينية فانظرهم هناك .

ومن هـذه المدرسة كان ابن سبعين وهى تعتمد على الذوق والـكشف ومراقبة النفس أكثر مما تعتمد على العقل والمنطق ومقدمات القياس ونتائجه .

والنوع الثانى : من اشتغلوا بالفلسفة الصرفة على النحو الذى سار عليه أرسطو ور بما عددنا من أولهم بمعنى الـكلمة «ابن باجة» وهو بعينه المعروف بابن الصائغ . وقد وصف ابن طفيل الأندلسى حالة الفلسفة فى بلده ، وحالة ابن الصائغ الفيلسوف وصف خبير . فقال : «إن هذا العلم — الفلسفة — أندر من الـكبريت الأحمر ، ولا سيما فى هذا الصقع — يعنى صقع الأندلس — الذى نحن فيه ، لأنه (أى هذا العلم) من الغرابة فى حدّ لا يظفر باليسير منه إلا الفرد بعد الفرد — ومن ظفر بشىء منه لم يكلم الناس إلا رمزاً ، فإن الملة الحنيفية والشريعة المحمدية قد منعت من الخوض فيه وحذرت منه . . . ولا تظنَّنَّ أن أحداً من أهل الأندلس كتب فيه شيئاً فيه كفاية ، وذلك أن من نشأ بالأندلس من أهل الفطرة الفائقة ، قبل شيوع علم المنطق والفلسفة فيها ، قطعوا أعمارهم بعلوم التعاليم والرياضيات ، و بلغوا فيها مبلغاً رفيعاً ، ولم يقدروا على أكثر من ذلك . . . ثم خلف من بعدهم خلف زادوا عليهم بشىء من علم المنطق ، فنظروا فيه ، ولم يفض بهم إلى حقيقة الـكمال ، فـكان فيهم من قال :

برَّح بى أنَّ علومَ الورى اثنان ما إن فيهما من مزيدْ
حقيقــةٌ يُعجز تحصيلُها وباطل تحصيله ما يفيد

ثم خلف من بعدهم خلف آخر أحذق منهم نظراً ، وأقرب إلى الحقيقة ، ولم يكن فيهم أثقب ذهنا ، ولا أصح نظراً ، ولا أصـدق روية من

أبى بكر بن الصائغ[١] ، غير أنه شغلته الدنيا ، حتى اخترمته المنيّةُ قبل ظهور خزائن علمه ، وبثّ خفايا حكمته . وأكثر ما وجد له من التآليف « نوعان » : كتب مخرومة من أواخرها ، ككتابه فى النفس وتدبير المتوحّد ، وما كتبه فى المنطق وعلم الطبيعة . وكاملة وهى كتب وجيزة ورسائل مقتبسة »[٢] . وترتيب عبارته فى بعض المواضع على غير الطريق ، ولو اتسع له الوقت مال لتبديلها ، فهذا حال ما وصل إلينا من علم هذا الرجل ، ونحن لم نلق شخصه » .

وابن باجة هذا كما يظهر من كلام ابن طفيل من أكبر مفكرى عصره ، ولكن مع الأسف لم تصلنا أكثر مؤلفاته ، على أنه روى أنّ له كتباً فى المنطق لم تتم موجودة فى مكتبة الأسكوريال .

ومن أهم ما وصل إلينا من تآليفه رسالة الوداع ، وكتاب « تدبير المتوحد » فأما رسالة الوداع فقد أبان فيها فضل المعرفة وفضل التأمل الفلسفى ، وأنهما وحدهما يؤديان بالإنسان إلى معرفة الطبيعة ، ويعينانه على تعرف نفسه ويوصلانه إلى العقل الفعال ، كما يتعرض فيها للنفس الإنسانية ونهايتها الخ .

وأما كتاب تدبير المتوحد ، ومعنى المتوحد « النبتة تنبت من تلقاء نفسها ، وتنتحى ناحية وحدها » فإنه تعرّض فيه للمدينة ووصفها على نحو مختصر من جمهورية أفلاطون . وعنده أن المدينة الفاضلة هذه قد خلت من صناعة الطب وصناعة القضاء ، لأن أهلها لا يمرضون لاغتذائهم بالأغذية الصحيحة ، ولعدلهم فى تصرفاتهم . فأهلها صحاح الأبدان ، عادلو الأحكام . وذكر أنه فى هذه المدينة الفاضلة أعطى كل إنسان ما هو مستعد له .

---

(١) هو المشهور بابن باجة .

(٢) وردت هذه العبارة فى كتاب حى بن يقظان لابن طفيل ، وقد أصلحناها لاضطرابها فى الأصل .

وهو يقسم أعمال الإنسان إلى أعمال اضطرارية كالهُوِىّ من فوق ، والاحتراق إذا مسته النار ، و بعض أعماله يشترك فيها مع النبات ، و بعضها يشترك مع الحيوان . وأما الأفعال الإنسانية الخاصة ، فهى ما تصدر عنه بإرادته . وقلما يوجد العمل البهيمىّ إلا ممزوجاً بالإنسان ، وتوسع فى تقسيم الأعمال الإنسانية ، حسب التعبيرات الفلسفية المعهودة ، ومما يناسب اسم الكتاب « تدبير المتوحد » ، أنه نصح بالبعد عن الناس ورأى الخير فى أن المتوحد يعيش وحده حتى ولو اضطرته الظروف أن يكون مقيما وسط الجماعة ، لأن الغاية القصوى للإنسان الكامل هى إعمال العقل والتأمل ، وهى لا تتأتى إلا بالدرس والفكر ، ولا يكون ذلك إلا بالتوحّد ، ومن رأيه أن هناك عقلا واحداً كلياً اقتبس كل فرد منه قبسة تختلف كبراً وصغراً ، وربما كانت هذه الفكرة من الأسس التى بنيت عليها فكرة وحدة الوجود .

وقد ترجمت « رسالة الوداع » التى ذكرناها إلى العبرية ، وفيها أبان عن العقل الأول ، و بحث فى الغاية الحقيقية من وجود الإنسان ، والغاية من العلم ، وهى القرب من الله ، والاتصال بالعقل الفعّال الذى يفيض منه ، وفى هذه الرسالة آراء فى اتحاد النفوس أخذها منه ابن رشد ، وسماها رسالة الوداع ؛ لأن ابن باجة كان على سفر طويل ، فكتبها لصديق من أصدقائه ليترك له آراءه إذا قُدِّر أن لا يلتقيا . وفى هذه الرسالة بحث فى قيمة المعرفة على نحو ما نراه فى كتاب الشفاء لابن سينا .

وقد ولد ابن باجة هذا فى سرقُسطة فى آخر القرن الخامس الهجرى ، فى دولة المرابطين . وقد كانت الغلبة فى الناس لأهل الحديث المتشددين ، أما الفلاسفة فكانوا عرضة للاضطهاد أو القتل ، إلا فترات قصيرة كان فيها بعض الأمراء

يميل إلى الفلسفة ، فيقرب إليه الفلاسفة ، وصادف أن كان منهم حاكم سرقسطة فاتخذ ابن باجة جليساً له ووزيراً ، وكان ابن باجة على علم واسع بالرياضة والفلك والموسيقى والطب . فاضطهده المتزمّتون ورموه بالزندقة والإلحاد . وكان قد وصل إلى الأندلس كتب فلاسفة الشرق ، وخاصة الفارابى وابن سينا والغزالى ، فانتفع بكتبهم ، وكانت فلسفته كما هو الشأن فى أول كل شىء فلسفة لا شاملة ولا كاملة وهو يتفق فى آرائه فى المنطق والطبيعة وما بعد الطبيعة مع مذهب الفارابى . ويرى أن الهيولى لا يمكن أن توجد مجردة عن الصورة ، أما الصورة فيمكن أن تتجرد عن الهيولى ، والإنسان يتدرج درجات متتالية ؛ حتى يصل إلى ما هو إلهىّ ، ويتدرج من الجزئيات إلى الكليات ، والإنسان يبلغ الرتبة العليا بتنمية العقل تنمية حرّة خالصة من القيود ، والفعل الحرّ الاختيارى هو الذى يصدر بعد الفكر والرويّة ، أى أنه فعل شعر فاعله بغاية يقصدها منه . فالطفل قد يكسر شيئاً لا لغاية ، ولكن العاقل يستطيع أن يفعل الفعل لغاية يقصد إليها الخ .

وله قصائد لوّنت بفلسفته مثل قوله :

يا باكياً فرقةَ الأحْباب عَنْ شَحَطٍ ... هلاَّ بَكَيْت فراقَ الرُّوح للبَدَنِ
نورٌ تردّد فى طينٍ إلى أجلٍ ... فانحاز عُلوًّا وخَلَّى الطين للكَفَنِ
يا شَدَّ ما افْتَرَقا من بعد ما اعْتَلَقَا ... أظنُّها هدنةً كانتْ على دَخَنِ
إن لم يكن فى رضا الله اجتماعُهُما ... فيالَها صفقةً تمَّتْ على غَبَنِ

وهذا القول أشبه « بِعَيْنِيَّة » ابن سينا فى النفس . وقوله :

ما كلُّ من شمَّ نال رائحةً ... للنَّاس فى ذا تَبَايُنٌ عجبُ
قومٌ لهمْ فكرةٌ تجولُ بهم ... بين المعانى ، أولئك النُّجُبُ

وفرقة فى القشور قد وقفوا   وليس يدرون لُبّ ما طلبوا
لا يتعدى امرؤ جِبِلّتَهُ   قد قُسِمَتْ فى الطبيعة الرتب

وكانت تفد إليه العلماء من جميع الأقطار . ويقول صاحب المعجب : إنه هو الذى نبه الناس على قدر ابن رشد ولفت إليه الأنظار ، ومن ذلك الحين عرفوه ، ونبه قدره عندهم .

وقد رأى أن الإنسان إذا ارتقى بلغ فى ارتقائه أن يتصل بالله ، وتنكشف له الحقائق ، ويشعر من ذلك بلذة أكبر من كل لذة ، ويحدث ذلك للإنسان فى لحظاتِ تجلٍّ ، وهى نظرية صرح بها أفلوطين ، واعتنقها كثير من النصارى والمسلمين فى القرون الوسطى كابن طفيل وابن رشد والغزالى وابن عربى وأمثالهم . وقد جعلها ابن طفيل هى غاية الغايات فى رسالته حىّ بن يقظان ، وقال إنه وصل إلى هذه الدرجة أولا على فترات طويلة ثم على فترات قصيرة .

ويظهر أنه كان عالما بالطب والرياضة والفلسفة ، وأن ميزته سعة معارفه أكثر من سعة ابتكاره . وقد رووا أنه وُزِّر حوالى عشرين سنة لأبى بكر بن إبراهيم صهر على بن يوسف بن تاشفين رئيس المرابطين ، كما رووا أنه ذهب آخر حياته إلى فاس حيث وقع فريسة لأعدائه ، حتى قالوا : إنه سمَّ حوالى سنة ٥٣٣ ، وأنه كان ممّن دبّر هذه المؤامرة عليه الطبيب ابن زُهر . وغريب أن يقع فيلسوف فريسة لفيلسوف آخر . وكان أساس اتهامه الإلحاد والخروج عن الدين . وكان يكرهه الفتح بن خاقان ، صاحب قلائد العقيان ، ولذلك لما ترجم له فى هذا الكتاب رماه فيه بكل نقيصة إذ قال : « هو رَمَدُ عين الدين ، وكمد نفوس المهتدين ، اشتهر سخفاً وجنونا ، وهجر مفروضاً ومسنونا ، فما يتشرّع ، ولا يأخذ فى غير الأضاليل ولا يشرع . الإساءة إليه أجدى من الإحسان ، والبهيمة عنده

أهدى من الإنسان ، نظر فى تلك التعاليم ، وفكر فى أجرام الأفلاك وحدود الأقاليم ، ورفض كتاب الله الحكيم العليم ، واقتصر على الهيئة ، وأنكر أن تكون منه إلى الله فيئة ، وحكم للكواكب بالتدبير ، واجترأ على الله اللطيف الخبير . وقصر عمره على طرب ولهو ، واستشعر كل كبر وزهو ، وأقام سوق الموسيقى ، وهام بحادى القطار وَسَقَى ، فهو يعكف على سماع التلاحين ، ويقف عليه كل حين » وكلامه يمثل نظرة عوام الأندلس إلى الفلاسفة ، وعلى العكس من ذلك قال على بن عبد العزيز عنه : «إنه كان فى ثقابة الذهن ، ولطف الغوص على تلك المعانى الجميلة الشريفة الدقيقة ، أعجوبة دهره ، ونادرة الفلك فى زمانه » . ويظهر أن الفتح ابن خاقان إنما ذمه هذا الذم لأشياء شخصية وقعت بينهما ، مع أنه كان قد مدحه قبل ذلك مدحاً كبيراً سنرويه فى ترجمة الفتح مما يدل على عدم تحرى الصدق وقول الحق .

وقد قال ابن أبى أصيبعة فى طبقات الأطباء : « إنما انتُهجت سبلُ النظر فى هذه العلوم « يعنى العلوم الفلسفية » بهذا الحَبر « يعنى ابن باجة » ، وبمالك بن وهيب الإشبيلى ، فإنهما كانا متعاصرين ، غير أن مالكا لم يتقيّد عنه إلا قليل نَزْر ، فى أول الصناعة الذهنية ، وأضرب الرجل « يعنى ابن باجة » عن النظر ظاهراً فى هذه العلوم ، وعن التكلم فيها لما لحقه من المطالبات فى دمه بسببها . وأقبل على العلوم الشرعية فرأس فيها . وله تعاليق فى الهندسة وعلم الهيئة تدل على نبوغه فى هذا الفن . وأما العلم الإلهى فلم يوجد فى تعاليمه شىء مخصوص به اختصاصاً تاما ، إلا نزعات تستقرأ من قوله فى « رسالة الوداع » ويحكى ابن أبى أصيبعة أنه كان من جملة تلاميذ ابن باجة أبو الوليد بن رشد ، وقد عدَّد كتباً لابن باجة من تآليفه الضائعة مثل شرح كتاب « السماع الطبيعى » لأرسطاليس ، وشرح لبعض كتاب « الآثار العلويّة » وله أيضاً شرح لبعض كتاب « الكون » وكتاب « الحيوان والنبات » فى اتصال العقل بالإنسان ، وكتاب « النفس »

وهو تعليق على كتاب الفارابى « فى الصناعة الذهنية » وفصول قليلة فى السياسة المدنية الخ . والله أعلم .

بنـــــو زُهْر

من أشهر فلاسفة الأندلس بنو زهر ، وهم سلسلةٌ من العلماء والأطباء ظهروا فى الأندلس ستّة فى نَسَق ، أولهم وهو الجد الأعلى أبو بكر محمد بن مروان بن زهر ، وقد اشتهر بالفقه والأدب ، ومات سنة ٤٢٢ ؛ ثم ابنه أبو مروان عبد الملك بن محمد ابن زهر ، وكما اشتهر أبوه بالفقه والأدب ، اشتهر هو بالطب ، وقد تنقل بين القاهرة والأندلس ، واتصل ببلاط أمير دانية واسمه مجاهد ، وعين طبيباً خاصاً له ؛ ومات عن ثروة كبيرة ، قال القاضى صاعد فيه : إنه رحل إلى المشرق ، ودخل القيروان ومصر ، وتطبّب هناك زماناً طويلا ، ثم رجع إلى الأندلس ، وله فى الطب آراء شاذة . ثم ابنه أبو العلاء ، واشتغل أيضاً بالطب وأخذه عن أبيه ، ورُويت له عجائب فى تشخيص الأمراض ، واتصل بأمراء بنى عبّاد ، ثم انضم إلى يوسف بن تاشفين ، ثم ابنه أبو مروان بن أبى العلاء ، ويسمَّى عادة بأبى مروان بن زهر ، ولد حوالى سنة ٤٨٥ وتعلم الطب على أبيه ، وابتكر أشياء كثيرة فى الأقرباذين ، وقد كان صديقاً لابن رشد ، ولما ألف ابن رشد كتابه فى كليات الطب أوعز إلى صديقه هـذا أن يؤلف كتاباً فى الجزئيات حتى يكمل بعضهما بعضاً . ولأمر خفى اضطهده على بن يوسف بن تاشفين ثم سجنه ، ولعل ذلك كان إرضاءً للعوامّ لمّا نقموا عليه اشتغاله فى الفلسفة . وله كتاب اسمه « الاقتصاد فى إصلاح الأنفس والأجساد » وكان طبه كثيراً ما يعتمد عليه الطب الأوربى ، ومن ابتكاراته وصف للأورام الحيزومية والتغذية الصناعية عن طريق الحلق . ثم ابنه أبو بكر محمد بن عبد الملك ، خلّف رسالة فى طبِّ العيون ، وقد

كان طبيباً ليعقوب بن يوسف ، فقرّبه إليه ، ثم ابنه أبو محمد عبد الله ؛ وكان طبيباً ماهرا أيضاً ، واتصل ببلاط الموحدين ، وتوفى شاباً بالسمّ كأبيه ولم يكن يبلغ خمسة وعشرين عاما .

فهذه الأسرة كما ترى ، أسرة برّزت فى الطب واشتهرت بالفلسفة ، ولكن مع الأسف لم نعرف الكثير عن فلسفتهم . ونصل بعد ذلك إلى ابن طفيل .

ابن طفيـــل

كان طبيبا فى دولة الموحدين فاشتغل فى بلاطهم ، وهو الذى قدم إلى هذا البلاط ابن رشد ، وكان ابن طفيل أسنّ منه ، وهو أيضا الذى حبّب إلى ابن رشد تلبية رغبة الخليفة فى شرح كتب أرسطو ، وابن رشد حلّ محله لما طعَنَ ابن طفيل فى السن . وقد مات ابن طفيل سنة ٥٨١ . ولم يعرف له إلا رسالة حى بن يقظان[١] ، مع أنه تنسب إليه آراء فى الفلك . وقد ألّف هذه الرسالة مقتبسا الفكرة والاسم من ابن سينا ، وإن كانت قصته أروع ، وتأثر فيها بالأفلاطونية الحديثة ، بنى فكرته فيها على إنسان وجد منذ طفولته فى جزيرة نائية ليس فيها أحد من الناس فأرضعته غزالة ، وكان هذا الطفل موهوبا قادرا على التفكير العميق ، استطاع بعقله شيئاً فشيئا أن يعرف الكون ويشرّح جسم الإنسان ويعرف أسراره ، وأن يعرف النار وفوائدها ، وأخيراً استطاع أن يعرف الله . ولما تقابل مع رجل فى الجزيرة كان تديّن بشريعة نبيّ واستطاعا أن يتفاهما ، عرض كلٌّ ما عنده على الآخر ، وتبين أنهما متفقان فى الأصول دلالة على أن الدين لايخالف العقل . وفى الرسالة لفتاتٌ لطيفة ، منها : أن الإنسان إذا ارتقى اتصل بالله ورأى ما لا عين رأت ، ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، كما ذكرنا ذلك فى ابن باجة

(١) انظر رسالتنا « حى بن يقظان » نشر دار المعارف .

وقد تقدم فى حياته كثيراً بقوة عقله ، فاستطاع حتى أن يبدل أوراق الشجر التى كان يلبسها بجلد نسر ، واستطاع أن يفهم معنى الموت لما ماتت أمُّه الغزالة ، واهتدى إلى غزل الصوف ، وصنع الإبر ، والبناء ، كما اهتدى إلى صيد الحيوانات وتربية الدواجن ، واستنتج من تبخُّر الماء فكرة الهيولى والصورة ، وتحول الصور بعضها إلى بعض ، واكتشف أيضاً فوائد النار ومضارها ، ثم فكّر فى السماء كما فكّر فى الأرض .

وهناك مثلا يدل على دقة ملاحظته . قال فى اكتشاف النار ما يأتى : «واتفق فى بعض الأحيان أن انقدحت نار فى أجمة قلخ[1] على سبيل المحاكّة ، فلما بصر بها رأى منظراً هاله ، وخلقاً لم يعتده قبل ، فوقف يتعجب منها مليّا ، وما زال يدنو منها شيئاً فشيئا ، فرأى ما للنار من الضوء الثاقب ، والفعل الغالب ، حتى لا تعلق بشىء إلا أتت عليه ، وأحالته إلى نفسها ، فحمله العجب منها ، وبما ركّب الله فى طباعه من الجرأة والقوة على أن يمدّ يده إليها ، فأراد أن يأخذ منها شيئا ، فلما باشرها أحرقت يده ، فلم يستطع القبض عليها ، فاهتدى إلى أن يأخذ قبساً لم تستول النار على جميعه فأخذ بطرَفه السليم والنار فى طرفه الآخر ، فتأتّى له ذلك وحمله إلى موضعه الذى كان يأوى إليه ، وكان قد خلا فى جحر استحسنه للسكنى قبل ذلك ثم ما زال يُمدّ تلك النار بالحشيش والحطب ، ويتعهدها ليلا استحساناً لها وتعجبا منها ، وكان يزيد أنسه بها ليلا لأنها كانت تقوم له مقام الشمس فى الضياء والدفء . فعظم بها ولوعه واعتقد أنها أفضل الأشياء التى لديه . وكان دائما يراها تتحرك إلى جهة فوق ، وتطلب العلو ، فغلب على ظنه أنها من جملة الجواهر السماوية التى كان يشاهدها .

وكان يختبر قوتها فى جميع الأشياء بأن يلقيها فيها فيراها مستولية عليها .

---

(١) القلخ : القصب الأجوف .

إما بسرعة وإما ببطء بحسب قوة استعداد الجسم الذى كان يلقيه للاحتراق أو ضعفه . وكان من جملة ما ألقى فيها على سبيل الاختبار لقوتها شىء من أصناف الحيوانات البحرية كان قد ألقاه البحر إلى ساحله ، فلما أنضجت ذلك الحيوان ، وسطع قتاره[1] ، تحركت شهوته ، فأكل منه شيئا فاستطابه ، فاعتاد بذلك أكل اللحم . فعرف الحيلة فى صيد البر والبحر حتى مهر فى ذلك » .

وبهذه المناسبة نقول : إنه هو والفلاسفة المسلمون والفلاسفة اليونانيون من قبل كانوا يرون أن الأجسام السماوية من نجوم وكواكب وسماء أجسام شفافة طاهرة أرقى فى الحياة من الإنسان ، وأنها فى رقيها وسط بين الله والناس ، وأنها أهل لأن يقتدى بها الإنسان ، وأنها طبقات بعضها فوق بعض ، وأنها أفلاك عشرة وسموها العقول العشرة ، وكل عقل يحكم ما تحته ، ويُحكم بما فوقه ، ثم الفلك الأخير من ناحية الأرض يتحكم فيها وفى شئون أهلها ، ومما قاله فى ذلك ابن طفيل : «إن التشبه بالأجسام السماوية على ثلاثة أضرب : فالضرب الأول أن لها أوصافاً بالإضافة إلى ما تحتها من عالم الكون والفساد ، وهى ما تعطيه إياه من التسخين بالذات أو التبريد بالعرض والإضاءة والتلطيف والتكثيف إلى سائر ما تفعل . والضرب الثانى أن لها أوصافاً فى ذاتها ، مثل كونها شفافة ونيّرة وطاهرة ، ومتنزّهة عن الكدر وضروب الرجس ، ومتحركة بالاستدارة ، بعضها على مركز نفسها ، وبعضها على مركز غيرها . والضرب الثالث أوصاف لها بالإضافة إلى الموجود الواجب الوجود ، مثل كونها تشاهده مشاهدة دائمة ولا تعرض عنه وتتشوق إليه ، وتتصرف بحكمه ، ولا تتحرك إلا بمشيئته» ، فجعل «حىّ بن يقظان» يتشبّه بها ، ففى الضرب الأول متى وقع بصره على نبات قد حجبه عن الشمس حاجب أو تعلق به نبات آخر يؤذيه أو عطش عطشا يكاد يفسده أزال عنه ذلك الحاجب . . . وتعهده

---

(١) القتار : رائحة الشواء .

بالسقى ما أمكنه ، ومتى وقع بصره على حيوان قد أرهقه ضبع أو نشب به ناشب أو تعلق به شوك ، أو سقط فى عينيه أو أذنيه شىء يؤذيه ، أو مسه ظمأ أو جوع تكفل بإزالة ذلك كله وأطعمه وأسقاه . ومتى وقع بصره على ماء يسيل إلى سقى نبات أو حيوان وقد عاقه عن ممرّه ذلك عائق ، من حجر سقط فيه ، أو جَرْف انهار عليه ، أزال ذلك كله عنه ، وما زال ينعم فى هذا النوع من ضروب التشبه حتى بلغ به الغاية الخ الخ .

وعلى الجملة فقد كانت قصة غريبة لطيفة ، فيها المعانى الفلسفية العميقة ، والخيالات القصصية اللطيفة ؛ صاغ ذلك كله فى عبارة أدبية رفيعة جزلة ، قلدها بعض أهل المشرق والمغرب . ولما انطفأ سراجه خلفه ابن رشد . وكانت الفلسفة قد نضجت ، ووسائلها قد توفّرت ، وفلسفة ابن باجة وابن طفيل قد وصلت وهضمت . ووصلت إلى الأندلس أيضاً رسائل إخوان الصفاء ، وكُتب الفارابى وابن سينا الفلسفية ، وردّ الغزالى على الفلاسفة فى كتابه تهافت الفلاسفة ، فأمكن من كل ذلك ظهور ابن رشد كفيلسوف ناضج ، يحمل علم الفلسفة فى الأندلس ، وفيما جاورها من الأمم ، ويصبح بحق فيلسوف الأندلس بلا مراء .

ابن رشـــد

لابن رشد أسرة طيبة تشبه أسرة ابن زهر ، من حيث إن الأب الأول كان فقيها ، والذى يُلاحظ أنه كان من مداخل الفلسفة الفقه لسببين :

الأول : أن الفقه والاشتغال به والبحث عن استنباط الأحكام يعلم العمق ، ودراسة الفلسفة دراسة عميقة .

والثانى : أنّ الفلسفة لما كانت مكروهة فى الأوساط الشعبية الأندلسية كان الفقه ستاراً يتخذه الفلاسفة ، حتى لا يرموا بالزندقة

وعلى الجملة فقد كان الجد الأول هو أبو الوليد محمد بن رشد ، كان قاضياً لقرطبة على مذهب الإمام مالك ، وتوجد مجموعة من فتاويه فى كتاب خطىّ للآن ، وقد سفر للسلطان فى المغرب ونجح فى سفارته ، وكان موضع السفارة نقل ألوف من نصارى الأندلس إلى طرابلس لاتقاء شرهم ، وقد خلّف هذا الجد ابناً اسمه أحمد ، وهو أبو فيلسوفنا الكبير . وقد ولد ابن رشد الفيلسوف فى قرطبة سنة ٥٢٠ ، وأخذ يتعلم الشريعة من فقه وأصول وكلام ، ثم التفت إلى الطب فدرسه ومهر فيه . ويقول ابن أبى أصيبعة « إنه درس الطب والفلسفة على ابن باجة ، وسرعان ما انتقل من الطب إلى الفلسفة ، ولكن لم يشأ أن يظهر بالفلسفة ، حتى لا يتهم فى العقيدة : وقد قربه وحماه الخليفة الموحّدى ، وهو الأمير يوسف الذى خلف عبد المؤمن ، وقد قال ابن رشد : « لما دخلت على أمير المؤمنين وجدت ابن طفيل فى مجلسه ، فابتدأ يذكر شرف أسرتى وقدم عهدها ، وأثنى علىّ ثناء لا أستحقه . ولما التفت إلىّ الأمير سألنى عن اسمى واسم أبى واسم أسرتى وبادرنى بالسؤال : ماذا يعتقد الفلاسفة فى الكون ؟ أهو قديم أزلى أو محدث ، فداخلنى الوجل عند هذا السؤال وأخذت ألتمس عذراً لأتخلص من الجواب ؛ فأنكرت أننى اشتغلت بالفلسفة وما كنت عالما أن ابن طفيل اتفق مع أمير المؤمنين على تجربتى ، فلما رأى الأمير اضطرابى التفت إلى ابن طفيل وصار يباحثه فى هذا الموضوع ، فروى كل ما قاله فيه أرسطو وأفلاطون وغيرهما من الفلاسفة ، وأردفها بردود المتكلمين عليها ، فاطمأنت نفسى حينئذ ، ولكنى عجبت مما بدا من الأمير من الذكاء وقوة الذاكرة التى ندر وجودها حتى عند العلماء المنقطعين إلى هذه المسائل ، وبعد الفراغ من الكلام جرأنى عليه ليرى مبلغ علمى فى ذلك الموضوع ، فاجترأت وأخذت أتكلم ، وعند خروجى من مجلسه منحنى مالا وخلعةً سنية ودابة للركوب » . ومن هذا الوقت صار ابن رشد من أحب الناس للأمير يوسف ، وقد

حدثونا أن الأمير هو الذى طلب من ابن رشد شرح فلسفة أرسطو ، لأنه رآها غامضة . وقد ولّاه الأمير قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥ ، وفيها شرح قسما من أقسام فلسفة أرسطو ، وهو قسم الحيوان . ثم رأيناه سنة ٥٦٧ فى قرطبة يشرح شرحه الطويل على أرسطو ، وطالما شكا من الوظيفة ، لأنها تحرمه التفرغ للتأليف . وقد ولى طبّ الأمير بعد ابن طفيل ، وعهد إليه رياسة القضاء فى قرطبة ، ولئن كان ابن سينا شغلته السياسة عن التفرغ للفلسفة ، فابن رشد شغله القضاء وطب الأمير عن ذلك أيضاً ، ومات الأمير يوسف ، وخلفه الأمير يعقوب ، فقربه إليه أيضاً ، ولكن بدأ الوشاة والمنافسون يرمون ابن رشد بأنه زنديق يجحد القرآن ، ويعرِّض بالخلافة ، وكتب مرة على كتابه يصف المنصور بأنه أمير البرَّين ، فحرفوها إلى أمير البربر ، وقد أعرض الأمير يعقوب عن سماع هذه الوشايات أولا ، ولكنه أمام هياج الشعب وحب التقرب إليه تنكر لابن رشد ، فاستدعى ابن رشد وامتحنه وأخلى سبيله . وكان الطلبة ينتظرونه ، فهنأوه بنجاته وعدم إصغاء الأمير إلى الوشايات فيه ، وتقريب الأمير إليه فقال : « والله إن هذا ليس مما يستوجب الهناء ، فقد قربنى دفعة واحدة أكثر مما كنت أؤمل » ثم اتهموه بما ذكرنا .

وزاد الأمير سوءاً أنه قد شاع عند العامة فى وقت من الأوقات حصول أرياح شديدة تهلك الحرث والنسل ، وأنها تكون كالرياح التى أرسلت على عاد ، فروى عن ابن رشد أنه قال : « والله وجود قوم عاد ما كان حقًّا ، فكيف سبب هلاكهم ؟ » ولو صحت هذه الجملة عن ابن رشد لكان معناها أنه يعتقد أن عادا وقصته أسطورة ، فهاج عليه العوام وقالوا إنه ينكر القرآن . وزيادة على ذلك أنهم فتشوا فى كتبه الفلسفية وأخذوا منها ما ينافى الدين ، فأمر الأمير بمحاكمته .

فكان ابن رشد فى ذلك صريحاً صادقاً ، فلم يتزلف للأمير ، وشهد الجلسة الكبرى لمحاكمته ، وكتبوا بأنه مرق من الدين واستوجب ما لعن الله به الضالين ، وخالف عقائد المؤمنين ، ومع ذلك فلم يحكم فيه الأمير السيف ، بل نفاه إلى قرية قريبة من قرطبة ، سكانها من اليهود ، وأذيع فى العامة المنشور التالى :

« قد كان فى سالف الدهر قوم خاضوا فى بحور الأوهام . . . فخلدوا فى العالم صحفاً ما لها من خلاق ، مسودة المعانى والأوراق ، بُعدها من الشريعة بعد المشرقين وتباينها تباين الثقلين ، يؤمنون بأن العقل ميزانها ، والحق برهانها ، وهم يتشيعون فى القضية فرقاً ، ويسيرون فيها شوا كل وطرقاً ... يخادعون الله والذين آمنوا ، وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون ... فكانوا عليها أضرّ من أهل الكتاب ، وأبعد عن الرجعة إلى الله والمآب ... فاحذروا وفقكم الله هذه الشريعة على الإيمان حَذَركم من السموم السارية فى الأبدان » ووقع مع ابن رشد فى الاتهام أبو جعفر الذّهبي وغيره . وتفرق عن ابن رشد تلامذته لما وجدوه يضطهد . وقد روى عن ابن رشد فى هذا الموقف أنه قال : « أعظم ما طرأ على فى النكبة أنى دخلت أنا وولدى عبد الله مسجداً بقرطبة وقد حانت صلاة العصر ، فثار علينا بعض سفلة العامة ، فأخرجونا منه » . ثم إن الأمير عفا عنه ، ويظهر أن ذلك كان بعد أن هدأت العامة ، ولكن لم يعش بعد العفو طويلاً ، فتوفى سنة ٥٩٥ ﻫ وله من العمر خمسة وسبعون ، وكان قد استدعى إلى مراكش فمات بها ، ثم حمل إلى قرطبة ودفن بها . وأصيبت الأندلس بوفاة عبد الملك بن زهر ، وابن البيطار ، وابن رشد وكلهم علماء عظام فى الفلسفة ، فأقفرت البلاد منهم . وكان موتهم بعد موت ابن زهر وابن طفيل إنذاراً بأفول شمس الفلسفة ، وأهم وظيفة لابن رشد أنه شارح فلسفة أرسطو كلها تقريباً ، فقد ندبه الأمير الموحّدى ، وانتدب هو نفسه لشرح كتب أرسطو ، وقد وضع على هذه الكتب ثلاثة شروح ، صغير ومتوسط

وكبير ، وتخصص لذلك . وكان يعجب بأرسطو إعجاباً شديدا ، ويعده المثل الأعلى للإنسان ، ويشيد بذكره فى كل مناسبة ، فيقول مثلا فى مقدمة كتابه الطبيعيات « إن مؤلف هذا الكتاب هو أرسطو ، وهو أعقل أهل اليونان ، وأكثرهم حكمة ، وواضع علوم المنطق والطبيعيات وما وراء الطبيعة ومتممها . وقد قلت إنه واضعها لأن جميع الكتب التى وضعت قبله فى هذه العلوم غير جديرة بالذكر بإزاء كتبه ، وقلت إنه متممها لأن جميع الفلاسفة الذين عاشوا منذ ذلك الزمن إلى اليوم ، أى مدة ألف وخمسمائة سنة ، لم يستطيعوا زيادة شىء على وضعه ، ولا وجدوا خطأ فيه ، فلا ريب فى أن اجتماع هذا العلم فى إنسان واحد أمر غريب عجيب ، يوجب تسميته مَلَكا إلهيا لا بشرا ، ولذلك كان القدماء يسمونه أرسطو الإلهى » وقال فى موضع آخر : « إننا نحمد الله كثيراً لأنه قدر الكمال لهذا الرجل ووضعه فى درجة لم يبلغها أحد غيره من البشر فى جميع الأزمان ، وربما كان البارى مشيراً إليه بما قال فى كتابه القرآن « قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء » وقال فى موضع آخر : إن برهان أرسطو لهو الحق المبين . ويمكننا أن نقول عنه : « إن العناية الإلهية أرسلته إلينا لتعليمنا ما يمكن علمه » . كل هذ يدل على أنه كان يقدره تقديراً كبيراً ، ولذلك لم يخرج عنه إلا فى القليل النادر ، فهو أخلص له من ابن سينا مثلا الذى خالف منطق أرسطو وخطأه ، وألّف منطق المشرقيين . حتى إن ابن رشد كان إذا بدا له ما يخالفه فيه يحكى قول أرسطو ويلقى تبعته عليه .

وقد تأثر جداً بطريقة تفسير القرآن والحديث ، فكان يذكر أرسطو ، ثم يعقبه بالشرح ، وقد راعى فى هذا طريقة التعليم التى كان يتبعها أهل زمنه ، والتى حكاها ابن خلدون فى مقدمته من أن المعلمين كانوا يبدأون مع الطلبة الشىء مختصراً ، ثم يقرأونه بعد ذلك وسطا ، ثم يقرأونه مبسوطا ؛ وقد حكى لنا ابن

أبى أصيبعة أن ابن رشد شرح أكثر كتب أرسطو من منطق وطبيعة وما بعد الطبيعة ونبات وحيوان وغير ذلك . ومن مظاهر تقديسه لأرسطو أنه كان يرد على ابن سينا والفارابى والغزالى حين يخرجون عليه ، ووقف طويلا فى الرد على « الشفاء » لابن سينا ، (وتهافت الفلاسفة) للغزالى . وأثار مسائل هامة أثارها علماء الكلام فى الإسلام ، كما أثارتها فلسفة أرسطو . وكان المتكلمون كالمعتزلة والسُّنِّيَّة أثاروا مسائل على نحو خاص ، ثم أثارها الفلاسفة المسلمون على نحو آخر . والفرق بين منهج المتكلمين ومنهج الفلاسفة أن المتكلمين مؤمنون داعون إلى الإسلام ، أخضعوا آراء اليونان ومذاهبهم لحكم الإسلام ، أما الفلاسفة فخضعوا هم للفلسفة ، ودخلوا فى بحث الموضوع مجرَّداً عن أى اعتبار ، ولذلك لم يعجبهم منهج المتكلمين .

كان أهم ما بحث فيه المتكلمون والفلاسفة وجود الكون : هل هو أزلى أو حادث ، وكيف نشأ الكون المتعدد عن الإله الواحد ، وما علاقة الله بالكون ثم البحث بين السبب والمسبب ، فعند المتكلمين أن المادة محدثة غير أزلية ، والله هو الذى أوجد الأجسام وعوارضها بعد أن لم تكن موجودة ، ولا يوصف بالأزلية إلا الله ، والله أوجد الكون من العدم البحت ، وتكاد تجمع الأديان كلها على هذا الرأى . وقد انقسم المتكلمون بعد اتفاقهم على هذا إلى قسمين : فالقدرية وهم المعتزلة قالوا : إن الخالق وضع للكون نظاماً ، وأودع فى المخلوقين قُوًى تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية ، وقد أوجب على نفسه هذه القوانين مراعاة لصالح البشرية وجعلها لا تتخلف ، ولذلك لم يطمئنوا إلى المعجزات ، كإحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص ، لأنها تخالف هذه القوانين ، والفرقة الأخرى من المتكلين ترى أن السبب لا يصدر عنه المسبب ، وإنما يصدر المسبب عن الله عند وجود السبب ، فالأكل لا يوجد الشبع ، وإنما الله هو الذى يُشْبع عند وجود

الأ كل ، والنار لا تحرق ولـكن يحرق الله عند وجود النار . وسبب قولهم ذلك : إنكار نسبة الإيجاد إلى شيء غير الله . وقالوا : إن الأسباب لا بد منها فى صدور المسبب ، إلا أن الذى يخلق المسببات ويعطيها الوجود عند استكمالها هو الله تعالى ، وليس الله بملزم بها .

وعلى ذلك تفهم المعجزات بسهولة . فلم يحرق إبراهيم مع وجود النار ، لأن الله لم يخلق الإحراق ، وهو الذى يشفى من يشاء ، ويُمرض من يشاء كما يرى ، فيخلق الشيء عنـد وجود السبب أو لا يخلقه . وعلى الجملة فنفوا أن تكون الأسباب هى الموجبة للمسببات . والفلاسفة يذهبون مذهب المعتزلة من ربط الأسباب بالمسببات ، وأن المسبب يصدر عن السبب ، وقد قال ابن رشد بوجود واجب الوجود ، المنزه عن المـادة والماديات ، وتبع أرسطو فى قوله بوجود عقول مجردة عن المـادة ، وهى المسماة بالعقول العشرة ، فالعقل الأول جوهر مجرد عن المـادة ، وهو أول صادر عن الله واجب الوجود ، وقد صدر عنه الفلك التاسع ، ثم عقل آخر هو العقل الثانى ، وعن هـذا الثانى صدر الفلك الثامن وهكذا . ويسمون العقل العاشر بالعقل الفعّال ، أو العقل الفياض للـكون ، وكل عقل يؤثر فيما بعده ، وما بعده يؤثر فيما بعده وهكذا . فكل ما يصدر فى عالمنا يصدر عن هذه الأفلاك مسلسلاً إلى العقل الفعال . والذى حملهم على ذلك قولهم : إن الله واحد من جميع الوجوه ، والواحد من كل وجه لا يصدر عنه إلا الواحد ، فيلزم ألا يصدر عن الواجب الواحد إلا واحد وهو العقل . وكل عقل يفعل فيما بعده . والأسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض داخلة فى علم الله ، وهى تصدر عنه على حسب ترتيبها فى العلم . . الخ .

ويرى ابن رشد تبعاً لفلسفة أرسطو أن نفس الإنسان أى النفس الناطقة جوهر مجرد عن المادة ، لا هو جسم ولا حالّ فى جسم ، وإنما له علاقة مّا بالجسم .

يدبره ويصرفه ، كما يتصرف الملك فى المدينة وهو خارج عنها ، والنفس الإنسانية قابلة للارتقاء على أربعة مراتب أطال فى ذكرها ، ومعنى رقيها ارتفاع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد ، وانجذابها نحو العالم الأعلى ، فتشرق فيها المعلومات .

وقد جردّ ابن رشد نفسه للدفاع عن هذه الآراء والرد على مخالفها ، ومن شنّع عليها كالغزالى فى تهافت الفلاسفة ، وتعصب ابن رشد لمنطق أرسطو ، واعتقد أنه لا يستطيع الإنسان أن يصل إلى الحق إلا به ، ورقىّ الإنسان تابع لمقدار معرفته بالمنطق . وقد فضّل فلسفة أرسطو على كلام المتكلمين . وقد عدَّ ابن رشد خارجا عن السّنن الإسلامى فى ثلاثة آراء : (١) قوله بقدم العالم ونظام العقول الذى شرحناه وصدور كل عقل عما قبله (٢) ارتباط المسببات بالأسباب على وجه لا يسمح بالمعجزات (٣) قوله ببقاء الكليات وحدها ، وفناء الجزئيات وعلى هذا المبدأ فسّر المعاد . فالنفس الفردية الجزئية تفنى ، وإنما الذى يخلد ويبقى ويجرى عليه المعاد ، هو النفس الإنسانية الكلية ، وتوضيح ذلك أن الفرد إذا مات تحلَّلَ جسمه إلى عالم الأجسام ، واتصلت نفسه الفردية بالنفس الكلية ، وهذا يجعل فهم الثواب والعقاب للأفراد صعباً ، إذ ليس هناك وجود للنفس الفردية ، نعم : إن لابن رشد قولا آخر بوجود النفس الفردية وخلودها ، ولكن يظهر أنه ساير فيه الجمهور أكثر من أنه كان يعتقده . فكان له رأى فلسفىّ لنفسه وللمتفلسفة غير رأيه الذى يجارى فيه الجمهور ، ويساعد على فهم النفس الكلية قوله : إن العقل لا يتجزأ على عدد الأفراد ، وأنه واحد فى سقراط وأفلاطون : وإذ كان لا شخصية له ، فالشخصية ناشئة عن الحواس . فالإنسان شخص مفرد ، من حيث الحواس لا من حيث العقل ، لأن العقل لا يتجزأ ، وعلى العموم فالذى يبقى بعد الموت على رأيه الأخير ، هو الحياة الإنسانية الكلية ،

لا الحياة الفردية . وعلى هذا يكون من الصعب على رأيه فهم ما جاء به الدين من الحشر والبعث والعقاب .

والذى يفهم من ثنايا كتاباته فى هذا الموضوع أنه يرى أن الدين شرع للخاصة والعامة ، والفلسفة للخاصة وحدهم . ولما كانت العامة لا يمكن أن يحملهم على الإتيان بالفضائل وتجنب الرذائل ، إلا الاعتقاد بالثواب والعقاب والبعث ومسئولية كل فرد فى الآخرة عما يصدر عنه من أعمال ، كان الدين آتيا بذلك المصلحة العامة ، أما الخاصة من الفلاسفة ، فيأتون بالفضائل ، ويتجنبون الرذائل لذاتها . وقد دلهم البحث الفلسفى على أن الخلود هو للنفس الكلية لا الجزئية .

ومن ظريف ما يروى فى هذا الباب ما رواه جمال الدين مؤلف كتاب تاريخ الفلاسفة ، وقد كان من تلاميذ ابن رشد . قال : « كنت صديقاً حميما لابن يَهُوذا ، ففى ذات يوم قلت له : إذا كانت النفس تحيا بعد مفارقة الجسد ، وتبقى قادرة على معرفة الأشياء الخارجية ، فَعِدْنى وعداً صادقاً أنّك إذا متّ قبلى ، تخبرنى بما هنالك ، وأعدك أنى إذا مت قبلك أفعل ذلك ، فوعدنى بهذا ، ثم إنه مات ، ومرّت بضع سنوات ولم يظهر لى . قال جمال الدين : ولكنى فى ليلة رأيته فى الحلم ، فقلت له : أيها الطبيب : أما وعدتنى بأن تأتينى بعد الموت وتطلعنى على ما جرى لك ؟ فضحك وأدار عنى وجهه . فقلت له : لا أتركك حتى تخبرنى ، فقال : إن العام عاد إلى العام ، والخاص داخل فى الخاص . ففهمت منه ما يريد أن يقول ، وهو أن النفس التى هى جوهر عام ، قد عادت إلى الجوهر العام ، والجسد الذى هو عنصر خاص قد عاد إلى الأرض التى هى مستقر العنصر الخاص ، ثم انتبهت وأنا أعجب بلطف جوابه »[1] وقد عنى ابن رشد فى فلسفته

---

(١) من كتاب ابن رشد وفلسفته للأستاذ فرح أنطون .

بالتوفيق بين الدين والفلسفة ، فكان يؤول فى الدين حتى يتمشى مع الفلسفة ، وألف فى ذلك كتابين :

الأول : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال .

والثانى : الكشف عن مناهج الأدلة فى عقائد الملة . وفيهما وقف موقفاً وسطاً فى عقيدة القضاء والقدر . وقد رمى فى كتابه « تهافت التهافت » الغزالى بأنه سوفسطائى يساير الجماهير ، وانتقد كذلك من قبله من ابن سينا والفارابى ، ورماهما بالقصور أحياناً ، والغموض أحياناً أخرى .

والحق أن حكماء المسلمين انقسموا فى هذا الموضوع (الشريعة والفلسفة) إلى ثلاثة أقسام ، فأكثر فلاسفة المسلمين كإخوان الصفاء وابن سينا وابن رشد ، رأوا أن يوفقوا بين الفلسفة والشريعة ، فإذا رأوا نصًّا فى الدين ظاهره لا يناسب النظريات الفلسفية أولوه تأويلا قريباً أو بعيداً ، وبعضهم كالغزالى رأى أن ما أتت به الشريعة حق ، وما أتت به الفلسفة مما يخالف الشريعة باطل مثل قدم المادة ، ونكران بعث الأجساد ، ولذلك كفرهم فى كتابه « تهافت الفلاسفة » ، وقسم ثالث رأى أن النظريات الفلسفية صحيحة وتعاليم الدين صحيحة كذلك ، والتوفيق سخافة ، وإنما الواجب أن يكون لكل منهما منطقة نفوذ ، فالدين مقبول فيما هو من اختصاصه ، كالخلق والحياة بعد الموت والثواب والعقاب الفرديين واليوم الآخر ونحو ذلك ، ونظريات الفلسفة تقبل فى الطبيعيات والكيماويات والمنطق ونحو ذلك . وليس يصح أن يعتدى أحدهما على الآخر ، وأشهر من قال بذلك أبو سليمان المنطقى ، كما حكاه عنه أبو حيان التوحيدى فى كتاب الإمتاع والمؤانسة . ونحن أميل إلى هذا الرأى ، فلا حرج أن يدخل المسلم المسجد ليؤدى شعائر الدين كما وردت ، ثم يخرج منه إلى المعمل ليختبر فيه المواد الطبيعية ، والنظريات العلمية . وهذا ما يفعله فلاسفة النصارى المتدينون ...

ومن ظريف ما يتصل بابن رشد وفلسفته أيضاً ما حكى محيي الدين بن عربي في الفتوحات قال : « دخلت يوماً بقرطبة على قاضيها أبي الوليد بن رشد ، وكان يرغب في لقائي لما سمع بي ، وبلغه ما فتح الله عليّ في خلوتي ، وكان يظهر التعجب مما سمع ، فبعثني والدي إليه في حاجة قصداً منه حتى يجتمع بي ، فإنه كان من أصدقائه ، وأنا صبيٌّ ما بقل وجهي ، ولا طرّ شاربي ، فلما دخلت عليه قام من مكانه إليّ محبة وإعظاما ، فعانقني وقال لي نعم ؟ فقلت له : نعم . فزاد فرحه بي لفهمي عنه ، ثم استشعرت بما أفرحه من ذلك فقلت له : لا . فانقبض وتغيّر لونه وشك فيما عنده ، وقال : كيف وجدتم الأمر في الكشف والفيض الإلهي ، هل هو ما أعطاه النظر ؟ قلت له : نعم ولا ، وبين نعم ولا تطير الأرواح ، فاصفرّ لونه ، وقعد يحوقل ، وعرف ما أشرت به إليه » . وقد كان بعض أصحابنا يستبعد هذه الملاقاة لتقدم ابن رشد في التاريخ ، ولكن رأينا أن ابن عربي ولد سنة ٥٦٠ أي قبل وفاة ابن رشد بخمسة وثلاثين عاما إذ مات ابن رشد حول سنة ٥٩٥ . فيمكن أن يراه وهو في الخامسة والعشرين أو الثلاثين أو قبل ذلك ، خصوصاً أنه يقول إنه قابله قبل أن يبقل وجهه ، ويطرّ شاربه ، ولكن الأسئلة والأجوبة غريبة . فما معنى لا وما معنى نعم ، وكيف يتفاهمان بهذه الرموز ؟ وسؤاله الأول ، وإجابة محيي الدين بنعم ، وفرح ابن رشد بذلك ربما كان يريد أن يسأل : هل الفلسفة والأدلة العقلية والاعتماد على المنطق يوصل إلى الحقيقة ؛ وهي نفس الطريقة التي جرى عليها ابن رشد ، فلما قال له ابن عربي نعم فرح . ولكنه ما لبث أن قال لا ، فانقبض ابن رشد وتغيّر ، ولعل ابن عربي قال : لا ، إيماء إلى أن الطريقة العقلية ليست خير الطرق في معرفة الحقيقة . وإنما خير الطرق عنده هو الرياضة النفسية التي توصل إلى كشف الحقيقة ، حتى لكأنها ترى بالعين . وربما دل على ذلك مذهب ابن عربي أن الكشف والفيض الإلهي ، يعطيان أكثر مما يعطي النظر .

ومعنى قول ابن عربى : نعم ولا ، و بين نعم ولا تطير الأرواح أن الطريق النظرى والكشفى كلٌّ يوصل إلى الحقيقة ، ولكن شتان بين ما يعطيه البرهان العقلى ، وما يعطيه الكشف ، فالبرهان العقلى يعطى الاقتناع ، وأما الكشف فكأنما صاحبه يرى بالعين ، وشتان ما بينهما ، وإشارته إلى أن بين نعم ولا تطير الأرواح معناها فيما يظهر أن بين من ينكر الكشف و يستند إلى الظاهر فقط كالفقهاء ، و بين القائلين بنعم ، أى المؤمنين بالكشف بالصوفية خلافاً شديداً أهدرت فيه الأرواح ، كما أهدرت روح الحلاج والسهروردى ، ويذكرنا هذا بالحكاية التى تروى عن الجدل بين ابن سينا وأبى سعيد بن أبى الخير . غاية الفرق أن هذه القصة رموز خفية ؛ وأما تلك فكلام واضح(١) .

وقد كان عبد الواحد المراكشى قريب العهد من ابن رشد ، وقد لقى بعض تلاميذه ، فروايته عنه أقرب إلى الحقيقة . وقد ذكر أن لغضب الأمير الموحّدى على ابن رشد سببين : سبب ظاهر ، وسبب باطن . فأما السبب الظاهر وهو أكبر الأسباب فإنه كان يشرح كتاب الحيوان لأرسطو فقال فيه عند ذكر الزرافة ، وكيف تتولد ، وبأى أرض تنشأ ، « وقد رأيتها عند ملك البربر » جاريا فى ذلك على طريقة العلماء فى الإخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم ، غير ملتفت إلى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومُتَحَيِّلو الكتاب ، من الإطراء والتقريظ ، فكان هذا مما أحنقهم عليه ، غير أنهم لم يظهروا ذلك . وفى الحق أنها كانت من أبى الوليد بن رشد غفلة . واستمر الأمر على ذلك إلى أن استحكم ما فى النفوس

---

(١) خلاصة هذه القصة أن ابن سينا وأبا سعيد بن أبى الخير تلاقيا ومكثا أياماً ، وتلاميذ كل ينتظرون صاحبهم ، ليعرفوا ما تم بينهما ، فلما سئل ابن سينا عن رأيه فى أبى سعيد قال ما أعرفه يراه ، ولما سئل أبو سعيد قال : ما أراه يعرفه . والفرق بين الرؤية والمعرفة أن الرؤية هى الكشف الصوفى ، والمعرفة هى النظر الفلسفى .

ثم إن قوماً ممن يناوئون ابن رشد من أهل قرطبة أخذوا تلك التلاخيص التى كان يكتبها ابن رشد ، فوجدوا فيها بخطه حاكياً عن بعض قدماء الفلاسفة ، أن الزُّهرة أحد الآلهة ، فسأله السلطان : أخَطُّك هذا ؟ فأنكر ابن رشد ، فأمر الأمير بإخراجه على حالٍ سيئة ، و إبعاد من يتكلم فى شىء من هذه العلوم (الفلسفة) وهذا هو السبب الظاهر . . . ثم لما رجع الأمير إلى مراكش جَنَح ثانية إلى الفلسفة ، واستدعى ابن رشد إلى مرَّاكش ، وأحسن إليه وعفا عنه ، ولم يلبث ابن رشد أن مرض مرضه الذى مات بسببه فى آخر سنة ٥٩٤ ، وقد ناهز الثمانين[١] . ولكن يظهر أن الأمير أبا يوسف هذا كان ينوى غزوة وكان لابد فيها من تملق العامة ، فكان ممّا تملّق به اضطهاده للفيلسوف والفلسفة التى يكرهها العامة . فلما انتصر وانتهت الغزوة ، ولم يعد فى حاجة إلى تملق العامة ، عاد يعطف على الفيلسوف .

و إذا كانت الفلسفة اليونانية تعرضت للمسائل العلمية والاجتماعية ، وخصوصاً أفلاطون فى جمهوريته ، فقد تعرض لها ابن رشد أيضاً ، فنص على كراهيته للاستبداد العسكرى ، والإقطاعات العسكرية ، ورأى أنه لا اختلاف بين الرجال والنساء فى الطبع ، و إنما هو اختلاف فى الكم ، أى أن طبيعة النساء تشبه طبيعة الرجال ، ولكنهن أضعف منهم فى الأعمال . والدليل على ذلك مقدرتهن على جميع أعمال الرجال ، كالحرب والفلسفة وغيرها ، ولكنهن لا يبلغن فيها مبلغ الرجال . ومن أظرف آرائه أنه يرى فى الموسيقى أن يكون مؤلف القطعة الموسيقية رجلا ، والموقِّع أو المغنى امرأة . وقد كان ابن رشد يستشهد على صحة قوله بإناث الكلاب ، فهى تستطيع أن تحرس الغنم حراسة تامة كحراسة الذكور ، وألمح إلى سوء الوضع الذى وضعت فيه المرأة فى الشرق من عدم تمكينها لإظهار قواها كأنها لم تخلق إلا للولادة و إرضاع الأطفال ...

---

(١) انظر ص ٣٠٤ من المعجب وما بعدها .

وعلى الجملة فقد كان ابن رشد أمينا مخلصاً لأرسطو وإن كان يخرج عليه أحياناً ، إما لداعى الدين أو لتفكيره الخاص الذى تنتجه بيئته .

وقد كان من تلاميذ ابن رشد بعض اليهود إذ كانوا يستمعون إليه فى حلقته ، فلما مات ابن رشد نشر هؤلاء اليهود فلسفته ، وترجموا أكثرها إلى العبرية ، وانتشرت فلسفة ابن رشد فى المدارس والجامعات ، وعارضها رجال الدين اليهودى والمسيحى ، ولما اضطهدوا فى الأندلس فرّوا إلى فرنسا . . . وكانوا عدداً كبيراً شاركوا فى الثقافة الأندلسية مشاركة كبيرة ، وكانوا منتشرين قبل الفتح الإسلامى فى البلاد بين القوط ، واستخدمهم هؤلاء القوط فى الوظائف المالية ، ولما فتح العرب الأندلس استخدموهم ، وكان طبيب عبد الرحمن الثالث يهوديًّا ، اسمه « حسداى بن شبروط » بل بلغ بعضهم — مثل إسماعيل بن نغرلّة[1] — منصب الوزارة فى عهد الأمير حبوس فى غرناطة . و بعضهم نشر فى الأندلس القصص اليهودى بجانب القصص العربى ، فلما أخذوا عن ابن رشد فلسفته نشروها فى أوربا ، فترجموا شروح ابن رشد لأرسطو إلى اللاتينية ، ومن أشهر من فعل ذلك ميخائيل الاسكتلندى سنة ١٢٣٠ ، ونشاط اليهود والنصارى فى نقل فلسفة ابن رشد وشروحه على أرسطو هى التى فتحت لأوربا الباب أمام الفلسفة اليونانية . وكان من أكبر زعماء اليهود الذين تثقفوا ثقافة فلسفية موسى بن ميمون وقد كان معاصرا لابن رشد ، وإن كان ابن رشد أسنّ منه بنحو عشر سنوات . فقد ولد ابن ميمون سنة ١١٣٥ م بقرطبة ، وقد حدث أن كان اليهود فى قرطبة قد نشروا نفوذهم ولكن كان كبراؤهم يصانعون المسلمين ، فخلف من بعدهم خلف من اليهود لم يصانعوا المسلمين ، فسخط المسلمون عليهم ، واستثارهم شاعر معروف اسمه أبو إسحاق الإلبيرى ، فقال فى قصيدة :

---

(١) وردت هذه الكلمة على أشكال مختلفة : نغرلة ، ونغزلة ، ونفرلة ، ونحن نرجح نغرلة .

ولا ترفعِ الضغط عن رهطه[1] فقد كنزوا كلَّ عِلْقٍ ثمينْ
وفرِّقْ عُراهم وخُذْ مالَهم فأنت أحقُّ بما يجمعونْ
ولا تحسِبَنْ قتلهم غَدْرَةً بل الغدْرُ فى تركهم يعبثُونْ
فقد نكثوا عهدنا عندهُمْ فكيفَ نُلامُ على الناكثينْ
وكيف تكونُ لنا همَّةٌ ونحنُ خمولٌ وهمْ ظاهرونْ

فثار عليهم المسلمون وقتلوا منهم وخيّروا الباقين بين الإسلام و بين الرحلة من البلاد .

* * *

على كل حال كان موسى بن ميمون فى هذه الظروف التعسة وسنه ثلاث عشرة سنة . وقد تعلّم على أبيه إذ كان قاضياً فى المحاكم اليهودية ، فلما خُيّر اختار الرّحيل عن الأندلس ، فرحل هو وأسرته إلى فلسطين ونزلوا عكا ، ثم انتقلوا إلى بيت المقدس ، ثم انتقلوا أخيراً إلى الفسطاط فى مصر . وكان موسى يترفع عن أن يتكسّب بعمله الدينى . فاشتغل بالطب واشتهر به ، واتصل عن طريقه بالقاضى الفاضل وزير صلاح الدين ، ونجح فى طبّه نجاحاً كبيراً ، فكان يقصده الناس من كل ناحية . وقد كتب ابن ميمون كتباً كثيرة أكثرها بالعربية وأقلها بالعبريّة ، وأقبل الناس من يهود ومسلمين على دراسة كتبه الفلسفية والطبية . ومما زاد فى انتشارها فى أوربا ترجمتها إلى اللغة اللاتينية ، وأهم كتبه كتابه « دلالة الحائرين » و يعنى بالحائرين الذين حاروا فى قضايا كثيرة بين العقل والدين ، وهى مسألة عالجها كثير من الفلاسفة المسلمين ، كابن رشد وابن سينا وابن باجة . ومن رأى ابن ميمون أنه لا تناقض بين العلم والدين ، ما دام ينظر إليهما نظرة سمحة واسعة تجعل الدين قابلا للتأويل .

---

(١) الضمير يعود إلى موسى بن نغرلة والخطاب للأمير باديس بن حبوس .

وكما كانت له كتب فلسفية من هذا القبيل ، كانت له كتب دينية يهودية من جمع النصوص والروايات . وقد هاج المسلمون عليه فى مصر ، لأنه كان قد أسلم مدة فى قرطبة خوفا من القتل ، فلما أمن فى مصر عاد إلى دينه ، فاتهموه بأنه مرتد . ولكن قال القاضى الفاضل : إنه أكره على الإسلام ، فلا يعدّ مسلماً صحيحاً فلا يكون مرتدا ، وبذلك نجا . وله رسائل كتبها إلى أصحابه باللغة العربية تشتمل على مسائل شخصية ، ومسائل فلسفية ، ومسائل دينية ، انتشرت كذلك بين اليهود انتشاراً كبيراً ، ولولا ازدحام الناس عليه لمعالجتهم فعاقوه من التفرغ للتأليف لأنتج أكثر مما أنتج . وعلى الجملة ، فقد كان علماً من أعلام اليهود الذين نشروا الفلسفة الإسلامية فى أوربا .

وكان نقل فلسفة ابن رشد وأرسطو سبباً فى هياج الكنيسة على المشتغلين بالفلسفة ، حتى أن الكنيسة حرّمت الاشتغال بهذه النظريات الفلسفية فى القرن الثالث عشر الميلادى . وهذه الحركة العنيفة بين الكنيسة وأحرار الفكر كانت من الأسباب التى حملت بعض الناس على الخروج على الكنيسة ، وسبَّبَتْ فى أوربا النهضة الحديثة ، وجعلت بعض الفلاسفة كبيكون ينتقد الفلسفة القديمة ، وفلسفة أرسطو بوجه خاص ، ويدعو إلى عدم الخضوع لأرسطو خضوعاً تامًّا ، كما يدعو إلى إنزاله من عرشه ، وتحكيم العقل فى كل ما يعرض عليه ، وعدم الإيمان بشىء مهما كان قائله إلا ما دلت عليه المشاهدة والتجربة . ومن ذلك الحين أخذ العقل البشرى يفكر على هذا المنهج الجديد ، وكان من أنصار ابن رشد فردريك الثانى إمبراطور ألمانيا ، فقد كان سنداً لمترجمى فلسفة ابن رشد فى أوربا ، وكان الإمبراطور نفسه يعرف اللغة العربية . تعلمها على عربىّ فى صقلية ، وكان فى بلاطه حركة نشطة من يهود يشتغلون بترجمة الفلسفة العربية ، وخصوصاً فلسفة ابن رشد ، وفلكيون يشتغلون بالرصد بملابسهم

البغدادية ، وكان ينصر تعاليمهم على الكنيسة ، ومع ذلك لم يمنعه هذا من اشتراكه فى الحروب الصليبية ضد العرب ، لأنه كان يرى أن العلم شىء والسياسة شىء . وكره من رجال الدين المسيحى حتى كانوا يلقبونه بالدّجال الذى روى عنه أنه سيقاوم الديانة المسيحية . على كل حال ظهر رجال عظام مثل فردريك هذا ، ومثل جولتيه ، دعوا إلى تحرير العقل من سلطة رجال الكنيسة ، وتبعهم غيرهم حتى تم لهم الانتصار ...

* * *

وبعد : فهل كان ابن رشد مؤمنا ؟ يشك بعض المستشرقين فى إيمانه ، ونحن نرى أنه كان مؤمناً إيمان الفلاسفة ، فللمحدثين إيمان ، وللمتكلمين إيمان ، وللفلاسفة إيمان — إيمان المحدثين إيمانٌ بكل ما ورد فى الآثار من غير شك ، ولا نقد عقلى ، وإيمان المتكلمين وخاصة المعتزلة إيمان بتأويل الآثار إلى ما ينطبق مع العقل ، وقد قرأت بالأمس حكاية لطيفة فى كتاب البصائر والذخائر لأبى حيان التوحيدى خلاصتها أن موسى عليه السلام كان يعتب على آدم فى أنه أتى بخطيئة ، فأخرج نفسه وذريته من الجنة ، فقال له آدم : ألم تعلم أن إتيانى بالمعصية وخروجى من الجنة كان بقضاء الله وقدره ، فكيف تعتب علىّ ؟ وعلّق أبو حيّان بأن المتكلمين إذا قرأوا مثل هذه الآثار ، حصلت لهم قشعريرة — وسببها أنهم كانوا يقولون بقدرة الإنسان على أعمال نفسه ، ولذلك يكون مسئولا عنها . وفى هذا الحديث ما يشعر بأنه مضطرّ ، ولا يمكن مع هذا تفسير المسؤلية ، ثم قال : إن ثلثى أعمال الدين يقبل فيها ما ورد من الآثار من غير حاجة إلى إعمال العقل ، وهذا هو إيمان المحدّثين .

أما الفلاسفة فإيمانهم من جنس آخر ، وأعتقد أن ابن رشد وأمثاله من الفارابى وابن سينا وابن طفيل ، كانوا يؤمنون بالله ، كإيمان أستاذهم أرسطو بالله ،

وكانوا يؤمنون بالنبوة بمعنى غير ما يؤمن به العامة ، ويرون أن الدين أتى لجمهور الناس ؛ أما الخاصة من الفلاسفة ، فإنهم يضبطهم عقلهم أكثر مما يضبطهم الدين . وقد عبر عن ذلك ابن طفيل فى كتابه حىّ بن يقظان تعبيراً واضحاً دقيقاً ، فإن حيًّا لما قابل أبسال ، وكان أبسال متعلماً تعاليم نبىّ ، وملتزماً شرائعه تعجب من بعض ما عرض عليه أبسال من التعاليم التى جاءت على لسان النبى ، تعجب مثلا من أمر الدين بشعائر معينة ، كصلاة فى الصبح وصلاة فى الظهر ، وزكاة للأموال مما يقتضى جواز ادخار الأموال ، ونحو ذلك من شعائر ، وكان حىّ قد أدّاه عقله إلى عدم التزام الشعائر فى أوقاتها ، ولجوئه إلى الله كلما دعته إلى نفسه ، كما أدّاه عقله إلى الزهد فى الدنيا والتقلل من المال وعدم الاقتناء ، واقتصاره على ما يسد حاجته الضرورية ، وأراد أن يذهب إلى جزيرة الناس ويعظهم بأفكاره هو تكملة لأفكار النبى ، فغضب عليه الناس وتبين أن الأنبياء بتعاليمهم كانوا أعرف بطبائع البشر ، وأن الدين لم يأت للصفوة فقط . فهذا يدل على أن الفلاسفة يعطون لعقولهم حرية التفكير ، وعرض أوامر الدين على العقل وتحكيم العقل فيه ، واستخدام التأويل ما سمح لهم التأويل . وقد ينظرون إلى النبوة على أنها أمر يمكنهم الوصول إليه ، أو إلى قريب منه بعقولهم واجتهادهم . ولذلك لم يقدسوا أوامرهم تقديساً كبيراً كما يقدسه الجمهور ، بل صرح بعضهم بأنهم غير ملزمين بالأوامر الدينية كما يلزم الجمهور . وفى أقوال ابن رشد وابن سينا ما يشير إلى ذلك ، وإن كانوا يستعملون التقية خوفا من إيذاء الجمهور لهم .

لقد روى عن ابن رشد أشياء يأباها جمهور الناس ، كالذى روى عنه فى أن عادا لم يثبت وجودها مع نص القرآن عليها . ولعله يذهب فى ذلك إلى أن قصد القرآن العظة ، وقد روى فى القرآن أن عاداً أهلكوا بريح صرصر عاتية ، فموضع العظة أن قصة عاد الذين يتناقل الناس أخبارهم ، ويتناقلون هلاكهم بالريح ، تكفى

لتكون موعظة للناس ، سواء ثبت وجودهم حقيقة أو لا — وهذا مذهب قوم من المتطرفين يرون أن القصد أولا وآخراً هو الموعظة ، ولو كانت الموعظة مبنية على إشاعة ، وهو ما لا يرضى عنه جمهور المؤمنين . وروى عنه أيضاً أنه حكى أن الزهرة إله ، وهذا سهل التأويل ، لأنه كان يحكى آراء اليونان فى ذلك ، و بعيد أن يكون هذا مذهب ابن رشد .

على كل حال نعتقد أن ابن رشد يؤمن بالله ورسوله إيمـانًا خاضعاً لسلطان العقل ، وليس يؤمن بالأثر على إطلاقه . ودعوى بعض المستشرقين بعدم إيمانه لم يقم عليها دليل مقنع والله أعلم .

وعلى الجملة كان اشتغال العرب بالفلسفة فى بغداد وما حولها ، سبباً فى اشتغال الأندلسيين بها ، كابن رشد وابن طفيل . . . ثم كانت الخطوة الثانية وهى انتقال الفلسفة اليونانية من الأندلس إلى أوربا قبل أن ينهض الأوربيون ويأخذوا الفلسفة اليونانية من أصولها .

ولذلك نلاحظ هـذا الترتيب الزمنى . فأول ما اشتغل العرب بالفلسفة اليونانية وظهر فيهم الـكندى وأمثاله ، كان بعد نحو قرنين اثنين من ظهور الإسلام ، إذ كان العراق مقراً للفلاسفة من قديم ، ومقراً لترجمة الفلسفة اليونانية عن طريق السريان ، ثم من السريان إلى العرب . ولـكن لم تظهر الفلسفة فى الأندلس إلا فى النصف الأخير من القرن الرابع ، حتى انتقلت الفلسفة من العراق إلى الأندلس ، ولـكن فى نظير ذلك تأخرت حيـاة الفلسفة فى الأندلس بعـد ما ماتت فى المشرق ، لأن الغزالى وأمثاله فى المشرق استطاعوا أن يخمدوا صوت الفلسفة فيه ، ولـكن استطاع فلاسفة الأندلس أن يستمروا فى إحياء الفلسفة ، ويردوا على الغزالى وأمثاله . ولذلك بقيت الفلسفة فى الأندلس بعد

موتها تقريباً فى المشرق . و إذا نحن تصورنا الحياة الفلسفية العربية مصباحاً ، فأول ما أضاء فى المشرق ، ثم أُخذ منه قبس فأشعل مصباحاً آخر فى الأندلس ، ثم أُخذ من هذا الأخير قبس فأشعل مصباح الفلسفة فى أوربا . و يظهر أن شهرة ابن رشد الكبيرة التى غطت على شهرة ابن سينا والفارابى فى أوربا ترجع إلى أمور :

(١) قوة شخصية ابن رشد .

(٢) تلمذة اليهود له ، ونشاطهم فى نشر مذهبه .

(٣) استعداد الوسط النصرانى واليهودى إذ ذاك للتفلسف ، وحاجتهم إليه بعد أن بالغ رجال الدين فى الحجر على حرية الفقه ، فكانت حركة ابن رشد رَدّ فعل قوية .

ومنذ سنين أى حوالى سنة ١٩٠٢ م وجدت حركة فى مصر كان زعيماها الأستاذ فرح أنطون والأستاذ الشيخ محمد عبده ، إذ كان الأول قد نشر فى مجلته « الجامعة » خلاصة فلسفة ابن رشد كما عرضها الأستاذ رينان ، وروى اضطهاد المسلمين له فى الأندلس ونحو ذلك ، فانبرى له الأستاذ الشيخ محمد عبده يبين أن الإسلام ينادى بالحرّية الفكرية إلى آخر حد ، ولا يضطهد الفلسفة ، وأنه صدر من المسيحيين اضطهاد للفلسفة والفلاسفة أكثر مما صدر من المسلمين ، ولم يكن هناك داعٍ لذلك كله ، فعامة المسلمين اضطهدوا الفلاسفة ، وكرهوا الفلسفة ، وكذلك عامة النصارى ، وليس يهمّ أيُّهما كان أكثر اضطهاداً . والحق أن الإسلام والنصرانية بريئان من تحمل هذه المسئولية ، وإنما يحملها المسلمون لا الإسلام ، والنصارى لا النصرانية ، ونبش التاريخ لا يفيد كثيراً ، إنما الذى يفيد حملُ الناس على التسامح ، حتى يسير البحث عن الحقيقة فى مجرًى صافٍ هادئ لا اضطهاد فيه ولا كبت .

* * *

وهناك نوع من الفلسفة لا يتبع فلسفة اليونان ، وهو الفلسفة الخلقية التى أتى بها ابن حزم ، فلم يسلك سبيل ابن رشد فى حكايته لفلسفة أرسطو الأخلاقية فى كتابه المسمى « نيقوماخوس » وإنما هى فلسفة أخلاقية مستمدة من تجاربه الخاصة . فقد كان وزيراً وابن وزير ، تسرح فى قصوره الجوارى الحسان ، ويحب ويكره ، ويوالى ويعادى ، ويتصل بالخلفاء والأمراء اتصال محاسنة أحياناً ، واضطهاد أحيانا أخرى ، ويرتفع إلى السماء حينا ، وينخفض إلى الحضيض حينا ، ويلاقى العلماء والجهال والأمراء العادلين والظالمين ، ويكتوى بالحب أحيانا ، ويذوق لذة الوصال وألم الهجران ، ويهجو العلماء ويهجونه ، ويدعو إلى مذهب الظاهرية ، فيناهضه رجال المالكية بقوة . . . كل هذا أكسبه تجارب كثيرة ، وكان حادّ الذهن ، مرهف الحسّ ، كثير الاطلاع ، فاستفاد من كل ذلك تجارب ركزها فى حِكَم ، وألّف فيها كتاب الأخلاق والسِّيَر . نعم : إنه تأثر بالفلسفة اليونانية فى الأخلاق ، كما يدل عليه كتابه مثل اعتناقه نظرية الأوساط لأرسطو ، أى أن كل فضيلة وسط بين رذيلتين : الإفراط والتفريط ، ولكن هذا لا يذكر بجانب تفكيره الشخصى ، وتجاربه الشخصية . ونحن نسوق أمثلة على هذا ، فمثلا حاول أن يجعل للأخلاق كلها من فضائل ورذائل أساساً ، وبعد طول تفكير استطاع أن يجد هذا الأساس وهو « طَرْدُ الْهَمّ » وأن الناس كلهم استووا فى استحسانه واتخاذه باعثاً على كل الأعمال ، وإليه يعود كل غرض غيره ، سواء فى ذلك المتدين وغير المتدين ، ومن يريد الخير ومن لا يريده ، ومن يؤثر الخمول ومن يريد بُعد الصيت ، وعدّ ذلك اكتشافاً عظيما . وكل الناس إنما تطلب بأعمالها طرْدَ الهمّ ، فالذين يطلبون المال ، يطلبونه لطرد الهمّ ، وكذلك الذين يطلبون الصِّيت ، ومن يطلب العلم ، إنما يطلبه لطرْدِ همّ الجهل ، ومن أكل ومن شرب ومن لبس ، إنما يفعل ذلك لطرد همّ الجوع

والعطش والعُرْى ، وهكذا أرجع كل الأعمال الإنسانية إلى طرد الهم فى أشكاله المختلفة . وهذا يذكرنا بما فعله بنتام وجون استوارت مل فى جعلهما كل البواعث على العمل طلب اللذة ودفع الألم .

كذلك من لطائفه بحثه فى الحبّ وأنواعه ، فعنده أن الحب جنس واحد مختلف الأنواع ، و إنما اختلف الحب باختلاف الأغراض ، وقد تنوّع الحب من حبّ للأب ، وحبٍّ للابن والقرابة والصديق وحب للسلطان وللحسن ، وللمأمول وللمعشوق ، فهذه كلها جنس واحد تنوعت على اختلاف الطمع فيما ينال من المحبوب . وقد رأينا من مات أسفاً على ولده ، كما يموت العاشق أسفاً على معشوقه ، و بلغنا من شهق من خوف الله ومحبته فمات . ونجد المرء يغار على سلطانه وعلى صديقه ، كما يغار على زوجته ، وكما يغار العاشق على معشوقه ، فكل أنواع الحب من واد واحد ، وتسير سيراً متشابهاً ، و يزيد الحب بالمجالسة ، والمحادثة والمزاورة ، واستمر فى ذلك حتى حلَّلَ الحب تحليلاً دقيقا ، وكثيراً ما تقتبس فقرة أو فقرات من هذا الكتاب تتخذ مبدأ مثل ما فعلت «الجريدة» من اقتباسها فى أول كل عدد من أعدادها قول ابن حزم : « من حقق النظر وراض نفسه على السكون إلى الحقائق ، و إن آلمتها فى أول صدمة ، كان اغتباطه بذمّ الناس إيَّاه ، أشد وأكثر من اغتباطه بمدحهم إياه » « لأن مدحهم إياه إن كان بحق و بلغه مدحهم له ، أثر ذلك فيه العجب ، فأفسد بذلك فضائله ، و إن كان بباطل فبلغه فسَرّه ، فقد صار سروراً بالكذب ، وهذا نقص شديد . وأما ذمّ الناس إياه ، فإن كان بحق فبلغه فربما كان ذلك سببا فى تجنبه ما يُعاب عليه ، وهذا حظ عظيم لا يزهد فيه إلا كل ناقص . و إن كان بباطل و بلغه فصبر ، اكتسب فضلا زائداً بالحلم والصبر » و يقول :

« الناس فيما يعانون كالماشى فى الفلاة ، كلما قطع أرضاً بدتْ له أرضون ، وكلما

قضى المرء سبباً ، جَدّت له أسباب » « صدق من قال : إن العاقل معذب فى الدنيا ، وصدق من قال : إن العاقل فيها مستريح ، فأما تعذبه ، فيما يرى من انتشار الباطل وغلبة دولته ، و بما يُحال بينه و بينه من إظهار الحق ، وأما راحته فترفعه عن كل ما يهتم به سائر الناس من فضول الدنيا » وكان يقول : « فُرِض على الناس تعلم الخير والعمل به ، فمن جمع الأمرين ، فقد استوفى الفضيلتين معاً ، ومن علمه ولم يعمل به فقد أحسن فى التعليم وأساء فى ترك العمل . قال ابن حزم : فاعترض علىّ إنسان سمع منى ذلك ، وقال : كان الحسن — يريد الحسن البصرى — إذا نهى عن شىء لا يأتيه أصلا ، و إذا أمر بشىء كان شديد الأخذ به ، وقال آخر : إن أبا الأسود الدؤلى قال :

لا تنه عن خلق وتأتى مثله   عارٌ عليك إذا فعلت عظيم

فقلت : إن أبا الأسود إنما قصد بالإنكار المجىء بما نهى عنه المرء ، وأنه يتضاعف قبحه منه بنهيه عنه ؛ لا أن من كان يعمل شيئاً قبيحاً لا يصح له أن ينهى عنه ، فهذا شىء وهذا شىء ، وأما حكاية الحسن فقد صح عنه أنه سمع إنساناً يقول : لا يجب أن ينهى عن الشر إلا من لا يفعله ، قال الحسن : ودّ إبليس لو ظفر منا بهذه حتى لا ينهى أحد عن منكر ، ولا يأمر بمعروف ، قال ابن حزم : وهذا قولنا آنفا ، وقد صدق الحسن » . وفى الكتاب كثير من النظرات الصائبة والحكمة البالغة ، نتيجة لتجاربه الخاصة . نعم : إنه لا بد أن يكون قد نظر إلى ابن المقفع فى الدرة اليتيمة والأدب الكبير والأدب الصغير ، ولكن ابن المقفع فى كتبه كان نتيجة تجارب الفرس التى اطلع عليها ، وكان ابن حزم ينقل نتيجة تجاربه الشخصية .

ومن الفلسفة العلمية التأليف فى السياسة الاجتماعية ، كما فعل الطرطوشى مثلا

فى كتابه « سراج الملوك » والطرطوشى نسبة إلى طرطوشة من بلاد الأندلس ، وقد تتلمذ لابن حزم والباجي ، ويحكون عنه أنه كان عالما عاملا ، زاهداً ورعا ، ديّنا متقشفاً ، متقللا من الدنيا راضياً منها باليسير .

ويهمنا منه هنا أنه ألّف كتاباً اسمه «سراج الملوك» وهو سياسة وعظية ، أكثر منه دراسة نظرية ، فلم تكن السياسة فى زمنه قد أصبحت علماً له قواعد ونظريات ، وإذ لم يكن الطرطوشى قد تقلد مناصب حكومية ، كالوزارة ونحوها ، كانت تجاربه فى هذا الباب قليلة ، وهى إلى المواعظ أقرب منه إلى تقعيد القواعد وقد استفاد من اطلاعه الواسع على كتب التاريخ وكتب الحديث ، ولذلك يُضمِّن كتابه كثيراً من الأحداث التى قرأها ، والحِكَم التى رواها ، وأحياناً يتأثر بمثل كتب الأحكام السلطانية ، ككتاب (الأحكام السلطانية) للماوردى ، فيسير سيره ، كما أنه أحياناً يروى ما حكى له عن ملوك الأندلس وأمرائها وأخبارهم ، وقد رتبه ترتيباً دقيقاً : الباب الأول فى مواعظ الملوك ... والثامن فى منافع السلطان ومضاره ، والتاسع فى منزلة السلطان من رعيته ، والحادى عشر فى الخصال التى هى قواعد السلطان ، ثم باب فيما يهدم الدولة ، وفى حاجة السلطان إلى العلم ، وفى الوزراء وصفاتهم ، وفى خصال الأمير والمأمور ، وما تكره الرعية من السلطان ومعنى « كما تكونوا يولّى عليكم » وعلاقة السلطان بالجند ، وجبايته للخراج ، وعلاقته ببيت المال ، وتدوين الدواوين ، وأحكام أهل الذمة ، والحروب وغير ذلك ، فقد تعرض لموضوعات غاية فى الأهمية ، وإن كان عالجها كما قلنا بالآثار لا بالرأى ، والكتاب من غير شك يدل على سعة اطلاع ولطف نظر ، قال فى مقدمته :

« إننى لما نظرت فى سير الأمم الماضية ، والملوك الخالية ، وما وضعوه من السياسات فى تدبير الدول ، والتزموه من القوانين فى حفظ النِّحَل ، وجدت ذلك نوعين : « أحكاماً وسياسات » . وقد ذكر أيضاً أنه ألّف هذا الكتاب للمأمون

البطائحى الوزير الفاطمى وأهداه إليه . وفيه أشياء كثيرة تأثر فيها من وجوده بالأندلس ، فعند كلامه مثلا على الحروب وتدبيرها وحيلها وأحكامها ذكر خبر وقعة وادى لَكَّة التى قتل فيها لُذَريق واحتز رأسه ، وفيه حكاية عن نظام جيش المنصور وقيادته والقضاء فى أيامه .

وفيه أخبار عن وقوف الفقهاء فى وجه السلطان وحدّهم من سلطانه . ويستفاد من مجموع ما ذكره عن الحرب ، كيف كانت ترتب الجيوش فى الأندلس .

ويظهر لى أنه كان مصدراً من مصادر ابن خلدون فى مقدمته ، وأن ابن خلدون فلسف أقواله ، وأخضعها للعقل . وقد مات الطرطوشى سنة ٥٢٠ . ويظهر أنه كان متزمتا ، فهو ينظر إلى اليهود والنصارى نظرة متعصبة ، حتى ليحرم على نفسه أكل الجبن الرومى لأنها صنعت فى بلادهم .

* * *

وأما الحركة العلمية فنعنى بها ما يقابل الحركة الأدبية أى scientific mou-vement من رياضة وطبيعة وكيمياء ونبات وحيوان وفلك ، وعلى الجملة فكل ما تبحث فيه « كليات » العلوم اليوم . وقد كانت هذه العلوم كلها داخلة فى الفلسفة ، ثم انفصلت عنها فى العصر الحديث كما انفصل مثلا علم النفس ، وكما انفصل حديثاً علم الاجتماع . وأصبحت الفلسفة قاصرة على جذور الشجرة بعد أن انفصل عنها فروعها . وقد رأينا فى الشرق أن الحركات المختلفة ظهرت على الترتيب الآتى : الحركة الأدبية ، وبدأت فى العصر الجاهلى واستمرت على الزمن ، ثم الحركة الدينية ، وقد ظهرت بظهور الإسلام ، ثم الحركة الكلامية ، وقد ظهرت فى آخر العصر الأموى وأول العباسى ، ثم الحركة الفلسفية والحركة العلمية . وهذا ما حدث فى الأندلس بالضبط . فتاريخ الحركة الأدبية يعاصر الفتح العربى ، ثم الحركة الدينية بعد ذلك بقليل ، ثم الحركة الفلسفية نشأت نشوءاً خافتا فى أيام الحكم ، ومنها الحركة العلمية .

ويظهر أن من أول من لفت النظر إلى الحركة العلمية مسلمة المجريطى من أهل قرطبة . قال صاعد فى كتاب تعريف طبقات الأمم ، « إن مسلمة كان إمام الرياضيين بالأندلس فى وقته ، وأعلم من كان قبله بعلم الأفلاك ، وحركات النجوم . وكانت له عناية بأرصاد الكواكب ، وشغف بتفهم كتاب بطليموس المعروف بالمجسطى ، وله كتاب حسن فى تمام علم العدد المعروف عندنا بالمعادلات وكتاب اختصر فيه تعديل الكواكب من زيج البتّانى ، وعُنى بزيج محمد بن موسى الخوارزمى » وقد توفى مسلمة سنة ٣٩٨ . والشىء المهم أيضاً أنه ربى تلاميذ كثيرين كانوا نواة صالحة فى هذه العلوم ، مثل ابن السمح وابن الصفّار ، والزهراوى والكرمانى وابن خلدون[1] .

فهؤلاء كلهم اشتغلوا فى العلوم . فابن السمح مثلا اشتهر بعلم الحساب والهندسة والهيئة ، وشرح كتاب أقليدس فى الهندسة . وله كتابان فى الأسطرلاب ، ومات سنة ٤٢٦ . وابن الصفار كذلك كان ماهراً فى علم الحساب والهندسة والعلوم . وله زيج مختصر على مذهب السِّندهند ، والكرمانى كان ماهراً فى الهندسة ، ورحل إلى الشرق فى طلبها ، ثم عاد إلى الأندلس ، وصار لا يشق غُباره فى فكّ غامضها ، وتبين مشكلها ، ومن ناحية أخرى اشتهر الغافقى وهو أبو جعفر أحمد ابن محمد بعلم الأدوية المفردة ، والنباتات ومنافعها وخواصها وأعيانها ومعرفة أسمائها ، قال ابن أبى أصيبعة « إن كتابه فى الأدوية المفردة لا نظير له فى الجودة ، ولا شبيه له فى معناه ، قد استقصى فيه ما ذكره ديسقوريدس وجالينوس ، ثم ذكر بعد قوليهما ما تجدد للمتأخرين من الكلام فى الأدوية المفردة . فجاء كتابه جامعاً لما قاله الأفاضل فى الأدوية المفردة ، ودستوراً يرجع إليه فيما يحتاج إلى تصحيحه منها » .

---

(١) هو غير ابن خلدون المشهور .

ويظهر أن كتابه هذا كان عماداً لما ألّفه ابن البيطار فى كتابه « المفردات» . فقد أصلح فى كتاب الغافقى وزاد عليه ما اكتشف بعده . وكلاهما كان معتمداً على كتاب ديسقوريدس ، ومصححاً له وزائداً فيه . وابن البيطار هـذا من أشهر علماء النبات والأعشاب ، وأصله من مالقة . ولد فى الربع الأخير من القرن السادس الهجرى ، وقد كان محباً للعلم ، فـكان يجوب البلاد يمتحن الأعشاب ويصفها ويذكر فوائدها ، وألّف كتابين أحدهما يعتمد على ما ذكره ديسقوريدس وزاد عليه وهو المشهور بمفردات ابن البيطار ، وكتاب آخر مبنى على تجاربه الخاصة . وهو يشتمل على علاجات بسيطة مستمدة من المعدن والنبات والحيوان . وقد رحل إلى مصر فى دراسة الأعشاب ، فى عهد الملك الـكامل الأيوبى ، وعينه رئيساً للعَشّابين . وكان ابن أبى أصيبعة تلميذاً لابن البيطار ، وصحبه فى الـكشف عن النباتات فى منطقة دمشق . وقد توفى ابن البيطار فى دمشق سنة ٦٤٦ هـ . ويظهر من تاريخه أنه كان محباً لموضوعه متفانياً فيه . يقول ابن أبى أصيبعة « وأول اجتماعى به كان بدمشق فى سنة ٦٣٣ ، ورأيت من حسن عشرته وكمال مروءته وطيب أعراقه وجودة أخلاقه وكرم نفسه ما يفوق الوصف ويتعجب منه ، ولقد شاهدت معه فى ظاهر دمشق كثيراً من النبات فى مواضعه ، وقرأت عليه أيضاً تفسيره لأسماء أدوية كتاب ديسقوريدس ، فـكنت أجد من غزارة علمه ودرايته وفهمه شيئاً كثيراً جدا ، وكنت أحضر عدة من الـكتب المؤلفة فى الأدوية المفردة ، مثل كتاب ديسقوريدس وجالينوس والغافقى . . . فـكان يذكر أولا ما قاله ديسقوريدس فى كتابه باللفظ اليونانى على ما قد صححه فى بلاد الروم ، ثم يذكر جملة ما قاله ديسقوريدس من نعته وصفته وأفعاله ، وما يتعلق بذلك . ويذكر أيضاً جملا من أقوال المتأخرين وما اختلفوا فيه ، ومواضع الغلط والاشتباه الذى وقع لبعضهم فى نعته ، فـكنت أراجع تلك الـكتب معه ، ولا أجده يغادر شيئاً مما فيها » .

ونوع آخر من العلم يمثله أمية بن أبى الصلت . وقد كان مجيداً فى نواح متعددة ، فهو من ناحية يجيد الميكانيكا ، يدل على ذلك ما حكى ابن أبى أصيبعة من أن مركبا محملة بالنحاس غرقت فى ميناء الإسكندرية ، فعمل أمية تصميماً أن يخرج المركب محملة بنحاسها من قاع البحر . وكان تصميمه ناجحاً لم يخطئ فيه . وصرف الملك الأفضل بن أمير الجيوش مبالغ طائلة فى صنع الآلات التى رسمها ، ولكن خان أمية التوفيق إذ قطعت حبال الإبْرَيْسم التى تشد المركب الغاطسة المحملة بالنحاس ، فعادت إلى قاع البحر ثانية ، وغضب الملك واعتقله حتى تشفّع فيه بعض الأعيان . وكان إلى جانب ذلك أوحد أهل زمنه فى العلوم الرياضية وفى علم الموسيقى واللعب على العود ، وأصله من بلد اسمها « دانية » شرقىّ الأندلسُ . ومع تفوقه فى العلوم المختلفة كان أديباً شاعراً . يقول الشعر الرقيق المُمَلْغَم بعلمه ، كقوله فى وصف الأسطرلاب ، وهو آلة الرصد المعروفة :

أفضلُ ما استصحب النبيل فلا ... تعدلْ به فى المُقام والسفر
جِرْمٌ إذا ما التمستَ قيمته ... جلَّ على التِّبْر وهو مِنْ صُفُر
مختصرٌ وهو إذ تفتِّشه ... عن مُلَح العلم غيرُ مختصر
ذو مقلة يستبين ما رمقَت ... عن صائب اللحظ صادق النظر
تحمله وهو حامل فَلَكاً ... لو لم يُدَرْ بالبنان لم يَدُرِ
مسكنُه الأرض وهْو ينبئنا ... عن جُلِّ ما فى السماء من خَبَرِ
أبدعه ربُّ فكرةٍ بعدتْ ... فى اللطف عن أن تُقاس بالفِكرِ
فاستوجَب الشكر والثناء له ... من كل ذى فطنةٍ من البَشَرِ
فهو لذى اللهب شاهد عجَبٌ ... على اختلاف العقول والفِطرِ
وأن هذى الجسومَ بائنةٌ ... بقدْر ما أعطيَتْ من الصوَر

ونوع آخر من الاشتغال بالعلم يمثله العباس بن فرناس ، وذلك أنه خطرت له فكرة أن يطير كما يطير الطير ، بصنع جناحين يطير بهما ، وهى فكرة سابقة لزمانها ، لأن الطيران إنما نجح بعد التقدم فى صنع الآلات ، واكتشاف البنزين ، وما هو أخف من البنزين ، أما الاعتماد على الأجنحة فقط فمصيره الفشل لا محالة . قال فيه صاحب نفح الطيب : « إن أبا القاسم عباس بن فرناس أولُ من استنبط بالأندلس صناعة الزجاج من الحجارة ، وأول من فَكَّ الموسيقى وصنع الآلة المعروفة بالمثقال ، ليعرف الأوقات على غير رسم ومثال ، واحتال فى تطيير جثمانه ، وكسا نفسه بالريش ، ومدّ له جناحين ، وطار فى الجو مسافة بعيدة ، ولكنه لم يحسن الاحتيال فى وقوعه ، فتأذّى فى مؤخّره ، ولم يدر أن الطائر إنما يقع على زمكه ، ولم يعمل له ذنَبا ... وصنع فى بيته هيئة السماء ، وجعل للناظر فيها النجوم والغُيُوم والبروق والرعود » . فهذا كله إن صدق دل على شخص غريب حقا ، نابغة حقا . والله أعلم .

الباب السادس

التاريخ والجغرافيا

التـــاريخ

أولع الأندلسـيون كما أولع المشرقيون بتاريخ بلادهم وملوكهم وحوادثهم ، وتراجم علمائهم وأدبائهم ، والراحلين من بلادهم والوافدين عليها . ويظهر أن الاشتغال بالحديث كان هو الذى أسلم إلى الاشتغال بالتاريخ . فـكان المحدثون يجمعون أحاديث من كل نوع ، بعضها يتصل بالعبادات والمعاملات ، و بعضها يتصل بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم والصحابة . فأسلم ذلك أولا إلى جمع سـيرة النبى ، ثم أسلمهم شيئاً فشيئاً إلى كتابة التاريخ .

ويظهر أن من أوائل مؤرخى الأندلس ابن حبيب الذى ذكرنا خبره فى الحركة الدينية ، وربمـا عدّ أقدم مؤرخى الأندلس . وقد عاش فى إلبيرة وقرطبة أول أمره ، ثم رحل إلى المشرق ودرس على شيوخه الحديث وما إليه والفقه المالـكى ، فأكسبته هذه الدراسة توسّعا فى فهم التاريخ . فألَّف فى كل فروع العلوم ومنها التاريخ العام ، وسمى كتابه « التاريخ » وهو أشبه ما يكون بتاريخ الطبرى ، فيتكلم فى ابتداء خلق الدنيـا والسموات والبحار والجبال والجنة والنار وآدم وحوّاء وما كان من أمرهما مع إبليس ، ثم ذكر الأنبياء نبياً نبيا ، لأن ذلك يعدّ تفسيراً لآيات الأنبياء فى القرآن . وهـــذا القسم من تاريخ ابن حبيب مملوء بالأساطير والإسرائيليات التى تروى عن مثـل وهب بن منبه وكعب الأحبار . فلمـا وصل فى التاريخ إلى الأندلس وذكر

فتحها كان كذلك مملوءًا بالأساطير كرؤيا طارق بن زياد ، وطِلّسم لذريق ، وخبر المائدة ، والكنوز التى عثروا عليها من ذهب وفضة وياقوت وزمرد الخ[1] . ونجد بعد ذلك تاريخ ابن القوطية الذى سبق ذكره فى الحركة النحوية واللغوية ، ولهذا الكتاب قيمة من ناحية خاصة ، وهى تفسيره لحوادث إسبانية لم يكن يعرفها العرب . واسم كتابه « تاريخ افتتاح الأندلس » وقد قالوا إنه كان رجلا متدينا جميلا وطال عمره ونفع الله به الناس ، وقد عثر على هذا الكتاب ونشر . وفيه صبغة فقهية مالكية ، وميل إلى أصوله من القوط مما يخالف فيه المؤرخين الآخرين . ثم نجد بعده عريب بن سعد المتوفى سنة ٣٦٩ . وكان من أصل قرطبى نصرانى أسلم آباؤه ، وكان سعد هذا كاتبا عند الحكم المستنصر . وقد اختصر تاريخ الطبرى وزاد عليه أخبار المغرب والأندلس . وله ذيل مطبوع لتاريخ الطبرى وجاء بعده سيّد مؤرخى الأندلس ابن حيان .

وكان ابن حيان هذا من كتاب المنصور بن أبى عامر ، وكان أديباً ماهراً ، إلى جانب أنه مؤرخ كبير . وقد ضاعت أكثر كتبه ، ولم يبق منها إلا بقايا من كتابيه « المقتبس ، والمتين » فأما المقتبس فيقع فى عشرة أجزاء ، لم يبق منها إلا ثلاثة ، وكلها فى تاريخ الأندلس من أول فتحها على يد طارق إلى زمن المؤلف . وأما المتين فقالوا إنه يقع فى ٦٠ جزءاً ، لم يبق منه إلا فقر فى بعض الكتب كالذخيرة لابن بسام . وقد وصفه المؤرخون والمترجمون له بأنه كان صادق الرواية ، جميل الأسلوب ، جزل التعبير . ولو بقيت كتبه لكشفت نواحى كثيرة من النواحى الغامضة فى تاريخ الأندلس .

ولئن كان كثيرون من مؤرخى المسلمين يتحرجون من ذكر معايب الشخص

---

(١) وقد عثر على هذا الكتاب ولا يزال موجودا فى مكتبة أكسفورد فى إنجلترا . ويقول من اطلع عليه إنه ليس له قيمة تاريخية كبيرة .

و يكتفون بمدائحه و يجرون حسب الحديث المشهور « اذكروا محاسن موتاكم » ، فكان ابن حيان فى منتهى الصراحة ، يذكر المحاسن ولا يتعفف عن ذكر المساوئ ، ولا يومئ إليها إيماء ، بل يقولها فى جرأة وشدّة حتى إن بعض المؤرخين تبرأ إلى الله من قوله . وكان إذا أراد أن يقتبس شيئاً من ذلك حذف اسم المؤرّخ له واكتفى بالتكنية عنه بفلان ، ولم يسلم من لسانه حتى العظماء . فيذكر مثلا عن الأمير المنذر فضائله ثم يعقب ذلك بنقائصه ، فيقول إنه كان شديد البخل ، و يأخذ عليه الاستهانة بدماء الناس والإسراع إلى سفكها ، حتى ولديه و إخوته وصحابته ورعيته وأخذه فى ذلك بالظنة ، ومع أنه — كما قلنا — من كتاب المنصور بن أبى عامر ، لم يتحرج من أن يتناول بالهجاء ولو من بعيد هذه الأسرة ، وأن يأسف على زوال الدولة الأموية فى الأندلس ، ويبكى على ما كان للدولة الأموية من البهجة ، وما حل محلها من دولة بربرية ليس لها ما للأموية من جلال وقدم . ولنسق بعض الأمثلة للدلالة على صراحته وشدة نقده : « فلان معدن من معادن الجهل والأَفَن والغباوة ، وحجّة الله فى الرزق ، واستظهر — لما رأى الناس فيه من شدة وطأة المجاعة — بما شاء من ادخار القوت والطعام ... وولِىَ المظالم صدرَ اكتهاله :

ومن المظالم أنْ وَلِيـ ـتَ على المظالم يا فزَارَه »

و يقول : « ومضى فلان فأُدْرِج فى جَنَنِه غير فقيد ، لم تبك عليه غير نفسه ، إذ لم يكن لغيره نصيب فى خيره ، لأنه كان جَهْمَ المحيّا ، باسِرَ اللقاء ، مُشَنّأً إلى الورى ، شَكِس الجبلّة ، كزّ الخلقة » و يقول فى ابن باشة : « كان هدّام القصور ، مُبَوِّر المعمور ، وكان من التبحبح فى اللؤم والالتحاف للشؤم ، مع دناءة الأصل والفرع وتنكّب السداد ، وتَقَبُّل الفساد ، على ثَبَج عظيم ، بيده بادت

قصور بنى أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحُطّت أعلامهم المنيعة ، قدّمه ابن السّقّاء مدبّر قرطبة لجمع آلات ما تهدّم من القصور المعطلة ، فاغتدى عليها أعظم آفة ، يبيع أشياء جليلة القدر ، رفيعة القيمة ، فى طريق الأمانة ، ولم يك مأمونا على باقة بقل ، فعاث فيها عياث النار فى يبيس العرفج ، وباع آلاتها من رفيع المرمر ، ومثمَّن العَمَدِ ونُضار الخشب ، وخالص النحاس ، وصافى الحديد والرصاص ، بيع الإدبار . ولم يزل ينفق ما غَلّ بمرأى ومسمع فى أبواب الباطل ، حُمِلَت عنه فى التبذير نوادر ، تشهد بأن الدار ليست بدار مثوبة ولا جزاء . وكانت رُسُل الأملاك تأتيه لشراء تلك الآلات بأغلى الأثمان ، فيبذلها هو فى أنواع الضلالات الخ » .

وقد قال عن نفسه : إنه أولع بالتاريخ من صغره وشغف به حبا ، وأعد لهذا الأمر عدته . وربما مكّن له من الصراحة أنه كما قال كان يؤلف هذا الكتاب لنفسه ويخبئه لابنه ، ثم غيّر رأيه فنشره فى الناس . ويقول ابن بسام : « إنه مَرَى سحابَه فصاب ، وأخطأ التوفيق وما أصاب ؛ إذ جاء أكثر كلامه كما قال ابن الرومى :

مَهْما تَقُلْ فسهامٌ منـــكَ مرسَلَةٌ ... وفُوكَ قوسُكَ والأعراض أغراضُ
وما تــكلّمتَ إلا قُلْتَ فاحِشَـــةً ... كأن فــكّيكَ للأعراضِ مِقْرَاضُ

* * *

ومن علم أن كلامه من عمله ، أقلّ إلا فيما ينفعه ، ومن اعتقد أنه مسئول عما يقول ، ويُــكتَب عليه ما يَــكتُب ، لم يستفرغ المجهود فى القول ، فضلا عن أن يثلب

فلا تــكتُبْ بكفك غير شىء ... يسرُّك فى القيامة أن تراه

ومع ذلك فقد كان سهما لا يُنمى رمِيُّه ، وبحراً لا يُنكش آذِيُّه ، لو قلَبَ الماء ما نقع ، أو تعرّض لابن ذكاء ما سطع ، يتناول الأحساب قد رسخت فى التخوم ، وأنافت على النجوم ، فيضع منارها ، ويطمس أنوارها ، بلفظ أحسن من لقاء الحبيب عند العُوَّد . فرب شامخ بأنفه ، ثانٍ من عطفه ، قد مرّ فى كتابه بنَصلٍ جرّده لوضع حسبه ، وخلّده أحدوثة باقيَة فى عقبه فيَرِده ورود الظمآن الرَّنَق ، ويلبسه لبس العريان الخلَق » . ونحن إلى مذهب ابن حيان أميل . فالمؤرخ عليه أن يتحرى الصدق فى المدح والذم ، والنافع والضار . أما اقتصاره على المدح دون الذم ، فتقصير فى رواية الحقيقة ، وقول لنصف الحق ، وليس الرجل المشهور فى التاريخ ملكا لنفسه ، بل أصبح ملكا لشعبه ، يشرّحه المؤرخ الحصيف كما يشرّح الطبيب المريض ، فنحن مع ابن حيان لا ابن بسام . وكثيراً ما ضقت ذرعا بالمؤرخين لا يذكرون إلا المحامد ، ويغضون الطرف عن المفاسد . بل قد يخلقون المدائح خلقاً وإن لم يصح نسبتها إليهم حقاً . وهذا إن جاز للشاعر المستجدى ، فلا يجوز للمؤرخ الثّبْت المتحرّى للصواب . غاية الأمر أننا نخالف ابن حيان فى أنه يعبّر عن مذام الشخص تعبيراً صارخاً ليس فيه رقة ولا ذوق ولا إيماء . والحق إن عرى من ثيابه تعرّى من جماله .

ولئن تفوق ابن حيان بتاريخه الشامل للسياسة ، والأحداث الاجتماعية ، وتراجم بعض الأفراد ، فقد تخصص مؤرخ آخر لتراجم علماء الأندلس ، وهو « ابن الفَرَضى » ، وهو أبو الوليد عبد الله محمد المعروف بابن الفرضى ، من مشاهير المحدثين والمؤرخين . ولد فى قرطبة سنة ٣٥١ ، ودرس الفقه والحديث والأدب والتاريخ فى قرطبة ، وحج وانتهز فرصة الحج ورحل إلى بلاد كثيرة : القيروان والقاهرة ومكة والمدينة ، ولما عاد إلى الأندلس درس بها مدة طويلة ، وولى القضاء فى بلنسية ، وقتل بداره سنة ٤٠٣ أيام ثورة البربر ، واشتهر بعلمه فى فن

الحديث ، وعلم الرجال والأدب ، واطلع على كتب كثيرة فى رحلاته ، ومن مؤلفاته كتاب نشر ضمن سلسلة المكتبة الأندلسية ، وهو الكتاب الذى كمله ابن بشكوال وهو المسمى «تاريخ علماء الأندلس» . ونبغ قريبا من هذا العصر فى التاريخ أيضاً الحافظ الحميدى ، وقد ولد أبوه بقرطبة ، وولد هو بالجزيرة ، وقرأ العلوم الدينية من فقه وحديث ، وسمع من ابن عبد البر وابن حزم . ولازم هذا الأخير وقرأ عليه مصنفاته كلها ، ورحل إلى مصر ودمشق ، وروى عن الخطيب البغدادى ، وذهب إلى واسط ، ثم رجع إلى بغداد وصار يأخذ العلم والأدب عن أهلهما ، وقال بعض من رآه : « لم تر عيناى مثل أبى عبد الله الحميدى ، فى فضله ونبله ، ونزاهة نفسه ، وغزارة علمه ، وحرصه على نشر العلم و بثّه فى أهله » . وقد وصل إلينا من تآليفه كتابه « جذوة المقتبس فى أخبار علماء الأندلس[1] » . لخص فيه كتاب المقتبس لابن حيان الذى ذكرناه من قبل . وكان مثال العالِم الذى ينقطع عن العالَم ليتفرغ للعلم ، توفى فى بغداد سنة ٤٨٨ .

ثم اشتهر من مؤرخى الأندلس ابن بشكوال ، وكان أيضا من المحدثين والمؤرخين معا . ولد فى قرطبة سنة ٤٩٤ ، وقد اتسعت أولا معارفه بالحديث ، ومن ثم اتسع علمه بتاريخ بلاده ، وقد استفاد كثيرا من أساتذته العظام أمثال أبى بكر ابن العربى . وقالوا : إنه كان آخر أقطاب المحدثين فى الأندلس ، وأنه ألّف نحو خمسين مؤلفاً . ولم يبق لنا من كتبه التاريخية إلا كتابه « الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس» وهو تتمة لكتاب ابن الفرضى السابق الذكر ، وهو يدل دلالة واضحة على سعة اطلاعه ووفرة علمه .

فإذا تخطينا نحن بعض العصور عثرنا من المؤرخين على ابن الأبّار ، وهو أيضاً محدث ومؤرخ ، ولد فى بلنسية سنة ٥٩٥ وظل أكثر من عشرين عاما

---

(١) طبع من عهد قريب فى مصر .

يتتلمذ لأبى الربيع بن سالم أعظم محدثى الأندلس فى عصره . وقد ألف كتاباً سماه « التكملة لكتاب الصلة » فيكون لنا مجموعة متسلسلة فى أخبار العلماء ، كتاب ابن الفرضى والصلة لابن بشكوال ، وتكملة الصلة لابن الأبار . ولما أحس باضطراب الأمر فى بلنسية هاجر منها إلى تونس واشتغل بالتدريس بها . وقد استقبله أمير تونس استقبالا حسنا أول الأمر ، ولكنه انقلب عليه أخيرا وصادر كتبه ، فوجد فيها هجاء للسلطان أغضبه ، حتى إنه لما مات فى السجن أمر فأحرق رفاته . وقد بقى من مؤلفاته كتاب « تكملة الصلة ، والحلة السيراء » .

* * *

هناك مؤرخون عنوا بتراجم طائفة خاصة ، فبعضهم كان يعنى بتراجم المحدثين كابن عبد البر الذى ألف كتاب « الاستيعاب » ، وبعضهم عنى بتراجم الأدباء ، ومن أشهر هؤلاء ابن بسام الذى ألف كتابه العظيم « الذخيرة »[١] . وقد وضعه على نمط كتاب اليتيمة للثعالبى ، وقلده فى سجعه واستعارته ومجازاته وإن لم يلتزم السجع دائماً . وقد قسم كتابه إلى أقسام أربعة ، كالثعالبى فى اليتيمة فقسم لقرطبة وما يحيط بها ، وقسم لإشبيلية وما يحيط بها ، وقسم لبلنسية وما يحيط بها ، وقسم للملمين بالأندلس والطارئين عليها ، وهو يعرض لتاريخ الملوك والوزراء والأمراء عرضاً دقيقاً ، ويزن آثارهم الأدبية وزنا صحيحاً ، وقد اعتمد فى ناحيته التاريخية على ابن حيان إذ رأى أنه أعرف منه بالتاريخ ، وأنه أصح منه نظراً ، وبذلك نقل إلينا فى كتابه « الذخيرة » جملة صالحة من أقوال ابن حيان المفقود أصلها .

وقد نشأ فى بيت حسب ونسب فى شنترين ، ولكن من الأسف أن هذه البلدة وقعت فى يد النصارى واستولوا على كل أملاكه ، فخرج منها صفر اليدين .

(١) طبعت منه الجامعة المصرية إلى وقتنا ثلاثة أجزاء .

وفى ذلك يقول «وعلم الله أن هذا الكتاب لم يصدر إلا عن صدر مكلوم الأحْناء، وفكر خامد الذكاء، بين دهر متلوّن تلوّن الحرباء، لانتباذى من شنترين، قاصية الغرب، مغلول الغَرْب، مروّع السِّرْب، بعد أن استنفد الطريف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، بتواتر طوائف الروم، علينا فى عُقر ذلك الإقليم، وقد كنا غنينا هنالك بكرم الانتساب عن سوء الاكتساب، واجتزأنا بمذخور العناد، عن التقلب فى البلاد، إلى أن نثر علينا الروم ذلك النظام، « ولو تُرك القطا ليلا لنام »، وحين اشتد الهول هنالك، اقتحمت بمن معى المسالك، على مهامه تكذب فيها العين الأذن، وتُستشعَر فيها المِحَن:

مَهَامِهُ لم تصحَبْ بها الذِّئْبَ نَفْسُه ولا حملَتْ فيها الغرابَ قوادمُهْ

* * *

خلصتُ خلوص الزبرقان[1] من سراره، وفزت فوز القدح عند قِماره، فوصلت حمص[2] بنفْس قد تقطّعت شَعاعا، وذهب أكثرها التياعا، « وليتنى عشت منها بالذى فَضَلا » فتغرّبت بها سنوات، أتبوّأ منها ظلّ الغمامة، وأعيا بالتحوّل عنها عِيّ الحمامة، ولا أُنسَ إلا لانفراد، ولا تبلغ إلا بفضلة الزّاد. والأدب بها أقلّ من الوفاء، وحامله أضيع من قمر الشتاء، وقيمة كل أحد ماله، وأسوأ كل بلد جهاله. حسْبُ المرء أن يسلم وفْرُه وإن ثلم قدره، وأن تكثر فضته وذهبه وإن قلّ دينه وحسَبُه ».

ويقول فى سبب تأليفه هذا الكتاب: إنه رأى فى الأندلس « قوما ما هم، طِيبَ مكاسر، وصفاء جواهر، وعذوبة موارد ومصادر، لعبوا بأطراف الكلام

---

(١) الزبرقان: البدر.

(٢) بلدة فى الأندلس سميت باسم حمص الشام.

المشَقّق ، لعِبَ الدُّجَى بجفون المؤرّق ... نثرٌ لو رآه البديع لنسى اسمه ، أو اجتلاه ابن هلال لولاّه حكمه ، ونظمٌ لو سمعه كثيِّر ما نسب ولا مدح ، أو تتبّعه جرولٌ ما عوى ولا نبح ، إلا أن أهل هذا الأفق ، أبوا إلا متابعة أهل المشرق ، يرجعون إلى أخبارهم المعتادة ، رجوع الحديث إلى قتادة ، حتى لو نعق بتلك الآفاق غراب ، أو طنّ بأقصى الشام والعراق ذباب ، لجثَوْا على هذا صنما ، وتلَوْا ذلك كتابا مُحْـكَمَا ، وأخبارهم الباهرة ، وأشعارهم السائرة ، لا يعمر بها جنان ولا خَلَد ، ولا يصرّف فيها لسان ولا يد . فغاظنى منهم ذلك ، وأنفت مما هنالك ، وأخذت نفسى بجمع ما وجدت من حسنات دهرى ، وتتبّع محاسن أهل بلدى وعصرى ، غَيْرَة لهـذا الأفق الغريب ، أن تعود بدوره أهلّة ، وتصبح بحارُه ثِمَادًا مضمحلّة ، مع كثرة أدبائه ، ووفور علمائه . وقديمًا ضيّعوا العلم وأهله ، ويارُب محسن مات إحسانه قبله . وليت شعرى : من قصر العلم على بعض الزمان ، وخص أهل المشرق بالإحسان » وهو يدل على شكواه من أهل الأندلس من أنهم ينظرون إلى النتاج المشرقى نظرة إعجاب ولو كان تافها ، وإلى نتاج بلادهم نظرة احتقار ولو كان نابها . وهو يدل أيضاً على أن أهل الأندلس كان عندهم مركب نقص أمام المشارقة ، كالذى عند الشرق اليوم أمام الغرب . وقد حكى لنا هذا أيضاً ابن حزم فى رسالته فى فضل الأندلس ، فشكا من أن كثيراً من علماء الأندلس وأدبائه ، قلّت قيمتهم فى نظر الأندلسيين لأنهم من وطنهم ، ولو كانوا من المشرق ، لأعلوا شأنهم وزيد فى قدرهم . وقديما قالوا : « زامر الحىّ لا يطرب » و « أزهد الناس فى عالم أهله » .

وكان قريع ابن بسّام فى بابه الفتح بن خاقان ، ولد بقرية قريبة من غرناطة ، وكان فقيراً وليس الفقر عيباً ، ولـكنه كان أيضاً وضيعاً ، مدمناً للخمر ، مسرفا فى تعاطيها ، يتردد فى البلاد لينشد أمثاله من متعاطى الخمور ، ويطلب الصلة ،

وأسوأ ما فيه أنه كان يمدح أو يذم ، تبعا لهذا العطاء أو الضنّ ، فمن أعطاه مدحه ومن حرمه قدحه ، وأحياناً يمدح الشخص و يذمه ، تبعا لصلته الشخصية .

فابن بسام فى الذخيرة يفوقه بمراحل ، من ناحية تحرّيه للتاريخ الصحيح ، و بذله المدح والذم تبعا لصفات الممدوح أو المذموم لا لعلاقته الشخصية ، ومن شرّ ما وقع فيه الفتح بن خاقان تصرفه مع ابن باجة ، فقد مدحه مدحا صعد به السماء ، ثم ذمّه ذمًّا نزل به إلى الحضيض لحسن العلاقة بينهما أولا وسوئها أخيراً ، فإذا نظرنا إلى أسلوب الذخيرة وأسلوب الفتح ، وجدنا أن أسلوب الذخيرة أقرب إلى نفوسنا ، فهو لا يلتزم السجع كما يفعل الفتح بن خاقان ، وأسلوب الفتح هذا أجوف ، يلعب بالألفاظ والاستعارات لعب البهلوان .

وقد ألّف الفتح كتابين مشهورين « مطمح الأنفس ومسرح التأنّس » والثانى « قلائد العقيان ومحاسن الأعيان » فأما المطمح فذكر أعيان الأندلس ، ومن اشتهر بالكرم والظَّرف . أما القلائد فقد تعرض لمحاسن الرؤساء وأبنائهم ، مع ذكر نماذج من مستعذب أقوالهم ، وفيه تراجم تشترك مع تراجم المطمح . ومن أمثلة كتابته قوله فى ذمّ ابن باجة وقد ذكرناه عند الكلام عليه فى الفلسفة . ونذكر هنا مدحه فيه ، للدلالة على أسلوبه ، وعلى أنه يبنى تراجمه من مدح أو ذم على اعتبارات شخصية ، من غير تحرٍّ لصدق ، أو التزام لحق ، كأنه يرى أن المسألة مسألة ألفاظ جوفاء ، واستعارات خيالية ، وتزويقات لفظية . قال فى ابن باجة : « نورُ فهم ساطع ، و برهانُ علم لكل حجة قاطع ، تتوجت بعصره الأعصار ، وتأرّجَت من طِيب ذكره الأمصار ، وقام وزنُ المعارف واعتدل ، ومال للأفهام فَنَنًا وتهدّل . وعطل بالبرهان التقليد ، وحقّق بعد عدمه الاختراع والتوليد . إذا قدح زند فهمه ، أورى بشررٍ للجهل محرق ، و إن طما بحرُ خاطره ، فهو لكل شىء مغرق ؛ مع نزاهة النفس وصونها ، وبُعد الفساد من كونها ، والتحقيق ، الذى هو للإيمان شقيق ،

والجدّ ، الذى يخلق العمود وهو مستجد ، وله أدب يودّ عطارد أن يلتحفه ، ومذهبٌ يتمنّى المشترى أن يعرفه ، ونظمٌ تعشقه اللّبات والنحور ، وتدعيه مع نطاسة جوهرها البحور » ، وقد مات الفتح ميتة شنيعة إذْ وجد مخنوقا فى فندق فى درب من دروب مراكش سنة ٥٢٩ .

ومثل ما فعله ابن سعيد ؛ فقد ألّف كتاباً ضخماً فى ترجمة كل نبهاء الأندلس من أمراء ووزراء وقضاة وشعراء ، وسماه « المغرب فى حُلا أهل المغرب[1] » ومن اللطيف أن أسرة ابن سعيد هذا تداولت تأليفه فى مدة تبلغ نحو ١١٥ سنة . كلما أتى رجل من الأسرة كمّل عمل أسلافه . وقد ذكر أن السبب فى تأليفه أن أبا عبد الله الحجارى وفد على عبد الملك بن سعيد صاحب قلعة بنى سعيد بالقرب من غرناطة سنة ٥٣٠ ، فأعجبته منه معرفته أدباء الأندلس ، وما لهم من طرائف الشعر والنثر ، وصنّف له الحجارى كتاب «المسهب فى غرائب المغرب» فلما اطلع عليه عبد الملك بن سعيد أعجبه الكتاب وأضاف إليه ما طالعه من الكتب والتقطه من الأفواه . و بعد أن فرغ منه وضع كتاباً على منهجه سماه « المشرق فى حُلَا أهل المشرق » واضطر ذلك المؤلفين إلى أن يرحلوا إلى المشرق ليجمعوا مادة هذا الكتاب . وطر يقتهم فى التأليف كما ذكر أحدهم قال : « كلٌّ من التصنيفين مرتبة على البلاد ، متى ذكر بلد ، ذكرت كُوَره ، وأتكلم عليه وعلى كل كورة منه ، وأبتدئ بكرسى مملكتها ، وقاعدة ولايتها ، بحسب مبلغ علمى ، من إعلام بمكانها بالأقاليم ومن بناها ، وما يحف بها من نهر أو منزه أو خاصة معدنية أو نباتية ، ومن تداول عليها من أبناء الملوك أولى التواريخ التى لا يجب إغفالها ، ثم نأخذ فى الطبقات واحدة بعد واحدة ، وهى خمس : طبقة الأمراء ، وطبقة الرؤساء ، وطبقة العلماء ، وطبقة الشعراء ، وطبقة اللفيف ، والطبقات الأولى

(١) نشر بعض أجزائه الدكتور شوقى ضيف فى مصر .

مخصوصة بمن له نظم من أولى الخطط المذكورة . . . وطبقة اللفيف مخصوصة بمن ليس له نظم من أى صنف كان ، ممن لا يجب إغفاله ، وفيها من النوادر والمضحكات ما يكون كالإحماض » . وقد سمى كل جزء يتصل ببلد اسما خاصاً مقلداً فى ذلك ابن عبد ربه فيما صنع فى العقد . فمثلا كتاب « الحلة المذهّبة فى حُلى مملكة قرطبة » وكتاب « الفردوس فى حلى مملكة بطليوس » وكتاب « الخِلْب فى حلى مملكة شلب » وكتاب « النفحة المندلية فى حلى المملكة الطليطلية » الخ .

وأخيراً ألف لسان الدين ابن الخطيب كتابه « الإحاطة فى أخبار غرناطة » ترجم فيه لكل علماء غرناطة وفضلائها ترجمة أدبية يسودها السجع .

* * *

ونلاحظ أن التاريخ سواء كان تاريخاً سياسياً أو تراجم رجال متأثر من ناحية المؤلفين بعلم الحديث ومنهجه أكثر من المشرق . والسبب فى ذلك :

(١) أن منهج التعليم فى الأندلس كان منهجاً دقيقاً شديداً ، يسوده فقه الإمام مالك وما ينبغى عليه من حديث وتفسير ، فكان الاشتغال بالفقه والحديث يسلمهم غالباً من ترجمة رجال الحديث إلى ترجمة رجال العلم والأدب ، ولذلك نرى أكثر المؤرخين فقهاء أشبه ما يكونون بالطبرى فى المشرق . فقد كان فقيهاً مؤرخاً ، ولكن قل أن نجد بالأندلس مثل المسعودى واليعقوبى وأبى الفدا من مؤرخى المشرق غير الفقهاء .

(٢) ربما نلاحظ أن التاريخ الأندلسى اتصل بالأدب أكثر مما اتصل المؤرخ الشرقى به ، وسبب ذلك أن أكثر المؤرخين الأندلسيين كانوا أدباء شاعرين أو ناثرين ، وسبب آخر وهو أن عواطف الأندلسيين نحو بلادهم كانت أقوى ، فكلما سقطت بلدة فى يد النصارى رثاها الأدباء وحلّل وقائعها المؤرخون .

فمثلا لما سقطت طليطلة وكانت أول ما سقط ، تكلموا عن سقوطها كثيراً ، وحللوا أسباب سقوطها تحليلا كبيراً . وكذلك لما سقطت بلنسية استغاثوا بصاحب أفريقية أبي زكريا ابن أبي حفص وقال قائلهم القصيدة المشهورة :

أدرِكْ بخيلك خيل الله أندلسًا   إن السبيل إلى منجاتها دَرَسَا

* * *

يا للجزيرة أضحى أهلُها جَزَرًا   للحادثات ، وأمسى جدّها تَعِسا

تقاسَمَ الرّومُ لا نالت مقاسمهمْ   إلا عقائلها المحجوبة الأُنُسَا

وفى بلنسيةٍ منها وقرطبةٍ   ما ينسفُ النفس أو ما ينزفُ النَفَسا

مدائن حلّها الإشراكُ مبتسماً   جذلان وارتحل الإيمان مبتئسا

وهى قصيدة قوية طويلة تفيض بكاء . وأخيراً سقطت الأندلس كلها ، فقيل فى رثائها الكثير ، ومن أحسنه :

لكل شيء إذا ما تم نقصانُ   فلا يُغَر بطيب العيش إنسانُ

هى الأمور كما شاهدتها دولٌ   من سرّه زمنٌ ساءته أزمانُ

* * *

تبكى الحنيفية السمحاء من أسَفٍ   كما بكى لفراق الإلفِ هيمانُ

على ديارٍ من الإسلام خاليةٍ   قد أقفرت ، ولها بالكفر عمرانُ

حيثُ المساجد قد صارت كنائس ما   فيهنّ إلا نواقيسٌ وصُلبانُ

حتى المحاريب تبكى وهى جامدةٌ   حتى المنابر ترثى وهى عيدانُ

يا غافلاً وله فى الدهر موعظة   إن كنت فى سِنَةٍ فالدهر يقظانُ

يا من لِذِلّة قوم بعــد عزِّهمُ أحال حالَهمُ كُفْر وطغيــانُ
بالأمس كانوا ملوكاً فى منازلهم واليوم هم فى بلادِ الكفر عُبدانُ
فلو تراهمْ حيارى لا دليــل لهم عليهمُ من ثيــاب الذل ألوانُ
ولو رأيت بكاهمْ عنــد بيْعَتِهمْ لهالك الأمر واستهوتك أحزانُ

ويختمها بهذا البيت :

لمثل هــذا يذوب القلب من كمدٍ إن كان فى القلبِ إسلام وإيمـان

☆ ☆ ☆

لقد رأينا مدناً فى المشرق تتساقط تساقط أوراق الشجر ، تستوجب الرثاء والبكاء ، كما سقطت بغــداد فى يد التتار ، وأزالوا كل ما فيها من مظاهر مدنية وحضارة ، وفعل التتار فيها ما لا يقل عما فعــله الإسبانيون فى الأندلس ، وغزا هولاكو وتيمورلنك ونحوهما بلاد الشام ، وأسقطوها بلداً بلداً ، فما رأينا عاطفة قوية . ولا رثاء صارخاً ولا أدباً رقيقاً ولا تاريخاً مسجلاً ، كالذى رأيناه فى الأندلس ، فإن قلنا إن هذه الناحية فى التاريخ الأندلسى أقوى وأشد ، لم نبعد عن الصواب .

(٣) رأينا فى الأندلس أيضاً صنفاً من التاريخ لم نجده كثيراً فى الشرق . قد رأينا فى ترجمة ابن عبد ربه أنه وضع ملحمة فى أعمال عبد الرحمن الناصر وغزواته مؤرخة بالسنين ، ورأينا ملحمة أخرى لأبى طالب عبد الغفار مما لم نجد له نظيراً فى الشرق ؛ نعم : رأينا أرجوزة مطولة لابن المعتز فى تسجيل الأحداث فى زمانه ، ولــكن قصيدة ابن المعتز فى باب الاجتماع أدخل ، وملحمة ابن عبد ربه وأبى طالب فى باب التاريخ أدخل . والله أعلم .

الجغرافيــا

جمع بعض العلماء فى كتبه بين معلومات تاريخية ومعلومات فى صميم الجغرافيا ومن أشهر هؤلاء ابن حيان السابق الذكر ، فإنه يرد فى ثنايا كلامه التاريخى وصف جغرافى كقوله فى بعض كتبه :

« ابتدأ الناصر بناء الزاهراء أول يوم سنة ٣٢٥ ، وجعل طولها من شرق إلى غرب ٢٧٠٠ ذراعاً ، وتكسيرها ٩٩٠٠٠٠ ، وكان يثيب على كل رخامة كبيرة أو صغيرة عشرة دنانير ، سوى ما كان يلزم على قطعها ونقلها ومئونة حملها ، وجلب إليها الرخام الأبيض من المريّه ، والمجزّع من ريّه ؛ والوردى والأخضر من أفريقيا ، والحوض المنقوش المذهَّب من الشام ، وقيل من القسطنطينية ، وفيه نقوش وتماثيل وصور على صور الإنسان ، وليس له قيمة « أى لا يقوّم » . . . فأمر الناصر بنصبه فى وسط المجلس الشرقى المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثنى عشر تمثالا ، وبنى فى قصرها المجلس المسمى بقصر الخلافة ، وكان سمكه من الذهب والرخام الغليظ الصافى لونه ، المتلونة أجناسه وكانت حيطان هـذا المجلس مثل ذلك ، وجعلت فى وسطه اليتيمة التى أتحف الناصر بها إليون ملك القسطنطينية وكانت قرامد هذا القصر من الذهب والفضة ، وهذا المجلس فى وسطه صهريج عظيم مملوء بالزئبق ، وكان فى كل جانب من هذا المجلس ثمانية أبواب قد انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجواهر ، قامت على سوار من الرخام الملون ، والبلور الصافى ، وكانت الشمس تدخل الأبواب ، فيضرب شعاعها فى صدر المجلس وحيطانه ، فيصير من ذلك نور يأخذ بالأبصار ، وكان الناصر إذا أراد أن يفزع أحداً من مجالسه أومأ إلى أحد صقالبته ، فيحرك ذلك الزئبق ، فيظهر فى المجلس كلمعان البرق من النور ، ويأخذ بمجامع القلوب ،

و بها من المرمر والعمد كثير ، وأحدق بها البساتين ، وفيها يقول الشاعر :

وقفتُ بالزهراء مستعبراً معتبراً أندُبُ أشتاتا
فقلت يا زهْرَا ، ألا فارجعى فقالت : وهل يرجعُ مَن ماتا
فلم أزل أبكى وأبكى بها هيهات يُغْنِى الدمعُ هيهاتا
كأنما آثارُ مَن قد مضَى نوادبٌ ينـدبن أمواتا »

* * *

واخترعوا طريقة لطيفة لإظهار محاسن كل مدينة ، وهى طريقة إقامة مناظرة بين المدن الأندلسية المختلفة تفخر بنفسها ، وتظهر مزاياها التى لا توجد فى مدن أخرى ، وتردّ الثانية عليها ، كما روى أن مالقة قامت فقالت : « لِىَ البحر العجّاج ، والسُّبل الفجاج ، والجنات الأثيرة ، والفواكه الكثيرة ، ولدىّ من البهجة ما يستغنى به الحمام عن الهديل ، ولا تجنح الأنفس الرقاق الحواشى إلى تعويض عنه وتبديل . . . فقامت مرسية وقالت : أمامى تتعاطون الفخر ، و بحضرة الدر تنفقون الصخر ، إن عدّت المفاخر فلى منها الأول والآخر ، أين أوشالكم من بحرى ، وخرزكم من لؤلؤ نحرى ، وجعجعتكم من نفثات سحرى ، فلى الروض النضير ، والمرآى الذى ما له نظير ، فأبنائى فيه فى الجنة الدنيوية مودعون ، يتنعمون فيما يأخذون و يدعون ، ولهم فيها ما تشتهى أنفسهم ولهم فيها ما يدّعون . . . فقامت بلنسية وقالت : فيم الجدال والقراع ، وعلام الاستهام والاقتراع ، و إلامَ التعريض والتصريح ، وتحت الرغوة اللبن الصريح . . . فلى المحاسن الشامخة الأعلام ، والجنات التى تلقى إليها الآفاق يد الاستسلام ، و برصافتى وجسرى أعارض مدينة السلام ... فأنا حيث لا تدركون » الخ .

وهكذا قامت كل مدينة تفتخر بما عندها ، وتعتب على غيرها فى شكل أدبى لطيف .

وكان من أشهر جغرافيّي الأندلس وأقدمهم البكرى ، وهو عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب . ومن حسن الحظ أن آثاره فى الجغرافيا لا تزال بين أيدينا إلى اليوم ، كمعجم ما استعجم . وقد ازدهر اسمه فى النصف الثانى من القرن الخامس . وسمى البكرى نسبة إلى قبيلة بكر إذ كان من نسلهم . ولقد ذهب إلى قرطبة وتعلم فيها . وكانت قرطبة إذ ذاك فى حكم بنى جهور . وفى قرطبة أتم البكرى تعلمه على مشاهير العلماء فى ذلك العصر . ثم دخل البكرى فى خدمة أمير المرية . وهناك يحدثنا التاريخ أنه سمع بعض المحاضرات من المؤرخ الجغرافى المشهور ابن حيان . وقد أوفد أمير المرية البكرى إلى أمير الموحدين للاستعانة به ، فنجح فى سفارته . وقد ألف كتباً كثيرة بعضها أدبى و بعضها جغرافىّ أدبى كتعليقاته على أمالى القالى ، وشرحه لأمثال أبى عبيد . أما فى الجغرافيا فمن أشهر كتبه كتاب « معجم ما استعجم »[1] ، وهو يذكر اسم البلدة و يروى أشهر ما لها وما ورد من الشعر فيها فى دقة وعناية ، و يضبطها ضبطا صحيحاً ، وكان من بين ما تعرض له « الأندلس » ، وله أيضاً كتاب « المسالك والممالك » وقد وصل إلينا منه بعض قطع ، جمعه من أقوال من تقدمه من المؤرخين ، من كتب لم تصل إلينا ، ضم فيه نتفاً من التاريخ ، إلى نتف من الجغرافيا ، وتعرض — عدا الأندلس — إلى جغرافية أفريقيا ومصر والعراق وما وراء النهر .

وعلى الجملة فكان عَلَماً عظيما من أعلام الجغرافيين الأندلسيين .

واشتهر كذلك فى الجغرافيا الشريف الإدريسى ، وربما كان أكبر جغرافيّى المسلمين و يعرف عنه الأوربيون كثيراً ، وهو أبو عبد الله محمد بن محمد ، و يسمى بالشريف لنسبته إلى الحسن ، وأحياناً يلقب بالقرطبي . والسبب فى معرفة الأوربيين له أنه اتصل ببلاط روجر الثانى ملك صقلية ، وقرّبه إليه وحط

---

(١) طبع فى أوربا ومصر .

رحاله عنده ، بعد رحلات طويلة فى ممالك مختلفة . وكان روجر هذا يشجعه على التأليف فى الجغرافيا ورسم الخطط له ، ولذلك قد يسمى الشريف الإدريسى الصقلى . وألف فى الجغرافيا كتابه المشهور « نزهة المشتاق ، فى ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » ، وشحنه بالخرائط اللازمة التى تزيد عن الأربعين خريطة ، وكان أعظم كتاب فى الجغرافيا فى زمنه ، ولذلك ترجم إلى اللغة اللاتينية وطبع .

وفى الحقيقة أن من قرأ الكتاب استدل منه على معرفة واسعة بالبلاد وخبرة تامة بمواقعها وميزاتها ، ونباتها وحيوانها ، وغير ذلك مما يعجب منه القارئ . ويتصل بالجغرافيا أكبر اتصال الرحلات . وقد كان فى المشرق رحّالون كثيرون أفضلهم المقدسى ، وكان فى الأندلس أيضاً رحالون كثيرون . وربما كان الأندلسيون أقدر على الرحلة لما يغلب عليهم من الدروشة والتصوف فكانوا يجدون سهولة كبيرة فى التنقل والإقامة فى البلاد التى ينزلونها ، ويستقبلون استقبالا حسناً فى الرباطات والخانقاهات . ومن أشهر رحالى الأندلس ابن جبير وابن بطوطة . فابن جبير أبو الحسين محمد ، ولد ببلنسية سنة ٥٤٠ . ودرس الفقه والحديث فى شاطبة ، ثم حج فذهب من غرناطة إلى سبتة عن طريق جزيرة طريف . ومن سبتة ركب البحر إلى الإسكندرية ، ثم مر بالقاهرة ، فقوص فعيذاب فجدّة ، وفى رجوعه رحل إلى العراق فزار بغداد والكوفة والموصل ، ورحل إلى الشام فزار حلب ودمشق ، وركب البحر من عكا إلى صقلية ، ومن صقلية عاد إلى غرناطة ؛ ورحل بعد ذلك رحلتين إلى المشرق : أولاهما من سنة ٥٨٥ إلى سنة ٥٨٧ ، والثانية سنة ٦١٤ . ويظهر أنه كان ينوى الرحلة بعيداً ولكنه لما وصل إلى الإسكندرية مات . وقد ملئت رحلته بالفوائد فهو يذكر العلماء الذين رآهم ويصفهم ، والوعاظ وطريقة وعظهم ، والمكّاسين

وطريقة أخذهم للضرائب ، هذا عدا وصف المدن أو البلاد التى كان يمر بها .
وعلى الجملة فكتابه أوفى رحلة وصورة اجتماعية وجغرافية للبلاد التى مر بها ، حتى إن الإفرنج اهتموا كثيراً بالقسم من رحلته الذى دوّن فيه حالة صقلية فى عهد وليم الصالح ، وترجموا نصه وعلَّقوا عليه .

وكان مثقفاً دقيق الملاحظة ، بليغاً فى الوصف ، فمثلا يقول وقد أتى شهر رمضان عليه وهو فى مكة « وكان صيام أهل مكة يوم الأحد بدعوى فى رؤية الهلال لم تصح ، لكن أمضى الأمير ذلك ، ووقع الإيذان بالصوم بضرب دبادبه لموافقته مذهبه ، ومذهب شيعته العلويين ومن إليهم ، لأنهم يرون صيام يوم الشك فرضاً . ووقع الاحتفال فى المسجد الحرام لهذا الشهر من تجديد الحصر ، وتكثير الشمع والمشاعل ، وغير ذلك من الآلات ، حتى تلألأ الحرم نوراً ، وسطع ضياء ، وتفرقت الأئمة لإقامة التراويح فرقا» الخ من رصف مفصل دقيق .

ويقول لمّا وصل بغداد « هذه المدينة العتيقة ، وإن لم تزل حضرة الخلافة العباسية ، قد ذهب أكثر رسمها ولم يبق منها إلا شهير اسمها . وهى بالإضافة إلى ما كانت عليه قبل إنحاء الحوادث الطامس ، أو تمثال الخيال الشاخص ، فلا حُسن فيها يستوقف البصر ، ويستدعى من المستوفز العقلة والنظر . . . وأما أهلها فلا تكاد تلقى منهم إلا من يتصنع التواضع رياء ، ويذهب بنفسه عجباً وكبرياء . يزدرون الغرباء ، ويظهرون لمن دونهم الأنفة والإباء ، ويستصغرون عمن سواهم الأحاديث والأنباء الخ » .

ويلى ابن جبير فى الزمن ابن بطوطة ، وقد ضبطه ابن خلدون فى نسخته بضم الباء . وكثيراً ما يلقب بالطّنجى ، لأنه ولد بطنجة سنة ٧٠٣ ، ولكن أهله كانوا بالأندلس . ومنهم من تولى القضاء ببعض مدنها ، وكان أكثر دروشة فى سفره من ابن جبير . بدأ رحلته بالحج إلى مكة عن طريق شمالى أفريقيا فمصر

فالبحر الأحمر . ولما لم يجد الطريق أمامه مفتوحا ، عاد ووصل إلى مكة عن طريق الشام وفلسطين ، ومن مكة وصل إلى العراق ، ثم زار بلاد فارس والموصل وديار بكر ، ثم زار مكة للمرة الثانية ، وقضى فيها عامين ، ورحل رحلة ثالثة إلى جنوب بلاد العرب ، فأفريقيا الشرقية . ورحل منها إلى الخليج الفارسى ، ثم عاد إلى آسيا الصغرى و بلاد القرم عن طريق مصر والشام . وزار القسطنطينية فى حاشية الأميرة اليونانية زوجة السلطان محمد أوزْبِكْ ، واخترق خوارزم و بخارى وأفغانستان ، ثم رحل إلى الهند وولى القضاء فى دلهى ، وسار فى بعثة سياسية إلى الصين فوصل إلى جزائر مولديف . ومنها سافر إلى الصين عن طريق سيلان والبنغال والهند الأقصى . ثم رحل إلى بلاد العرب عن طريق جزيرة سوماطرة ، فترى من هذا حبه الكثير للتجوال . وكان فى كل بلدة ينزلها يختلط بأهلها و بأميرها ، وكثيراً ما يتزوج منها مما يسهل له وصف مناظرها ، وشرح عوائدها ، وكان يهتم اهتماماً كبيراً برجال الدين ، ولذلك يعد كتابه وصفاً شاملا للحياة الاجتماعية فى عصره ، كما يدل وصفه على كيفية تصوره للمسائل .

وقد أفادتنا رحلته ورحلة ابن جبير فوائد أكثر مما أفادتنا كتب التاريخ المؤلفة فى عصرهما ، لأن تاريخهما تاريخ حىّ ، يعنى بالحياة الحية أكثر مما يعنى بالحروب والفتوح والجنود وعددها وغلبتها الخ .

ومما يتصل بالرحلات ما ذكره الشريف الإدريسى عن الإخوة المغررين من أنهم : « خرجوا من أشبونة أولا إلى ناحية الغرب ، وساروا « فى البحر » اثنى عشر يوماً ، فلم يجدوا شيئاً ، فانعطفوا إلى ناحية الجنوب ، فساروا اثنى عشر يوما أخرى ، فوصلوا إلى جزيرة لم يجدوا فيها إلا غنما لحومها مرة لا تؤكل ،

فانعطفوا أيضاً إلى الجنوب وساروا اثنى عشر يوما إلى أن وصلوا إلى جزيرة وجدوا فيها بشراً ، وأخذوا إلى أمير الجزيرة وجرى معهم ما جرى » .

والذى يظهر من هـذا أنهم وصلوا أولا إلى جزيرة بين أمريكا الشمالية وأمريكا الجنوبية . وقد سار فى نفس الطريق كولمبس ، ولا شك أنه وقف على رحلة هؤلاء الإخوة واستفاد مما ورد عنهم . ويظهر أن قول الإدريسى أنهم ساروا اثنى عشر يوما حتى وصلوا إلى ما وصلوا إليه ليس بدقيق ؛ فإن المسافة تقطع فى المراكب الشراعية فى أطول من هذا . ومما يروى أن كولمبس قد اطلع على كتب كثيرة قبل رحلته ، منها ما أخذه عن العرب كما ورد فى دائرة المعارف الفرنسية ، فهم بهذا كانوا أسبق فى اكتشاف أمريكا ، لولا سوء الظروف التى منعت من نجاحهم .

إمارة قرطبة

حول سنة ٢٠٠ هجرية

مملكة اشتوريش
برغش
نبارة
برشلونة
اوبورتو
الوادى الدويره
طلمنكة
طليطلة
وادى ابره
ثغر سرقسطة
بلنسية
يابسة
ميورقة
مينورقة
جزر البليار
وادى تاجه
اشبونة
وادى يانه
قرطبة
الوادى الكبير
اشبيلية
غرناطة
قادس
طنجة



الباب السابع

الحركة الفنيـــة

عرفت إسپانيا بأنها مركز لآثار كثيرة ، وحضارات قديمة متوالية ، ولذلك كانت مدرسة يدرس فيها الفنانون الفنون المختلفة للحضارات المختلفة .

وقد مكّن لها من ذلك ما قلنا من توالى الحضارات عليها ، وقربها من إيطاليا وفرنسا المعروفتين بالذوق الفنى . فالعرب لمـا كانوا بالأندلس استفادوا من فنّية هاتين المملـكتين وهضموا ما استفادوا وأخرجوه على نحو جديد ، استطاعوا به أن يعيدوا الجميل لمن اقتبسوا منهم . لقد توالى على الأندلس الرومان والقوط والعرب والإسپان . فأما الرومان فكانوا ذوى مهارة فنيــة عظيمة ، وأعظم ما خلفوه كان فى بلدة ماردة ، إذ كانت عاصمة لوزيتانيا ، نخلفوا فيها كوبرى « جسراً » كانت له واحد وثمانون حَنِيّة أو باكية ، وخلفوا فيها قناتين مغلقتين ، وملهى للتمثيل ، وملعباً عاماً ، وهيكلا للمريخ تحول فيا بعــد كنيسة ، وقوس نصر . وخلفوا فى طركونة عدة هياكل وملهى للتمثيل وملعباً وحمامات ، وجميعها من أفخم المبانى الرومانية . وفى بلدة شقوبية خلفوا قناة مغلقة طولها ٨١٠ متراً ، منها ٢٦٦ مركبة على دورين من الحنايا الواحد فوق الآخر ، وعدد قناطرها ١١٩ قنطرة . وأما القوط فخلفوا أكثر ما خلفوا كنائس ، منها كنيسة سانميسكال فى أو بيط ، وكنيسة شانتمرية . وقبيــل دخول العرب الأندلس مالوا فى فنهم إلى المتانة والرصانة دون الزخرف . و بنوا فى مدينة برغش كنيسة كبرى تحتوى على أنماط البناء فى الأعصر الثلاثة الأخيرة ، ويقال : إنها أبدع كنيسة فى إسپانيا

بناها يوحنا الكولونى ، وكانوا يميلون إلى نوعين أخيراً قلّلا من بهجة الفن : الأول جَعْل موضع خاص فى وسط الكنيسة للأحبار والقسيسين مما أخلّ بجمال الهندسة والثانى ميلهم إلى تقليل النور فى الكنائس ، فكانت أبنيتهم تستدعى الظلمة لا النور ، على العكس من البناء العربى ، فهو يحب النور ويكره الظلمة . وأما أبنية العرب فكثيرة ، وربما كان أعظمها مسجد قرطبة ، من حيث جماله وسعته . فهو لا يفوقه فى السعة إلا المسجد الحرام والمسجد الأقصى . وربما ساوى مسجد ابن طولون فى القاهرة . وقد تُوسِع فيه على ممرّ الزمان . فكان كلما كثر العمران وزاد السكان توسعوا فيه . حتى لقد قالوا : إن قسمى المسجد ، القسم المسقوف والصحن السماوى يسعان نحو ثمانين ألف مصلّ . وقد زين هذا المسجد بالنقش والفسيفساء ، مما يدل على أن الأندلسيين أخذوا هذا الفن من البيزنطيين وحسنوه وأتقنوه ، وقد تفننوا فى الخرط والنحت والنقش والزينة مما جعل لهم أسلوباً خاصاً بهم يفهمه الفنان . وقد بدئ فى بناء المسجد سنة ٧٨٦ وأخذت بعض عمده من الأبنية الرومانية القديمة ، ولما كان الرواق عظيم الحجم ، كان من المناسب أن يكون سقفه عالياً ، يفوق ارتفاعه ارتفاع العمد ، ففكروا فى أن يبنوا أقواساً على العمد تمكن من ارتفاع السقف . وقد تفننوا فى بناء مساجد كثيرة من الآجر على نمط جميل . ومن أجمل أبنية العرب فى الأندلس قصر الحمراء ، شيّده بنو الأحمر فى غرناطة ، وفيه أبنية غاية فى الجمال ، كحوش السباع ، وحوش الريحان ، وقاعة السفراء ، وقاعة بنى سراج ، وقاعة الحكم . وأجمل ما فى هذه القاعات الأعمدة الرخامية والنقوش البديعة بالجص ، والكتابات العربية التى تتكرر فيها ، « لا غالب إلا الله ، وعز لمولانا أبى عبد الله » ولا تزال هذه الحمراء إلى اليوم زينة إسپانيا ، ومقصد السائحين والفنانين .

ولما تغلب الإسپانيون على المسلمين وجدت طائفة من المسلمين يسمّون

المدجّنين ، وهى كلمة تطلق على المسلمين الذين دخلوا تحت حكم الإسپان بعد سقوطها فى أيديهم وفضلوا البقاء فى بلادهم ، كانوا فى أول أمرهم يتسامح معهم فى الإتيان بشعائر دينهم ، والظهور بمظهر الإسلام ، ولكن ضغط القسس على الولاة فحرموا عليهم إقامة شعائر دينهم ، وأكثروا عليهم من الأغلال والضرائب والرقابة . هؤلاء المدجنون كانوا يجمعون بين ما اقتبسوه من الفن الإيطالى والصنعة القوطية والطراز العربى . وكان البناءون من المدجنين ومن الإيطاليين ومن الهولنديين ، يطوفون فى البلاد ويشتركون فى بناء الكنائس والأديار ، وخلفوا من ذلك كثيراً . ووجدت فى الأندلس تماثيل كثيرة ، ولكن الغالب أنها من صناعة الإيطاليين ، و بعضها قديم يرجع إلى زمن الرومان .

ولم يكن العرب مقلدين فقط ، بل استفادوا من العمارات التى شاهدوها فى الشرق ، وزاد ذوقهم إرهافاً لما نزلوا بالأندلس حيث الطبيعة جميلة ، وحيث البلاد مفتوحة بآثارها أمامهم . فخلطوا هذا بذاك ، وأنتجوا نتاجاً جديداً كان عليه طابعهم ، خصوصاً وأن العرب فى الأندلس قويّو الملاحظة ، حسنو الذوق ، سرعان ما يهضمون ويخرجون ما هضموه كأنه شىء جديد .

ولهم فى الفنون المختلفة مجال . فأولا : العمارة . وأكبر ما يمتازون به العقود فى البناء ، فنرى أنهم شغفوا بهذا النحو من العمارة ، و بنوا على أساسه مساجدهم وقصورهم . نعم : إن هذه العقود كانت معروفة فى إسپانيا من قبل ولكنهم أدخلوا عليها تحسينات كثيرة ، حتى كأنها من وضعهم . وتوسّعوا فى تقويس الجوانب ، وسدّوا نصف فتحة العقد فى بعض الأحيان ، وابتكروا طريقة عمل الأقبية التى تقوم على عقود متقاطعة وأدوار متعارضة . وانتشرت هذه الطريقة فى المدن الأندلسية على اختلافها ، وزادوا على ذلك مهارة فى أشغال الخشب والرسم عليه رسوماً هندسية ، والخزف والمنسوجات ، فبرعوا فى تزيين السقوف بالأشكال

الهندسية ، والألوان البديعة ، مما لم يكن له نظير ، كما برعوا فى صنع القاشانى ، وتزيين المقاعد العامة به ؛ وكان للفخار الأندلسى بريق متألق كالذهب ، وقد أخذوه من القسطنطينية أولا ، ثم أدخلوا عليه تحسينات كثيرة ، وزاد فى جماله ما كتبوا عليه من الكلمات العربية بالحروف الكوفية . وكان لكل أمير شارة خاصة وهى المسماة « رَنْكاً » زينوا بها أمتعتهم وكتبهم وغير ذلك . وكان لهم صبر طويل على إخراج الأدوات الجميلة ، فلا مانع عند الصانع أن يصرف السنين فى إخراج تحفة فنية كصندوق خشبى مكفَّت ، أو دواة جميلة مكفَّتة ، ودلّهم ذوقهم على استخدام الكتابة العربية فى التجميل والزخرفة أو بيت من الشعر أو دعاء بالعافية ، أو ذكر أوصاف لمن تعمل له التحفة . وقد ينتهى ذلك بكتابة الصانع اسمه . وأكثروا من استعمال ذلك حتى على المقابر ، كما مهروا فى صناعة الزجاج الملون والنقش والكتابة عليه . ولما كان الدين الإسلامى يمنع من إقامة التماثيل وتصوير الأبطال ، عمدوا إلى تجميل الخط ، وتصوير أوراق الأشجار ، أو تحلية الشىء المصنوع بالأشكال الهندسية ، حتى صناعة النسيج مهروا فيها ، وسرت منهم إلى أوربا فيما بعد . وقد كان عندهم نوع من القماش يقال له العتّابى ، نسبة إلى عتّاب . واشتهر هذا النوع فى فرنسا وسمى فى لسانهم « تابى » وعرف بهذا الاسم فى أوربا كلها . وهناك نوع من الأقمشة القطنية يعرف باسم « ديميتى » ويقولون فى اشتقاقه إنه من اليونانية من دى بمعنى اثنين وميتوس بمعنى خيط ؛ لأن هذا القماش كان ينسج من أول أمره فى خيطين ، ولكن تظن السيدة دى فونْشَيَر أنه نسبة إلى دمياط ، إذ كان هذا النوع مشهوراً عندهم .

وقد قلد الصناع من الفرنج العرب فى فنهم تقليداً دقيقاً ، ومن ألطف ما يروى فى ذلك أن بعض الصناع الأوربيين كانوا يقلدون الخط العربى على أنه رسم من

الرسوم من غير أن يعرفوا قراءته ، فحدث أن ملك مرسية واسمه « أوفّا » صك نقوداً محفوظاً بعضها فى المتحف البريطانى . وقد كتب على قطعة النقود اسم الملك باللغة اللاتينية وحوله كتابة عربية فيها ، لا إله إلا الله محمد رسول الله على أنها مجرد نقش ، من غير أن يتنبه الصانع إلى أن ذلك يخالف التعاليم المسيحية ، وعثر على صليب إيرلندى مطلىّ بالبرنز اللامع ، كتب فى وسطه على الزجاج بالخط الكوفى عبارة « بسم الله » ، ففى هذين المثلين دليل على أن الفن العربى كان يغزو الفن الأوربى ، ويحمل الفنانين على تقاليد العرب حتى فى كتابتهم على أنها نوع من التصوير .

وبلغ الفن الإسلامى فى الأندلس درجة عالية ، رغم أن الإسلام يحرم الصور والتماثيل ، لأنها تعيد إلى الذهن عهد الوثنية الأولى ، والإسلام يريد أن يجتثها من أساسها ؛ ولذلك كان كثير من المتدينين قد يصورون الحيوان والنبات لبعد احتمال عبادتهما ، ولكن لا يصورون الإنسان لاحتمال عبادته . ولذلك وجهوا هممهم إلى الزخارف والنقوش والصور الهندسية ؛ من ذلك أنهم زينوا مثلا قصور الزهراء بأسد عظيم الصورة ، بالغ الروعة ، قد طلى بالذهب ، ووضع مكان العينين جوهرتان لهما ضوء خاطف ، قد أقيم على بحيرة ، يجوز الماء منه إلى مؤخره من قناة تحمل إليه الماء العذب على حنايا معقودة ، فيدفع الماء إلى البحيرة[1] .

ومن ذلك أيضاً ما روى من أن الناصر صنع حوضاً لاستحمامه أقيم عليه تماثيل من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس مما صنع بدار الصناعة بقرطبة — تمثال أسد إلى جانبه غزال ، ثم تمساح ، يقابله ثعبان وعقاب وفيل . وفى الجانبين حمامة ، وشاهين ، وطاووس ، ودجاجة ، وديك ، وحدأة ، ونسر . وكلها مرصعة بالجوهر النفيس ، يخرج الماء من أفواهها[2] .

(١) انظر نفح الطيب ج ١ (٢) المصدر السابق .

فترى من ذلك أنهم تفننوا فى اتخاذ التماثيل من الحيوان دون الإنسان . ومع هذا نجد فى الرواية أحياناً ما يخالف هذا . فقد ذكروا أن الناصر هذا أمر أن تنقش صورة جاريته الزهراء على باب القصر المسمى باسمها ، وملئت أبهاء الزهراء بتماثيل وصور بشرية ، مما يعد ظاهرة جديدة فى الفن الإسلامى . وإلى الآن توجد فى إسپانيا بمتحف قرطبة آثار فنية رائعة تشهد بحسن ذوقهم ، ومهارة فنهم ، ومن ألطف الأمور أن نرى فن الشعر يخدم فنون النحت والتصوير والتمثيل ، كما خدم فن الموسيقى فنّ الشعر ، وكلها من واد واحد . فيروى المقّرى أنه كان فى حمام بإشبيلية تمثال بديع الصنع قال فيه الشاعر :

ودُميَةِ مرمرٍ تزهو بجِيدٍ ... تناهى فى التّورّد والبياض
لهـا ولد ولم تعرف خليلا ... ولا ألمت بأوجاع المخـاض
ونعلم أنها حجر ولـكن ... تُتَيِّمُنا بِألحـاظٍ مِرَاضِ

فهذا غزل فى تمثال ، وهو يدلنا على أن التمثال كان من رخام أبيض مشوب بحمرة ، كما يدل عليه قوله :

« تناهى فى التورد والبياض »

ويدل أيضاً على أن التمثال تمثال امرأة بجانبها ولدها ، إذ يقول : لهـا ولد ولم تعرف خليلا . وربمـا دلنا ذلك على خروج الأندلس على العادة المألوفة عند المسلمين فى عدم تصوير التماثيل الإنسانية . فضغط البيئة كان أقوى عليهم من تعاليم الدين . وربمـا تأوّلوا ذلك بأن الخوف على المسلمين من عبادة الأصنام والأبطال قد أمن جانبه ، فلم يبق محل لتحريمه ، وإلى ذلك ذهب بعض الفقهاء . وكان أزهى العصور الفنية عصر عبدالرحمن الناصر ، وعصر بنى الأحمر فى غرناطة . فلما جاء المرابطون والموحدون هبطت درجة الفن لمـا يغلب عليهم من البداوة ،

وعدم إرهاف ذوقهم الفنى . ولذلك يكفيهم فخراً أنهم أبقوا على ما بقى ، ولو لم ينشئوا جديداً :

لا تعجَبَنْ من هالكٍ كيف توَى بل فاعجَبَنْ من سالمٍ كيف نجا

ولما تغلّب الإسبان على الأندلس ، طمسوا كثيراً من الكتابات العربية التى على المساجد والقصور . وكان العرب مولعين بذلك ، حتى لقد كتبوا على أثر فنى سورة الفتح بأكملها ، وأراد الإسبانيون بذلك أن يمحوا آثار العرب . ولكنهم أخيراً لما أحسوا برغبة السائحين والفنانين فى رؤية هذه النقوش العربية أخذوا يزيلون الجصّ عن الكتابة . وكلما عثروا على كتابة عربية عدوا اكتشافها كنزاً .

ولا ننسى بعد ذلك تأثر إسبانيا بالموسيقى العربيـة ، فكان عدد من حكام قشتالة يستخدمون مهندسين من المدجّنين ، ويستمتعون إلى موسيقيين منهم . وحتى الآن لا يزال الشرقيون يرون الموسيقى الإسبانية أقرب إلى آذانهم ، وتتفتح لها قلوبهم أكثر من الموسيقى الفرنسية أو الإنجليزية أو الألمانية . والسبب فى ذلك واضح ، وهو أن الموسيقى الإسبانية مطعمة بالموسيقى الشرقية بواسطة مسلمى الأندلس .

وأخيراً ضغط القسس على فرديناند وإيزابلا ، فطردا كثيراً من المسلمين إلى خارج بلاد الأندلس ، فخسروا بذلك خسارة كبيرة فى التجارة والصناعة والفنون ، وضحّوا بمصالح إسبانيا من أجل إرضاء طائفة من القسس ، حتى قال بعضهم : « إن إسبانيا ضحت بحريتها وعظمتها كشعب فى سبيل الكاثوليكية » .

وقال آخر : « لما مات الإسلام فى الأندلس كان موته تسمما لإسبانيا » .

ولم يلبث فرديناند وإيزابلا أن اخترمهما هذا السم ، فبدآ يتركان التسامح

الذى درج عليه ملوك قشتالة وأرغونة ، وسيطرت عليهما النزعات الكنسية وميولها ، حتى بلغت بهما إلى التعصب والسخف . واقتفى أثرهما مَن تبعهما من الملوك . و بذلك قضوا على زهرة الفكر الذى خلفه الإسلام لإسبانيا .

وكان من منافذ الفن الإسلامى إلى أور با صقلية ، فقد حكمها المسلمون مدة طو يلة ، وازدهرت علومهم وفنونهم فيها ، فلما انتهت دولة المسلمين وقبض عليها المسيحيون من النرمانديين وغيرهم ، اقتبسوا أيضاً كثيراً من الثقافة العربية والفن العر بى ، حتى يرووا أن روجر النرماندى كلف الشريف الإدر يسى أن يعمل له كرة يرسم عليها شكل الأرض إلى كثير من أمثال ذلك ، فإذا أضفنا إلى هذين العاملين — وهما الأندلس وصقلية — الحروب الصليبية فى الشرق ، وما كان فيها من اختلاط مكّن كلا من الطرفين أن يعرف ما عند الآخر ويستفيد منه ، فقد وضعنا أيدينا على أسباب انتقال الثقافة من الشرق إلى الغرب .

تقسيمات الجزيرة الأندلسية حوالي سنة ٦٠٠ هجرية

إفرانسه
مملكة
مملكة نبارة
بنبلونة
وادي ابره
سرقسطة
مملكة أراغون
برشلونه
طراكونه
شنت ياقب
ليون
مملكة ليون
برغش
أوبورتو
الوادي الجوفي
مملكة قشتاله
طلمنكه
مملكة البرتغال
قويمرة
وادي تاجه
قونكه
طليطله
ماردة
اشبونة
بلنسية
جزر ميورقه وأخواتها
مينورقه
ميورقه
يابسة
وادي يانه
قرطبه
مرسية
غرناطة
الوادي الكبير
اشبيلية
قادس
مالقة
الجزيرة الخضراء
بحر الزقاق



تأثر الأندلس وتأثيرها

الحق أن الأندلس كانت كمحطات الإذاعة الرئيسية ، فيها آلات للاستقبال وآلات للإذاعة . فأما أولا ، فقد استقبلت كل ما أرادت من المشرق ، وذلك بواسطة تجّار الكتب وبواسطة الأمراء الذين كانوا يريدون أن يزهروا دولتهم ، بنقل كتب المشرق إلى مكاتبهم ثم إباحتها للجماهير ، وبالحج وما كان يكثر التلاقى فيه والحديث عن الأدب والعلم والكتب وتبادل كل ذلك . ثم بسرعة الانتقالات وسهولتها ، فكانت رقعة العالم الإسلامى كوادى النمل ، كل يوم تجد من يجىء ومن يروح . ولذلك كان العالم الإسلامى كله كأنه قطر واحد لا أقطار متعددة ؛ ثم شىء آخر ، وهو أن بيوت الأمراء والوزراء حتى والأوساط كانت مملوءة بالرقيق ، وهذا الرقيق منه الإسبانى والفرنسى ، وأسرى الحرب من أمم مختلفة ، وهم يسمون كل ذلك الصقالبة . والإسلام يبيح الاتصال بملك اليمين والتزوج بهن . والخلفاء والأمراء منهم من تزوج فعلا بهن ، وهؤلاء الأرقاء من رجال ونساء لعبوا دوراً كبيراً فى الحياة الاجتماعية الأندلسية ، فقد كانوا ينقلون أفكار الأوربيين إذ كان بعضهم من الخاصة . وكانوا ينقلون عادات أممهم وتقاليدها . ومن تعلّم اللغة العربية منهم كان ينقل الأفكار والأقاصيص الأوربية باللغة العربية . وانقسمت البيوت إلى قسمين ، قسم من أولاد السرارى ، وقسم من أولاد الحرائر . والأولاد تبعاً لأمهاتهم ينقسمون أيضاً إلى قسمين : قسم يتعصب لأمه السّرّيّة ، وقسم يتعصب لأمه الحرة . وكثيراً ما وقع القتال فى المملكة بسبب تعصب كل فرد ؛ وليلاحظ أن انتقال الأفكار فى غاية الخفاء والسهولة ، فقد يخالط أندلسىّ رجلا أوربياً فى جلسة عادية ، فتنتقل أفكار كل من هذا إلى ذاك ، ومن ذاك إلى هذا . وقد يرحل أندلسى فيقرأ كتاباً شرقياً أو يتتلمذ على أستاذ شرقى ، ثم

يقدم الأندلسىّ إلى بلاده ، فيلقى فى أرض الأندلس البذور التى سمعها ، والبذور تتأقلم بالبيئة . وشاهد ذلك فى الأدب وكل فرع من فروع العلم والفلسفة وغير ذلك . ولذلك كان من العسير جداً أن ترد النسيج الأندلسى إلى خيوط شرقية أو خيوط أوربية أو خيوط مبتكرة . فهذا ما لا يستطيعه إنسان إذا أراد الجزم والتحديد ، وإنما كل ما يستطيعه الشك والظن . ولذلك يعجبنى جداً رأى القاضى عبد العزيز الجرجانى فى « الوساطة بين المتنبي وخصومه » إذ جعل الحكم على معنى بيت من الشعر بأنه مسروق أو غير مسروق ، شيئاً فى منتهى الصعوبة ، لأن الحكم يتطلب معرفة تامة بكل المعانى الماضية ، ثم احتمال أن يتسرب معنى من هذه المعانى إلى قائل البيت الأخير وهذا عادة مستحيل . وكذلك ما نحن فيه .

هذا ما يصح أن يقال فى الاستقبال . أما شأن الإذاعة فقد كان هناك نوعان من الموجات ، نوع ذهب إلى الشرق ، وربما كان أصله أيضاً من الشرق ، ولكنه صبغ بالصبغة الأندلسية . ونوع من الموجات ذهب إلى أوربا كبعض الأدب ، وكثير من الفلسفة وخاصة فلسفة ابن رشد وبعض العلوم كالرياضة والهندسة وغير ذلك ؛ ولذلك كان من قال : إن النهضة الأوربية طارت أول ما طارت من على عاتق العرب ، لم يبعد عن الصواب . فالمتحررون من النصارى بسبب فلسفة ابن رشد ، وقيامهم فى وجه الكنيسة سبّب وجود طائفة تدعو إلى حرية الفكر والنهضة الحديثة . ومن ناحية أخرى فإن الأوربيين عند ما عرفوا الآثار اليونانية والرومانية عرفوها أول الأمر عن طريق نقلهم للآثار العربية . وبعد ذلك اشتاقوا أن يعرفوا الآثار اليونانية والرومانية فى أصولها . فالشوق الذى كان عندهم إنما بثه العرب فيهم .

نعم : إن المشرق استطاع أن يذيع بعض الشىء فى أوربا عن طريق الحروب

الصليبية أحياناً ، ولـكن ذلك كله ليس بسيء إذا قيس بتأثير الأندلسيين في أوربا .

لقد اختلف علماء الإسبان فى مقدار انتفاعهم بمسلمى الأندلس ، حتى أنكرها بعضهم نكراناً تاماً . وقالوا : إذا أردنا معرفة أصل أى شيء إسبانى ، فلننظره عند اليونان والرومان لا عند العرب . بل قال بعضهم : إن حكم المسلمين للأندلس أخر تقدم الإسبانيين ، ولولا ذلك لنهضوا نهضة فرنسا و إنجلترا وألمانيا وغيرها . فليس من فرق إلا حكم المسلمين لهم والتطاحن الشديد بينهم و بينهم مدة ثمانية قرون كاملة ، لا يهدأ لأحد منهما بال . ولـكن من حسن الحظ أن هذا ليس مذهب الجميع ؛ بل من الإسبانيين من يرى من الحق أن حكم المسلمين للأندلس حلقة فى سلسلة تاريخ الأندلس ، وأن المسلمين رقوا الأندلس أثناء حكمهم فى العلوم والحضارة . حتى إذا قيست إسبانيا بغيرها من الأمم كانت أرقى منها . بل ما لنا نذهب بعيداً وقد قلنا : إنه لولا فلسفة المسلمين فى الأندلس وانتشارها فى أوربا لما نهضت أوربا هذه النهضة ، بل تأخرت قروناً ، فكيف بإسبانيا إذا لم يكن حكمها المسلمون هذه القرون ؟

ومن حين لآخر نسمع عن أشخاص يقومون ليدّعوا أن المسلمين فى الأندلس لا فضل لهم على الإطلاق . وهـذه عصبية لا تخدم الحق ، ولـكن تخدم النزعة الدينية المتزمّتة . والزمان كفيل بإظهار الحقيقة بعد البحث . وتأخر إسبانيا إذا عدّت متأخرة ليس سببه حكم العرب لهم ، بل سببه على الأرجح إبعاد العرب عنها . وقد كانت فى يدهم الزراعة والصناعة والتجارة ، فلما أخرجوا انحطت البلاد بسبب خروجهم ووقفت الأعمال الهامة التى كانوا يقومون بها . ولم يستطع نصارى الإسبان أن يحلوا محل المسلمين فى أعمالهم .

هذا إجمال نفصله فيما يلى :

يخطئ من يظن أن الأندلس كانت مسكونة بالعرب والبربر وحدهم ، فقد كانت فى الواقع مسكونة بهما ، و بعدد كبير من الإسبان والأمم الأوربية ، ممن دخلوا فى الإسلام أو أسروا فى الحروب ، ونساء بعْن رقيقات واستولدهن العرب والبربر ، فكانوا جيلا مسلماً جديداً يتكاثر مع الزمان . والشأن فى ذلك شأن المشرق تماماً . وكذلك يخطئ من يظن أن بغداد والعراق كانتا مسكونتين بالعرب وحدهم ، بل كانتا مسكونتين بأسرى الأمم المختلفة ، والنساء الرقيقات المأسورات ، والعبيد والإماء الذين يباعون فى الأسواق وغير ذلك . كل هذا من شأنه أن يجعل الساكنين كأنهم صبّوا فى بوتقة ، ومزجوا على النار مزجاً تاما ، فأخذ كل من كل . وكانت النتيجة خليطاً فيه عناصر إسبانية أو أوربية ، وعناصر عربية أو بربرية . وكان الشأن فى ذلك كالماء الحار يخلط بماء بارد فيكون الناتج ماء لا حاراً ولا بارداً . إن كان ذلك كذلك فى الشئون المعنوية من أفكار وآدب ، وعلوم وفلسفة ، فلا عجب إذاً أن نرى ألفاظاً عربية كثيرة تسربت إلى الإسبانيين والبرتغاليين ، كما أن ألفاظا إسبانية و برتغالية دخلت العربية ، كما يظهر ذلك على الأخص فى ديوان ابن قزمان .

وقد كانت كل أمة تقدم للآخرين خير ما عندها وأسوأ ما عندها . فقدم العرب مزاياهم ، من تسامح وحب للأدب ، وحياة فيها مروءة ونبل ، كما قدموا أسوأ ما عندهم من عصبية للقبيلة ، وحب للظهور والفخفخة ، ورغبة فى التسرى ، وغير ذلك . وقدم الإسبان كذلك خير ما عندهم وأسوأ ما عندهم ، وكان المتولد من هذا الاختلاط حائزاً لصفات خاصة ، فهو ذكىّ متديّن متطرّف .

من أجل هذا الامتزاج رأينا كما ذكرنا الألفاظ العربية تدخل اللغة

الإسبانية والبرتغالية ، مثل : الخزانة ، الجبّة ، الدكان ، القاضى ، البراءة ، المخزن ، القطران ، الطاقة ، إلى كثير من أسماء الأشياء .

وكان للأندلسيين تقريباً لغتان : لغة فصحى يتكلم بها المثقفون الأرستقراطيون ولغة شعبية يتكلم بها الشعب فى لهجة خاصة . ولعلها أيضاً تكون خاصة بكل مدينة ، وهى لغة الشارع والبيوت ، ومن أجل ذلك لما اخترعت الموشحات والأزجال نجحت نجاحاً باهراً ، لأنها وجدت استجابتها من الشعب ، إذ رآها أقرب إلى التعبير عما فى نفسه ، وألطف من اللغة الفصحى وأظرف وأحسن فى التوقيع على الآلات الموسيقية ، وأنسب للمتجولين الذين ينشدون الأغانى يتكسبون بها . وكما تأثرت اللغة الإسبانية والبرتغالية بالعربية ، تأثرت العادات والتقاليد والفنون .

فالموسيقى العربية انتشرت بين سكان الإسبان فى الشمال ، حتى اسم العود وهو آلة الغناء العربى انتقل أيضاً ، وحتى يا ليل يا عين انتقلت كذلك .

وقد أفسحت الأمم الأوربيــة صدرها للحضارة العربية والعـلم العربى ، واستطاعت أن تفرق بين العلم والسياسة ، فبينما كانوا يحاربون المسلمين سياسياً ، كانوا يفسحون صدورهم للعلماء المسلمين ثقافياً . فالتاريخ يدلنا على أن عدداً من حكام قشتالة كانوا يحيطون أنفسهم بعلماء مسلمين ، ويستخدمون مهندسين مسلمين ، ويستمعون إلى موسيقيين مسلمين . وربما كان إمبراطور الألمان الذى ذكرناه فى فلسفة ابن رشد مثالا صالحا على تفرقتهم بين السياسة والعلم . ولولا إلحاح القسس فى مصادرة المسلمين والتنكيل بهم ، وإجبارهم على التنصر لا استفادوا من المسلمين فوائد أكبر مما استفادوا .

لقد بدأ فرديناند وإيزابلاّ يعاملان المسلمين معاملة حسنة بعد سقوط البلاد فى أيديهما ، تبعاً لتقاليدهما المتوارثة فى التسامح . ولـكن بعد سبعة أعوام من

سقوط البلاد ، وبسبب إلحاح القسس والضغط على المسيحيين فى سوء معاملة المسلمين ، اضطر فرديناند وإيزابلا أن يهجرا تسامحهما ، ويخيّرا المسلمين فى الأندلس بين التنصر والخروج من البلاد ، فآثر نحوُ نصف مليون مسلم الخروج ؛ وبخروجهم انحطت الزراعة والصناعة انحطاطاً كبيراً ، وكادت الأعمال تقف .

ومرّت قرون على الإسبان حتى استطاعوا أن يقوموا بالأعباء التى كان يقوم بها المسلمون . فهل بعد هذا كله يصح أن يقال : إن امتلاك المسلمين للأندلس كان كارثة على إسبانيا ؟

لقد رأينا تأثير المسلمين فى أوربا ، فيترجم ألف ليلة وليلة مرات عديدة ، ويتسلَّى به ، ويقتبس منه . وتنقل قصة حى بن يقظان لابن طفيل إلى كثير من اللغات الأوربية ، وتكون ذات تأثير على المثقفين من الأوربيين ، كتأثير ألف ليلة على الشعب . فهذه أدلة مادية على استفادة أوربا من المسلمين . كما أننا نرى أن الأدب الأوربى ظهرت فيه نزعة جديدة على أثر انتشار الأدب الأندلسى العربى بين الأوربيين . ويظن الكثيرون أن هذه الظاهرة نشأت من الاقتباس من الأدب العربى الذى تظهر فيه الرومانتيكية البالغة فى الغزَل الرقيق والرثاء الباكى ، ونحو ذلك .

هذا عدا التأثير الفلسفى الذى أثرته الأندلس فى أوربا والذى ذكرناه فى أثر فلسفة ابن رشد ، فقد كانت فلسفته مشعلا يسار به فى جميع أنحاء البلاد . نعم : إن الحضارة الأوربية استمدت حضارتها وثقافتها على الوجه الأكمل من كتب اليونان والرومان أنفسهم . ولكنهم فى الحق لم يلتفتوا إلى المصادر اليونانية والرومانية إلا لأن العرب بفلسفة ابن رشد وشروحه على أرسطو وأمثال ذلك ، فتحوا شهيتهم لقراءة الكتب اليونانية والرومانية فى أصولها . والذى يشك فى

ذلك يجب أن يقارن بين قرطبة وإشبيلية وغرناطة وغيرها من مدن الأندلس فى أيام ازدهارها ، و بين المدن الأوربية فى ذلك الزمن . وليكن منصفاً فى المقارنة : أيها كان أرقى علماً ، وأحسن حضارة ، وأسمى تقدماً ؟ هل يساوره شك فى أن الأولى كانت كلها أرقى من الثانية ، وأن بعض المؤرخين شبّه مدن الأندلس وسائر الممالك الأوربية فيّنا ، بين بلاد البلقان كلها .

ومما استوجب النظر ظهور الموشحات والأزجال فى الأندلس ، ثم ظهور شعر يشبهه عند الأسبانيين فى الشمال ، وفى مقاطعة بروڤانس فى جنوب فرنسا وسمى هذا النوع عندهم التروبادور . و يمتاز هذا الشعر بأنه شعر عاطفى يوقّع على الآلات الموسيقية ، و يقصدون به البيوت الأرستقراطية ، والبلاط الملوكى . وقد اختلف المستشرقون والباحثون كثيراً فى منشأ هذا الشعر : هل هم أخذوه عن مسلمى الأندلس ، أم إنه تطوُّر للشِعر عندهم تطوراً طبيعياً ؟ والأرجح عند كثير منهم أنه مأخوذ من مسلمى الأندلس . لأن الشبه فى الموضوعات واحد ، و بعض أوزان هذا الشعر الإفرنجى يساوى أوزان الموشحات والأزجال العربية ، مما لم يكن للأوربيين معرفة به من قبل ، كما أنهم اختلفوا فى اشتقاق الكلمة فذهب بعضهم إلى أنه مأخوذ من Trouvére بمعنى ابتدع ، وفى ظنى أن أصله « دور طرب » . و إذ كان الإفرنج يقدمون الصفة على الموصوف والمضاف إليه على المضاف قالوا : طرب دور ، وسهل تحريفها إلى ترو بادور .

☆ ☆ ☆

وقد عرف العالم الإسلامى المدارس من قديم ، ومنها ما كانت مدارس كبيرة تشبه الجامعات ، كالجامع الأزهر والمدرسة النظامية والمستنصرية وغيرها . وقد انتقلت صورة هذه الجامعات إلى الأندلس ، ثم رأينا صورها تظهر فى أور با ،

ويتشابه شكلها جميعاً ، من طرق تدريس ومنح إجازات وتقسيم العلوم إلى فروع ونحو ذلك ، بل أكثر من ذلك كان بعض الجامعات الأوربية يعتنى اعتناء كبيراً باللغة العربية ومنتجاتها . ويصرح بعضهم بأن من لم يثقف ثقافة عربية فليس بمثقف . ومن الراجح أن الحديث يكون مقتبساً من القديم حتى تشابهت الصور . غاية الأمر أن ما عرف عن أوربا الحديثة من التنظيم والدقة فيه ، وإدخال التحسينات الممكنة ، جعل الجامعات الأوربية اليوم هى موضع أنظار الشرقيين ، حتى كأنها نَبْتُ أيديهم . ومثل ذلك مثل القطن يأخذونه من الشرق خاماً ، ويردونه نسجاً جميلا ، كأن لا صلة بينه وبين أصله . وحتى النرد والشطرنج اقتبسها العرب من الفرس وأدخلوا عليهما تحسينات . ثم انتقلت اللعبتان بما فيهما من تحسين إلى أوربا . مع الاحتفاظ ببعض الأسماء العربية . وتوجد مخطوطة لألفونسو الحكيم فيها رسم لعبة شطرنج معقدة ، يمارس اللعب عليها بعض المسلمين . ولم تكن اللعبة بحالتها معروفة عند الأوربيين من قبل .

وكما انتفع الأندلسيون بعلوم المشرق ومنتجاته ، ونفعوا أوربا بعلومهم ومنتجاتهم ، كذلك ردوا الجميل للمشارقة . فكان خير المنتجات الأندلسية شائعاً فى الشرق ، ومصدر علم لهم . فكم انتفع المشارقة بالعقد وظرفه ، والمخصّص والمحكم ومنهجهما فى اللغة ، وابن رشد وفلسفته ، والموشحات وطرافتها ؛ مما لا يمكن أن يعد ولا يحصى . ولذلك قلنا إن الأندلس بعد ما نضجت على يد الشرق ردت للشرق جميله . فلو لم تقم الحضارة الأندلسية بعلومها وفنونها وآدابها ثمانية قرون ، تعمل جاهدة فى خدمة العلم والأدب ، لتغير تاريخ العلم الإسلامى .

خاتمة

فتح العرب الأندلس وظلوا فيها ثمانية قرون ، وهم من يوم حلولهم بها ، قد بذروا بذور قوتهم وضعفهم ، فمن يوم أن حلوا فيها ظهرت العصبية اليمنية والمضرية ، ووقع النزاع بين الفريقين . حتى جاء عبد الرحمن الداخل ، فاتخذت العصبية لوناً آخر ، فقد تعصب لفريق دون فريق ، ووجد فى الأندلس من يعمل لحساب الدولة العباسية فى بغداد ضد الأمويين فى الأندلس ، وثارت من أجل ذلك فتن أضعفت خلفاء الأندلس ، ثم جاءت الدولة العامرية ، فعملت على إسقاط الدولة الأموية ، وانقسم مسلمو الأندلس إلى متعصب للأمويين ، ومتعصب للعامريين . ثم انفرط عقد الأندلس وحكمها ملوك الطوائف ، فكل من كان قادراً قفز إلى بلد وتغلب عليها ، وأصبح أميراً . كل هذا أثر فى الأندلس من الداخل وحل عراها ، والإسبانيون الذين فى شمالى الأندلس لم ينسوا أبداً منذ عهد الفتح أنه بينهم وبين المسلمين ثأر ، وأنه لا بد أن يتغلبوا عليهم ، وكلٌّ يدعى أنهم المؤمنون ، وأن عدوهم هم الكافرون . وطوبى للمؤمن إذا جاهد ضد الكافر ، فكانت الحرب بين الفريقين سلسلة لا تنتهى ، وكانت سجالا ، يوم لهؤلاء ويوم لهؤلاء ، ونصارى الإسبان يعتمدون من الخارج على كل المسيحيين فى أوربا وعلى رأسهم البابا ، ومسلمو الأندلس يعتمدون أيضاً من الخارج على المرابطين والموحدين فى المغرب ، بل وعلى صلاح الدين وبايَزِيد . ولكن كانت نجدة أوربا المسيحية للإسبانيين أشد وأبقى . فما لبثوا أن تغلبوا . وزاد الأمر سوءاً أن أن ولاة المسلمين كانوا ينقسمون على أنفسهم ، فوالى قرطبة يعادى والى إشبيلية وهكذا . بل إن بيت الإمارة الواحد كان منشقاً على نفسه ، بحكم انحلال البيت باختلاف الأمهات

بين حرائر وسرارى ، واختلاف السرارى إلى أصول متعددة . فكان من نتيجة ذلك أن البيت إذا انشق التجأ بعض المسلمين إلى أمراء النصارى — كما ذكرنا — يستنجدونهم على عدوهم من أقاربهم . والعدو ينتفع بنصرة هذا على ذاك ، أو ذاك على هذا . وفى تاريخ الأندلس أمثلة كثيرة من هذا القبيل .

نعم : إن بعض النصارى وقع فى مثل هذه المحنة ، فالتجأ بعضهم إلى أمراء المسلمين يستعينون بهم ضد أهلهم وذويهم . ولكن ذلك لم يكن بالكثرة ولا بالقسوة التى نشاهدها فى العداء بين المسلمين بعضهم و بعض .

قلنا إن المسلمين منذ الفتح كانوا يحملون أسباب قوتهم وضعفهم ، فهم أمجاد أذكياء ، شم الأنوف ، كرام شجعان ولكنهم فرديون لا اجتماعيون ، عنجهيون لا مطيعون ، تغلب فيهم الفخفخة وحب اللذائذ ، على الجد والصرامة ، فلما اختلطت هذه المزايا بتلك المعايب ، أنتج هذا الامتزاج حضارة رائعة ، وسقوطا شنيعاً . وكان سقوط الأندلس أول حادث فشل من نوعه للمسلمين ، فبكوا كثيراً ورثوا بلادهم كثيراً ، وذلوا كثيراً ، واشرأبوا إلى أن يعيدوا مملكتهم إلى حوزتهم طويلا ، ولكن هيهات !

لقد كان بكاء أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة بكاء حاراً شديداً . وقد صدق إذ قال : « دعوا دماً ضيعه أهله » .

لقد توقع كثير من العلماء والفقهاء والحكماء هذه النتيجة البائسة ، فكانوا تارة يحاولون أن يوفقوا بين المتخاصمين ، وتارة يحاولون أن يستنجدوا بما وراء الأندلس ، وتارة بنقل بعض الخارجين من الإسبانيين من الإسبان إلى المغرب اتقاء لشرهم . ولكن ذلك كله لم ينجح ، لأن عوامل السقوط داخليا وخارجياً كانت أشد من عوامل الالتئام . فسقطت تنعى من بناها . وخلفت ثروة كبيرة

ذابت فيما بعد ، ولم ينفع البكاء والعويل إذ ماذا تنفع العواطف أمام السيف والنار .

وسنة الله فى خلقه أن الضعيف على أى شكل كان ، يذهب هباء أمام القوة كائنة ما كانت ، والشاعر العربى كان حكيما إذ يقول :

تعوى الذئاب على من لا كلاب له
وتتّقى صولة المستأسد الضارى

ولاة الأندلس[1]

من عهد الفتح

الاسم	السنة الهجرية
طارق بن زياد	٩٢
موسى بن نصير	٩٤
عبد العزيز بن موسى بن نصير	٩٥
أيوب بن حبيب اللخمى	٩٧
الحرّ بن عبد الرحمن الثقفى	٩٨
السّمح بن مالك الخولانى	١٠٠
عبد الرحمن الغافقى	١٠٢
عنبسة الكلبى	١٠٥
عُذرة الفهرى	١٠٧
يحيى بن سلمة الكلبى	١٠٧
حذيفة بن الأحوص	١١٠
عثمان بن أبى نِسعة الخثعمى	١١٠
الهيثم بن عبيد الكنانى	١١١
محمد بن عبد الملك الأشجعى	١١٢
عبد الرحمن الغافقى (ثانياً)	١١٢
عبد الملك بن قطن	١١٤
عقبة بن الحجاج	١١٦
عبد الملك بن قطن (ثانياً)	١٢٢
بَلْج بن بشر الكشيرى	١٢٣
ثعلبة بن سلامة العاملى	١٢٤
الحسام بن ضرار الكلبى	١٢٥
يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب	١٣٠

ووصل عبد الرحمن الداخل إلى بلاد الأندلس سنة ١٣٨ هـ .

---

(١) مقتبس من « معجم الأنساب والأسرات الحاكمة » تأليف المستشرق زامباور .

الأمويون

الاسم	السنة الهجرية
عبد الرحمن الداخل	١٣٨
هشام الأول بن عبد الرحمن	١٧٢
الحكم بن هشام	١٨٠
عبد الرحمن الثانى بن الحكم	٢٠٦
محمد الأول بن عبد الرحمن	٢٣٨
المنذر بن محمد	٢٧٣
عبد الله بن محمد	٢٧٥
عبد الرحمن الناصر بن محمد	٣٠٠
الحكم الثانى بن عبد الرحمن الملقب بالمستنصر	٣٥٠
هشام الثانى بن الحكم الملقب بالمؤيد	٣٦٦
محمد الثانى بن هشام	٣٩٩
سليمان بن الحكم الملقب بالمستعين	٤٠٠
محمد الثانى (ثانيا)	٤٠٠
هشام الثانى (ثانيا)	٤٠٠
سليمان الثانى (ثانيا)	٤٠٧
على الناصر بن حمُّود	٤٠٧
عبد الرحمن الرابع بن محمد الملقب بالمرتضى	٤٠٨
القاسم المأمون بن حمود	٤٠٨
يحيى المعتلى بن على بن حمود	٤١٢
القاسم (ثانيا)	٤١٣
عبد الرحمن الخامس بن هشام الملقب بالمستظهر	٤١٤
محمد الثالث بن عبد الرحمن الملقب بالمستكفى	٤١٤
يحيى بن على بن حمود (ثانيا)	٤١٦
هشام بن عبد الرحمن الرابع الملقب بالمعتد	٤١٨ — ٤٢٢

ملوك الطوائف — العهد الأول

بنو حَمُّود

الاسم	السنة الهجرية
على بن حمود الملقب بالناصر لدين الله	٤٠٧
القاسم المأمون بن حمود	٤٠٨
يحيى بن على بن حمود الملقب بالمعتلى بالله	٤١٢
القــاسم « للمرة الثانية »	٤١٣
يحيى بن ؟ « »	٤١٦
إدريس الأول بن على الملقب بالمتأيد بالله	...
الحسن بن يحيى بن على الملقب بالمستنصر بالله	...
إدريس الثانى بن يحيى	...
محمد الأول بن إدريس	...
إدريس الثالث بن يحيى	...
إدريس الثانى « للمرة الثانية »	٤٤٥
محمد بن إدريس الملقب بالمستعلى بالله	...

(وهنا فتحها المرابطون)

بنو حمّود بالجزيرة

الاسم	السنة الهجرية
محمد بن القاسم بن حمود الملقب بالمهدى	٤٣١
القاسم بن محمد بن القاسم	٤٤٠

(ثم فتحها بنو عباد سنة ٤٥٠)

بنو عبّاد بإشبيلية

الاسم	السنة الهجرية
محمد الأول بن إسماعيل بن قريش بن عباد	٤١٤
عباد بن محمد الملقب بالمعتضد	٤٣٤
محمد الثانى المعتمد بن عباد « الأديب المشهور تولى سنة ٤٦١، ومات سنة ٤٨٨ » ...	...

(ثم فتحها المرابطون سنة ٤٨٤)

بنو زِيرى بغرناطة

الاسم	السنة الهجرية
زاوى بن زيْرى	٤٠٣

الاسم	السنة الهجرية
حَبّوس المظفر الصنهاجي	٤١٠
باديس بن حبوس	٤٣٠
عبد الله بُلُكّين بن حبوس	٤٦٦
تميم بن بلكين	٤٨٣

(ثم فتحها المرابطون)

بنو برزال بقرمونة

الاسم	السنة الهجرية
إسحاق	...
عبد الله بن إسحاق	...
محمد بن عبد الله	...
العزيز المقتدر	٤٣٤
رُنْدة	...
أبو نور بن أبي قرة	٤٠٥
أبو نصر بن أبي نور	٤٤٥

(ثم ضمت إلى مملكة إشبيلية)

مُورُون

الاسم	السنة الهجرية
نوح	٤٠٤
أبو مُناد محمد بن نوح	٤٣٣

(ثم ضمت إلى مملكة إشبيلية)

أرْكُشْ

الاسم	السنة الهجرية
ابن خَزْرون	...

(ثم ضمت إلى مملكة إشبيلية سنة ٤٤٥)

وَلْبَة وشَلْطيش

الاسم	السنة الهجرية
محمد بن أيوب بن عامر	...
أبو المصعب عبد العزيز	٤٠٢

(ثم ضمت إلى مملكة إشبيلية ٤٤٣)

لَبْـــلَة

بنو يحيى

الاسم	السنة الهجرية
أحمد بن يحيى اليَحْصُبى	٤١٤
محمد بن يحيى	٤٣٣
فتح بن خلف بن يحيى	...

(ثم ضمت إلى مملكة إشبيلية ٤٤٣)

شنْتَمرية

الاسم	السنة الهجرية
أبو عثمان سعيد بن هارون	٤٠٧
محمد بن سعيد	٤٣٥

(ثم ضمت إلى مملكة إشبيلية سنة ٤٤٤)

بنو جهور بقرطبة

الاسم	السنة الهجرية
أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور	٤٢٢
أبو الوليد محمد بن جهور	٤٣٥
عبد الملك بن محمد	٤٥٠

بنو الأفطس ببطَلْيوس

الاسم	السنة الهجرية
أبو محمد عبد الله المنصور	٤١٣
المظفر أبو بكر محمد بن عبد الله	٤٣٧
المتوكل أبو حفص عمر بن محمد	٤٦٠
المنصور يحيى بن محمد	٤٧٣

(ثم فتحها المرابطون سنة ٤٨٧)

بنو ذى النون بطليطلة

الاسم	السنة الهجرية
يعيش بن محمد	٤٠٠
إسماعيل الظافر بن عبد الرحمن	٤٢٧
أبو الحسن يحيى المأمون بن إسماعيل	٤٢٩
القادر يحيى بن إسماعيل بن المأمون	٤٦٧

العامريون ببلنسيه

الاسم	السنة الهجرية
مبارك الصقلبى ثم المظفر	٤٠٠
عبد العزيز المنصور بن عبد الرحمن الناصر بن أبى عامر	٤١٢
عبد الملك المظفر بن عبد العزيز المنصور	٤٥٣
المأمون الطليطلى	٠٠٠
القادر الطليطلى	٠٠٠
أبو بكر بن عبد العزيز المنصور	٤٦٨
القاضى عثمان بن أبى بكر	٤٧٨
القادر الطليطلى « للمرة الثانية »	٤٧٨
القاضى جعفر بن عبد الله بن جحّاف	٤٨٢

(ثم فتحها المرابطون سنة ٤٩٥)

بنو صمادح بالمريّة

خيران	٤٠٠
عميد الدولة أبو القاسم زهير	٤٤٩

(ثم ضمت إلى بلنسيه)

مُرسيه

خيران صاحب المريّة	٤٠٧
زهير صاحب المرية	٤١٩
عبد العزيز البلنسى	٤٢٩
عبد الملك البلنسى	٤٥٣
محمد بن أحمد بن زهير	٤٥٥

بنو هود بسَرَقسطة

أبو أيوب سليمان المستعين بن هود	٤٢١
سيف الدولة المقتدر بن سليمان	٤٣٨
يوسف المؤتمن بن أحمد	٤٧٤
عبد الملك عماد الدولة بن أحمد	٥٠٣
أحمد سيف الدولة المستنصر بن عبد الملك	٥١٣

بنو نصر بغرناطة

الاسم	السنة الهجرية
أبو عبد الله محمد الغالب بن يوسف بن نصر	٦٢٩
أبو عبد الله محمد الثانى الفقيه بن محمد الأول	٦٧١
أبو عبد الله محمد الثالث بن محمد الثانى	٧٠١
أبو الجيوش نصر بن محمد الثانى	٧٠٨
أبو الوليد إسماعيل بن فرج	٧١٣
محمد الرابع بن إسماعيل	٧٢٥
أبو الحجاج يوسف الأول بن إسماعيل	٧٣٣
محمد الخامس بن يوسف	٧٥٥
أبو الوليد إسماعيل الثانى بن يوسف	٧٦٠
أبو سعيد محمود بن إسماعيل	٧٦١
محمد الخامس « للمرة الثانية »	٧٦٣
أبو الحجاج يوسف الثانى بن محمد الخامس	٧٩٣
محمد السابع بن يوسف الثانى	٧٩٧
أبو الحجاج يوسف الثالث بن يوسف الثانى	٨١٠
محمد الثامن بن يوسف الثالث	٨٢٠
محمد التاسع بن نصر	٨٣١
محمد الثامن « للمرة الثانية »	٨٣٣
أبو الحجاج يوسف الرابع بن محمد السادس	٨٣٥
محمد الثامن « للمرة الثالثة »	٨٣٥
محمد العاشر الأحنف بن عثمان	٨٤٨
سعد بن على	٨٤٩
محمد العاشر « للمرة الثانية »	٨٥٠
سعد « للمرة الثانية »	٨٥٧
أبو الحسن على بن سعد	٨٦٦
محمد الحادى عشر بن على	٨٨٧
على « للمرة الثانية »	٨٨٨
محمد الثانى عشر بن سعد الزَّغَل	٨٩٠
محمد الحادى عشر « للمرة الثانية »[1]	٨٩٢

(ثم استولى فرديناند وإيزابلا على غرناطة)

(١) هاجر هذا الملك إلى تلمسان ومات بها .



مملكة غرناطة
وتقسيمات الجزيرة الاندلسية
فى القرن الرابع عشر المسيحى
مملكة افرانسة
روسيليون
مملكة
اراغون
برشلونة
طراكونة
مملكة ميورقة
منورقة
ميورقة
يابسة
بلنسية
مملكة
قشتاله
وليون
مملكة البرتغال
غرناطة
المرية
مالقة
جبل طارق



المراجع العامة للكتاب

نفح الطيب .
دائرة المعارف الإسلامية .
المكتبة الأندلسية .
بغية الوعاة فى أخبار النحاة : السيوطى .
مقدمة ابن خلدون .
المُغرب : لابن سعيد .
العقد الفريد وما إليه : لجبريل جبور .
الأمالى لأبى على القالى .
الشعر الأندلسى : للأستاذ نيكل .
مطمح الأنفس .
قلائد العقيان : الفتح بن خاقان .
تاريخ ابن عذارى .
المعجب فى أخبار المغرب : لعبد الواحد المراكشى .
أخبار الحكماء : القفطى .
طبقات الأطباء : لابن أبى أصيبعة .
ابن رشد وفلسفته : للأستاذ فرح أنطون .
الأغانى : لأبى الفرج الأصفهانى .
العقد الفريد : لابن عبد ربه .
بحوث فى تاريخ إسبانيا : لدوزى .
الفصَل فى الملل والنحل : لابن حزم .
الملل والنحل : للشهرستانى .
الفتوحات المكية : لابن عربى .
العواصم من القواصم : لأبى بكر بن العربى .
تاريخ الموسيقى العربية : لريبيرا .
بداية المجتهد ، ونهاية المقتصد : لابن رشد .
الفكر السامى : فى الفقه الإسلامى للحجوى .
تاريخ الفقه الإسلامى : للشيخ الخضرى .
تهافت الفلاسفة : للغزالى .
تهافت التهافت : لابن رشد .

فصل المقال فيما بين الشريعة والفلسفة من الاتصال : لابن رشد .
الإمتاع والمؤانسة : لأبي حيان التوحيدى .
الجمهورية : لأفلاطون .
حى بن يقظان : لابن طفيل .
رحلة ابن جبير .
رحلة ابن بطوطة .
اختراق الآفاق : للشريف الإدريسى .
روبنسن كروسو .
الزهرة : لابن داود .
طوق الحمامة : لابن حزم .
تراث الإسلام : ترجمة لجنة الجامعيين .
الحلل السندسية : لشكيب أرسلان .
شرح المقامات للحريرى : للشريشى .
سراج الملوك : للطرطوشى .
وفيات الأعيان : لابن خلكان .
فوات الوفيات .
بلاغة العرب فى الأندلس : للدكتور أحمد ضيف .
النثر الفنى : للدكتور زكى مبارك .
المخصص : لابن سيده .
تاريخ الفلسفة فى الإسلام ترجمة الأستاذ أبى ريدة .
ديوان ابن زيدون .
ديوان ابن هانئ .
الإحاطة فى أخبار غرناطة : للسان الدين بن الخطيب .
معجم الأنساب والأسرات الحاكمة : لزانباور ، ترجمة الدكتور زكى حسن وآخرين .
الذخيرة : لابن بسام .
الجامعة : لمسلمة المجريطى .
التوابع والزوابع : لابن شهيد .
تاريخ العرب : لبروكلمان .
الأخلاق والسير : لابن حزم .
ابن حزم : للأستاذ سعيد الأفغانى ومعه كتاب فضائل الصحابة لابن حزم أيضاً .
الرسالة الهزلية والرسالة الجدية : لابن زيدون .
شرح قصيدة ابن بدرون : لابن عبدون .
أطلس فنى : لآثار الحمراء .
سرح العيون ، فى شرح رسالة ابن زيدون .

قصة الأندلس : لِلين بول .

رسائل مخطوطة : لابن سبعين

رسالة الشعوبية : لابن غرسية

تاريخ الآداب الأندلسية : للمؤلف آسين بلاثيوس ، ترجمة الدكتور حسين مؤنس .

رواية آخر بنى سراج وذيلها : لشكيب أرسلان .

الإحكام فى أصول الأحكام : لابن حزم .

المكتبة الجغرافية .

جذوة المقتبس : للحميدى .

أزهار الرياض : للمقرى .

الروض المعطار .

نهاية الأندلس : للأستاذ محمد عبد الله عنان .

تاريخ إسبانيا المسلمة : لدوزى بالإنجليزية .

فهرس الأعلام والكُنى والألقاب

(حرف الألف)

(حرف الباء)

(حرف الراء)

(حرف الزاى)

(حرف السين)

(حرف الشين)

(حرف الصاد)

(حرف الطاء)

(حرف العين)

(حرف الغين)

(حرف الفاء)

(حرف القاف)

(حرف الكاف)

(حرف اللام)

(حرف الميم)

(حرف النون)

(حرف الهاء)

(حرف الواو)

(حرف الياء)

فهرس الأماكن والبلدان

(حرف الميم)

(حرف النون)

(حرف الواو)



موسوعة أحمد أمين الإسلامية

ظهر الإسلام

الجزء الرابع

تأليف

أحمد أمين



مقدمة

بقلم الدكتور أحمد فؤاد الاهوانى

للكتب التى تنشر بعد وفاة المؤلف منزلة خاصة ، ويُعْنى بها المؤرخون أعظم عناية ، وبخاصة إذا كان صاحبها من الأعلام المشهورين . ولا نزاع فى أن أحمد أمين من أعلام المفكرين فى مصر فى الربع الثانى من القرن العشرين . وإنما جاءت العناية بهذه الكتب « اللاحقة » — أعنى اللاحقة لوفاة المؤلف — من أنها فى الغالب تعبر عن آراء المؤلف بعد نضوجه ، فهى أعلى من الكتب التى سبق أن نشرها فى حياته . ولكن كثيراً ما يكون المؤلف قد ترك الكتاب ناقصاً ، لم يتم فصوله ، وعندئذ لا يرى أصدقاؤه وتلاميذه بأساً من نشر الكتاب كما هو ، مثل تمثال فينوس . وآخر ما رأيت فى هذا الباب كتاب « مبادئ الحكمة » للأستاذ كورنفود ، العالم المشهور فى الفلسفة اليونانية ، توفى وترك الكتاب فى خمسة عشر فصلا ، وحتى هذا الفصل الأخير ناقص ، وترك كذلك مذكرات ومسودات لفصلين آخرين ، فبادر الأستاذ جوترى بنشر هذا الكتاب على ما فيه من نقص .

ومن جملة الأسباب التى تجعل المؤرخين يحفلون بوجه خاص بالكتب التى تركها المؤلف مسودات دون أن تنشر ، ودون أن تكمل ، هو النظر فى الطريقة التى كان يتبعها المؤلف فى التأليف ، أو هذه العملية التحضيرية التى لا يشهدها القارئ الذى لا يرى إلا كتاباً كاملا فيه خلاصة الاطلاع على مراجع كثيرة ، وفيه آراء ناضجة لا يعرف أن وراءها ذخيرة واسعة من آراء لجة هجرها صاحبها .

(٤)

وحين رجانى أبناء أحمد أمين القيام بنشر هـذا الـكتاب ، ترددت أول الأمر ، لأن مهمة تعديل كتاب و إخراجه مهمة علمية شاقة ، وأمانة تاريخية ثقيلة .

وقد قبلت آخر الأمر هذا العمل ، لأنه قبل كل شيء واجب مفروض ، فهو واجب علىّ أن أقوم به كتلميذ لأحمد أمين ، وكمواطن مصرى ومفكر عليه أن يبرز أثراً لمفـكر عظيم من مفـكرى الشرق .

كنت تلميذاً لأحمد أمين على الحقيقة ، ففى أول عام انتقل فيه إلى الجامعة المصرية — جامعة القاهرة الآن — وكان ذلك سنة ١٩٢٧ ، أخذت عليه درساً فى اللغة العربية ، أذكر أنه كان فى « المعاجم » . وقد بهرتنى فى ذلك الحين طريقته فى البحث والعرض ، وهى الطريقة ذاتها التى يتبعها فى كتبه ومقالاته ، من الإحاطة الشاملة ، ووضوح العرض ، و بساطة الأسلوب ، ونفاذ الفـكر .

ولم تنقطع صلتى به بعد ذلك ، و بخاصة فى لجنة التأليف حيث كان يرأس جلسة أدبية مساء كل خميس .

* * *

فلما اضطلعت بإخراج هذا الجزء من ظهر الإسلام ، رأيت أن أحتفظ ما أمكن بالأصل خشية التزييف على التاريخ ، اللهم إلا ما لم يكن منه بد .

أقول إن الأصل لم يكن بخط أحمد أمين ، فقد جرت عادته فى أواخر حياته ، بعد أن أصيب بضعف بصره ، أن يملى . وكان قد دفع ما كتب إلى شخص كتبه على الآلة الـكاتبة ، فبلغ عدد صفحات الـكتاب ١٧٩ صفحة ، بدأه بالتمهيد وختمه بالمراجع . ولـكن يبدو أن أحمد أمين لم يتسع وقته للنظر فى هذه الأصول ، ومراجعتها ، وتعديل ما يريد أن يعـدله فيها ، و إضافة ما يراه لازماً بعد القراءة الأخيرة .

ولم يكن فى الأصل عنوان للفقرات ، إذ كان يترك محلها بياضاً ليضع العنوان المناسب عند الطبع ، أو عند المراجعة قبل دفع الأصول إلى المطبعة .

وقد قمت بوضع العناوين التى تستخلص من روح الموضوع .

وحذفت الباب الرابع عن « المرجئة والخوارج » من صلب الكتاب ، وألحقته بآخر الكتاب ، لأنهما صفحتان لا تصلحان أن تكونا باباً على حدة ، ولذلك قلت بعد تقسيم الفرق الرئيسية ص ٣ : « وسنفصل الكلام على كل منها ، ما عدا الخوارج والمرجئة ، لأن أصحابها انقرضوا ، وماتت مذاهبهم فى القرن الرابع الذى نتحدث عنه » .

كما أضفتُ المقدمة التقليدية التى يستهل بها أحمد أمين كتُبه — بعد أن تشربت أسلوبه — ، و يبدؤها بالبسملة ، و يستعرض فيها منهجه فى البحث والموضوعات التى سيتناولها .

وفيما عدا ذلك فالحذف والإضافة يسيران جداً لا يزيدان على لفظة ، أو عبارة . وكذلك أضفت بعض الهوامش ، ولم أتوسع فيها حتى لا يخرج الكتاب عن روحه وأصله .

وتستطيع بذلك أن تطمئن إلى أنَّ الكتاب الذى تقرؤه صورة صحيحة لتأليف أحمد أمين ، وأنه آخر شىء ألَّفه قبل وفاته .

* * *

لم يظفر كتابٌ من الذيوع والانتشار والتأثير بمثل ما ظفرت به مجموعة الكتب التى أصدرها أحمد أمين حين أصدر « فجر الإسلام » عام ١٩٢٩ ، وتبعها بضحى الإسلام فى ثلاثة أجزاء ، ثم الظهر فى أربعة أجزاء . فقد طبعت أجزاؤه الأولى ست مرات ، كل طبعة منها بضعة آلاف . وأصبح الفجر والضحى والظهر مرجع

كل طالب ، ومرشد كل باحث ، والمنارة التى يهتدى بها الناظر فى التاريخ الإسلامى وحضارته .

فقد درج العرب على تأريخ حوادثهم فى حوليات كما نرى فى الطبرى وابن الأثير وغيرهما ، فيذكرون الأحداث من شتى نواحيها ، يختلط فيها التاريخ المحض السياسى بالأدب والعلم والدين ، ولم يعرف أحد من المتقدمين طريقة كتابة التاريخ الحديثة ، اللهم إلا ابن خلدون الذى صور فى مقدمته كيف ينبغى أن يكتب التاريخ ، حتى إذا شرع فى تدوين تاريخه سار على نهج القدماء .

أما تاريخ الحضارة بمعنى الكلمة فلم يعرفوا عنه شيئاً . فإذا أراد باحث اليوم أن ينهض لتصوير الحضارة الإسلامية فى مختلف عصورها ، مع بيان العناصر المكونة لها ، والظروف التى أدت إلى ظهورها ، كالعوامل الجغرافية والسياسية والاجتماعية والأدبية والاقتصادية ، فلن يجد شيئاً من ذلك واضحاً فى الكتب القديمة . ذلك أن القدماء كانوا يتصورون أن الأدب هو الأخذ من كل شىء بطرف ، فترى الجاحظ يكتب فى البيان والتبيين تفسير آية إلى جانب حكاية للشعراء ، وينتقل منها إلى رأى لصاحب المنطق ، وهكذا . وكذلك الحال فى الأمالى أو نهاية الأرب ، وغير ذلك من كتب الأدب ، أو التاريخ ، فكلها استطراد لا نظام فيها .

لذلك كانت مهمة مؤرخ الحضارة الإسلامية مهمةً شاقة عسيرة ، تحتاج إلى إحاطة شاملة بكثير من العلوم ، من تفسير وحديث وتاريخ وفقه وأدب واجتماع واقتصاد وفلسفة وعلم كلام وتصوف ، وعلى الجملة كافة العلوم المكونة للحضارة .

ويحتاج المؤرخ بعد هذه الإحاطة الشاملة إلى تنظيم جديد لهذه المادة الواسعة التى جمعها . وهذا التنظيم عقلىٌّ ، وتتجلى فيه أصالة المفكر ورجاحة عقله ، لأن

الأفـكار ليست كالأمور المادية المحسوسة التى تشاهد بالحواس ، بل هى أعلى من الظواهر الحسية ولا تدرك إلا بالعقل . وقد لمس أحمد أمين هذه الصعوبة فى كتابة تاريخ الفكر الإسلامى ، فقال فى مقدمة الجزء الأول من « ضحى الإسلام » :
« لعل أصعب ما يواجهه الباحث فى تاريخ أمة هو تاريخ عقلها فى نشوئه وارتقائه ، وتاريخ دينها وما دخله من آراء ومذاهب . ذلك أن مدار البحث فى المسائل المادية وما يشبهها واضح محدود ، وما يطرأ عليها من تغير ظاهرٌ جلىٌّ . أما الفكرة فإذا حاولت أن تعرف كيف نبتت ، وكيف نمت ، وما العوامل فى إيجادها ، وما العناصر التى غذتها ، وما الطوارئ التى طرأت عليها فعدلتها أو صقلتها ، أعياك ذلك ، و بلغ منك فى استخراجه الجهد ... » .

وفى هـذه العبارة القصيرة التى نقلناها يتضح الدستور العقلى الذى رسمه أحمد أمين لنفسه ليسير على نهجه فى تفصيل الحياة العقلية عند المسلمين ، منذ نشأتها حتى العصور الحديثة .

فهو يحلل بعقله العقلية الإسلامية فى تطورها .

والنظر بالعقل فى العقل هو الفلسفة على التحقيق . فقد قيل فى تعريف الفلسفة أمور كثيرة ، أشهرها ما ذكره المعلم الأول من أنها العلم بالعلل والمبـادىء الأولى . وقد انحصرت الفلسفة اليوم بعـد انفصال العلوم المختلفة عنها فى تحليل العقل البشرى . ولم يفعل أحمد أمين أكثر من ذلك ، حاول أن يلتمس العلل البعيدة التى غذَّت العقلية الإسلامية ونمتها وصقلتها وشكلتها فى شتى الصور على مر العصور . واقتضى منه هذا التحليل أن يرجع إلى العوامل الدينية المستمدة من الإسلام ، و إلى العناصر الدخيلة على المسلمين من الحضارة الفارسية والهندية ، ومن الفلسفة اليونانية ، وكيف تفاعلت هـذه العوامل كلها فى بوتقة الحضارة

الإسلامية ، وفعل أكثر من ذلك أنه نظر إلى العقل الإسلامى فشرَّحه ، فى حرية شديدة ، وانتقل من التحليل إلى الأفكار التركيبية التى انتهت إليها العقلية حتى تحققت فى الحياة ، واستوت فى مظاهر السلوك ، وبرزت فى الأقوال المسطرة ، والكتب المدونة ، والعلوم المنتشرة .

ومن هذا الوجه كانت لأحمد أمين فلسفةٌ أَبْرَزَها فى أعلى كتبه شأناً ، وهو فجر الإسلام وضحاه وظهره .

وتقوم هذه الفلسفة على أن الشرق يمتاز بظاهرة قوية أثرت تأثيراً عظيما فى حياته ، وصبغت تفكيره بصبغة غلبت على جميع أنظمته ، ذلك هو الإسلام الذى انتشر من أقصى الشرق فى الهند إلى أقصى الغرب فى الأندلس . فإذا شئنا أن نعرف حالنا اليوم ، وأن نتبين ما لنا من فلسفة ، أو ما ينبغى لنا أن تكون ، فعلينا أن نرجع إلى تلك الأصول الإسلامية البعيدة منذ ظهور الإسلام ، بل قبل ظهور الإسلام ، لنتبين الأسس التى قامت عليها ، والعوامل التى أدت إلى قيام الحضارات المختلفة . فالحاضر وليد الماضى ، والأمم تتبع فى تطورها سنة النشوء والارتقاء .

وقد التزم أحمد أمين فى بحثه أبواباً ثلاثة كان يفصلها عندما تناول الحضارة الإسلامية وما وراءها من عقلية موجهة لها بالكتابة ، وهذه الأبواب الثلاثة هى الناحية الاجتماعية ، ثم العلمية ، ثم الدينية .

وقد امتزجت هذه الأبواب الثلاثة فى الكتاب الأول فجر الإسلام ، لأن الحضارة لم تكن قد اتسعت ذلك الاتساع الذى بلغته فيما بعد . ولكنه حين كتب ضحى الإسلام قسمه ثلاثة أقسام أو ثلاثة أجزاء ، وهى المجموعة التى تفصل المائة الأولى من العصر العباسى ، من عام ١٣٢ إلى ٢٣٢ أى إلى خلافة الواثق لأنه كما يقول : « عصر يمتاز بلون علمى خاص ، كما أن له لوناً فى السياسة والأدب

خاصاً ، امتاز بغلبة العنصر الفارسى ، و بحرية الفكر إلى حد ما ، و بدولة المعتزلة وسلطانهم . و بتلوين الأدب من شعر ونثر لوناً احتذى على كر الدهور واختلاف العصور » .

وكذلك ظُهر الإسلام ، فالجزء الأول منه يبحث فى الحالة الاجتماعية ومراكز الحياة العقلية من عهد المتوكل إلى آخر القرن الرابع الهجرى ، والجزء الثانى يبحث فى تاريخ العلوم والآداب والفنون فى القرن الرابع ، والجزء الثالث الذى نقدمه الآن يبحث فى الحركات الدينية المختلفة . أما الجزء الخاص بالأندلس من ظهر الإسلام ، فهو جزء على حدة لامتياز الأندلس بحضارة من لون خاص ، وهو يبحث فى الحياة العقلية منذ فتح العرب للأندلس حتى خروجهم منه .

* * *

وقد تقول أين تعلم أحمد أمين الفلسفة ، وعلى أى الأشخاص أخذها وعرفها ؟ الحق أنه علم نفسه بنفسه ، إلى جانب نزوع فطرته إلى محبة الحق و إيثار الحكمة . وليست الفلسفة شيئاً آخر إلا معرفة الحقيقة لذاتها ، وطلب الحكمة ، مهما تعترض المرء من معوّقات تنشأ معظمها عن السير مع الهوى ، والتمسك بالتقاليد . فمنذ شروع أحمد أمين فى التأليف نرى أنه يترجم كتاب « مبادئ الفلسفة » وهو كتاب صغير الحجم جيد فى بابه يلخص معانى الفلسفة حديثاً مع ذكر فروعها المختلفة على وجه الإيجاز . وكان ذلك الكتاب من أوائل ما طبعته « لجنة التأليف والترجمة والنشر » . ثم نراه بعد ذلك يؤلف مع الأستاذ زكى نجيب محمود كتاب « قصة الفلسفة اليونانية » ثم « قصة الفلسفة الحديثة » ، وهو كتاب يستعرض تاريخ الفلسفة منذ أقدم عصورها حتى العصر الحاضر ، وقد ألف كذلك كتاباً منذ نحو ربع قرن مضى فى الأخلاق للمدارس الثانوية بسط فيه المذاهب الأخلاقية المختلفة .

فهذا الاتجاه فى التأليف الفلسفى وفى ترجمة الكتب الفلسفية ينبئ عن نزعة فلسفية أصيلة أشربت بها نفسه منذ عهد بعيد . فليس من الغريب حين يؤلف فى العقلية الإسلامية أن يصطنع مناهج الفلاسفة ويتأثر خطاهم فى التفكير ، ويطبق المذاهب الحديثة على بحثه فى الحضارة الإسلامية ، فطلع بذلك بآراء جديدة هى ثمرة هذه النزعة الفلسفية الأصيلة فى نفسه ، ونتيجة اطلاعه على الفلسفات الحديثة والقديمة على حد سواء .

وتقوم هذه الفلسفة التى انتهى إليها على دعائم ثلاث كما ذكرنا هى الدين والعلم والاجتماع . وهى عناصر متكاملة لا غنى لبعضها عن بعضها الآخر . فإذا شئنا أن نعرف حقيقة العقلية الإسلامية ، فلا بد أن نعرف تاج هذه العقلية وهو الدين ، وأدواتها التى تبرز بها وتتحقق وهى العلوم المختلفة ، وحياتها بل وروحها وهى المراكز الاجتماعية التى تركزت فيها ونمت وترعرعت . أمّا الفلسفة كأفكار مجردة عن الحياة الاجتماعية ، بعيدة عن الحركة العلمية ، فعبارات جوفاء ماتت على أيدى المدرسيين ، ولا تتفق مع نشأة الفلسفة حين كانت نابضة بالحياة زمان سقراط وأيام أفلاطون ، بل تصبح جسداً بلا روح .

فالفكر فى نظر أحمد أمين أشبه بالنهر الجارى المتدفق ، الحياة الاجتماعية روافده ، والحركة العلمية مجراه ، والدين مصبه وغايته . ونجد تطبيق هذه الفلسفة واضحة أعظم الوضوح فى فجر الإسلام ، ومفصلة فى الضحى ، وأشد تفصيلا فى ظهر الإسلام .

* * *

وقد اجتمعت له خصال إذا اجتمعت فى شخص كان حكيما على الحقيقة ،

هى : حرية الفكر ، والبعد عن الدجماطيقية ، والترحيب بالنقد ؛ والجلاء والوضوح ، والعناية بالكل دون الأجزاء ، والبحث عن العلل .

كان أحمد أمين حر الفكر إلى أبعد حدود الحرية ، لا يقول إلا ما يعتقد ، ولا يحفل إلا بالحق وحده ، لا يهمه مصانعة ذوى السلطان ، أو تملق الجماهير ، أو مشايعة الأهواء . وتبدو هذه الحرية فى الجهر باعتقاداته الدينية على الرغم من مصادمتها لمشاعر الجمهور ومخالفتها للمألوف من التقاليد الطويلة الأمد . جاهر بالانتصار لمذهب المعتزلة ، أهل العقل فى الإسلام ، ونادى بالرجوع إليه ، مع أن المسلمين عارضوا ذلك المذهب منذ القرن الرابع ، وحكموا على أصحابه بالكفر ، وحرقوا كتبهم ، ومنعوا تدريسها فى مدارسهم . وجاهر برأيه فى الشيعة ومعتقداتهم حتى كاد يصيبه من جراء ذلك محنة عظيمة حين كان ببغداد بعد أن أصدر فجر الإسلام . فنحن نرى أنه لم يبال بالسّنة كما لم يبال بالشيعة فى سبيل إعلان رأيه وحرية فكره . وهذا هو شأن الفلاسفة . وقد صحبته هذه الحرية فى جميع آرائه الأخرى سياسية أو اجتماعية أو أدبية ، كما يتضح من النظر إلى مجموعة مقالاته التى جمعها فى كتابه الآخر الحافل « فيض الخاطر » . ومن شاء أن يستقصى مذهبه الفلسفى فى الحياة ، فعليه أن يتتبع تلك المقالات .

أما العنصر الثانى المكوِّن لفلسفته فهو البعد عن الدجماطيقية . والدجماطيقى هو الذى يقطع برأيه ، ويجزم به ، ويعتقد فيه اعتقادا يصرفه عن البصر بآراء غيره . ولا تجتمع فلسفة ودجماطيقية ، لأن الفلسفة هى محبة الحق لا الانتصار للرأى حتى لو كان باطلا . ولم يكن أحمد أمين يقطع بالرأى إلا بعد البحث والتنقيب ، وجمع الأدلة والبراهين ، بل كان على استعداد للنزول عن رأيه إذا اتضح له بطلانه ، أو نبهه إليه ناقد .

وهذا يُسْلمنا إلى الخصلة الثالثة وهى النقد . والمقصود بالفلسفة النقدية فى الاصطلاح ، خصوصا بعد كانط ، النظر فى العقل البشرى لمعرفة حدوده ومدى ما يمكن أن يصل إليه . وتقال فلسفة نقدية أيضاً لمن يعدل عن النزعة الدجماطيقية حتى لينتقد نفسه ، كما فعل أفلاطون فى نقده المثل فى محاورة بارمينداس . وكان أحمد أمين نقديا على كلا المعنيين . نظر فى العقل البشرى ، و بيَّن حدوده ، فقال ينتقد المعتزلة والأشاعرة فى آخر جزء من ظهر الإسلام : « والناظر إلى هذا الخلاف [يريد الخلاف على الذات والصفات] يرى أن كلا من المعتزلة والأشعرية جاوزوا حدَّهم ودخلوا فى سفسطات لا طائل تحتها ، وليس العقل البشرى بمستطيع شيئاً من ذلك . إننا لا نستطيع أن نقول بالنسبة لأنفسنا إنْ كان علمنا غير ذاتنا ، وقدرتنا غير ذاتنا ، أو هى هى ، فكيف نستطيع أن نقول ذلك فى الله ؟ إن عقولنا ضعفية لا تصلح إلا لخدمتنا فى الوصول إلى أغراضنا فى الحياة الواقعية . ومحاولة الوقوف على هذه الموضوعات ليست فى متناول العقل البشرى . إن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك حقيقة أى شىء إدراكا تاماً ، وكل مالا يستطيع أن يدركه هو بعض صفاته ... الخ » ظهر الإسلام — ج ٤ — ص ٧٦ .

أما النقد المعروف فقبول أحمد أمين له عقب نشر الطبعة الأولى من فجر الإسلام كان يعد حدثاً خطيراً فى الحياة الأدبية والفكرية فى مصر والشرق ، فلم يسبق لكاتب أن فتح صدر مجلته لنشر النقد مهما يكن لاذعاً كما فعل أحمد أمين فى « الثقافة » . وحين أصدر الطبعة الثانية قال فى المقدمة : « . . . . وكان ما لقيته من الباحثين من أهل العربية والمستشرقين أكبر مشجع لى على عملى ، فقد نقدوه وقرظوه ، وانتفعت بما أبدوه من آراء قيمة فى نقده وتحليله . . . » .
وقال فى مقدمة الجزء الثالث من ظهر الإسلام : « فأقدم الكتاب على هذا النحو

للقراء ، راجياً منهم — لا كما يقول السابقون — أن يغضوا الطرف عما فيه من عيوب ، بل أن يقيدوها ويشرحوها ويبيِّنوها لى ، حتى أتدارك ما لا يخلو منه مؤلف من خطأ . فالحياة العلمية فى كل نوع إنما تحيا بالنقد ، وتتقدم بتمحيص الآراء ، وإظهار العيوب ، وحسن التوجيه » .

ونحن نعتقد أن هذه النزعة الجديدة أثرت فى الجيل المعاصر أعظم تأثير ، وسارت بالحياة الفكرية نحو إصابة الحق ، بعد أن كان الكتاب والمفكرون يفزعون من النقد لضعفهم ، ويسير بعضهم فى موكب بعضهم الآخر مادحين مقرظين . . . على حساب الحق .

وخصلة رابعة هى الجلاء والوضوح . وإنما جاء هذا الوضوح من أمرين : الأول وضوح الرأى فى ذهنه ، والثانى الابتعاد عن التزويق فى اللغة . كان يستطيع أن يتقعر ، وأن يسجع ، وأن يجرى على أساليب الجاحظ وغيره من المتقدمين ، ولكنه آثر جلال المعنى على جمال اللفظ ، ورنين الفكرة على جرس العبارة . ودرج على التعبير البسيط الذى يضرب فى المعنى إلى الصميم دون برقشة وزركشة حتى يضرب للناس مثلا فى العناية بالأفكار ، والابتعاد عن الصنعة التقليدية التى قتلت الفكر وأثقلته بهذه الزينة اللفظية .

وخصلة خامسة هى النظرة الكلية الشاملة بغير أن يغرق فى التفصيلات . وهذه هى الفلسفة عند بعض المشتغلين بها . يقول ول ديورانت فى كتابه « مباهج الفلسفة » : سوف نُعَرِّف الفلسفة على أنها النظرة الكلية ، والعقل الذى يُبَسِّط الحياة ، ويحيل الاضطراب إلى وحدة » . الحق كان أحمد أمين فى كتابته للحياة العقلية فى الإسلام فيلسوفا ، لأنه ارتفع إلى هذه النظرة الكلية الشاملة ، وبَسَّط

تلك الحياة بنظره النافذ ، وأحال ما فيها من اضطراب إلى وحدة ، فلم يعد القارئ العربي يحس بإزاء تاريخه أنه في متاهة لا يعرف كيف يدخل إليها ، وكيف السبيل إلى الخروج منها .

وخصلة أخيرة هي الغوص وراء العلل الصحيحة المؤثرة في مظاهر الدين والاجتماع والأدب واللغة . وهو لا يعرض هـذه العلل عرضاً أدبياً براقاً ، بل يفصلها تفصيلا ، ويعد الأسباب ويضع لـكل علة رقماً ، مما يدل على وضوح الأفـكار وتسلسلها . فعل ذلك عند الـكلام على أسباب تدهور اللغة ، وتأخر العلوم ، وركود الفلسفة ، وغير ذلك من المباحث التي تناولها .

* * *

وقد أدت هذه الخصال الفلسفية إلى إعلان نتائج عظيمة الخطر في حياتنا الحاضرة ، تختص بالعقل ، والدين ، واللغة ، والعلم ، والاجتماع ، والأدب .

وجملة ما يريده من هـذه الأمور كلها هو اطراح التقاليد الثقيلة المعطلة للتقدم والرقي ، والنظر بحرية فـكر في كل ناحية من نواحي الحياة . فلابد في العقل من تحليله ، ومعرفة حدوده ، و بيان الأصول التي يجري عليها التفـكير المستقيم ، والتزام النزعة الواقعية ، ثم تطبيق هـذا العقل على مظاهر الحياة المختلفة ، حتى يجري السلوك على أساس من العقل .

وقد أعلن فيما يختص بالدين عدة آراء تعد ثورة حقيقية في هـذا الميدان ، أولها الرجوع إلى مبادئ المعتزلة أي تفسير الدين بالعقل . والثاني فتح باب الاجتهاد حتى لا نظل عبيداً لأبي حنيفة والشافعي ومالك وابن حنبل ، وقد كانوا ملائمين لزمانهم ، أما اليوم فقد تغيرت الأحوال . والثالث المهادنة بين الشيعة والسنة حتى

تتحد كلمة المسلمين ، وخصوصاً أن موضوعات الخلاف بينهما أصبحت فى ذمة التاريخ البعيد .

وعلى هذا النحو نادى بإصلاحات اجتماعية ولغوية أترك الحديث عنها لمن يبحث فى آرائه من « فيض الخاطر » مقتصرين على الموضوعات التى تعد من جملة الفلسفة ، إذا اعتبرنا الدين وثيق الصلة بها .

ولا نزاع فى أن هذه الآراء قد أثمرت فى الجيل الحديث نتيجة اطلاع الشباب على كتبه ، والإقبال عليها ، فلا غرابة أن يكون أحمد أمين فيلسوفاً معاصراً موجهاً للشرق الحديث .

* * *

بدأ أحمد أمين بحثه فى الحياة العقلية عند المسلمين منذ فجرها فى الجاهلية وعند ظهور الإسلام ، وانتهى بالجزء الرابع من ظهر الإسلام . وبهذا الجزء يسدل الستار على مأساة تاريخية عظيمة ، ارتفعت فيها الإنسانية وأشرقت حين أخذت بالمثل العليا الإسلامية ، وتجرد المسلمون عن الحياة المادية الرخصية ، وأقبلوا على العلوم والفنون والآداب ، فكانوا المعلمين للشعوب فترة عظيمة من الزمان . وتخللت حضارتهم معارك وحروب وخراب وتدمير ، حتى نزل الستار فى الفصل الأخير بتدهور الثقافة ، وجمود الفكر ، ووقوف حركة التأليف عند التلخيصات والحواشى ، وامتنع الابتكار والتجديد ، وسارت الحياة إلى الوراء لا إلى الأمام .

ماتت حركة الاعتزال ، ونشأت على أعقابها مذاهب الأشاعرة ، وظل مذهب الأشعرية هو المذهب الرسمى للمسلمين حتى اليوم . واشتد ساعد المتصوفة ، وهم قوم لا يظهرون إلا فى عصور الضعف ، واختفاء دولة العقل ، وشيوع الجمود .

(١٦)

هـذه هى الصورة التى يقدمها أحمد أمين قبل وفاته إلى الناس بعد وفاته ، مشرقة واضحة ، ليعرفوا حقيقة دينهم وما انتهى إليه ، وكيف السبيل إلى النهضة به ، حتى يعود إلى الإسلام عزته ، ويتبوأ ما كان له من منزلة .

وأعتقد أن هذا الفصل الختامى من ظهر الإسلام ، هو أروع ما كتب أحمد أمين ، فمات وقد أدى واجبه كاملا نحو وطنه ، ونحو الشرق الإسلامى .

فهرس الموضوعات

الباب الأول

المعــتزلة

البـاب الثانى

أهـــل السنة

الموضـــوع | الصـــفحة

الباب الثالث

الباب الرابع

الصـــوفية

الموضـــوع | الصــفحة

تذييل فى تاريخ الحركات العلمية والدينية

ظهر الإسلام

الجزء الرابع



بسم الله الرحمن الرحيم

وعدت عند ظهور الجزء الثالث من هذه السلسلة — وهو الخاص بالحياة العقلية فى الأندلس من فتح العرب لها إلى خروجهم منها ، وتكلمت فيه عن الحركات الدينية واللغوية والنحوية والأدبية والفلسفية والتاريخية والفنية — أن أكتب الجزء الرابع والأخير فى المذاهب الدينية وتطورها ، وسألت الله أن يعيننى عليه كما أعاننى على سوابقه . ولم يخيب الله سؤلى ، إذ انقطعت لكتابته حتى أنجزته ، جاريا على النسق عينه الذى نهجته فى الجزء الأول والثانى والثالث .

تكلمت فى الجزء الأول عن وصف الحياة الاجتماعية فى القرن الرابع ، إذ لا يمكن فهم الحياة العقلية إلا بفهم بيئتها التى نشأت فيها ، والعوامل التى ساعدت عليها ، وطبيعة الناس الذين أنتجوها . كما تعرضت لوصف مراكز الحياة العقلية فى مصر والشام والعراق وجنوب فارس وخراسان وماوراء النهر ، والحركات العلمية والأدبية التى ظهرت فى كل إقليم ، وأشهر رجالها .

وتكلمت فى الجزء الثانى عن تاريخ العلوم والآداب والفنون فى القرن الرابع الهجرى ، كالتفسير والحديث والفقه والتصوف واللغة والأدب والنحو والصرف والبلاغة والفلسفة والأخلاق والتاريخ والجغرافيا والفنون المختلفة .

أما الجزء الثالث فأفردته للأندلس ليكون وحدة مستقلة بذاته . ولم أكتف فى ذلك الجزء بتأريخ القرن الرابع وحده ، بل رأيت أن حضارتها وحياتها العقلية تكاد تكون وحدة ، ففضلت فى شأنها أن أنهج منهجاً جديداً فلا ألتزم القرن

الرابع ، بل أؤرخ حياتها العقلية مسلسلة من وقت فتح المسلمين لها إلى وقت خروجهم منها ، أى نحو ثمانية قرون .

وقد رأيت أن أنهج فى الجزء الرابع هذا المنهج ، فلا أقف عند القرن الرابع ، وبخاصة لأن العقائد والمذاهب ليست كالآداب والعلوم والفنون سريعة التغير والتطور . وتكلمت فيه عن المذاهب الرئيسية من معتزلة وأشاعرة ، وشيعة وسنة ، ومتصوفة . وقد أفردت للمتصوفة باباً خاصاً ، مع أنهم ليسوا فرقة إسلامية لاستشهار أمورهم وقوة أثرهم فى العقيدة الإسلامية وبخاصة بعد القرن الرابع . وإذا كنت قد بدأت بالاعتزال فى المقدمة ، فذلك لأنى أريد أن يكون هذا الجزء مترابطا لا يحتاج قارئه أن يرجع إلى ضحى الإسلام لمعرفة تفصيل هذا المذهب ونشأته . وبذلك يكون هذا الكتاب عرضاً عاماً للعقيدة الدينية فى شتى صورها عند المسلمين منذ ظهور الإسلام حتى العصور المتأخرة .

والله أسأل أن يحسن ختامنا مع ختام هذا الجزء على دينه الذى ارتضاه ، وأن يعيد إلى المسلمين وحدتهم ، ويقرب شقة الخلف بين مذاهبهم ، ويرفع من شأنهم ، ويجدد مجدهم .

إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون .

تمهيد

نضج علم الكلام فى العصر العباسى الأول والثانى ، وكان الفضل الأكبر فى نضوجه للمعتزلة ، فإنهم وقفوا أنفسهم موقف الدفاع عن الإسلام ، وكان مركزهم فى الغالب فى العراق ، وفى البصرة ، أو بغداد ، أو الكوفة . وكان العراق محطاً للثقافات المختلفة والديانات المختلفة ، إذ كان مورداً لكثير من الفرس والهنود والسريان والنصارى واليهود ، فكان كثير من أجداد العراقيين أو آبائهم يعتنقون قبل الإسلام ديانات مختلفة ، فلما أسلموا كانت آراؤهم ومعتقداتهم عالقة فى ذهنهم كلها أو بعضها . ولم يكن الإسلام عند كثير منهم إلا طلاء ظاهرا .

كان ينتشر فى فارس والهند مجوس ، اعتقدوا بوجود إلهين أحدهما النور ، أو يزدان ، وهو مبدأ الخير كله ، والثانى الظلمة أو أهرمن ، وهو مبدأ الشر كله . وهما إلهان متماثلان فى القوة أزليان متعاندان ، أحياناً يغلب النور وأحياناً تغلب الظلمة .

وقد انقسم هؤلاء إلى فرق كثيرة بحسب تعاليمهم ، عدَّها ابن خلدون ثمانية ، فهؤلاء لما انتقلوا إلى بغداد دعوا إلى دياناتهم إما صراحة و إما تحت ستار الإسلام . ولذلك نرى خصوصاً فى العصر العباسى الأول أناساً كثيرين يتهمون بهذه الثنوية[1] ، ويحا كمون ، وقد يقتلون .

---

(١) ذكر البغدادى فى الفرق بين الفرق أن « البرامكة قد زينوا للرشيد أن يتخذ فى جوف الكعبة مجمرة يتبخر عليها العود أبداً ، فعلم الرشيد أنهم أرادو من ذلك عبادة النار فى الكعبة ، وأن تصير الكعبة بيت نار ، فكان ذلك أحد أسباب قبض الرشيد على البرامكة » الفرق ص ١٧٢ طبعة عزت العطار ١٩٤٨ .

ومثل هؤلاء البراهمة فى الهند ، وكان عددهم كثيراً ، وكان بينهم من يقول بالتناسخ ، وهم كذلك متفرعون إلى فروع مختلفة و يقولون بآلهة متعددة ، وعلى رأسهم الإله الكبير « برهم » . و بجانب هؤلاء البوذيون والكونفوشيوسيون ولهم تعاليم تغاير ما تقدم .

يضاف إلى ذلك أنه كان ينزح إلى العراق جماعة من النصارى أتوا من الشام وغيرها . وكانت النصرانية قد انقسمت حول طبيعة المسيح : هل هو ذات واحدة ، أو له طبيعتان ، طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية ، أو اتحد فيه اللاهوت والناسوت إلخ ... وتعددت المجامع للفصل فى هذه الخلافات . كما اختلفت اليهودية إلى مذاهب متعددة .

كل هذه المذاهب صَبَّت فى العراق ، ودعا إليها الداعون ، وتشكلت بأشكال مختلفة ، واصطبغ بعضها بصبغة إسلامية . وتقرأ المذاهب المختلفة فى ذلك العصر فيأخذك العجب من كثرتها وتنوعها . وكان كثير من أصحاب هذه المذاهب قد تثقفوا بالفلسفة اليونانية ، فأخذ كل فريق يستخدم هذه الفلسفة فى تدعيم ديانته . فلما جاء المعتزلة يردون على هذه المذاهب و ينتصرون للإسلام اضطروا أن يتفلسفوا هم أيضاً ليتسلحوا بما تسلح به خصومهم . ولذلك اتسع علم الكلام اتساعاً عجيباً . ومما زاد فى سعته أنه شمل أشياء كثيرة لا تتعلق بالعقائد حسب ما كان يُظَنّ ، بل نرى أنه اشتمل على أر بعة أقسام كبار : قسم الإلهيات مثل البحث فى الله وذاته وصفاته وأفعاله وأنبيائه ورسله ونحو ذلك . وهذا معقول أن يكون فى صميم علم الكلام . أما القسم الثانى فهو فى الطبيعة والكيمياء أدخل ، مثل الجوهر والعرض والجزء الذى لا يتجزأ ، والحركة والسكون والكمون والطفرة والتداخل

والألوان والطعوم والروائح ونحو ذلك . والقسم الثالث قسم سياسى محض صبغه علم الكلام صبغة دينية كالكلام فى أيهما أفضل وأحق بالخلافة : على أم أبو بكر وعمر ؟ وكلامهم فى العلويين والعباسيين ، والفاضل والمفضول ، وشروط الإمامة ونحو ذلك . وهذه كلها أمور سياسية كان يصح أن تبحث على ضوء العقل بعيدة عن الدين . والقسم الرابع عقلى خلقى كالبحث فى الخير والشر ، والاستطاعة والاختيار ، والتحسين والتقبيح العقليين ، وإعجاز القرآن ، والإجماع والقياس ، كل هذا وأمثاله جعل علم الكلام يشتمل على مسائل لا حدّ لها . فإذا أنت قرأت كتاباً كالمواقف ، أو كالفَرْق بين الفرق ، أو كالملل والنحل رأيت مناحى مختلفة واتجاهات مختلفة .

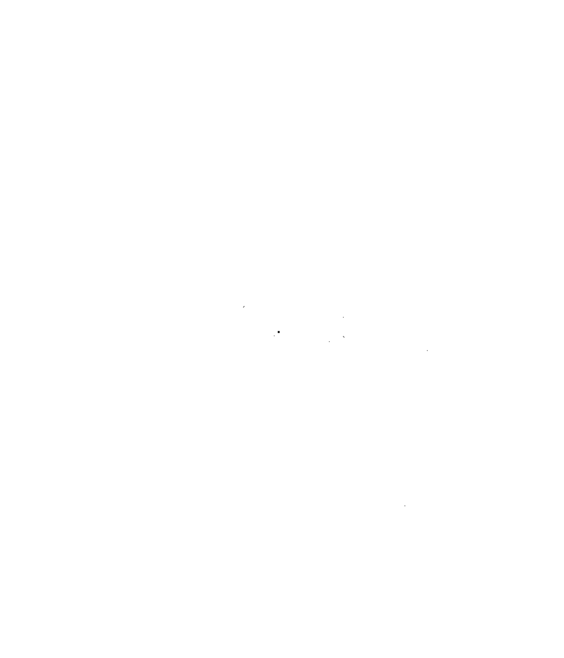
ومع كثرتها وتشعبها يمكننا تقسيم الفرق الرئيسية إلى خمسة أقسام .

(١) المعتزلة . (٢) أهل السنة . (٣) الشيعة . (٤) الخوارج . (٥) المرجئة . وسنفصل الكلام على كل منها ، ما عدا الخوارج والمرجئة لأن أصحابها انقرضوا ، وماتت مذاهبهم فى القرن الرابع الذى نتحدث عنه . وقد كتبنا عن الخوارج والمرجئة فى « ضحى الإسلام » بالتفصيل .



الباب الاول

المعتزلة



ظهور المعتزلة

رأينا المعتزلة يكوِّنون جماعة مترابطة تتعاون على الدعوة إلى الإسلام والدفاع عنه ومهاجمة من يخالفهم، وهم يتزاوجون فيما بينهم ويتجاورون فى مساكنهم، وإذا ثبت عن أحد منهم أنه خرج عن مبادئهم الأساسية نفوه وطردوه من زمرتهم. كما حدث منهم مع ابن حائط، فقد كان كبيراً من كبراء المعتزلة وكان من كبار أصحاب النظام، ثم روى عنه أنه يقول بتفضيل المسيح على محمد، ولقد سعت به المعتزلة عند الخليفة الواثق وأخبرته بإلحاده، فأمر ابن أبى دؤاد أن ينظر فى أمره، وأن يقيم حكم الله فيه، فمات فى ذلك الوقت، وكذلك فعلت المعتزلة بفضل الحذاء، فقد كان أيضاً معتزلياً نظاميًا، إلى أن صدر منه ما أخذوه عليه فطردته ونفته[1]. وكما فعلت مع ابن الراوندى كما سيجىء.

وكان مبدؤهم أول أمرهم البعد عن السياسة والتفرغ لعبادتهم ودعوتهم. ولذلك لما انتُقِد المنصور فى حدوث الجور والظلم فى الدولة، دعا عمرو بن عبيد المعتزلى وفرقته أن يتعاونوا معه فى تدبير الدولة فأبوا. ولكنهم تحولوا عن هذا المبدأ بعد ذلك وانغمسوا فى السياسة، وصاروا وزراء وعمالا، وأطلق المأمون والمعتصم والواثق أيديهم فى السياسة، فنكلوا بخصومهم وأذاقوا الناس العذاب إذا هم لم يقولوا بخلق القرآن، وأقاموا فى البلاد ضجَّةً ليس لها مثيل من محاكم تقام ويعرض فيها على العلماء والقضاة القول بخلق القرآن، فمن لم يقل عُذِّبَ وأُهين. وسمّى المؤرخون هذه الفترة بمحنة خلق القرآن. وكانت سطوتهم فى ذلك

(١) الانتصار ص ١٤٨ — ١٥٠، حيث تجد قصة ابن حائط والحذاء كاملة.

قد بلغت الذروة ، فلما بلغوها أخذوا ينحدرون عنها . وجاء المتوكل فرأى ناراً تتقد فى كل مكان ، وامتحانات ومحاكمات ، وضرباً ونفياً وتشريداً ، والرأى العام ساخط على هذه الحالة ، ومن لم يقل بخلق القرآن وتحمل العذاب عد بطلا ؛ فأراد الخليفة المتوكل أن يحتضن الرأى العام وأن يكسب تأييده ، فأبطل القول بخلق القرآن ، وأبطل الامتحانات والمحاكمات ، ونَصَر المُحَدّثين . وعلى الجملة فقد انضم إلى المعسكر الآخر معسكر غير المعتزلة . وأكثر الناس عبيد السلطة . فما أنْ رأوا تحوّل السلطة عن المعتزلة حتى هجروهم ، وأصبح القول بالاعتزال يحدث فى الغالب سراً بعد أن كان جهراً ، ويتطلب شجاعة كبيرة ، وجرأة شديدة ؛ ولذلك قلّ عدد المعتزلة وعدد رؤسائها . يضاف إلى ذلك أنه وجدت عوامل أخرى تهاجم المعتزلة من فقهاء ومحدثين وروافض ونصارى ويهود ، وتجمع هؤلاء ضدهم ، حتى إن بعض من كان معهم خرج عليهم ، كما سنرى فى الكلام على أبى الحسن الأشعرى .

تطور المعتزلة

وقد تطورت تعاليم المعتزله على مدى العصور وعلى يد نوابغ أهل المذهب ، فكان كلما أتى نابغة زاد فى تعاليمها وعمّقها . فمذهب المعتزلة فى الحقيقة ورث تعاليمه من جَهْم[1] . ولذلك يلقب المعتزلة بالجهميّة . وجهم هذا هو جهم بن صفوان ، وقد ظهر بترمذ فى آخر الدولة الأموية ، ثم انتقل المذهب إلى بلخ . وكان جهم هذا صديقاً لمقاتل بن سليمان العمدة المشهور فى تفسير القرآن ، وكان جهم متصلا اتصالا شديداً أيضاً بالحارث بن سريج عظيم الأزد بخراسان ، وقد شوّهت سمعة الجهم والحارث بن سريج تشويهاً كبيراً خصوصاً على يد المحدّثين ، وعلى يد الساسة ، لأنهما أعلنا الثورة على الدولة الأموية ، وطالباها بالعمل بالكتاب والسنة والشورى . وأرادت الدولة الأموية أن تعطيهما مالا كثيراً لقاء سكوتهما عنها فأبيا ، وألحّا فى طلب العدل ، وكانا من أول الخارجين عليها ، وتكوين الجيوش ضدّها فى الحركة التى انتهت بسقوط الدولة الأموية كما يؤخذ من كتب التاريخ . ولكنهما كما يظهر لم يكونا على علم كبير بالحديث ، وإنما كانا عقليين فى تفكيرهما ، فهاجمهما رجال الحديث وشوّهوا سمعتهما . ومن سوء الحظ أنهما قُتلا فى عهد مروان بن محمد آخر الدولة الأموية .

---

(١) فى كتاب الانتصار أن الجهم موحد وليس معتزليا ، وإن أضافته العامة إليهم ، وقد تبرأ المعتزلة منه على لسان بشر بن المعتمد — وقيل عن الجهمية إنهم من الجبرية — وقد فصّل القول عن الجهمية والمعتزلة جمال الدين القاسمى فى كتابه ، طبع المنار سنة ١٣٣١ هـ . وفيه يذهب إلى أن المعتزلة تطورت عن الجهمية .

ثم جاءت الدولة العباسية ، وجاء الجهمية بشكل جديد هو المعتزلة . وكانت خلاصة مذهب جهم القول بنفى التشبيه وتأويل الآيات التى وردت مما تشعر بالتشبيه ، كيد الله ووجهه سبحانه وتعالى . ومن أقواله أيضاً نفى صفات الله كالعلم والقدرة ، وقوله إن صفاته عين ذاته أى أنه ليس قادراً بقدرة غير ذاته ، ولا مريداً بإرادة غير ذاته . وأرجعوا الصفات كلها إلى ذاته ، ورأوا أن ذلك أدل على التنزيه واقتضاهم ذلك القول بأن الله لا يرى حقيقة فى الآخرة ، ولا يتكلم حقيقة وإنما كل هذه مجازات ، كما قالوا بخلق القرآن ، وذلك أنهم قالوا : إن بعض الآيات والأحاديث إذا أخذت على ظاهرها أفادت التشبيه بصفات المخلوقين وهو مستحيل ، والله « ليس كمثله شىء » .

وهى تعاليم كما ترى تطرقت إلى المعتزلة وتطوّرت ودعوا إليها . ومن هذا نرى أن لهؤلاء الجهمية وجهة نظر محترمة ؛ ولكنهم لما خرجوا على الأمويين شنع هؤلاء عليهم ورموهم بأنهم دهريون ، مع أن الدهريين هم الملحدون ، ولا إلحاد عند الجهميين ، وإنما هم طلاب عدل . ثم لما لم يكونوا من أهل الحديث ولم يتبعوا بعضه شنع عليهم المحدِّثون أيضاً . وكان ذلك هو الشأن مع المعتزلة ورثة الجهمية .

جاء المعتزلة بعد ذلك وقالوا بخلاصة ما قال به الجهمية ، وانتشرت الفلسفة فى العراق فدخل كثير منها فى الاعتزال . وكان خصوم المعتزلة من أهل المذاهب والديانات يجادلونهم فى بعض العقائد والآراء ، فيرد عليهم المعتزلة وتكون الردود ضمن الاعتزال . وعمرو بن عبيد هو الذى صَفّى مذهب الجهمية وقوّى حججه ،

وجاء بعده أبو الهذيل العلّاف وكان ذا علم واسع واطلاع على الفلسفة ، فزاد كثيراً فى تعاليم المعتزلة . وكان فصيحاً بليغاً رد على الدهرية ردوداً كثيرة ، وتكلم فى التوحيد كلاماً حسناً ، وتكلم فى التولّد وفى الاستطاعة . وقال إن الأرض لا تخلو فى كل عصر من العصور من أئمة مجتهدين يعرفون الحق ويدعون إليه . وجاء بعده النَّظام فتناول مسائل كثيرة عُدَّت من مسائل الاعتزال ، فرد كثيراً على شبَه الملحدين وعلى من يعتقدون بالنور والظلمة ، وتكلم فى الجزء الذى لا يتجزأ ، وطبائع الأجسام ، وفى اتصال الشكل بالشكل ، وفى الألوان والطعوم والروائح ، ونفى قدرة الله على الظلم ، وتكلم فى إعجاز القرآن ، وفى القياس والإجماع ، وشرَّح فى جرأة أعمال الصحابة ، ونسب إلى بعضهم الخطأ ، وتكلم بصراحة فى الفاضل والمفضول وأيهم أصاب سياسياً وأيهم أخطأ . وطالب بعرض الأحاديث على العقل ونَفْى ما لم يقبله العقل منها ، وتوسَّع فى درس طبائع الحيوان . وكان قد تكلم فيها قبله ثمامة بن الأشرس ، وبشر بن المعتمر ، فزاد على قولهما . وبالجملة فقد أدخل فى باب الاعتزال مسائل كثيرة بعضها سياسى ، وبعضها فقهى ، وبعضها أصولى ، وبعضها طبيعى .

وجاء بعده الجاحظ ، وكان لسان المعتزلة فى عصره ، فرد على المشبّهة ، وتكلم فى إعجاز القرآن ، وألف فى الاحتجاج للنبوة ونصرة الرسالة ، وفى الطبائع ، مع اعتماده على التجارب دون النظريات ، وتكلم فى الخلود فى الآخرة .

وجاء بعده جعفر بن حرب[1] فخالف أستاذه أبا الهذيل العلاف فى بعض

(١) توفى بعد سنة ٢٣٠ هـ ، وله كتاب فى تكفير النظام بإبطاله الجزء الذى لا يتجزأ [انظر الفرق بين الفرق — ص ٨٠]

آرائه ، وتكلم فى علم الله وفى أحداث التاريخ المتعلقة بالصحابة كالكلام فى عثمان وطلحة والزبير ؛ كما عاصره وصاحبه عيسى بن الهيثم الصوفى . ومن أشهر هذه الطبقة من المعتزلة أبو مجالد وقد وصفه ابن الخياط بأنه : « رجل جمع العلم بالحديث والفقه والكلام وتفسير القرآن مع حسن بيان ، وفصاحة لسان ، وإظهار للحق والدعاء إليه والقصص به أيام حياته ، والصبر على الأذى فى الله ، حتى لحق به رحمه الله » ثم قال : « ومارأيت أحداً قط كان أغلظ على من صدّق بالنجوم منه » .

ثم جاء بعدهم الطبقة الثامنة وهم الذين كانوا فى عصرنا الذى نؤرخه وأعنى بهم من مات فى النصف الأخير من القرن الثالث الهجرى أو القرن الرابع ، وكان منهم أبو على الجُبّائى المتوفى سنة ٣٠٣ ، وأبو القاسم عبدالله البلخى الكعبى المتوفى سنة ٣١٩ ، وأبو مضر ابن أبى الوليد بن أحمد بن أبى دؤاد ، فهؤلاء كلهم زادوا فى مسائل الاعتزال وردّوا على مخالفيهم . وحدث حادثٌ جدير بالنظر وهو أن المعتزلة لما ذهبت دولتهم على يد المتوكل تنمر الناس لهم ونالوا منهم ، فنصب الجاحظ نفسه للدفاع عنهم ، وألّف كتاباً سماه « فضائل المعتزلة » ولم يكن الكتاب كله فى بيان الفضائل ، بل تعرض لمسائل أخرى كالرد على ألدّ خصومهم وهم الرافضة ، ولكن حدث أن جاء رجل اسمه « ابن الراوندى » تثقف على يد المعتزلة حتى مهر فى الاعتزال ، ولكن خرج على المعتزلة فى بعض تعاليمهم الأساسية ، فطردوه من زمرتهم ، وكان فقيراً بائساً يحقد على الجاهل غناه مع بؤس أمثاله من العلماء . ويقول :

كم عاقلٍ عاقل أعيتْ مذاهبه ... وجاهلٍ جاهل تلقاه مرزوقا
هذا الذى ترَكَ الأوهامَ حائرةً ... وصَيَّر العالِمَ النِّحْرير زنديقا

فلما طرده المعتزلة وتنكروا له ورأى أن الدولة ليست لهم ، بل هى عليهم ، تنكر هو أيضاً فوضع ثقافته و بلاغته فى يد خصومهم يؤلف لهم ، فألّف لليهود ضدّ المسلمين ، وألّف للرافضة ضد المعتزلة ، وكان مما ألّفه ابن الراوندى هذا كتاب « فضائح المعتزلة » شنّع عليهم فيه تشنيعاً كبيراً ، ونسب إليهم أحياناً مالم يقولوه .

وابن الراوندى هذا فارسى من نواحى إصبهان ، سكن بغداد ، وعرف بمذهب الاعتزال ثم اتهم بالإلحاد والزندقة ، وعرف بالحذق ومعرفة دقائق علم الكلام وجليله وألف كتباً كثيرة ككتاب « التاج » يحتج فيه على قدم العالم ، وكتاب « الزمردة » يحتج فيه على بطلان الرسالة . ونسبوا إليه أنه قال : « إنّا نجد فى كلام أكثم بن صيفى شيئاً أحسن من : إنا أعطيناك الكوثر » ومما قاله استهزاء بوصف الجنة عند سماعه أن فيها أنهاراً من لبن « أنه لا يكاد يشتهيه إلا الجائع » وقال : « من تخيل أنه فى الجنة يلبس الاستبرق و يشرب الحليب والزنجبيل صار كعروس الأكراد والنبط » ، ونخشى أن تكون هذه الأشياء مما وضعها عليه خصومه من المعتزلة لما خرج عليهم . فانبرى أبو الحسين بن الخياط المعتزلى فألّف كتاباً فى الرد عليه سمّاه «الانتصار» . ومعنى الانتصار الانتصار للمعتزلة ضد ابن الراوندى ومن حسن الحظ أن الكتاب بقى لنا إلى اليوم . وقد نهج فى هذا الكتاب منهجاً يحكى فيه قول ابن الراوندى ثم يعقب قوله بالنقض له ، فمثلا يقول ابن الراوندى : إن الرافضة لو نظرت فى الكلام [يقصد علم الكلام] لوجدت فى مقالات المعتزلة من فاحش الخطأ وعظيم الكفر ما يربى قليله على عظيم كفر اليهود والنصارى ، فرد عليه ابن الخيّاط يقول : « أما جملة قول المعتزلة الذى يشتمل على جماعتها فليس يمكنك عيبه ولا الطعن فيه ، لأن الأمة بأسرها تصدّق

المعتزلة فى أصولها التى تعتقدها وتدين بها وهو أن الله واحد ليس كمثله شيء لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأقطار ؛ وأنه لايحول ولايزول ولايتغير ولاينتقل ، وأنه الأول والآخر والظاهر والباطن ، وأنه فى السماء إله وفى الأرض إله ، وأنه أقرب إلينا من حبل الوريد . ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم الآية ، وأنه القديم وما سواه محدث ، وأنه العدل فى قضائه ، الرحيم بخلقه ، الناظر لعباده ، وأنه لا يحب الفساد ولا يرضى لعباده الكفر ، ولا يريد ظلما للعالمين ؛ وأنَّ خير الخلق أطوعهم له ، وأنه الصادق فى أخباره ، الموفى بوعده ووعيده ؛ وأن الجنة دار المتقين ، والنار دار الفاسقين . وهذه الأقاويل الأمة مجمعة عليها ومصدقة قول المعتزلة فيها » . وهكذا سار على هذا النمط . وقد انتفع بالكتاب كثيراً البغدادى فى كتابه « الفرق بين الفرق » والشهرستانى فى « الملل والنحل » وغير ذلك من الكتب ، فنسبوا للمعتزلة ما قاله ابن الراوندى وشنعوا على المعتزلة من غير تحقيق .

ثم إنَّ كل إمام كبير من أئمة المعتزلة كانت له أقوال فى مسائل خاصة غير أصول الاعتزال ، وتبعه عليها بعض تلاميذه ، فانقسم المعتزلة إلى فرق أو إلى مدارس ، نسبةً إلى رئيسهم ، مثل الواصلية نسبة إلى واصل بن عطاء . والهذيلية نسبة إلى أبى الهذيل العلاف ، والنظامية نسبة إلى إبراهيم بن سيار النظام ، والجاحظية نسبة إلى الجاحظ ، والخياطية ، والكعبية ، والجُبائية إلخ ... ونحن نورد أمثله مما كانوا يتباحثون فيه وفقاً للمجموعات الأربع التى ذكرناها من قبل . إذ حصرنا أقوالهم تقريباً فى الإلهيات ، والطبيعيات ، والفقه والأصول والحديث ، وتشريح أعمال الصحابة ومن هو أحق بالإمامة .

— ١ —

فى الإلٰهيات

بحثوا كثيراً فى أفعال العباد فقال أهل السنة : إن أفعال العباد مخلوقة خلقها الله فى الفاعلين لها . أما أكثر المعتزلة فقد قالوا : إن أفعال العباد محدثة خلقها فاعلوها ولم يخلقها الله . وقال الجاحظ من المعتزلة : « إنّ أفعال العباد تنسب إلى العباد مجازاً وإنما هى أفعال الطبيعة تظهر فيهم ، إلا الإرادة فإنها فعل الإنسان ، ونظير ذلك فعل النار للإحراق وفعل الثلج للتبريد وفعل المسهل للإسهال » . وكأنه يريد أن أفعال الإنسان كما يقول بعض الفلاسفة فى عصرنا نتيجة حتمية طبيعية للبيئة والوراثة ، وأن الإنسان لا يمكنه أن يفعل غير ما فعل ، فمن كان فى وسط مهذب متعلم صدرت عنه أفعال خاصة غير التى تصدر فى بيئة أخرى وهكذا . وإنما استثنى الجاحظ الإرادة ، لأنها على ما أظن هى الصفة الخادعة إذ يظن الإنسان أنه يريد ما يفعل خداعا ، مع أنه يفعل ما يراد منه ليس إلا . ودار الجدل كثيراً حول هذه المسألة ، وكلٌّ يستدل على ما يقول . فأما من قال : إن أفعال العباد هى أفعال الله ، فاستدل بنصوص القرآن وببراهين عقلية ؛ فمن النصوص قول الله عز وجل فى القرآن : « هل من خالق غير الله » وقوله : « والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ... ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً » وقوله : « أفمن يخلق كمن لا يخلق . . أفلا تذكرون » وقوله تعالى : « هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق

الذين من دونه » ومعنى هذا أنَّ الله خلق كل ما فى العالم وأن من دونه لا يخلق شيئاً . فلو كان الله خالقاً لبعض الأشياء والناس خالقين لبعضها لـكانوا شركاء فى الخلق ، فنتج من ذلك أنه لا يخلق شيئاً غيرُ الله . وقال تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » . ومما استدلوا به أنَّ كلَّ المسلمين يعتقدون أن الله تعالى إله العالم ، ورب كل شيء ، ومن المحال أن يكون الله إلهاً لِماَ لم يخلق .

أما المعتزلة فقد استدلوا بقوله تعالى : « فويل للذين يكتبون الـكتاب بأيديهم ثم يقولون هـذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا » وقوله : « لتحسبوه من الـكتاب وما هو من الـكتاب ، ويقولون هو من عند الله وما هو من عند الله » وقوله : « فتبارك الله أحسن الخالقين » مما يدل على أن هناك خالقاً غيره ، كالإنسان يخلق أفعال نفسه ، وقوله مخاطباً للـكافرين : « أتخلقون إفـكا » . واستدلوا ببعض الحجج العقلية أيضاً وقالوا : لو كان الله خالق أعمال العباد لاقتضى ذلك أنه يغضب ممـا خلق ويكرهه ، ولا يرضى ما فعل ولا ما دبر . وقالوا : إنَّ كل من فعل شيئاً فهو مسمى به ومنسوب إليه ، فلو خلق الله الخطأ والـكذب والظلم والـكفر ، لنسب كل ذلك إليه ، تعالى الله عن ذلك . ومن حججهم أيضاً أنه إذا كانت أفعال العباد لله ، فهذه الأعمال تنقسم قسمين : أعمال صالحة وأعمال سيئة ، ولا معنى للإثابة والعقاب ما دام العبد لم يفعلها وإنما فعلها الله . فإذا أثابنا فقد أثابنا على ما فعل ، وإن عذبنا فقد عذبنا على ما فعل ، وهذا لا يستقيم فى العقل .

* * *

هذه هى أصول احتجاجات الطرفين ، وكانت النتيجة أنَّ كل من أدلى من أحد الفريقين بحجة ردّ الآخر عليه بما ينقضها ، ولهذا تعددت الأقوال والبراهين

والردود إلى ما لا نهاية لها مما لا يخرج عن هذا . وفى الحقيقة أن فى القرآن لمحةً من هذا ، ولمحةً من ذاك ، فلما جاء المفسرون انقسموا هذين القسمين ، فمن اعتقد أنَّ أفعال العباد منسوبة إلى الله أوَّل ما ورد مما يفيد غير ذلك من الآيات ، والعكس ؛ ولهذا كانت تفاسير أهل السنة تخالف تفاسير المعتزلة

وكل من الطائفتين يحذِّر الآخر من اتجاهاته . فمثلا قال الله تعالى : « سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون » وقال : « ختم الله على قلوبهم » أى لا يؤمنون لأجل الختم ، أى أن سبب امتناعهم عن الإيمان هو ختم الله على قلوبهم . وظاهر الآية يدل على أنهم ليسوا مختارين ، ولو كانوا مختارين لآمنوا ، فأوّل المعتزلة الآية وقالوا : منعهم الله الإخلاص الموجب لقبول العمل ، فكانوا كمن يمنع دخول الإيمان قلبه بالختم عليه . وهكذا تجد فى تفسير الزمخشرى كثيراً من هذه التأويلات . ولما حار الأشاعرة بين هذه الأدلة قالوا : بـ « الكَسْب » ، أى أنَّ الله تعالى يخلق أعمال العبد ، وليس للإنسان فيها إلا الكسب .

فقال لهم المعتزلة : ما هذا الكسب ؟ أهو عمل من أعمال الإنسان فيكون الله خلقه أيضاً ، أو هو ليس عملا من أعمال الإنسان فلا حاجة إليه . وقد أثارت مسألة أفعال العباد مسائل كثيرة تولدت عنها ، فكانت موضع بحث بينهم . فمثلا هناك مسألة التولد ؛ ومعنى التولد نشوء عمل من عمل مثل أن يضرب رجل آخر ، فيتولد من الضرب الموت ، أو يتولد منه الألم ، أو يخلط شخص طعاماً بطعام فيتولد منهما طعام سامّ مميت . فلما قال أهل السنة بأن كل أفعال العبد من خلق الله لم يكونوا بحاجة إلى القول بالتولد . فالكل من فعل الله . ولما قالت المعتزلة : إنَّ

الإنسان يخلق أفعال نفسه و يُسْأَلُ عنها و يحاسب عليها قالوا بالتولّد ، وأن الإنسان مسئول عما تولّد من عمله .

ومن البحوث التى ترتبت حول هـــذه المسألة أيضاً البحث فى الاستطاعة ما هى ؟ وهل تكون قبل الفعل أو مع الفعل أو قبـله ومعه ؟ فَفَرّق المعتزلة بين الاستطاعة والمستطيع ، إلا أنَّ منهم من أخطأ فجعلهما شيئاً واحداً . ولما قالوا : إن أعمال الإنسان من صنعه ، قالوا الاستطاعة فعل الله عز وجل ، وأن أحداً لا يفعل خيراً ولا شراً إلا بقوة أعطاه الله إياها . وقال جمهور المعتزلة أيضاً : إنَّ الاستطاعة هى سلامة الجوارح وارتفاع الموانع ، وأنهما معاً يكونان قبل الفعل ، كما لا بد أن يكونا مع الفعـل . وما لم توجد صحة الجوارح ، وارتفاع الموانع لا يوجد الفعل ولا يكون المرء مخاطباً مكلفاً مأموراً منهياً .

وساقهم البحث إلى التساؤل عن الـكافر المأمور بالإيمان — أهو مأمور بما لا يستطيع أم بما يستطيع . كما بحثوا فيما ورد فى القرآن كثيراً من الهدى والضلال ، فلمـا قالوا بأن العبد يخلق أفعال نفسه قالوا : — إنَّ معنى الهـدى ليس إلا إنارة الطريق أمام العبد ، وليس من مستلزمات إنارة الطريق أن يسير الإنسان فيه . فقد يستنير الطريق أمامه ولـكنه يمشى فى الظلام ، بدليل قوله تعالى : « وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهـدى » وقوله سبحانه : « إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ، إنا هديناه السبيل إما شاكراً و إما كفورا » فهذا دليل على أن الهداية لا توجب أن يسير الشخص فى الطريق المستقيم . وقال خصومهم : إن من هداه الله اهتدى ، ومن أضلّه ضلَّ ، بدليل قوله تعالى : « ولقد

بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » فهذا دليل على أنّ الذين هداهم الله بعض الناس لا كلهم ، وهم الذين ساروا فى الطريق المستقيم ، وقال تعالى : « إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدى من يضل » وقال تعالى : « من يضلل الله فلا هادى له » وقال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومَنْ يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعّد فى السماء » فأخبر بذلك أن الذين هداهم غير الذين أضلهم . ووفق خصومهم بين آيات القرآن فقالوا : إنه هدى ثمود فلم يهتدوا ، وهدى الناس كلهم السبيل ، ثم هم بعد ذلك إما شاكرون وإما كافرون . وفى آيات أخرى أنه هدى قوماً ، فلم يهتدوا ولم يهد آخرين فضلّوا ، فالتوفيق بين الآيات يوجب أن الهدى نوعان : نوع أعطاه الله جميع الناس وهو إنارة السبيل أمامهم ، وهذا الهدى هو الذى استعمله فى آية ثمود ، أى أنه دلهم على الطاعات والمعاصى وعرّفهم مايسخطه ومايرضيه ، وهدى آخر بمعنى التوفيق والعون على الخير ، والتيسير له . وهذا الهدى هو الذى منحه الله للمهتدين ومنعه الكفار . والذى دعا المعتزلة إلى هذا قولهم الأساسى بخلق الإنسان أفعال نفسه ، وأن الله لم يحمل المؤمن على الإيمان ، ولا الكافر على الكفر ، بل هو فعل ذلك باختياره ، ولذلك كان هناك معنى للثواب والعقاب .

وهكذا أثاروا مسائل كثيرة من هذا القبيل .

— ٢ —

فى الأصوليات

ومن أهم مبادئهم الدعوة إلى سلطان العقل ، فهم يقدسونه تقديسا عظيما ، ولذلك مظاهر كبيرة فى تعاليمهم . من ذلك :

(ا) كثير منهم حصروا المعجزات فى دائرة ضيقة ، فالنظّام مثلا يكاد يقصر القول بالمعجزات على القرآن ، وينكر انشقاق القمر ويقول : إنه لو كان صحيحا لكان شيئاً عاماً يشهده كل الناس المعاصرين له ، ويخالف رواية مسعود فى ذلك ، كما ينكر نبع الماء من بين أصابع النبى صلى الله عليه وسلم .

(ب) ينكر كرامة الأولياء ، وينكر الحكايات الواردة فى ذلك ، لأنه يرى أن هناك قانونا طبيعيا كتب الله على نفسه اتباعه إلا عند ضرورة المعجزات . قالوا : فلا نؤمن بتغير القوانين الطبيعية إلا بالبرهان القاطع .

(حـ) أنكر المعتزلة رؤية الجن كما يروى العامة ، بل كانوا يؤنبون من اعتقد بها ، أو اعتقد رؤيتها ، أو حكى مشاهدة أعمالها .

(ى) فسروا السحر بأنه لعب الساحر بعين المسحور أو بخياله . فالساحر لا يقلب حقائق الأشياء بدليل قوله تعالى : « وسحروا أعين الناس واسترهبوهم » . فليس للساحر قدرة على قلب الحقائق ، وإنما له قدرة على قلب أوهام الرائى .

(هـ) أثاروا مسألة على جانب كبير من الأهمية من هـذا الباب أيضاً وهى مسألة التحسين والتقبيح العقليين . وملخصها أنهم تساءلوا : هل العقل قادر

وحده على أن يعرف أن الشىء حسن أو قبيح ؟ فقالوا هم بذلك ، أى أن العقل يمكنه وحده أن يدرك حسن الشىء أو قبحه ، وأن يرى أن إنقاذ الغرقى والهلكى . وشكر المنعم والصدق حسنة بطبعها ، وأضدادها قبيحة . قالوا : نعم ، إن هناك أشياء لا يدرك حسنها إلا بالشرع ، كالصلاة فى أوقاتها وعدد ركعاتها والمسح على الخفين ونحو ذلك ، أما أصول المسائل ، كالصدق والكذب والعدل والظلم ونحوها ، فيمكن إدراكها بالعقل .

أما مخالفوهم فقالوا : إذا لم يرد شرع فلا يتميز فعل عن فعل ، ولا يمكن أن يعرف أحسن هو أم قبيح . واحتج المعتزلة بأن الناس كلهم — متدينين وغير متدينين — متفقون على أشياء أنها حسنة ، وأشياء أنها قبيحة . وقالوا : إن من استوى عنده أن يصدق ويكذب فضَّل الصدق إنْ كان فاضلا ، وأن الرجل الغنىّ الوجيه الذى ليس له رغبة فى مال ولا جاه لو رأى مشرفا على الهلاك أنقذه ولو لم يعتنق دينا ، إلى غير ذلك من البراهين .

و بناء على ذلك تساءلوا : هل الجاهليون قبل الإسلام مسئولون عن أعمالهم التى يدركها العقل كالصدق والكذب والقتل والعدل أو غير مسئولين . . . ؟؟ فمن قال إن العقل يدرك ذلك كله ولولم يرد فيه شرع جعلهم مسئولين ، ومن لم يقل بذلك جعلهم غير مسئولين . . ومن ذلك اختلافهم أيضاً فى شكر المنعم : هل هو واجب عقلا أو شرعا ؟ ؟ فالمعتزلة قالوا : إنه يجب شكر المنعم عقلا ، والذين يقولون بالتحسين والتقبيح الشرعيين فقط أنكروا وجوب شكر المنعم عقلا .

(و) حكّموا العقل حتى فى الحديث ، فهم لقولهم بسلطان العقل كانوا يعرضون الحديث على العقل ، فما قبله العقل قبلوه ، وما لم يقبله لم يقبلوه . وربما كان أصرحهم فى ذلك النظام ، فقد حكى الجاحظ[١] مثلا عنــه ما معناه ، أنه لما روى له حديث أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر بقتل الـكلاب واستحياء السنانير ، والحديث عن السنانير : « أنهن من الطوافات عليكم » ، لم يؤمن بهذا الحديث، وقال : إن السنور ليس له كبير نفع ، وإنه كثير الأذى ، وإن الـكلب أنفع منه . فليس الحديث صحيحاً ، أما إن كان الحديث يقبله العقل فالنظّام يقبله ، فإن عارضه العقل ولم يجد له تأويلا ولا سببا فإنه لا يقبله كما يستخلص من كلام ابن قتيبة فى كتابه « تأويل مختلف الحديث » . وكل هـذه الفروع مبنية على أساس القول بسلطان العقل ، ولهذا أباحوا لأنفسهم أن يفسروا القرآن بالعقل ، اعتماداً على معرفتهم باللغة ، وأساليب القرآن وروحه ، كما فعل الزمخشرى فى الـكشاف ؛ أما غير المعتزلة فأكثر اعتمادهم فى التفسير على المنقول من الرواية .

حتى فى باب اللغة والنحو كانوا يميلون إلى العقل ، فزعيم القائلين بالقياس واستعمال ما لم يرو العرب قياساً على ما رووه — وذلك من غير شك يحتاج إلى قوة عقلية لا مجرد رواية — هو أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى وهما من المعتزلة .

(١) انظر الحيوان للجاحظ ، جـ ٢ ص ١٥٣ طبعة عبد السلام هارون .

— ٣ —

فى الطبيعيات

أما آراؤهم فى الأبحاث الطبيعية فمثل أقوالهم فى الروائح والطعوم والضوء . فقد أثار النظام أسئلة وعرض آراء فى ذلك : هل المشمومات والطعوم والأضواء أجسام أو أعراض ؟ وهو يقول : إنها أجسام لا أعراض بمعنى أننا نشم الوردة لانبعاث ذرات صغيرة منها تلامس غدد الأنف فيحدث الشم . وفى الطعوم كالسكر والملح تذوب ذرات منها وتتصل بغدد الذوق فيحصل الذوق بالحلاوة أو الملوحة . وكذلك قال فى الضوء أى أن الشىء المرئى تنبعث منه ذرات تأتى إلى العين فتدرك بياض الشىء أو سواده ، وهكذا .

والإنسان يعجب أولا من سعة عقلهم فى التفكير ، وثانياً من دخول هذه المباحث فى علم الكلام . وقد أقر العلم الحديث نظرية النظام هذه فى المشمومات فهو يقول : إننا نشم رائحة الوردة الجميلة بناء على ذرات انبعثت من الورد ، فلامست الخيشوم ، وإنا إنما نتذوق حلاوة الشىء أو مرارته بناء على ذوبان ذرات تلامس غُدَدَ الذوق ، فإذا لم تتحلل الذرات كالحصى أو الماس مثلا لم ندرك لها ذوقاً . أما العلم الحديث فيخالف النظام فى نظريته فى الضوء ، فليست تنبعث ذرات إلى العين كما يقول فيدرك بياض الشىء أو سواده ، ولكن علة رؤية اللون أبيض أو أزرق هى أن كل لون يتشرب ألوان الطيف ماعدا اللون الذى يرى ، فالأحمر مثلا يتشرب ألوان الطيف كلها ماعدا الحمرة ، فتصل إلى العين عن طريق

الموجات . فترى هـذه المسائل الطبيعية أو الفيزيقية كالبحث فى الطعوم والروائح والألوان ، ما دخلها فى الدين وعلم الـكلام ؟ والظاهر لنا أن الذى ألجأ إليها المناقشات الدينية ، فمثلا لما تعرّضوا لخلق الأفعال تساءلوا : هل خلق الله الجسم والعرض ، أو خلق الجسم ، وليس العرض إلا صفة من صفاته ، فجرّهم ذلك إلى البحث فى الروائح مثلا . هل هى أجسام أو هى أعراض تابعة للأجسام فلم يتـكلموا فيها كما يتـكلم علماء الطبيعة اليوم . إنما تكلموا فيها لأنها متصلة بعقيدة من العقائد الدينية من قريب أو من بعيد ، وهكذا شأنهم فى كل ما تـكلموا فيه من أمور الطبيعة حسب ما نعتقد .

والواقع أن المعتزلة فى علم الـكلام لم يكن موقفهم كموقف مَن يؤلف كتاباً فيختار منهاجه ، ويرتب أبوابه ، إنما كانوا يتـكلمون فى المسائل حسب ما تقتضيه الأحوال من مهاجمتهم لخصومهم ، أو مهاجمة خصومهم لهم أو نحو ذلك ، كالجيش فى القتال ، قد يضطر إلى عمل لم يكن رَسَم خطته من قبل ، ولـكن اضطره إليه حركة من حركات خصومه .

إلى جانب ذلك نراهم تعرضوا لمسائل تـكاد تـكون سوفسطائية مثـل : الإلٰهُ قادر على الظلم أولا ؟ هل الجنة موجودة اليوم أولا ؟ هل قدرة الله تتعلق بالمحال ؟ هل الـكافر قادر على الإيمان ، والمؤمن قادر على الـكفر ؟ إلى كثير من أمثال ذلك . وكان من قولهم وقول خصومهم أن تـكوّن علم الـكلام . فعلم الـكلام وليد أقوال المعتزلة وخصومهم ، حتى أهل السنة وأئمتهم كأبى الحسن الأشعرى ما كانوا يبحثون مسائلهم لولا أبحاث المعتزلة . كما سنبين ذلك فى الـكلام على أبى الحسن الأشعرى .

والظاهر أنَّ هذه الحركة الكلامية كانت فى منتهى النشاط فى الدوائر العلمية ، كما نرى ذلك فى حركة خلق القرآن ، وفى المناظرات فى مجالس الخلفاء ، وفى المساجد ، وفى الشوارع ، وفى الجنائز . وكانت كل هذه الأشياء تأخذ من أزمانهم وعقولهم الوقت الطويل والمجهود الكبير . فلما جاء المتوكل واضطهد المعتزلة ، وأزال دعوتهم ، خفت صوت علم الكلام بعض الشىء ، ومَنْ كان معتزلياً رجع عن اعتزاله أحياناً ، وتستّر أحياناً ، إلا من كان جريئاً لايتصل بالدولة من قريب أو من بعيد ، أو كان فى حمى دولة تكره الاعتزال ، كما سنبينه بعد .

— ٤ —

فى المسائل السياسة

وأما المجموعة الرابعة وهى المسائل السياسية فقد تعرضوا للإمامة ومن هو أحق بها ، وتعرضوا للأحداث السياسية كواقعة الجَمَل ، ومقتل عثمان ، والخلاف بين على ومعاوية ، وشرّحوها كلها تشريحاً دقيقاً . وكان المعتزلة مختلفين فى ذلك ، فمنهم من قال بأفضلية علىّ واستحقاقه الخلافة لمجموع صفات فيه ، ولكنهم قالوا ذلك باعتدال فعرفوا لأبى بكر وعمر مزاياهما ، وقالوا بصحة خلافتهما وإن كان الأَوْلى غير ذلك . فكانوا بذلك قريبين من الشيعة ، بعيدين عن الروافض وهم الذين رفضوا القول بإمامة أبى بكر وعمر وتبرأوا منهما ، ومن أجل ذلك نرى بعض الناس شيعياً معتزلياً معاً ، وبعض المعتزلة قال بغير ذلك فكان معتزلياً لا شيعياً . ونحن ننقل الآن بعض أقوالهم الدالة على مذاهبهم .

(ا) فى الإمامة :

لقد بحثوا فى الإمامة ، ومعنى الإمامة الولاية على المسلمين ، والمعتزلة يوافقون المتكلمين الآخرين ، ما عدا أتباع نَجْدة من الخوارج ، إذ يقول المعتزلة وغيرهم بوجوب انقياد الأمة لإمام عادل يقيم فيهم أحكام الله ويسوسهم بأحكام الشريعة بدليل قوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » ، ولأن من طبيعة الناس أن يَزَعَهم السلطان أكثر مما يزعهم القرآن . فلا بد من وال تُسْنَدُ إليه الأحكام فى الأموال والزواج والطلاق ومنع الظالم وإنصاف المظلوم إلخ ، وخيرٌ أن يكون الإمام واحداً حتى لا يتنازعا ، ولا بد أن يكون فاضلا عالما حسن

السياسة قادراً على التنفيــذ ... و بعد ذلك اختلف المعتزلة فيما بينهم فقال بعضهم بتفضيل أبى بكر وعمر على علىّ ، وخالفوا بذلك الشيعة ، وقال بعضهم بأفضلية علىّ فوافقوا بذلك الشيعة . فقُدَماء المعتزلة من البصريين كعمرو بن عُبَيد و إبراهيم النظام والجاحظ وثمامة بن الأشرس قالوا : إن أبا بكر أفضل من على ، وجعلوا ترتيب الخلفاء الأربعة فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة . وقال البغداديون من المعتزلة كبشر بن المعتمر ، وأبى جعفر الإسكافى ، وأبى الحسين الخياط ، وأبى القاسم البلخى ، والجبائى : إنَّ علياً أفضل من أبى بكر ، فـكانوا فى ذلك كالشيعة . ولـكن سواء منهم من قدم أبا بكر أو قدم علياً ، فقد كانوا معتدلين فى حكمهم إذ يقولون : سواء كان أبو بكر أفضل أو على أفضل ، فالبيعة لأبى بكر وعمر كانت بيعة صحيحة ، قالوا : ألا ترى أن البلد قد يكون فيه فقيهان أحدهما أعلم من الآخر بطبقات كثيرة ، فيجعل السلطان الأنقص علماً منهما قاضياً ؛ فيتألم الأعظم و ينفث أحياناً بالشكوى ، فلا يكون ذلك طعناً فى القاضى الثانى ، ولا حكما بأنه غير صالح . وهذا أمر مركوز فى طبائع البشر ومجبول فى أصل الغريزة والفطرة ، فأصحابنا لمّا أحسنوا الظن بالصحابة وحملوا ما وقع منهم على وجه الصواب ، وأنهم نظروا إلى مصلحة الإسلام ، وخافوا فتنة لا تقتصر على ذهاب الخلافة . فعدلوا عن الأفضل الأشرف الأحق إلى فاضل آخر فعقدوا له ، كان ذلك عقداً صحيحاً . وقالوا : إنه كان يجب على علىّ أن يعذر الصحابة الذين بايعوا أبا بكر فى العدول عنه و يعلم أن عقدهم لغيره هو المصلحة للإسلام ، فلا يشكو منهم ولا يتوجّد عليهم .

ثم إن المعتزلة فيما بينهم تنازعوا تنازعاً شديداً فى أفضليــة أبى بكر أو على ، ونسوق هنا مثــلا لمـا كان بينهم من جدل ، وذلك هو الجدل بين الجاحظ والإسكافى ، وكلاهما معتزلى .

يقول الجاحظ فى كتابه المشهور بكتاب العثمانية : إن أبا بكر أسلم وهو ابن أربعين سنة وعلياً أسلم ولم يبلغ الحُلُم ، فكان إسلام أبى بكر أفضل ، وهو أول من أسلم على أصح الروايات ، وعلىّ أسلم وهو حدث غرير ، وطفل صغير ، فلم نستطع أن نلحق إسلامه بإسلام البالغين ، لأن المقلِّل قال : إن علياً أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثر زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين . وأيا كان فإسلام الكبير الناضج الذى يفقه معنى الإسلام خير من إسلام الصبى .

وقد رد عليه الإسكافى فى ذلك بأنه لم يكن طفلا يوم أسلم ؛ ودعوى أنه أسلم وهو طفل دعوى غير مقبولة . والإسلام والإيمان والكفر والطاعة والمعصية إنما تقع على البالغين دون الأطفال بدليل عرض النبى عليه الإسلام ، وهو لا يعرضه على صبى . وقال الجاحظ : لو أن عليا كان بالغا حين أسلم ، لكان إسلام أبى بكر أفضل لأن إسلام المتقدم فى السن الذى يعانى مئونة الروية ، واضطراب النفس ، ومشقة الانتقال من دين قد طال الفهم له ، خير من إسلام من نشأ فى بيئة إسلامية ، ولم يعان مثل ما عانى أبو بكر .

قال الإسكافى : إنَّ عليا لم يولد فى دار الإسلام ، ولا غُذِّى فى حجر الإيمان ، وإنما استضافه رسول الله إلى نفسه سَنَة القحط والمجاعة وعمره يومئذ ثمان سنين ، فمكث معه سبع سنين حتى أتى النبى الوحى وهو بالغ كامل العقل ، فأسلم بعد مشاهدة المعجزة وبعد إعمال النظر والفكرة . فإنْ كان علىّ أجابه فإنما أجابه عن نظر ، ورؤية معجزة . وقد كان أبو بكر قبل إسلامه رئيسا معروفا يجتمع إليه كثير من أهل مكة فينشدون الأشعار ويتذاكرون الأخبار ، وقد سافر إلى البلدان ووصلت إليه الأخبار ، وعرف دعوى الكَهَنة وحِيَل السحرة ، ومن كان كذلك كان انكشاف الأمور له أظهر ، والإسلام عليه أسهل ، والخواطر

على قلبه أقل . وكل ذلك عَوْنٌ لأبى بكر على الإسلام . ولذلك لما قال النبى : أتيت بيت المقدس ، سأله أبو بكر عن المسجد ومواضعه فصدّقه وبان له أمره ، وخفت مئونته . أما علىّ فقد خُلِّى وعقله ، وأُلْجِئَ إلى نظره مع صغر سنه واعتلاج الخواطر على قلبه ، والغالب على أمثاله وأقرانه حب اللعب واللهو ، فآمن بما ظهر له من دلائل الدعوة ، ولم يتأخر إسلامه ، فقهر شهوته ، وغالب خواطره ، وخرج من عادته ، وعظم استنباطه ، ورجح فضله ، ولم يأخذ من الدنيا بنصيب ، ولا تنعم فيها بنعيم ، وحمى نفسه عن الهوى ، وكسر شِرَّةَ حداثته بالتقوى .

واحتج الجاحظ بأنه كان لعلى ظهرٌ يحميه كأبى طالب و بنى هاشم ، ولم يكن لأبى بكر شىء من ذلك . وردّ الإسكافى بأنه لو كان ذلك صحيحا لأضعف ذلك من نبوّة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لأن أبا طالب ظَهْرُه ، و بنى هاشم ردؤه .

قال الجاحظ : ولأبى بكر فضيلة فى إسلامه أنه كان قبل إسلامه كثير الصَّدِيق ، عريض الجاه ، ذا يسار وغنى ، يعظَّم لماله ، و يستفاد من رأيه ، فخرج من عز الغِنى وكثرة الصديق إلى ذلّ الفاقة وعجز الوحدة . وهـذا غير إسلام من لا عزّ له ولا جاه له . وزِدْ عليه أن علىّ بن أبى طالب إن لم يكن قد شهره سنّه ، فقد شهره نسبه وموضعه من بنى هاشم ، فليس تَيْم فى بعـد الصيت كهاشم ، ولا أبو قحافة كأبى طالب . قال أصحاب على : إنـكم تُثْبتون لأبى بكر فضيلة صحبة الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة إلى يثرب ودخوله معه فى الغار ، وقلتم إنه كان شريكه فى الهجرة ، وأنيسه فى الوحشة ، فأين هذه من صحبة على عليـه السلام له فى خلوته ، وحيث لا يجد أنيسا غيره ليله ونهاره أيام مقامه بمـكة يعبد الله معه سراً و يتكلف له الحاجة جهراً ، ويخدمه كالعبد يخدم مولاه ، و يشفق عليه و يحوطه . ولئن صحب أبو بكر رسول الله فى رحلته ، فإن عليًّا نام موضع

رسول الله حين أراد الهجرة ، ولولا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أنه أهل لذلك لما أهّله له ، ولو كان عنده نقص فى صبره أو فى شجاعته أو فى مناصحته لابن عمه لما اختاره لذلك ، وقد كان لعلىّ أن يعتلّ بعلّة أو نحو ذلك .

وقد عقد الجاحظ فصلا طويلا بين مبيت علىّ موضع الرسول و بين مبيت أبى بكر فى الغار ، وردّ عليه الإسكافى رداً طويلا . ثم أطال الجاحظ فى ذكر فضائل لأبى بكر من شجاعة وسخاء بالمال وغير ذلك ، فرد عليه الإسكافى بالموازنة بين شجاعة أبى بكر وعلى وموقف هذا وموقف ذاك الخ ... كما جرهم ذلك إلى البحث فى صحة إمامة المفضول ، وسبب ذلك أن الروافض قالوا بوجود نص من النبى على خلافة على لأنه أفضل الصحابة ، فتولية من هو أقل منه فضلا باطلة . فقال جمهور المعتزلة : إن ولاية المفضول صحيحة ، ولذلك كانت ولاية أبى بكر وعمر وعثمان صحيحة ، حتى ولو كان علىّ أفضل منهم .

واستدلوا بجملة أدلة : منها أن أبا بكر قال يوم السقيفة : « قد رضيت لكم أحد هذين الرجلين » يعنى أبا عبيدة وعمر ، وأبو بكر أفضل منهما ولم يقل أحد من المسلمين إذ ذاك إنه لا يحل فى الدين ذلك ، ودعت الأنصار إلى بيعة سعد ابن عبادة ، ولا شك أن فى المسلمين مَنْ هو أفضل منه . ولما عهد عمر إلى ستة رجال كان جائزاً بالضرورة أن يكون بعضهم أفضل من بعض ، فإذا وقع الاختيار على المفضول كان تنفيذاً لقول عمر . وقد سلَّم الحسن الأمر إلى معاوية وهو يعتقد من غير شك أنَّ غيره خيرٌ منه فقالوا : إن الصحابة تفرقوا فى البلدان وهم كثير . فتقييد الإمامة بالأفضل تعجيز ، خصوصاً أن الصحابة تفرقوا فى البلاد من أقصى السند إلى أقصى الأندلس إلى أقصى اليمن ، إلى أقصى أرمينية وأذربيجان وخراسان ، فكيف يعرف حالهم ثم كيف يعرف أفضلهم ، ثم نحن لو سئلنا عن

معارفنا وأصحابنا أيهم أفضل لصعب الجواب . والرسول صلى الله عليه وسلم قد قلّد كثيراً من الصحابة كثيراً من البلدان ، فاستعمل على اليمن معاذ بن جبل وأبا موسى الأشعرى وخالد بن الوليد ، وعلى عمان عمرو بن العاص ، وعلى نجران أبا سفيان ، وعلى مكة عتاب بن أسيد ، وعلى الطائف عثمان بن أبى العاص ، وعلى البحرين العلاء بن الحضرمى . ولا خلاف فى أن كثيراً من الصحابة أفضل منهم كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وطلحة والزبير . وأيضاً فإن الفضائل كثيرة منها العفة عما فى أيدى الناس ، ومنها الشجاعة والإقدام ، ومنها الحزم والبت فى الأمور ، وقلّما تجتمع هذه الصفات الفاضلة فى أحد ، فقد يكون بعضها فى بعض ، و بعضها فى البعض الآخر ، ففى أيها يراعى الفضل ؟

وفى الحقيقة للولاية صفات لا بد منها فى الوالى كالسياسة وحسن تدبير الأمور ، وقد يكون شخص أفضل من نواح أخرى كثيرة غير هذه ، ثم لا يصلح أن يكون والياً ، فلابد لاستقامة الأمور من القول بصحة إمامة المفضول حتى تسير الأمور ولا تتعطل .

(ب) جواز خطأ الصحابة :

وقد وضع المعتزلة لأنفسهم مبدأ هاما جداً وهو أن الصحابة ليسوا معصومين ، وأن الخطأ يجوز عليهم ، سواء فى ذلك كبيرهم وصغيرهم . وقد مكنهم هذا المبدأ من الحرية فى نقد أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، كما مكنهم من تحليل الأحداث التاريخية ، عكس ما قاله أهل السنة من الكف عن نقد الصحابة بالإجمال .

وقد استدل المعتزلة على ذلك بما كان من نقد الصحابة بعضهم لبعض ، حتى لقد يبلغ النقد أحياناً مبلغ السباب ، فلما عهد أبو بكر بالخلافة لعمر قال طلحة :

« ماذا تقول لربك إذا سألك عن عباده وقد وليت عليهم فظًّا غليظا » فهل قول طلحة هذا إلا طعن فى عمر . وقد روى أنه كان بين أبىّ بن كعب وعبد الله بن مسعود سباب شديد . وروى أن عثمان قال لعبد الرحمن بن عوف يا منافق ، فقال عبد الرحمن : « ما كنت أرى أن أعيش حتى يقول لى عثمان يا منافق . . . والله لو استقبلت من أمرى ما استدبرت ، ماوليت عثمان شسع نعلى ... اللهم إن عثمان قد أبى أن يقيم كتابك ، فافعل به وافعل » وروى أن عثمان قال لعلىّ فى كلام دار بينهما : « أبو بكر وعمر خير منك ، فقال علىٌّ كذبتَ ، أنا خير منك ومنهما ، عبدتُ الله قبلهما ، وعبدتَه بعدهما » وقد أنكرت عائشة على أبى سلمة قوله فى عِدَّة المتوفَّى عنها زوجها وهى حامل . وروى بعض الصحابة عن النبى أنه قال : « الشؤم فى ثلاثة المرأة والدار والفَرَس » فأنكرت عائشة ذلك وكذّبت الراوى وقالت : إنه إنما قال عليه السلام ذلك حكاية عن غيره . وروى بعض الصحابة أن النبى قال : « التاجر فاجر » . فأنكرت عائشة ذلك وكذّبت الراوى ، وقالت : إنما قال ذلك فى تاجر دلّس . وأنكر قوم من الأنصار رواية أبى بكر : « الأئمة من قريش » وقالوا : « إنه اختلق هذه الكلمة » . وباع معاوية أوانىَ ذهب وفضّة بأكثر من وزنها ، فقال له أبو الدرداء : سمعتُ رسول الله ينهى عن ذلك ، فقال معاوية : أما أنا فلا أرى به بأساً . فقال أبو الدرداء : « من عذيرى من معاوية ، أخبره عن الرسول وهو يخبرنى عن رأيه . . والله لا أساكنك بأرض أبداً » وقال على لعمر وقد أفتاه الصحابة فى مسألة وأجمعوا عليها : « إن كانوا راقبوك فقد غشوك ، وإنْ كان هـذا جهد رأيهم فقد أخطأوا » . وأنكرت الصحابة على أبى موسى قوله : « إن النوم لا ينقض الوضوء » . ولم يصدقوا الخبر المروى عن رسول الله : « أصحابى كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم » وقالوا :

هذا يوجب أن يكون أهل الشام فى صفّين على هُدًى ، وكيف يكون ذلك ؟ وكان يجب أن يكون عمرو بن العاص ومعاوية اللذان كانا يلعنان علياً وولديه على هدى . وقد كان فى الصحابة من يشرب الخمر كأبى محجن الثقفى ، ومن يرتد عن الإسلام كطليحة بن خويلد ، وإنما هذا الحديث من موضوعات متعصبة الأموية ، فإنّ لهم مَنْ ينصرهم بلسانه ، وبوضعه الأحاديث إذا عجز عن نصرهم بالسيف .

وقال : إنه يجوز الخطأ على الصحابة بدليل أنْ جماعة من كبار الصحابة حاصروا عثمان وهذا خطأ ، وهذا المغيرة بن شعبة وهو من الصحابة ادُّعِيَ عليه بالزنا ، وشهد عليه قوم بذلك ، فلم ينكر ذلك عمر ، ولا قال هذا محال ، لأن هذا صحابى . وقدامة بن مظعون لما شرب الخمر فى أيام عمر أقام عليه الحدّ ، وهو رجل من علية الصحابة من أهل بدر المشهود لهم بالجنة ، فلم يرد عمر الشهادة ، ولا درأ عنه الحد ، وقد ضرب عمر أيضاً ابنه حَدًّا فمات ، وكان ممن عاصر رسول الله ، ولم تمنعه معاصرته له من إقامة الحدّ عليه . وهذا علىّ يقول ما حدَّثنى أحد بحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا استحلفته عليه ، واستحلافه عليه معناه اتهامه بالكذب ، وما استثنى أحدا من المسلمين إلا أبا بكر . وقد صرح غير مرة بتكذيب أبى هريرة وقال : لا أحد أكذب من هذا الأوسىّ على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال أبو بكر فى مرضه الذى مات فيه : وددت أنى لم أكشف بيت فاطمة ولو كان أغلق على حرب ؛ فندم ، والندم لا يكون إلا عن ذنب . وقد تأخر علىّ عن البيعة لأبى بكر ستة أشهر إلى أن ماتت فاطمة . فإن كان مصيباً فأبو بكر على خطأ فى انتصابه على الخلافة ، وإن كان أبو بكر مصيباً فعلىٌّ على

الخطأ فى تأخره عن البيعة . وقال أبو بكر فى مرض موته : « لما استخلفت عليكم خيركم فى نفسى (يعنى عمر) فكلكم ورم أنفه ، يريد أن يكون الأمر له لما رأيتم الدنيا قد جاءت . أما والله لنتخذن ستائر الديباج ونضائد الحرير » وهذا طعن فى الصحابة إذ نسبهم لحَسَدِ عمر . وكان بين أُبَيّ بن كعب وعبد الله بن مسعود سباب كثير ، حتى نفى كل واحد منهما الآخر عن أبيه . وروى سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار قال : « كنت عند عروة بن الزبير فتذاكرنا : كم أقام النبى بمكة بعد الوحى ، فقال عروة أقام عشر سنين ، فقلت كان ابن عباس يقول : ثلاث عشرة سنة . فقال : كذب ابن عباس » . وقال ابن عباس : المتعة حلال ، فقال له جبير بن مطعم : كان عمر ينهى عنها ، فقال : يا عدوّ نفسه من ههنا ضللتم ، أحدثكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وتحدثنى عن عمر ؟

وسَبُّ بعض الصحابة لبعضٍ ، وقدح بعضهم لبعض فى المسائل الفقهية أكثر من أن يحصى . . مثل قول ابن عباس وهو يرد على زيد مذهبه العول فى الفرائض : « من شاء باهلته إن الذى أحصى رمل عالج عدداً أعدل من أن يجعل فى مال نصفا ونصفا وثلثا ، هذان النصفان قد ذهبا بالمال فأين موضع الثلث » ؟ وقال علىّ فى أمهات الأولاد وهو على المنبر ، كان رأيي ورأى عمر أن لا يُبَعْنَ ، وأنا أرى الآن بيعهن ، فقام إليه أبو عبيدة السلمانى . فقال : « رأيك فى الجماعة أحب إلينا من رأيك فى الفرقة » .

وكان أبو بكر يقضى القضاء فينقضه عليه أصاغر الصحابة ، كبلال وصُهَيب وغيرهما . وقيل لابن عباس : إن عبد الله بن الزبير يزعم أن موسى صاحب الخضر ليس موسى بنى إسرائيل . فقال : كذب عدو الله . وطعن ابن عباس فى أبى هريرة إذ يروى أنّ رسول الله قال : إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يدخلن يده فى

الإناء حتى يتوضأ ، وقال : فما نصنع بالمهراس؟ ! . وقال ابن عباس . ألا يتقى الله زيد بن ثابت ، يجعل ابن الابن ابنا ، ولا يجعل أب الأب أبا . وقال جرير بن كليب : رأيت عمر ينهى عن المتعة ، وعليًا يأمر بها . فقلت إن بينكما لشرا ، فقال عليّ ليس بيننا إلا الخير ، ولكن أخيرنا أتبعنا للدين . قالوا : فكيف يصح أن يقول رسول الله : « أصحابى كالنجوم ، بأيهم اقتديتم اهتديتم » قلنا لهم إن هذا من موضوعات متعصِّبة الأموية ، فإن لهم من ينصرهم بلسانه وبوضعه الأحاديث إذا عجز عن نصرهم بالسيف . ومثل هذا : « خير القرون قرنى » ومما يدل على بطلانه أن القرن الذى جاء بعده بخمسين سنة شر قرون الدنيا ، وهو أحد القرون الذى ذكره النص ، فهو القرن الذى قتل فيه الحسين ، وحوصرت فيه مكة ، ونقضت فيه الكعبة ، وشربت الخلفاء والقائمون مقامهم والمنتصبون فى منصب النبوة الخمور وارتكبوا الفجور ، كما جرى ليزيد بن معاوية والوليد ابن يزيد ، وأُريقت الدماء الحرام ، وقتل المسلمون وسُبِىَ الحريم واستُعِبد أبناء المهاجرين والأنصار ، ونقش على أيديهم كما ينقش فى أيدى الروم . وذلك فى خلافة عبد الملك بن مروان والحجاج . وإذا تأملتَ كتب التاريخ وجدت أن الخمسين سنة التالية كلها لا خير فيها ، ولا فى رؤسائها ولا أمرائها ، فكيف يصح هذا الخبر . ولو كان هذا صحيحاً وأنَّ الصحابة لا يخطئون لما احتاجت عائشة إلى نزول براءتها من السماء . بل كان الرسول من أول الأمر يعلم كذب أهل الإفك ، وصفوان بن المعطل من الصحابة ، فكان ينبغى أن لا يضيق صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يحمل الهم والغم الشديدين ، وكان يقول صفوان من الصحابة وعائشة من الصحابة ، والمعصية منهما ممتنعة .

قالوا : وقد كان التابعون يسلكون فى الصحابة هذا المسلك ، وينقدون

بعضهم ، ويحكمون بعصيان بعضهم ، وإنما قدّسهم العامة بعد ذلك . وكيف نقول إن الصحابة لا يجوز عليهم الخطأ ، والله تعالى يقول لنبيه : « لئن أشركتَ ليحبطنّ عملك ولتكونن من الخاسرين » و « فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله »[1] .

وقد نفذ المعتزلة هذا المبدأ بالفعل ، فقد روى عن النظام من ذلك الشيء الكثير . وقال الجاحظ فى كتابه المعروف بالتوحيد : « إن أبا هريرة ليس بثقة فى الرواية » وانتقد عمر بن عبد العزيز فى بعض أعماله . وقد فتح هذا أيام المعتزلة باباً واسعاً ، فقالوا أقوالا كثيرة تحرَّج عنها غيرهم ، فمثلا أنكر النظام الإجماع وقال : إنه ليس بحجة ، وجرَّه ذلك إلى القول بعيوب الصحابة ، ولم يتورع عن الطعن الشديد اللهجة .

والحق أيضاً أن المعتزلة تألفت منهم فى ذلك فرق ، ففرق تنتقد حسبما تعتقد ، وفرقٌ تردُّ على النقد حسبما تعتقد أيضاً ، والكل أحرار فمثلا نقد بعضهم أبا بكر نقوداً كثيرة ، وردّ بعضهم عليها ، ونقدوا عمر وعثمان وعلياً وردَّ الآخرون عليهم . ووقفوا عند قول عمر : « إن بيعة أبى بكر كانت فلتة» فهل معنى فلتة ، زلّة وخطيئة ؟ وقال أبو على الجبّائى المعتزلى : « إنها ليست بمعنى زلّة وإنما بمعنى بغتة ، يريد عمر أنها حصلت فجأة ، ولكن الله تعالى دفع شرها ، ولذلك قال عمر : فمن عاد إلى مثلها فاقتلوه ، وهذا تحذير عن أن يبايع الناس من غير مشاورة » .

وقد جرّهم ذلك إلى تعمق فى التحليل النفسى ، للكراهة مثلا التى بين عائشة وعلىّ ، وعائشة وفاطمة ، ولم كانت العرب تكره أن يكون علىٌّ خليفة ، إلى أشياء كثيرة من هذا القبيل .

---

(١) انظر فى ذلك ابن أبى الحديد على شرح نهج البلاغة ج ٤ ص ٤٥٩ وما بعدها .

(ح) المقارنة بين سياسة عمر وسياسة على :

ووقفوا عنــد المقارنة بين سياسة عمر وسياسة على ، و لِمَ كانت سياسةُ عمر ناجحةً وسياسة علىّ فاشلة ، و لِمَ قال الناس : إن عمر كان أسوس و إن علياً كان أعلم ؛ بل قالوا إن معاوية كان أسوس من علىّ وأصحّ تدبيراً . وقالوا : إن النجاح فى السياسة لا يمكن إلا إذا كان السائس يعمل برأيه أحياناً و بما يرى فيه صلاح ملــكه ، وتمهيد أمره وتوطيد قاعدته ، سواء وافق الشريعة أو لم يوافقها ، و إلا لم ينتظم أمره .

وعمر كان مجتهداً يعمل بالقياس والاستحسان ، و يرى تخصيص النص بالرأى و يكيد لخصومه ، و يأمر أمراءه بالـكيد والحيلة ، و يؤدب بالدِرَّة ، و يصفح عن قوم اجترموا ، كل ذلك بقوة اجتهاده ، وما يؤديه إليه نظره .

هذه كانت سياسته . أما علىّ فكان يقف مع النصوص والظواهر ولا يتعداها إلى الاجتهاد والأقيسة ، ولا يضع ولا يرفع إلا بالـكتاب والنص ، فاختلفت طريقتاهما فى الخلافة والسياسة . وعمر كان شديداً ، وعلىّ كان كثير الحــلم ، فازدادت خلافة عمر قوة ، وازدادت خلافة علىّ خلافاً . زد على ذلك ما حدث من الفتن الـكثيرة أيام على من فتنة قتل عثمان ، وفتنة الجمل ، وفتنة صفين ، فشتان بين الخلافتين فيما يعود إلى انتظام المملــكة .

وقد رُدَّ على هــذا القول بأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلتزم الدين بالضرورة ، و يدبر أموره وفقاً للدين . ولم يكن الخلاف عليه كالخلاف على علىّ ، ولم يكن اتباعه للدين سبباً فى ضعف سياسته .

وأجابوا بأن النبي كان يتصرف عن وحى ، والله يقول : لتحكم بين النـاس بما أراك الله .

قالوا : وليس بصحيح أن الناس لم يختلفوا على رسول الله كما اختلفوا على علىّ فالقرآن مملوء بذكر المنافقين والشكوى منهم والتألم من أذاهم . وكثير من المسلمين التووا عليه فى الحروب ، وكثير نازعوا فى الأنفال وطلبوها لأنفسهم ، وكرهوا لقاء العدو ، وقال الله فيهم ، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون .

وعلى الجملة ففى القرآن كثير من الشكوى من المنافقين وغيرهم ، فلئن كان عمر ومعاوية أسوس من علىّ فسببُ ذلك حريتهم أمام الدين حيث يتقيد علىٌّ بنصوص الدين .

(ى) العداء بين عائشة وعلى :

وحلّلوا العداء بين عائشة من جهة ، وعلىّ وفاطمة من جهة أخرى ، فقال بعضهم : أول بدء هذه العـداوة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تزوج عائشة عقب موت خديجة فأقامها مقامها ، وفاطمة هى ابنة خديجة . ومعلوم أن ابنة الرجل إذا ماتت أمها وتزوج أبوها أخرى كان بينها و بين المرأة كدر و بغض ، لأن الزوجة تنفس عليها ميل الأب إليها ، والبنت تكره ميل أبيها إلى امرأة غير أمها . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يُظهر حب عائشة فيزداد ما عنـد فاطمة ، ويكرم فاطمة إكراماً شديداً ، فيزيد ما عند عائشة . وكان رسول الله يقول عن فاطمة : إنه يؤذينى ما يؤذيها ، و يغضبنى ما يغضبها ، فيزيد ذلك من غيظ عائشة ، فلما تزوج علىّ فاطمة بالطبيعة تُسِرُّ إليـه ما فى نفسها من عائشة ، كما أن عائشة كانت تُسرُّ إلى أبيها أبى بكر ما فى نفسها من فاطمة . ولذلك لم تحسن الصـلة أيضاً

بين عليّ وأبى بكر . ولما حدثت حادثة الإفك قال عليّ للنبى صلى الله عليه وسلم لما استشاره : إن النساء غيرها كثير . وقد جرت العادة أن الناس لا يتورّعون عن نقل أحاديث هذا إلى ذاك ، أو هذه إلى تلك ، بل ربما يزيدون عليها ما يوسّع شقة الخلاف .

كل ذلك زاد من بغض كل لصاحبه . ثم إن فاطمة ولدت أولاداً كثيرة بنين و بنات ، ولم تلد عائشة ولداً . وكان رسول الله يقيم بنى فاطمة مقام بنيه ، والزوجة إذا حرمت الولد لم تحب أولاد بنت زوجها . وحدث أن رسول الله سدّ باب أبى بكر إلى المسجد ، وفتح باب على ، فعمل ذلك فى نفسها . وحدث أيضاً أَنْ وُلِدَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم إبراهيم من مارية ، فأظهر عليٌّ السرور بذلك كثيراً ، غيظاً فى عائشة . وكان على يتعصب لمارية و يقول بأمرها عند رسول الله ، فكان ذلك يوغر صدر عائشة . ثم مات إبراهيم فأبطنت فاطمة وعلى الشماتة ، و إن أظهرا كآبة . . وهكذا من التحليلات الدقيقة التى قامت مقام ما يفعله علماء النفس اليوم فى تعليل الحوادث من جهة ، ومن جهة أخرى تدل على أن كثيراً من المعتزلة شرّحوا الحوادث بين كبار الصحابة ، حتى فى امرأة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما يشرحون الحوادث العادية من غير فرق .

هذه أمثلة مختلفة من الاتجاهات التى كان يتجهها المعتزلة : فأمور ميتافيزيقية ، وأمور فيزيقية ، وأمور فى الفقه والحديث والأصول ، وأمور فى السياسة . وقد كان يمكن أن تكون الأمور السياسية أبحاثاً خارجة عن الدين كما تبحث المسائل السياسية اليوم ، ولكنهم ألصقوها بالدين بالحكم على الموافق منهم لآرائهم بالصلاح والتقوى ، والمخالف لآرائهم بالفسوق والعصيان . وكثيراً ما كانوا إذا

تعرضوا لعمل من أعمال الصحابة حكموا بعصيانه أو بعدم عصيانه ، و بأنه يستحق الجنة أو النار ، وبأن عمله يوافق الدين أو يخالفه . وسلك خصومهم مسلكهم ، فكان من ذلك أن اصطبغت الأمور السياسية بالصبغة الدينية .

بين الشيعة والمعتزلة

اختلف الشيعة والمعتزلة فى الأجل ، فقالوا : لو لم يقتل القاتل المقتول ، هل كان يجوز أن يبقيه الله تعالى ؟ فقال أبو الهذيل العلاف بموته لو لم يقتله القاتل . وليس يجوز أن يكون الله تعالى قد أجّل أجله ثم يقتل قبل بلوغه ، أو يخترم دونه ، ولا أن يتأخر عما أجّل له . وحجته فى ذلك توبيخ الله للمنافقين على قولهم : « لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا » فقال تعالى : « قل فادرءوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين » فدلّ على أنهم لو تجنبوا مصارع القتل لم يكونوا ليدرءوا ذلك الموت عنهم . وقالت الأشعرية والجهميةوالجبرية إنها آجال مضروبة محدودة ، و إذا أجل الأجل وكان فى المعلوم أن بعض الناس يقتل ، وجب وقوع القتل منه لا محالة ، وليس يقدر القاتل على الامتناع عن قتله .

وقال قوم من معتزلة البغداديين بالقطع على حياته لو لم يقتله قاتل ، وهذا عكس ما ذهب إليه أبو الهذيل ومن والاه . قالوا : لو لم يمت المقتول فى ذلك الوقت إذا لم يقتله القاتل ، لما كان القاتل مسيئا إليه إذ لم يفوّت عليه حياة ، ولو لم يبطلها لبقيت ، ولما استحق القود ، ولكان ذابح الشاة بغير إذن مالكها قد أحسن إلى مالكها ، لأنه لو لم يكن قد ذبحها ماتت فلم ينتفع بلحمها . قالوا : فإذا

قال لنا : فهل تقولون إنه قطع عليه عمره ؟ قلنا : إن الزمان الذى كان يعيش فيه لو لم يقتله القاتل ، لا يسمى عمراً إلا على سبيل المجاز ، و إنا نقطع على أنه إن لم يقتل لمات . وقال قدماء الشيعة : الآجال تزيد وتنقص ، ومعنى الأجل الوقت الذى علم الله تعالى أن الإنسان يموت فيه إن لم يقتل قبل ذلك ، أو لم يفعل فعلا يستحق به الزيادة أو النقصان فى عمره . قالوا : ور بما يقتل الإنسان الذى صرف له من الأجل خمسون سنة وهو ابن عشرين ، ور بما يفعل من الأفعال ما يستحق به الزيادة فيبلغ به مائة سنة ، أو يستحق به النقص فيموت وهو ابن ثلاثين سنة . قالوا : فما يقتضى الزيادة ، صلة الرحم ، ومما يقتضى النقيصة الزنا وعقوق الوالدين . قالوا : ومما يدل على ذلك قوله تعالى : ولكم فى القصاص حياة يا أولى الألباب ، فحكم سبحانه بأن إثبات القصاص مما يمنع القاتل عن القتل فتدوم حياة المقتول . فلو كان المقتول يموت لو لم يقتله القاتل ، ما كان فى إثبات القصاص حياة . وأما إلزام القاتل القود والغرامة فلأنا لا نقطع بموت المقتول لو لم يقتل ، بل يجوز أن يبقى .

* * *

و يرى المعتزله أيضاً أن لملك الموت أعوانا تقبض الأرواح بحكم النيابة عنه ، ولولا ذلك لتعذر عليه وهو جسم أن يقبض روحين فى وقت واحد ، أحدهما فى المشرق والآخر فى المغرب ، لأن الجسم الواحد لا يكون فى مكانين فى وقت واحد . ولا يبعد أن يكون الحفظة الكاتبون هم القابضون للأرواح عند انقضاء الأجل ، و إنما يكون ذلك فى الوقت الذى يأذن الله تعالى به وهو حضور الأجل ، فألزموا أن يغوص الملك مع الغريق ليقبض روحه تحت الماء ، وقالوا : ليس بمستحيل أن يتخلل الملك الماء فى مسامه ، فإن فيه مسامّ ومنافذ .

رجال المعتزلة فى دور الضعف

وفى دور ضعف المعتزلة وذهاب دولتهم ظهر أعلام قلائل كانوا أكفاء لرفع راية الاعتزال .

نذكر منهم : أبا القاسم البلخى ، وأحيانا يلقب بالكعبى ، وقد كان رأس طائفة من المعتزلة يقال لهم الكعبية ، وله مقالات كثيرة فى الاعتزال ومات سنة ٢١٧ هـ .

ومنهم التنوخى وقد تلقب بهذا اللقب أكثر من واحد ، وكلهم معتزلة .

ومنهم أبو على الجبائى وهو أستاذ أبى الحسن الأشعرى إمام أهل السنة ، كان رئيس المعتزلة نسبة إلى جبى من أعمال خوزستان ، مات سنة ٣٠٣ ، وقد ردّ أيضاً على ابن الراوندى ، ولما خرج الأشعرى ردّ عليه . ولكن مع الأسف لم يصلنا شىء من ذلك ، ولا من تفسيره للقرآن على مذهب الاعتزال . وأظن أن الزمخشرى قد استفاد منه بعد فى تفسيره . وكثيراً ما يخلط الناس بينه و بين ابنه أبى هاشم الجبائى ، وقد كان أيضاً عالما كبيراً من علماء المعتزلة ، و إليه تنسب فرقة معتزلية تسمى « البهشمية » نسبة إلى أبى هاشم ، وقد انتشرت كثيراً فى الرىّ وما حولها بسبب تأييد الصاحب بن عباد الوزير البويهى له .

* * *

ولما ضعفت الدولة العباسية واختل نظامها ، جاءت الدولة البويهية . وذلك أن الخليفة العباسى المستكفى جعل أحمد بن بويه أميراً للأمراء ، وأنعم عليه بلقب معز الدولة ، وكان يدّعى الانتساب إلى ملوك ساسان فتسلط هو و إخوته على الخلفاء ،

يعزلونهم إن شاءوا ويبقونهم إن شاءوا ، ووسعوا سلطانهم فأخذوا أصبهان وشيراز ، حتى بلغوا الأهواز وألفوا دولة اتخذوا عاصمتها شيراز . والذى يهمنا هنا أن دولة بنى بويه كانت دولة شيعية تتظاهر بشعائر الشيعة جهاراً وتحتفل بالأعياد الشيعية كإقامة المناحة فى عاشوراء حداداً على الحسين ، وتحتفل بعيد الغدير ، إلى غير ذلك ... وكان أهم أمرائهم وألمعهم عضد الدولة . وقد كان يقيم فى شيراز ولكن لم يمنعه ذلك من إصلاح بغداد وإنشاء عدد كبير فيها من المساجد والمستشفيات . ومما خدم به التشيع إنشاؤه مشهد علىّ . وقد كان يرعى العلم والأدب ، وينفق فيهما الأموال الكثيرة . وإذ كانت دولة بنى بويه شيعية كما ذكرنا ، وكان قسم كبير من المعتزلة شيعيا أيضاً ، أفسحت الدولة البويهية صدرها للمعتزلة ، فوجدنا الاعتزال يترعرع فيها ، فابن العميد الذى كان واليا للبويهيين على إقليم الرىّ كان معتزليا .

القاضى عبد الجبار

وابن عباد أعظم وزراء البويهيين كان معتزلياً أيضاً ، وكان يقرب العلماء والأدباء ، وقالوا : إنه كان يرسل إلى بغداد كل سنة خمسة آلاف دينار لتفرق على الفقراء وأهل الأدب . وكان هو نفسه عالماً أديباً حتى ألّف فى اللغة معجماً كبيراً يقع فى سبع مجلدات سماه «المحيط» ، كما كان محدِّثاً ، كما ألف فى إمامة علىّ ابن أبى طالب . وقد عين المعتزلى الكبير عبد الجبار قاضى القضاة له ، وجاء فى رسائل الصاحب العهد الذى عهد به الصاحب إليه وجاء فيه : « هذا ما عهد مؤيد الدولة إلى عبد الجبار بن أحمد ، ولاّه قضاء القضاة بالرىِّ وقَزْوين وسُهْرورد وقُمْ ، وما يجرى معها ويتصل بها ، علماً بما لديه من علم يهتدى بأضوائه ، وورع يستسقى

بأنوائه ، وكفاية يكتنفها الحلم والحجى ، وأمانة يبعثها النسك والتقى ، وموقع فى علية أهل الدين ترمقه النواظر ، ومكان من صفوة المسلمين تعقده الخناصر » . و بعد أن أمره باتباع الكتاب والسنة والإجماع قال : « و إذا عرض فى الأحكام مايعضل استخراجه ، و يستبهم رتاجه ، فليتبين و يتئد ، وليفكر و يجتهد ، و يستشر أماثل العلماء و يستحدّ ، و يأخذ من آراء الفقهاء ولا يستبدّ ، حتى إذا وضحت له القضية أكمل فضل الاستشارة ، بيمن الاستخارة ، وأمضى من الحكم ، ما يأمن فيه مصارع الظلم ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون . وأمر أن يواصل بين الخصوم ، والأخذ من الظالم للمظلوم ، مسوياً فى الخصومة إذا اشتجرت ، والألحاظ إذا تصرّفت ، والألفاظ إذا جرت ، بين الغنى المثرى ، والفقير المقوى ، والقوى الموقر ، والضعيف المستحقر ، فليس بالثراء تشرف المنازل وترتفع ، ولا بالإقواء تضعف الوسائل وتتضّع . و بعد فكل عباد الله ، يسعهم فضله ، ومشرع فى حكم الله ، يشملهم عدله ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم[(١)] » وتدل الرسائل على أن الصاحب بن عباد كان يعزّ القاضى عبد الجبار و يوقره ، و يواليه بالكتابة فى العزاء وغيره ، و يفرح بالكتب تأتيه منه . وعلى الجملة فهى تدل على تشيّع واعتزال عُرِفا عن البويهية .

وقد ألف عبد الجبار كتباً كثيرة وصل إلينا : « شرح الأصول الخمسة عند المعتزلة » فى أجزاء عدة شرحاً مستفيضاً مسهباً يبين أصول المعتزلة ونظراتهم فى إسهاب[(٢)] ونقلت عنه أقوال كثيرة كان يحاج بها الشريف المرتضى . وقد كان

(١) انظر رسائل الصاحب بن عباد التى نشرها الدكتور عبد الوهاب عزام والدكتور شوقى ضيف .

(٢) توجد منه نسخة مصورة فى الإدارة الثقافية فى الجامعة العربية ، ونسخ أخرى فى أماكن أخرى أيضاً ، وهذا كتاب يجب نشره لقيمته .

الشريف المرتضى نقيب الطالبيين ببغداد ، وكان عالماً كبيراً ، بقيت لنا من تآليفه « أمالى المرتضى — الغرر والدرر — الشيب والشباب » . وكان شيعياً على مذهب الإمامية[1] .

وكان يرى فى الإمامة وفى تفسير أعمال الصحابة ما يوافق مذهبه ، وكان قاضى القضاة عبد الجبار شيعياً معتزلياً ، ومعنى هذا أنه أقلّ تعصباً للتشيع ، وأكثر تحكيما للعقل . لذلك جرى بين العالمين الكبيرين جدال طويل فى مسائل كثيرة نسوق أمثلة منها . وأنت إذا رأيت فى الكتب كلاماً يسند إلى النقيب فهو الشريف المرتضى ، فإن أسند إلى قاضى القضاة فهو عبد الجبار .

وربما صورنا أصول الخلاف بين الشريف المرتضى وعبد الجبار فى كلمة صغيرة وهى أن الشريف المرتضى لما كان شيخاً للإمامية فى عصره كان يرى بطبيعة الحال أنَّ هناك نصاً من النبى صلى الله عليه وسلم على استخلافه لعلى ، لا من طريق الكفاية وحدها ، بل إن النبى صلى الله عليه وسلم نَصَّ عليه بالاسم ، بل إن الخلافة فيه وفى أبنائه من فاطمة من بعده . وإذْ كان علىّ معيَّناً بالاسم فأبو بكر وعمر مغتصبان حقه ، ظالمان له ؛ وذلك عكس الزيدية من الشيعة إذ كانوا يرون أن النبى عيَّنه بالوصف لا بالشخص فهم يعتقدون صحة إمامتهما ، وأن خلافتهما صحيحة . وكثير من المعتزلة على هذا الرأى ، إذ كانوا قد قالوا بصحة إمامة المفضول كما ذكرنا من قبل ؛ فكان الشريف المرتضى من الرأى الأول القائل ببطلان إمامة أبى بكر وعمر وعثمان ، وكان القاضى عبد الجبار من الرأى الثانى القائل بصحة إمامة المفضول .

---

(١) انظر الكلام على الامامية فى الجزء الثالث من ضحى الإسلام .

وطبيعي أنّ الإماميـة ومنهم الشريف المرتضى لم تتحرج من نقد أبي بكر وعمر وعثمان ، وتفسير الأحداث التاريخية وفق مذهبهم ، كما أن من الطبيعي دفاع القاضي عبد الجبار عنهم والرد على مطاعن الإمامية . فقامت بذلك ثورة عنيفة بين العالمين .

قال الإمامية : إن الرسول صلى الله عليه وسلم نص على إمارة عليّ نصاً صريحاً جلياً غير نَصِّ يوم الغدير[1] ، فإنه كان تلميحاً ، بل إنه نَصَّ عليه بالخلافة وبإمرة المؤمنين ، وأمر المسلمين أن يسلموا عليه بها ، وصرح لهم فى كثير من المقامات بأنه خليفة عليهم من بعده وأمرهم بالسمع والطاعة له . أما الشيعة من المعتزلة فتقول : إنه إن لم يكن هناك نص صريح مقطوع به ، وإن يكن شيء فتلميح وإيماء يحتمل الدلالة عليه ، ويحتمل غيرها .

ومن المؤسـف أنه قد اختُلِقت أحاديث كثيرة زادت فى شـناعة الموقف كإسنادهم أن عمر ضرب فاطمة بالسوط ، وضغطها بين الباب والجدار حتى صاحت : « يا أبتاه » ، وأنه هدد علياً بالقتل إن لم يبايع ، إلى آخر الأحداث التى لم تثبت تاريخيا .

أما المعتزلة فقالوا : — إنه لو كان هناك نص صريح لا يحتمل الشك ما تجرأ جمهور الصحابة على مخالفته ، ولـكان عليٌّ نفسه عند مخالفتهم له قد ذكَّرهم بهذا النص فعدلوا عن مبايعة غيره . بل لو كان هـذا النص موجوداً ما بايع على غيره وكانت مبايعته لأبي بكر وعمر وعثمان خطأ منه ، خصوصا أنه لم يصلنا خبر عن

---

(١) حديث خم ، كان بعد انصراف النبي من حجة الوداع ، حيث نادى فى الناس : « ألست أولى بالمؤمنين من أنفسهم ؟ . فقالوا اللهم نعم . فقال : من كنت مولاه فهذا على مولاه ... » وهناك أحاديث أخرى مثل : « على منى بمنزلة هارون من موسى » ومثل : « إنى تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتى أهل بيتى » ... الخ .

أن أحداً من هؤلاء أكرهه إكراها شرعيا ، وكل ما فى الأمر أن كثيراً من الصحابة عرفوا مزايا على من شجاعة وعلم ونحو ذلك ، ولكن لاعتبارات دينية واجتماعية ومصلحية فضّلوا أن يبايعوا أبا بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان . فلما جاء دور على لم يتأخروا عن مبايعته .

ولما لم يعجب الإمامية هذا الكلام وجهوا نقودا كثيرة إلى من سبق عليا من الأئمة . فمثلا ثارت ضجة كبيرة حول مسألة « فدك » وهى قرية اختلف عليها أبو بكر من ناحية ، وعلى وفاطمة من ناحية أخرى ، وهى قطعة من الأرض كانت مما أفاء الله على رسول الله فدخلت فى ملكه ومات عنها ، فهل تورث أو لا تورث ؟ وإن وُرثت ففاطمة أحق بها ، ووجهة نظر أبى بكر أنه علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « نحن معاشر الأنبياء لا نورث ، ما تركنا صدقة » وكان رسول الله يتصدق بغَلتها ، فكان أبو بكر يصنع فيها ما كان يصنع رسول الله . وجاء عمر فعمل كما كان يعمل أبو بكر . وفاطمة وعلى كانت وجهة نظرهما أن المال مال النبى ، وأنه يعود عليهما بالإرث ، وقد أنصفهما أبو بكر إذ رُوِىَ أنه قال لفاطمة : « أنت عندى صادقة أمينة ، إن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم عَهِد إليك فى ذلك عهدا أو وعدك به وعدا صدّقتك وسلمته لك ، فقالت : لم يعهد إلىّ فى ذلك بشىء ، ولكن الله تعالى يقول : يوصيكم الله فى أولادكم . فقال أبو بكر : أشهد لقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : — « إنا معاشر الأنبياء لا نورث » ثم اتسعت شقة الخلاف بين الرأيين واتهموا أبا بكر بالخطيئة ، واتهموا عمر بممالأة أبى بكر . وشغلت الحادثة الناس زمنا طويلا حتى أتت إلى عبد الجبار وخصومه فقال عبد الجبار : « إن الخبر الذى احتج به أبو بكر وهو نحن معاشر الأنبياء

لا نورث ، لم يقتصر على روايته هو وحده ، بل استشهد عليه عمر وعثمان وطلحة والزبير وسعد بن أبى وقاص وعبد الرحمن بن عوف فشهدوا كلهم به ، فكان لا يحلُّ لأبى بكر وقد صار الأمر إليه أن يقسم التركة ميراثاً فيعطى فاطمة حقّها ، حتى لقد روى أن فاطمة لما سمعت شهادة هؤلاء الشهود كفّت ، ولكن بعض الشيعة تعصب لها أكثر من نفسها فقالوا : قال الله : « وورث سليمان داود » فهذا نبى ورث ، فرد الآخرون عليهم بأنه ورثه العلم والحكمة ، لكنه لم يورثه المال . وقد صمم أبو بكر وعمر على رأيهما . هذه خلاصة وجيزة لهذه الحادثة .

وماتت فاطمة وعلىّ وأبو بكر وعمر ، فلا ندرى معنى لأن يبقى الخلاف قائما بعد مرور نحو ثلاثة قرون ، بل إلى الآن ، و يدخل الأمر فى الدين ، وتنقسم المذاهب المختلفة ، بل من العجيب أن تستمر إلى يومنا هذا مع التناحر والتخاصم .

نعم : إننا نفهم أن تكون المسألة مما يصح أن يعرض له المؤرخون اليوم وأمس وغداً ، شأنها فى ذلك شأن المسائل التاريخية . أما أن تكون سبباً للتنافر والتخاصم بعد زوال أصحابها بقرون ، فأمر يدعو إلى العجب .

وقس على هذا كثيراً من المسائل التى من هذا القبيل .

بعد هذا نعرض لمثَلٍ من نقد الشيعة الإمامية لأبى بكر[1] ؛ فقد نقدوه بأنه هو وعمر كانا من جيش أسامة الذى أرسله النبى صلى الله عليه وسلم للغزو وقد تأخرا عن السير معه ، فتأخُّرُهما يقتضى مخالفةً للرسول ، فأجاب قاضى القضاة بأن أبا بكر لم يثبت أنه كان فى جيش أسامة ، والمسألة مسألة مصالح عامة ، وقد اختير

---

(١) نقل ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة جـ٤ ص ١٦٦ وما بعدها ما أورده قاضى القضاة فى المغنى من المطاعن التى طعن بها فى أبى بكر ، وجواب قاضى القضاة عنها ، واعتراض المرتضى فى الشافى على قاضى القضاة ، ونذكر ما عندنا فى ذلك . . . .

أبو بكر ليكون أمير المؤمنين ، فالمصلحة تقتضى بقاءه لتيسير الأمور ، وإلا ساءت حال المسلمين . . وقد استأذن أسامة فى أن يبقى معه عمر ليعينه .

ونقدوا أبا بكر أيضا فى قصة خالد بن الوليد ، وأن خالداً قتل مالك بن نويره وتزوج امرأته فى ليلته . ثم إن أبا بكر ترك إقامة الحدّ عليه ، وإيقاع العقوبة عليه وقال أبو بكر : « إن خالدا سيف من سيوف الله سلّه الله على أعدائه ، فلا أعاقبه ، مع أن الله تعالى قد أوجب القَوَدَ » واعتُذِر عن أبى بكر بأنّ خالدا قد اعتذر لأبى بكر عن خطئه ، وقد قبل أبو بكر عذره لجليل أعماله . قال المرتضى : « إن أبا بكر لا يملك العفو فى الحدود لأنها حق الله ، فالعفو عنه تغافل عن أمره وإقرار له على الخطأ الذى وقع فيه » .

ونقدوا أبا بكر أيضاً فى أنه استخلف عمر ، مع أنّ النبى صلى الله عليه وسلم لم يستخلف ، خصوصاً أنه روى عن أبى بكر أن رسول الله لم يستخلف . وقد أجيب عنه بأنّ كونَ رسول الله لم يستخلف لا يدل على تحريم الاستخلاف . كما أن النبى لم يركب الفيل فلا يدل على تحريم ركوب الفيلة . وقد رأى أبو بكر المصلحة فى ذلك ، وخاف من حصول الخلاف بين الصحابة بعد وفاته على من يكون إماماً ، فبَتَّ فى الأمر باستخلاف عمر .

ونقدوه أيضاً بأنه سمى نفسه خليفة رسول الله مع اعترافه بأنه لم يستخلفه . وأجاب قاضى القضاة بأنّ الصحابة سموه خليفة رسول الله ، لاستخلافه إياه على الصلاة عند موته ، الخ ... وهذا إن دل على النشاط الفكرى ، وحرية الرأى ، فإنه يدل مع الأسف على الفرقة الشديدة وعدم توجههم إلى الناحية العملية التى تصلح بها أمور المسلمين .

ومثل ذلك أيضاً ما طعنوا به عمر فى مسألة الشورى عند موته فقد روى أنه قال : «لا أدرى ما أصنع بأمة محمد ؟ قال له ابن عباس : لم تهتم وأنت تجد من تستخلفه عليهم ؟ قال أصاحبكم ؟ — يعنى عليا — قلت نعم . هو لها أهل فى قرابته من رسول الله وصهره ، وفى سابقته و بلائه . قال عمر : إن فيه بطالة وفكاهة . قال ابن عباس : قلت فأين أنت من طلحة ؟ قال عمر : فأين الزهو والنخوة ؟ قلت : فعبد الرحمن بن عوف . قال عمر : هو رجل صالح على ضعف فيه ، قلت فسعد ؟ قال : ذاك صاحب مقنب وقتال ، لا يقوم بقرية لو حمل أمرها . قلت فالزبير . قال وعقة لقس ، مؤمن الرضا ، كافر الغضب ، شحيح .. و إن هذا الأمر لا يصلح إلا لقوى فى غير عنف رفيق فى غير ضعف ، جواد فى غير سرف . قلت : فأين أنت عن عثمان ؟ قال : لو وليها لحمل بنى أبى معيط على رقاب الناس ... » .

ونحن نشك فى هذا الحديث لأسلوبه ، ومع كل ذلك فالمعنى صحيح ، وهو أن عمر جعل الأمر فى هؤلاء الستة لحيرته فى أيهم أصلح للإمامة ، فطعن المرتضى عليه من وجوه — فأولا — ذم كل واحد بأن ذكر فيه طعنا ثم أهله للخلافة ، ثانياً : قال : إن اجتمع علي وعثمان ، فالقول ما قالاه ، و إن صاروا ثلاثة فالقول للذين فيهم عبد الرحمن ... قال المرتضى : إنما قال عمر ذلك لعلمه بأن علياً وعثمان لا يجتمعان ، وأن عبد الرحمن لا يكاد يعدل بالأمر عن عثمان لقرابته منه . وقال إنه أمر بضرب أعناقهم إن تأخروا عن البيعة فوق ثلاثة أيام ، وهم لم يأتوا أمرا يستوجب القتل . وقد أجاب عبد الجبار أن عمر إنما فعل ذلك لأنه لم ير فى نظره رجلا كاملا حتى يسند الخلافة إليه فرشح أصلحهم لها ، وثانياً إنما رجح الجانب الذى فيه عبد الرحمن لأنه أزهدهم فى الخلافة فأسند إليه الاختيار . ثالثاً : قوله : إن عثمان وعليا لا يجتمعان وأن عبد الرحمن يميل إلى عثمان قلة دين لا يصح

أن تسند إلى عبد الرحمن بمجرد الرأى . ورابعا : أمره بقتل من تخلف ليس بثابت صحته ، ولو صح لـكان عمر معذورا ، لأنه يؤول بالأمة إلى الشقاق .

هذا ملخص صغير جدا مما دار بين المرتضى وعبد الجبار[١] .

الزمخشرى

ثم جاء بعد ذلك الزمخشرى[٢] . و إذا نحن وصلنا إليه و إلى عبد الجبار فقد وصلنا إلى خلاصــة مجهود المعتزلة وأبحاثهم فى أر بعة قرون تقر يبا . وهو أبو القاسم محمود بن عمر الخوارزمى الزمخشرى[٣] ، وهو إمام كبير فى التفسير والنحو واللغة مؤلف تآليف عظيمة فى كل ذلك ، ففى اللغة والبلاغة « أساس البلاغة » و « المستقصى فى الأمثال » و « الفائق فى غريب الحديث » و « مقدمة الأدب » وفى النحو « المفصل » و « الأنموذج » و « المفرد المؤلف » وله كتاب « الرائض فى علم الفرائض » وله « أطواق الذهب فى المواعظ » إلى غير ذلك من الـكتب القيمة . وكلها فيه جدّة وابتكار ، وأعظمها تفسير الـكشاف المشهور .

وقد اشتهر الزمخشرى فى عصره ، ومدحه الشعراء والأدباء ، وطلب العلماء أن يعطيهم الإجازة فى رواية كتبه . ومن لطيف ذلك أن الحافظ أبا الطاهر السِّلَفى كتب إليه من الإسكندرية يستجيزه ، وكان الزمخشرى مجاورا بمكة ، قضى فيها زمنا طويلا ، وسكن فى دار قريبة من الـكعبة ، واستفاد فى أثناء ذلك فوائد

---

(١) إن اردت التفصيل فارجع إلى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد فى مواضع متفرقة . [حـ ٣ ص ١٦٩ — ١٧٠] .

(٢) ولد الزمخشرى ٤٦٧ هـ وتوفى ٥٣٨ ، فى زمخشر حدى قرى خوارزم ، واسمه جار الله أبو القاسم محمود بن عمر ، لقب نفسه « جار الله » حين أقام بالحجاز مجاورا للبيت العتيق

(٣) راجع كتابنا ظهر الإسلام الجزء الثانى ص ٤١ — ٤٤ .

كثيرة . فكتب إليه الزمخشرى جواباً طويلا يشبه خطاب أبى العلاء لابن القارح يقول فيه : « مامثلى مع أعلام العلماء إلا كمثل السُّها مع مصابيح السماء . . . والجهام الصُّفر والرِّهام مع الغوادى الغامرة للقيعان والآكام ، والسُّكيِّت المخلَّف مع خيل السِّباق ، والبُغاث مع الطير العَتَاق ... وما التلقيب بالعلاّمة ، إلا شبه الرقم بالعلامة ، والعلم مدينة أحد بابيها الدراية ، والثانى الرواية وأنا فى كلا البابين ذو بضاعة مزجاة ، ظلّى فيها أقلص من ظل حصاة ؛ أمَّا الرواية فحديثة الميلاد ، قريبة الإسناد ، لم تستند إلى علماء نحارير ولا إلى أعلام مشاهير ، وأما الدراية فثمد لا يبلغ أفواها ، وبَرْض ما يبل شفاها ... ولا يغرنكم قول فلان وفلان فىَّ ... [وعدَّد قوماً من الشعراء والأدباء] ، فإنّ ذلك اغترار منهم بالظاهر المموَّه ، وجهل بالباطن المشوّه ، ولعل الذى غرهم منى ما رأوا من حسن النصح للمسلمين ، وإيصال الشفقة إلى المستفيدين ، وقطع المطامع عنهم ، وإضافة المبارّ والصنائع عليهم ، وعزة النفس ، والذَّب بها عن السفاسف الدنيَّات ، والإقبال على خويّصتى ، والإعراض عما لا يعنينى ، فجللت فى عيونهم وغلطوا فىّ ، ونسبونى إلى ما لست منه فى قبيل ولا دبير » .

وإنما سقنا هذه الفقرة أولا : للدلالة على أسلوبه ؛ وثانيا : لأنه شهر بين الخاصة من قومه بالعلم ، حتى استجازوه ؛ وثالثاً : لدلالتها على أنه كان عزيز النفس ، محبّا للخير ، كافّا على ما لا يعنيه ، مقبلا على شأنه . وهو مع ذلك يتستر وراء هذه القطعة بالاعتداد بنفسه ، إذ يقول فى بعض شعره :

سَهَرِى لتنقيح العلوم ألذُّ لى   من وصل غانيةٍ وطول عناق
وتمايلى طَرَباً لحلّ عويصةٍ   أَشْهَى وأحلى من مدامة ساقى

وصرير أقلامى على أوراقهـا　　أحلى من الدوكاء والعشاق[1]

وألذ من نَقْرِ الفتـــاة لدفِّها　　نَقْرِى لأُنْـفِى الرمل عن أوراقى

أأبيت سهران الدجى وتبيتـه　　نوما وتبغى بعد ذاك لحاقى ..؟؟

* * *

والذى يهمنا هنا الكلام عن تفسيره واعتزاله . وكان يجاهر بمذهبه ، و يدونه فى كتبه ، و يصرح به فى مجالسه . وكان إذا قصد صاحباً له استأذن عليه فى الدخول و يقول لمن يأخذ له الأذن : قل له : « أبو القاسم المعتزلى بالباب » . وقد بذل مجهودا كبيراً وتحمل عناء شاقا فى سبيل تفسير الآيات القرآنية على مقتضى مذهب الاعتزال من الأصول الخمســة ، وهى التوحيد والعدل والوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[2] ، فمثلا : إن فى القرآن الـكريم آياتٍ ظاهرها يدل على الاختيار ، وأن العبد يخلق أفعال نفسه ، وآيات ظاهرها أن الله خالق كل شيء ، والتوفيق بينهما متعب جداً ، وقد حار فى ذلك كل المتكلمين وقالوا : إنّ هـذا من الأسرار التى لا يمكننا الوصول إليها ، و إن عقلنا البشرى لا يستطيع إدراك سرها ، و إن كان الصوفية من أمثال محيي الدين بن عربى والغزالى رأوا أنهم أدركوا ذلك عن طريق الـكشف .

على كل حال تعب الزمخشرى كثيرا فى التوفيق وتفسير الآيات على هـذه الأصول والتعاليم المعتزلية الأخرى ، كنَفْىِ السحر وأنه ليس قلباً لطبائع الأشياء و إنما هو لعب بأعين الناظرين وعقولهم ، وعدم رؤية الجن وغير ذلك ، ونسوق

---

(١) نغمتان فى الموسيقى .

(٢) انظر تفصيل ذلك فى الجزء الثالث من ضحى الإسلام

الآن أمثلة تدل على مقدار ما فعل . فأول ذلك مثلا : أنه بدأ كتابه « الكشاف » بقوله الحمد لله الذى خلق القرآن على مذهبى فى الاعتزال ، ثم غيرت فيما بعد بالحمد لله الذى أنزل القرآن ، ومثلا : قال تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة . . » وظاهرها أنه تعالى حجر على قلوبهم ، فلا يستطيعون بعد الإيمان ، هذا الظاهر ضد ما يقوله المعتزلة فى اختيار العبد فى خلق أفعال نفسه فقال : إنه لاختم على القلوب ولا على الأسماع ، ولا تغشية على الأبصار على الحقيقة ، وإنما هو من باب المجاز . ويحتمل أن يكون من كلا نوعيه ، وهما الاستعارة والتمثيل : أما الاستعارة فأن تجعل قلوبهم — لأن الحق لا ينفذ فيها ولا يخلص إلى ضمائرها من قبل إعراضهم عنه . . واستكبارهم عن قبوله واعتقاده — كأنها مستوثق منها بالختم . وأبصارهم لأنها لا تجتلى آيات الله المعروضة ، كأنما غطى عليها ، الخ ...

وثانياً لما جاء إلى آية « فلم تقتلوهم ولكنَّ الله قتلهم وما رميتَ إذ رميتَ ولكن الله رمى » كان ظاهرها أن أفعال العباد كلها منسوبة إلى الله فى الواقع ، وليست نسبتها إلى الإنسان إلا نسبة إلى الظاهر . فجاء الزمخشرى ، فأوّل الآية أيضاً إذ قال : إن افتخرتم بقتلهم فأنتم لم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، لأنه هو الذى أنزل الملائكة وألقى الرعب فى قلوبهم وشاء النصر والظفر ، وقوّى قلوبكم . وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ، يعنى أنَّ الرمية التى رميتها لم ترمها أنت على الحقيقة ، لأنك لو رميتها لم يبلغ أثرها إلا ما يبلغ أثر رمية البشر ، ولكنها كانت رمية الله حيث أثرت ذلك الأثر العظيم ، فأثبت الرمية لرسول الله لأن صورتها وجدت منه ، ونفاها عنه لأن أثرها الذى لا يطيقه البشر فعل الله . وهكذا ... أول الآيات كلها من هذا القبيل على مذهب الاعتزال .

ولما وصل الزمخشرى إلى قوله تعالى : « إن الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء » فسرها على مذهب المعتزلة فوقف عند الجملة الأولى : إن الله لايغفر أن يشرك به ، وجعل لمن يشاء متعلقاً فقط به يغفر مادون ذلك . فهو لايغفر الشرك مطلقا ، ويغفر ما دون ذلك لمن تاب . بخلاف السُّنِّيَّة فقد قالوا : إن الله يغفر ما دون الشرك لمن يشاء ولو من غيرتوبة . وتقييد المعتزلة ، مغفرة مادون ذلك بالتوبة مما لا دليل عليه . وقد قال الزمخشرى : إنها لولم تقيد بالتوبة لزم إغراء الله تعالى العبد بالمعصية . والإغراء بذلك قبيح يستحيل على الله .

وقال الزمخشرى فى قوله تعالى : « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب ألا يقولوا على الله إلا الحق » إن المراد من الآية توبيخ أولئك الورثة على إثباتهم القول بالمغفرة مع إصرارهم على ماهم فيه . وعن ابن عباس رضى الله عنه أنهم وُبِّخوا على إيجابهم على الله غفران الذنوب التى لايزالون يعودون إليها ولا يتوبون منها . وعرّض الزمخشرى فى تفسيره بأهل السنة وزعم أن مذهبهم هو مذهب اليهود بعينه ، حيث جوزوا غفران الذنوب من غير توبة .

وكذلك أول آيات الحسد فى مثل قوله تعالى : « قل أعوذ برب الفلق من شر ما خلق ومن شر غاسق إذا وقب ومن شر النفاثات فى العقد ومن شر حاسد إذا حسد » لابالتعاويذ ونحوها ، ولكن من طريق إيقاع الشقاق وبث الأخبار لإفساد النفوس ، إلى غير ذلك .

وفى نظرى أن هذا كله وضع مقلوب ، فبدل أن يطبق المبادىء ويخضع القرآن لها ، كان يجب أن يطبق القرآن ويخضع المبادىء له . ولكن هذا كانت طريقته .

وإذْ كان إيمان الزمخشرى إيمانًا جـدليا ، وأعنى بالإيمان الجدلى الإيمان عن طريق المنطق والمقدمات والنتائج والقياس ، فقد أنكر ما يقوله الصوفية فى شأن الحب ، فالصوفية يقولون فى حب الله كما يقول المحبون من البشر بعضهم فى بعض ، وحتى إنهم استعاروا فى حبهم ألفاظًا الغزل وشعر الغزليين من الشعراء ، كأبى نواس ومسلم بن الوليد ، وذكروا الوصال والهجران والغناء فى المحبوب ونحو ذلك ، وقالوا فى ذلك الشىء الـكثير ننقـل لك بعضا منه ؛ من ذلك قول أبى عبد الرحمن السلمى : « المحبة أن تغار على محبو بك أن يحبه غيرك » وقالوا : « المحبة سكر لا يصحو صاحبه إلا بمشاهدة محبو به » . ثم السكر الذى يحصـل عنـد المشاهدة لا يوصف ، وأنشدوا .

فأسْـكَرَ القَوْمَ دَوْرُ كاسٍ   وكانـ سُـكْرِى من المُدِيرِ

وقالوا : « الشوق احتياج القلب إلى لقاء المحبوب وعلى قدر المحبة يكون الشوق » وقيل لبعض الصوفية هل تشتاق إليه فقال : إنما الشوق إلى غائب وهو حاضر لا يغيب الخ الخ ... وقالوا إن الحب ينقسم إلى ثلاثة أقسام : الأول محبـة العوام وهى الحب للإحسان ، وقد جبلت القلوب على محبة من أحسن إليها ، وهو حب يتغير ، وهو حب الذين يطلبون أجراً على مايعملون ، وفيه يقول أبو الطيب .

وما أنا بالباغى على الحبِّ رشوةً   ضعيفُ هَوًى يُرْجَى عليه ثوابُ

القسم الثانى محبة الخواص الذين يحبون الله إجلالا وإعظاما ، ولأنه أهل لذلك ، و إلى هذا أشار النبى بقوله : نعم العبد صهيب ، لو لم يخف الله لم يعصه . وقالت رابعة العدو ية .

أحبك حبّين حبُّ الهَوَى   وحُبٌ لأنك أَهْـلٌ لذا كا

وهذا الحب لا يتغير لبقاء الجمال والجلال .

والقسم الثالث محبة خواص الخواص وهو الحب الناشيء من الجذبة الإلهية ، وأهل هذه المحبة هم المستعدون لكمال المعرفة . وحقيقتها أن يفنى المحب فى المحبوب وربما بقى صاحبها حيران سكران لا هو حى فيرجى ، ولا ميت فيبكى . وفى مثل ذلك يقول الشاعر :

يقولون إن الحب كالنار فى الحَشَا ألا كذبوا فالنار تَذْكو وتَخْمَدُ

وما هو إلا جذوةٌ مسَّ عودها ندى فَهْىَ لا تذكو ولا تتوقَّدُ

* * *

ومحبة الرب لهذه الأقسام هى فيما يتعلق بالعوام الرحمة ، وكأنه قال لهم : اتبعونى بالأعمال الصالحة أرحمكم ، وتعلقت بالخواص من حيث الفضل وكأن الله قال لهم : اتبعونى بمكارم الأخلاق أخصكم بتجلى الجمال عليكم . وتعلقت بخواص الخواص من حيث الجذبة ، فكأن الله قال لهم : اتبعونى ببذل الجود ، أخصكم بجذبى لكم . وقالوا : والقطرة من هذه المحبة تغنى عن الغدير .

وفى سكرة منها ولو عُمْرُ ساعةٍ ترى الدهر عبداً طائعاً ولىَ الحكم

إلى كثير من مثل هذه الأقوال . . .

والزمخشرى وأمثاله من المعتزلة لا يؤمنون بشىء من ذلك ، ويرون أن الحب بهذا المعنى لا يكون إلا بين الأشخاص الماديين ، ولا يمكن أن يكون بين العبد والله ، إنما المحبة من العبد الطاعة ومن الله الثواب . وعلى هذا درج الزمخشرى فى تفسيره ، واستنكر ما ذهب إليه الصوفية فى كثير فى تفسيره لآيات الحب . وطبيعى أن يكون هناك خلاف بين المؤمن بعقله والمؤمن بقلبه .

على كل حال كان الزمخشرى قوياً كل القوة فى تفسيره لبلاغته، و بيان بلاغة القرآن و إعجازه ، وتمكنه من اللغة والأساليب ، حتى إنَّ أهل السنة لم يستطيعوا أن يتخلوا عنه بل انتفعوا به ، واستخدمه كل المفسرين الذين أتوا بعده تقريباً فى علمنا . وقد ألّف ابن المنير الإسكندرى المالكى قاضى الإسكندرية المتوفى سنة ٦٨٧ هـ ، كتاباً ضمنه التنبيه على مافى الكشاف من الاعتزال وناقشه ، وردّ عليه ، أو فسّر الآيات الدالة على الاعتزال فى نظر الزمخشرى بتفسير آخر كما يفهمه أهل السنة .

وعلى الجملة فقد كاد يكون الزمخشرى آخر فحل من الفحول الذين دافعوا عن الاعتزال ، فلم يأت بعده من يسابقه أو يجاريه .

أدب المعـــتزلة

وقد خلّف المعتزلة للعالم العربى أدباً كثيراً . ونستعمل هنا كلمة أدب « بالمعنى الواسع » فتفاسير للقرآن وتحاليل للأحداث التاريخية ، وملء الهواء بالمناظرات التى لا حدّ لها ، كالمناظرات فى خلق القرآن إلى دراسات للحيوان لدلالته على قدرة الله ، إلى شعر ومراسلات ، إلى إثارات للعقول . ويكفيهم فخراً فى الأدب صحيفة بشر بن المعتمر فى البـلاغة وما ألّفه الجاحظ فى موضوعات كثيرة لم يكن يستطيع أن يؤلف فيها لولا الاعتزال ، إلى أدب البويهيين والصاحب بن عباد وابن العميد ومن كان فى بلاطهما من الأدباء ، إلى مناقشات القاضى عبد الجبار إلى أدب الزمخشرى . ولـكن مع الأسف أنه لما دالت دولة المعتزلة وكُرِهوا من عامة العلماء اختفت أيضاً كتبهم إلا القليل ، وأصبح الناس يتقربون إلى الله بإحراقها ، بل إنا نعدّ من أدب المعتزلة ماقيل فى هجائهم وسبّهم ، إذ لو لم يدعوا دعوتهم ما هجوا ، ومن أمثلة ذلك ما كتبه فيهم بديع الزمان الهمذانى فى إحدى مقاماته واسمها « المقامة المارستانية » .

وسماها المارستانية لأنه تصوّر رجلا مجنوناً فى مستشفى المجاذيب دخل عليه رجلان عيسى بن هشام ومعتزلى اسمه أبو داود العسكرى فأخذ هـذا المجنون يشتم المعتزلى ويهجوه ويسفه آراءه ، فمثلا يقول له : « إن الخيرة لله لا لعبده » وذلك خلاف ما يقول المعتزلة من أن العبد مختار مطلق فى أفعاله وليس لإرادة الله دخل فيها . ويقول له : إنكم يا معتزلة[1] تقولون : « خالق الظلم ظالم ، أفلا تقولون

(١) فى الأصل : وأنتم يامجوس هذه الأمة ... الخ ، يريد بمجوس هذه الأمة المعتزلة .

خالق الهلك هالك ؟ » ذلك لأن المعتزلة يقولون إن الله لو كان خالقاً لأفعال العبد وفى الناس من يقع منهم الظلم ، لـكان الله خالقاً للظلم ، ولو كان خالقاً للظلم لـكان ظالما فرد عليهم بقوله : إن الله خالق فناء العالم ، وفناء الأفراد ، فعلى قياسكم يكون خالق الإفناء فانياً ، تعالى الله عن ذلك . و يقول : « إنَّ إبليس خير منكم إذْ يقول ربّ بما أغويتنى ، فأقرّ بالإغواء وأنكرتم وآمن وكفرتم ...» وتقولون : «إن العبد يختار أفعال نفسه والمختار لا يبعج بطنه ، ولا يفقأ عينه ، ولا يرمى من حالق ابنه » أى أنه إذا كان مختاراً ما صدرت عنه هذه الأفعال . ثم قال : « فليحزنكم أن القرآن بغيضكم ، وأن الحديث يغيظكم ، و إذا سمعتم : من يضلل الله فلا هادى له ألحدتم ، و إذا سمعتم : زُويت[1] لى الأرض فأريت مشارقها ومغاربها ، جحدتم » وذلك لأن أكثر المعتزلة ينكرون الإسراء والمعراج إلا بالروح . ثم إذا قيل : عرضت علىّ الجنــة حتى هممت أن أقطف ثمارها ، وعرضت علىّ النار حتى اتقيت حرّها بيدى ، أنغضتم رءوسكم ، ولويتم أعناقكم . و إن قيل : عذاب القبر ، تطيّرتم . و إن قيل : الصراط ، تفاخرتم . وذلك لأن أكثر المعتزلة ينكرون وجود الجنة والنار اليوم ، كما ينكرون عذاب القبر بآلام حسية ، و إنما هى كما يقولون بآلام نفسية ، كما ينكرون عذاب الصراط بالمعنى المادى ويقولون « إنه عبارة عن طريق الحق » ثم يسبّهم « بأنهم خبث الحديث » لأنهم اعتزلوا حديث الناس لما سمعوا حديث الحسن البصرى فسماهم من أجل ذلك خبث الحـديث كما سبّهم بأنهم « مخانيث الخوارج » والمخانيث جمع مخناث ، كالمخنث ، وذلك لأنهم اتفقوا مع الخوارج فى تفسيق بعض الناس الذين حكموا أبا موسى الأشعرى ولم يكن من رأيهم التحكيم ، لـكن الخـوارج كان من رأيهم قتال من حكموا بتضليله ، وأما

(١) حديث للرسول ، وزويت لى الأرض أى جمعت .

المعتزلة فلا يرون القتال . فالمعتزلة بالنسبة للخوارج كالمخانيث من الرجال . . الخ

والذى يظهر أن بديع الزمان حكى لنا صورة من أقوال الناس فى عصره ضد المعتزلة لما زالت دولتهم فكان خصومهم يقولون عليهم مثل ما حكى بديع الزمان . وأن بديع الزمان أديب فقط لا هو فيلسوف ولا متكلم ، وذلك شأن بعض أدبائنا اليوم كحافظ وشوقى يتلقفون الآراء من العلماء الدارسين و يصرفونها فى شكل شعرى جميل . ور بما كان بديع الزمان ماكرا مخادعا ، إذ سمى المقامة مارستانية ، وجعل سبهم على لسان مجنون ، كأن المعتزلة لا يسبهم إلا مجنون .

وكان من ضمن أدباء المعتزلة قوم من أحرار النحويين دعوا إلى القياس فى اللغة . ومن أعلامهم أبو على الفارسى وتلميذه ابن جنى ، وكلاهما معتزلى فكان يقول أبو على : « ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب ، فإذا عربت العرب لفظة أعجمية أجريت عليها أحكام الإعراب وعددتها من كلام العرب وأجزت الاشتقاق منها ، كما عرب العرب لفظة الدرهم واشتقوا منه دُرْهِمَتُ الخبَّازى صار وزنها كالدراهم ، وقالوا رجل مُدَرْهِم ، أى كثرت دراهمه » .

وكان يقول : « لو شاء شاعر أو ساجع أن يبنى بإلحاق لام الكلمة اسماً أو فعلا لجاز له ولكان ذلك من كلام العرب ، وذلك نحو قولك : خرجج أكرم من ذخلل ، وضربب زيد عمراً ، ومررت برجل ضربب ونحو ذلك . فقال له تلميذه ابن جنى : افترتجل اللغة ارتجالا ؟ قال ليس بارتجال ولكنه مقيس على كلامهم فهو إذن من كلامهم ... ألا ترى أنك تقول : طاب الخشكنان فتجعله من كلام العرب و إن لم تكن العرب تكلمت به هكذا » .

وأما ابن جنى فقد نحا فى كتابه الخصائص منحى جديداً طريفاً يدل على تذوقه للغة وتوسعه فيها ، رأى الفقهاء وضعوا للفقه أصولا و المتكلمين وضعوا لعلم

الـكلام أصولا ، فأراد أن يضع للغة أصولا . وكان له فضل فيما سماه « الاشتقاق الـكبير » و يعنى به أصول الـكلمة وتقليبها على وجوهها المختلفة واستخراج التباديل والتوافيق منها ، كأن تأخذ كلمة « كلم » وتحولها إلى ملك ومكل ولـكم وكمل ولمك وتمعن النظر فيها لتنظر هل هذه الحروف إذا جمعت كلها دلت على شيء واحد ، وترى أن هذه الحروف إذا جمعت دلت على القوة . ومما يؤسف له أن مدرسة القياس هذه لم تستمر فى سيرها ، فقد نـكبت عند ما نكبت المعتزلة .

* * *

كان المعتزلى يتباهى باعتزاله و يفتخر به . قال صاحب الحور العين : « إن المعتزلة ينظرون إلى جميع المذاهب كما تنظر ملائـكة السماء إلى أهل الأرض مثلا ، ولهم من التصانيف الموضوعات والـكتب المؤلفات فى دقائق التوحيد والعدل والتنزيه لله عز وجل ، مالا يقوم به سواهم ولا يوجد لغيرهم ولا يحيط به علماً لـكثرته إلا الله عز وجل . وكل متكلم بعدهم يغترف من بحارهم ، ويمشى على آثارهم . ولهم فى معرفة المقالات والمذاهب المبدعات تحصيل عظيم ، وحفظ عجيب وغرض بعيـد لايقدر عليه غيرهم ، ينقدون المذاهب كما ينقد الصيارف الدنانير والدراهم »[1] .

وقد أخذ مصباح المعتزلة يخبو شيئاً فشيئا إلى أن انطفأ . وأصبح القول بالاعتزال سراً بعد أن كان جهراً . ولذلك أسباب سنذكرها عند الـكلام على الأشعرى إن شاء الله .

---

(١) الحور العين تأليف الأمير أبى سعيد نشوان بن سعيد بن نشوان اليمنى الحميرى والرسالة مطبوعة فى مصر ـــ ١٩٤٨ ، ص ٢٠٦ .

الباب الثانى

أهل السنة

الفصل الأول

الأشـــاعرة

عرف هذا الاسم منذ أن جاء أبو الحسن الأشعرى البصرى . والأشعرى هذا ربيب المعتزلة ؛ فقد تربى عليهم ، وأخذ الكلام منهم وقد روى السبكى فى طبقات الشافعية : « أنه أقام على الاعتزال أربعين سنة ، حتى صار للمعتزلة إماما » وقال الحسين بن محمد العسكرى : « كان الأشعرى تلميذا للجبائى ، وكان صاحب نظر وذا إقدام على الخصوم ، وكان الجبائى صاحب تصنيف وقلم ، إلا أنه لم يكن قوياً فى المناظرة ، فكان إذا عرضت مناظرة قال للأشعرى : نب عنى » .

فنحن إذا أنصفنا قلنا إن مذهبه هو مذهب المعتزلة معدّلا فى بعض مسائله ولكنه استطاع أن يحوّل كثيرا من الناس من الاعتزال إلى مذهبه الجديد ، ونجح فى ذلك إلى حد كبير .

علمنا أنه نشأ معتزليا ولكنه تحوّل . قال بعضهم : إنه رأى رؤيا جعلته يعدل عن الاعتزال ، وهذا لا يقنع . وقالوا : إنه اعتكف فى بيته طويلا ، ثم أعلن عدوله عن الاعتزال . وإن صح ذلك فمعناه أنه ظلّ يفكر طويلا فى أصول الاعتزال ، فلما لم يرضه بعضها عدل عن الاعتزال . يضاف إلى ذلك أنه ناظر أستاذه أبا على الجبائى فى بعض المسائل وقالوا إنه انتصر عليه ، كما سنذكر ، فكان ذلك من الأسباب التى دعته إلى ترك الاعتزال . وفى نظرى أنه انتصر على المعتزلة لأسباب :

١ — أن الناس كانوا قد ملوا كثرة المناظرات والمماحكات والمحن التى شهدوها أو سمعوا بها فى محنة خلق القرآن ، فكرهوا هذه الطائفة التى سببت لهم كل هذه المشاكل وأخذ كثير منهم بأَزْر من يجابههم .

٢ — أن أبا الحسن على ما يظهر من ترجمته كان جدلا قوى الحجّة فلفت الأنظار إليه . وكان أيضاً معروفا بالصلاح والتقوى وحسن المنظر ، مما جذب نفوس الناس إليه ووجدوا فيه الشخص الذى يلقون حملهم عليه إذا عدلوا عن الاعتزال .

٣ — أن السلطات الحكومية من عهد المتوكل قد تخلت عن نصرة المعتزلة . وأغلب الناس يمالئون الحكومة أينما كانت ، ويخافون أن يعتنقوا مذهباً لا ترضاه ، فهربوا من الاعتزال إلى من يهاجم الاعتزال .

٤ — رزق أبو الحسن الأشعرى بأتباع أقوياء أخذوا مذهبه ودعوا إليه ودعموه بالأدلة والبراهين أمثال إمام الحرمين والاسفراييني والباقلانى ؛ فكان كل عالم من هؤلاء العلماء لمنزلته العظيمة يرغب الناس فى الدخول فى مذهب الأشعرى ويبعدهم عن الاعتزال .

٥ — سقطت الدولة البويهية الشيعية وجاء عقبها الدولة السلجوقية التركية السنية . وكانت دولة قوية تنصر السنية بالعقلية التركية ، ورزق ملكها ألب أرسلان بالوزير العظيم « نظام الملك » وكان فى الدولة السلجوقية يشبه ابن العميد وابن عباد فى الدولة البويهية . هذان ينصران التشيع والاعتزال ، وهذا ينصر السنية . وقد كان نظام الملك هذا مثقفاً ثقافة واسعة ، عالماً ، سياسياً ، حكيما حتى إنه طلب إلى رجال عصره أن يؤلف كل منهم كتابا يشرح فيه كيف يتصور أن تكون الحكومة العادلة . فألف هو كتاب « سياسة نامة » وألف فى هذا

الموضوع الرحالة المشهورة « ناصر خسرو » كما ألف فى ذلك « عمر الخيام » .
ومن جليل أعماله أنه أنشأ مدارس كثيرة من أشهرها المدرسة النظامية ، ومدرسة فى نيسابور ، ومدرسة فى هراة ، إلى مدارس أخرى ، وحشر فى هذه المدارس العلماء العظام أمثال أبى حامد الغزالى يدرسون على مذهب أهل السنة فانتشر مذهبهم فى كل الأنحاء . وكانت النتيجة الطبيعية لهـذا أن يخمد التشيع والاعتزال .

ومع هذا فلم يخل الأشعرى فى أول أمره من ساخطين عليه مهاجمين له حتى لم يتورع بعضهم من أن يسلقه بألسنة حداد . وقد تجمع ضدّه المعتزلة لما خرج عليهم ، فألفوا الكتب ضده وفنّدوا مذهبه ، كذلك فعل الذين خالفوه فى بعض آرائه ، مثل ابن حزم الأندلسى فلم يتورع أن يقول فيه أقذع الأقوال . وممن لم يكن يؤمن به على ما يظهر الإمام الذهبى .

* * *

اعتكف الأشعرى فى بيته ١٥ يوما يفكر فى كل ما تعلم عن المعتزلة . قالوا : « ثم خرج إلى الجامع وصعد المنبر وقال : معاشر الناس إنما تغيبت عنكم هـذه المدة لأنى نظرت ، فتكافأت عندى الأدلة ولم يترجّح عندى شىء على شىء ، فاستهديت الله فهدانى إلى اعتقاد ما أودعته فى كتبى هـذه وانخلعت من جميع ما كنت أعتقده ، كما انخلعت من ثوبى هذا . وانخلع من ثوب كان عليه ورمى به » .

وأول ما بلغنا من شكه وخروجه أنه ناظر أستاذه الجبائى ، فقال الأشعرى له : ما قولك فى ثلاثة : مؤمن وكافر وصبى ؟ فقال الجبائى المؤمن من أهل

الدرجات والكافر من أهل الهلكات والصبي من أهل النجاة . فقال الأشعري فإن أراد الصبي أن يرقى إلى أهل الدرجات هل يمكن ؟ قال الجبائي : لا ، يقال له : إن المؤمن إنما نال هذه الدرجة بالطاعة ، وليس لك مثلها ، قال الأشعري : فإن قال : التقصير ليس مني ، فلو أحييتني كنت عملت من الطاعات كعمل المؤمن قال الجبائي : يقول له الله : كنت أعلم أنك لو بقيت لعصيت ولعوقبت ، فراعيت مصلحتك ، وأمتك قبل أن تنتهي إلى سن التكليف ... قال الأشعري : فلو قال الكافر : يا رب علمت حاله كما علمت حالي ، فهلا راعيت مصلحتي مثله ؟ فانقطع الجبائي » وهذه المناظرة مبنية على قول المعتزلة : إن الله تعالى يجب عليه مراعاة الأصلح للعبد ، فناقشه الأشعري في هذا المبدأ .

ورووا مناظرة أخرى له خلاصتها أن رجلا سأل الجبائي هل يجوز أن يسمى الله عاقلا ؟ فقال الجبائي لا ، لأن العقل مشتق من العقال ، والعقال بمعنى المانع ، والمنع في حق الله محال . فقال الأشعري للجبائي : فعلى قياسك لا يسمى الله تعالى حكيما ، لأن هذا الاسم مشتق من حكمة اللجام ، وهي الحديدة المانعة للدابة عن الخروج . ويشهد لذلك قول حسان :

فنحكم بالقوافي من هَجَانا ونضرب حين تختلط الدّماء

بمعنى نمنع بالقوافي من هجانا .

وقال آخر :

أبني حنيفة حكِّموا سفهاءكم إني أخاف عليكمُ أن أغضبا

أى امنعوا سفهاءكم . فإذا كان اللفظ مشتقا من المنع ، والمنع على الله محال ، لزمك أن تمنع إطلاق « حكيما » عليه تعالى ، فلم يجد الجبائى جواباً ، وسأل الأشعرى : ما تقول أنت ؟ قال : أجيز حكيما ، ولا أجيز عاقلا ... لأن طريقى فى مأخذ أسماء الله السماع الشرعى ، لا القياس اللغوى ، فأطلقت حكيما ، لأن الشرع أطلقه ، ومنعت عاقلا ، لأن الشرع منعه ، ولو أطلقه الشرع لأطلقته . وهكذا سار الجدل بينهما حتى انفصل عنه الأشعرى وعن الاعتزال .

انتصار الأشاعرة

لم تسر الأمور بعد ذلك سيراً هادئا بسبب ما تمكن فى الناس من الاعتزال فكنا نرى مناظرات بين العلماء ، وحيرةً واضطراباً بين الناس . فمثلا يروون أنه « اجتمع أبو إسحاق الإسفراييني الأشعرى والقاضى عبد الجبار المعتزلى ، فقال عبد الجبار فى ابتداء جلوسه للمناظرة : سبحان من تنزّه عن الفحشاء ؛ فقال الإسفراييني : سبحان من لا يقع فى ملكه إلا ما يشاء . فقال عبد الجبار : فيشاء ربنا أن يعصى ؟ فقال الإسفراييني . أيعصى ربنا قهرا ؟ ؟ فقال عبد الجبار : أفرأيت أن منعنى الهدى وقضى علىّ بالردى ، أأحسنَ إلىَّ أم أساء . فقال الإسفراييني : إنْ كان منعك ما هو لك فقد أساء ، وإن منعك ما هو له ، فيختص برحمته من يشاء . فانقطع عبد الجبار ... وهذه المناظرة مبنية على أن المعتزلة تقول إنَّ الله لم يرد الكفر من الكافر ، بل تركه يفعل ما يشاء باختياره . والأشعرى ومَنْ تبعه يقولون : إن الله خالق أفعال العباد .

وأحيانا تشتد الخصومة ، كالذى روى أن السلطان السلجوقى طغرل بك كان له وزير اسمه الكندرى ، وكان شيعيا معتزليا متعصبا للتشيع ، وكان يعقد فى داره مجالس المناظرة كما كانت دور غيره أيضاً مكانا للمناظرة . فأوعز للسلطان طغرل بك بلعن المبتدعة على المنابر ، ودس عنده أن الأشعرية من ضمن المبتدعة ، واتخذ ذلك ذريعة إلى إهانة أتباع أبى الحسن ومنعهم من الوعظ والتدريس ، وعزلهم من خطبة الجامع ، واستعان بالحنفية على الشافعية . وأكثر الشافعية أشعرية ، حتى حكى بعضهم أن اضطهاد الأشاعرة فى هذه الحادثة يشبه اضطهاد الأمويين للعلويين . وفى هذه الفتنة أمر طغرل بك بسبب هذه الدسائس أن يقبض على

كثير من كبراء الأشعرية كإمام الحرمين ، وأبى القاسم القشيرى ، وأبى سهل بن الموفّق . ولما قرئ الكتاب بنفيهم تحرّشت بهم العامة والأوباش ، وقد حبس بعضهم وهرب بعضهم . وكان ممن هرب إمام الحرمين فقد هرب إلى الحجاز . ولم تخمد هذه الفتنة إلا بتغير الأحوال . فقد قتل الكندرى وخلف إلب إرسلان طغرل بك .

ومما يدل على هلع الناس وفزعهم ما نرى فى هذا العصر من استفتاءات من الناس للعلماء الذين يثقون بهم ، وعقد المجامع لإصدار الفتاوى ، مثل الفتوى التى صدرت من القشيرى يشكو مما أصاب أهل السنة ويحكى ما نالهم من المحنة . والفتوى التى صدرت من الحافظ البيهقى . . ونحن نسوق مثلا نص سؤال للعلماء وجواب عليه مما يدل على الحيرة . . فمثلا استفتى بعض أهل بغداد بعض العلماء فقالوا : ما قول السادة الأئمة الأجلة فى قوم اجتمعوا على لعن فرقة الأشعرى وتكفيرهم ، ما الذى يجب عليهم ؟ فأجاب قاضى القضاة أبو عبد الله الدامغانى الحنفى بقوله : « إنه قد ابتدع وارتكب مالا يجوز وعلى الناظر فى الأمور أعز الله أنصاره الإنكار عليه وتأديبه بما يرتدع به هو وأمثاله عن ارتكاب مثله » ووقع على الكتاب الدامغانى هذا . و بعد ذلك كتب أبو إسحاق الشيرازى فتوى أخرى يقول فيها : الأشعرية أعيان أهل السنة ونصّار الشريعة انتصبوا للرد على المبتدعة من القدرية والرافضة وغيرهم ، فمن طعن فيهم فقد طعن على أهل السنة ، و إذا رفع أمر من يفعل ذلك إلى الناظر فى أمر المسلمين وجب عليه تأديبه بما يرتدع به كل أحد . ومثل هذا كان كثيراً .

ومن الفتاوى فتوى القشيرى يقول فيها : « بسم الله الرحمن الرحيم ، اتفق أصحاب الحديث أن أبا الحسن الأشعرى كان إماما من أئمة أصحاب الحديث ومذهبه

مذهب أصحاب الحديث ، تكلم فى أصول الديانات على طريقة أهل السنة ، ورد على المخالفين من أهل الزيغ والبدع ، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة ، والخارجين عن الملة سيفاً مسلولا ، ومَنْ طعن فيه ، أو قدح أو لعنه أو سبّه فقد بسط لسان السوء فى جميع أهل السنة » ، بذلنا خطوطنا طائعين بذلك فى هذا الدرج فى ذى القعدة سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، كتبه عبد الكريم بن هوازن القشيرى ، ووقّع على هذا الكتاب أيضا تحته الخبازى . وكتب الجوينى وغيرهما[1] .

وكتب عبد الجبار الإسفراييني مثل هذا بالفارسية كتابا هذا تفسيره : « إن أبا الحسن الأشعرى كان إماما ، ولما أنزل الله عز وجل قوله : « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » أشار المصطفى إلى أبى موسى الأشعري »[2] .

ومن هذا القبيل أيضا ما حصل من التآليف فى ذلك العصر وبعده ، فقد ألفت الرسائل فى الطعن فى أبى الحسن الأشعرى ، كما ألفت الكتب والرسائل فى الدفاع عنه . فمن ألف فى الدفاع عنه ابن عساكر الإمام الكبير ، فقد ألف كتابا سماه « تبيين كذب المفترى فيما نسب إلى الإمام أبى الحسن الأشعرى » وكل هذا يدل على حركة واسعة النطاق كانت بين خصوم أبى الحسن الأشعرى ومؤيديه .

وكما قلنا من قبل إن أبا الحسن الأشعرى قد رزق أتباعا كثيرين من العلماء

---

(١) انظر الكتاب والتوقيعات كاملة فى كتاب تبيين كذب المفترى لابن عساكر مطبعة التوفيق ، دمشق ١٣٤٧هـ — ص ١١٢ — ١١٤ .

(٢) وهم قوم أبى الحسن الأشعرى إذ هو من نسله ص ١١٤ المرجع السابق .

الأقوياء من شافعية ومالكية وحنفية وحنبلية . فمن الآخذين عنه أبو إسحق الإسفرايينى ، والشيخ أبو بكر القفال ، والحافظ الجرجانى ، والشيخ أبو محمد الطبرى العراقى ، وأكثرهم جالسه وأخذ عنه شفاهاً . ثم جاءت بعد هؤلاء طبقة ثانية من الصعلوكى والدارانى ، وأبو بكر الباقلانى ، وأبو بكر بن فورك . ومن الطبقة الثالثة أبو الحسن السكرى ، وأبو منصور النيسابورى وأبو منصور البغدادى ، والحافظ الهروى ، وغيرهم ... ومن الرابعة الخطيب البغدادى ، وأبو القاسم القشيرى و إمام الحرمين . ومن الخامسة الغزالى ، وفخر الإسلام الشاشى ، وأبو نصر القشيرى ، وابن عساكر ، والسمعانى ، وأبو طاهر السلفى . ومن السادسة فخر الدين الرازى وسيف الدين الآمدى ، وعز الدين بن عبد السلام ، وابن الحاجب المالكى إلى كثير غيرهم . . وكل هؤلاء تبايعوا على نصرة مذهبه ، مع علو مكانتهم ، وسعة نفوذهم ، مما آل أخيراً إلى انتشار المذهب وخفوت خصومه .

المسائل الأساسية فى مذهبه والتى خالف فيها المعتزلة

١ — الخلاف على الصفات :

كل المسلمين يقولون بالتوحيد ، بل إنّ عنوان دين الإسلام هو « لا إله إلا الله » ولكن المعتزلة فلسفوا هذا التوحيد ، وبحثوه بحثاً كلامياً وعمّقوه تعميقاً جدلياً . فمثلا قالوا : إن كثيراً من الآيات والأحاديث تنسب إلى الله القدرة والإرادة والعلم والحياة والكلام ، فهل هذه الصفات عين ذاته أو غير ذاته ، أو لا عين ولا غير . وهى مسألة تَحَرّج العلماء قبلهم عن الخوض فيها . فلما قالوا هم بالتوحيد من جميع جهاته ، فإنّ حقيقته تعالى أحدية من كل وجه لا كثرة فيها بوجه من الوجوه ، إذ لو كانت هذه الصفات غير ذاته ، لكانت مركبةً ، ولو كانت مركبة لاحتاج كل جزء إلى الأجزاء الأخرى . وأيضاً لو كان هناك صفات غير الذات لكانت قديمة قدم الذات ولتعددت القدماء ، وليس قديماً إلا أن يكون إلهاً ، فلو كان هناك صفات قديمة لتعددت الآلهة . تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . فقالوا إنه تعالى : حىّ عالم قادر مريد بذاته ، لا بِعِلْمٍ وقدرة وحياة زائدة على ذلك ، إذْ لو كان عالما بعلم زائد ، ومتصفاً بهذه الصفات كلها ، لأنها زائدة على ذاته — كما هو الحال فى الإنسان — لكان هناك صفة وموصوف ، وحامل ومحمول . وهذه صفة الجسمية ، والله تعالى منزه عن الجسمية . فكان زعيمهم أبو الهذيل العلاف يقول : « إنه عالم بعلم هو هو ، وقادر بقدرة هى هو ، وحى بحياة هى هو ، وإنما اختلف التعبير لغرض ، فإذا قلت عالم ، أثبتّ لله علماً هو ذاته ، ونفيت عن ذاته الجهل إلخ » .

ويقول النظام مثلا :

إن صفات الله إنما هى صفات سلبية ، لا تقتضى للذات شيئاً زائداً عليها ، فإذا قلت إنه عالم أثبت لله علماً هو ذاته ، ونفيت عن ذاته الجهل ودللت على أن هناك معلومات منكشفة لذاته ، وإذا قلت قادر أثبت لله قدرة هى ذاته ونفيت عن ذاته العجز ودللت على أن هناك مقدوراً له وهكذا . وقال بعض المعتزلة : إنَّ هذه صفات الغرض منها إفادة الناس معانيها ، فإذا قلنا عالم ، فالغرض منه إفادة الناس علماً بأنه لا يجهل ، وكذلك بقية الصفات .

فلما جاء الأشعرى كان من أهم ماخالف فيه المعتزلة قوله بإثبات هذه الصفات لله ؛ فإثبات العلم والقدرة والإرادة له تدل على وجود هذه الصفات متميزة ، لأنه لا معنى لكلمة عالم إلا أنه ذو علم ، ولا لقادر إلا أنه ذو قدرة ، والدليل على ذلك أننا إذا قلنا إنه عالم قادر ، فإما أن يكون المفهومان من الصفتين واحداً أو مغايراً ، فإن كانا شيئاً واحداً وجب أن يعلم بقادريته ، ويقدر بعالميته ، وليس الأمر كذلك فوجب أن يكون هناك صفة علم وقدرة مختلفين .

وقال أيضاً : إنَّ إسناد العلم والقدرة إليه تعالى ، إما أن يرجع إلى اللفظ المجرد وإما إلى تغير الصفات ؛ والرجوع إلى اللفظ المجرد باطل ، لأن العقل يقضى باختلاف مفهومين معقولين ، أعنى أنه يقضى باختلاف مفهوم قادر عن مفهوم عالم ، فتعين أن تكون هناك صفتان قائمتان بنفسيهما غير ذاته . فألجأه ذلك إلى أن يقول : « إن الله تعالى عالمٌ بعلم ، قادرٌ بقدرة ، حىٌّ بحياة ، مريد بإرادة ، متكلم بكلام ، سميع بسمع ، بصير ببصر ، وهذه الصفات أزلية قديمة قائمة بذاته تعالى ، لا هى هو ولا هى غيره » قال : « وعلمه يتعلق بجميع المعلومات ، وقدرته تتعلق بجميع المقدورات وإرادته تتعلق بجميع ما يقبل الاختصاص » .

ومن هنا نشأ الخلاف فى مسألة خلق القرآن ، فالأشعرى يقول إن الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة إلى الأنبياء دلالات على الكلام الأزلى ، والدلالة مخلوقة محدثة ، والمدلول قديم أزلى . والمعتزلة لما لم يقولوا بصفة زائدة على الذات قالوا : ليس هناك كلام إلا هذه الألفاظ المنزلة على لسان الملائكة وهى مخلوقة .

والناظر إلى هذا الخلاف يرى أنّ كلا من المعتزلة والأشعرية جاوزوا حدَّهم ودخلوا فى سفسطات لا طائل تحتها ، وليس العقل البشرى بمستطيع شيئاً من ذلك . إننا لا نستطيع أن نقول بالنسبة لأنفسنا : إن كان علمنا غير ذاتنا ، وقدرتنا غير ذاتنا ، أو هى هى ، فكيف نستطيع أن نقول ذلك فى الله . إنّ عقولنا ضعيفة لا تصلح إلا لخدمتنا فى الوصول إلى أغراضنا فى الحياة الواقعيه . ومحاولة الوقوف على هذه الموضوعات ليست فى متناول العقل البشرى . إن العقل البشرى لا يستطيع أن يدرك حقيقة أى شىء إدراكا تاما . وكل مايستطيع أن يدركه هو بعض صفاته .

إننا لا نستطيع أن ندرك « ماذا » ولكن قد نستطيع بعد الجهد أن ندرك « كيف » فلا نستطيع أن ندرك كُنْه الكهرباء ما هى ولا الجاذبية ولا المغناطيسية ولا كُنْه الضوء ولا الحرارة ، ولا كنه أى شىء من هذا القبيل ، وكل الذى نستطيعه أن ندرك كيف نستخدم الكهرباء والمغناطيسية والجاذبية . فكيف يشرئب المتكلمون إلى البحث فى أنّ صفات الله هى عين ذاته أو غير ذاته ، ثم يصلون فيها إلى قرار ؟ هذا فوق عقل البشر وفوق قدرتهم . ولعل الباحث فى هذا شأنه شأن من يبحث عن نجم دقيق فى السماء ثم يعثر فى حجر أمامه ، بل ذلك أدق .

إذن فالكلام فى هذا الموضوع سواء من المعتزلة أو الأشعرية أو الشيعة سفسطة لا توصِّل إلى نتيجة ، وأقوال بهلوانية ليس لها إلا أشكال لفظية منطقية

ولا حقيقة وراءها . وما كان أغناهم كلهم عن ذلك ، ولو فعلوا لوفروا زمانهم ومجهودهم ولـكنها شراهة العقل . وكان المتقدمون من الصحابة والتابعين أصح نظراً ، وأصدق تصرفاً ، إذْ امتنعوا أن يدخلوا هذا الباب الذى لايوصّل ، وقالوا : إن الله تعالى ليس كمثله شيء ولا يشبهه شيء . ورأينا أن الله يقول « الرحمن على العرش استوى » وفى الحديث عن الله تعالى « خلقتُ بيدى » ونحو ذلك فنؤمن بها ولا نؤولها ونكل أمرها إلى الله . أما الغلو وأما التأويل فلسنا مكلفين بهما . وقال مالك بن أنس عند سؤاله عن « الرحمن على العرش استوى » الاستواء معلوم ، والـكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة . ومثل ذلك ما قال أحمد بن حنبل ، وسفيان الثورى .

٢ — العدل :

ثم قول المعتزلة بالعدل ، أى عدل الله تعالى . وقد عدّوا هـذا جزءا مهما من أصول المعتزلة ؛ حتى كانوا يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد . . وقد وضعوا لهذه الفكرة نظاما شاملا ، فأولا قالوا : بأن فى الأشياء حُسْنا وقبحا ذاتيين يستطيع العقل معرفتهما ، وهو مسئول عن ذلك قبل الرسالة و بعد الرسالة . ففى العدل والصدق والشجاعة أوصاف ذاتية يمكن العقل معرفتها . وثانياً إن الله خلق العالم وهو يسيره إلى غاية ، لأن أعمال الحـكماء يقصد منها غايته والله أحكم الحـكماء . وثالثا متى كان الله عادلا وهو يحاسب الناس على أعمالهم و يجازيهم ، فلا بد أن يكون الإنسان حرّ التصرف فى أن يكون مسئولا عن عمله . فأعمال العباد مخلوقة لهم ، وفى قدرة العباد أن يفعلوها وأن يتركوها من غير دخل لإرادة الله . ولولا ذلك ما كان التـكليف ، إذ لولم يكن قادراً على الفعل وعدمه ، ما صحّ أن يقال له

افعل ولا تفعل ولا مدح بفعل ولا ذمّ بترك ولا كان للأنبياء معنى . وهى مسألة شائكة حيَّرت أهل الأديان من يهود ونصارى ومسلمين ، كما حيرت الفلاسفة من قبل .

ولما جاء الإسلام رأينا أنَّ هذه المسائل تثار ثم تخمد ولا يتوسع فيها . فيروى أن عمرو بن العاص وهو فى أول الإسلام قال مرة أمام أبى موسى الأشعرى : « أين أجد أحدا أحاكم إليه ربّى ؟ » فقال له أبو موسى : « أنا ذلك المتحاكم إليه » . قال عمرو : « أو يُقَدِّر علىّ شيئاً ثم يعذبنى عليه ؟ قال أبو موسى نعم . . قال عمرو : ولم ؟ قال : لأنه لا يظلمك ».

وجاء المعتزلة ووسّعوا هذا البحث وفلسفوه ، واتخذوا جانب الإرادة . ورأوا أنَّ آيات القرآن بعضها يؤيدهم و بعضها ضدهم . فساروا فى آيات التأييد على وجوهها ، وأولوا الآيات التى هى ضدّهم . . فلما جاء دور أبى الحسن الأشعرى طلع برأى جديد فقال : إنَّ الله هو خالق أفعال العباد ، وهو مريد كل ما يصدر منهم من خير أوشر فعلمه تعالى و إرادته وقدرته متعلقة بجميع أفعال العباد ولو قلتم : إنَّ ذلك — إذا كان — تكليف بما لا يطاق، إذ لا يقدر العبد أن يخرج عما أريد منه ، قال الأشعرية : أن لا مانع من تكليف ما لا يطاق . . و إذا كان العبد يحس بقدرته فقدرته لا تأثير لها فى خلق الأحداث ، ولكن الله تعالى أجرى سنته أن يخلق الشىء عند القدرة الحادثة من العبد ، فإذا أراد العبد شيئاً وعزم عليه وتجرد له خلقه الله . غير أن للعبد شيئاً يسمّى « كسبا » . وقد فسروا هذا الكسب بأنه : « الاقتران العادىّ بين قدرة العبد والفعل » فالله يخلق الفعل عند قدرة العبد و إرادته لا بقدرة العبد وإرادته . وهذا الاقتران هو الكسب ... و بعبارة أوضح أن الكسب هو الشعور بالاختيار ، ولذلك كانت مسألة الكسب

من أهم المسائل عند الأشعرية . وعليها يقع العقاب أو الثواب . وقد ناقشه فى ذلك ابن حزم فقال : خبرنا عن هذا الكسب ، هل هو مخلوق للعبد أو هو مخلوق لله ؟ فإنْ كان مخلوقا للعبد فقد أثبت للعبد خلقاً وهو ما تنكره ، و إنْ كان لله لم تفعل شيئاً . وهو كلام صحيح . ولذلك أكثر الأشعرية فى هذا الكسب من غير أن يصلوا إلى نتيجة واضحة ، وجاء بعد الأشعرى مَنْ عرض لهذا الأمر بتفسير آخر فقال : إن نفى القدرة عن العبد شيء يأباه العقل ، فلا بدّ إذن من نسبة فعل العبد إلى قدرته حقيقة على أنه محدث للعمل وخالق له . والإنسان كما يحس من نفسه القدرة يحس من نفسه أيضاً عدم الاستقلال . فالفعل يستند وجوده إلى قدرة العبد ، والقدرة يستند وجودها إلى سبب آخر ، و إذا احتاج الأمر استند هذا السبب إلى سبب آخر حتى ينتهى إلى مسبب الأسباب وهو الله . وفى رأيى أن هذا رجوعٌ إلى قول المعتزلة بالتواء .

على كل حال يميل الأشعرية إلى التوسط بين الجبر والاختيار ، وأن الله يوجد القدرة والإرادة فى العبد ، وقدرة العبد و إرادته لهما مدخل فى فعله ، فجميع المخلوقات من فعل الله ، بعضها بلا واسطة ، و بعضها بواسطة . وكون العبد يتوسط هو موضوع المسئولية والمؤاخذة .

كما خالف الأشعرية فى هذا الباب المعتزلة فى أن الله تعالى يريد الكائنات كلها من خير وشر و إيمان وكفر ، وقد دخلوا مع المعتزلة فى نقاش طويل خصوصاً فى مسألة الكفر من الكافر . قالت المعتزلة : إن الله لا يريد كفر الكافر ، وإلا لما أمره به . ولو كان الكفر مرادا لوجب الرضا به . والله لا يرضى لعباده الكفر . وأجابت الأشعرية بأن الأمر ينفك عن الإرادة ، كالأمر الذى يصدره

من يريد اختبار المأمور . والطاعة موافقة الأمر وهو غير الإرادة . والرضا إذا نسب إلى الله تعالى فمعناه الثواب أو ترك الاعتراض عليه ، الخ ...

وربما كان من أهم مسائل الخلاف بين المعتزلة والأشعرية اختلاف تصورها لعدل الله . فالمعتزلة يقولون : إن الله كتب على نفسه العدل ، فلا بد أن يعمل العمل لحكمة ، ولا بد أن يسير العمل لغاية ، ولا بد أن يكون عادلا مع المطيع والعاصى والمؤمن والكافر . فلا بد أن يكون العبد حراً فى العمل يعمل إذا شاء ، ويترك إذا شاء ، ولا بد أن يثيب الله المطيع ويعاقب العاصى . أما الأشعرية فعمادهم أن الله لا يُسْأل عما يفعل ، وإطاعة المطيع تَفَضُّل ، وعقاب العاصى مقدر ، وليس الله ملزما فى عمله بغاية ، الخ ...

وربما كانت نقطة الخطأ عند المعتزلة ومن تابعهم ، تصورهم عدل الله كما يتصورون عدل الحاكم من البشر كخليفة أو سلطان ، فطبقوا عدل هؤلاء على عدل الله تعالى . وفاتهم أن العدل تختلف معانيه ، حتى باختلاف الناس أنفسهم . فالعدل فى نظر الإنسان الراقى غير العدل فى نظر الرجل البدائى . وقد كان أرسطو يرى الرق عدلا ، ونحن اليوم نراه ظلما صارخا . فما بالنا نحاول أن ندرك عدل الله وعقولنا لا تستطيع . إن نظرنا للعدل يتصل ببيئتنا ، والعدل عند النظر إلى البيئة غير العدل عند النظر إلى الدنيا كلها ، والله تعالى يحكم العالم كله ، وهو فى عدله ينظر إلى العالم كله . وليست الأرض وسكانها إلا هنة من هنات العالم . فنحن بالنسبة إلى الله ننظر كما تنظر النملة فى محيطها الصغير . فكيف نحكم على عدل الله ونحن لا ندرك شؤون هذا الكون ومخلوقاته ، فضلا عن أننا لا ندرك منه عدل الله وسائر صفاته . فالغلطة هنا كالغلطة هناك التى شرحناها عند الكلام على صفات الله .

٣ — الوعد والوعيد :

ومن أصول المعتزلة قولهم بالوعد والوعيد فمن مات كافراً أو مصراً على كبيرة من الكبائر ، فهو مخلد فى النار أبداً ، ومن مات مؤمناً دخل الجنة أبداً . فخالف فى ذلك الأشعرى وأصحابه فلم يخلدوا فى النار إلا الكفار ، والله قادر على أن يغفر لمن يشاء . وتبع ذلك قول الأشعرى بالشفاعة ، وأساس فكرتهم أن الله مالك لخلقه ، يفعل ما يشاء ، ويحكم بما يريد . فلو أدخل الخلائق بأجمعهم الجنة لم يكن حيفاً ، ولو أدخلهم النار لم يكن جوراً ولا ظلماً ، إذ الظلم أو الجور هو التصرف فيما لا يملكه المتصرف ، أو وضع الشىء فى غير موضعه ، وهو المالك المطلق ، فلا يتصور منه ظلم ، ولا ينسب إليه جور .

قال إمام الحرمين فى كتاب الإرشاد : « إذا ثبت جواز الغفران ، وقد شهدت له شواهد من الكتاب والسنة ، فيترتب على ذلك تشفيع الشفعاء ، وحط أوزار المجرمين بشفاعتهم .

فمذهب أهل الحق أن الشفاعة حق ، وقد أنكرها منكرو الغفران . ومَنْ جَوَّز الصفح والعفو بدءاً من الله تعالى ، فلا يمنع الشفاعة . . . »

ويذهب الأشعرى فى كتابه « اللمع » فى تفسير الوعد والوعيد مذهباً آخر ، ويفسر قوله تعالى : « وإن الفجار لفى جحيم » وغير ذلك من الآيات ، بأن الكلام قد يقع على الكل كما يقع على البعض ، واللغة تجيز ذلك ، كما يقول القائل : جاءنى جيرانى ، وإن لم يأت جميعهم .

٤ — رؤية الله فى الآخرة :

قال المعتزلة بعدم رؤية الله فى الآخرة لقوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو

يدرك الأبصار » . وخالفهم الأشعرى فقال : إن الله تعالى يُرى فى الآخرة بدليل قوله : « وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة » .

قال المعتزلة : إنَّ الرؤية تتطلب أن يكون المرئى فى جهة وفى مكان وصورة واتصال شعاع ، وكل ذلك مستحيل على الله . وقالت الأشاعرة ، إنَّ كل موجود يصح أن يرى ، والمصحح للرؤوية هو الوجود ، والله تعالى موجود فيصح أن يرى . ثم قيود الجهة والمكان واتصال الشعاع إنما هو شأن الرؤية فى الدنيا . وما يدرينا كيف نكون فى الآخرة ، وعلى أى وضع نتخيل رؤية البارى . وفى رأينا أن مذهب الأشاعرة فى ذلك أصح .

وقد أجمع الأشاعرة على جواز رؤية الله فى الآخرة ، وجعلوا ذلك من جملة اعتقاد أهل السنة . قال الإسفراييني فى التبصير : « وأن تعلم أن القديم سبحانه يُرى وتجوز رؤيته بالأبصار ، لأن ما لا تصح رؤيته لم يتقرر وجوده كالمعدوم ، وكل ما صح وجوده جازت رؤيته كسائر الموجودات ، ودلائل هذه المسألة فى كتاب الله كثيرة منها قوله تعالى : « تحيتهم يوم يلقونه سلام » واللقاء إذا أطلق فى اللغة وقع على الرؤية ، خصوصا حيث لا يجوز فيه التلاقى بالذوات والتماس بينها . وقد ورد فى تفسير الآية الخاصة بموسى « قال رب أرنى أنظر إليك قال : لن ترانى » أنه لو لم تكن الرؤية جائزة لكان لا يتمناها مَنْ هو موصوف بالنبوة . وأيضاً فإنه سبحانه قال فى جوابه : « لن ترانى » ولم يقل : لن أرى ، وفيه دليل على أنه يصح أن يرى ...

٥ — خلق الأفعال :

وكان من أهم المسائل التى خالف فيها الأشاعرة المعتزلة مسألة « خلق

الأفعال » ، فالمعتزلة قالوا : إن الإنسان يخلق أفعال نفسه ، ولذلك يُسْأل عنها ، وتكون مثوبته وعقوبته عليها عدلا ؛ فجاء الأشعرية فقالوا : إن للعبد قدرة مؤثرة بإذن الله تعالى ، و إن له اختيارا . ولكنه مجبور على اختياره ، وقدرته ليست مؤثرة أصلا ، بل هى كاليد الشلاء ، فنفوا الاختيار عن العبد ، وهذا هو الذى يتفق مع أن الله يخلق ما يشاء .

ومن أدق مسائل الاختلاف بين الأشاعرة والمعتزلة الآية التى علقت بالمشيئة مثل « وما تشاءون إلا أن يشاء الله » ومثل قوله : « قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم لمقتدون » جعل الزمخشرى هذه الآية دليلا على أن الله لم يشأ الكفر من الكافر . وكَفَّر أهل السنة القائلين بأن المقدورات كلها بمشيئة الله ووجه ذلك أن الكفار لما أدعوا أنه تعالى شاء منهم الكفر حيث قالوا — لو شاء الرحمن ما عبدناهم الخ . . . . أى لو شاء جل جلاله أن نترك عبادة الأصنام لتركناها ، فرد الله عليهم وأبطل اعتقادهم بقوله : « ما لهم بذلك من علم » فلزم حقيقة خلافه ، وهو عين ما ذهب إليه ، ويلزمه كفر القائلين بأن قوله تعالى فى سورة الزخرف : «وجعلوا له من عباده جزءا» فيكون ما تضمنته كفراً آخر ويلزمه كفر القائلين بأن الكل بمشيئته . وقال بعض الجبرية إن كفرهم بذلك لأنهم قالوه على سبيل الاستهزاء ، ورده الزمخشرى بأن السياق لا يدل على أنهم قالوها مستهزئين ، وحيث بطل أنهم قالوها على طريق الهزء وجب أن يكونوا جادين .

هذا إلى مسائل فى الخلاف بين الأشعرية والمعتزلة لا نطيل بذكرها كخلافهم فى الشفاعة ينكرها المعتزلة ويقرها أهل السنة ، وكالصراط والميزان والحوْض . يقول المعتزلة إنها معان رمزية ، و يقول أهل السنة : إنها حقائق واقعية . الخ ...

الغزالى والرازى

جاء عالمان كبيران قَوَّيا مذهب الأشعرى وزادا فى انتشاره ، هما أبو حامد الغزالى ، وفخر الدين الرازى . فقد كان لهما مقام كبير عند المسلمين وتأليفات كثيرة ، استقبلت بالقبول .

أبو حامد الغزالى

فأما أبو حامد الغزالى فقد كان أعجميا من طوس جيد الأسلوب ، متدفق التعبير ، و إن كان يلحن أحياناً . ولد بطوس سنة ٤٥٠ من أبوين فقيرين وتكفل به و بالقليل من مال أبيه رجل صوفى أوصى إليه به أبوه ، فعلمه شيئاً من التصوف ، فلما فرغ ماله التحق طالباً ليصيب شيئاً من الرزق الذى كان يصرف للطلبة . وتعلم الفقه حتى كان أَفْقَه أقرانه و إمام أهل زمانه . وكان تلميذاً لإمام الحرمين يأخذ عنه قواعد العقائد ، ولازمه مدة طويلة . فلما مات إمام الحرمين خرج الغزالى قاصداً نظام الملك الوزير السلجوقى ، وكان له مجلس يحضره العلماء يتناظرون فيه ، فظهر عليهم . وولاه نظام الملك التدريس فى مدرسته ببغداد ، فذهب إليها سنة ٤٧٤ واشتهر اسمه ، وعظم جاهه ، ثم كان يعتريه الشكّ هذه المدة فيما يعمله ، ثم زهد فى منصبه وجاهه ، وحج سنة ٤٨٨ ورجع من الحج إلى دمشق ، واعتكف بمنارة الجامع نحو عشر سنين يفكر و يقرأ و يكتب . وأخيراً زهد فى العلوم وتصوّف .

على كل حال كانت له نواحى ثقافات عديدة واسعة ، تثقف فى الفقه وأصول الفقه وألف فيهما ، وتثقف بالفلسفة وقرأ كثيراً من كتب ابن سينا ورسائل

إخوان الصفاء ثم قرأ التعاليم الباطنية وردّ عليها ، و بكل ذلك تأثرت نفسه . فلما أخرج كتاب الإحياء ظهرت فيه نزعات الفقه والتصوف والفلسفة مجتمعة ممزوجة مزجا غريباً .

والذى يهمنا أنه كان شافعيا أشعريا . وقد وسّع مذهب الأشعرى وزاد فيه من ناحيتين : من ناحية موضوعاته ، ومن ناحية معالجته للبراهين معالجة فلسفية على نمط جدل المنطق اليونانى . فصبغ العقيدة الأشعرية بصبغتين : صبغة فلسفية ، وصبغة صوفية . وكان له أثر كبير فى المسلمين حتى ليذهب بعض المستشرقين إلى أنّ الإسلام كما يتصوره كثير من الناس هو الإسلام بالصبغة الغزالية . وقد كتب على منهج الأشعرية كتبا ورسائل فى العقيدة التى يجب أن يعتنقها أهل السنة منها رسالة صغيرة تحوى أهم العقائد سماها « عقيدة أهل السنة[1] » و « الرسالة القديمة » نقتطف منها بعض المقتطفات .

« الحمد لله المبدئ المعيد ، الفعال لما يريد ، ذى العرش المجيد ، والبطش الشديد ، وهو فى ذاته واحد لا شريك له . فرد لا مثل له ، صمد لا ضدّ له ، منفرد لا ند له ، واحد قديم لا أول له ، أزلىّ لا بداية له ، مستمر الوجود لا آخر له ... ليس بجسم مصوّر ، ولا بجوهر محدود مقدَّر ، لا يماثل الأجسام لا فى التقدير ولا فى قبول الأجسام ، ليس بجوهر ولا تحله الجواهر ، ولا بعرض ولا تحله الأعراض ...... لا يحده المقدار ولا تحويه الأقطار ، ولا تحيط به الجهات ، ولا تكتنفه الأرضون ولا السموات . وإنه مستو على العرش على الوجه الذى قاله

---

(١) طبعتها مشيخة علماء الإسكندرية بناء على ما قرره مجلس إدارة الأزهر من تدريس هاتين الرسالتين للسنة الأولى والثانية لطلاب العلوم الدينية فى معاهدها الإسلامية .

وبالمعنى الذى أراده استواء منزها عن المماسّة والاستقرار ... وهو فوق العرش والسماء ، وفوق كل شىء إلى تخوم الثرى فوقيّة لا تزيده قربا إلى العرش والسماء ، كما لا تزيده بعدا عن الأرض والثرى - قريب من كل موجود ، وهو أقرب إلى العبد من حبل الوريد ، وهو على كل شىء شهيد ، إذ لا يماثل قربه قرب الأجسام ، كما لا تماثل ذاته ذات الأجسام . . . . وأنه لا يحل فى شىء ، وأنه لا يحلّ فيه شىء . تعالى عن أن يحويه مكان ، كما تقدّس عن أن يحده زمان . بل كان قبل أن خلق الزمان والمكان وهو الآن على ما عليه كان . . . . . . وهو تعالى حى قادر ، جبار قاهر ، لا يعتريه قصور ولا عجز ولا تأخذه سنة ولا نوم ولا يعارضه فناء ولا موت ... وهو المنفرد بالخلق والاختراع ، المتوحد بالإيجاد والإبداع ، خلق الخلق وأعمالهم ، وقدّر أرزاقهم وآجالهم ، لا يشذ عن قبضته مقدور ، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور ... وهو عالم بجميع المعلومات ، محيط بما يجرى من تخوم الأرضين إلى أعلى السموات ، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء ، فى الليلة الظلماء ، ويدرك حركة الذر فى جو الهواء ، وهو تعالى مريد للكائنات ، مدبّر للحادثات ، فلا يجرى فى الملك والملكوت قليل أو كثير ، صغير أو كبير ، خير أو شر ، نفع أو ضرّ ، إيمان أو كفر ، عرفان أو نكر إلا بقضائه وقدره وحكمه ، فما شاء كان ، وما لم يشأ لم يكن ، لا يخرج عن مشيئته ناظر ولا فلتة خاطر . ولو اجتمع الإنس والجن والملائكة والشياطين على أن يحركوا فى العالم ذرة أو يسكنوها دون إرادته ومشيئته لعجزوا عن ذلك ، وإرادته قائمة بذاته فى جملة صفاته ... وهو سبحانه وتعالى لا موجود سواه إلا وهو حادث بفعل ، وإنه حكيم فى أفعاله ، عادل فى أقضيته لا يقاس عدله بعدل العباد ، إذ العبد يتصور منه الظلم بتصرفه فى

ملك غيره ولا يتصور الظلم من الله ، فإنه لا يصادف لغيره مالـكا ، حتى يكون تصرفه فيه ظلما ... وهو متفضّل بالخلق والاختراع والتكليف لا عن وجوب ، ومتطول بالإنعام والإصلاح لا عن لزوم . فله الفضل والإحسان والنعمة والامتنان ، إذ كان قادراً على أن يصب على عباده أنواع العذاب ، و يبتليهم بضروب الآلام والأوصاب . ولو فعل ذلك لـكان منه عدلا ، ولم يكن منه قبيحا ولا ظلما ، وهو يثيب عباده المؤمنين على الطاعات بحكم الـكرم والوعد لا بحكم الاستحقاق واللزوم له ، إذ لا يجب عليه لأحد فعل ولا يتصور منه ظلم » .

« والله قد أرسل الرسل ، وأرسل محمداً صلى الله عليه وسـلم خاتماً للنبيين ، ناسخاً لمـا قبله من شرائع اليهود والنصارى والصابئين ، وأيده بالمعجزات الظاهرة والآيات الباهرة ، كانشقاق القمر وتسبيح الحصى و إنطاق العجماء ، وما تفجر من بين أصابعه من الماء ، ومن آياته الظاهرة القرآن العظيم الذى تحدّى به العرب ، فإنهم مع تميزهم فى الفصاحة والبلاغة لم يقدروا على معارضته ، ثم يجب الإيمان بالسمعيات كالحشر والنشر ، وقد ورد بها الشرع ، ومعناه الإعادة بعد الإفناء وذلك مقدور لله تعالى كابتداء الإنشاء ، وسؤال الملـكين ، وعذاب القبر والميزان . والله يحدث فى صحائف الأعمال وزنا بحسب درجات الأعمال عند الله . . . . والإيمان بالصراط وهو جسر ممدود على متن جهنم أدق من الشعرة وأحد من السيف . . . . والجنة والنار مخلوقتان . . . . . والإمام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أبو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم على رضى الله عنهم . ولم يكن لرسول الله نص على إمام أصلا ، فلم يكن أبو بكر إماماً إلا بالاختيار والبيعة . . . . واعتقاد أهل السنة تزكية جميع الصحابة والثناء عليهم كما أثنى الله ورسوله عليهم . وما جرى بين معاوية وعلى

كان مبنياً على الاجتهاد ، لا منازعة من معاوية فى الإمامة إذ ظن علىّ رضى الله عنه أن تسليم قتلة عثمان مع كثرة عشائرهم واختلاطهم بالعسكر يؤدى إلى اضطراب أمر الإمامة فى بدايتها ، فرأى التأخير أصوب ، ورأى معاوية أن تأخير أمرهم مع عظيم جناياتهم يوجب الإغراء بالأئمة ، ويعرض الدماء للسفك . وقد قال العلماء : كل مجتهد مصيب . . . وأن فضل الصحابة على حسب ترتيبهم فى الخلافة ، إذ حقيقة الفضل ما هو فضل عند الله عز وجل ، وذلك لايطلع عليه إلا رسول الله . وقد ورد فى الثناء على جميعهم آيات وأخبار كثيرة إلخ إلخ . . . ومن أراد الاتساع فليرجع إلى الرسالتين . .

فخر الدين الرازى

وأما الفخر الرازى ، فهو محمد بن عمر التيمى البكرى . وهو كذلك فارسى كالغزالى ، وهو مثله أيضاً فى قوة الحجة وفصاحة اللسان والقدرة على البرهان وكثرة التأليف فى علم الكلام . وقد حارب كل المذاهب ما عدا مذهب أهل السنة . يضاف إلى ذلك ما كان له من عظم الجاه ، وسعة الثراء ، يقال إنه ملك من الذهب العين ثمانين ألف دينار وغير ذلك من الأمتعة والمراكب والأثاث .

ولد سنة ٥٤٣ ودرس علوم الدين والفلسفة والفقه وكانت له اليد الطولى فى اللسانين العربى والفارسى ، يعظ بهما على السواء . وتفسيره القرآن الكريم وكتبه المختلفة العربية تدل على سعة اطلاعه ، سافر إلى خوارزم بعد ما مهر فى العلوم ، فرأى بها جماعات من المعتزلة ناظرهم فاضطهدوه حتى خرج عنهم . ثم ذهب إلى

ما وراء النهر لحدث له مثل ذلك ، مما يدل على أنَّ الاعتزال لم يكن فقد قوته تماماً ، فذهب إلى الرّى وحظى عند السلطان علاء الدين خوارزم شاه ، فقربه إليه وأجزل عطاءه . ثم استقر بخراسان ، واشتهرت مصنفاته فى الآفاق ، وأقبل الناس عليها وأصحابه يعظمونه حتى كان إذا ركب يمشى حوله نحو ثلاثمائة نفس من الفقهاء وغيرهم .

ألف تصانيف كثيرة فى التفسير وفى الكلام . وقد وسَّع كالغزالى مذهب الأشعرى ودافع عنه ، وعلى الجملة كانا دعامتين من أكبر دعائم الأشعرى . وقد وردت إلينا بعض كتبه كالتفسير وتأسيس التقديس وغيرهما . وهى تدل على تدفق وسعة نظر وقوة برهان .

ومع ذلك وصل هو والغزالى إلى نتيجة واحدة ، وهى التقليل من قيمة علم الكلام . فقال الفخر الرازى فى وصيته التى وضعها فى آخر أيامه : « ولقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة تساوى الفائدة التى وجدتها فى القرآن ، لأنه يسعى فى تسليم العظمة والجلال لله ، ويمنع عن التعمق فى إيراد المعارضات والمناقضات ، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول البشرية تتلاشى فى تلك المضايق العميقة والمناهج الخفية .

فلهذا أقول كل ما ثبت بالدلائل الظاهرة من وجوب وجوده ووحدته وبراءته عن الشركاء ، فذلك هو الذى أقول به ، وألقى الله به . وأمّا ما ينتهى الأمر فيه إلى الدقة والغموض ، فكل ما ورد فى القرآن والصحاح المتعين للمعنى

الواحد فهو كما قال . والذى لم يكن كذلك أقول يا إله العالمين ، إنى أرى الخلق مطبقين على أنك أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين[١] . وكذلك قال :

نهاية إقــــدام العقول عقالُ   وأكثر سَعْىِ العالمين ضَــلالُ
وأرواحنا فى وحشةٍ من جسومنا   وحاصـــلُ دنيانا أذًى ووبال
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا   سوى أنْ جَمَعْنَا فيه قيلَ وقالوا

وللغزالى موقف يشبه هذا الموقف فى قيمة علم الـكلام نعرض له فيما بعد .

---

(١) يظهر أن فى هذه العبارة غموضاً والظاهر أن معناها أن ماورد فى القرآن والأحاديث الصحيحة وكان له معنى واحد اعتقد هــذا المعنى وسار عليه وأما ما غمض وخفى وكان له أكثر من معنى تركه من غير تشقيق وتأويل واكتفى بالحـكم على الله بأنه أكرم الأكرمين وأرحم الراحمين .

وقيل إنه رجع عن مذهب الـكلام فى آخر حياته إلى طريقة السلف ، وتسليم ما ورد على وجه المراد اللائق بجلال الله تعالى . ومما يذكر عنه قوله : من لزم مذهب العجائز كان هو الفائز .

الفصل الثانى

الماتريدية

هناك فرع من فروع أهل السنة يوازى فرع الأشعرى وهو فرع الماتريدية ، وتنسب الماتريدية إلى أبى منصور الماتريدى ، وهو كذلك أعجمى من سمرقند . ولئن كان الأشعرى شافعيا فقد كان الماتريدى حنفيا ، ولذلك ربما كانت الخلافات القليلة بين الأشعرى والماتريدى ترجع إلى خلافات بين الشافعى وأبى حنيفة فى أصولها . ولذلك كان أكثر أتباع الماتريدية حنفية ، وأتباع الأشعرى شافعية . وقد كان أبو منصور الماتريدى مُعَاصراً للأشعرى . هـذا فى سمرقند وذاك فى البصرة . وكان عصرهما مليئا بالحركات الدينية ، فـكان فيه مثلا الحركات الصوفية ورجال التصوف الـكبار أمثال أبى يزيد البسطامى المتوفى سنة ٢٦١ ، والجنيد ، والحلاج ، كما نشطت فيه حركات التشيع . وكانت حركة الاعتزال فى آخر أيامها وكان لـكل مذهب علماء يؤيدونه ويأخذون بناصره . ظهر الأشعرى فى البصرة ومات نحو سنة ٣٣٠ ، وظهر الماتريدى فى سمرقند ومات سـنة ٣٣٢ ، ولا نعلم الـكثير من حياة الماتريدى ، وإنْ كنا نعلم الـكثير عن مذهبه .

لقد اتفق الماتريدى والأشعرى على كثير من المسائل الأساسـية التى يمكن استنتاجها مما لخصناه من عقيدة الغزالى . وقد ألفت كتب كثيرة ، وملخصات بعضها يشرح مذهب الماتريدى كالعقائد النسفية لنجم الدين النسفى ، وبعضها يشرح عقيدة الأشعرى كالسنوسية والجوهرة . وقد ألفت كتب فى حصر المسائل

التى اختلف فيها الماتريدى والأشعرى ربما أوصلها بعضهم إلى أربعين مسألة .

والناظر إليها يرى أنها ليست بذات خطر كبير مثل : هل البقاء هو الوجود أو غيره ؟ ومثل : هل الوجود زائد عن الذات أم عينها ؟ وكاختلافهم فى تفسير صفة القدرة ، والإرادة ، والـكلام ، وفى تفسير لزوم الحـكمة فى أفعاله تعالى . وهل العفو عن الـكافر يجوز ، وهل الإيمان بالله واجب بالعقل أم لا ، وما حقيقة الإيمان ، وهل الإيمان يزيد و ينقص ، وهل الإيمان والإسلام واحد أم لا ؟ وهل السعادة والشقاوة تتبدلان على الإنسان أم لا ؟ إلى آخر هذه المسائل التى لا تعد من الأركان . ونسوق أمثلة على جدالهم فى هذا :

فمثلا اختلفوا فى معنى القضاء والقدر . فقال الماتريدية : إن القدر هو تحديد الله أزلا كل شىء بحدّه الذى سيوجد به من نفع ، وما يحيط به من زمان ومكان ، والقضاء الفعل عند التنفيذ . وقال الأشاعرة : إنَّ القضاء إرادةُ الله الأزلية المقتضية لنظام الموجودات على ترتيب خاص ، والقدر تعلق تلك الإرادة بالأشياء فى أوقاتها المخصوصة . احتجّ الماتريدية بقوله تعالى : « وخلَقَ كلَّ شىء فقدَّره تقديراً » أى قدَّر كل شىء تقـديرا يوافق الحـكمة لخلقه . وفى الحديث : « كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض » أى عيّن وقدر مقاديرهم قبل خلقهم ، ثم يخلق كل شىء و يوجده فى الوقت الذى قدر أن يخلقه فيه . وهـذا هو القدر . واحتج الأشاعرة بما روى فى الصحيح من أنَّ رجلين من مُزَينة قالا يا رسول الله : أرأيت ما يعمل الناس و يكدحون فيه ، أشىء قضى عليهم وقضى فيهم من قدر سبق أم فيما يستقبلون . فقال لا بل شىء قضى عليهم الخ . . . .

وأرى أنَّ الخلاف بينهم يشبه أن يكون لفظياً ...

ومَثَلٌ آخر اختلافهم فى الإيمان . يقول الماتريدية إنه تعالى لو لم يبعث للناس

رسولا لوجب عليهم بعقولهم معرفته تعالى ، ومعرفة وحدانيته ، واتصافه بما يليق . وكونه مُحْدِثاً للعالم ، كما روى ذلك عن أبى حنيفة . وذهب مشايخ الأشاعرة إلى أنه لا يجب إيمان ولا يحرم كفر قبل البعث . احتج الماتريدية بقوله تعالى : « أن أنذر قومك من قبل أن يأتيهم عذاب أليم » حيث تدل على أن حجة الإيمان تلزم الخلق قبل يأتيهم النذير ، لأنها لو كانت لا تلزمهم لكانوا فى أمن من نزول العذاب بهم قبل أن يأتيهم النذير فلا يخوفون بنزول العذاب بهم قبل أن ينذروا ، فلما خوّفوا بنزول العذاب بهم قبل أن يأتيهم دلّ على أنَّ الحجة لازمة عليهم وأنَّ الله تعالى يعذبهم لتركهم التوحيد وإن لم يرسل إليهم الرسل . واستدل الأشعرية على قولهم بقوله تعالى : « وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا » حيث نفى العذاب مطلقاً قبل وصول الشرع . . وقد أجابت الماتريدية بأنَّ الآية محمولة على عذاب الاستئصال ، ونفى وقوعه قبل بعث الرسول لدلالة سياقها وهو قوله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها . . الآية » كما اختلفوا فى هذا الموضوع نفسه فى حقيقة الإيمان فقال الماتريدية : الإيمان الإقرار والتصديق ، أى أنَّ الإقرار شطر منه ، وركن من أركانه . وقال الأشعرى : إن النطق بالشهادتين من القادر شرط فى الإيمان ، ولكنه خارج عن ماهيته التى هى التصديق . واستدل الماتريدية بأن الإيمان لغةً التصديق ، والتصديق كما يكون بالقلب يكون باللسان ، فيكون كل من التصديق القلبى والتصديق اللسانى ركنا فى مفهوم الإيمان . واستدل الأشعرى على قوله بقول الله تعالى : « أولئك كتب فى قلوبهم الإيمان » وقوله « وقلبه مطمئن بالإيمان » فهذه الآيات تدل على أنَّ محل الإيمان هو القلب ، فيدل ذلك على أن الإيمان هو التصديق القلبى فقط .

واختلفوا فى المتشابهات . وأساس اختلافهم قراءتهم لقوله تعالى : « وما يعلم

تأويله إلا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » فالماتريدية يقفون عند قوله : وما يعلم تأويله إلا الله ، والأشعرية يعطفون والراسخون فى العلم على الله ، وبناء على اختلاف القراءة . قال الماتريدية : إن المتشابهات لا يعلم تأويلها إلا الله . ويقول الأشاعرة : إن المتشابهات يعلم تأويلها الله والراسخون فى العلم وبناء على ذلك قال الماتريدية فى الآيات التى وردت فيها اليد والوجه ، إنها حق ، ولا يعلم تفسيره إلا الله . أما الأشاعرة فقالوا : إنها مجازات عن معان ظاهرة ، فاليد مجاز عن القدرة والوجه عن الوجود ، والعين عن البصر ، والاستواء عن الاستيلاء ، واليدان عن كمال القدرة ، والنزول عن البر والعطاء ، والضحك عن عفوه تعالى . استدل الماتريدية أن الوقف عند قوله : وما يعلم تأويله إلا الله أليق ببلاغة النظم ، لأنه لما ذكر أنَّ من القرآن متشابهات جعل الناظرين فيه فريقين : الزائغين عن الطريق والراسخين فى العلم . وجعل اتباع المتشابه حظ الزائغين بقوله تعالى : « فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله » وجعل فى مقابل ذلك اعتقاد الحق مع العجز عن إدراك حظ الراسخين بقوله : « والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا » ولو عطف والراسخون فى العلم على الله لكان قوله تعالى « يقولون » كلاما مبتدأ حذف مبتدؤه ، أى يقولون . والحذف خلاف الأصل .

ومثلا اختلفوا فى أن الذكورة هل هى شرط النبوة أو لا ، فقال الماتريدية إن الذكورة شرط النبوة . وقال الأشعرية : إنها ليست شرطا بل صحت نبوة النساء . استدل الماتريدية بقوله تعالى : « وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم » فيدل هذا على أن الإرسال إنما كان للرجال وذلك ينفى نبوّة المرأة . واحتج الأشاعرة بقوله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى » حيث دل على أنه

وقع الإيحاء إليها ، والإيحاء من خصائص الأنبياء . ورد الماتريدية بأن الوحى هنا بمعناه الواسع وهو الإلهام . وذلك حتى كان ذلك إلى النحل فقال تعالى : « وأوحى ربك إلى النحل » فمعنى آية أم موسى أنه أوقع فى قلبها عزيمة أن تلقيه فى التابوت ثم تقذف التابوت فى اليم ... إلى مثل هذه المسائل .

والذى يقارن بين العقائد النسفية والرسائل المؤلفة على مذهب الأشعرى يرى كثيراً من هذا الخلاف . فارجع إليه إن شئت التفصيل[1] .

ونحن لو دققنا النظر فى الخلاف بين الأشعرية والماتريدية وجدنا لون الاعتزال أظهر فى الأشعرية بحكم تتلمذ الأشعرى للمعتزلة عهداً طويلا . كالذى ذكرنا من قبل مثل إدراك الإيمان بالعقل والمسئولية حتى قبل ورود الشرع .

وقد انتصر للمذهب الماتريدى كثير من علماء الحنفية مثل فخر الإسلام البزدوى ، والتفتازانى ، والنسفى وابن الهمام إلى غيرهم . ولكنهم لم يبلغوا ، والحق يقال ، مبلغ أتباع الأشعرى . فرجح مذهب الأشعرى وزاد انتشاره وكثر أتباعه .

---

(١) انظر أيضاً « نظم الفرائد وجمع الفوائد » لشيخ زاده ... ، وانظر أيضاً إشارات المرام من عبارات الإمام ، لكمال الدين البياضى الحنفى — مطبعة مصطفى الحلبى ١٩٤٩ .

الفصل الثالث

السنة تصبح مذهبا رسمياً

وقد سمى الأشعرى وأتباعه والماتريدى وأتباعه بأهل السنة . وقد استعملت كلمة « أهل » بدل النسبة فقالوا : أهل السنة أى السنيين ، وقد يسمون أيضاً الأثرية نسبة إلى الأثر وهو الحديث . وسمى المعتزلة أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، وسمى المبتدعة أهل الأهواء ، وسمى اليهود والنصارى أهل الكتاب ، والقرآن الكريم سمى أصحاب الكهف أهل الكهف .

والسنة فى أهل السنة تحتمل أحد معنيين . إما أن تكون السنة بمعنى الطريقة أى أنَّ أهل السنة اتبعوا طريقة الصحابة والتابعين فى تسليمهم بالمتشابهات من غير خوض دقيق فى معانيها . بل تركوا علمها إلى الله . وإما أن تكون السنة بمعنى الحديث أى أنهم يؤمنون بصحيح الحديث ويقرونه من غير تحرّز كثير وتأويل كثير كما يفعل المعتزلة .

واسم أهل السنة كان يطلق على جماعة من قبل الأشعرى والماتريدى . وقد حُكى لنا أنّ جماعة كان يطلق عليها أهل السنة ، وكانت تناهض المعتزلة قبل الأشعرى . ولما جاء الأشعرى وتعلم على المعتزلة اطلع أيضاً على مذهب أهل السنة ، وتردّد كثيراً فى أى الفريقين أصح ، ثم أعلن انضمامه إلى أهل السنة ، وخروجه على المعتزلة .

كان للحكومات دخل كبير فى نصرة مذهب أهل السنة . والحكومات عادة إذا كانت قوية وأيدت مذهباً من المذاهب تبعه الناس بالتقليد وظل سائداً إلى

أن تدول الدولة . نذكر من بين هذه الحكومات التى أيدت أهل السنة الدولة الأيوبية فى مصر والشام وعلى رأسها صلاح الدين ، ودولة الموحدين وعلى رأسها محمد ابن تومرت ، والدولة الغزنوية .

أما الدولة الأيوبية وعلى رأسها صلاح الدين فقد أطاحت بالدولة الفاطمية الشيعية ، وكانت قد تغلغلت بشيعيتها فى كل الحياة الاجتماعية المصرية والشامية ، فيؤذن على المآذن الأذان الشيعى من « حى على خير العمل » ، ورجال الدعوة يدعون بالمذهب الشيعى وعلى رأسهم داعى الدعاة . والأعياد والمحافل تقام بالمراسيم الشيعية ، والعلوم تدرس على مذهب الشيعة من تفسير وحديث وفقه ، ومن وُجِد عنده موطأ مالك عذّب ، فجاء صلاح الدين يعاونه وزيره القاضى الفاضل وأزال الدولة الفاطمية وأحل محلها المذاهب السنية ، و بنى المدارس يدرس فيها مذهب الشافعى ومالك ، وأزال الخلافة الفاطمية وخطب للخليفة العباسى فى بغداد . ولتغلغل المذهب الفاطمى و إلفِ الناس للدولة الفاطمية ، تردّد أن يخطب للخليفة العباسى ، وأحجم كثير من الخطباء أن ينفذوا هذا الأمر لولا جرأة بعضهم على ذلك فلم يحركِ المصريون ساكناً فجرّأ ذلك صلاح الدين على المضى فى سبيله . بل إن صلاح الدين كتب منشوراً يحرم فيه الجدل حول خلق القرآن وكلام الله ، كالذى كان يثيره المعتزلة ، وجاء فى هذا المنشور «خرج أمرنا إلى كل قائم فى خفّ ، أو قاعد فى أمام أو خلف ألا يتكلم فى الحرف بصوت ، ولا فى الصوت بحرف[1] فمن يتكلم بعدها كان الجدير بالتكليم ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم . وسأل النواب القبض على مخالفى هذا الخطاب و بسط

(١) يريد عدم الخوض فى حروف القرآن وصون القارئ ، وأن المقروء كلام الله أولا ، ونحو ذلك مما كان يثيره المعتزلة .

العذاب ولا يسمع لمتفقه فى ذلك تحيير جواب ولا يقال عن هـذا الذنب تاب . وليعلم بقراءة هذا الأمر على المنابر ، ليعلم به الحاضر والبادى ويستوى فيه البـادى والحاضر . والله يقول الحق وهو يهـدى السبيل » والظاهر أنه من إنشاء القاضى الفاضل لأنه بأسلوبه أشبه .

وعلى الجملة فقد عادت مصر والشام فاصطبغا بالصبغة السنية بعـد أن اصطبغا بالصبغة الشيعية ، وخصوصاً فى علمهما وثقافتهما وتدينهما .

وأما دولة الموحدين فى المغرب والأندلس فقد كان رئيسها محمـد بن تومرت قد رحل إلى المشرق وحضر فيه دروس الدين وتتلمذ على الإمام الغزالى ، فلما تملك وأنشأ دولة الموحدين حمل الناس على اتباع مذهب الأشاعرة حسبما فسره له أستاذه الغزالى[1] .

وقد كانت كتب الغزالى وأمثاله محرمةً فى عهد المرابطين حتى لقد أحرق كتاب « إحياء علوم الدين » للغزالى ، فلما جاء الموحدون أعادوا له مجده .

أما الدولة الغزنوية فـكانت دولة تركية ، وكان أعظم من ظهر فيها محمود الغزنوى بن سبكتكين ، وكانت عاصمة البلاد غزنة فى الهند وقد غزا محمود الهند نحو سبع عشرة غزوة أدت إلى الاستيلاء على البنجاب وعاصمتها لاهور ، وعلى ملتان وعلى بعض السِّند وامتد سلطانه غرباً إلى العراق العجمى وفيه الرىّ وأصفهان وأخرج منه الشيعة البويهيين ، واعترف محمود بالخليفة العباسى القادر كما فعل صلاح الدين . وبذلك انتصر العنصر التركى على العنصر الإيرانى . وإذا كان أكثر الفرس شيعة ، فإنّ أكثر الترك سنية . وقد ازدهر العلم فى عهده على المذهب السنى . ومن مشاهير علمائه العتبى المؤرخ ، والعالم المشهور البيرونى ، والشاعر

---

(١) انظر الجزء الثالث من ظهر الإسلام عند الـكلام على الموحدين .

الفردوسى ، وهم يحكون أنَّ محمود الغزنوى كان حنفياً ، ثم انتقل إلى مذهب الشافعى على يد الفقيه الشافعى الكبير « القفال » .

ومن هذا يظهر أنَّ الدول الإسلامية كانت تتعاقب عقائدها بتعاقب حكوماتها ، فإذا انتصرت الحكومة سياسياً وكانت شيعية — أو بعبارة أخرى فارسية — حملت الناس على التشيع كالدولة الفاطمية والبويهية . و إذا انتصر الأتراك أو الأكراد وكانوا سنيين حملوا الناس على اتباع مذاهبهم .

* * *

وأهل السنة من أشاعرة وماتريدية يقولون إنهم لم يأتوا بشىء جديد ، و إنما اتبعوا فى مذاهبهم مذهب السلف . ومذهب السلف يعنى مذهب الصحابة والتابعين ، وحقيقته أنه إذا وردت آية متشابهة أو حديث آمنوا به على عمومه وصدّقوه ، وتركوا علمه إلى الله ، ولم يخوضوا فى تفسير معناه ولم يتصرفوا فيه بتأويل ولا زيادة ولا نقصان ، فإذا سمع مثلا نسبة اليد إلى الله والإصبع وقوله : إن الله خمّر طينة آدم بيده ، و إن قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن قال : إنى أعلم أن الأصابع واليد تتركب من لحم وعظم وعصب ، واللحم والعظم والعصب جسم ، وأنا أومن بأن الله ليس بجسم ولا عرض ، فيد الله وأصابعه منزهة عن الجسمية وأترك العلم بها و بمعانيها لله ولرسوله . و إذا سمع حديث : « إنى رأيت ربى فى أحسن صورة » قال إن الصورة يراد بها الهيئة الحاصلة فى الأجسام ، والله تعالى منزه عن ذلك ، و إن الصورة فى حق الله لا تطلق على هذا المعنى المادىّ . و إذا سمع : « إن الله تعالى ينزل كل ليلة إلى السماء الدنيا » قال : إن النزول فى العادة يطلق على جسم عالٍ نزل من أعلى إلى أسفل وهذا محال على الله . و إنما نترك تفسيره إلى الله ورسوله .

ومن أهل السنة كالأشاعرة — كما ذكرنا من قبل — مَنْ سمح لنفسه إذا كان عالماً متخصصاً أن يؤول ذلك كله فيفسر اليد بالقدرة ، ويفسر بقية الآيات على هذا النحو من التأويل . وقد روى عن بعض السلف مثل هـذه التأويلات وتوسع فيها المعتزلة إلى آخر حد .

* * *

على كل حال امتلأ جو العالم الإسلامى بالكلام فيما نسميه « علم الكلام » وكثر الجدال وكثرت المناظرات إلى حد غريب ، وأثيرت الفتنة وتدخلت السياسة واعتنقت الحكومات مذهباً من المذاهب فنصرته ، واعتنقت حكومات أخرى مذاهب أخرى فنصرتها ، وتقاتلت السيوف كما تقاتلت الألسنة ، وانتهى الأمر بأن شك بعض العلماء فى قيمة علم الكلام فألف الغزالى مثلا كتاب « إلجام العوام عن علم الكلام » ورأى فيه أن الإيمان بالبرهان يتدرج أنواعاً ، فأرقاها وأعلاها أن يؤمن الإنسان ويصدق تصديقاً جازماً بناء على برهان حاز كل شروطه وتقصى المقدمات كلة فكلمة وتبعها درجة فدرجة ، حتى جلاّها وصفّاها ثم أوصلته إلى نتيجة آمن بها كل الإيمان . وهذا عادة لا يحصل إلا لقليل من العلماء الراسخين فى العلم .

الثانى أن يركن المؤمن إلى صحة ما يقول العلماء من غير بحث فى كل كلمة أو مقدمة . ويليها أن يصدق المؤمن بالأدلة الخطابية ، كما يحدث فى المحاورات والمخاطبات التى تجرى بها العادة . وذلك إيمان كثير من الناس .

وأقل من هـذا التصديق بمجرد السماع ممن حصل فيه الاعتقاد لكثرة ثناء الخلق عليه كمن يحسن الظن فى أبيه وأستاذه . فيعتقد اعتقاداً جازماً فى أخباره إذا أخبره بخبر ميت ، أو حضور غائب .

ويلى هذا فى الرتبة الإيمان بقول القائل لوجود قرائن تدل على صحه ، كمن علم أن فلاناً مريض ثم سمع خبراً ممن يثق بصدقه أنه مات ، فعلمه بمرضه قرينة على صحة الخبر الخ ... وخرج من هذا إلى نتيجة أن العوام وجمهور الناس ليس لهم من سعة العقل وعمق الثقافة وسعتها ما يستطيعون به الإيمان بناء على البرهان الصحيح الذى يقتضيه علم الكلام . ومن أجل هذا ألّف كتابه « إلجام العوام عن علم الكلام » بل إن هـذه البراهين تضرهم وتشككهم ، لأنهم لا يحسنون استخدام البراهين على وجوهها الصحيحة ، فلا يعرفون مقدمة صغرى ولا كبرى ولا شروط القياس الصحيح ونحو ذلك .

فأولى بهم الدرجات الأخرى من الاعتقاد . خصوصاً وأن القرآن الكريم لم يتبع فى الدعوة إلى الإيمان هذه الطرق المنطقية ، بل دعا بلفت النظر إلى آيات الله فى الكون وما يتطلبه ذلك من شعور القلب واهتزازه مثل « أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت ، و إلى السماء كيف رفعت ، الخ ... » ومثل « ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم » الآيات . والدعوة إلى النظر فى السماء والأرض و إرسال الرياح والغيث الخ الخ ... فهذه الطريقة تفيد الناس أكثر مما تفيدهم الطريقة المنطقية الجدلية الكلامية .

على أنَّ الغزالى نفسه وهو عالم كبير مع تمرسه بالقواعد المنطقية فى كتب الفقه والفلسفة واستعراضه المذاهب المختلفة من تشيع واعتزال وأهل السنة كل ذلك لم يجعله يطمئن إلى الإيمان الصحيح الذى يرتضيه . إنما جعله يؤمن و يطمئن بالرياضة النفسية وتفتح قلبه للتصوف والكشف ، و إصغائه إلى صوت قلبه لا عقله .

* * *

وقد تقسمت البلاد الفرق المختلفة ، فقد كان أكثر شيعة العراق معتزلة ، وكذلك شيعة الهند والشام والبلاد الفارسية . وانتشرت الزيدية فى اليمن وهم يتفقون مع المعتزلة فى كثير من الأصول ، وانتشر مذهب السلف و إن شئت فقل السنية فى بلاد نجد ، ثم هناك طوائف سنية فى الهند والعراق والحجاز والشام ومصر . وأخيراً كان أكثر السواد الأعظم من البلاد الأسبانية أشعريين . ولنا هنا ملحوظتان :

الأولى : أن البلاد وقد تقسمتها الفرق المختلفة وكثر الجدال بين أهلها كان كثير من العلماء غير دقيق فى نقل مذهب المخالفين . وأول ما رأينا ذلك رأيناه فى كتاب « الانتصار » إذ نقل ابن الراوندى أشياء كثيرة عن المعتزلة وكذبه فيها الخياط المعتزلى . ثم رأينا كثيراً من الكتب كالفرق بين الفرق للبغدادى تنسب إلى المعتزلة ما حكاه ابن الراوندى عن المعتزلة وكذبه فيه الخياط . كما نسبوا إلى المعتزلة القول بإنكار عذاب القبر مع أنهم لم ينكروه ، و إنما أولوه بأنه معنوى لا حسى ، وفرق كبير بين الاثنين .

فالكتب مملوءة بالادعاءات على المذاهب المختلفة من غير تمحيص ، معتزلة ينسبون إلى الشيعة مالم يقولوا ، وسنية ينسبون إلى الشيعة والمعتزلة مالم يقولوا وهكذا .

وقد عدّوا الفخر الرازى من أدق من ينقل رأى المخالف و يمحصه ، و يحدد نقط الخلاف ، كما يظهر ذلك فى كتابه « تأسيس التقديس » .

والملاحظة الثانية : شدة التعصب بين الشافعية والحنفية ، و بين الماتريدية والأشعرية ، و بين أهل السنة والمعتزلة والشيعة . وقد كان ذلك عاملا كبيراً من

عوامل ضعف المسلمين . والذى يقرأ المقدسى فى رحلته ، وياقوت فى معجم البلدان ، يرى صدق هذا القول من تخريب بلاد وقتل نفوس وشدة فتن وهياج . وكل فرقة لا تتعفف عن تكفير الأخرى . حتى لو صدقنا قول بعضهم فى بعض لخرج المسلمون كافرين .

وكنت وأنا طالب أقرا فى كتاب مسلّم الثبوت ، فإذا قال صاحبه : « وقالت المعتزلة » لم يزد الشارح على قوله : « لعنهم الله » مع أنَّ المعتزلة مع بعض أغلاطهم قاموا بدور كبير فى نصرة الإسلام والدفاع عنه . وحتى تسمية كتبهم تدل على كثير من الحقد والغضب مثل كتاب «الصواعق المحرقة» وكتاب «حز القلاصم» وكم شنّع المحدثون على الجَهْمية ، وهو اسم كان فى الأول يطلق على اتباع جهم ابن صفوان الذى ظهر فى الدولة الأموية . ثم أطلقوه على المعتزلة لاتفاقهم مع الجهمية فى توحد ذاته تعالى ونفى الصفات ، وقولهم إنَّ الصفات هى الذات . وبعد أنْ شنعوا عليهم كفروهم .

ومن أمثلة هذا التعصب ما حكى السبكى فى طبقات الشافعية أنَّ الصاحب ابن عباد عرض على محمد بن الحسن البحّاث القضاء على شرط أن يتمذهب بمذهبه أى الاعتزال . فامتنع وقال : لا أبيع الدين بالدنيا . قال : وهذا مما يستنكر من مثل الصاحب وهو ما هو . ويقول الجاحظ : « وعبتم علينا إكفارنا إياكم ، وانتم أسرع الناس إلى إكفارنا » مما يدل على ما بين الفرق من العداء ، وسرعة الرمى بالكفر . ويقول فى موضع آخر : « ونحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة ولم نتهم إلا أهل التهمة . وليس كشف المتهم من التجسس ولا امتحان الظنين من هتك الأستار . ولو كان كل كشف هتكا ، وكل امتحان تجسسا لكان القاضى أهتك الناس بستر وأشدّ الناس كشفا لعورة » وما ظنك

بقوم كفروا الغزالى وأحرقوا كتاب « الإحياء » وكثيراً ما كان يدعو التعصب إلى التعصب ، وحرارة القتال إلى حرارة القتال .

ومن نعم الله أنَّ كثيراً من كبار العلماء كانوا لا يرون هذا الرأى ولا يكفّرون أحدا من أهل القبلة يؤيدون مذهبهم و يعذرون مخالفيهم كالغزالى والفخر الرازى ، وصاحب كتاب العلم الشامخ ، وابن تيمية وأمثالهم .

قال أحمد بن المختار الرازى فى كتابه « حجج القرآن » : « ما من فرقة إلا ولها حجة من الكتاب ، وما من طائفة إلا وفيها علماء نحارير فضلاء لهم فى عقائدهم مصنفات وفى قواعدهم مؤلفات ، وكل منهم يؤول دليل صاحبه على حسب عقيدته ووفق مذهبه . وما منهم من أحد إلا و يعتقد أنه المحق وأن مخالفه فى ضلال بعيد . وكل حزب بما لديهم فرحون » وقد دافع فى كتابه هـذا عن الفرق المختلفة وعذرها لأنها اعتمدت فى مذهبها على نصوص من القرآن والسنة ونهى « من يكفّر أهل القبلة ، أو يعيّر طائفة بالقلّة ، أو يخرجهم ببدعة عن الملّة » وقال ابن تيمية : « إنَّ الكفر يكون بتكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم فيما جاء به أو الامتناع عن متابعته » وعقد فصلا فى تخطئة مَنْ فرق المسلمين بالتكفير .

ولما رأى الغزالى ما انتشر فى أهل عصره من التعصب حتى رمى هو نفسه بالكفر ألّف كتابه « فيصل التفرقة فيما بين الإسلام والزندقة » ودعا فيه إلى التسامح على أوسع وجه . وقال صاحب العلم الشامخ : « إنّ الخلاف والتعصب والتحزب هو الذى حمل سيوف بعض المسلمين على بعض وحلل دماءهم وأموالهم وأعراضهم وحرّف الكتاب والسنة ، ثم صيّرهما كالعدم بسد باب الاجتهاد » وقال أيضاً : « ثم ترتب على الافتراق تقويم كلّ لعمود الشقاق وصار كل منهم إنما يعتز بمن مال إليه من الملوك على خصمه » وقال الأشعرى نفسه فى أول كتابه « مقالات الإسلاميين » :

« اختلف المسلمون بعد نبيهم فى أشياء ضلّل فيها بعضهم بعضاً وتبرأ بعضهم من بعض ، فصاروا فرقا متباينة إلا أنَّ الإسلام يجمعهم فيعمُهم » .

وكان كبار العلماء لا يتحرجون من الاستعانة فى العلم بأصحاب الرأى المخالف ، فقد روى الغزالى فى المستصفى أن عليا رضى الله عنه استأذنه قضاة البصرة بأن يقبلوا شهادة أهل البصرة من الخوارج وغيرهم ، فأمرهم بقبولها كما كان يقبلها قبل حربهم له ، لأنهم حاربوا على تأويل ، وفى ردّ شهادتهم تعصب وتجديد خلاف . ثم إنَّ الشيخين البخارى ومسلما لم يحجما عن قبول المعتزلة وغيرهم فى رواية الحديث ، مع تصلب الشيخين فى الرواة وتحرّيهما . وعدّ ابن حجر أسماء كثير من المعتزلة والمرجئة والشيعة والخوارج وغيرهم ممن خرّج له الشيخان أو أحدهما .

ويعجبنى قول صاحب العلم الشامخ : « إنى لست بمعتزلى ، ولا أشعرى ، ولا أرضى بغير الانتساب إلى الإسلام ، وصاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام . وأعدّ الجميع إخوانا ، وأحسبهم على الحق أعوانا » وهو قول حق أؤيده فيه كل التأييد .

ولئن كان التسامح فى زمانهم واجباً ، فهو فى زماننا أوجب لسببين :

الأول أن كثيراً من أسباب الخلاف كان تاريخياً ، وقد أصبح فى ذمة التاريخ كالخلاف فى أى الصحابة أفضل ، والخلاف فيما عمله الصحابة فى حروبهم وسيرهم . وقد انقضى كل هذا ودفن فى التاريخ فما لنا نفتح صفحة طواها الله .

والثانى أنَّ المسلمين اليوم أحوج ما يكون إلى الوحدة ، لوقوعهم فى مشا كل أمام أوروبا وأمام أنفسهم لا ينقذهم منها إلا وحدتهم . وليس أسر لعدوّهم من فرقتهم . فما بالنا نسىء إلى أنفسنا بفرقتنا ، ونُفْرح العدو بشتاتنا ... والله تعالى يقول : « واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا » .



الباب الثالث

الشـــيعة

الشيعة[1]

كانت فرق الشيعة فرقاً كبيرة يعتنقها عــدد كثير من المسلمين . و يتجادل علماؤهم مع المعتزلة وأهل السنة جدالا طويلا حكى عنه المؤرخون كثيراً . وكانت هذه الفرق تختلف غلواً واعتدالا .

ومن أشد الخصومات ما كان بين المعتزلة والروافض لما روى من أن جماعة كثيرة جاءت زيد بن على لتبايعه ، وألحُّوا عليه فى قبول البيعة ومحاربة بنى مروان فلما أراد زيد أن يجاهر بالأمر جاء إليه بعض رؤسائهم وقالوا له : «ما قولك فى أبى بكر وعمر ؟ قال زيد : رحمهما الله وغفر لهما . ما سمعت أحداً من أهل بيتى يتبرأ منهما ولا يقول فيهما إلا خيراً ، وأشد ما أقول إنا كنا أحق بسلطان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الناس أجمعين . و إن القوم استأثروا علينا ودفعونا عنه ، ولم يبلغ ذلك عندنا بهم كفراً قد ولّوا فعدلوا فى الناس وعملوا بالكتاب والسنة » فلم تعجبهم هذه الأجوبة ، فنكثوا عن البيعة له ورفضوه . فقال زيد : « رفضتمونى فى أشد ساعات الحاجة » فسموا بالروافض عند ذلك . وقد يسمون بالرافضة أيضاً وهو اسم مكروه . وهناك طوائف غير الرافضة بعضهم أكثر غلوا و بعضهم أكثر اعتدالا ، ومن أعدلهم الزيدية .

الإمامـــــة

كذلك من أعدلهم مَنْ جمع بين الشيعة والاعتزال ، وأهم اختلافهم كان على مسألة الإمامة هل الأحق بخلافة المسلمين أبو بكر وعمر وعثمان ؟ فقال أهل

---

(١) انظر فجر الإسلام والجزء الثالث من ضحى الإسلام للمؤلف .

السنة : إن ترتيبهم فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة ، و إنهم لم يظلموا علياً ولم يغتصبوا منه الخلافة و إن أكثر الصحابة كانوا أعلم بظروفهم وأعلم بأخلاق بعضهم فاختاروا أبا بكر ثم عمر ثم عثمان لأنهم رأوا أنّ ذلك أنفع للمسلمين . وذهبت الشيعة إلى أن علياً أوْلى بالخلافة لأن النبى صلى الله عليه وسلم نصّ على ذلك ، ولأن فيه من المزايا ما ليس فى غيره .

ومن أجل أن الإمامة أهم شىء فى الخلاف وقد عدوها أصلا من أصول الدين سميت طائفة كبيرة بالإمامية . وهم يرون أن الإمامة فى علىّ أولا ثم فى أبنائه على التعيين واحداً بعد واحد . وأن الإيمان بالإمام ومعرفته أصلٌ من أصول الدين . وقد دعاهم احترام الأئمة و إجلالهم إلى القول بعصمتهم . والحق أن ظاهر القرآن لا يقول بعصمة الأنبياء مثل « وعصى آدم ربه فغوى » و « عبس وتولى أن جاءه الأعمى » و « فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً » ولهذا لما قال الشيعة بعصمة الأئمة اضطروا أن يقولوا بعصمة الأنبياء أيضاً . وفشت هذه العقيدة فى المسلمين الآخرين . وربما كان الفخر الرازى من أسبق القائلين بعصمة الأنبياء .

يقول المجلسى فى كتابه « حياة القلوب » : « وهم — أى الأئمة — معصومون من الذنوب صغيرها وكبيرها فلا يقع منهم ذنب أصلا لا عمدا ولا نسيانا ولا سهوا ولا غير ذلك . ولا يقع منهم ذنب قبل نبوتهم حتى ولا فى دور طفولتهم ، و يستند الشيعة فى ذلك إلى قوله تعالى لإبراهيم : « إنى جاعلك للناس إماما » . قال : « ومن ذريتى » — ثم قال : لا ينال عهدى الظالمين . قالوا : فنعلم من ذلك أن كل مذنب فاسق ظالم فلا يصلح للإمامة . . قالوا : ولا يصلح للإمامة من كان يعبد الأصنام أو أشرك بالله لحظة واحدة حتى و إن صار مسلما

بعد ذلك ، وقد قال تعالى : « إن الشرك لظلم عظيم » . وكذلك لا يكون إماما من ارتكب حراما صغيراً كان أم كبيراً حتى ولو تاب بعد ذلك ، فإنه لا يأمر بإقامة الحد من وجب إقامة الحد عليه فوجب أن يكون الإمام معصوما ، و يستدل الشيعة على ذلك بأحاديث كثيرة . وقد يفلسفون هـذه العصمة كالذى يقول المجلسى : « واعلم أنَّ القائلين بالعصمة قد اختلفوا فى المعصوم — هل هو قادر على فعل المعصية أم لا ؟ فالذين قالوا بأنه غير قادر قالوا : إنَّ فى بدنه أو فى نفسه خاصة تقتضى أن يكون الإقدام على ارتكاب المعصية محالا . وقال بعضهم إن العصمة ملكة نفسانية لا يصدر عنها أية معصية . و يقول بعضهم : إن العصمة لطف من الله بالنسبة للعبد ، فلا يجد العبد فى هـذا اللطف داعيا لترك الطاعة وارتكاب المعصية » .

وقد يستدلون بقوله تعالى « إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت و يطهركم تطهيراً » .

وأهم فرق الإمامية فرقة تسمى « الاثنى عشرية » وسميت بذلك لأنها تقول باثنى عشر إماما أولهم علىّ ، عكس فرقة أخرى تسمّى السبعية لأنها تقف عند الإمام السابع وهو إسماعيل ، ولذلك يسمون الإسماعيلية . و بعد إسماعيل أتت أئمة مستورة .

والظاهر أنه غلب عليهم الاعتقاد بالإرث ، أى أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم يورث ، أى يورث فى روحانيته ، كما يورث الناس فى أموالهم حتى تجادل فى ذلك الشعراء . فقال دعبل الشاعر الشيعى :

أرى فَيْئَهُمْ فى غيرهم متقسّما   وأيديهمُ من فَيْئهم صفرات

همُ أهل ميراث النبى إذا اعتزوا   وهم خيرُ قادات وخير حمـــاه

ويقول منصور النمرى من شعراء العباسيين :

يا أيها الناس لا تعزب حلومُــكمُ   ولا تُضِفكم إلى أكنافها البِدَعُ

العمّ أولى من ابن العم فاستمعوا   قول النصيحة — إن الحقَّ مستمَعُ

وقد وضع ابن المعتز العباسى قصيدة فى أحقية أولاد العباس ورد عليـه تميم بن المعز الفاطمى (١) على قافيتها .

* * *

ويظهر أنَّ الإمامة فى نظر الشيعة تطورت مع التاريخ ، فقد كانت كلمة إمام وإمامة تطلق بالمعنى الإسلامى المعروف ، فإذا قال بعض الصحابة : إنَّ الإمام هو أبو بكر وعمر ، وقال الشيعة إن الإمام هو علىّ ، كانوا يفهمون من ذلك أن الإمام بمعنى الرياسة والتقدم ، كالإمام فى الصلاة . ولـكن يظهر أنَّ الـكلمة تطورت بعد ذلك إلى معنى آخر وهو أن فى الإمام معنًى روحياً . فالإمام له صلة روحية بالله على نحو أقل من الصلة الروحية بين الله والأنبياء . جاء فى كتاب الـكافى للـكلينى وهو من أوثق مصادرهم : « كتب الحسن بن العباس المعروفى إلى الرضا : — جعلت فداك — أخبرنى ما الفرق بين الرسول والإمام والنبى . فـكتب أو قال : الفرق بين الرسول والنبى والإمام أنَّ الرسول هو الذى ينزل عليه جبريل فيراه ويسمع كلامه وينزل عليه الوحى . وربما رآه فى منامه نحو رؤيا إبراهيم . والنبى ربما سمع الـكلام ، وربما رأى الشخص ولم يسمع . والإمام هو الذى يسمع الـكلام ولا يرى الشخص (٢) » .

(١) انظر القصيدتين فى الديوانين .

(٢) الـكافى ص ٨٢ .

فالإمام بهذا المعنى يوحى إليه ... قالوا : « والله أعظم من أن يترك الأرض بغير إمام عادل . إنْ زاد المؤمنون شيئاً ردّهم ، وإن نقصوا شيئاً أتمه لهم . وهو حجة على عباده . ولا تبقى الأرض بغير إمام . . حجّة لله على عباده . ولو لم يبق فى الأرض إلا رجلان لكان أحدهما الحجّة ، وكان هو الإمام » وفيه أيضاً : « ومن لا يعرف الله عز وجل ولا يعرف الإمام منا أهل البيت ، فإنما يعرف و يعبد غير الله[1] » .

قال أبو جعفر : نحن خزّان علم الله ، ونحن تراجمة وحى الله ، ونحن الحجة البالغة على من دون السماء ، ومن فوق الأرض . والأئمة نور الله الذى قال فيه تعالى : «فآمنوا بالله ورسوله والنور الذى أنزلنا» . ونور الإمام فى قلوب المؤمنين أنور من الشمس المضيئة بالنهار ، و يحجب الله نورهم عمّن يشاء فتظلم قلوبهم[2] » بل زادوا على ذلك فقالوا : إنَّ الله خلق العالم لأجلهم ، وإنه قد فوّض أمور الناس إليهم ، و إنه بوجودهم ثبتت الأرض والسماء ، و بيمنهم رزق الورى ، وأنه يجب أن يكون فى كل زمان منهم و إنه من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية . جاء فى الكافى عن الصادق : « إنَّ الأرض كلها لنا » وروى عبد الله ابن بكر الأرّجانى عن الصادق قال : قلت جعلت فداك . فهل يرى الإمام ما بين المشرق والمغرب ؟ قال يابن بكر . فكيف يكون حجة على ما بين قطريها وهو لا يراهم ولا يحكم فيهم ؟ إلى كثير من أمثال ذلك فى الكافى وغيره .

وقد فسروا : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم » بأنها نزلت فى علىّ . ورووا : « أوصيكم بكتاب الله وأهل بيتى فإنى سألت الله عز وجل ألا يفرّق بينهما حتى يوردهما الحوض فأعطانى ذلك » .

---

(١) الكافى ص ٨٥ .

(٢) الكافى ص ٩٢ .

فنرى من هذا أن عقيدة الصحابة وأهل السنة والمعتزلة فى الإمام تخالف عقيدة الشيعة . الأولون لا يقدسون الإمام ، ولا يرون أنه معصوم و يرون أنه قد يخطىء فيجب ردّه إلى الصواب ، بل وقد يرتكب الكبائر فيجب ردّه . وأما الشيعة فيرون أن فيه صلة بالله ، وأنه معصوم ، وأنه لا يخطئ . وفرقٌ كبير بين الاثنين.

وأنا أرى أن الحق مع الأولين ، وأن الاعتقاد بعصمة الإمام وروحانيته وتقديسه تشلّ العقول ، وتجرّئ الإمام على العبث بالرعيّة . وقد كان الصحابة يخطئون الأئمة فى بعض تصرفاتهم و يخالف بعضهم بعضا ، فهذا عمر انتقد تصرف أبى بكر مع خالد ، وهذا علىٌّ خالف عمر فى بعض المسائل ، والصحابة أنفسهم منهم من خطّأ عليّاً نفسه فى بعض تصرفاته .

وعلى الجملة فكانوا ينظرون إلى الإمام على أنه مخلوق كسائر الناس يصدر عنه الخطأ والصواب . فإذا أخطأ وجب تقويمه . وهكذا سير الأمم الآن فى تقويم ملوكهم وردّهم إلى الصواب إن أخطأوا . ونحن نقول ذلك اتباعاً للحق والعقل ، لا نصرةً لمذهب على مذهب .

الإمام جعفر الصادق

و يظهر أنّ أول من أسبغ هذا المعنى على الإمام ، هو الإمام جعفر الصادق فإنه كان من أوسع الناس علماً واطلاعاً . عاش من سنة ٨٣ إلى سنة ١٤٨ وقد لقب بالصادق لصدقه . وقد كانت أمه من نسل أبى بكر الصديق فأثر ذلك فى اعتداله . وقد نفعه أنه رأى مَنْ قبله من الأئمة احترق بالسياسة فابتعد عنها . . قال فيه الشهرستانى ، وهو غير شيعى : « وهو ذو علم غزير فى الدين ، وأدب كامل فى الحكمة ، وزهد بالغ فى الدنيا ، وورع تام عن الشهوات . وقد أقام بالمدينة

مدة يفيد الشيعة المنتمين إليه ويفيض على الموالين له أسرار العلوم . ثم دخل العراق وأقام بها مدة ما تعرّض للإمامة قط ، ولا نازع أحداً فى الخلافة . ثم غرق فى بحر المعرفة ، لم يطمع فى شطّ ، ومن تعلّى إلى ذروة الحقيقة لم يخف من حطّ ، وقد قيل : من أنس بالله توحّش عن الناس ، ومن استأنس بغير الله نهبه الوسواس ، وهو من جانب الأب ينتسب إلى شجرة النبوة ، ومن جانب الأم ينتسب إلى أبى بكر . ومع ذلك لم يسلم من إيذاء أبى جعفر المنصور له . وقد كان له بستان جميل فى المدينة يستقبل فيه الناس على اختلاف مذاهبهم . ويروون أنه كان من تلامذته أبو حنيفة ومالك بن أنس الفقيهان الشهيران ، وواصل بن عطاء المعتزلى ، وجابر بن حيان الكيماوى ، وبعض الناس ينكر هذا . وله أقوال فى الإرادة وفى القدر كقوله فى الإرادة : « إن الله أراد بنا شيئاً وأراد منا شيئاً ، فما أراده بنا طواه عنا ، وما أراده منا أظهره لنا . فما بالنا نشتغل بما أراده بنا عما أراده منا ؟ » وقال فى القدر هو أمران « لا جبر وتفويض » وهما مسألتان مما تكلم فيهما المتكلمون كثيراً كما رأينا ، وله أقوال كثيرة منثورة فى الكتب تدل على حكمته ، وبعد نظره ، وسعة علمه . وإنما قلنا إنه لوّن معنى الإيمان لوناً خاصاً لما روى عنه من بعض الأقوال التى تدل على أن الله جعل لمحمد نوراً ، ثم تنقل هذا النور إلى أهل بيته ، كالذى ذكره المسعودى من حديث نسبه الإمام جعفر إلى الإمام علىّ جاء فيه « إن الله أتاح نوراً من نوره فلمع ونزع قبساً من ضيائه فسطع ... ثم اجتمع النور فى وسط تلك الصورة الخفية فوافق ذلك صورة نبينا محمد ، فقال الله عز وجل : أنت المختار المنتخب ، وعندك مستودع نورى وكنوز هدايتى ، من أجلك أسطح البطحاء ،وأموّج الماء ، وأرفع السماء . وأنصب أهل بيتك للهداية ، وأوتيهم من مكنون علمى ما لا يشكل به عليهم دقيق ولا يغيب عنهم به خفى ، وأجعلهم

حجتى على بريّتى ، والمنبهين على قدرتى ووحدانيتى » ونحـو ذلك من الأقوال المنسوبة إليهم . فـكل هذا جعلنا ننسب إلى الإمام جعفر الصادق صبغته للإمام صبغة جديدة لم نـكن نعرفها من قبل .

وكان لجعفر الصادق أولاد كثيرون ، منهم إسماعيل ، وكان هو الأكبر وهو المعين للإمامة بعد أبيه . ولـكن حدث أن مات إسماعيل قبل موت أبيه ، فأحدث ذلك خلافا كثيراً عند الشيعة ، وكان هو السابع ، فرأت فرقةٌ أنّ إسماعيل هذا كان آخر الأئمة . ومنهم من أنكر موته ، وقال إنه غاب و إنه سيعود و إنه لم يمت حقيقة بل حجبه الله إلى الوقت الذى يقتضى ظهوره ، و يسمى هؤلاء بالسبعية لوقوفهم فى الإمامة عند هذا ، و يسمون أيضاً بالإسماعيلية نسبة إلى إسماعيل هذا ، وهو قول غريب .

و بعضهم يقول إنه مات حقيقة ، و إن الإمامة انتقلت بعده إلى أخيه موسى الـكاظم وساقت هذه الفرقة الإمامة بعد ذلك إلى اثنى عشر إماما . ومن أجل ذلك يسمون الشيعة الاثنى عشرية . ثم القرامطة والفاطميون و الحشاشون إسماعيلية الهند و إيران وآسيا الوسطى كلها طوائف سبعية أو بعبارة أخرى إسماعيلية ، ولـكل إمام من هؤلاء الأئمة تاريخ طويل ، لا يهمنا هنا ، فليرجع إليه من شاء . إنما الذى يهمنا ما يتعلق بعقيدة الإمام .

وكان الإمام الحادى عشر هو الحسن العسكرى ، وقد وُلد سـنة ٢٣٢ كما يقول الـكلينى . وكان يلقب بالصامت والهادى والرفيع والزكى والنقى ، ولـكن الذى غلب عليه هو العسكرى . وقد حمله أبوه وهو صغير إلى سامرّا فى عهد المتوكل ، وتعلم هناك ، وعرف أنه كان يتكلم لغات كثيرة — الهندية والتركية

والفارسية . وقد مات الحسن العسكرى هذا سنة ٢٦٠ فى عهد المعتمد العباسى وقد خلف الإمام الثانى عشر واسمه محمد سنة ٢٥٥ أو سنة ٢٥٦ فى سامرا ومات عنه وهو ابن أربع سنين أو خمس . وقد تغيب هذا الإمام الثانى عشر ولم يظهر للناس وأطلق عليه الإمام المنتظر والمهدى وصاحب الزمان . وقالوا : إنَّ الله حجبه عن عيون النـاس ، وإنه حىّ بإذن الله ، وقد رآه بعضهم بين وقت وآخر وهو يكاتب الناس ويتصرف فى أمور شيعته[1] ، وإن هـذا الإمام الغائب سيرجع الخ الخ .. ..

ولمـا كان لا بد من شخص ليـه فى النوازل ، قالوا : إنَّ له وكيلا ينوب عنه وهو عثمان بن سعيد . فلما مات خلفه وكيل آخر وهكذا إلى أربعة[2] وقد شجعت هـذه الفـكرة القائمين بالحركات السياسية والطامحين إلى الملك إلى ادعاء كثير أنه المهدى المنتظر[3] .

والمفكر فى هذا يعجب لأمرين — أحدهما : تولية الإمامة لطفل فى الرابعة أو الخامسة من عمره . مع أنَّ الإمامة منصبٌ عظيم يشرف على أمور المسلمين فلا بد له من رجل ناضج قادر على تحمل المسئولية ، عارف بأمور الدين ومشاكل الدنيا . والطفل الصغير لا يستطيع ذلك مهما أوتى من النبوغ . وربما دعاهم إلى ذلك فـكرتهم فى أن لـكل إمام نورانية إلهية يتوارثها خلف عن سلف ، وهى نظرية تحتاج إلى مناقشة . ونحن نرى حتى فيما بين أيدينا ، أنَّ فى نسل الأشراف من هو نبيل كل النبل ، عظيم كل العظمة ، ومن هو فاجر داعر ، وتلك سـنة

(١) بحار الأنوار للمجلسى .

(٢) انظر بحار الأنوار للمجلسى .

(٣) انظر كتابنا المهدى والمهدية .

الله فى خلقه . فقد يخرج العالم جاهلا ، والجاهل عالما ، والمتدين فاجرا ، والفاجر دَيِّناً ، كما نرى فعلا فى الحكومات الشيعية من فاطمية و إسماعيلية مَنْ كان لا يصلح للإمامة مطلقاً بدلالة التاريخ كما هو الشأن فى الخلاف السنية .

والأمر الثانى دعواهم فى هـذا الطفل أنه خفىٌّ لا يظهر . و إنما يظهر عند حاجة الزمان إليه . وقد جرّهم ذلك إلى القول بطول عمر الإمام الغائب ، مع أنّ سنة الله فى خلقه تحديد أعمار الإنسان .

وقد جرى ذلك على الأنبياء أنفسهم ، فلم يعمر النبى محمـد إلا ثلاثاً وستين سنة ، كما جرى على علىّ والحسن والحسين . ولم نعلم أحداً فى التاريخ الظاهر عمّر أكثر من مائة سنة إلا قليلا . وعلى كل حال فلم يعمّر أحد أبداً . وقد دعا قولهم بغيبة الإمام الثانى عشر هذا إلى قول بعضهم : إنه لم يوجد ، و إن الإمام العسكرى مات من غير عقب ، و إن دعوى الطفل هذه من صنع الوكلاء طمعاً فى المال الذى يجبى من سائر الأقطار لأئمة الشيعة .

اتفاق الشيعة والمعتزلة

وكثير من الشيعة يتفقون فى العقيدة مع المعتزلة ، إذْ كان كثير منهم شيعة ومعتزلة فى وقت واحد . وذلك فى مثل تأويل بعض الآيات فى القرآن ، ومثل عدم رؤية الله فى الدنيا والآخرة اعتماداً على قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » ولـكنهم قد يخالفون المعتزلة فى بعض الأشياء مثل قول الشيعة بشفاعة الأنبياء والأئمة ، وقد كان المعتزلة يستندون فى عدم الشفاعة إلى قوله تعالى : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها » « ولا تزر وازرة وزر أخرى » وحمل المعتزلة على ذلك إيمانهم التام بالمسئولية الشخصـية وأن كل شخص مسئول عن عمله .

وخالفهم أهل السنة فى ذلك ، وزاد الشيعة فى شفاعة الأئمة ، ورووا عن الإمام الباقر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « يا على إذا جاء يوم القيامة جلسنا أنا وأنت وجبريل على الصراط فلا يمر أحد عليه إلا و بيده براءة من نار جهنم بولايتك » وكان من مستلزمات ذلك الزيارات الكثيرة للأولياء والاستشفاع بهم والدعاء عندهم . من ذلك مثلا : « السلام على الذين مَنْ والاهم فقد والى الله ، ومن عاداهم فقد عادى الله ، ومن عرفهم فقد عرف الله ، ومن جهلهم فقد جهل الله ، ومن اعتصم بهم فقد اعتصم بالله ، ومن تخلّى عنهم فقد تخلّى عن الله . أشهد الله أنى سلم لمن سالمهم ، وحرب لمن حاربهم ، ومؤمن بسرّكم وعلانيتكم ، مفوّض فى ذلك كله إليكم . لعن الله عدو آل محمد من الجن والإنس ، من الأولين والآخرين ، وأبرأ إلى الله منه ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله الطاهرين »[١]
وفيما عدا ذلك هناك اختلافات بين الشيعة وأهل السنة فى الفروع[٢] .

تأييد الحكومات للشيعة

وكما أن أهل السنة أيدتهم حكومات كالذى ذكرنا من قبل ، فالتشيع قد أيدته حكومات أخرى ، كالدولة البويهية فى العراق وماحوله ، والدولة الفاطمية فى مصر والشام والمغرب ، ومما يؤسف له أن النزاع بين هذه الحكومات السنية والشيعية لم يقتصر على المناظرة والجدل الكلامى . بل تعدّى إلى القتال بالسيف ، و بذل الدماء أنهارا . فكم سفك من الدماء فى ادعاء المهدية ، كالذى بذل فى دعوى عبيد الله الفاطمى من أئمة الإسماعيلية فى فتح أفريقيا ومصر حتى أسس دولته ،

(١) وقفة الزائرين للمجلسى .

(٢) انظرها فى الجزء الثالث من ضحى الإسلام .

إلى كثير غيره من المهديين ، إلى مهدى السودان . ثم ما كان من هجوم التتار ومصيبتهم العظمى فى التقتيل والتخريب مما جعل مؤرخى الإسلام يصرخون عند كتابة حوادثها ، فإنه كان من أسبابها الكبيرة الخلاف بين الشيعة والسنية .

قال الخميسى : « نهب التتر سواد آمد وارزن وميّافارقين وقصدوا مدينة أسعرد فقاتلهم أهلها فبذل لهم التتر الأمان فوثقوا منهم واستسلموا . فلما تمكن التتر منهم بذلوا فيهم السيف فقتلوهم ، حتى كادوا يأتون عليهم فلم يسلم منهم إلا من اختفى ، وقليل ما هم . وساروا فى البلاد لا مانع لسيفهم ولا أحد يقف بين أيديهم فوصلوا إلى ماردين فنهبوها ... ثم وصلوا إلى نصيبين والجزيرة فأقاموا عليها بعض نهار ، ونهبوا سوادها ، وقتلوا مَنْ ظفروا به . وقيل إن الرجل الواحد منهم كان يدخل القرية أو العزبة أو الدرب وفيه جمع كثير من الناس لا يزال يقتلهم واحداً بعد واحد لا يتجاسر أحد أن يمدّ يده إلى ذلك الفارس . واستولوا على أرضهم ولم يقف فى وجوههم فارس . وهذه مصائب وحوادث لم ير الناس من قديم الزمان وحديثه ما يقاربها . وفى سنة ست وخمسين وستمائة وصل الطاغية هولاكو إلى بغداد بجيوشه وبالكرج وبعسكر الموصل فانكسر المسلمون أمامه لقلتهم ، ونزل قائده على بغداد من غربيها وهولاكو من شرقيها ، ثم خرج الخليفة المستعصم لتلقيه فى أعيان دولته وأكابر الوقت فضربت رقاب الجميع ، وقتلوا الخليفة ورفسوه حتى مات ، ودخلت التتار بغداد واقتسموها ، وكلّ أخذ ناحية وبقى السيف يعمل أربعة وثلاثين يوما ، وقلّ من سلم . فبلغت القتلى ألف ألف وثمانمائة ألف وزيادة ، فعند ذلك نادوا بالأمان » .

وكان مجىء هولاكو فيما يقال بدعوة الوزير ابن العلقمى الرافضى إذ كان يعتقد أن هولاكو سيقتل المعتصم و يعود إلى حال سبيله ، وعندئذ يتمكن الوزير من نقل الخلافة إلى العلويين .

ثم ما كان مثلا بين الدولة العثمانية لما قامت فى الآستانة وما حولها و بين الصفويين فى إيران وما حولها سنة ٩٢٠ فإن السلطان سليما لما بلغه أن كثيراً من رعايا الدولة العثمانية يتمذهب بالمذهب الشيعى على أيدى دراويش بثّهم الشاه إسماعيل الصفوى عزم على محاربتهم ، فأعلن الحرب على الشاه إسماعيل ، وما زال الجيش العثمانى يتقدم من مدينة إلى مدينة حتى وصل إلى سيواس ، وأحصى جيشه فبلغ ١٤٠ ألف جندى ، ترك جزءاً منه للمحافظه على الطريق يبلغ نحو أربعين ألفاً ، وتقدم هو بالباقى وتقدم إلى مدينة تبريز ، فخرج إليه الشاه إسماعيل الصفوى ووقف أمام السلطان سليم العثمانى وكان الجيشان فى العدد سواء تقريباً . وكان فى الجيش الإيرانى طائفة من الخيالة وفرق تلبس الزرد وفرقة من طوائف الفدائية . وقتل من الفريقين عـدد كبير واستولى العثمانيون على مضارب الفرس وما كان معهم من الذخائر والأدوات ، وجرح الشاه إسماعيل وسقط عن جواده . ودخل السلطان سليم تبريز . وقد قتل من الفرس وحدهم فى تلك المواقع نحو أربعين ألفاً . ومن ذلك أيضاً مافعلته الفرقة الفدائية الإسماعيلية من قتل ونهب ، ومافعلته جماعة القرامطة ، إلى كثير من أمثال ذلك .

فلو نظرنا إلى النفوس والجهود والأموال التى أتلفت بين طوائف المسلمين وخصوصاً الشيعة والسنية ، وما جرى للشيعة من عهـد على وخلفائه مما يشرحه كتاب « مقاتل الطالبيين » لأبى الفرج الأصفهانى صاحب الأغانى ، وما جاء فى كتب التاريخ بعده أخذنا العجب ، وأدركنا أن هـذه القوى التى بذلت بين

المسلمين كانت تكفى فى سهولة لطرد الصليبيين وكفّهم عن العبث بالبلاد ، وكان الكف عن قتالهم فيما بينهم يكفى لإصلاح حالة المسلمين اجتماعياً واقتصادياً إصلاحاً ليس له نظير . ولكن هكذا قدر ، وهكذا كان ، فضاعت المجهودات عبثاً ، بل ضاعت فى التخريب والتبديد من عصر الخلفاء الراشدين إلى اليوم ، ولو تدبر الفريقان لرأوا أن الخلاف كان أكثره على مسائل أصبحت فى ذمة التاريخ ، ولم يصبح للخصومة عليها معنى ، ولكن ماذا نعمل والعقول ضيقة ؛ وفى الناس من يثير الخصومات كسباً للمال ، حفظاً لمنزلته فى أسرته ، أو شهوة للحكم .

عواطف أهل الشيعة

ولئن أمعن المتكلمون من المعتزلة والسنية فى الحجج العقلية والقوانين الدقيقة المنطقية ، فقد غلبت على الشيعة العواطف . لقد أحبوا آل البيت حباً عاطفياً وكرهوا جداً من عاداهم ، وتأثروا تأثراً شديداً ممن عذبهم أو قتلهم أو حبسهم ، ولم يكتفوا بالعواطف المجردة ، بل أرادوا الانتقام ممن عذبهم ، وحاولوا مراراً قلب حكمهم ، وهذه كلها شأن العواطف . أما مقدمة صغرى وكبرى وقياس وأشكال قياس فهذه صبغة المعتزلة والسنية . ولكل طابعه .

دعت هذه العواطف عند الشيعة وتعظيم الأولياء وفكرة الاستشفاع بهم إلى مظهر واضح ربما تأثر به المسلمون جميعاً وهو إقامة الأضرحة والعناية بها وتزيينها ، وزيارتها ، والاستشفاع بها ، وكثرة الدعوات عندها ، وتمنى الدفن بجوارها . وإن كانت هذه العادات عند السنيين والمسلمين فهى عند الشيعة أقوى ، وربما كانت هى الأساس . من ذلك مثلا مشهد الإمام على بالنجف ، وهو يبعد عن الكوفة نحو أربعة أميال ، قد حشد فيه من قديم الفن الفارسى من خط جميل

وقاشانى وتحف فنية ذهبية وغير ذلك . والزائر لهـذا المشهد يرى ساحات واسعة ملئت بالقبور كما يرى مئات القباب المختلفة الألوان . وقد سلم هذا المشهد من تخريب هولاكو لأن الشيعة كانت قد ساعدته ليستعينوا به على السنية الذين كانوا قد آذوهم . يقول ابن بطوطة فى رحلته : « ثم رحلنا ، فنزلنا مدينة مشهد على بن أبى طالب بالنجف وهى مدينة حسنة ... وأهل هـذه المدينة كلهم رافضة . . . . وحيطان هـذه الروضة منقوشة بالقاشانى والقبة مفروشة بأنواع البسط من الحرير وسواه . وبها قناديل الذهب والفضة . . . . وفى المدينة خزانة كبيرة تجمع بها النذور من النـاس فى بلاد العراق وغيرها ، مَنْ يصيبه المرض ينذر للروضة نذراً إذا برئ ... وهذه الروضة ظهرت لهـا كرامات » .

وقد وردت أحاديث كثيرة عن الأئمة الشيعيين فى فضل زيارة قبر على كالذى رواه جعفر الصادق أنه قال : « من زار أمير المؤمنين عارفاً بحقه غير متجبّر ولا متكبّر، كتب الله له أجرَ مائةِ شهيد ، وغفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر » وأتى رجـل الإمام الصادق وأخبره أنه لم يزر أمير المؤمنين فقال له : « بئس ماصنعت لولا أنك من شيعتنا مانظرت إليك . ألا تزور من يزوره الله مع الملائكة ويزوره الأنبياء ويزوره المؤمنون . قال جعلت فداك ، ماعلمت ذلك . قال : فاعلم أن أمير المؤمنين أفضل عند الله من الأئمة كلهم ، وله ثواب أعمالهم . وعلى قدر أعمالهم فضلوا[1] » .

وعلى الزائر حين يزور أن يتلو دعاء الزيارة وهو :

« السلام عليك يا ولى الله ، يا حجة الله ، يا خليفة الله ، يا عمود الدين ، يا وارث النبيين ، يا قسيم الجنة والنار ، يا صاحب العصا والميسم يا أمير المؤمنين :

(١) المجلسى .

أشهد أنك كلمة التقى ، و باب الهدى ، والأصل الثابت ، والجبل الراسخ ، والطريق الحق ؛ أشهد أنك حجة الله على خلقه وشاهده على عباده ، وأمينه على علمه ومستودع أسراره ، ومعدن حكمته وأخو رسوله . أشهد أنك أول مظلوم وأول من غصب حقه ، فصبر وانتظر . لعن الله من ظلمك وغصب حقك وعاداك ، لعنة عظيمة يلعنه بها كل ملك كريم ونبى مرسل ، ومؤمن صادق ، ورحمة الله عليك يا أمير المؤمنين وعلى روحك وجسدك ... الخ وهم يروون دعاء مخصوصاً دعا به أحد الأئمة . وهذا الحديث يرينا مقدار أثر الإمام جعفر الصادق فى تلوين التشيع وأثره .

ومن أشهر المشاهد والمزارات كربلاء على بعد ثلاثة أميال من بغداد وفيها مشهد الحسين . وهى من أعظم المزارات وأفخمها ، وأحفلها بالتحف والمذهبات يقول فيها ابن بطوطة . . « والعتبة الشريفة وهى من الفضة وعلى الضريح المقدس قناديل الذهب والفضة وعلى الأبواب أستار الحرير ، وكم يكرر الزائرون مأساة الحسين ... وهم يروون الروايات الغريبة عن فضل هذا المكان المقدس تتلألأ قبته المغشاة بالذهب إذا طلعت عليه الشمس » .

كذلك يرى من دخل بغداد من الشمال أو الغرب المآذن الذهبية الأربعة فوق مشهد الكاظمية ، كما يرى الشيعة يقصدون هذه المشاهد و يستشفعون بها و يدعون عندها .

وقد كان البناء قديماً وجدده الشاه إسماعيل الأول ، أما تذهيب القبتين فأمر به الشاه أغا محمد وأصلحت إحدى القباب وكسيت المنائر بالذهب . وهم يضعون لزيارتهم شروطاً فيقولون : « إذا أردت زيارة قبر موسى الكاظم وقبر محمد بن

على بن موسى فاغتسل وتنظف وتعطّر والبس ثو بيك الطاهرين ثم قل عند قبر الإمام موسى : — السلام عليك ياولىّ الله ، ياحجة الله ، يا نور الله ... أتيتك زائراً عارفا بحقك ، معاديا لأعدائك ، مواليا لأوليائك ، فاشفع لى عند ر بك يامولاى »[١] .

والذى يرى المشاهد العديدة فى القاهرة كمشهد الحسين والسيدة ز ينب والسيدة نفيسة وغيرها يرى أنهـا صورة مصغرة جداً للمشاهد فى النجف وكر بلاء والـكاظمية .

وللشيعة كتب فى الحديث تتميز بالرواية عن الأئمة وعن رجال الشيعة يعتمد عليها الشيعيون ، كما يعتمد السنيون على كتب الصحاح ، من أشهرها كتاب الـكافى للـكلينى . وهو أول هؤلاء المحدثين وأعلاهم منزلة ، ألّف كتابه الـكافى فى علم الدين . و يحتوى على ١٦ ألف حديث وقسمها إلى أحاديث صحيحة وحسنة وموثقة وقو ية وضعيفة[٢] وقد مات الـكلينى فى بغداد سنة ٣٢٨ أو ٢٩ . ومن المؤلفين فى الحديث أيضاً الصدوق القمى الملقب بابن بابو يه ، وهو يحتوى على أر بعة آلاف وأر بعمائة وستة وتسعين حديثاً . ومن المؤلفين فى الحديث أيضاً الطوسى ، و ينسب إليه التأثير الـكبير فى الدعوة إلى الشيعة وقد كان له تلاميذ كثيرون . وقد ولد الطوسى سنة ٣٨٥ فى طوس وجاء بغداد وعمره ثلاث وعشرون سنة ثم هاجر إلى النجف ، وله كتب كثيرة فى الحديث وأصول الدين والفقه

---

(١) هذه الأدعية ومئات أمثالها فى تحفة الزائرين للمجلسى .

(٢) طبع هذا الـكتاب فى طهران .

والتراجم . والناظر إليها يعلم صبغتها بالصبغة الشيعية ، وربما اختلفت فى ترتيبها عن ترتيب الصحاح السنيَّة . هذا عدا أن لهم مجتهدين وفقهاء عنوا بالفقه الشيعى ، وفيه بعض مخالفات للفقه السُّنى . إن شئت فانظر إلى كتاب « بحار الأنوار » وعلى العموم فقد كانت لهم خلافات فى العقيدة وفى الحديث وفى الفقه ولمجتهديهم قوة على الرأى العام الشيعى ، وتبجيل وتقديس أكثر مما لعلماء أهل السنة . وكثيراً ما تدخلوا فى الأمور السياسية وعطّلوا بعض المشاريع السياسية . وقد حاول بعض الولاة الشيعيين أن يحدّ من سلطانهم فلم ينجح .

بعض فرق الشيعة

نتجت من الشيعة فرق كثيرة لعبت أدوراً هامة فى التاريخ كالإسماعيلية والقرامطة والزنج والزيدية . لا بأس أن نذكر كلمة عن كل منها .

(أولا) الإسماعيلية :

ذكرنا قبل أن الإسماعيلية نسبة إلى الإمام إسماعيل ، وهو الإمام السابع وهم يقفون عنده . ولذلك يسمى أتباعه بالسبعية . وقد يطلق على بعضهم الحشاشون لأنه أثر عنهم استعمال الحشيش فى دعوتهم . وقد يلقب بعضهم أيضاً بالفدائيين .

وقد كانت هذه الفرقة قوة كبيرة لعبت دوراً كبيراً فى تاريخ الإسلام وكانت تؤلف حزباً كبيراً متآلفاً مطيعاً ، ومن أول رؤسائهم عبد الله بن ميمون القدّاح ، وله أتباع كثيرون . ويمتاز هو ورؤساء حزبه بأنهم كانوا فى غاية المكر والدهاء . وضعوا أسساً ومبادىء لجمعية سرية على أدق نظام عرفه التاريخ إلى اليوم ، يرمى إلى شيئين هامين .

الأول : استغلال الاستياء من الدولة العباسية على أى نحو كان ، وتوحيد الصفوف لإزالتها ، وإحلال فرقتهم محلها ، ومخاطبة كل باللغة التى تناسبه والأغراض التى تناسبه .

والثانى : ترتيبهم الدعوات إلى مذهبهم ترتيباً محكما على حسب استعداد الناس . فللجماهير تعاليم وللخاصة تعاليم ، ولخاصة الخاصة تعاليم . ولا يعلم الأدنى تعاليم الأعلى[١] . فهم رتبوا الدعوات بحسب الاستعدادات . ولا يعلم أسرار الجمعية إلا رؤساؤها وزعماؤها القليلون .

---

(١) انظر خطط المقريزى .

ور بما تطورت فى ذلك مع الزمن ، فقد بدأت الإسماعيلية فرقة شيعية معتدلة أكبر خصائصها أنها تدين بالأئمة السبعة الأولى وحدهم . ثم تطورت مع الزمن ودخلت فيها تعاليم كثيرة مختلفة وتقسمت إلى طوائف لكل طائفة عمل خاص . فطائفة الفدائيين ، وطائفة للقيام بالدعوة وهكذا ... ثم كان زعماؤهم فى غاية المهارة فى معرفة نفوس من يدعونهم فيعرفون كيف يخاطبون العرب والعجم والكرد والأتراك . كما يعرفون كيف يخاطبون الجمهور غير المتعلمين والمثقفين والفلاسفة الخ . والذى يعرف أسرار الجمعية وأغراضها عدد قليل جداً . ولا يصلون إلى درجة الزعامة إلا بعد أن يمروا بدرجات يمتحنون فى كل درجة منها امتحاناً قاسياً . ثم يحلفون الأيمان المغلظة على الوفاء بتعليمهم . وقد حكى أبو منصور البغدادى فى الفرق بين الفرق صورة اليمين فقال : « وأما أيمانهم فإن داعيهم يقول : جعلت على نفسك عهد الله وميثاقه وذمّته وذمة رسله وما أخذ الله من النبيين من عهد وميثاق أن تستر ما تسمعه منى ، وما تعلمه من أمرى ومن أمر الإمام الذى هو صاحب زمانك ، وأمر أشياعه وأتباعه فى هذا البلد وفى سائر البلدان ، وأمر المطيعين له من الذكور والإناث . فلا تظهر من ذلك قليلا ولا كثيرا ولا تظهر شيئاً يدل عليه من كتابة أو إشارة إلا ما أذن لك فيه الإمام صاحب الزمان ، أو أذن لك فى إظهاره المأذون له فى دعوته فتعمل فى ذلك حينئذ بمقدار مايؤذن لك فيه . وقد جعلت على نفسك الوفاء بذلك فى حالتى الرضا والغضب والرغبة والرهبة . وجعلت على نفسك أن تمنعنى وجميع من أسميه لك مما تمنع منه نفسك لعهد الله تعالى عليك وميثاقه وذمته وذمة رسله وتنصحهم نصحاً ظاهراً وباطناً ، وألا تخون الإمام وأولياءه وأهل دعوته فى أنفسهم ولا فى أموالهم ، وأنك لا تتأول فى هذه الأيمان تأويلا ولا تعتقد ما يحلّها ، فإنك إن فعلت شيئاً من ذلك فأنت برىء من الله ورسله وملائكته

ومن جميع ما أنزل الله من كتبه . وإنك إن خالفت فى شيء مما ذكرناه لك فلله عليك أن تحج إلى بيته مائة حجة ماشياً نذراً واجباً ، وكل ما تملكه فى الوقت الذى أنت فيه صدقة على الفقراء والمساكين ، وكل مملوك يكون فى ملكك يوم تخالف فيه أو بعده يكون حراً ، وكل امرأة لك الآن ، أو يوم مخالفتك ، أو تتزوجها بعد ذلك تكون طالقاً منك ثلاث طلقات ... والله تعالى الشاهد على نيتك وعقد ضميرك فيما حلفت به . فيقول المحلف : نعم »[1] . فكان الرجل إذا انتدب لأى مهمة نفذها بكل دقة مهما تطلبت من التضحية ، كما نرى فى تاريخ الفدائيين ، وكما يرى فى تاريخ حادثة الرجل الذى انتدب لقتل نظام الملك فقتله .

وكان للفدائيين من الإسماعيلية حصن حصين بقلعة تسمى ألَّموت ، أى عش العقاب ، فى الشمال الشرقى من قزوين . وكانت مركز الحشاشين يدرب فيها الأتباع على الطاعة والفداء ، بناها حسن الداعى إلى الحق العلوى سنة ٢٤٦ ، وقد اشتهرت أيام الحسن الصباح إذ أرعبت الأمراء والحكام وخوفتهم من الاغتيال على يد أتباعه . وقد تلقى تعليمه عن فاطميين فى مصر . وكان يدّعى أنه من نسل ملوك حمير ، وقد عرف أنه كان فى مصر يعادى الفاطميين سنة ٤٦٤ ، وقد رويت حكاية عن صداقته لعمر الخيام ونظام الملك ، وأحد أتباعه قتل نظام الملك بخنجر . واستمرت القلعة قوية مرعبة بعد موته بمدة من الزمان ثم سقطت بعد ذلك .

وكانوا يشككون من دخل مذهبهم فى عقائدهم الأصلية ومبادئهم السياسية والأدبية والاجتماعية ، ويفهمونهم أن مذهب الجمعية هو العلم الصحيح . وقد نجحوا فى أغلب دعواتهم عند أكثر الناس ، ولم تخطئ فراستهم إلا قليلا . والقارئ

(١) الفرق بين الفرق ص ١٨٢ ، وقد ذكر اليمين فى بعض كتب الإسماعيلية نفسها .

للكتب التي ألفت من المخالفين لهم كالغزالي والبغدادي يجب أن يحذر من أقوالهم التي لا تمثلهم تماماً لما فيها من بعض المبالغات .

وقد كان الإسماعيلية يؤولون الآيات والأحاديث تأويلا غير ما يدل عليه ظاهرها ، ولذلك سمّوا بالباطنية . وذلك كالتأويلات التي نراها في رسائل إخوان الصفاء كالبعث والنشور وخلود النفس ونحو ذلك ، فكلها لها معنى باطني .

هذا مبدؤهم الديني : تأويلٌ لكل ما ورد به الشرع . ووراء ذلك كانت لهم مبادئ سياسية واجتماعية . فمبدؤهم السياسي أن يطوحوا بالدولة العباسية وخلفائها ، وأن يحلّوا محلهم الأئمة الشيعية ، وقد نجحوا في ذلك إلى حد كبير . فإنْ لم تنجح وسائلهم السلمية فلا بأس أن تستعمل الوسائل الحربية . ويظهر أيضاً أنّ من أغراضهم الاجتماعية إزالة المظالم التي كان يرتكبها العباسيون وأمراؤهم وتوزيع العدل بين الناس وهذا مقصد نبيل حقا ، ولكن يظهر لي أنه لما أتيحت لهم الفرص ، وحل الشيعة محل العباسيين في بعض الممالك ، لم يطبقوا العدل تطبيقًا دقيقا بل وقع بعضهم في مثل ما وقع فيه العباسيون . وقد دعاهم موقفهم واستجلاب الناس لهم إلى أن ينشروا الدعوة إلى الإخاء بين الناس بقطع النظر عن الخلاف في الجنسية أو الطبقة أو الدين ، فإنّ هذا من غير شك يرغب في قبول دعوتهم ، خصوصا وقد تعلموا أنه مما أفسد الأمر على بني أمية وعلى بني العباس عصبيتهم الشديدة . وقد جعلهم هذا ينشرون دعوتهم بين أهل الأديان المختلفة والطبقات المختلفة والأحزاب المختلفة .

وقد جرأ انتشار مذهبهم على أقوال لا تقرها السنية ، كأشعار أبي العلاء في اللزوميات ، وبعض أشعار ابن هانئ الأندلسي ، وكقول الصاحب بن عباد :

دخول النار في حبّ الوصيّ وفي تفضيل أبناء النبيّ

أحبُّ إلىَّ من جنات عَدْن أخلَّدها بتَيْمٍ أو عدىٍّ[١]

وأبو العلاء وإن لم يكن شيعياً فقد تسربت إليه بعض آراء الشيعة ، وينسب إلى أحدهم أنه قال :

وما الخير إلا كماء السّما ء حلال فقدّست من مذهب

وقد أدرك بنو العباس ومن تبعهم خطر هذه الحركات عليهم ، فهاجموهم وانتقموا منهم . يقول عماد الدين الهمذانى : « إنَّ أحد أمراء خراسان قتل فى مدة قليلة أكثر من مائة ألف من الباطنية و بنى من رءوسهم بالرى مناراً أذن عليه المؤذنون » وفى كتاب الفرق أن محمود بن سبكتكين سلطان غزنة قتل فى مدينة مولتان من أرض الهند الألوف وقطع أيدى ألف منهم ، و باد بذلك نصراء الباطنية من تلك الناحية[٢] .

ومع هذا الاضطهاد والهجوم العباسى كانت وسائلهم واضطهادهم مبعثاً لتغلغلهم فى كل مرفق من مرافق الحياة ، فلم تجد عملا من الأعمال إلا وتجد خلايا من خلاياهم تعمل لبث دعوتهم أو إفساد الحكم على العباسيين . وقد كادوا يقضون على دولة العباسيين لولا أنه دخل عنصر جديد انضم إلى العباسيين فى الدفاع عنهم وهو العنصر التركى ، فقد شارك العباسيين فى السنية والفتك بالإسماعيلية حتى ألجأهم إلى الفرار للجبال والبلاد البعيدة . ومع هذا كله لم تنمح الإسماعيلية ، بل ظلت تنبسط وتنقبض ، وتضيق وتتسع حسب الظروف حتى يومنا هذا . وربما اتخذت أسماء مختلفة كالبابية والبهائية والدروز وغيرها .

---

(١) يشير بتيم إلى أبى بكر التيمى ، وبعدى إلى عمر العدوى .

(٢) الفرق ص ١٧٦ .

(ثانيا) القرامطة :

هى فرقة من فرق الإسماعيلية كان مركزها فى أول الأمر مدينة واسط بين الكوفة والبصرة وما حولها . وكان يسكن هذه البلاد خليط من العرب والنبط والسودان ، وأكثرهم كانوا فقراء مستائين من حكومتهم ومن أصحاب الأراضى الذين يستغلونها ... ولهذا لبّوا دعوة القرامطة .

واشتهر من أول الدعاة حمدان القرمطى ، وقد عرفت الدعوة باسمه . وقد كان حمدان هذا أكاراً بسيطاً بعثه أحد كبار دعاة العلوية ليدعو نيابةً عنه فى تلك البلاد ، فبنى مركزاً جديداً للدعوة الإسماعيلية قرب الكوفة ، سماه دار الهجرة واتخذه مكانا للدعوة والوعظ . فدخل فى دعوته كثيرٌ من الناس ، وقد فرض الضرائب على أتباعه يصرف منها على الفقراء والتأسيسات . وقد رُوى عنه أنه جمع من أتباعه أموالا كثيرة وزّعها على المحتاجين من القرامطة ، حتى لم يبق بينهم فقير . ولذلك يمكن أن يعدّوا من أول الجمعيات الاشتراكية . وكان دعاتهم يدعون إلى مؤاخاة الناس على اختلاف دياناتهم وطبقاتهم وأجناسهم ... وتحمس الأتباع لهذه الدعوة ، وانتشرت دعوة القرامطة من واسط إلى كثير من البلاد العربية المجاورة لها والبعيدة عنها ، حتى وصلت إلى جنوبى جزيرة العرب .

وجاء زعيم اسمه أبو سعيد الجنّابى فأنشأ فرعا كبيراً فى بلاد الأحساء من بلاد البحرين ، وتعاونت الفروع كلها للعمل ضد الخلافة العباسية ، واتبعها قوم فى السر حتى فى بغداد مركز الخلافة ، وحتى فى بلاط الخليفة نفسه يمدون رؤساءهم بالمعلومات ، ويبثون الدعوة إليها سراً . وكانوا ينتهزون الفرص التى تضع من شأن العباسيين كتصرفاتهم السيئة أحيانا ، وضعف من يلى الأمر من خلفائهم . فإذا أحسّوا ضعفا نشطوا فى الدعوة ، وخرجوا على الدولة .

فلما انتشرت الدعوة فى البحرين انتشاراً كبيراً فى عهد الخليفة المعتضد أرسل جيشاً لمقاومة الحركة ، ولكن جيش الخليفة انكسر وأسر قائده وتبددت جنوده ، وقتل من وقع الأسر منهم . وقد استولى الثوار القرامطة على مدينة حجر عاصمة البحرين كما استولوا على اليمامة وعلى عمان . ولما قاد الحركة القرمطية أبو طاهر سليمان وسَّع نفوذه ، وكان يزحف تارة على البصرة وبغداد ، وطوراً إلى الحجاز . وكان ينتصر فى كل غزواته تقريباً . وقد دخل أبو طاهر هذا مكة ، وسلب الكعبة ، وقتل الُحجَّاج . ويحدثنا المؤرخون أنَّ الذين قتلهم القرامطة فى تلك السنة من الحجّاج نحو ثلاثة آلاف غير الذين ماتوا من الجوع ، وغير من وقع أسيراً . وكان من بين من أسر الأزهرى اللغوى العالم المشهور . وقد غنم أبو طاهر ملايين الدنانير إذ ذاك ، وأرسل جزءاً منها إلى الإمام الشيعى ، وأنفق الباقى على أتباعه ، وكان للقرامطة جواسيس يبلّغون رؤساءهم كل حركة من العباسيين ، وخاف الناس منهم جدا خصوصاً لقطعهم الطرق على السابلة ، وعجزت الخلافة العباسية عن كبح جماحهم .

وقد زحف القرامطة على البصرة ونهبوها سنة ٣١٥ حتى ضج الناس وشملهم الرعب . ونسبوا انتصارهم إلى قوى روحية تساعدهم . والحق أن قوتهم كانت فى قوة إيمانهم بعقيدتهم مما يدعوهم إلى ثباتهم ، بينما خصومهم لا يحاربون عن عقيدة . وقد هاجم القرامطة مكة مرة أخرى ودخلها أبو طاهر وأصحابه يقتلون أهلها ومن كان فيها من الحجَّاج ، حتى من تعلق فيها بأستار الكعبة ، وهدم زمزم وفرش بالقتلى المسجد ، وأقام بمكة ستة أيام وهو يحرّض أصحابه على القتل ، وينتقل من مكان إلى مكان ويقول : « أجهزوا على الكفار وعبدة الأحجار » وأقام أبو طاهر وأصحابه اثنى عشر يوما يقتلون وينهبون ويأتون من الأفعال

ما تقشعر منه الأبدان . فهل هذا يحقق ما كانوا يقولونه من أنهم يريدون القضاء على الدولة العباسية لنشر العدل والأمن بين الرعية ؟ !

وكان من جملة ما نهبه القرامطة من مكة الحجر الأسود . و بقى هذا الحجر فى الأحساء ملقى فى إحدى زوايا المدينة مهجوراً إلى سنة ٣٣٩ حيث ردّه القرامطة بأمر من المنصور الفاطمى .

مضت سَنَةٌ على هذه الحوادث الأليمة ، والخلافة لم تستطع تعقّبهم ولا تأديبهم . فلما رأى القرامطة ضعف الخلافة ، زحف أبو طاهر مرة أخرى على الكوفة واحتلها ، واضطر الخليفة أن يعقد معه هدنة و يؤدى له مائة وعشرين ألف دينار كل سنة .

ثم توفى أبو طاهر سنة ٣٣٢ فاكتفى خلفاء أبى طاهر بما فتحوه من البلاد ولم يعودوا يتطلعون إلى فتوحات جديدة . وسبب آخر أنه كان قد سقطت الدولة العباسية فى يد بنى بويه الشيعيين فصادقوهم وأحسنوا الصلات بينهم .

(ثالثا) الزنج :

ومن هذا القبيل أيضاً ما عرف فى التاريخ بثورة الزنج ، وكان لها شأن كبير فى تاريخ المسلمين .

ظهر صاحب الزنج هذا فى فرات البصرة سنة ٢٥٥ . وهو رجل زعم أنه علىّ ابن محمد بن أحمد بن عيسى بن زيد بن على بن الحسين بن على بن أبى طالب ، و بعض العلويين ينكر نسبته إليهم . وقد كان فى هذه البقعة عدد كبير من الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ فى البصرة . وقد استغل زعيم الزنج هذا استياءهم من

عملهم ، وكراهيتهم لأصحاب رءوس الأموال ، وكراهيتهم للحكم العباسى الذى يقرّ هذا العمل ، فالتفوا حوله ، وكان متصلا بحاشية السلطان يطلعونه سراً على الأمور ، وكان فصيحاً خطيباً يؤثر فى سامعيه ، حتى اجتمع له عدد كبير منهم . وانتشر أتباعه فى الأحساء وما حولها ، وادّعى الولاية وأنه يلهم بما يعمل وما لا يعمل . وما زال يحبّب الناس فى مذهبه ، وخاصة الغلمان ، ويمنى أتباعه و يعدهم حتى اتبعه عدد كبير ، ثم تأتيه الأموال من أتباعه و يفرقها عليهم .

ولما قوى أمره ، وتمكن من نهب كثير من الأموال والمراكب البحرية التى تحمل أموالا كثيرة للتجارة ، هجم على البصرة وأوقع القتل فى أهلها ، وأمر الزنوج بوضع السيف فيهم ، وأوقع بذلك الرعب فى البلاد . واستخفى من سَلِم من أهل البصرة فى آبار الدور . فكانوا يظهرون ليلا و يطلبون الكلاب فيذبحونها و يأكلونها ويأكلون الفيران والسنانير . وصار إذا مات الواحد منهم أكلوه . وظل الزنج على ذلك سنين وتغلبوا على البطيحة وواصف وخربوها ، حتى إنه أخيراً جمع أبو العباس بن أبى أحمد جمعاً كثيراً ، ونشبت الحرب بين الفريقين فهزمت الزنج ، وأعملت فيهم السيوف واختفى من فر منهم حتى زال أمرهم .

كل هذا يرينا صورة مصغرة مما حدث فى تاريخ المسلمين من المكايد والمذابح والمقاتل . والناظر إلى حقيقة الأمر ، يرى أن الخلاف بين هؤلاء وهؤلاء مبنى على شهوة الحكم ، وعلى نزاع فى مسائل تاريخية ذهب زمنها . والذى يرى هذه الفتن والضحايا التى ذكرنا بعضها يعجب من بقاء الدول الإسلامية بعد هذا . ولولا أن أساسها متين جداً ما بقيت ، لا أمام الصليبيين ولا أمام غيرهم . فمن العجيب أن تبقى بعد كل هذه النكبات ، وقد أدرك المأمون هذا العناء الذى يلاقيه الطرفان من عباسيين وعلويين فأراد أن يستريح و يجعل الأمر بعده

إلى إمام العلويين ، ظاناً أن الخلاف ينقطع بذلك ، ولـكن ما علم أفراد البيت العباسى بذلك حتى ثاروا وزاد الخلاف بدل أن ينحسم ، وحتى اضطر المأمون أخيراً إلى الرجوع عن فـكرته .

(رابعا) الزيدية :

ومن فرق الشيعة الزيدية ، وهم من أعدل الفرق ، لأنهم يرون أن علياً أحق بالخلافة من أبى بكر وعمر . ولـكن أما وقد اجتمع أكثر الصحابة على بيعة أبى بكر وعمر فلابد أن يعترف بإمامتهما ، لأن الصحابة إذ ذاك قدروا الظروف المحيطة بهم .

ولم يُجَوِّز الزيدية التستر والاختفاء ، ولذلك كان كثير من أئمتهم يخرجون فيقتلون ، ولهذا خرج زيد بن على فقتل وصلب ، وقام بالإمامة ابنه يحيى بن زيد ، ومضى إلى خراسان واجتمعت عليه جماعة كثيرة فقتل أيضاً وصلب . وقد فوض الأمر بعد إلى محمد وإبراهيم الإمام ، وخرجا بالمـدينة وسار إبراهيم إلى البصرة فقتلا أيضاً . وتوالى أئمتهم من بعده ، وجروا على صحة إمامة أبى بكر وعمر ، وقالوا بجواز ولاية المفضول .

وقد تتلمذ الإمام زيد لواصل بن عطاء إمام المعتزلة فى الأصول ، ولذلك اقترب مذهب الزيدية من الاعتزال . يقول الشهرستانى : وصارت أصحابه كلهم معتزلة .

ولذلك يختلف الزيدية فى بعض المسائل عن سائر الشيعة . ولاعتدالهم لم يكن لهم حركات عنيفة فى التاريخ الإسلامى .

وقد استطاع أحد زعمائهم واسمه القاسم سنة ١٦٣٣ م أن يطرد الوالى التركى

من اليمن و يؤسس إمامة زيدية . ثم انتصر الأتراك سنة ١٨٤٩ فأصبحت ولاية تركية إلى أن قام الإمام يحيي سنة ١٩٠٤ . ولكن الأتراك لم يعترفوا باستقلال حكومة الإمام حتى سنة ١٩١١ . ولم ينسحب الأتراك بالكلية من اليمن حتى السنة الأخيرة من الحرب العالمية الأولى ، ومملكة اليمن الآن مملكة زيدية .

وللزيدية مؤلفات فى الأصول والحديث والفقه خاصة بهم . ومن أئمتهم المتأخرين المشهورين الإمام الشوكانى صاحب التآليف الكثيرة فى الأصول والفقه .

الدولة الفاطمية

وقد أتيحت الفرص للشيعة أن يحكموا . ومن أبرز ذلك الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر والشام و بقاؤها فى الحكم مدة طويلة . والحق أنهم أقاموا ملكا كبيراً مترامى الأطراف . وقد بثوا الروح القومية فى مصر حتى شعروا بأنها دولة مستقلة . ولما زار البلاد ناصر خسرو وصف البلاد وصفا يدل على حضارة فائقة .

وأداروا البلاد على نظام يشبه النظام الفارسى القديم . وشجعوا العلم والأدب والفن تشجيعا كبيراً . كما أسسوا دور الكتب الكثيرة ، ولا تزال أبنيتهم مضرب المثل فى عظم العمارة الإسلامية ، وكذلك ما وصل إلينا من تحفهم الدقيقة . ولكن طالما كان الشيعيون ينعون على العباسيين ترفهم و إفراطهم فى الملاهى والملذات وتعصبهم الشديد عليهم . فلما ملكوا هم ، وملك زملاؤهم بنو بويه العراق وما حولها ، لم نجد فى الحكم فرقا كبيراً . فالإسراف فى الترف هو الإسراف فى الترف ، والظلم أحياناً هو الظلم ، والتعصب هنا كالتعصب هناك . فإن تعصب الأمويون والعباسيون فهاجموا ، فقد تعصب العلويون والبويهيون والإسماعيليون فانتقموا . حتى صح قول القائل :

فلا تحسبَنْ هندا لها الغدر وحدها سِجيَّةُ نفسٍ كل غانيةٍ هِنْدُ

نعم إن هنا وهناك فى هذا الجانب أو ذاك ، بعض رؤساء اشتهروا بالعدل والتقوى ، ولكن بجانبهم آخرون هنا وهنا أيضاً اشتهروا بالظلم . ولم ينفع صاحب الزمان المختفى المعصوم فى أن يرد الظالم عن ظلمه . لقد كان سيف الدولة بن حمدان

الشيعى نهابا وهّابا ، فكان يولّى قاضيا فيقول القاضى : « من هلك فلسيف الدولة ما ملك » .

ولذلك مع حكم الدولة الفاطمية المصريين طويلا لم يستطيعوا أن يُشَيِّعوا المصريين تماما ، فاستطاع صلاح الدين أن يردهم إلى السنية فى سهولة . و يحدثنا المؤرخون أن الظاهر وهو الخليفة الفاطمى كان شابا يحب الملاهى و ينغمس فى النعيم ، حتى اغتصب الملك منه وزيره الكردى ابن السّلار . كما يحدثونا أن مدة حكمهم وهى نحو القرنين ونصف قد امتلأت بالدسائس والخصومات وساءت أحوال الشعب لتعاقب المجاعات والمحن وازداد الفقر فى سنى القحط ، وقلّت الموارد ، فازدادت الضرائب ، وكثرت المصادرات . وتقرأ الخطط للمقريزى فترى ما كان فى قصور الخلفاء من تحف وخدم وجواهر ، بينما كان الشعب فى بؤس فالحال هنا كالحال هناك ، غاية الأمر أن الحكم الشيعى يستند إلى إمام معصوم لا يقبل النقد ، والحكم السنّى يستند إلى خليفة غير معصوم معرض للخطأ والصواب قابل للنقد .

الأدب الشيعى

كان للشيعة دولتان ضخمتان : الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر والشام ، والدولة البويهية فى فارس والعراق . وكان لكلٍ حضارة ضخمة فيها شعر ، وفيها فن ، وفيها علم . فكان للدولة الفاطمية شعر كثير ، من مبدأ ابن هانىء الذى ملأ شعره مديحاً فى خلفاء الدولة الفاطمية . والخلفاء يجزلون له العطاء ، وهم يفرطون فى المديح له حتى يخرجوا بهم إلى صف الآلهة . وقلده الشعراء بعده فمن شعره مثلا :

لى صارم وهو شيعىّ كحامله ... يكاد يسبق كراتى إلى البطل
إذا المعز معزّ الدين سلّطه ... لم يرتقب بالمنايا مدّة الأجل

ويقول :

هو علة الدنيا ومن خلقت له ... ولعلّة ما كانت الأشياء
فعنت لك الأبصار وانقادت لك الأ ... قدار واستحيت لك الأنواء
لا تسألنّ عن الزمان فإنه ... فى راحتيك يدور حيث تشاء

ويقول .

تدعوه مُنتقماً عزيزاً قادراً ... غفّار موبقة الذنوب صفوحا
أقسمت لولا أن دعيت خليفة ... لدعيت من بعد المسيح مسيحا
شهدتْ بمفخرك السمواتُ العلا ... وتنزّل القرآن فيك مسيحا

ويقول :

ما شئت لا ما شاءت الأقدار ... فاحكم فأنت الواحد القهار

وكأنما أنت النبى محمـــد وكأنمـــا أنصارك الأنصار
هذا الذى تجدى شفاعتُه غداً حقاً وتَخْمَـــد إذ تراه النار

وهكذا جاء الشعراء بعده فاتبعوه وأفرطوا فى مديح الخلفاء واستمروا على ذلك إلى إن كان آخرهم عمارة اليمنى .

و بين ابن هانئ وعمارة شعراء لا يحصون عداً كتميم بن المعز وكلهم على نمط ابن هانىء فى المديح ، كالذى يقول أبو الحسن على بن محمد الأخفض فى الخليفة الآمر :

إلى ذروة المجـــد العلائى إنه إلى ذروة النــور الإلهى ينسب

و يقول فى مدح الخليفة الحافظ :

بشر فى العـــين إلا أنه من طريق العقل نور وهدى
جـــلّ أن تدركه أعيننا وتعالى أن تراه جسدا

فإذا نحن تجاوزنا الشعراء ، وجـدنا المجالس تموج بالحركة الثقافية من أول عهد النعمان داعى الدعاة ، وقد كان يجلس للدرس والمحاضرة إلى عهد يعقوب ابن كلس . فقد كان يعقد درساً فى بيته كل أسبوع يقرأ عليهم مؤلفاته وخصص ديواناً من بيته لـكل طائفة من الأدباء والعلماء .

وأنشأ الفاطميون خزائن الـكتب وشجعوا نقلها والعناية بها . ووقفوا الأوقاف على استنساخها حتى كانت دار الحـكمة تموج بالنـاسخين والمطالعين . فإن نحن تجاوزنا إلى الطُّـرَف الفنية التى كانت تملأ القصور والتى يدل عليها ما أخرج من القصور أيام صلاح الدين وما بيع منها أخـذنا العجب من ذلك . هذا إلى

احتفالاتهم بالأعياد ، و إقامة الولائم فى عيد الفطر وفى الأضحى إلخ ... وعلى الجملة فقد خلفوا حضارة تعتنى بالعلم والأدب والفن إلى آخر مدى .

* * *

وأما الدولة البويهية فقد كانت كذلك معتنية بالعلم والأدب ، لقد بدأت حياتها تتعصب للأدب الفارسى ، ولكن ما لبثت أن تثقفت الثقافة العربية وتعصبت لها ، ونبغ من ملوكهم من كان يشارك العلماء والشعراء فى شعرهم وأدبهم مثل عضد الدولة البويهى . وكان لهم وزراء استنّوا سنتهم ، وعنوا بالأدب ، على رأسهم هؤلاء الأقطاب الأربعة ابن العميد والصاحب بن عباد ، والوزير المهلبى وابن سعدان . وقد كان كلٌّ عظيم الجاه ، يقصد إليه الأدباء والعلماء وكان لكلٍّ ميزة . كان الصاحب ابن عباد ميزته الأدب البحت ، وهو فى مجالسه يعلم الأدباء بالنقد ، و يقترح عليهم نَظْم الشعر فى موضوعات معينة أو إجازة بعض الأبيات . وابن العميد كانت ميزته العلم والأدب و يضم إليه طائفة من المتخصصين فى هذا . وابن سعدان كان يعنى بالفلسفة و يجالس الفلاسفة أمثال أبى حيان التوحيدى ، و يثير فى مجالسه مسائل فلسفية . والوزير المهلبى كان يعنى بالأدب الصرف وفى التأليف فى الأدب . ومن جلسائه أبو الفرج الأصفهانى ، وله ألّف كتابه الأغانى ، والقاضى التنوخى وغيرهم ، هؤلاء ملأوا الدنيا علما وأدبا .

ومن الآثار الأدبية الشيعية أشعار الشريف الرضى وما فى ديوانه مما يتعلق بالتشيع كثير ، وكان يدور فى فلكه مهيار الديلمى ، فيقول القصائد الشيعية العديدة .

وكانت مقاتل الطالبيين واضطهادهم باعثا لأدباء الشيعة على النّوح والبكاء والعويل الذى لا ينفد ، كالذى يقول الناشئ :

بنى أحمد قلبى لكم يتقطّع   بمثل مصابى فيكم ليس يسمع
عجبت لكم تفنون قتلا بسيفكم   ويسطو عليكم من لكم كان يسمع
كأن رسول الله أوصى بقتلكم   وأجسامكم فى كلٍّ أرض توزّع

وللناشئ هذا بائية مشهورة جداً فى البكاء والنحيب مطلعها :

رجائى بعيد والممات قريب   ويخطئ ظنّى والمنون تصيب

وكان له أشعار كثيرة لا تحصى فى النواح والبكاء .

وللصاحب ابن عباد نحو عشرة آلاف بيت فى مناقب أهل البيت والتبرؤ من أعدائهم . ومما ينسب إليه قوله وهو من أفظع الهجاء :

قالت تحبّ معاويه   قلت اسكتى يا زانيه
قالت أسأت جوابنا   فأعدت قولى ثانيه
يا زانيه يا ابنة ألفى زانيه   أأحبُّ مَن شَتَمَ الوصىّ علانيه
فعلى يزيدٍ لعنة   وعلى أبيه ثمانيه

ومن شعر مهيار الديلمى فى ذلك :

وقائل لى علىّ كان وارثه   بالنصّ منه فهل أعطوه أو منعوا
فقلت كانت هناك لست أذكرها   يجزى بها الله أقواما بما صنعوا
هُمُ رجال إذا سَمَّيْتهم عرِفوا   لهم وجوه من الشحناء تمتقع

مازلت مذ يفعت سنى ألوذ بكم　　حتى محا حقكم شكى فانجع

وله فى رثاء الحسين :

مصابى على بعـــد دارى بهم　　مصاب الأليف فى فَقْد الأليف

وليس صديقى غير الخيرين　　ليوم الحسين وغير الأسوف

قتيل به ثار غلّ النفوس　　كما فغر الجرح حكّ القروف

نسوا جدّه عند عهد قريب　　وتالده مع حـــــقّ طريف

وممن تشيَّع من كبار الكتاب أبو بكر الخوارزمى كان شيعياً متعصباً لأهل البيت صريحاً فى مواجهته لهم ، مسلطا قلمه على خصومهم . وللتشيع هذا أثر قوى فى رسائله ، فهو لا يترك فرصة دون أن يستغلها فى هجاء خصومه ، أو مدح رؤساء الشيعة أو إظهار التوجع والتفجع لما أصاب أهل البيت من ظلم وقتل وغصب . فإذا كتب رسالة إلى جماعة الشيعة فى نيسابور أسهب وأطال فيما أصاب أنصار الشيعة من قتل وتشريد ومنحة و بلاء أيام الأمويين والعباسيين بأسلوب تسوده نغمة الحزن والكآبة فيقول : « وأنتم ونحن — أصلحنا الله و إياكم — عصابة لم يرض الله لنا الدنيا ، فذخرنا للدار الأخرى ورغب بنا عن الثواب العاجل فأعدّ لنا الثواب الآجل وقسمنا قسمين : سما مات شهيداً ، وقسما عاش شهيداً . فالحى يحسد الميت على ما صار إليه ولا يرغب بنفسه عما جرى إليه . قال أمير المؤمنين : المحن إلى شيعتنا أسرع من الماء إلى الحدور فإذا كنا شيعة أئمتنا فى الفرائض والسنن ومتبعى آثارهم فى كل قبيح وحسن فينبغى أن نتبع آثارهم فى المحن . غُصبت سيدتنا فاطمة ميراث أبيها يوم السقيفة ، وأخّر أمير المؤمنين عن الخلافة

وسُمّ الحسن سراً ، وعلى هذا النحو يمضى فى رسالته معدّداً مصائب الشيعة هاجياً آل مروان وآل الزبير و بنى العباس هجاء لاذعاً عنيفاً .

وتتابع الشيعة على هذا المنوال . فألف ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة قصائد سبعاً كالمعلقات السبع سماها « القصائد السبع العلويات » . الأولى فى ذكر فتح خيبر ، والثانية فى ذكر فتح مكة ، والثالثة فى وصف النبى ، والرابعة فى واقعة الجمل ، والخامسة فى وصف على ، والسادسة فى وصفه أيضاً ومدحه ، والسابعة فى أوصافه . فمثلا يقول فى وصفه .

ولقد بكيت لقتل آل محمد ... بالطّف حتى كلّ عضو مدمع

وحريم آل محمد بين العدا ... نهب تقاسمه اللئام الرّضع

تا الله لا أنسى الحسين وشلوهُ ... تحت السنابك بالعراء موزع

متلفعاً حمر الثياب وفى غد ... بالخضر من فردوسه يتلفّع

تطأ السنابك صدره وجبينه ... والأرض ترجف خيفة وتضعضع

لهفى على تلك الدّماء تراق فى ... أيدى أميّة عنوة وتضيَّع ... الخ الخ .

وعلى الجملة فالثروة الأدبية التى تركها الشيعة فى العويل والبكاء ومدح الخلفاء ثروة كبيرة . و إذا نحن قلنا الأدب الشيعى فهو بعينه أدب معتزلى ، لأن الأدب البويهى كان أدباً شيعياً معتزلياً .



الباب الرابع

الصوفيــــة

نشأة التصوف

التصوف[1] نزعة من النزعات لا فرقة مستقلة كالمعتزلة والشيعة وأهل السنة ، ولذلك يصح أن يكون الرجل معتزلياً وصوفياً ، أو شيعياً وصوفياً ، أو سنياً وصوفياً ، بل قد يكون نصرانياً أو يهودياً أو بوذياً وهو متصوّف[2] . وهذا لا يمنعنا من عقد فصل لهم كما فعل الفخر الرازى من قبل .

ومن المؤلفين مَنْ يجعل الصوفية طائفة من أهل السنة . قال ابن السبكى فى شرح عقيدة ابن الحاجب : « اعلم أن أهل السنة والجماعة كلهم قد اتفقوا على معتقد فيما يجب و يجوز و يستحيل ، و إن اختلفوا فى الطرق والمبادئ الموصلة لذلك و بالجملة فهم بالاستقراء ثلاث طوائف :

الأولى : أهل الحديث ، ومعتمد مباديهم الأدلة السمعية ، الكتاب والسنة والإجماع .

الثانية : أهل النظر العقلى ، وهم الأشعرية والحنفية . وشيخ الأشعرية أبو الحسن الأشعرى ، وشيخ الحنفية أبو منصور الماتريدى ، وهم متفقون فى المبادئ العقلية فى كل مطلب يتوقف السمع عليه .

الثالثة : أهل الوجدان والكشف ، وهم الصوفية ، ومبادئهم مبادئ أهل النظر والحديث فى البداية ، والكشف والإلهام فى النهاية » .

---

(١) تعرضنا للتصوف فى الجزء الثانى من ظهر الإسلام وكان غرضنا منه توضيح النزاع بين الفقهاء والمتصوفة ونريد هنا تأريخ التصوف فليعذرنا القارىء إذا وجد بعض أشياء قليلة تتكرر .

(٢) وبالفعل وجدت فى العصر الحديث جمعية صوفية برياسة عناية الله خان تجمع بين أديان مختلفة وتصدر مجلة صوفية كل ثلاثة شهور .

وقد اختلف الناس فى نسبة الكلمة هل هى من الصُفَّة ، أو من الصفاء ، أو من « سوفيا » وهى باليونانية بمعنى الحكمة . أو من الصوف ، ونحن نرجح أنها نسبة إلى الصوف لأنهم فى أول أمرهم كانت هذه الفرقة تلبس الصوف اخشيشاناً وزهادة كما نرجح أنها كانت ترتكن فى أول أمرها على أساس إسلامى ، فركنا التصوف أول ما ظهرا هما : الزهادة وحب الله . وفى القرآن الكريم آيات كثيرة تزهّد فى الدنيا وتقلل من شأنها مثل « ألهاكم التكاثر حتى زرتم المقابر » و « المال والبنون زينة الحياة الدنيا » « واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض » الآية . ووجد رجال كثيرون من أول الإسلام عرفوا بالزهادة كرجال الصفة وأبى ذر الغفارى . ووجد بعد ذلك الحسن البصرى ، وقد كان إماماً كبيراً أثرت عنه الأقوال الكثيرة فى ذم الدنيا والخوف من الله ، وكان حزيناً حزناً مفرطاً حتى قالوا : إنه كان دائماً كأنه عائد من جنازة ، ولكن كل هؤلاء لم يطلق عليهم متصوفون بالمعنى الذى عرف بعد ، وحتى الحسن البصرى هذا لم يترجمه القشيرى فى رسالته التى ترجم فيها للصوفية .

والركن الثانى فى التصوف هو الحب الإلهى . وفى القرآن : « والذين آمنوا أشد حباً لله » وفى الحديث : « نعم العبد صهيب ! لو لم يخف الله لم يعصه » « فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه » ولكن لما فتحت الفتوح الإسلامية واختلطت الثقافات المختلفة وكانت تموج فى المملكة الإسلامية الفلسفة اليونانية ، وخاصة الأفلاطونية الحديثة والنصرانية والبوذية والزرادشتية ، وجدنا أن هذا الزهد وهذا الحب الإلهى يتفلسفان ، وتتسرب إلى التصوف بعض تعليمات من كل هذا .

فالفلسفة اليونانية كانت منتشرة فى الشرق منذ فتوح الإسكندر . وكان

لها مدرسة فى حرّان وهى التى تسمّت بالصابئة . وقد ترجموا كتبا يونانية كثيرة إلى السريانية ثم إلى العربية .

كما كان هناك فلسفة هندية وفارسية ، وإن كانت فلسفتهم أقل انتشاراً من الفلسفة اليونانية . وكان للهند مدرسة فى جند يسابور كانت تدرس فيها علوم اليونان والهند على السواء .

كل هذه كانت تتسرب منها تعاليم إلى التصوف بعد عصره الأول .

ما هو التصوف

وبعد فما هو التصوف . . ؟ ربما كان ابن خلدون خير من أوضح معناه فقال .

« وأصلها — أى طريقة التصوف — العكوف على العبادة ، والانقطاع إلى الله ، والإعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه ، والانفراد عن الخلق فى الخلوة للعبادة . وكان ذلك عاما فى الصحابة والسلف ، فلما فشا الإقبال على الدنيا فى القرن الثانى وما بعده وجنح الناس إلى مخالطة الدنيا ، اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية . . ثم قال : « ثم لها آداب مخصوصة واصطلاحات من ألفاظ تدور بينهم ، إذ الأوضاع اللغوية إنما هى للمعانى المتعارفة ، فإذا عرض من المعانى ما هو غير متعارف اصطلحنا فى التعبير عنه بلفظ متيسر فهمه منه ... وصار علم الشريعة على صنفين — صنف مخصوص بالفقهاء وأهل الفتيا ، وصنف مخصوص بالقوم فى الكلام فى المجاهدة ومحاسبة النفس عليها والأذواق والمواجيد العارضة فى طريقها ، وكيفية الترقى منها

من ذوق إلى ذوق ... ثم إنَّ هـذه المجاهدة والخلوة والذكر يتبعها غالباً كشف حجاب الحس ، والاطلاع على عوالم من أمر الله ، ليس لصاحب الحس إدراك شيء منها ... وسبب هـذا الكشف أنَّ الروح إذا رجع عن الحس الظاهر إلى الباطن ، ضعفت أحوال الحس ، وقويت أحوال الروح ، وغلب سلطانه ... ولا يزال فى نموّ وتزيد إلى أن يصير شهودا بعد أن كان علما » .

وقد وفق ابن خلدون فى إرجاع عناصر التصوف إلى أربعة .

١ — الكلام فى المجاهدات وما يحصل من الأذواق والمواجيد ومحاسبة النفس على الأعمال .

٣ — الكلام فى الكشف والحقيقة المدركة من عالم الغيب .

٣ — التصرفات فى العوالم والأكوان وأنواع الكرامات .

٤ — ألفاظ موهمة الظاهر نطق بها أئمة القوم فتعرف بالشطحات تستشكل ظواهرها ، فمنكر لها ، ومستحسن ، ومتأول .

والتصوف يعتمد على الذوق والمواجيد أكثر مما يعتمد على المنطق . والعقل فى نظرهم أداة غير صالحة ، إنْ استطاع إدراك ظواهر الأشياء فهو لا يصلح مطلقاً فى استكناه الحقيقة ، لأن العقل لا يعرف إلا ما يقع عليـه الحس أى لا يعرف الأشياء إلا فى ظواهرها . أما الأشياء فى حقائقها وكنه وجودها فمن وراء طاقته أبداً . والصوفية تمتاز بتمجيد الله والخوف منه والإحساس العميق بضعف النفس ، والخضوع التام لإرادة الله القوية ، والاعتقاد التام بوحدانيته .

و بعضهم عرّفه بوصف المتصوف فقال رويم البغدادى :

« التصوف مبنى على خصال — التمسك بالفقر والافتقار ، والتحقق بالبذل وترك الغرض والاختيار » .

وقال الكرخى : « التصوف هو الأخذ بالحقائق ، واليأس مما فى أيدى الخلائق » وقال الجنيد : « أن تكون مع الله بلا علاقة » وقال ذو النون : « أن لاتملك شيئاً ولايملكك شىء» وقيل للحصرى : « مَنْ الصوفى عندك...؟ فقال : الذى لا تقلّه الأرض ولا تظلّه السماء[1] » .

ومن أول ماظهر من فلسفة المعانى الصوفية فلسفة الحب فى قول رابعة العدوية :

أحبك حبين حبّ الهوى ... وحبا لأنك أهل لذاكا

فأمّا الذى هو حبّ الهوى ... فشغلى بذكرك عمن سواكا

وأما الذى أنت أهل له ... فكشفك لى الحجب حتى أراكا

فلا الحمد فى ذا ولا ذاك لى ... ولكن لك الحمد فى ذا وذاكا

قال الغزالى فى الإحياء : « ولعلها أرادت بحبّ الهوى حبّ الله لإحسانه إليها ، و إنعامه عليها بحظوظ العاجلة . وأرادت بحبه لما هو أهل له الحب لجماله وجلاله الذى انكشف لها ، وهو أعلى الحبّين وأقواهما » . ولذة مطالعة جمال الربوبية هى التى عبر عنها رسول الله حيث قال حاكيا عن ربه : « أعددت لعبادى الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر » .

وقد روى لها فى الحب أيضاً قولها :

---

(١) تجد هذه التعاريف فى الرسالة القشيرية وفى كتاب « اللمع » .

إنى جعلتك فى الفؤاد محدثى وأبحت جسمى من أراد جلوسى
فالجسم منى للجليس مؤانس وحبيب قلبى فى الفؤاد أنيسى

وقد تدفق بعدها كلام الصوفية فى الحب تدفقاً عظيما .

ورابعة العدوية هذه — كما تدل نسبتها — عربية الأصل ، كانت من أعيان عصرها ، ومات أبوها وهى صغيرة . وحدثت مجاعة بالبصرة بيعت أَمَةً بسببها . وقد حمدها سيدها لكثرة صلاتها وسهرها الليل . وقد ماتت سنة ٢٣٥ . فهى عربية الأصل ولذلك نرجح أن فلسفتها للحب كانت مزاجاً ، ونتيجة إفراطها فى العبادة والزهد ، هذا إلى طبيعتها النسائية . وقد ذكر القشيرى فى رسالته أنها كانت تقول فى مناجاتها : « إلهى تحرق بالنار قلباً يحبك » ؟ فهتف بها هاتف يقول : « ما كنا نفعل هذا فلاتظنى بنا ظن السوء» وقد روى أنها قابلت الحسن البصرى وسمعت منه . والذى يقارن بينهما يرى أن الحسن كان مغموراً بنزعة الخوف ، وأما هى فكانت مغمورة بنزعة الحب . ولا شك أنَّ نزعة الحب أرقى بكثير من نزعة الخوف .

قد يجوز أن يكون من أتى بعدها قد تأثر بمعانى الحب التى قيلت فى الثقافات المختلفة ، أما هى فما نظن أنها تأثرت بذلك ، وإنما هى موجدة وجدتها فى نفسها فغنت لها غناء بهيجاً ، كالموجدة التى كانت عند الخنساء فغنّت لها طويلا غناءً حزيناً .

وعند نشوء التصوف فى القرن الثانى يظهر أنه لم يكن هناك جامعة تجمعهم ولا أمكنة خاصة يؤدون فيها شعائرهم ، إنما كانوا أفراداً متفرقين قد يكون لبعض منهم تلاميذ . وكان كثير منهم يرتحل ويتلو القرآن ويكثر من ذكر الله . ونرى فى هذا الطور أبا يزيد البسطامى يكثر من الكلام فى الاتصال بالله والتفكير فيه .

ويبدأ بفكرة كانت من أركان الصوفية فيما بعد ، وهى فكرة الفناء فى الله . وأبو يزيد هذا فارسى ، وفكرة الفناء كانت فى الديانة البوذية من قديم ، وهى تسمى عندهم « نرفانا » .

وفكرة الفناء كثيرة الشيوع فى كلام الصوفية . وهى على درجات وذات مظاهر . فالمظهر الأول تغير أخلاقى فى الروح تنحلّ معه الرغبات والشهوات ، والثانى انصراف الذهن عن كل الموجودات إلى التفكير فى الله . والمظهر الأول نفسى ، والثانى عقلى . ثم انعدام كل تفكير إرادى والتفكير فى الله من غير وعى وآخر درجاته انعدام النفس بالبقاء مع الله . ويصف السرىُّ السقطى مَنْ وصل إلى هذه الحالة بقوله . « إنه لو ضرب بسيف على وجهه لما شعر به » .

وربما كان من العناصر التى تسربت إلى التصوف أيضاً عنصر النصرانية ، فقد رويت أحاديث كثيرة عن تلاقى بعض الصوفية برهبان نصارى مثل مارواه المبرد فى الكامل ، وملخصه أنَّ راهبين قدما من الشام إلى البصرة ، عرض أحدهما على الآخر أن يذهبا لزيارة الحسن البصرى ، لأنَّ حياته كحياة المسيح .

وهناك روايات كثيرة عن صوفية نزلوا أديار النصارى كما رووا آيات من الإنجيل . ويروون أن المسيح عليه السلام مرَّ بثلاثة قد نحلت أجسامهم واصفرت وجوههم ، فسألهم : ما جاء بكم هنا ؟ قالوا خوفا من النار . . فقال لهم : إنكم لا تخافون مخلوقا . ثم مر بثلاثة آخرين أشد ضعفاً وأكثر اصفراراً ؛ فسألهم ما سأل الأولين ، فقالوا : شوقا إلى الجنة — قال لهم : رغبتم فى شىء مخلوق . وأخيراً مر بثلاثة فى غاية النحول والاصفرار ، فسألهم ما سأل الأولين فقالوا : محبة الله ، فقال المسيح : أنتم أقرب الناس إلى الله . ويعدّون

ما أخذه الصوفية من المسيحية : لبس الصوف ، إذ كان كثير من الرهبان يلبسونه ، والكلام فى حب الله .

ومن العناصر التى يعدّونها أيضاً أصلا للصوفية الأفلاطونية الحديثة . فقد ترجمت لها كتب كثيرة إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية . وتنسب معظم الأفلاطونية الحديثة إلى أفلوطين الذى نشأ فى مصر ثم ذهب إلى روما فى القرن الثالث الميلادى ، وله كتاب التاسوعات الذى نقل بعضه إلى اللغة العربية بعنوان الأثولوجيا ، أى الربوبية ، نقله عبد المسيح بن ناعمة الحمصى وأصلحه لأحمد ابن المعتصم بالله أبو يوسف يعقوب الكندى . وانتفع بهذا الكتاب ابن سينا ، وشرحه ، وهو يعتقد خطأ أنه لأرسطو . ويقول أفلوطين فى ذلك الكتاب « إنى ربما خلوت بنفسى ، وخلعت بدنى جانباً وصرت كأنى جوهر متجرد بلا بدن ، فأكون داخلا فى ذاتى ، راجعاً إليها ، خارجاً من سائر الأشياء ؛ فأكون العلم والعالم والمعلوم جميعاً ، فأرى فى ذاتى من الحسن والبهاء والضياء ما أبقى له متعجباً بهتاً ... » وقد كانت هذه الفلسفة منتشرة فى مصر حيث تعلمها ذو النون المصرى المتصوف الكبير . ومما ينسبون تسربه إلى الصوفية منها : الفيض ، وانبثاق النور ، والتجلى ، وغير ذلك . فالبوذية والنصرانية والأفلاطونية الحديثة قد تسربت منها تعاليم إلى التصوف ، وإن كان الأصل الأصيل لمتصوفة المسلمين الإسلام .

دخلت فكرة الفناء من البوذية عن طريق أبى يزيد البسطامى ودخل غيرها عن طريق غيره . هكذا قال كثير من المستشرقين . وربما كان الخلاف الشديد بينهم فى مقدار العناصر التى تسربت . فبعضهم يزيد من العنصر النصرانى ، وبعضهم يزيد من العنصر الأفلاطونى الحديث ، وبعضهم من البوذية .

ويحق لنا أن نتساءل — هل وجود فكرة فى إحدى هذه الأمم ثم وجودها بعد ذلك فى المتصوفة دليل على أنها أخذت عنها ؟ فإذا وجد الفناء فى البوذية ثم وجدت فكرة الفناء فى الصوفية ، هل يكون هذا دليلا على أخذ الآخرين من الأولين ؟ قد يكون هذا نوعا من التفكير الذى يدعو إلى الشك لا الجزم . خصوصاً وأن هناك موانع كثيرة من هذا الرأى مثل أنَّ رابعة العدوية امرأة عربية لم يثبت لنا أنها ثقفت ثقافة أجنبية ، وهى أول من تكلم فى الحب الإلهى ، فمن أين وصل إليها الحب النصرانى ؟ ثم إنّ الاتجاهات المتحدة والأمزجة المتحدة تنتج نتائج متحدة قد لا نعجب إذا وجدنا النتائج العقلية متحدة فى العالم لأنَّ عقول الناس فى العالم متشابهة . وهى تسير على قوانين منطقية واحدة من مقدمات مشروطة بشروط وأنواع من القياس أمَّا العواطف فمختلفة كثيراً عند الناس . ومع ذلك لما اتحد الصوفيون فى طريقة رياضة النفس والمجاهدة والأخذ على المشايخ رأيناهم أيضاً تقاربوا فى النتائج ، ورأينا الصوفىّ العراقى يفهم الصوفى الأندلسىّ ، والعكس ، ومحيي الدين بن عربى الأندلسى استطاع أن يفهم الحلاّج العراقى ، وهكذا . أفبعد هذا نستطيع أن نجزم بتسرب بعض العناصر المختلفة إلى التصوف ؟ و إن هذا فى نظرى يشبه ما ملئت به كتب الأدب العربى من السرقات الشعرية ، فهم يقولون : إنَّ معنى هذا البيت مسروق من معنى هذا البيت ولا نستطيع أن نجزم بذلك إلا إذا اتحدت ألفاظ البيتين أو أكثر . أما المعانى فهى شائعة فى كل الأجواء ، قد يقع عليها اثنان أو أكثر ، و يصوغها كل من غير سرقة . وقد أنصف فى ذلك القاضى عبد العزيز الجرجانى فى الوساطة ، فحصر السرقة فى حدود ضيقة ، وكذلك نقول .

تطور الصوفية

على كل حال بدأ التصوف فى القرن الثانى ثم تطور على مدى القرون ، فهذا مما لا شــك فيه . و يمكننا إدراك هذا التطور إذا نحن قارنّا بين نصوص رو يت عن المتصوفة الأولين ، و بين نصوص رو يت بعدهم ثم عمن بعدهم وهكذا ، وقرأنا ذلك فى مثل كتاب « الرسالة القشيرية » و « تذكرة الألباب » فنجد أن النصوص فى العصور الأولى واضحة جلية ، ثم تطوّرت فدخل فيها ما لم يكن وهكذا .

يفسر ذلك المستشرقون باتصال الصوفية بأهل الديانات الأخرى . و نقول نحن باحتمال أن ذلك نشأ من التطور الطبيعى . كما تطور الزهد الإسلامى الأول الذى كان عند أهل الصُفَّة إلى زهد مفلسف ، كزهد الحسن البصرى ، وكما تطور الحب من حب بسيط كالذى كان عند صهيب إلى حب مفلسف كالذى عند رابعة العدوية .

على الجملة كان إبراهيم بن الأدهم وداود الطائى والفضيل بن عياض ، وشقيق البلخى ، وكلهم توفّوا فى القرن الثانى الهجرى ، يكاد لا ينكر أحد أنهم صوفية إسلاميون . ثم نرى بعد ذلك فى القرن الثالث أن التصوف زادت فلسفته ، كالأقوال المنسوبة إلى معروف الـكرخى المتوفى سنة ٢٠٠ ه و يصفونه بأنه رجل غلب عليه الشوق إلى الله . و يقول تلميذه سرى السقطى : « إن محبة الله شىء لا يكتسب بالتعلم ، و إنما هى هبة من الله وفضل » ثم يزيد التصوف عمقا فى مثل أقوال ابن سليمان الدارانى المتوفى ســنة ٢١٥ وذى النون المصرى(١) المتوفى سنة ٢٤٥ .

---

(١) انظر ترجمته فى الجزء الثانى من ظهر الإسلام .

ذو النون المصرى

وهو أيضاً شخصية غريبة فهو مصرى من أخميم ، يقال إنه نوبىّ ، وتدل أقواله على أنه مثقف ثقافة واسعة اشتهر بالكيمياء . والكيمياء فى ذلك العصر كانت مشوبة بشعوذة السحر ، فكانت النتائج الكيمائية التى ننظر إليها اليوم هادئين ينظر إليها فيما مضى على أنها نوع من الكرامات . وقد روى عنه أنه شُغف بالتجوال فى البرابى ، وادعاء أنه يقرأ خطوطها الهيروغليفية ، وأن هذه الكتابات مملوءة بالسحر والحكمة . وكان يدّعى أنه يقرؤها ، ويدل ما نقل إلينا عنه من قراءتها أنه لم يقرأها حقاً ، كما قرأها شامبليون بعد اكتشاف حجر رشيد ، وإنما قرأها من خياله وأوهامه . على كل حال له تأثير كبير فى نقل التصوف من حال إلى حال ، وينسب إليه إدخال الكلام فى المقامات والأحوال فى الصوفية ، وقد شغلت جزءاً كبيراً منها . فللصوفية كلام طويل فى الأحوال والمقامات التى وضع فكرتها ذو النون ، خلاصتها أن طريق الوصول إلى الله شاق عسير يجب أن يتدرج فيه المريد فى مراحل يسلم بعضها إلى بعض ، ولذلك سمّوا السير فى الطريق سفراً وحجاً ، وسمّوا السائر سالكا ، وهذه المراحل المتعددة تسمى بالمقامات . وقد جعلها الطوسى صاحب كتاب « اللمع » وهو من أقدم الكتب الصوفية سبعاً كل واحدة تُسْلم إلى ما بعدها ، وهى مقام التوبة والورع والزهد والفقر والصبر والتوكل والرضا . فالتوبة هى الشعور بالخطيئة والعزم الأكيد على الإقلاع عنها . وإذا لم يستطع المريد ذلك ، فعليه أن يتوب مرة تلو مرة ، إلى أن يتوب الله عليه ، حتى يرووا أن أحدهم كرر عملية التوبة سبعين مرة . ويضاف إلى الشعور بالخطيئة والعزم على تركها عدم التفكير فيها إذ الشغل الشاغل هو الله تعالى . وبعد التوبة يجب أن يتبع الطالب مرشداً أو شيخاً يطيعه طاعة عمياء . ويحتقر المتصوفة مَنْ

يسير فى الطريق من غير مرشد ، ويقولون إنه أشبه مايكون ببستان ليس له بستانى ، فهو لا يثمر ثمراً صالحاً . أما الورع فهو تخصيص الطالب نفسه لعبادة الله وخدمة الإنسان فى السنة الأولى ، وعبادة الله والانصراف عن الدنيا فى السنة الثانية ، والانصراف عن اللذات الشهوانية والمشاغل الدنيوية بالتأمل فى الله فى السنة الثالثة ، ثم الزهد والفقر . فالزهد فى الملذات الدنيوية والفكر عنها ، والعيشة عيشة الفقراء ولو كان صاحبه غنيا . ثم الصبر وفيه يعذب السالك نفسه لأنها أمّارة بالسوء . والنبى صلى الله عليه وسلم يقول : « أعدى أعدائك نفسك التى بين جنبيك » ثم مقام التوكل يجعل الإنسان نفسه آلة فى يد الخالق يديرها كيف شاء . ثم مقام الرضا والطمأنينة وراحة النفس والسلام الروحى . ولذلك يستعينون على هذا المقام بالغناء والموسيقى والرقص وتكرار لا إله إلا الله ، أو الله الله ، إلى أن يكل لسانه ويشعر أنه إنما ينطق بقلبه . ولست أدرى هل الاتفاق فى الدرجات وجعلها سبعا متفقة مع الدعوة الفاطمية وتدرجها إلى سبع أيضا : أيهما أخذ من الآخر ؟ ؟

هذه هى المقامات . أما الأحوال فعدّوا منها التأمل والقرب والمحبة والخوف والرجاء والشوق والأنس والطمأنينة والمشاهدة والتعين . وهم يقولون إن المقامات يتوصل إليها بمجهود الشخص . أما الأحوال فموهبة من الله لاحكم للإنسان عليها . وهذا معنى قولهم : الأحوال مواهب والمقامات مكاسب .

على كل حال لم تكن الصوفية فى القرن الثانى قد تكونت كمجموعة تربط بينها روابط متينة ، إنما كانت جماعة متفرقة فى البلدان . وقد يكون لكل شيخ صوفى تلاميذه الخاصة به .

وجاء بعده سرىّ السقطى المتوفى سنة ٢٥٣ ، قالوا : إنه أول من تكلم ببغداد فى الحقائق الإلهية والتوحيد . وجاء بعده الجنيد البغدادى المتوفى سنة ٢٩٧ قالوا

إنه أول من صاغ المعانى الصوفية ، وكتب فى شرحها ، وزاد التصوف فى القرن الرابع نظاما من ناحيتيه النظرية والعملية .

ويلاحظ أن الصوفيين الأولين كانوا مع تصوفهم يلتزمون أداء الشعائر فى أوقاتها ، ثم ظهرت نزعة عند بعضهم بعدم التدقيق فى تأدية الشعائر ، كأنّ العلاقة الصوفية بين المتصوف والله تجعل الإنسان فى حل من التزامها .

وحدة الوجود

ومما شاع فى المتصوفة من قديم القول بوحدة الوجود . وهى مسألة فى منتهى الدقة ، ربما جمعها تفسيرها بأن المحب يفنى فى محبوبه ويحب بكل قلبه حتى لا يكون هناك فرق بين محب ومحبوب . وفى القرآن آيات أمعن فيها المتصوفة ففهموها على مذهبهم مثل « كل شىء هالك إلا وجهه » و « كل من عليها فان » و « أينما تولوا فثم وجه الله » و « وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب ... » ، « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » فكان الإمعانُ فى ذلك والغلو فيه سبباً فى أقوال المتصوفة فى هذا الباب . ثم كان الحب العذرى والأدب الذى أثاره مجنون ليلى وجميل بثينة وكثير عزة ، وفيه أبيات تدل على فناء المحبِّ فى المحبوب ، حتى يبلغ أن يكون المحبوب هو المحب . وسبب ثالث وهو ما ذهب إليه الشيعة من أن الأئمة وعلى رأسهم علىّ فيهم روحانية إلٰهية بها استحقوا أن يكونوا أئمة وأن يكونوا معصومين . ثم أتى بعد ذلك الغلو فى الفناء أى فناء المحب فى المحبوب ، حتى لا يرى شيئاً إلا هو . وكلما تقدم الزمن رأينا أثراً من ذلك فى مثل بعض أقوال أبى يزيد البسطامى . وبعد ذلك رأينا ذلك واضحاً فى الحلاج[1] من مثل قوله :

(١) انظر ترجمة الحلاج فى الجزء الثانى من ظهر الإسلام .

« أنا الحق ، وما فى الجبة إلا الله » ولـكن يظهر أن الحلاّج كان يقول بالحلول أى حلول الله فى الإنسان ، أى أنه هو والله شيء واحد ، كما يقول بعض النصارى فى امتزاج الطبيعة الإلٰهية بالطبيعة الناسوتية كما يمتزج الماء بالخمر ، كقوله « دع الخليقة لتكون أنت هو وهو أنت » و بالفعل وجد فى بعض تعبيراته كلمة الناسوت واللاهوت كالتعبيرات النصرانية .

أما وحدة الوجود فمعنى آخر تجلى فيما بعد فى ابن العربى وابن الفارض وابن سبعين والعفيف التلمسانى وغيره . حتى إن هؤلاء لم يفهموها فهماً واحداً بل بينهم خلاف ولو بسيط .

و ينكر ابن الفارض الحلول ، كالذى ذهب إليـه الحلاج ، ولذلك يقول فى تائيته :

متى حِلْتُ عن قولى أناهى أو أقل ... وحاشا لمثلى أنهـا فىَّ حلت

وفى الصحو بعد المحو لم أكُ غيرها ... وذاتى بذاتى إذ تحلت تجلت

ولذلك وصفوا مذهب ابن الفارض بالاتّحاد ، كما وصفوا مذهب ابن عربى بوحدة الوجود . والقول بالاتحاد قريب من القول بوحدة الوجود ، على خلاف بينهما يسير .

ومعنى القول بوحدة الوجود أن العالم والله شيء واحد . و بيان ذلك أنَّ المتـكلمين والفلاسفة مثلا يرون الوجود وجودين ، واجب الوجود وممكن الوجود فواجب الوجود ما كان وجوده لذاته ، وممكن الوجود ما وجد لسبب ، والأول أزلى أبدى ، والثانى محدث فان . وهـذا القول يقول باثنينية الوجود ، أى الله والعالم . فالله خالق ، والعالم مخلوق ، والله مُدَبِّر والعالم مدبر ، وليس الله حالا فى

العالم و إنما هو خالقه ومدبّره . والله بيده الخير والشر ، يثيب الناس و يعاقبهم جزاء لمـا كانوا يعملون ، تهمه أعمال الناس ، وتسره التضحية .

أما مذهب الحلول فيرى أن الله والعالم امتزجا ، وأن الله والقوة الداخلية الفاعلية فى العالم مترادفان . وأما أصحاب وحدة الوجود فيقولون : إنه ليس فى العالم وجودان ، بل وجود واحد . والله هو العالم ، والعالم هو الله . ولذلك يسمّى مذهبهم بالواحديّة ، و يسميه ابن تيمية بمذهب « الاتحاد » أى الاتحاد بين الله والعالم .

وقد كان انكساغوراس وأرسطاطاليس والرواقيون اثنينيين ، وجاءت الأديان من يهودية ونصرانية و إسلام ، فأيدت الاثنينية . فالله والعالم ، والخالق والمخلوق ، والروح والمادة ، عنصران اثنان لا عنصر واحد . أما الواحدية فتقول بأن العالم والله ، أو المادة والروح ، أو الخالق والمخلوق شىء واحد . وهـذا واضح جداً فى كلام ابن عربى . فمن تعبيراتهم « أن ذاته وذات الله قد أصبحتا ذاتا واحدة » . وقد تجلى هـذا المعنى فى القرن السادس والسابع الهجريين فى حياة ابن الفارض وابن عربى[1] . وليست مظاهر العالم المختلفة إلا مظاهر لله تعالى ، أى ليس لله وجود إلا الوجود القائم بالمخلوقات وليس هناك غيره ولا سواه ، وأن العبد إنما يشهد السّوى ما دام محجوبا ، فإذا انكشف الحجاب رأى أنه لا أثر للغيرية ولا للـكثرة ، وعاين الرائى عين المرئى والمشاهد عين المشهود . ولهم فى ذلك كلام كثير وشطحات بعيدة المدى .

---

(١) وفى اللغة الإنجليزية كلمتان مختلفتان أحداهما تدل على الحلول وهى كلمة « Infusion » والأخرى تدل على وحدة الوجود كمذهب ابن عربى وابن الفارض وهى « Pantheism » أما الاتحاد فهو « Unification » .

وقد تختلف تعبيراتهم باختلاف منازعهم . فتعبيرات الفلاسفة القائلين بوحدة الوجود كالسهروردى غير التعبيرات التى يقولها شاعر أديب يقول بوحدة الوجود كابن الفارض . ولأن هذا الكلام وهذا المذهب صعب إدراكه على العقل اعتمدوا هم على الذوق والكشف . ولما كان كلامهم قد لا يرضى العامة استعملوا كلمات وتعبيرات الغزل المادى من سكر وخمر ووصال وهجران إلى غير ذلك ، حتى لقد يصعب على القارئ إذا لم يعرف قائل الأبيات أن يعرف إنْ كانت هذه الأبيات صوفية أو نوّاسية .

وقد علقوا أهمية كبيرة على الذوق وقالوا . إنه لا يحسن التصوف إلا من كان ذا ذوق يناله بالرياضة والمجاهدة ، ويقومه أكثر مما يقوّم النظر العقلى والدليل المنطقى . والذوق يوصّل إلى الكشف ، أما النظر العقلى فيوصّل إلى العلم . والفرق بين مَنْ يرى بذوقه ومن يقتنع بعقله كالفرق بين من يرى بعينه ومن يصدّق غيره من قوله . ولذلك اختلفت أساليب الصوفية عن أساليب العلماء فى طرق المعرفة . فإذا عول الفلاسفة على العقل فإنما يعوّل المتصوفة على القلب ، يقول أحد الصوفية : « إنَّ السالك فى سبيل الله أحد ثلاثة : عابد يعبد الله رغبةً فى الجنة ، وفيلسوف يعتمد على براهينه وهو لا يصل إلى الله ، وعارف يصل إلى الله بوجده ، وهو خير الناس » . ولهم فى المعرفة أيضاً كلام كثير .

التسامح الدينى

وإذْ قال كثير منهم بوحدة الوجود كانوا أسمح الناس فى اختلاف الأديان . فالاختلاف بين الأديان إنما هو اختلاف فى المظاهر ، أما من حيث الحقيقة والجوهر

فكل تسلك طريقاً إلى الله ، والغاية واحدة ، والاختلاف فى الوسائل لا يهم ما دامت الغاية واحدة وهى حب إله واحد . ولابن عربى وجلال الدين الرومى أشعار كثيره فى هذا المعنى ، وكذلك فى بعض آبيات تائية ابن الفارض خصوصاً فى التائية الكبرى . وقالوا : إن كل دين و إن اختلف فى مظهره عن الدين الآخر ، فإنما يكشف عن ناحية معينة من نواحى الحق . فالإيمان والكفر لايختلفان اختلافا جوهريا ، واليهود والنصارى والمجوس وعبدة الأصنام متفقون فى عبادة إله واحد . والقرآن والتوراة والإنجيل منتظمون فى سلك واحد ، هو سلك التنظيم الإلهى ... إلخ . مما يجعلهم أرحب أهل الأديان صدراً .

الغـــزالى

فإذا جاء القرن الخامس الهجرى رأينا شخصية كبيرة لها لون خاص غير الألوان السابقة كان لها تأثير كبير فى المحيط الإسلامى بل وفى غيره . وهى شخصية الغزالى . فهو ذو شخصية طبيعية ممتازة ، ثم هو مثقف ثقافة واسعة يعرف كثيراً من الفلسفة وتعاليم المتشيعة . أو بعبارة أخرى ، مذهب الباطنية ، والفقه الشافعى والتصوف . ثم هو بعد أن جمع ذلك كله كانت له قدرة فائقة على التعبير ، كما يدل عليه كتاب الإحياء . كانت قبله حروب هائلة بين الفقهاء والصوفية[1] وخصوصاً بين الصوفية والأشعرية ، فجاء الغزالى يصالح بين الفريقين ، و يرضى كثيراً من الفقهاء عن التصوف ، وكثيرا من المتصوفة عن الفقهاء . كان فى الأصل مدرساً فى مدرسة نظام الملك ببغـداد . وقد ولد بطوس سنة ٤٥٠ وأوصاه أبوه بالصوفية ورجالها . فلما ترعرع درس الفقه ، وتلقى العلم فى جرجان فنيسابور ، وكان من

---

(١) انظر فى ذلك الجزء الثانى من ظهر الإسلام .

شيوخه خليفة أبي الحسن الأشعرى إمام الحرمين أبو المعالى الجوينى . وكانت مدرسة نظام الملك وقصره الفخم تموجان بالعلماء والفقهاء .

وقد نال الغزالى شهرة واسعة فى الفقه والمناظرة ، إذ كانت له مواقف جادل فيها العلماء وتغلب عليهم . فأخذ يزهى بمقدرته ، ويوما نظر إلى حالته ، فرأى غرورا كاذباً وحياة مظاهر لا قيمة لها ، فتردد طويلا ، هل يبقى على هذه الحالة التافهة أو يهجرها ويدع مالا قيمة له إلى ماله قيمة . وأخيرا قرر السفر إلى الحجاز وتطليق ما هو فيه والميل إلى الزهد والورع . ويروى فى كتابه « المنقذ من الضلال» أنه غادر بغداد إلى الشام ثم إلى مكة ، فلما عاد من الحجاز عرج على الشام وأقام فيه نحو عشر سنوات معتكفاً يصلى ويصوم ويدون فيها علومه ، ومن ذلك كتابه « الإحياء » . ثم رجع إلى بلده طوس وقد امتلأ علماً وزهدا وورعا وكان يقرأ القرآن ويتبتل إلى الله . ثم ألح عليه فخر الملك ابن نظام الملك أن يكون أستاذا فى المدرسة النظامية فقبل . ثم عاوده الحنين إلى الاعتكاف فهجر التدريس وذهب إلى بلده .

والظاهر من سيرته أنه كان نهماً فى تحصيل العلم ، لم يدع باباً يظن أنه يوصله إلى معرفة الحقيقة ، إلا طَرَقه . ولم تعجبه الفلسفة ولا الفقه المجرد من الروح ، ولا تعاليم الباطنية ، وإنما اطمأن أخيرا إلى التصوف فأحبه وركن إليه . وكان لكتبه وتعاليمه أثر كبير فى حياة المسلمين بدليل تاريخ المسلمين قبله وبعده . ومن أهم مظاهر ذلك :

١ — أن الفقهاء كانوا يعتمدون على ظواهر الشعائر من وضوء وصلاة وعدد ركعات ونحو ذلك ، فجاء هو فبثّ فيها الروح وجعلها كما كانت فى الحال الأول

فى صدر الإسلام أهم أركانها ، فالصلاة ليست مجرد حركات وإنما هى ذلك مع خشوع القلب .

٢ — كان المتصوفة قد ارتكنوا إلى الحب الإلهى فسكنوا واطمأنوا و بعضهم لم يلتزم التزاماً دقيقاً بالواجبات الدينية ، فجاء الغزالى وأعاد إلى النفوس الخوف من الله على طريقة الحسن البصرى .

٣ — وبجانب ذلك حبب التصوف إلى الناس وأقر الاعتقاد بالمكاشفة وأنها تصل بالمعرفة إلى مالم يصل إليه العقل . ونراه فى الإحياء فى كثيرمن المواضع يقف فى شرحه عند حد ، ثم يقول : إن ما وراء ذلك لا يدرك إلا بالكشف ولا تستطيع أن تعبر عنه اللغة .

٤ — وافق الصوفية على القول بكرامة الأولياء و إتيانهم بخوارق العادات .

٥ — فلسف الدين ، فإذا قرأت أى باب من الأبواب ، حتى ما تعرض له الفقهاء كالعبادات والمعاملات رأيته يعرضها عرضاً غير عرضهم . فعرضهم جاف كالقوانين ، وعرضه لطيف جذاب كالقطعة الأدبية . بل هو نفسه فى كتب الفقه جافّ كالفقهاء ، وفى كتاب الإحياء ونحوه لطيف كالأدباء .

٦ — قرر أن الإيمان عن طريق الكشف لا عن طريق الفلسفة هو الطريق إلى الله ، وطريق الكشف الرياضة والمجاهدة .

من أجل ذلك كله جرف العالم الإسلامى إلى اتجاهه ، فأصبحنا نرى أن الناس لا ينظرون إلى المتصوفة نظراً شذراً كما كانوا يفعلون ، ولعله من ذلك الحين اعترف أهل السنة بالكرامات والأولياء .

قلنا إنّ الغزالى ربما أثر فى غير المحيط الإسلامى ، فقد ترجمت بعض كتبه

إلى اللغـة اللاتينية فى القرون الوسطى ، وانتفع اليهود بفلسفته ، فاستخدموا كتابيه « التهافت والمقاصد » فى ردهم على الفلاسفة .

وقد بحث فى كتابه « الإحياء » فى العلم وقواعد العقائد وأحوال المعيشة وآداب الاجتماع ورياضة النفس وعجائب القلب وأخيراً بحث فى التعليمات الصوفية كالتوبة والصبر والمحبة . وعلى الجملة فقد قسمه إلى أربعة أرباع : ربع فى العبادات وربع فى العادات ، وربع فى المهلـكات ، وربع فى المنجيات .

وكما عقد الغزالى فى التصوف الصلة بينه وبين الله ، عقد الصلة بينه وبين النبى صلى الله عليه وسلم ، وذكر ذلك فى فصل خاص من فصول المنقذ وقال : « فإن جميع حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ... وبالجملة فمن لم يرزق منه شيئاً بالذوق فليس يدرك من حقيقة النبوة إلا الاسم . وكرامات الأولياء هى على التحقيق بدايات الأنبياء . وكان ذلك أول حال رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أقبل إلى جبل حراء حيث كان يخلو فيه بربه ويتعبد » . وقد ألّف كتاباً اسمه « مشكاة الأنوار » شرح فيه آية « الله نور السموات والأرض » وفيه يذكر شيئاً عن موجود يسميه « المطاع » يعتبره خليفة الله والمعبر الأعلى للعالم ويقول إنَّ نسبته إلى الوجود الحق أى الله ، كنسبة الشمس إلى النور المحض ، أو نسبة الجمر إلى جوهر النار الصرف .

قال الأستاذ نيكولسن : « ولا شك أنه يريد بالمطاع الأمر الإلهى الوارد ذكره فى القرآن ، أعنى الأمر الإلهى الذى به تنفذ الإرادة الإلهية فى العالم ويتلقى عنه الأنبياء وحيهم . وبعبارة أخرى فالمطاع هو الموجود الذى عن أمره تتحرك الأفلاك . وقد قيل إن المطاع هذا المراد به القطب رأس الصوفية ، ولـكن هـذا

بعيد ، لأن الغزالى لا يقول بنظرية القطبية الصحيحة . أمّا أنا فأميل إلى القول بأن المطاع يمثل الصورة المثالية التى يسمونها الحقيقة المحمدية ، أو الروح المحمدى ، أو الإنسان السماوى الذى خلقه الله على صورته ، ويعتبرونه قوة كونية يتوقف عليها نظام العالم وحفظه[١] » .

وهذه النظرية أى نظرية المطاع أو الروح المحمدية هى التى شرحها فيما بعد شرحاً وافياً عبد الكريم الجيلى أو الجيلانى فى كتابه « الإنسان الكامل » وسنتكلم عنه فى القسم الثانى .

وعلى الجملة فيظهر لى أنَّ الإسلام فى العصور المتأخرة عن الغزالى كان متأثراً بتعاليم الغزالى وكتبه .

القطب

ولا بد من أن نذكر أن من أهم تعاليم الصوفية التى كان لها أثر فى تاريخ المسلمين القول بالقطب ؛ وهم يقولون : « إنَّ القطب هو أكمل إنسان ممكن فى مقام الفردية أو هو الواحد الذى هو موضع نظر الله فى كل زمان . عليه تدور أحوال الخلق ، وهو يسرى فى الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح فى الجسد ويفيض روح الحياة على الكون الأعلى والأسفل : فهو من الكائنات بمثابة المهيمن عليها ، المكلّف بحفظها ورعايتها . وأنه ليظل كذلك طول حياته حتى يقبضه الله فيخلفه واحد من الأولياء الثلاثة الذين دونه فى المرتبة وهم الأوتاد الذين كانوا من قبل أبدالا ويبلغ عددهم الأربعين . ويسمى القطب غوثاً باعتبار

---

(١) انظر كتاب (فى التصوف الإسلامى) الذى نشره الدكتور أبو العلا عفيفى ترجمة لدراسات مختلفة فى التصوف قام بها الأستاذ نيكولسن .

التجاء الملهوف إليه . وقد يطلق القطب على قطب الأقطاب وهو سابق فى وجوده على وجود هؤلاء الأقطاب ، وعلى وجود كل ما فى عالم الغيب والشهادة ، وهو بهذا المعنى لم يتلق القطبية عن قطب آخر سبقة من قبل ، واستخلفه من بعد ، فصار قطباً بعد أن كان وتداً ؛ ولـكنه واحد منذ القدم لم يتقدم عليه قطب آخر ولم يلحقه قطب آخر بهذا المعنى الذى لا يدل إلا على حقيقة واحدة هى الحقيقة المحمدية[1] .

هذه هى حركة التصوف مجملة إلى نهاية القرن الخامس الهجرى وسنتحدث عن الصوفية فى القرون التى أتت بعد فى القسم الثانى من هذا الـكتاب .

الأدب الصوفى

للصوفية أدب غزير له خصائص تخالف خصائص الأدب الآخر . وقد بدأ من أوائل القرن الثانى الهجرى واستمر فى العصور بعده . ومن خصائصه السموّ الروحى ، والمعانى النفسية العميقة ، والخضوع التام لإرادة الله القوية ، وبُعْد الخيال والشطحات ، كما يتصف بالغموض والمعانى الرمزية .

وقد كان الأدب الصوفى نتاجا لجنسين مختلفين الجنس السامى ويمثله الأدب الصوفى العربى ، والجنس الآرى ويمثله الأدب الصوفى الفارسى . وبين الجنسين اختلاف كبير فى التصوف والإنتاج والمزاج . ومع كراهيتنا لإرجاع الخصائص إلى الجنس ، فإننا نقر إلى حدّ ما أن الساميين بحكم نشأتهم أقوياء الحس فى الغالب ، ضعاف الخيال . بينما الآريون واسعو الخيال ، كبر فى أذهانهم جلال القوى

(١) انظر ابن الفارض والحب الإلهى للدكتور محمد مصطفى حلمى ص ٢٦٦ .

الطبيعية لأنهم نشأوا فى أقطار ذات مناظر طبيعية جميلة جلية فخمة غريبة . وهم أقدر على وصف خلجات النفوس ، والساميون أقدر على تشبيه ظواهر الأشـياء .

والتصوف السامى كله وَلَهٌ وحنين و إخلاصٌ وحيرة مصدرها الإعجاب والحب والعاطفة ، والسامى يحب فيحس عذاب الحب أو نعيمه إلى درجة بعيدة ، وقد يبالغ فى هذا وذاك . ثم يخرج عذاب نفسه أو نعيمها شعراً سلسا دافقا مملوءا بالسخط والضجر والألم والأنين والاطمئنان إلى هذا الألم والحنين .

أشكو وأشكر فعـــله   فاعجب لشاك منه شا كر

فهذه عاطفة صادقة امتلأت بالحب وأورثت الشكوى والألم ، ثم إن النفس عن كل هذا راضية . بل هى تسمو إلى أرفع منازل التضحية وتجود بالحياة فى سبيل هذا الغرام وحرصا عليه .

إن الغرام هو الحياة فمت به   صبا فحقك أن تموت وتعذرا

وفى هذا يختلف الأدب فى التصوف السامى عن الأدب فى التصوف الآرى . فليس من طبيعة العربى أن يندمج فى الطبيعة و يفنى فيها كغيره من أبناء الهند وفارس . وهو كغيره من الساميين تعوزه القدرة على استخراج الـكليات من الجزئيات ، فأدبه يدرك الأشياء تفصيلا ولـكن لا يدركها إدراكا كلّياً موحّدا ، ينظر إلى كل شىء على حدة تقريبا . فهو ينظر إلى كل شجرة جزئية فى البستان ، ولـكن يصعب عليه أن ينظر إلى البستان كـكل . ووحدة قصيدته البيت ، وكل بيت مستقل بنفسه تقريبا ، وليس للقصيدة وحدة . وشعره يعبّر عن نفسه تعبيراً موسيقيا صحيحا بأساليب موزونة برّاقة كله حياة . ولـكنها حياة يحدّها الزمان والمـكان ولا طاقة له أن يسمو بفـكره فوق الزمان والمـكان[١] .

(١) انظر براون فى كتابه « الأدب الفارسى » .

أما الأدب فى التصوف الآرى فـكله غرام وحبّ ، ولـكنه حب مزج فيه العاطفة بالفلسفة . يبدأ التصوف عنده بالفهم والإدراك ثم التفلسف . أمّا السامى فيبدأ بالشعور ولا يلزم أن يكون هناك شىء آخر .

من أجل ذلك كان التصوف مجالا لفهم الفرق بين الطبيعتين والمزاجين والأدب الصوفى يسلك طريق المـكاشفة فى إدراك الحقائق . ولما كان الأدب الصوفى يتنازعه القلب والعقل وكلاهما له طريقة خاصة به ، فأحدهما يسير فى طريق المنطق والآخر يحاول أن يتجنبه ، وقع الأدب الصوفى فى الغموض . وهو على العموم أدب عبوس شديد مرير ، وأدب عاطفة حارة وشعور حاد . وقد أضفى عليه جمال الموضوع جمالا فى الوزن وحسنا فى التوقيع والنغم الموسيقى . والخيال فيـه بعيد واسع كله روعة وجلال . سجعه لطيف وموسيقاه رنانة . وكثيراً ما يعتمد على المحسنات البديعية والتزويق اللفظى استعانة بذلك على تسهيل المعانى العميقة والأفـكار المعقدة . يتعب غموضه ، فما وضح منه كان غاية فى الرقة والجمال . وهو غنى فى ألفاظه وأساليبه ، هائم مع الروح فى عالم اللانهاية ، وحائر على الدوام لا يستقر حتى يفنى فى هيامه .

ومن الأسف أن الأدب العربى لم يوله الاهتمام الـكافى بعرض نماذج منه على الناس واكتفوا بالأدب المادى إن صح هذ التعبير . والمستشرقون فى عرضهم للأدب عنوا بسلسلة تاريخية أكثر مما عنوا بموضوعه وفنه . وفضلا عن ذلك فالـكتب التى ألّفت فى التصوف نفسه تحتاج إلى غربلة ، وغرقت فيه حبّات الدر فى بحار من الـكرامات والمعجزات .

أطوار الأدب الصوفى

والأدب الصوفى يمكن أن يقال إنه تطور فى ثلاثة أطوار : الطور الأول يبدأ من ظهور الإسلام و ينتهى فى أواسط القرن الثانى للهجرة ؛ وكل ما بين أيدينا منه طائفة كبيرة من الحكم والمواعظ الدينية والأخلاقية تحث على كثير من الفضائل ، وتدعو إلى التسليم بأحكام الله ومقاديره ، و إلى الزهد والتقشف وكثرة العبادة والورع . وعلى العموم هى تصور لنا عقيدة هذا العصر من البساطة والحيرة .

والطور الثانى يبدأ من أواسط القرن الثانى الهجرى إلى القرن الرابع . وهنا يبدو ظهور آثار التلقيح بين الجنس العربى والأجناس الأخرى ، وفيه يظهر اتساع أفق التفكير اللاهوتى ، وتبدأ العقائد تستقر فى النفوس على أثر نمو علم الكلام . وفيه يظهر عنصر جديد من الفلسفة .

والأدب الصوفى فى طوريه الأول والثانى أغلبه نثر ، و إن ظهر الشعر قليلا فى طوره الثانى . وفى الطور الثانى هذا يبدأ تكوّن الاصطلاحات الصوفية والشطحات .

أما الطور الثالث فيستمر حتى نهاية القرن السابع وأواسط القرن الثامن ، وهو العصر الذهبى فى الأدب الصوفى ، غَنِىٌّ فى شعره ، غنى فى فلسفته ، شعره من أغنى ضروب الشعر وأرقاها ، وهو سلس واضح و إن غمض أحياناً . وفلسفته من أعمق أنواع الفلسفة الإلهية وأدقها ، ومعانيه فى نهاية السمو . تقرؤها فتحسب أنك تقرأ معانى رقيقة عارية لا ثوب لها من الألفاظ . خياله رائع يسبح بك فى عالم كله جمال . عواطفه صادقةٌ يعرضها عليك كأنها كتاب إلهى تقلبه أنامل الملائكة . يقدّس الشعراء فيه الحب . ولا بد أن يكون الإنسان هائماً أيضاً مسلحاً بكثير من

الأذواق والمواجيد والحالات التى يعتقدها المتصوفون حتى يسايرهم فى الفهم .

الأدعية والابتهالات

والأدب الصوفى متنوع تنوع الأدب المادىّ ، ففيه حكم ، وفيه قصص كثيرة وفيه شعر . وهو يهتم بمواضع خاصة يكثر فيها القول مثل الحب والمناجاة والورع والتقوى وعدم الاهتمام بالرزق ، وصفات أولياء الله العارفين وذم الدنيا والزهد فى شؤونها . ولنسق الآن أمثلة منها :

١ — من دعاء ذى النون المصرى : « اللهم إنَّ الحول حولك ، والطول طولك ، ولك فى خلقك مدد وقوّة وحول ، وأنت الفَعَّال لما تشاء ، لا العجز والجهل يطارحانك ، ولا النقصان والزيادة يحيلانك ، لا يحد قدرتك أحد ، ولا يشغلك شأن عن شأن » .

وله أيضاً :

« اللهم اجعل العيون منا فوارات بالعبرات ، والصدور منا محشوة بالعبر والحرقات ، واجعل قلوبنا غواصة فى موج قرع أبواب السماوات تائهة من خوفك فى البوادى والفلوات . افتح لأبصارنا باباً إلى معرفتك ولمعرفتنا أفهاما إلى النظر فى نور حكمتك ، يا حبيب قلوب الوالهين ، ومنتهى رغبة الراغبين . اللهم تقبل ما مننت به علينا من الإسلام والإيمان ، ولا تمنعنا عفوك عن السؤال ، فإنا إليك آيبون ، ومن الإصرار على معصيتك تائبون » .

ومن أدعية معروف الكرخى : « حسبى الله لدينى ، حسبى الله لدنياى ، حسبى الله الكريم لما أهمنى ، حسبى الله الحكيم القوى لمن بغى علىّ ، حسبى الله

الشديد لمن كادنى بسوء ، حسبى الله الرحيم عند الموت ، حسبى الله الرءوف عند المساءلة فى القبر ، حسبى الله الكريم عند الحساب ، حسبى الله اللطيف عند الميزان ، حسبى الله القدير عند الصراط ، حسبى الله لا إله إلا هو ، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم » .

ومن دعاء ليوسف بن الحسين : « اللهم إنا نبات نعمك ، فلا تجعلنا حصائد نقمك ، اللهم أعطنا ما تريده منا ، يا من أعطانا الإيمان من غير سؤال لا تمنعنا عفوك مع السؤال ، فإنا إليك آيبون ، ومن الإصرار على معصيتك تائبون » .

ومن دعاء للجنيد : « اللهم إنى أسألك يا خير السامعين ، وبجودك ومجدك يا أكرم الأكرمين ، وبكرمك وفضلك يا أسمح السامحين ، أسألك سؤال خاضع خاشع متذلل متواضع ضارع ، اشتدت إليك فاقته ، وعظمت فيما عندك رغبته ، وعلم أن لا يكون شىء إلا بمشيئتك ، ولا يشفع شافع إليك إلا من بعد إذنك ... إلهى وسيدى وسندى ، أنا بك عائذ لائذ مستغيث مستنجد » .

٢ — كتب الشبلى إلى الجنيد : « يا أبا القاسم : ما تقول فى حال علا فظهر ، وظهر فقهر وبهر ، فاستناخ واستقر ، فالشواهد منطمسة ، والأوهام حنسة والألسن خرسة ، والعلوم مندرسة : ولو تكاثفت الخليقة على من هذا حاله ، لم يزده ذلك إلا توحشاً ، ولو أقبلت إليه تعطفا ، لم يزده ذلك إلا تبعداً » .

٣ — ومن كلامهم فى عدم الاهتمام بالرزق : « إن جماعة دخلوا على الجنيد فاستأذنوه فى طلب الرزق ، فقال . إنْ علمتم أى موضع هو فاطلبوه قالوا فنسأل الله تعالى ذلك . قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكّروه ، قالوا : فندخل البيت ونتوكل وننتظر ما يكون . فقال : التوكل على التجربة شك . قالوا : فما الحيلة ، قال : ترك الحيلة » وقال بعض العارفين : « من سأل الله الدنيا فإنما سأله

طول الوقوف بين يديه » وقالوا : «مَثَل الدنيا وأهلها كقوم ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى جزيرة فأمرهم الملاّح بالخروج لقضاء الحاجة ، وحذّرهم المقام وخوّفهم مرور السفينة فتفرقوا فى نواحى الجزيرة . فقضى بعضهم حاجته وبادر إلى السفينة ، فصادف المكان خالياً ، فأخذ أوسع الأماكن وألينها وأوفقها لمراده . و بعضهم أطال الوقوف إلى الجزيرة ينظر أزهارها وأنوارها وغياضها ونغمات طيورها وأحجارها وجواهرها ومعادنها ثم تنبّه لخطر فوات السفينة فرجع إليها فلم يصادف إلا مكانا ضيقاً حرجاً فاستقر فيه . و بعضهم أكب على تلك الأصداف والأحجار ، واستصحب منها جملة ، فجاء إلى السفينة فلم يجد إلا مكانا ضيقاً ، وزاده ما حمله ضيقاً ، وصار ثقيلا عليه ولم تطعه نفسه على رميه ، فحمله على عنقه ورأسه ، وبعضهم شغل بالأنوار والغيض ونسى السفينة ولم يبلغه نداء الملاّح لانشغاله بأكل الثمار ، فتركته السفينة وعاش خائفاً على نفسه من السباع والحيات . و بعضهم سمع أخيراً نداء الملاح فعاد مثقلا بما معه فلم يجد فى السفينة موضعاً واسعاً أو ضيقاً فبقى على الشط حتى مات جوعا ... و بعضهم و بعضهم و بعضهم من صنوف الركاب المختلفين . وهذه حالة الخلق إلا من عصمه الله » .

٤ — ومن أدباء المتصوفة الذين لم ينالوا حظهم فى الشهرة : النفّرى وهو محمد بن عبد الجبار نسبة إلى نفّر بلدة كانت فى جنوب العراق ، ثم خربت . . . وقد مات سنة ٣٣٤ هـ وهو من صوفية القرن الرابع . وقد خلف لنا كتابين صغيرين من خير الكتب وهما المواقف والمخاطبات[١] — والمخاطبات مفهومة وهى مخاطبته لله عز وجل وابتهالاته إليه ، والمواقف وقفاته أمام الله وموافقة الله معه حسب أحواله . وقد تكلم فى كل موقف بما يناسبه ، فموقف العز وموقف القرب وموقف

(١) نشرهما الأستاذ آربرى على نفقة جمعية جب وطبعهما فى دار الكتب .

الـكبرياء وموقف الرفق وهكذا . . . ولنسق أمثلة من كل منهما .

قال فى موقف العز : أوقفنى فى العز وقال لى : لا يستقل بة من دونى شىء[1] ، ولا يصلح من دونى لشىء . وأنا العزيز الذى لا يستطاع مجاورته ، ولا ترام مداومته . أظهرت الظاهر وأنا أظهر منه ، فما يدركنى قربه ، ولا يهتدى إلىّ وجوده . وأخفيت الباطن وأنا أخفى منه . فما يقوم علىّ دليله ، ولا يصح إلىّ سبيله . وقال لى لولاى ما أبصرت العيون نواظرها ، ولا رجعت الأسماع بمسامعها . وقال لى : لو أبديت لغة العزّ لخطفت الأفهام خطف المناجل ، ودرست المعارف درس الزمان ، عصفت عليها الرياح العواصف ... وقال لى : إن من أعد معارفه لو أبديت له لسان الجبروت لأنكر ما عرف ، ولمار مور السماء يوم تمور السماء للقائى ، موراً الخ .... » وقال فى موقف الأدب : « أوقفنى فى الأدب وقال لى : طلبك منى وأنت لا ترانى عبادة ، وطلبك منى وأنت ترانى استهزاء ... وقال لى : رأس المعرفة حفظ حالك التى لا تقسمك ... وقال لى : كلّ ما جمعك على المعرفة فهو من المعرفة . وقال لى : إن انتسبت فأنت لما انتسبت إليـه لا لى . . وإن كنت لسبب فأنت للسبب لا لى ... وقال لى : آليت لا أقبلك وأنت ذو سبب أو نسب » .

وجعل موقفا سماه موقف « استوى الـكشف والحجاب » قال لى : « أنا ناظرك وأحب أن تنظر إلى — نفسك حجابك ، وعلمك حجابك ، ومعرفتك حجابك ، وأسماؤك حجابك ، وتعرفى إليك حجابك ، فأخرج من قلبك كل شىء ، وأخرج من قلبك العلم بكل شىء وذكر كل شىء .... وفرغ قلبك لى لتنظر إلى ، ولا تغلب على » .

(١) أى عز الله سبحانه وتعالى ...

ومن أمثلة المخاطبات : « يا عبد .... أى عارض عرض لك فلم ترنى فيه فإنك من غيبتى لا منه . . . يا عبد . أنا أرأف من الرأفة وأرحم من الرحمة . . . يا عبد . إذا بدوت لك فلا غنى ولا فقر . . . ياعبد . اشترنى بما سرك وساءك ، يفنى الثمن و يبقى المبتاع . . ياعبد . اهدم ما بنيته بيدك قبل أن أهدمه بيدى . . ياعبد . . إذا رأيتنى فلا والد يستجرك ولا ولد يستعطفك ... يا عبد . الغيبة ألا ترانى فى شىء ، والرؤية أن ترانى فى كل شىء . . . يا عبد . الكشف جنة الجنة — والغطاء نار النار » .

وهكذا نخرج من هذه الأمثلة على لفظ جميل وأسلوب لطيف ومعنى غامض .

وقد رووا أن له قصيدة صوفية كبيرة شرحها عفيف الدين التلمسانى الصوفى أيضاً .

٥ — وأوضح منه وأبلغ ابتهالات أبى حيان التوحيدى وقد كان صوفياً ومات سنة ٤١٤ . . .

ومن أمثلتها قوله : « اللهم إنى أبرأ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك . أسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتى ، والشكر على نعمك شعارى ودثارى ، والنظر إلى ملكوتك دأبى وديدنى ، والانقياد لك شانى وشغلى ، والخوف منك أمنى و إيمانى ، واللّياذ بذكرك بهجتى وسرورى . . . اللهم إنى أسألك خفايا لطفك ، وفواتح توفيقك ، ومألوف برّك ، وعوائد إحسانك ، وأسألك القناعة برزقك ، والرضا بحكمك ، والنزاهة عن محظورك ، والورع فى شبهاتك . . اللهم اجمع من أمرى شمله وانظم من شأنى شتيته ، واحرسنى عند الغنى من البطر ، وعند الفقر من الضجر ، وعند الكفاية من الغفلة ، وعند الحاجة من

الحسرة ، وعند الطلب من الخيبة ، وعند البحث من الاعتراض عليك — أسألك أن تجعل صدرى خزانة توحيدك ، ولسانى مفتاح تمجيدك ، وجوارحى خدم طاعتك . فإنه لا عز إلا فى الذل لك ، ولا غنى إلا فى الفقر إليك ، ولا أمن إلا فى الخوف منك — اللهم إليك نشكو قسوة قلوبنا ، وغلّ صدورنا ، وفتنة أنفسنا ، وطموح أبصارنا ، ورفث ألسنتنا ، وسخف أحلامنا ، وسوء أعمالنا . . . اللهم أطب عيشنا بنعمتك ، وأرح أرواحنا من كد الأمل فى خلقك ، وخذ بأزمتنا إلى بابك . . . اللهم أنت الظاهر الذى لا يجحدك جاحد إلا زايلته الطمأنينة وأوحشه القنوط ، وتردد بين رجاء قد ناء عنه التوفيق ، وأمل قد حفّت به الخيبة . اللهم إنى أسألك جداً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملا عرياً من الرياء ، وقولا موشّحاً بالصواب ، وحالة دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مضروبة فى سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة إلى روح بال وسكون نفس . . . اللهم اجعل غدونا إليك مقروناً بالتوكل عليك ، ورواحنا عنك موصولا بالنجاح إليك ، ولا تخلنا من يد تستوعب الشكر ، ومن شكر يمترى خلق المزيد ، ومن مزيد يسبق اقتراح المقترض ، وصنع يفوق ذرع الطالبين . . . اللهم احجز بيننا و بين كل ما دل على غيرك . انقلنا من مواطن العجز مرتقياً بنا إلى شرفات العز ، فقد استحوذ الشيطان ، وخبثت النفس ، وساءت العادة ، وكثر الصادفون عنك ، وقل الداعون إليك ، وقل المراعون لأمرك . وفقد الواقفون عند حدودك ، وخلت ديار الحق من سكانها وبيع دينك بيع الخلق . . . اللهم فأعد نضارة دينك ، وامدد علينا ظلّ توفيقك . . . اللهم إنا بك نعزّ ، كما أنا بغيرك نذلّ ، وإياك نرجو ، كما أنا من غيرك نيأس . . . اللهم إنك تملك العالم كله وما بعده وما قبله ، ولك فيه تصاريف القدرة ، وخفيّات الحكمة ونوافذ الإرادة ، ولك فيه

ما لا ندريه مما تخفيه ولا تبديه . جللت عن الإجلال ، وعظمت عن التعظيم ، فكن عند ظننا بك . . . وحقق رجاءنا فيك ، فما خالفناك جرأة عليك ، ولا عصيناك تقحما فى سخطك — ولا اتبعنا هوانا استهزاء بأمرك ونهيك ، ولكن غلبت علينا جواذب الطينة التى عجنتنا بها ، وبذور الفطرة التى أنبتتنا منها ، فلسنا ندعى حجة ، ولكن نسألك رأفة ، إنك أهل ذلك وأنت على كل شىء قدير[1] » .

هذه لغة أسلس وأوضح وأبلغ .

من الشعر الصوفى

وكما كان لهم نثر جميل ، وقصص قصير لطيف ، لهم أيضاً شعر جميل ، مثل :

يا بنى النقص والغير … وبنى الضعف والخور
وبنى البعد فى الطبا … ع على القرب فى الصور
أين من كان قبلكم … من ذوى اللبس والخطر
سائلوا عنهم المدا … ئن واستبحثوا الخبر
سبقونا إلى الرحيل … وإنا لبالأثر
من مضى عبرة لنا … وغداً نحن المعتبر
إن للموت أخذة … تسبق اللمح بالبصر

* * *

رحم الله مسلماً … ذكر الموت فازدجر

(١) انظرها بطولها فى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ج ٣ ص ٨٥ وما بعدها .

رحم الله مؤمـــــناً خاف فاستشعر الحـــذر

* * *

ومن قولهم :

فلا والله ما وصل ابن سينا ولا أغنى ذكاء أبى الحسين

ولا رجعا بشىء بعد بحث وتدقيق سوى خفى حنين

* * *

أمولاى قد أحرقت قلبى فلا تكن غداً محرقا بالنار من كان يهواكا

اتجمـــع لى نارين نار محبة ونار عذاب ؛ أنت أرحم من ذاكا

* * *

والله ما آسى من الدنيـــا على مال ولا ولد ولا ســـلطان

بل فى صميم القلب منى حسرة تبقى معى وتلف فى أكفـــانى

إنى أراك ببـــاطنى لا ظاهرى فالحسن مشـــغلة عن العرفان

* * *

إذا فكرت فيك يحـــير عقلى وألحق بالمجانين الكبـــار

وأصفو تارة فيشوب ذهـــنى ويقـــدح خاطرى كشواظ نار

سألتك باسمـــك المكتوب ألا فككت النفس من رق الإسار

* * *

يا سرّ سر يدق حـــتى يخـــفى على وهم كل حىّ

وظاهر باطن تجـــــلى من كل شيء لـكل شيّ

* * *

لعمرى ما استودعت سرى سرها سوانا حذاراً أن تشيع السرائر

ولا لا حظته مقلتاى بلحظة فتشهد نجوانا العيـــون النواظر

ولـكن جعلت الوهم بينى و بينه رسولا فأدى ما تكن الضمائر

* * *

حقاً أقول لقـــد كلفتنى شططا حملى هواك وصبرى ، إنّ ذا لعجيب

جمعت شيئين فى قلبى له خطر نوعين ضدين تبريد وتلهيب

* * *

نهانى حيائى منك أن أكتم الهوى وأغنيتنى بالفهم عنك من الـكشف

تلطفت فى أمرى فأبديت شاهدى إلى غائبى ، واللطف يدرك باللطف

تراءيت لى بالغيب حتى كأنما تبشرنى بالغيب أنك فى الـكفّ

أراك و بى من هيبتى لك وحشة فتؤنسنى باللطف منك و بالعطف

وتحيى محبا أنت فى الحب حتفه وذا عجب كون الحياة مع الحتف

* * *

ولو أن الرقاد دنا لطـــــرفى جلدت جفونها بالدّمع جلدا

فأجابه آخر :

ولـكنى أقول حييت حقّـــا إذا الوجد المبرح منك يهـــدا

وإن حلّ الرقاد بجفن عينى رقدت إجابة لك لا لأهـــدا

* * *

لى سكرتان وللندمان واحـــدة شىء خصصت به من بينهم وحدى
سكران سكر هوى وسكر مدامة فمتى يفيق فتى به سكران

* * *

عجبت لمن يقول ذكرت ربّى فهل أنسى فأذكر ما نسيت
أمـــوت إذا ذكرتك ثم أحيا ولولا حسن ظنّى ما حييت
فأحيا بالمنى وأموت شـــوقا فـكم أحيا عليــك وكم أموت
شربت الحب كأساً بعد كأس فما نفـــد الشراب ولا رويت

* * *

يا أيها الـــبرق الذى يلمع من أى أكناف السما تسطع

* * *

ياذا الذى زارا وما زارا كأنه مقتبس نـــارا
مرّ بباب الدار مستعجـــلا ما ضرّه لو دخـــل الدارا

* * *

كأن رقيباً منك يرعى خواطرى وآخر يرعى ناظرى ولسانى
فما رمقت عيناى بعدك منظرا يســـوءك إلا قلت قد رمقانى
ولا بدرت من فىّ دونك لفظة لغـــيرك إلا قلت قد سمعانى
وإخوان صدق قد سئمت حديثهم وأمسكت عنهم ناظرى ولسانى

وما الزّهد أسلى عنهم غير أننى وجدتك مشهودى بكلّ مكانى

* * *

أفكر ما أقول إذا افترقنا وأحكم دائباً حجج المقال
فأنساها إذا نحن التقينا وأنطق حين أنطق بالمحال

* * *

لو أن ما بى على صخر لأنحله فكيف يحمله خلق من الطّين

* * *

أنا إن متّ فالهوى حشوْ قلبى وبداء الهوى يموت الكرام

* * *

بكت عينى غداة العين دمعاً وأخرى بالبكا بخلت علينا
فعاقبت التى بخلت بدمع بأن غمضتها يوم التقينا

* * *

نحن فى أكمل السرور ولكن ليس إلّا بكم يتم السرور
عيب ما نحن فيه يا أهل ودّى أنكم غيّب ونحن حضور

* * *

بحقّ الهوى يا أهل ودّى تفهّموا لسان وجود بالوجود غريب
حرام على قلب تعرّض للهوى يكون لغير الحق فيه نصيب
ليس فى القلب والفؤاد جميعاً موضع فارغ يراه الحبيب
هو سؤلى ومنيتى وحبيبى وبه ما حييت عيش يطيب

وإذا ما السّقام حـــلّ بقلبي　　لم أجد غـــيره للسقم طبيب

* * *

سقى الله المدينـــــة من محلّ　　لباب الماء والنّطف العـــذاب
وجاد على البقيع وساكنيـــــه　　رضيّ الذيل مـــلآن الوطاب
فلو بخل الصّحاب على ثراها　　لذابت فوقها قطـــع الشّراب
سقاك فـكم ظمئت إليك شوقاً　　على عـــدواء دارى واقترابى

* * *

غرست لأهل الحبّ غصناً من الهوى　　ولم يك يدرى ما الهوى أحد قبلى
فأورق أغصاناً وأينع صـــبوة　　وأعقب لى مراً من السما للمحل
وكلّ جميع العاشقين هـــواهم　　إذا نسبوه كان من ذلك الأصل

* * *

ومن كان فى طول الهوى ذاق سلوة　　فإنى من ليلى لها غـــير ذائق
وأكثر شىء نلتـــه من وصالها　　أمانى لم تصـــدق كلمحة بادق

* * *

إن كنت سائلا عن خالص المنن　　وعن تآلف ذات النفس بالبدن
وعن تشبثها بالحظ مذ ألفت　　أدرانها فغدت تشكو من العطن
وعن بواعثها بالطـــبع مائلة　　تهوى بشهوتها فى ظلمة الشجن
وعن حقيقتها فى أصل معـــدنها　　لا ينثنى وصفها منهـــا إلى وثن
وعن تنزلها فى حكمها ولهـــا　　عـــلم يفرّقها فى القبح والحسن

فاسمع هديت علوماً عَزَّ سالـكها على البيـان ولا يغررك ذو لسن
قصداً إلى الحق لا تخفى شواهدها قامت حقائقها بالأصل والفنن
يا سائلى عن علوم ليس يدركها ذو فـكرة بفهوم لا ولا فطن
خذها إليك بحق لست جاهـــله والأمر مطلع والحق قيّـــدنى
على الحقيقة خذ علم الأمور ولا تحجبك صورتها فى عالم الوطن
ففطرة النفس سر لا يحيط به عقل تقيّـــد بالأوهام والدّرن

* * *

وقد تنقل الشعر الصوفى فى أطوار كثيرة كما تطور النثر . وكانت ذروته عند ابن عربى وابن الفارض فى الشعر العربى وجلال الدين الرومى فى الشعر الفارسى . وسنتكلم عن ذلك فى القسم الأخير من هذا الـكتاب إن شاء الله .

ولهم فى الأدب نوع لطيف وهو المكاتبات بين كبارهم . و يقولون « العلم كله نصفان ، نصفه سؤال و نصفه جواب » .

وكتب أبو سعيد الخرّاز إلى أبى العباس حمد بن عطاء :

« يا أبا عباس : أتعرف لى رجلا قد كملت طهارته ، و برئ من آثار نفسه ، موقوفاً مع الحق بالحق للحق ، من حيث أوقفه الحق ... فإن عرفت لى هذا فدلّنى عليه ، حتى إن قبلنى كنت له خادماً » .

وكتب عمرو بن عثمان المـكى كتاباً إلى جماعة الصوفية ببغداد فـكان منه : « إنـكم لم تصلوا إلى حقيقة الحق ، حتى تجاوزوا تلك الطرقات المنطمسة وتسلـكوا تلك المفاوز المهلـكة » . وكان الجنيد حاضراً قراءة المـكاتبة فقال : « ليت شعرى ، من الداخل فيها » وقال أبو محمد الجريرى : « ليت شعرى من الخارج منها ؟ »

ومرض رجل من أصحاب ذى النون ، فكتب إليه أن ادع الله لى : فكتب إليه ذو النون : « يا أخى سألتنى أن أدعو الله لك أن يزيل عنك الغم . واعلم يا أخى أن المرض والعلة يأنس بها أهل الصفاء ، وأصحاب الهمم … ومن لم يعدّ البلاء نعمة فليس من الحكماء . فليكن معك يا أخى من الله حياء يمنعك من الشكوى والسلام … » وكتب رجل إلى ذى النون أيضاً : « آنسك الله تعالى بقربه ، فكتب ذو النون : « أوحشك الله من قربه فإنه إذا آنسك بقربه فهو قدرك ، وإذا أوحشك من قربه فهو قدره ، ولا نهاية لقدره حتى يتركك ملهوفاً إليه » .

وكتب يوسف بن الحسين إلى بعض الصوفية : « أشكو إليك ركونى إلى الدنيا ، وما أجد فى طبعى من الأخلاق التى لست أرضاها من نفسى لنفسى » . فكتب إليه : «وصل كتابك ، وفهمت ما ذكرت ومخاطبتك شريكك فى شكواك ونظيرك فى بلواك . فإن رأيت أن تديم الدعاء ، وقرع الباب ، فإنه من قرع الباب ولم يعجز عن القرع دخل » .

وكتب صوفى إلى صوفى يسأله عما يؤديه إلى إصلاح نفسه فكتب إليه : « إن فساد نفسى قد شغلنى عن صلاحك ، ولست أجد نفسى لسفرها … والسلام » .

***

ثم لهم كلام غامض يحتاج إلى تفسير وتأويل ، قام بهذا التفسير الخلف لأفراد السلف . من أمثلة ذلك قال النورى : « مكاشفات العيون بالأبصار ، ومكاشفات القلوب بالاتصال ، والشطح كلام يترجمه اللسان عن وجد يفيض عن معدنه » .

ثم لهم كلام فى غاية الغموض أشبه ما يكون بما يسمى اليوم «الأدب الرمزى» يفسره كلٌّ بما يتراءى له مثل قول أبى سعيد الخرّاز يصف رجلا صوفياً « هو

عبد موقوف مع الحق بالحق للحق» يعنى موقوف مع الله « بالله لله » و يقول أبو على السندى «كنت فى حال منّى بى لى ، ثم صرت فى حال منه به له» ومعنى ذلك أن العبد يكون ناظراً إلى أفعاله و يضيف إلى نفسه أفعاله ، فإذا غلبت على قلبه أنوار المعرفة ، يرى جميع الأشياء من الله قائمة بالله معلومة لله مردودة إلى الله .

وقال أبو يزيد البسطامى : « ليس بليس » يعنى قد غابت الأشياء الحاضرة وتلفت الأشياء ، فليس يوجد شىء ولا يحس ، وهو الذى يسميه قوم الفناء ، والفناء عن الفناء .

و يقول الشبلى : « يا دهشا كله » معناه كل شىء مع الخلق دهش كله كالذى قال :

إنّ ... هـــــواه قد أدهشنى   لا خلوت الدهر من ذاك الدهش

وكان الشبلى يقول أيضاً : « تاهت الخليقة فى العلم ، وتاه العلم فى الاسم ، وتاه الاسم فى الذات » إلخ إلخ ...

ور بما كان هذا من أوضح ما غمض من أقوالهم .

تذييـــل

فى تاريخ الحركات العلمية والأدبية

والمذاهب الدينية من القرن السادس حتى النهضة الحديثة

تمهيد

يكاد يكون العلم والأدب والفن قد انتهى فى العالم العربى بانتهاء القرن الخامس . وربما وجد شىء فى القرن السادس الهجرى من الابتكار والتجديد ، أما بعد ذلك من ابتداء القرن السابع إلى النهضة الحديثة فيكاد يكون ترديداً لمافات ، وجمعا لمتفرق ، أو تفريقا لمجتمع ، إلا فى القليل النادر الذى سنذكره فى هذا القسم .

وهنا نتساءل : هل عقمت الولّادة عن ولادة المبتكر المجدد ، أم أصيب الناس بالغباء بعد الذكاء ؟ والحق أن ليس شىء من ذلك . وإنما هى التربية : فربّ الذكى تربيةَ غباء يكن غبيا ، وربّ الغبى تربية ذكاء يخرج خير ما عنده . وأنت إذا أخذت مصباحا كهربائيا قوته خمسون ولكن لم تنظفه مما عليه من غبار وما لم تلّمعه وتهيئه تهيئة حسنة ، كان خيراً منه مصباح قوته خمس وعشرون أعدّ كل الإعداد . فالولادة لم تعقم ، ولكن غلبت على عقول من تلدهم التربية والظروف . فما السبب فى ذلك ؟؟

يظهر لى أنّ السبب أمور .

(أولا) أنَّ العنصر العربى الذى ينتج النتاج العربى قد اختفى تقريبا ، وغلب عليه العنصر الفارسى والتركى . قد كان العنصر الفارسى أول الأمر يتثقف الثقافة العربية حتى يخرج ثقافته هو الفارسية إلى ثقافة عربية كما فعل عبد الحميد الكاتب وعبد الله بن المقفع وأمثالهما ، وكما فعل البرامكة . أما بعد ذلك فقد أخذ الفرس يتعصبون للغاتهم وثقافتهم وأعرض كثير منهم عن التثقف بالثقافة

العربية كحال بنى بويه الفارسيين . فقد كانوا يتعصبون للفارسية ، إلا القليل النادر الذى يتقن العربية مثل عضد الدولة . وخلف الترك الفرس ، فكانوا أبعد عن العربية وعن الثقافة العربية . خصوصا وأنَّ العلم والأدب العربيين كانا أرستقراطيين لا شعبيين ، فالعلماء والأدباء يقصدون إلى بلاط الأمراء والولاة والقواد يتكسبون منهم إذ لا يستطيعون أن يتكسبوا من الشعب . فلما استعجم هؤلاء الولاة والأمراء ، ولم يفهموا علم العلماء ولا أدب الأدباء انحط شأن العلم والأدب . ولكن لا بد أن نلاحظ ملاحظة دقيقة وهى أنَّ العلم والأدب ظلاّ مزدهرين بعد تغلّب الفرس والترك الأعاجم . وذلك بقوة الدفعة لا بقوتهم هم ، إذ العلم والأدب لا يموتان سريعا ، ولكن يحتضران فى زمن طويل . وهذا هو الذى يفسر استمرار النهضة العلمية والأدبية فى القرن الخامس ، وشىء منهما فى القرن السادس . وبعد ذلك تمَّ الاحتضار .

(ثانيا) كان المعتزلة حاملى لواء النهضة الفكرية من أقوى مبادئهم القول بسلطان العقل ، حتى الحديث نفسه يعرض على العقل ليحكم بصحته أو وضعه . وصحة العقائد الدينية البحتة تعرض أيضاً على العقل وتفسر تفسيرا عقليا ويحتج لها احتجاج عقلى ، كما رأينا من قبل . وهذا فى العادة هو الذى يُسْلِم للنهضة . وعلى العكس منهم كان المحدثون الذين يقولون بسلطة النقل ، وعندهم أنَّ قوة السند مقدمة على معقولية المتن . فلما جاء المتوكل ونصر المحدِّثين على المعتزلة ، وأدخل المعتزلة فى جُحر بيوتهم سياسيا ، وجاء الأشعرى وزاد فى قمعهم دينيا ، حرم العالم الإسلامى المنهج العقلى ، وتبعوا المنهج النقلى وأصبح منهج المحدثين هو منهج التربية السائد فى العالم الإسلامى كله . وطبيعى أنَّ المنهج النقلى لا يعد للتجديد

والابتكار ، وإنما يعدّ لرواية الخلف عن السلف . وكلما تقدم الزمن زاد عبء السلف على أكتاف الخلف ، فشلّ من ابتكارهم .

(ثالثا) هجوم التتر على العالم الإسلامى . وكان هجوما مُخَرِّبا مدمرا من قوم لم ترقهم الحضارة ، ولم تهذبهم الثقافة ، شداد غلاظ لا يفهمون معنى العاطفة ، ولا تلين قلوبهم للرحمة ، أحب منظر إليهم الدم ينهار ، أو الآثار العظيمة تصبح شعلة من نار . كان بأسهم بينهم ، فجمعهم جنكيز خان فأزال خلافهم ووحد كلمتهم فاتجهوا نحو الشرق الأقصى يفتحونه ، فلما أتموا ذلك هجموا على المملكة الإسلامية فيما وراء النهر فاستولوا على مملكة « شاه خوارزم » ثم اكتسحوا بجيوشهم خراسان وفارس ، يخرّبون الحضارات ويذبحون الناس حتى جاء هولاكو حفيد جنكيزخان فاتجه إلى الدولة العباسية سنة ٦٥٤ ﻫ وعرج على قلعة الموت عشّ الإسماعيلية التى ذكرناها من قبل ففتحها وأخذها منهم ، وقتل من فيها ، ثم استولى على الرىّ ثم قصد بغداد سنة ٦٥٥ وكان الخلاف فيها فظيعا بين السنية والشيعة ، فظن الوزير العلقمى الشيعى أنه يغنم غنما كبيراً للشيعة إذا هو مكّن للتتار من الاستيلاء على بغداد وزلزلة الأرض تحت أرجل الخليفة المستعصم ، فلما هجم هولاكو استولى على بغداد وأباح بغداد أربعين يوما لجنوده ، وقتل منها كما يقول بعض المؤرخين أكثر من مليون وثمانمائة ألف ، وخرب عمرانها ، ورمى كتبها فى نهر دجلة . وكانت هذه العمارات نتيجة حضارة قرون ، والكتب نتيجة ثقافة قرون . والحضارات والعلوم إنما تبنى على ما قبلها ، وتؤسس على ما سبقها . وهى كالماء للنبات الغض ، فإذا حُرِم النبات الغض الماء ذبل وجَفّ بعد قليل . وكذلك كان العلم والحضارة الإسلاميان . هذا فضلا عما أصيبت به الثقافة من نكبات العلماء ، فإنْ بقى شىء من العلم فقليل يكفى للتقليد ولا يبعث التجديد . يقول الخميسى :

وفى سنة خمس وخمسين وستمائة ثارت فتنة مهولة ببغداد بين السنية والرافضة من الشيعة أدت إلى نهب عظيم وخراب ، وقتل عدة من الرافضة فغضب لها وتنمر ابن العلقمى الوزير وجسّر التتار على العراق ليشتفى من السنية . وما كاد العالم الإسلامى يفيق من نكبته و يسترد بعض قوته حتى جاء تيمورلنك فأكمل ما عصف به أجداده جنكيز خان وهولاكو ، واجتاز بقية آسيا الصغرى وأكثر القتل والتخريب والفساد ، وأرعب الناس ، وأفسد الشام وكانت قد استعصت على من قبله وخربها فيما خرب ، وقتل علماءها فيمن قتل ومات سنة ٨٠٧ ﻫ بعد أن أكمل خنق البلاد .

فهل نعجب بعد ذلك إذا هدأت النهضة وخمد العقل ؟؟

٤ — وسبب رابع هو ما انتشر بين المسلمين من عصبية حادة مذهبية وطائفية ، ففقهاء ضد الصوفية ، وصوفية ضد الفقهاء ، ومعتزلة ضد السنية ، وسنية ضد المعتزلة ، وشيعة ضد السنية ، وسنية ضد الشيعة ، وشافعية ضد الحنفية ، وحنابلة ضد غيرهم ممن شرحنا بعضه من قبل . ومن المؤسف أن هذه الخلافات لم تقتصر على الخاصة من العلماء ، بل أشركوا فيها العوام ، والعوام عادة ضيّقو العقل ، عديمو التسامح ، فكانت البلوى من ذلك كبيرة ، والنتيجة فظيعة .

٥ — لما رأى العلماء ما حدث بالبلاد من الخراب ، وللعلم والعلماء من نكبات ، ضعفت هممهم بالطبيعة وانكسرت نفوسهم ، فبعد أن كانوا يطمحون إلى شىء فى العلم جديد أصبحوا يحمدون الله أن استطاعوا أن يحتفظوا بالقديم . وهذا هو الذى سمى « إقفال باب الاجتهاد » فلم يكن هناك باب مفتوح أقفل ، ولا جمع من العلماء تجادلوا فيه ثم قرروا محضرا كتبوا فيه ذلك ، لا لا ، ولا شىء من ذلك . إنما هى حالة نفسية اعترتهم لم يأملوا معها فى جديد وكل أملهم انحصر

فى المحافظة على القديم . فاجتهدوا كل الجهد أن يحتفظوا بالبقية الباقية يرددونها ويكررونها ويشرحونها أو يختصرونها . فانقلب المجتهد المطلق إلى مجتَهد مذهب ، والمؤلف المبتكر إلى مؤلف مفسر ، ومن خرج عن الطريق المرسوم ولو قليلا كان ملحداً زنديقاً . فإن بدر شىء يعد ذا قيمة فواحة خضراء وسط صحراء جرداء على ضعف الواحة وقلة سكانها وضآلة خيراتها . وسنعرض فى هذا القسم من الكتاب إلى وصف هذه الواحات وما فيها من خيرات .

تأليف الموسوعات

كل هذه الأسباب قد عاقت الحركة العلمية ، وأماتت النهضة الثقافية ، حتى كان الزمان الذى يسمح بعشرات من فطاحل العلماء فى وقت واحد لم يعد يسمح إلا بواحد بعد واحد ، فى عصور متباعدة . وكان من نتيجة ذلك أن انتقلت زعامة الحركة العلمية من العراق إلى مصر . لأنَّ مصر قد حماها الله من التخريب التترى ، وعاشت عيشة هادئة نسبية . والعلم لا يترعرع إلا فى ظل الهدوء والأمان .

وكان من أهم مظاهر سيادة التقليد وعدم الاجتهاد تحول التأليف العلمى لكتب مبتكرة إلى التأليف فى الموسوعات ، لأن طبيعة الموسوعات جمعٌ لمتفرق . وهى تحتاج إلى جِدّ وصبر أكثر مما تحتاج إلى كبر عقل . فرأينا مثلا أبا المظفر الأبيوردى[1] الشاعر المشهور يؤلف كتاباً فى طبقات العلوم يفرد لكل علم طبقة ، وقد توفى سنة ٥٥٧ هـ . ويؤلف على بن عقيل البغدادى الحنبلى كتاباً فى أنواع

(١) ذكرت دائرة المعارف أنه ولد فى أبيورد من أعمال خراسان ، وتوفى مسموماً عام ٥٠٧ هـ ، لا عام ٥٥٧ كما قال ابن خلكان ، وله مصنفات فى اللغة والتاريخ والأنساب ، وقد استعان بها المقدسى .

العلوم فى ٤٧٠ مجلداً . ويقول الرازى : « إنه وقع له منه مائة وخمسون مجلداً » وألف فخر الدين الرازى المتوفى سنة ٦٠٦ ﻫ كتاب « حدائق الأنوار فى حقائق الأسرار » شرح فيه نحو ستين علماً .

والذى تبقى لنا من الجهود المصرية من كتب الموسوعات ثلاث موسوعات عظيمة ، أولها كتاب «نهاية الأرب» للنويرى الذى ألفه فى ثلاثين مجلداً فى زمن الملك الناصر محمد بن قلاوون ، ورتبه على خمسة فنون .

١ — فى السماء والآثار العلوية والأرض والعالم السفلى ويشتمل على خمسة أقسام .

٢ — فى الإنسان وما يتعلق به ويشتمل على خمسة أقسام .

٣ — فى الحيوان الصامت ويشتمل على خمسة أقسام .

٤ — فى النبات ويشتمل على أربعة أقسام . وذيله بقسم خامس فى طبّ النبات .

٥ — فى التاريخ ويشتمل على خمسة أقسام . وقد مات النويرى سنة ٧٣٢ﻫ

وكذلك فعل القلقشندى إذ ألّف كتاباً سماه «صبح الأعشى» فى أربعة عشر جزءاً . والقلقشندى هذا نسبة إلى قلقشندة بلدة فى مديرية القليوبية . وقد عنى فيه بما يحتاج إليه الكُتّاب ، إذْ كان هو رئيساً لديوان الكتاب .

وألف ابن فضل الله العُمَرى وكان معاصراً للنويرى موسوعته المسماة « مسالك الأبصار » فى التاريخ والجغرافيا والتراجم يقع فى أكثر من عشرين جزءاً . ومن نعم الله أن وصلت إلينا هذه الكتب كلها واستفاد العالم منها وكانت مصدرا للأدباء والعلماء ، وحفظت لنا ثروة كبيرة من آثار الأقدمين .

وكتاب النويرى أوسع موضوعا ، وكتاب العمرى أوسع فى الجغرافيا والتاريخ ،

وكتاب القلقشندى ألصق بالكتابة وأدواتها ولوازمها . هذا إلى موسوعات خاصة ككتاب « حياة الحيوان » للدميرى المتوفى سنة ٨٠٨ هـ . يقول فى أوله : —

« هذا كتاب لم يسألنى أحد تصنيفه ، وإنما دعانى إلى ذلك أنه وقع فى بعض الدروس ذكر مالك الحزين والذّبح المنحوس ، فحصل بذلك ما يشبه حرب البسوس ، فاستخرت الله سبحانه فى وضع كتاب فى هذا الشأن ، ورتبته على حروف المعجم » .

وقد انتقد الناس تأليفه هذا الكتاب مع أنه فقيه محقق فى العلوم الدينية لا فى علم الحيوان .

كما ألفوا فى جمع الأمثال ، وتوسعوا فى جمعها عما سبقهم ، وهكذا . ولو أنهم جاءتهم فكرة ترتيب المسائل على حسب الحروف الأبجدية لكان كل كتاب من هذه الكتب الثلاثة يصح أن يكون دائرة معارف واسعة .

وربما كان من خير الأمثلة على ما نقول ما فعله السكاكى فى كتابه « مفتاح العلوم » فقد ركز جملة علوم ومنها البلاغة ، ولخصها مِنْ كتب مَنْ قبله ككتاب دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة لعبد القاهر الجرجانى ، وقد أفقدها فى تلخيصه روحها .

ثم تتابع على مفتاح العلوم التلخيص وتلخيص التلخيص ، حتى صارت على يد سعد الدين التفتازانى حجراً جامدا .

ولعل من الخير أن نذكر ملاحظاتنا على كل فن وحده .

أولا – الأدب

ربما كان الأدب والفن على العموم أكثر الأشياء تأثراً بالبيئة . والبيئة المصرية خضعت بعد سقوط بغداد للمماليك واستمرت تحت حكمهم إلى سنة ٩٢٣ﻫ وفى عهد المماليك انتقلت الخلافة أيضاً من بغداد إلى القاهرة على يد السلطان بيبرس ، وفى عهد المماليك نحى العرب عن السياسة وعن الجندية ، فانصرفوا إلى الزراعة والصناعة وكسب العيش وجعلت الأمور السياسية والحربية بيد المماليك . وفى هذا من غير شك إضعافٌ للنفسية العربية وإسلام لهم إلى الخمود ، فكان هذا عاملا كبيراً من عوامل انحطاطهم .

ولكن من ناحية أخرى كان المماليك لا يتعصبون للغة أجنبية إذ كانوا من مقاطعات مختلفة ذوات لغات مختلفة واضطروا إلى أن يتعلموا العربية كسباً للرأى العام ، كما اضطروا إلى أن يقربوا العلماء ، لأن العلماء كانوا هم الواسطة بين الشعب والسلاطين . ولكن كانت لغتهم التى كانوا يتكلمون بها هى اللغة العامية لا العربية الفصحى ، لصعوبة الفصحى ، وعدم تداولها إلا بين العلماء . ولهذا فشا فى هذا العصر أدب اللغة العامية من قصص عامىّ وزجل . والظاهر أنه لما هاجر الفارّون إلى مصر من عراقيين وشاميين وأندلسيين هضمتهم مصر وأثّرت فيهم أكثر مما أثروا فيها ، وهى مزية كبيرة معروفة لمصر ، حتى إنها لتهضم الفاتحين . وربما زاد الحال سوءاً استيلاء العثمانيين على مصر بعد المماليك فى سنة ٩٢٣ ، فقد تقهقرت العلوم والآداب تقهقرا فظيعاً بسبب أمور :

١ — أخذ الكتب والعلماء والصناع وإرسالهم إلى القسطنطينية ، وكان ذلك زبدة الحضارة الإسلامية المصرية .

٢ — إحلال اللغة التركية فى الدواوين الرسمية محل اللغة العربية .

٣ — تحويل مصر إلى ولاية عثمانية بعد أن كانت سلطنة مستقلة ، وتبع ذلك أنّ الولاة الذين كانوا يعينون من قبل السلطان العثمانى كانوا يعينون إلى أمد ، ويجتهدون فى هذه الفترة أن يقتنوا لا أن يعدلوا ، وأن ينهبوا لا أن يهبوا . يضاف إلى ذلك ما عرف عنهم من التعصب والتعاظم .

كل هذا أثر فى الحركة العلمية وفى الأدب على وجه الخصوص أثراً سيئاً حتى لقد قل أن نجد نتاجا يتذوق .

ونجد الأدب منذ عهد الدولة الأيوبية وقبله أدبا يغرق فى السجع والزينة البديعية على نمط مدرسة العماد الأصفهانى ، وابن العميد ، وابن عباد ، والقاضى الفاضل .

والسبب فى ذلك أن المقصد الذى كان يقصده الأدباء من أدبهم هو الملوك والأمراء . وهؤلاء إنما تقدّم لهم فى الماديات الطرف الجميلة الصّنع المزخرفة والمزركشة والمملوءة باللآلىء ، فكان لزاما أن يكون الأدب على هذا النحو ، فبدل اللآلىء المحسنات البديعية ، وبدل الزركشة السجع . ولم يكن الشعب ذاقيمة ولا مال حتى يتجه إليه الأدباء ، ولو اتجهوا إليه لكان سهلا بسيطا مجردا من الزينة .

ثم قد يظن ظان أن الكتابة الأدبية المسجوعة والمحلاّة بالبديع أصعب من الكتابة الفنية المرسلة غير المحلاة . وهذا خطأ محض . فالواقع أن الذى يلجئ إلى السجع والبديع الفقر فى المعنى ، فإذا عدم الأديب المعنى الغزير عوّض الأديب عن ذلك اللعب البهلوانى الخارجي . ولكن لو وجد معنى غزير لكفى هذا المعنى

بغزارته أن يكون جميلا متى عبر عنه تعبيراً مرسلا فيه جمال البساطة . ألا ترى أن الحسناء يكفيها فى الجمال أى حلية ولو بسيطة بل يغنيها جمالها عن كل حلية ، وأن القبيحة تحاول محاولة كبيرة أن تخفى قبحها بالغلو فى زينتها ، وهيهات مع ذلك أن تساوى الجميلة من غير حلية . وفى رأيى أن ابن خلدون الكاتب المرسل غير المتأنق أبلغ من القاضى الفاضل . والسبب فى ذلك أنه وجد معنى غزيرا فعبّر عنه تعبيراً بسيطا ، والقاضى الفاضل لم يجد معنى غزيرا فهوش بالسجع والبديع .

صفى الدين الحلى

وقد يكون صفى الدين الحلى أول من يطالعنا فى هذا العصر وفيه مسحة خفيفة من التجديد . وهو عراقىّ الأصل اسمه عبد العزيز بن سرايا ، ولد بالحلّة من مدن الفرات سنة ٦٧٧ وخدم الدولة الأرتقية نسبة إلى أرتق أحد مماليك السلطان ملك شاه السلجوقى ثم جلبته القاهرة فيمن جلبت ، فوصل إليها سنة ٧٢٦ فى زمن السلطان الملك الناصر ابن قلاوون ، ومدحه بقصيدة مطلعها :

أسبلن من فوق النهود ذوائبا   فتركن حبّات القلوب ذوائبا

وحتى فى هذه القصيدة يقلد أبا الطيب المتنبى فى قصيدته التى مطلعها :

تأبى الشموس الجانحات غواربا   اللابسات من الحرير جلاببا

غاية الفرق إمعان صفى الدين فى الجناس بين ذوائبا وذوائبا . ومن إمعانه فى البديع ، مثلا إنشاؤه قصائد سميت « الأرتقيات » فى مدح الملك المنصور بن أرتق صاحب ماردين . وهى تسع وعشرون قصيدة بعدد أحرف الهجاء ، يلتزم فى كل قصيدة حرفا يبدأ كل بيت به وينتهى به .

ومن أمثلة شعره الذى يتلاعب فيه بالبديع ما قاله فى التضحية :

وحق الهوى ما حِلْت يوماً عن الهوى

ولكن نجمى فى المحبة قد هوى

ومن كنت أرجو وصله ، قتلى نوى

وأضنى فؤادى بالقطيعة والنوى

* * *

ليس فى الهوى عجب إن أصابنى نصب

« حامل الهوى تعب يستخفه الطرب »

والبيت الأخير لأبى نواس ضمنه صفى الدين الحلى . وترى الإمعان فى الجناس بين الهوى والهوى ، ونوى والنوى .

ويرد أحياناً فى شعره بعض تعبيرات تكاد تكون عامية ، كقوله فى المفاضلة بين الورد والزنبق :

فامتعض الزنبق من قوله وقال للأزهار يا رفقتى

يكون هذا الجيش بى محدقا ويضحك الورد على شيبتى

فالمناداة بيارفقتى ، ويضحك الورد على شيبتى ، تعبيرات تكاد تكون عامية . وفى الغالب يكون قد أخذها من القاهرة لما أقام بها . وربما عدّ من خير تجديداته صرخته فى الذين يستعملون الألفاظ الغريبة ، يقصدون إليها ، ويتباهون باستعمالها فيقول :

إنما الحيزبون والدّردبيس والطخا والنقاخ والعلطبيس

لغة تنفر المسامع منها حين تروى وتشمئز النفوس

وقبيح أن يذكر النافر الوحـ   شى منها ويترك المـأنوس
أين قولى هذا كثيب قديم   ومقالى عقنقـل قدموس
خلّ للأصمعى جوب الفيافى   فى نشاف[1] تخف فيه الرءوس
إنما هـــذه القلوب حديد   ولذيذ الألفـاظ مغناطيس

فهو يدعو إلى هجر الألفاظ الوحشية ، واستعمال المأنوس من الألفاظ ، ولئن جاز للأصمعى الإغراب ، فلا يجوز لمن أتى بعده فى عصر مختلف كل الاختلاف إلا الإيضاح ، وهى دعوة صحيحة تقيد بها واستعملها غالباً .

ومما ابتكره صفى الدين إنشاء بديعية فى مدح الرسول صلى الله عليــه وسلم ضمنها كل أنواع البديع المعروفة فى زمنه . ومطلعها :

إن جئت سلماً فسل عن جيرة العلم   وأقر السلام على عرب بذى سلم

وجعل فى كل بيت نوعا من أنواع البديع . ثم أنشأ معاصره ابن نباته مثله بديعته التى مطالعها : —

صحا القلب لولا نسمة تتخطر   ولمعة برق بالفضـــا تتسعر

وجاء عز الدين الموصلى بعد ذلك سنة ٧٨٩ فزاد على ذلك أن جعل البيت من القصيدة يحمل اسم النوع البديعى وأولها . —

براعة تستهلّ الدّمع فى العـلم   عبارة عن نداء المفرد العـــلم

وتبعه ابن حجة الحموى سنة ٨٣٧ فأنشأ بديعيته على هذا المنوال ومطلعها :—

لى فى ابتدا مدحكم ياعرب ذى سلم   براعة تستهل الدمع فى العـــلم

وهكذا تدفق الشعراء فى هذا الباب ، لأنه ناسب دروشة الشعر .

---

١) النشاف : الحجارة السود .

شـــعر للتسلية

ووجد شعراء بعد ذلك قالوا فى المعانى التى سبقهم بها الشعراء وأكثروا من المقطعات التى تصف الأشياء العارضه كسقوط مئذنة ، وقتل زنديق ، ووصف سجادة ، ووصف سبحة . وتوالى على ذلك الشعراء أمثال الشاب الظريف ، وسراج الدين الوراق ، وابن الوردى ، وغيرهم . وكان الذى يهمهم فى ذلك النكتة كالتى نسمعها اليوم . وكلما وفق الشاعر إلى النكتة أكثر كان بالشعر أشهر مثل : —

لقد أصبحت ذا عمر عجيب　　أقضى فيه بالإنكار وقتى

من الأولاد خمس حول أم　　فواقرباه من خمس وست

ومثل : —

تركت المال والجاها　　لأهل القدر والقدره

فحسبى من حمى كسره　　وحسبى من غنى كسره

ومثل :

وكنت أخا سعدى فأصبحت عمّها　　فهيهات لى جدّ بتقبيل خالها إلخ .

وكثر اتهام الشعراء بعضهم لبعض بالسرقات وأكثروا فيها الكلام ، و يعجبنى فى ذلك قول محيى الدين بن تميم :

أطالع كلّ ديوان أراه　　ولم أزجر عن التضمين طيرى

أضمّن كل بيت فيه معنى　　فشعرى نصفه من شعر غيرى

وأظن أن قوله بالنصف يحابى فيه نفسه .

ومن ظريف ما حدث فى ذلك أن صلاح الدين الصفدى الشاعر بالشام لما

أغار على معانى جمال الدين بن نباتة فى مصر ، ولم يترك له معنى إلا أخذه ، اضطر ابن نباتة أن يؤلف كتابا يجمع فيه هذه السرقات سماه « خبز الشعير » واستهله بقوله « رب اغفر لى ولوالدىّ ولمن دخل بيتى مؤمناً » ومما ورد فى هذا الكتاب من أمثلة السرقة قول ابن نباتة :

بروحى طيب الأنفاس ألمى ملئ الحسن حالى الوجنتين
له خالان فى دينار خدّ تباع له القلوب بحبتين

فقال الصّفدى :

بروحى خدّه المحمّر أضحت عليه شامةٌ شرط المحبّه
كأن الحسن يعشقه قديماً فنقطه بدينار وحبّه

فقال ابن نباتة : لا إله إلا الله : سرق الصلاح من الحبتين حبّه .

وممن اشتهر بالشعر البوصيرى ، وسبب اشتهاره بالشعر مدائحه النبوية كالبردة والهمزية . وقد اشتهرت البردة وأعجب بها الناس حتى أصبحت نموذجا فى المدائح النبوية ، والهمزية التى مطلعها .

كيف ترقى رقيك الأنبياء يا سماء ما طاولتها سماء

والناظر فى شعره يرى أنه فى المدائح النبوية أرقى مما له من غيرها من قصائد لجلال موضوعها وسمو روحها ، وشبوب عواطفه فيها . أما غيرها من الشعر فخفيف فاتر .

ومع هذا فقد كانت حالة الشعر فى أيام المماليك خيرا منها فى العهد العثمانى ، كأن الانحطاط فى الشعر والأدب حدث على درجات .

القصص والنثر

ومن ضروب الأدب فى ذلك العصر القصص . وربما كان القصص الشعبي أحسن حظاً ، لأنه وجد استجابة له من الشعب . ومن آثار ذلك ما حدث من الزيادات على ألف ليلة وليلة فى عهد الحروب الصليبية والمماليك كقصة معروف وزوجته فاطمة ، فإن حوادثها تدل على أنها وضعت أخيراً ، وكقصة أبى قير وأبى صير فإنها من أحدث ما كتب . وبعض القصص تظهر فيها خصائص اللغة العامية الشامية والبعض تظهر فيها خصائص المصرية . ومثل ذلك قصة عنترة ، وقد ظلت تتداول على الألسنة عهداً طويلا ، وقد ألفها القُصَّاص فى أزمنة مختلفة بعضها ألف فى عهد الخليفة الفاطمى العزيز بالله ، وبعضها ألف فى القرن السادس الهجرى . وألف ليلة وليلة وقصة عنترة أوسع خيالا من مقامات الحريرى ، وأدخل فى باب الفن وإن لم تكن مثلها فى البلاغة . وسيرة عنترة من أكبر القصص العربية وينقصها جودة الحبكة حتى أنك لو حذفت جزءاً منها ما شعرت بالخلل . كما ينقصها جودة الخيال ، فخيالاتها ليست قوية . ومؤلفها قصير النفس كثير الانتقال ، لا يسير فى خطة إلا تحول عنها وشرع فى غيرها . فإن قلنا : إن العرب لم يحسنوا القصص الطويل كما أحسنوا الحكايات القصيرة والمقامات والأحاديث ، كأحاديث ابن دريد التى رواها القالى فى الأمالى ، لم نبعد عن الصواب .

وأما النثر فقد انقسم فى هذا العصر إلى قسمين : نثر رسمى كالكتب التى تخرج من الدواوين وكان لذلك ديوان خاص اسمه ديوان الإنشاء يرأسه أكبر من عُرف بالأدب ، ويختار رئيسه ممن عرف بالسياسة وبالأدب معاً ، لاحتياجه إليهما

وقد تولى هذا المنصب فخر الدين بن لقمان ، ثم محيي الدين بن عبد الظاهر ، ثم ابنه فتح الدين ، وعلاء الدين بن الأثير ، وشهاب الدين الحلّى وابن فضل الله العمرى ، والقلقشندى ؛ وقد وردت من هؤلاء مكاتيب كثيرة عدت نموذجا ، وتحروا فيها الدقة فى الألقاب والمحافظة على الأسلوب ، وهى مملوءة بالسجع وأنواع البديع كما وصفنا من قبل .

والنوع الثانى ما يسمى بالإخوانيات كـكاتبة الأصحاب للأصحاب فى الثناء والاستهداء أو الإهداء ونحو ذلك . وكلها قد استوت مع الشعر فى الإغراق فى البديع لا ينقصها من ذلك إلا الوزن ، حتى فى تقديم الغزل أول الموضوعات وقد اشتهر فى ذلك كثيرون . ومن خير الأمثلة على ذلك كتاب « نسيم الصبا » لبدر الدين الحلبى وهو فصول نحو الثلاثين فى أصل الطبيعة والأخلاق والأدب وفصول العام الخ ، وهو مظهر من مظاهر النثر الفنى فى ذلك العصر .

ابن خلدون

ولا نريد أن نطيل فى ترجمة الناثرين من هذا القبيل . و إنما نقف وقفة عند سيد هؤلاء الأدباء وهو ابن خلدون . وقد يعد عجيباً أن نعده أديباً كبيراً ، ومَنْ قبلنا لم يعدوه فى هـذا الباب و إنما عدوه مؤلفاً اجتماعياً . ونحن نعده أديباً كبيراً أيضاً ، لأنه نموذج للأدب الذى نرتضيه ، غزارة فى المعنى و بساطة فى الأسلوب ، وأسلوبه من النوع الذى يعدونه فى البلاغة مساواة لا إيجاز ولا إطناب ، فالعبارة على قدر المعنى .

وكما تطور النثر بعبد الحميـد الـكاتب تطورا جديدا عماده الإطناب و بسط

الأسلوب ، وتطور عند الجاحظ بجعله كل شيء موضوعاً للأدب ، تطور على يد ابن خلدون بجعله مسائل الاجتماع موضوعاً للأدب .

وأهم ما اشتهر به مقدمته وهى فى فلسفة التاريخ والاجتماع[1] ، من أهم ما فيها كلامه عن طبيعة العمران ، وقد تكلم فيه فيما يعرض له من بدو وحضر وكسب ومعاش وصنائع وعلوم وأثر الهواء فى أخلاق البشر ، وأن أجيال البدو والحضر طبيعية ، وأن البدو أقدم من الحضر ، وأن الأمم الوحشية أقدر على التغلب مما سواها ، وأن من عوائق المدن حصول الترف والانغماس فى النعيم ، وأنه إذا كانت الأمة وحشية كان ملكها أوسع ، وأن المغلوب مولع أبدا بالاقتداء بالغالب الخ ...

وتكلم فى العلوم وأصنافها والتعليم وطرقه . وقد نقده بعضهم بأنه لم يطبق نظرياته التى وسعها فى مقدمته على كتابه التاريخ . فهو فيه لم يحقق التحقيق الذى طالب به . وعلى كل حال فقد نحا منحى جديدا لم نعرف أنه سبق إليه .

ومما يمتاز به التزامه المنطق فى كلامه ، فهو يذكر النظرية ، ثم يأخذ فى شرحها ، ثم يأخذ فى التدليل عليها ، حتى كأنها نظرية هندسية .

* * *

ومن المؤسف أن الشرق انطوى على نفسه ولم يعد له صلة بالعالم الغربى منذ انتهاء القرون الصليبية . وقد بدأ العالم الغربى يستعد للنهضة ، ولكن لم ندر ماذا كان يصنع ؛ ولو درينا لأسسنا نحن أيضاً نهضة جديدة .

والحركات العلمية والأدبية عادة إنما تنهض بدخول عناصر جديدة فيها تشع الحياة كما حدث فى عهد الأمويين ، إذ دخلت عناصر جديدة على الأدب العربى

---

(١) انظر ترجمة ابن خلدون فى الجزء الثالث من ظهر الإسلام .

وعلى العلم العربى فحيي من جديد ، وكما حدث فى عهد العباسيين إذ تسربت إلى العلم العربى والأدب العربى الثقافات الهندية والفارسية واليونانية فنشط من جديد ، بل وكما حدث فى عصرنا هذا ، إذ تسربت الثقافات الأجنبية إلى العلم والأدب العربيين فاتجها اتجاهاً جديدا . فلما حرم الشرق من اطلاعه على الآداب الأجنبية والعلوم الأجنبية أصابه الركود وظل راكدا عصورا طويلة إلى أن أتاه المدد فى النهضة الحديثة .

ثانياً — اللغة والنحو والصرف

اللغــــــة

أما اللغة فـكان عمل المتأخرين فيها ليس إلا جمعا لمن سبقهم ، أو اختصارا فى التعبير . أمّا جديد فلا . وأشهر معاجم اللغة التى ألفت فى هذا العصر كتاب « لسان العرب » لابن منظور ، وقد ألفه فى عشرين مجلدا جمع فيــه كتاب التهذيب للأزهرى ، والمحـكم لابن سيده ، والصحاح للجوهرى ، والجمهرة لابن دريد ، والنهاية لابن الأثير . وقد قال فى مقدمته : « و إنى لم أقصد سوى حفظ هذه اللغة العربية وضبط فضلها إذ عليها مدار أحكام الـكتاب العزيز والسنة النبوية .. وذلك لمـا رأيته قد غلب فى هذا الأوان من اختلاف الألسنة والألوان ، حتى لقد أصبح اللحن فى الـكلام يعد لحنا مردودا ، وصار النطق بالعربية من المعايب معدودا » وهو من غير شك عمل ضخم وجمع لمادة كان يصعب جمعها ، وهو كتاب أدب بجانب أنه كتاب لغة لمـا يشتمل عليــه من نصوص وافية ، ولـكن إذا نحن نظرنا فيه إلى الابتـكار ، لم نجده .

وكذلك فعل صاحب القاموس المحيط وهو مجد الدين الفيروزابادى ، وقد ولد بكازرون إحدى بلاد فارس ، وتعلم فى واسط و بغداد ودمشق ، ورحل إلى مصر ، ثم إلى آسيا الصغرى ، ولقى تيمورلنك فى شيراز ، ثم رحل إلى اليمن فتلقاه سلطانها بالقبول وعينه قاضى القضاة حتى مات . ولقى كتابه القاموس شهرة كبيرة حتى سمى الناس كل كتاب فى اللغة « قاموسا » ، وهى شهرة أكثر مما يستحق

إذ كل ميزته اختصاره الشديد المخل ، ومحاولته التميز بين الواوى واليائى ، ونصه على صيغة المؤنث . وما عدا ذلك لا شيء .

وربما عد السيوطى أكبر مظهر للخصائص التى ذكرناها ، فهو مؤلف كثير التأليف ، كثير الجمع ، قليل الابتكار . ألف فى التفسير والحديث واللغة والفقه والنحو والمعانى والبيان والبديع حتى لقد عد من تأليفه ثلاثمائة كتاب . وقد اتهمه رجال عصره كثيراً بأنه يأخذ من تآليف غيره ويحوّرها وينسبها إلى نفسه ، حتى لقد تنازع هو والقسطلانى على كتاب « المواهب اللدنية » لأيهما هو ، وكلٌّ يدعيه . وأخيراً نحاه السلطان طومان باى من منصبه لكثرة أعدائه وادعائهم كثرة سرقاته .

نعم ، إنَّ حركة التأليف كانت قوية فى عصر المماليك والعصر العثمانى ، حتى ليعجزنا حصر ما ألف فى ذلك العصر ، ولكنها قوية من حيث العدد لا من حيث القيمة فلا تكاد تستطيع أن تعدّ كثيراً من أمثال مقدمة ابن خلدون .

النحو والصرف

وأمّا النحو والصرف فقد استمرا على النحو الذى وضعه سيبويه فى الكتاب وجرى على الأصول المألوفة فى ذلك الزمان . وكل ما رأينا هو شرح لغامض ، أو اختصار لمطوّل .

أما الأسس التى بنى عليها النحو مثل بنائه على العامل فلم يتغير منه شيء . نعم ، حاول ابن مضاء الأندلسى أن يغيّر ذلك ولكنه هدم ولم يبن[1] .

وجاء فى هذا العصر الذى نتحدث عنه علمان كبيران فى النحو هما ابن مالك

---

(١) انظر ابن مضاء فى كتابنا الجزء الثالث من ظهر الإسلام .

وابن هشام . فابن مالك أكثر تعقيد القواعد وتنظيمها ، وجمع متفرقها على أساس سيبويه[١] . وأما ابن هشام فكما قال عنه ابن خلدون . . . إنه « استوفى أحكام الإعراب مجمله ومفصله ، وتكلم عن الحروف والمفردات والجمل وحذف ما فى الصناعة (صناعة النحو) من المتكرر فى أكثر أبوابها ... وأشار إلى نكت إعراب القرآن كلها وضبطها بأبواب وفصول وقواعد انتظمت سائرها فوقفنا منه على علم جم ، يشهد بعلو قدره فى هذه الصناعة ، ووفور بضاعته منها » . وهو كابن مالك منظم لا مجدّد .

---

(١) انظر ترجمة ابن مالك فى كتابنا الجزء الثالث من ظهر الإسلام .

ثالثاً ــ الفقه

وأما الفقه فقد نبغ كثير من الفقهاء فى كل مذهب . ولـكن نلاحظ أن الاجتهاد الذى أقفل بابه ، ظلت فيه بقايا ينتفع بها بعض الفقهاء . فيروى مثلا عن بعض الفقهاء أنه كانت لهم أحكام فى بعض مسائل اجتهدوا فيها حسب الـكتاب والسنة وخرجوا فيها عن المذاهب الأربعة ، وما زال يضيق شيئاً فشيئاً بتوالى الزمان حتى سد الباب سداً محكما ، ولم يبق إلا أن يقلّد كل الـكبار من مشايخ مذهبه .

إنا نرى مثلا أن ابن تيمية قال بعدم جواز التوسل بالميت ولو نبياً ، وإن الطلاق الثلاث فى لفظ واحد يقع طلقة واحدة ، على غير ما يقول أتباع المذاهب .

وقد قال النووى : « إن المجتهد المطلق لم يوجد منذ القرن الرابع . وكان الفقهاء مجتهدين اجتهاداً مقيداً ، أى أنَّ لهم ملـكة يستنبطون بها المسائل من الـكتاب والسنة والإجماع والقياس ولـكنهم مقيدون بقواعد مذهب إمامهم واستمر هذا إلى القرن الخامس . ومن أمثال هؤلاء العلماء اللخمى والمازرى[1] ومحيي الدين بن عربى وابن رشد والقاضى عياض ، وإن كان الأخير من علماء القرن السادس . ثم ضعف الاجتهاد بعض الشىء وأصبح المجتهدون مجتهدى فتوى ، أى أنه إذا عرض عليهم أمر كان فيه قولان أو أكثر رجحوا أحد الأقوال حسب حججه كابن الحاجب . وهذه الطبقة انتهت أواسط القرن السابع ولم يبق بعدها إلا المقلدون تقليداً محضاً ، فلا يستطيعون أن يأخذوا بكتاب أو سنة ، بل

(١) أبو عبد الله المازرى الفقيه المالـكى شرح صحيح مسلم شرحا جيداً ؛ وعليه بنى القاضى عياض كتاب الإكمال ؛ توفى ٥٣٦ هـ .

يأخذون بأقوال المتقدمين ، و بعض الفقهاء كان يفتى لأهل مذهبين فأكثر ، كابن دقيق العيد ، فكان متمكناً من مذهب مالك والشافعى ، يفتى كل من يريد الفتوى على مذهبه من مالكى وشافعى .

ثم إن المقلدين حجروا على الفكر والفتيا وقالوا : لم يبق فى الأرض عالم منذ العصور المتقدمة ، وليس لأحد أن يختار بعد أبى حنيفة وأبى يوسف وزفر ومحمد ابن الحسن من أصحاب أبى حنيفة ، ولا مالك والشافعى وأصحابهم . وقالوا لا يحل لأحد بعد هؤلاء الأئمة أن يستنبط الأحكام من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، وأحالوا أن يوجد مجتهد يستطيع استنباط الأحكام من الكتاب والسنة .

لم يدع من مضى للذى غبر فضل علم سوى أخذه بالأثر

وقالوا : إنا وجدنا آباءنا على أمة و إنا على آثارهم مقتدون . مع أن الأحاديث جمعت وتحصيل العلوم سهل ، وأقوال من تقدم عرضت ، فأصبح الاجتهاد اليوم أيسر مما كان ، ولكنها النفوس صغرت ، والهمم اضمحلت . وربما كان اليمن بحكم مذهبه الزّيدى أكثر تسامحاً فى الاجتهاد ، حتى إن الإمام الشوكانى اليمنى ادعى لنفسه الاجتهاد المستقل ، وقاومه بعض أهل اليمن ، وقالوا إنه خرق الإجماع فتألّب الزيدية عليه . وقيل إنهم عادوا فسلموا له وأذعنوا لما رأوا من علمه .

منزلة علماء الدين

ومما يجب أن نشير إليه أن علماء الدين كانوا فى تلك العصور ، عصر المماليك وعصر العثمانيين ، موضع إجلال واحترام من الشعب ، لأنهم كانوا واسطة بين الشعب والسلاطين حتى كان العلماء وخاصة الفقهاء كأنهم ملوك غير متوجين ، نضرب لذلك مثلا العز بن عبد السلام فى مصر . فقد كان فقيها ممتازاً ، وكان

مسموع الكلمة ، ورعاتقيا شجاعا قويا ، سليط اللسان ، لقب سلطان العلماء ، وقد جاء إلى القاهرة من الشام فى عهد الملك الصالح نجم الدين أيوب فولاه خطابة جامع عمرو بن العاص فى مصر والقضاء . وله مواقف رائعة ، من ذلك أنه طلع إلى القلعة فى يوم عيد فشاهد العسكر مصطفين وشاهد السلطان وما فيه من الأبهة وقد خرج على قومه فى زينته على عادة سلاطين مصر ، وأخذت الأمراء تقبل الأرض بين يدى السلطان ، فالتفت الشيخ العز إلى السلطان وناداه : يا أيوب ما حجتك عند الله إذا قال لك : ألم أبوئ لك ملك مصر ، ثم تبيح الخمور ؟ فقال السلطان : هل جرى هذا ؟ فقال نعم . الحانة الفلانية تباع فيها الخمور وغيرها من المنكرات ، وأنت تتقلب فى نعمة هذه المملكة ، يناديه كذلك بأعلى صوته والعساكر واقفون ، فقال : يا سيدى هذا ما عملته أنا ، إنما كان من أبى . ورسم السلطان بإبطال تلك الحانات[1] . وقد سئل فى ذلك فقال : إنى رأيته فى تلك العظمة فرأيت أن أهينه لئلا تكبر عليه نفسه فتؤذيه . وله مواقف كثيرة من هذا القبيل ، حتى أنه لما مات قال السلطان : إنى لم أشعر بلذة الملك إلا لما مات العزّ .

ومثل ذلك مواقف لابن دقيق العيد والنووى ، فهؤلاء كانت شهرتهم فى قولهم الحق وتمسكهم به وعدم خشيتهم من الملوك اعتماداً على تعلق الشعب بهم ، إنما كانوا فى الفقه مجتهدى مذهب أو مذهبيين لا مجتهدين مطلقين . ولما تقدم الزمن أصبحنا لا نرى مجتهدا مطلقا ، ولا مجتهد مذهب ، وكل همهم الأخذ من الكتب وترجيح ما رجحوه . ومما أصيب به الفقه اتجاه العلماء إلى المختصرات ، فكل عالم يرى أن يختصر ما قبله . ومن الغريب أنّ عالما يأتى فيختصر ، ثم يأتى

---

(١) انظر طبقات الشافعية .

عالم آخر فيشرح ما اختصره ، حتى تكون لنا من ذلك ما هو أطول من المطولات .

ولم نكسب من ذلك إلا المجهود الضائع . وكل يوم يمر يزداد الحال سوءًا وركودا .

يقول ابن خلدون : « ذهب كثير من المتأخرين إلى اختصار الطرق والأنحاء فى العلوم ، يولعون بها . . وحشوا القليل منها بالمعانى الكثيرة ، وصار ذلك مخلاً بالبلاغة ، وعَسِرا على الفهم ، وربما عمدوا إلى الكتب الأمهات المطولة فى الفنون فاختصروها تقريبا للحفظ ، كما فعل ابن الحاجب فى الفقه ، وابن مالك فى النحو . وهو فساد فى التعليم وفيه إخلال بالتحصيل ، وذلك لأنَّ فيه تخليطا على المبتدئ ، بإلقاء الغايات من العلم عليه وهو لم يستعد لقبولها بعد . ثم فيه مع ذلك شغل كبير على المتعلم بتتبع ألفاظ الاختصار العويصة للفهم بتزاحم المعانى عليها ، وصعوبة استخراج المسائل من بينها ، لأن ألفاظ المختصرات صعبة عويصة ، ينقطع فى فهمها حظ صالح من الوقت . ثم بعد ذلك فالملكة الحاصلة من التعليم على تلك المختصرات ، ملكة قاصرة عن الملكات التى تحصل من الموضوعات البسيطة .

رابعاً — التاريخ

الحق أن المتأخرين لم يهملوا التاريخ ، بل أتموا السلسلة التى بدأها أسلافهم حتى لم يخل عصر من العصور من مؤرخين يؤرخون حاضرهم و يربطونه بماضيهم . ونوّعوا التاريخ كما نوّعه من قبلهم من تراجم رجال إلى تاريخ مدن ، إلى تاريخ الدول خاصة ، إلى تاريخ عام .

فمن مؤرخى التراجم ابن خلكان ، وهو من أوائل المؤلفين فى هذه العصور ، ترجم فيه للمشهورين من رجال العلم والأدب والصناعة والمال غير الصحابة والخلفاء ، واجتهد فى تحرّى الحقائق بعين نافذة ، فى لغة سليمة بسيطة ، متوقّياً قدر الإمكان ألفاظ الفجور ، وقد احتوى نحو ٨٢٦ ترجمة ، وعنى أشد العناية بتحقيق سنة وفاة كل مترجم ، ومن أجل ذلك سمى كتابه « وفيات الأعيان » وربما ترك مشهوراً من مشاهير رجال العلم والأدب لأنه لم يتحقق من تاريخ وفاته . وربما كان كتابه على هذا النحو أول كتاب من نوعه . وقد مات ابن خلكان سنة ٦٨١ هـ ، وقد ذيّل هذا الكتاب ابن شاكر الكتبى المتوفى سنة ٧٦٤ . ترجم فيه لبعض من تركه ابن خلكان وزاد فيه من جاء بعده إلى عصره وسماه : « فوات الوفيات » .

وألف ابن طباطبا نزيل الموصل فى عهد فخر الدين عيسى كتاباً نسبه إليه وسماه « الفخرى » وقد عرض فيه لتاريخ الدولة الإسلامية من أول عهدها إلى آخر الدولة العباسية . وقد عنى فيه بالأسلوب ودقة التعبير وحسن السبك ، كما كانت له نظرات دقيقة فى شئون السياسة العامة ، وقواعد كلية يستشهد عليها بالأحداث الإسلامية الجزئية . وأتم ابن طباطبا تأليف كتابه فى الموصل سنة ٧٠١ هـ ، وقد كان شيعياً فلوّن تاريخه باللون الشيعى .

كما ألف أبو الفداء أمير حماة من قبل الملك الناصر كتابه الذى اعتمد فيه على تاريخ الطبرى وابن الأثير وزاد عليهما إلى عصره . ولذلك كانت مزيته فى تاريخ الفترة الأخيرة التى كانت بعد ابن الأثير . وكتابه « مختصر تاريخ البشر » مشهور ، وقد ولد سنة ٦٧٢ وتوفى سنة ٧٣٢ ﻫ .

واشتهر بالتراجم وخاصة تراجم المحدثين شمس الدين الذهبى ، وقد ولد فى دمشق ورحل إلى بلاد كثيرة يلقى علماءها و يؤرخ لهم و يعدّل بعضهم ، و يجرح بعضهم . وأشهر كتبه « طبقات الحفاظ » فى تراجم رجال الحديث ، وكتاب « تاريخ الإسلام » . كما كان من أكبر رجال التراجم خليل بن أيبك الصفدى وقد اشتهر بكتابه الواسع فى التراجم المسمى « الوافى بالوفيات » فى ست وعشرين جزءا .

ثم ابن كثير المتوفى ٧٧٤ ﻫ . وقد ألف كتابا كبيراً سماه « البداية والنهاية » بدأه ببدء الخليقة وانتهى إلى ٧٦٧ ﻫ . وكان من المؤرخين فى هذا العصر ابن الفرات المصرى المولود سنة ٧٣٥ ، وله كتاب كبير فى جملة أجزاء ، وأهمية كتابه فى أنه مرجع عظيم القيمة فى الحروب الصليبية وتوفى ابن الفرات سنة ٨٠٧ .

ثم ابن خلدون وقد أسس فى مقدمته أصول علم التاريخ ، ومكنته حياته ومناصبه الكبيرة وسفارته بين الملوك من الاطلاع على بواطن الأمور وربط الأحداث بعضها ببعض ، ومعرفة أسبابها ونتائجها . وقد استطاع من هذا كله أن يستنتج من الجزئيات كليات ونظريات ، يطبقها على الأحداث . وقد كتب هذا التاريخ سنة ٧٦٧ أولا ، ثم أخذ ينقحه طول حياته .

وجاء بعده تلميذه المقريزى ، أصله من بعلبك وتحول والده إلى القاهرة ، وقد كتب كتبا كثيرة فى التاريخ . ألف فى تاريخ الفسطاط وفى الدولة الفاطمية وفى المماليك ، وفى سيرة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما ألف فى مسائل خاصة كتاريخ

الأزمات الاقتصادية والأوبئة ونحو ذلك ، ومن أشهر كتبه خطط مصر المسمى « المواعظ والاعتبار » وهو واسع الاطلاع ، كثير النقل ، وأحيانا ينقل من غير عزو ، قليل النقد . ومع هذا ترك لنا ثروة من المعلومات قيمة ما كان يمكننا الوصول إليها لولاه . وقد استفاد كثيراً من نظرات أستاذه ابن خلدون .

وألف ابن عرب شاه الذى عاش من سنة ٧٩١ هـ إلى ٨٥٤ هـ كتابا فى تيمورلنك اسمه « عجائب المقدور فى أخبار تيمور » وهو دمشقى الأصل أخذ أسيراً فى غزو تيمورلنك للشام ، وأرسل إلى سمرقند ورحل من سمرقند إلى خوارزم وغيرها من البلاد ، فاستفاد من ذلك كله واستطاع أن يؤلف كتابه هذا فى أخبار تيمور ، كما ألف كتابا اسمه « فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء » وهو كتاب فى السياسة الرمزية ككتاب « كليلة ودمنة » كما يقول حاجى خليفة ، لأنه يتضمن حكايات على ألسنة الوحوش .

وألف أبو المحاسن ابن تغرى بردى المتوفى سنة ٨٧٤ هـ كتابه « النجوم الزاهرة فى أخبار مصر والقاهرة » مرتبا حسب السنين من فتح العرب لمصر إلى سنة ٨٥٧ هـ ، أى ١٤٥٣ م .

وكتب المقرى المتوفى ١٠٤١ هجرية كتابه « نفح الطيب فى ترجمة لسان الدين ابن الخطيب » وهو قسمان ، القسم الأول فى تاريخ الأندلس ورجالها ، والثانى فى ترجمة لسان الدين ابن الخطيب ومشايخه ومن يتصل به . وفى الكتاب معلومات قيمة عن الأندلس .

فنرى من هذا النشاط الكبير الذى نشطه المسلمون فى التأليف فى التاريخ على أنواع . وهناك كتب كثيرة غير التى ذكرناها قد ألفت فى التاريخ موجزة وموسعة . وقد أكثروا فيه للذته وسهولته نسبيا .

خامساً ـ التصوف

ربما كان التصوف هو الفرع الوحيد الذى نما بعد سقوط بغداد أكثر مما كان قبلها . ولعل السبب فى ذلك يرجع إلى أن التصوف لا يحتاج إلى عقل كبير ، وبحث كثير . بل هو بالقلب والشعور أعلق . ولذلك كانت دائرته أوسع ، ولأن الناس فقدوا الدنيا ، فتطلعوا إلى الآخرة ، ويئسوا من العدالة الاجتماعية فى الأرض فأملّوها فى السماء . ولم يجرءوا أن يثوروا فى وجوه الحكام يطالبونهم بتحقيق العدل ، فقنعوا بالسلامة وضعفت عقولهم عن تمييز الحق من الباطل ، وملأوها بالخرافات والأوهام . ولم تتجرد طبيعتهم من حب اللهو فأدخلوه فى التصوف فكان فيه الغناء والموسيقى والرقص وألعاب البهلوان . وعجزوا عن ربط المسببات بالأسباب فهرعوا إلى المتصوفة يمنحونهم البركة ويستقضون منهم حوائجهم ، ويقرعون بهم أبواب السماء ، فامتلأت البلاد بأرباب الطرق ومشايخ الصوفية ومدعى الولاية . وعلى الجملة فكان فى الحياة الصوفية ما يرضى النفوس ويطمئنها ويسليها .

ثم كان أن منحت البلاد متصوفين كباراً جمعوا بين القدرة التصوفية والملكة الأدبية ، فغذوا الناس بتصوفهم وشعرهم أمثال ابن عربى وابن الفارض فى اللغة العربية ، وجلال الدين الرومى فى اللغة الفارسية .

فكرة الإنسان الكامل

رأينا فى هذه العصور أنه يكثر الكلام فى الحقيقة المحمدية وتصويرها صورة غريبة حقاً وهى بعيدة جداً عن الصفة التى يصفه بها القرآن ، والتى يصفه بها

الصحابة ، وكبار التابعين ، فالقرآن يصف النبي بأنه بشر تجرى عليه كل صفات البشر ، فهو يعبس و يتولى أن جاءه الأعمى ، وهومخلوق تجرى عليه أحكام الموت ، إلى آخر الأوصاف . فجاء التصوف فغير هـذه الصورة ، فقالوا بأزلية الوجود المحمدى ، وقالوا إن أول شىء خلقه الله هو الروح المحمدى ، أو النور المحمدى الذي ظهر بصورة آدم وفى صورة الأنبياء بعد ذلك ، ثم استمر يظهر بعد ذلك فى على وأبنائه كما يقول الشيعة ، والصوفية يقولون : إن النور المحمدى هو الروح الإلهى الذى نفخ الله منه فى آدم . ويقولون : إن الحقيقة المحمدية هى مبدأ الحياة ومركزها فى العالم ، وهى بهذا المعنى روح كل شىء وحياته . وهى الواسطة بين الله وعباده ، والمنبع الذى يفيض منه على العارفين معرفتهم بالله الخ ... وسموا محمداً بهذا المعنى « الإنسان الـكامل[1] » وقد ألف فى ذلك عبد الـكريم الجيلى أو الجيلانى كتابا سماه « الإنسان الـكامل فى معرفة الأوائل والأواخر » قال فى مقدمته : « لما كان كمال الإنسان فى العلم بالله وفضله على جنسه بقدر ما اكتسب من نحواه ، ألفت كتابا باهر التحقيق ، ظاهر الإتقان والتدقيق . وقد كنت أسست الـكتاب على الـكشف الصريح ، وأيدت مسائله بالخبر الصحيح » ثم يقول إنه مزقه بعد ما كتبه ثم أمره الحق إبرازه ففعل ، إلى آخر ما قاله .

ومن كلامه يتبين أنَّ الإنسان الـكامل الذى هو روح محمد كائن فى الأنبياء من آدم إلى محمد وفى الأولياء والصالحين .

ويقول : « إن الإنسان الـكامل هذا هو القطب الذى تدور عليه أفلاك الوجود من أوله إلى آخره . وهو واحد منذ كان الوجود أبد الآبدين ، واسمه الأصلى محمد ، وكنيته أبو القاسم ، ووصفه عبد الله ، ولقبه شمس الدين ، وله فى كل زمان

(١) انظر نيكولسن (فى التصوف الإسلامى) الذى ترجمه الدكتور أبو العلا عفيفى .

اسم يليق به ويقول : « إن الإنسان الكامل مقابل لجميع الحقائق الوجودية فيقابل الحقائق العلوية بلطافته ، والسفلية بكثافته . وأول ما يبدو له فى الحقائق الخلفية هو العرش ويراه بقلبه ، ثم يقابل الكرسى فسدرة المنتهى . ثم يقابل العلم الأعلى بعقله ، واللوح المحفوظ بنفسه ، والعناصر بطبعه ، والهيولى بقابليته .

والإنسان الكامل نسخة من الله كما قال رسول الله : « خلق الله آدم على صورته » . والإنسان الكامل أيضاً مرآة الحق لأن الحق أوجب على نفسه أن لا ترى أسماؤه وصفاته إلا فى الإنسان الكامل . وهو معنى قوله تعالى : « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها وحملها الإنسان الخ ... » . وكما خلق الله على صورته خلقت الدنيا على صورة الإنسان ، وكان الله قبل أن يخلق الخلق فى نفسه ، وكانت الموجودات مستهلكة فيه ولم يكن له ظهور فى شىء من الوجود . وفى ذلك يقول فى الحديث القدسى : « كنت كنزاً مخفياً ، فأحببت أن أعرف فبى عرفونى » .

ويقول : « لما أراد الله إيجاد هذا العالم نظر إلى حقيقة الحقائق ، وإن شئت قلت إلى الياقوتة البيضاء التى هى أصل الوجود بنظر الكمال ، فذابت وذهبت ماء ، ثم نظر إليها بنظر العظمة فتموجت كما تموج الأرياح فى البحار . فانفهقت كثائفها بعضها فى بعض ، كما ينفهق الزبد من البحر ، فخلق الله من ذلك المنفهق سبع طباق الأرض ، ثم خلق سكان كل طبقة من جنس أرضها ، ثم صعدت لطائف ذلك الماء كما يصعد البخار من البحار ففتقها الله سبع سموات وخلق ملائكة كل سماء من جنسها ، ثم صيَّر الله ذلك الماء سبعة أبحر محيطة بالعالم . فهذا أصل الوجود جميعه »[1] .

---

(١) الإنسان الكامل ج ٢ ص ٥٨ — المطبعة الأزهرية سنة ١٣٢٨ .

فأسلوب الكتاب كما ترى عويص غامض لا يستطيع أن يفهمه الإنسان بعقله .

وللجيلانى هذا قصيدة تسمى « النوادر العينية فى البوادر الغيبية » ضمنها نظرية الإنسان الكامل فى خمسمائة وأربعة وثلاثين بيتاً منها :

تجلى حبيبى فى مرائى جماله ... ففى كل مرأى للحبيب طلائع

فلما تبدّى حسنه متنوعا ... تسمى بأسماء فهن مطالع

ومنها :

تجليت فى الأشياء حين خلقتها ... فهاهى ميطت عنك فيها البراقع

ومنها :

فلا تشك محجوبا برؤية حسنه ... من الذات أنت الذات أنت الجامع

فعينك شاهدها بمحتد أصلها ... فإن عليها للجمال لوامع الخ[1]

وقد لعبت نظرية الإنسان الكامل هذه والحقيقة المحمدية والروح المحمدية دوراً كبيراً فى التصوف .

ابن العربى وابن الفارض

أولهما : — محيي الدين محمد بن على ، يلقب أحيانا بالحاتمى ، ويكنى بابن العربى ، وأهل المشرق يكنونه ابن عربى للتفرقة بينه وبين أبى بكر بن العربى ، وأما فى الأندلس فيكنونه ابن العربى ، وقد ولد سنة ٥٦٠ فى مرسيه وتعلم أول تعلمه فى أشبيلية ثم ارتحل إلى المشرق حاجا ، ولم يعد بعدها إلى الأندلس . وأقام فى الحجاز مدة طويلة ثم دخل مصر ورحل إلى بغداد والموصل وبلاد الروم . وكان ذلك فى عهد الحروب الصليبية ، وأثر عنه أنه كان يحرض المسلمين على الجهاد .

---

(١) والقصيدة بأكملها فى المتحف البريطانى .

وقد ألف فى التصوف تآليف كثيرة من شعر ونثر ، من أشهرها « الفتوحات المكية » و « فصوص الحكم » و « ترجمان الأشواق » ولقب عند كثير من الناس بلقب « الشيخ الأكبر » وقد أودع فى كتابه « الفتوحات المكية » أكثر نظراته التصوفية وقسمه إلى ستة فصول ، أولها فى المعرفة وثانيها فى المعاملات ، وثالثها فى الأحوال ، ورابعها فى المنازل ، والخامس فى المغازلات وآخرها المقامات . وكان يقول : إن ما يكتبه يأتى إليه بطريق الوحى فى حالة الغيبوبة والمجاهدة .

ومن الغريب أنه كان على مذهب الظاهرية فى الفقه ، وكتاباته من أعمق الباطنية فى التصوف ، وقد قال : إن هذه الموجودات مكونة من صورة وروح . وعنده أن الصورة هى التى سماها أرسطو « مادة » والروح ما سماها أرسطو « صورة » . وأعلى هذه المقامات أو الصور هو الإنسان لما أودع فيه من القوى التى تتجلى فيها صفات الله وأسماؤه فهو كالمرآة تنعكس عنها حقيقة الله وذاته . وله أقوال كثيرة فى المواجيد والفناء .

ويروى عن ابن عربى أنه وقع يوما عن حماره فرضّت رجله ، فجاءوا ليعالجوه ، فقال : أمهلونى ، فأمهلوه يسيرا ، ثم أذن لهم فعالجوه ، فقيل له فى ذلك فقال : راجعت كتاب الله تعالى فوجدت خبر هذه الحادثة فى صورة الفاتحة . ومن ذلك ترى ما للصوفية من تصورات عجيبة وخيالات بعيدة . ومثل ذلك استخراج بعضهم من الفاتحة أيضاً أسماء سلاطين آل عثمان وأحوالهم ومدة سلطتهم إلى ما شاء الله تعالى من الزمان .

وأما ابن الفارض فهو عمر الملقب بشرف الدين وهو حموى الأصل ، ولد فى القاهرة سنة ٥٧٦ هـ (١١٨١ م) وتوفى سنة ٦٣٢هـ ولقب بسلطان العاشقين وكان ميالا إلى العزلة والزهد وتعود الذهاب كل يوم إلى جبل المقطم . وقد بلغ الغاية فى

قصائده التي جمعت فى ديوانه . وهو أشعر من محيي الدين وشعره كشعر عصره مملوء بالمحسنات البديعية والاستعارات والمجازات كما تعرض كثيراً للمصطلحات الصوفية من حب وهوى وشوق وسكر وصحو . ومن أشهر شعره التائية الكبرى وهى المسماة « نظم السلوك » وقد أودع فيها كل مبادئه الصوفية .

وقد عرف عنه أنه يهيم بالجمال حيثما وجده من جمال طبيعة إلى جمال أصوات ، ويصاب بالغيبوبة عند رؤيته ، فيتواجد ويغيب عن نفسه ويرقص ، يحب الخلوة والتقشف والبعد عن الناس والزهد فى حطام الدنيا .

وقد جمع شعره فى ديوان ، وقد شرح ديوانه كثير من المتصوفة ، فتأثروا بمحيطه وشرحوه شرحا صوفيا . وقد حلل الأستاذ نيكولسن تائيته الكبرى[1] فقال : « يتكلم ابن الفارض فى هذه القصيدة بلسان الصوفى الذى وصل إلى مقام الاتحاد ، ويخاطب فى أوائلها أحد أصحابه فيذكر عهده الأول بالحب الإلهى وما عاناه فيه من شدائد وعقبات ويشرح كيفية سعيه إلى تفريج الهم عن نفسه ببثّه ذلك الحب إلى المحبوب :

ولم أحك فى حبيك حالى تبرما ... بها لاضطرابٍ بل لتنفيس كربتى

ويحسن إظهار التجلد للعـــدا ... ويقبح غير العجز عند الأحبّة

ويمنعنى شكواى حسن تَصَبُّرى ... ولو أشك للأعداء ما بى لأشكت

وعقبى اصطبارى فى هواك حميدة ... عليكِ ولكن عنك غير حميدة

وما حلّ بى من محنة فهو منحة ... وقد سلمت من حلّ عَقْدِ عزيمتى

ثم يشير إلى الآيات القرآنية « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم

(١) انظر كتاب (فى التصوف الإسلامى) الذى عربه الدكتور أبو العلا عفيفى .

ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الخ . . . . » وهى الآية التى يسميها الصوفية آية العهد .

ويقول ابن الفارض : « إنه أخذ ذلك العهد قبل أن تتلبس نفسه بطينة جسده » ويقول : إن رؤيته المحبوب ليس إلا رؤيته لنفسه ، وحبه إياه ليس إلا حبه لنفسه ، وإن الحب الخالص ليس إلا الفناء فى المحبوب .

حليفُ غرامٍ أنتَ لكن بنفسه ··· وإبقاك وصْفاً منك بعضُ أدلّتى
فلم تهونى مالم تكن فىَّ فانياً ··· ولم تفنَ ما لم تُجتَلى فيك صورتى
هو الحب إن لم تقض لم تقض مأربا ··· من الحب فاختر ذاك أو خلِّ خُلّتى

وهو يصف الفناء بأنه الحال التى تتجرد فيها النفس عن رغباتها وميولها وبواعثها بحيث تتعطل إرادتها وتموت . فإذا ماتت الإرادة أصبحت النفس طوع الإرادة الإلٰهية .

كلانا مصلٍّ واحِدٌ ساجدٌ إلى ··· حقيقته بالجمع فى كل سجدة
وما كان لى صلّى سواى ولم تكن ··· صلاتى لغيرى فى أدا كل ركعة

ويقول : « إن أعلى درجات الصوفى الاتحاد مع الله حيث ينعدم الفرق بين الخالق والمخلوق وفى سكر الفناء يغيب الصوفى عن جميع صفاته وآثاره » الخ ...

وقد اتجه شراح التائية الكبرى إلى شرحها حسب نظرية ابن عربى فى وحدة الوجود .

ولابن الفارض قصائد أجمل من التائية الكبرى من حيث الفن ، مثل قصيدته اليائية الطويلة :

سائق الأظعان يطوى البيد طىّ ··· مُنْعِما عَرِّج على كثبان طَىْ

وتلطّفْ واجْر ذكرى عنـــدهُمْ عَلّهُمْ أنْ ينـظروا عطفاً إلىّ
قلْ تركتُ الصبَّ فيكم شَبَحاً ماله مما براه الشوق فىْ
خافياً عَن عائـــدٍ لاحَ كما لاح فى بُرْدَيْهِ بَعْدَ النَّشرْ طَىْ
كهلال الشـــك لولا أنه أنَّ عَيْنِى عَيْنَهُ لم تَتأَىْ الخ[1]...
وفى الديوان أبيات رائعة من الناحية الفنية .

* * *

و بعد : فهل كان ابن الفارض وابن عربى على مذهب واحد فى مذهب وحدة الوجود ، أى أن الله والعالم شىء واحد ؟ ذهب كثير إلى ذلك ومنهم بعض المستشرقين . ور بما استندوا إلى شيئين :

١ — ما حكاه المقريزى من أن ابن عر بى بعث إلى ابن الفارض يطلب منه أن يضع شرحا على التائية الـكبرى فقال له : إن كتابك الفتوحات الملـكية شرح لها .

٢ — أن كل الذين شرحوا التائية أغرقوها بنظر يات ابن عر بى فى وحدة الوجود . ولـكن يظهر أن بين ابن عر بى وابن الفارض فرقا كبيراً . فابن الفارض شاعر متصوف يسمو فى حبه إلى أن يفنى فى محبو به وهو الله . فلا يرى فى الوجود ولا نفسه شيئاً غير الله . وكما قال الأستاذ نللينو « لم يكن ابن الفارض فيلسوفا من فلاسفة وحدة الوجود ، بل كان شاعراً صوفيا ليست قصيدته التائية الـكبرى إلا تعبيراً عن ذوقه الشخصى الذى كان سبيله إلى اتّحاد بالذات الإلهية تارة ،

---

(١) أن فعل ماض من الأنين والعين الأولى هى المبصرة والعين الثانية هى الذات أى رأيته كهلال الشك لخفائه .

و بالحقيقة المحمدية تارة أخرى . أما وحدة الوجود عند ابن عربى فوحدة فلسفية ، مزج فيها الدين بالفلسفة مزجا غريبا ليس له نظير » .

وفرق كبير بين شاعرية ابن الفارض و إحساسه بفنائه فى محبوبه واتحاده به و بين فلسفة ابن عربى ومذهبه فى أن الله والعالم شىء واحد . فمن الخطأ دعوى أنَّ كليهما يقول بوحدة الوجود . والفرق دقيق بين حلول الحلاّج والحب الإلهى عند ابن الفارض ، ووحدة الوجود عند ابن عربى .

* * *

على كل حال ملئ جو مصر والشام وغيرهما بالكلام الصوفى والشعر الصوفى . وطلع عليهم شىء جديد لم يكن فى الحسبان ، فوقفوا أمامه حيارى : أيصدقون أم يكذبون . وهذا التصوف الذى لابن عربى وابن الفارض يحتاج إلى نوع من المزاج الخاص . فمن لم يكن له هـذا المزاج ، لم يفهمه ولم يتذوقه ، بل وربما استنكره . وكذلك كان : مؤيدون كل التأييد ومعارضون كل المعارضة . وكانت إذ ذاك معركة حامية بين المؤيدين والمعارضين كالمعركة التى كانت فى عهد الحلاج[1] . وكان زعيم المعارضين ابن تيمية . فقد رزقه الله بيانا وافيا ، و برهانا قويا ، ورأى أنَّ هؤلاء الصوفية أتوا فى الدين بشىء جديد ليس من جنس كلام الله ولا رسوله ولا الصحابة ، وأنهم قالوا بالاتحاد على أشكال مختلفة ، فهاجمهم هجوما عنيفا وألف فى ذلك رسائل . فأنكر عليهم الرقص والسماع ، ونقدهم كلهم من ابن الفارض وابن عربى وابن سبعين والحلاج وعفيف الدين التلمسانى

(١) انظرها فى كتابنا ظهر الإسلام الجزء الثانى .

وسلط عليهم لسانه وقلمه ، ورماهم بالكفر والضلال ، وقال إن ما أتوا به أعظم مما قالته اليهود والنصارى .

ومن أقواله فى ذلك : « إن الاتحاد بين الخالق والمخلوق ممتنع ، لأن الخالق والمخلوق إن اتحدا ، فإما أن يكونا بعد الاتحاد اثنين كما كانا قبله ، وهذا تعدد وليس باتحاد ، وإما أن يستحيلا إلى شىء ثالث ، كما يتحد الماء واللبن والنار والحديد ونحو ذلك من تشبيهات الفرق النصرانية ، فيلزم عن ذلك أن يكون الخالق قد استحال وتبدلت حقيقته كسائر ما يتحد مع غيره ، وهذا ممتنع على الله ، إذ الاستحالة تقتضى عدم ما كان موجودا ، والله تعالى واجب الوجود بذاته وصفاته اللازمة له التى هى كمال ، والتى إذا عدمت كان ذلك نقصا ، يتنزه الله عنه » إلى آخر ما ذكره من البراهين ، ومناقشتهم بالعقل ، مع أن أقوالهم ناشئة من الشعور كمناقشة العقل للحب . كالذى يقول :

بنى الحبّ على الجـــور فلو أنصف المحبوب فيـــه لسمج

ليس يستحسن فى شرح الهوى عاشق يحسن تأليف الحجج

وألف ملاّ على القارى رسالة فى وحدة الوجود رمى فيها ابن عربى بالزندقة ، وقال إنه كفر بأربعة وعشرين دعوة منها قوله : إنّ الإنسان من الله بمثابة البؤبؤ من العين ، وعلى هذا يكون الله مفتقرا لرؤية خلقه ورؤية نفسه إلى الإنسان وكذلك قوله . نحن الفرق التى نصف بها الله ، فإذا نحن تأملنا فى حقيقته كنا فى الحقيقة نتأمل فى حقيقتنا ، والله حين ينظر فى شؤوننا يكون ناظرا فى شئونه ، وتاليا قوله : إنَّ الله هو عين المخلوقات ، ثم قوله : إن كل الاعتقادات الدينية صحيحة لأن كل طائفة فيها شىء من طبيعة الله « أينما تولوا فثَمَّ وجه الله » وقوله : « إنَّ

الأولياء خير من الأنبياء ، والولاية هى العنصر الدائم السامى فى النبوة . وادعى محيي الدين أنه خاتم الأولياء ، كما أن محمداً خاتم الأنبياء الخ . . .

ومن الطاعنين عليهم ابن حجر العسقلانى فقد قال حين توفى سنة ٨٥٢ فى ابن الفارض : « ينعق بالاتحاد الصريح فى شعره ، وهذه بلية عظيمة ، فتدبر نظمه ولا تستعجل ... وما ثم إلا زى الصوفية و إشارات مجملة ، وتحت الزى والعباءة فلسفة وأفاعى ، فقد نصحتك والله الموعد » .

وكذلك من الطاعنين عليهم البقاعى المتوفى سنة ٨٥٨ وقد ألف كتابين فى تكفير ابن عربى وابن الفارض وهما « تنبيه الغبى على تكفير ابن عربى » و « تحذير العباد من أهل العناد ببدعة الاتحاد » وكان شديد الطعن عليهما .

وممن طعن عليهما أيضاً عضد الدين الإيجى صاحب المواقف ، فقال عن ابن عربى : «إنه كان كذابا حشاشاً كأوغاد الأو باش . ولقد تبعه فى ذلك ابن الفارض . ولا يخفى على الأقل أن شعره من الخيالات المتناقضة الحاصلة من الحشيش ، إذ عندهم أن وجود الكائنات هو الله تعالى . فإذاً الكل هو الله تعالى . فلا نبى ولا رسول ولا مرسل ، ولا مرسل إليه » .

و يروى المقبلى صاحب العلم الشامخ أن ابن خلدون يقول بإيمان المتصوفة الأولين ، و بتكفير الصوفية المتأخر ين .. و يرى إحراق كتبهم لما فيها من الضلال.

هؤلاء أهم الطاعنين عليهم . أما المؤيدون لهم فكثيرون . وكان هجوم الفقهاء سبباً فى قتل صلاح الدين السهروردى كما قتل الحلاج . ولكن نجا ابن عربى وابن الفارض من القتل . فيظهر أن السياسة كانت تستغل أقوال الفقهاء لقتل خصومهم ، فإذا رضيت السياسة عنهم حمتهم ولم تقتلهم .

الشـــعرانى

وزاد بعد ذلك سيل التصوف فى العالم الإسلامى ، ومن أشهر من جاء بعدهما الشعرانى ، ولـكنه كان صوفياً مدروشاً . وقد اختصر « الفتوحات المـكية » لابن عربى فى كتاب سماه «لوافح الأنوار القدسية المنتقاة من الفتوحات المـكية» ، ثم اختصر هذا المختصر وسماه « الـكبريت الأحمر من علوم الشيخ الأكبر » وكان أيضاً لوجوده فى مصر فى ذلك العصر ضجة كبيرة من مؤيدين له وناقمين عليه ، ولأنه حمل على العلماء حملة شديدة . ولـكى ينجو بنفسه أمر بإطاعة الولاة والقوانين مع أنه كان يؤمن بظلم الحـكام ويشعر بالظلم الذى يقع على الفلاح فيقول : « كان الفلاح عند موته يترك شيئاً من الدراهم لأولاده ، ولـكنه الآن لا يستطيع إلى ذلك سبيلا ، بل هو يبيع الحاصلات والبقرة والثوب لتسديد ما عليه من الضرائب ، وإذا لم يسدد ضرب وسجن» ويقول : « إنا لا نقتنى الأراضى ولا الممتلـكات ، لأن ما يدفع عليها من الضرائب يفوق ثمنها وما تنتجه » . ومن هجمات العلماء عليه كان لا يخرج كتابا إلا إذا رضى عنه العلماء وأقروه ، كما حكى ذلك عن نفسه . وبذل مجهوداً كبيراً فى التوفيق بين عقائد أهل الـكشف وعقائد أهل الفكر ، ودافع عن ابن عربى كثيراً وأوّل أقواله التى ظاهرها الـكفر والإلحاد .

* * *

وانقلبت بعد ذلك الصوفية إلى دروشة . ومعنى درويش فى الفارسية : الفقير المسكين . وانحط التصوف كثيراً حتى قال بعضهم : كان التصوف حالا فصار مالا ، وكان احتسابا فصار اكتسابا ، وكان استتاراً ، فصار اشتهاراً ، وكان اتباعا للسلف فصار ابتياعا للعلف ، وكان عمارة للصدور فصار عمارة للغرور ، وكان تعففاً

فصار تكلفاً ، وكان تخلقاً فصار تملقاً ، وكان سقما ، فصار لقما ، وكان قناعة ، فصار مجاعة ، وكان تجريداً ، فصار ثريداً » وكثرت التكايا والزوايا والطرق وفيها كان الشيوخ لهم سلطة كبيرة على المريدين يأمرونهم أن يكونوا كالريشة فى مهب الريح . وكان لكل نوع من هذه الطوائف أذكار وأوراد ، وامتزجت هذه الطرق بالشعوذة والاحتيال .

جلال الدين الرومى

وهنا لا بد من كلمة عن مولانا جلال الدين الرومى فإنه ذو أثر عظيم فى التصوف الفارسى ، وهو صاحب كتاب « المثنوى » الذى قال فيه الصوفى الكبير عبد الرحمن الجامى : « إن كنت عالما بالمعرفة فدع اللفظ واقصد المعنى . إن المثنوى هو القرآن فى اللسان الفارسى ، وماذا أقول فى وصف هذا العظيم ؟ لم يكن نبياً ، ولكنه أوتى الكتاب » . وقد عنى المستشرقون بجلال الدين وشعره ونقلوه إلى لغاتهم .

وقد كان جلال الدين معلماً دينياً ، ولكنه قابل الصوفى الكبير تبريزى فأثر فيه وقطعه للتصوف .

وللمثنوى منظومة صوفية فلسفية عظيمة تحوى ٢٥٧٠٠ بيت . وهو قوىّ البيان ، فياض الخيال ، بارع التصوير . حتى لينظم القصة القصيرة فى مئات الأبيات . وقلبه مفعم بالعشق الإلهى مستغرق فيه كقوله : « أفكر فى القافية ، وحبيبى يقول : لا تفكر إلا فى رؤيتى ، ما الحق فتفكر فيه . إنه الشوق فى جدار البستان . إنى أمحق القول والحق والصوت لأناجيك بغير هذه الثلاث » .

ويقص أحياناً قصة ويجعلها مدار كلامه وتصوفه ، كقصة الأسد والوحوش ، وهى من قصص كليلة ودمنة ، ولكن جلال الدين الرومى أخذها فتصرف فيها

وتوسل بها فى عرض آرائه . كقوله : « رأى الأسد نفسه فى عتوّ ، فلم يعرف نفسه من العدو ، حسب العدو صورة نفسه ، فسلّ سيفه على رأسه ، كم من ظلم تراه فى غيرك ، و إنما فيه صورة طبعك . أنت لا ترى فى نفسك هذا السوء و إلا رأيت نفسك المشنوء . إنما تحمل على نفسك أيها الغافل ، كما حمل على نفسه الأسد الجاهل . فإذا بلغت قعر طبعك علمت هذه الدناءة فى خلقك» و يقول : «المؤمن مرآة أخيه ، خبر عن الرسول نرو يه ، وضعت على عينك زجاجة زرقاء فازرقت أمامك الأرض والسماء . إن يكن أزرق زجاج كوّتك ، أزرق ضوء الشمس فى نظرك . لا تعم فهذا اللون منك بدأ ، فالح نفسك إذاً ولا تلح أحداً ... الخ[1] » .

ومن عباراته : « يامن هو عزاء النفس فى ساعة الغم والحزن ، يا من فيه غناء الروح عند مرارة الفقر والعوز ، يا من نحوه أولّى وجهى فى عبادتى لما يطوف بى منه من طائف لا يلحقه الخيال وغيبة العقل لو أنى حييت ملكا لا يبلى ، أو أن كنزاً خفياً فتح لى من كل مافى الوجود ، لسجدت لك روحى ، ووضعت وجهى فى الثرى وصحت قائلا : ليس لى مراد غير حبك ، هلم هلم إنك غير واجد صديقاً مثلى ، وأين بمثلى حبيب فى جميع الوجود ، هلم هلم ولا تقضى العمر فى حيرة فليس لمالك سوق غير ذاك ، كأنك واد مقفر ماحل وكأننى مطر ، بل كأنك بلد الخراب وكأننى بناء ، لولا عبادة الإنسان إياى ما أحس للسعادة طعما فإن العبادة مطلع شمس السعادة[2] » .

(١) منقولة من فصول من المثنوى لجلال الدين الرومى ترجمها وقدم لها الدكتور عبد الوهاب عزام .

(٢) من اختيار الأستاذ نيكولسن ومن تعريب الدكتور أبو العلا عفيفى .

خاتمـــة

استعرضنا في هذا الكتاب استعراضا بسيطا المعتزلة في عصرهم الثاني، وما تعرضوا له من مسائل وكيف زال سلطانهم بعد أن حكموا البلاد سنين، وكيف أن الأشاعرة اكتسحوهم. ورأينا أن الأشاعرة أنفسهم كانوا متأثرين لدرجة كبيرة بالمسائل التي أثارها المعتزلة. وأن الحرب بين الأشاعرة والمعتزلة بدأت عنيفة، ثم كان النصر للأشاعرة، وظلّ كذلك إلى اليوم.

وربما كان من ملاحظاتنا أنّ أكثر البحوث من المعتزلة والأشاعرة كان فيما وراء الطبيعة. والبحث فيما وراء الطبيعة قلّ أن يسلم إلى نتيجة.. فكيف ندرك أن صفات الله غير ذاته، أو هي ذاته، ونحن لا ندرك ذلك من أنفسنا التي بين جنوبنا، وكيف ندرك الفروق الدقيقة بين علم الله وقدرته وإرادته؟ فهذه كلها مسائل بحثت عند أرسطو وقبل أرسطو، ثم بحثت بعد ذلك في الإسلام والنصرانية واليهودية، وهي هي لم تتقدم كثيراً. من أجل ذلك ثار الغزالي وفخر الدين الرازي على علم الكلام وطلبوا تجنيبه العوام.

ثم رأينا تعاليم الشيعة، وكيف دافعوا عنها بقوة، وكيف أنّ كثيراً منهم ضحّوا بأنفسهم في سبيلها، وكانوا يخرجون على العباسيين فيقتلون أو يسجنون، وكيف أن التشيع تطور، فبدأ بأحقية عليّ في الخلافة هو وأولاده، ثم بدأ على يد جعفر الصادق يأخذ شكل تقديس الأئمة، ثم عرضت فكرة الاختفاء والغيبة وتبعها فكرة المهدي المنتظر، وما كان لذلك من آثار كبيرة في تاريخ المسلمين.

وأخيراً عرضنا للصوفية وهي منحى جديد غير منحى المتكلمين. فإذا كان اعتماد المتكلمين على المنطق والعقل فاعتماد المتصوفة على الذوق والقلب. وإذا

كانت نتيجة الاعتماد على المنطق والعقل هو الإيمان بالبرهان المنطقى فالاعتماد على الذوق والقلب نتيجته الكشف .

وقد كانت كل هذه الحركات قوية عنيفة تتدافع ولا تتهادن ، وتتقاتل ولا تتسالم ، فمؤرخو الإسلام لا يقتصرون على تسجيل الوقائع الحربية ، وإنما يضيفون إليها الوقائع الاعتقادية والطائفية . وإذا نحن صفينا الحساب كما يفعل التجار عند انتهاء مرحلة كبيرة من مراحل تجارتهم ليعرفوا ماذا كسبوا وماذا خسروا ، رأينا أننا كسبنا حركة العقول ، وتمرينها على البحث وكسبنا المران على الجدل كما كسبنا من وراء هذا الجدل وضوح المسائل المتجادل فيها ، بعد أن تناولها كل من جهته ، وكسبنا تربية كثير من العلماء فى هذه الأجواء من النشاط . ولكننا خسرنا الحب والألفة بما ذاع من الإحن والبغضاء بين الطوائف المختلفة حتى بلغت حد القتل الكثير ، وخسرنا قوى كانت تنفع لو تجمعت فلما تفرقت فنيت .

وهذه القوى لو كانت وجهت وجهة خَيْرٍ ، لأنتجت نتاجا باهرا ، فلما وجهت وجهة شر ضاعت ، وأظن أن ما خسرناه أكثر مما كسبناه . وليس أدل على ذلك من حال المسلمين اليوم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ملحق

المرجئة والخوارج

أوضحنا فى الجزء الثالث من ضحى الإسلام مذهب المرجئة والخوارج ولم يكن لهما كبير خطر بعد عصرهما الأول ؛ إلا أنَّ ابن حزم عقد فى كتابه « الفِصَل فى الملل والنحل » فصلا سماه « شنع المرجئة » والذى يقرؤه يرى أنَّ المرجئة من أوسع المذاهب صدراً ، لا تسرع إلى التكفير ، عكس الخوارج الذين يكفّرون كل من عداهم .

يقول ابن حزم : إن المرجئة طائفتان : طائفة تقول : إنَّ الإيمان قول باللسان ، وأخرى تقول : بأن الإيمان عمل قلبى ، وإن أعلن الكفر بلسانه ، وإن عبد الأوثان ، وإن لزم اليهودية والنصرانية ، فهو مؤمن كامل الإيمان عند الله ، يستحق دخول الجنة ... وقالت طائفة منهم : من آمن بالله وكفر بالنبى صلى الله عليه وسلم فهو مؤمن كافر معا ، ليس مؤمنا على الإطلاق ، ولا كافرا على الإطلاق . وقال مقاتل بن سليمان ، وكان من كبار المرجئة : لا يضر مع الإيمان سيئة جلت أو قلت ، ولا ينفع مع الشرك حسنة أصلا . ومن أجل توسعهم فى الإيمان قالوا : إن الإمام إذا أخطأ لم تزل إمامته ، وتجب طاعته ؛ وتجوز الصلاة وراءه . ولم نعلم فى التاريخ قيام حكومة كان شعارها الإرجاء .

أما الخِوارج فقد مرت تعاليمم من قبل ، ومر الكلام على بعض حروبهم

وآدابهم[١] ونقول هنا : إن الإباضيين منهم ، وقد كانت لهم حكومة فى شمال أفريقيا . وقد قامت ثورتهم فى حكم مروان بن محمد بزعامة عبد الله بن يحيى طالب الحق وأبى حمزة . وقد خضعت أيضاً حضرموت لسلطان الخوارج . وقد شبت ثورة فى عمان فقمعها حازم بن خزيمة . وعلى الجملة فقد حكمت عمان وجزء من شمال إفريقيا بالأباضية . ولها مذاهب فكرية فى العقائد والشرائع تخالف تعاليم الشيعة والسنة . وقد اختلفوا أيضاً فيما بينهم ، وخاصة فى شمال إفريقيا إلى فرق . ولقد حكمت أسرة أباضية تنتسب إلى رستمية فى تاهرت أكثر من مائة وثلاثين عاما ، إلى أن أزالتهم الدولة الفاطمية . ولما سقطت تاهرت فى أيدى الفاطميين تفرق شمل الإباضيين فى صحراء تونس والجزائر وفى جربا ، ولا يزالون فيها إلى اليوم .

ولهم كتب فى الفقه والحديث على مذهبهم . ويعتقدون أنهم وحدهم الفرقة الناجية . وليس بضرورى أن يكون الإمام من قريش ، بل يكفى أن يكون صالحا ورعا ، وأن يحكم طبقاً للقرآن والسنة . ولن يرى الله فى الجنة . والثواب والعقاب فى الآخرة أبديان . والله يغفر الصغائر ، أما الكبائر فلا تمحوها إلا التوبة .

وقد اشتهر إباضيُّو الجزائر بالمحافظة على الفضائل الخليقة . وهم لا يختلطون بأهل السنة كثيراً ؛ وإنما يختلط بهم بعضهم مع بعض[٢] .

وعلى الجملة فلم يكن لهم خطر كبير فى التاريخ بعد العصر العباسى الثانى .

---

(١) انظر الجزء الثالث من ضحى الإسلام .
(٢) انظر دائرة المعاوف الإسلامية الجزء الأول .

المراجع

تفسير الكشاف للزمخشرى . وحاشية ابن المنير عليه .
طبقات الشافعية للسبكى .
الطوالع والمطالع .
عقيدة أهل السنة للغزالى .
تأسيس التقديس للفخر الرازى .
تاريخ الجهمية والمعتزلة للقاسمى .
مقالات الإسلاميين للأشعرى « طبع استانبول » .
المواقف للإيجى .
الملل والنحل للشهرستانى .
الفصل فى الملل والنحل لابن حزم .
شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .
الانتصار للخياط .
دائرة المعارف الإسلامية فى مواضع متفرقة .
العلم الشامخ فى إيثار الحق على المشايخ « طبعة المنار »
مقامات بديع الزمان الهمذانى .
عقيدة الشيعة تأليف دونلدسن .
فجر الإسلام وضحاه .
من تاريخ الحركات الفكرية فى الإسلام تأليف بندلى جوزى .

ـ الفرق لأبى منصور البغدادى .

ـ الألوسى .

ـسالة القشيرية .

حلية الأولياء .

موسوعات العلوم العربية لأحمد زكى « باشا » .

تاريخ الآداب الأندلسية .

تاريخ العرب المطول لفيليب حتى .